سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض

٨٣

فقه الأدعية والأذكار

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

أسهم في طبعه بعض المحسنين جزاهم الله خيرا

منقحة مزيدة

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع بالرياض

مَحَبَّةُ اللَّهِ وَذِكْرُهُ جَنَّةُ الدُّنْيَا

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّهُ لَا نَعِيمَ لَهُ، وَلَا لَذَّةَ، وَلَا ابْتِهَاجَ وَلَا كَمَالَ، إِلَّا بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالطُّمَأْنِينَةِ بِذِكْرِهِ، وَالْفَرَحِ وَالِابْتِهَاجِ بِقُرْبِهِ، وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ فَهَذِهِ جَنَّتُهُ الْعَاجِلَةُ، كَمَا أَنَّهُ لَا نَعِيمَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَلَا فَوْزَ إِلَّا بِجِوَارِهِ فِي دَارِ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ الْآجِلَةِ فَلَهُ جَنَّتَانِ لَا يَدْخُلُ الثَّانِيَةَ مِنْهُمَا إِنْ لَمْ يَدْخُلِ الْأُولَى؛ وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - يَقُولُ: «إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا، لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ»». مدارج السالكين (١/٤٥٢)

ح مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البدر، عبد الرزاق بن عبد المحسن

فقه الأدعية والأذكار. /عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر.-

الرياض، ١٤٣١هـ

٩٥٢ص؛ ١٧×٢٤سم. - (سلسلة منشورات مكتبة دار المنهاج؛ ٨٣)

ردمك: ٨ - ٢٤ - ٨٠٣٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الأدعية والأوراد أ. العنوان ب. السلسلة

ديوي ٢١٢,٩٣ ١٤٣١/٨٩٣١

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ

مكتبة دار المنهاج

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية . الرياض

المركز الرئيسي - طريق الملك فهد - شمال الجوازات

هاتف ٤٠٦٥٥٥٣ - فاكس ٤٠٨٣٦٩٨ - ص ب: ٥١٩٢٩ - الرياض ١١٥٥٣

الفروع - طريق خالد بن الوليد (إنكاس سابقًا) ت: ٢٣٢٢٠٩٥

الدائري الشرقي - مخرج ١٥ - جنوب أسواق المجد - ت: ٤٤٥٦٢٢٩

مكة المكرمة - الجميزة - الطريق النازل للحرم - ت ٠٢/٥٧٦١٣٧٧

المدينة النبوية - أمام الجامعة الإسلامية من جهة الجنوب - ت: ٠٤/٨٤٦٧٩٩٩

حساب الدار في موقع تويتر: Alminhajj@

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدِّمة هذه الطبعة

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، أحمَدُهُ سبحانَه حمدَ الشاكِرين، وأُثْنِي عليه ثناءَ الذاكِرين، لا أُحْصِي ثناءً عليه، هو كما أَثْنَى على نَفْسِه، وأشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأشهَدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه، صلَّى اللهُ وسلَّم عليه وعلى آلِه وصَحْبِهِ أجمَعِين، **وبعدُ:**

فهذه طبعةٌ جديدةٌ لكتابي **«فِقْه الأَدْعِيَةِ والأَذْكَار»**، مضبوطةٌ بالشَّكْلِ مُنَقَّحَةٌ مُصَحَّحَةٌ، **وكان قد طُبِعَ سابِقًا في أربعةِ أجزاءٍ**؛ تحدَّثْتُ في الأَوَّلِ منها عن الذِّكْرِ: فضائِلِه وأنواعِه، وفي الثاني عن الدُّعَاءِ: مَنْزِلَتِه وآدابِه، وفي الثالِثِ عن عَمَلِ اليومِ واللَّيْلَةِ، وفي الرابعِ عن جوامِعِ الأدعيةِ في الكتابِ والسُّنَّة.

وقد لَقِيَ الكتابُ ـ بمَنِّ اللهِ وفَضْلِهِ ـ قَبُولًا واسِعًا؛ فطُبِعَ طبعاتٍ عديدةً في الداخِلِ والخارِجِ، وقُرِئَ في العديدِ مِن المساجِدِ وفي كثيرٍ مِن الإذاعات، وتُرْجِمَ إلى عددٍ مِن اللُّغاتِ مقروءًا ومكتوبًا؛ ولله وَحْدَهُ الفَضْلُ والمِنَّةُ ظاهِرًا وباطِنًا، وله الحَمْدُ والشُّكْرُ أَوَّلًا وآخِرًا.

وفي هذه الطبعةِ إعادةٌ لصَفِّ الكتابِ مِن جديدٍ، وتَلَافٍ لما في الطبعاتِ السابقةِ مِن أخطاءٍ مطبَعِيَّةٍ، مع حُسْنِ إخراجٍ ودِقَّةِ مراجعةٍ وجَوْدَةِ تنسيقٍ وتنظيمٍ، وضَبْطٍ بالشَّكْلِ؛ حتى خَرَجَ بهذه الحُلَّةِ البَهِيَّةِ والمَظْهَرِ الجَمِيلِ، مجموعًا بأجزائِه الأربعةِ في مجلَّدٍ واحدٍ.

شاكِرًا كلَّ مَن بَذَلَ جُهْدًا، أو قَدَّم نُصْحًا، أو أَسْدَى فائدةً، أو نبَّهَ على خطإٍ، أو أعانَ في تصحيحٍ، واللهُ لا يَضِيعُ لديهِ أَجْرُ مَن أحسَنَ عملًا.

وأَخُصُّ بالشُّكْرِ **مكتبة دارِ المِنْهَاج للنشرِ والتوزيعِ بالرياضِ**؛ لِمَا بَذَلُوه مِن جُهدٍ في صَفِّ الكتابِ وتَنْضِيدِه وتنسيقِه وتصحيحِه، سائلًا الربَّ الكريمَ سبحانَه أنْ يتقبَّلَ مِنَّا أجمَعِين جُهْدَنا بقَبُولٍ حَسَنٍ، وأن يَهَبَ لنا مِن لَدُنْه رحمةً، وأنْ يصلِحَ لنا شأنَنَا كلَّه، وألَّا يَكِلَنا إلى أَنْفُسِنا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وأن يُعْظِمَ البَرَكَةَ والنفعَ بهذا الكتابِ، وأن يجعَلَه لوجهِهِ خالصًا ولعبادِه نافعًا، واللهُ وليُّ التوفيقِ والنَّجاح، وبيَدِهِ الصلاحُ والفَلَاح، لا شَريكَ له.

وصَلَّى اللهُ وسَلَّم على عَبْدِه ورسولِه نَبِيِّنا محمَّدٍ وآلِه وصَحْبِه.

وكَتَبَه
عبدُ الرَّزَّاقِ بنُ عَبْدِ المحسِنِ البَدْر
عفا اللهُ عنه وغَفَرَ له
في ١٣/٢/١٤٣٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء
مكتب المفتي العام

من عبدالعزيز بن عبدالله بن باز الى حضرة الابن الكريم صاحب الفضيلة الشيخ عبدالرزاق بن عبدالمحسن بن حمد العباد البدر وفقه الله لكل خير وزاده من العلم والإيمان آمين

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أمابعد :

فقد وصلني كتابكم الكريم وصلكم الله بحبل الهدى والتوفيق وما أشرتم إليه حول ما وفقكم الله له من القيام ببرنامج نافع للمسلمين وهو « فقه الأدعية والأذكار» كان معلومًا . وقد اطلعت على جمله من ذلك فسررت بها كثيرًا لما تضمنته من شرح الأدعية والأذكار ، وبيان فوائدها ومعانيها وما ورد فيها من الآيات والأحاديث وجملة ما اطلعت عليه خمسة وخمسون موضوعًا آخرها الكلام على كلمة:لاحول ولاقوة إلابالله . والذي أوصيكم به هو طبع ما تم من ذلك ونشره بين الناس ليعم النفع به مع مواصلة الجهود والعمل في هذا البرنامج المفيد النافع للمسلمين . ضاعف الله مثوبتكم وأمدكم بعونه وتوفيقه ونفع بجهودكم جميع المسلمين إنه سميع قريب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مفتي عام المملكة العربية السعودية

ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء

الرقم : ٨٨/خ التاريخ : ٢٤/٢/١٤١٩هـ المشفوعات : ١

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فلا ريب أنَّ ذِكْرَ الله ودعاءَهُ هو خيرُ ما أُمضِيتْ فيه الأوقات، وصُرفت فيه الأنفاس، وأفضلُ ما تقرَّب به العبدُ إلى ربه ﷻ، وهو مفتاحٌ لكلِّ خير يناله العبد في الدنيا والآخرة؛ «فمتى أعطى (اللهُ) العبدَ هذا المفتاحَ، فقد أراد أن يَفْتَحَ له، ومتى أضلَّه بقي بابُ الخيرِ مُرْتَجًا دونه»[1]؛ فيبقى مضطربَ القلب، مشوَّشَ الفؤاد، مشتَّتَ الفكر، كثيرَ القلق، ضعيفَ الهمة والإرادة. أما إذا كان محافظًا على ذكر الله ودعائه وكثرة اللَّجأ إليه، فإن قلبَهُ يكون مطمئنًّا بذكره لـربـه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وينال مِنَ الفوائد والفضائل والثمار الكريمة اليانعة في الدنيا والآخرة ما لا يحصيه إلا اللهُ تعالى.

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٢٧).

فَذِكْرُ إِلَـهِ العَرْشِ سِرًّا ومُعْلَنًا ... يُزِيلُ الشَّقَا والهَمَّ عَنْكَ ويَطْرُدُ
ويَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيَا وآجِلًا ... وإنْ يأْتِكَ الوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشَرِّدُ
فَقَدْ أَخْبَرَ المُخْتَارُ يَوْمًا لِصَحْبِهِ ... بِأَنَّ كَثِيرَ الذِّكْرِ في السَّبْقِ مُفرِدُ
وَوَصَّى مُعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلـٰهَهُ ... عَلَى ذِكْرِهِ والشُّكْرِ بالحُسْنِ يَعْبُدُ
وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قد أَتَى لِنَصِيحَةٍ ... وقد كَانَ في حَمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَدُ
بِأَنْ لَا يَزَلْ رَطْبًا لِسَانُكَ هَـٰذِهِ ... تُعِينُ عَلَى كُلِّ الأُمُورِ وتُسْعِدُ
وأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لِأَهْلِهِ ... بِجَنَّاتِ عَدْنٍ وَالْمَسَاكِنُ تُمْهَدُ
وأَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ عَبْدَهُ ... وَمَعْهُ عَلَى كُلِّ الأُمُورِ يُسَدِّدُ
وأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ يَبْقَى بِجَنَّةٍ ... وَيَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ حِينَ يُخَلَّدُوا
ولَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ ... طَرِيقٌ إلى حُبِّ الإِلَـٰهِ ومُرْشِدُ
وَيَنْهَى الفَتَى عَنْ غِيبَةٍ وَنَمِيمَةٍ ... وَعَنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلدِّيَانَةِ مُفْسِدُ
لَكَانَ لَنا حَظٌّ عَظِيمٌ وَرَغْبَةٌ ... بِكَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ نِعْمَ المُوَحَّدُ
ولَـٰكِنَّنَا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا ... كَمَا قَلَّ مِنَّا لِلإِلَـٰهِ التَّعَبُّدُ(١)

ولهذا؛ فإنَّ الأذكار الشرعية والأدعية النبوية لها منزلةٌ عالية في الدين، ومكانة خاصَّة في نفوس المسلمين، وكتبُ الأذكار على تنوُّعها تلقى في أوساطهم اهتمامًا بالغًا وعنايةً فائقة، ولا يمكن إحصاء ما كتبه أهل العلم قديمًا وحديثًا في الذكر والدعاء؛ لكثرة ما أُلِّف في ذلك؛ فمنهم الراوي الأخبارَ بالأسانيد، ومنهم الحاذفُ لها، ومنهم المطوِّلُ المُسْهِبُ، ومنهم المختصِرُ والمتوسِّطُ والمهذِّب، مع تفاوتٍ بينهم في جمع النصوص، وعرضِ الأدلة، وطرقِ تبويبها وتصنيفها، والاهتمامِ بشرحها وتوضيحها، إلى غير ذلك.

ناهيك أن أهل الأهواء لهم في هذا الباب مؤلَّفات كثيرة مشتملة على

(١) ناظم هذه الأبيات هو الشيخ العلامة عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضِمْنَ مَنْظُومَتِه النَّافِعَة المطبُوعَة مع شرحٍ لي عليها بعنوان (منهج الحق).

الشَّطَطِ والانحرافِ والبُعْدِ عن الحق؛ بسببِ عدمِ تقيُّدِ مؤلِّفيها بالسُّنَّة، وإعراضِهِمْ عن الالتزامِ بالمأثور.

هذا؛ وقد دَلَّ الكتابُ والسُّنَّة وآثار السلف على جنس المشروع والمستحبِّ في ذكر الله ودعائِهِ كسائرِ العبادات، وبيَّن النبيُّ ﷺ لأمته ما ينبغي لهم أن يقولوه مِنْ ذكرٍ ودعاءٍ في الصباحِ والمساء، وفي الصلواتِ وأعقابها، وعند دخول المسجد، وعند النوم، وعند الانتباه منه، وعند الفَزَعِ فيه، وعند تناولِ الطعامِ وبَعْدَهُ، وعند ركوب الدابَّة، وعند السفر، وعند رؤية ما يحبُّهُ المرء، وعند رؤية ما يكره، وعند المصيبة، وعند الهَمِّ والحَزَن، وغيرِ ذلك مِنْ أحوالِ المسلمِ وأوقاتِهِ المختلفة.

كما بيَّن ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مراتبَ الأذكار والأدعية، وأنواعَهَا، وشروطَهَا، وآدابَهَا، أتمَّ البيانِ وأكمَلَهُ، وترَكَ أمتَهُ في هذا الباب وفي جميع أبوابِ الدينِ على مَحَجَّةٍ بيضاءَ، وطريقٍ واضحةٍ، لا يزيغُ عنها بعدَهُ إلا هالك؛ و«لا ريبَ أن الأذكارَ والدعواتِ مِنْ أفضلِ العبادات، والعباداتُ مبناها على التوقيف والاتِّباع، لا على الهوى والابتداع، فالأدعيةُ والأذكارُ النبويةُ هي أفضلُ ما يَتحرَّاهُ المتحرِّي من الذكر والدعاء، وسالكُها على سبيلِ أمانٍ وسلامة، والفوائدُ والنتائجُ التي تحصُلُ لا يعبِّرُ عنه لسان، ولا يحيطُ به إنسان، وما سواها مِنَ الأذكارِ قد يكونُ محرَّمًا، وقد يكونُ مكروهًا، وقد يكونُ فيه شركٌ مما لا يهتدي إليه أكثرُ الناس، وهي جملةٌ يطول تفصيلها»[١].

فالمشروعُ للمسلمِ هو أن يذكرَ اللهَ بما شَرَع، وأن يدعوَهُ بالأدعيةِ المأثورة، وقد نهى اللهُ عن الاعتداءِ في الدعاء؛ فينبغي لنا أن نَتَّبِعَ فيه ما شَرَعَ وسَنَّ، كما أنه ينبغي لنا ذلك في غيره مِنَ العبادات، وأن لَا نَعْدِلَ عن ذلك إلى غيره؛ «ومِنْ أشدِّ الناس عيبًا مَن يتخذُ حِزْبًا ليس بمأثورٍ عن النبي ﷺ وإن كان حزبًا لبعض المشايخ، ويَدَعُ الأحزابَ النبوية التي كان يقولها سَيِّدُ بني

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٢/ ٥١٠، ٥١١).

آدم، وإمامُ الخلقِ، وحجةُ اللهِ على عباده»[١]؛ فالخيرُ كلُّه في اتباعِهِ، والاهتداءِ بهديه، وترسُّمِ خطاه، فهو القدوةُ والأسوةُ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد كان أكملَ الناسِ ذكرًا لله، وأحسنَهُمْ قيامًا بدعائِهِ سبحانه.

ولهذا فإنه إذا اجتمَعَ للعبد في هذا البابِ لزومُ الأذكارِ النبويَّةِ والأدعيةِ المأثورة، مع فَهْمِ معانيها ومدلولاتها، وحضورِ قلبٍ عند الذكر؛ فقد كَمُلَ نصيبُهُ مِنَ الخير.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأفضلُ الذكرِ وأنفعُهُ: ما واطَأَ القلبُ اللسانَ، وكان مِنَ الأذكارِ النبويَّة، وشهد الذاكرُ معانيَهُ ومقاصدَهُ»[٢].

ولَمَّا كان الأمرُ بهذه المنزلةِ وعلى هذا القدرِ مِنَ الأهميَّةِ نشَأَتْ عندي رغبةٌ في أنْ أُعِدَّ وأُقدِّمَ ـ مع الاعترافِ بالعجزِ وعدمِ الأهلية ـ دراسةً في الأذكار والأدعية النبوية في بيان فقهها، وما اشتَمَلَتْ عليه من معانٍ عظيمة، ومدلولاتٍ كبيرة، ودروسٍ جليلة، وعِبَرٍ مؤثِّرة، وحِكَمٍ بالغة، واجتهدتُّ في جمع كلام أهل العلم في ذلك، فاجتمَعَ عندي من ذلك ـ بحمد الله ـ فوائدُ كثيرةٌ، ولطائفُ عديدةٌ، وتنبيهاتٌ دقيقةٌ مِنْ كلام أهل العلم المحقِّقين، ولا سيما الإمامين الجليلين شيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلميذه ابن القيم، رحمهما الله، ثم نَظَمْتُ ما اجتمع عندي مِن ذلك وألَّفت بينه، وجعلتُهُ بعنوان:

فِقْهُ الأَدْعِيَةِ وَالأَذْكَارِ

وهو في الأصلِ حَلقاتٌ إذاعيَّةٌ قدِّمَتْ عَبْرَ إذاعةِ القرآنِ الكريمِ بالمملكةِ العربيَّة السعودية، تلك الإذاعة المباركة التي يُقدَّمُ فيها مِنَ الجهودِ العظيمة، والمساعي الحثيثة، والأعمالِ المشكورة في سبيلِ نشرِ دينِ اللهِ في أنحاءِ المعمورة ما لا يخفى عِظَمُ نَفْعِه وكِبَرُ فائدتِهِ على كلِّ مسلم، فنسألُ اللهَ أنْ يَجْزِيَ القائمين عليها خيرَ الجزاء، وأن يُسدِّدَهُمْ في أقوالهم وأعمالهم، وأن

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٢/٥٢٥).
(٢) «الفوائد» لابن القيم (ص٢٤٧).

يُبارِكَ في جهودهم، وأن يُوَفِّقَهُمْ لكلِّ خير. وقد رَغِبَ غيرُ واحدٍ مِنْ مشايخي وإخواني أن أقومَ بنشرِهِ مطبوعًا ليتنوَّعَ مجالُ نَفْعِه، ولتكثُرَ فائدتُه، فأجرَيْتُ عليه تعديلاتٍ يسيرةً في أسلوبه؛ ليكون مناسبًا للنشر، وجعلتُ لكل حلقةٍ عنوانًا خاصًّا يدل على مضمونها، ويُرْشِدُ إلى موضوعها، وجعلتُهُ في أربعة أقسام متناسبةِ الحجمِ والموضوع، وهذا هو القسمُ الأول منه، وإني لأرجو اللهَ الكريمَ أن يَتقبَّلَ مني هذا العملَ وسائرَ أعمالي، وأن يباركَ فيه، وأن يجعلَه نافعًا لعبادِهِ المسلمين، فهو سبحانه سميعُ الدعاء، وأهلُ الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ولا يفوتني في هذا المقام الدعاء بالمغفرة والرحمة لسماحة الوالد الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز رحمه الله تعالى، الذي تفضَّل مشكورًا بقراءة القسم الأول من هذا الكتاب، والتعليقِ عليه[1]، والتقديمِ له على كثرةِ أعماله، وأسأل الله تعالى أن يجعلَ ذلك في موازينِ حَسَناته، وأن يَجْزِيَهُ عنا وعن المسلمين خيرَ الجزاء، إنه سميع مجيب.

كما أشكُرُ كلَّ من قدَّم لي أيَّ نوع من أنواع المساعدة في هذا الكتاب؛ سواءٌ بِحَثٍّ وتشجيع، أو تصحيح ومراجعة، أو إبداءِ وجهةِ نظرٍ أو ملحوظة، ومَنْ قامَ بصفِّهِ وتنضيدِهِ وعزوِ الآياتِ والأحاديثِ الواردةِ فيه، ومَن تَبرَّعَ لطبعِهِ وساهَمَ في نشره أو عمِلَ على ترجمتِهِ إلى لغاتٍ أخرى، وأسأل الله أن يثيبَ الجميعَ أعظَمَ الثواب، وأن يجزيَهُمْ خيرَ الجزاء.

وكتب:
عبد الرزاق البدر
غفر الله له، وعفا عنه، ورحمه
ووالديه وجميع المسلمين

المدينة النبوية ص ب ٦١٨

(١) وقد جعلت تعليقاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ في داخل المتن بين معقوفتين وتحتها سطر: [_____].

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

فِقْهُ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ

(الذِّكْرُ فَضَائِلُهُ وَأَنْوَاعُهُ)

١

أَهَمِّيَّةُ الذِّكْرِ وَفَضْلُهُ

غيرُ خافٍ على كلِّ مسلمٍ أهميَّةُ الذكرِ وعظيمُ فائدته؛ إذْ هو مِنْ أجلِّ المقاصد، وأنفعِ الأعمالِ المقرِّبةِ إلى الله تعالى، وقد أمَرَ اللهُ به في القرآنِ الكريم في مواطنَ كثيرةٍ، ورغَّب فيه، ومدَحَ أهلَه، وأثنى عليهم أحسَنَ الثناءِ وأَطْيَبَه.

يقولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، ويقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ويقول تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فأمر تعالى في هذه الآياتِ بذكرِهِ بالكثرة؛ وذلك لشدَّةِ حاجةِ العبد إلى ذلك، وافتقارِهِ إليه أعظمَ الافتقار، وعَدَمِ استغنائِهِ عنه طرفةَ عين، فأيُّ لحظةٍ خلا فيها العبدُ عن ذكرِ الله ﷻ كانت عليه لا له، وكان خسرانُهُ فيها أعظمَ ممَّا ربح في غفلتِهِ عن الله، ونَدِمَ على ذلك ندمًا شديدًا عند لقاءِ اللهِ يومَ القيامة.

فقد ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ كما في «سنن أبي داود»، و«مستدرك الحاكم»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا وَتَفَرَّقُوا مِنْهُ لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ، إِلَّا كَأَنَّمَا تَفَرَّقُوا عَنْ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ)**(١).

---

(١) «المسند» (٢/ ٥١٥)، و«سنن أبي داود» رقم (٤٨٥٥)، و«المستدرك» (١/ ٤٩١ ـ ٤٩٢) واللفظ له، وصحَّحه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٧٧).

والسُّنَّةُ مليئةٌ بالأحاديث الدَّالَّةِ على فضل الذِّكْرِ، ورفيعِ قدره، وعُلُوِّ مكانته، وكثرةِ عوائدِهِ وفوائدِهِ على الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات.

فقد أخرج الإمامُ أحمدُ والترمذي، وابن ماجه، والحاكم ـ وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي ـ عن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ والوَرِقِ، وخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ ويَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟** قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَال: **ذِكْرُ اللهِ**»[١].

وروى مسلم في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: «**سَبَقَ المُفَرِّدُونَ**، قالوا: ومَا المُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتُ**»[٢].

وروى البخاري، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ والَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ**»[٣].

والأحاديثُ في هذا الباب كثيرةٌ، ولعلَّ مِنَ المناسب هنا ـ **والحديثُ ماضٍ بنا في فضل الذكر** ـ أن أُلَخِّصَ بعضَ ما ذكره أهلُ العلمِ مِنْ فوائدَ لذكرِ اللهِ تعالى يَجْنِيهَا الذَّاكرونَ في حياتهم الدُّنيا ويومَ القيامة، ومِنْ أحسنِ مَنْ رأيتُهُ تكلَّمَ في هذا الموضوع، وجمَعَ أطرَافَهُ، ولَمَّ شَتَاتَهُ: الإمامُ العلَّامةُ ابنُ القيِّم رحمه الله في كتابِهِ العظيمِ «الوابل الصيِّب، من الكَلِمِ الطيِّب»، وهو مطبوعٌ طبعاتٍ كثيرةً، ومُتَداوَلٌ بين أهل العلم وطُلَّابه؛ **فقد قال رحمه الله في كتابه المذكور**[٤]: «وفي الذِّكْرِ أكثرُ مِن مِائَةِ فائدةٍ...»، ثمَّ أخَذَ يعدِّدُها، فذكَرَ ما يزيدُ على السبعين فائدةً، كلُّ واحدة منها بمفردها كافيةٌ لحفزِ النُّفوسِ، وتحريكِ الهممِ للاشتغالِ بالذِّكرِ، كيف وقد اجتمَعَتْ تلك الفوائدُ الكُثَارُ

---

(١) «المسند» (٥/ ١٩٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٧٧)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٧٩٠)، و«المستدرك» (١/ ٤٩٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٦٢٩).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٧٦).
(٣) سيأتي تخريجه (ص٤٩).
(٤) (ص٨٤).

والعوائدُ الغِزَار، والأمرُ فوق ما يصفُهُ الواصفون، ويَعُدُّهُ العادُّون؛ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ولعلِّي أذكر لك ـ أخي المسلمِ ـ هنا فائدةً واحدةً مِنْ فوائدِ الذِّكْرِ مما ذكره رَحِمَهُ اللهُ، على أن أستكملَ لك بعضَ هذه الفوائد بعدُ ـ إن شاء الله ـ **مع وصيَّتي لك باقتناءِ الكتابِ المذكورِ والانتفاعِ به؛ فهو حقًّا كتابٌ عظيمُ النَّفْع، كبيرُ الفائدة.**

* **فمِنْ فوائدِ الذِّكْرِ**: أنَّه يطرُدُ الشيطانَ ويقمعُهُ ويَكْسِرُهُ(١)؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وثبت في «مسند الإمام أحمد»، و«جامع الترمذي»، و«مستدرك الحاكم»، وغيرها، بإسناد صحيح، مِنْ حديث الحارث الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: (**إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، ويَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبَطِّئَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ عِيسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تأَمُرَهُمْ، وإِمَّا أَنْ آمُرَهُمْ؟ فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، فَامْتَلأَ المَسْجِدُ، وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ...**)(٢).

فذكَرَ أَمْرَهم بالتوحيد، والصلاة، والصيام، والصَّدَقة، ثمَّ ذكَرَ الخامسةَ، فقال: (**وآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ**

(١) انظر: «الوابل الصَّيِّب» (ص٨٤).

(٢) «المسند» (٤/ ٢٠٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٨٦٣)، و«المستدرك» (١/ ١١٧، ١١٨، ٤٢١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٧٢٤).

سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى...)، إلى آخر هذا الحديث العظيم.

وقد وصفه العلَّامةُ ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّه حديثٌ عظيمُ الشَّأن، وينبغي لكلِّ مسلم حِفظُهُ وتعقُّلُه[١].

فهذا الحديثُ مشتملٌ على فضيلةٍ عظيمةٍ للذِّكر، وأنَّه يطرُدُ الشيطان، ويُنْجِي منه، وأنَّهُ بمثابةِ الحِصْنِ الحصينِ، والحِرْزِ المكين، الذي لا يُحْرِزُ العبدُ نفسَهُ مِنْ هذا العدوِّ اللَّدُودِ إلَّا به، وهذه ـ ولا ريب ـ فضيلةٌ عظيمةٌ للذِّكر؛ **ولهذا يقول ابنُ القيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلو لم يكنْ في الذِّكْرِ إلَّا هذه الخَصْلةُ الواحدةُ، لكان حقيقًا بالعبد أن لَا يَفْتُرَ لسانُهُ مِنْ ذكرِ اللهِ تعالى، وأن لَا يزالَ لَهِجًا بذكره؛ فإنَّه لا يُحْرِزُ نفسَهُ مِنْ عدوِّه إلَّا بالذِّكْر، ولا يدخُلُ عليه العدوُّ إلَّا من باب الغفلة؛ فهو يرصُدُهُ، فإذا غفَلَ وثَبَ عليه وافترسَهُ، وإذا ذكَرَ اللهَ تعالى انخنَسَ عدوُّ الله وتصاغَرَ وانقمَعَ، حتى يكونَ كالوَصَعِ[٢] وكالذُّبَاب؛ ولهذا سُمِّيَ «الوَسْوَاسَ الخَنَّاس»؛ **أي**: يوسوسُ في الصدور، فإذا ذكَرَ اللهَ تعالى خنس؛ **أي**: كفَّ وانقبضَ.

وقال ابن عَبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: الشيطانُ جاثمٌ على قلبِ ابنِ آدمَ، فإذا سها وغَفَلَ وسوَسَ، فإذا ذكَرَ اللهَ تعالى خَنَس»[٣].

فنسأل الله تعالى أن يُعِيذَنا مِنْ شَرِّ الشيطانِ وشِرْكِه، ومِنْ هَمْزِه ونَفْخِهِ ونَفْثِه؛ إنَّهُ سميعٌ مجيبٌ قريبٌ.

❀ ❀ ❀

---

(١) «الوابل الصَّيِّب» (ص٣١).

(٢) **الوَصَع**: طائرٌ أصغرُ من العصفور. «القاموس المحيط»، مادة: (وصع).

(٣) «الوابل الصَّيِّب» (ص٧٢). وأثر ابن عباس رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (٧/ ١٣٥) بإسناد صحيح.

٢

مِنْ فَوَائِدِ الذِّكْرِ

لا يزالُ الحديث موصولًا في بيانِ فوائدِ الذِّكْر، وقد مرَّ معنا فيما سبق ذكرُ فائدةٍ واحدةٍ له؛ **وهي**: أَنَّهُ حِرْزٌ لصاحبِهِ مِنَ الشيطان، فمن خلا مِنَ الذِّكْرِ لازمَهُ الشيطانُ ملازمَةَ الظِّلِّ، واللهُ يقول: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، ولا يستطيع العبدُ أن يُحرِزَ نفسَهُ من الشيطانِ إلَّا بذكرِ الله تعالى، وهذه فائدةٌ جليلةٌ مِنْ فوائدِ الذِّكْرِ العديدة.

وكما مرَّ بنا، فإنَّ الإمام العلَّامة ابنَ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ عَدَّ في كتابه القيِّم «الوابل الصَّيِّب» مَا يَنِيفُ على السَّبعينَ فائدةً للذِّكْر، ونستكملُ هنا بعضَ تلك الفوائد العظيمة، ممَّا أورده رَحِمَهُ اللهُ في كتابه المُشار إليه آنفًا[١].

* **فمن فوائد ذكرِ اللهِ العظيمة**: أنَّه يَجْلِبُ لقلب الذَّاكرِ الفرَحَ والسرورَ والرَّاحةَ، ويُورِثُ القلبَ السكونَ والطُّمأنينةَ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾؛ **أي**: يزولُ ما فيها مِن قلقٍ أو اضطراب، ويكون فيها بدَلَ ذلك الأُنْسُ والفَرَحُ والرَّاحة، وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾؛ **أي**: حقيقٌ بها وحَرِيٌّ أن لَا تطمئنَّ لشيءٍ سوى ذكره تبارك وتعالى.

* **بل إنَّ الذكرَ هو حياةُ القلب حقيقةً، وهو قُوتُ القلبِ والرُّوح**، فإذا فقده العبدُ، صارَ بمنزلةِ الجسمِ إذا حِيلَ بينَهُ وبين قُوتِهِ؛ فلا حياةَ للقلبِ حقيقةً إلَّا بذكرِ الله؛ **ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ: «الذِّكْرُ للقلبِ مِثْلُ الماءِ للسَّمَكِ؛ فكيف يكونُ حالُ السَّمَكِ إذا فارَقَ الماءَ؟!»[٢].

* **ومن فوائدِ ذكرِ العبدِ لِلَّه**: أنَّه يُورِثُهُ ذِكْرَ الله له؛ كما قال تعالى:

---

(١) **انظر**: «الوابل الصَّيِّب» (ص٨٤ ـ ١٠٠، ١٤٥).

(٢) **انظر**: «الوابل الصيب» (ص٨٥).

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]؛ وفي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن رَبِّهِ تبارك وتعالى: **(إنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإنْ ذَكَرَنِي فِي مَلٍإ ذَكَرْتُهُ فِي مَلٍإ خَيْرٍ مِنْهُمْ)**[(١)].

* **ومِنْ فوائده**: أنَّه يَحُطُّ الخطايا ويُذْهِبُها، ويُنْجِي الذَّاكرَ من عذاب الله؛ ففي «المسند»، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا قَطُّ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى)**[(٢)].

* **ومِنْ فوائدِ الذِّكْرِ**: أنَّه يَترتَّبُ عليه مِنَ العطاءِ والثَّوَابِ والفضلِ ما لا يَترتَّبُ على غيرِهِ مِنَ الأعمال، مع أنَّه أيسَرُ العبادات؛ فإنَّ حركةَ اللسانِ أخفُّ حركاتِ الجوارحِ وأَيْسَرُها، ولو تَحرَّكَ عضوٌ مِنَ الإنسانِ في اليومِ والليلةِ بقدر حركةِ لسانِهِ، لشَقَّ عليه غايةَ المشقَّة، بل لا يمكنُهُ ذلك، ومع هذا فالأجورُ المترتِّبةُ عليه عظيمةٌ، والثوابُ جزيلٌ.

ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(مَنْ قَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، ومُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِك حَتَّى يُمْسِيَ، ولَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ)**[(٣)].

وفي «الصحيحين» أيضًا، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: **(مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ)**[(٤)].

وفي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **(لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، ولَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا**

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٧٤٠٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٧٥).
(٢) «المسند» (٥/ ٢٣٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٧٩٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٤٤).
(٣) «صحيح البخاري» رقم (٦٤٠٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٩١).
(٤) «صحيح البخاري» رقم (٦٤٠٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٩١).

طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)(١)، والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

* **ومِنْ فوائدِ الذِّكْرِ**: أنَّه غِرَاسُ الجَنَّةِ؛ فالجنَّةُ ـ كما جاء في الحديث ـ قِيعَانٌ، وهي طَيِّبةُ التُّرْبة، عَذْبةُ الماء، وغِرَاسُها ذكرُ الله؛ فقد روى الترمذي، من حديث عبد الله بن مسعود ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: **(لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلَ ﵇، فَقَال: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَك مِنِّي السَّلَامَ، وأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ المَاءِ، وأَنَّهَا قِيعَانٌ، وأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَـهَ إِلّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)**، قال الترمذي: حديث حسنٌ غريبٌ؛ من حديث ابن مسعود(٢).

ورواه الإمامُ أحمد، من حديث أبي أيُّوبَ الأنصاري ﵁، ولفظه: «أنَّ رسول الله ﷺ ليلةَ أُسْرِيَ به، مَرَّ على إبراهيمَ، فقال: **(مَنْ مَعَكَ يَا جِبْرِيلُ؟ قَال: هَذا مُحَمَّدٌ، فَقالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: مُرْ أُمَّتَكَ فَلْيُكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الجَنَّةِ؛ فَإِنَّ تُرْبَتَهَا طَيِّبَةٌ، وأَرْضَهَا واسِعَةٌ، قَالَ: ومَا غِرَاسُ الجَنَّةِ؟ قَال: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ)**»(٣).

وروى الترمذي، من حديث أبي الزُّبَيْر، عن جابر ﵁، عن النبي ﷺ، قال: **(مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العظيم وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ)** قال الترمذي: حديث حسن صحيح(٤).

ورواه الإمامُ أحمد، من حديث معاذ بن أنس الجُهَنِيِّ ﵁، عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: **(مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ، نَبَتَ لَهُ غَرْسٌ فِي الجَنَّةِ)**(٥).

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٥).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٦٢)، وحسَّنه أيضًا الألباني لِمَا له من الشواهد في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٠٥).

(٣) «المسند» (٥/ ٤١٨)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٢١)، وحسَّنه الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/ ١٠٠).

(٤) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٦٤)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٢٦، ٨٢٧)، و«مستدرك الحاكم» (١/ ٥٠١)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٦٤) **وله شاهدان**:
أحدهما: مِنْ حديث عبد الله بن عَمْرو بن العاص ﵄ موقوفًا؛ خرَّجه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٦/ ٥٦).
والآخر: من حديثِ مُعَاذ بن سَهْل مرفوعًا؛ خرَّجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٤٠).

(٥) «المسند» (٣/ ٤٤٠)، وفي سنده زَبَّان بن فائد؛ وهو ضعيف، ولكن للحديث شواهد يتقوَّى بها.

* **ومِنْ فوائدِ الذِّكْرِ**: أنَّه يكون نُورًا للذَّاكِرِ في الدنيا، ونُورًا له في قبره، ونورًا له في مَعَاده، يسعى بين يديه على الصِّرَاط، فما استنارَتِ القلوبُ والقبورُ بمثلِ ذِكْرِ الله تعالى؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

- **فالأوَّل**: هو المؤمن؛ استنار بالإيمانِ باللهِ ومحبَّتِهِ ومعرِفَتِهِ وذِكْرِه.
- **والآخرُ**: هو الغافلُ عن الله تعالى، المُعْرِضُ عن ذكرِهِ ومحبَّته.

والشَّأْنُ كلُّ الشَّأن، والفلاحُ كلُّ الفلاح في النُّور، والشَّقَاءُ كُلُّ الشَّقَاءِ في فَوَاتِهِ؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ يُكْثِرُ من سُؤال الله تبارك وتعالى ذلك بأن يجعلَهُ في كلِّ ذَرَّاتِهِ الظَّاهرةِ والباطنة، وأن يجعلَهُ محيطًا به مِنْ جميعِ جهاته، وأن يجعلَ ذاتَهُ وجملَتَهُ نورًا.

فقد خرَّج مسلمٌ في «صحيحه»، من حديث عبد الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما، في ذكر دعاء النَّبيِّ ﷺ باللَّيْل؛ قال: «وكان في دعائه: (**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وفِي بَصَرِي نُورًا، وفِي سَمْعِي نُورًا، وعَنْ يَمِينِي نُورًا، وعَن يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وتَحْتِي نُورًا، وأَمَامِي نُورًا، وخَلْفِي نُورًا، وعَظِّمْ لِي نُورًا**)»، قال كُرَيْبٌ ـ أحَدُ رواة الحديث ـ: وسبعًا في التَّابوت. فلَقِيتُ بعضَ وَلَد العَبَّاس، فحدَّثني بهنَّ، فذكَرَ: عَصَبي، ولَحْمي، ودَمِي، وشَعَرِي، وبَشَرِي، وذكَرَ خصلتَيْنِ(١).

فالذِّكْرُ نُورٌ لِقلبِ الذاكرِ ووجهِهِ وأعضائِهِ، ونورٌ له في دنياه، وفي البَرْزَخ، وفي يوم القيامة.

* **ومِنْ فوائدِ الذِّكْرِ**: أنَّه يوجبُ صلاةَ اللهِ عز وجل وملائكتِهِ على الذاكر، ومَنْ صلَّى اللهُ عليه وملائكتُه، فقد أفلَحَ كلَّ الفلاح، وفاز كلَّ الفوز؛ يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب].

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٣١٦)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٦٣).

٣

فَوَائِدُ أُخْرَىٰ لِلذِّكْرِ

نواصلُ الحديثَ في عَدِّ بعضِ فوائدِ الذِّكْر، وذِكْرِ شيءٍ من منافعِهِ وعوائدِهِ على الذَّاكرينَ في الدنيا والآخرة؛ وذلك مِنْ خلالِ ما ذكره الإمامُ العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الوابل الصَّيِّب»(١).

* **فمن فوائده:** أنَّ الذِّكْرَ سببٌ لتصديقِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ عبدَهُ؛ فإنّ الذَّاكرَ يُخبرُ عن الله تعالى بأوصافِ كمالِهِ، ونُعوتِ جلاله، فإذا أخبَرَ بها العبدُ صدَّقَهُ ربُّه، ومَنْ صَدَّقه اللهُ تعالى لم يُحْشَرْ مع الكاذبين، ورُجِيَ له أن يُحْشَرَ مع الصادقين.

روى ابن ماجه، والترمذي، وابن حِبَّان، والحاكم، وغيرُهم عن أبي إسحاق، عن الأغرِّ أبي مسلم، أنَّه شهد على أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّهما شَهِدَا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: (**إِذَا قَالَ العَبْدُ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ، وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي، وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ وحده لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا لَا شَرِيكَ لِي، وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا لِيَ المُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ، وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ، قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي؛ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِي**).

---

(١) انظر: «الوابل الصَّيِّب» (ص١٣٢، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٤).

ثُمَّ قال الأغرُّ شيئًا لم أفهمْهُ، قلتُ لأبي جعفرٍ: ما قال؟ قال: **(مَنْ رُزِقَهُنَّ عِنْدَ مَوْتِهِ، لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ)**(١).

* **ومن فوائدِهِ**: أنَّ كثرةَ ذكرِ الله ﷻ أمانٌ مِنَ النِّفاق؛ فإنَّ المنافقين قليلو الذِّكْرِ لله ﷻ؛ قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

قال كَعْب رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ أكثَرَ ذكرَ الله ﷻ، بَرِئَ مِنَ النِّفاق».

ولعلَّه لأجل هذا ختَمَ اللهُ سورةَ المنافقين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

فإنَّ في ذلك تحذيرًا مِن فتنة المنافقين، الذين غَفَلوا عن ذكر الله ﷻ، فوَقَعُوا في النِّفاق، والعياذُ بالله.

وقد سُئِلَ عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **عن الخوارج: منافقونَ هم؟ فقال**: «المنافقونَ لا يَذْكُرُونَ اللهَ إلَّا قليلًا».

فلهذا مِنْ علامةِ النِّفاق: قِلَّةُ ذكرِ الله ﷻ؛ وعلى هذا: فكثرةُ ذكرِهِ تعالى أمانٌ مِنَ النِّفاق، واللهُ ﷻ أكرمُ مِنْ أن يبتليَ قلبًا ذاكرًا بالنِّفَاق؛ وإنَّما ذلك لقلوبٍ غَفَلَتْ عن ذكرِ اللهِ ﷻ.

* **ومِنْ فوائدِ الذِّكْرِ**: أنَّه شفاءٌ للقلب، ودواءٌ لأمراضه؛ **قال مكحولُ بن عبد الله** رَحِمَهُ اللهُ: «ذِكْرُ الله تعالى شفاءٌ، وذكرُ النَّاسِ داءٌ».

ثمَّ إنَّ الذِّكْرَ أيضًا يُذْهِبُ قسوةَ القلب؛ ففي القلبِ قسوةٌ لا يُذيبُها إلَّا ذكرُ الله تعالى؛ جاء رجلٌ إلى الحسنِ البصري رَحِمَهُ اللهُ، فقال: يا أبا سعيد، أشكو إليكَ قَسْوةَ قلبي، **قال**: «أَذِبْهُ بالذِّكْرِ».

---

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٣٠)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٧٩٤)، واللفظ له، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٥١)، و«مستدرك الحاكم» (١/ ٥)، وقال الترمذي: حديث حسن، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذَّهَبِيُّ، وقال الألباني: وهو حديث صحيح. «السلسلة الصحيحة» رقم (١٣٩٠).

* **ومِنْ فوائدِ الذِّكْرِ**: أنَّ الذَّاكرَ قريبٌ مِنْ مذكوره، ومذكورُهُ معه، وهذه المعيَّةُ معيَّةٌ خاصَّةٌ غيرُ معيَّة العلمِ والإحاطةِ العامَّة؛ فهي معيَّةٌ بالقربِ والولايةِ والمحبَّةِ والنُّصرْةِ والإعانةِ والتَّوفيق؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فالذَّاكِرُ له مِنْ هذه المعيَّةِ النَّصيبُ الوافر، كما في الحديث الإلٰهي: **(أَنا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتاه)**؛ رواه أحمد، والبخاريُّ تعليقًا، وابن ماجه، والحاكم، وغيرُهم[(١)].

* **ومِنْ فوائدِ الذِّكْرِ**: أنَّه جَلَّابٌ للنِّعَم، دافعٌ للنِّقَم، فما استُجْلِبَتْ نعمةٌ، ولا استُدْفِعَتْ نِقْمَةٌ بمثل ذكر الله ﷻ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]؛ فدفاعُهُ تبارك وتعالى عنهم هو بحسَبِ قوَّةِ إيمانهم وكماله، ومادَّةُ الإيمانِ وقوَّتُهُ ذكرُ الله تعالى، فمَنْ كان إيمانُهُ أكملَ، وذكرُه لله أكثرَ، كان نصيبُهُ من دفاع الله عنه أعظمَ، وحظُّه منه أوفرَ، ومَنْ نَقَصَ نَقَصَ؛ ذِكْرًا بذكرٍ، ونسيانًا بنسيانٍ.

* **ومِنْ فوائدِ الذِّكْرِ**: أنَّ إدامتَهُ تنوبُ عن الطاعات، وتقومُ مَقَامَها؛ سواءٌ كانت بَدَنيَّةً أو ماليَّةً، أو بدنيَّةً ماليَّةً؛ كحجِّ التَّطوُّع.

وقد جاء ذلك صريحًا في حديث أبي هريرة ﷺ: «أنَّ فقراءَ المهاجرينَ أَتَوْا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، ذهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالأجورِ والنَّعِيم المُقِيم، يُصلُّونَ كما نُصلِّي، ويصومون كما نَصُوم، ولهم فضلُ أموالٍ يَحُجُّونَ بها ويعتمرون، ويجاهدون، ويَتصدَّقون، فقال: **(أَلَا أُعلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِه مَن سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، ولَا أَحَدٌ**

---

(١) «المسند» (٢/ ٥٤٠)، و«صحيح البخاري» (٨/ ٥٧٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٧٩٢)، و«مستدرك الحاكم» (١/ ٤٩٦).

يَكُونَ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مَا صَنَعْتُم؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **(تُسَبِّحُونَ وَتحْمَدُونَ وتُكبِّرونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاةٍ ثلاثًا وثَلاثِينَ...)**» إلى آخر الحديث، وهو متفق عليه(١).

فجعَلَ الذِّكْرَ عِوَضًا لهم عما فاتهم مِنَ الحجِّ والعمرةِ والجهاد، وأخبر أنَّهم يسبقونهم بهذا الذِّكر؛ فلمَّا سمع أهلُ الدُّثورِ بذلك عملوا به، فازدادوا إلى صَدَقَتِهِمْ وعبادتهم بمالِهِمُ التعبُّدَ بهذا الذِّكر، فحازوا الفضيلتَيْنِ، فنافسهم الفقراء، وأخبَرُوا رسولَ الله ﷺ بأنَّهم قد شاركوهم في ذلك، فانفردوا عنهم بما لا قُدْرَةَ لهم عليه؛ فقال عليه الصلاة والسلام: **(ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)**.

وفي حديث عبد الله بن بُسْرٍ ﷺ الذي خرَّجه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وغيرهم، قال: «جاء أعرابيٌّ، فقال: يا رسول الله، إنَّ شرائعَ الإسلام قد كَثُرَتْ عليَّ، فأَخْبِرْني بشيءٍ أَتَشبَّثُ به، قال: **(لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِن ذِكْرِ اللهِ)**»(٢).

فدلَّه الناصحُ ﷺ على شيءٍ يعينه على شرائعِ الإسلام، والحِرْصِ عليها، والاستكثارِ منها؛ فإنَّه إذا اتَّخَذَ ذكرَ الله تعالى شعارَهُ، أحبَّهُ وأحبَّ ما يحبُّ، فلا شيءَ أحبُّ إليه مِنَ التقرُّبِ بشرائعِ الإسلام، فبيَّن له ﷺ ما يَتمكَّنُ به من شرائعِ الإسلام، وتَسْهُلُ به عليه، فالذِّكْرُ من أكبرِ العونِ على طاعة الله؛ فإنَّه يُحَبِّبُها إلى العبد ويُسَهِّلها عليه، ويُلَذِّذُها له، بحيث لا يجد لها مِنَ الكُلْفةِ والمشقَّةِ والثِّقَلِ ما يجده الغافلُ.

ثم هو أيضًا يُسهِّل الصَّعْبَ، ويُيسِّرُ العسيرَ، ويُخفِّفُ المشاقَّ، فما ذُكِرَ اللهُ على صعبٍ إلا هانَ، ولا على عسيرٍ إلا تيسَّرَ، ولا مَشقَّةٍ إلا خفَّت، ولا شِدَّةٍ إلا زالت، ولا كُرْبَةٍ إلا انفرَجَتْ، فذكرُ الله هو الفرجُ بعد الشِّدَّةِ، واليسرُ بعد

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨٤٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٩٥).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ١٨٨)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٧٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٧٩٣)، و«مستدرك الحاكم» (١/ ٤٩٥).

العسرِ، والفرحُ بعد الغمِّ؛ فاللَّهُمَّ إياك نسأل، وبأسمائِكَ وصفاتِكَ نَتوسَّلُ: أن تجعلنا مِنْ عبادِكَ الذاكرين، وأنْ تُعِيذَنا برحمتكَ مِنْ سبيلِ المُعْرِضِينَ الغافلين؛ إنَّك على كلِّ شيء قدير.

❁ ❁ ❁

٤

فَضْلُ مَجَالِسِ الذِّكْرِ

لقد مَرَّ معنا شيءٌ يسيرٌ مِنْ فوائدِ الذِّكْرِ، وأنَّها كثيرةٌ لا تُحصى، وعديدةٌ لا تُستقصى، يَعْجِزُ عن إحصائها المُحْصُون، ولا يَقْدِرُ على عَدِّها العادُّون، ولا يحيطُ بها إنسان، ولا يُعبِّرُ عنها لسان، كيف لا وهو من أجلِّ القُرُبات، وأفضلِ الطَّاعَات. وكم للذِّكْرِ من فوائدَ مغدقةٍ، وثمارٍ يانِعةٍ، وجَنًى لذيذٍ، وأُكُلٍ دائمٍ، وخيرٍ مستمرٍّ في الدنيا والآخرة.

ومجالسُ الذِّكْرِ هي أزكى المجالسِ وأَشْرَفُها، وأنفعُها وأرفعُها، وهي أعلى المجالسِ قَدْرًا عند الله، وأجلُّها مكانةً عنده.

وقد وردَتْ نصوصٌ كثيرةٌ في فضلِ مجالس الذِّكرِ، وأنَّها حياةٌ للقلوب، ونماءٌ للإيمان، وصلاحٌ وزَكَاءٌ للعبد، بخلافِ مجالسِ الغفلة، التي لا يقومُ منها الجالسُ إلَّا بنقصٍ في الإيمان، ووَهَاءٍ في القلب، وكانت عليه حسرةً وندامةً.

وكان السَّلَفُ رحمهم الله يَهتمُّونَ بمجالسِ الذكرِ أعظمَ الاهتمام، ويعتنون بها غايةَ العناية؛ **كان عبد الله بنُ رَوَاحة رضي الله عنه يأخُذُ بيد النَّفرِ من أصحابِهِ، فيقول**: «تَعالَوْا نؤمنْ ساعةً، تعالَوْا فلنذكُرِ اللهَ، ونزدادُ إيمانًا بطاعته، لعلَّه يذكرُنا بمغفرته».

وكان عُمَيْرُ بن حَبِيبِ الخَطْميُّ رضي الله عنه يقول: «الإيمانُ يزيدُ وينقص، فقيل: وما زيادتُهُ ونقصانه؟ قال: إذا ذكَرْنَا اللهَ عز وجل وحَمِدْناه وسبَّحناه، فذلك زيادتُهُ، وإذا غَفَلْنا وضيَّعنا ونَسِينَا، فذلك نقصانُهُ»، والآثار عنهم في هذا

المعنى كثيرةٌ[١].

إنَّ مجالسَ الذِّكْرِ هي رياضُ الجَنَّةِ في الدنيا؛ روى الإمام أحمدُ، والترمذي، وغيرُهما، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**(إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا)**، قَالُوا: ومَا رِيَاضُ الجَنَّةِ؟ قَال: **(حِلَقُ الذِّكْرِ)**»[٢].

ورواه ابن أبي الدنيا، والحاكم، وغيرُهما، مِنْ حديثِ جابر بن عبد الله، قال: «خرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ فقال: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْتَعُوا فِي رِيَاضِ الجَنَّةِ)**، قُلنا: يَا رَسُولَ اللهِ، ومَا رِيَاضُ الجَنَّةِ؟ قَال: **(مَجَالِسُ الذِّكْرِ)**، ثُمَّ قال: **(اغْدُوا وَرُوحُوا واذْكُرُوا، فَمَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللهِ، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللهِ تَعَالَى عِنْدَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالى يُنْزِلُ العَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ)**»[٣]. وهو حسنٌ بهذين الطريقين المذكورين[٤].

قال ابن القيِّم رحمه الله: «مَنْ شاء أن يَسْكُنَ رياضَ الجَنَّةِ في الدنيا، فليستوطِنْ مجالسَ الذِّكر؛ فإنَّها رياضُ الجَنَّة»[٥].

* **ومجالسُ الذِّكْرِ هي مجالسُ الملائكة**، فليس لهم مِنْ مجالسِ الدنيا مجلسٌ إلا مجلسٌ يُذْكَرُ اللهُ تعالى فيه؛ كما في «الصحيحين» من حديث أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً فُضُلًا؛ يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى، تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ تَعَالَى، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ ويُكَبِّرُونَكَ**

---

(١) **انظر كثيرًا من هذه الآثار مخرَّجةً في كتابي**: «زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه» (ص١٠٦ وما بعدها).

(٢) «المسند» (٣/ ١٥٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥١٠).

(٣) «المستدرك» (١/ ٤٩٤).

(٤) **وانظر**: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٢٥٦٢).

(٥) «الوابل الصيب» (ص١٤٥).

ويَحْمَدُونَكَ ويُمَجِّدُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وأَشَدَّ لَكَ تَحْمِيدًا وتَمْجِيدًا، وأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، قَالَ: فَيَقُولُ: مَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ، قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا واللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فيقُولُ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: مِنَ النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ: يَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)[(١)].

فمجالسُ الذِّكرِ مجالسُ الملائكةِ، ومجالسُ اللَّغوِ والغفلةِ مجالسُ الشَّياطين، وكلٌّ مضافٌ إلى شكله، وكلُّ امرئ يصيرُ إلى ما يناسبه، فليختَرِ العبدُ أعجبَهما إليه، وأَوْلَاهُمَا به، والذَّاكِرُ يَسْعَدُ به جليسُهُ بخلافِ الغافلِ واللاغي؛ فإنَّه يشقى به جليسُهُ ويتضرَّر[(٢)].

* **ومجالسُ الذِّكْرِ تُؤَمِّنُ العبدَ مِنَ الحَسْرةِ والنَّدامةِ يومَ القيامة**، بخلافِ مجالسِ اللَّهْو والغفلةِ؛ فإنَّها تكونُ على صاحبها حسرةً وندامةً يوم القيامة؛ فقد روى أبو داود، بإسناد حسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: **(مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ تَعَالى فِيهِ، كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تَعَالى تِرَةٌ، وَمَنِ اضْطَجَعَ مُضْطَجَعًا لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهِ، كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى تِرَةٌ)**[(٣)]؛ أي: نقصٌ وتَبِعةٌ وحسرةٌ.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٤٠٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٨٩).

(٢) انظر: «الوابل الصيب» لابن القيم (ص١٤٦ ـ ١٤٨).

(٣) «سنن أبي داود» رقم (٤٨٥٦)، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٧٨).

* **ومِنْ شَرَفِ مجالسِ الذِّكْرِ، وعُلُوِّ مكانها عندَ الله**: أنَّ اللهَ ﷻ يُباهي بالذَّاكِرِينَ ملائكتَهُ؛ كما روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه، قال: «خرجَ معاويةُ على حَلْقةٍ في المسجد، فقال: ما أَجْلَسَكم؟ قالوا: جلسنا نَذْكُرُ اللهَ تعالى، قال: آللَّهِ ما أَجلَسَكُمْ إلَّا ذاك؟ قالوا: واللهِ ما أجلسنا إلَّا ذاك، قال: أَمَا إنِّي لم أَسَتْحلِفْكم تُهْمَةً لكم، وما كان أحدٌ بمنزلتي مِنْ رسول الله ﷺ أَقَلَّ عنه حديثًا منِّي، وإنَّ رسولَ الله ﷺ خرجَ على حَلْقةٍ مِنْ أصحابه، فقال: (**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**)، قالوا: جلسنا نذكُرُ اللهَ تعالى، ونَحْمَدُهُ على ما هدانا للإسلامِ، ومَنَّ به علينا، قال: (**آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟**)، قالوا: واللهِ ما أجلَسَنَا إلَّا ذاك، قال: (**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، ولَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ ﷻ يُبَاهِي بِكُمُ المَلَائِكَةَ**)»[(١)].

فهذه المباهاةُ مِنَ الرَّبِّ دليلٌ على شَرَفِ الذِّكْرِ عند الله، ومحبَّتِهِ له، وأنَّ له مزيَّةً على غيرِهِ من الأعمال[(٢)].

* **ومجالسُ الذِّكْرِ سببٌ لنزول السَّكِينة، وغَشَيَانِ الرَّحْمة، وحفوفِ الملائكةِ بالذَّاكرين**؛ فقد روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي مسلم الأغرِّ، قال: «أشهَدُ على أبي هريرة، وأبي سعيد، أنَّهما شهدا على رسولِ الله ﷺ، أنَّه قال: (**لَا يَقْعُدُ قَومٌ يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ إِلَّا حَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، ونَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَه**)»[(٣)].

* **ومجالسُ الذِّكْرِ سببٌ عظيمٌ مِنْ أسبابِ حفظِ اللِّسَان، وصوْنِهِ عن الغِيبَةِ والنَّميمةِ، والكذبِ والفُحْش والباطل**؛ فإنَّ العبدَ لا بُدَّ له مِنْ أن يتكلَّم، فإن لم يَتكلَّمْ بذكرِ الله تعالى وذِكْرِ أوامرِهِ وبالخيرِ والفائدة، تَكلَّمَ - ولا بُدَّ - بهذه المحرَّمات أو بعضِها؛ فمَنْ عَوَّدَ لَسانَهُ على ذكرِ الله، صان لسانَهُ عن

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٠١).

(٢) **انظر**: «الوابل الصيب» لابن القيم (ص١٤٨، ١٤٩).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٠).

الباطلِ واللَّغْو، ومن يَبِسَ لسانُهُ عن ذكرِ اللهِ، نَطَقَ بكلِّ باطلٍ ولغوٍ وفحش[١].

واللهُ المسؤولُ أن يَعْمُرَ أوقاتَنا بطاعته، وأن يَشْغَلَ مجالسنا بذكرِهِ وشكرِهِ وحُسْنِ عبادته، وأن يَقِيَنا من مجالسِ الغفلةِ واللَّهْوِ والباطل؛ فإنَّه خير مسؤول، وهو وحده المستعان، ولا حول ولا قوَّة إلَّا به.

* * *

(١) انظر: «الوابل الصيب» لابن القيم (ص١٦٦).

٥

ذِكْرُ اللَّهِ هُوَ أَزْكَىٰ الْأَعْمَالِ وَأَفْضَلُهَا

إنَّ ذكرَ الله جلَّ وعلا هو أزكى الأعمالِ وخَيْرُها وأفضلُها عند الله تبارك وتعالى؛ ففي «مسند الإمام أحمد»، و«جامع الترمذي»، و«سنن ابن ماجه»، و«مستدرك الحاكم»، وغيرها، من حديث أبي الدرداء ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ والوَرِقِ، وخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، ويَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟** قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: **ذِكْرُ اللهِ** ﷻ)[١].

فهذا الحديثُ العظيم أفاد فضيلة الذِّكر، وأنَّه يَعْدِلُ عِتْقَ الرِّقاب، ونفقةَ الأموال، والحَمْلَ على الخيلِ في سبيل الله ﷻ، ويَعْدِلُ الضربَ بالسيفِ في سبيل الله ﷻ.

قال ابنُ رجب رحمه الله: «وقد تكاثَرَتِ النُّصوصُ بتفضيلِ الذِّكْرِ على الصدقةِ بالمال وغيرِهِ من الأعمال»[٢]. ثُمَّ أورد حديث أبي الدرداء المتقدِّم، وجملةً من الأحاديث الأخرى الدَّالَّةِ على المعنى نفسه.

وقد روى ابنُ أبي الدنيا ـ كما في «الترغيب والترهيب» للمنذري[٣]، وقال: إسناده حسن ـ عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، قال: «قيل لأبي الدرداء ﷺ: إنَّ رجلًا أعتَقَ مِائَة نَسَمةٍ، قال: إنَّ مِائَةَ نَسَمَةٍ مِنْ مالِ رجلٍ كثيرٌ، وأفضلُ مِنْ ذلكَ إيمانٌ ملزومٌ بالليلِ والنَّهار، وأن لَا يزالَ لسانُ أحدكم رَطْبًا مِن ذِكْرِ الله».

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٢٢٥). (٣) (٢/٣٩٥).

فبيَّن ﷺ فضل عتق الرِّقَاب، وأنَّه - مَعَ عِظَمِ فضلِهِ - لا يعدلُ ملازمةَ الذِّكْرِ والمداومةَ عليه، وقد جاء في هذا المعنى آثارٌ كثيرةٌ عن السَّلَفِ رحمهم الله.

يقول ابن مسعود ﷺ: «لَأَنْ أُسبِّح الله تعالى تسبيحاتٍ أحبُّ إليَّ مِنْ أن أُنفقَ عددهُنَّ دنانيرَ في سبيل الله».

وجلَسَ عبدُ الله بن عمرو، وعبدُ الله بن مسعود ﷺ، **فقال عبد الله بن مسعود**: «لَأَنْ آخُذَ في طريقٍ أقولُ فيه: سبحانَ اللهِ، والحمدُ لله، ولا إلـه إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، أحبُّ إليَّ مِنْ أن أنفقَ عَدَدَهُنَّ دنانيرَ في سبيل الله ﷻ، **فقال عبد الله بن عمرو**: لَأَنْ آخُذَ في طريقٍ، فأقولَهُنَّ أحبُّ إليَّ مِنْ أن أَحْمِلَ عَدَدَهُنَّ على الخيلِ في سبيلِ الله ﷻ».

وكذلك قال غيرُ واحدٍ مِنَ الصحابة والتابعين: إنَّ الذِّكْرَ أفضلُ مِنَ الصَّدَقَةِ بعددِهِ مِنَ المال(١).

والآثارُ في هذا المعنى عنهم كثيرةٌ، وهي لا تعني - لا مِنْ قريبٍ ولا مِن بعيد - التقليلَ مِنْ شأن النَّفقةِ في سبيلِ الله، والحملِ على الخيلِ في سبيله، وعتقِ الرِّقَابِ في سبيله، وإنَّما المرادُ بها تعليةُ شأن الذِّكْر، وبيانُ عظيم قدره، ورِفعةِ مكانته، وأنَّه لا يَعْدِلُهُ شيءٌ مِنْ هذه الأمور، بل إنَّ الأعمالَ كلَّها والطاعاتِ جميعَها إنَّما شُرِعَتْ لإقامةِ ذكرِ الله، والمقصودُ بها تحصيلُ ذكرِ الله تعالى.

ولهذا يقولُ الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤]؛ **أي**: أقم الصلاة لأجل ذكر الله جلَّ وعلا. وفي هذا تنبيهٌ على عظيمِ قدرِ الصلاة؛ إذ هي تَضرُّعٌ إلى الله تعالى، وقيامٌ بين يديه، وسؤالٌ له تبارك وتعالى، وإقامةٌ لذكره؛ وعلى هذا: فالصلاةُ هي الذِّكْر، وقد سمَّاها اللهُ تعالى ذكرًا؛ وذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]،

---

(١) **انظر**: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص٢٢٥، ٢٢٦).

فسمَّى الصَّلاةَ هنا ذكرًا؛ لأنَّ الذِّكْرَ هو روحُها ولُبُّها وحقيقتُها، وأعظمُ الناسِ أجرًا في الصلاةِ أقواهم وأشدُّهم وأكثرُهم فيها ذِكْرًا لله تعالى؛ وهكذا الشأنُ في كلِّ طاعةٍ وعبادةٍ يَتقرَّبُ بها العبدُ إلى الله.

روى الإمامُ أحمد، والطبرانيُّ، من طريق عبد الله بن لَهيعَةَ، قال: حدَّثنا زَبَّان بن فائد، عن سَهْل بن معاذ بن أنس الجُهَنيِّ، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، «أنَّ رجلًا سأله، فقال: أيُّ المجاهدينَ أعظمُ أجرًا يا رسولَ اللهِ؟ فقال: (**أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا**)، فقال: فأيُّ الصَّائِمِينَ أكثرُهم أجرًا؟ قال: (**أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا**)، ثُمَّ ذَكَرَ الصَّلاةَ والزكاةَ والحجَّ والصَّدقةَ، كلُّ ذلك يقولُ رسول الله ﷺ: (**أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا**)، فقال أبو بكرٍ لِعُمَرَ رضي الله عنهما: ذهب الذَّاكرونَ بكلِّ خيرٍ، فقال رسول الله ﷺ: (**أَجَل**)»[1].

قال الهيثمي رحمه الله: «وفيه زَبَّان بن فائد، وهو ضعيفٌ وقد وُثِّق، وكذلك ابن لَهِيعة»[2]. اهـ.

لكنْ له شاهدٌ مرسلٌ بإسناد صحيح، رواه ابن المبارك في «الزُّهد»؛ قال: أخبرني حَيْوَةُ، قال: حدَّثني زُهْرة بنُ مَعْبَدٍ، أنَّه سمع أبا سعيد المَقْبُريَّ يقول: «قيل: يا رسول الله! أيُّ الحاجِّ أعظمُ أجرًا؟ قال: (**أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا**)، قال: فأيُّ المصلِّينَ أعظمُ أجرًا؟ قال: (**أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا**)، قال: فأيُّ الصّائمينَ أعظمُ أجرًا؟ قال: (**أَكْثَرُهُم للهِ ذِكْرًا**)، قال: فأيُّ المجاهدين أعظمُ أجرًا؟ فقال: (**أَكْثَرُهُمْ للهِ ذِكْرًا**). قال زُهْرة: فأخبرني أبو سعيدٍ المَقْبُريُّ: أنَّ عمرَ بنَ الخَطَّابِ قال لأبي بكر: ذهَبَ الذَّاكرونَ بكلِّ خير»[3].

وله شاهدٌ آخر أورده ابن القيِّم في كتابه «الوابل الصيِّب»، قال: وقد ذكر ابن أبي الدنيا حديثًا مرسلًا، «أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ: أيُّ أهل المسجد خير؟ قال: (**أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا للهِ** عز وجل)، قيل: أيُّ أهلِ الجنازةِ خير؟ قال: (**أَكْثَرُهُمْ**

---

(١) «المسند» (٣/ ٤٣٨)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٠/ رقم ٤٠٧).
(٢) «مجمع الزوائد» (١٠/ ٧٤).
(٣) «الزهد» رقم (١٤٢٩).

ذِكْرًا للهِ ﷻ)، قيل: فأيُّ المجاهدين خير؟ قال: (أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا للهِ ﷻ)، قيل: فأيُّ الحُجَّاجِ خير؟ قال: (أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا للهِ ﷻ)، قيل: وأيُّ العُوَّادِ خيرٌ؟ قال: (أَكْثَرُهم ذِكْرًا للهِ ﷻ)، قال أبو بكرٍ: ذَهَبَ الذَّاكرونَ بالخيرِ كلِّه»(١).

فالحديثُ بشاهدَيْهِ صالحٌ للاحتجاج ـ إن شاء الله ـ ومعناه الذي دلَّ عليه حقٌّ لا رَيْبَ في صحَّته؛ **يقول ابن القيِّم** رحمه الله: «إنَّ أفضلَ أهلِ كلِّ عملٍ أكثرُهم فيه ذكرًا لله ﷻ، فأفضلُ الصُّوَّامِ أكثرُهُمْ ذكرًا لله ﷻ في صومهم، وأفضلُ المتصدِّقينَ أكثرُهم ذكرًا لله ﷻ، وأفضلُ الحُجَّاجِ أكثرهم ذكرًا لله ﷻ، وهكذا سائرُ الأعمال»(٢)، ثمَّ أورد الحديث المتقدِّم، وأورد عَقِبَهُ **عن عُبَيْد بن عُمَيْر** رحمه الله، **أنَّه قال**: «إنْ أَعْظَمَكُمْ هذا اللَّيْلُ أن تُكابدوه، وبَخِلْتُمْ بالمالِ أن تنفقوهُ، وجَبُنْتُمْ عن العدوِّ أن تقاتلوه، فأَكْثِرُوا مِنْ ذكرِ الله ﷻ»(٣).

فذِكرُ الله تعالى هو أفضلُ الأعمال، وهو أكبرُ مِنْ كلِّ شيء؛ يقولُ الله جلَّ وعلا: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ **أي**: ذكرُ اللهِ لكم أكبرُ مِنْ ذكركم له في عبادتِكُمْ وصلواتكم، وهو ذاكرٌ مَنْ ذَكَرَهُ؛ قال معناه ابنُ مسعود، وابن عَبَّاس، وأبو الدرداء، وأبو قُرَّةَ، وسَلْمانُ، والحسنُ، واختاره ابنُ جريرٍ الطبريُّ. **وقيل**: ذِكْرُكُمُ اللهَ في صلاتكم وفي قراءةِ القرآنِ أفضلُ من كلِّ شيء. **قال ابن زيد وقَتادة**: «ولَذِكرُ الله أكبرُ مِنْ كلِّ شيء»؛ **أي**: أفضلُ من العباداتِ كلِّها بغير ذكر. **وقيل**: **المعنى**: إنَّ ذكرَ اللهِ أكبرُ مَعَ المداومةِ من الصلاةِ في النهيِ عن الفحشاءِ والمنكر.

---

(١) «الوابل الصيب» (ص١٥٢). لم أجده في شيء من كتب ابن أبي الدنيا المطبوعة، وقد رواه أبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» رقم (١٣٦٦)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥٥٤)، كلاهما من طريق ابن أبي الدنيا، حدثنا محمد بن الفرج الفراء، حدثنا محمد بن الزبرقان، عن ثور بن زيد، عن أبي بكر، والضحاك كلاهما من أهل الشام، قالا: سئل رسول الله ﷺ أي أهل المسجد خير؟.... الحديث.

(٢) «الوابل الصيب» (ص١٥٢).

(٣) وقد ورد هذا المعنى في حديث مرفوع. **انظر**: «السلسلة الصحيحة» للألباني رقم (٢٧١٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّحيحُ أنَّ معنى الآيةِ: أنَّ الصَّلاةَ فيها مقصودانِ عظيمان، وأحدُهما أعظَمُ مِنَ الآخر؛ فإنَّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملةٌ على ذكرِ الله تعالى، وَلَمَا فيها مِن ذكرِ اللهِ أعظمُ مِنْ نهيها عن الفحشاءِ والمنكر»(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد سُئِلَ سَلْمانُ الفارسيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ فقال:** أمَا تَقْرَأُ القرآنَ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]».

وذكَرَ ابنُ أبي الدنيا **عن ابن عَبَّاس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أنَّه سُئِلَ: أيُّ العملِ أفضلُ؟ قال:** «ذِكْرُ اللهِ أكبرُ»(٢).

فاللهُ أكبرُ كبيرًا، والحمدُ للهِ كثيرًا، وسبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلًا، مِلْءَ سمواتِه، ومِلْءَ أرضِه، ومِلْءَ ما بينهما، ومِلْءَ ما شاء مِنْ شيءٍ بعدُ، لا ينقطعُ، ولا يَبِيدُ، ولا يفنى، عَدَدَ ما حَمِدَهُ الحامدون، وعَدَدَ ما غَفَلَ عن ذِكْرِهِ الغافلون، عددَ خَلْقِهِ، ورضا نفسه، وزِنَةَ عرشه، ومِدَادَ كلماته.

❁ ❁ ❁

(١) نقله ابن القيم في «الوابل الصيب» (ص١٥٢).
(٢) **وانظر:** «الوابل الصيب» لابن القيم (ص١٤٩ ـ ١٥٣).

٦

فَضْلُ الْإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ

لقد أمَرَ اللهُ في كتابه عبادَهُ المؤمنين بالإكثارِ مِنْ ذكره قيامًا وقُعودًا وعلى الجنوب، بالليل والنَّهار، وفي البَرِّ والبحر، وفي السَّفَرِ والحَضَر، وفي الغِنَى والفقر، وفي الصَّحَّةِ والسُّقْم، وفي السِّرِّ والعَلَن، وفي كلِّ حال، ورتَّبَ لهم على ذلك جزيلَ الأجرِ، وعظيمَ الثَّواب، وجميلَ المآب.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب].

ففي هذه الآيةِ الحَثُّ على الإكثارِ من ذكر الله تعالى، وبيانُ ما يَترتَّبُ على ذلك مِنْ أجرٍ عظيم، وخيرٍ عميم.

وقَولُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ فيه أعظمُ الترغيبِ في الإكثارِ من ذكرِ الله، وأحسنُ حضٍّ على ذلك؛ أي: إنّه سبحانه يَذْكُرُكُمْ فاذكروه أنتم، وهو نظيرُ قولِه تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة]، فالجزاءُ مِنْ جنس العمل؛ فمَنْ ذكَرَ اللهَ في نفسِهِ ذكَرَهُ اللهُ في نفسه، ومَنْ ذكَرَ اللهَ في مَلَإٍ ذكَرَهُ اللهُ في مَلَإٍ خيرٍ منهم، ومَنْ نَسِيَ اللهَ نَسِيَهُ اللهُ.

فالمُكْثِرونَ من ذكرِ الله لهم الحظُّ الأوفر، والنصيبُ الأكملُ من ذكر الله لهم، وصلاتِهِ عليهم وملائكتِهِ. **رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية: أنَّه قال:** «فإذا فَعَلْتُمْ ذلك ـ أي: أكثَرْتُمْ مِنْ ذكرِ الله ـ صلَّى اللهُ عليكم هو وملائكتُهُ»[1].

---

(١) «تفسير ابن جرير» (١٩/ ١٢٤).

وصلاةُ الله على عباده الذاكرين له هي ثناؤُهُ عليهم في الملأ الأعلى عند الملائكةِ الكرامِ البَرَرَة، وصلاةُ الملائكةِ عليهم هي بمعنى الدعاءِ لهم والاستغفار؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۞٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۞٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر].

وقد حكى البخاريُّ في «صحيحه»، **عن أبي العالية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **أنَّه قال في معنى قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، «صلاةُ الله: ثناؤُهُ عليه عند الملائكة، وصلاةُ الملائكة: الدعاءُ»(١).

ثُمَّ إنَّ الله تبارك وتعالى ـ بسبب رحمتِهِ الذاكرين اللهَ كثيرًا، وثنائِهِ عليهم، ودعاءِ ملائكته لهم ـ يخرجهم مِنَ الظُّلُمات إلى النُّور؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب: ٤٣]؛ مِنْ ظلماتِ الجهلِ والضَّلَال إلى نورِ الهدى واليقين، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ۞٤٣﴾؛ **أي**: في الدنيا والآخرة؛ **أمَّا في الدنيا**: فإنَّه هداهم إلى الحقِّ الذي جَهِلَهُ غيرُهم، وبَصَّرَهُمُ الطريقَ الذي ضَلَّ عنه وحاد عنه مَنْ سواهم مِنَ الدعاةِ إلى الكُفْرِ أو البدعةِ أو الباطل. **وأمَّا رحمتُهُ بهم في الآخرة**: فآمَنَهم من الفزعِ الأكبر، وأمَرَ ملائكتَهُ يَتلقَّوْنهم بالبشارةِ بالفوزِ بالجَنَّةِ والنجاةِ من النَّار؛ وما ذاك إلَّا لمحبَّتِهِ لهم ورأفتِهِ بهم، جعلنا الله منهم.

ويقولُ الله تعالى في آيةٍ أخرى مبيِّنًا فضلَ الذاكرينَ الله كثيرًا والذَّاكرات، منوِّهًا بشأنهم، مُعْلِيًا لذكرهم، مبيِّنًا لعظيم أجرهم وثوابهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب التفسير (٦/ ٣٢٦).

وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

أي: هَيَّأَ لذنوبهم الصَّفْحَ والغُفْران، ولأعمالهم الصالحةِ الأَجْرَ العظيمَ والدرجاتِ العاليةَ في الجِنَان، ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ إنسان.

إنَّ الذاكرينَ الله كثيرًا والذاكراتِ هُمُ المُفَرِّدونَ السابقونَ إلى الخيرات، المحظوظون بأرفعِ الدرجات وأعلى المقامات؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كان رسولُ الله ﷺ يسيرُ في طريقِ مَكَّةَ، فمَرَّ على جبلٍ يقال له: جُمْدَانُ، فقال: **(سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ المُفَرِّدُونَ)**، قالوا: وما المفرِّدون؟ قال: **(الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتُ)**»(١).

وقد فسَّر رسولُ الله ﷺ المُفَرِّدِينَ بأنَّهم الذاكرونَ الله كثيرًا والذاكرات، **وأصلُ المفرِّدين ـ كما يقول ابن قتيبة وغيره ـ**: «الذين هلَكَ أَقْرَانُهم، وانفردوا عنهم، فَبَقُوا يَذْكُرُونَ الله تعالى»(٢).

إنَّ مَنْ يتأمَّلُ هذه النصوصَ وغَيْرَها مِنَ النصوصِ الكثيرةِ الواردةِ في بيانِ عظيمِ أجرِ الذاكرينَ الله كثيرًا والذاكرات، وجزيلِ ثوابهم، وما أعَدَّ اللهُ لهم من النعيم المقيم والثواب الكبيرِ يومَ القيامة؛ لَتتحَرَّكُ نفسُهُ شوقًا وطمعًا، ويهتزُّ قلبُه حبًّا ورَغَبًا في أن يكونَ مِنْ هؤلاء، أهلِ هذا المقامِ الرفيع، والمنزلة العالية.

ولكنْ بِمَ ينالُ العبدُ ذلك؟ وهذا سؤالٌ عظيمٌ يجدُرُ بكلِّ مسلم أن يقفَ عنده، ويعرفَ جوابه. وقد جاء عن السَّلَفِ في معنى الذاكرينَ الله كثيرًا والذاكراتِ نقولٌ عديدةٌ؛ **منها**:

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٦).

(٢) **انظر**: «شرح مسلم» للنووي (١٧/ ٤).

ما روي عن ابن عَبَّاس ﵄ **أنَّه قال:** «**المرادُ**: يَذْكُرُونَ اللهَ فِي أدبارِ الصلواتِ، وغُدُوًّا وعشيًّا، وفي المضاجعِ، وكلَّما استيقَظَ مِنْ نومه، وكلَّما غدا أو راحَ مِنْ منزلِهِ ذكَرَ الله تعالى».

وقال مجاهدٌ ﵀: «لا يكونُ مِنَ الذاكرينَ اللهَ كثيرًا والذاكراتِ حتَّى يَذْكُرَ اللهَ قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا».

وقال عطاءٌ ﵀: «مَنْ صَلَّى الصلواتِ الخمسَ بحقوقها، فهو داخلٌ في قولِ الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]»(١).

ومِن صفةِ هؤلاءِ: الصلاةُ من الليل؛ فقد روى أبو داود، وابن ماجه، والحاكم، وغيرهم، بإسناد صحيح، صحَّحه الحاكم، والذَّهَبِيُّ، والنَّوَوِيُّ، والعراقيُّ، وغيرهم، من حديث أبي سعيد الخدري ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّيَا أَوْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ**)(٢).

وقد سُئِلَ أبو عمرِو بنُ الصَّلَاحِ ﵀ ـ فيما نقله النوويُّ ﵀ **عنه في كتاب الأذكار ـ عن القَدْرِ الذي يصيرُ به العبدُ مِنَ الذاكرينَ اللهَ كثيرًا والذاكراتِ؟ فقال:** «إذا واظَبَ على الأذكارِ المأثورةِ المُثْبَتَةِ صباحًا ومساءً، في الأوقاتِ والأحوالِ المختلفةِ، ليلًا ونهارًا، وهي مبيَّنةٌ في كتاب «عمل اليوم والليلة»، كان من الذاكرينَ الله كثيرًا والذاكراتِ»(٣).

ويقول الشيخ العلَّامة عبد الرحمٰن بن سعدي ﵀: «وأقلُّ ذلكَ: أنْ يُلَازِمَ الإنسانُ أورادَ الصباحِ والمساءِ، وأدبارِ الصلواتِ الخمس، وعند العوارضِ والأسبابِ، وينبغي مداومةُ ذلكَ في جميعِ الأوقاتِ على جميعِ الأحوال؛ فإنَّ ذلك عبادةٌ يسبقُ بها العاملُ وهو مستريحٌ، وداعٍ إلى محبَّةِ اللهِ

---

(١) **انظر** هذه الآثار في «الأذكار» للنووي (ص٩، ١٠).

(٢) «سنن أبي داود» رقم (١٣٠٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٣٣٥)، و«مستدرك الحاكم» (١/٣١٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٠٣٠).

(٣) «الأذكار» للنووي (ص١٠).

ومعرفته، وعونٌ على الخيرِ، وكفٌّ اللِّسانِ عن الكلامِ القبيح»[١]. اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأسألُ الله سبحانه بأسمائِهِ الحسنى أن يجعلنا من الذاكرينَ اللهَ كثيرًا والذاكراتِ، الذينَ أَعَدَّ اللهُ لهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا، إنَّه على ذلك قدير، وبالإجابةِ جدير.

❁ ❁ ❁

(١) «تيسير الكريم الرّحمٰن» (٦/ ١١٢).

٧

تَنَوُّعُ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ فَضْلِ الذِّكْرِ

مَرَّ معنا فضيلةُ الذِّكْرِ وعظيمُ أجره، وبيانُ ما أعدَّه اللهُ لأهله من جميل الثَّوَاب، وكريمِ المآب، وحُسْنِ العاقبة، وهناءةِ العيش، ومَرَّ معنا شيءٌ يسيرٌ من فوائِدِه العَطِرة، وثمارِهِ الكريمةِ اليانعة، وعواقبِهِ الحميدةِ في الدنيا والآخرة.

ولـمَّا كان الذِّكْرُ بهذه المنزلةِ الرَّفيعةِ والدَّرَجةِ العالية، فإنَّ دلالاتِ النصوصِ المبيِّنة لفضلِهِ جاءتْ متنوِّعةً، وكان مجيئُهُ في القرآن الكريم على وجوهٍ كثيرة، وهي بمجموعها وأفرادها تدلُّ على عظيمِ شأنِ الذِّكْر، وجليلِ قدره.

وقد ذكَرَ الإمامُ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «مدارج السالكين»(١): أنَّ الذِّكْرَ ورَدَ في القرآنِ الكريمِ على عَشَرةِ أوجهٍ، ذكَرَها مجملةً، ثُمَّ أورَدَ بعد ذلك تفصيلَها؛ قال رَحِمَهُ اللهُ:

الأوَّل: الأمرُ به مطلقًا ومقيَّدًا.

الثاني: النَّهْيُ عن ضدِّه من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليقُ الفلاحِ باستدامتِهِ وكثرته.

الرابع: الثناءُ على أهله، والإخبارُ بما أعدَّ اللهُ لهم من الجنَّةِ والمغفرة.

الخامس: الإخبارُ عن خسرانِ مَنْ لها عنه بغيره.

السادس: أنَّه سبحانه جعَلَ ذِكْرَهُ لهم جزاءً لِذِكْرِهم له.

(١) انظره: (٢/ ٤٢٤ وما بعدها).

السابع: الإخبارُ بأنَّه أكبرُ من كلِّ شيء.

الثامن: أنَّه جعلَهُ خاتمةَ الأعمالِ الصالحةِ، كما كان مفتاحَهَا.

التاسع: الإخبارُ عن أهلِهِ بأنَّهم هم أهلُ الانتفاعِ بآياته، وأنَّهم أُولُو الألبابِ دون غيرهم.

العاشر: أنَّه جعلَهُ قرينَ جميعِ الأعمالِ الصالحةِ ورُوحَها، فمتى عَدِمَتْهُ كانتْ كالجسد بلا رُوح.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ في بيانِ تفصيلِ هذه الأوجهِ العَشَرةِ:

* **أمَّا الأوَّل: وهو الأمرُ به مطلقًا ومقيَّدًا**؛ فكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

* **وأمَّا النهيُ عن ضدِّه**؛ فكقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

* **وأمَّا تعليقُ الفلاحِ بالإكثارِ منه**؛ فكقولِهِ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

* **وأما الثناءُ على أهلِهِ، وحُسْنُ جزائهم**؛ فكقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾، إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

* **وأمَّا خُسْرانُ مَنْ لها عنه**؛ فكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

* **وأمَّا جعلُ ذِكْرِهِ لهم جزاءً لِذِكْرِهِمْ له**؛ فكقوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]؛ وذِكْرُ العبدِ لربِّهِ محفوفٌ بِذِكْرَيْنِ من ربِّه له: ذِكْرٍ قبلَهُ به صارَ العبدُ ذاكرًا له، وذكرٍ بَعْدَهُ به صارَ العبدُ مذكورًا، **فذِكْرُ الربِّ لعبده نوعان: نوعٌ** قبل ذكرِ العبدِ لربِّه، **ونوعٌ** بعده.

* **وأمَّا الإخبارُ عنه بأنَّه أكبرُ مِنْ كلِّ شيءٍ**؛ فكقوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* **وأمَّا ختمُ الأعمالِ الصالحةِ به**؛ فكما ختَمَ به عملَ الصيامِ بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وختَمَ به الحجَّ في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وختَمَ به الصلاةَ بقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٠٣]، وختَمَ به الجمعةَ بقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]؛ ولهذا كان خاتمةَ الحياةِ الدنيا، وإذا كانَ آخرَ كلامِ العبدِ أدخلَهُ اللهُ الجنةَ.

* **وأمَّا اختصاصُ الذاكرينَ بالانتفاعِ بآياته، وهم أُولُو الألبابِ والعقول**؛ فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران].

* **وأمَّا مصاحبتُهُ لجميعِ الأعمال، واقترانُهُ بها، وأنَّه رُوحُها**؛ فإنَّه سبحانه قَرَنَهُ بالصلاةِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، وقرنَهُ بالصيامِ وبالحجِّ ومناسكه، بل هو رُوحُ الحَجِّ ولُبُّهُ ومقصودُهُ؛ كما قال ﷺ: (**إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالبَيْتِ، والسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ، وَرَمْيُ الجِمَارِ: لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ**)(١).

وقرنَهُ بالجهاد، وأمَرَ بذكرِهِ عندَ ملاقاةِ الأقران، ومكافحةِ الأعداء؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فهذه وجوهٌ عَشَرةٌ ورَدَ فيها الذِّكْرُ في القرآنِ الكريم، وذُكِرَ لكلِّ وجهٍ منها

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٧٥)، وأبو داود رقم (١٨٨٨)، والترمذي رقم (٩٠٢)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم (١/ ٤٥٩)، وصحَّحه أيضًا ابن خزيمة رقم (٢٨٨٢).

بعضُ الشواهد من الآيات القرآنية، والقرآنُ الكريمُ مليءٌ بالآياتِ المندرجةِ تحت هذه الأنواع، وهي يسيرةُ الحصول، قريبةُ المتناوَلِ لِمَنْ قرأ القرآنَ الكريمَ وتَدبَّرَ آياتِهِ.

وما أحسَنَ وأروَعَ ما قاله الإمامُ الشَّوْكانيُّ رَحِمَهُ اللهُ **في سياق آخر، وهو ينطبق على سياقنا هذا تمامَ الانطباق؛ حيثُ قال** رَحِمَهُ اللهُ: «واعلمْ أنَّ إيرادَ الآياتِ القرآنيةِ على إثباتِ كلِّ مقصدٍ مِنْ هذه المقاصدِ لا يَحتاجُ إليه مَنْ يقرأُ القرآنَ العظيم؛ فإنَّه إذا أخَذَ المصحفَ الكريمَ وقَفَ على ذلكَ في أيِّ موضعٍ شاء، ومِنْ أيِّ مكانٍ أحبَّ، وفي أيِّ محلٍّ أراد، ووجَدَهُ مشحونًا به مِنْ فاتحتِهِ إلى خاتمتِهِ»(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

بل إنَّ القرآنَ الكريمَ كلَّه كتابُ ذِكْرٍ لله؛ فذِكْرُ اللهِ تعالى هو لُبُّ القرآنِ ورُوحُهُ وحقيقتُهُ وغايةُ مقصودِهِ؛ يقول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرة.

وقد سمَّى اللهُ ﷻ كتابَهُ العزيزَ ذِكْرًا؛ فقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ

(١) «إرشاد الثقات» (ص٤).

عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت]، وفي هذا المعنى آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم.

قال سفيانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «سمعنا أنَّ قراءةَ القرآنِ أفضلُ الذِّكْرِ إذا عُمِلَ به»(١)، وروى الطبريُّ بإسناده إلى عَوْن بن عبد الله، قال: «أتينا أمَّ الدرداءِ نَتحدَّثُ إليها، قال: ثُمَّ قلتُ: يا أمَّ الدرداءِ، لعلَّنا أَمْلَلْنَاكِ؟ قالت: أمللتموني واللهِ، لقد الْتَمَسْتُ العبادةَ في كلِّ شيء، فما وَجَدتُّ شيئًا أشفى لنفسي من مجلسِ ذِكْرٍ، قال: ثُمَّ اختَبَأَتْ، ثمَّ قالتْ لرجلٍ: اقرأ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]».

رَحِمَ اللهُ أمَّ الدرداء، ورَحِمَ اللهُ السَّلَفَ الصالحَ أجمعين؛ كيف حَفِظُوا أوقاتَهُمْ وأعمارهم، وعَمَرُوها بذكرِ اللهِ وما يُقرِّبُ إليه، ولم تَتردَّدْ رحمها الله عندما سألها: لعلَّنا أمللناك؟ أن تقول: نَعَمْ أمللتموني والله؛ فهي الحافظةُ لوقتها، الحريصةُ على كمالِ دينها وتمامِهِ؛ فللَّهِ ما أزكاها مِنْ ألفاظٍ صادقة، وأنفاسٍ عَطِرة، وإيمانيَّاتٍ مُؤَثِّرة، وخيرٍ مُتدفِّق، واللهُ المستعان، وهو حسبُنا ونعم الوكيل.

❁ ❁ ❁

(١) أورد هذا الأثر والذي بعده القرطبي في «التذكار في فضل الأذكار» (ص٥٥، ٥٩).

٨
ذَمُّ الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

إن الله تبارك وتعالى لمَّا أمَرَ بذكرِهِ في القرآن الكريم، وحَثَّ عليه، ورَغَّبَ فيه في آيٍ كثيرةٍ منه، حَذَّرَ أيضًا مِنَ الوقوعِ في ضدِّه، وهو الغفلةُ؛ إذْ لا يتمُّ الذِّكْرُ للهِ حقيقةً إلَّا بالتخلُّصِ مِنَ الغفلةِ والبعدِ عنها، وقد جمَعَ اللهُ بين هذين الأمرين في آيةٍ واحدة مِنَ القرآن ـ **أعني**: الأمرَ بالذِّكْرِ، والنهيَ عن الغفلة ـ وذلك في قوله تعالى مِنْ آخرِ سورة الأعراف: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [٢٠٥].

والمرادُ بقوله في الآية: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾؛ **أي**: من الذين نَسُوا اللهَ فأنساهم أنفسهم؛ فإنَّهم حُرِمُوا خَيْرَيِ الدنيا والآخرة، وأَعْرَضُوا عَمَّنْ كلُّ السعادةِ والفَوْزِ في ذكرِهِ وعبوديَّتِهِ، وأقبلوا على مَنْ كلُّ الشقاوةِ والخيبةِ في الاشتغالِ به، وفي الآيةِ أمرٌ بالذكرِ والمواظبةِ عليه، وتحذيرٌ مِنَ الغفلةِ عنه، وتحذيرٌ من سبيلِ الغافلين.

والغفلةُ داءٌ خطير؛ إذا اعترَى الإنسانَ وتمكَّنَ منه، لم يَشتغِلْ بطاعةِ الله وذكرِهِ وعبادتِهِ، بل يشتغلُ بالأمورِ الملهيةِ المُبْعِدةِ عن ذكرِ الله، وإنْ عَمِلَ أعمالًا من الطاعةِ والعبادة؛ فإنَّها تأتي منه على حالٍ سيِّئةٍ ووضعٍ غيرِ حسن، فتكون أعمالُهُ عاريةً من الخشوعِ والخضوعِ، والإنابةِ، والطُّمأنينةِ والخشيةِ والصِّدْقِ والإخلاص.

ولهذا جاء في القرآنِ الكريمِ في مواطنَ كثيرةٍ منه التحذيرُ منها وذمُّها، وبيانُ سوءِ عاقبتها، وأنَّها مِنْ خصالِ الكافرين، وصفاتِ المنافقين المُعْرِضين؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ

هُمُ الْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس]، ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرة.

إنَّ مَثَلَ الغافلِ عن ذِكْرِ الله مَثَلُ الميِّت، وقد تقدَّم معنا أنَّ الذِّكْرَ هو حياةُ القلوبِ حقيقةً؛ فلا حياةَ لها بدونه، وحاجتُهَا إليه أعظمُ مِنْ حاجةِ السَّمَكِ إلى الماء؛ فالقلبُ الذَّاكِرُ هو القلبُ الحيُّ، والقلبُ الغافلُ هو القلبُ الميِّت.

وفي «الصحيحين»، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (**مَثَلُ الَّذي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُهُ مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ**)، ولفظ مسلم: (**مَثَلُ البَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ وَالبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ**)(١).

ففي هذا التمثيل ـ **كما يقول الشوكاني** رحمه الله ـ: «مَنْقَبَةٌ للذَّاكِرِ جليلةٌ، وفضيلةٌ له نبيلة، وأنَّه بما يقَعُ منه من ذكرِ الله عز وجل فِي حياةٍ ذاتيةٍ ورُوحيَّةٍ لِمَا يغشاه من الأنوار، ولِمَا يصلُ إليه من الأجور، كما أنَّ التاركَ للذِّكْرِ ـ وإن كان في حياةٍ ذاتيةٍ ـ فليس لها اعتبارٌ، بل هو شبيهٌ بالأموات»(٢).

لقد جعل النبيُّ الكريمُ ﷺ في هذا الحديث بيتَ الذَّاكِرِ بمنزلةِ بيتِ الحيِّ، وبيتَ الغافلِ بمنزلةِ بيت الميِّت، وهو القبر، وفي اللَّفْظِ الأوَّلِ جعَلَ الذاكرَ نفسَهُ بمنزلة الحيّ، والغافلَ بمنزلةِ الميِّت، فتضمَّنَ الحديثُ بمجموعِ لفظيه: أنَّ القلبَ الذاكرَ كالحيِّ في بيوتِ الأحياء، والقلبَ الغافلَ كالميِّتِ في بيوتِ الأموات؛ وعلى هذا: فإنَّ أبدانَ الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور؛ **ولهذا قيل**:

فَنِسْيَانُ ذِكْرِ اللَّهِ مَوْتُ قُلُوبِهِمْ ... وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ
وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِمْ ... وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٤٠٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٧٩).
(٢) «تحفة الذاكرين» (ص١٥).

وقيل:

فَنِسْيَانُ ذِكْرِ اللَّهِ مَوْتُ قُلُوبِهِمْ ... وَأَجْسَامُهُمْ فَهِيَ القُبُورُ الدَّوَارِسُ
وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ حَبِيبِهِمْ ... وَلَكِنَّهَا عِنْدَ الخَبِيثِ أَوَانِسُ[(١)]

ولهذا صحَّ في الحديث عن النبيِّ ﷺ: النهيُ عن جعلِ البيوت قبورًا؛ أي: لا يصلَّى فيها، ولا يُذْكَرُ فيها اللهُ تعالى؛ ففي «الصحيحين»، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **(اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا)**[(٢)].

وروى مسلمٌ في «صحيحه»، من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **(لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ مِنَ البَيْتِ الَّذِي يَسْمَعُ سُورَةَ البَقَرَةِ تُقْرَأُ فِيهِ)**[(٣)].

وفي «سنن أبي داود» وغيره، بإسناد حسن، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتكُم تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)**[(٤)]؛ **قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيميَّة رحمه الله في بيان معنى قوله: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا) قال:** «أي: لا تُعطِّلوها عن الصلاةِ فيها والدعاءِ والقراءةِ، فتكونَ بمنزلةِ القبور، فأمَرَ بتحرِّي العبادةِ في البيوت، ونهى عن تحرِّيها عند القبور، عَكْسَ ما يفعلُهُ المُشرِكُونَ من النَّصارى ومَنْ تَشبَّهَ بهم»[(٥)]. اهـ كلامه رحمه الله.

ولَمَّا كان القلبُ بهذه المثابةِ يُوصَفُ بالحياةِ وضدِّها، انقسَمَتِ القلوبُ بِحَسَبِ ذلك إلى ثلاثة أقسام[(٦)]:

---

(١) **انظر:** «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٤٢٩، ٤٣٠).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٣٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٧٧).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٧٨٠).
(٤) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٧)، و«سنن أبي داود» رقم (٢٠٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٢٢٦).
(٥) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦٢).
(٦) **انظر:** «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ١٣ ـ ١٥).

الأوَّل: القلبُ السليم، وهو الذي سَلِمَ مِنْ أن يكونَ لغيرِ الله فيه شِرْكٌ بوجهٍ ما، بل قد خَلَصَتْ عبوديَّتُهُ لله تعالى إرادةً ومحبَّةً، وتوكُّلًا وإنابةً، وإخباتًا وخشيةً ورجاءً، وخَلَصَ عملُهُ لله؛ فإنْ أحبَّ أحبَّ في الله، وإنْ أبغَضَ أبغَضَ في الله، وإنْ أعطى أعطى لله، وإنْ منَعَ منَعَ لله، ويكونُ الحاكمُ عليه في أمورِهِ كلِّها هو ما جاء به رسولُ الله ﷺ؛ فلا يَتقدَّمُ بين يديه بعقيدةٍ ولا قولٍ ولا عمل.

الثاني: ضِدُّ هذا؛ وهو القلبُ الميِّتُ، الذي لا حياةَ به؛ فهو لا يعرفُ ربَّه، ولا يعبدُهُ، ولا يمتثلُ أمره، ولا يفعلُ ما يحبُّهُ ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهواته ولذَّاته، ولو كان فيها سخطُ ربِّهِ وغضبُهُ، فهو مُتعبِّدٌ لغيرِ الله حبًّا وخوفًا ورجاءً، ورضًا وسُخْطًا وتعظيمًا وذُلًّا؛ إنْ أحبَّ أحبَّ لهواه، وإنْ أبغَضَ أبغَضَ لهواه، وإنْ أعطى أعطى لهواه، وإنْ منَعَ منَعَ لهواه؛ فهو آثَرُ عنده وأحبُّ إليه مِنْ رضا مولاه، فالهوى إمامُه، والشهوةُ قائدُه، والجهلُ سائقُه، والغفلةُ مَرْكَبُه.

الثالث: قلبٌ له حياةٌ، وبه عِلَّةٌ، فله مادَّتان: تُمِدُّهُ هذه مرَّة، وهذه أخرى، وهو لِمَا غَلَبَ عليه منهما، ففيه مِنْ محبَّةِ الله تعالى، والإيمانِ به، والإخلاصِ له، والتوكُّلِ عليه: ما هو مادَّةُ حياته، وفيه مِنْ محبَّةِ الشهواتِ، وإيثارِها، والحرصِ على تحصيلها، ومِنَ الحَسَدِ، والكِبْرِ، والعُجْبِ، وحُبِّ العُلُوِّ: ما هو مادَّةُ هلاكِهِ وعَطَبِهِ.

فالقلبُ الأوَّل: حيٌّ مُخْبِتٌ ليِّنٌ، **والثاني**: يابسٌ ميِّت، **والثالث**: مريض؛ فإمَّا إلى السلامةِ أدنى، وإمَّا إلى العَطَبِ أدنى.

وعلى هذا: فإن القلب ـ لكي تبقى له حياتُهُ، وتزولَ عنه غفلتُهُ، وتتمَّ له استقامتُهُ ـ محتاجٌ إلى ما يحفظُ عليه قُوَّتَهُ، وهو الإيمانُ، وأورادُ الطاعات، والمحافظةُ على ذكر الله، والبعدُ عن كلِّ ما يُسْخِطُهُ تبارك وتعالى، ولا سعادةَ للقلبِ ولا لَذَّةَ ولا نعيمَ ولا صلاحَ إلَّا بأنْ يكونَ اللهُ وحده إلـهَهُ وفاطرَهُ ومعبودَهُ وغايةَ مطلوبه، وأحبَّ إليه مِنْ كلِّ ما سواه؛ فبهذا تكونُ نجاةُ القلبِ مِنَ الغفلةِ، وسلامتُهُ مِنَ الهَلَكَةِ؛ وبهذا تَسْرِي فيه الحياة، والتوفيقُ بيد الله وحده.

٩

مِنْ آدَابِ الذِّكْرِ

تقدَّم معنا قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وبيانُ ما اشتمَلَتْ عليه الآيةُ الكريمةُ مِنَ الجمعِ بين الأمر بذكرِ الله والنَّهْيِ عن ضدِّه، وهو الغفلةُ، **وهذه الآيةُ إضافةً إلى دَلَالتها على ذلك ـ فقد اشتمَلَتْ على جملةٍ طيِّبةٍ من الآدابِ الكريمةِ التي ينبغي أن يتحلَّى بها الذَّاكِرُ؛ فمن هذه الآداب**:

أوَّلًا: أن يكون الذِّكْرُ في نفسه؛ لأنَّ الإخفاءَ أدخلُ في الإخلاص، وأقربُ إلى الإجابة، وأبعدُ من الرِّياء.

ثانيًا: أن يكونَ على سبيل التضرُّع، وهو التذلُّلُ والخضوعُ والاعترافُ بالتقصير؛ ليتحقَّقَ فيه ذِلَّةُ العبوديَّة، والانكسارُ لعظمةِ الرُّبوبيَّة.

ثالثًا: أن يكونَ على وجهِ الخِيفَةِ؛ **أي**: الخوفِ مِنَ المؤاخذةِ على التقصيرِ في العمل، والخشيةِ مِنَ الرَّدِّ، وعدمِ القَبول؛ قال الله تعالى في صفةِ المؤمنين، المسارعينَ في الخيرات، السابقين لأرفعِ الدَّرجات: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون].

وقد ثبَتَ في «المسند» وغيره، عن عائشة رضي الله عنها، أنَّها سألتِ النبيَّ ﷺ عن هؤلاء، «فقالت: يا رسولَ الله، أهو الرَّجُلُ يَزْنِي ويَسْرِقُ ويَشْرَبُ الخمرَ، ويخافُ أن يُعذَّب؟ قال: **(لَا، يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، ولَكِنَّهُ الرَّجُلَ يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَن لَا يُقْبَلَ مِنهُ)**»[1].

---

(١) «المسند» (٦/١٥٩، ٢٠٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣١٧٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٤١٩).

رابعًا: أن يكون دون الجهر؛ لأنَّه أقربُ إلى حُسْنِ التفكُّر؛ **قال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا قال: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، وهكذا يُستَحبُّ أن يكون الذِّكْرُ؛ لا يكونُ نداءً وجهرًا بليغًا»[(١)]، وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «رَفَعَ النَّاسُ أصواتَهُمْ بالدعاءِ في بعضِ الأسفار، فقال لهم النبي ﷺ: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا)**»[(٢)].

خامسًا: أن يكون باللسانِ لا بالقلبِ وحده، وهو مستفادٌ من قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾؛ **لأنَّ معناه**: ومُتكلِّمًا كلامًا دونَ الجَهْر، ويكونُ المرادُ بالآية الأمرَ بالجمعِ في الذِّكْرِ بين اللسانِ والقلب، وقد يقال: هو ذكرُهُ في قلبه بلا لسانِهِ؛ لقوله بعد ذلك: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ إلَّا أنَّ الأوَّل هو الأصحُّ؛ كما حقَّق ذلك شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرُهُ من أهل العلم.

وقد نَظَّرَ له رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله ﷺ فيما روى عن رَبِّهِ أنَّه قال: **(مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ)**[(٣)]، **قال**: «وهذا يدخُلُ فيه ذكره باللسانِ في نفسه؛ فإنَّه جعلَهُ قَسِيمَ الذكر في الملإِ، وهو نظيرُ قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ والدليلُ على ذلك أنَّه قال: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾، ومعلومٌ أنَّ ذِكْرَ اللهِ المشروعَ بالغدوِّ والآصالِ في الصلاةِ وخارجَ الصلاة هو باللسانِ مع القلب، مثلُ صَلَاتَي الفجرِ والعصر، والذِّكْرِ المشروعِ عَقِبَ الصلاتَيْن، وما أمَرَ به النبيُّ ﷺ وعَلَّمه وفَعَلَهُ مِنَ الأذكارِ والأدعيةِ المأثورةِ مِنْ عملِ اليومِ والليلةِ المشروعةِ طَرَفَي النَّهارِ بالغُدُوِّ والآصال»[(٤)].

سادسًا: أن يكون بالغدوِّ والآصال؛ **أي**: في البُكْرةِ والعشيِّ؛ فتدلُّ الآيةُ على مزيَّةِ هذَيْن الوقتين؛ لأنَّهما وقتُ سكونٍ ودَعَةٍ وتعبُّدٍ واجتهاد، وما بينهما

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٤٤).

(٢) سيأتي الحديث بتمامه (ص٢٤٨).

(٣) تقدم تخريجه (ص٢٠).

(٤) **انظر**: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٥/ ٣٣ ـ ٣٦).

الغالبُ فيه الانقطاعُ إلى أمرِ المعاش، وقد رُوِيَ أنَّ عَمَلَ العبدِ يَصْعَدُ أوَّلَ النهارِ وآخره؛ فَطَلبُ الذِّكْرِ فيهما ليكونَ ابتداءُ عملِهِ واختتامُهُ بالذكر.

ففي «صحيح مسلم»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بالنَّهَارِ، يَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ ـ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ـ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**)(١).

سابعًا: النهيُ عن الغَفْلةِ عن ذكره بقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]؛ **أي**: مِنَ الذين يَغْفُلُونَ عن ذكرِ الله ويَلْهُون عنه، وفيه إشعارٌ بطلبِ دوام ذكره تعالى والاستمرارِ عليه، وَ(**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ ﷻ أَدْوَمُهَا وإِنْ قَلَّ**)(٢).

فهذه سبعةُ آدابٍ عظيمةٍ اشتَمَلَتْ عليها هذه الآيةُ الكريمةُ، ذكرها القاسميُّ رحمه الله في كتاب «مَحَاسِن التأويل»(٣)، وللذكر آدابٌ كثيرة أخرى، سيأتي معنا شيءٌ منها لاحقًا ـ إن شاء الله ـ.

ثم إنَّ الله تبارك وتعالى لمَّا حَثَّ على الذكرِ في هذه الآية، ورغَّب فيه، وحذَّر من ضدِّه، وهو الغفلة، ذكَرَ عقبها في الآيةِ التي تليها ما يُقَوِّي دواعيَ الذكر، ويُنْهِضُ الهِمَمَ إليه بمدح الملائكةِ الذين يُسبِّحونَ الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرونَ؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والمراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾؛ **أي**: الملائكة، وقد وَصَفَهُمُ الله في هذه الآيةِ بعدمِ الاستكبار عن عبادةِ الله، وأنَّهم يُسَبِّحونه وله يَسْجُدون،

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٥٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٦٣٢).
(٢) رواه البخاري رقم (٥٨٦١)، ومسلم رقم (٢١٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) (٧/ ٢٩٣٦، ٢٩٣٧).

وهذا فيه حثٌّ للمؤمنينَ وترغيبٌ لهم في أن يقتدوا بهم فيما ذُكِرَ عنهم؛ لأنَّه إذا كان أولئك ـ وهم معصومون من الذَّنْبِ والخطأ ـ هذه حالُهم في التسبيحِ والذكرِ والعبادةِ؛ فكيف ينبغي أن يكونَ غيرهم؟!

ولهذا يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وإنَّما ذكرهم بهذا ليُتشبَّهَ بهم في كثرةِ طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شُرِعَ لنا السجودُ ها هنا لمَّا ذكَرَ سجودَهُمْ لله عَزَّ وَجَلَّ؛ كما جاء في الحديث: **(أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟! يُتِمُّونَ الصُّفُـوفُ الأُوَلَ، ويَتَراصُّونَ فِي الصَّفِّ)**[١]، وهذه أوَّلُ سَجْدةٍ في القرآن مما يُشْرَعُ لتاليها ومستمعيها السجودُ بالإجماع»[٢].

ويقول الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «ثم ذكَرَ تعالى أنَّ له عبادًا مستديمين لعبادتِهِ، ملازمينَ لِخِدْمَتِهِ، وهم الملائكةُ؛ لتعلموا أنَّ الله لا يريدُ أن يَتكثَّرَ بعبادتكم مِنْ قِلَّة، ولا لِيَتعزَّزَ بها مِنْ ذلَّة، وإنما يريدُ نفعَ أَنْفُسِكم، وأن تربحوا عليه أضعافَ أضعافِ ما عَمِلتم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقرَّبين، وحَمَلَة العَرْشِ والكَرُوبيِّين: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، بل يُذْعِنُونَ لها، وينقادون لأوامر ربِّهم، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرونَ، ﴿وَلَهُۥ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾؛ فَلْيَقْتَدِ العبادُ بهؤلاءِ الملائكةِ الكرام، وليداوموا على عبادةِ المَلِكِ العَلَّام»[٣]. اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

والمقصودُ: أنَّ الله تبارَكَ وتعالى لَمَّا نَهى عبادَهُ عن أن يكونوا من الغافلين، ذكَرَ بعد ذلك مثالًا مِنِ اجتهادِ الملائكةِ لِيُحْتَذَى، ولِيَبْعَثَ على الجِدِّ في طاعةِ الله وذكرِهِ، والحمدُ لله وحده.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم رقم (٤٣٠).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٤٤).

(٣) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٣/ ٦٨).

١٠

أَفْضَلُ الذِّكْرِ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

إنَّ خيرَ ما ينبغي للعبدِ أن يذكُرَ الله به هو كلامُهُ تبارك وتعالى، الذي هو خيرُ الكلامِ وأحسنُهُ وأصدقُهُ وأنفعُهُ، وهو وحيُ الله وتنزيلُهُ، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا مِنْ خَلْفه، وهو أفضلُ كتابٍ أنزلَهُ الله تبارك وتعالى على أفضلِ رسول، على عبدِهِ ومصطفاهُ وخِيرَتِهِ من خلقِهِ محمَّدِ بنِ عبد الله ﷺ.

يقول الله تعالى في بيان شرف هذا القرآن الكريم وفضله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]؛ **قال ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذا اعتناءٌ كبيرٌ لِشَرَفِ الرسولِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه؛ حيث كان يأتيه المَلَكُ بالقرآن، صباحًا ومساءً، سَفَرًا وحَضَرًا، فكلَّ مرَّةٍ كان يأتيه المَلَكُ بالقرآنِ لا كإنزالِ الكتابِ مِمَّا قبلَهُ مِنَ الكتبِ المتقدِّمة، فهذا المقامُ أعلى وأجلُّ وأعظمُ مكانةً من سائرِ إخوانِهِ من الأنبياء صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم أجمعين؛ فالقرآنُ أشرفُ كتابٍ أنزلَهُ الله، ومحمَّدٌ ﷺ أعظمُ نبيٍّ أرسلَهُ الله تعالى»[(١)]. اهـ.

إنَّ فضلَ القرآنِ الكريمِ وشرَفَهُ ورفيعَ قدرِهِ وعُلُوَّ مكانتِهِ أمرٌ لا يخفى على المسلمين؛ فهو كتابُ اللهِ ربِّ العالمين، وكلامُ خالقِ الخَلْقِ أجمعين، فيه نبأُ ما قَبْلَنا، وخَبَرُ ما بعدَنا، وحُكْمُ ما بيننا، هو الفصلُ ليس بالهَزْل، مَنْ تركه مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله، ومَنِ ابتغى الهدى في غيرِهِ أَضَلَّهُ الله، وهو حبلُ اللهِ المتين، وهو الذكرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، هو الذي لا تزيغُ به الأهواء، ولا تلتبسُ به الألسن، ولا يَشْبَعُ منه العلماء، ولا يَخْلَقُ عن كثرةِ الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائِبُهُ، مَنْ قال به صدَقَ، ومَنْ عَمِلَ به أُجِر، ومَنْ حكَمَ به عَدَل،

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ١١٨).

ومَنْ دعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم. وهو أجلُّ وأعظمُ ما يُتقرَّبُ به إلى الله سبحانه وتعالى؛ **فعن فَرْوة بن نَوْفَل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **قال**: «أخَذَ خَبَّاب بن الأَرَتِّ بيدي، فقال: يا هَنَاه! تَقرَّبْ إلى الله بما استَطَعْتَ؛ فإنَّكَ لستَ تَتقرَّبُ إلى الله بشيءٍ أحبَّ إليه مِنْ كلامه»(١).

إنَّ قَدْرَ القرآنِ وفضلَهُ هو بقدْرِ الموصوفِ به وفضلِهِ؛ فالقرآنُ كلامُ الله وصِفَتُهُ، وكما أنَّه تبارك وتعالى لا سَمِيَّ له ولا شبيهَ له في أسمائِهِ وصفاته، فلا سميَّ له ولا شبيه له في كلامه، فله تبارَكَ وتعالى الكمالُ المطلقُ في ذاتِهِ وأسمائِهِ وصفاته، لا يُشْبِهُهُ شيءٌ من خَلْقه، ولا يشبهُ هو تبارك وتعالى شيئًا من خلقه، تعالى وتَقدَّسَ عن الشبيه والنظير؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، والفرق بين كلامِ الله وكلامِ المخلوقين كالفَرْقِ بين الخالقِ والمخلوقين.

قال أبو عبد الرحمٰن السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَضْلُ القرآنِ على سائرِ الكلامِ كفضلِ الرَّبِّ على خَلْقه، وذلك أنَّه منه»(٢).

وقد روي هذا اللفظُ مرفوعًا إلى النبي ﷺ، إلَّا أنَّ رَفْعَهُ لا يَثْبُتُ؛ كما أوضَحَ ذلك الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «خَلْقُ أفعال العباد»(٣) وغيرُهُ من أئمَّة العلم.

وأما معناه، فحقٌّ لا رَيْبَ فيه، ولا رَيْبَ في حُسْنِهِ وقُوَّتِهِ واستقامتِهِ وجمالِ مدلوله، وقد استَشْهَدَ أهلُ العلم لصحَّةِ معناه بنصوصٍ عديدة، بل إنَّ الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعله عنوانًا لأحد تراجم أبواب كتاب فضائل القرآن من «صحيحه»، فقال في الباب السابعَ عَشَرَ منه: «بابُ فضلِ القرآنِ على سائرِ الكلام»، **وأورَدَ تحتَ هذا البابِ حديثَيْنِ عظيمين**:

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» رقم (١١١)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٥٥٨) وغيرهما، بإسناد صحيح.

(٢) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٥٠٤).

(٣) (ص١٦٢)، **وانظر**: «السلسلة الضعيفة» للألباني (٣/ ٥٠٥).

الأوَّل: حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **(مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ؛ طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَلَا رِيحَ فِيهَا، ومَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وطَعْمُهَا مُرٌّ، ومَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ؛ طَعْمُهَا مُرٌّ، ولَا رِيحَ لَهَا)**[١].

قال ابنُ كثير رحمه الله في كتاب «فضائل القرآن»، ـ وهو عبارةٌ عن شرحٍ مختصرٍ وعظيمِ الفائدةِ لكتاب «فضائل القرآن» من «صحيح البخاري» ـ: «ووجهُ مناسبةِ البابِ لهذا الحديث: أنَّ طِيبَ الرائحةِ دَارَ مع القرآنِ وجودًا وعدمًا؛ فدَلَّ على شَرَفِهِ على ما سواه مِنَ الكلامِ الصادرِ من البَرِّ والفاجر»[٢].

والحديث الثاني: حديث ابن عُمَر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: **(إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلَا مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ العَصْرِ وَمَغْرِبِ الشَّمْسِ، وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالًا، فقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى العَصْرِ؟ فعَمِلَتِ النَّصَارى، ثُمَّ أَنْتُم تعْمَلُونَ مِنَ العَصْرِ إِلَى المَغْرِبِ بِقِيرَاطَيْنِ قِيراطَيْنِ، قَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا، وأَقَلُّ عَطَاءً! قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَذَاكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ شِئْتُ)**[٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «ومناسبتُهُ للترجمة: أنَّ هذه الأمة ـ مع قِصَرِ مُدَّتها ـ فَضَلَتِ الأُمَمَ الماضيةَ مع طول مُدَّتها؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفي «المسند»، و«السنن»، عن بَهْز بن حَكِيم، عن أبيه، عن جَدِّهِ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(أَنْتُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا**

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٠٢٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٩٧).
(٢) «فضائل القرآن» (ص١٠١).
(٣) «صحيح البخاري» رقم (٥٠٢١).

وأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ)(١)، وإنَّما فازوا بهذا بِبَرَكَةِ الكتابِ العظيم: القرآنِ الذي شَرَّفَهُ اللهُ على كلِّ كتابٍ أنزله، وجعلَهُ مهيمنًا عليه، وناسخًا له، وخاتمًا له؛ لأنَّ كلَّ الكتبِ المتقدِّمةِ نزَلَتْ إلى الأرض جملةً واحدةً، وهذا القرآنُ نزَلَ مُنَجَّمًا بِحَسَبِ الوقائعِ لِشِدَّةِ الاعتناءِ به وبمَنْ أُنْزِلَ عليه، فكلُّ مرَّةٍ كنزولِ كتابٍ من الكتبِ المتقدِّمة.

وأعظمُ الأممِ المتقدِّمةِ هم اليهودُ والنَّصَارَى؛ فاليهودُ استعملَهُمُ اللهُ من لَدُنْ موسى إلى زمنِ عيسى ﵇، والنَّصَارَى مِنْ ثَمَّ إلى أن بعَثَ محمدًا ﷺ، ثم استعمَلَ أمَّتَهُ إلى قيامِ الساعة، وهو المُشَبَّهُ بآخِرِ النهار، وأعطى المتقدِّمينَ قيراطًا قيراطًا، وأعطى هؤلاءِ قيراطَيْنِ قيراطَيْن، ضِعْفَيْ ما أعطى أولئك، فقالوا: أيْ ربَّنا، ما لنا أكثرُ عَمَلًا وأقلُّ أجرًا؟ فقال: هل ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أجرِكم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذاك فَضْلِي؛ **أي**: الزائدُ على ما أعطيتُكُمْ ـ أُوتِيهِ مَنْ أشاء؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد]»(٢).

۞ إنَّ الواجبَ علينا أن نُعظِّمَ القرآنَ الكريم، الذي هو مصدرُ عِزِّنا، وسبيلُ سعادتنا، ونحفظَ له منزلَتَهُ ومكانَتَهُ، ونَقْدُرَهُ حقَّ قدره، [ونَعْمَلَ بِهِ].

يقول ابن مسعود ﵁: «مَنْ كان يحبُّ أن يعلم أنَّه يُحِبُّ اللهَ، فلْيَعْرِضْ نفسه على القرآن؛ فإنْ أَحَبَّ القرآنَ فهو يُحِبُّ الله؛ فإنَّما القرآنُ كلامُ الله».

ويقول ﵁: «القرآنُ كلامُ الله؛ فمَنْ رَدَّ منه شيئًا، فإنَّما يَرُدُّ على الله».

والآثارُ في هذا المعنى كثيرةٌ، فنسألُ اللهَ الكريمَ أن يَعْمُرَ قلوبنا بحبِّ القرآنِ وتعظيمِهِ وتوقيرِهِ [والعَمَلِ بِهِ]، وأن يَجْعَلَنا مِنْ أهلِ القرآن، الذين هم أهلُ اللهِ وخاصَّتُهُ.

---

(١) «المسند» (٥/ ٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٠٠١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٤٢٨٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٣٠١).

(٢) «فضائل القرآن» (ص١٠٢، ١٠٣).

١١

نُزُولُ الْقُرْآنِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ

لا رَيْبَ أنَّ [مِنْ] أجلِّ نِعَمِ الله وأشرفِها وأعظمِها نعمةَ إنزالِهِ الكتابَ العظيمَ على عبدِهِ ورسولِهِ نبيِّنا محمد ﷺ؛ فهذه نعمةٌ عُظْمَى، ومِنَّةٌ كبرى، امتنَّ اللهُ بها على عباده، وحَمِدَ نفسَهُ عليها، وتَمدَّحَ إلى عباده بها، وبيَّن عِظَمَ شأنها في آيٍ كثيرةٍ من القرآن.

يقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ويقول تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر]، ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء]، ويقول تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

إنَّ لشهر رمضانَ الكريم شَهْر الصومِ خَصُوصيَّةً بالقرآن؛ فهو الشهرُ الذي أُنْزِلَ فيه القرآنُ الكريمُ هُدًى للنَّاسِ، وقد امتدَحَ اللهُ تعالى في الآيةِ الكريمةِ المتقدِّمةِ شهرَ الصيامِ من بين سائرِ الشهورِ بأنِ اختارَهُ من بينها لإنزالِ القرآنِ العظيم، بل قد ورَدَ في الحديث بأنَّه الشهرُ الذي كانتِ الكتبُ الإلٰهيةُ تَنْزِلُ فيه على الأنبياء، ففي «المُسْنَد» للإمام أحمد، و«المُعْجَم الكبير» للطبراني، من حديث واثِلَةَ بن الأَسْقَع، أنَّ رسول الله ﷺ قال: (**أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِن رَمَضَانَ، وأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِن رَمَضَانَ، وَالإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وأَنْزَلَ اللهُ القُرْآنَ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِن رَمَضَانَ**)[1].

---

(١) «المسند» (٤/ ١٠٧)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٢/ رقم ١٨٥)، قال الهيثمي في «مجمع =

فالحديثُ يَدُلُّ على أنَّ شهرَ رمضانَ هو الشهرُ الذي كانتْ تنزلُ فيه الكتبُ الإلـٰهيةُ على الرسل ﷺ؛ إلَّا أنَّها كانت تنزلُ على النبيِّ الذي أُنْزِلَتْ عليه جملةً واحدةً، وأمَّا القرآن الكريم ـ فلمزيدِ شَرَفِهِ، وعظيم فَضْلِهِ ـ فَإِنَّما نزَلَ جملةً واحدةً إلى بيتِ العِزَّةِ في السماءِ الدنيا، وكان ذلك في ليلةِ القَدْرِ من شهرِ رمضانَ المباركِ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ فدَلَّتْ هذه الآياتُ الثلاثُ على أنَّ القرآن الكريم أُنْزِلَ في ليلةٍ واحدةٍ، توصف بأنَّها ليلةٌ مباركةٌ، وهي ليلةُ القَدْر، وهي مِنْ ليالي شهرِ رمضانَ المباركِ، ثم بعد ذلك نزَلَ مفرَّقًا على مواقعِ النُّجُومِ يتلو بعضُهُ بعضًا، هكذا رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما من غير وجه:

فروى الحاكمُ عن سَعِيد بن جُبَيْرٍ، **عن ابن عباس** رضي الله عنهما، **قال**: «أُنْزِلَ القرآنُ جملةً واحدةً في ليلة القدر إلى السماءِ الدنيا، وكان بموقعِ النُّجُومِ، وكان اللهُ يُنْزِلُهُ على رسولِ اللهِ ﷺ بعضَهُ في إثرِ بعض»(١).

ورَوَى أيضًا عن عِكْرِمة، **عن ابن عباس** رضي الله عنهما، أنه **قال**: «أُنْزِلَ القرآنُ جملةً واحدةً إلى سماءِ الدنيا ليلةَ القدر، ثم أُنْزِلَ بعد ذلك في عِشْرِينَ سنةً، ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]»(٢).

وروى ابنُ أبي حاتمٍ، **عن ابن عباس، أنَّه سأله عطيةُ بن الأسود، فقال:**

= الزوائد» (١/ ١٩٧): «فيه عمران بن داوَر القطان؛ ضعَّفه يحيى، ووثَّقه ابن حِبَّان، وقال أحمد: أرجو أن يكون صالحَ الحديث، وبقية رجاله ثقات».
وله شاهد من حديث جابر رضي الله عنه؛ أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» رقم (٢١٨٧) بنحوه، وفي إسناده سفيان بن وكيع؛ وهو ضعيف.
وله شاهد آخر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ٢٠٢)، وفي إسناده علي بن أبي طلحة وفي سماعه من ابن عباس مقال.
والحديث أورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٥٧٥).

(١) «المستدرك» (٢/ ٢٢٢). (٢) «المستدرك» (٢/ ٢٢٢).

«وَقَعَ في قلبي الشكُّ في قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، وقد أُنزِلَ في شَوَّالٍ، وفي ذي القَعْدةِ، وفي ذي الحِجَّة، وفي المحرَّمِ، وصَفَر، وشهرِ ربيع؟ فقال ابن عباس: إنَّه نَزَلَ في رمضانَ في ليلة القَدْر وفي ليلةٍ مباركةٍ جملةً واحدةً، ثم أُنزِلَ على مواقعِ النُّجُومِ ترتيلًا في الشهورِ والأَيَّام»(١).

إنَّ الحِكْمةَ من هذا النزولِ هي تعظيمُ القرآنِ الكريم، وتعظيمُ أَمْرِ مَنْ نَزَلَ عليه، وهو رسولُ الله ﷺ، وتعظيمُ الشهرِ الذي نزَلَ فيه، وهو شهرُ رمضانَ، وتعظيمُ اللَّيلةِ التي نزَلَ فيها، وهي ليلةُ القَدْرِ التي هي خيرٌ من ألفِ شهرٍ؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر].

ثم إنَّ ما تَقدَّمَ لَيَدُلُّ أعظمَ دَلَالةٍ على عِظَمِ شأنِ شهرِ الصوم، شهرِ رمضانَ المباركِ، وأنَّ له خَصُوصيَّةً بالقرآنِ الكريم؛ إذْ فيه حصَلَ للأمَّةِ مِنَ اللهِ هذا الفضلُ العظيم، وهو نزولُ وَحْيِهِ العظيم، وكلامِهِ الكريمِ المشتَمِلِ على الهدايةِ؛ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ الهدايةِ لمصالحِ الدينِ والدنيا، وفيه تبيانُ الحقِّ بأوضحِ بيان، وفيه الفرقانُ بين الهدى والضلال، والحَقِّ والباطل، والظلماتِ والنُّور.

❁ **فحقيقٌ بشهرٍ هذا فضلُهُ، وهذا إحسانُ اللهِ على عبادِهِ فيه**: أن يُعظِّمَهُ العباد، وأن يكونَ موسمًا لهم للعبادةِ وزادًا ليومِ المعاد.

وهذا فيه دَلَالةٌ بالغةٌ على استحبابِ دراسةِ القرآنِ الكريمِ في شهرِ رمضانَ المبارك، والاجتهادِ في ذلك، والإكثارِ مِنْ تلاوتِهِ فيه، وعَرْضِ القرآنِ على مَنْ هو أحفظُ له، والزيادةِ في مدارسته.

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٣١٠).

روى البخاريُّ ومسلمٌ **عن ابن عَبَّاس** رضي الله عنهما، **قال**: «كان النبيُّ ﷺ أجودَ النَّاسِ، وكانَ أجودَ ما يكونُ في رمضانَ حين يَلْقَاهُ جبريلُ، وكان جبريلُ يَلْقَاهُ كلَّ ليلةٍ من رمضانَ فَيُدارِسُهُ القرآنَ، فلَرَسُولُ اللهِ ﷺ حينَ يلقاهُ جبريلُ أَجْوَدُ بالخيرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»(١).

وقد كان ﷺ يطيلُ القراءةَ في قيامِ رمضانَ بالليلِ أكثرَ مِنْ غيره، وهذا أمرٌ يُشْرَعُ لكلِّ مَنْ أراد أن يزيدَ في القراءةِ ويطيل وكان يصلِّي لنفسِهِ فليطوِّلْ ما شاء، وكذلك مَنْ صلَّى بجماعةٍ يَرْضَوْنَ بصلاتِهِ، وأمَّا سوى ذلك، فالمشروعُ التخفيفُ؛ **قال الإمامُ أحمدُ** رحمه الله **لبعض أصحابه، وكان يُصَلِّي بهم في رمضان**: «هؤلاءِ قومٌ ضَعْفَى، اقرأْ خَمْسًا، سِتًّا، سبعًا، قال: فقرأْتُ فختَمْتُ ليلةَ سبعٍ وعشرين»(٢)، فأرشدَهُ رحمه الله إلى أن يراعيَ حالَ المأمومين، فلا يَشُقَّ عليهم.

وكان السَّلَفُ رحمهم الله يَتْلُونَ القرآنَ في شهرِ رمضانَ في الصلاةِ وغيرها:

- فكان الأسوَدُ رحمه الله يقرأُ القرآنَ في كلِّ ليلتَيْنِ في رمضان.

- وكان النَّخَعيُّ رحمه الله يفعلُ ذلك في العَشْرِ الأواخرِ منه خاصَّة، وفي بقيَّةِ الشهر في ثلاث.

- وكان قتادةُ رحمه الله يَخْتِمُ في كلِّ سبعٍ دائمًا، وفي رمضانَ في كلِّ ثلاث، وفي العَشْرِ الأواخر كلَّ ليلة.

- وكان الزُّهْرِيُّ رحمه الله إذا دخَلَ رمضانُ **قال**: فإنَّما هو تلاوةُ القرآن، وإطعامُ الطعام.

- وكان مالكُ رحمه الله إذا دخَلَ رمضانُ يَفِرُّ مِنْ قراءةِ الحديث، ومجالسةِ أهلِ العلم، ويُقْبِلُ على تلاوةِ القرآنِ من المصحف.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٢٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٣٠٨).

(٢) ذكره ابن رجب في «لطائف المعارف» (ص١٨٠).

- وكان قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَدْرُسُ القرآنَ في شهرِ رمضان.
- وكان سفيانُ الثوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إذا دخَلَ رمضانُ ترَكَ جميعَ العبادة، وأقبَلَ على تلاوةِ القرآن.

والآثارُ عنهم في هذا المعنى كثيرةٌ[١]، رَزَقَنَا اللهُ حُسْنَ اتِّبَاعِهِمْ، والسيرَ على آثارِهِمْ، ونسألُهُ تبارك وتعالى بأسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العليا أن يجعل القرآنَ العظيمَ رَبِيعَ قلوبنا، ونُورَ صدورنا، وجِلَاءَ أحزاننا، وذَهَابَ همومنا وغمومنا، إنَّه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

❁ ❁ ❁

(١) **انظر**: «لطائف المعارف» لابن رجب (ص١٨١).

١٢

الْمَطْلُوبُ مِنَ الْقُرْآنِ: فَهْمُ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلُ بِهِ

يقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر].

إنَّ تلاوةَ القرآنِ وتدبُّرَهُ أعظمُ أبوابِ الهداية؛ فإنَّ اللهَ تبارك وتعالى قد أنزَلَ كتابَهُ المبينَ على عبادِهِ هُدًى ورحمةً، وضياءً ونورًا، وبُشْرَى وذِكْرَى للذاكرين، وجعَلَهُ مباركًا وهُدًى للعالمين، وجعَلَ فيه شفاءً من الأسقام، ولا سِيَّمَا أسقامُ القلوبِ وأمراضُها مِنْ شُبُهَاتٍ وشَهَوات، وجعلَهُ رحمةً للعالمين، يهدي للتي هي أقْوَم، وصَرَّفَ فيه مِنَ الآياتِ والوعيدِ لعلَّهم يَتَّقُونَ أو يُحْدِثُ لهم ذِكْرَى.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ولهذا، فإنَّ الله تبارك وتعالى أمَرَ عبادَهُ وحثَّهم على قراءةِ القرآنِ وتدبُّره في غيرِ آيةٍ من القرآن؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ

لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وأخبر سبحانه أنَّه إنَّما أنزلَهُ لتُتدبَّرَ آياتُه؛ فقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وبيَّن سبحانه أنَّ سببَ عدمِ هدايةِ مَنْ ضلَّ عن الصراط المستقيم هو تركُ تَدبُّرِ القرآنِ، والاستكبارُ عن سماعه؛ فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون]؛ **أي**: أنَّهم لو تدبَّروا القرآن، لأوجبَ لهم الإيمان، ولمنعهم من الكُفْرِ والعِصْيان؛ فدلَّ ذلك على أنَّ تدبُّرَ القرآنِ يدعو إلى كلِّ خير، ويعصمُ مِنْ كلِّ شَر.

ووصَفَ اللهُ القرآنَ بأنَّه أحسنُ الحديث، وأنَّه تعالى ثَنَّى فيه مِنَ الآيات، وردَّد القولَ فيه لِيُفْهَم، وأنَّ جلودَ الأبرارِ عند سماعِهِ تقشعرُّ خشيةً وخوفًا؛ فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وعاتَبَ سبحانه المؤمنينَ على عدمِ خُشوعِهم عند سماعِ القرآن، وحذَّرهم مِنْ مشابهةِ الكفَّارِ في ذلك؛ فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وأخبرَ سبحانه عن القرآنِ أنَّه يزيدُ المؤمنينَ إيمانًا إذا قرؤوه وتدبَّروا آياته؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وأخبرَ عن صالحي أهل الكتابِ أنَّ القرآنَ إذا تُلِيَ عليهم يَخرُّونَ للأذقانِ سُجَّدًا يبكونَ ويَزيدُهُمْ خشوعًا وإيمانًا وتسليمًا؛ فقال سبحانه: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء].

وأخبرَ سبحانه بأنَّه لو أنزلَ القرآنَ الكريمَ على جبلٍ، لَخشَعَ وتَصدَّعَ مِنْ خشيةِ الله ﷻ، وجعلَ هذا مثلًا للنَّاسِ يُبيِّنُ لهم عظمةَ القرآن وقُوَّةَ أثره؛ فقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ثم مع هذا، فإنَّ الله تعالى قد حَذَّرَ عبادَهُ من الإعراض عن القرآنِ الكريمِ أشدَّ التحذير، وبيَّن لهم خطورةَ ذلكَ وما يَجْنِيهِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ من الإثمِ والوِزْرِ الذي يحملُهُ معه يومَ القيامةِ بسببِ إعراضِهِ عن القرآنِ وعدمِ تَلَقِّيهِ بالقبولِ والتسليم؛ يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه]، فإذا كان القرآنُ ذِكرًا لرسولِ اللهِ ﷺ ولأمَّته، فيجبُ تَلَقِّيهِ بالقَبُولِ والتسليم، والانقيادِ والتعظيم، وأن يُهتدى بنورِهِ إلى الصراطِ المستقيم، وأن يُقْبَلَ عليه بالتعلُّمِ والتعليم، وأمَّا مقابلتُهُ بالإعراضِ والصدود، أو بما هو [أخطَرُ] مِن ذلك مِنَ الإنكارِ والجحود، فإنَّه كُفْرٌ لهذه النعمةِ يستحقُّ فاعلُهُ العقوبةَ.

ولهذا قال تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾، وقولُهُ في الآية: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ فيه وصفٌ للقرآنِ الكريم بأنَّه ذِكْرٌ، وقد مَرَّ معنا آياتٌ كثيرةٌ في هذا المعنى، وهذا يعني أنَّ القرآن الكريم فيه ذِكْرٌ للأخبارِ السابقةِ واللاحقة، وذِكرٌ يُتَذكَّرُ به ما لله تعالى من الأسماءِ والصفاتِ الكاملة، ويُتذكَّرُ به أحكامُ الأمرِ والنهيِ وأحكامُ الجزاء، وهذا أيضًا ممَّا يدلُّ على أنَّ القرآنَ مشتملٌ على أحسنِ ما يكونُ مِنَ الأحكامِ التي تشهدُ العقولُ والفِطَرُ بِحُسْنها وكمالها.

۞ إنَّ كتابًا هذا بعضُ شأنِهِ لَحَرِيٌّ بكلِّ مسلم أن يُعظِّمَهُ ويَقْدُرَهُ حقَّ قدره، ويَتْلُوَهُ حقَّ تلاوتِهِ بتدبُّرِ آياتِهِ والتفكرِ فيه، والتعقُّلِ لمعانيه، وبالعملِ بما يقتضيه، **وكما يقولُ العلَّامة ابن القيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا شيءَ أنفعُ للقلبِ مِنْ قراءةِ القرآنِ بالتدبُّرِ والتفكُّر؛ فإنَّه جامعٌ لجميعِ منازلِ السائرين، وأحوالِ العاملين،

ومقاماتِ العارفين، وهو الذي يُورِثُ المحبةَ والشوق، والخوفَ والرجاء، والإنابةَ والتوكُّل، والرضا والتفويض، والشُّكْرَ والصبر، وسائرَ الأحوال، التي بها حياةُ القلب وكمالُهُ، وكذلك يَزْجُرُ عن جميعِ الصفاتِ والأفعالِ المذمومة، التي بها فسادُ القلبِ وهَلَاكُهُ. فلو عَلِمَ الناسُ ما في قراءةِ القرآنِ بالتدبُّرِ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتى مَرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبِهِ كرَّرها ولو مِائةَ مَرَّة، ولو ليلةً، فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّم خيرٌ مِنْ قراءةِ ختمةٍ بغيرِ تدبُّرٍ وتَفَهُّم، وأنفَعُ للقلب، وأدعى إلى حصولِ الإيمان، وذَوْقِ حلاوةِ القرآن»[(١)] .اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهو ـ كما ترى ـ وافي الدَّلالة، عظيمُ الفائدة، ومَنْ كان في قراءتِهِ للقرآنِ على هذا الوصفِ أَثَّرَ فيه القرآنُ غاية التأثير، وانتفَعَ بتلاوتِهِ تمامَ الانتفاع، وكان بذلك مِنْ أهلِ العلمِ والإيمانِ الراسخين، وهذا هو مقصودُ القرآنِ وغايةُ مطلوبه؛ **ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمطلوبُ من القرآنِ هو فهمُ مَعَانِيهِ والعملُ به؛ فإنَّه إن لم تكنْ هذه هِمَّةَ حافظِهِ، لم يكنْ مِنْ أهلِ العلمِ والدين»[(٢)].

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لتحقيقِ ذلك على الوجهِ الذي يُرْضِيكَ عَنَّا يا ذا الجلالِ والإكرام.

❁ ❁ ❁

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص٢٠٤).
(٢) «الفتاوى الكبرى» (١/ ٢١٣).

١٣

آدَابُ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ

لقد مرَّ معنا بيانُ فضلِ القرآنِ الكريم، كلامِ رَبِّ العالمين، وعِظَمِ شأنِ تلاوتِهِ وتدبُّره، وما يَترتَّبُ على ذلك مِنْ أجورٍ عظيمة، وأفضالٍ كريمة، وخيراتٍ عميمةٍ في الدنيا والآخرة، وسيكون الحديثُ هنا ـ بإذن الله ـ عن أخلاقِ حَمَلَةِ القرآن، التي ينبغي أن يَتَحَلَّوْا بها، وآدابِ أهلِهِ وصفاتِهِمُ التي ينبغي أن يَتأدَّبوا بها، ولا ريبَ في شَرَفِ هذا الموضوعِ وعِظَمِ شأنه، وحاجتِنَا دائمًا إلى تذاكُرِهِ ومدارسته.

وقد كان أهلُ العلمِ وأئمَّةُ الفضلِ والخيرِ يُولُونَ هذا الموضوعَ عنايةً خاصَّةً، ويعتنون به عنايةً فائقةً؛ إذ به تأتي ثَمرةُ القرآن، ويُنالُ ما يَترتَّبُ عليه من أجورٍ عظيمةٍ وثوابٍ وإحسان، وبدونِ هذه الآداب لا ينالُ التالي الثمرةَ المرجوَّة، ولا يُحصِّلُ الخيرَ العظيم والثوابَ الجزيلَ المأمول، بل ربَّما كان القرآنُ حجَّةً عليه، وخصيمًا له يومَ القيامة.

فقد ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **(إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ)**[١]، وثبَتَ عنه ﷺ أنَّه قال: **(وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)**[٢]؛ وكلاهما في «صحيح مسلم».

فالقرآنُ حُجَّةٌ لمن عَمِلَ به وتأدَّبَ بآدابه، وأمَّا مَنْ ضيَّعَ حدودَهُ، وأهمَلَ حقوقَهُ، وفرَّطَ في واجباته، فإنَّ القرآنَ يكونُ حجَّةً عليه يومَ القيامة.

ولهذا يقولُ قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «لم يجالسْ هذا القرآنَ أحدٌ إلَّا قامَ عنه بزيادةٍ

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٨١٧).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٢٣).

أو نقصان»[١]؛ أي: بزيادةٍ في الإيمانِ والخيرِ إن عَمِلَ به، أو نقصانٍ مِنْ ذلك إن أهملَهُ وضيَّعَ حقوقه.

لقد كتَبَ أهلُ العلمِ في هذا الموضوع ـ آدابِ وأخلاقِ حَمَلةِ القرآن ـ كتاباتٍ عظيمةً، وألَّفوا في هذا البابِ مؤلَّفاتٍ قَيِّمةً نافعةً، وهي عديدةٌ ومتنوِّعةٌ، إلَّا أنَّ مِنْ أحسنها وفاءً بهذا الموضوعِ كتابَ «أخلاقِ حَمَلةِ القرآن» للإمام العلَّامةِ أبي بكرٍ محمَّد بن الحسين الآجُرِّيِّ، المتوفَّى سنة (٣٦٠هـ)؛ فهو كتابٌ عظيمُ القَدْر، جليلُ الفائدة، وحريٌّ بكلِّ حافظٍ للقرآن الكريم، بل بكلِّ مسلم، أن يقفَ عليه ويُفِيدَ منه.

وقد تحدَّثَ فيه مؤلِّفه رَحِمَهُ اللَّهُ ـ قبل بيانِهِ لآدابِ حَمَلَةِ القرآن ـ عن فضلِ حملةِ القرآن، وفضلِ مَنْ تَعلَّمَ القرآنَ وعلَّمه، وفضلِ الاجتماعِ في المسجدِ لدرسِ القرآن، وقصَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ البدءِ بهذه الأبوابِ الترغيبَ في تلاوةِ القرآن، والعملِ به، والاجتماعِ لمدارسته، ثُمَّ شرَعَ بعد ذلك في بيانِ آدابِ حَمَلةِ القرآن، مستدلًّا على كلِّ ما يقولُ بالنُّصُوصِ القرآنيَّة، والأحاديثِ النبويَّة، والآثارِ المرويَّةِ عن سَلَفِ الأمَّة.

ولعلَّنا نأتي هنا على جملةٍ طيِّبةٍ مِنْ هذه الآدابِ الكريمة، والخلالِ العظيمة، التي ينبغي أن يَتحلَّى بها أهلُ القرآنِ وحَمَلَتُه، بل ينبغي أن يَتحلَّى بها المسلمون جميعُهم.

* **فمِنْ هذه الآداب**[٢]: أن يَتحلَّى صاحبُ القرآنِ بتقوى اللهِ في سرِّه وعَلَنه، ويَقْصِدَ بعلمِهِ وعملِهِ وَجْهَ الله تعالى، ويريدَ بتلاوتِهِ وحفظِهِ القُرْبَ منه سبحانه.

جاء عن عُمَرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «لقد أتى علينا حِينٌ وما نرى أنَّ أحدًا يَتعلَّمُ القرآنَ يريدُ به إلَّا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، فلمَّا كان ها هنا بأَخَرةٍ خشيتُ أنَّ

---

(١) رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص٧٣).

(٢) **انظر**: «أخلاق حملة القرآن» للآجري (ص٢٤ وما بعدها).

رجالًا يَتعلَّمونَهُ يريدونَ به النَّاسَ وما عندهم؛ فأَرِيدُوا اللهَ بقراءتكم وأعمالكم».

* **ومِنْ هذه الآداب**: أن يَتخلَّقَ بأخلاقِ القرآنِ الشريفة، ويَتأدَّبَ بآدابِهِ الكريمة، ويجعلَ القرآنَ ربيعًا لقلبِهِ يَعْمُرُ به ما خَرِبَ من قلبه، ويُصْلِحُ به ما فَسَدَ منه، يُؤدِّبُ نفسَهُ بالقرآن، ويُصْلِحُ به حاله، ويُقوِّي به إيمانه؛ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة].

فحاملُ القرآنِ يجعلُ القرآنَ دليلَهُ إلى كلِّ خير، ورائدَهُ إلى كلِّ خُلُقٍ حسنٍ جميلٍ، حافظًا لجميعِ جوارحِهِ عمَّا نهى اللهُ عنه؛ إنْ مشى مشى بعلم، وإنْ قعَدَ قعَدَ بعلم، وإنْ تكلَّم تكلَّم بعلم، وإنْ شَرِبَ شرب بعلم، وإنْ أكل أكل بعلم، يَتصفَّحُ القرآن ويقرؤُهُ؛ ليؤدِّبَ نفسه، وليهذِّبَ به سلوكه، وليزيِّنَ به عمله، وليقوِّيَ به إيمانه.

لهذا أُنْزِلَ القرآنُ الكريم، ولم يُنْزَلْ للقراءةِ والتلاوةِ فقطْ بدونِ العلم والعمل؛ **قال الفُضَيْلُ** رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّما أُنْزِلَ القرآنُ لِيُعْمَلَ به، فاتَّخذَ النَّاسُ قراءتَهُ عملًا»(١).

ومعنى قوله: «لِيُعْمَلَ به»؛ **أي**: لِيُحِلُّوا حلالَهُ، ويُحرِّموا حرامَهُ، «فاتَّخذَ النَّاسُ قراءتَهُ عملًا»؛ **أي**: لا يتدبَّرونَهُ، ولا يعملونَ به.

* **ومِنْ هذه الآداب**: أنْ تكونَ هِمَّةُ مَنْ يقرأُ القرآنَ إيقاعَ الفهمِ لِمَا ألزمَهُ اللهُ منِ اتباعِ ما أمَرَ، والانتهاءِ عَمَّا نهى، ليس هِمَّتُهُ متى أَخْتِمُ السورةَ؟ وإنَّما هِمَّتُهُ متى أَستغني باللهِ عن غيره؟ متى أكونُ من المتقين؟ متى أكونُ من المحسنين؟ متى أكونُ من الخاشعين؟ متى أكونُ من الصادقين؟ متى أَعْرِفُ قَدْرَ النِّعَمِ المتواترة؟ متى أَشْكُرُ اللهَ عليها؟ متى أتوبُ من الذنوب؟ متى أَعْقِلُ عن اللهِ الخطاب؟ متى أفقَهُ ما أتلو؟ متى أكونُ بزجرِ القرآنِ مُتَّعِظًا؟ متى أكونُ بذكرِ اللهِ

---

(١) رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص٤٣).

عن ذكرِ غيرِهِ مُشْتَغِلًا؟ متى أُحِبُّ ما أَحَبَّ وأُبْغِضُ ما أَبْغَضَ؟ فهذه هِمَّتُهُ عند تلاوةِ القرآن.

يقول الإمام الحسن البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **وهو من أَجِلَّة التابعين، يصف بعض قُرَّاءِ زمانِهِ، وهو بصددِ بيانِ أَهمِّيَّةِ تدبُّرِ القرآنِ والتفقُّهِ فيه، يقول:** «أمَا واللهِ ما هو بحفظِ حروفِهِ وإضاعةِ حدوده، حتى إنَّ أحدَهُمْ ليقولُ: لقد قرأْتُ القرآنَ فما أسقطتُ منه حرفًا، وقد واللهِ أسقَطَهُ كلَّه، ما يُرَىٰ له القرآنُ في خُلُقٍ ولا عملٍ، حتى إنَّ أحدَهُمْ ليقول: إنِّي لأقرأُ السورةَ في نَفَسٍ، واللهِ ما هؤلاءِ بالقُرَّاءِ ولا العلماءِ، ولا الحُكَماءِ ولا الوَرَعَة، متى كانتِ القُرَّاءُ مِثلَ هذا، لا كَثَّرَ اللهُ في الناسِ مثلَ هؤلاء!»[1].

هذه بعضُ آدابِ حَمَلَةِ القرآنِ ممَّا أوردَهُ الآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه المشار إليه، **وقد أنهى ذِكْرَهُ لتلكَ الآدابِ بقوله:** «فالمؤمنُ العاقلُ إذا تلا القرآنَ، استعرَضَ القرآن، فكان كالمِرْآةِ يرى بها ما حَسُنَ مِنْ فعلِهِ، وما قَبُحَ منه؛ فما حَذَّرَهُ مولاهُ حَذِرَهُ، وما خَوَّفَهُ به مِنْ عقابِهِ خَافَه، وما رَغَّبَهُ فيه مولاهُ رَغِبَ فيه ورجاه، فمَنْ كانتْ هذه صفتَهُ، أو ما قارَبَ هذه الصفةَ، فقد تلاه حَقَّ تلاوتِهِ، ورعاه حَقَّ رعايتِهِ، وكان له القرآنُ شاهدًا وشفيعًا، وأنيسًا وحِرْزًا، ومَنْ كان هذا وَصْفَهُ، نَفَعَ نفسَهُ ونفَعَ أهله، وعاد على والدَيْهِ وعلى ولدِهِ كلُّ خيرٍ في الدنيا والآخرة»[2].

واللهُ المرجوُّ أن يوفِّقنا لذلك ولكلِّ خَيْر، واللهُ وحده المستعان.

* * *

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣/ ٣٦٣)، والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص٤١).
(٢) «أخلاق حملة القرآن» (ص٢٩).

١٤

تَفَاضُلُ سُوَرِ الْقُرْآنِ، وَفَضْلُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

مَرَّ معنا فيما سبَقَ بيانُ فضلِ القرآنِ الكريم، سُوَرِهِ وآياتِهِ وحروفِه، وبيانُ شرفِهِ وخيريَّتِهِ وعظيمِ قَدْرِهِ وفضلِهِ على سائرِ الكلام؛ إذْ هو كلامُ الربِّ تبارك وتعالى ووحيُهُ وتنزيلُه، ولعلَّ مِنَ الحَسَنِ - والحديثُ ماضٍ بنا في ذلك - أنْ أشيرَ إلى ما ورَدَ من النُّصُوصِ في تفضيلِ بعضِ سُوَرِ القرآنِ الكريم وآياته؛ فإنَّ ذِكْرَ الله - تبارك وتعالى - بتلاوتِهَا وتَدبُّرِهَا يَترتَّبُ عليه مِنَ الأجرِ والثوابِ ما لا يَترتَّبُ على غيرها؛ لِعِظَمِ مدلولاتِهَا، وقُوَّةِ مُتعلَّقها؛ فإنَّ القرآنَ الكريمَ - وإن كان كُلُّهُ كلامَ الله - **إلَّا أنَّ الكلامَ نوعان: إمَّا** إنشاءٌ، **وإمَّا** إخبارٌ، **والإخبارُ**: إمَّا خبرٌ عن الخالق، وإمَّا خبرٌ عن المخلوق، **فالإنشاءُ**: هو الأحكامُ كالأمرِ والنهي، والخَبَرُ عن المخلوقِ هو القَصَصُ، والخبَرُ عن الخالقِ هو ذِكْرُ أسمائِهِ وصفاته. وما مِنْ رَيْبٍ في أنَّ النصوصَ القرآنيَّةَ المشتملةَ على توحيدِ اللهِ والخبرِ عن أسمائِهِ وصفاته أفضلُ مِنْ غيرها[١]؛ **كما قال أحدُ أهل العلم**: كلامُ الله في اللهِ أفضلُ مِن كلامِهِ في غيره؛ فـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أفضلُ مِنْ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وهذا التفاضُلُ بين السُوَرِ والآياتِ ليس باعتبارِ نسبتِهِ إلى المتكلِّم؛ فإنَّ المتكلِّمَ به واحدٌ، وهو الله سبحانه، ولكنْ باعتبارِ معانيه التي تكلَّمَ بها، وباعتبارِ ألفاظِهِ المبيِّنةِ لمعانيه، والنصوصُ والآثارُ في تفضيلِ كلامِ اللهِ بعضِهِ على بعض كثيرةٌ جدًّا.

فقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه فضَّلَ من السُّوَر **«سورةَ الفاتحة»**، وأخبَرَ أنَّه

(١) **انظر**: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٧/ ٥٧) وما بعدها.

لم يُنْزَلْ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الزَّبُورِ ولا في القرآنِ مثلُها، وأخبَرَ أنَّها أمُّ القرآن.

روى الإمام أحمد في «مسنده»، والترمذيُّ في «جامعه»، وابن خُزَيْمة في «صحيحه»، وغيرهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، «أنَّ رسول الله ﷺ خرجَ على أُبيِّ بن كَعْب، فقال رسولُ الله ﷺ: **(يا أُبَيُّ)** ـ وهو يُصلِّي ـ فالتفَتَ أُبيٌّ، فلم يُجِبْهُ، وصلَّى أُبيٌّ وخفَّف، ثُمَّ انصرَفَ إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: السلامُ عليك يا رسولَ اللهِ، فقال رسولُ الله ﷺ: **(وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، مَا مَنَعَكَ يَا أُبَيُّ أَنْ تُجِيبَنِي إِذْ دَعَوْتُكَ)**، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنِّي كنتُ في الصلاة، قال: **(أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ أَنِ** ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤])، قال: بلى، ولا أعودُ إنْ شاءَ الله، قال: **(أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يُنزَلْ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الإِنْجِيلِ، ولَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي القُرْآنِ مِثْلُهَا)**، قال: نعمْ يا رسولَ الله، فقال رسولُ الله ﷺ: **(كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ؟)**، قال: فقرأ أُمَّ القرآنِ، فقال رسول الله ﷺ: **(والَّذِي نَفْسِي بِيَدِه، مَا أُنْزِلَتْ في التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الإِنْجِيلِ، ولَا فِي الزَّبُورِ، ولَا فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا، وإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ)**»[(١)].

[وفي «صحيح البخاري»[(٢)]، من حديث أبي سَعِيد بن المعلَّى نحوُ حديث أُبيٍّ، وفيه التصريحُ بأنها أعظمُ سورةٍ في القرآن، وأنَّها السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم].

وروى البخاريُّ في «صحيحه»، مِنْ حديث أبي هُرَيْرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(أُمُّ القُرْآنُ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ)**[(٣)].

---

(١) «المسند» (٢/ ٣٥٧)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٨٧٥)، و«صحيح ابن خزيمة» (٨٦١) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣).

(٢) برقم (٤٤٧٤).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٤٧٠٤).

* **ومِنْ فضلِ هذه السورة**: أنَّه لا صلاةَ لِمَنْ لم يقرأْ بها، وكلُّ صلاةٍ لم يُقرَأْ فيها بفاتحةِ الكتاب، فهي خِدَاجٌ غيرُ تَمَام؛ خرَّج مسلمٌ في «صحيحه»، مِنْ حديث أبي هُرَيْرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: (**مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ، فَهِي خِدَاجٌ** ـ ثلاثًا ـ **غَيْرُ تَمَام**)، فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراءَ الإمامِ، فقال: اقرأْ بها في نَفْسِكَ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (**قالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ العَبْدُ**: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **قَال اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ**: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وإِذَا قَالَ**: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **قَالَ: هَذِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ**: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**)[1].

فهذه الأحاديثُ ونَحْوُها تدلُّ على عظيمِ قَدْرِ هذه السورةِ الكريمة، وأنَّها أعظمُ سُوَرِ القرآن، بل لم يُنْزَلْ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الزَّبُورِ ولا في القرآنِ مثلُها، وهي أُمُّ القرآنِ، فالقرآنُ كلُّه تفسيرٌ لها وشرحٌ لمجملها؛ وذلك لاشتمالها على المعاني التي في القرآن مِنَ الثناءِ على الله تعالى بما هو أهلُهُ، ومن التعبُّدِ بالأمرِ والنهي، ومن الوعدِ، والوعيدِ، ونحوِ ذلك.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ **في كتابه «مدارج السالكين، بين مَنَازِلِ إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعين»**: «اعلَمْ أنَّ هذه السورةَ اشتَمَلَتْ على أُمَّهاتِ المطالبِ العاليةِ أَتَمَّ اشتمال، وتَضَمَّنتها أكملَ تَضَمُّن؛ فاشتَمَلَتْ على التَّعريفِ بالمعبودِ تبارك وتعالى بثلاثةِ أسماء، مرجعُ الأسماءِ الحسنى والصفاتِ العليا إليها، ومدارُهَا عليها، وهي: اللهُ، والرَّبُّ، والرَّحْمٰن، وبُنِيَتِ السورةُ على الإلٰهيةِ والربوبيةِ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٣٩٥).

والرَّحْمة... **إلى أن قال**: وتَضمَّنتْ إثباتَ المَعَادِ، وجزاءِ العبادِ بأعمالهم حَسَنِها وسَيِّئِها، وتَفرُّدِ الربِّ تعالى بالحُكْم إذْ ذاكَ بين الخلائق، وكَوْنِ حُكْمِهِ بالعدل، وكلُّ هذا تحتَ قوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وتَضمَّنتْ إثباتَ النُّبُوَّاتِ مِنْ جهاتٍ عديدة...»[1]. ثُمَّ أطال النَّفَسَ رَحِمَهُ اللهُ في بيان ما تَضمَّنَتْهُ هذه السورةُ من أمَّهاتِ المطالب العالية، وما تَضمَّنَتْهُ مِنَ الرَّدِّ على جميع طوائفِ أهلِ البدع والضلال، وما تَضمَّنَتْهُ مِن منازلِ السائرين، ومقاماتِ العابدين، وبيانِ أنَّه لا يقومُ غيرُ هذه السورةِ مَقَامَها ولا يَسُدُّ مَسَدَّها.

۞ **ومِنْ هنا**، فإنَّه يَتأكَّدُ على كلِّ مسلم أنْ تَعْظُمَ عنايتُهُ بهذه السورةِ الكريمةِ حفظًا وتلاوةً، ومدارسةً وتدبُّرًا؛ فالمسلمُ يقرؤها في الصلاةِ المكتوبةِ في اليوم والليلةِ سبعَ عَشْرةَ مَرَّة، وإذا كان محافظًا على النَّوَافل، أو على كثيرٍ منها، فإنَّه يقرؤها مرّاتٍ كثيرةً، لا يحصيها مُدَّةَ عُمْرِهِ وطولَ حياتِهِ إلَّا اللهُ تبارك وتعالى، ومِنْ أَسَفٍ أنَّك ترى مع ذلكَ في بعضِ المسلمينَ مَنْ لا يحسنُ قراءةَ هذه السورةِ الكريمة، بل لربَّما يَلْحَنُ فيها لحنًا يُفْسِدُ معناها، أو يُخِلُّ بمدلولها، أو ترى فيهم مَنْ لا يُعْنَى بتدبُّرها وتَفهُّمِها وتَعقُّلِ معانيها ومعرفةِ مدلولاتها. والواجبُ على عبادِ اللهِ المؤمنين كلِّهم تعظيمُ هذه السورةِ الكريمة، وقَدْرُها حَقَّ قدرها، وتلاوتُها حَقَّ تلاوتها؛ إذ هي أعظمُ سُوَرِ القرآنِ وأفرضُها على الأُمَّة، وأجمعُها لكلِّ ما يحتاجُ إليه العبد، وأعمُّها نفعًا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وتاللهِ، لا تجدُ مقالةً فاسدةً ولا بِدْعةً باطلةً إلَّا وفاتحةُ الكتابِ متضمِّنةٌ لردِّها وإبطالِهَا بأقربِ الطُّرُقِ وأصحِّهَا وأوضحِهَا، ولا تجدُ بابًا من أبوابِ المعارفِ الإلـٰهيةِ وأعمالِ القلوبِ وأدويتها مِنْ عللها وأسقامِهَا إلَّا وفي فاتحةِ الكتابِ مفتاحُهُ وموضعُ الدَّلالةِ عليه، ولا منزلًا من منازلِ السائرين إلى رَبِّ العالمين إلَّا وبدايتُهُ ونهايتُهُ فيها، ولَعَمْرُ اللهِ إنَّ شَأْنَها لأعظمُ مِنْ ذلك، وهي فوقَ ذلك، وما تَحقَّقَ عبدٌ بها واعتصَمَ بها وعَقَلَ عمَّن

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٧).

تَكلَّمَ بها، وأنزلَهَا شفاءً تامًّا، وعصمةً بالغةً، ونورًا مبينًا، وفَهِمَهَا وفَهِمَ لوازمَهَا كما ينبغي ووَقَعَ في بدعةٍ ولا شِرْكٍ ولا أصابَهُ مرضٌ من أمراضِ القلوبِ إلَّا لِمَامًا غيرَ مستقرٍّ»(١).

وبهذا نأتي إلى نهايةِ ما قُصِدَ بيانُهُ هنا، حامدينَ لله، مثنينَ عليه بما هو أهلُهُ، وبما أثنى به على نفسه، حمدًا غيرَ مَكْفِيٍّ ولا مَكْفُورٍ ولا مُوَدَّعٍ، ولا مُسْتَغْنًى عنه ربَّنا.

❁ ❁ ❁

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٣٤٧، ٣٤٨).

١٥

فَضْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ، وَسُورَةِ الإِخْلَاصِ، وَسُوَرٍ أُخْرَىٰ

نواصلُ الحديثَ عن تفضيلِ بعضِ سورِ القرآنِ وآياته، حيثُ سبَقَ تناولُ شيءٍ ممَّا ورَدَ في فضل **«سورة الفاتحة»** التي هي أفضَلُ سُوَرِ القرآن وأعظمُها على الإطلاق.

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّ أفضَلَ آيةٍ في القرآن الكريم هي **«آيةُ الكرسيِّ»**؛ ففي «صحيح مسلم»، من حديث أُبَيِّ بن كَعْب ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللهِ، لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ)**[(١)]؛ **أي**: ليكنِ العلمُ هنيئًا لك.

وهذه الآيةُ الكريمةُ إنَّما كانتْ بهذه المنزلةِ لعِظَمِ ما دَلَّتْ عليه من توحيدِ اللهِ وتمجيده، وحُسْنِ الثناءِ عليه، وذِكْرِ نعوتِ جلالِهِ وكماله، فتَضَمَّنَتْ مِنْ أسماءِ اللهِ خمسةَ أسماء، وتَضمَّنتْ مِنَ الصفاتِ ما يزيدُ على العشرين صفةً للربِّ تبارك وتعالى؛ فهي قد اشتَمَلَتْ من ذلكَ على ما لم تَشتمِلْ عليه آيةٌ أخرى في القرآن؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ: «وليس في القرآنِ آيةٌ واحدةٌ تَضمَّنَتْ ما تضمَّنته **«آيةُ الكُرْسيِّ»**، وإنَّما ذَكَرَ اللهُ في أوَّل **«سورة الحديد»**، وآخرِ **«سورة الحَشْر»** عِدَّةَ آياتٍ لا آيةً واحدةً»[(٢)].

ولهذا كان من فضل هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ مَنْ قرأها في ليلةٍ، لم يَزَلْ عليه مِنَ اللهِ حافظٌ، ولا يَقْرَبُهُ شيطانٌ حتى يُصْبِحَ، وهو في «صحيح البخاري»،

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٨١٠).
(٢) «جواب أهل العلم والإيمان» (ص١٣٣).

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في سياقٍ طويل(١).

* **ومِنْ فضلها**: ما ثبَتَ في «سُنَنِ النَّسَائي» وغيره، من حديث أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: **(مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ)**(٢)؛ **يعني**: لم يكنْ بينه وبين دخولِ الجنةِ إلَّا الموتُ، **قال ابن القيِّم** رحمه الله: «بلغني عن شيخنا أبي العَبَّاس ابن تيميَّة ـ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ ـ أنَّه قال: ما تركتُها عَقِيبَ كلِّ صلاة»(٣).

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ تفضيلُ **«سورة الإخلاص»**، وأنَّها تعدلُ ثُلُثَ القرآن؛ ففي«صحيح البخاري»، من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه، أنَّ رجلًا سمعَ رجلًا يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ يردِّدها، فلمَّا أصبحَ، جاء إلى رسولِ الله ﷺ، فذكَرَ ذلك له، وكأنَّ الرجُلَ يَتَقَالُّها، فقال رسول الله ﷺ: **(والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ)**(٤).

وروى البخاري، عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «**(أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ)**، فشَقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أيُّنا يُطِيقُ ذلكَ يا رسول الله؟ فقال: **(اللهُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القُرْآنِ)**»(٥).

وأهلُ العلمِ قد تكلَّموا في بيان وجهِ كونِ هذه السورة تعدلُ ثُلُثَ القرآن، وذكروا في ذلك أجوبةً عديدةً، **وأحسنها ـ كما يذكُرُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رحمه الله **ـ هو الجوابُ المنقولُ عن أبي العَبَّاس بنِ سُرَيْج؛ حيث قال: «معناه**: أُنْزِلَ القرآنُ على ثلاثةِ أقسام: ثلثٌ منها الأحكام، وثلثٌ منها وَعْدٌ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٣١١).
(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٦/ رقم ٩٩٢٨)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٧٢).
(٣) «زاد المعاد» (١/ ٣٠٤).
(٤) «صحيح البخاري» رقم (٥٠١٣).
(٥) «صحيح البخاري» رقم (٥٠١٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٨١١)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

ووعيد، وثلثٌ منها الأسماءُ والصفات، وهذه السورةُ جَمَعَتِ الأسماءَ والصفات»(١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا كانت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثلثَ القرآن، لم يلزمْ مِنْ ذلك أنَّها أفضلُ من «**الفاتحة**»، ولا أنَّها يُكْتَفَى بتلاوتها ثلاثَ مَرَّاتٍ عن تلاوة القرآن، بل قد كَرِهَ السلفُ أن تُقْرَأَ إذا قرئ القرآنُ كلُّه إلَّا مَرَّةً واحدةً كما كُتِبَتْ في المصحف؛ فإنَّ القرآنَ يُقْرَأُ كما كُتِبَ في المصحف، لا يزادُ على ذلك ولا يُنْقَصُ منه... ولكن إذا قُرِئَتْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مفردةً تقرأُ ثلاثَ مرَّات وأكثَرَ مِنْ ذلك، ومَنْ قرأها، فله من الأجرِ ما يَعْدِلُ ثلثَ القرآن، لكنْ عَدْلُ الشيءِ يكون مِنْ غيرِ جِنْسه»(٢). اهـ.

ثُمَّ إنَّ الأحاديثَ المشتملةَ على ذكرِ فضائلِ السورِ وثوابِ مَنْ قرأها كثيرةٌ، وجملةٌ منها لا تخلو مِنْ ضعف، بل إنَّ فيها ما هو كذبٌ على رسول الله ﷺ؛ ولهذا فإنه يَتأكَّدُ على المسلمِ تَحرِّي معرفةِ الصحيحِ في ذلك، بسؤالِ أهلِ العلم، ومدارسةِ أهلِ الاختصاص؛ **قال ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ **في كتابه «المنار المنيف، في الصحيح والضعيف»**: «ومنها: ـ **أي**: الأحاديث الموضوعة ـ ذكرُ فضائلِ السورِ وثوابِ مَنْ قرأ سورةَ كذا، فإنَّ أجرَهُ كذا، من أوَّلِ القرآن إلى آخره، كما ذكَرَ ذلك الثعلبيُّ والواحديُّ في أوَّل كلِّ سورة، والزمخشريُّ في آخرها، قال عبد الله بن المبارك: أظنُّ الزنادقةَ وَضَعُوها.

والذي صحَّ في أحاديثِ السُّوَرِ: حديثُ «**فاتحة الكتاب**»، وأنَّه لم ينزلْ في التوراة ولا في الإنجيلِ ولا في الزبورِ مثلُها، وحديثُ «**البقرةِ**» و«**آلِ عمرانَ**»: أنهما الزَّهْراوان، وحديث «**آية الكرسي**»، وأنها سيِّدةُ آي القرآن، وحديثُ الآيتَيْنِ من آخر «**سورة البقرة**»، مَنْ قرأهما في ليلةٍ كفتاه، وحديثُ «**سورة البقرة**» لا تُقْرَأُ في بيتٍ فَيَقْرَبُهُ شيطان، وحديثُ العَشْرِ آياتٍ من

---

(١) «جواب أهل العلم والإيمان» (ص١١٣).
(٢) «جواب أهل العلم والإيمان» (ص١٣٣، ١٣٤).

أوَّل «**سورة الكهف**»، مَنْ قرأها عُصِمَ من فتنة الدَّجَّال، وحديثُ ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾، وأنَّها تعدلُ ثلثَ القرآن، ولم يَصِحَّ في فضائل سورةٍ ما صَحَّ فيها، وحديثُ «**المعوِّذتين**»، وأنَّه ما تَعوَّذَ المتعوِّذون بمثلهما، وقوله ﷺ: (**أُنْزِلَ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ، ثُمَّ قَرَأَهَا**).

ويلي هذه الأحاديثَ ـ وهو دونها في الصِّحَّة ـ حديثُ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدلُ نصفَ القرآن، وحديثُ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعدلُ ربعَ القرآن، وحديثُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ هي المنجيةُ مِنْ عذاب القبر. ثم سائرُ الأحاديثِ بعدُ؛ كقولِهِ: مَنْ قرأ سورةَ كذا أُعْطِيَ ثوابَ كذا، فموضوعةٌ على رسولِ الله ﷺ، وقد اعترَفَ بوضعها واضعُها، وقال: قَصَدتُّ أن أُشغِلَ الناسَ بالقرآنِ عن غيره، وقال بعضُ جهلاءِ الوَضَّاعين في هذا النوع: نحنُ نَكْذِبُ لرسول الله ﷺ، ولا نكذبُ عليه، ولم يعلمْ هذا الجاهلُ أنَّه مَنْ قال عليه ما لم يقل، فقد كَذَبَ عليه، واستَحَقَّ الوعيدَ الشديد»[١]. اهـ كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ.

۞ **وممَّا ينبغي أن يُعْلَمَ هنا**: أنَّ فضلَ القراءةِ لهذه السورِ وغيرِها يختلفُ باختلافِ حالِ التالي لتلكَ السور، فالقراءةُ بتدبُّرٍ أفضلُ مِنَ القراءةِ بلا تدبُّر، فقد يكونُ حالُ بعضِ الناس في قراءةِ بعضِ السورِ وما يصاحبُهُمْ حالَ القراءةِ من خشوعٍ وتدبُّرٍ وتفهُّم لكلامِ الله وعزمٍ صادقٍ على العملِ به خيرًا وأفضلَ مِنْ حالِ غيرهم ممَّن ليسوا كذلك، وإن كانتِ السُّوَرُ التي يقرؤها هؤلاءِ أفضلَ، بل إنَّ الإنسانَ الواحدَ يَختلِفُ حالُهُ؛ فقد يفعلُ العملَ المفضولَ على وجهٍ كامل، فيكونُ به أفضلَ مِنْ سائرِ أعمالِهِ الفاضلة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان بعضُ الشيوخِ يَرْقِي بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وكان لها بركةٌ عظيمةٌ، فيرقي بها غيرُهُ، فلا يحصُلُ ذلك، فيقولُ: ليس ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مِنْ كلِّ أحدٍ تنفعُ كلَّ أحدٍ»[٢].

---

(١) «المنار المنيف» (ص١١٥ ـ ١١٧).

(٢) «جواب أهل العلم والإيمان» (ص١٤١).

وإنَّما اختلَفَ أثرُ هاتَيْنِ القراءتَيْنِ مع أنَّ السورةَ المقروءةَ واحدةٌ؛ بسبب اختلافِ ما قام بالقلبِ مِنْ صدقٍ وإخلاص، وتدبُّرٍ ويقين، ورغبةٍ وخشوع.

واللهُ المرجوُّ أن يوفِّقنا لتحقيقِ ذلك وحسنِ القيامِ به، فهو تبارك وتعالى وحده الموفِّقُ لكلِّ خير.

❁ ❁ ❁

١٦

وَسَطِيَّةُ أَهْلِ الْقُرْآنِ

مَرَّ معنا أنَّ خيرَ الذكرِ وأجلَّهُ وأفضلَهُ هو القرآنُ الكريم، ومَرَّ معنا فضلُ حَمَلَتِه؛ فهمْ أهلُ اللهِ وخاصَّته، كما ثبَتَ ذلك عن النبي ﷺ، ولا ريبَ أنَّ لِحَمَلَةِ القرآنِ صفاتٍ جليلةً، ونعوتًا كريمةً، وهي كثيرةٌ جدًّا، إلا أن أهمَّ نعوتهم وأجلَّ صفاتهم وأبرزَ علامتهم التوسُّطُ والاعتدالُ؛ وذلك بلزوم ما جاء في القرآنِ والوقوفِ عنده، دونَ غُلُوٍّ أو جفاءٍ، ودون إفراطٍ أو تفريطٍ، أو زيادةٍ أو تقصيرٍ.

يقولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فلمَّا جعَلَ اللهُ هذه الأُمَّةَ ـ أُمَّةَ محمَّدٍ ﷺ ـ أمةً وسطًا؛ أي: خيارًا عدولًا، خَصَّها بأكملِ الشرائع، وأقومِ المناهج، وأوضحِ المذاهب، وجعَلَ كتابَهُ المبينَ يَهْدِي للتي هي أقوم، ويدعو للتي هي أرشَدُ وأحكم؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

ولم يُنْزِلِ اللهُ هذا القرآنَ الكريمَ ليشقى به الناسُ، وإنما أنزلَهُ لِيَسْعَدوا به سعادةً لا شقاءَ بعدها، وليهتدوا به هدايةً لا ضلالَ بعدها؛ كما قال سبحانه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه]، **وقد ذكَرَ المفسِّرون في سببِ نزولِ هذه الآيات**: أنَّ اللهَ لمَّا أنزَلَ القرآنَ على رسوله ﷺ، قام به هو وأصحابُهُ خيرَ قيام، فقال المشركون: ما أُنْزِلَ هذا القرآنُ على محمَّدٍ إلَّا ليشقى، فأنزَلَ اللهُ تعالى قوله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾؛ **أي**: فليس الأمرُ كما زعمَهُ هؤلاءِ المُبْطِلون، بل مَنْ آتاه اللهُ العلمَ بوحيه، والفقهَ في تنزيله، فقد أرادَ به خيرًا كثيرًا.

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ **في قوله:** ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ **قال:** «لا واللهِ، ما جعلَهُ شقاءً، ولكنْ جعَلَهُ رحمةً ونورًا ودليلًا إلى الجنَّة»[١].

۞ **فحقيقٌ بحاملِ القرآن، بل وبكلِّ مسلم،** أن يقفَ عنده، فيُحِلَّ حلاله، ويُحرِّمَ حرامه، ويُصدِّقَ بأخباره، ولا يَتجاوَزَهُ بغُلُوٍّ وإفراط، أو يَقْصُرَ عنه بجفاءٍ وتفريط، بل يكونُ في ذلك وسطًا.

روى أبو داودَ في «سننه»، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان»، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إنَّ مِنْ إجْلَالِ اللهِ إكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ، وحَامِلِ القُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ وَلَا الجَافِي عَنْهُ، وَذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ**)، وإسناده حسن[٢].

فوصَفَ ﷺ أهلَ القرآنِ حقًّا وحَمَلَتَهُ صدقًا الذين يَسْتحقُّونَ الإجلالَ والإكرام: بأنَّ حالهم فيه بين الغُلُوِّ والجفاء، وأخبَرَ أنَّ إكرامَ هؤلاءِ - **أي:** أهلِ هذا الوصفِ - من إجلالِ اللهِ تبارك وتعالى. وما مِنْ ريبٍ أنَّ هذه درجةٌ منيفة، ومنزلةٌ شريفة؛ تَبوَّأَها هؤلاءِ بسببِ لزومهم القرآن، وعَدَمِ تجانفهم عنه بغلوٍّ أو جفاء، أو زيادةٍ أو تقصير.

قال أبو عُبَيْد القاسمُ بن سَلَّام رَحِمَهُ اللَّهُ **في بيان معنى حديث أبي موسى** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **المتقدِّم:** «فالغالي: المُفرِطُ في اتِّباعِهِ حتى يُخْرِجَهُ إلى إكفارِ النَّاسِ مثل الخوارج، والجافي عنه: المضيِّعُ لحدودِهِ المستخفُّ به».

وفي معنى هذا الحديث قولُ رابعِ الخلفاءِ الراشدين عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ دينَ اللهِ بين الغالي والمقصِّر، فعليكُمْ بالنُّمْرُقةِ الوسطى؛ فإنَّ بها يلحقُ المقصِّر، وإليها يرجعُ الغالي».

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٦٧).

(٢) «سنن أبي داود» رقم (٤٨٤٣)، و«شعب الإيمان» رقم (٢٤٣١)، وحسَّنه الذهبيُّ في «ميزان الاعتدال» (٢/ ١١٨)، وابن حَجَرٍ في «التلخيص الحبير» (٤/ ٥٦٥)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢١٩٩).

وهو كلامٌ حسَنٌ عظيمُ الفائدة، **قال فيه ثعلبٌ اللغويُّ المشهور**: «ما رُوِيَ في التوسُّطِ أحسنُ مِنْ قولِ أميرِ المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه» - يشير إلى كلامه هذا المتقدّم -(١).

إنَّ الشيطانَ أَحْرَصُ ما يكونُ على صرفِ المسلم عن الجادَّةِ وإبعادِهِ عن الصراطِ المستقيم، إمَّا إلى غُلُوٍّ أو إلى جفاء، ولا يبالي عدوُّ الله بأيِّ الأمرين منهما ظَفِرَ؛ **قال بعضُ السلف**: «ما أمَرَ اللهُ تعالى بأمرٍ إلَّا وللشيطانِ فيه نزغتان: إمَّا إلى تفريطٍ وتقصير، وإمَّا إلى مجاوزةٍ وغُلُوٍّ، ولا يبالي بأيِّهما ظَفِرَ»(٢)؛ ولِعَدُوِّ الله في هذا الأمرِ مكرٌ عجيب، وكيدٌ غريب.

قال ابن القيِّم رحمه الله في كتابه العظيم «إغاثة اللهفان، من مصايد الشيطان»: «ومِنْ كيده - **أي**: الشيطان؛ أعاذنا الله وإيَّاكم منه - أنَّه يُشَامُّ النفسَ، حتى يعلم أي القوَّتَيْنِ تغلبُ عليها: قوّةُ الإقدامِ والشجاعة، أم الانكفاف والإحجام والمهانة، فإنْ رأى الغالبَ على النفسِ المهانةَ والإحجامَ، أخَذَ في تثبيطِهِ، وإضعافِ هِمَّتِهِ وإرادتِهِ عن المأمور به، وثَقَّلَهُ عليه، فهَوَّنَ عليه تَرْكَهُ حتى يتركه جملةً، أو يُقَصِّرَ فيه ويتهاون. وإنْ رأى الغالبَ عليه قُوَّةَ الإقدامِ وعلوَّ الهِمَّة، أخذ يُقلِّلُ عنده المأمورَ به، ويوهمُهُ أنَّه لا يكفيه، وأنَّهُ يحتاجُ معه إلى مبالغةٍ وزيادة، فيَقْصُرُ بالأوَّلِ، ويتجاوَزُ بالثاني... وقد اقتطَعَ أكثرُ الناسِ - إلَّا أقلَّ القليل - في هذَيْن الواديَيْن: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدِّي، والقليلُ منهم جدًّا الثابتُ على الصراطِ الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه...»(٣).

ثم أطال رحمه الله في ضرب الأمثلة على ذلك، **ثم قال**: «وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا لو تتبَّعناه، لبلَغَ مبلغًا كثيرًا»(٤).

---

(١) نقل كلام أبي عبيد السابق وأثر علي وتعليق ثعلب عليه الحافظ السخاوي في رسالته: «الجواب الذي انضبط» (ص٣٧ - ٣٩).
(٢)(٣) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ١٣٦).
(٤) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٣٨).

وقد صحَّ في الحديث عن النبي ﷺ، أنَّه قال: **(القَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا)**(١)؛ **أي**: عليكُمْ بالقصدِ من الأمورِ في الأقوالِ والأفعال، **والقصدُ هو**: الوَسَطُ بين الطرفَيْن، وصَحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال ـ كما في «المسند» وغيره ـ: **(عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُشَادَّ الدِّينَ يَغْلِبْهُ)**(٢)، **وكان ابن مسعود** رضي الله عنه **يقول**: «الاقتصادُ في سُنَّةٍ خيرٌ من الاجتهادِ في بِدْعة»(٣).

قال ابن القيِّم رحمه الله: «فدينُ الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخيرُ الناسِ النَّمطُ الأوسط، الذين ارتَفَعُوا عن تقصيرِ المفرِّطين، ولم يلحقوا بغلوِّ المعتدين، وقد جعَلَ اللهُ سبحانه هذه الأمةَ وَسَطًا، وهي الخِيَارُ العَدْلُ، لتوسُّطها بين الطرفَيْن المذمومَيْن، والعدلُ هو الوسَطُ بين طَرَفَي الجَوْرِ والتفريط، والآفاتُ إنَّمَا تَتطرَّقُ إلى الأطراف، والأوساطُ مَحْمِيَّةٌ بأطَرافها؛ فخيارُ الأمورِ أوساطُها»(٤).

فنسألُ اللهَ أن يَهْدِيَنا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يجنِّبنا الزَّلَلَ في القول والعمل، وأنْ يوفِّقنا للعملِ بكتابِهِ واتِّباعِ سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري رقم (٦٤٦٣).
(٢) «المسند» (٥/ ٣٥٠، ٣٦١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٠٨٦).
(٣) رواه اللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١/ ٨٨).
(٤) «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠١).

١٧

أَفْضَلِيَّةُ الْقُرْآنِ عَلَى مُجَرَّدِ الذِّكْرِ

إنَّ ملازمةَ ذكرِ الله دائمًا هي أفضلُ ما شغَلَ العبدُ به وقتَهُ، وصرَفَ فيه أنفاسه، بعدَ قيامِهِ بفرائضِ الله التي افترَضَهَا على عباده. والذِّكْرُ شاملٌ لكلِّ قولٍ صالحٍ يحبُّهُ اللهُ ويرضاه مِنْ تلاوةٍ لكلامِ اللهِ، أو تسبيحٍ أو تحميدٍ، أو تكبيرٍ أو تهليلٍ، أو دعاءٍ أو غيرِ ذلك، وما مِنْ شكٍّ في أنَّ أفضلَ هذه الأذكارِ وأجلَّها وأعظمَهَا وأرفعَهَا قدرًا قراءةُ القرآنِ الكريم كلامِ رَبِّ العالمين؛ كما في «صحيح مسلم»، عن النبي ﷺ: **(أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)**[١]، وفي لفظٍ كما في «المسند» للإمام أحمد، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: **(أَفْضَلُ الكَلَامِ بَعْدَ القُرْآنِ أَرْبَعٌ، وَهُنَّ مِنَ القُرْآنِ: سُبْحَانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَه إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)**[٢].

وفي «جامع الترمذي» ـ وحسَّنه ـ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: **(يَقُولُ الرَّبُّ عز وجل: مَن شَغَلَهُ القُرْآن عَن ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي، أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ)**[٣]، وكما في الحديث الذي في «السنن»، في الذي سأل النبيَّ ﷺ، فقال: إنِّي لا أستطيعُ أن آخذ من القرآن شيئًا، فعلِّمْني ما يجزئني منه في صلاتي، قال: **(قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ)**[٤].

ولهذا كانتِ القراءةُ واجبةً في الصلاة، ولا يُعْدَلُ عنها إلى الذِّكْرِ إلَّا عند العجزِ عن ذلك؛ وهذا واضحٌ في الدَّلالة على أفضليَّةِ قراءةِ القرآن؛

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢١٣٧).
(٢) «المسند» (٥/ ٢٠).
(٣) «جامع الترمذي» رقم (٢٩٢٦).
(٤) سيأتي تخريجه (ص١٤٣).

ويدلُّ على ذلك أيضًا أنَّ القراءةَ يُشْتَرَطُ لها الطهارةُ الكبرى دون الذِّكْرِ؛ فإنَّه لا يُشترطُ فيه ذلك، وما لم يُشْرَعْ إلَّا على الحال الأكمل فهو أفضل؛ كما أنَّ الصلاةَ لمَّا اشتُرِطَ لها الطهارتان كانتْ أفضلَ مِنْ مجرَّدِ القراءة؛ كما قال النبي ﷺ: **(اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ)**(١)؛ ولهذا نصَّ العلماءُ على أنَّ أفضلَ تطوُّعِ البدنِ الصلاةُ، وأيضًا فما يُكْتَبُ فيه القرآنُ لا يَمَسُّهُ إلَّا طاهرٌ دون ما يُكْتَبُ فيه الذِّكْرُ؛ فإنَّه لا يُشترطُ فيه ذلك.

فهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ قراءةَ القرآنِ الكريم أفضلُ من التسبيحِ والتحميدِ والتكبيرِ وغيرِ ذلك مِنَ الأذكار.

هذا مِنْ حيثُ الجملةُ؛ وإلَّا فإنَّه قد يقترن بالعملِ المفضولِ ما يجعلُهُ أفضلَ.

وقد أوضَحَ هذا شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ **وبيَّنه بيانًا وافيًا في جوابٍ له عن هذه المسألة**(٢)**، قال** رَحِمَهُ اللهُ:

«وتحقيقُ ذلك: أنَّ العمَلَ المفضولَ قد يقترنُ به ما يُصيِّرُهُ أفضلَ من ذلك، **وهو نوعان**:

أحدُهمـا: ما هو مشروعٌ لجميعِ الناس.

والـثـاني: ما يختلفُ باختلافِ أحوالِ الناس.

أما الأوَّل: فمثلُ أنْ يَقْترِنَ إمَّا بزمانٍ أو بمكانٍ أو عملٍ يكونُ (به) أفضلَ؛ مثلُ ما بعد الفجرِ والعصرِ ونحوهما مِنْ أوقاتِ النهيِ عن الصلاة؛ فإنَّ القراءة والذِّكْرَ والدعاءَ أفضلُ في هذا الزمان، وكذلك الأمكنةُ التي نُهِيَ عن الصلاةِ فيها؛ كالحَمَّامِ وأعطانِ الإبلِ؛ فالذِّكْرُ والدعاءُ فيها أفضلُ،

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/٢٧٦، ٢٨٢)، وابن ماجه رقم (٢٧٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٩٥٢).

(٢) **انظر**: «الفتاوى الكبرى» (١/٢٣٣ وما بعدها).

وكذلك الجُنُبُ الذِّكْرُ في حَقِّهِ أفضلُ، فإذا كُرِهَ الأفضلُ في حالِ حصولِ مفسدةٍ كان المفضولُ هناك أفضلَ، بل هو المشروع.

وكذلك حالُ الركوعِ والسجود، فإنَّه قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **(نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا؛ أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ)**[1].

وقد اتفق العلماءُ على كراهةِ القراءةِ في الركوعِ والسجود، وتَنَازَعُوا في بطلانِ الصلاةِ بذلك على قولَيْنِ هما وجهانِ في مذهبِ الإمام أحمد؛ وذلك تشريفًا للقرآنِ وتعظيمًا له ألَّا يُقْرَأَ في حالِ الخضوعِ والذُّلّ، وما بعد التشهُّدِ هو حالُ الدعاءِ المشروعِ بفعلِ النبي ﷺ وأمره، والدعاءُ فيه هو الأفضلُ، بل هو المشروعُ دون القراءةِ والذِّكْر، وكذلك حالُ الطَّوَافِ، وبِعَرَفَةَ ومُزْدَلِفَةَ وعند رمي الجِمَار؛ المشروعُ هناك هو الذكرُ والدعاء.

ثم ذكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ **النوعَ الثانيَ**: وهو أنْ يكونَ العبدُ عاجزًا عن العملِ الأفضل، إمَّا عاجزًا عن أصله؛ كمَنْ لا يحفظُ القرآن، ولا يستطيعُ حِفْظَهُ؛ كالأعرابيِّ الذي سأل النبيَّ ﷺ، أو عاجزًا عن فعلِهِ على وجهِ الكمالِ مع قدرتِهِ على فعلِ المفضولِ على وجه الكمال... **إلى أن قال:**

وليس كلُّ ما كان أفضلَ يُشْرَعُ لكلِّ أحد، بل كلُّ واحدٍ يُشرعُ له أن يفْعَلَ ما هو أفضلُ له؛ فمِنَ الناسِ مَنْ تكونُ الصدقةُ أفضلَ له من الصيام، وبالعكس، وإنْ كان جنسُ الصدقةِ أفضلَ، ومِنَ الناسِ مَنْ يكونُ الحجُّ أفضلَ له مِنَ الجهادِ كالنِّسَاء، وكمَنْ يَعْجِزُ عن الجهاد، وإنْ كان جنسُ الجهادِ أفضلَ....

ثم قال: إذا عُرِفَ هذا، فيقال: الأذكارُ المشروعةُ في أوقاتٍ معيّنة، مثلُ ما يقال عند جوابِ المؤذِّنِ هو أفضلُ من القراءةِ في تلك الحال، وكذلك

---

(١) رواه مسلم رقم (٤٧٩).

ما سَنَّهُ النبيُّ ﷺ فيما يقالُ عند الصباحِ والمساءِ وإتيانِ المضطجَع هو مقدَّمٌ على غيره، وأمَّا إذا قام من الليل، فالقراءةُ له أفضلُ إذا أطاقها، وإلَّا فلْيَعْمَلْ ما يطيق، والصلاةُ أفضَلُ منهما؛ ولهذا نقلهم عند نسخ وجوبِ قيام الليلِ إلى القراءة؛ فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ [المزمل: ٢٠]». اهـ.

وبهذا التحقيقِ الذي ذكَرَهُ شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يَتبيَّنُ القولُ الفصلُ في هذه المسألةِ العظيمةِ، فتلاوةُ القرآنِ الكريم هي أفضلُ الأذكار، ومقدَّمةٌ على التسبيحِ والتحميد، والتكبيرِ والتهليل، والدعاءِ والاستغفار، وغيرِ ذلك من الأدعيةِ والأذكار، إلَّا أنَّ هناك حالاتٍ معيَّنةً تقترنُ بالعملِ المفضولِ يكونُ بها أفضلَ مِنْ غيره، وقد أشار شيخ الإسلام في تحقيقه المتقدِّمِ إلى أمثلة عديدة لذلك.

روى الطبريُّ **عن عَمْرو بن أبي سَلَمة، قال**: «سألتُ الأوزاعيَّ عن قراءةِ القرآنِ أَعْجَبُ إليك أم الذِّكْر؟ فقال: سَلْ أبا محمَّد - **يعني**: سعيدًا - فسألتُهُ؟ فقال: بل القرآنُ؛ فقال الأوزاعيُّ: إنَّه ليس شيءٌ يَعْدِلُ القرآنَ، ولكنْ إنَّما كان هَدْيُ مَنْ سلَفَ يذكرون الله تعالى قبل طلوعِ الشمسِ وقبلَ الغروب»(١).

فأشار رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّ القرآنَ هو أفضلُ الأذكارِ ولا يعدلُهُ شيء، لكنَّ الأذكارَ الواردةَ في الصباحِ والمساءِ وأدبارِ الصلواتِ وغيرِها تكونُ في وقتها أفضلَ، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) أورده القرطبي في «التذكار في أفضل الأذكار» (ص٥٩)، وظنَّ أن سعيدًا هو ابن المسيَّب، **والصواب**: أنه سعيد بن عبد العزيز التنوخي الدمشقي، وهو مِنْ فقهاء أهل الشام ومفتيهم، قال الإمام أحمد: «هو والأوزاعي عندي سواء». **انظر**: «تهذيب الكمال» (١٠/ ٥٤٢).

١٨

فَضْلُ طَلَبِ الْعِلْمِ

ما مِن شكٍّ في أنَّ الاشتغالَ بطلبِ العلمِ وتحصيلِهِ، ومعرفةِ الحلالِ والحرام، ومدارسةِ القرآنِ الكريم، وتَدَبُّرِهِ، ومعرفةِ سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ وسيرتِهِ وأخبارِهِ: هو خيرُ الذِّكْرِ وأفضلُه، ومجالسُهُ خيرُ المجالس، وهي أفضلُ من مجالس ذكرِ اللهِ بالتسبيحِ والتحميدِ والتكبير؛ لأنَّها دائرةٌ بين فَرْضِ عينٍ أو فرضِ كفاية، والذِّكْرُ المجرَّدُ تطوُّعٌ محض.

ولهذا فقد ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ في تفضيلِ العلم وتقديمِهِ على العبادة، وتقديم العالِم على العابدِ، أنَّه قال: (**وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ**)؛ خَرَّجه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم، من حديث أبي الدرداء[١].

وقد تضَمَّنَ هذا الحديثُ مثلًا بديعًا يَتَّضِحُ مِنْ خلاله مدى الفرقِ بين العالمِ والعابد؛ حيث شبَّه ﷺ العالمَ بالقمرِ ليلة البدر؛ **أي**: ليلةَ الخامسَ عشَرَ، والتي فيها يكونُ نهاية كمالِ القمرِ وتمامِ نوره، وشَبَّهَ العابدَ بالكواكب، وفي هذا التشبيه سِرٌّ لطيفٌ نبَّه عليه أهل العلم.

يقول الإمام ابن رَجَب رَحِمَهُ اللَّهُ: «والسِّرُّ في ذلك والله أعلم: أنَّ الكوكبَ ضوؤُهُ لا يَعْدُو نَفْسَهُ، وأما القمرُ ليلةَ البدر فإنَّ نُورَهُ يُشْرِقُ على أهلِ الأرض جميعًا فيعمُّهم نُورُه، فيستضيئون بنوره، ويهتدون به في سَيْرِهِمْ، وإنَّما قال: على سائرِ الكواكب، ولم يقل: على سائرِ النُّجُوم؛ لأنَّ الكواكبَ هي التي لا تسيرُ ولا يُهتدى بها، فهي بمنزلةِ العابدِ الذي نَفْعُهُ مقصورٌ على نفسه»[٢].

---

(١) «المسند» (٥/١٩٦)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٦٤١)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٦٨٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٢٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٩٧).

(٢) شرح حديث أبي الدرداء رضي الله عنه في «طلب العلم» (ص٣٣).

فدَلَّ الحديث على تفضيلِ العلمِ على العبادةِ تفضيلًا بيِّنًا، وثبتَ عن النبي ﷺ في «مستدرك الحاكم» وغيره، من حديث سَعْد بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه، أنَّه قال: (**فَضْلُ العِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن فَضْلِ العِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ**)(١).

ومما يدلُّ على تفضيلِ العلمِ على جميعِ النوافلِ والمستحبَّات، بما فيها الذِّكْرُ: أنَّ العلمَ يجمعُ جميعَ فضائلِ الأعمالِ المتفرِّقة؛ كما رُوِيَ في الأثر: (**تَعَلَّمُوا العِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ خَشْيَةٌ، وطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، ومُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، والبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الحَلَالِ وَالحَرَامِ، ومَنَارُ سَبِيلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَهُوَ الأُنْسُ فِي الوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الغُرْبَةِ، وَالمُحَدِّثُ فِي الخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلَاحُ عَلَى الأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الأَخِلَّاءِ، يَرْفَعُ اللهُ بِهِ أَقْوَامًا، فَيَجْعَلُهُمْ فِي الخَيْرِ قَادَةً وأَئِمَّةً، تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِأَفْعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ المَلَائِكَةُ فِي خُلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ، وَحِيتَانُ البَحْرِ وهَوَامُّهُ، وسِبَاعُ البَرِّ وَأَنْعَامُهُ؛ لِأَنَّ العِلْمَ حَيَاةُ القُلُوبِ مِنَ الجَهْلِ، ومَصَابِيحُ الأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، يَبْلُغُ العَبْدُ بِالعِلْمِ مَنَازِلَ الأَخْيَارِ وَالدَّرَجَاتِ العُلَا فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، والتَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ الصِّيَامَ، ومُدَارَسَتُهُ تَعْدِلُ القِيَامَ، وبِهِ تُوصَلُ الأَرْحَامُ، وَبِهِ يُعْرَفُ الحَلَالُ مِنَ الحَرَامِ، وَهُوَ إِمَامُ العَمَلِ، والعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ ويُحْرَمُهُ الأَشْقِيَاءُ**)(٢).

وقد جاء عن السلفِ الصالحِ رحمهم الله في تفضيلِ العلمِ آثارٌ كثيرةٌ(٣):

---

(١) «المستدرك» (١/ ٩٢)، ورواه البزار في «مسنده» رقم (٢٩٦٩) من حديث حذيفة بن اليمان، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٢١٤).

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٦٥) من حديث معاذ رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا بأسانيد لا تصح، واستحسن ابن عبد البر معناه، فقال: «وهو حديث حسن جدًّا، ولكن ليس له إسنادٌ قويٌّ».

(٣) **انظر**: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٩٩ وما بعدها)، «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (١/ ٤٩، ٦٣)، وشرح حديث أبي الدرداء في «طلب العلم» (ص٣٦، ٣٧).

ـ **يقول الثوريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما يُرادُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بشيءٍ أفضلَ مِنْ طلبِ العلم، وما طُلِبَ العلمُ في زمانٍ أفضلَ منه اليوم».

ـ **وقال مَيْمُونُ بن مِهْرَان** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ مَثَلَ العالمِ في البلدِ كمَثَلِ عَيْنٍ عَذْبةٍ في البلد».

ـ **وقال الحسن البصريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «العالمُ خيرٌ من الزاهد في الدنيا المجتهِدِ في العبادة، يَنْشُرُ حِكْمةَ الله؛ فإنْ قُبِلَتْ حَمِدَ الله، وإنْ رُدَّتْ حَمِدَ الله».

ـ **وقال الإمام الشافعي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «طَلَبُ العلمِ أفضلُ من صلاةِ النافلة».

ـ **وسئل الإمام أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيُّما أَحَبُّ إليك: أنْ أُصلِّيَ بالليلِ تطوُّعًا، أو أجلسَ أَنْسَخُ العلم؟ قال: إذا كنتَ تنسخُ، فأنت تعلّمُ به أمرَ دينك فهو أَحَبُّ إليَّ». **وقال أيضًا**: «العلمُ لا يعدلُهُ شيء».

وإذا كان أهلُ العلمِ بهذه المنزلةِ الرفيعةِ والدرجةِ العالية، فإنَّ الواجِبَ على مَنْ سواهم أن يَحْفَظَ لهم قَدْرَهُمْ، ويَعْرِفَ لهم مكانتَهم، ويُنزِلَهُمْ مَنَازِلَهم؛ فقد ثبتَ عن النبي ﷺ، أنَّه قال: **(لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا [حَقَّهُ])**(١).

۞ **هذا**، وإنَّ مِنْ عدم معرفةِ قدرِ أهلِ العلم وحفظِ مكانتهم الادِّعَاءَ بأنَّ علماءَ الأُمَّةِ وفقهاءَ المِلَّةِ وأهل الحَلِّ والعقدِ فيها لا يفقهونَ غيرَ عِلْمِ الحَيْضِ والنفاس؛ ممَّا يَترتَّبُ على ذلك الحطُّ مِنْ شأنهم، والتقليلُ من قَدْرِهم، وصرفُ النَّاسِ عَنِ الإفادة منهم، وهي مقالةٌ فاسدةٌ وكلمةٌ خطيرةٌ، نشأت قديمًا عند أربابِ البدع وأهلِ الأهواء، ولكلِّ قوم وارثٌ، **وفي الغالبِ أنَّ أهلَ هذه المقالة لا يَسْلَمُ الواحدُ منهم من أحد توجُّهين**:

- **إما توجُّهٌ صوفيٌّ**، ينحى بهذه المقالةِ إلى الحطِّ مِنْ قدرِ العلمِ والتنقُّصِ

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٢٣٥)، **وانظر**: «السلسلة الصحيحة» للألباني رقم (٢١٩٦).

من مكانته؛ لِيْخلُصَ من ذلك إلى تفضيلِ العبادةِ والذكرِ عليه، وربَّمَا استشهَدَ بعضُ هؤلاءِ على هذا بما يُحْكَى عن رابعةَ العَدَويَّةِ أَنَّها أتت ليلةً بالقدسِ تُصلِّي حتى الصباح، وإلى جانبها بيتٌ فيه فقيهٌ يُكرِّرُ على بابِ الحيضِ إلى الصباح، فلمَّا أصبحَتْ رابعةُ، قالت له: يا هذا، وصَلَ الواصلونَ إلى ربِّهم، وأنتَ مشتغلٌ بحيضِ النِّسَاء؟[1]. ولهذا دأبَ هؤلاءِ على النهي عن العلمِ والتحذيرِ منه، وعَدِّهِ آفةً مِنَ الآفات، كما يقولُ أحدهم: «آفةُ المُريدِ ثلاثٌ: التزوُّجُ، وكتابةُ الحديث، والأسفار».

• **وإما توجُّهٌ فكريٌّ**، ينحى بهذه المقالةِ إلى إقحامِ الناسِ في متاهاتٍ فكريةٍ، وتخرُّصاتٍ عقليةٍ، وظنونٍ وأوهامٍ، وهذا يكثُرُ عندَ أهلِ الكلامِ الباطلِ كالمعتزلةِ وغيرهم.

روي عن إسماعيل ابن عُلَيَّةَ، قال: حدّثني اليَسَعُ، قال: تَكلَّمَ واصلُ بن عطاءٍ يومًا، فقال عَمْرو بن عُبَيْد: «ألا تسمعون؟ ما كلامُ الحسَنِ وابنِ سِيرِينَ عندما تسمعونَ إلَّا خِرْقَةُ حَيْضٍ ملقاة».

وروي أنَّ زعيمًا من زعماءِ أهلِ البدع كان يريدُ تفضيلَ الكلامِ على الفقه، فكان يقول: «إنَّ علمَ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ جملتُهُ لا يخرُجُ من سراويل امرأة». ذكر هذا والذي قبله الشاطبيُّ في كتابه «الاعتصام»[2]، **ثم قال**: «هذا كلامُ هؤلاءِ الزائغينَ، قاتَلَهُمُ اللهُ».

ولا ريب أنَّ هذه توجُّهاتٌ متحلِّلةٌ من رِبْقةِ العلم، مستحكمةٌ في الهوى والباطل، فنسألُ اللهَ أن يَحْفَظَنا من الأهواءِ المطغية، والفتنِ المُرْدِية، بمنِّهِ وكَرَمِه، كما نسألُهُ أن يحفظَ علينا علماءنا، الذين هم أمناءُ الشريعةِ وحُفَّاظُ الدِّين، وأنصارُ المِلَّة، وأن يَجْزِيَهم عن الإسلامِ وأهلِهِ خيرَ الجزاء، وأن يُعْلِيَ قَدْرَهُمْ في الدنيا والآخرة، وأن يَنْصُرَ بهم دينه، ويُعْلِيَ بهم كلمته، إنَّهُ وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

---

(١) **انظر**: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/٣٩٦).
(٢) (٢/٢٣٩).

١٩

أَرْكَانُ التَّعَبُّدِ الْقَلْبِيَّةُ لِلذِّكْرِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ

إنَّ ذِكْرَ اللهِ ﷻ والتقرُّبَ إليه بما يحبُّ من صالح الأعمالِ والأقوالِ لا يكونُ مقبولًا عند الله إلَّا إذا أقامه العابدُ على أركان ثلاثة؛ **وهي**: الحبُّ، والخوفُ، والرَّجاء.

فهذه الأركان الثلاثة هي أركانُ التعبُّدِ القلبيةُ التي لا قبولَ لأيِّ عبادةٍ إلَّا بها، **فالله جلَّ وعلا يُعْبَدُ حُبًّا فيه، ورجاءً لثوابه، وخوفًا من عقابه**، وقد جمَعَ اللهُ تبارك وتعالى بين هذه الأركان الثلاثة في «**سورة الفاتحة**»، التي هي أفضلُ سورِ القرآن؛ فقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **فيه المَحَبَّةُ**؛ لأنَّ اللهَ مُنْعِم، والمنعمُ يُحَبُّ على قدر إنعامه؛ ولأنَّ الحمدَ هو المدحُ مع الحبِّ للممدوح. وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **فيه الرجاءُ**؛ فالمؤمنُ يرجو رحمةَ الله، ويطمعُ في نيلها، وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ **فيه الخوفُ**، ويومُ الدِّينِ هو يومُ الجزاءِ والحساب. ثمَّ قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **أي**: أعبدُكَ يا ربِّ بما مضى بهذه الثلاث: بمحبَّتِكَ ورجائِكَ وخوفِكَ، فهذه الثلاثُ هي أركانُ العبادةِ التي عليها قيامُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا تقومُ إلَّا على المحبَّةِ التي دلَّ عليها قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والرَّجاءِ الذي دَلَّ عليه قولُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والخوفِ الذي دلَّ عليه قولُهُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾(١).

وقد جمَعَ اللهُ أيضًا بين هذه الأركان في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]،

---

(١) **انظر**: مؤلَّفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (القسم الأول: العقيدة والآداب الإسلامية (ص٣٨٢، ٣٨٣)).

فإنَّ ابتغاءَ الوسيلةِ إليه هو التقرُّبُ إليه بحبِّه وفعلِ ما يحبُّه، ثم قال: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾؛ فذكَرَ الحبَّ والخوفَ والرَّجَاء(١)، وكذلك في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ولذا يجبُ أن يكون العبدُ في عبادتِهِ وذِكْرِهِ لله جامعًا بين هذه الأركان الثلاثة: المحبَّةِ، والخوفِ، والرَّجَاء، وهي ـ كما وصف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ محركات القلوب(٢)، ولا يجوزُ له أن يعبدَ اللهَ بواحدٍ منها دون باقيها؛ كأنْ يعبدَ الله بالحُبِّ وحدَهُ دون الخوف والرَّجَاء، أو يعبدَ اللهَ بالرَّجَاءِ وحده، أو بالخوفِ وحده؛ **ولذا قال بعضُ أهل العلم**: «مَنْ عَبَدَ اللهَ بالحب وحدَهُ فهو زنديق، ومن عبَدَهُ بالخوفِ وحده فهو حَرُورِيٌّ، ومَنْ عبده بالرَّجَاءِ وحده فهو مرجئٌ، ومَنْ عبده بالحبِّ والخوفِ والرَّجَاءِ فهو مؤمنٌ موحِّدٌ»(٣).

وأعظمُ هذه الأركانِ الثلاثةِ وأجلُّها: هو الحُبُّ، حبُّ الله تبارك وتعالى، الذي هو أصلُ دِينِ الإسلام وقُطْبُ رحاه، والمحبَّةُ منزلةٌ شريفةٌ، فيها يتنافسُ المتنافسون، وإليها شَمَّرَ المتسابقون؛ وهي قوتُ القلوب، وغذاءُ الأرواح، وقُرَّةُ العيون، ورُوحُ الإيمانِ والعمل، ومَنْ لم يَظْفَرْ بها في هذه الحياة، فحياتُهُ كلُّها شقاءٌ وألمٌ.

وقد ذكَرَ الإمامُ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ **أسبابًا عظيمةً جالبة للمحبَّة، فقال**: «إنَّ الأسباب الجالبة للمحبَّةِ عَشَرَةٌ:

أحدها: قراءةُ القرآنِ بالتدبُّرِ والتفهُّمِ لمعانيه، وما أريد به.

الثاني: التقرُّبُ إلى الله تعالى بالنَّوَافِلِ بعد الفرائض.

الثالث: دوامُ ذِكْرِهِ على كلِّ حالٍ باللِّسَانِ والقلبِ والعملِ والحال؛ فنصيبُهُ من المحبَّةِ على قَدْرِ هذا.

---

(١) **انظر**: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص٤٦٥).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥).
(٣) **انظر**: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ٨١).

الرابع: إيثارُ مَحَابِّهِ على مَحَابِّكَ عند غَلَبَاتِ الهوى.

الخامس: مطالعةُ القلبِ لأسمائِهِ وصفاتِهِ ومشاهدتُها، وتقلُّبُهُ في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدةُ بِرِّهِ وإحسانِهِ ونِعَمِهِ الظاهرةِ والباطنة.

السابع: وهو أعجبها؛ انكسارُ القلبِ بين يديه.

الثامن: الخَلْوَةُ وقتَ النزولِ الإلٰهي، وتلاوة كتابه، ثُمَّ خَتْمُ ذلك بالاستغفارِ والتوبة.

التاسع: مجالسةُ المحبِّينَ الصادقين، والتقاطُ أطايبِ ثمراتِ كلامهم، ولا تَتَكلَّمْ إلَّا إذا ترجَّحتْ مصلحةُ الكلام، وعَلِمْتَ أنَّ فيه مزيدًا لحالك ومنفعةً لغيرك.

العاشر: مباعدةُ كلِّ سببٍ يحولُ بين القلبِ وبين الله ﷻ».

ثم قال: «فمِنْ هذه الأسبابِ العَشَرةِ وصَلَ المحبُّونَ إلى منازلِ المحبَّة»[١].

ثم مع المحبَّة يجبُ على العبدِ أن يكونَ خائفًا من الله، راجيًا له، راغبًا راهبًا؛ إنْ نظَرَ إلى ذنوبِهِ وعَدْلِ اللهِ وشِدَّةِ عقابِهِ، خَشِيَ ربَّه وخافه، وإنْ نظَرَ إلى فضلِهِ العامِّ والخاصِّ وعَفْوِهِ الشَّامِلِ رجا وطَمِعَ، إنْ وُفِّقَ لطاعةٍ رجا مِنْ ربِّه تمامَ النِّعْمة بقبولها، وخافَ مِنْ رَدِّها بتقصيرِهِ في حقِّها، وإنْ ابتُلِيَ بمَعْصيةٍ رجا مِنْ رَبِّهِ قبولَ توبتِهِ ومحوها، وخَشِيَ - بسبب ضعف التَّوْبةِ والالتفات للذَّنْب - أن يُعَاقَبَ عليها، وعند النِّعَم والمَسَارِّ: يرجو اللهَ دوامَها، والزيادةَ منها، والتوفيقَ لشكرها، ويخشى بإخلالِهِ بالشكرِ مِنْ سَلْبها، وعندَ المكارِهِ والمصائب: يرجو اللهَ دَفْعَها، وينتظرُ الفَرَجَ بحلِّها، ويرجو أيضًا أن يثيبَهُ عليها حين يقومُ بوظيفةِ الصبر، ويخشى مِنِ اجتماعِ المصيبتَيْنِ فواتَ الأجرِ المحبوب، وحصولَ الأمرِ المكروه؛ إذا لم يُوَفَّقْ للقيامِ بالصبرِ الواجب؛ فالمؤمنُ الموحِّدُ ملازمٌ في كلِّ أحوالِهِ للخوفِ والرَّجَاء؛ وهذا هو الواجبُ

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧، ١٨).

وهو النافع، وبه تحصُلُ السعادة، **لكنْ يُخْشَى على العبدِ مِنْ خُلُقَيْنِ مذمومين:**

إمَّا أن يستولي عليه الخوفُ حتى يَقْنَطَ مِنْ رحمةِ الله، أو يتجارى به الرَّجَاءُ حتى يأمنَ مِنْ مكرِ اللهِ وعقوبته، ومتى بَلَغَتِ الحالُ بالعبدِ إلى هذا، فقد ضَيَّعَ واجبَ الخوفِ والرَّجَاءِ اللَّذَيْنِ هما مِنْ أكبرِ أصولِ الدِّينِ، ومِنْ أعظَمِ واجباته[١].

إنَّ الخوفَ المحمودَ الصادقَ هو: ما حالَ بين صاحبِهِ وبين محارمِ الله، فإذا تجاوَزَ ذلك خِيفَ منه أن يقعَ صاحبُهُ في اليأسِ مِنْ رَوْحِ اللهِ والقنوطِ من رحمة الله. **والرَّجَاءُ المحمودُ الصادقُ هو:** الرَّجَاءُ الذي يكونُ مع عملٍ بطاعةِ الله على نورٍ مِنَ الله، أمَّا إذا كان الرجلُ متماديًا في التفريطِ والخطايا، مُنْهَمِكًا في الذنوبِ والمعاصي، يرجو رحمةَ اللهِ بلا عمل، فهذا هو الغرورُ والتمنِّي والرَّجَاءُ الكاذب؛ **ولذا قال بعضُ السَّلَفِ:** «الخوفُ والرَّجَاءُ كجناحي الطائر: إذا استَوَيَا استوى الطيرُ وتَمَّ طيرانه، وإذا نقَصَ أحدُهما وقَعَ فيه النَّقْص، وإذا ذهبا صارَ الطائرُ في حدِّ الموت».

هذا، واللهَ الكريمَ أسألُ أن يُوفِّقَنا لتحقيقِ هذه المقاماتِ العظيمة: المحبَّةِ والخوفِ والرَّجَاء، وأن يَجْعَلَنا ممَّن عَبَدَ اللهَ حبًّا فيه، ورجاءً لثوابه، وخوفًا من عقابه، وأن يُعِينَنا على تكميلِ ذلكَ وحُسْنِ القيامِ به، إنَّه سميعُ الدعاء، وهو أهلُ الرَّجَاء، وهو حسبنا ونِعْمَ الوكيل.

❁ ❁ ❁

---

(١) **انظر:** «القول السديد» لابن سعدي (ص١١٩، ١٢٠).

٢٠

ذِكْرُ اللّٰهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ

إنَّ مِنْ أَجَلِّ الذكرِ وأفضلِهِ ذِكْرَ الربِّ تبارك وتعالى بذكرِ أسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العظيمة، والثناءَ عليه بما هو أهلُهُ: بما أثنى به على نفسه، وبما أثنى عليه به عبدُهُ ورسولُهُ محمَّدٌ ﷺ من نعوتِ الجلال، وصفاتِ الكمال، وأنواعِ المحامد، ونحو ذلك.

إذْ إنَّ الذكرَ نوعان:

النوع الأول: ذكرُ أسماءِ الربِّ الحسنى وصفاتِهِ العظيمة، والثناءُ عليه بها، وتنزيهُهُ سبحانه وتقديسُهُ عمَّا لا يليق به تبارك وتعالى؛ **وهذا أيضًا نوعان:**

* **أحدهما**: إنشاءُ الثناءِ عليه بها من الذاكر، وهذا النوعُ هو المذكور في الأحاديثِ المشتملةِ على الحثِّ على حمدِ اللهِ وتكبيرِهِ وتسبيحِهِ وحسنِ الثناءِ عليه، ومِنْ ذلك قولُه ﷺ: **(أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، ولَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ)**(١)، وقوله ﷺ: **(مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ)**(٢)، وكذلك قوله ﷺ: **(كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ لِلرَّحْمٰنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ)**(٣)، ونحو هذه الأحاديث.

وأفضلُ هذا النوع أجمعُهُ للثناءِ وأعمُّهُ؛ نحوُ قول: سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٨٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٠).

(٣) رواه البخاري رقم (٦٤٠٦)، ومسلم رقم (٢٦٩٤).

عددَ خلقِهِ، ورضا نفسه، وزنةَ عرشِهِ، ومِدَادَ كلماتِهِ؛ فهذا أفضلُ من مجرَّدِ: سبحانَ اللهِ.

وكذلك قول: الحمدُ لله عددَ ما خلَقَ، والحمدُ لله مِلْءَ ما خلَقَ، والحمدُ لله عدَدَ ما في السمٰواتِ والأرض، والحمدُ لله مِلْءَ ما في السمٰوات والأرض؛ فهذا أفضلُ من مجرَّدِ قول: الحمدُ لله.

روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن جُوَيْرِيَةَ ﵂، «أنَّ النبيَّ ﷺ خرجَ مِنْ عندها بُكْرَةً حينَ صَلّى الصبحَ وهي في مسجدها، ثم رجَعَ بعد أن أَضْحَى وهي جالسةٌ، فقال: (**مَا زِلْتِ عَلَى الحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟**) قالت: نعم، قال النبي ﷺ: (**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ اليَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، ورِضَا نَفْسِهِ، وزِنَةَ عَرْشِهِ، ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ**)»(١).

وروى الإمام أحمد، والنسائي، والطبراني، والحاكم، وغيرهم، بإسناد جيِّد، عن أبي أُمامة الباهلي، «أنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ به وهو يُحَرِّكُ شفتيه، فقال: (**مَاذَا تَقُولُ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟**) قال: أذكُرُ ربي، قال: (**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَكْثَرَ أَو أَفْضَلَ مِنْ ذِكْرِ اللَّيْلِ مَعَ النَّهَارِ، وَالنَّهَارِ مَعَ اللَّيْلِ؛ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا فِي الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا فِي الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وتَقُولَ: الحَمْدُ للهِ، مِثْلَ ذَلِكَ**)»(٢).

* **الثاني**: هو الخبرُ عن الربِّ تعالى بأحكامِ أسمائِهِ وصفاته؛ نحو قولك: اللهُ ﷻ يَسْمَعُ أصواتَ عباده، ويَرَى حَرَكَاتِهِم، ولا تخفى عليه من

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٦).

(٢) «المسند» (٥/ ٢٤٩)، و«السنن الكبرى»، للنسائي (٩٩٢١)، و«المعجم الكبير» (٨/ رقم ٨١٢٨)، و«المستدرك» (١/ ٥١٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٦١٥).

أعمالهم خافية، وهو أرحَمُ بهم من آبائهم وأُمَّهاتهم، وهو على كلِّ شيء قدير، وهو أفرحُ بتوبةِ عبده مِنَ الفاقدِ راحلتَه، ونحوَ ذلك مِنَ الثناءِ عليه بما هو أهلُهُ ممَّا أثنى به على نفسه، وما أثنى به عليه عَبْدُهُ ورسولُهُ محمَّدٌ ﷺ؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غيرِ تكييفٍ ولا تمثيل.

وهذا النوع يندرجُ تحته ثلاثةُ أنواع: حمدٌ وثناءٌ وتمجيدٌ: فالحمد الإخبارُ عنه بصفاتِ كمالِهِ ﷻ، مع محبَّته والرضا به، فلا يكون المحبُّ الساكتُ حامدًا، ولا المثني بلا محبَّةٍ حامدًا حتى تجتمعَ له المحبَّةُ والثناء، فإن كرَّر المحامدَ شيئًا بعد شيء كانت ثناءً، فإن كان المدحُ بصفاتِ الجلالِ والعظمةِ والكبرياءِ والمُلْكِ كان مجدًا.

وقد جمع الله تعالى الأنواعَ الثلاثةَ في أوَّلِ سورة الفاتحة، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الله: حَمِدَني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال الله: مَجَّدني عبدي.

إنَّ ما تَقدَّمَ هو النوعُ الأوَّلُ من أنواع الذِّكْر، وهو ذكرُ الربِّ بذكرِ أسمائِهِ وصفاته، وهو نوعان كما سبق، وسيأتي مزيدُ تفصيلٍ لهذا النوع من الذِّكْرِ لاحقًا ـ إن شاء الله ـ.

أما النوع الثاني: فهو ذكرُ أمرِ الربِّ ونهيِهِ وأحكامه؛ **وهو أيضًا نوعان**:

* **أحدهما**: ذكرُهُ سبحانه بذلكَ إخبارًا عنه بأنَّهُ أَمَرَ بكذا، ونَهَى عن كذا، وأَحَبَّ كذا، وسَخِطَ كذا، ورَضِيَ كذا، فكلُّ هذا من ذكرِ اللهِ تبارك وتعالى؛ ولهذا فإنَّ مجالسَ العلمِ التي يُبيَّنُ فيها الحلالُ والحرام، وتُوضَّحُ فيها الأحكامُ مجالسُ ذكرِ لله؛ **قال عطاءٌ الخُرَاساني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مجالسُ الذِّكْرِ مجالسُ الحلالِ والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلِّي وتصوم، وتَنْكِحُ وتُطلِّق، وتَحُجُّ، وأشباه هذا».

وكان أحدُ السلف ـ وهو أبو السُّوَارِ العَدَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **ـ في حَلْقةٍ يتذاكرون**

العلمَ، ومعهم فتى شابٌّ، فقال لهم: «قولوا: سبحانَ اللهِ، والحمدُ لله، فغَضِبَ أبو السَّوَار، وقال: ويحك، في أيِّ شيء كُنَّا إذًا؟!»[(١)].

فليستْ مجالسُ الذكرِ مختصَّةً بالمجالسِ التي يُذْكَرُ فيها اسمُ الرَّبِّ بالتسبيح والتحميد والتكبير ونحو هذا، بل هي شاملةٌ للمجالسِ التي يُذْكَرُ فيها أمرُهُ ونهيُهُ، وحلالُهُ وحرامه، وما يحبُّه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، بل ربَّما كان هذا الذكرُ أنفعَ من ذلك.

* **الثاني**: ذكره سبحانه عنَد أمرِهِ فيبادرُ إليه، وعند نهيِهِ فيهربُ منه، فامتثالُ العبدِ لأوامرِ الله، وانقيادُهُ لشرعِهِ، وإذعانُهُ لحكمه، واجتنابُهُ لنواهيه؛ كلُّ ذلك مِنْ إقامةِ ذكرِ اللهِ تعالى، فذكرُ أمرِهِ ونهيِهِ شيءٌ، وذكرُهُ عندَ أمرِهِ ونهيه شيءٌ آخر.

وقد أوضَحَ هذه الأقسامَ المتقدِّمةَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الوابل الصَّيِّب»[(٢)]، وذكَرَ أنَّها إذا اجتمَعَتْ للذاكر، فذِكْرُهُ أفضلُ الذكرِ وأجلُّهُ وأعظمُه.

فنسألُ اللهَ الكريمَ أن يُحقِّقَ لنا ذلك، وأن يُعِينَنا جميعًا على ذِكْرِهِ وشكرِهِ وحسنِ عبادته؛ إنَّه سميعٌ مجيبٌ قريب.

❀ ❀ ❀

---

(١) أورد هذا الأثر والذي قبله ابن رجب في: شرح حديث أبي الدرداء في «طلب العلم» (ص٢٣).

(٢) (ص١٧٨ ـ ١٨١).

٢١

أَهَمِّيَّةُ الْعِلْمِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ

لقد مرَّ معنا بيانُ فضلِ ذِكرِ الله بذِكْرِ أسمائِهِ وصفاتِهِ الواردةِ في كتابِهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ، وما من ريبٍ في فضل ذلك، وعِظَمِ شأنه، وكثرةِ عوائدِهِ وفوائده. وكم للاشتغالِ بهذا الأمر من الفوائدِ المغدقة، والثمارِ اليانعة، والأجرِ الدائم، والخيرِ المستمرِّ في الدنيا والآخرة؛ **وهذا الفضلُ يرجعُ إلى أسبابٍ عديدةٍ، أهمُّها:**

أوّلًا: أنَّ علمَ توحيدِ الأسماءِ والصفات أشرفُ العلومِ وأفضلُها وأعلاها مكانةً، وأجلُّها شأنًا، وشرفُ العلمِ وفضلُهُ مِنْ شرفِ معلومه، ولا أشرفَ وأفضلَ من العلمِ باللهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ الواردةِ في الكتاب والسُّنَّة؛ ولهذا فإنَّ الاشتغالَ بفهمِهِ والعلمِ به والبحثِ عنه اشتغالٌ بأشرفِ المطالب، وأَجَلِّ المقاصد.

ثانيًا: أنَّ معرفة اللهِ والعلمَ به تدعو العبدَ إلى مَحبَّتِهِ وتعظيمِهِ وإجلالِهِ، وخشيتِهِ وخوفِهِ ورجائه، وإخلاصِ العمل له. وحاجةُ العبد إلى هذا وتحصيلِهِ هي أعظمُ الحاجاتِ وأفضلُها وأَجلُّها؛ **قال ابن القيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليست حاجةُ الأرواحِ قطُّ إلى شيءٍ أعظمَ منها إلى معرفةِ باريها وفاطرها، ومَحَبَّتِهِ وذِكْرِهِ والابتهاجِ به، وطَلَبِ الوسيلةِ إليه، والزلفى عنده، ولا سبيلَ إلى هذا إلا بمعرفةِ أوصافِهِ وأسمائه، فكلَّما كان العبدُ بها أَعْلَمَ كان باللهِ أعرفَ، وله أطلبَ، وإليه أقربَ، وكلَّما كان لها أنكرَ، كان بالله أجهلَ، وإليه أكرَهَ، ومنه أبعدَ، واللهُ يُنْزِلُ العبدَ مِنْ نفسِهِ حيثُ يُنْزِلُهُ العبدُ من نفسه»[١]. اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولا سبيل لنيلِ هذا وتحصيلِهِ إلا بمعرفةِ أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ، والتَّفَقُّهِ فيها والفهمِ لمعانيها.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص٢٠٢).

ثـالـثًا: أنَّ اللهَ خلَقَ الخلق، وأوجدَهُمْ مِنَ العَدَم، وسخَّر لهم السمٰواتِ والأرضَ وما فيهما ليعرفوه ويعبدوه؛ كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات]، فهذه الغايةُ التي خُلِقَ الخَلْقُ لأجلها، وأُوجِدُوا لتحقيقها، فالاشتغالُ بمعرفةِ أسماءِ الله وصفاتِهِ اشتغالٌ بما خُلِقَ له العبد، وتركُهُ وتضييعُهُ إهمالٌ لِمَا خُلِقَ له، ولا ينبغي لعبدٍ ـ فَضْلُ الله عليه عظيم، ونِعَمُه عليه متواليةٌ ـ أن يكونَ جاهلًا بربِّه، معرضًا عن معرفتِهِ سبحانه.

رابـعًا: أنَّ أحدَ أركانِ الإيمان الستة، **بل أفضلَهَا وأصلَهَا**: الإيمانُ بالله، وليس الإيمانُ مجرَّدَ قولِ العبد: آمنتُ بالله، مِنْ غيرِ معرفتِهِ بربِّه، بل حقيقةُ الإيمانِ أن يعرفَ ربَّهُ الذي يؤمنُ به، ويَبْذُلَ جهدَهُ في معرفةِ أسمائِهِ وصفاتِهِ حتى يبلغَ درجةَ اليقين، وبِحَسَبِ معرفتِهِ بربِّهِ يكونُ إيمانُهُ، فكلَّما ازداد معرفةً بأسمائه وصفاته ازدادَ معرفةً بربِّه، وازدادَ إيمانُه، وكلَّما نقَصَ نقَصَ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أي**: إنَّما يخشاهُ حَقَّ خشيتِهِ العلماءُ العارفون به؛ لأنَّه كلَّما كانتِ المعرفةُ للعظيمِ القديرِ العليمِ الموصوفِ بصفاتِ الكمال، المنعوتِ بالأسماء الحسنى، كلَّما كانتِ المعرفةُ به أَتَمَّ، والعلمُ به أكملَ، كانت الخشيةُ له أعظمَ وأكثرَ»(١). اهـ.

وقد جمع هذا المعنى أحدُ السَّلَفِ في عبارةٍ مختصرة، فقال: «مَنْ كان بالله أعرفَ كان له أخوفَ»(٢).

ولا ريبَ أنَّ معرفةَ اللهِ ومعرفةَ أسمائِهِ وصفاتِهِ الواردةِ في الكتاب والسُّنَّة

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٣٠).

(٢) وهو من قول أحمد بن عاصم أبي عبد الله الأنطاكي؛ كما في «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي رقم (٧٨٦).

تُثْمِرُ في العبدِ أنواعًا كثيرةً من العبادةِ والطاعةِ وابتغاءِ الوسيلةِ إلى الله، وتقوِّي فيه جانبَ الخوفِ والمراقبة، وتُعظِّمُ فيه الرجاء، وتزيدُ في إيمانِهِ ويقينِهِ وثقتِهِ بربِّه سبحانه.

خامسًا: أنَّ العلمَ به تعالى أصلُ الأشياءِ كلِّها، حتى إنَّ العارفَ به حقيقةَ المعرفةِ يستدلُّ بما عرَفَ من صفاتِهِ وأفعالِهِ على ما يفعلُهُ وعلى ما يشرعُهُ من الأحكام؛ لأنَّه سبحانه لا يفعلُ إلا ما هو مقتضى أسمائِهِ وصفاته، فأفعالُهُ دائرةٌ بين العدلِ والفضلِ والحِكْمة؛ ولذلك لا يَشْرَعُ ما يشرعُهُ من الأحكام إلَّا على حَسَبِ ما اقتضاه حَمْدُهُ وحكمتُهُ، وفضلُهُ وعدله، فأخبارُهُ كلُّها حقٌّ وصدقٌ، وأوامرُهُ ونواهيه كلُّها عدلٌ وحكمةٌ؛ ولهذا فإنَّ العبدَ إذا تَدبَّرَ كتابَ الله وما تَعرَّفَ به سبحانه إلى عبادِهِ على ألسنةِ رسلِهِ مِنْ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعاله، وما نَزَّهَ نفسَهُ عنه مما لا ينبغي له ولا يليقُ به سبحانه، وتَدبَّرَ أيامَهُ وأفعالَهُ في أوليائِهِ وأعدائِهِ التي قصَّها على عباده، وأَشْهَدَهُمْ إيَّاها ليستدلوا بها على أنَّه إلـٰهُهُمُ الحقُّ المبين، الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له، ويستدلوا بها على أنَّه على كلِّ شيءٍ قدير، وأنَّه بكلِّ شيءٍ عليم، وأنَّه شديدُ العقاب، وأنَّه غفورٌ رحيم، وأنَّه العزيزُ الحكيم، وأنَّه الفعَّالُ لما يريد، وأنَّه الذي وَسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وأنَّ أفعالَهُ كلَّها دائرةٌ بين الحكمةِ والرحمة، والعدلِ والمصلحة، لا يخرُجُ شيءٌ منها عن ذلك، فإذا تَدبَّرَ العبدُ ذلكَ، أورثَهُ ـ ولا ريبَ ـ زيادةً في اليقين، وقُوَّةً في الإيمان، وتمامًا في التوكُّل.

فهذه خمسةُ أسبابٍ عظيمةٍ[1] تدلُّ على فضلِ العلم بأسماءِ اللهِ وصفاته، وشدَّةِ حاجةِ العبادِ إليه، بل ليس هناك حاجةٌ أعظمَ مِنْ حاجةِ العبادِ إلى معرفةِ ربِّهم وخالقهم ومليكهم ومُدبِّرِ شؤونهم ومُقدِّرِ أرزاقهم، الذي لا غِنَى لهم عنه طرفةَ عَيْن، ولا أقلَّ من ذلك، ولا صلاحَ لهم ولا زكاءَ إلا بمعرفتِهِ وعبادتِهِ والإيمانِ به وحدَهُ سبحانه؛ ولهذا فإنَّ حظَّ العبدِ مِنَ الصلاحِ واستحقاقِهِ

(١) **انظر**: «تفسير ابن سعدي» (١/ ١٠)، وخلاصته (ص١٥).

من المَدْحِ والثناءِ إنَّما يكونُ بِحَسَبِ معرفتِهِ بربِّه سبحانه، [وعَمَلِه بذلك]، وذلك بتدبُّرِ أسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العليا الواردةِ في كتابِهِ وسُنَّة رسولِهِ ﷺ، وفَهْمِهَا فهمًا صحيحًا سليمًا دونَ أن يجحدَ شيئًا منها، أو يحرِّفَهُ عن مرادِهِ ومدلوله، أو يُشبِّهَهُ بشيءٍ من صفاتِ الخَلْق، تعالى الله عن ذلكَ وتَنزَّهَ وتقدَّس؛ فالله جلَّ وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فله الحمدُ كلُّه على أسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العظيمة وآلائِهِ الجسيمة، وله الثناءُ الحَسَنُ، لا نحصي ثناءً عليه هو كما أَثْنَى على نفسه.

❁ ❁ ❁

٢٢

اقْتِضَاءُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ لِآثَارِهَا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ للَّهِ

لا يزالُ الحديثُ ماضيًا بنا في بيانِ أهمِّيَّةِ ذِكْرِ اللهِ بذكرِ أسمائِهِ وصفاتِهِ الواردةِ في كتابِ الله وسُنَّةِ رسوله ﷺ، وقد مرَّ بنا جملةٌ طَيِّبةٌ من الفوائدِ المترتِّبةِ على ذلك؛ **ومن هذه الفوائد أيضًا**: أنَّ معرفةَ أسماءِ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العلا مقتضيةٌ لآثارها من العبودية؛ كالخضوعِ والذُّلِّ، والخشوعِ والإنابة، والخشيةِ والرَّهْبة، والمحبة والتوكل، وغيرِ ذلك مِنْ أنواعِ العباداتِ الظاهرة والباطنة، بل إنَّ لكلِّ صفةٍ من صفات الربِّ تبارك وتعالى عبوديةً خاصَّةً هي مِنْ مقتضياتها، ومُوجَبَاتِ العلمِ بها، والتحقُّقِ بمعرفتها، وهذا مُطَّرِدٌ في جميعِ أنواعِ العبوديةِ التي على القلبِ والجوارح(١).

وبيانُ ذلك: أنَّ العبدَ إذا علم بتفرُّدِ الربِّ تعالى بالضُّرِّ والنفع، والعطاءِ والمنع، والخَلْقِ والرِّزْق، والإحياءِ والإماتة، فإنَّ ذلكَ يُثْمِرُ له عبوديةَ التوكُّلِ على الله باطنًا، ولوازمِ التوكُّلِ وثمراتِهِ ظاهرًا.

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

۞ وإذا علم العبدُ بأنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ عليمٌ، لا يخفى عليه مثقالُ ذرةٍ في السمٰواتِ والأرض، وأنَّه يعلمُ السِّرَّ وأخفى، ويعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخْفِي الصدور، وأنَّه تبارَكَ وتعالى أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحصى كلَّ شيء عددًا،

---

(١) **وانظر في هذا**: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (ص٤٢٤، ٤٢٥).

فَمَنْ عرَّفَ نَفْسَهُ باطِّلاعِ الله عليه، ورؤيتِهِ له، وإحاطتِهِ به، فإنَّ ذلك يُثْمِرُ له حفظَ اللسانِ والجوارحِ وخَطَراتِ القلبِ عن كلِّ ما لا يُرْضِي اللهَ، وجَعْلَ تعلُّقاتِ هذه الأعضاءِ بما يحبُّهُ اللهُ ويرضاه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]؛ فلا ريبَ أنَّ هذا العلمَ يُورِثُ عندَ العبدِ خشيةَ اللهِ ومراقبتَهُ، والإقبالَ على طاعتِهِ، والبعدَ عن مَنَاهِيه.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «رَاوَدَ رجلٌ امرأةً في فَلَاةٍ ليلًا، فأَبَتْ، فقال لها: ما يرانا إلا الكواكبُ، فقالت: فأين مُكَوْكِبُها»[(١)]؛ **أي**: أينَ اللهُ؟! أَلَا يرانا؟! فمنعها هذا العلمُ اقترافَ هذا الذنب والوقوعَ في هذه الخطيئة.

* وإذا عَلِمَ العبدُ بأنَّ الله غنيٌّ كريمٌ، بَرٌّ رحيمٌ، واسعُ الإحسان، وأنَّه تبارَكَ وتعالى ـ مع غناهُ عن عباده ـ فهو مُحْسِنٌ إليهم، رحيمٌ بهم، يريدُ بهم الخيرَ، ويكشفُ عنهم الضُّرَّ، لا لجلبِ منفعةٍ إليه مِنَ العبد، ولا لدفعِ مَضَرَّةٍ، بل رحمةً منه وإحسانًا، فهو سبحانه لم يَخْلُقْ خَلْقَهُ لِيَتكثَّرَ بهم من قِلَّة، ولا ليعتزَّ بهم من ذِلَّة، ولا ليرزقوه، ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال تعالى ـ فيما رواه عنه رسوله ﷺ ـ: **(يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي)**[(٢)].

---

(١) «شرح كلمة الإخلاص» (ص٤٩).

(٢) جزء من حديث أبي ذر رضي الله عنه، أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (٢٥٧٧).

فإذا عَلِمَ العبدُ ذلك، أثمَرَ فيه قُوَّةَ الرَّجَاءِ ـ قُوَّةَ رجائِهِ باللهِ ـ وطمعَهُ فيما عنده، وإنزالَ جميعِ حوائجِهِ به، وإظهارَ افتقارِهِ إليه، واحتياجِهِ له؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، والرجاءُ يُثْمِرُ أنواعَ العبوديةِ الظاهرة والباطنة بِحَسَبِ معرفةِ العبدِ وعلمه.

* وإذا عَلِمَ العبدُ بعدلِ اللهِ وانتقامِهِ، وغضبِهِ وسَخَطِهِ وعقوبتِهِ، فإنَّ هذا يُثْمِرُ له الخشيةَ والخوفَ والحَذَرَ والبعدَ عن مَسَاخِطِ الربِّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩].

* وإذا عَلِمَ العبدُ بجلالِ اللهِ وعظمتِهِ، وعُلُوِّهِ على خلقِهِ ذاتًا وقَهْرًا وقَدْرًا، فإنَّ هذا يُثْمِرُ له الخضوعَ والاستكانةَ والمَحَبَّةَ وجميعَ أنواعِ العبادة؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

* وإذا عَلِمَ العبدُ بكمالِ اللهِ وجَمَالِهِ، أَوْجَبَ له هذا مَحَبَّةً خاصَّةً، وشوقًا عظيمًا إلى لقاء الله؛ **(وَمَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لقَاءَه)**(١)، ولا ريب أنَّ هذا يُثْمِرُ في العبدِ أنواعًا كثيرةً من العبادةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٥٠٧)، ومسلم رقم (٢٦٨٣)، من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

۞ **وبهذا يُعْلَمُ أنَّ العبوديةَ بجميعِ أنواعها راجعةٌ إلى مُقْتَضَيَاتِ الأسماءِ والصفات**؛ ولهذا فإنَّهُ يتأكَّدُ على كلِّ عبدٍ مسلم أن يَعْرِفَ ربَّه، ويعرفَ أسماءَهُ وصفاتِهِ معرفةً صحيحةً سليمةً، وأن يَعْلَمَ ما تَضمَّنَتْهُ، وآثارَها، ومُوجَبَاتِ العلمِ بها؛ فبهذا يَعْظُمُ حظُّ العبد، ويَكْمُلُ نصيبُهُ من الخير.

قال الإمام أبو عمر الطَّلَمَنْكِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنْ تمامِ المعرفةِ بأسماءِ اللهِ تعالى وصفاتِهِ التي يستحقُّ بها الداعي والحافظُ ما قالَ رسولُ الله ﷺ: المعرفةُ بالأسماءِ والصفات، وما تَتضمَّنُ من الفوائد، وتدلُّ عليه من الحقائق. ومَنْ لم يَعْلَمْ ذلك، لم يكنْ عالمًا لمعاني الأسماء، ولا مستفيدًا بِذِكْرِها ما تدلُّ عليه من المعاني»[1]. اهـ.

واللهُ المرجوُّ أن يوفِّقنا لتحقيقِ ذلك، والقيامِ به على أحسنِ حال، فهو سبحانَهُ سميعُ الدعاء، وأهلُ الرجاء، وهو حسبُنا ونِعْمَ الوكيل.

۞ ۞ ۞

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٢٢٦).

٢٣

الْعِلْمُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَمَنْهَجُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي ذَلِكَ

إنَّ مِنْ مقاماتِ الدين الرفيعةِ، ومنازلِهِ العاليةِ العظيمة: العلمَ بكمالِ الرَّبِّ الكريم، وما يجبُ له من صفاتِهِ العظيمة، وأسمائِهِ الحسنى الكريمةِ، الواردةِ في كتابِهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ، والتي أثنى بها على نَفْسِهِ، وأثنى عليه بها عبدُهُ ورسولُهُ محمَّدٌ ﷺ، بل إنَّ هذا العلمَ والإيمانَ أصلٌ مِنْ أصولِ الدين، وركنٌ مِنْ أركانِ التوحيد، وأساسٌ مِنْ أُسُسِ الاعتقاد.

ولهذا نَدَبَ اللهُ عبادَهُ وحثَّهم ورغَّبهم في مواطنَ كثيرةٍ من القرآنِ الكريم على تَعلُّمِ أسماءِ الربِّ وصفاته، ومعرفتها معرفةً صحيحةً سليمةً، دون مَيْلٍ بها عن وَجْهِها، أو صرفٍ لها عَنْ مقصودها؛ بتحريفٍ أو تعطيل، أو تكييفٍ أو تمثيل، أو نحوِ ذلك.

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣]،

وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، والآياتُ في هذا المعنى تُقارِبُ الثلاثينَ آيةً.

إنَّ هذه الآياتِ وما ورَدَ في معناها لَتَدُلُّ أوضحَ دَلَالَةٍ على عِظَمِ شأنِ العلمِ بأسماءِ اللهِ تبارك وتعالى الحسنى، وصفاتِهِ العظيمة العليا؛ على وَفْقِ ما جاء في النصوص، وعلى ضوءِ ما ورَدَ في الأدلة، فلا يُتجاوَزُ في ذلك القرآنُ والحديثُ؛ إذْ أسماءُ الربِّ وصفاتُهُ توقيفيةٌ لا مجالَ إلى العلم بها ومعرفتها إلا مِنْ خلالِ ما ورد في الكتاب والسُّنَّة، **كما قال الإمام أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يُوصَفُ اللهُ إلا بما وصَفَ به نفسَهُ أو وصفَهُ به رسولُهُ ﷺ لا يُتجاوَزُ القرآنُ والحديثُ»(١).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس في الاعتقادِ كلِّه في صفاتِ اللهِ وأسمائِهِ إلا ما جاءَ به منصوصًا في كتاب الله، أو صَحَّ عن رسولِ الله ﷺ، أو أجمَعَتْ عليه الأُمَّة، وما جاء مِنْ أخبارِ الآحادِ في ذلك كلِّه أو نحوِهِ يُسَلَّمُ له، ولا يُناظَرُ فيه»(٢).

إنَّ وَصْفَ الله بما وصَفَ به نفسَهُ، وبما وصفَهُ به رسولُهُ ﷺ يُعَدُّ من أصولِ الإيمانِ الراسخة، وأُسُسِهِ العظيمة، التي لا إيمانَ إلا بها، فمَنْ جحَدَ شيئًا مِنْ صفاتِهِ سبحانه ونفاها وأنكرَهَا، فليس بمؤمن، وكذلك مَنْ عَطَّلَهَا أو شَبَّهَهَا بصفاتِ المخلوقين! سبحانَ اللهِ عما يصفون، وتعالى اللهُ عما يقولون علوًّا كبيرًا.

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٥/٢٦). (٢) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/٩٤٣).

قال نُعَيم بن حَمَّاد الخُزَاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ شَبَّهَ الله بشيءٍ مِنْ خَلْقِهِ فقد كَفَرَ، ومن أنكَرَ ما وَصَفَ اللهُ به نفسَهُ فقد كَفَر، فليس فيما وَصَفَ اللهُ به نفسَهُ أو وَصَفَهُ به رسولُهُ ﷺ تشبيهٌ»[1].

ولهذا، فإنَّ مذهبَ أهل السُّنَّة والجماعةِ يقومُ في هذا الباب على أصلَيْنِ عظيمَيْنِ، وأساسَيْنِ متينَيْن؛ **هما**: الإثباتُ بلا تمثيل، والتنزيهُ بلا تعطيل، فلا يُمثِّلون صفاتِ اللهِ بصفاتِ خَلْقه، كما لا يُمثِّلونَ ذاتَهُ سبحانه بذواتهم، ولا ينفون عنه صفاتِ كمالِهِ ونُعُوتَ جلالِهِ الثابتةَ في كتابِهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ؛ بل يؤمنون بأنَّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

۞ **والواجبُ على كلِّ مسلم في هذا الباب العظيم**: أن يقفَ مع نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ دونَ زيادةٍ أو نقصان، بل يؤمنَ بما ورَدَ فيهما، ولا يُحرِّفَ كلامَ اللهِ عن مواضعه، ولا يُلْحِدَ في أسمائِهِ وآياته، ولا يُكيِّفَ صفاتِه، ولا يُمثِّلَ شيئًا منها بشيءٍ مِنْ صفاتِ خَلْقه؛ لأنَّه سبحانه لا سَمِيَّ له، ولا كُفُؤَ ولا نِدَّ، ولا يُقاسُ بِخَلْقه، وهو سبحانه أَعْلَمُ بنفسِهِ وبغيره، وأصدَقُ قيلًا، وأحسنُ حديثًا مِنْ خلقه، وكذلك رُسُلُهُ الذين أخبروا عنه بتلك الصفاتِ صادقونَ مَصْدُوقُون، بخلافِ الذين يقولونَ على اللهِ ما لا يعلمون؛ ولهذا قال الله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات]؛ فسَبَّحَ نفسَهُ عمَّا وصفَهُ به المخالفون للرُّسُل، وسَلَّمَ على المرسلين؛ لسلامةِ ما قالوه من النَّقْص والعيب؛ ولهذا فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ المُتَّبِعينَ لمحمَّدٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى وغيرِهِمْ مِنْ رسلِ اللهِ عليهم صلواتُ الله وسلامه، يُثْبِتُونَ ما أثبتَهُ رسلُ الله لربِّهم من صفاتِ الكمالِ ونُعُوتِ الجلال؛ كتكليمِ اللهِ لعباده، ومحبَّتِهِ لهم، ورحمتِهِ بهم، وعُلُوِّهِ عليهم، واستوائِهِ على عرشه، ونحوِ ذلك مما ورَدَ من نعوتِ الربِّ الكريمةِ وصفاتِهِ الجليلة، فآمنوا بما قال الله سبحانه في كتابه وصحَّ عن نبيِّه ﷺ،

---

(١) رواه اللالكائي في: «شرح الاعتقاد» رقم (٩٣٦).

وأَمَرُّوهُ كما جاء من غيرِ تعرُّضٍ لكيفيةٍ أو اعتقادِ مشابهةٍ أو مِثْلِيَّة، أو تأويلٍ يؤدِّي إلى تعطيلِ صفاتِ ربِّ البريَّة، بل وَسِعَتْهُمُ السُّنَّةُ المُحَمَّدية، والطريقةُ المَرْضِيَّة، ولم يتجاوزوها إلى ضلالاتٍ بِدْعيَّة، أو أهواءٍ رَدِيَّة، فحازوا بسبب ذلك الرتبَ السَّنيَّة والمنازلَ العليَّة، في الدنيا والآخرة[١].

رزقنا الله حُسْنَ اتِّباعِهم، والسَّيْرَ على نهجهم، وتَرَسُّمَ خطاهم، إنَّه سميعٌ مجيبٌ قريب.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «عقيدة الحافظ تقي الدِّين عبد الغني المقدسي» (ص٣٩).

٢٤

وَصْفُ أَسْمَاءِ اللَّهِ بِأَنَّها حُسْنَىٰ وَمَدْلُولُ ذَلِكَ

لقد ورَدَ في القرآنِ الكريم الترغيبُ في دعاءِ اللهِ بأسمائِهِ الحسنى العظيمة، والتحذيرُ الشديدُ مِنْ سبيلِ المُلْحِدِينَ في أسمائه، وأنَّ اللهَ سيحاسبهم على ذلك الحسابَ الشديد؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ ولذا فإنَّه يَتأكَّدُ على كلِّ مسلم أن يُعْنَى بأسماءِ اللهِ الحسنى، وأن يَفْهَمَهَا فهمًا صحيحًا بعيدًا عن سبيل المُلْحِدِينَ في أسماءِ الله، الذين تَوعَّدَهُمْ في هذه الآية بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وتوعَّدَهُمْ على ذلك في آيةٍ أخرى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، والإلحادُ في أسماءِ اللهِ إلحادٌ في آياته.

وقد دَلَّتِ الآيةُ الكريمةُ المتقدِّمةُ على أنَّ أسماءَ اللهِ كلَّها حسنى؛ إذْ إنَّ اللهَ تبارَكَ وتعالى ـ لكمالِهِ وجلالِهِ وجمالِهِ وعَظَمَتِه ـ لا يُسمَّى إلا بأحسنِ الأسماء، كما أنَّه لا يُوصَفُ إلا بأحسنِ الصفات، ولا يُثْنَى عليه إلا بأكمَلِ الثناءِ وأحسنِهِ وأطيبه، فأسماؤُهُ جلَّ وعلا هي أحسنُ الأسماءِ وأكملُها، وليس في الأسماءِ أَحْسَنُ منها، ولا يقومُ غيرُها مَقَامَهَا، ولا يؤدِّي معناها، ولا يَسُدُّ مَسَدَّها، وقد وصَفَ الربُّ تبارك وتعالى أسماءَهُ بأنها حسنى في القرآنِ الكريم في **أربعةِ مواضعَ**: في الآية المتقدِّمة، وفي قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وقولِهِ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

فهذه أربعةُ مواطنَ في القرآنِ وُصِفَتْ فيها أسماءُ اللهِ تبارك وتعالى بهذه الصفةِ العظيمة. **والحُسْنَى في اللغة**: تأنيثُ الأَحْسَنِ لا الحَسَنِ؛ فهي أحسنُ الأسماءِ وأكملُهَا وأعظمُهَا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]؛ **أي**: له سبحانه الكمالُ الأعظَمُ في ذاتِهِ وأسمائِهِ وصفاته، ولذا كانتْ أسماؤُهُ أحسنَ الأسماءِ.

وأسماءُ الله إنَّما كانتْ حُسْنَى؛ لكونها قد دلَّت على صفةِ كمالٍ عظيمةٍ لله؛ فإنَّها لو لم تَدُلَّ على صفة، بل كانتْ علَمًا محضًا لم تكنْ حُسْنَى، ولو دَلَّتْ على صفةٍ ليستْ بصفةِ كمالٍ لم تكنْ حسنى، ولو دَلَّتْ على صفةِ نقصٍ أو صفةٍ منقسمةٍ إلى المدحِ والقدحِ لم تكنْ حسنى، فأسماءُ اللهِ جميعُها دالةٌ على صفاتِ كمالٍ ونعوتِ جلالٍ للربِّ تبارك وتعالى، وكلُّ اسم منها دالٌّ على معنًى من صفاتِهِ ليس هو المعنى الذي دَلَّ عليه الاسمُ الآخر[(١)]، فالرَّحمٰنُ ـ مثلًا ـ يَدُلُّ على صفة الرحمة، والعزيزُ يدلُّ على صفةِ العِزَّة، والخالقُ يدلُّ على صفة الخَلْق، والكريمُ يدلُّ على صفة الكرم، والمحسنُ يدلُّ على صفة الإحسان، وهكذا وإنْ كانتْ جميعُها متفقةً في الدَّلَالةِ على الربِّ تبارك وتعالى؛ ولهذا فهي مِنْ حيثُ دَلَالتُها على الذاتِ مترادفةٌ، ومِنْ حيثُ دلالتُها على الصفاتِ متباينةٌ؛ لدلالةِ كلِّ اسمٍ منها على معنًى خاصٍّ مستفادٍ منه.

قال العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أسماءُ الربِّ تبارك وتعالى كلُّها أسماءُ مدحٍ، ولو كانتْ ألفاظًا مجرَّدةً لا مَعَانِيَ لها، لم تَدُلَّ على المدح، وقد وصفَها اللهُ بأنَّها حُسْنَى كلُّها؛ فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فهي لم تكن حسنى لمجرَّدِ اللفظ، بل لدلالتها على أوصافِ الكمال؛ ولهذا لَمَّا سَمِعَ بعضُ العرب قارئًا يقرأُ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [المائدة: ٣٨] (واللهُ غَفُورٌ رحيمٌ)، قال: ليس هذا كلامَ اللهِ تعالى، فقال

(١) **انظر**: «الحق الواضح المبين» لابن سعدي (ص٥٥).

القارئُ: أتُكذِّبُ بكلامِ الله؟ فقال: لا، ولكنْ ليس هذا بكلامِ الله، فعاد إلى حفظِهِ، وقرأ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فقال الأعرابيُّ: صَدَقْتَ، عزَّ فحكَمَ فقطَعَ، ولو غَفَرَ ورَحِمَ، لَمَا قطَعَ؛ ولهذا إذا خُتِمَتْ آيةُ الرحمةِ باسمِ العذاب أو بالعكسِ، ظهَرَ تنافُرُ الكلامِ وعدمُ انتظامه»[1] .اهـ.

وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ فهمَ أسماءِ الله الحسنى والعلمَ بمعانيها أساسٌ لا بدَّ منه لتحقيق قول الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فدعاءُ اللهِ بأسمائِهِ ـ الذي أمَرَ اللهُ به في هذه الآية ـ إنَّما يكونُ ويَتحقَّقُ إذا عَلِمَ الداعي معانيَ هذه الأسماءِ التي دعا اللهَ بها، فإن لم يكنْ عالمًا بمعانيها، فإنَّه يجعلُ في دعائِهِ الاسمَ في غير موطنه؛ كأنْ يختمَ طلبَ الرحمةِ باسم العذاب أو العكس، فيظهرُ التنافُرُ في الكلام، وعدمُ الانتظام، ومن يَتدبَّر الأدعيةَ الواردةَ في القرآن أو في سُنَّة النبيِّ ﷺ يجد أنَّه ما مِنْ دعاءٍ منها يُختَمُ بشيءٍ من أسماءِ اللهِ الحسنى إلا ويكونُ في ذلكَ الاسمِ ارتباطٌ وتناسُبٌ مع الدعاءِ المطلوب؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، وقولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، ونحو ذلك من الآيات.

ثم إنَّ دعاءَ اللهِ بأسمائِهِ يتناولُ دعاءَ المسألةِ، ودعاءَ الثناءِ، ودعاءَ التعبُّد، وفي بيان ذلك **يقول ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو سبحانَهُ يدعو عبادَهُ إلى أن يعرفوه بأسمائِهِ وصفاتِهِ، ويُثْنُوا عليه بها، ويأخذوا بِحَظِّهم من عبوديَّتها، وهو سبحانه يحبُّ مُوجَبَ أسمائِهِ وصفاتِهِ؛ فهو عليمٌ يحبُّ كلَّ عليم، وجَوَادٌ يُحِبُّ كلَّ جواد، وِترٌ يحبُّ الوِتْر، جميلٌ يحبُّ الجمال، عَفُوٌّ يحبُّ العفوَ وأهله، حَيِيٌّ يحبُّ الحياءَ وأهله، بَرٌّ يحبُّ الأبرار، شَكُورٌ يحبُّ الشاكرين، صبورٌ يحبُّ الصابرين، حليمٌ يحبُّ أهل الحلم...»[2]، إلى آخر كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) «جِلاء الأفهام» (ص١٠٨).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٠).

ثم أيضًا: مِنْ أهمِّ ما ينبغي أن يَتنبَّهَ له المسلمُ في هذا الباب العظيم: أن يَحْذَرَ أشدَّ الحذرِ من سبيل المُلْحِدِينَ في أسماء الله، الذين تَوعَّدهم اللهُ في هذه الآية بأنَّهم سيُجْزَوْنَ ما كانوا يعملون، وهم أصنافٌ وأنواع، جَمَعَهُمْ وَصْفُ الإلحاد، وتَفَرَّقَتْ بهم طرقُهُ. وعن هذا الموضوع المهمِّ سيكون الحديثُ الآتي ـ إن شاء الله ـ وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

❁ ❁ ❁

٢٥

التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ

كان الحديثُ فيما مضى عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقد بَقِيَ معنا مِنْ معنى الآيةِ تحذيرُ الله مِنَ الإلحادِ في أسمائه، وتَوَعُّدُهُ الملحدين فيها بأنَّه سيجازيهم على أعمالهم، ويُحاسِبُهُمْ عليها أشدَّ الحساب، فهو سبحانه يُمْهِلُ ولا يُهْمِل.

وقد تَهدَّدَ اللهُ في هذه الآيةِ الذين يُلْحِدونَ في أسمائِهِ بتهديدين:

الأول: صيغة الأمر في قوله: ﴿وَذَرُوا۟﴾؛ فإنها للتهديد.

الثاني: في قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١).

والإلحادُ في اللغة: هو المَيْلُ والعدول، ومنه اللَّحْدُ، وهو الشِّقُّ في جانبِ القبرِ الذي مال عن الوَسَطِ، ومنه المُلْحِدُ في الدين؛ **أي**: المائلُ عن الحَقِّ إلى الباطل؛ **قال ابن السِّكِّيت**: «المُلْحِدُ: العادل عن الحق، المُدْخِلُ فيه ما ليس منه»(٢).

والإلحادُ في أسماءِ اللهِ سبحانه: هو العدولُ بها وبحقائقها ومعانيها عن الحقِّ الثابتِ لها، وهو أنواعٌ عديدةٌ يجمعها هذا الوصف، ولَمَّا حَذَّرَ اللهُ في هذه الآيةِ من الإلحادِ في أسمائه هذا التحذيرَ؛ كان متأكِّدًا على المسلم أن يعرفَ الإلحادَ في أسمائِهِ وأنواعَهُ؛ لئلا يقعَ فيه؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]؛ **أي**: تَتَّضِحَ للناس، فيكونوا منها على حذرٍ وَحِيطَة، **وقد قيل**:

---

(١) **انظر**: «أضواء البيان» للشنقيطي (٢/ ٣٢٩).

(٢) «تهذيب اللغة» للأزهري (٤/ ٤٢١).

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرْ ... رِ لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ
وَمَنْ لَا يَعْرِفِ الشَّرَّ ... مِنَ النَّاسِ يَقَعْ فِيهِ

والإلحادُ في أسماء الله ـ كما تَقدَّمَ ـ أنواع(١):

أحدها: أن يسمَّى الأصنامُ والأوثانُ بها؛ كتسميةِ المشركينَ اللَّاتَ من الإلـه، والعُزَّى من العزيز، ومَنَاةَ من المَنَّان، وتسميتِهم الصنمَ إلـهًا.

قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠]: «يعني به المشركين، وكان إلحادُهم في أسماءِ الله: أنَّهم عدَلُوا بها عمَّا هي عليه، فسمَّوْا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونَقَصُوا منها، فسمَّوْا بعضَها اللَّاتَ؛ اشتقاقًا منهم لها مِنِ اسمِ الله الذي هو الله، وسمَّوْا بعضها العُزَّى؛ اشتقاقًا لها مِنِ اسمِ اللهِ الذي هو العزيز»(٢)؛ ثم روى عن مجاهد في معنى الآية؛ **أنَّه قال**: «اشتقوا العزى من العزيز، واشتقوا اللات من الله». اهـ.

فهذا إلحادٌ في أسماء الله؛ فإنَّهم عَدَلُوا بأسمائِهِ إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

النوع الثاني: تسميةُ اللهِ بما لا يليقُ بجلاله وكماله، وأسماءُ الله الحسنى توقيفيةٌ لا يجوزُ لأحدٍ أن يتجاوزَ فيها القرآنَ والسُّنَّةَ؛ ولهذا فإنَّ مَنْ أدخل فيها ما ليس منها، فهو مُلْحِدٌ في أسماءِ الله؛ **قال الأعمش** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسير الآية المتقدمة**: «تفسيرها: يُدْخِلُونَ فيها ما ليس منها»(٣). اهـ.

ومِنْ ذلك تسميةُ النصارى له أبًا، وتسميةُ الفلاسفةِ إيَّاه العِلَّةَ الفاعلةَ بالطبعِ، وتسميةُ بعضِ أهل الضلال له بمهندسِ الكَوْنِ، ونحو ذلك؛ فكلُّ ذلك من الإلحاد في أسماء الله.

---

(١) **انظر**: «بدائع الفوائد» لابن القيم (٣/ ١٦٩).
(٢) «جامع البيان» (٦/ ١٣٣).
(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٢٣).

النوع الثالث: تعطيلُ الأسماءِ عن معانيها وجَحْدُ حقائقها؛ **كما قال ابن عباس** رضي الله عنهما: «الإلحادُ: التكذيب»[١]؛ ولا ريبَ أنَّ مَنْ أنكرَ معاني هذه الأسماء وجحَدَ حقائقها، فهو مُكذِّبٌ بها، ملحدٌ في أسماء الله، ومِنْ ذلك: قول مَنْ يقولُ مِنَ المعطِّلة: إنَّها ألفاظٌ مجرَّدةٌ لا تدلُّ على معانٍ، ولا تَتضمَّنُ صفاتٍ، فيطلقون عليه اسمَ السميعِ والبصيرِ، والحي والرحيم، ويقولون: لا حياةَ له، ولا سمعَ له، ولا بَصَرَ له، ولا رَحْمةَ؛ تعالى الله عما يقولون، وسبحانَ اللهِ عما يصفون؛ ولا ريبَ أنَّ هذا مِنَ الإلحادِ في أسماء الله.

ثم إنَّ هؤلاءِ المعطِّلين متفاوتون في هذا التعطيل؛ فمنهم مَنْ تعطيلُهُ جزئيٌّ، بمعنى أنَّه يعطِّلُ بعضًا ويثبتُ بعضًا، ومنهم مَنْ تعطيلُهُ كليٌّ، بمعنى أنَّه يعطِّلُ الجميعَ، فلا يُثبتُ شيئًا من الصفات التي تدلُّ عليها أسماءُ الله الحسنى، وكلُّ مَنْ جحَدَ شيئًا مما وصَفَ اللهُ به نفسَهُ أو وصفَهُ به رسولُهُ ﷺ، فقد ألحَدَ في ذلك، وحظُّهُ من هذا الإلحادِ بحسَبِ حظِّه مِنْ هذا الجَحْد.

النوع الرابع: تشبيهُ ما تضمَّنَتْهُ أسماءُ الله الحسنى مِنْ صفاتٍ عظيمةٍ كاملةٍ تليقُ بجلالِ اللهِ وجمالِهِ بصفاتِ المخلوقين؛ تعالى الله عما يقول المشبِّهون علوًّا كبيرًا، والله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ويقول سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]؛ فاللهُ سبحانه لا سميَّ له ولا شبيهَ ولا مثيلَ، فهو سبحانَهُ لا يشبهُ شيئًا مِنْ خلقه، ولا يشبهُهُ شيءٌ مِنْ خلقه، والمُشَبِّهُ ـ **كما يقول الإمام أحمد** رحمه الله ـ هو الذي يقول: «يَدُ اللهِ كيَدِي، وسمعُهُ كسمعي، وبصرُهُ كبصري؛ تعالى الله عن ذلك»[٢]، أما من يُثبتُ أسماءَ اللهِ وصفاتِهِ على وجهٍ يليقُ بجلالِ الله وكماله، فهو بريءٌ من التشبيه، وسالمٌ من التعطيل.

فهذه أنواعٌ أربعةٌ للإلحاد في أسماءِ الله الحسنى، وقد وقَعَ في كلٍّ منها

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ١٣٤).
(٢) **انظر**: «نقض التأسيس» لابن تيمية (١/ ٤٧٦).

جماعاتٌ مِنَ المبطلين؛ حَمَانا الله وَوَقَانا بمنِّه وكرمِهِ مِنْ كلِّ ضلال وباطل، وقد بَرَّأَ اللهُ أتباعَ رسوله ﷺ ووَرَثتَهُ القائمين بسنته من ذلك كلِّه، فلم يَصِفُوا اللهَ إلا بما وصَفَ به نفسَهُ، ووصفَهُ به نبيُّه ﷺ، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبِّهوها بصفاتِ خلقه، ولم يعدلوا بها عما أُنْزِلَتْ عليه، لا لفظًا ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماءَ والصفاتِ، ونَفَوْا عنه مشابهةَ المخلوقات، فكان إثباتُهُمْ بَرِيًّا من التشبيه، وتنزيهُهم خَلِيًّا من التعطيل؛ كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وبهذه الآية الكريمة نختمُ الحديثَ هنا حامدين لله، مُثْنِينَ عليه بما هو أهله، وبما أَثْنَى به على نَفْسِهِ، حمدًا كثيرًا طَيِّبًا مباركًا فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضى.

❁ ❁ ❁

٢٦

تَدَبُّرُ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَعَدَمُ تَعْطِيلِهَا وَعِظَمُ أَثَرِ ذَلِكَ عَلَى الْعَبْدِ

لا يخفى أنَّ حاجةَ العبادِ إلى معرفةِ ربِّهم وخالقهم ومليكهم هي أعظمُ الحاجات، وضرورتَهُمْ إلى ذلكَ هي أعظمُ الضَّرُورَات، وكلَّما كان العبدُ أعرفَ بأسماء ربه وما يستحقُّهُ من صفات الكمال ونعوت الجلال، وما يَتنزَّهُ عنه مما يضادُّ ذلك من النقائص والعيوب؛ كان حَظُّهُ من الثناءِ ونصيبُهُ من المدحِ بِحَسَبِ ذلك، والسبيلُ إلى تحقيقِ هذا المطلبِ الجليل، والمقصد النبيل: أن يَتدبَّرَ العبدُ أسماءَ اللهِ الحسنى الواردةَ في الكتاب والسُّنَّة، ويتأمَّلها اسمًا اسمًا، ويثبتَ ما دلَّت عليه مِنْ معنًى على وجهٍ يليقُ بجلالِ الربِّ وكمالِهِ وعظمته، ويعتقدَ أنَّ هذا الكمالَ والعظمةَ ليس له مُنتهًى، ويؤمنَ أنَّ كلَّ ما ناقَضَ هذا الكمالَ بوجهٍ من الوجوه، فإنَّ اللهَ تعالى مُنَزَّهٌ مقدَّسٌ عنه، ويبذلَ ما استطاعَ مِنْ وُسْعِهِ في معرفةِ أسماءِ اللهِ وصفاته، ويجعلَ هذه المسألةَ العظيمةَ الجليلةَ أهمَّ المسائل، وأولاها بالعناية، وأحقَّها بالتقديم؛ ليفوزَ مِنَ الخيرِ بأوفرِ نصيب.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أم المؤمنين عائشة ﵂، «أنَّ النبيَّ ﷺ بعثَ رجلًا على سَرِيَّةٍ، وكان يقرأُ لأصحابهِ في صلاته، فيختمُ بـ ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾، فلمَّا رجعوا، ذكَرُوا ذلك للنبيِّ ﷺ، فقال: (**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيءٍ كَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**)، فسألوه، فقال: لأنَّها صفةُ الرَّحْمٰنِ، وأنا أحبُّ أنْ أقرأَ بها، فقال النبي ﷺ: (**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**)»[1].

(١) «صحيح البخاري» رقم (٧٣٧٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٨١٣).

فهذه السورةُ الكريمةُ أُخلِصَتْ لِذكرِ أوصافِ الرحمٰن ونعوتِ كماله وجلاله، فأَحَبَّ هذا الصحابيُّ ﵁ الإكثارَ من قراءتها؛ ولهذا لَمَّا سأله النبيُّ ﷺ عن سبب ملازمتِهِ لقراءتها، قال: «لأنَّها صفةُ الرَّحْمٰنِ، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال: (أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ)»، وفي حديث آخر في قصة مشابهة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ)[(١)].

فدلَّ ذلك على أنَّ حبَّ العبدِ لصفاتِ الرحمٰن، وملازمتَهُ تذكُّرَها، واستحضارَ ما دَلَّتْ عليه من المعاني الجليلةِ اللائقةِ بكمالِ الربِّ وجلاله، والتفقُّهَ في معانيها: سببٌ عظيمٌ من أسبابِ دخول الجنة، ونيلِ رضا الرب تبارك وتعالى ومحبته، كما هو الحالُ في قصة هذا الصحابيِّ الجليلِ، رضي الله عنه وأرضاه.

۞ **إنَّ الواجبَ على كلِّ مسلم**: أن يقف مع جميعِ الصفاتِ الواردةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ موقفَ الرضا والقَبُولِ والتسليم؛ **كما قال الإمام الزُّهْري** ﵀: «مِنَ اللهِ الرسالة، وعلى الرسولِ البلاغ، وعلينا التسليم»[(٢)]، ولا يجوز لمسلم قَدَرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ أن يُقابِلَ شيئًا منها بِرَدٍّ أو استنكارٍ أو تعطيلٍ أو نحو ذلك.

روى عبدُ الرزاقِ في «مصنَّفه» عن مَعْمَر، عن ابن طاوس، عن أبيه، **عن ابن عَبَّاس** ﵄: «أَنَّه رأى رجلًا انتفَضَ لَمَّا سَمِعَ حديثًا عن النبيِّ ﷺ في الصفاتِ استنكارًا لذلك، فقال: ما فَرَقُ هؤلاءِ؟! يَجِدُونَ رِقَّةً عند مُحْكَمِه، ويَهْلِكُونَ عندَ متشابهه!»[(٣)].

وصفاتُ اللهِ في القرآنِ والسُّنَّةِ من المُحْكَم، إلَّا أنَّ هذا الرجلَ ـ لقلَّة علمه، وضعفِ تفريقه ـ اشتَبَهَ عليه الأمر، فبادَرَ إلى الاستنكار، فأنكَرَ عليه ابنُ عباس ﵄ ذلك، وأخبَرَ أنَّ هذا الاستنكارَ سبيلُ هَلَكَةٍ.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٤١)، ورواه البخاري تعليقًا (٧٧٤)، والترمذي (٢٩٠١)، وحسَّنه من حديث أنس ﵁.

(٢) علَّقه البخاري في «صحيحه» (١٣/ ٥٠٣، فتح).

(٣) «المصنَّف» (١١/ ٤٢٣)، وأورده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب «التوحيد»، **وانظر** شرحه في «تيسير العزيز الحميد» (ص٥٧٨).

فتبيَّن بذلك أنَّ الواجبَ في الأسماءِ والصفاتِ هو التسليمُ والقبول، وأنْ يَحْذَرَ المسلمُ أَشَدَّ الحَذَرِ مِنْ سبيلِ مَنْ يُلْحِدُونَ في أسماءِ اللهِ وصفاته، إمَّا بتعطيلٍ لها، أو تكذيبٍ لبعضها، أو تحريفٍ لمعانيها، أو تمثيلٍ لها بصفات المخلوقين، أو نحو ذلك مِنْ سبلِ الضلال؛ تعالى الله وتَقدَّسَ عن ذلك.

وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ منهجُهم في هذا البابِ العظيم: هو إثباتُ ما أثبتَهُ اللهُ لنفسه، وما أثبتَهُ له رسولُهُ ﷺ؛ من صفاتِ الكمال، ونُعُوتِ الجلال، دون تحريفٍ أو تعطيل، ودون تكييفٍ أو تمثيل، ونَفْيُ ما نفاه اللهُ عن نفسه، وما نفاه عنه رسولُهُ ﷺ من النقائصِ والعيوب، ولا يتجاوزونَ في ذلكَ القرآنَ والحديثَ.

ولا ريبَ أنَّ لهذا المنهجِ العظيمِ آثارًا كثيرةً على العبدِ في صلاحِهِ واستقامتِهِ، وخوفِهِ مِنْ رَبِّهِ ومراقبتِهِ له؛ إِذْ إنَّ العبدَ كلَّما كان باللهِ وبأسمائِهِ وصفاتِهِ أعلمَ كان مِنَ اللهِ أخوفَ، وله أطلبَ، وإليه أقربَ، وعن معصيته أبعد.

أمَّا مَنْ خالَفَ هذا المنهج، وتَنَكَّبَ هذه الجادَّة، وسلَكَ طرقَ أهلِ الزيغِ في أسماءِ اللهِ وصفاته، فما أبعدَهُ عن معرفةِ ربِّه وخالقه، بل إنَّه يكونُ أضعفَ الناسِ معرفةً بالله، وأقلَّهم خوفًا وخشيةً منه.

ولذا يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ **بعد أن بيَّن أنَّ تفاوُتَ الناسِ في معرفةِ الله يرجعُ إلى تفاوتهم في معرفةِ النصوصِ النبويَّةِ وفَهْمِها والعلم بفسادِ الشُّبَهِ المخالفةِ لحقائقها**: «وتجدُ أضعَفَ الناسِ بصيرةً أهلَ الكلامِ الباطلِ المذموم، الذي ذَمَّهُ السلفُ؛ لجهلهم بالنصوصِ ومعانيها، وتَمكُّنِ الشُّبَهِ الباطلةِ مِنْ قلوبهم».

ثم بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ العوامَّ أحسنُ حالًا مِنْ هؤلاءِ، وأقوى معرفةً بربِّهم منهم؛ **فقال**: «وإذا تأمَّلتَ حالَ العامَّةِ الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم ـ **أي**: عند أكثرِ المتكلِّمين ـ رأيتَهُمْ أتمَّ بصيرةً منهم، وأقوى إيمانًا، وأعظمَ تسليمًا للوحيِ وانقيادًا للحق». اهـ[١].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٥).

❁ **ولهذا وجَبَ على كلِّ مسلم**: أن يكونَ في هذا الباب وفي جميعِ أبوابِ الدِّينِ على سَنَنِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، ووَفْقَ منهجهم، وأَنْ يحذرَ سبلَ الضلالِ كلَّها، وأبوابَ الباطلِ جميعَها، والتوفيقُ بيد الله وحدَهُ، فنسألُهُ سبحانه أن يوفِّقنا لكلِّ خيرٍ يحبُّهُ ويرضاه، وأن يجعلنا هداةً مهتدين غيرَ ضالِّين ولا مضلِّين؛ إنَّه سميعٌ مجيبٌ قريب.

❁ ❁ ❁

٢٧

أَسْمَاءُ اللَّهِ الْحُسْنَىٰ غَيْـرُ مَحْصُورَةٍ بِعَدَدٍ مُعَيَّـنٍ وَبَيَانُ الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»

لقد صَحَّ عن النبيِّ ﷺ ـ فيما خرَّجه البخاريُّ ومسلمٌ في «صحيحيهما»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّه قال: (**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**)(١).

ولا ريبَ أنَّ هذا الفضلَ العظيم ـ ألا وهو دخولُ الجَنَّة ـ المترتِّبَ على إحصاءِ هذا العددِ من أسماءِ الله: يحرِّكُ في النَّفْسِ الجِدَّ في نيلِ هذا المطلبِ العظيم، والسَّعْيَ في تكميله، والحرصَ الشديدَ على تحقيقه.

ولقد ظنَّ بعضُ النَّاسِ ـ خطأً ـ أنَّ المرادَ بإحصاءِ أسماءِ الله، المرغَّبِ فيه في هذا الحديث، هو عَدُّ ألفاظِ تسعةٍ وتسعينَ اسمًا مِنْ أسماءِ الله، واستظهارُهَا في القلب، والتلفُّظُ بها في أوقاتٍ معيَّنةٍ مخصوصة، وربَّما جعَلَها بعضُهم في جملةِ ذِكْرِهِ لله في صباحِهِ ومسائه، دون فِقْهٍ ـ من هؤلاء ـ لهذه الأسماءِ الجليلةِ العظيمة، أو تدبُّرٍ لِمَدْلُولاتِها، أو تحقيقٍ لِمُوجَبَاتِها ومُسْتَلْزَمَاتِها، أو عملٍ بمقتضَياتِها ومتطلَّباتِها.

ولقد نبَّه العلماءُ ـ رحمهم الله ـ أنَّه ليس المرادُ بإحصاءِ أسماءِ الله عَدَّ حروفها فقطْ، بلا فقهٍ لها أو عملٍ بها، بل لا بُدّ في ذلك مِنْ فهمِ معناها والمرادِ بها فهمًا صحيحًا سليمًا، ثم العملِ بما تقتضيه.

قال أبو عمر الطَّلَمَنْكِيُّ رحمه الله: «مِن تمامِ المعرفةِ بأسماءِ الله تعالى

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٧٣٦)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٧٧).

وصفاتِهِ التي يستحقُّ بها الداعي والحافظُ ما قال رسولُ الله ﷺ المعرفةُ بالأسماءِ والصفاتِ، وما تَتضمَّنُ من الفوائد، وتدلُّ عليه من الحقائق، ومَنْ لم يعلمْ ذلك، لم يكنْ عالمًا لمعاني الأسماء، ولا مستفيدًا بِذِكْرِها ما تدلُّ عليه من المعاني»[(١)].

فنبَّه رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّ تمامَ المعرفةِ بالأسماءِ الحسنى، والتي ينالُ الداعي بها هذا الثوابَ العظيمَ الواردَ في الحديث، إنَّما يكونُ بالمعرفةِ بالأسماءِ وبما تَتضمَّنُهُ من الفوائدَ، وتدلُّ عليه من الحقائق، لا عدَّها فقطْ دون فَهْمٍ لها، أو علمٍ بما تدلُّ عليه.

وقد ذكر العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ لإحصاءِ أسماءِ الله الحسنى ثلاثَ مراتبَ، بتكميلِهَا وتحقيقِهَا ينالُ العبدُ ثوابَ اللهِ العظيمَ المذكورَ في حديثِ رسولِ الله ﷺ المتقدِّم:

المرتبة الأولى: إحصاءُ ألفاظِهَا وعَدَدِها.

المرتبة الثانية: فَهْمُ مَعَانِيها ومدلولاتها.

المرتبة الثالثة: دعاءُ اللهِ بها، وهذا شاملٌ لدعاءِ العبادةِ ودعاءِ المسألة[(٢)].

فبتحقيقِ هذه المراتبِ الثلاثةِ العظيمةِ يكونُ الإحصاءُ الصحيحُ لهذا القدر من أسماء الله الحسنى.

۞ **وممَّا ينبغي أن يُعْلَمَ هنا:** أنَّ أسماءَ اللهِ الحسنى ليستْ محصورةً في هذا العددِ المعيَّن المذكور في قوله ﷺ: **(إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ)**، فالكلامُ في هذا الحديثِ جملةٌ واحدةٌ، فقولُه: **(مَنْ أَحْصَاهَا)**: صفةٌ، وليس خبرًا مستقلًّا؛ **والمعنى:** أنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا، مِنْ شأنها أنَّ مَنْ أحصاها دخلَ الجنة، وهذا لا ينافي أن يكونَ له أسماءٌ

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١١/٢٢٦).
(٢) **انظر:** «بدائع الفوائد» (١/١٦٤).

غيرها، ولهذا نظائرُ كثيرةٌ في لغةِ العرب؛ كما تقولُ: إنَّ عندي تسعةً وتسعين درهمًا أعددتُّها للصَّدَقةِ؛ فإنَّ هذا لا ينافي أن يكونَ عندك غيرُهَا مُعَدَّةً لغيرِ ذلك، وهذا أمرٌ معروف، لا خلافَ فيه بين العلماء.

بل لقد ورَدَ في السُّنَّةِ ما يدلُّ على أنَّ أسماءَ اللهِ غيرُ محصورة، ولا تُحَدُّ بعدد معيَّن:

ومن ذلك: ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: فَقَدتُّ رسولَ الله ﷺ ليلةً من الفراش، فالتمستُهُ، فوقَعَتْ يدي على بطن قَدَمَيْهِ وهو في المسجدِ وهما منصوبتان، وهو يقولُ: (**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**)[1]، فأخبرَ ﷺ أنَّه لا يحصي ثناءً عليه، ولو أحصى جميعَ أسمائِهِ لَأَحْصَى الثناءَ عليه.

ومِنْ ذلك أيضًا: ما ورَدَ في حديثِ الشفاعةِ الطويلِ، أنَّه ﷺ قال: (**ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِن محَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي**)[2]؛ فدلَّ الحديثُ على أنَّ هناك محامدَ منْ أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ يفتحُ اللهُ بها على رسولِهِ ﷺ في ذلك اليوم، وهي ـ بلا شكّ ـ غيرُ المحامدِ المأثورةِ في الكتابِ والسُّنَّة.

وأيضًا: فقد ثبَتَ في «المسند» وغيره، مِنْ حديثِ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ أنَّ النبيَّ ﷺ، قال: (**مَا أَصَابَ عَبْدًا هَمٌّ ولَا حَزَنٌ، فَقَال: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، ونُورَ صَدْرِي، وجِلَاءَ حُزْنِي، وذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ حُزْنَهُ،**

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٤٨٦).

(٢) رواه البخاري رقم (٤٧١٢)، ومسلم رقم (١٩٤).

وأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا)[١].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «**فجعَلَ أسماءَ اللهِ ثلاثةَ أقسام**:

قسم: سَمَّى به نفسَهُ، فأظهَرَهُ لمن شاءَ مِنْ ملائكتِهِ أو غيرهم، ولم يُنْزِلْ به كتابَهُ.

وقسم: أنزَلَ به كتابَهُ، فتعرَّفَ به إلى عبادِهِ.

وقسم: استأثَرَ به في علم غَيْبه، فلم يُطْلِعْ عليه أحدًا مِنْ خلقه؛ ولهذا قال: (**اسْتَأْثَرْتَ بِهِ**)؛ أي: تَفرَّدتَّ بعلمه»[٢].

وبهذا تَبيَّنَ أنَّ أسماءَ اللهِ غيرُ محصورةٍ في هذا العدد المعيَّن، بل هي في القرآنِ والسُّنَّةِ أكثرُ مِنْ ذلك، وقُصَارَى الحديثِ الدَّلَالةُ على فضيلةِ إحصاءِ هذا العددِ مِنْ أسماء الله.

۞ **ومما يُنبَّهُ عليه هنا**: أنَّه لم يَرِدْ عن النبيِّ ﷺ حديثٌ صحيحٌ في عَدِّ هذه الأسماءِ وسَرْدِها، وأمَّا ما ورَدَ في «جامع الترمذي»، و«سنن ابن ماجه»، وغيرهما، من ذكرٍ لهذه الأسماءِ مسرودةً عَقِبَ حديثِ أبي هريرة المتقدِّم[٣]، فإنَّ هذا ـ باتفاق أهلِ المعرفةِ والعلمِ بالحديث ـ ليس مِنْ كلامِ النبيِّ ﷺ، وإنَّما هو مُدْرَجٌ مِنْ بعضِ الرواةِ في حديثِ الرسولِ ﷺ؛ ولذا خرَّجه البخاري ومسلم دون ذِكْرٍ لها؛ لضعفِهَا ولعدمِ ثبوتها عن النبي ﷺ. وتفاصيلُ ذلك يجدُهَا طالبُ العلمِ مبسوطةً في مظانِّها من كتبِ أهل العلم[٤].

ثم إنَّ هذه الأسماءَ موجودةٌ ـ كما تقدَّمَ ـ في الكتاب والسُّنَّة، فمَنْ قرأهما وعَوَّلَ عليهما في دينه، واجتهَدَ في تدبُّرِ أسماءِ الله الحسنى الواردةِ فيهما، فقد ظَفِرَ بالمراد، وحَصَّلَ المقصود، وباللهِ وحدَهُ التوفيق.

---

(١) «المسند» (١/ ٣٩١)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٩).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٦).

(٣) **انظر**: «جامع الترمذي» رقم (٣٥٠٧)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٦١).

(٤) **وانظر في ذلك**: «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٢١٥ وما بعدها).

٢٨

تَفَاضُلُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ، وَذِكْرُ الاسْمِ الْأَعْظَمِ

لقد مرَّ معنا بيانُ أنَّ أسماءَ الله الحسنى غيرُ محصورةٍ في عددٍ معيَّن، وأنَّ قول النبي ﷺ: **(إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ)** لا يفيدُ حصرَ الأسماءِ الحسنى في هذا العدد، وأنَّ قُصَارَاهُ الدَّلَالةُ على فضيلةِ هذه الأسماءِ التسعةِ والتسعين، وأنَّها اختصَّتْ بأنَّ مَنْ أحصاها دخَلَ الجنة.

وفي هذا دلالةٌ على تفاضلِ الأسماءِ الحسنى، خلافًا لمن نفى ذلك؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولُ مَنْ قال: صفاتُ اللهِ لا تَتفاضَلُ، ونحو ذلك، قولٌ لا دليلَ عليه... وكما أنَّ أسماءَهُ وصفاتِهِ متنوعةٌ، فهي أيضًا متفاضلة، كما دلَّ على ذلك الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ، مع العقل»[1].اهـ.

ومما يدلُّ على تفاضلِ الأسماءِ الحسنى: ما ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ في الأخبار الصحيحة: أنَّ للهِ اسمًا أعظمَ إذا سُئِلَ به أَعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب. ولا ريبَ أنَّ هذه فضيلةٌ عظيمةٌ اختصَّ بها هذا الاسمُ الذي وُصِفَ بأنَّه اسمُ اللهِ الأعظمُ، ولعلَّنا نستعرضُ بعضَ الأحاديثِ الواردةِ في ذلك، ثم نقفُ بعد ذلك على كلامِ بعضِ أهل العلم في تعيينه.

روى الإمام أحمد في «المسند»، وأهل السنن الأربعة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ سَمِعَ رجلًا يقول: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّ لكَ الحَمْدَ، لا إلَـهَ إلَّا أنتَ، وحدَكَ لا شريكَ لك، المَنَّانُ بديعُ السمٰواتِ والأرضِ، ذو الجلالِ والإكرام، فقال النبيُّ ﷺ: **(لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ، الذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعطَى)**»؛ وزاد أبو داود

---

(١) **انظر**: «جواب أهل العلم والإيمان» (ص١٩٧ - ٢٠٠).

والنسائي في آخره: (**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**)(١).

وروى ابن ماجه، والحاكم، وغيرهما، عن أبي أُمَامة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (**اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي سُوَرٍ ثَلَاثٍ: البَقَرَةِ، وآلِ عِمْرَانَ، وطه**)(٢).

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، عن أسماءَ بنتِ يزيد ﷺ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ**: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، **وفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ**: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾)(٣).

وروى الإمام أحمد وأصحاب السنن، وابن حِبَّان، عن بُرَيْدة ﷺ، قال: سمعَ النبيُّ ﷺ رجلًا يقول: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ بأنِّي أَشْهَدُ أنَّكَ أنتَ اللهُ لا إلٰهَ إلَّا أنتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكنْ له كفوًا أحدٌ، فقال رسول الله ﷺ: (**لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**)»(٤).

فهذه بعضُ الأحاديثِ الثابتةِ في ذكرِ اسمِ الله الأعظم، الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى.

ولأجلِ هذا، فقد كان لهذا الاسمِ ومعرفتِهِ والبحثِ عنه شأنٌ عظيمٌ

---

(١) «المسند» (٣/ ٢٦٥)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٩٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٤٤)، و«سنن النسائي» (٣/ ٥٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٥٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٥٤٣).

(٢) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٥٦)، و«مستدرك الحاكم» (١/ ٥٠٦)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٧٤٦).

(٣) «المسند» (٦/ ٤٦١)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٩٦)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٧٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٩٨٠).

(٤) «المسند» (٥/ ٣٤٩)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٩٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٧٥)، و«السنن الكبرى» للنسائي رقم (٧٦٦٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٥٧)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٩١، ٨٩٢).

عند أهلِ العلم، ولهم في هذا أبحاثٌ كثيرةٌ مطولةٌ ومختصرةٌ؛ **قال الإمام الشوكانيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في كتابه «تحفة الذاكرين»**: «وقد اختُلِفَ في تعيين الاسمِ الأعظمِ على نحو أربعينَ قولًا، قد أفردها السيوطيُّ بالتصنيف»[1].اهـ.

ولم يذكر السيوطيُّ في كتابه الذي أفرده في ذلك، والذي أسماه «الدر المُنَظَّم، في الاسم الأعظم» سوى عشرين قولًا، وكثيرٌ منها ظاهرٌ ضعفُهُ؛ لعدمِ قيامِ دليلٍ صحيحٍ صريحٍ على صِحَّته وثبوته، وبعضُ المتصوِّفةِ لهم في هذا الباب أباطيلُ كثيرةٌ، لا يُلتَفَتُ إلى شيءٍ منها، ويَرْوُونَ في ذلك أحاديثَ موضوعةً، وآثارًا مخترعةً، وقصصًا منكرةً، يخدعون بها عوامَّ المسلمين، ويَغُرُّونَ بها جُهَّالهم.

والواجبُ على كلِّ مسلم أنْ يكونَ في دينه على حِيطَةٍ وحَذَرٍ من الوقوعِ في إفكِ هؤلاءِ وباطلهم؛ فكم غَرَّ هؤلاءِ مِنْ عوامِّ المسلمين! وكم خدعوا مِنْ جُهَّالهم! وكم مِنْ ضلالٍ وشَرٍّ وباطلٍ انتشَرَ بسببهم! واللهُ المستعان.

❁ **إنَّ أشهَرَ الأقوالِ في تعيينِ الاسمِ الأعظم، وأولاها بالصواب، وأَقْرَبَها للأدلَّة**: هو أنَّ اسمَ اللهِ الأعظمَ هو «**الله**»؛ وإلى هذا القولِ ذهَبَ جمعٌ من أهل العلم.

قال الإمام أبو عبد الله ابن مَنْدَه في كتابه «التوحيد»، ـ وقد اختارَ فيه أنَّ اسمَ اللهِ الأعظمَ هو اللهُ ـ: «فاسمُهُ «**اللهُ**» معرفةُ ذاتِهِ، منَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقَهُ أن يتسمَّى به أحدٌ مِنْ خلقه، أو يُدْعَى باسمِهِ إلـٰهٌ مِنْ دونه، جعله أولَ الإيمان، وعمودَ الإسلام، وكلمةَ الحَقِّ والإخلاص، ومخالفةَ الأضدادِ والإشراكِ؛ فبِهِ يُحتجزُ القائلُ مِنَ القتل، وبه تُفتتحُ الفرائض، وتنعقدُ الأَيْمان، ويُستعاذُ من الشيطان، وباسمِهِ يَفْتَتِحُ ويَخْتِمُ الأشياءَ، تبارَكَ اسمُهُ، ولا إلـٰهَ غيره»[2].اهـ.

ولهذا الاسمِ الكريمِ مِنَ الخصائصِ ما ليسَ لغيره مِنَ الأسماء، ومِنْ خصائصه: أنَّ اللهَ يضيفُ سائرَ الأسماءِ إليه؛ كقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾

---

(١) «تحفة الذاكرين» (ص٦٧).
(٢) «التوحيد» (٢/ ٢١).

[الأعراف: ١٨٠]، ويقال: العزيز، والرحمٰن، والكريم، والقُدُّوس: مِنْ أسماء الله، ولا يقالُ: اللهُ من أسماءِ الرحمٰن، بل إنَّ هذا الاسمَ الكريمَ مستلزمٌ لجميع معاني الأسماءِ الحسنى، دالٌّ عليها بالإجمال، والأسماءُ الحسنى تفصيلٌ وتبيينٌ لصفات الإلٰهية؛ فلهذه المعاني العظيمة وغيرها مما اختصَّ به هذا الاسمُ صار غيرُ واحدٍ من أهلِ العلمِ إلى اختيارِ أنَّ الاسمَ الأعظمَ هو اللهُ؛ ومما يُقوِّي هذا: أنَّ هذا الاسمَ الكريمَ قد ورَدَ في جميع الأحاديث التي فيها إشارةٌ إلى الاسم الأعظم.

ومِنْ أهل العلم مَنْ ذهَبَ إلى أنَّ الاسم الأعظم هو **«الحَيُّ القيوم»**، **قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «زاد المعاد»**: «فإنَّ صفةَ الحياةِ متضمِّنةٌ لجميعِ صفاتِ الكمال، مستلزمةٌ لها، وصفةَ القيوميَّةِ متضمِّنةٌ لجميعِ صفاتِ الأفعال، ولهذا كان اسمُ اللهِ الأعظمُ ـ الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى ـ هو اسمَ الحَيِّ القيوم». اهـ[١].

وقد ورَدَ هذا الاسمُ في أكثرِ الأحاديثِ التي فيها إشارةٌ إلى الاسمِ الأعظم.

فهذا القولُ والذي قبله هما أقوى ما قيل في الاسمِ الأعظم[٢]، وعلى كلِّ حالٍ، فهذه مسألةُ اجتهاد؛ لعدمِ ورودِ دليلٍ قطعيِّ الدَّلَالةِ على التعيينِ يجبُ أن يُصَارَ إليه، إلا أنَّ مَنْ دعا اللهَ بالأدعيةِ المتقدِّمة، فقال في دعائه: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّ لك الحَمْدَ، لا إلٰهَ إلا أنتَ، وحدَكَ لا شريكَ لكَ، المَنَّانُ بديعُ السمٰواتِ والأرضِ، ذو الجَلَالِ والإكرام»،

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٢٠٤).

(٢) **علَّق سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا الموطن بقوله: «والصواب:** أنَّ الأعظم بمعنى العظيم، وأنَّ أسماءَ الله سبحانه كلَّها حسنى، وكلَّها عظيمة، ومَنْ سأل الله سبحانه بشيء منها صادقًا مخلصًا سالمًا من الموانع، رُجِيَتْ إجابتُه، ويدلُّ على ذلك اختلافُ الأحاديثِ الواردةِ في ذلك؛ ولأنَّ المعنى يقتضي ذلك، فكلُّ أسمائِهِ حسنى، وكلُّها عُظمى، والله جَلَّ وَعَلَا وليُّ التوفيق».

أو قال: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألكَ بأنِّي أَشْهَدُ أنَّكَ أنتَ اللهُ، لا إلَـهَ إلا أنتَ، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكنْ له كُفُوًا أحدٌ»، فقد دعا اللهَ باسمِهِ الأعظم؛ لإخبارِ النبيِّ ﷺ عمَّن دعا اللهَ بذلكَ بأنَّه دعاه باسمِهِ الأعظم، الذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب.

على أنَّه ينبغي أن نَتذكَّرَ أنَّ لقبولِ الدعاءِ شروطًا عديدةً وردَتْ في الكتاب والسُّنَّة، وسيأتي لها بسطٌ إن شاء الله.

وفي الختامِ أسألُ اللهَ الكريمَ التوفيقَ لكلِّ خيرٍ يُحِبُّهُ ويرضاه.

❁ ❁ ❁

٢٩

فَضَائِلُ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ:
سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ للَّهِ، وَلَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ

إنَّ خيرَ الكلامِ وأفضلَ الذِّكْرِ بعد القرآن الكريم أربعُ كلمات، لهنَّ قدرٌ رفيعٌ، وشأنٌ عظيمٌ، ومكانةٌ عاليةٌ في دينِ الله؛ **هُنَّ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ لله، ولا إلـهَ إلا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ.**

وقد ورَدَ في فضلِ هذه الكلمات الأربعِ نصوصٌ كثيرةٌ تدلُّ دلالةً قويةً على عِظَمِ شأنِ وقدرِ هذه الكلمات، وما يَترَتَّبُ على القيامِ بهنَّ من أجورٍ عظيمةٍ، وأفضالٍ كريمةٍ، وخيراتٍ متواليةٍ في الدنيا والآخرة.

ولعلَّنا نستعرضُ بعضَ فضائلِ هذه الكلماتِ من خلالِ بعضِ النصوص الواردة في ذلك:

* **فمِنْ فضائلِ هذه الكلمات**: أنَّهُنَّ أحبُّ الكلامِ إلى الله؛ فقد روى مسلم في «صحيحه»، من حديث سَمُرة بن جُنْدُبٍ ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: (**أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَر، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ**)[1]، ورواه الطيالسيُّ في «مسنده» بلفظ: (**أَرْبَعٌ هُنَّ مِنْ أَطْيَبِ الكَلَامِ، وهُنَّ مِنَ القُرْآنِ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: سُبْحَانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، ولَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ**)[2].

* **ومن فضائلهنَّ**: أنَّ النبيَّ ﷺ أخبرَ أنَّهنَّ أحبُّ إليه مما طَلَعَتْ عليه الشمسُ (**أي**: مِنَ الدنيا وما فيها)؛ لما روى مسلمٌ في «صحيحه» من حديث أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: (**لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ،**

---

(١) تقدم تخريجه (٨٧).

(٢) «مسند الطيالسي» (ص١٢٢).

وَلَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)[١].

* **ومِنْ فضائلهنَّ**: ما ثبَتَ في «مسند الإمام أحمد»، و«شعب الإيمان» للبيهقي، بإسناد جيِّد، عن عاصم بن بَهْدَلة، عن أبي صالح، عن أم هانئ بنت أبي طالب، قالت: «مَرَّ بي رسولُ الله ﷺ فقلتُ: إنِّي قد كَبِرْتُ وضَعُفْتُ ـ أو كما قالتْ ـ فمُرْنِي بعملٍ أعملُهُ وأنا جالسةٌ، قال: **(سَبِّحِي اللهَ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ؛ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ رَقَبَةٍ تُعْتِقِينَهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاحْمَدِي اللهَ مِائَةَ تَحْمِيدَةٍ؛ تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ فَرَسٍ مُسْرَجَةٍ مُلْجَمَةٍ تَحْمِلِينَ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وكَبِّرِي اللهَ مِائَةَ تَكْبِيرَةٍ؛ فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةٍ مُتَقَبَّلَةٍ، وهَلِّلِي مِائَةَ تَهْلِيلَةٍ)** ـ قال ابن خلف (الراوي عن عاصم) أحسبُهُ قال ـ: **(تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، وَلَا يُرْفَعُ يَوْمَئِذٍ لِأَحَدٍ مثل عَمَلك إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ مَا أَتَيْتِ بِهِ)**»[٢].

وتأمَّلْ هذا الثوابَ العظيمَ المترتِّبَ على هؤلاءِ الكلمات؛ فمَنْ سَبَّحَ اللهَ مِائَةً؛ **أي**: قال: سبحانَ اللهِ، مِائَة مَرَّة، فإنَّها تعدلُ عِتْقَ مِائَةِ رقبةٍ من ولد إسماعيل، وخَصَّ بني إسماعيل بالذِّكْرِ؛ لأنَّهم أشرفُ العربِ نَسَبًا، ومَنْ حَمِدَ الله مِائةً، **أي**: مَنْ قال: الحمدُ للهِ، مِائةَ مَرَّةٍ، كان له مِنَ الثوابِ مثلُ ثوابِ مَنْ تَصدَّقَ بمِائَةِ فرسٍ مُسْرَجةٍ مُلْجَمةٍ؛ **أي**: عليها سَرْجُها ولجامها لحملِ المجاهدينَ في سبيل الله، ومَنْ كَبَّرَ اللهَ مِائةَ مرَّة؛ **أي**: قال: اللهُ أكبرُ، مِائةَ مَرَّةٍ، كان له مِنَ الثوابِ مثلُ ثوابِ إنفاقِ مِائةِ بدنةٍ مقلَّدةٍ متقبَّلةٍ، ومَنْ هَلَّلَ مِائةً؛ **أي**: قال: لا إلـهَ إلا الله، مِائةَ مَرَّةٍ، فإنَّها تملأ ما بين السماءِ والأرض، ولا يُرْفَعُ لأحدٍ يومئذ عملٌ أفضل مما يرفع له إلا أن يأتيَ بمثلِ ما أتى به.

* **ومِنْ فضائلِ هؤلاءِ الكلماتِ**: أنَّهُنَّ مكفِّراتٌ للذنوب؛ فقد ثبَتَ

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٥).

(٢) «المسند» (٦/ ٣٤٤)، و«شعب الإيمان» رقم (٦١٢)، قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤٠٩): رواه أحمد بإسنادٍ حسن، وحسَّن إسنادَه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٣٠٣).

في «المسند»، و«جامع الترمذي»، و«مستدرك الحاكم»، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَا عَلَى الأَرْضِ رَجُلٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، إِلَّا كُفِّرَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ، وَلَوْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ البَحْرِ)**(١).

والمرادُ بالذنوبِ المكفَّرةِ هنا؛ أي: الصغائرُ؛ لِمَا ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: **(الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ)**(٢)؛ فقيَّد التكفيرَ باجتنابِ الكبائر؛ لأنَّ الكبيرةَ لا يُكفِّرها إلا التوبةُ.

وفي هذا المعنى ما رواه الترمذيُّ وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ بشجرةٍ يابسةِ الوَرَقِ، فضَرَبَهَا بعَصَاهُ، فتناثَرَ الوَرَقُ، فقال رسولُ الله ﷺ: **(إِنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ العَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ)**»(٣).

* **ومن فضائل هؤلاءِ الكلمات**: أَنَّهُنَّ غَرْسُ الجَنَّة؛ روى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: **(لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ المَاءِ، وأَنَّهَا قِيعَانٌ، غِرَاسُهَا: سُبْحَانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، ولَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ)**(٤).

والقِيعَانُ: جمعُ قاعٍ، وهو المكانُ المستوي، الواسعُ في وطأةٍ من الأرض،

---

(١) «المسند» (٢/١٥٨، ٢١٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٦٠)، و«مستدرك الحاكم» (١/٥٠٣)، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الحاكم، وأقرَّه الذهبي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٣٦).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٣٣).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٢٥٣٣)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٦٠١).

(٤) تقدم تخريجه (ص٢١).

يعلوه ماءُ السماءِ، فيمسكُهُ ويستوي نباته؛ كذا في «النِّهَاية» لابن الأثير[١]، **والمقصودُ**: أنَّ الجنةَ ينمو غِراسُهَا سريعًا بهذه الكلمات؛ كما ينمو غراسُ القيعانِ مِنَ الأرض ونبتها.

* **ومِنْ فضائلهنَّ**: أنَّه ليس أحدٌ أفضلَ عندَ اللهِ مِنْ مؤمنٍ يُعَمَّرُ في الإسلامِ يكثُرُ تكبيرُهُ وتسبيحُهُ وتهليلُهُ وتحميده؛ روى الإمام أحمد، والنَّسائيُّ في «عمل اليوم والليلة»، بإسنادٍ حسنٍ، عن عبد الله بن شَدَّاد: «أنَّ نَفرًا من بني عُذْرَةَ ثلاثةً أَتَوُا النبيَّ ﷺ فأسلموا، قال: فقال النبي ﷺ: **(مَنْ يَكْفِينِيهِمْ)** قال طلحةُ: أنا، قال: فكانوا عند طَلْحَة، فبعَثَ النبيُّ ﷺ بَعْثًا فخرَجَ فيه أحدُهم فاستُشْهِدَ، قال: ثم بَعَثَ بعثًا آخر، فخرَجَ فيهم آخَرُ فاستُشْهِدَ، قال: ثُمَّ مات الثالثُ على فراشِهِ، قال طَلْحةُ: فرأيتُ هؤلاءِ الثلاثةَ الذين كانوا عندي في الجَنَّة، فرأيتُ المَيِّتَ على فراشِهِ أمامهم، ورأيتُ الذي استُشْهِدَ أخيرًا يليه، ورأيتُ الذي استُشْهِدَ أَوَّلَهم آخِرَهم، قال: فدخَلَنِي مِنْ ذلك، قال: فأتيتُ النبيَّ ﷺ، فذكَرْتُ ذلكَ له، قال: فقال رسول الله ﷺ: **(مَا أَنْكَرْتَ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمَّرُ فِي الإِسْلَامِ يَكْثُرُ تَكْبِيرُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَتَهْلِيلُهُ وتَحْمِيدُهُ)**»[٢].

وقد دلَّ هذا الحديثُ العظيمُ على عِظَمِ فضلِ مَنْ طالَ عمرُهُ وحَسُنَ عَمَلُهُ، ولم يَزَلْ لسانُهُ رَطْبًا بذكرِ اللهِ ﷻ، وللحديثِ صِلَةٌ، وبالله وحده التوفيق.

❁ ❁ ❁

---

(١) (٤/ ١٣٢).

(٢) «المسند» (١/ ١٦٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي كتاب: عمل اليوم والليلة (٦/ رقم ١٠٦٧٤)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٦٥٤).

٣٠

فَضَائِلُ أُخْرَىٰ لِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ

لقد مرَّ معنا ذِكْرُ جملةٍ من الفضائلِ لكلماتٍ أربعٍ هنَّ أفضلُ الكلامِ بعد القرآن: **سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلَهَ إلا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ.**

ونواصلُ هنا ذِكْرَ جملةٍ أخرى من فضائلِ هؤلاءِ الكلماتِ من خلال أحاديثِ رسول الله ﷺ الواردةِ في ذلك:

* **فمن فضائلهنَّ**: أنَّ اللهَ اختارَ هؤلاءِ الكلماتِ واصطفاهُنَّ لِعِبَادِهِ، ورتَّب على ذِكْرِ اللهِ بهنَّ أجورًا عظيمةً، وثوابًا جزيلًا، ففي «المسند» للإمام أحمد، و«مستدرك الحاكم» ـ بإسناد صحيح ـ من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنَ الكَلَامِ أَرْبَعًا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ فَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، كُتِبَ لَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً، وَحُطَّتْ عَنْهُ عِشْرُونَ سَيِّئَةً، وَمَنْ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فَمِثْلُ ذَلِك، وَمَنْ قَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، فَمِثْلُ ذَلِك، وَمَنْ قَالَ: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، كُتِبَتْ لَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً، وَحُطَّ عَنْهُ ثَلَاثُونَ سَيِّئَةً)**(١).

وقد زاد في ثوابِ الحمدِ عندما يقولُهُ العبدُ مِنْ قِبَلِ نفسِهِ عن الأربع؛ لأنَّ الحمدَ لا يَقَعُ غالبًا إلا بعدَ سببٍ؛ كأكلٍ أو شُرْبٍ، أو حدوثِ نعمة، فكأنَّه وقَعَ في مقابلةِ ما أُسْدِيَ إليه وقتَ الحمد، فإذا أنشأ العبدُ الحمدَ مِنْ قِبَلِ نفسِهِ دون أن يدفعَهُ لذلك تَجدُّدُ نعمةٍ، زاد ثوابُهُ.

* **ومن فضائلهنَّ**: أنَّهُنَّ جُنَّةٌ لقائلهنَّ مِنَ النار، ويأتين يومَ القيامةِ

---

(١) «المسند» (٢/ ٣٠٢)، و«المستدرك» (١/ ٥١٢)، وقال الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٧١٨): صحيح.

مُنْجِياتٍ لقائلهنَّ ومقدِّماتٍ له؛ روى الحاكم في «المستدرك»، والنَّسائيُّ في «عمل اليوم والليلة»، وغيرُهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**(خُذُوا جُنَّتَكُمْ)**، قلنا: يا رسول الله، مِنْ عدوٍّ قد حضر! قال: **(لَا، بَلْ جُنَّتَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ مُنْجِيَاتٍ وَمُقَدِّمَاتٍ، وَهُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)**»(١).

وقد تَضمَّنَ هذا الحديثُ - إضافةً إلى ما تقدَّم - وصفَ هؤلاءِ الكلماتِ بأنَّهنَّ الباقياتُ الصالحات، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، والباقياتُ؛ **أي**: التي يبقى ثوابُها، ويدومُ جزاؤها، وهذا خيرُ أَمَلٍ يؤمِّلُهُ العبدُ وأفضلُ ثواب.

* **ومن فضائلهنَّ**: أنَّهُنَّ يَنْعَطِفْنَ حولَ عرشِ الرحمٰن ولهنَّ دَوِيٌّ كدويِّ النحل، يُذَكِّرْنَ بصاحبهنَّ؛ ففي «المسند للإمام أحمد»، و«سنن ابن ماجه»، و«مستدرك الحاكم»، عن النُّعْمان بن بَشِير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ: التَّسْبِيحَ والتَّكْبِيرَ، والتَّهْلِيلَ والتَّحْمِيدَ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ العَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا؛ أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ - أَوْ: لَا يَزَالَ لَهُ - مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟!)**(٢).

فأفاد هذا الحديثُ هذه الفضيلةَ العظيمةَ، وهي أنَّ هؤلاءِ الكلماتِ الأربعَ يَنْعَطِفْنَ حولَ العرش؛ **أي**: يَمِلْنَ حوله، ولهنَّ دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل؛ **أي**: صوتٌ يشبهُ صوتَ النحلِ، يُذَكِّرْنَ بقائلهنَّ، وفي هذا أعظمُ حضٍّ على الذِّكْرِ بهؤلاءِ الكلماتِ؛ ولهذا قال في الحديث: **(أَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ - أَوْ: لَا يَزَالَ لَهُ - مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟!)**.

---

(١) «المستدرك» (١/٥٤١)، و«السنن الكبرى» كتاب: عمل اليوم والليلة (٦/٢١٢)، قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يخرِّجاه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٢١٤).

(٢) «المسند» (٤/٢٦٨، ٢٧١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٠٩)، و«المستدرك» (١/٥٠٣)، قال البوصيريُّ في «زوائد سنن ابن ماجه»: إسناده صحيح، رجاله ثقاتٌ، وصحَّحه الحاكم.

* **ومن فضائلهنَّ**: أنَّ النبيَّ ﷺ أخبَرَ أنَّهُنَّ ثقيلاتٌ في الميزان؛ روى الإمام أحمد في «المسند»، والنسائيُّ في «عمل اليوم والليلة»، وابنُ حِبَّانَ في «صحيحه»، والحاكم، وغيرهم عن أبي سُلْمَى رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: **(بَخٍ بَخٍ)**، - وأشار بيده بخمسٍ - **(مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، ولَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ، والوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى لِلْمَرْءِ المُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ)**(١).

وقوله في الحديث: **(بَخٍ بَخٍ)**، هي كلمةٌ تُقال عند الإعجابِ بالشيءِ، وبيانِ تفضيله.

* **ومِنْ فضائلِ هؤلاءِ الكلمات**: أنَّ للعبدِ بقولِ كلٍّ واحدةٍ منهنَّ صدقةً؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه: «أنَّ ناسًا من أصحابِ رسولِ الله ﷺ قالوا للنبيِّ ﷺ: يا رسولَ الله، ذهَبَ أهلُ الدُّثُورِ بالأجورِ، يُصَلُّونَ كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويَتصدَّقُونَ بفضولِ أموالهم، قال: **(أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ)**، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدُنا شهوتَهُ ويكونُ له فيها أجرٌ؟ قال: **(أَرَأَيْتُم لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ)**»(٢).

وقد ظنَّ الفقراءُ أنْ لا صَدَقَةَ إلا بالمال، وهم عاجزونَ عن ذلك، فأخبرَهُمُ النبيُّ ﷺ أنَّ جميعَ أنواعِ فعل المعروفِ والإحسانِ صدقةٌ، وذكَرَ في مقدِّمة ذلكَ هؤلاءِ الكلماتِ الأربعَ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلـه إلا اللهُ، واللهُ أكبَرُ.

---

(١) «المسند» (٣/ ٤٤٣)، و«السنن الكبرى» كتاب: عمل اليوم والليلة (٦/ ٥٠)، و«صحيح ابن حبان» (الإحسان) (٣/ ١١٤ رقم ٣٣٨)، و«المستدرك» (١/ ٥١١، ٥١٢)، صحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وللحديثِ شاهدٌ من حديث ثَوْبان رضي الله عنه، خرَّجه البَزَّار في «مسنده»، وقال: إسناده حسن، انظر: «كشف الأستار عن زوائد البزار» (٤/ ٩ رقم ٣٠٧٢).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (١٠٠٦).

* **ومن فضائلِ هؤلاءِ الكلماتِ**: أنَّ النبيَّ ﷺ جعلهنَّ بدلًا عن القرآن الكريمِ في حقِّ مَنْ لا يُحسنُهُ؛ روى أبو داود، والنسائي، والدارقطني، وغيرهم، عن عبد الله بن أبي أَوْفى رضي الله عنهما، قال: «جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: إني لا أستطيعُ أنْ آخُذَ مِنَ القرآنِ شيئًا، فعلِّمني ما يُجْزِئُنِي منه، قال: (**قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيم**)، قال: يا رسولَ اللهِ، هذا لله عز وجل، فما لي؟ قال: (**قُلِ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي**)، فلمَّا قامَ قالَ هكذا بيده، فقال رسول الله ﷺ: (**أَمَّا هَذَا فَقَدْ مَلأَ يَدَهُ مِنَ الخَيْرِ**)»(١).

فهذه بعضُ الفضائلِ الواردةِ في السُّنَّةِ النبويَّةِ لهؤلاءِ الكلماتِ الأربع، وقد ورَدَ لكلِّ كلمةٍ منهنَّ فضائلُ مخصوصةٌ، ستأتي تفاصيلها، إن شاء الله.

۞ **ومَنْ يَتأمَّلْ هذه الفضائلَ المتقدِّمةَ يجدْ أنَّها عظيمةٌ جدًّا**، ودالَّةٌ على عظيمِ قَدْرِ هؤلاءِ الكلماتِ، ورِفْعةِ شأنهنَّ، وكثرةِ فوائدهنَّ وعوائدهنَّ على العبدِ المؤمن، ولعلَّ السِّرَّ في هذا الفضلِ العظيم ـ والله أعلم ـ ما ذُكِرَ عن بعضِ أهلِ العلم أنَّ أسماءَ اللهِ تبارك وتعالى كلَّها مندرجةٌ في هذه الكلماتِ الأربع، فسبحانَ اللهِ: يندرجُ تحتَهُ أسماءُ التنزيهِ كالقُدُّوس والسَّلَام، والحمدُ للهِ: مشتملةٌ على إثباتِ أنواعِ الكمالِ لله تبارك وتعالىٰ في أسمائِهِ وصفاتِهِ، واللهُ أكبرُ: فيها تكبيرُ اللهِ وتعظيمُه، وأنَّه لا يُحْصِي أحدٌ الثناءَ عليه، ومَنْ كان كذلكَ فـ «**لا إلـه إلَّا هو**»؛ **أي**: لا معبودَ حَقٌّ سواه(٢).

فللَّهِ! ما أعظمَ هؤلاءِ الكلماتِ! وما أَجَلَّ شأنَهُنَّ! وما أكبرَ الخيرَ المترتِّبَ عليهنَّ! فنسألُ اللهَ أنْ يوفِّقنا للمحافظةِ والمداومةِ عليهنَّ، وأنْ يجعلَنا من أهلهنَّ، الذين ألسنتُهُمْ رَطْبةٌ بذلك؛ إنَّه وليُّ ذلكَ والقادرُ عليه.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٥٣)، و«سنن أبي داود» رقم (٨٣٢)، و«سنن النسائي» (٢/ ١٤٣)، و«سنن الدارقطني» (١/ ٣١٣، ٣١٤)، واللفظ لأبي داود، وقال المحدِّث أبو الطيِّبِ العظيم آبادي في تعليقه على «سنن الدارقطني»: سنده صحيح. وقال الألباني: سنده حسن، «صحيح أبي داود» (١/ ١٥٧).

(٢) **انظر**: جزء في «تفسير الباقيات الصالحات» للعلائي (ص٤٠).

٣١

فَضَائِلُ كَلِمَةِ التَّوحِيدِ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ

كان الحديثُ فيما سبَقَ حولَ ذِكْرِ جملةٍ مِنَ النصوصِ النبويةِ الدالَّةِ على فضلِ الكلماتِ الأربع: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلَـهِ إلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ. وفيما يلي سيكونُ الحديثُ في ذكرِ فضائلِ كلمةِ التوحيد: **لا إلـهَ إلَّا اللهُ**، التي هي أفضلُ هؤلاءِ الكلماتِ الأربع، وأجلُّهُنَّ وأعظَمُهُنَّ؛ فلأجلِ هذه الكلمةِ خُلِقَتِ الخليقةُ، وأُرْسِلَتِ الرسلُ، وأُنزلَتِ الكتبُ، وبها افترَقَ الناسُ إلى مؤمنينَ وكفارٍ، وسعداءِ أهلِ الجنة وأشقياءِ أهلِ النار، فهي العروةُ الوثقى، وهي كلمةُ التقوى، وهي أعظَمُ أركانِ الدِّين، وأهمُّ شُعَبِ الإيمان، وهي سبيلُ الفوزِ بالجَنَّةِ والنجاةِ مِنَ النار، وهي كلمةُ الشهادة، ومفتاحُ دارِ السعادة، وأصلُ الدين وأساسُهُ ورأسُ أمره. وفضائلُ هذه الكلمة وموقعُهَا مِنَ الدينِ فوقَ ما يصفُهُ الواصفون، ويَعْرِفُهُ العارفون؛ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

إنَّ لهذه الكلمةِ الجليلةِ فضائلَ عظيمةً، وفواضلَ كريمةً، ومزايا جَمَّةً، لا يُمكنُ لأحدٍ استقصاؤها، ومما ورَدَ في فضلِ هذه الكلمةِ في القرآن الكريم أنَّ الله تبارك وتعالى جعلها زُبْدَةَ دعوةِ الرسل، وخلاصةَ رسالتهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى في أول سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [٢]، وهذه الآيةُ هي أولُ ما عَدَّدَ اللهُ على عبادِهِ مِنَ النعمِ في هذه السورة؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ التوفيقَ لذلك هو أعظمُ نِعَمِ اللهِ تعالى التي أسبغها

على عباده؛ كما قال سبحانه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]؛ **قال مجاهد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا إلَـٰهَ إلا اللهُ»(١).

وقال سفيان بن عُيَيْنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أنعَمَ اللهُ على عبدٍ مِنَ العبادِ نعمةً أعظَمَ من أنْ عرَّفهم: لا إلَـٰهَ إلا اللهُ»(٢).

* **ومن فضائلها**: أنَّ اللهَ وصَفَهَا في القرآنِ بأنَّها الكلمةُ الطَّيِّبة؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم].

* **وهي** القولُ الثابتُ في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

* **وهي** العهدُ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]؛ روي عن ابن عَبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «العَهْدُ: شهادةُ أنْ لا إلَـٰهَ إلا اللهُ، ويتبرَّأُ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ من الحَوْلِ والقُوَّة، وهي رأسُ كلِّ تَقْوَى»(٣).

* **ومن فضائلها**: أنَّها العروةُ الوثقى التي مَنْ تَمسَّكَ بها نجا، ومَنْ لم يتمسَّكْ بها هلَكَ؛ قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

* **ومن فضائلها**: أنَّها الكلمةُ الباقيةُ التي جعلها إبراهيمُ الخليلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في عَقِبِهِ لعلَّهم يرجعون؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١١/ ٧٨).
(٢) ذكره ابن رجب في «كلمة الإخلاص» (ص٥٣).
(٣) رواه الطبراني في «الدعاء» (٣/ ١٥١٨).

تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الزخرف].

* **وهي** كلمةُ التقوى التي ألزَمَهَا اللهُ أصحابَ رسولِ الله ﷺ، وكانوا أحقَّ بها وأهلَها؛ قال الله تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الفتح: ٢٦].

روى أبو إسحاقَ السَّبِيعِيُّ، **عن عَمْرِو بن ميمون، قال**: «ما تكلَّمَ الناسُ بشيءٍ أفضلَ مِنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ، فقال سعد بن عِيَاضٍ: أتدري ما هي يا أبا عبد الله؟ هي واللهِ كلمةُ التقوى، ألزَمَهَا اللهُ أصحابَ محمَّدٍ ﷺ، وكانوا أحقَّ بها وأهلَها ﵃»(١).

* **ومن فضائل هذه الكلمة**: أنَّها منتهى الصوابِ وغايتُهُ؛ قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ: ٣٨].

روى عليُّ بن أبي طلْحة، **عن ابن عباس** ﵄ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾؛ **أنَّه قال**: «إلا مَنْ أَذِنَ له الربُّ ﷻ بشهادةِ أنْ لا إلَـٰهَ إلا اللهُ، وهي منتهى الصواب»(٢).

وقال عِكْرمة ﵀: «الصوابُ: لا إلـٰهَ إلا اللهُ»(٣).

* **ومن فضائلها**: أنَّها هي دعوةُ الحقِّ المرادةُ بقوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرعد: ١٤].

* **ومن فضائلها**: أنَّها هي الرابطةُ الحقيقيَّةُ التي اجتمَعَ عليها أهلُ دِينِ الإسلام؛ فعليها يُوَالُونَ ويعادون، وبها يُحِبُّونَ ويُبْغِضُونَ، وبسببها أصبَحَ

---

(١) رواه الطبراني في «الدعاء» (٣/ ١٥٣٣).

(٢)(٣) رواه الطبراني في «الدعاء» (٣/ ١٥٢٠).

المجتمعُ المسلمُ كالجَسَدِ الواحد، وكالبنيانِ المرصوصِ، يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا.

قال الشيخ العلَّامة محمَّد الأمين الشِّنْقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ **في كتابه «أضواء البيان»**: «**والحاصلُ**: أنَّ الرابطةَ الحقيقيَّةَ التي تَجْمَعُ المُفْترِقَ، وتؤلِّفُ المُخْتلِفَ هي رابطةُ: لا إلـه إلا الله؛ ألا ترى أنَّ هذه الرابطةَ التي تجمعُ المجتمعَ الإسلاميَّ كلَّه كأنَّهُ جَسَدٌ واحدٌ، وتجعلُهُ كالبنيانِ يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا عطفَتْ قلوبَ حَمَلَةِ العرش ومَنْ حولَهُ مِنَ الملائكةِ على بني آدَمَ في الأرض، مع ما بينهم مِنَ الاختلاف؟! قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر]، فقد أشار تعالى إلى أنَّ الرابطةَ التي ربَطَتْ بين حَمَلَةِ العرشِ ومَنْ حَوْلَهُ وبين بني آدَمَ في الأرضِ حتى دَعَوُا الله لهم هذا الدعاءَ الصالحَ العظيمَ إنَّما هي الإيمانُ باللهِ جلَّ وعلا».

إلى أنْ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وبالجملةِ**: فلا خلافَ بين المسلمين أنَّ الرابطةَ التي تربطُ أفرادَ أهلِ الأرضِ بعضَهم ببعض، وتربطُ بين أهلِ الأرضِ والسماءِ هي رابطةُ: لا إلـهَ إلا الله، فلا يجوزُ ألبتةَ النداءُ برابطةٍ غَيْرِها»(١). اهـ.

* **ومن فضائل هذه الكلمة**: أنَّها أفضلُ الحسنات؛ قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [النمل: ٨٩].

وقد وردَ عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي هريرة، وغيرهم: **أنَّ المرادَ بالحَسَنة**: «**لا إلـه إلا الله**»(٢)، **وعن عِكْرمة** رَحِمَهُ اللَّهُ في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾، **قال**: «قولُ: لا إلـهَ إلا اللهُ، قال: له منها خيرٌ؛

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) **انظر**: «الدعاء» للطبراني (٣/ ١٤٩٧، ١٤٩٨).

لأنَّه لا شيءَ خيرٌ مِنْ: لا إلـه إلا الله»[١].

وقد ثبَتَ في «المسند» وغيره، عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، قال: «قلتُ: يا رسول الله، عَلِّمْنِي عملًا يُقرِّبني من الجنةِ، ويُبَاعِدُني من النار، فقال: (**إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً، فَاعْمَلْ حَسَنَةً؛ فَإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا**)، قلتُ: يا رسول الله، أفَمِنَ الحسناتِ: لا إلـه إلَّا اللهُ؟ قال: (**نَعَمْ، هِيَ أَحْسَنُ الحَسَنَاتِ**)»[٢].

فهذه بعضُ فضائلِ هذه الكلمةِ العظيمة؛ مِنْ خلالِ ما ورَدَ في القرآنِ الكريم، وسوفَ نَسْتكمِلُ ذكرَ بعضِ فضائلها مِنْ خلالِ ما وَرَدَ مِن ذلكَ في حديثِ رسولِ الله ﷺ، والتوفيقُ بيد الله وحده.

❊ ❊ ❊

---

(١) أورده ابن البنا في «فضل التهليل وثوابه الجزيل» (ص٧٤).

(٢) «المسند» (٥/ ١٦٩)، و«الدعاء» للطبراني رقم (١٤٩٨)، واللفظ له.

٣٢

فَضَائِلُ أُخْرَىٰ لِكَلِمَةِ التَّوحِيدِ: لَا إِلـٰهَ إِلَّا اللَّهُ

تَحَدَّثنا فيما سبَقَ عن فضائلِ كلمةِ التوحيد: **لا إلـه إلَّا الله**؛ مِنْ خلالِ ما ورَدَ مِنْ ذلكَ في القرآن الكريم، تلك الكلمةُ العظيمةُ التي لأجلها قامتِ الأرضُ والسمٰوات، وخُلِقَتْ جميعُ المخلوقات، وبها أُرْسِلَ الرسلُ، وأُنزلَتِ الكتبُ، وشُرِعَتِ الشرائعُ، ولأجلها نُصِبَتِ الموازين، ووُضِعَتِ الدواوين، وقام سُوقُ الجنة والنار، وانقسَمَتِ الخليقةُ إلى مؤمنينَ وكُفَّارٍ، وأبرارٍ وفُجَّارٍ، فهي منشأُ الخَلْقِ والأمر، والثوابِ والعقاب، وهي الحقُّ الذي أُسِّسَتْ عليه المِلَّة، ونُصِبَتِ القِبْلة، وعنها يُسأَلُ الأوَّلون والآخرون يوم القيامة، **فلا تزولُ قَدَما عبدٍ بين يَدَيِ اللهِ حتى يُسْأَلَ عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتُمُ المرسَلِين؟**

فجوابُ الأولى: تحقيقُ كلمةِ التوحيد: لا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ؛ علمًا وإقرارًا وعملًا.

وجوابُ الثانية: بتحقيقِ: أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ؛ علمًا وإقرارًا، وانقيادًا وطاعةً[(١)].

إنَّ فضائلَ كلمةِ التوحيد: **لا إلـه إلَّا اللهِ**، لا يُمْكِنُ لمخلوقٍ عدُّها؛ إذ يَترتَّبُ عليها مِنَ الأجرِ والثوابِ والفوائدِ الجَمَّةِ في الدنيا والآخرة ما لا يخطرُ ببال، ولا يدورُ في خيال، ولعَلِّي أستعرضُ جملةً مِنْ فضائلِ هذه الكلمةِ؛ مِنْ خلالِ ما ورَدَ مِنْ ذلك في حديثِ رسول الله ﷺ.

* **فمِنْ فضائلها**: أنَّها أفضلُ الأعمال، وأكثرُها تضعيفًا، وتَعْدِلُ

---

(١) **انظر**: «زاد المعاد» لابن القيم (١/ ٣٤).

عِتْقَ الرِّقَاب، وتكونُ لقائلها حِرْزًا مِنَ الشيطان؛ كما في «الصحيحين»، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: (**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**)[١].

وفيهما أيضًا عن أبي أيُّوب الأنصاريِّ ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (**مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ، كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ**)[٢].

* **ومِنْ فضائلها**: أنَّها أفضلُ ما قاله النبيُّون: لِمَا ثبَتَ في الحديث عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: (**أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)[٣]، وفي لفظ: (**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)[٤].

* **ومِنْ فضائلها**: أنَّها تَرْجُحُ بصحائفِ الذنوبِ يومَ القيامة؛ كما في حديث عبد الله بن عَمْرو بن العاصِ ﷺ المُخَرَّج في «المسند»، و«جامع الترمذي»، وغيرِهما، بإسناد جيِّد، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: (**يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ ﷻ: أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيَهَابُ الرَّجُلَ، فَيَقُولُ:**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٠).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٤٠٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٣).

(٣) أخرجه الطبراني في «الدعاء» رقم (٨٧٤)، من حديث علي ﷺ.

(٤) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم (٣٥٨٥)، من حديث عبد الله بن عَمْرو، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/٧، ٨)، وقال: «الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد».

لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ ﷻ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَيَقُولُ ﷻ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وثَقُلَتِ البِطَاقَةُ)[(١)].

ولا ريبَ أنَّ هذا قد قام بقلبِهِ مِنَ الإيمانِ ما جعَلَ بطاقتَهُ التي فيها: لا إلـه إلا الله، تطيشُ بتلكَ السِّجِلَّات؛ إذِ الناسُ متفاضلون في الأعمال بِحَسَبِ ما يقومُ بقلوبهم مِنَ الإيمان، وإلا فكمْ مِنْ قائلٍ: لا إلـه إلا الله، لا يحصُلُ له مثلُ هذا لضَعْفِ إيمانِهِ بها في قلبه؛ فقد ورد في «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: **(يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ)**[(٢)]؛ فدلَّ ذلك على أنَّ أهلَ: لا إلـه إلا الله، متفاوتونَ فيها بِحَسَبِ ما قامَ في قلوبِهِمْ من إيمان.

* **ومِنْ فضائلِ هذه الكلمة**: أنَّها لو وُزِنَتْ بالسمٰواتِ والأرضِ، رَجَحَتْ بهنَّ؛ كما في «المسند»، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: **(أَنَّ نُوحًا قَالَ لِابْنِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ؛ فَإِنَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً، لَقَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ)**[(٣)].

---

(١) «المسند» (٢/ ٢١٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٦٣٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٤٣٠٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٠٩٥).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٤)، و«صحيح مسلم» رقم (١٩٣، ٣٢٥).

(٣) «المسند» (٢/ ١٧٠)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٣٤).

* **ومن فضائلها**: أنَّها ليس لها دونَ اللهِ حجابٌ، بل تَخْرِقُ الحُجُبَ حتى تصلَ إلى الله ﷻ، ففي «الترمذي»، بإسنادٍ حسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: (**مَا قَالَ عَبْدٌ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ قَطُّ مُخْلِصًا، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تُفْضِيَ إِلى العَرْشِ، مَا اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ**)(١).

* **ومن فضائلها**: أنَّها نجاةٌ لقائلها مِنَ النارِ؛ ففي «صحيح مسلم»: أنَّ النبيَّ ﷺ سَمِعَ مؤذِّنًا يقول: أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلَّا اللهُ، فقال: (**خَرَجَ مِنَ النَّارِ**)(٢)، وفي «الصحيحين»، من حديث عِتْبَانَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: (**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**)(٣).

* **ومِنْ فضائل هذه الكلمة**: أنَّ النبيَّ ﷺ جعلها أفضلَ شُعَبِ الإيمان؛ ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**)(٤).

* **ومن فضائلها**: أنَّ النبيَّ ﷺ أخبَرَ أنَّها أفضلُ الذِّكْرِ؛ كما في «الترمذي» وغيره، مِنْ حديثِ جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الحَمْدُ للهِ**)(٥).

* **ومِنْ فضائلها**: أنَّ مَنْ قالها خالصًا مِنْ قَلْبِهِ يكونُ أسعدَ الناسِ بشفاعةِ الرسولِ الكريمِ ﷺ يومَ القيامةِ؛ كما في «الصحيح»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنَّه قال: «قيلَ: يا رسولَ الله، مَنْ أَسْعَدُ الناسِ بشفاعتِكَ يومَ القيامةِ؟

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩٠)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٤٨).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٣٨٢).
(٣) «صحيح البخاري» رقم (٦٩٣٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٣، ٢٦٣).
(٤) «صحيح البخاري» رقم (٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٥).
(٥) «جامع الترمذي» رقم (٣٣٨٣)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٠٠)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١١٠٤).

قال رسولُ الله ﷺ: **(لَقَدْ ظَنَنْتُ، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَن لا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ؛ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ)**»[1].

وفي قول النبيِّ ﷺ في هذا الحديث: **(مَنْ قَالَ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ)** دليلٌ على أنَّ لا إلـه إلا اللهُ لا تُقْبَلُ مِنْ قائلها بمجرَّدِ قولِهِ لها بلسانِهِ فقط، بل لا بُدَّ من استيفاءِ شروطها والإتيانِ بقيودِهَا الواردةِ في الكتابِ والسُّنَّة؛ إذْ هي لا تُقبَلُ مِنْ قائلها إلا بذلك، وعن هذا الموضوعِ المهمِّ سيكون الكلامُ القادمُ ـ إن شاء الله ـ والحمدُ لله ربِّ العالمين.

❁ ❁ ❁

(١) «صحيح البخاري» رقم (٩٩).

٣٣

شُرُوطُ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ

لقد تَقدَّمَ معنا ذكرُ شيءٍ من فضائلِ كلمة التوحيد: **لا إلـه إلا اللهُ**، التي هي خيرُ الكلماتِ وأفضلُها وأجلُّها، وذِكْرُ ما يَترتَّبُ عليها مِنْ أجورٍ كريمةٍ، وفضائلَ عظيمةٍ، وثمارٍ نافعةٍ في الدنيا والآخرة، لكنْ يجبُ على المسلمِ أن يعلمَ أنَّ لا إلـه إلا الله، لا تُقْبَلُ مِنْ قائلها بمجرَّدِ نطقِهِ لها باللسان فقط، بل لا بدَّ مِنْ أداءِ حقِّها وفرضها، واستيفاءِ شروطِها الواردةِ في الكتاب والسُّنَّة، وكلُّ مسلم يعلمُ أنَّ كلَّ طاعةٍ يَتقرَّبُ بها إلى اللهِ لا تُقْبَلُ منه إلا إذا أتى بشروطها، فالصلاةُ لا تُقْبَلُ إلا بشروطها المعلومةِ، والحجُّ لا يُقبَلُ إلا بشروطِهِ، وجميعُ العباداتِ كذلك، لا تُقبلُ إلَّا بشروطها المعلومةِ مِنَ الكتابِ والسُّنَّة، وهكذا الشأنُ في: لا إلـه إلا اللهُ، لا تُقْبَلُ إلا إذا قامَ العبدُ بشروطها المعلومةِ في الكتابِ والسُّنَّة.

وقد أشارَ سلفُنا الصالح ـ رحمهم الله ـ إلى أهميَّةِ العنايةِ بشروط: لا إلـه إلا اللهُ، ووجوبِ الالتزام بها، وأنَّها لا تُقبَلُ إلا بذلك، **ومِنْ ذلك ما جاء عن الحَسَن البَصْرِيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ، **أنَّه قيل له**: «إنَّ ناسًا يقولون: من قال: لا إلـه إلا الله، دخل الجَنَّة، **فقال**: مَنْ قال: لا إلـه إلا اللهُ، فأدَّى حقَّها وفرضَها، دخَلَ الجَنَّةَ».

وقال الحسَنُ للفرزدقِ وهو يَدْفِنُ امرأته: «ما أَعْدَدتَّ لهذا اليوم؟ قال: شهادةُ أن لا إلـه إلا اللهُ منذ سبعينَ سنةً، فقال الحسن: نِعْمَ العُدَّة، لكنْ للا إلـه إلا اللهُ شروطٌ، فإيَّاكَ وقَذْفَ المُحْصَناتِ».

وقال وَهْب بن منبِّه لمن سأله: «أليسَ مفتاحُ الجنَّةِ: لا إلـهَ إلا اللهُ؟ قال: بلى، ولكنْ ما مِنْ مفتاحٍ إلا له أسنانٌ، فإنْ أَتَيْتَ بمفتاحٍ له أسنانٌ،

فُتِحَ لك، وإلا لم يُفْتَحْ»؛ يشيرُ بالأسنانِ إلى شروطِ: لا إلـه إلا الله[١].

ثم إنَّه باستقراءِ أهلِ العلمِ لنصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ، تبيَّنَ أنَّ: لا إلـهَ إلَّا اللهُ، لا تُقْبَلُ إلا بسبعةِ شروط؛ وهي:

١ ـ العلمُ بمعناها نفيًا وإثباتًا، المنافي للجهل.

٢ ـ اليقينُ المنافي للشكِّ والريب.

٣ ـ الإخلاصُ المنافي للشركِ والرياء.

٤ ـ الصدقُ المنافي للكذب.

٥ ـ المحبَّةُ المنافيةُ للبُغْضِ والكره.

٦ ـ الانقيادُ المنافي للتَّرْك.

٧ ـ القبول المنافي للرَّدِّ.

وقد جمَعَ بعضُ أهلِ العلمِ هذه الشروطَ السبعةَ في بيتٍ واحدٍ، **فقال**:

عِلْمٌ يَقِينٌ وَإِخْلَاصٌ وَصِدْقُكَ مَعْ ... مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالقَبُولُ لَهَا

ولنقِفْ وقفةً مختصرةً مع هذه الشروطِ لبيانِ المرادِ بكلٍّ واحدٍ منها، مع ذِكْرِ بعضِ أدلَّتها من الكتاب والسُّنَّة[٢]:

• **أما الشرطُ الأول**: وهو العلمُ بمعناها المرادِ منها نفيًا وإثباتًا، المنافي للجهل؛ وذلك بأن يَعْلَمَ مَنْ قالها أنَّها تنفي جميعَ أنواعِ العبادةِ عن كلِّ مَنْ سِوَى الله، وتُثْبِتُ ذلك لله وحده؛ كما في قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ **أي**: نعبدُكَ ولا نعبُدُ غيْرَكَ، ونستعينُ بك ولا نستعينُ بسواك.

قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] **قال المفسِّرون**: إلا مَنْ شَهِدَ بـ: لا إلـه إلا الله، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ **أي**: معنى ما شَهِدُوا به في قلوبهم وألسنتهم.

---

(١) أورد هذه الآثار ابن رجب في «كلمة الإخلاص» (ص١٤).

(٢) **وانظر شرحها موسَّعًا في**: «معارج القبول» للشيخ حافظ حكمي (١/ ٣٧٧ وما بعدها).

وثبَتَ في «صحيح مسلم»، من حديث عُثْمَان بن عَفَّان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ)**[١]، فاشترَطَ عليه الصلاةُ والسلامُ العِلْمَ.

● **وأما الشرط الثاني**: فهو اليقينُ المنافي للشكِّ والريب؛ **أي**: أن يكونَ قائلُهَا موقنًا بها يقينًا جازمًا، لا شكَّ فيه ولا ريب، **واليقينُ هو**: تمامُ العلم وكمالُهُ؛ قال الله تعالى في وصفِ المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾؛ **أي**: أيقنوا ولم يَشُكُّوا.

وثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ)**[٢].

وثبَتَ في «صحيح مسلم»، من حديث أبي هريرة أيضًا، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ)**[٣]؛ فاشترَطَ اليقين.

● **والشرط الثالث**: هو الإخلاصُ المنافي للشِّرْكِ والرياء؛ وذلك إنَّما يكونُ بتصفيةِ العملِ وتنقيتِهِ مِنْ جميعِ الشوائبِ الظاهرةِ والخفيَّة؛ وذلك بإخلاصِ النيَّةِ في جميعِ العباداتِ لله وحده؛ قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وفي «الصحيح»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: **(أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ)**[٤]؛ فاشترَطَ الإخلاص.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٦).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٣١).
(٤) تقدم تخريجه (ص١٥٣).

• **والشرط الرابع**: هو الصدقُ المنافي للكَذِبِ؛ وذلك بأنْ يقولَ العبدُ هذه الكلمةَ صادقًا مِنْ قلبِهِ، **والصدقُ هو**: أن يواطئَ القلبُ اللسانَ؛ ولذا قال الله تعالى في ذمِّ المنافقين: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ فوصفهم سبحانه بالكذب؛ لأنَّ ما قالوه بألسنتهم لم يكنْ موجودًا في قلوبهم، وقال ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت]، وثبتَ في «الصحيحين»، عن معاذ بن جَبَل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **(مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ)**[١]؛ فاشترَطَ الصدقَ.

• **الشرط الخامس**: المحبَّةُ المنافيةُ للبُغْضِ والكُرْهِ؛ وذلك بأن يحبَّ قائلُها اللهَ ورسولَهُ ودينَ الإسلامِ والمسلمين، القائمينَ بأوامرِ اللهِ، الواقفينَ عند حدودِهِ، وأن يُبْغِضَ مَنْ خالَفَ لا إلـه إلا الله، وأتى بما يُناقضُهَا مِنْ شركٍ وكُفْرٍ؛ وممَّا يدلُّ على اشتراطِ المحبَّةِ في الإيمان: قولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي الحديث: **(أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ: الحُبُّ فِي اللهِ، وَالبُغْضُ فِي اللهِ)**[٢].

• **الشرط السادس**: القَبُولُ المنافي للرَّدِّ؛ فلا بُدَّ مِنْ قَبُولِ هذه الكلمةِ قبولًا حقًّا بالقلبِ واللسان، وقد قَصَّ اللهُ علينا في القرآنِ الكريمِ أنباءَ مَنْ سبَقَ ممَّن أنجاهم لقبولهم لا إلـهَ إلَّا اللهُ، وانتقامَهُ وإهلاكَهُ لمن رَدَّها ولم يَقْبَلْها؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وقال سبحانه في شأنِ المشركين:

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٢٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٢).
(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/٢٨٦)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٧٢٨).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات].

• **الشرط السابع**: الانقيادُ المنافي للتَّرْكِ؛ إذْ لا بدَّ لقائل: لا إلـه إلا الله، أنْ ينقادَ لشرعِ الله، ويُذْعِنَ لحكمِهِ ويُسْلِمَ وجهَهُ إلى الله؛ إذ بذلك يكون متمسِّكًا بـ: **لا إلـه إلا الله**؛ ولذا يقول تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]؛ **أي**: فقد استمسك بـ: **لا إلـه إلا الله**؛ فاشترَطَ سبحانَهُ الانقيادَ لشرعِ الله، وذلك بإسلامِ الوجهِ له سبحانه.

فهذه هي شروطُ: لا إلـهَ إلا اللهُ، وليس المرادُ منها عَدَّ ألفاظِهَا وحِفْظَها فقطْ؛ فكم مِنْ عاميٍّ اجتمَعَتْ فيه والتزَمَهَا، ولو قيل له: اعْدُدْهَا، لم يُحْسِنْ ذلك! وكم مِنْ حافظٍ لألفاظها يجري فيها كالسَّهْم، وتراه يقعُ كثيرًا فيما يناقضها! فالمطلوبُ إذًا العلمُ والعملُ معًا؛ ليكونَ المرءُ بذلك مِنْ أهل: لا إلـه إلا اللهُ صدقًا، ومِنْ أهلِ كلمةِ التوحيدِ حَقًّا، والموفِّقُ لذلك والمُعِينُ هو اللهُ وحده، فنسألُهُ سبحانَهُ أن يوفِّقنا لتحقيقِ ذلك، والحمدُ لله وحده.

❁ ❁ ❁

٣٤

مَدْلُولُ وَمَعْنَىٰ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ: لَا إِلَٰـهَ إِلَّا اللَّهُ

إنَّ كلمةَ التوحيدِ: **لا إلَهَ إلا اللهُ**، التي هي خيرُ الذِّكْرِ وأفضلُهُ وأكملُهُ، لا تكونُ مقبولةً عندَ اللهِ بمجرَّدِ التلفُّظِ بها باللسانِ فقطْ، دونَ قيامٍ مِنَ العبدِ بحقيقةِ مدلولها، وتطبيقٍ لأساسِ مقصودها مِنْ نفيِ الشركِ وإثباتِ الوحدانيَّةِ لله، مَعَ الاعتقادِ الجازمِ لِمَا تضمَّنَتْهُ مِنْ ذلكَ والعملِ به؛ فبذلك يكونُ العبدُ مسلمًا حقًّا؛ وبذلك يكون مِنْ أهل: **لا إلـه إلا الله**.

وقد تَضمَّنَتْ هذه الكلمةُ العظيمةُ أنَّ ما سوى الله ليس بإلـه، وأنَّ إلـٰهية ما سواه أبطَلُ الباطلِ، وإثباتَها أَظْلَمُ الظُّلْم، ومنتهى الضلال؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، والظلمُ هو وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعه، ولا ريبَ أنَّ صَرْفَ العبادةِ لغيرِ اللهِ ظلمٌ؛ لأنَّه وَضْعٌ لها في غيرِ موضعها، بل إنَّه أظلَمُ الظلمِ وأخطرُهُ.

إنَّ لِـ: **لا إلـه إلا الله** ـ هذه الكلمةِ العظيمةِ ـ مدلولًا لا بُدَّ مِنْ فهمه، ومعنًى لا بُدَّ مِنْ ضبطه؛ إذْ غيرُ نافعٍ بإجماعِ أهلِ العلم النطقُ بهذه الكلمةِ من غيرِ فهم لمعناها، ولا عَمَلٍ بما تقتضيه؛ كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، ومعنى الآيةِ كما قال أهل التفسير: **أي**: إلا مَنْ شَهِدَ بلا إلـه إلا الله،

وهم يعلمون بقلوبِهِمْ معنى ما نَطَقُوا به بألسنتهم؛ إذْ إنَّ الشهادةَ تقتضي العلمَ بالمشهودِ به، فلو كانتْ عن جهلٍ لم تكنْ شهادةً، وتقتضي الصدقَ، وتقتضي العملَ بذلك، وبهذا يَتبيَّنُ أنَّه لا بدَّ في هذه الكلمةِ مِنَ العلم بها مَعَ العملِ والصدق، فبالعلمِ ينجو العبدُ مِنْ طريقةِ النصارى الذين يَعْمَلُونَ بلا علمٍ، وبالعملِ ينجو مِنْ طريقِ اليهودِ الذين يعلمونَ ولا يَعْمَلُون، وبالصدقِ ينجو مِنْ طريقةِ المنافقين الذين يُظْهِرُونَ ما لا يُبْطِنُونَ، ويكونُ بذلك مِنْ أهلِ صراطِ اللهِ المستقيم، مِنَ الذينَ أنعَمَ اللهُ عليهم، غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالِّين.

والحاصلُ أنَّ: لا إلـه إلا الله لا تَنْفَعُ إلا مَنْ عرَفَ مدلولَهَا نفيًا وإثباتًا، واعتقَدَ ذلك وعَمِلَ به، أمَّا مَنْ قالها وعَمِلَ بها ظاهرًا مِنْ غيرِ اعتقاد، فهو المنافقُ، وأمَّا مَنْ قالها وعَمِلَ بضدِّها وخلافها مِنَ الشِّرْكِ فهو الكافر، وكذلك مَنْ قالها وارتَدَّ عن الإسلامِ بإنكارِ شيءٍ مِنْ لوازمها وحقوقها، فإنَّها لا تنفعُهُ، ولو قالها أَلْفَ مرَّة، وكذلكَ مَنْ قالها وهو يصرفُ أنواعًا مِنَ العبادةِ لغيرِ الله؛ كالدعاءِ، والذَّبْحِ، والنذرِ، والاستغاثةِ، والتوكُّل، والإنابة، والرجاء، والخوف والمحبَّة، ونحو ذلك، فمَنْ صرَفَ شيئًا مما لا يصلُحُ إلا للهِ مِنَ العباداتِ لغيرِ الله، فهو مشركٌ بالله العظيم، ولو نطَقَ بلا إلـه إلا الله؛ إذ لم يعملْ بما تقتضيه مِنَ التوحيدِ والإخلاصِ الذي هو معنى ومدلولُ هذه الكلمةِ العظيمة(١).

فإنَّ لا إلـه إلا الله معناها: لا معبودَ حَقٌّ إلا إلـهٌ واحدٌ، وهو اللهُ وحده لا شريكَ له، **والإلـهُ في اللغة**: هو المعبودُ، ولا إلـهَ إلا الله؛ **أي**: لا معبودَ حقٌّ إلا الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]؛ فتَبيَّنَ بذلك أنَّ معنى الإلـهِ هو المعبودُ، **وأنَّ لا إلـه إلا الله، معناها**: إخلاصُ العبادةِ لله وحده، واجتنابُ عبادةِ الطاغوت؛ ولهذا لَمَّا قال النبيُّ ﷺ لكفَّار قريش:

---

(١) **انظر**: «تيسير العزيز الحميد» رقم (٧٨).

قولوا: لا إلٰه إلا الله، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال قومُ هُودٍ لنبيِّهم لَمَّا قال لهم: قولوا: لا إلٰـه إلا الله، قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، قالوا ذلك وهو إنَّما دعاهم إلى لا إلٰه إلا اللهُ؛ لأنَّهم فَهِمُوا أنَّ المرادَ بها نفيُ الألوهيَّةِ عن كلِّ مَنْ سوى اللهِ، وإثباتُها لله وحدَهُ لا شريكَ له، فـ: لا إلٰـه إلا الله اشتَمَلَتْ على نفيٍ وإثباتٍ؛ فنفَتِ الإلٰـهيةَ عن كلِّ ما سوى الله تعالى، فكلُّ ما سوى الله من الملائكةِ والأنبياءِ ـ فضلًا عن غيرهم ـ فليس بإلٰـه، وليسَ له مِنَ العبادةِ شيءٌ، وأثبتتِ الإلٰـهيةَ لله وحده، بمعنى أنَّ العبدَ لا يَأْلَهُ غيرَه؛ أي: لا يقصدُهُ بشيءٍ مِنَ التألُّهِ، وهو تَعلُّقُ القلبِ الذي يوجبُ قصدَهُ بشيءٍ من أنواعِ العبادة؛ كالدعاءِ والذبحِ والنذرِ، وغير ذلك.

وقد جاء في القرآنِ الكريم نصوصٌ كثيرةٌ تُبيِّنُ معنى كلمةِ التوحيد: لا إلٰـهَ إلا اللهُ، وتُوضِّحُ المرادَ بها؛ ومِنْ ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف]، وقال تعالى حكايةً عن مؤمنِ يس: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر]، وقال تعالى حكايةً عن مؤمنِ آل فِرْعَوْنَ: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا، وهي تُبيِّنُ أنَّ معنى: لا إلٰـهَ إلا اللهُ:

هو البراءةُ مِنْ عبادةِ ما سوى الله مِنَ الشُّفَعاءِ والأنداد، وإفرادُ اللهِ وحدَهُ بالعبادة، فهذا هو الهدى ودينُ الحَقِّ الذي أرسَلَ اللهُ به رسلَهُ، وأنزَلَ به كتبَهُ، أمَّا قولُ الإنسان: لا إلـٰه إلا الله، مِن غيرِ معرفةٍ لمعناها، ولا عَمَلٍ بمقتضاها، بل لربَّما جعَلَ لغيرِ اللهِ حظًّا ونصيبًا مِن عبادتِهِ مِنَ الدعاءِ والخوفِ والذبحِ والنذر، وغير ذلك من أنواعِ العبادات؛ فإنَّ هذا لا يكفي العبدَ لأنْ يكونَ مِنْ أهلِ: لا إلـٰه إلا الله، ولا ينجيه يومَ القيامةِ مِنْ عذابِ الله[1].

فليستْ: لا إلـٰه إلا الله اسمًا لا مَعْنَى له، أو قولًا لا حقيقةَ له، أو لفظًا لا مضمونَ له، كما قد يَظُنُّهُ بعضُ الظانِّين، الذين يعتقدون أنَّ غايةَ التحقيقِ في ذلك هو النطقُ بهذه الكلمة مِنْ غيرِ اعتقادٍ في القلبِ بشيءٍ مِنَ المعاني، أو التلفُّظُ بها مِنْ غيرِ إقامةٍ لشيء مِنَ الأصولِ والمباني، وهذا قطعًا ليس هو شأنَ هذه الكلمة العظيمة، بل هي اسمٌ لمعنًى عظيم، وقولٌ له معنًى جليل، هو أجلُّ مِنْ جميعِ المعاني، وحاصلُهُ كما تَقَدَّمَ: البراءةُ مِنْ عبادةِ كلِّ ما سوى الله، والإقبالُ على الله وحده خضوعًا وتذلُّلًا، وطمعًا ورَغَبًا، وإنابةً وتوكُّلًا، ودعاءً وطلبًا، فصاحبُ: لا إلـٰه إلا الله لا يَسْأَلُ إلا اللهَ، ولا يستغيثُ إلا بالله، ولا يتوكَّلُ إلا على الله، ولا يرجو غيرَ الله، ولا يَذْبَحُ إلا لله، ولا يصرفُ شيئًا مِنَ العبادةِ لغيرِ الله، ويَكْفُرُ بجميعِ ما يُعْبَدُ مِنْ دون الله، ويبرأُ إلى الله مِنْ ذلك.

فيا لها مِنْ مسألةٍ ما أجلَّها! ويا له مِنْ أمرٍ ما أبيَنَهُ وأوضَحَهُ! ولكنَّ التوفيقَ بيدِ اللهِ وحده، وهو وحدَهُ المستعان.

❀ ❀ ❀

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص١٤٠).

٣٥

نَوَاقِضُ شَهَادَةِ: أَنْ لَا إِلٰـهَ إِلَّا اللَّهُ

لقد مرَّ معنا شروطُ كلمةِ التوحيد: **لا إلـه إلا الله**، التي لا بدَّ من توفُّرها في العبدِ لتكونَ مقبولةً منه عند الله، وهي شروطٌ عظيمةُ الشأن، جليلةُ القَدْر، يجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يُعنى بها عنايةً كبيرةً، ويهتمَّ بها اهتمامًا بالغًا، وإنَّ مما ينبغي أن يهتمَّ به المسلمُ في هذا البابِ العظيمِ معرفةَ نواقضِ هذه الكلمة؛ ليكونَ منها في حَذَر؛ فإنَّ اللهَ تبارك وتعالى قد بيَّن في كتابه سبيلَ المؤمنين المُحَقِّقين لهذه الكلمةِ مفصَّلةً، وبيَّن سبيلَ المجرمين المخالفين لها مفصَّلةً، وبيَّن سبحانَهُ عاقبةَ هؤلاءِ وعاقبةَ هؤلاء، وأعمالَ هؤلاءِ وأعمالَ هؤلاء، والأسبابَ التي وفَّق بها هؤلاءِ والأسبابَ التي خذَلَ بها هؤلاء، وَجَلَّى سبحانه الأمرَيْنِ في كتابه، وكَشَفَهما وأَوْضَحهما، وبَيَّنَهما غايةَ البيانِ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ومَنْ لم يعرفْ سبيلَ المُجْرِمين، ولم تَسْتَبِنْ له طريقُهم، أوشَكَ أن يقعَ في بعض ما هُمْ فيه مِنَ الباطل؛ **ولذا قال أميرُ المؤمنين عُمَرُ بنُ الخطَّاب** رضي الله عنه: «إنَّما تُنْقَضُ عُرَى الإسلامِ عُرْوةً عروةً؛ إذا نشَأَ في الإسلامِ مَنْ لم يعرفِ الجاهليَّةَ»[١].

ولهذا جاءتِ النصوصُ الكثيرةُ في الكتابِ والسُّنَّةِ المحذِّرةُ من أسباب الرِّدةِ وسائرِ أنواعِ الشركِ والكفرِ المناقضةِ لكلمةِ التوحيد: لا إلـه إلا الله، وقد ذكَرَ العلماءُ رحمهم الله في بابِ حكمِ المرتدِّ مِنْ كتب الفقه: أنَّ المسلمَ قد يرتدُّ عن دينِهِ بأنواعٍ كثيرةٍ من النواقضِ؛ إذا وقَعَ فيها، أو في أيِّ شيء منها،

---

(١) **انظر**: «الفوائد» لابن القيم (ص٢٠١ وما بعدها).

ارتَدَّ عن الدِّينِ وانتقَلَ من المِلَّة، ولم ينفعْهُ مجرَّدُ التلفُّظِ بـ: لا إلـٰه إلا الله؛ إذْ إنَّ هذه الكلمةَ العظيمةَ التي هي خيرُ الذِّكْرِ وأفضلُهُ، لا تكونُ نافعةً لقائلها إلا إذا أتى بشروطها، واجتنَبَ كلَّ أمرٍ يُناقضها.

وما مِنْ ريبٍ أنَّ في معرفةِ المسلم لهذه النواقضِ فائدةً عظيمةً في الدين، إذا عَرَفَهَا معرفةً يقصدُ مِنْ ورائها السلامةَ مِنْ هذه الشرور، والنجاةَ من تلكَ الآفات؛ ولهذا فإنَّ مَنْ عَرَفَ الشركَ والكفرَ والباطلَ وطُرُقَهُ، وأبغضَهَا، وحَذِرَهَا وحذَّر منها، ودفَعَهَا عن نفسه، ولم يَدَعْهَا تَخْدِشُ إيمانه، بل يزدادُ بمعرفتها بصيرةً في الحقِّ ومحبةً له، وكراهةً لتلك الأمور، ونفرةً عنها، كان له في معرفتِهِ هذه مِنَ الفوائدِ والمنافع ما لا يعلمُهُ إلا اللهُ، والله سبحانه يُحِبُّ أنْ تُعْرَفَ سبيلُ الحقِّ لتُحَبَّ وتُسْلَكَ، ويحبُّ أن تُعْرَفَ سبيلُ الباطل لتُجتنَبَ وتُبْغَضَ؛ إذْ إنَّ المسلمَ كما أنَّه مطالَبٌ بمعرفةِ سبيلِ الخيرِ ليطبِّقها، فهو كذلك مطالَبٌ بمعرفةِ سُبُلِ الشرِّ ليحذرها؛ ولهذا ثبَتَ في «الصحيحين» **عن حُذَيْفَةَ بن اليَمَان** رضي الله عنهما، **أنَّه قال:** «كان الصحابةُ يسألونَ رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسألُهُ عن الشرِّ مخافةَ أن يُدْرِكَني»(١)؛ **ولهذا أيضًا قيل:**

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرْ ... رِ لٰكِنْ لِتَوَقِّيهِ
وَمَنْ لَا يَعْرِفِ الشَّرَّ ... مِنَ النَّاسِ يَقَعْ فِيهِ

وإذا كان الأمرُ بهذه الحال، وعلى هذا القدرِ من الأهمية، فإنَّ الواجبَ على كلِّ مسلم أن يعرفَ الأمورَ التي تناقضُ كلمةَ التوحيد: لا إلـٰه إلا الله؛ ليكونَ منها على حَذَر، وهي ـ كما تَقَدَّمَ ـ تنتقضُ بأمورٍ كثيرةٍ، إلا أنَّ أشدَّ هذه النواقضِ خطرًا وأكثرَها وقوعًا عَشَرةُ نواقضَ ذَكَرَهَا غيرُ واحدٍ مِنْ أهلِ العلم رحمهم الله(٢)، **وفيما يلي ذِكْرٌ لهذه النواقضِ على سبيل الإيجازِ؛ لِيَحْذَرَهَا المسلمُ، وليحذِّرَ منها غيرَهُ مِنَ المسلمين، رجاءَ السلامةِ والعافيةِ منها:**

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٦٠٦)، و«صحيح مسلم» رقم (١٨٤٧).
(٢) **انظر:** «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٢٣٢ وما بعدها).

أمـا الأول: فهـو الشـركُ فـي عبـادةِ الله؛ قـال الله تعالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، ومِنْ ذلك: دعاءُ الأموات، والاستغاثةُ بهم، والنذرُ والذبحُ لهم، ونحوُ ذلك.

الـثـانـي: مَنْ جعَلَ بينه وبين اللهِ وسائطَ يدعوهم، ويسألُهُمُ الشفاعةَ، ويتوكّلُ عليهم، فقد كفَرَ إجماعًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

الـثـالـث: مَنْ لم يُكفِّرِ المشركين، أو شَكَّ في كُفْرِهم، أو صَحَّحَ مذهبَهم، كَفَر.

الـرابـع: مَنِ اعتقَدَ أنَّ هَدْيَ غيرِ النبيِّ ﷺ أكملُ مِنْ هديه، أو أنَّ حُكْمَ غيرِهِ أحسنُ مِنْ حُكْمِه، فهو كافرٌ؛ كالذين يفضِّلون حُكْمَ الطاغوتِ على حكمه ﷺ.

الخـامس: مَنْ أبغَضَ شيئًا مما جاء به الرسولُ ﷺ ولو عَمِلَ به، فقد كفَرَ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

السـادس: مَنِ استهزَأَ بشيء مِنْ دِينِ الرسولِ ﷺ أو ثوابِهِ أو عقابِه، كـفَـرَ؛ والـدليـلُ قولـه تـعـالـى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [التوبة].

السـابـع: السِّحْرُ، ومنه الصَّرْفُ والعَطْفُ؛ فمَنْ فعَلَهُ أو رضي به، كفَرَ؛ والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الـثـامـن: مظاهرةُ المشركينَ ومعاوَنَتُهُمْ على المسلمين؛ والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

التاسع: مَنِ اعتقَدَ أنَّ بعضَ الناسِ يَسَعُهُ الخروجُ عن شريعة محمَّد ﷺ، فهو كافرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

العاشر: الإعراضُ عن دِينِ الله لا يَتعلَّمُهُ ولا يعملُ به؛ والدليلُ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

فهذه عَشَرةُ أمورٍ مِنْ نواقضِ كلمة التوحيد: لا إلـٰه إلا اللهُ، فمَنْ وقَعَ في شيءٍ منها ـ والعياذُ بالله ـ انتقَضَ توحيدُهُ، وانهدَمَ إيمانُهُ، ولم ينتفعْ بقوله: لا إلـٰه إلا الله. وقد نَصَّ أهلُ العلم على أنه لا فَرْقَ في جميعِ هذه النواقضِ بين الهازِلِ والجادِّ والخائفِ، إلا المُكْرَهَ، وجميعُ هذه النواقضِ هي مِنْ أعظمِ ما يكونُ خطرًا، وأكثَرِ ما يكونُ وقوعًا؛ فينبغي للمسلم أن يَحْذَرَها ويخافَ منها على نفسه؛ نعوذُ بالله مِنْ مُوجِبَاتِ غَضَبِهِ وأليمِ عقابه، ونسأله سبحانه أن يُوفِّقنا جميعًا لِمَا يرضيه، وأن يهديَنا وجميعَ المسلمين صراطَهُ المستقيم؛ إنَّه سميعٌ مجيبٌ قريب.

* * *

٣٦

بَيَانُ فَسَادِ الذِّكْرِ بِالاسْمِ الْمُفْرَدِ مُظْهَرًا أَوْ مُضْمَرًا

كان الحديثُ ـ فيما مضى ـ في بيانِ فضلِ كلمةِ التوحيد: **لا إله إلا الله**، وأنَّها خيرُ ما ذَكَرَ به الذاكرون ربَّهم، وأفضلُ ما لَهَجَتْ به ألسنتُهم، وهي كلمةٌ يسيرٌ لفظُها، عظيمٌ معناها، وحاجةُ العبادِ إليها هي أعظمُ الحاجات، وضرورتُهم إليها هي أعظمُ الضَّرُورَات، بل إنَّ حاجَتَهُمْ وضرورتَهُمْ إليها أعظمُ مِنْ حاجتهم وضرورتِهم إلى طعامِهِمْ وشرابِهِمْ ولباسِهِمْ وسائرِ شؤونهم. ولَمَّا كان بالناسِ ـ بل بالعالَم كلِّه ـ مِنَ الضرورةِ إلى: لا إلـٰه إلا الله، ما لا نهايةَ له ولا حَدَّ، كانتْ مِنْ أكثرِ الأذكارِ وجودًا، وأيسرها حصولًا، وأعظمِها معنى، وأجلِّها مكانةً. ومَعَ هذا كلِّه، فإنَّ بعضَ العوامِّ والجُهَّالِ يَعْدِلون عنها، وينصرفون إلى دعواتٍ مبتدعةٍ، وأذكارٍ مخترعةٍ ليستْ في الكتابِ ولا في السُّنَّة، وليستْ مأثورةً عن أحدٍ مِنْ سلف الأمة[1].

ومِنْ ذلك: ما يفعلُهُ بعضُ الطُّرُقيَّةِ مِنْ أهل التصوُّفِ في أذكارِهم، حيثُ يَذْكُرُونَ الاسمَ المفرَدَ مُظْهَرًا فقط، فيقولون: (الله، الله)، يكرِّرون لفظَ الجلالة، وربَّما أتى بعضُهم بدَلَ ذلك بالاسمِ المضمرِ: (هُو) مكرَّرًا، وقد يغلو بعضُهم في ذلك، فيجعلُ ذكرَ كلمةِ التوحيد: لا إلـٰه إلا اللهُ للعامَّة، وذِكْرَ الاسمِ المفرَدِ للخاصَّة، وذكرَ الاسمِ المضمرِ لخاصَّةِ الخاصَّة، وربَّما قال بعضُهم: (لا إلـٰه إلا الله) للمؤمنين، و(اللهُ) للعارفين، و(هو) للمحقِّقين، فيفضِّلون بذلك ذكرَ الاسمِ المفردِ مظهرًا، أو ذكرَهُ مضمَرًا على كلمةِ التوحيدِ لا إلـٰه إلا الله التي وصفَهَا رسولُ الله ﷺ بأنَّها أفضلُ الذِّكْر، وأنَّها أفضلُ ما قاله عليه الصلاة والسلام هو والنبيُّونَ مِنْ قبله.

---

(١) **انظر**: «فتح المجيد» للشيخ عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ (ص٤٥).

وقد سبَقَ أنْ مرَّ معنا بعضُ الأحاديثِ الدالَّةِ على ذلك، هذا مع أنَّ ذِكْرَ الاسمِ المفردِ مُظْهَرًا أو ذِكْرَهُ مضمَرًا ليس بمشروعٍ في الكتابِ ولا في السُّنَّةِ، ولا هو مأثورٌ عن أحدٍ مِنْ سلفِ الأُمَّة، وإنَّما لَهَجَ به قومٌ مِن ضُلَّالِ المتأخِّرين بلا حجةٍ ولا برهان.

وقد فنَّد شيخُ الإسلامِ ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ **دعاوى هؤلاءِ في ذكرهم المُحْدَثِ هذا، وبَيَّن فسادَ ما قد يتشبَّثون به لنصرتِهِ وتقريرِهِ، فقال** رَحِمَهُ اللهُ: «وربَّما ذكَرَ بعضُ المصنِّفين في الطريقِ تعظيمَ ذلك، واستدَلَّ عليه تارةً بِوَجْدٍ، وتارةً برأيٍ، وتارةً بنقلٍ مكذوبٍ؛ كما يروي بعضُهم أنَّ النبيَّ ﷺ لقَّنَ عليَّ بن أبي طالب أن يقول: «الله، الله، الله، فقالها النبيُّ ﷺ ثلاثًا، ثم أمَرَ عليًّا، فقالها ثلاثًا»، وهذا حديثٌ موضوعٌ باتفاقِ أهلِ العلم بالحديث، وإنَّما كان تلقينُ النبيِّ ﷺ للذِّكْرِ المأثورِ عنه، ورأسُ الذِّكْر: لا إلـٰه إلا اللهُ، وهي الكلمةُ التي عرضها على عمِّه أبي طالب حين المَوْت، وقال: **(يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ)**[(١)]، وقال: **(إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ المَوْتِ، إِلَّا وَجَدَ رُوحُهُ لَهَا رَوْحًا)**[(٢)]، وقال: **(مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ)**[(٣)]، وقال: **(أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ)**[(٤)]، والأحاديثُ كثيرةٌ في هذا المعنى».

ثم قال: «فأمَّا ذكرُ الاسمِ المُفْردِ، فلم يُشْرَعْ بحالٍ، وليس في الأدلَّةِ الشرعية ما يَدُلُّ على استحبابه، وأمَّا ما يَتوهَّمُهُ طائفةٌ مِنْ غالطي المتعبِّدين

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٨٨٤)، ومسلم رقم (٢٤)، من حديث المسيب رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١/٢٨) واللفظ له، وابن ماجه رقم (٣٧٩٥) من حديث طلحة رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/٢٤٧)، وأبو داود رقم (٣١١٦) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «إرواء الغليل» رقم (٦٨٧).

(٤) رواه البخاري رقم (٢٥)، ومسلم رقم (٢٢).

في قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]، ويَتوهَّمونَ أنَّ المرادَ قولُ هذا الاسم، فخطأٌ واضحٌ، ولو تدبَّروا ما قبل هذا تبيَّن مرادُ الآية؛ فإنَّه سبحانه قال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: ٩١]؛ **أي**: قُلِ: اللهُ أَنْزَلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسى، فهذا كلامٌ تامٌّ، وجملةٌ اسميَّةٌ مركَّبةٌ مِن مبتدإٍ وخبر، حُذِفَ الخبرُ منها لِدَلَالةِ السؤالِ على الجواب، وهذا قياسٌ مُطَّرِدٌ في مثلِ هذا في كلامِ العرب...».

وذكَرَ أمثلةً على ذلك، **إلى أن قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ظهَرَ بالأدلَّةِ الشرعيةِ أنَّه غيرُ مستحبٍّ ـ **أي**: الذكرُ بالاسم المفرَدِ مِنْ غيرِ كلامٍ تامٍّ ـ وكذلك بالأدلَّةِ العقليَّةِ الذوقيَّة؛ فإنَّ الاسمَ وحدَهُ لا يُعْطِي إيمانًا ولا كفرًا، ولا هُدًى ولا ضلالًا، ولا علمًا ولا جهلًا...».

إلى أن قال: «ولهذا اتفقَ أهلُ العلم بلغةِ العربِ وسائرِ اللغات على أنَّ الاسمَ وحدَهُ لا يَحْسُنُ السكوتُ عليه، ولا هو جملةٌ تامَّةٌ، ولا كلامًا مفيدًا؛ ولهذا سمعَ بعضُ العرب مؤذِّنًا يقول: أشهدُ أنَّ محمدًا رسولَ الله، قال: فعَلَ ماذا؟ فإنَّه لَمَّا نصَبَ الاسمَ، صارَ صفةً، والصفةُ مِنْ تمامِ الموصوفِ، فطَلَبَ ـ بصحةِ طَبْعِهِ ـ الخبرَ المفيد، ولكنَّ المؤذِّنَ قصَدَ الخبَرَ ولَحَن، ولو كَرَّرَ الإنسانُ اسمَ اللهِ ألفَ ألفِ مَرَّةٍ، لم يَصِرْ بذلك مؤمنًا، ولم يستحقَّ ثوابَ اللهِ ولا جَنَّتَهُ؛ فإنَّ الكفارَ مِنْ جميعِ الأديانِ يَذْكُرونَ الاسمَ مفردًا، سواءٌ أقرُّوا به وبوحدانِيَّتِهِ أم لا، حتى إنَّه لَمَّا أُمِرْنَا بذِكْرِ اسمِهِ كقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ﴾ [المائدة: ٤]، وقولِهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقولِه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقولِهِ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، ونحو ذلك، كان ذكرُ اسمِهِ بكلامٍ تامٍّ؛ مثلُ أن يقولَ: باسم الله، أو يقولَ: سبحانَ ربي الأعلى، وسبحانَ ربي العظيم، ونحو ذلك، ولم يُشْرَعْ ذكرُ الاسمِ المجرَّدِ قطُّ، ولا يحصلُ بذلك امتثالُ أمرٍ، ولا حِلُّ صَيْدٍ، ولا ذبيحةٍ، ولا غيرِ ذلك».

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فثبَتَ بما ذكرناه أنَّ ذِكْرَ الاسمِ المجرَّدِ ليس مستحبًّا، فضلًا عن أن يكونَ هو ذِكْرَ الخاصَّة، وأبعدُ مِنْ ذلك ذكرُ الاسمِ المضمَر، وهو: (هو)؛ فإنَّ هذا بنفسِهِ لا يدلُّ على معيَّن، وإنَّما هو بِحَسَبِ ما يُفسِّرُهُ من مذكورٍ أو معلومٍ، فيبقى معناه بِحَسَبِ قَصْدِ المتكلِّمِ ونيَّته»(١).

وقال في موضع آخر: «والذِّكْرُ بالاسمِ المضمرِ المفرَدِ أبعدُ مِنَ السُّنَّة، وأدخَلُ في البِدْعة، وأقربُ إلى إضلالِ الشيطان...».

إلى أن قال: «**والمقصودُ هنا**: أنَّ المشروعَ في ذكرِ اللهِ سبحانه هو ذِكْرُهُ بجملةٍ تامَّةٍ، وهو المسمَّى بالكلام، والواحدُ منه بالكلمة، وهو الذي ينفعُ القلوبَ، ويَحْصُلُ به الثوابُ والأجر، والقُرْبُ إلى اللهِ ومعرفتُهُ ومحبَّتُهُ وخشيتُهُ، وغيرُ ذلكَ مِنَ المطالب العالية، والمقاصدِ السامية، وأما الاقتصارُ على الاسمِ المفردِ مُظْهَرًا أو مُضْمَرًا، فلا أصلَ له، فضلًا عن أن يكونَ مِنْ ذكرِ الخاصَّةِ والعارفين، بل هو وسيلةٌ إلى أنواعٍ مِنَ البدعِ والضلالات، وذريعةٌ إلى تَصوُّراتٍ فاسدةٍ مِنْ أحوالِ أهلِ الإلحادِ وأهلِ الاتحاد... وجِماعُ الدِّينِ أصلان: أن لا نَعْبُدَ إلَّا اللهَ، ولا نَعْبُدَهُ إلَّا بما شرعَ، لا نَعْبُدْهُ بالبِدَع»(٢). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ، وفيه مِنَ التحقيقِ والبيانِ ما لا يَدَعُ مجالًا للتَّردُّدِ في الأمر، والحقُّ أبلج.

إنَّ تَكالُبَ هؤلاءِ على هذه الأذكارِ المُحْدَثة، التي لا أَصْلَ لها في دينِ الله، ولا أساسَ لها مِنْ شَرْعه، وتركهم في مقابلِ ذلك السُّنَنَ الصحيحة، والأذكارَ الشرعيَّة، لَيُثِيرُ في المسلم تساؤلاتٍ وتساؤلاتٍ: ما الذي حَمَل هؤلاءِ على الانصرافِ عن هدي النبيِّ ﷺ، والرغبةِ عن سُنَّته، إلى أمورٍ ما أنزَلَ اللهُ بها مِنْ سلطان، وأذكارٍ ليس عليها في الشرعِ أيُّ دليلٍ ولا برهان، ثُمَّ مع هذا يُعظِّمونها غايةَ التعظيم، ويفخِّمون شأنها، ويُقَلِّلُونَ مِنْ شأن الأدعيةِ النبويَّة،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٥٦ ـ ٥٦٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٣٤ ـ ٢٢٧).

والأذكارِ الشرعيَّة التي كان يقولُهَا سَيِّدُ الخلقِ أجمعين، وخيرُ الأنبياءِ والمرسلين، وإمامُ وقُدْوَةُ المخبتينَ الذاكرين؟! صلواتُ اللهِ وسلامُهُ وبركاتُهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين.

❁ ❁ ❁

٣٧

فَضْلُ التَّسْبِيحِ

لقد كان الحديثُ ـ فيما سبَقَ ـ عن كلمة التوحيدِ: لا إلـٰه إلا الله؛ فَضْلِها ومعناها وشروطها، وأمورٍ أخرى مهمَّةٍ متعلِّقةٍ بها، وفيما يلي ننتقلُ إلى الحديثِ عن كلمة: (**سُبْحَانَ اللهِ**)؛ فهي إحدى الكلماتِ الأربعِ التي وصَفَهَا رسولُ الله ﷺ بأنَّها خيرُ الكلامِ وأحبُّهُ إلى الله؛ وذلكَ في قولِه ﷺ: (**أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، والحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلـٰهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ**)[١]، وقد مَرَّ معنا جملةٌ طَيِّبةٌ مِنْ أحاديثِ النبيِّ ﷺ في تفضيلِ هؤلاءِ الكلمات، وبيانِ ما لهنَّ مِنْ منزلةٍ عاليةٍ، ومكانةٍ رفيعةٍ.

وكلمةُ: سُبْحَانَ اللهِ ـ التي هي إحدى هؤلاءِ الكلمات ـ لها شأنٌ عظيم؛ فهي مِنْ أجلِّ الأذكارِ المقرِّبةِ إلى الله، ومِنْ أفضلِ العباداتِ الموصِّلةِ إليه، وقد جاء في بيانِ فَضْلِها وشرفها وعِظَمِ قَدْرِها نصوصٌ كثيرةٌ في الكتاب والسُّنَّة، بل إنَّ ما ورَدَ في ذلك لا يُمْكِنُ حصرُهُ لكثرتِهِ وتعدُّده، وقد ورَدَ ذكرُ التسبيحِ في القرآنِ الكريمِ أكثرَ من ثمانينَ مَرَّةً، بِصِيَغٍ مختلفة، وأساليبَ متنوِّعة؛ فورَدَ تارةً بلفظ الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب]، وتارةً بلفظِ الماضي؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]، وتارةً بلفظ المضارع؛ كما في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١]، وتارةً بلفظِ المصدر؛ كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٨٧).

وقد ذكَرَ اللهُ ﷻ التسبيحَ في مُفتَتَحِ ثمانِ سُوَرٍ من القرآن الكريم؛ فقال تعالى في أول سورةِ النَّحْل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وقال تعالى في أول سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقال تعالى في أوَّل سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقال تعالى في أوَّل سورة الحَشْر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقال تعالى في أول سورة الصَّفِّ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقال تعالى في أول سورة الجُمُعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وقال تعالى في أول سورة التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال تعالى في أوَّل سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾.

قال بعضُ أهل العلم[1]: «والتسبيحُ ورَدَ في القرآن على نحوٍ مِن ثلاثين وجهًا، ستةٌ منها للملائكة، وتسعةٌ لنبيِّنا محمَّد ﷺ، وأربعةٌ لغيرِهِ من الأنبياء، وثلاثةٌ للحيواناتِ والجمادات، وثلاثةٌ للمؤمنينَ خاصَّة، وستةٌ لجميع الموجودات».

* **أما التي للملائكة**؛ فمنها: قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، الآية [غافر: ٧] وقولُهُ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ [فصلت: ٣٨]، وقولُهُ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء]، وقولُهُ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات].

* **وأما التي لنبيِّنا ﷺ**؛ فمنها: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ

---

(١) **انظر**: «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي (٢/ ٢٨٥ وما بعدها).

ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر]، وقولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣].

* **وأما التي للأنبياء:** فقولُ الله تعالى لزكريَّا ﷺ: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله تعالى عن زكريا ﷺ في وصيَّته لقومِهِ بالمحافظةِ على التسبيح: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، وقولُهُ تعالى عن يونس ﷺ في إنجائِهِ من ظُلُماتِ البحرِ وبطنِ الحُوتِ لملازمتِهِ للتسبيح: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات].

* **وأما التي للمؤمنين:** فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب]، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [السجدة: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ...﴾ الآيةَ [النور].

* **وأما التي في الحيواناتِ والجمادات؛** فمنها: قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

* **وأما التي لعموم المخلوقات؛** فمنها: قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]، وقولُهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

وقد ذكَرَ اللهُ تعالى لفظةَ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ في القرآنِ في خمسةٍ وعشرينَ موضعًا، في ضمن كلِّ واحدٍ منها إثباتُ صفةٍ مِنْ صفاتِ المدحِ، أو نفيُ صفةٍ مِنْ صفات الذَّمِّ[1]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠].

إنَّ هذه النصوصَ القرآنيَّةَ الكريمةَ، وما جاء في معناها في كتابِ اللهِ لَتَدُلُّ أوضحَ دَلَالةٍ على جلالةِ قَدْرِ التسبيح، وعظيمِ شأنِهِ مِنَ الدين، وأنَّه مِنْ أجَلِّ الأذكارِ المشروعة، ومِنْ أنفعِ العباداتِ المقرِّبةِ إلى الله ﷻ؛ فسبحانَ مَنْ أفاضَ على عبادِهِ النعمة، وكتَبَ على نَفْسِهِ الرَّحْمة، سبحانه وبحمدِهِ عددَ خَلْقه، ورضا نَفْسِه، وزِنَةَ عَرْشه، ومِدَادَ كلماته.

وسوفَ نواصلُ - إن شاء الله - بيانَ فضلِ التسبيحِ ومكانتِهِ؛ من خلال ما ورَدَ في ذلك من حديث رسولِ الله ﷺ الذي ترَكَ أمَّتَهُ على المحجَّةِ البيضاء، والطريقةِ الواضحةِ الغرَّاء، وقد كان صلواتُ الله وسلامُهُ عليه أعلمَ الناسِ بالله، وأتقاهم له، وأكثرَهُمْ تسبيحًا وتقديسًا وتنزيهًا لربِّه، فصلَّى اللهُ وملائكتُهُ وأنبياؤُهُ ورسلُهُ والصالحونَ مِنْ عبادِهِ عليه، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

❁ ❁ ❁

---

(١) **انظر**: «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي (٣/ ١٧٦).

٣٨

مِنْ فَضَائِلِ التَّسْبِيحِ فِي السُّنَّةِ

تناوَلْتُ ـ فيما سبَقَ ـ بيانَ **فضلِ التسبيحِ وعظيمِ أجرِهِ**، وأنَّه مِنْ أفضلِ الأذكارِ المأثورة، ومِنْ أنفعِ العباداتِ المشروعة، ومِنْ أجلِّ الطاعاتِ التي يُحِبُّها اللهُ مِنْ عباده، وقد أوردتُّ جملةً طيِّبةً مِنَ النصوصِ القرآنيَّةِ الكريمةِ الدالَّةِ على ذلك.

ولعلَّ مِنَ المناسبِ هنا أن نقفَ على بعضِ النصوصِ النبويَّةِ الواردةِ في فضلِ التسبيحِ، والدالَّةِ على عظيمِ شأنِهِ، ورفيعِ مكانته؛ إذ السُّنَّةُ مليئةٌ بالنصوصِ الدالَّةِ على عظيمِ شأنِ التسبيح، وشريفِ قدره، وجزيلِ ثوابِ أهله، وبيانِ ما أَعَدَّ اللهُ لهم مِنْ أجورٍ كريمةٍ، وأفضالٍ عظيمةٍ، وعطايا جمَّةٍ. **وقد تَضَمَّنَتْ تلك النصوصُ الدَّلالةَ على ذلكَ مِنْ وجوهٍ كثيرةٍ:**

* **ومِنْ ذلك**: أنَّ النبيَّ ﷺ أخبرَ أنَّ التسبيحَ أفضلُ الكلام وأحبُّه إلى الله، وقد سبَقَ أنْ مَرَّ معنا قولُ النبيِّ ﷺ: (**أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**)[١].

وثبَتَ في «صحيح مسلم»، من حديث أبي ذرٍّ، أنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ: «أيُّ الكلام أفضلُ؟ قال: (**مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**)»[٢].

وفي لفظِ آخَرَ للحديث أنَّ أبا ذَرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «(**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الكَلَامِ إِلى اللهِ؟**)، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بأَحبِّ الكلامِ إلى الله،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٨٧).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣١).

قال: (**إِنَّ أَحَبَّ الكَلَامِ إِلى اللهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**)»؛ فدلَّ هذا الحديثُ على عظيمِ مكانةِ هذه الكلمةِ عند الله ﷻ.

* **ومِنْ فضائلِ التسبيح**: ما أخبَرَ به النبيُّ ﷺ أنَّ مَنْ قال: سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ في يومٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ عنه ذنوبُهُ ولو كَثُرَتْ؛ ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**)[١].

وثبَتَ عنه ﷺ أنَّ مَنْ قالها في الصَّبَاحِ مِائَةَ مَرَّةٍ، وفي المساءِ مِائَةَ مَرَّةٍ، لم يأتِ أحدٌ يومَ القيامةِ بأفضلَ مما جاء به، إلَّا مَنْ قال مثلَ ذلك وزادَ عليه؛ فقد روى مسلمٌ في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ، أَوْ زَادَ عَلَيْهِ**)[٢].

وثبَتَ عنه ﷺ أنَّ مَنْ قالها في يومٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كُتبَتْ له ألفُ حسنةٍ، أو حُطَّتْ عنه ألفُ خطيئةٍ، والحسنةُ بعشر أمثالها؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه، قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فقال: «(**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**)، فسألَهُ سائلٌ من جلسائهِ: كيف يكسبُ أحدُنا ألفَ حسنةٍ؟ قال: (**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ**)»[٣].

* **ومما ورَدَ في فضلِ التسبيح**: إخبارُ النبيِّ ﷺ عن ثِقَلِ التسبيحِ في الميزانِ يومَ القيامة، مَعَ خِفَّةٍ ويُسْرِ العملِ به في الدنيا؛ ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلى الرَّحْمٰنِ،**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٠).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٢).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٨).

خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ)[١].

وقوله ﷺ في الحديث: **(كَلِمَتَانِ)** هي خبرٌ مُقَدَّمٌ مُبتَدَؤُهُ: **(سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ)**، **قال بعضُ أهل العلم**: «والنكتةُ في تقديمِ الخبرِ تشويقُ السَّامعِ إلى المبتدأ، وكلَّما طالَ الكلامُ في وصفِ الخبرِ حَسُنَ تقديمُهُ؛ لأنَّ كثرةَ الأوصافِ الجميلةِ تزيدُ السامعِ شوقًا»[٢]. وقد وُصِفَتِ الكلمتان في الحديثِ بثلاثةِ أوصافٍ جميلةٍ عظيمةٍ، **وهي**: أنَّهما حبيبتانِ إلى الرحمٰن، خفيفتانِ على اللسان، ثقيلتانِ في الميزان.

وقد خُصَّ لفظُ الرحمٰن بالذِّكْرِ هنا؛ **لأنَّ المقصودَ مِنَ الحديث**: بيانُ سَعَةِ رحمةِ الله تعالى على عبادِهِ، حيثُ يجازي على العملِ القليلِ بالثوابِ الجزيلِ، والأجرِ العظيم، فما أَيْسَرَ النطقَ بهاتَيْن الكلمتَيْنِ على اللسان! وما أعظمَ أَجْرَ ذلكَ وثوابَهُ عند الكريم الرحمٰن! وقد وُصِفَتِ الكلمتان في الحديث بالخِفَّةِ والثقل: الخِفَّةِ على اللسان، والثِّقَلِ في الميزان؛ لبيان قِلَّةِ العملِ وكثرةِ الثوابِ؛ فما أوسَعَ فضلَ الله! وما أعظمَ عطاءَه!

* **ومِنْ فضائلِ هذه الكلمةِ العظيمة**: ما رواه الترمذيُّ، وابن حِبَّان، والحاكم، وغيرهم، من طريق أبي الزُّبَيْرِ، عن جابر رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: **(مَنْ قال: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ)**[٣].

* **ومِنْ فضائلِ هذه الكلمة**: ما رواه الطَّبَراني، والحاكم، من حديث نافع بن جُبَيْر بن مُطْعِم، عن أبيه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ،**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩٩).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٥٤٠).

(٣) تقدم تخريجه (ص٢١).

أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، فَقَالَهَا فِي مَجْلِسِ ذِكْرٍ، كَانَتْ كَالطَّابِعِ يُطْبَعُ عَلَيْهِ، وَمَنْ قَالَهَا فِي مَجْلِسِ لَغْوٍ، كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ)(١).

وروى الترمذي، وابن حِبَّان، والحاكم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: (**مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ، فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**)(٢).

فهذه جملةٌ مِنَ الأحاديثِ الواردةِ في التسبيح، والدَّالَّةِ على عظيمِ فضلِهِ وثوابِهِ عند الله، وفي أكثرِ هذه الأحاديثِ قُرِنَ مَعَ التسبيحِ حَمْدُ اللهِ تعالى؛ وذلك لأنَّ التسبيحَ هو تنزيهُ اللهِ عن النقائصِ والعيوب، والتحميدُ فيه إثباتُ المحامدِ كلِّها لله عز وجل، والإثباتُ أكملُ مِنَ السَّلْب؛ ولهذا لم يَرِدِ التسبيحُ مُجرَّدًا، لكنْ ورَدَ مقرونًا بما يدلُّ على إثباتِ الكمال؛ فتارةً يُقْرَنُ بالحمدِ؛ كما في هذه النصوص، وتَارةً يُقْرَنُ باسمٍ مِنَ الأسماءِ الدَّالَّةِ على العَظَمَةِ والجلال؛ كقول: سبحانَ اللهِ العظيم، وقولِ: سبحانَ رَبِّيَ الأعلى، ونحو ذلك(٣).

والتنزيهُ لا يكونُ مدحًا إلَّا إذا تَضمَّنَ معنًى ثبوتيًّا؛ ولهذا عندما نَزَّهَ اللهُ تبارك وتعالى نَفْسَهُ عمَّا لا يليقُ به ممَّا وصفَهُ به أعداءُ الرُّسُل، سَلَّمَ على المرسلينَ الذين يثبتونَ للهِ صفاتِ كمالِهِ ونُعوتَ جلالِهِ على الوجهِ اللَّائقِ به؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات]، وفي هذه الآية أيضًا حَمِدَ اللهُ

---

(١) «اليوم والليلة» للنسائي رقم (٤٢٤)، و«المعجم الكبير» رقم (١٥٨٦)، و«المستدرك» (١/ ٥٣٧)، وقال الحاكم: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يخرِّجاه»، ووافقه الذهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ. «السلسلة الصحيحة» رقم (٨١).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٣٣) وليس فيه (ربَّنا)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٥٩٤)، و«المستدرك» (١/ ٥٣٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦١٩٢).

(٣) **انظر**: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص٢٠٤).

نفسَهُ بعد أن نَزَّهها؛ وذلك لأنَّ الحمدَ فيه إثباتُ كمالِ الصفات، والتسبيحَ فيه تنزيهُ اللهِ عن النقائصِ والعيوب؛ فجمَعَ في الآيةِ بين التنزيهِ عن العيوبِ بالتسبيحِ وإثباتِ الكمالِ بالحمد، وهذا المعنى يَرِدُ في القرآنِ والسُّنَّةِ كثيرًا، فالتسبيحُ والحمدُ أصلان عظيمان، وأساسانِ متينانِ يقومُ عليهما المنهجُ الحَقُّ في توحيدِ الأسماءِ والصفات، وبالله وحدَهُ التوفيق.

❁ ❁ ❁

٣٩

تَسْبِيحُ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ لِلَّهِ

إنَّ الله تعالى ـ لكمالِ عظمتِه، وتمامِ مُلْكِهِ وعزَّته ـ **تُسبِّحُ له جميعُ الكائنات**: مِنْ سماءٍ، وأرضٍ، وجبالٍ، وأشجارٍ، وشمسٍ، وقَمَرٍ، وحيوان، وطيرٍ، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

يقولُ الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ﴾ [سبأ: ١٠]، ويقول تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]؛ فهذه النصوصُ العظيمةُ تدلُّ دَلَالةً ظاهرةً أنَّ جميعَ الكائناتِ تُسبِّحُ اللهَ ﷻ، فالحيواناتُ تُسبِّحُ لله، والنباتاتُ تسبِّح لله، والجماداتُ تسبِّح لله، وإنْ مِنْ شيءٍ خَلَقَهُ اللهُ إلَّا يسبِّحُ بحمدِ الله ﷻ، وإنْ كُنَّا لا نَفْقَهُ تسبيحَهُ، وهو تسبيحٌ حقيقيٌّ يصدُرُ من هذه الكائناتِ بلسانِ المقال، وليس بلسانِ الحال كما يَدَّعِيهِ بعضُهم، واللهُ جلَّ وعلا يجعلُ لهذه الكائناتِ إدراكاتٍ تُسبِّحُ بها، يَعْلَمُهَا هو جلَّ وعلا، ونحنُ لا نَعْلَمُهَا؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال الإمام أبو منصورٍ الأزهريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في كتابه «تهذيب اللُّغة»**: «وممَّا يدلُّكَ على أنَّ تسبيحَ هذه المخلوقاتِ تسبيحٌ تُعُبِّدَتْ به: قولُ الله جلَّ وعزَّ للجبال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ﴾، ومعنى أَوِّبِي؛ **أي**: سبِّحي مَعَ داودَ النَّهارَ كلَّهُ إلى الليل، ولا يجوزُ أن يكون معنى أَمْرِ الله جلَّ وعزَّ للجبالِ بالتأويبِ إلَّا تعبُّدًا لها، وكذلك قولُهُ جلَّ وعزَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فسجودُ هذه المخلوقاتِ عبادةٌ منها لخالقها، لا نَفْقَهُها عنها كما لا نَفْقَهُ تسبيحَهَا، وكذلك قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقد عَلِمَ الله هبوطَها مِنْ خَشْيته، ولم يعرِّفنا ذلك، فنحنُ نؤمنُ بما أَعْلَمَنا، ولا نَدَّعي بما لم نُكَلَّفْ بأفهامنا من عِلْمِ فِعْلِها كيفيَّةً نحدُّها»[1]. اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو كلامٌ عظيم، وتقريرٌ حسن.

وقال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بعد أن أشارَ إلى ما قيلَ في المرادِ بالتسبيح، قال:** «والصحيحُ أنَّه يُسبِّحُ حقيقةً، ويجعلُ اللهُ تعالى فيه تمييزًا بِحَسَبِهِ»[2].

وهذا القولُ هو القولُ الحقُّ في هذه المسألةِ بلا ريب؛ فاللهُ تبارك وتعالى هو الذي بيدِهِ أَزِمَّةُ الأمور، وهو القادرُ على كلِّ شيء، وهو سبحانَهُ الذي أنطَقَ كلَّ شيء، لا يتعاظمُهُ أمر، ولا يُعجِزُهُ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء، إنَّما أمرُهُ إذا أراد شيئًا أن يقولَ له كُنْ فيكون.

وأمَّا قولُ مَنْ قال: إنَّ هذا التسبيحَ ليس حقيقيًّا، وإنَّما هو تسبيحٌ بلسان الحالِ فقطْ، فهو قولٌ مجانبٌ للحقيقة، بعيدٌ عن الصواب، ولا يَعْضُدُهُ دليل، بل الأَدلَّةُ صريحةٌ في عدم صِحَّتِه.

وليس هذا الأمرُ بأعجَبَ من تسبيحِ الحَصَى في يَدِ رسولِ الله ﷺ، وتسبيحِ الطعامِ وهو يُؤْكَلُ، وقد كان يسمعُ ذلك الصحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

روى البخاريُّ في «صحيحه»، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «كُنَّا نَعُدُّ الآياتِ بَرَكَةً، وأنتمْ تَعُدُّونَهَا تخويفًا، كنا مع رسولِ الله ﷺ في سَفَرٍ، فَقَلَّ الماءُ، فقال: **(اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ)**، فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليلٌ، فأدخَلَ يَدَهُ في الإناء، ثم قال: **(حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ، وَالبَرَكَةُ مِنَ اللهِ)**، فلقد رأيتُ

---

(١) «تهذيب اللغة» (٤/ ٣٤٠).
(٢) شرح «صحيح مسلم» (١٥/ ٢٦).

الماءَ يَنْبُعُ مِنْ بينِ أصابعِ رسولِ الله ﷺ، ولقد كُنَّا نَسْمَعُ تسبيحَ الطعامِ وهو يُؤْكَلُ»(١).

فللَّهِ ما أعظَمَهَا مِنْ آيةٍ تَدُلُّ على عظيم قدرة المُرْسِلِ سبحانه، وصدقِ المُرْسَلِ، صلواتُ الله وسلامُه عليه!

وروى الطبرانيُّ في «المعجم الأوسط»، وأبو نُعَيْم في «دَلَائل النبوَّة»، عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، قال: «إنِّي لشاهدٌ عندَ النبيِّ ﷺ في حَلْقةٍ، وفي يده حصًى، فَسَبَّحْنَ في يَدِهِ، وفينا أبو بكرٍ وعمرُ وعُثْمانُ وعليٌّ، فَسَمِعَ تسبيحَهُنَّ مَنْ في الحَلْقةِ، ثمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ إلى أبي بكرٍ، فَسَبَّحْنَ مَعَ أبي بكر، سَمِعَ تَسْبِيحَهُنَّ مَنْ في الحَلْقةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ إلى النبيِّ ﷺ، فَسَبَّحْنَ في يده، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النبيُّ ﷺ إلى عُمَرَ، فَسَبَّحْنَ في يده، وسَمِعَ تسبيحَهُنَّ مَنْ في الحَلْقة، ثم دفعهنَّ النبيُّ ﷺ إلى عثمانَ بن عَفَّانَ، فسبَّحْنَ في يده، ثُمَّ دفعهُنَّ إلينا، فلم يُسَبِّحْنَ مَعَ أحدٍ مِنَّا»(٢).

ولا شكَّ أنَّ تسبيح الحصى الصغارِ والطعامِ أعجبُ وأبلغُ مِنْ تسبيحِ الجبال؛ ولذا فإنَّ المعجزةَ لنبيِّنا محمَّد ﷺ في ذلك أبلغُ مِنَ المعجزةِ لنبيِّ الله داودَ عليه السلام في تسبيحِ الجبالِ معه.

قال الحافظ ابن كَثِير رحمه الله: «وأمَّا تسبيحُ الطَّيْرِ مَعَ داودَ عليه السلام فتسبيحُ الجبالِ الصُّمِّ أعجبُ مِنْ ذلك، وقد تَقَدَّمَ في الحديث أنَّ الحصى سَبَّحَ في كفِّ رسولِ اللهِ ﷺ، قال ابن حامد: وهذا حديثٌ معروفٌ مشهورٌ، وكانت الحجارُ والأشجارُ والمَدَرُ تُسلِّمُ عليه ﷺ.

وفي «صحيح البخاري» **عن ابن مسعود** رضي الله عنه، **قال:** «لقد كنَّا نسمعُ تسبيحَ الطعامِ وهو يُؤْكَلُ»؛ **يعني:** بيد النبيِّ ﷺ، وكلَّمه ذراعُ الشَّاةِ المسمومةُ،

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٥٧٩).

(٢) «المعجم الأوسط» رقم (١٢٤٤)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٥٥)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (١/ ٤٣١) رقم (٣٣٨)، **وانظر:** «دلائل النبوة» لأبي القاسم التيمي (١/ ٤٠٤ وما بعدها). بتحقيق: الشيخ مساعد الراشد، قوله: «فصل في تسبيح الحصى في يده ﷺ».

وأعلَمَهُ بما فيه مِنَ السُّمِّ، وشهدتْ بنبُوَّتِهِ الحيواناتُ الإنسيَّةُ والوَحْشيَّة، والجماداتُ أيضًا، كما تَقدَّمَ بسطُ ذلك كلِّه، ولا شكَّ أنَّ صدورَ التسبيحِ مِنَ الحصى الصغارِ الصُّمِّ، التي لا تجاويفَ فيها، أعجبُ مِنْ صدورِ ذلك مِنَ الجبالِ لِمَا فيها مِنَ التجاويفِ والكهوف؛ فإنَّها وما شاكَلَهَا تُرَدِّدُ صدى الأصواتِ العاليةِ غالبًا، كما قال عبد الله بن الزُّبَيْرِ: كان إذا خطَبَ، وهو أميرُ المدينةِ بالحَرَمِ الشريف، تُجَاوِبُهُ الجبالُ أبو قَبِيسٍ وزَرُود، ولكنْ مِنْ غيرِ تسبيح؛ فإنَّ ذلك مِنْ معجزاتِ داود عليه السلام، ومع هذا كان تسبيحُ الحصى في كفِّ رسولِ الله ﷺ وأبي بكرٍ وعمرَ وعثمان أعجَبَ»[1].اهـ كلامه رحمه الله.

❁ **والشاهدُ مِنْ ذلك كلِّه:** هو أنَّ هذه الكائناتِ تُسبِّحُ الله تعالى تسبيحًا حقيقيًّا لا يفقهُهُ الناسُ ولا يسمعونَهُ، وقد يشاءُ الله، فيُسْمِعُ بعضَ ذلكَ مَنْ يشاءُ مِنْ عباده، كما في النصوص المتقدِّمة.

ولا ريبَ أنَّ في هذا أعظمَ عبرةٍ وأجلَّ عِظةٍ للناسِ إذا تَدَبَّرُوا في حال هذه الجبال، وهي الحجارةُ الصُّلْبةُ والصخورُ الصَّمَّاء، كيف أنَّها تسبِّحُ بحمدِ ربِّها، وتخشعُ له، وتسجدُ، وتُشْفِقُ، وتَهْبِطُ مِنْ خشيته؟! وكيف أنَّها خافتْ من ربِّها وفاطرها وخالقها، على شِدَّتها وعِظَمِ خلقها، مِنَ الأمانةِ إذْ عَرَضَها عليها، وأشفَقَتْ من حملها؟!

قال ابن القيِّم رحمه الله **وهو يَتحدَّثُ عن هذا البابِ العظيم:** «فسبحانَ مَنِ اختصَّ برحمتِهِ مَنْ شاءَ مِنَ الجبال والرِّجَال... هذا وإنَّها لَتعلمُ أنَّ لها موعدًا ويومًا تُنْسَفُ فيها نسفًا، وتصيرُ كالعِهْنِ مِنْ هَوْلِهِ وعِظَمِه، فهي مُشْفقةٌ مِنْ هولِ ذلك الموعد، منتظرةٌ له... فهذا حالُ الجبالِ وهي الحجارةُ الصُّلْبة، وهذه رِقَّتُها وخشيتُها وتَدَكْدُكُها مِنْ جلالِ ربِّها وعَظَمَتِه، وقد أخبَرَ عنها فاطرُها وباريها أنَّه لو أنزَلَ عليها كلامه، لَخَشَعَتْ ولَتَصَدَّعَتْ مِنْ خشيةِ الله؛

---

(١) «البداية والنهاية» (٦/ ٢٨٦).

فيا عجبًا مِنْ مُضْغةِ لحمٍ أقسى مِنْ هذه الجبال، تسمعُ آياتِ الله تتلى عليها، ويُذْكَرُ الرَّبُّ، فلا تلين، ولا تخشع، ولا تنيب؟!...»[١].

فنسألُ الله ـ جَلَّتْ قدرتُهُ وتبارك اسمه ـ أن يحييَ قلوبَنا بالإيمان، وأن يَعْمُرَها بِذِكْرِ الكريمِ الرحمٰن، وأن يعيذنا مِنَ الرجيمِ الشيطان، إنَّه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

❁ ❁ ❁

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٨٩).

٤٠

مَعْنَىٰ التَّسْبِيحِ

لا ريب أنَّ **التسبيحَ** يُعَدُّ مِنَ الأصولِ المهمَّة، والأُسُسِ المتينةِ التي ينبني عليها المُعتَقَدُ فيما يَتعلَّقُ بمعرفةِ الربِّ تبارك وتعالى وأسمائِهِ وصفاته؛ **إذ إنَّ المُعْتَقَدَ في الأسماءِ والصفاتِ يقومُ على أصلَيْنِ عظيمَيْنِ وأساسَيْنِ متينَيْنِ؛ هما:**

- **الإثباتُ للصفاتِ بلا تمثيل.**
- **وتنزيهُ اللهِ عن مشابهةِ المخلوقاتِ بلا تعطيل.**

والتسبيحُ هو: التنزيهُ، فأصلُ هذه الكلمةِ مِنَ السَّبْحِ، وهو البُعْدُ، **قال الأزهريُّ في «تهذيب اللغة»**: «ومعنى تنزيهِ اللهِ مِنَ السُّوءِ: تبعيدُهُ منه، وكذلك تسبيحُهُ: تبعيدُهُ؛ مِنْ قولك: سَبَحْتُ في الأرض: إذا أبعدتَّ فيها، ومنه قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وكذلك قوله: ﴿وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣]»(١).

فالتسبيحُ: هو إبعادُ صفاتِ النقصِ مِنْ أن تُضافَ إلى الله، وتنزيهُ الربِّ سبحانه عن السوءِ وعمَّا لا يليقُ به، «وأصلُ التسبيحِ للهِ عندَ العربِ: التنزيهُ له مِنْ إضافةِ ما ليسَ مِنْ صفاتِهِ إليه، والتبرئةُ له مِنْ ذلك»(٢).

وقد ورَدَ هذا المعنى في تفسيرِ التسبيحِ في حديثٍ يُرْفَعُ إلى النبيِّ ﷺ، إلَّا أنَّ في إسنادِهِ كلامًا؛ فقد روى الحاكمُ في «المستدرك»، عن عبد الرحمٰن بن حَمَّاد، ثنا حَفْص بن سُلَيْمان، ثنا طَلْحة بن يحيى بن طَلْحة، عن أبيه، عن طَلْحة بن عُبَيْد الله رضي الله عنه، قال: «سألتُ رسولَ الله ﷺ عن تفسيرِ

(١) «تهذيب اللغة» (٤/ ٣٣٨).
(٢) «جامع البيان» لابن جرير (١/ ٢١١).

سُبْحَانَ الله، فقال: (هُوَ تَنْزِيهُ اللهِ عَنْ كُلِّ سُوءٍ)»[١].

ورويَ الحديثُ مِنْ وجهٍ آخَرَ مرسلًا.

ووردَ في هذا المعنى آثارٌ عديدةٌ عن السلف رحمهم الله، روى جملةً منها الطبريُّ في «تفسيره»، والطبرانيُّ في كتابه «الدعاء»، في باب: تفسير سبحان الله[٢]، وغيرُهما مِنْ أهلِ العلم؛ **منها:**

- **ما جاء عن ابن عَبَّاس** رضي الله عنهما، **أنه قال:** «سبحانَ اللهِ: تنزيهُ اللهِ عز وجل عن كُلِّ سُوءٍ».

- **وعن عبد الله بن بُرَيْدة** رضي الله عنه، أنَّ رجلًا سأل عليًّا رضي الله عنه عن سبحانَ اللهِ، **فقال:** «تعظيمُ جَلَالِ الله».

- **وجاء عن مجاهدٍ** رحمه الله، **أنه قال:** «التسبيحُ: انكفافُ اللهِ مِنْ كلِّ سوءٍ»، **قال ابن الأثير في النهاية:** «أي: تنزيهُهُ وتقديسُهُ».

- **وعن ميمون بن مِهْران** رحمه الله، **قال:** «سبحانَ اللهِ: اسمٌ يُعظِّمُ اللهُ به، ويُحاشَىٰ به مِنَ السُّوء».

- **وعن أبي عُبَيْدة مَعْمَر بن المثنَّى** رحمه الله، **قال:** «سبحانَ اللهِ: تنزيهُ اللهِ وتبرئَتُهُ».

- **وعن محمَّد ابن عائشةَ** رحمه الله، **قال:** «تقولُ العربُ إذا أنكَرَتِ الشيءَ وأعظمَتْهُ: سبحانَ اللهِ، فكأنَّهُ تنزيهُ الله عز وجل عن كلِّ سوء، لا ينبغي أن يُوصَفَ بغيرِ صفته».

والآثارُ في هذا المعنى عن السلفِ كثيرةٌ.

ونقل الأزهريُّ في كتابه «تهذيب اللغة» عن غير واحدٍ مِنْ أئمَّةِ اللغةِ

---

(١) «المستدرك» (١/ ٥٠٢)؛ قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه. وتعقَّبه الذهبيُّ في تلخيصه للمستدرك **بقوله:** «بل لم يَصِحَّ؛ فإنَّ طلحةَ منكرُ الحديث، قاله البخاريُّ، وحفصٌ واهي الحديث، وعبد الرحمٰن، قال أبو حاتم: منكر».

(٢) «الدعاء» للطبراني (٣/ ١٥٩١ وما بعدها).

تفسيرَ التسبيحِ بالمعنى السابق، وقال: «وجماعُ معناه: بُعْدُهُ تبارك وتعالى عن أنْ يكونَ له مِثْلٌ، أو شريكٌ، أو ضِدٌّ، أو نِدٌّ»(١).

وبهذه النقولِ المتقدِّمةِ يَتبيَّنُ معنى التسبيحِ والمرادُ به، وأنَّه تنزيهُ اللهِ ﷻ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ؛ **قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ: «والأمرُ بتسبيحِهِ يقتضي تنزيهَهُ عن كلِّ عَيْبٍ وسُوءٍ، وإثباتَ المَحامدِ التي يُحْمَدُ عليها؛ فيقتضي ذلك تنزيهَهُ وتحميدَهُ وتكبيرَهُ وتوحيدَهُ»(٢). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وبه يَتبيَّنُ أنَّ تسبيحَ اللهِ إنَّما يكونُ بتبرئةِ اللهِ وتنزيهِهِ عن كلِّ سوءٍ وعيبٍ، مع إثباتِ المحامدِ وصفاتِ الكمالِ له سبحانه، على وجهٍ يليقُ به.

أمَّا ما يفعلُهُ المعطِّلةُ مِنْ أهلِ البدعِ؛ كالمعتزلةِ وغيرهم؛ مِنْ تعطيلٍ للصفاتِ، وعَدَمِ إثباتٍ لها، وجحدٍ لِحَقَائقها ومعانيها؛ بحجةِ أنَّهم يسبِّحون اللهَ وينزِّهونه، فهو في الحقيقةِ ليس من التسبيحِ في شيء، بل هو إنكارٌ وجحود، وضلالٌ وبهتان.

ولذا يقول ابنُ هشام النحويُّ في كتابه «مغني اللبيب»: «ألا تَرَى أنَّ تسبيحَ المعتزلةِ اقتَضَى تعطيلَ كثيرٍ مِنَ الصفات»(٣).

ويقول ابن رَجَب رَحِمَهُ اللهُ **في معنى قوله تعالى:** ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨] «أي: سَبِّحْهُ بما حَمِدَ به نفسَهُ؛ إذْ ليس كلُّ تسبيحٍ بمحمودٍ، كما أنَّ تسبيحَ المعتزلةِ يقتضي تعطيلَ كثيرٍ مِنَ الصفات»(٤).

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «إذْ ليس كلُّ تسبيحٍ بمحمود» كلامٌ في غاية الأهميَّةِ والدقَّة؛ إذْ إنَّ تسبيحَ اللهِ بإنكارِ صفاتِهِ وجَحْدِها، وعدمِ إثباتها: أمرٌ لا يُحْمَدُ عليه فاعلُهُ، بل يُذَمُّ غايةَ الذمِّ، ولا يكونُ بذلك مِنَ المسبِّحينَ بحمدِ الله، بل يكونُ من المعطِّلينَ المنكرينَ الجاحدينَ، مِنَ الذينَ نَزَّهَ اللهُ نفسَهُ عن قولهم، ووَصَفَهم

(١) «تهذيب اللغة» (٤/ ٣٣٩). (٢) «دقائق التفسير» لابن تيمية (٥/ ٥٩).
(٣) «مغني اللبيب» (١/ ١٤٠)، مع أنَّه وقَعَ في بعض ذلك، غفَرَ اللهُ له ورحمه.
(٤) «تفسير سورة النصر» (ص٧٣).

بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات]؛ فسَبَّحَ اللهُ نفسَهُ عمَّا وصفَهُ به المخالفونَ للرسل، وسَلَّمَ على المرسلينَ؛ لسلامةِ ما قالوه في اللهِ مِنَ النقصِ والعيب.

إنَّ تسبيحَ الله وتنزيهَهُ وتقديسَهُ وتعظيمَهُ يجبُ أن يكون وَفْقَ الضوابطِ الشرعيَّة، وعلى ضوءِ الأدلَّةِ النقليَّة، ولا يجوزُ بحالٍ أن يُبنى ذلك على الأهواءِ المجرَّدة، أو الظنونِ الفاسدة، أو الأقيسةِ العقليَّةِ الكاسدة؛ كما هو الشأنُ عند أربابِ البدعِ المعطّلينَ لصفاتِ الربِّ سبحانه، ومَنْ كان يعتمدُ في بابِ التعظيمِ على هواهُ بغيرِ هُدًى من الله؛ فإنَّهُ يَزِلُّ في هذا الباب، ويقعُ في أنواعٍ مِنَ الباطلِ، وصنوفٍ مِنَ الضلال؛ **جاء عن عبد الرحمٰن بن مَهْدِي** رَحِمَهُ اللهُ ـ وقد ذُكِرَ عنده أنَّ الجهميَّةَ ينفونَ أحاديثَ الصفات، ويقولون: اللهُ أعظمُ مِنْ أنْ يُوصَفَ بشيءٍ مِنْ هذا ـ **أنَّه قال**: «قد هلَكَ قومٌ مِنْ وجهِ التعظيم، فقالوا: اللهُ أعظمُ مِنْ أن يُنْزِلَ كتابًا، أو يرسلَ رسولًا، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]»، **ثم قال**: «هل هلَكَتِ المجوسُ إلَّا مِنْ جِهةِ التعظيم؟! قالوا: اللهُ أعظمُ مِنْ أنْ نَعْبُدَهُ، ولكنْ نعبدُ مَنْ هو أقربُ إليه مِنَّا، فعَبَدُوا الشمس، وسَجدوا لها، فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]»(١).

وفي كلامِهِ هذا رَحِمَهُ اللهُ إشارةٌ إلى أنَّ التعظيمَ والتنزيهَ إنْ لم يكنْ على هَدْيِ الكتابِ والسُّنَّةِ، فإنَّهُ يكونُ غايةَ التعطيلِ، ومنتهى الجحودِ، والعياذُ بالله، ومَنْ يَتأمَّلْ حالَ الطوائفِ الضالَّةِ والفرقِ المنحرفةِ التي سَلَكَتْ في التنزيهِ والتعظيمِ هذا الطريق، يَجِدْ أنهم لم يستفيدوا مِنْ ذلكَ سوى التنقُّصِ لربِّ العالمين، وجَحْدِ صفاتِ كمالِهِ ونعوتِ جلالِهِ، حتى آلَ الأمرُ ببعضهم في التنزيهِ إلى الاعتقادِ بأنَّه ليس فوقَ العرشِ إلـٰهٌ يُعْبَد، ولا ربٌّ يُصَلَّى له ويُسْجَد، تعالى اللهُ عمَّا يقولون، وسبحانَ اللهِ عمَّا يصفون!

(١) ذكره التيمي في «الحجة في بيان المحجَّة» (١/ ٤٤٠).

۞ **إنَّ التسبيحَ طاعةٌ عظيمةٌ، وعبادةٌ جليلةٌ**، واللهُ تبارَكَ وتعالى يُحِبُّ المسبِّحين، والواجبُ على عبدِ اللهِ المؤمنِ أنْ يكونَ في تسبيحِهِ لربِّه على هَدْيٍ مستقيمٍ، فيُسَبِّحُ اللهَ وينزِّهُهُ عن كلِّ ما لا يليقُ به مِنَ النقائصِ والعيوب، ويُثْبِتُ له ـ مع ذلك ـ نعوتَ جلالِهِ وصفاتِ كمالِهِ، ولا يتجاوزُ في ذلك كلِّه كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِهِ ﷺ؛ **كما قال الإمام أحمد** رَحِمَهُ اللهُ: «لا يُوصَفُ اللهُ إلا بما وصَفَ به نفسَهُ، أو وصَفَهُ به رسولُهُ ﷺ، لا يُتجاوَزُ القرآنُ والحديث»(١)، ومَنْ كان على ذلك، فهو على هَدْيٍ قويم، وعلى صراطٍ مستقيم.

❁ ❁ ❁

---

(١) ذكره شيخ الإسلام في «الحموية»، **انظر**: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٦).

٤١

فَضْلُ الْحَمْدِ وَالْأدِلَّةُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تَناوَلْتُ ـ فيما سبَقَ ـ فضلَ كلمةِ التوحيد: لا إلـه إلا الله، وفَضْلَ التسبيحِ، وهما مِنَ الكلماتِ الأربعِ التي وصَفَهَا رسولُ الله ﷺ بأنَّها أحبُّ الكَلامِ إلى الله، وتناوَلْتُ فيها جملةً مِنَ الأمورِ المهمَّةِ المتعلِّقةِ بهاتَيْن الكلمتَيْن العظيمتَيْن، وأبدأُ الحديثَ هنا عن الحمدِ ـ **حَمْدِ اللهِ تَبارك وتَعَالى** ـ فإنَّ له شأنًا عظيمًا، وفضلًا كبيرًا، وثوابُهُ عند الله عظيمٌ، ومنزلتُهُ عنده عالية.

فقد افتتَحَ سبحانَهُ كتابَهُ القرآنَ الكريمَ بالحَمْدِ؛ فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة]، وافتتَحَ بعضَ السورِ فيه بالحمد؛ فقال في أوَّل الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، وقال في أوَّلِ الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾، وقال في أول سبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، وقال في أول فاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وافتتَحَ خلقَهُ بالحمدِ؛ فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ [الأنعام: ١]، واختتَمَهُ بالحمد؛ فقال بعدما ذكَرَ مآلَ أهلِ الجنةِ وأهلِ النار: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ

ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس].

فالحمدُ له سبحانَهُ أوَّلَهُ وآخرَهُ، وله الحمدُ في الأولى والآخرة؛ أي: في جميعِ ما خلَقَ وما هو خالقٌ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، وقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، فهو سبحانه المحمودُ في ذلك كلِّه، كما يقول المصلِّي: «اللَّهُمَّ ربَّنا لَكَ الحمدُ مِلْءَ السمٰواتِ، وملءَ الأرضِ، وملءَ ما شِئْتَ مِنْ شيءٍ بعدُ».

فهذه النصوصُ دالَّةٌ على شُمُولِ حمدِهِ سبحانَهُ لخلقِهِ وأمرِهِ؛ فهو سبحانه حَمِدَ نفسَهُ في أولِ الخلقِ وآخرِه، وعندَ الأمرِ والشرعِ، وحَمِدَ نفسَهُ على ربوبيَّته للعالَمين، وحَمِدَ نفسَهُ على تفرُّدِهِ بالإلٰهيَّةِ وعلى حياته، وحَمِدَ نفسَهُ على امتناعِ اتصافِهِ بما لا يليقُ بكمالِهِ من اتخاذِ الولدِ والشريكِ وموالاةِ أحدٍ مِنْ خلقِهِ لحاجتِهِ إليه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١]، وحَمِدَ نفسَهُ على علوِّهِ وكبريائِهِ؛ كما قاله سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية]، وحَمِدَ نفسَهُ في الأولى والآخرة، وأخبَرَ عن سَرَيانِ حَمْدِهِ في العالمِ العُلْويِّ والسفلي، ونبَّه على هذا كلِّه في كتابِهِ في آياتٍ عديدةٍ تدلُّ على تنوُّعِ حمده سبحانه، وتعدُّدِ أسبابِ حمده، وقد جمعها اللهُ في مواطنَ مِنْ كتابه، وفرَّقها في مواطنَ أخرى؛ لِيتعرَّفَ إليه عبادُهُ، وليعرفوا كيفَ يَحْمَدُونَهُ، وكيف يُثْنُونَ عليه، وليتحبَّبَ إليهم بذلك، ويُحِبَّهم إذا عَرَفُوهُ وأحبُّوهُ وحَمِدُوهُ(١).

وقد ورَدَ الحمدُ في القرآنِ الكريمِ في أكثرَ مِنْ أربعينَ موضعًا،

---

(١) **انظر**: «طريق الهجرتين» لابن القيِّم (ص٢٢٨).

جُمِعَ في بعضِهَا أسبابُ الحمد، وفي بعضها ذُكِرَتْ أسبابُهُ مفصَّلةً؛ فمن الآيات التي جُمِعَ فيها أسبابُ الحمد قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١].

ومِنَ الآياتِ التي ذُكِرَ فيها أسبابُ الحمدِ مفصَّلةً: قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ففيها حمدُهُ على نعمةِ دخولِ الجنَّة، وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، ففيها حمدُهُ على النصرِ على الأعداءِ والسلامةِ من شرِّهم، وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]، ففيها حمدُهُ على نعمةِ التوحيدِ وإخلاصِ العبادةِ لله وحده، وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ففيها حمدُهُ سبحانَهُ على هبةِ الولد، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، ففيها حمدُهُ سبحانَهُ على نعمةِ إنزالِ القرآنِ الكريم قيِّمًا لا عِوَجَ فيه؛ ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، ففيها حمدُهُ سبحانه لكمالِهِ وجلالِهِ وتنزُّهِهِ عن النقائصِ والعيوب، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ، فاللهُ تبارك وتعالى هو الحميدُ المَجيد.

و«**الحَميدُ**»: اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ الحسنى العظيمةِ، وقد ورَدَ هذا الاسمُ في القرآنِ الكريم في أكثرَ مِنْ خمسةَ عَشَرَ موضعًا؛ منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]،

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]، فهو تبارَكَ وتعالى الحميدُ في ذاتِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعاله، وهو تبارَكَ وتعالى المستَحِقُّ لكل حمدٍ ومحبَّةٍ وثناءٍ لِمَا اتَّصَفَ به مِنْ صفاتِ الحمد، التي هي صفةُ الجَمَالِ والجَلَال، ولِمَا أنعَمَ به على خَلْقِهِ مِنَ النعمِ الجزَال، فهو المحمودُ على كلِّ حال، وهو سبحانه حميدٌ مِنْ جميعِ الوجوه؛ «لأنَّ جميعَ أسمائِهِ ـ تبارك وتعالى ـ حمدٌ، وصفاتِهِ حمدٌ، وأفعالِهِ حمدٌ، وأحكامِهِ حمدٌ، وعدلِهِ حمدٌ، وانتقامِهِ حمدٌ، وفضلِهِ في إحسانِهِ إلى أوليائِهِ حمدٌ، والخَلْقُ والأمرُ إنما قام بحمده، ووُجِدَ بحمده، وظَهَرَ بحمده، وكان لغايةٍ هي حَمْدُهُ، فحمدُهُ سببُ ذلك وغايته»، «وجميعُ ما يوصفُ به ويُذْكَرُ به ويُخْبَرُ عنه به، فهو مَحَامِدُ له وثناءٌ وتسبيحٌ وتقديس، فسبحانَهُ وبحمده، لا يحصي أحدٌ مِنْ خلقِهِ ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسِهِ وفوقَ ما يثني به عليه خلقُهُ، فله الحمدُ أولًا وآخرًا حَمْدًا كثيرًا طَيِّبًا مباركًا فيه كما ينبغي لِكَرَمِ وجهِهِ، وعِزِّ جلالِهِ، ورفيعِ مجدِهِ، وعلوِّ جَدِّه»(١).

وهو سبحانه، كما أنَّه محمودٌ على أسمائِهِ وصفاتِهِ، فهو محمودٌ على فضلِهِ وعطائِهِ ونَعْمائِهِ؛ لِمَا له على عباده «مِنْ جزيلِ مواهبه، وسَعَةِ عطاياه، وكريمِ أياديه، وجميلِ صنائعه، وحُسْنِ معاملتِهِ لعباده، وسَعَةِ رحمتِهِ لهم، وبرِّهِ ولطفِهِ وحَنَانه، وإجابتِهِ لدعواتِ المضطرِّين، وكشفِ كُرُباتِ المكروبين، وإغاثةِ الملهوفين، ورحمتِهِ للعالمين، وابتدائِهِ بالنِّعَم قبل السؤال»، إلى غيرِ ذلك مِنْ نعمِهِ وعطاياه، وأهمُّ ذلك وأعظمُهُ: «هدايتُهُ خاصَّتَهُ وعبادَهُ إلى سبيلِ دارِ السلام، ومدافعتُهُ عنهم أحسنَ الدفاع، وحمايتُهُمْ عن مَرَاتعِ الآثام، وحَبَّبَ إليهم الإيمانَ وزيَّنَهُ في قلوبهم، وكَرَّهَ إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيان، وجعلَهُمْ من الراشدين»(٢).

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيِّم (ص٢٢٠، ٢٣٠).
(٢) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيِّم (ص٢٣١).

فالحمدُ لله ربِّ العالمين حمدًا كثيرًا طَيِّبًا مباركًا فيه، كما يحبُّ ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لِكَرَمِ وجهِهِ وعِزِّ جلاله، حمدًا يَمْلَأُ السمٰواتِ والأرضَ وما بينهما، وما شاءَ ربُّنا مِنْ شيءٍ بعدُ، بِمَجَامِعِ حَمْدِهِ كلِّها، ما عَلِمْنَا منها وما لم نَعْلَم، على نِعَمِهِ كلِّها، ما علمنا منها وما لم نعلم، عَدَدَ ما حَمِدَهُ الحامدون، وغَفَلَ عن ذِكْرِهِ الغافلون، وعَدَدَ ما جرى به قَلَمُه، وأحصاهُ كتابُه، وأحاطَ به عِلْمُه.

❀ ❀ ❀

٤٢

الْأَدِلَّةُ مِنَ السُّنَّةِ عَلَىٰ فَضْلِ الْحَمْدِ

وكما أنَّ القرآنَ الكريمَ قد دَلَّ على فضلِ الحمد، وعِظَمِ شأنِهِ بأنواعٍ كثيرةٍ من الأدلةِ سبَقَ الإشارةُ إلى طرفٍ منها، فكذلكَ السُّنَّةُ مليئةٌ بذكرِ الأدلةِ على **فضلِ الحَمْدِ وعِظَمِ شأنِهِ**، وما يَترتَّبُ عليه مِنَ الفوائدِ والثمار، والفضائلِ في الدنيا والآخرة.

ونبيُّنا ﷺ هو صاحبُ لواءِ الحمدِ، وهذه مَفْخَرةٌ عظيمةٌ، ومكانةٌ رفيعةٌ، حَظِيَ بها صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه؛ روى الإمامُ أحمد، والترمذي، وابن ماجه، بإسنادٍ صحيح، عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ، آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ، إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلَا فَخَرَ)**(١)؛ فلمَّا كان صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه أَحْمَدَ الخلائقِ لله، وأكملَهُمْ قيامًا بحمدِهِ، أُعْطِيَ لواءَ الحمد؛ ليأويَ إلى لوائِهِ الحامدونَ للهِ مِنَ الأوَّلينَ والآخرين؛ وإلى هذا أشار ﷺ عندما قال في الحديث: **(وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ، آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ، إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي)**، وهو لواءٌ حقيقيٌّ، يَحْمِلُهُ النبيُّ ﷺ يومَ القيامةِ بيده، ينضوي تحته وينضمُّ إليه جميعُ الحَمَّادِينَ مِنَ الأوَّلين والآخرين، وأقربُ الخلقِ إلى لوائِهِ أكثرُهم حمدًا لله، وذِكرًا له، وقيامًا بأمره، وأُمَّتُهُ ﷺ هي خيرُ الأُمَم، وهم الحَمَّادونَ الذينَ يَحْمَدُونَ اللهَ على السَّرَّاءِ والضَّرَّاء، وقد رُويَ في الحديثِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **(أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الجَنَّةِ الحَمَّادُونَ،**

(١) «المسند» (٣/ ٢)، و«جامع الترمذي» (٣٦١٥)، و«سنن ابن ماجه» (٤٣٠٨).

الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللهَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ)[١].

وجاء في أثرٍ يُرْوَى عن كَعْب، قال: «نجدُهُ مكتوبًا: محمَّدٌ رسولُ الله ﷺ، لا فظٌّ ولا غليظٌ، ولا صَخَّابٌ بالأسواق، ولا يجزي بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكنَّه يعفو ويغفر، وأُمَّتُهُ الحَمَّادون، يُكَبِّرونَ اللهَ ﷻ على كلِّ نَجْدٍ، ويَحْمَدُونَهُ في كلِّ منزلة...»؛ رواه الدارميُّ في مقدِّمة «سننه»[٢].

وفي الجَنَّة بيتٌ يُقالُ له بيتُ الحَمْد، خُصَّ للذين يَحْمَدُونَ اللهَ في السَّرَّاءِ والضراء، ويَصْبِرُونَ على مُرِّ القضاء؛ روى الترمذيُّ، بإسناد حسن، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: اِبْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ)**[٣]؛ فهذا حَمِدَ اللهَ على الضَّرَّاء، فنال بحَمْدِهِ هذه الرتبةَ العليَّة، ولكنْ كيف يبلُغُ العبدُ هذه المنزلةَ، وكيف يصلُ إلى هذه الدرجةِ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: **«والحمدُ على الضَّرَّاءِ يوجبهُ مَشْهَدان:**

أحدهما: علمُ العبدِ بأنَّ اللهَ سبحانه مُسْتوجِبٌ ذلك، مستحقٌّ له بنفسه؛ فإنَّه أحسَنَ كلَّ شيء خَلَقَهُ، وأتقَنَ كلَّ شيء، وهو العليمُ الحكيم، الخبيرُ الرحيم.

والثاني: علمُهُ بأنَّ اختيارَ اللهِ لعبدِهِ المؤمنِ خيرٌ مِن اختيارِهِ لنفسه؛

---

(١) رواه الطبراني في «معاجمه الثلاثة»؛ «الكبير» رقم (١٢٣٤٥)، و«الأوسط» رقم (٣٠٣٣)، و«الصغير» رقم (٢٨٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٦٩)، والحاكم في «المستدرك» (١/٦٨١)، لكن في إسناده ضعف، وقد رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/٦٨)، بسند صحيح، موقوفًا على سعيد بن جبير. **انظر:** «السلسلة الضعيفة» للألباني (٢/٩٤).

(٢) «سنن الدارمي» (١/١٦).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (١٠٢١)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٤٠٨).

كما روى مسلمٌ في «صحيحه»، وغيرُهُ، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)**[١]، فأخبَرَ النبيُّ ﷺ أنَّ كلَّ قضاءٍ يقضيه اللهُ للمؤمنِ الذي يصبرُ على البلاءِ، ويشكُرُ على السَّرَّاءِ، فهو خيرٌ له»[٢]. اهـ.

فإذا عَلِمَ ذلك العبدُ وتيقَّنه أقبلَ على حمدِ اللهِ في أحوالِهِ كلِّها؛ في سَرَّائِهِ وضَرَّائِه، وفي شِدَّتِهِ ورخائِه، ثم هو في حالِ شدَّتِهِ لا ينسى فضلَ اللهِ عليه وعطاءَهُ ونعمتَهُ.

جاء رجلٌ إلى يُونُسَ بن عُبَيْد رَحِمَهُ اللهُ يشكو ضِيقَ حالِهِ، فقال له يونس: «أَيَسُرُّكَ ببصرِكَ هذا مِائَةُ ألفِ درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مِائَةُ ألفٍ؟ قال: لا، قال: فبرجليكَ مِائَةُ ألفٍ؟ قال: لا، قال: فذَكَّرَهُ نِعَمَ اللهِ عليه، فقال يونس: أرى عندك مِئِينَ الألوف وأنتَ تشكو الحاجة؟!».

وجاء عن سلْمَانَ الفارسيِّ رضي الله عنه أنَّه قال: «إنَّ رجلًا بُسِطَ له من الدنيا، فانتُزِعَ ما في يديه، فجعَلَ يَحْمَدُ اللهَ ويثني عليه، حتى لم يكنْ له فراشٌ إلَّا بَارِيَّةٌ[٣]، قال: فجعَلَ يحمدُ الله ويثني عليه، وبُسِطَ لآخَرَ مِنَ الدنيا، فقال لصاحبِ البَارِيَّةِ: أَرَأَيْتَكَ أنتَ عَلَامَ تَحْمَدُ الله؟ قال: أحمدُهُ على ما لو أُعْطِيتُ به ما أُعْطِيَ الخَلْقُ لم أُعْطِهِمْ إيَّاه، قال: وما ذاك؟ قال: أَرَأَيْتَكَ بصرَكَ، أرأيتَكَ لسانَكَ، أَرَأَيْتَكَ يَدَيْكَ، أَرَأَيْتَكَ رجلَيْك؟!»[٤].

وثبَتَ في فضلِ الحمدِ ما رواه الترمذيُّ، وابن ماجه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **(أَفْضَلُ الذِّكْرِ:**

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٩٩٩) بلفظ: **(عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ...)**، الحديثَ.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٣، ٤٤).

(٣) هي: الحصير المنسوج. «القاموس المحيط» (ص٤٥٢).

(٤) ذكرهما ابن القيِّم في «عِدَّة الصابرين» (ص١٦٧).

لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الحَمْدُ للهِ)[(١)]، فجعَلَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه حَمْدَ اللهِ أفضلَ الدعاءِ، مع أنَّ الحمدَ إنَّما هو ثناءٌ على المحمود مع حبِّه؛ **ولهذا سُئِلَ ابنُ عُيَيْنَةَ** رَحِمَهُ اللهُ **عن هذا الحديث، فقيل له: كأنَّ الحمدَ للهِ دعاءٌ؟ فقال**: «أَمَا سَمِعْتَ قولَ أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ لعبد الله بن جُدْعانَ يرجو نائلة:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْمًا ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ ... عَنِ الخَلْقِ الجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ

فهذا مخلوقٌ اكتفى مِنْ مخلوقٍ بالثناءِ عليه، فكيف بالخالق سبحانه؟!».

ويُؤيِّدُ هذا المعنى قولُ الله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]؛ فجعَلَ الحمدَ دعاءً.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «الدعاءُ يُرادُ به دعاءُ المسألةِ، ودعاءُ العبادة، والمُثْنِي على ربِّه بحمدِهِ وآلائِهِ داعٍ له بالاعتبارَيْن؛ فإنَّه طالبٌ منه، طالبٌ له، فهو الداعي حقيقةً؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]»[(٢)].

وممَّا ورَدَ في فضلِ الحمدِ وعِظَمِ ثوابِهِ عندَ الله: ما ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن أبي مالكٍ الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ، والحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ، وسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ ـ أَوْ تَمْلَأُ ـ مَا بَيْنَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا)**[(٣)].

فأخبَرَ ﷺ في هذا الحديثِ عن عظيمِ فضلِ الحمدِ وعظيم ثوابه،

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٥٢).

(٢) صيغ الحمد المطبوع باسم «مطالع السعد» (ص٩٠).

(٣) تقدم تخريجه (ص٦٩).

وأنَّه يملأُ الميزان. **وقد قيل**: إنَّ المرادَ بِملْئِهِ الميزانَ؛ **أي**: لو كان الحمدُ جِسْمًا لَمَلَأَ الميزانَ، وليس بسديدٍ، بل إنَّ الله ﷻ يُمثِّلُ أعمالَ بني آدمَ وأقوالَهم صُوَرًا يومَ القيامةِ، وتُوزَنُ حقيقةً؛ ومِنْ ذلكَ قولُهُ ﷺ كما في «الصحيحين»: **(كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمٰنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ)**[1].

❁ **فالحمدُ شأنُهُ عظيمٌ، وثوابُهُ جزيلٌ**، ويَترتَّبُ عليه مِنَ الأجرِ والثوابِ ما لا يعلمُهُ إلَّا اللهُ، وأهلُهُ هم الحَرِيُّونَ يومَ القيامةِ بأعلى المقامات، وأرفعِ الرُّتَبِ وأعلى المنازل؛ فإنَّ اللهَ ﷻ يُحِبُّ المحامدَ، ويُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ أن يُثْنِيَ عليه، ويرضى من عبدِهِ أنْ يأكلَ الأُكْلَةَ فيَحْمَدُهُ عليها، ويَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فيحمَدُهُ عليها، وهو تبارَكَ وتعالى المانُّ عليهم بالنعمة، والمتفضِّلُ عليهم بالحمد، فهو يبذُلُ نِعَمَهُ لعباده، ويَطْلُبُ منهم الثناءَ بها وذِكْرَها والحمدَ عليها، ويرضى منهم بذلكَ شكرًا عليها، وإنْ كان ذلكَ كلُّهُ مِنْ فضلِهِ عليهم، وهو غيرُ محتاجٍ إلى شكرهم، لكنَّه يُحِبُّ ذلك مِنْ عبادِهِ حيثُ كان صلاحُ العبدِ وفلاحُهُ وكمالُهُ فيه، فللَّهِ الحمدُ على نَعْمائه، وله الشكرُ على وافرِ فضلِهِ وجزيلِ عَطَائه، حمدًا كثيرًا طَيِّبًا مباركًا كما يُحِبُّ ربُّنا ويرضى.

❁ ❁ ❁

(١) تقدم تخريجه (ص٩٩).

٤٣

الْمَوَاطِنُ الَّتِي يَتَأَكَّدُ فِيهَا الْحَمْدُ

لقد مَرَّ معنا بيانُ فضلِ الحمدِ وعظيمُ ثوابِهِ مِنْ خلالِ النصوصِ الواردةِ في ذلكَ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ، وهي تدلُّ على أنَّ الحمدَ مِنْ أفضلِ الطاعات، وأجلِّ القُرُباتِ التي يَتَقرَّبُ بها العبدُ إلى الله تعالى.

۞ **والحمدُ مطلوبٌ مِنَ المسلمِ في كلِّ وقتٍ وحين**؛ إذْ إنَّ العبدَ في كلِّ أوقاتِهِ مُتقلِّبٌ في نعمةِ الله، وهو سبحانَهُ خالقُ الخلقِ ورازقُهم، وأسبَغَ عليهم نعمَهُ ظاهرةً وباطنةً، دينيةً ودنيويةً، ودفَعَ عنهم النِّقَمَ والمكارهَ، فليس بالعبادِ مِن نعمةٍ إلَّا وهو موليِّها، ولا يدفعُ الشَّرَّ عنهم سواه، فهو سبحانه يَسْتحِقُّ منهم الحمدَ والثناءَ في كلِّ وقتٍ وحين، كما أنَّه سبحانَهُ يَسْتحِقُّ الحمدَ لكمالِ صفاته، ولِمَا له مِنَ الأسماءِ الحسنى والنعوتِ العظيمةِ التي لا تنبغي إلَّا له، فكلُّ اسمٍ مِنْ أسمائه، وكلُّ صفةٍ مِنْ صفاته يستحقُّ عليها أكمَلَ الحمدِ والثناءِ؛ فكيف بجميعِ أسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العظيمة؟!

وكما أنَّ الحمدَ مطلوبٌ من المسلمِ في كلِّ وقتٍ، إلَّا أنَّ هناك أوقاتًا معيَّنةً وأحوالًا مخصوصةً تمرُّ بالعبدِ يكونُ فيها الحمدُ أكثرَ تأكيدًا.

* **ومِنْ هذه الأوقاتِ والأحوال**: حمدُ اللهِ في الخطبةِ وفي استفتاحِ الأمور، وفي الصلاةِ، وعَقِبَ الطعامِ والشرابِ واللِّبَاس، وعند العُطاسِ، ونحو ذلك مِنَ المواطنِ التي ورَدَ في السُّنَّةِ تخصيصُها بتأكُّدِ الحمدِ فيها، ولعلَّ مِنَ الحَسَنِ أن نقفَ مع بعضِ النصوصِ المشتملةِ على ذِكْرِ الأوقاتِ والمواطنِ التي يَتأكَّدُ فيها الحمدُ ممَّا وردَتْ به سُنَّةُ النبي ﷺ.

* **فمن هذه المواطن**: حَمْدُ اللهِ عند الفراغِ مِنَ الطعامِ والشرب؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ

إن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا)**(١)، وروى الترمذيُّ بإسنادٍ حسنٍ، عن معاذ بن أنس، عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ أَكَلَ طَعَامًا، فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)**(٢)، وروى البخاريُّ عن أبي أُمامة رضي الله عنه؛ أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا رفَعَ مائدتَهُ قال: **(الحَمْدُ للهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ، رَبَّنَا)**(٣)، وروى الإمام أحمد، والنَّسَائيُّ في «السنن الكبرى» بإسنادٍ صحيح، عن عبد الرحمٰن بن جُبير: «أنَّه حَدَّثَهُ رجلٌ خَدَمَ النبيَّ ﷺ ثمان سنين، أنَّه كان يسمعُ النبيَّ ﷺ إذا قُرِّبَ إليه طعامُهُ يقول: **(بِاسْمِ اللهِ)**، وإذا فرَغَ مِنْ طعامِهِ قال: **(اللَّهُمَّ أَطْعَمْتَ وَأَسْقَيْتَ، وَأَغْنَيْتَ وأَقْنَيْتَ، وَهَدَيْتَ وَأَحْيَيْتَ، فَلَكَ الحَمْدُ عَلَى مَا أَعْطَيْتَ)**»(٤).

* **ومِنْ مواطنِ الحمد**: حمدُ اللهِ في الصلاة، ولا سيَّما عند الرفعِ من الركوع؛ ففي «صحيح مسلم»، عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا رفَعَ رأسه، قال: **(سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلءَ السَّمٰوَاتِ وَمِلءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيءٍ بَعْدُ)**(٥).
وفيه أيضًا عن أبي سعيدٍ الخدريِّ: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا رفَعَ رأسَهُ مِنَ الركوعِ قال: **(رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، مِلءَ السَّمٰواتِ ومِلءَ الأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِن**

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣٤).
(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٤٠)، وأبو داود رقم (٤٠٢٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٥٨)، وابن ماجه رقم (٣٢٨٥)، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (٧/ ٤٨).
(٣) «صحيح البخاري» رقم (٥٤٥٨).
(٤) «المسند» (٤/ ٦٢)، و«السنن الكبرى» رقم (٦٨٩٨).
(٥) «صحيح مسلم» رقم (٧٧١).

شَيءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ)(١)، وروى البخاري في «صحيحه»، عن رِفَاعة بن رافع الزُّرَقيِّ رضي الله عنه، قال: «كنَّا نصلِّي وراءَ النبيِّ ﷺ، فَلَمَّا رفَعَ رأسَهُ من الركوع، قال: (**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**)، قال رجلٌ وراءَهُ: ربَّنا لكَ الحمدُ حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، فلمَّا انصرَفَ قال: (**مَنِ المُتَكَلِّمُ؟**)، قال: أنا، قال: (**قَدْ رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ**)»(٢)، وروى البخاريُّ ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ كان إذا قام مِنَ الليل يصلي يقول: (**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ...**)، إلى آخر الحديث(٣)، وروى مسلمٌ في «صحيحه» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: «بينما نحنُ نصلِّي مع رسول الله ﷺ قال رجلٌ: اللهُ أَكْبَرُ كبيرًا، والحمدُ للهِ كثيرًا، وسبحانَ اللهِ بُكْرةً وأصيلًا، فقال النبي ﷺ: (**مَنِ القَائِلُ كَذَا وكَذَا؟!**)، فقال رجلٌ مِنَ القومِ: أنا قلتُها يا رسول الله، قال: (**عَجِبْتُ لَهَا، فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ**)، قال ابن عمر: فما تركتُها منذ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُهُنَّ»(٤).

* **ومِنَ المواطنِ التي يَتأكَّدُ فيها الحمدُ لله**: في ابتداءِ الخُطَبِ والدروس، وفي ابتداءِ الكتبِ المصنَّفة، ونحوِ ذلك، روى أهلُ السُّنَنِ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «عَلَّمَنَا رسولُ الله ﷺ خُطْبَةَ الحاجةِ: (**الحَمْدُ للهِ نَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ**

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٤٧٧).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٧٩٩).
(٣) «صحيح البخاري» رقم (١١٢٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٦٩).
(٤) «صحيح مسلم» رقم (٦٠١).

فَلَا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ)[١]، ويُستَحَبُّ البدءُ به في تعليمِ الناسِ وفي الخُطَبِ؛ سواءٌ كانتْ خُطْبَةَ نكاحٍ، أو خطبةَ جمعةٍ، أو غَيْرَهما.

* **كما يُسْتَحَبُّ الحمدُ**: عندَ حصولِ نِعْمةٍ، أو اندفاعِ مكروهٍ، سواءٌ حصَلَ ذلكَ للحامِدِ نفسِهِ، أو لقريبِهِ، أو لصاحبِهِ، أو للمسلمينَ؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي هريرة ﷺ: «أنَّ النبيَّ ﷺ أُتِيَ ليلةَ أُسْرِيَ به بِقَدَحَيْنِ مِنْ خَمْرٍ ولَبَنٍ، فنظَرَ إليهما، فأخَذَ اللَّبَنَ، فقال له جبريلُ ﷺ: **(الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ، وَلَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ)**»[٢]، وفي «سنن» أبي داود، والنسائيِّ، بإسناد صحيح، عن أبي سعيد الخُدْري ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا استَجَدَّ ثوبًا سَمَّاهُ باسمِهِ: عِمَامَةً أو قميصًا أو رداءً، ثم يقولُ: **(اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ وخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وأَعُوذُ بِكَ مِنَ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ)**[٣].

* **ويَتأكَّدُ الحمدُ إذا عطَسَ العبدُ**، والعُطَاسُ نِعْمةٌ عظيمةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ على عباده؛ إذْ به يزولُ المُحتقِنُ في الأنف، والذي قد يكونُ في بقائِهِ أذًى أو ضررٌ على العبد؛ ولهذا يَتأكَّدُ على العبدِ حمدُ اللهِ على هذه النِّعْمة؛ روى البخاريُّ في «صحيحه»، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: **(إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلِ: الحَمْدُ للهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ اللهُ، وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ)**[٤].

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (٢١١٨)، و«جامع الترمذي» رقم (١١٠٥)، «سنن النسائي» رقم (١٤٠٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٨٩٢)، **وانظر في تخريج الحديث والكلام عليه**: «خطبة الحاجة» للألباني.

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٧٠٩)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٨).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٠)، و«سنن أبي داود» رقم (٤٠٢٠) و«جامع الترمذي» رقم (١٧٦٧)، و«السنن الكبرى» للنسائي رقم (١٠١٤١).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٢٤).

*** ويُستحبُّ للمسلمِ أن يَحْمَدَ اللهَ إذا رأى مبتلًى بعاهةٍ أو نحوها؛** ففي الترمذيِّ، من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: **(مَنْ رَأَى مُبْتَلًى، فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ البَلَاءُ)**(١).

*** كما ينبغي للمسلمِ أن يكونَ حامدًا لله في سَرَّائِهِ وضَرَّائِهِ، وفي شَدَّتِهِ ورخائِهِ، وفي سائرِ شؤونه؛** روى ابن ماجه في «سننه»، والحاكم في «مستدركه»، عن أمِّ المؤمنينَ عائشةَ ﷺ زوجِ النبيِّ ﷺ، قالت: «كان رسولُ الله ﷺ إذا رأى ما يُحِبُّهُ قال: **(الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ)**، وإذا رأى ما يَكْرَهُ قال: **(الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ)**»(٢).

فهذه بعضُ المواطنِ التي يَتأكَّدُ فيها الحمدُ مما وَرَدَتْ به السُّنَّة، وسيَمُرُّ معنا - بإذنِ الله - الإشارةُ إلى مواطنَ أخرى؛ فالحمدُ لله حَمْدًا كثيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه، كما يُحِبُّ ربُّنا ويرضى، حمدًا لا ينقطع، ولا يَبِيد، ولا يَفْنَى، عَدَدَ ما حَمِدَهُ الحامدون، وعَدَدَ ما غَفَلَ عن ذكرِهِ الغافلون.

* * *

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٣٢)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٤٨).

(٢) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٠٣)، و«المستدرك» (١/ ٤٩٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٢٧).

٤٤

أَعْظَمُ مُوجِبَاتِ الْحَمْدِ: الْعِلْمُ بِأَسْمَاءِ الرَّبِّ وَصِفَاتِه

لا ريبَ أنَّ الحمدَ كلَّهُ للهِ ربِّ العالمين؛ فإنَّه سبحانَهُ المحمودُ على كلِّ شيء، وهو المحمودُ على ما خَلَقَهُ وأمَرَ به ونَهَى عنه، والحمدُ أوسعُ الصفات، وأَعَمُّ المدائح، وأعظَمُ الثناء، والطُّرُقُ إلى العلمِ به في غايةِ الكَثْرة؛ لأنَّ جميعَ أسمائِهِ تبارَكَ وتعالى حَمْدٌ، وصفاتِهِ حمدٌ، وأفعالِهِ حَمْدٌ، وأحكامِهِ حمدٌ، وعدلِهِ حمدٌ، وانتقامِهِ مِنْ أعدائِهِ حمدٌ، وفضلِهِ وإحسانِهِ إلى أوليائِهِ حمدٌ، والخَلْقُ والأمرُ إنَّما قام بِحَمْده، ووُجِدَ بِحَمْده، وظَهَرَ بحمده، وكان لِغَايَةٍ هي حَمْدُهُ، فحَمْدُهُ سبحانه سببُ ذلك وغايتُهُ ومظهره وحامله، فحَمْدُهُ رُوحُ كلِّ شيء، وقيامُ كلِّ شيءٍ بِحَمْده، وسَرَيَانُ حَمْدِهِ في الموجودات، وظهورُ آثارِهِ أمرٌ مشهودٌ بالأبصارِ والبصائر.

وقد نَبَّهَ سبحانَهُ على شمولِ حمدِهِ لخلقِهِ وأمرِهِ بأَنْ حَمِدَ نفسَهُ في أول الخلقِ وآخِره، وعندَ الأمرِ والشرع، وحَمِدَ نفسَهُ على ربوبِيَّتِهِ للعالمين، وحَمِدَ نفسَهُ على تفرُّدِهِ بالإلـٰهيَّةِ وعلى حياته، وحَمِدَ نَفْسَهُ على امتناعِ اتصافِهِ بما لا يليقُ به مِنِ اتخاذِ الولدِ والشريك، إلى غيرِ ذلك مِنْ أنواعِ ما حَمِدَ اللهُ به نفسَهُ في كتابه.

۞ **ولهذا، فإنَّ مِنَ الطُّرُقِ العظيمةِ الدالَّةِ على شمولِ معنى الحَمْدِ وتناولِهِ لجميعِ الأشياءِ:** معرفةَ العبدِ لأسماءِ الربِّ تبارك وتعالى وصفاتِهِ، وإقرارَهُ بأنَّ للعالَمِ إلـٰهًا حيًّا جامعًا لكلِّ صفةِ كمال، واسمٍ حسنٍ، وثناءٍ جميل، وفعلٍ كريم، وأنَّه سبحانه له القدرةُ التامَّة، والمشيئةُ النافذة، والعلمُ المحيط، والسمعُ الذي وَسِعَ الأصواتَ، والبَصَرُ الذي أحاطَ بجميعِ المُبْصَرَاتِ، والرحمةُ التي وَسِعَتْ جميعَ المخلوقات، والمُلْكُ الكاملُ الذي لا يَخْرُجُ عنه

ذَرَّةٌ من الذَّرَّات، والغنى التامُّ المطلقُ مِنْ جميعِ الجهات، والحكمةُ البالغةُ المشهودةُ آثارُها في الكائنات، والعِزَّةُ الغالبةُ بجميعِ الوجوهِ والاعتبارات، والكلماتُ التامَّاتُ النافذات، التي لا يُجاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ مِنْ جميعِ البَرِيَّات، واحدٌ لا شريكَ له في ربوبيَّتِهِ ولا في إلٰهيَّته، ولا شبيهَ له في ذاته، ولا في صفاتِهِ ولا في أفعالِه، وليس له مَنْ يَشْرَكُهُ في ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ مُلْكه.

وهو سبحانَهُ قَيُّومُ السمٰواتِ والأَرَضِين، إلٰهُ الأوَّلينَ والآخِرِين، ولا يزالُ سبحانه موصوفًا بصفاتِ الجلال، منعوتًا بنعوتِ الكمال، مُنزَّهًا عن أضدادها مِنَ النقائصِ والعيوب، فهو الحَيُّ القيوم، الذي لكمالِ حياتِهِ وقيُّوميَّتِهِ لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نوم، مالكُ السمٰواتِ والأرضِ الذي لكمالِ مُلْكِهِ لا يشفعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه، العالمُ بكلِّ شيء، الذي لكمالِ علمِهِ يَعْلَمُ ما بينَ أيدي الخلائقِ وما خَلْفَهُمْ، فلا تَسْقُطُ ورقةٌ إلَّا بِعِلْمه، ولا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلَّا بإذنه، يَعْلَمُ دبيبَ الخواطرِ في القلوب، حيثُ لا يَطَّلِعُ عليه المَلَك، ويعلمُ ما سيكونُ منها حيثُ لا يَطَّلِعُ عليه القَلْب، البصيرُ الذي لكمالِ بَصَره يرى تفاصيلَ خَلْقِ الذَّرَّةِ الصغيرةِ وأعضاءَها ولَحْمَها ودَمَهَا ومُخَّها وعروقَها، ويرى دَبِيبَهَا على الصَّخْرةِ الصَّمَّاءِ في الليلةِ الظلماء، ويرى ما تحتَ الأَرَضِينَ السبعِ، كما يرى ما فوقَ السمٰواتِ السبعِ.

السميعُ الذي قد استَوَى في سَمْعِهِ سِرُّ القولِ وجَهْرُه، وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ، فلا تختلفُ عليه أصواتُ الخَلْق، ولا تشتبهُ عليه، ولا يَشْغَلُهُ منها سَمْعٌ عن سمع، ولا تُغْلِطُهُ المسائل، ولا يُبْرِمُهُ كثرةُ السائلين، قالت عائشةُ ﵂: «الحمدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ، لقد جاءتِ المُجادِلَةُ تشكو إلى رسولِ الله ﷺ، وإني لَيَخْفَى عليَّ بعضُ كلامها، فأنزلَ اللهُ ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]»[1].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٤٦)، والنسائي رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه رقم (١٨٨)، وصحَّحه الألباني في تعليقه على «السُّنَّة» لابن أبي عاصم رقم (٦٢٥).

القديرُ الذي - لكمالِ قدرتِهِ - يهدي مَنْ يشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يشاء، ويجعلُ المؤمنَ مؤمنًا والكافرَ كافرًا، والبَرَّ برًّا والفاجرَ فاجرًا، ولكمالِ قدرتِهِ سبحانه لا يحيطُ أحدٌ بشيءٍ مِنْ علمِهِ إلَّا بما شاءَ أنْ يُعْلِمَهُ إيَّاه، ولكمالِ قدرتِهِ خلَقَ السمٰواتِ والأرضَ وما بينهما في ستة أيَّام، وما مَسَّهُ مِنْ لُغُوبٍ، ولا يُعْجِزُهُ أحدٌ مِنْ خلقِهِ ولا يَفُوتُهُ، بل هو في قبضتِهِ أين كان، ولكمالِ غناه استحالَ إضافةُ الولدِ والصاحبةِ والشريكِ والشفيعِ بدون إذنِهِ إليه، ولكمالِ عظمتِهِ وعُلُوِّهِ وسِعَ كرسيُّه السمٰواتِ والأرضَ، ولم تَسَعْهُ أرضُهُ ولا سمٰواتُهُ، ولم تُحِطْ به مخلوقاتُهُ، بل هو العالي على كلِّ شيء، وهو بكلِّ شيءٍ محيط.

يقولُ الله تعالى في أوَّل سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس].

وهو سبحانَهُ يُحِبُّ رُسُلَهُ، ويُحِبُّ عبادَهُ المؤمنينَ، وهم يُحِبُّونه ويَحْمَدونه، بل لا شيءَ أحبُّ إليهم منه، ولا أشوقُ إليهم مِنْ لقائه، ولا أقرُّ لعيونهم من رؤيته، ولا أحظى عندهم مِنْ قُرْبه، وهو سبحانه له الحكمةُ البالغةُ في خَلْقه وأَمْره، وله النعمةُ السابغةُ على خَلْقه، وكلُّ نعمةٍ منه فَضْل، وكلُّ نِقْمةٍ منه عَدْلٌ، وهو سبحانه أَرْحَمُ بعبادِهِ مِنَ الوالدةِ بِوَلَدِها، وأفرحُ بتوبةِ عبدِهِ

مِنْ واجدِ راحلتِهِ التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ في الأرضِ المُهْلِكةِ بعد فَقْدِها واليأسِ منها.

وهو سبحانه رحيمٌ بعبادِهِ، لم يُكَلِّفْهُمْ إلَّا وُسْعَهم، وهو دونَ طاقتهم، فقد يطيقونَ الشيءَ ويَضِيقُ عليهم، بخلافِ وُسْعِهم؛ فإنَّهُ ما يَسَعُونَهُ، ويَسْهُلُ عليهم، ويَفْضُلُ قدرهم عنه، ولا يعاقبُ سبحانَهُ أحدًا بغيرِ فعله، ولا يعاقبُهُ على فعل غَيْرِه، ولا يعاقبُهُ بتركِ ما لا يَقْدِرُ على فعله، ولا على فِعْلِ ما لا قُدْرَةَ له على تَرْكِه، وهو سبحانه حكيمٌ، كريم جَوَادٌ ماجد، مُحْسِنٌ وَدُود، صَبُورٌ شَكُور، يُطَاعُ فيَشْكُرُ، ويُعْصَى فيَغْفِرُ، لا أحدَ أصبرُ على أَذًى سَمِعَهُ منه، ولا أحدَ أحبُّ إليه المَدْحُ منه، ولا أحدَ أَحَبُّ إليه العُذْرُ منه، ولا أحَدَ أحبُّ إليه الإحسانُ منه، فهو محسنٌ يُحِبُّ المحسنين، شَكُورٌ يحبُّ الشاكرين، جميلٌ يُحِبُّ الجمال، طَيِّبٌ يُحِبُّ كلَّ طيِّب، عليمٌ يحبُّ العلماءَ مِنْ عباده، كريمٌ يحبُّ الكُرَماء، قويٌّ والمؤمنُ القويُّ أحبُّ إليه مِنَ المؤمنِ الضعيف، بَرٌّ يحبُّ الأبرار، عَدْلٌ يحبُّ أهلَ العدل، حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يحبُّ أهلَ الحياءِ والسِّتْر.

وهو سبحانه يحبُّ أسماءَهُ وصفاتِه، ويحبُّ المتعبِّدينَ له بها، ويحبُّ مَنْ يسألُهُ ويَمْدَحُهُ بها، ويحبُّ مَنْ يعرفُها ويَعْقِلُها ويُثْنِي عليه بها، ويَحْمَدُهُ ويمدحُهُ بها؛ كما في «الصحيح»، عن النبي ﷺ: **«لَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»**[(١)][(٢)].

وبهذا يُعْلَمُ أنَّ مَنْ كان له نصيبٌ مِنْ معرفةِ أسماءِ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العليا الواردةِ في كتابِهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ، عَلِمَ تَمَامَ العلم أنَّ اللهَ لا يكونُ له مِنْ ذلك إلَّا ما يوجبُ الحمدَ والثناءَ، فالحمدُ مُوجَبُ أسمائِهِ الحسنى،

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٦٣٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٦٠).

(٢) **انظر**: «طريق الهجرتين» لابن القيِّم (ص٢١٠ ـ ٢٢٦).

وصفاتِهِ العليا، وأفعالِهِ الحميدة، ولا يُخْبَرُ عنه سبحانه إلَّا بالحمد، ولا يُثْنَى عليه إلَّا بأحسن الثناء، كما لا يُسمَّى إلَّا بأحسنِ الأسماء، فكلُّ صفةٍ عُلْيَا، واسمٍ حسنٍ، وثناءٍ جميل، وكلُّ حمدٍ ومدحٍ، وتسبيحٍ وتنزيهٍ وتقديسٍ، وإجلالٍ وإكرامٍ، فهو لله ﷻ على أكملِ الوجوه وأتمِّها وأدْوَمِها؛ فسبحانَ اللهِ وبحمدِهِ، لا يحصِي أحدٌ مِنْ خَلْقِهِ ثناءً عليه، بل هو كما أَثْنَى على نفسِهِ وفوقَ ما يثني به عليه خَلْقُه؛ فله الحمدُ أوَّلًا وآخرًا، حمدًا كثيرًا طَيِّبًا مباركًا فيه كما يُحِبُّ ربُّنا الكريمُ ويَرْضَى.

❁ ❁ ❁

٤٥

حَمْدُ اللَّهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ وَآلائِهِ

تَقدَّمَ معنا الإشارةُ إلى شمولِ حَمْدِ اللهِ سبحانه وتناوُلِهِ لجميعِ ما يُحْدِثُهُ مِنْ إحسانٍ ونعمةٍ وغيرِ ذلك، وأنَّ حَمْدَهُ سبحانه هو مُوجَبُ أسمائِهِ الحسنى، وصفاته العليا، وأفعالِهِ الحميدة؛ **وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ حَمْدَ اللهِ نوعان: حمدٌ** على إحسانِهِ إلى عباده، وهو مِنَ الشُّكْر، **وحمدٌ** لِمَا يستحقُّهُ هو بنفسِهِ مِنْ صفاتِ كمالِهِ ونُعوتِ جلالِهِ سبحانه. وقد كان أكثرُ الحديثِ السابق عن حمدِ اللهِ على أسمائِهِ الحسنى وصفاته العظيمة، وأنَّ عِلْمَ العبدِ بها علمًا صحيحًا هو مِنْ أعظمِ مُوجِبَاتِ قيامِهِ بحمدِ اللهِ على أحسنِ وَجْهٍ وأتمِّ حالٍ. وأمَّا الحديثُ هنا، فسيكون عن النوع الثاني مِنْ أنواعِ الحمد، **وهو حَمْدُ اللهِ على نِعَمِهِ وآلائِهِ**.

يقولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، ويقولُ تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ويقولُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فَنِعَمُ اللهِ على عبادِهِ كثيرةٌ ومتنوِّعة، وكلُّ نعمةٍ منها مُوجِبةٌ لحمدِ المُنْعِمِ سبحانه، وكما أنَّ أسبابَ الحمدِ ومُوجِبَاتِهِ متنوِّعةٌ متعدِّدةٌ، فكذلك الحمدُ تَنوَّعَ بتنوُّعها، وكَثُرَ بِكَثْرَتها.

وقد فصَّل ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ الحديثَ عن هذا النوعِ في كتابه «طريق الهجرتَيْن»، وذكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ هذا النوعَ مِنَ الحمدِ ـ حَمْدِ النِّعَمِ والآلاءِ ـ مشهودٌ للخليقةِ بَرِّها وفَاجِرِها، مُؤْمِنِها وكافرِها؛ مِنْ جزيلِ مَوَاهِبِه، وسَعَةِ عطاياه، وكريمِ أياديه، وجميلِ صنائعه، وحُسْنِ معاملتِهِ لعباده، وسَعَةِ رحمتِهِ لهم،

وَبِرِّهُ ولُطْفِهِ وحَنَانِهِ وإجابتِهِ لِدَعَواتِ المضطرِّين، وكَشْفِ كُرُباتِ المكروبين، وإغاثةِ الملهوفين، ورحمتِهِ للعالمين، وابتدائِهِ بالنِّعَمِ قبلَ السؤالِ ومِنْ غيرِ استحقاق، بل ابتداءً منه بمجرَّدِ فضلِهِ وكرمِهِ وإحسانه، ودَفْعِ المِحَنِ والبلايا بعد انعقادِ أسبابها، وصَرْفِها بعدَ وقوعها، ولُطْفِهِ تعالى في ذلك إلى ما لا تبلغُهُ الآمال، وهدايةِ خاصَّتِهِ وعبادِهِ إلى سبيلِ دار السلام، ومدافعتِهِ عنهم أحسنَ الدفاع، وحمايتِهِمْ عن مَرَاتعِ الآثام، وحَبَّبَ إليهم الإيمان، وزَيَّنَهُ في قلوبهم، وكَرَّهَ إليهمُ الكفرَ والفسوقَ والعصيان، وجَعَلَهُمْ مِنَ الراشدين، وكتَبَ في قلوبهمُ الإيمان، وأيَّدهم بِرُوحٍ منه، وسمَّاهم المسلمينَ مِنَ قبلِ أنْ يَخْلُقَهم، وذَكَرَهُمْ قبلَ أن يَذْكُرُوه، وأعطاهُمْ قبلَ أن يَسْأَلُوه، وتَحبَّبَ إليهم بنعمِهِ مع غناه، وتَبَغُّضِهِمْ إليه بالمعاصي، وفَقْرِهم إليه، ومع هذا كلِّه: فاتَّخَذَ لهم دارًا، وأعَدَّ لهم فيها مِنْ كلِّ ما تشتهيه الأنفسُ وتَلَذُّ الأعين، وملأها مِنْ جميعِ الخيرات، وأوْدَعَها مِنَ النَّعِيمِ والحَبْرَةِ والسرورِ والبهجةِ ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بشر.

ثم أرسَلَ إليهم الرُّسُلَ يدعونهم إليها، ثُمَّ يَسَّرَ لهمُ الأسبابَ التي توصلهم إليها، وأعانَهُمْ عليها، ورَضِيَ منهم باليسيرِ في هذه المُدَّةِ القصيرةِ جدًّا، بالإضافةِ إلى بقاءِ دارِ النعيم، وضَمِنَ لهم - إنْ أحسنوا - أنْ يثيبهم بالحسنةِ عَشْرًا، وإنْ أساؤوا واستغفروا أنْ يَغْفِرَ لهم، ووَعَدَهم أن يَمْحُوَ ما جَنَوْهُ مِنَ السيِّئات بما يفعلونَهُ بعدها مِنَ الحَسَنات، وذكَّرهم بآلائِه، وتَعرَّفَ إليهم بأسمائِه، وأَمَرَهُمْ بما أمرهم به؛ رحمةً منه بهم وإحسانًا، لا حاجةً منه إليهم، ونهاهم عمَّا نهاهم عنه؛ حمايةً وصيانةً لهم، لا بُخْلًا منه عليهم، وخاطَبَهُمْ بألطفِ خِطَابٍ وأحلاه، ونَصَحَهُمْ بأحسنِ النصائح، ووصَّاهم بأكملِ الوصايا، وأَمَرَهم بأشرفِ الخصال، ونهاهُمْ عن أقبحِ الأقوالِ والأعمال، وصَرَّفَ لهمُ الآيات، وضرَبَ لهمُ الأمثال، ووَسَّعَ لهمْ طرقَ العلم به ومعرفتِهِ، وفتَحَ لهم أبوابَ الهداية، وعَرَّفَهُمُ الأسبابَ التي تُدْنِيهِمْ مِنْ رضاه، وتُبعِدُهُمْ عن غضبه، وخَاطَبَهُمْ بألطفِ الخطاب، وسَمَّاهم بأحسنِ أسمائِهِمْ؛ كقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحج: ٧٧]، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ [البقرة: ١٨٦]، فَخاطَبَهُمْ بخطابِ الوِدادِ والمحبَّةِ والتلطُّفِ؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار].

وأكثرُ القرآنِ جاء على هذا النمطِ مِنْ خطابِهِ لعبادِهِ بالتودُّدِ والتحنُّنِ واللُّطْفِ والنصيحةِ البالغة؛ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، **قال ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتحت هذا الخطابِ: إنِّي عاديتُ إبليسَ وطَرَدتُّهُ مِنْ سمائي، وباعدتُّهُ مِنْ قربي؛ إذْ لم يَسْجُدْ لأبيكم آدمَ، ثم أنتم يا بنيه توالونَهُ وذُرِّيَّتَهُ مِنْ دوني وهم أعداؤكم، فليتأمَّلِ اللبيبُ مواقعَ هذا الخطابِ، وشِدَّةَ لُصوقِهِ بالقلوبِ والتباسِهِ بالأرواح.

ثم إنَّه سبحانه قد أعلَمَ عبادَهُ بأنَّه لا يرضى لهم إلَّا أكرَمَ الوسائل، وأفضلَ المنازِل، وأجلَّ العلوم والمعارف؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء].

ثم هو سبحانه لم يَخْلُقْ عبادَهُ لحاجةٍ منه إليهم، ولا لِيَتكثَّرَ بهم مِنْ قِلَّةٍ، ولا لِيَتعزَّزَ بهم مِنْ ذِلَّة، بل كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات]، وقال سبحانه عَقِبَ أمرِهِ لعبادِهِ بالصَّدَقةِ، ونَهْيِهِمْ لهم عن إخراجِ الرديء مِنَ المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فهو سبحانه غَنِيٌّ عما ينفقونَ أنْ ينالَهُ منه شيءٌ، حميدٌ مستحقٌّ للمَحَامِدِ كلِّها؛ فإنفاقُ العبادِ لا يَسُدُّ منه حاجةً، ولا يُوجِبُ له حمدًا، بل هو الغنيُّ بنفسِهِ، الحميدُ بنفسِهِ وأسمائِهِ وصفاته، وإنفاقُ العبادِ نَفْعُهُ عائدٌ لهم، وإحسانُهُمْ عائدٌ إليهم؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧]، وقال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، وقال: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [يونس: ١٠٨]»[1].

هذا؛ ومَنْ أرادَ مطالعةَ أصولِ النِّعَمِ وما تُوجِبُهُ مِنْ حمدِ اللهِ وذِكْرِهِ وشكرِهِ وحسنِ عبادتِه، فَلْيُدِمْ سَرْحَ الذِّكْرِ في رياضِ القرآنِ الكريم، ولْيَتأمَّلْ ما عَدَّدَ اللهُ فيه مِنْ نِعَمِه، وتَعرَّفَ بها إلى عبادِهِ مِنْ أوَّلِ القرآنِ إلى آخره؛ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيِّم (ص٢٣١ ـ ٢٣٧).

٤٦

حَمْدُ اللَّهِ هُوَ أَفْضَلُ النِّعَمِ

لا رَيْبَ في عِظَم شأنِ الحمدِ، وجلالةِ قَدْرِهِ، وكثرةِ ثوابه؛ فهو مِنْ أجلِّ الطاعات، وأحسنِ القُرُبَات، وهو أَحَقُّ ما تَقرَّبَ به العبدُ إلى ربِّه سبحانه؛ ثبَتَ في «الصحيح»، أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا رفَعَ رأسَهُ من الركوعِ يقول: **(رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ، مِلْءَ السَّمٰوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ، أَحَقُّ ما قَالَ العَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ)**(١).

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا لفظُ الحديثِ: **(أَحَقُّ)**: أَفْعَلُ تفضيلٍ، وقد غَلِطَ فيه طائفةٌ مِنَ المصنِّفين، فقالوا: «حَقٌّ ما قالَ العبدُ»، وهذا ليس لَفْظَ الرسولِ، وليس هو بقولٍ سديدٍ؛ فإنَّ العبدَ يقولُ الحقَّ والباطلَ، بل الحقُّ ما يقولُهُ الربُّ؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤]، ولكن لفظة: **(أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ)** خبرُ مبتدإٍ محذوف؛ **أي**: الحمدُ أحقُّ ما قال العبدُ، أو هذا ـ وهو الحمدُ ـ أحقُّ ما قال العبدُ، ففيه بيَّنَ أنَّ الحمدَ أحقُّ ما قاله العبدُ؛ ولهذا أوجَبَ قولَهُ في كلِّ صلاة، وأنْ تُفْتَتَحَ به الفاتحة، وأوجَبَ قولَهُ في كلِّ خُطْبة، وفي كلِّ أمر ذي بال»(٢).اهـ.

والحمدُ هو أفضلُ نِعَمِ اللهِ على عباده، وهو أجلُّ مِنْ نِعَمِ الله التي أنعَمَ بها على العبدِ؛ مِنْ رزقِهِ وعافيَتِه وصحَّتِه والتَّوْسِعةِ عليه في دنياه ونحوِ ذلك، ويشهدُ لهذا ما رواه ابنُ ماجه، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً، فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ، إِلَّا كَانَ مَا أَعْطَى أَفْضَلَ**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٠٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣١٢).

مِمَّا أَخَذَ)(١).

ورُوِيَ هذا أيضًا عن الحَسَن البصريِّ موقوفًا عليه؛ رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الشكر»(٢)، وفي الأَثرِ أنَّ بعضَ عُمَّالِ عُمَرَ بنِ عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ **كَتَبَ إليه**: «إنِّي بأرضٍ قد كَثُرَتْ فيها النِّعَمُ، حتى لقد أَشْفَقْتُ على أهلها مِنْ ضعفِ الشكر»، **فكتَبَ إليه عمر** رَحِمَهُ اللهُ: «إنِّي قد كنتُ أراكَ أَعْلَمَ باللهِ مِمَّا أنت، إنَّ اللهَ لم يُنْعِمْ على عبدِهِ نعمةً، فحَمِدَ اللهَ عليها إلا كان حَمْدُهُ أفضلَ مِن نِعَمِهِ، لو كنتَ لا تعرفُ ذلكَ إلا في كتابِ اللهِ المنزَّل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وقال الله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر]، وأيُّ نِعمةٍ أفضلُ من دخولِ الجنة؟!»(٣).

فهذا فيه أوضحُ دَلَالةٍ على أنَّ حَمْدَ اللهِ على النِّعْمةِ أفضلُ مِنَ النِّعمةِ نفسها، وقد استَشْكَلَ هذا بعضُ أهلِ العلم، وقال: لا يكونُ فعلُ العبدِ أفضلَ مِنْ فعلِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، **أوردَ هذا الاستشكالَ ابنُ رَجَبٍ في كتابه «جامع العلوم والحكم»، وأجاب عنه جوابًا وافيًا مسدَّدًا، فقال** رَحِمَهُ اللهُ: «المرادُ بالنِّعَمِ: النِّعَمُ الدنيويةُ؛ كالعافيةِ والرِّزْقِ والصحةِ ودفعِ المكروه، ونحوِ ذلك، والحمدُ لله هو مِنَ النِّعَم الدينية، وكلاهما نعمةٌ مِنَ الله، لكنَّ نعمةَ اللهِ على عبدِهِ بهدايتِهِ لشكرِ نِعَمِهِ بالحمدِ عليها أفضلُ مِن نِعَمِهِ الدنيويةِ على عبده؛ فإنَّ النِّعَمَ الدنيوية، إنْ لم يقترنْ بها الشكرُ كانتْ بَلِيَّة؛ كما قال أبو حازمٍ: كلُّ نعمةٍ لا تُقرِّبُ مِنَ الله، فهي بليَّة. فإذا وَفَّقَ اللهُ عبدَهُ للشكرِ على نِعَمِهِ الدنيويةِ بالحمد، أو غيرِهِ مِنْ أنواعِ الشكر، كانتْ هذه النعمةُ خيرًا

(١) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٠٥)، وحسَّنه الألباني كما في «السلسلة الضعيفة» (٥/ ٢٤).
(٢) برقم (١١١).
(٣) أورده ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٨٢)، وقد رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨٥٤) مختصرًا، وأبو نُعَيم في «الحلية» (٥/ ٢٩٣) بتمامه.

مِنْ تلكَ النِّعَم، وأَحَبَّ إلى اللهِ ﷻ منها؛ فإنَّ اللهَ يُحِبُّ المحامدَ، ويرضى من عبدِهِ أن يأكلَ الأَكْلةَ فيحمَدُهُ عليها، ويَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فيحمدُهُ عليها، والثناءُ بالنِّعَمِ والحمدُ عليها وشُكْرُها عندَ أهلِ الجُودِ والكرم أحبُّ إليهم مِنْ أموالِهم، فَهم يَبْذُلُونَهَا طلبًا للثناء، واللهُ ﷻ أكرَمُ الأكرمين، وأجودُ الأجودين، فهو يَبْذُلُ نِعَمَهُ لعباده، ويطلُبُ منهم الثناءَ بها وذِكْرَها والحمدَ عليها، ويرضى منهم بذلك شكرًا عليها، وإنْ كان ذلك كلُّه مِنْ فضلِهِ عليهم، وهو غيرُ محتاجٍ إلى شُكْرِهم، لكنَّه يُحِبُّ ذلكَ مِنْ عباده، حيثُ كان صلاحُ العبدِ وفلاحُهُ وكمالُه فيه، ومِن فضلِهِ أنَّه نسَبَ الحمدَ والشكرَ إليهم، وإنْ كان مِنْ أعظم نِعَمِهِ عليهم، وهذا كما أنَّه أعطاهُمْ ما أعطاهُمْ مِنَ الأموال، ثمَّ استَقْرَضَ منهم بعضَهُ ومَدَحَهُمْ بإعطائه، والكلُّ مُلْكُه، ومِنْ فضله، ولكنَّ كرمَهُ اقتضى ذلك»[1]. اهـ كلامه رحمه الله.

وبه يَتبيَّنُ معنى الحديثِ المتقدِّم: **(مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً، فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ، إِلَّا كَانَ مَا أَعْطَى أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ)**؛ فالعبدُ أَعْطَى الحمدَ، والحَمْدُ نفسُهُ نعمةٌ مِنَ اللهِ عليه، ولولا توفيقُ اللهِ وإعانتُهُ لَمَا قامَ بِحَمْده، فنعمةُ اللهِ على عبدِهِ بتوفيقِهِ للحمدِ أفضلُ مِنْ نعمةِ اللهِ عليه بالصِّحَّةِ والعافيةِ والمالِ ونحوِ ذلك، والكلُّ نعمةُ الله؛ **قال ابن القيِّم** رحمه الله: «فنعمةُ الشكرِ أجَلُّ مِنْ نعمةِ المالِ والجاهِ والولدِ والزوجةِ ونحوها»[2]. اهـ.

ولهذا، فإنَّ حمدَ اللهِ ﷻ وشُكْرَهُ على نِعَمِهِ هو بِحَدِّ ذاتِهِ نعمةٌ عظيمةٌ، تستوجبُ حمدًا آخَرَ وشكرًا متجدِّدًا.

روى ابن أبي الدنيا في كتاب «الشكر»، **عن بَكْر بن عبد الله، قال:** «ما قال عبدٌ قطُّ: الحمدُ للهِ، إلا وجَبَتْ عليه نعمةٌ بقوله: الحمدُ للهِ، فما جزاءُ تلك النعمةِ؟ جزاؤُهَا أنْ يقولَ: الحمدُ للهِ، فجاءتْ أخرى، ولا تَنْفَدُ نِعَمُ الله ﷻ»[3].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٨٢، ٨٣). (٢) «عُدَّة الصابرين» (ص١٦٩).
(٣) «الشكر» (ص١٧).

ولذا قال الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في حَمْدِ الله**: «الحمدُ للهِ الذي لا يُؤَدَّى شُكْرُ نِعْمةٍ مِنْ نِعَمِهِ إلا بنعمةٍ حادثةٍ تُوجِبُ على مؤدِّيها شُكْرَهُ بها»(١).

أيْ: إنَّ العبدَ إذا حَمِدَ اللهَ، فهذه نعمةٌ أخرى حادثةٌ تستوجبُ حمدًا آخر.

قال ابنُ أبي الدنيا: أنشدني محمودٌ الوَرَّاق:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ وُقُوعُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا ... وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الأَجْرُ
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ مِنَّةٌ ... تَضِيقُ بِهَا الأَوْهَامُ وَالبَرُّ والبَحْرُ(٢)

وقال آخَرُ في المعنى نفسه:

لَوْ كُلُّ جَارِحَةٍ مِنِّي لَهَا لُغَةٌ ... تُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنِ
لَكَانَ مَا زَادَ شُكْرِي إِذْ شَكَرْتُ بِهِ ... إِلَيْكَ أَبْلَغَ فِي الإِحْسَانِ وَالمِنَنِ(٣)

فاللَّهُمَّ لك الحمدُ شكرًا، ولَكَ المَنُّ فضلًا، لك الحمدُ بالإسلام، ولك الحمدُ بالإيمان، ولك الحمدُ بالقرآن، ولك الحمدُ بالأهلِ والمالِ والمعافاة، لك الحمدُ بكلِّ نعمةٍ أنعمْتَ بها علينا في قديم أو حديث، أو سرٍّ أو علانية، أو خاصَّةٍ أو عامَّة، لك الحمدُ على ذلكَ حمدًا كثيرًا، اللَّهُمَّ لك الحمدُ حتى تَرْضَى، ولكَ الحمدُ رَبَّنا إذا رَضِيت.

❁ ❁ ❁

(١) أورده ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٤٠).
(٢) «الشكر» (ص٤٤).
(٣) أورده ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٤٠).

٤٧

أَفْضَلُ صِيَغِ الْحَمْدِ وَأَكْمَلُهَا

تَقدَّمَ بيانُ فضلِ الحمدِ وعِظَمِ ثوابِهِ عندَ الله، والإشارةُ إلى بعض صِيَغِهِ الواردةِ في القرآن الكريم، وفي أحاديثِ الرسولِ الكريم ﷺ؛ كقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقولِ: **(الحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى)**[١]، ونحوِ ذلك مما ورَدَ في القرآنِ الكريمِ ممَّا حَمِدَ به الربُّ نفسَهُ، وما ورَدَ في سُنَّةِ النبيِّ الكريمِ ﷺ ممَّا حَمِدَ به الرسولُ ﷺ ربَّه، وهي صيغٌ عظيمةٌ، مشتملةٌ على أحسنِ الحمدِ وأكملِهِ وأوفاه، **وقد ذكَرَ بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ أفضلَ صيغِ الحَمْد**: «الحمدُ للهِ حمدًا يُوافِي نِعَمَهُ، ويكافئُ مَزِيدَهُ»، واحتجَّ بما ورَدَ **عن أبي نصرٍ التَّمَّارِ أنَّه قال**: «قال آدمُ ﷺ: يا رَبِّ، شَغَلْتَني بِكَسْبِ يَدَيَّ، فَعَلِّمْني شيئًا مِنْ مجامعِ الحمدِ والتسبيحِ، فأَوْحَى اللهُ إليه: يا آدمُ إذا أصبحْتَ فقُلْ ثلاثًا، وإذا أمسيتَ فقلْ ثلاثًا: الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ حَمْدًا يُوافِي نِعَمَهُ، ويكافئُ مَزِيدَهُ؛ فذلك مجامعُ الحَمْد».

وقد رُفِعَ ذلك للإمام المحقِّق ابن قيِّم الجوزيَّة رحمه الله، فأنكَرَهُ على قائلِهِ غايةَ الإنكار، وبيَّن رحمه الله أنَّ ذلكَ لم يَرِدْ عن النبيِّ ﷺ في شيءٍ مِنَ الصِّحَاحِ، أو السننِ، أو المَسَانِيد، ولا يُعْرَفُ في شيءٍ مِنْ كتبِ الحديثِ المُعْتَمَدة، وبَسَطَ القولَ رحمه الله في ذلكَ في رسالةٍ مفردة.

قال رحمه الله: «هذا الحديثُ ليس في «الصحيحَيْن»، ولا في أحدِهما، ولا يُعْرَفُ في شيءٍ مِنْ كتبِ الحديثِ المعتمدة، ولا له إسنادٌ معروف،

(١) أبو داود رقم (٧٧٣)، والترمذي رقم (٤٠٤)، والنسائي رقم (٩٣١).

وإنَّما يُروى عن أبي نَصْر التَّمَّارِ، عن آدَمَ أبي البَشَر، لا يَدْرِي كم بينَ أبي نصرٍ وآدمَ إلا اللهُ تعالى. . .»، وذكَرَ الحديثَ المتقدِّمَ، **ثم قال**: «فهذا لو رواه أبو نصرٍ التَّمَّارُ عن سيِّدِ ولدِ آدمَ ﷺ، لَمَا قُبِلَتْ روايتُهُ؛ لانقطاعِ الحديثِ فيما بينَهُ وبين رسولِ الله ﷺ؛ فكيف بروايتِهِ له عن آدم؟!.

وقد ظنَّ طائفةٌ مِنَ الناسِ أنَّ هذا الحمدَ بهذا اللفظِ أكملُ حمدٍ حُمِدَ اللهُ به وأفضلُهُ وأجمعُهُ لأنواعِ الحمد، وبَنَوْا على هذا مسألةً فقهيَّةً، فقالوا: لو حَلَف إنسانٌ لَيَحْمَدَنَّ اللهَ بِمَجَامِعِ الحمدِ وأجلِّ المحامد، فطريقُهُ في بِرِّ يمينِهِ أن يقولَ: «الحمدُ للهِ حمدًا يوافي نِعَمَهُ، ويكافئُ مَزِيدَهُ»، قالوا: ومعنى يوافي نِعَمَهُ؛ **أي**: يلاقيها فتحصُلُ النِّعَمُ معه، ويكافئُ ـ مهموزٌ ـ **أي**: يساوي مزيدَ نِعَمِهِ؛ **والمعنى**: أنَّه يقومُ بشكرِ ما زادَ مِنَ النعمِ والإحسانِ».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «والمعروفُ مِنَ الحمدِ الذي حَمِدَ اللهُ به نفسَهُ وحَمِدَهُ به رسولُهُ ﷺ وساداتُ العارفين بِحَمْدِهِ مِنْ أمتَّه ليس فيه هذا اللفظُ أَلْبَتَّةَ»، وأورَدَ بعضَ صيغِ الحمدِ الواردةِ في القرآن، **ثم قال**: «فهذا حمدُهُ لنفسِهِ الذي أنزَلَهُ في كتابه، وعلَّمه لعباده، وأخبَرَ عن أهلِ جَنَّتِهِ به، وهو آكَدُ مِنْ كلِّ حمدٍ، وأفضلُ وأكملُ، كيف يَبَرُّ الحالفُ في يمينه بالعدولِ إلى لفظٍ لم يَحْمَدْ به نفسَهُ، ولا ثبتَ عن رسولِ الله ﷺ، ولا ساداتِ العارفينَ مِن أمته، والنبيُّ ﷺ كان إذا حَمِدَ اللهَ في الأوقاتِ التي يَتأكَّدُ فيها الحمدُ للهِ، لم يكنْ يذكُرُ هذا الحمدَ ألبتةَ، كما في حَمْدِ الخُطْبة، والحمدِ الذي تُسْتَفْتَحُ به الأمورُ، وكما في تَشهُّدِ الحاجة، وكما في الحمد عَقِبَ الطعامِ والشرابِ واللباسِ والخروجِ مِنَ الخَلَاء، والحمدِ عندَ رؤيةِ ما يَسُرُّهُ وما لا يَسُرُّهُ. . .»[1].

ثم ساق رَحِمَهُ اللهُ جملةً كبيرةً مما ورَدَ عن النبيِّ ﷺ مِن صِيَغِ الحمدِ مما يقالُ في مثلِ هذه الأوقات، **ثم قال**: «فهذه جُمَلُ مواقعِ الحمدِ في كلامِ اللهِ ورسولِهِ وأصحابِهِ والملائكةِ قد جُلِّيَتْ عليك عَرَائِسُها، وجُلِبَتْ عليك نَفَائِسُها،

(١) «صيغ الحمد»، المطبوع باسم «مطالع السَّعْد» (ص٣٣ ـ ٣٧).

فلو كان الحديثُ المسؤولُ عنه أفضلَها وأكملَها وأجمعَها، كما ظَنَّهُ الظانُّ، لكانَ واسطةَ عِقْدِها في النظام، وأَكْثَرَها استعمالًا في حَمْدِ ذي الجلالِ والإكرام»[(١)]. اهـ.

وبهذا التحقيق الذي ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ يتبيَّنُ ضَعْفُ هذه الصيغةِ في الحمدِ مِنْ جهةِ الرواية، وأنها لو كانتْ صحيحةً ومشتملةً على أكملِ الصيغ، لَمَا عَدَلَ عنها رسولُ الله ﷺ، ولَمَا آثَرَ غيرَهَا عليها، **قالتْ عائشةُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يَسْتحِبُّ الجوامعَ مِنَ الدُّعاء، ويَدَعُ ما سِوَى ذلك»؛ رواه أبو داود وغيرُه[(٢)].

وسبَقَ أن مَرَّ معنا قولُ النبيِّ ﷺ: **(أَفْضَلُ الدُّعَاءُ: الحَمْدُ للهِ)**[(٣)]؛ وبهذا يُعْلَمُ أنَّ هذه الصيغةَ في الحمدِ لو كانتْ أكمَلَ، لَمَا تَرَكَها رسولُ الله ﷺ.

ثم إنَّه أيضًا لا يمكنُ للعبدِ أنْ يَحْمَدَ اللهَ حمدًا يوافي نِعْمَةً واحدةً مِنْ نِعَمِ الله، فضلًا عن موافاتِهِ جميعَ نِعَمِ الله، ولا يمكنُ أنْ يكونَ فعلُ العبدِ وحمدُهُ له مكافئًا للمزيدِ، **قال ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا مِنْ أمحلِ المُحَال؛ فإنَّ العبدَ لو أَقْدَرَهُ اللهُ على عبادةِ الثَّقَلَيْن، لم يَقُمْ بشكرِ أدنى نعمةٍ عليه... فمَنِ الذي يقومُ بشكرِ ربِّه الذي يستحقُّهُ سبحانه، فضلًا عن أن يكافئه»[(٤)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ولكنْ يُحْمَلُ على وجهٍ يَصِحُّ، وهو أنَّ الذي يستحقُّهُ اللهُ سبحانه مِنَ الحمدِ حمدًا يكونُ موافيًا لِنِعَمِهِ، ومكافئًا لمزيدِهِ، وإنْ لم يَقْدِرِ العبدُ أن يأتيَ به»[(٥)].

وأحسَنُ مِنْ هذا وأكمَلُ ما ثبَتَ في «صحيح البخاري» وغيره،

---

(١) «صيغ الحمد»، المطبوع باسم «مطالع السَّعْد» (ص٩٨).

(٢) **انظر**: «مسند أحمد» (٦/ ١٤٨)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٨٢)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٦٧)، و«مستدرك الحاكم» (١/ ٥٣٩) وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»، وهو في «صحيح الجامع» للألباني (٩٠٨٠).

(٣) تقدم تخريجه (ص١٥٢).

(٤) «صيغ الحمد»، المطبوع باسم «مطالع السَّعْد» (ص٤١، ٤٤).

(٥) «عدة الصابرين» (ص١٧٦).

عن أبي أُمامةَ الباهليِّ، أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا رفَعَ مائدتَهُ قال: **(الحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلَا مُوَدَّعٍ، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا)**[١]، فلو كانت تلك الصيغةُ ـ وهي قوله: «حمدًا يوافي نِعَمَهُ، ويكافئُ مَزِيدَه» ـ أكملَ وأفضلَ مِنْ هذه، لَمَا عَدَلَ عنها رسولُ الله ﷺ، فإنَّه لا يختارُ إلا الأفضلَ والأكملَ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ في معنى هذا الحديث: «المخلوقُ إذا أنعَمَ عليك بنعمةٍ، أمكنَكَ أن تكافئه، ونِعَمُهُ لا تدومُ عليك، بل لا بدَّ أن يُودِّعَكَ ويَقْطَعَها عنك، ويُمْكِنُكَ أن تستغنيَ عنه، واللهُ عَزَّ وَجَلَّ لا يمكنُ أن تكافئَهُ على نِعَمِهِ، وإذا أنعَمَ عليكَ، أدامَ نِعَمَهُ؛ فإنَّه هو أَغْنَى وأَقْنَى، ولا يُسْتَغْنَى عنه طرفةَ عَيْنٍ»[٢]. اهـ.

وفيه بيانٌ لِعظَمِ دَلَالاتِ الأدعيةِ المأثورةِ، والأذكارِ الثابتة، وعُمْقِ معانيها وسلامتها مِنَ الخطأ الذي قد يعتري ما سواها؛ وبهذا تكونُ السلامةُ وتحصيلُ الكامل.

فالحمدُ للهِ بمحامدِهِ التي حَمِدَ بها نَفْسَهُ، وحَمِدَهُ بها الذين اصْطَفَى من خَلْقِهِ حمدًا كثيرًا طَيِّبًا مباركًا فيه كما يُحِبُّ ربُّنا ويرضى.

❊ ❊ ❊

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٠٢).
(٢) «صيغ الحمد» لابن القيِّم، المطبوع باسم «مطالع السَّعْد» (ص٤٩).

٤٨

تَعْرِيفُ الْحَمْدِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْـنَ الشُّكْرِ

لا يزالُ الحديثُ موصولًا في الكلامِ عن الحَمْد، حيثُ سبَقَ الحديثُ عن فضل الحمد، وبيانُ ثوابه، وذِكْرُ الأوقاتِ التي يُشْرَعُ فيها، وذِكْرُ بعضِ صِيَغِهِ، إلى غيرِ ذلك مِنْ أمورٍ مَرَّتْ معنا تَتعلَّقُ بالحمد، **وسيكونُ الحديثُ هنا عن معنى الحمدِ في اللغةِ والشرع، والكلامِ على الفَرْقِ بينه وبين الشُّكْر، والفرقِ بينه وبين المَدْح.**

أَمَّا معنى الحمدِ في اللغة: فهو نقيضُ الذَّمِّ؛ **قال ابن فارسٍ في «معجم مقاييس اللغة»**: «الحاءُ والميمُ والدالُ كلمةٌ واحدةٌ وأصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلافِ الذَّمِّ، يُقالُ: حَمِدتُ فلانًا أَحْمَدُهُ، ورجلٌ محمودٌ ومَحَمَّدٌ: إذا كَثُرَتْ خصالُهُ المحمودة غيرُ المذمومة... ولهذا الذي ذكرناه سُمِّيَ نبيُّنا محمَّدًا ﷺ»[(١)]. اهـ.

وقال الليث: أَحْمَدتُّ الرجلَ: وَجَدتُّهُ محمودًا، وكذلكَ قالَ غيرُهُ: يُقالُ: أتينا فلانًا، فأَحْمَدْنَاهُ وأَذْمَمْنَاهُ؛ **أي**: وجدناه محمودًا أو مذمومًا[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فيه تنبيهٌ على أنَّه صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه محمودٌ في أخلاقِهِ وأفعاله، ليس فيه ما يُذَمُّ، وكذلك قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] فمُحَمَّدٌ هٰهنا، وإن كان اسمًا له عَلَمًا عليه، ففيه إشارةٌ إلى وَصْفِهِ بذلك، وتخصيصِهِ بوافرِ معناه، وأمَّا سواه، فقد يُسمَّى بذلك، ويكونُ له حظٌّ من الوصفِ الذي دَلَّ عليه هذا الاسمُ وقد لا يكون، أمَّا الرسولُ الكريمُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، فهو محمَّدٌ اسمًا ووصفًا.

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٠٠).
(٢) **انظر**: «تهذيب اللغة» للأزهري (٤/ ٤٣٤).

فالحمدُ هو: الثناءُ بالفضيلة، وهو أَخَصُّ من المَدْح، وأَعَمُّ من الشكر؛ فإنَّ المدحَ يقال فيما يكونُ مِنَ الإنسان باختيارِهِ، وممَّا يكون منه وفيه بالتسخير، فقد يُمْدَحُ الإنسانُ بطولِ قامتِه، وصَبَاحةِ وَجْهِه، كما يُمدحُ ببذلِ مالِهِ وشجاعتِهِ وعلمه، والحمدُ يكونُ في الثاني دون الأوَّل؛ **أي**: إنَّ الإنسان يُحْمَدُ على بذلِ المالِ والشجاعةِ والعلمِ ونحوِ ذلك مما يكونُ منه باختياره، ولا يُحْمَدُ على صباحةِ الوجهِ وطُولِ القامةِ وحسنِ الخِلْقةِ ونحوِ ذلك مما ليس له فيه اختيار.

والشكرُ لا يُقالُ إلَّا في مقابلةِ نِعْمةٍ، فكلُّ شكرٍ حَمْدٌ، وليس كلُّ حمدٍ شُكْرًا، وكلُّ حمدٍ مَدْحٌ، وليس كلُّ مدحٍ حمدًا(١).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «الفرقُ بين الحمدِ والمدحِ: أن يُقالَ: الإخبارُ عن محاسنِ الغَيْرِ إمَّا أن يكونَ إخبارًا مُجرَّدًا مِنْ حُبٍّ وإرادة، أو مقرونًا بحبِّه وإرادتِهِ، فإنْ كان الأولَ فهو المَدْح، وإن كان الثانيَ فهو الحَمْدُ، فالحمدُ إخبارٌ عن محاسن الممدوحِ مع حُبِّهِ وإجلالِهِ وتعظيمه»(٢). اهـ.

وقد سُئِلَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ **عن الحمد والشكر**: ما حقيقتُهُمَا؟ هل هما معنًى واحدٌ أو معنيان؟ وعلى أيِّ شيءٍ يكونُ الحمدُ؟ وعلى أي شيء يكونُ الشكر؟ **فأجاب** رَحِمَهُ اللهُ **بقوله**: «الحمدُ يَتضمَّنُ المدحَ والثناءَ على المحمودِ بذكرِ محاسِنه؛ سواءٌ كان الإحسانُ إلى الحامدِ أو لم يكن، والشكرُ لا يكونُ إلَّا على إحسانِ المشكورِ إلى الشاكر، فمِنْ هذا الوجهِ الحمدُ أعمُّ مِنَ الشكر؛ لأنَّهُ يكونُ على المحاسنِ والإحسانِ؛ فإنَّ اللهَ يُحْمَدُ على ما له مِنَ الأسماءِ الحُسْنَى، والمَثَلِ الأعلى، وما خلَقَهُ في الآخرةِ والأولى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سبأ: ١]،

---

(١) **انظر**: «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي (٢/ ٤٩٩).
(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٩٣).

وقـــال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، وأمَّا الشكرُ، فإنَّهُ لا يكون إلَّا على الإنعامِ، فهو أخصُّ مِنَ الحَمْدِ مِنْ هذا الوجه، لكنَّهُ يكونُ بالقلبِ واليدِ واللسانِ؛ **كما قيل**:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

ولهذا قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ﴾ [سبأ: ١٣]، والحمدُ إنما يكون بالقلبِ واللسان؛ فمِنْ هذا الوجهِ الشكرُ أعمُّ مِن جهةِ أنواعه، والحمدُ أعمُّ من جهةِ أسبابه، ومِنْ هذا: الحديثُ: **(الحَمْدُ للهِ رَأْسُ الشُّكْرِ، فَمَنْ لَمْ يَحْمَدِ اللهَ لَمْ يَشْكُرْهُ)**(١)، وفي «الصحيح»، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: **(إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا)**(٢)»(٣). اهـ. كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وبه يَتبيَّنُ أنَّ بين الحمدِ والشكرِ عمومًا وخصوصًا مِنْ وجه، فيجتمعانِ فيما إذا كان باللسانِ في مقابلةِ نِعْمة؛ فهذا يُسمَّى حمدًا، ويُسمَّى شكرًا، وينفردُ الحمدُ فيما إذا أثنى العبدُ على ربِّه بذكرِ أسمائِهِ الحسنى، ونعوتِهِ العظيمة؛ فهذا يُسمَّى حمدًا، ولا يُسمَّى شكرًا، وينفردُ الشكرُ فيما إذا استعْمَلَ العبدُ نعمةَ اللهِ في طاعةِ الله؛ فهذا يُسمَّى شكرًا، ولا يُسمَّى حمدًا.

إنَّ حَمْدَ اللهِ هو الثناءُ على اللهِ بذكرِ صفاتِهِ العظيمة، ونِعَمِهِ العميمة، مع حُبِّهِ وتعظيمِهِ وإجلاله، وهو مختصٌّ به سبحانه لا يكونُ إلَّا له؛ فالحمدُ كلُّهُ لله ربِّ العالمين؛ «ولذلك قال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بلام الجنسِ المفيدةِ للاستغراق، فالحمدُ كلُّه له إما ملكًا وإما استحقاقًا، فحمدُهُ لنفسِهِ استحقاقٌ، وحمدُ العبادِ له وحمدُ بعضهم لبعضٍ ملكٌ له. . . فالقائلُ إذا قال: الحمدُ للهِ،

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٤٢٤)، والبيهقي في «الآداب» (ص٤٥٩) من طريق قتادة: أنَّ عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ، فذكره.
قال البيهقي: «هكذا جاء مرسلًا بين قتادة ومَنْ فوقه».

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٠٢).

(٣) «الفتاوى» (١١/ ١٣٣، ١٣٤).

تَضمَّنَ كلامُهُ الخبرَ عن كلِّ ما يُحْمَدُ عليه تعالى باسم جامعٍ محيطٍ مُتضمِّنٍ لكلِّ فردٍ مِنْ أفرادِ الحمدِ المحقَّقةِ والمقدَّرة؛ وذلك يستلزمُ إثباتَ كلِّ كمالٍ يُحْمَدُ عليه الربُّ تعالى؛ ولهذا لا تصلُحُ هذه اللفظةُ على هذا الوجه، ولا تنبغي إلا لِمَنْ هذا شأنُهُ، وهو الحميدُ المجيد»(١).

وإذا قيل: الحمدُ كلُّه لله، فإنَّ هذا له معنيان:

أحدهما: أنَّه محمودٌ على كلِّ شيء، وهو ما يُحْمَدُ به رسلُهُ وأنبياؤُهُ وأتباعهم، فذلكَ مِنْ حَمْدِهِ تبارك وتعالى، بل هو المحمودُ بالقصدِ الأوَّلِ وبالذات، وما نالوه مِنَ الحَمْد، فإنَّما نالوه بِحَمْده، فهو المحمودُ أوَّلًا وآخِرًا، وظاهرًا وباطنًا.

والمعنى الثاني: أن يُقالَ: لكَ الحمدُ كلُّه؛ أي: التامُّ الكاملُ؛ هذا مختصٌّ بالله ليس لغيره فيه شِرْكة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ **بعد أن ذكر هذَيْن المعنيَيْن:** «والتحقيقُ: أنَّ له الحمدَ بالمعنيَيْنِ جميعًا، فله عمومُ الحمدِ وكمالُهُ، وهذا مِنْ خصائصِهِ سبحانه، فهو المحمودُ على كلِّ حال، وعلى كلِّ شيءٍ أكملَ حمدٍ وأعظمَهُ»(٢).

فالحمدُ للهِ ربِّ العالمين، حمدًا كثيرًا طَيِّبًا مباركًا فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لِكَرَمِ وجهِهِ وعِزِّ جلالِهِ بمجامعِ حمدِهِ كلِّها، ما عَلِمْنَا منها وما لم نَعْلَمْ.

❁ ❁ ❁

(١) «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٩٢، ٩٣).

(٢) «طريق الهجرتين» (ص٢٠٦).

٤٩

فَضْلُ الشُّكْرِ

لا ريبَ في عِظَمِ فضلِ الشُّكرِ ورِفْعَةِ شأنِهِ، شُكْرِ اللهِ على نعمِهِ المتوالية، وعطاياهُ المتتالية، وأيادِيهِ السابغة، وقد أمَرَ اللهُ به في كتابه، ونهى عن ضِدِّه، وأثنى على أهلِه، ووصَفَ به خَواصَّ خَلْقِه، وجَعَلَهُ غايةَ خَلْقِهِ وأمره، ووعَدَ أهلَهُ بأحسنِ جزائه، وجعلَهُ سببًا للمزيدِ مِنْ فضلِهِ وعطائه، وحارسًا وحافظًا لنعمته، وأخبَرَ أنَّ أهلَهُ هم المنتفعون بآياته[1]، ونَوَّعَ سبحانَهُ الدَّلَالَةَ إليه والحثَّ عليه.

فأمَرَ به سبحانه في غيرِ موطنٍ مِنَ القرآنِ الكريم؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقَرَنَهُ سبحانه بالإيمان، وأخبَرَ أنَّه لا غرَضَ له سبحانه في عذابِ خَلْقِهِ إنْ شَكَرُوهُ وآمنوا به؛ فقال سبحانه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]؛ أي: إنْ أدَّيتم ووفَّيتم ما خُلِقْتُمْ له ـ وهو الشكرُ والإيمانُ ـ فما أصنَعُ بعذابكم؟!

وأخبَرَ سبحانه أنَّ أهلَ الشُّكْرِ هم المَحْظُوظُونَ بِمِنَّته عليهم مِنْ بينِ عباده؛ فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

---

(١) **انظر:** «مدارج السالكين» لابن القيِّم (٢/ ٢٤٢).

وعَلَّقَ سبحانه المزيدَ بالشُّكْر، والمزيدُ منه لا نهايةَ له كما لا نهايةَ لِشُكْره؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، فالشكرُ معه المزيدُ أبدًا؛ **ولذا قيل**: «فمتى لم تَرَ حالَكَ في مزيدٍ، فاستَقْبِلِ الشُّكْرَ»[١].

وقسَّم سبحانه الناسَ إلى قسمَيْن: شكورٌ وكفورٌ، فأبغَضُ الأشياءِ إليه الكُفْرُ وأهلُه، وأحبُّ الأشياءِ إليه الشُّكْرُ وأهلُه؛ قال تعالى في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وأخبرَ سبحانه أنَّه إنَّما يَعْبُدُهُ مَنْ شَكَرَهُ، فمَنْ لم يَشْكُرْهُ لم يكنْ من أهل عبادتِهِ؛ فقال سبحانه: ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأخبرَ أنَّ رضاه في شُكْره؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وأَوَّلُ وصيَّةٍ وَصَّى بها الإنسانَ بعدَ ما عَقَلَ عنه: الشكرُ له وللوالدَيْن؛ فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وقد وقَفَ سبحانه كثيرًا مِنَ الجزاءِ على المشيئةِ؛ كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقولِهِ في الإجابة: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقولِهِ في الرزق: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقولِهِ في المغفرة: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقولِهِ في التوبة: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٥]، أمَّا الشكرُ:

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٢٤٦).

فقد أطلَقَ جزاءَهُ إطلاقًا حيث ذُكِرَ؛ كقولِه: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقولِهِ: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وأخبَرَ سبحانه أنَّ عَدُوَّ اللهِ إبليسَ قد جعَلَ غايتَهُ أنْ يَسْعَى في قطعِ النَّاسِ عن الشكرِ؛ وذلك لمَّا عرَفَ عِظَمَ قَدْرِ مقامِ الشكر، وأنَّه مِنْ أجلِّ المقاماتِ وأعلاها؛ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وأخبَرَ سبحانه أنَّ الشاكرينَ هم القليلُ من عباده؛ فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وأخبَرَ سبحانه أنَّ الشُّكْرَ هو الغايةُ مِنْ خَلْقِهِ للخلقِ، وتنويعِهِ للنِّعَمِ؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، والنصوصُ في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا.

ثُمَّ إنَّ الشكرَ هو سبيلُ رُسُلِ اللهِ وأنبيائِهِ أَخَصِّ خَلْقِ اللهِ وأَقْرَبِهم إليه، صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم أجمعين.

فقد أثنى الله سبحانه على أَوَّلِ رسولٍ بعثَهُ إلى أهلِ الأرض بالشكر؛ فقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وفي تخصيصِ نوحٍ هٰهنا بالذِّكْرِ وخطابِ العبادِ بأنَّهم ذريَّتُهُ إشارةٌ إلى الاقتداءِ به؛ فإنَّه أَبُوهُمُ الثاني؛ فإنَّ الله تعالى لم يَجْعَلْ للخلقِ بعد الغَرَقِ نَسْلًا إلَّا من ذُرِّيَّتِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، فأمَرَ الذريَّةَ أنْ يَتشبَّهوا بأبيهم في الشكر، فإنَّه كان عبدًا شكورًا.

وأثنى سبحانه على خليلِهِ إبراهيمَ بِشُكْرِ نِعَمِهِ؛ فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل]، فأخبَرَ عنه سبحانه بأنَّه أُمَّةٌ؛ أي: قدوةٌ يُؤْتَمُّ به في الخير، وأنَّه قانتٌ لله، **والقانتُ هو**: المطيعُ المقيمُ على طاعته، **والحنيفُ هو**: المُقبِلُ على الله، المُعْرِضُ عمَّا سِوَاه، ثمَّ ختَمَ له هذه الصفاتِ بأنَّه شاكرٌ لِأَنْعُمِه، فجعَلَ الشكرَ غايةَ خليلِهِ عليه السلام.

وأمَرَ تعالى عبدَهُ موسى عليه السلام أنْ يَتلقَّى ما آتاه مِنَ النبوَّةِ والرسالةِ والتكليم بالشكر؛ فقال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ في بيانِ شكرِ الأنبياءِ عليهم السلامُ لله، وأنَّ ذلكَ هو سبيلُهم وطريقُهم[١].

أمَّا شكرُ خاتمِ النبيِّين، وسَيِّدِ وَلَدِ آدمَ أجمعين؛ محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ عليه أفضلُ الصلاةِ وأزكى التسليم، فبابٌ واسعٌ، وبحرٌ خِضَمٌّ؛ فهو أعرفُ الخلقِ بالله، وأَقْوَمُهم بِخَشْيَته، وأشكرُهم لِنِعَمِه، وأعلاهم عندَهُ منزلةً؛ ثبَتَ في «الصحيح»، عن المُغِيرة بن شُعْبة رضي الله عنه، قال: «قام النبيُّ ﷺ حتى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فقيل له: غفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ! قال: **(أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!)**»[٢].

فصلَّى اللهُ وملائكتُهُ وأنبياؤُهُ ورسلُهُ وجميعُ المؤمنين عَلَيْه، كما وَحَّدَ اللهَ وعَرَّفَ به ودعا إِلَيْه، وقام بِشُكْرِهِ خير قيام، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

❀ ❀ ❀

(١) **انظر**: «عدة الصابرين» لابن القيم (ص١٥٠ وما بعدها).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٨٣٦).

٥٠

حَقِيقَةُ الشُّكْرِ وَمَكَانَتُهُ عِنْدَ السَّلَفِ

كان الحديثُ فيما مَضَى عن فضلِ الشُّكْر، وعِظَم مكانتِهِ عندَ الله، وتَنوُّعِ دَلَالاتِهِ في القرآنِ الكريم، **وسنتحدَّثُ هنا عن أصلِ الشكرِ وحقيقتِهِ، والإشارةِ إلى مكانتِهِ عند السلفِ الصالحِ، رحمهم الله.**

أمَّا أصلُ الشكرِ وحقيقتُهُ، فهو: «الاعترافُ بإنعامِ المُنْعِمِ، على وجهِ الخضوعِ له والذُّلِّ والمحبَّة؛ فمَنْ لم يَعْرِفِ النِّعْمةَ، بل كان جاهلًا بها، لم يَشْكُرْها، ومَنْ عَرَفَهَا، ولم يَعْرِفِ المُنْعِمَ بها، لم يَشْكُرْها أيضًا، ومَنْ عرَفَ النِّعْمةَ والمُنْعِمَ، لكنْ جَحَدَها كما يجحدُ المُنْكِرُ لنعمةِ المُنْعِمِ عليه فقد كَفَرَها، ومَنْ عرَفَ النِّعْمة والمُنْعِمَ وأقرَّ بِها، ولم يجحدها، ولكنْ لم يخضعْ له ويحبَّه ويَرْضَ به وعنه لم يَشْكُرْها أيضًا، ومَنْ عَرَفها، وعرفَ المُنْعِمَ بها، وَأَقرَّ بها، وخضَعَ لِلْمُنْعِمِ بها، وأحبَّهُ ورَضِيَ به وعنه، واستَعْمَلَهَا في مَحَابِّهِ وطاعتِهِ فهذا هو الشاكرُ لها»(١).

وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ الشكرَ مبنيٌّ على خمسِ قواعدَ: خضوعُ الشاكرِ للمشكور، وحُبُّهُ له، واعترافُهُ بنعمتـه، وثناؤُهُ عليه بها، وأن لا يَسْتعمِلَها فيما يَكْرَه، فهذه الخمسُ هي أساسُ الشكر، وبناؤُهُ عليها، فمتى عُدِمَ منها واحدةٌ اختَلَّ مِنْ قواعدِ الشكر قاعدةٌ، وكُلُّ مَنْ تكلَّمَ في الشكرِ وَحَدِّهِ، فكلامُهُ إليها يرجع، وعليها يدور(٢)، وهو يكونُ بالقلبِ واللسانِ والجوارح؛ «يكونُ بالقلبِ خضوعًا واستكانةً [ومَحَبَّةً]، وباللسانِ ثناءً واعترافًا، وبالجوارحِ طاعةً وانقيادًا»(٣).

---

(١) «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص١٧٥).
(٢) **انظر:** «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٢٤٤).
(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٢٤٦).

روى ابنُ أبي الدنيا في كتابه «الشُّكْر»: **أنَّ رجلًا قال لأبي حازم سَلَمةَ بن دينار**: «ما شُكْرُ العينَيْنِ يا أبا حازم؟ قال: إنْ رأيْتَ بهما خيرًا أَعْلَنْتَهُ، وإنْ رأيتَ بهما شرًّا سَتَرْتَهُ، قال: فما شكرُ الأذنَيْن؟ **قال**: إنْ سمعتَ بهما خيرًا وَعَيْتَه، وإنْ سمعتَ بهما شرًّا دَفَعْتَه، قال: ما شكرُ اليدين؟ قال: لا تأخذُ بهما ما ليس لهما، ولا تمنعُ حقًّا لله ﷻ هو فيهما، قال: فما شكرُ البَطْنِ؟ قال: أنْ يكونَ أسفلُهُ طعامًا، وأعلاهُ علمًا، قال: ما شكرُ الفَرْجِ؟ قال: كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون]، قال: فما شكرُ الرِّجْلَيْن؟ قال: إذا رأيتَ حيًّا غَبَطْتَهُ اسْتَعْمَلْتَ بهما عَمَلَهُ، وإنْ رأيتَ ميتًا مَقَتَّهُ كَفَفْتَهُما عن عَمَله، وأنتَ شاكرٌ لله ﷻ، فأما مَنْ شكَرَ بلسانه ولم يشكرْ بجميعِ أعضائه، فمَثَلُهُ كمثلِ رجلٍ له كساءٌ، فأخَذَ بِطَرَفِهِ ولم يلبسه، فلم ينفعْهُ ذلك مِنَ الحَرِّ والبرد، والثلج والمطر»[(١)].

إنَّ نعمةَ اللهِ على عبده في لسانه ويدِهِ وقَدَمِهِ وجميعِ بدنه لا يمكنُ أن تُحصى، وكلُّها تستوجبُ شُكْرَ المُنْعِمِ بها؛ **قال عبد الرحمٰن بن زَيْد بن أَسْلَمَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشكرُ يأخُذُ بِحزمِ الحمدِ وأصلِهِ وفرعه، فلينظرْ في نِعَمٍ مِنَ اللهِ في بدنِهِ وسمعِهِ وبصرِهِ، ويدَيْهِ ورِجْليه وغيرِ ذلك، ليس مِنْ هذا شيءٌ إلَّا وفيه نعمةٌ مِنَ الله، حقٌّ على العبدِ أن يعملَ بالنعم التي هي في بدنِهِ لله ﷻ في طاعته، ونِعْمَةٌ أخرى في الرزقِ حَقٌّ عليه أن يَعْمَلَ لله فيما أنعَمَ به عليه من الرزقِ في طاعته، فمَنْ عَمِلَ بهذا، فقد أخَذَ بِحزمِ الشكرِ وأصله وفرعه»[(٢)]. اهـ.

ومِنْ نِعَمِ الله العظيمةِ على عبده: ما مَتَّعَهُ به مِنْ عافيتِهِ في سمعِهِ وبصرِهِ وجميعِ بدنه، وكم لله في عبدِهِ مِنْ نعمةٍ في عِرْقٍ ساكن، والعافيةُ نعمةٌ تستوجبُ الشكر، وتستحقُّ الحمد؛ **كان عبدُ الأعلى التيميُّ يقول**:

---

(١) «الشكر» لابن أبي الدنيا رقم (١٢٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤٣).
(٢) «الشكر» لابن أبي الدنيا رقم (١٨٨).

«أَكْثِرُوا سؤالَ اللهِ ﷻ العافيةَ؛ فإنَّ المُبْتَلَى ـ وإن اشتدَّ بلاؤه ـ ليس بأحقَّ بالدعاءِ من المعافى الذي لا يأمنُ البلاء، وما المُبْتَلَوْنَ اليومَ إلَّا مِنْ أهلِ العافيةِ بالأمس، وما المُبْتَلَوْنَ بعدَ اليوم إلَّا مِنْ أهلِ العافيةِ اليومَ، ولو كان بلاءٌ يَجُرُّ إلى خيرٍ ما كنا مِنْ رجالِ البلاء، إنَّه رُبَّ بلاءٍ قد أجهَدَ في الدنيا وأخزى في الآخرة، فما يأمنُ مَنْ أطال المُقامَ على معصيةِ اللهِ جلَّ وعزَّ أن يكونَ قد بَقِيَ له في بقيَّةِ عُمْرِهِ مِنَ البلاءِ ما يُجْهِدُهُ في الدنيا ويفضحُهُ في الآخرة، ثم يقول عند ذلك: الحمدُ لله الذي إنْ نَعُدَّ نِعَمَهُ لا نحصيها، وإنْ نَدْأَبْ له عملًا لا نَجْزِيها، وإن نُعَمَّرْ فيها لا نُبليها»(١).

بل لو أنَّ العبدَ أُوتِيَ عُمْرَ الدنيا، وقطَعَ ذلك العمرَ مستغرقًا في طاعةِ الله وعبادته، ولم يَعْصِهِ في لحظةٍ واحدة، ولا لفظةٍ، ما أدَّى شكرَ عُشْرِ معشارِ نِعَمِهِ سبحانه، بل لو أنفقَ كلَّ عمرِهِ مضاعفًا إلى ما لا نهايةَ مِنَ الأعمارِ، ما أدَّى شكر نعمةٍ واحدة، كيف والشكرُ نعمةٌ تحتاجُ إلى مثلها مِنَ الشكر، فلا سبيلَ إلى تأديةِ شكرِ عُشْرِ معشارِ نِعَمِهِ إلَّا بالاعترافِ بالعجزِ والتقصير؛ ولهذا جاء في سيِّد الاستغفار **(أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)**(٢). ولفظُ النعمةِ، وإنْ كان مفردًا في هذا الدعاءِ، لكنَّه مضافٌ، فيَعُمُّ كلَّ نعمةٍ مِنَ النِّعَم الظاهرةِ والباطنةِ؛ مِنْ نعمةِ الإيمان، والوجودِ بَعْدَ العَدَمِ، والسمعِ والبصرِ، والعقلِ والعلمِ والصِّحَّة، وغيرِ ذلك مِنَ النِّعَمِ اللاتي أنعَمَ اللهُ بها على عباده(٣).

والنعمةُ نعمتان: نعمةٌ مطلقة، **ونعمةٌ** مقيَّدة(٤):

● **فأما النعمةُ المطلقة، فهي**: المتصلةُ بسعادةِ الأبد، وهي نعمةُ الإسلامِ والسُّنَّة، وهي النعمةُ التي أَمَرَنا اللهُ سبحانه أن نسألَهُ في صلاتنا أن يهدينا

---

(١) «الشكر» لابن أبي الدنيا رقم (١٥٧).

(٢) سيأتي تخريجه (ص٤٧٦).

(٣) انظر: «نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار» للسفاريني (ص٣١٠ ـ ٣١٢).

(٤) **انظر**: «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (ص٢ ـ ٤).

صراطَ أَهْلِها، ومَنْ خَصَّهم بها، وجَعَلَهُمْ أهلَ الرفيقِ الأعلى؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

• **وأما النعمةُ المقيَّدةُ:** كنعمةِ الصِّحَّةِ، وعافيةِ الجسد، وبَسْطِ الجاه، وكثرةِ الوَلَد، وأمثالِ هذا، والنعمةُ المطلقةُ هي التي يُفْرَحُ بها في الحقيقة، والفرحُ بها مما يُحِبُّهُ الله ويرضاه؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

إنَّ الشكرَ للهِ على نِعَمِهِ عمومًا ـ المطلقةِ والمقيَّدة ـ واجبٌ على كلِّ مسلم، ومتعيِّنٌ على كلِّ مؤمن، وهو السبيلُ لبقائِهَا ودَوَامِها ونُمُوِّها، كما أنَّ عدمَ شكرِ النعمةِ سببٌ لزوالها واضمحلالها.

وقد قيل: كلُّ شكرٍ وإنْ قَلَّ، ثمنٌ لكلِّ نوالٍ وإن جَلَّ، فإذا لم يَشْكُرِ المرءُ، فقد عرَّضَ النعمةَ للزوال.

وقيل أيضًا: الشكرُ قيدٌ للنِّعَمِ الموجودة، وصيدٌ للنعمِ المفقودة.

وقيل أيضًا: كُفْرَانُ النِّعَمِ بَوَار، وهو وسيلةٌ إلى الفِرَار(١). وكانوا يُسمُّونَ الشكرَ «الحافظَ»؛ لأنَّهُ يَحْفَظُ النِّعَمَ الموجودة، و«الجالب»؛ لأنَّه يَجْلِبُ النِّعَمَ المفقودة(٢).

وقيل أيضًا: النعمةُ إذا شُكِرَتْ قَرَّتْ، وإذا كُفِرَتْ فَرَّتْ.

نسألُ اللهَ أنْ يُوزِعَنَا شُكْرَ نِعَمِه، وأنْ يُعِيذَنا مِنْ كُفْرَانِها؛ إنَّه سميعٌ مجيب.

❁ ❁ ❁

(١) «نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار» للسفاريني (ص٣٢٥).
(٢) «عدة الصابرين» لابن القيم (ص١٥٥).

٥١

فَضْلُ التَّكْبِيرِ وَمَكَانَتُهُ مِنَ الدِّينِ

لا يزالُ الحديثُ ماضيًا عن الكلماتِ الأربع، التي هي خيرُ الكلامِ وأَحَبُّهُ إلى اللهِ، **وهي**: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلـه إلا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، وسبَقَ الحديثُ مفصَّلًا بعضَ الشيءِ عن التهليل والتسبيحِ والتحميدِ، وبقي الكلامُ عن التكبير، فَضْلِهِ ومعناهُ في اللغةِ والشرع، وبعضِ الأمورِ الأخرى المتعلِّقةِ به.

إنَّ التكبيرَ شأنُهُ عظيم، وثوابُهُ عندَ اللهِ جزيل، وقد تكاثرتِ النصوصُ في الحثِّ عليه، والترغيبِ فيه، وذِكْرِ ثوابه.

يقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال تعالى في شأنِ الصيام: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى في شأنِ الحج وما يكون فيه من نُسُكٍ يَتقرَّبُ فيه العبدُ إلى الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ **وهو بصددِ بيانِ تفضيلِ التكبيرِ وعِظَمِ شأنه**: «ولهذا كان شعار الصلاةِ والأذانِ والأعيادِ والأماكنِ العاليةِ هو التكبيرَ، وهو أحدُ الكلماتِ التي هي أفضلُ الكلامِ بعدَ القرآنِ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلَـهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ؛ كما ثبتَ ذلك في «الصحيح»، عن النبيِّ ﷺ، ولم يجئْ في شيءٍ مِنَ الأثرِ بَدَلَ قولِ: اللهُ أكبرُ: اللهُ أعظمُ؛ ولهذا كان جمهورُ الفقهاءِ على أنَّ الصلاةَ لا تنعقدُ إلا بلفظِ التكبير، فلو قال: اللهُ أعظمُ، لم تنعقدْ به الصلاةُ؛ لقول النبي ﷺ: (**مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ،**

وتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ)[١]؛ وهذا قولُ مالكٍ والشافعيِّ وأحمدَ وأبي يوسفَ وداودَ وغيرِهم، ولو أتى بغيرِ ذلكَ مِنَ الأذكار؛ مثلُ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، لَم تنعقدْ به الصلاة.

ولأنَّ التكبيرَ مختصٌّ بالذِّكْرِ في حالِ الارتفاعِ، كما أنَّ التسبيحَ مختصٌّ بحالِ الانخفاض؛ كما في «السنن» **عن جابر بن عبد الله، قال:** «كنَّا مع رسولِ اللهِ ﷺ إذا عَلَوْنا كَبَّرْنَا، وإذا هَبَطْنَا سَبَّحْنَا، فوُضِعَتِ الصلاةُ على ذلك»[٢]. . . »[٣]. اهـ.

ثم إنَّ التكبيرَ مُصَاحِبٌ للمسلمِ في عباداتٍ عديدة، وطاعاتٍ متنوِّعة، فالمسلمُ يُكبِّرُ اللهَ عندما يُكْمِلُ عِدَّةَ الصيام، ويُكبِّرُ في الحَجِّ؛ كما سبَقَ الإشارةُ إلى دليلِ ذلك مِنَ القرآنِ الكريم.

وأمَّا الصلاةُ، فإنَّ للتكبيرِ فيها شأنًا عظيمًا، ومكانةً عاليةً؛ ففي النداءِ إليها يُشْرَعُ التكبير، وعند الإقامةِ لها، وتحريمُها هو التكبيرُ، بل إنَّ تكبيرةَ الإحرامِ ركنٌ مِنْ أركانِ الصلاة، ثم هو يصاحبُ المسلمَ في كلِّ خفْضٍ ورَفْعٍ مِن الصلاة؛ روى البخاريُّ ومسلمٌ في «صحيحيهما»، من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا قامَ إلى الصلاةِ يُكَبِّرُ حينَ يقوم، ثم يُكبِّرُ حينَ يَرْكَعُ، ثم يقولُ: (**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**) حينَ يَرْفَعُ صُلْبَهُ من الركعة، ثم يقولُ: (**رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ**)، ثم يُكبِّرُ حينَ يَهْوِي، ثُمَّ يُكبِّرُ حين يرفعُ رأسَهُ، ثم يُكبِّرُ حينَ يَسْجُدُ، ثم يُكبِّرُ حين يرفعُ رأسَهُ، ثم يفعلُ ذلك في الصلاةِ كلِّها حتى يَقْضِيَها، ويُكبِّرُ حينَ يَقُومُ مِنَ الثنتَيْنِ بعدَ الجلوسِ»[٤].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ١٢٣)، ورواه أبو داود في «سننه» برقم (٦١)، والترمذي رقم (٣)، وابن ماجه رقم (٢٧٥)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢/ ٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٣٣)، والبخاري رقم (٢٩٩٣)، و«السنن الكبرى» رقم (٨٧٧٤)، دون قوله: «فوضعت الصلاة على ذلك»، فقد وردت في حديث ابن عمر في «سنن أبي داود» رقم (٢٥٩٩)؛ ولفظه: «وكان النبي ﷺ وجيوشه إذا علوا الثنايا كبروا وإذا هبطوا سبحوا، فوضعت الصلاة على ذلك».

(٣) «الفتاوى» (١٦/ ١١٢، ١١٣).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٧٨٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٩٢).

وبهذا، فالتكبيرُ يَتكرَّرُ مع المسلم في صلاتِهِ مراتٍ كثيرةً؛ فالصلاةُ الرباعيَّةُ فيها اثنتانِ وعشرونَ تكبيرةً، والثنائيةُ فيها إحدى عشرةَ تكبيرةً، وكلُّ ركعةٍ فيها خمسُ تكبيرات. وعلى هذا، فالمسلمُ يُكبِّرُ اللهَ في اليومِ والليلةِ في الصلواتِ الخمسِ المكتوبةِ فقطْ أربعًا وتسعينَ تكبيرةً، فكيف إذا كانَ محافظًا ـ مَعَ ذلك ـ على الرواتبِ والنوافل؟! وكيفَ إذا كان محافظًا على الأذكارِ التي تكونُ أدبارَ الصلواتِ، وفيها التكبيرُ ثلاثٌ وثلاثونَ مَرَّةً؟! فالمسلمُ إذا كان محافظًا على الصلواتِ الخمسِ مَعَ السُّنَنِ الرواتب، وعَدَدُهَا ثنتا عَشْرةَ ركعةً، مع الشَّفْعِ والوِتْرِ ثلاثَ ركعاتٍ، ومحافظًا على التكبيرِ المسنونِ أدبارَ الصلواتِ ثلاثًا وثلاثينَ مَرَّةً، فإنَّ عددَ تكبيرِهِ للهِ في يومِهِ وليلتِهِ يكونُ ثلاثمِائَةٍ واثنتَيْنِ وأربعينَ تكبيرةً. ولا ريبَ أنَّ في هذا دلالةً على فضيلةِ التكبير، حيثُ جعَلَ اللهُ للصلاة منه هذا النصيبَ الوافرَ، فإذا ضُمَّ إلى ذلكَ التكبيرُ في الأذانِ للصلاةِ والإقامةِ لها مِمَّنْ يُؤَذِّنُ أو يُحافظُ على إجابةِ المؤذِّن، زاد بذلك عددُ تكبيرِهِ في يومه وليلته، فإنَّ عَدَدَ ما يكونُ فيهما مِنْ تكبيراتٍ في اليومِ والليلةِ خمسون تكبيرةً، وبالتالي فإنَّ عددَ التكبيرِ بذلك يزيدُ.

ثم إنَّ المسلمَ إذا كان محافظًا على التكبيرِ المطلقِ غيرِ المُقيَّدِ بوقتٍ، فإنَّ عَدَدَ تكبيرِهِ لله في أيامِهِ ولياليهِ لا يحصيهِ إلا اللهُ سبحانه.

والتكبيرُ ركنٌ مِنْ أركانِ الصلاة، فتحريمُها لا يكونُ إلَّا به، وهذا يُشْعِرُ ـ ولا ريبَ ـ بمكانةِ التكبيرِ مِنَ الصلاةِ، وأنَّ الصلاةَ إنما هي تفاصيلُ للتكبيرِ الذي هو تحريمُها؛ **يقول ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللهُ: «... لا أَحْسَنَ مِنْ كونِ التكبيرِ تحريمًا لها، فتحريمُها تكبيرُ الرَّبِّ تعالى الجامعُ لإثباتِ كلِّ كمالٍ له، وتنزيهِهِ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وإفرادِهِ وتخصيصِهِ بذلك، وتعظيمِهِ وإجلالِهِ، فالتكبيرُ يَتضمَّنُ تفاصيلَ أفعالِ الصلاةِ وأقوالِها وهَيْئَاتِها، فالصلاةُ مِنْ أوَّلها إلى آخِرِها تفصيلٌ لمضمونِ «اللهُ أَكْبَرُ»، وأيُّ تحريمٍ أَحْسَنُ مِنْ هذا التحريمِ المتضمِّنِ للإخلاصِ والتوحيد»[١]. اهـ.

---

(١) «الصلاة» لابن القيم (ص١٠٦).

وبهذا تَتبيَّنُ مكانةُ التكبير، وجلالةُ قَدْره، وعِظَمُ شأنِهِ مِنَ الدين، فليس التكبيرُ كلمةً لا مَعْنَى لها، أو لفظةً لا مضمونَ لها، بل هي كلمةٌ عظيمٌ شأنُهَا، رفيعٌ قَدْرُها؛ تَتضمَّنُ المعانيَ الجليلة، والمدلولاتِ العميقة، والمقاصدَ السامية الرفيعة.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسيرِ قوله تعالى:** ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]: «يقولُ: وعَظِّمْ رَبَّكَ يا محمَّدُ بما أَمرَكَ أن تُعظِّمَهُ به مِنْ قولٍ وفعل، وأَطِعْهُ فيما أمرَكَ ونهاك»[١].

وقال الشيخ محمَّد الأمين الشِّنْقِيطي رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسير الآية نفسِها:** «أي: عَظِّمْهُ تعظيمًا شديدًا، ويَظْهَرُ تعظيمُ اللهِ في شِدَّةِ المحافظةِ على امتثالِ أمره، واجتنابِ نهيه، والمسارعةِ إلى كلِّ ما يرضيه»[٢].

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الدِّينَ كُلَّهُ يُعَدُّ تفصيلًا لكلمةِ **«اللهُ أَكْبَرُ»**، فالمسلمُ يقومُ بالطاعاتِ جَمِيعِها والعباداتِ كلِّها؛ تكبيرًا لله، وتعظيمًا لشأنه، وقيامًا بحقِّه سبحانه، وهذا ممَّا يُبَيِّنُ عَظَمَةَ هذه الكلمةِ وجلالةَ قَدْرها؛ ولهذا يُروى **عن عُمَرَ بن الخَطَّاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنَّه قال:** «قولُ العبدِ: اللهُ أَكْبَرُ، خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها»[٣]، فاللهُ أكبَرُ كبيرًا، والحمدُ للهِ كثيرًا، وسبحانَ اللهِ بُكرةً وأصيلًا.

❁ ❁ ❁

---

(١) «جامع البيان» (٩/ ١٧٩).
(٢) «أضواء البيان» (٣/ ٦٣٥).
(٣) أورده القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٢٣).

٥٢

مَعْنَى التَّكْبِيرِ وَبَيَانُ مَدْلُولِهِ

كان الحديثُ الماضي عن التكبير: فَضْلِهِ وبيانِ مكانتِهِ مِنَ الدين، وسيكونُ الحديث عن **معنى التكبيرِ والمرادِ به**؛ إذْ إنَّ فقهَ الأذكارِ الشرعيةِ، وفهمَ المرادِ بها يُعَدُّ أساسًا عظيمًا ومطلبًا جليلًا لا بُدَّ منه.

والتكبيرُ هو: تعظيمُ الرَّبِّ تبارَكَ وتعالى وإجلالُهُ، واعتقادُ أنَّه لا شيء أكبرُ ولا أعظمُ منه، فيَصْغُرُ دونَ جلالِهِ كلُّ كبير، فهو الذي خَضَعَتْ له الرقاب، وذَلَّتْ له الجبابرة، وعَنَتْ له الوُجُوه، وقَهَرَ كلَّ شيء، ودانتْ له الخلائق، وتواضَعَتْ لِعَظَمَةِ جَلَالِهِ وكبريائِهِ وَعَظَمَتِهِ وعُلُوِّهِ وقدرتِهِ الأشياءُ، واستكانتْ وتضاءَلَتْ بين يديه وتحتَ حُكْمِهِ وقَهْرِهِ المخلوقاتُ.

قال الإمام الأزهريُّ في كتابه «تهذيب اللغة» «وقولُ المصلِّي: اللهُ أَكْبَرُ، وكذلك قولُ المؤذِّن، **فيه قولان**:

أحدهما: أنَّ معناه: اللهُ كبيرٌ؛ كقولِ اللهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الروم: ٢٧]؛ **أي**: هو هَيِّنٌ عليه؛ **ومثلُه قول مَعْنِ بن أَوْس**:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ

معناه: وإنِّي لَوَجِلٌ.

والقول الآخر: أنَّ فيه ضميرًا؛ **المعنى**: اللهُ أكبرُ كبيرٍ، وكذلكَ اللهُ الأعزُّ؛ **أي**: أعزُّ عزيزٍ؛ **قال الفرزدق**:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

معناه: أَعَزُّ عزيزٍ، وأَطْوَلُ طويلٍ»[1]. اهـ.

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٢١٤).

والصوابُ من هَذين القولَيْنِ اللَّذَيْنِ ذكرهما رَحِمَهُ اللهُ **هو**: الثاني؛ **بمعنى**: أنْ يكونَ اللهُ عند العبدِ أكْبَرَ مِنْ كلِّ شيء؛ **أي**: لا أكْبَرَ ولا أعْظَمَ معه، أمَّا الأول، فهو غيرُ صحيحٍ، وليس هو معنى (اللهُ أكبَرُ).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «التكبيرُ يُرادُ به أن يكونَ (**اللهُ**) عند العبد أكْبَرَ مِنْ كلِّ شيء؛ كما قال ﷺ لعديِّ بن حاتم: (**يَا عَدِيُّ، مَا يُفِرُّكَ؟ أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَـهٍ إِلَّا اللهُ؟! يَا عَدِيُّ، مَا يُفِرُّكَ؟ أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ؟!**)؛ وهذا يُبْطِلُ قولَ مَنْ جعَلَ (أَكْبَرَ) بمعنى (كبيرٍ)»[1]. اهـ.

وحديثُ عديٍّ هذا رواه الإمامُ أحمد والترمذي وابن حِبَّان وغيرهم بإسناد جيِّد[2].

وبه يَتبيَّنُ أنَّ معنى (**اللهُ أكبر**)؛ **أي**: مِنْ كلِّ شيء، فلا شيءَ أكبرُ ولا أعظمُ منه؛ ولهذا يُقالُ: إنَّ أبلغَ لفظةٍ للعَرَبِ في معنى التعظيم والإجلالِ هي: اللهُ أكْبَرُ؛ **أي**: صِفْهُ بأنَّه أكبرُ مِنْ كلِّ شيء؛ **قال الشاعر**:

رَأَيْتُ اللَّـهَ أَكْبَـرَ كُـلِّ شَـيْءٍ ... مُـحَـاوَلَـةً وَأَكْـثَـرَهُـمْ جُـنُـودَا[3]

والتكبيرُ معناه ـ كما تَقدَّمَ ـ التعظيمُ، لكن ينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ التعظيمَ ليس مرادفًا في المعنى للتكبيرِ؛ فالكبرياءُ أكملُ مِنَ العَظَمة؛ لأنَّه يَتضمَّنها ويزيدُ عليها في المعنى؛ **ولهذا يقولُ شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ: «وفي قوله: «**اللهُ أَكْبَرُ**» إثباتُ عظمتِهِ؛ فإنَّ الكبرياءَ تَتضمَّنُ العَظَمةَ، ولكنَّ الكبرياءَ أكملُ؛ ولهذا جاءتِ الألفاظُ المشروعةُ في الصلاةِ والأذانِ بقول: «**اللهُ أَكْبَرُ**»؛ فإنَّ ذلك أكملُ مِنْ قول: اللهُ أعظمُ؛ كما ثبَتَ في «الصحيح» عن النبي ﷺ، أنَّه قال: (**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي؛ فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا**

---

(١) «الفتاوى» (٥/ ٢٣٩).

(٢) «المسند» (٤/ ٣٧٨)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٩٥٣)، و«صحيح ابن حبان» (الإحسان) رقم (٧٢٠٦).

(٣) **انظر**: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/ ٢٢٣).

عَذَّبْتُهُ)[١]، فجعَلَ العَظَمَةَ كالإزارِ، والكبرياءَ كالرداء، ومعلومٌ أنَّ الرداءَ أشرفُ، فلمَّا كان التكبيرُ أبلغَ مِنَ التعظيمِ، صَرَّحَ بلفظه، وتَضمَّنَ ذلك التعظيمَ»[٢].اهـ.

وهٰهنا أمرٌ ينبغي التنبُّهُ له وعدَمُ إغفاله، وهو: أنَّ المسلمَ إذا اعتقَدَ وآمَنَ بأنَّ اللهَ ﷻ أكبَرُ مِنْ كلِّ شيء، وأنَّ كلَّ شيءٍ مهما كَبُرَ يَصْغُرُ عند كبرياءِ اللهِ وعَظَمَتِهِ، عَلِمَ مِنْ خلالِ ذلكَ عِلْمَ اليقينِ: أنَّ كبرياءَ الربِّ وعظمتَهُ وجلالَهُ وجمالَهُ وسائرَ أوصافِهِ ونعوتِهِ أمرٌ لا يمكنُ أن تحيطَ به العقولُ، أو تَتصوَّرَهُ الأفهام، أو تُدْرِكَهُ الأبصارُ والأفكارُ، فاللهُ أعظمُ وأعظمُ مِنْ ذلك، بل إنَّ العقولَ والأفهامَ عاجزةٌ عن أنْ تُدْرِكَ كثيرًا مِنْ مخلوقاتِ الربِّ تبارك وتعالى؛ فكيفَ بالربِّ سبحانه؟!

ثبتَ عن ابن مسعودٍ ﷺ أنَّه قال: «بَيْنَ السماءِ الدنيا والتي تليها خَمْسُمَائَةِ عامٍ، وبين كلِّ سماءٍ خَمْسُمَائَةِ عامٍ، وبينَ السماءِ السابعةِ والكرسيِّ خَمْسُمَائَةِ عامٍ، وبين الكرسيِّ والماءِ خَمْسُمَائَةِ عامٍ، والعرشُ فوقَ الماءِ، واللهُ فوقَ العرشِ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ مِنْ أعمالكم»[٣].

وروى ابن جريرٍ الطبريُّ في «تفسيره»، عن زَيْد بن أَسْلَمَ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَا السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ)**، قال: وقال أبو ذَرٍّ ﷺ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **(مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ)**[٤].

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٢٠).

(٢) رواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (ص٢٦، ٢٧)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٢٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٨٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٩٠)، وغيرهم. قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٦): «رجاله رجال الصحيح»، وصحَّحه الذهبي في «العلو» (ص١٠٣، مختصره)، وابن القيِّم في «اجتماع الجيوش» (ص١٠٠).

(٣) «تفسير الطبري» (٣/ ١٠)، وعنه ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٢٤) وقال: «أوَّل الحديثِ مرسلٌ، وعن أبي ذر منقطع». ولحديث أبي ذر طرقٌ أخرى أوردها الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٠٩)، وصحَّحه بمجموعها.

❁ **وليتأمَّلِ المسلمُ في عِظَمِ السماءِ بالنسبةِ إلى الأرضِ، وعِظَمِ الكرسيِّ بالنسبةِ إلى السماء، وعِظَمِ العَرْشِ بالنسبةِ إلى الكرسيِّ**؛ فإنَّ العقولَ عاجزةٌ عن أن تُدْرِكَ كمالَ هذه الأشياءِ، أو أنْ تحيطَ بِكُنْهِهَا وكَيْفيَّتِها وهي مخلوقةٌ؛ فكيفَ بالأمرِ إذًا في الخالقِ سبحانه؟! فهو أكبرُ وأجلُّ مِنْ أن تعرفَ العقولُ كُنْهَ صفاتِهِ، أو تدركَ الأفهامُ كبرياءَهُ وعظمتَهُ؛ ولهذا جاءتِ السُّنَّةُ بالنهي عن التفكُّرِ في الله؛ لأنَّ الأفكارَ والعقولَ لا تدركُ كُنْهَ صفاتِهِ، فاللهُ أكبرُ مِنْ ذلك؛ عن عبد الله بن سَلَام ﷺ، قال: «خرَجَ رسولُ الله ﷺ على ناسٍ مِنْ أصحابِهِ وهم يَتفكَّرونَ في خَلْقِ الله ﷻ، فقال ﷺ: **(فِيمَ تَتَفَكَّرُونَ؟)**، قالوا: نَتفكَّرُ في خَلْقِ اللهِ تبارَكَ وتعالىٰ، قال: **(فَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ، وَلَكِنْ تَفَكَّرُوا فِيمَا خَلَقَ اللهُ)**» الحديثَ[1].

والتفكُّرُ المأمورُ به هنا ـ كما يُبيِّنُ ابن القيِّم ﷺ ـ هو إحضارُ معرفتَيْنِ في القلبِ ليستثمرَ منهما معرفةً ثالثة[2]، وهذا يَتَّضِحُ بالمثال؛ فالمسلمُ إذا أحضَرَ في قلبِهِ كِبَرَ هذه المخلوقاتِ؛ مِنْ سَمَاوَاتٍ وأرضٍ، وكرسيٍّ وعرش، ونحوِ ذلك، ثم أحضر في قلبه عَجْزَهُ عن إدراكِ هذه الأشياءِ والإحاطةِ بها، حَصَلَ لَه بذلك معرفةٌ ثالثةٌ، وهي عَظَمَةُ وكبرياءُ خالق هذه الأشياء، وعَجْزُ العقولِ عن أن تدركَ صفاتِهِ، أو تحيطَ بنعوتِهِ سبحانه؛ يقولُ سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، فاللهُ أكبرُ كبيرًا، والحمدُ للهِ كثيرًا، وسبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلًا.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٢١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٦٦)، وفي إسناده شَهْر بن حَوْشَب؛ وفيه ضعف، وهو لم يَلْقَ عبد الله بن سَلَامٍ؛ كما في «المراسيل» لابن أبي حاتم (٨٩).
ولكنْ للحديث شواهدُ يتقوَّى بها، أورَدَ بعضها السخاوي في «المقاصد الحسنة» رقم (٣٤٢)، ثم قال: «وأسانيدها ضعيفةٌ، لكنَّ اجتماعَهَا يكتسبُ قوةً، والمعنى صحيح». اهـ.
والحديث حسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٧٨٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص١٨١).

٥٣

التَّلَازُمُ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ

تَحَدَّثْتُ فيما سبَقَ عن الكلماتِ الأربع: «سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلَـهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ»، وما ورَدَ في فضلِ هذه الكلماتِ إجمالًا وتفصيلًا، وما يَتعلَّقُ كذلك بمعاني هذه الكلماتِ ومدلولِهنَّ. ولعلَّ مِنَ الحَسَنِ في ختامِ الحديثِ عن هؤلاءِ الكلمات: أنْ أشيرَ إلى ما بينهنَّ مِنْ ترابطٍ وتلازم، **وقد علمنا مِنْ خلالِ ما تَقدَّمَ**: أنَّ هؤلاءِ الكلماتِ هنَّ أفضلُ الكلامِ بعد القرآنِ الكريم، وهنَّ مِنَ القرآنِ الكريم، وتَقدَّمَ معنا أيضًا الإشارةُ إلى جملةٍ كبيرةٍ من النصوص الدالَّةِ على عظمِ شأنِ ذكرِ اللهِ تعالى بهؤلاءِ الكلماتِ الأربع، وما يَترتَّبُ على ذلكَ مِنْ أجورٍ كثيرة، وفضائلَ وفيرة، وخيرٍ مستمرٍّ في الدنيا والآخرة، ولا شَكَّ أنَّ في هذا أوضحَ إشارةٍ إلى قوةِ الارتباطِ بين هذه الكلماتِ الأربع، وشدةِ الصلةِ بينهنَّ.

ثمَّ إنَّ هؤلاءِ الكلماتِ ـ كما أوضَحَ أهلُ العلم ـ: «شَطْران؛ **فالتسبيحُ قرينُ التحميد**؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: **(كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحْمٰنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ)**؛ أخرجاه في «الصحيحين» عن أبي هريرة[1]، وقال ﷺ فيما رواه مسلمٌ عن أبي ذرٍّ: **(أَفْضَلُ الكَلَامِ مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)**[2]، وفي القرآنِ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]، فكان النبيُّ ﷺ يقولُ في ركوعه: **(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِر لِي)**؛ يَتأوَّلُ القرآنَ؛

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٧٦).

هكذا في الصِّحَاحِ عن عائشة رضي الله عنها[١]؛ فجعل قولَهُ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ) تأويلَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وقد قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم]، والآثارُ في اقترانهما كثيرةٌ.

وأمَّا التهليلُ، فهو قرينُ التكبيرِ؛ كما في كلماتِ الأذانِ: اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبَرُ، أَشْهَدُ أنْ لا إلَـهَ إلا اللهُ، أشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله، ثم بعدَ دعاءِ العبادِ إلى الصلاة: اللهُ أكبَرُ اللهُ أكبرُ لا إلـهَ إلا اللهُ؛ فهو مُشتمِلٌ على التكبيرِ والتشهُّدِ في أوَّله وآخره، وهو ذِكْرٌ للهِ تعالى، وفي وسطِهِ دعاءُ الخلقِ إلى الصلاةِ والفلاحِ، فالصلاةُ هي العَمَلُ، والفلاحُ هو ثوابُ العملِ، لكنْ جُعِلَ التكبيرُ شفعًا والتشهُّدُ وِتْرًا، فمع كلِّ تكبيرتَيْن شهادةٌ، وجُعِلَ أوَّلُهُ مضاعفًا على آخره، ففي أوَّلِ الأذانِ يكبِّرُ أربعًا، ويَتشهَّدُ مرَّتَيْنِ، والشهادتانِ جميعًا باسمِ الشهادةِ، وفي آخرِهِ التكبيرُ مَرَّتانِ فقطْ مَعَ التهليلِ الذي لم يقترنْ به لفظُ الشهادة.

... وكما جُمِعَ بين التكبيرِ والتهليلِ في الأذان، جُمِعَ بينهما في تكبير الإشراف، فكان على الصَّفَا والمروةِ، وإذا علا شَرَفًا في غَزْوةٍ أو حَجَّةٍ أو عمرةٍ يُكَبِّرُ ثلاثًا، ويقولُ: (**لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**)، يفعلُ ذلك ثلاثًا، وهذا في الصِّحَاحِ[٢]، وكذلك على الدابَّةِ كَبَّرَ ثلاثًا، وهَلَّلَ ثلاثًا، فجَمَعَ بين التكبيرِ والتهليل، وكذلك حديثُ عديِّ بن حاتم الذي رواه الترمذيُّ فيه: «أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: (**يَا عَدِيُّ، مَا يُفِرُّكَ؟ أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَـهٍ إِلَّا اللهُ؟! يَا عَدِيُّ،**

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨١٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٤٨٤).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (١٧٩٧)، و«صحيح مسلم» رقم (١٣٤٤).

مَا يُفِرُّكَ؟ أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ؟!)[١] فقرن النبيُّ ﷺ بين التهليلِ والتكبير»[٢].

ثم إنَّ أفضلَ هؤلاءِ الكلماتِ هو التهليلُ؛ لاشتمالِهِ على التوحيدِ، الذي هو أصلُ الإيمان، وهو الكلامُ الفارقُ بين أهلِ الجَنَّةِ وأهلِ النار، وهو ثمنُ دخولِ الجنة، ولا يَصْلُحُ إسلامُ أحدٍ إلَّا به، ومَنْ كان آخِرُ كلامِهِ: لا إلَـهَ إلَّا اللهُ، دخَلَ الجَنَّةَ، ومنزلةُ التحميدِ والتسبيحِ منه منزلةُ الفرعِ مِنَ الأصل؛ فالتهليلُ أصلٌ، وما سواه فرعٌ له وتابعٌ؛ ولهذا قال ﷺ كما في «الصحيحين»، من حديث أبي هُرَيْرة رضي الله عنه: **(الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ)**[٣]؛ فجعَلَ صلواتُ الله وسلامُهُ عليه التهليلَ أعلى وأرفَعَ شُعَبِ الإيمان، وفي «المسند» عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، قال: «قلتُ: يا رسولَ الله! أَفَمِنَ الحسناتِ لا إلـه إلَّا الله؟ قال: **(هِيَ أَفْضَلُ الحَسَنَاتِ)**»[٤]، والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ جِدًّا، وقد تَقَدَّمَ معنا جملةٌ كبيرةٌ منها.

ولا يعارضُ هذا ما ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **(أَفْضَلُ الكَلَامِ مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)**[٥]؛ إذْ لا يلزمُ منه ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رحمه الله ـ أن يكونَ أفضلَ مطلقًا؛ بدليلِ أنَّ قراءةَ القرآنِ أفضلُ مِنَ الذِّكْرِ، وقد نهى النبيُّ ﷺ عنها في الركوع والسجودِ، وقال: **(إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ القُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، أَمَّا الرُّكُوعُ، فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبُّ، وأَمَّا السُّجُودُ، فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ)**[٦].

وهٰهنا أصلٌ عظيمٌ نبَّه عليه شيخُ الإسلام رحمه الله، وهو أنَّ الشيءَ

---

(١) وتقدَّم تخريجه (ص٢٤٠).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٣).
(٣) تقدم تخريجه (ص١٥٢).
(٤) تقدم تخريجه (ص١٤٨).
(٥) تقدم تخريجه (ص١٧٦).
(٦) تقدم تخريجه (ص٨٩).

إذا كان أفضلَ مِنْ حيثُ الجملةُ، لم يجبْ أن يكونَ أفضلَ في كلِّ حالٍ، ولا لكلِّ أحد، بل المفضولُ في موضعِهِ الذي شُرِعَ فيه أفضلُ مِنَ الفاضلِ المطلق؛ كما أنَّ التسبيحَ في الركوعِ والسجودِ أفضلُ مِنْ قراءةِ القرآنِ، ومِنَ التهليلِ والتكبير، والتشهدُ في آخِرِ الصلاة، والدعاءُ بعده أفضلُ مِنْ قراءةِ القرآن؛ فالتفضيلُ مختلفٌ باختلافِ الأحوال؛ فقولُ النبيِّ ﷺ لَمَّا سُئِلَ: أيُّ الكلامِ أفضلُ؟ فقال: **(سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)**، هذا خَرَجَ على سؤالِ سائلٍ، فربَّما عَلِمَ النبيُّ ﷺ مِنْ حالِ السائلِ حالًا مخصوصة.

وعلى كلٍّ: فالتفضيلُ مختلفٌ باختلافِ الأحوال، وإنْ كان التهليلُ أفضلَ مطلقًا.

والأحوالُ ثلاثةٌ: **حال**: يُستَحَبُّ فيه الإسرارُ، ويُكْرَهُ فيها الجهرُ؛ لأنَّها حالُ انخفاض؛ كالركوعِ والسجودِ، فهنا التسبيحُ أفضلُ مِنَ التهليلِ والتكبير، وكذلك في بطونِ الأودية، **وحالٌ**: يُستَحَبُّ فيه الجهرُ والإعلانُ؛ كالإشرافِ والأذانِ، فهنا التهليلُ والتكبيرُ أفضلُ مِنَ التسبيح، **وحالٌ**: يُشْرَعُ فيه الأمران(١).

نسألُ اللهَ الكريمَ أن يُوَفِّقَنا وجميعَ المسلمينَ لكلِّ خيرٍ يُحِبُّهُ ويَرْضاه، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين.

❁ ❁ ❁

---

(١) **انظر**: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٤/ ٢٣٥ ـ ٢٣٩).

٥٤

فَضْلُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

إنَّ مِنَ الكلماتِ العظيمةِ التي جاءتِ النصوصُ بتفضيلها وبيانِ عِظَمِ شأنها: الحَوْقَلَةَ، وهي قولُ: **لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ**، وقد جاءتْ في بعضِ الأحاديثِ مضمومةً إلى الكلماتِ الأربعِ التي سبَقَ الحديثُ عنها مفصَّلًا فيما مضى، ومِنَ النصوصِ التي وردَتْ فيها هذه الكلمةُ مضمومةً إلى أولئكَ الكلماتِ: ما رواه أحمد والترمذيُّ والحاكمُ، من حديث عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(مَا عَلَى الأَرْضِ رَجُلٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، إِلَّا كُفِّرَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ، وَلَوْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ البَحْرِ)**[١].

وأيضًا: ما رواه أبو داودَ والنَّسَائيُّ والدارقطني وغيرُهم، عن ابن أبي أَوْفى رضي الله عنهما، قال: «جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: إنِّي لا أستطيعُ أن آخُذَ مِنَ القرآنِ شيئًا، فعلِّمني ما يجزئني منه، قال: **(قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ)**، قال: يا رسولَ اللهِ، هذا لله عز وجل، فما لي؟ قال: **(قُلِ: اللَّهُمَّ، ارْحَمْنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي)**، فلمَّا قام، قال هكذا بيده، فقال رسول الله ﷺ: **(أَمَّا هَذَا، فَقَدْ مَلأَ يَدَهُ مِنَ الخَيْرِ)**»[٢].

ورُوِيَ من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**(اسْتَكْثِرُوا مِنَ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ)**، قيل: وما هي يا رسولَ اللهِ؟

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٣٨).

(٢) سبق تخريجه (ص١٤٣).

قال: (**التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّسْبِيحُ وَالحَمْدُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**)»[(١)].

لكنْ جاءَ عَدُّ (**لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ**) في جملةِ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ [الكهف: ٤٦، مريم: ٧٦]، عن غيرِ واحدٍ مِنَ الصحابةِ والتابعين؛ **فقد روى الإمامُ أحمد في «مسنده»، أنَّ أميرَ المؤمنينَ عُثْمانَ بن عَفَّانَ ﷺ سُئِلَ عن «الباقياتِ الصالحاتِ»، ما هي؟ فقال:** «هي: لا إلَـهَ إلا اللهُ، وسُبْحَانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، واللهُ أكْبَرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ»[(٢)].

وروى ابنُ جَرِيرٍ، عن ابن عُمَرَ ﷺ، أنَّه سُئِلَ عن «الباقياتِ الصالحات»؟ فقال: «لا إلـهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، وسبحانَ اللهِ، ولا حولَ ولا قُوَّة إلَّا باللهِ».

وروى مالكٌ عن سَعِيد بن المسيِّبِ، قال: «الباقياتُ الصالحاتُ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلـهَ إلا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، ولا حولَ ولا قوة إلَّا باللهِ».

وروى ابن جريرٍ الطبريُّ عن عُمَارَةَ بن صَيَّادٍ، قال: «سألني سعيدُ بنُ المسيِّب عن «الباقيات الصالحاتِ»؟ فقلتُ: الصلاةُ والصيامُ، قال: لم تُصِبْ، فقلتُ: الزكاةُ والحجُّ، فقال: لم تُصِبْ، ولكنَّهُنَّ الكلماتُ الخمسُ: لا إلـهَ إلا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، وسبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ».

وأثرُ ابنِ المسيِّب هذا يوهمُ أنَّ «الباقياتِ الصالحاتِ» محصورةٌ في هؤلاءِ الكلماتِ الخمس، **والذي عليه المحقِّقون مِنْ أهل العلم أنَّ «الباقياتِ الصالحاتِ» هنَّ جميعُ أعمالِ الخير؛ كما جاء عن ابن عبَّاسٍ ﷺ في قوله:** ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، **قال:** «هي ذِكْرُ اللهِ: قولُ: لا إلـهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، وسبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، وتَبارَكَ اللهُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ،

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٧٥)، و«صحيح ابن حبان» (الإحسان) رقم (٨٤٠)، و«المستدرك» (١/ ٥١٢)، وفي إسناده أبو السَّمْحِ دَرَّاجُ بن سمعان، صدوقٌ، في حديثِهِ عن أبي الهيثمِ ضَعْفٌ، كما في «تقريب التهذيب» (ص٢٠١)، وهذا منها.

(٢) «المسند» (١/ ٧١).

وأَستغفِرُ اللهَ، وصلَّى اللهُ على رسولِ اللهِ، والصيامُ، والصلاةُ، والحجُّ، والصدقةُ، والعتقُ، والجهادُ، والصِّلَةُ، وجميعُ أعمالِ الحسنات، وهنَّ الباقياتُ الصالحات، التي تبقى لأهلها في الجَنَّةِ ما دَامَتِ السمٰواتُ والأرض».

وقد ورَدَ في فضل هذه الكلمة، وبيانِ عِظَمِ مكانتها عندَ الله، وما يَترتَّبُ عليها مِنْ أجرٍ وثوابٍ نصوصٌ خاصَّةٌ عن رسولِ الله ﷺ؛ **منها**: ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي موسى الأشعريِّ ﷺ، قال: «كنا مَعَ النبيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فكنَّا إذا عَلَوْنا كبَّرنا، وفي روايةٍ: فجَعَلْنَا لا نَصْعَدُ شَرَفًا، ولا نَعْلُو شرفًا، ولا نَهْبِطُ في وادٍ، إلَّا رَفَعْنَا أصواتَنا بالتكبيرِ، فقال النبيُّ ﷺ: (**أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا**)، ثم أتى عَلَيَّ وأنا أقول في نفسي: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، فقال: (**يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ، قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ**)، أو قال: (**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**)»[(١)].

قال بعضُ أهلِ العلم في التعليقِ على هذا الحديث: «كان ﷺ مُعَلِّمًا لأمَّته، فلا يراهُمْ على حالةٍ مِنَ الخيرِ إلَّا أَحَبَّ لهمُ الزيادةَ، فأحبَّ للذين رَفَعُوا أصواتَهُمْ بكلمةِ الإخلاصِ والتكبيرِ أن يُضِيفُوا إليه التبرِّيَ مِنَ الحولِ والقوة، فيجمعوا بين التوحيدِ والإيمانِ بالقَدَرِ، وقد جاءَ في الحديثِ: (**إِذَا قَالَ العَبْدُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، قَالَ اللهُ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**)؛ **قال الحافظ ابن حجر**: «أخرجَهُ الحاكمُ مِنْ حديثِ أبي هريرة بسندٍ قويٍّ»[(٢)].

وفي رواية: (**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ مِنْ كَنْزِ الجَنَّةِ؟ تَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**)[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٨٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٤).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٥٠١)، وانظر: «المستدرك» (١/ ٢١).

(٣) «مستدرك الحاكم» (١/ ٧١)، وقال: «صحيحٌ، ولا يُحْفَظُ له عِلَّةٌ»، ووافقه الذهبيُّ.

وروى الإمامُ أحمد وابن حِبَّان وغيرهما، عن أبي أيُّوب الأنصاريِّ ﷺ، أنَّ النبي ﷺ ليلةَ أُسْرِيَ به، مرَّ على إبراهيمَ ـ على نبيِّنا وعليه الصلاةُ والسلام ـ فقال: (**يَا مُحَمَّدُ، مُرْ أُمَّتَكَ أَنْ يُكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الجَنَّةِ، قَالَ: وَمَا غِرَاسُ الجَنَّةِ؟ قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**)(١).

وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّة**)(٢).

وروى أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم عن قيس بن سَعْد بن عُبَادة، أنَّ أباه دَفَعَهُ إلى النبيِّ ﷺ يَخْدُمُهُ، قال: «فمرَّ بِيَ النبيُّ ﷺ وقد صَلَّيْتُ، فضَرَبَنِي برجلِهِ، وقال: (**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ؟!**)، قلتُ: بلى، قال: (**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**)»(٣).

فهذه بعضُ الأحاديثِ المشتملةِ على بيانِ فضلِ هذه الكلمةِ العظيمة، وما يَترتَّبُ عليها مِنْ أجورٍ عظيمة، وخيراتٍ جليلة، وفوائدَ متنوِّعةٍ في الدنيا والآخرة، وقد نظَمَ ابنُ العراقيِّ رَحِمَهُ اللهُ جملةً مِنَ الفضائل الواردة لهذه الكلمةِ في أبيات لطيفة، فقال:

يَا صَاحِ أَكْثِرْ قَوْلَ لَا حَوْلَ وَلَا ... قُوَّةَ إِلَّا فَهْيَ لِلدَّاءِ دَوَا
وَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنَ الجَنَّةِ يَا ... فَوْزَ امْرِئٍ لِجَنَّةِ المَأْوَى أَوَا
لَهُ يَقُولُ رَبُّنَا أَسْلَمَ لِي ... عَبْدِيَ واسْتَسْلَمَ رَاضِيًا هَوَا

وأنشَدَ أيضًا لنفسه:

تَبَرَّأْ مِنَ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ ... تَنَلْ أَيَّ كَنْزٍ مِنَ الجَنَّةِ
وَسَلِّمْ أُمُورَكَ لِلَّهِ كَيْ ... تَبِيتَ وَتُصْبِحَ فِي جُنَّةِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢١).
(٢) «المسند» (٢/ ٣٣٣)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٥٢٨).
(٣) «المسند» (٣/ ٤٢٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٨١)، و«المستدرك» (٤/ ٢٩٠)، **وانظر**: «الصحيحة» (٤/ ٣٥ ـ ٣٧).

وَلَا تَـرْجُ إِنْ مَـسَّ خَـطْـبٌ سِـوَى　　　إِلـٰهِـكَ ذِي الـفَـضْـلِ والـمِـنَّـةِ
وَوَاظِبْ عَلَى الخَيْرِ وَاحْرِصْ عَلَى　　　أَدَاءِ الـفَـرَائِـضِ وَالـسُّـنَّـةِ
وَكُـنْ سَالِـمَ الـصَّـدْرِ لِلْـمُـسْـلِمِيـ　　　ـنَ مِـنْ غِـلِّ حِـقْـدٍ وَمِـنْ ظِـنَّـةِ[1]

فنسألُ اللهَ الكريمَ أن يُوفِّقَنَا لكلِّ خيرٍ يحبُّه ويرضاه، وأنْ يَقِيَنَا مِنَ الزَّلَلِ في القولِ والعملِ، فلا حولَ لنا ولا قوةَ إلَّا به، وهو حسبُنا ونِعْمَ الوكيل.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «فضل لا حول ولا قوة إلَّا بالله» ليوسف بن عبد الهادي (ص٣٩، ٤٠).

٥٥

حَقِيقَةُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

تَقدَّمَ الكلامُ على فضلِ قولِ: «**لا حَوْلَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ**»، تلك الكلمةِ العظيمةِ، ذاتِ المعاني الجليلة، والدَّلَالاتِ العميقة. وقد تَنوَّعتِ الأحاديثُ في الدَّلَالةِ على تشريفِ هذه الكلمةِ وتعظيمِها؛ حيث أخبَرَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه أنَّها مِنْ أبوابِ الجَنَّة، وأنَّها مِنْ كَنْزٍ تحتَ العرشِ، وأنَّها غِراسُ الجَنَّة، وأنَّها مِنَ الباقياتِ الصالحاتِ التي ينبغي للعبدِ أنْ يَستكثِرَ منها. ومَرَّ معنا أيضًا أمرُ النبيِّ ﷺ بالإكثارِ مِنْ قول: لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ، وكلُّ هذا يَدُلُّ بِجَلَاءٍ على عِظَمِ فَضْلِ هذه الكلمةِ ورِفْعَةِ شأنها، وأنَّها كلمةٌ عظيمةٌ جليلة، ينبغي على المسلمينَ أن يُعْنَوْا بها، وأن يُكْثِرُوا مِنْ قولها، وأنْ يَعْمُروا أوقاتَهم بكثرةِ تَرْدَادِها؛ لِعِظَمِ فضلها عند الله، ولكثرةِ ثوابها عنده، ولِمَا يَترتَّبُ عليها من خيراتٍ متنوِّعة، وأفضالٍ متعدِّدةٍ في الدنيا والآخرة.

۞ **ومِنَ الأمورِ اللازمةِ في هذا الباب، والمتأكِّدةِ على كلِّ مسلم**: أن يفهم مدلولَ هذه الكلمةِ ومعناها؛ ليكونَ ذكرُهُ لله بها عن علم وفهم وإدراكٍ لمدلولِ ما يَذْكُرُ اللهَ به، أمَّا أنْ يُردِّدَ المسلمُ كلامًا لا يفهمُ معناه، أو ألفاظًا لا يدركُ مدلولَها، فهذا عديمُ التأثير، ضعيفُ الفائدة. ولهذا، فإنَّه لا بدَّ على المسلم في هذا الذِّكرِ - بل وفي كلِّ ما يَذْكُرُ اللهَ به - أنْ يكونَ عالمًا بمعنى ما يقول، مُدْرِكًا لمدلوله؛ إذْ بذلك يؤتي الذِّكْرُ ثِمَارَه، وتَتحقَّقُ فائدتُه، ويَنتفِعُ به الذاكر، وقد تَقدَّمَ معنا قولُ النبيِّ ﷺ لأبي هريرة ﷺ: (**أَلَا أَدُلُّك على كَلِمَةٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ مِنْ كَنْزِ الجَنَّةِ؟ تَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**)[1].

(١) تقدّم تخريجه (ص٢٤٩).

فهي كلمةُ إسلامٍ واستسلامٍ، وتفويضٍ وتبرُّؤٍ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ إلَّا بالله، وأنَّ العبدَ لا يملكُ مِنْ أَمْرِهِ شيئًا، وليسَ له حيلةٌ في دَفْعِ شرٍّ، ولا قُوَّةٌ في جلبِ خيرٍ إلَّا بإرادةِ اللهِ تعالى؛ فلا تَحَوُّلَ للعبدِ مِن معصيةٍ إلى طاعة، ولا مِنْ مرضٍ إلى صحة، ولا مِنْ وهنٍ إلى قُوَّة، ولا مِنْ نُقْصانٍ إلى كمالٍ وزيادةٍ، إلَّا بالله، ولا قوَّةَ له على القيام بشأنٍ مِنْ شؤونه، أو تحقيقِ هدفٍ مِنْ أهدافه، أو غايةٍ من غاياتِهِ، إلَّا باللهِ العظيم، فما شاءَ اللهُ كان، وما لم يشأْ لم يكن، فأَزِمَّةُ الأمورِ بيده سبحانه، وأمورُ الخلائقِ معقودةٌ بقضائِهِ وقَدَرِه، يَصْرِفُها كيف يشاء، ويقضي فيها بما يُرِيد، لا رَادَّ لقضائه، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمه، فما شاء كان كما شاءَ في الوقتِ الذي يشاء، على الوجهِ الذي يشاء، مِنْ غيرِ زيادةٍ ولا نقصان، ولا تَقَدُّمٍ ولا تأخُّر، له الخلقُ والأمر، وله المُلْكُ والحَمْد، وله الدنيا والآخرةُ، وله النِّعْمةُ والفضل، وله الثناءُ الحَسَن، شَمِلَتْ قدرتُهُ كلَّ شيء، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، ومَنْ كان هذا شأنَهُ، فإنَّ الواجبَ الإسلامُ لألوهيَّتِه، والاستسلامُ لِعَظَمَتِه، وتفويضُ الأمورِ كلِّها إليه، والتبرُّؤُ مِنَ الحَوْلِ والقوة إلَّا به؛ ولهذا تَعَبَّدَ اللهُ عبادَهِ بِذِكْرِهِ بهذه الكلمةِ العظيمة، التي هي بابٌ عظيمٌ مِنْ أبوابِ الجنَّة، وكنزٌ مِنْ كنوزها.

فهي كلمةٌ عظيمةٌ **تعني**: الإخلاصَ للهِ وحدَهُ بالاستعانة، كما أنَّ كلمةَ التوحيدِ: لا إلـه إلا الله **تعني**: الإخلاصَ للهِ بالعبادة؛ فلا تَتحقَّقُ لا إلـهَ إلا اللهُ إلَّا بإخلاصِ العبادةِ كلِّها لله، ولا تَتحقَّقُ لا حول ولا قوةَ إلَّا بالله إلَّا بإخلاصِ الاستعانةِ كلِّها لله، وقد جمَعَ الله بين هذَيْنِ الأمرَيْنِ في سورة الفاتحة، أفضلِ سورة في القرآن؛ وذلك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فالأوَّلُ تبرُّؤٌ مِنَ الشرك، والثاني تبرُّؤٌ مِنَ الحَوْلِ والقوةِ والتفويضِ إلا إلى الله ﷻ، والعبادةُ متعلِّقةٌ بألوهيَّةِ الله سبحانه، والاستعانةُ متعلِّقةٌ بربوبيَّته، العبادةُ غايةٌ، والاستعانةُ وسيلةٌ، فلا سبيلَ إلى تحقيقِ تلكَ الغايةِ العظيمةِ إلَّا بهذه الوسيلةِ:

الاستعانةِ باللهِ الذي لا حولَ ولا قوةَ إلَّا به؛ ولهذا يخطئُ مَنْ يستخدمها في غيرِ بابها، أو يجعلُها في غيرِ مقصودها، **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وذلكَ أنَّ هذه الكلمةَ (أي: **لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله**) هي كلمةُ استعانةٍ لا كلمةُ استرجاع، وكثيرٌ مِنَ الناسِ يقولها عندَ المصائبِ بمنزلةِ الاسترجاعِ، ويقولها جَزَعًا لا صبرًا»(١).

وعلى هذا المعنى المُشار إليه يدورُ فهمُ السلفِ رحمهم الله لهذا الكلمةِ العظيمة؛ **أخرج ابن أبي حاتم في «تفسيره»، عن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **في «لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ»، قال**: «لا حولَ بنا على العملِ بالطاعةِ إلَّا بالله، ولا قوةَ لنا على تركِ المعصيةِ إلَّا بالله».

وأخرَجَ أيضًا عن زُهَيْرِ بن محمَّد أنَّه سُئِلَ عن تفسير: «لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله»؟ قال: «لا تَأْخُذُ ما تُحِبُّ إلَّا بالله، ولا تَمْتَنِعُ مِمَّا تَكْرَهُ إلَّا بعونِ الله»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولُ: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ يوجبُ الإعانةَ؛ ولهذا سنَّها النبيُّ ﷺ إذا قال المؤذِّن: حَيَّ على الصلاةِ، فيقولُ المجيبُ: لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ، فإذا قال: حيَّ على الفلاحِ، قال المجيبُ: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ، وقال المؤمنُ لصاحبِهِ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]؛ ولهذا يُؤمَرُ بهذا مَنْ يخافُ العَيْنَ على شيءٍ، فقوله: ما شاءَ اللهُ، تقديرُهُ: ما شاءَ اللهُ كان، فلا يأمنُ، بل يؤمنُ بالقَدَرِ، ويقولُ: لا قوةَ إلَّا باللهِ، وفي حديث أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتفقِ عليه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ**)، والكنزُ مالٌ مجتمعٌ لا يحتاجُ إلى جَمْعٍ، وذلك أنَّها تَتضمَّنُ التوكُّلَ والافتقارَ إلى الله تعالى، ومعلومٌ أنَّه لا يكونُ شيءٌ إلَّا بمشيئةِ اللهِ وقدرته، وأنَّ الخَلْقَ ليس منهم شيءٌ

(١) «الاستقامة» (٢/ ٨١).
(٢) أوردهما السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).

إلَّا ما أحدَثَهُ اللهُ فيهم، فإذا انقطَعَ القلبُ للمعونةِ منهم، وطَلَبَها مِنَ الله، فقد طَلَبَها مِنْ خالقها، الذي لا يأتي بها إلَّا هو... ولهذا يأمُرُ اللهُ بالتوكُّلِ عليه وَحْدَهُ في غير موضع، **وفي الأثر**: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يكونَ أقوى الناس، فلْيَتَوَكَّلْ على اللهِ، ومَنْ سَرَّهُ أنْ يكون أغنى الناسِ، فليكنْ بما في يَدِ اللهِ أوثقَ منه بما في يده». اهـ[(١)].

ولا ريبَ أنَّ أنفعَ الدعاءِ وأفضلَهُ للعبدِ هو طلبُهُ مِنَ اللهِ العَوْنَ على مرضاتِه، والتوفيقَ لطاعته، وهو الذي عَلَّمَهُ النبيُّ ﷺ لِحِبِّهِ مُعَاذِ بن جَبَلٍ رضي الله عنه، فقال: **(يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَلَا تَنْسَ أَنْ تَقُولَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)**[(٢)]، وهذه كلمةُ استعانةٍ، كما هو الشأنُ في قولِ: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ، استعانةٌ باللهِ لتحقيقِ أفضلِ الغاياتِ، وأجلِّ المطالبِ على الإطلاق، عبادةِ اللهِ سبحانه التي أُوجِدَ الخَلْقُ لتحقيقها، وخُلِقُوا للقيام بها؛ ولهذا **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رحمه الله: «تَأَمَّلْتُ أنفعَ الدعاءِ، فإذا هو سؤالُ العَوْنِ على مَرْضَاتِه، ثم رأيتُهُ في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[(٣)].

فاللَّهُمَّ إيَّاك نَعْبُد، ولك نُصَلِّي ونَسْجُد، وإليكَ نَسْعَى ونَحْفِد، نرجو رحمتَك، ونخافُ عَذَابَك، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بك، فلا تَكِلْنا إلى أنفسنا طَرْفَةَ عَيْنٍ، أنتَ ربُّ العالمينَ وإلـٰهُ الأوَّلينَ والآخرين، لا إلـٰه إلَّا أنتَ نستغفرُكَ ونتوبُ إليك.

❊ ❊ ❊

---

(١) «الفتاوى» (١٣/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٤٤، ٢٤٥)، وأبو داود رقم (١٥٢٢)، والنسائي رقم (١٣٠٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (١٣٤٧).

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٧٨).

القِسْمُ الثَّانِي

فِقْهُ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ

(الدُّعَاءُ مَنْزِلَتُهُ وَآدَابُهُ)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلام على إمامِ المرسلين وخِيرَةِ ربِّ العالمين، نبيِّنا محمَّد وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

أما بعد:

فهذا القسمُ الثاني من كتاب «فِقْهُ الأَدْعِيَةِ وَالأَذْكَارِ»، وهو خاصٌّ بالدعاء، احتوى على جُمْلَةٍ من الموضوعاتِ المفيدة، والأبحاثِ النافعة، والمسائلِ المهمَّةِ التي تَمَسُّ الحاجةُ إليها لدى كلِّ مسلمٍ ومسلمة، **ومِنْ أبرَزِ الموضوعاتِ التي اشتمل عليها هذا القسمُ ما يلي:**

• بيانُ فضلِ الدُّعَاء وأهميَّتِهِ ومكانتِهِ مِنَ الدِّينِ الإسلاميِّ الحنيف.

• الشروطُ التي ينبغي أن تَتوافَرَ في الدعاءِ ليكونَ مقبولًا عندَ اللهِ ﷻ.

• الآدابُ التي ينبغي أن يَتحَلَّى بها مَنْ يدعو اللهَ ﷻ؛ لِيَكْمُلَ دعاؤُه، وَلِيَتَحَقَّقَ رَجَاؤُه، ولينالَ سُؤْلَه.

• فضلُ الأدعيَة المأثورةِ، وكمالُهَا في مَبَانِيها ومعانيها، وبيانُ اشتمالها على غايةِ المطالبِ العالية، وكمالِ المقاصدِ النبيلة.

• خطورةُ الأدعيَةِ المنحرفة، والأورادِ المُخْتَرَعَة، وبيانُ عِظَمِ جنايتها على أهلها المستمسكينَ بها، المحافظينَ عليها.

• التحذيرُ مِنَ الشِّرْكِ في الدُّعَاء، وبيانُ أنَّه أعظمُ انحرافٍ وَقَعَ في هذا الباب.

• بيانُ أنواعِ التوسُّلِ المشروع، والتحذيرُ مِنْ جملةٍ مِنَ الانحرافاتِ التي

وقعَتْ في الدُّعاءِ تُسمَّى توسُّلًا، وهي في الحقيقةِ انحرافٌ وضلال.

• بيانُ أوقاتٍ وأحوالٍ للمسلمِ تكونُ فيها الإجابةُ لدعائِهِ أحرى مِنْ غيرها.

• فضلُ الدُّعَاءِ للمسلمينَ والاستغفارِ لهم، وبيانُ ما يَترتَّبُ عليه مِنْ أجورٍ عظيمة، وخيراتٍ عميمة.

• بيانُ أهميَّةِ تَبَصُّرِ المسلمِ فيما يدعو به، والحَذَرِ مِنَ الاستعجالِ بالدعاءِ على نفسه، أو غيرِهِ من المسلمينَ، بالهلاكِ، أو العذابِ، أو نحو ذلك.

إلى غيرِ ذلك مِنَ الموضوعاتِ النافعةِ المتعلِّقةِ بالدُّعَاء، وقد جعلتُهُ كالقسمِ الأول مِنْ حيثُ حَجْمُهُ وعَدَدُ موضوعاته، فهذا القسمُ يشتملُ على خمسةٍ وخمسينَ موضوعًا متناسبةٍ مِنْ حيثُ الحجمُ، وجعلتُ لكلٍّ منها عنوانًا خاصًّا يُرْشِدُ إلى مضمونه.

وأسألُ الله سبحانَهُ أن يتقبَّلَ منِّي عملي هذا وسائرَ أعمالي، وأن يَنْفَعَ به ويُبَارِكَ فيه، إنه سميعٌ مجيب.

المؤلف

٥٦

فَضْلُ الدُّعَاءِ

الدُّعَاءُ شأنُهُ في الإسلامِ عظيم، ومكانتُهُ فيه سامية، ومنزلتُهُ منه عالية؛ إذْ هو أجلُّ العبادات، وأعظَمُ الطاعات، وأنفعُ القُرُبات؛ ولهذا جاءتِ النصوصُ الكثيرةُ في كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رسوله ﷺ المبيِّنةُ لفضله، والمُنَوِّهةُ بمكانتِهِ وعِظَمِ شأنه، والمرغِّبةُ فيه، والحاثَّةُ عليه، وقد تَنوَّعَتْ دَلَالاتُ هذه النصوصِ المبيِّنةِ لفضل الدعاء؛ فجاءَ في بعضها الأمرُ به والحثُّ عليه، وفي بعضها التحذيرُ مِنْ تَرْكِهِ والاستكبارِ عنه، وفي بعضها ذِكْرُ عِظَمِ ثوابِهِ وكِبَرِ أجرِهِ عندَ الله، وفي بعضها مَدْحُ المؤمنينَ لقيامهم به، والثناءُ عليهم بتكميلِهِ، وغيرُ ذلك مِنْ أنواعِ الدَّلَالاتِ في القرآنِ الكريمِ على عِظَمِ فضلِ الدعاء.

بل إنَّ اللهَ سبحانَهُ قد افتتَحَ كتابَهُ الكريمَ بالدعاءِ واختتَمَهُ به، فسورةُ **«الحَمْد»** التي هي فاتحةُ القرآنِ الكريم، مشتملةٌ على دعاءِ اللهِ بأجلِّ المطالب، وأكملِ المقاصد، ألا وهو سؤالُ اللهِ ﷻ الهدايةَ إلى الصراطِ المستقيم والإعانةَ على عبادته، والقيامَ بطاعتِهِ سبحانه، وسورةُ **«الناس»** التي هي خاتمةُ القرآنِ الكريم، مشتملةٌ على دعاءِ اللهِ سبحانه، وذلك بالاستعاذةِ به سبحانه مِنْ شرِّ الوسواس الخنَّاس، الذي يُوَسْوِسُ في صدور الناس، مِنَ الجِنَّةِ والناس. ومَا مِنْ ريبٍ أنَّ افتتاحَ القرآنِ الكريمِ بالدعاءِ واختتامَهُ به دليلٌ على عِظَمِ شأنِ الدعاء، وأنَّه رُوحُ العباداتِ ولبُّها.

بل إنَّ اللهَ جل وعلا سمَّى الدعاءَ في القرآنِ عبادةً في أكثرَ مِنْ آية؛ مِمَّا يدلُّ على عِظَمِ مكانتِهِ؛ كقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وكقوله

فيما حكاه عن نبيِّه إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم]، ونحوها مِنَ الآيات، وسمَّى سبحانَهُ الدعاءَ دِينًا؛ كما في قوله: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، ونحوها من الآيات.

وهذا كلُّه يُبيِّنُ لنا عِظَمَ شأنِ الدعاء، وأنَّه أساسُ العبوديَّةِ ورُوحُها، وعُنْوانُ التذلُّلِ والخضوعِ والانكسارِ بينَ يَدَي الرَّبِّ، وإظهارِ الافتقارِ إليه؛ ولهذا حثَّ اللهُ عبادَهُ عليه، ورغَّبهم فيه في آيٍ كثيرةٍ مِنَ القرآنِ الكريم؛ يقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

وأخبرَ سبحانه ـ مُرَغِّبًا عبادَهُ في الدعاءِ ـ بأنَّه قريبٌ منهم؛ يُجِيبُ دعاءَهم، ويُحقِّقُ رجاءَهم، ويعطيهم سُؤْلَهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

ولهذا، فإنَّ العبدَ كلَّما عَظُمَتْ معرفتُهُ بالله، وقَوِيَتْ صِلَتُهُ به، كان دعاؤُهُ له أعظمَ، وانكسارُهُ بين يديه أشدَّ؛ ولهذا كان أنبياءُ اللهِ ورُسُلُهُ أعظمَ الناس تحقيقًا للدعاءِ وقيامًا به في أحوالهم كلِّها وشؤونهم جميعِها، وقد أثنى اللهُ عليهم بذلك في القرآنِ الكريم، وذَكَرَ جملةً مِنْ أدعيتهم في أحوالٍ متعدِّدةٍ، ومناسباتٍ متنوِّعةٍ؛ قال تعالى في وصفهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومن أدعيةِ الأنبياء: ما ذكَرَهُ اللهُ عن نبيِّه إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾

رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم].

وذكَرَ سبحانه دعاءَ نبيِّه نُوحٍ عليه السلام عندما سأَلَ ربَّهُ أن يَنْصُرَهُ على قومِهِ الذين كذَّبوه وعادَوْهُ؛ فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر].

وذكَرَ سبحانه دعاءَ نبيِّه أيوبَ عليه السلام عندما مَسَّهُ الضُّرُّ؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء].

وذكَرَ دعاءَ نبيِّه يونسَ عليه السلام عندما التقَمَهُ الحُوتُ، فدعا ربَّهُ وهو في جوفِ الحُوتِ في قَعْرِ البحر، واستجابَ اللهُ دعاءَهُ؛ فقال سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء].

وهكذا مَنْ يتأمَّلُ القرآنَ الكريمَ يجدُ فيه مِنْ أدعيةِ الأنبياءِ وسؤالِهم ربَّهم واطِّرَاحِهِمْ بين يديه في جميعِ أحوالِهم - عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُهُ - شيئًا كثيرًا.

وكما أنَّه سبحانه وصَفَ الأنبياءَ بالدعاء، ونَعتَهُمْ به، وأثنى عليهم بتحقيقِهِ، فقد وصَفَ بذلك سبحانَهُ المؤمنين الصادقين، وعبادَ الله الصالحين؛ قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة]،

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال سبحانه في وصفِ أهلِ الجَنَّةِ عندما يدخلونها بسلام آمنين: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس].

فالدعاءُ هو رُوحُ هذا الدِّين، وزادُ المؤمنينَ المتَّقين، وعُنْوانُ التذلُّلِ والخضوعِ لربِّ العالمين، جعلنا اللهُ وإيَّاكم من أهلِهِ المحقِّقين له؛ إنَّه سَمِيعٌ مجيب.

❁ ❁ ❁

٥٧

مِنْ أَدِلَّةِ السُّنَّةِ عَلَىٰ فَضْلِ الدُّعَاءِ وَذِكْرُ ضَابِطٍ فِي الْمُفَاضَلَةِ بَيْـنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ

تَقدَّمَ معنا فضلُ الدعاءِ مِنْ خلالِ عرضِ جملةٍ مِنْ نصوصِ القرآنِ الكريمِ الدَّالَّةِ على عِظَمِ فضلِهِ وجلالةِ شأنه، وفيما يلي ذِكْرُ جملةٍ مِنْ نصوصِ السُّنَّةِ الدالَّةِ على فضلِ الدعاء، وكثرةِ عوائِدِهِ وثِمَارِهِ وفوائده، **والسُّنَّةُ مليئةٌ بالنصوصِ المشتملةِ على الحثِّ على الدعاءِ، وبيان فضلِهِ، وعِظَمِ ثوابِهِ وأجرِهِ عند الله.**

فمِنْ ذلك ما ثبت في السنن، عن النُّعْمان بن بَشِير ﵄: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: (**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**)، ثمَّ قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠][(١)]، فدلَّ ذلك على عِظم شأن الدعاء، وأنَّه أرفعُ أنواع العبادة وأفضلُها.

وقد روى الحاكمُ بإسناد حسن، عن ابن عباس ﵄ مرفوعًا: (**أَفْضَلُ العِبَادَةِ الدُّعَاءُ**)، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾[(٢)].

وروى الترمذي وغيرُهُ، عن أبي هريرة ﵁، عن النبيِّ ﷺ قال: (**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ**)[(٣)].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٦٧)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٢٤٧)، و«الأدب المفرد» رقم (٧١٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (١٧٥٧).

(٢) «المستدرك» (١/ ٤٩١)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٧٩).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٧٠)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٢٩)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٧٠)، و«المستدرك» (١/ ٤٩٠)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٥٤٩).

ففي هذه الأحاديثِ دَلَالةٌ على فضلِ الدعاء، وعظيم كَرَمِهِ عندَ الله، ورفيعِ مكانتِهِ مِنَ العبادة، وأنَّه رُوحُها ولبُّها وأفضلُها، **وإنَّما كان ذلك كذلك لأمورٍ عديدةٍ ذكرَهَا أهلُ العلم:**

• **منها:** أنَّ الدعاءَ فيه التَّضرُّعُ إلى الله، وإظهارُ الضعفِ والحاجةِ إليه سبحانه.

• **ومنها:** أنَّ العبادةَ كلَّما كان القَلْبُ فيها أخشعَ، والفِكْرُ فيها حاضرًا، فهي أفضلُ وأكملُ، والدعاءُ أقربُ العباداتِ إلى حصولِ هذا المقصودِ، فإنَّ حاجةَ العبدِ تَدْفَعُهُ إلى الخشوعِ وحضورِ القلب.

• **ومنها:** أنَّ الدعاءَ ملازمٌ للتوكُّلِ والاستعانةِ بالله؛ فإنَّ التوكُّلَ هو الاعتمادُ بالقلب على اللهِ والثقةُ به في حصولِ المحبوباتِ واندفاع المكروهات، والدعاءُ يقوِّيه، بل يُعبِّرُ عنه ويُصرِّحُ به، فإنَّ الداعيَ يعلمُ ضرورتَهُ التامَّةَ إلى الله، وأنَّ أمورَهُ جميعَها بيده، فيطلُبُها مِنْ ربِّه راجيًا له واثقًا به، وهذا هو رُوحُ العبادة[١]، إلى غير ذلك من الأمورِ التي تُبيِّنُ عِظَمَ قدرِ الدعاء ورِفْعةِ شأنه. على أنَّه ينبغي أن يُتنبَّهَ إلى أنَّ هذا لا يَعْنِي تفضيلَ الدعاءِ على غيرِهِ مِنَ العباداتِ مطلقًا، بل جنسُ الذِّكْرِ أفضلُ مِنْ جنسِ الدعاءِ مِنْ حيثُ النظرُ إلى كلٍّ منهما مُجرَّدًا، وقراءةُ القرآنِ أفضلُ مِنَ الذِّكْر، والذِّكْرُ أفضلُ مِنَ الدعاء، هذا مِنْ حيثُ النظرُ إلى الكلِّ مُجرَّدًا، وقد يَعْرِضُ للمفضولِ ما يجعلُهُ أَوْلى مِنَ الفاضل[٢].

۞ **وهذا بابٌ شريفٌ من العلم ينبغي للمسلمِ أن يُدْرِكَه، وأن يعتنيَ بفهمِهِ تمامَ العناية؛** لِيُدْرِكَ الأفضلَ في كلِّ وقتٍ وحال، وليحوزَ على الأكملِ له في عبادتِهِ لربِّه وطاعتِهِ لمولاه في كلِّ زمانٍ ومكان، **وقد ذكَرَ شيخُ الإسلام ابن تيميَّةَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **ضابطًا دقيقًا للتفاضُل بين العباداتِ وتنوُّعِ ذلك بحَسَبِ أجناسِ**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى»، و«اقتناص الأوابد» لابن سعدي (ص٤٦).

(٢) انظر: «الوابل الصيب» لابن القيم (ص١٨٧).

العباداتِ وأوقاتِهَا واختلافِ أمكنتها واختلافِ القدرةِ على القيامِ بها ونحوِ ذلك، وعلى ضوئِهِ يُدْرِكُ المسلمُ الأفضلَ له بِحَسَبِ تلك الاعتباراتِ المشارِ إليها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الأفضلَ يَتنوَّعُ: تَارَةً بحسبِ أجناسِ العبادات، كما أنَّ جنسَ الصلاة أفضلُ مِنْ جنسِ القراءة، وجنسَ القراءةِ أفضلُ مِنْ جنسِ الذِّكْر، وجنسَ الذِّكْرِ أفضلُ مِنْ جنسِ الدعاء.

وتَارَةً يختلُف باختلافِ الأوقات، كما أنَّ القراءةَ والذِّكْرَ والدعاءَ بعد الفجرِ والعصرِ هو المشروعُ دون الصلاة.

وَتَارَةً باختلافِ عملِ الإنسانِ الظاهرِ، كما أنَّ الذِّكْرَ والدعاءَ في الركوعِ والسجودِ هو المشروعُ دون القراءة، وكذلك الذِّكْرُ والدعاءُ في الطوافِ مشروعٌ بالاتفاق، وأمَّا القراءةُ في الطوافِ، ففيها نزاعٌ معروف.

وتَارَةً باختلافِ الأمكنة، كما أنَّ المشروعَ بِعَرَفَةَ ومُزْدِلفَةَ وعندَ الجِمَارِ وعند الصَّفَا والمَرْوةِ هو الذِّكْرُ والدعاءُ دون الصلاةِ ونحوها، والطوافُ بالبيتِ للواردِ أفضلُ مِنَ الصلاة، والصلاةُ للمقيمين بمكةَ أفضلُ.

وتارةً باختلافِ مَرْتَبةِ جنسِ العبادة، فالجهادُ للرجالِ أفضلُ مِنَ الحَجِّ، وأمَّا النساءُ فجهادُهُنَّ الحجُّ، والمرأةُ المتزوِّجةُ طاعتها لزوجها أفضلُ من طاعتها لأبويها، بخلاف الأيِّمَةِ، فإنَّها مأمورةٌ بطاعةِ أبويها.

وتَارَةً يختلفُ باختلافِ حالِ قدرةِ العبدِ وعجزِهِ، فما يَقْدِرُ عليه مِنَ العباداتِ أفضلُ في حقِّه مما يَعْجِزُ عنه، وإنْ كان جنسُ المعجوزِ عنه أفضلَ، وهذا بابٌ واسعٌ يغلو فيه كثيرٌ مِنَ الناسِ ويتَّبعونَ أهواءهم.

فإنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يَرَى أنَّ العملَ إذا كان أفضلَ في حقِّه لمناسبةٍ له، ولكونِهِ أنفعَ لقلبه، وأطوعَ لربِّه، يريدُ أن يجعلَهُ أفضلَ لجميعِ الناس، ويأمرهم بمثلِ ذلك. واللهُ بعَثَ محمَّدًا ﷺ بالكتابِ والحِكْمة، وجعلَهُ رحمةً للعباد، وهاديًا لهم، يأمُرُ كلَّ إنسانٍ بما هو أصلحُ له، فعلى المسلمِ أن يكونَ ناصحًا للمسلمين، يَقْصِدُ لكلِّ إنسانٍ ما هو أصلحُ له.

وبهذا تَبيَّنَ لك أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يكونُ تطوُّعُهُ بالعلم أفضلَ له، ومنهم مَنْ يكونُ تَطوُّعُهُ بالجهادِ أفضلَ، ومنهم مَنْ يكونُ تَطوُّعُهُ بالعباداتِ البدنيةِ كالصلاةِ والصيام أفضلَ له[(١)]، والأفضل المطلق ما كان أشبَهَ بحال النبيِّ ﷺ باطنًا وظاهرًا، فإنَّ خيرَ الكلامِ كلامُ الله، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ»[(٢)].اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وهو ـ كما ترى ـ مُشْتمِلٌ على تحقيقٍ مُتْقَنٍ، وتأصيلٍ وافٍ في هذا البابِ العظيم لِمَنْ أراد لنفسِهِ الأفضلَ والأكملَ في العباداتِ والأمورِ المُقَرِّبةِ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، **وحاصلُهُ**: أنَّ الأفضلَ في كلِّ وقتٍ وحالٍ هو مراعاةُ سُنَّةِ النبيِّ ﷺ في ذلكَ الوقتِ والحالِ والاشتغالُ بواجبِ ذلك الوقتِ ووظيفتِهِ ومقتضاه، فبذلكَ يُدْرِكُ المسلمُ الكمالَ، ويَظْفَرُ بالأفضلِ والأكمل.

❁ **على أنَّه ينبغي أن يُعْلَمَ**: أنَّ الأعمالَ المتساويةَ في الجنس تتفاضلُ بتفاضُلِ ما في القلوبِ مِنَ الإيمانِ بالله، والمحبَّةِ له، والتعظيمِ لشرعه، وقَصْدِ وجهِهِ بالعملِ تفاضلًا لا يحصيهِ ولا يحيطُ به إلَّا الله.

فنسألُهُ سبحانه أن يَهْدِيَنا جميعًا إلى أحسنِ الأعمال، لا يهدي إلى أحسنها إلَّا هو، وأن يَرْزُقَنا جميعًا الإخلاصَ في القولِ والعمل.

❁ ❁ ❁

---

(١) ومن لطيف ما يُذْكَرُ في هذا الباب ما أورده الذهبيُّ في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١١٤) في ترجمة الإمام مالك بن أنس: أنَّ عبد الله بن عمر العُمَريَّ العابدَ كتَبَ إلى الإمام مالك يَحُضُّهُ على الانفرادِ والعمل، **فكتَبَ إليه مالكُ بن أنس**: «إنَّ اللهَ قسَمَ الأعمالَ كما قَسَمَ الأرزاق، فرُبَّ رجلٍ فُتِحَ له في الصلاة، ولم يفتحْ له في الصوم، وآخَرَ فُتِحَ له في الجهاد، فنَشْرُ العلم من أفضلِ أعمالِ البرِّ، وقد رَضِيتُ بما فُتِحَ لي، وما أظنُّ ما أنا فيه بدونِ ما أنتَ فيه، وأرجو أنْ يكونَ كلانا على خيرٍ وبِرٍّ».

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٢٧ ـ ٤٢٩).

٥٨

وَمِنْ فَضَائِلِ الدُّعَاءِ

لا يزالُ الحديثُ موصولًا بذكرِ الأَدِلَّةِ على **فضل الدُّعَاء**، مِنْ خلالِ ما ورَدَ مِنْ ذلك في سُنَّةِ الرسولِ الكريم صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، وقد مَرَّ معنا طرَفٌ مِنْ هذه الأحاديث؛ منها قوله ﷺ: **(لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ ﷻ مِنَ الدُّعَاءِ)**[1]، وهو دالٌّ على كَرَمِ الدعاءِ وعِظَمِ مكانتِهِ عند الله؛ وذلك أنَّ الدعاءَ هو العبادةُ، وهو لُبُّها ورُوحُها، والعبادةُ هي الغايةُ التي خُلِقَ الخَلْقُ لأجلها، وأُوجِدُوا لتحقيقها، وأكرمُهَا عندَ اللهِ هو الدعاءُ، كما تَقدَّمَ.

* **ومِمَّا ورَدَ في فضلِ الدعاءِ في السُّنَّة**: ما رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم، بإسناد جيِّدٍ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(مَنْ لَمْ يَدْعُ اللهَ سُبْحَانَهُ غَضِبَ عَلَيْهِ)**[2]. وهذا فيه دليلٌ على حبِّ اللهِ للدعاء، وحبِّه سبحانه لعبدِهِ الذي يدعوه؛ ولذا فإنه سبحانه يَغْضَبُ مِنْ عبدِهِ إذا ترَكَ دعاءَهُ، ولا ريبَ أنَّ هذا فيه «دليلٌ على أنَّ الدعاءَ مِنَ العبدِ لربِّه مِنْ أهمِّ الواجبات، وأعظمِ المفروضات؛ لأنَّ تجنُّبَ ما يَغْضَبُ اللهُ منه لا خلافَ في وجوبه»[3]، وقد سبَقَ ذِكْرُ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وهو يَدُلُّ على أنَّ تركَ العبدِ دعاءَ رَبِّهِ يُعَدُّ مِنَ الاستكبار، وتَجنُّبُ ذلك لا شكَّ في وجوبه.

---

(١) تقدَّم تخريجه (ص٢٦٥).

(٢) «المسند» (٢/ ٤٤٣، ٤٧٧)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٧٣)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٢٧)، وقال ابن كثير عن إسناده: «هذا إسنادٌ لا بأسَ به». «التفسير» (٤/ ٩٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصحيحة» رقم (٢٦٥٤).

(٣) «تحفة الذاكرين» للشوكاني (ص٢٨).

* **ومِمَّا وَرَد أيضًا في فضلِ الدعاء**: ما رواه البخاريُّ في «الأدب المفرد»، وابن حِبَّان في «صحيحه»، عن أبي هريرة ﵁ موقوفًا، والطبرانيُّ في «المعجم الأوسط»، عنه، عن النبي ﷺ مرفوعًا، قال: **(أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ، وَأَبْخَلُ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ)**(١)، فالدعاءُ أمرُهُ يسيرٌ جدًّا على كلِّ أحدٍ، فهو لا يَتطلَّبُ جهدًا عند القيامِ به، ولا يلحقُ الداعيَ بسببِهِ تعبٌ ولا مشقَّةٌ؛ ولهذا فإنَّ العجزَ عنه والتوانيَ في أدائِهِ هو أشدُّ العَجْز، وحَرِيٌّ بِمَنْ عَجَزَ عنه ـ مع يُسْرِهِ وسهولتِهِ ـ أن يَعْجِزَ عن غيره، ولا يَعْجِزُ عن الدعاءِ إلَّا دنيُّ الهمَّةِ، ضعيفُ الإيمان.

* **ومِمَّا جاءَ في فضلِ الدعاء**: ما رواه الإمامُ أحمد، وابن ماجه، وغيرهما، عن ثوبانَ ﵁: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **(لَا يَرُدُّ القَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ)**(٢)؛ فهذا فيه دليلٌ على أنَّ اللهَ سبحانه يدفعُ بالدعاءِ ما قد قضاهُ على العبد، وقد ورَدَ في هذا المعنى أحاديثُ عديدةٌ، **وحاصلُ معناها**: أنَّ الدعاءَ مِنْ قَدَرِ اللهِ ﷿؛ إذ إنَّه سبحانه قد يقضي بالأمرِ على عبدِهِ قضاءً مُقيَّدًا بألَّا يَدْعُوَهُ، فإذا دعاه اندفعَ عنه، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الدعاءَ مِنْ أعظمِ الأسبابِ التي تُنالُ بها سعادةُ الدنيا والآخرة، خلافًا لبعض المتصوِّفة، الذين يعتقدون أنَّ الدعاءَ لا تأثيرَ له في حصول مطلوب، ولا دفعِ مرهوب، وإنَّما هو مجرَّدُ عبادةٍ محضةٍ، وأنَّ ما حصَلَ به يَحْصُلُ بدونه، ولا يقولُ هذا مَنْ عَرَفَ قَدْرَ الدعاء؛ «ولهذا أُمِرَ الناسُ بالدعاءِ والاستعانةِ وغيرِ ذلك مِنَ الأسباب، ومَنْ قال: أنا لا أدعو ولا أسألُ اتِّكالًا على القَدَرِ، كان مخطئًا؛ لأنَّ اللهَ جعلَ الدعاءَ والسؤالَ مِنَ الأسباب التي يُنالُ بها مغفرتُهُ ورحمتُهُ وهداهُ ونَصْرُه ورزقُهُ، وإذا قدَّر للعبدِ خيرًا ينالُهُ بالدعاءِ، لَمْ يَحصُلْ بدونِ الدعاء، وما قدَّره اللهُ وعَلِمَهُ مِنْ أحوالِ العبادِ وعوَاقِبِهم، فإنَّما قَدَّرَهُ اللهُ بأسبابٍ يسوقُ المقاديرَ إلى

---

(١) «الأدب المفرد» رقم (١٠٤٢)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٤٤٩٨)، و«المعجم الأوسط» رقم (٥٥٩١)، وصحَّح الألباني الموقوف والمرفوع. «الصحيحة» رقم (٦٠١).

(٢) «المسند» (٥/ ٢٨٠)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٩٠)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٤).

المواقيت؛ فليس في الدنيا والآخرةِ شيءٌ إلَّا بسبب، واللهُ خالقُ الأسباب والمسبَّبات»[١].

قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أساسُ كلِّ خيرٍ: أنْ تَعْلَمَ أنَّ ما شاءَ اللهُ كان، وما لَم يشأْ لَم يكنْ، فتيقَّنْ حينئذٍ أنَّ الحسناتِ مِنْ نِعَمِهِ، فتَشْكُرَهُ عليها، وتَتَضَرَّعَ إليه أن لا يَقْطَعَها عنك، وأنَّ السَّيِّئاتِ مِنْ خِذْلانِهِ وعقوبتِه، فتَبْتَهِلَ إليه أن يَحُولَ بينك وبينها، ولا يَكِلَكَ في فعلِ الحسناتِ وتركِ السيِّئاتِ إلى نفسِك، وقد أَجْمَعَ العارفون على أنَّ كلَّ خيرٍ فأصلُهُ بتوفيقِ اللهِ للعبد، وكلَّ شرٍّ فأصلُهُ خِذلانُهُ لعبده، وأجمعوا أنَّ التوفيقَ أن لا يَكِلَكَ اللهُ إلى نفسك، وأنَّ الخِذْلانَ هو أنْ يخلِّيَ بينَكَ وبينَ نفسك، فإذا كان كلُّ خيرٍ فأصلُهُ التوفيق، وهو بِيَدِ اللهِ لا بيد العبدِ؛ فمفتاحُهُ الدعاءُ والافتقارُ وصِدْقُ اللَّجَأِ والرغبةِ والرهبةِ إليه، فمتى أَعْطَى العبدَ هذا المفتاحَ، فقد أراد أن يَفْتَحَ له، ومتى أضلَّه عن المفتاح، بَقِي بابُ الخيرِ مُرْتَجًا دونه... وما أُتِيَ مَنْ أُتِيَ إلَّا مِنْ قِبَلِ إضاعةِ الشكرِ وأهمالِ الافتقارِ والدعاء، ولا ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ - بمشيئةِ اللهِ وعونِهِ - إلَّا بقيامِهِ بالشكرِ وصدقِ الافتقارِ والدعاء» اهـ[٢].

❁ **إنَّ حاجةَ المسلمِ إلى الدعاءِ ماسَّةٌ في أمورِهِ كلِّها، وضرورتَهُ إليه مُلحَّةٌ في شؤونِهِ جميعِها**، وقد ضَرَبَ أحدُ أهلِ العلمِ لِحالِ المسلم مَعَ الدعاءِ مَثَلًا بديعًا، تستبينُ به شِدَّةُ حاجته إليه، ويظهرُ به عِظَمُ ضرورتِهِ إليه؛ روى الإمام أحمد في كتاب «الزهد»، عن قتادة، قال: **قال مُوَرِّقٌ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما وَجَدتُّ للمؤمنِ مَثَلًا إلَّا رجلًا في البَحْرِ على خشبة، فهو يدعو: يا ربِّ يا ربِّ، لعلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أن يُنْجِيَهُ»[٣].

ومَنْ أقبَلَ على اللهِ بصدقٍ، وألَحَّ عليه بالدعاء، وأكثَرَ مِنْ سؤالِهِ، أجابَ اللهُ دعاءَه، وحقَّق رجاءَه، وأعطاه سُؤْلَه، وفتَحَ له أبوابَ الخيرِ والسعادةِ في الدنيا والآخرة.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٦٩ - ٧٠). (٢) «الفوائد» لابن القيم (ص١٢٧ - ١٢٨).
(٣) «الزهد» رقم (٣٧١).

٥٩

افْتِقَارُ الْعَبْدِ إِلَىٰ اللَّهِ، وَحَاجَتُهُ إِلَىٰ دُعَائِهِ

إنَّ مِنْ فضائِلِ الدعاءِ، ودلائلِ عِظَمِ شأنه: أنَّ اللهَ تَبارَكَ وتعالى يُحِبُّهُ مِنْ عباده، مَعَ كَمَالِ غِناه عنهم، ووَعَدَ الدَّاعِينَ له مِنْ عبادِهِ بالإجابة؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ وهذا مِنْ لُطْفِ اللهِ بعبادِهِ، وعظيم إكرامه لهم، وإحسانِهِ بهم، فهو سبحانه لا يُخَيِّبُ عبدًا دعاه، ولا يَرُدُّ مؤمنًا ناجاه؛ يقول الله تعالى ـ كما في الحديثِ القدسيِّ ـ: (**يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ...**)، وقال فيه: (**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرِ**)؛ رواه مسلمٌ في سياقٍ طويلٍ مِنْ حديثِ أبي ذر رضي الله عنه[1].

وفي الحديث دلالةٌ على أنَّ اللهَ يُحِبُّ أن يسألَهُ العبادُ جميعَ مصالحِ دينهم ودنياهم؛ مِنَ الطعامِ والشرابِ والكُسْوةِ وغيرِ ذلك، كما يسألونَهُ الهدايةَ والمغفرةَ والتوفيقَ والإعانةَ على الطاعةِ ونحوَ ذلك، ووَعَدَهُمْ سبحانَهُ على ذلكَ كلِّه بالإجابة.

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٨).

وفيه أيضًا دَلَالةٌ على كمالِ قُدْرةِ اللهِ سبحانه، وكمالِ مُلْكِه، وأنَّ مُلْكَهُ وخزائنَهُ لا تَنْفَدُ ولا تَنْقُصُ بالعطاء، ولو أَعْطَى الأوَّلينَ والآخرينَ مِنَ الجِنِّ والإنس جميعَ ما سألوه في مقامٍ واحد، وفي ذلك حَثٌّ على الإكثارِ مِنْ سؤالِهِ، وإنزالِ جميع الحوائجِ به، وفي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **(يَدُ اللهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارَ، أَفَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ رَبُّكُمْ مُنْذُ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ)**(١)، وفي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **(إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ، فَلَا يَقُلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ)**(٢).

وقال أبو سعيد الخُدْرِيُّ رضي الله عنه: «إذا دعوتُمُ اللهَ، فارفعوا في المسألة؛ فإنَّ ما عِنْدَهُ لا يَنْفَدُ منه شيءٌ، وإذا دعوتُمْ، فاعزموا؛ فإنَّ اللهَ لا مُسْتَكْرِهَ له»(٣).

وتَأَمَّلْ قولَهُ سبحانه في الحديثِ المتقدِّم: **(لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ)**؛ فإنَّ فيه تحقيقًا بأنَّ ما عندَ الله لا ينقُصُ ألبتةَ؛ كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]؛ فإنَّ البحرَ إذا غُمِسَ فيه إبرةٌ، ثمَّ أُخرِجَتْ، لَمْ يَنْقُصْ مِنَ البحرِ بذلك شيئًا، وكذلك لو فُرِضَ أنَّ عصفورًا شَرِبَ منه، فإنَّه لا يَنْقُصُ البحرَ ألبتةَ، وهو سبحانه إذا أرادَ شيئًا من عطاءٍ أو عذابٍ أو غيرِ ذلك، قال له: كُنْ فيكونُ؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]؛

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٦٨٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٩٩٣).
(٢) رواه البخاري رقم (٦٣٣٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٧٩) واللفظ لمسلم.
(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٢١، ٤٧) مفرَّقًا.

فكيف يُتصوَّرُ فيمنْ هذا شأنُهُ أنْ يَنْقُصَ ما عنده أو يَنْفَدَ، ولقد أحسَنَ مَنْ قال:

لَا تَخْضَعَنَّ لِمَخْلُوقٍ عَلَى طَمَعٍ ... فَإِنَّ ذَاكَ مُضِرٌّ مِنْكَ بِالدِّينِ
وَاسْتَرْزِقِ اللَّهَ مِمَّا فِي خَزَائِنِهِ ... فَإِنَّمَا هِيَ بَيْنَ الكَافِ وَالنُّونِ(١)

إنَّ العبدَ محتاجٌ إلى اللهِ في كلِّ شؤونه، ومفتقرٌ إليه في جميعِ حاجاتِه، لا يستغني عن ربِّه ومولاه طَرْفةَ عَيْنٍ ولا أقلَّ مِنْ ذلك، وأما الربُّ سبحانه، فإنَّه غنيٌّ حميدٌ، لا حاجةَ له بطاعاتِ العبادِ ودَعَوَاتهم، ولا يعودُ نَفْعُها إليه، وإنَّما هُمُ الذين ينتفعونَ بها، ولا يَتضرَّرُ بمعاصيهم، وإنَّما هم الذين يَتضرَّرونَ بها؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

ثمَّ إنَّ الله تَبارَكَ وتعالى ـ مع كمال غِنَاهُ عن عباده، وعن طاعاتهم ودعواتهم، وتَوْباتهم ـ فإنه يُحِبُّ سماعَ دعاءِ الدَّاعِينَ المُخْبِتين(٢)، ورؤيةَ عبادةِ العابدينَ المطيعين، ويَفْرَحُ بتوبةِ التائبينَ المُنِيبين، بل إنَّه سبحانه يفرحُ بتوبةِ عبدِهِ أشدَّ مِنْ فَرَحِ مَنْ ضلَّت راحلتُهُ التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ بفَلَاةٍ مِنَ الأرض، وطَلَبَها حتى أَيِسَ منها، واستَسْلَمَ للموت، ثمَّ غَلَبَتْهُ عينُهُ، فنام واستيقظ، وهي قائمةٌ عنده، وهذا أعلى ما يتصوَّرُهُ المخلوقُ مِنَ الفَرَحِ، فالله سبحانه يَفْرَحُ بتوبةِ عبادِهِ أَشَدَّ مِنْ فرحِ هذا بلُقْيَاهُ لراحلته، هذا مع غِنَاهُ سبحانه

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص٢١٤ ـ ٢١٨) والصَّوابُ أنْ يُقالَ: بَعْدَ الكافِ والنُّونِ.

(٢) أي: المطمئنين الخاشعين؛ قال الأزهري: «أخبَتَ إلى ربِّه: إذا اطمأنَّ إليه، وقال الفَرَّاءُ في قوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣]؛ يعني: تخشَّعوا لربهم، قال: ومعنى الإخباتِ الخشوعُ». «تهذيب اللغة» (٢/ ٤٧٤).

الكاملِ عن طاعاتِ عبادِهِ وتَوْباتِهم إليه، وذلك كلُّه إنَّما يعودُ نفعُهُ إليهم دونَهُ، وهذا مِنْ كمالِ جُودِهِ وإحسانِهِ إلى عباده، ومحبَّتِهِ لنفعهم، ودفعِ الضُّرِّ عنهم، فهو يُحِبُّ مِن عبادِهِ أن يعرفوهُ ويُحِبُّوهُ ويتَّقوه ويخافوه ويُطِيعُوهُ ويَتقرَّبوا إليه، ويُحِبُّ أن يعلموا أنَّه يغفرُ الخطيئات، ويجيبُ الدعوات، ويُقِيلُ العَثَراتِ، ويُكفِّرُ السيِّئات، ويرزقُ مَنْ يشاءُ بغيرِ حساب.

۞ **فحريٌّ بعبدِ اللهِ المؤمنِ إذا عرَفَ كمالَ ربِّهِ وجلالَه، وكرمَهُ وإحسانَه، وفضلَهُ وجُودَهُ**: أن يُنْزِلَ به جميعَ حاجاته، وأنْ يُكْثِرَ مِنْ دعائه ومناجاته، وألَّا يَقْنَط مِن رحمةِ ربِّه، ولا ييأسَ مِنْ رَوْحِه؛ فإنَّه لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلَّا القومُ الكافرون.

فاللَّهمَّ وَفِّقنا لِهُداك، وأَعِنَّا على طاعتك، ولا تَكِلْنا إلى أنفسنا طَرْفَةَ عَيْنٍ.

❁ ❁ ❁

٦٠

إِجَابَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِلدَّاعِينَ

لا يزالُ الحديثُ ماضيًا بنا عن بيان مكانةِ الدعاءِ وفضلِه، ورِفْعةِ شأنِهِ عندَ اللهِ تبارَكَ وتعالى؛ فإنَّ مِنْ فضل الدعاءِ: **أنَّ اللهَ تبارَكَ وتعالى وعَدَ مَنْ دعاهُ أن يجيبَ دعاءَهُ، ويُحقِّقَ رجاءَهُ، ويُعْطِيَهُ سُؤْلَه**؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وهذا مِنْ فضلِهِ تبارك وتعالى وكرمِهِ أنَّه ندَبَ عبادَهُ إلى دعائه، وتكفَّلَ لهم بالإجابة، وأَحَبَّ منهم أن يُكْثِرُوا مِنْ دعائِهِ وسؤاله، **كما قال سُفْيان الثوريُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا مَنْ أَحَبُّ عبادِهِ إليه مَنْ سأَلَهُ فأكثَرَ سؤاله، ويا مَنْ أبغَضُ عبادِهِ إليه مَنْ لَمْ يسأله، وليس كذلكَ غيرُكَ يا ربِّ»؛ رواه ابن أبي حاتمٍ وغيرُه[(١)].

لقد ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ أحاديثُ كثيرةٌ في الترغيبِ في الدعاءِ ببيانِ أنَّ اللهَ تبارك يُعْطِي السائلين، ويُجِيبُ الدَّاعين، ولا يُخيِّبُ رجاءَ المؤمنين، فهو سبحانه حيِيٌّ كريم، أكرَمُ مِنْ أنْ يَرُدَّ مَنْ دعاه، أو يُخيِّبَ مَنْ ناجاه، أو يَمْنَعَ مَن سأله.

روى أبو داود، والترمذي، وغيرُهما، عن سَلْمانَ الفارسيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: **(إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)**[(٢)]؛ **أي**: خاليتين.

---

(١) **انظر**: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٨٥).

(٢) «سنن أبي داود» رقم (١٤٨٨)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٥٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٦٥)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٧٦)، بإسنادٍ جوَّدَهُ الحافظ في «فتح الباري» (١١/ ١٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٧٥٣).

وفي حديثِ النزولِ الإلٰـهيِّ يقول ﷺ: (**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**)[1]، وهو حديثٌ متواتر، رواه عن النبيِّ ﷺ جمعٌ مِنَ الصحابةِ، بلَغَ عددُهم ثمانيةً وعشرينَ صحابيًّا.

وجاء في الحديث القدسيِّ في بيان منزلةِ أولياءِ الله المتَّقينَ عند الله، أنَّ اللهَ تبارك وتعالى يقول: (**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيذَنَّهُ...**)؛ رواه الإمام البخاري في «صحيحه»[2].

إنَّ هذه الأحاديثَ وما جاء في معناها تَدُلُّ أبينَ دَلَالةٍ على أنَّ اللهَ تبارك وتعالى لا يَرُدُّ مَنْ سألَهُ مِنْ عبادِهِ المؤمنين، ولا يُخيِّبُ مَنْ رجاه، لكنْ قد استُشْكِلَ هذا كما ذَكَرَ الحافظ ابن حَجَرٍ بأنَّ جماعةً مِنَ العُبَّادِ والصُلَحاءِ دَعَوْا وبالغوا، ولَمْ يُجابوا، **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والجوابُ**: أنَّ الإجابةَ تَتنوَّعُ؛ فتارَةً يقعُ المطلوبُ بعينِهِ على الفور، وتارَةً يقعُ ولكنْ يتأخَّرُ لحكمةٍ، وتارةً قد تقعُ الإجابةُ، ولكنْ بغيرِ عَيْنِ المطلوب، حيثُ لا يكونُ في المطلوبِ مصلحةٌ ناجزةٌ، وفي الواقعِ مصلحةٌ ناجزةٌ، أو أصلَحُ منها»[3]، **وقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ كلَّ داعٍ يُستجابُ له، لكنْ تَتنوَّعُ الإجابةُ؛ فتارَةً تقعُ بعينِ ما دعا به، وتارةً بعِوَضٍ»[4]، وقد وَرَدَ في هذا المعنى الذي ذَكَرَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ أحاديثُ عديدةٌ؛ **منها**: ما رواه الترمذيُّ، والحاكمُ، وصحَّحه الحافظ ابن حَجَرٍ منْ حديث عُبادَةَ بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفعه: (**مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا**،

---

(١) رواه البخاري رقم (١١٤٥)، ومسلم رقم (٧٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٥٠٢).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣٤٥).

(٤) «فتح الباري» (١١/ ٩٥ ـ ٩٦).

أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا)(١).

وروى الإمام أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والحاكم، وغيرهم، عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**(مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا)**، قالوا: يا رسول الله، إذًا نُكْثِر، قال: **(اللهُ أَكْثَرُ)**»(٢).

فقد أخبَرَ الصادقُ المصدوقُ في هذه الأحاديث أنَّه لا بُدَّ في الدعوةِ الخاليةِ مِنَ العُدْوانِ مِنْ إعطاءِ السُّؤْلِ مُعجَّلًا، أو مِثْلِهِ مِنَ الخيرِ مُؤَجَّلًا، أو يَصْرِفُ عنه مِنَ السُّوءِ مثلَهُ؛ وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ إجابةَ الداعي في سؤالِهِ أعمُّ مِنْ إعطائِهِ عينَ المسؤول.

فهذا هو جوابُ الاستشكالِ السابق، **وقد ذكَرَ أهلُ العلمِ أيضًا جوابيْنِ آخرين**:

أحدهما: أنَّ إجابةَ الداعي لَمْ تُضمَّنْ عطيَّةَ السؤالِ مطلقًا، وإنَّما تَضمَّنَتْ إجابةَ الداعي، والداعي أعمُّ مِنَ السائل، وإجابةُ الداعي أعمُّ مِنْ إعطاءِ السائل، كما تَقدَّمَ معَنا في حديثِ النزولِ التفريقُ بينهما بقوله سبحانه: **(مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟!)**؛ ففرَّق بين الداعي والسائل، وبين الإجابةِ والإعطاء، لكنَّ الاستشكالَ مع هذه الإجابةِ قائمٌ مِنْ جهةِ أنَّ السائلَ أيضًا موعودٌ بالإعطاء؛ كما في الحديث المتقدِّم.

الجواب الثاني: أنَّ الدعاءَ في اقتضائِهِ الإجابةَ شأنُهُ كسائرِ الأعمالِ الصالحةِ في اقتضائِهَا الإثابةَ، فالدعاءُ سببٌ مُقْتَضٍ لنيلِ المطلوب، والسببُ له شروطٌ وموانع، فإذا حَصَلَتْ شروطُه، وانتفَتْ موانعُه، حَصَلَ المطلوبُ، وإلَّا فلا يحصُلُ ذلك المطلوب، كما هو الشأنُ في قَبُولِ الأعمالِ الصالحة، والكلماتِ الطيِّبة، وللموضوع صلة.

---

(١) «المسند» (٥/ ٣٢٩)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٧٣)، **وانظر**: «فتح الباري» (١١/ ٩٦).

(٢) «المسند» (٣/ ١٨)، و«الأدب المفرد» رقم (٧١٠)، و«المستدرك» (١/ ٤٩٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٥٤٧).

٦١

إِجَابَةُ الدُّعَاءِ مَوْقُوفَةٌ عَلَىٰ تَوَفُّرِ شُرُوطٍ وَٱنْتِفَاءِ مَوَانِعَ

تَقدَّمَ معنا ذكرُ قولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وبيانُ ما فيه مِنْ دلالةٍ على إجابةِ اللهِ لِمَنْ دعاه، وتَقدَّمَ معنا أيضًا استشكالُ بعضِ أهلِ العلمِ لذلك، بأنَّ بعضَ الداعينَ قد يدعو ويسألُ اللهَ أمورًا قد لا يَرَى أنَّه تَحقَّق له شيءٌ منها، أو تَحقَّقَ له بعضُها دون بعض، وقد أجاب عَنْ ذلكَ أهلُ العلم بأجوبةٍ عديدةٍ، تقدَّمَ ذكرُ ثلاثةٍ منها، إلَّا أنَّ أحسنَ ما قيلَ في ذلك: **هو أنَّ الدعاءَ سببٌ مقتضٍ لنيلِ المطلوب، ونيلُ المطلوبِ له شروطٌ وموانعُ، فإذا حصَلَتْ شروطُهُ وانتفَتْ موانعُهُ، تحقَّقَ المطلوبُ؛ وإلَّا فلا**، كما هو الشأنُ في جميعِ الأعمالِ الصالحةِ، والأذكارِ النافعة، لا تُقْبَلُ إلَّا إذا استوفى المسلمُ شروطَها، وابتعَدَ عن موانعِ قَبُولها، أما إذا وُجِدَ المانعُ أو انتَفَى الشرطُ، فإنَّ العملَ لا يُقْبَل.

والشأنُ في الدعاءِ كذلك، فإنَّ الدعاءَ في نفسِهِ نافعٌ مفيدٌ، وهو مفتاحٌ لكلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة، لكنَّه يستدعي قوَّةَ هِمَّةِ الداعي، وصحةَ عزيمَتِهِ، وحُسْنَ قصدِهِ، وبُعدَهُ عن الأمورِ التي تمنعُ مِنَ القَبُول.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّه ـ **أي**: الدعاءَ ـ مِنْ أقوى الأسبابِ في دفعِ المكروه، وحصولِ المطلوب، ولكنْ قد يَتخلَّفُ عنه أثرُه؛ إمَّا لضعفٍ في نفسه بأنْ يكونَ دعاءً لا يُحبُّهُ اللهُ لِمَا فيه مِنَ العُدْوان، وإمَّا لضعفِ القلبِ وعدمِ إقبالِهِ على اللهِ وجَمْعِيَّتِهِ عليه وقتَ الدعاءِ، فيكونُ بمنزلةِ القَوْسِ الرِّخْوِ جدًّا؛ فإنَّ السهمَ يخرُجُ منه خروجًا ضعيفًا، وإمَّا لحصولِ المانعِ مِنَ الإجابةِ؛

مِنْ أكلِ الحرام، والظلم، ورَيْنِ[١] الذنوبِ على القلوب، واستيلاءِ الغفلةِ والشهوةِ واللَّهْوِ وغَلَبَتِها عليها؛ كما في «مستدرك الحاكم»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**)[٢]؛ فهذا دواءٌ نافعٌ مزيلٌ للدَّاء، ولكنَّ غفلةَ القلبِ عَنِ الله تُبْطِلُ قُوَّتَه، وكذلكَ أكلُ الحرامِ يُبطِلُ قُوَّتَهُ ويُضْعِفُها؛ كما في «صحيح مسلم»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!**)[٣]»[٤].

فأشارَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه في هذا الحديثِ إلى آدابِ الدعاء، وإلى الأسبابِ التي تقتضي إجابتَهُ، وإلى ما يمنعُ مِنْ إجابته. والحديثُ فيه دَلَالةٌ عظيمةٌ، وإشاراتٌ نافعةٌ في هذا الباب، سيأتي بيانُها لاحقًا ـ إن شاء الله ـ.

وممَّا يَدُلُّ على أنَّ الدعاءُ متوقِّفٌ في قَبُولِهِ على وجودِ شروطٍ، وانتفاءِ موانعَ: ما ثبَتَ في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: (**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**)[٥].

---

(١) **الرَّيْنُ**: التغطيةُ والطبع؛ قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]؛ **أي**: غطَّى على قلوبِهِمْ، وطَبَعَ عليها. **انظر**: «تهذيب اللغة» (٢/ ٤٣٥).

(٢) «المسند» (٢/ ١٧٧)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٧٩)، و«المستدرك» (١/ ٤٩٣)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٤٥).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (١٠١٥).

(٤) «الجواب الكافي» (ص٩ ـ ١٠).

(٥) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٤٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٣٥).

وثبَتَ في «صحيح مسلم»، عنه ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**(لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ)**، قيل: يا رسولَ اللهِ، ما الاستعجالُ؟ قال: **(يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَدَعُ الدُّعَاءَ)**»[(١)].

وفي «المسند» ـ بإسناد جيِّد ـ من حديث أَنَس بن مالك ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**(لَا يَزَالُ العَبْدُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ)**، قالوا: يا رسولَ اللهِ، كيف يَسْتعجِلُ؟ قال: **(يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي)**»[(٢)].

فاستعجالُ الإجابةِ آفةٌ مِنَ الآفاتِ تمنعُ تَرتُّبَ أثرِ الدعاءِ عليه، حيثُ إنَّ المستعجلَ عندما يَسْتبطِئُ الإجابةَ يَسْتحسِرُ ويَدَعُ الدعاءَ، ويكونُ بذلك ـ **كما يقولُ ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللهُ ـ: «بمنزلةِ مَنْ بَذَرَ بذرًا، أو غرَسَ غرسًا، فجعَلَ يتعهَّدُهُ ويسقيه، فلمَّا استبطَأَ كمالَهُ وإدراكَهُ تركَهُ وأهمَلَهُ»[(٣)].

كما أنَّ في قولِهِ ﷺ في الحديث المتقدم: **(مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ)** إشارةً أخرى إلى مانعٍ مِنْ موانعِ قبولِ الدعاء، وهو أن لا يدعوَ الإنسانُ بإثمٍ أو معصيةٍ أو سوءٍ يلحقُهُ أو يلحقُ غيرَهُ، وهذا مِنْ حكمةِ اللهِ تبارك وتعالى ولُطفِه بخَلْقِه، ولو أنَّه سبحانه أجابَ العبدَ في كلِّ ما يريدُ ويطلب، لأدَّى ذلك إلى وقوعِ مفاسدَ عديدةٍ له أو لغيره؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وبهذا يُعْلَمُ أنَّ النصوصَ قد دَلَّتْ على أنَّ إجابةَ الدعاء موقوفةٌ على تَحقُّق شروطٍ، وانتفاءِ موانعَ، وقد أشَرْتُ إلى بعضها، وسيأتي ذكرُ جملةٍ منها ـ إنْ شاء الله ـ.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣٥).
(٢) «المسند» (٣/ ١٩٣، ٢١٠).
(٣) «الجواب الكافي» (ص١٣).

٦٢

أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ لِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ

إنَّ مِنَ الأحاديثِ العظيمةِ الجامعةِ لِذِكْرِ آدابِ الدعاءِ وشروطِهِ وموانعِ قَبُولِهِ ما ثبَتَ في «صحيح مسلم»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ تَعَالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!)**[١].

هذا الحديثُ يُعَدُّ مِنْ جوامعِ كَلِمِ الرسولِ ﷺ، وقد جمَعَ فيه صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه جملةً طيِّبةً مِنْ آدابِ الدعاءِ، وشروطِ قَبُوله، والأمورِ المانعةِ مِنَ القبول، وقد بدأَهُ عليه الصلاةُ والسلامُ بالإشارةِ إلى خطورةِ أكلِ الحرام، وأنَّه مانعٌ مِنْ موانعِ قبولِ الدعاء؛ ومفهومُ المخالفة لذلك أنَّ إطابةَ المطعمِ سببٌ من أسبابِ قبولِ الدعاء؛ **كما قال وَهْبُ بن منبِّه** رحمه الله: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يستجيبَ اللهُ دعوتَه، فليُطِبْ طُعْمَتَهُ»، ولمَّا سُئِلَ سعدُ بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه: لِمَ تستجابُ دعوتُكَ مِنْ بينِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ؟ **فقال**: «ما رَفَعْتُ إلى فَمِي لُقْمةً إلَّا وأنا عالِمٌ مِنْ أينَ مَجِيئُها؟ ومِنْ أين خَرَجَتْ؟!»[٢].

أمَّا مَنِ استَمْرَأَ ـ والعياذُ باللهِ ـ أكلَ الحرامِ وشُرْبَهُ، ولُبْسَهُ والتغذِّيَ به،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٨٠).

(٢) أوردهما ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٧٥).

فإنَّ فعلَهُ هذا يكونُ سببًا مُوجِبًا لعدمِ إجابةِ دعوته؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث: (**فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!**)؛ **أي**: كيف يُستجابُ له؟! فهو استفهامٌ وقَعَ على وجهِ التعجُّبِ والاستبعاد، وقد يكونُ أيضًا ارتكابُ المحرَّماتِ الفعليةِ مانعًا مِنَ الإجابةِ، وكذلكَ تركُ الواجبات؛ **كما قال بعضُ السلف**: «لا تستبطِئِ الإجابةَ وقد سَدَدتَ طُرُقَها بالمعاصي»[١].

ولهذا فإنَّ توبةَ العبد إلى ربِّه، وبُعْدَهُ عن معاصيه، وإقبالَهُ على طاعتِهِ وعبادتِهِ، وإطابتَهُ لِمَطْعَمِهِ ومَشْرَبِهِ ومَلْبَسِهِ، وانكسارَهُ بين يديه، وذُلَّهُ وخضوعَهُ له سبحانه، كلُّ ذلكَ مِنْ مُوجِبَاتِ القبول، ومِنْ أسبابِ إجابةِ الدعاء، وأضدادُ ذلك مِنْ مُوجِبَاتِ الرَّدِّ.

لقد ذكَرَ رسولُ الله ﷺ في الحديثِ المُتقدِّمِ أربعةَ أسبابٍ عظيمةٍ لقبولِ الدعاءِ تقتضي إجابتَهُ:

أحدها: **إطالةُ السَّفَرِ**، والسفرُ بمجرَّدِهِ يقتضي إجابةَ الدعاء؛ كما في حديث أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ: (**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ، لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ**)[٢]، ومتى طال السفرُ كان أقربَ إلى إجابةِ الدعاء؛ لأنَّه مَظِنَّةُ حصولِ انكسارِ النفسِ بطول الغُرْبَةِ عن الأوطانِ، وتَحمُّلِ المَشَاقِّ، والانكسارُ مِنْ أعظمِ أسبابِ إجابةِ الدعاء.

الثاني: **أن يكونَ متواضعًا مُتذلِّلًا مستكينًا**، فهذا أيضًا مِنْ مقتضياتِ الإجابة؛ كما في الحديثِ المشهورِ عن النبي ﷺ: (**رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**)[٣].

وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما لَمَّا سُئِلَ عن صلاةِ رسولِ الله ﷺ في الاستسقاءِ،

---

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي (٢/ ٥٤).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٥٨)، وأبو داود رقم (١٥٣٦)، والترمذي رقم (١٩٠٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٦٢)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٩٦)، ولفظ أحمد والترمذي: (**وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ**).

(٣) رواه مسلم رقم (٢٦٢٢).

قال: «خرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ متبذِّلًا متواضعًا مُتضرِّعًا...»، الحديث؛ رواه أبو داود، وغيرُه[(١)].

الثالث: مدُّ اليَدَيْنِ إلى السماءِ، وهو مِنْ آدابِ الدعاءِ التي يُرْجَى بسببها إجابتُهُ؛ ففي «سنن أبي داود» وغيره، عن سَلْمانَ الفارسيِّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**)[(٢)].

الرابع: الإلحاحُ على اللهِ بتكريرِ ذكرِ ربوبيَّته، وهو مِنْ أعظمِ ما يُطْلَبُ به إجابةُ الدعاء، **روي عن عطاءٍ أنَّه قال**: «ما قال عبدٌ: يا رَبِّ، يا ربِّ ثلاث مرَّات، إلَّا نَظَرَ اللهُ إليه، فذُكِرَ ذلك للحَسَنِ، فقال: أما تقرؤونَ القرآن؟ ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران]»[(٣)].

ولهذا، فإنَّ غالبَ الأدعيةِ المذكورةِ في القرآنِ مُفْتَتَحةٌ باسم الربِّ؛ **ولهذا لَمَّا سُئِلَ مالكٌ** رحمه الله **عمَّن يقولُ في الدعاء: يا سَيِّدِي، قال**: «يقولُ: يا ربِّ؛ كما قالتِ الأنبياءُ في دعائهم»[(٤)].

فهذه أربعةُ أسبابٍ عظيمةٍ لإجابةِ الدعاء، انتظَمَهَا قولُ النبيِّ ﷺ في ذلك الرجلِ: (**يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ**)،

---

(١) «المسند» رقم (١/ ٢٣٠)، و«سنن أبي داود» رقم (١١٦٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٥٥٨)، و«سنن النسائي» رقم (١٥٠٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٢٦٦)، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (٣/ ١٣٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٧٦).

(٣) «حلية الأولياء» (٣/ ٣١٣).

(٤) **انظر**: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص٩٨ ـ ١٠١).

ومع ذلك استَبْعَدَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه إجابةَ دعائه؛ لأنَّ مطعمَهُ حرامٌ، وملبسَهُ حرامٌ، ومَشربَهُ حرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ؛ فكيف يُستجابُ لِمَنْ كانتْ هذه حالَهُ؟!.

ولهذا، فلْيتَّقِ اللهَ عَبْدُ الله المؤمنُ في طعامِهِ وشرابِهِ وسائرِ شؤونه، ولْيَسْتَعِنْ باللهِ على ذلك، فالتوفيقُ بيده وحده، فنسألُهُ سبحانه أن يَرْزُقَنا الرزقَ الطَّيِّبَ الحلال، والدعوةَ الصالحة المستجابة، إنَّه نِعْمَ المرجُوّ، ونعمَ المُعِين.

❋ ❋ ❋

٦٣

الدُّعَاءُ حَقٌّ خَالِصٌ لِلَّهِ

لقد مرَّ معنا قولُ النبيِّ ﷺ: (**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**، ثمَّ قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠])(١)، ولا ريبَ أنَّ في هذا الحديثِ أبلغَ دَلَالةٍ على عِظَمِ شأنِ الدعاء، وأنَّه نوعٌ مِنْ أنواعِ العبادة، **ولا يخفى على كلِّ مسلم أنَّ العبادةَ حقٌّ خالصٌ لله وحده**، فكما أنَّ اللهَ تبارَكَ وتعالى لا شريكَ له في الخَلْقِ والرِّزْق، والإحياءِ والإماتة، والتصرُّفِ والتدبير، فكذلك لا شريكَ له في العبادةِ بجميعِ أنواعها، ومنها الدعاءُ، فمَنْ دعا غيرَ اللهِ ﷻ طالبًا منه أمرًا مِنَ الأمور التي لا يقدِرُ عليها إلَّا اللهُ، فقد عَبَدَ غير اللهِ، وأشرَكَ معه غيرَهُ، واللهُ تبارك وتعالى لَم يَبْعَثْ رُسُلَهُ، ولم يُنْزِلْ كتبَهُ إلَّا لدعوةِ الناسِ إلى الإخلاصِ في العبادةِ، والتحذير مِنْ صَرْفِها لغيرِ الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

ولهذا، فقد تَواتَرَتِ الأدلةُ، وتضافَرَتِ النصوص في الكتاب والسُّنَّة، على التحذير مِنْ صرفِ الدعاءِ لغيرِ الله، والنهي عن ذلك، وذَمِّ فاعلِهِ بأشدِّ أنواعِ الذمِّ، حتى صارَ ذلكَ مِنْ ضروورياتِ هذا الدِّينِ التي لا يرتابُ فيها كلُّ مَن فَهِمَ كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِهِ ﷺ، وقد تَنوَّعَتْ دَلالاتُ نصوصِ القرآنِ الكريمِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٦٥).

المشتملةِ على ذلكَ وتَكرَّرتْ في مواطنَ كثيرةٍ؛ وذلك لشدَّةِ خطورةِ دعاءِ غيرِ الله، ولكونِهِ أكثرَ أنواعِ الشركِ وقوعًا، **حتى قال بعضُ أهل العلم**: «لا نعلمُ نوعًا مِنْ أنواعِ الكُفرِ والرِّدَّةِ ورَدَ فيه مِنَ النصوصِ مثلُ ما ورَدَ في دعاءِ غيرِ اللهِ بالنهيِ عنه، والتحذيرِ مِن فعلِهِ، والوعيدِ عليه»(١).

فمِنْ هذه النصوص قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

قال الشوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في رسالةٍ له في وجوب توحيدِ الله** عَزَّوَجَلَّ **بعدَ أنْ أوردَ طرفًا مِنْ هذه النصوصِ**: «فهذه الآياتُ البيِّنات دلَّتْ على أنَّ الدعاءَ مطلوبٌ لله عَزَّوَجَلَّ مِنْ عبادِهِ، وهذا القَدْرُ يكفي في إثباتِ كونِهِ عبادةً؛ فكيفَ إذا انضمَّ إلى ذلكَ النهيُ عن دعاءِ غيرِ الله سبحانه؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]، وقال سبحانه ناعيًا على مَنْ يدعو غيرَهُ، ضاربًا له الأمثال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢].

فكيف إذا صَرَّحَ القرآنُ الكريمُ بأنَّ الدعاءَ عبادةٌ تصريحًا لا يَبْقى عنده ريبٌ لمرتابٍ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فقد طَلَبَ اللهُ سبحانه مِنْ عبادِهِ في هذه الآيةِ أن يدعوه، وجعَلَ جزاءَ الدعاءِ له منهم الإجابةَ منه؛ فقال:

(١) «النبذة الشريفة النفيسة في الردِّ على القبوريِّين» للشيخ حَمَد بن ناصر بن عثمان آل معمَّر (ص٣٧).

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ ولهذا جزمَهُ لكونِهِ جوابًا للأمر، ثمَّ توعَّدَهُمْ على الاستكبارِ عن هذه العبادةِ ـ **أعني**: الدعاءَ ـ بما صَرَّحَ به في آخرِ الآية، وجعَلَ العبادةَ مكانَ الدعاءِ؛ تفسيرًا له، وإيضاحًا لمعناه، وبيانًا لعبادِهِ بأنَّ هذا الأمرَ الذي طلبَهُ منهم وأرشَدَهُمْ إليه هو نوعٌ مِنْ عبادتِهِ التي خَصَّ بها نفسَهُ، وخلَقَ لها عبادَهُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومَعَ هذا كلِّه، فقد جاءتِ السُّنَّةُ المطهَّرةُ بما يَدُلُّ أبلَغَ دَلَالةٍ على أنَّ الدعاءَ مِنْ أكملِ أنواعِ العبادة...»(١)، ثمَّ ذكَرَ رَحِمَهُ اللهُ ما يدلُّ على ذلكَ مِنَ السُّنَّة.

۞ **إنَّ الواجبَ على كلِّ مسلم أن يُدْرِكَ خطورةَ الأمر، وأن يَعْلَمَ أنَّ هذا حقٌّ خالصٌ لله** عَزَّ وَجَلَّ لا يجوزُ أنْ يُشْرَكَ معه فيه غيرُهُ، وكيف يُشْرَكُ المخلوقُ الضعيفُ العاجزُ بالمَلِكِ العظيمِ الذي بيدِهِ أَزِمَّةُ الأمور، المُتفرِّدُ بإجابةِ الدعاءِ وكشفِ الكروب، الذي له الأمرُ كلُّه، وبيده الخيرُ كلُّه، وإليه يَرْجِعُ الأمرُ كلُّه، لا مُعقِّبَ لِحُكْمِه، ولا رادَّ لقضائِه، الذي ما تَعلَّقَ به ضعيفٌ إلَّا أفادَهُ القُوَّةَ، ولا ذليلٌ إلَّا أناله العِزَّةَ، ولا فقيرٌ إلَّا أعطاه الغِنَى، ولا مُسْتوحِشٌ إلا آنَسَه، ولا مغلوبٌ إلَّا أيَّدَهُ ونَصَره، ولا مضطرٌّ إلَّا كشَفَ ضُرَّه، ولا شريدٌ إلَّا آواه؛ فهو سبحانه الذي يجيبُ المضطرِّين، ويُغِيثُ الملهوفين، ويُعْطِي السائلين، لا مانعَ لِمَا أعطى، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، لا إلـهَ إلَّا هو الملكُ الحقُّ المبين.

وقد أجمَعَ أهلُ العلمِ على أنَّ مَنْ صرَفَ شيئًا مِنَ الدعاءِ لغيرِ الله، فهو مُشْرِكٌ باللهِ العظيم، ولو قال: لا إلـهَ إلَّا اللهُ، محمَّدٌ رسولُ الله، ولو صلَّى وصام؛ إذْ شَرْطُ الإسلامِ أن لَا يُعْبَدَ إلَّا اللهَ، فلْيَحْذَرْ مَنْ يريدُ لنفسِهِ الفوزَ والسعادةَ مِنْ هذا الإثمِ المبين، والخطرِ العظيم.

نسألُ اللهَ الكريمَ أن يُجنِّبَنا والمسلمينَ ذلك، وأن يَقِيَنا مِنَ الزَّلَل، في القولِ والعمل، إنَّه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

❁ ❁ ❁

(١) «رسالة في وجوب توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ» للشوكاني (ص٥٦ ـ ٥٨).

٦٤

أَهَمِّيَّةُ اتِّبَاعِ السُّنَّةِ فِي الدُّعَاءِ

لقد تَقدَّمَ معنا الإشارةُ إلى جملةٍ مِنَ الضوابطِ المُهمَّةِ والشروطِ العظيمةِ التي ينبغي أن يَتقيَّدَ بها المسلمُ في الدعاءِ، **وأهمُّها هو**: إخلاصُهُ للهِ وحدَهُ لا شريكَ له؛ إذِ الدعاءُ نوعٌ مِنْ أنواعِ العبادة، وفَرْدٌ مِنْ أفرادها، والعبادةُ حقٌّ لله ﷻ لا شريكَ له فيها، فهو سبحانه المعبودُ بِحَقٍّ، ولا معبودَ بحقٍّ سواه؛ ولذا فإنَّ أخطرَ جانبٍ يُخَلُّ به في الدعاءِ هو أَن يُصْرَفَ لغيرِ اللهِ بأنْ يُجْعَلَ لغيرِهِ شِرْكةٌ فيه، والله يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف]، ويقول تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ، وقد مضى معنا طَرَفٌ منها.

وكما أنَّ الدعاءَ يُشْتَرَطُ فيه إخلاصُهُ لله ﷻ ليكونَ مقبولًا عنده، **فكذلك يُشْتَرَطُ فيه المتابعةُ للرسولِ الكريم ﷺ**؛ إذْ إنَّ هذَيْنِ الأمرَيْن ـ **أعني**: الإخلاصَ والمتابعةَ ـ هما شَرْطَا قَبُولِ الأعمالِ كلِّها؛ فلا قَبُولَ لأيِّ عملٍ مِنَ الأعمالِ إلَّا بهما؛ **كما قال الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ** رَحِمَهُ اللهُ: «دِينُ اللهِ أخلصُهُ وأصوبُهُ، قيل: يا أبا عليٍّ، ما أخلصُهُ وأصوبُهُ؟ فقال: إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولم يكنْ صوابًا لَم يُقْبَلْ، وإذا كان صوابًا ولم يكنْ خالصًا لَم يُقْبَلْ، حتى يكونَ خالصًا صوابًا، والخالصُ: ما كان لله، والصوابُ: ما كان على السُّنَّة»(١).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخلاص والنية» (ص٥٠ ـ ٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).

وقد جاءتِ السُّنَّةُ النبويَّةُ بالهُدَى المبين، والسَّنَنِ القويم، والصراطِ المستقيم، الذي ينبغي أن يكونَ عليه المسلم، سواءٌ في الدعاءِ أو في غيره مِنَ الأعمال التي يُقْصَدُ بها التَّقرُّبُ إلى الله، فالسُّنَّةُ قد دَلَّتْ على جنسِ المشروعِ والمستَحَبِّ في ذكرِ اللهِ ودعائِهِ كسائرِ العبادات؛ فقد بيَّن النبيُّ الكريمُ ﷺ لأمَّته ما ينبغي لهم أنْ يقولوهُ مِنْ ذِكْرٍ ودعاء، في الصباحِ والمساء، وفي الصلواتِ وأعقابها، وعندَ دخولِ المسجد، وعندَ النَّوْم، وعندَ الانتباهِ منه، وعندَ الفَزَعِ فيه، وعند تَنَاوُلِ الطعامِ وبَعْدَه، وعندَ ركوبِ الدَّابَّةِ، وعندَ السفر، وعندَ رؤيةِ ما يُحِبُّهُ المرءُ، وعندَ رؤيةِ ما يكره، وعندَ المصيبة، وعند الهَمِّ والحَزَن، أو غيرِ ذلكَ مِنْ أحوالِ المسلمِ وأوقاتِهِ المختلفة.

كما أنَّه ﷺ بيَّن مراتبَ الأذكارِ والأدعيةِ وأنواعَها وشروطَها وآدابَها أتمَّ البيانِ وأوفاهُ وأكْمَلَه، وتَرَكَ أُمَّتَهُ في هذا الباب، وفي جميعِ أبوابِ الدِّين، على مَحَجَّةٍ بيضاءَ وطريقٍ واضحةٍ لا يَزِيغُ عنها بعدَهُ إلَّا هالكٌ؛ فالمشروعُ للمسلمِ هو أن يَذْكُرَ اللهَ بما شرَعَ، وأن يَدْعُوَهُ بالأدعيةِ المأثورة؛ لأنَّ الذِّكْرَ والدعاءَ عبادةٌ، والعبادةُ مبناها على الاتِّباعِ للرسولِ الكريمِ ﷺ، **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ: «لا ريبَ أنَّ الأذكارَ والدعواتِ مِنْ أَفضلِ العباداتِ، والعباداتُ مبناها على التوقيفِ والاتِّباع، لا على الهَوَى والابتداع، فالأدعيةُ والأذكارُ النبويَّةُ هي أفضلُ ما يَتحرَّاهُ المتحرِّي مِنَ الذِّكْرِ والدعاء، وسالكُها على سبيل أمانٍ وسلامة... وما سواها مِنَ الأذكارِ قد يكونُ محرَّمًا، وقد يكونُ مكروهًا، وقد يكونُ فيه شِرْكٌ ممَّا لا يهتدي إليه أكثرُ الناس، وهي جملةٌ يطولُ تفصيلُها.

وليس لأحدٍ أن يَسُنَّ للناسِ نوعًا مِنَ الأذكارِ والأدعيةِ غيرَ المسنون، ويَجْعلَها عبادةً راتبةً يواظبُ الناسُ عليها كما يُواظبونَ على الصلواتِ الخمس، بل هذا ابتداعُ دِينٍ لَم يَأْذَنِ اللهُ به، بخلافِ ما يدعو به المرءُ أحيانًا مِنْ غيرِ أنْ يجعلَهُ للناسِ سنةً، فهذا إذا لَمْ يُعْلَمْ أنَّه يَتضمَّنُ معنى محرَّمًا لَم يُجْزَمْ بتحريمه، لكنْ قد يكونُ فيه ذلك، والإنسانُ لا يَشْعَرُ به، وهذا كما أنَّ الإنسانَ

عند الضرورةِ يدعو بأدعيةٍ تُفْتَحُ عليه ذلكَ الوقتَ؛ فهذا وأمثالُه قريب.

وأمَّا اتِّخاذُ وِرْدٍ غيرِ شرعيٍّ، واستنانُ ذِكْرٍ غيرِ شرعيٍّ، فهذا مِمَّا يُنهى عنه.

ومع هذا، ففي الأدعيةِ الشرعيةِ، والأذكار الشرعيةِ: غايةُ المطالبِ الصحيحة، ونهايةُ المقاصدِ العَلِيَّة، ولا يَعْدِلُ عنها إلى غيرها مِنَ الأذكارِ المُحْدَثةِ المُبتَدَعَةِ إلَّا جاهلٌ أو مفرِّطٌ أو مُتعدٍّ»[1]. اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومع أنَّ الأدعيةَ المأثورةَ مشتملةٌ على جِمَاعِ الخيرِ، وتمامِ الأمرِ، ونهايةِ المقاصدِ العليَّة، وأشرفِ المطالبِ الصحيحةِ، إلَّا أنَّك ترى في كثيرٍ مِنَ الناسِ مَنْ يَعْدِلُ عنها، ويَرْغَبُ في غيرها، بل ولربَّما فَضَّلَ غيرَها عليها، ومِنْ هؤلاءِ مَنْ يجعلُ لنفسِهِ وِرْدًا خاصًّا قاله بعضُ الشيوخ، فيلتزمُهُ، ويحافظُ عليه، ويُعظِّمُ مِنْ شأنه، ويُقدِّمُهُ على الأدعيةِ المأثورة، والأورادِ الصحيحةِ الثابتةِ عن الرسولِ الكريم ﷺ؛ وهذا مِنْ أشدِّ الناسِ نكوبًا عن الجادَّة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِنْ أشدِّ الناسِ عَيْبًا مَنْ يَتَّخِذُ حِزْبًا ليس بمأثورٍ عن النبيِّ ﷺ وإنْ كان حزبًا لبعضِ المشايخ، ويَدَعُ الأحزابَ النبويَّةَ التي كان يَقُولُها سيِّدُ بني آدم، وإمامُ المُرْسَلين، وحُجَّةُ الله على عباده»[2].

وقال العلَّامة المُعَلِّمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «...وما أخسَرَ صَفْقةَ مَنْ يَدَعُ الأدعيةَ الثابتةَ في كتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أو في سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ؛ فلا يكادُ يدعو بها، ثمَّ يَعْمِدُ إلى غيرِها؛ فيَتحرَّاهُ ويُواظِبُ عليه؛ أليس هذا مِنَ الظلمِ والعدوان؟!»[3].

فالخيرُ كلُّ الخيرِ في اتِّباعِ الرسولِ الكريم ﷺ، والاهتداءِ بهديه، وتَرسُّمِ خُطَاه، ولزومِ نَهْجه، فهو القدوةُ لأمَّته، والأُسْوَةُ الحَسَنَةُ لهم، وقد كان أَكْمَلَ الناسِ ذِكْرًا لله، وأحسنَهُمْ قيامًا بدعائِهِ سبحانه.

ولهذا فإنَّ مَنِ اجتمَعَ له في هذا البابِ لزومُ الأذكارِ النبويَّةِ، والأدعيةِ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥١٠ ـ ٥١١). (٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٣٢).

(٣) «كتاب العبادة» للمعلِّمي (ص٥٢٤ ـ النسخة الخطية).

المأثورة، مَعَ فَهْمِ معانيها ومدلولاتها، وحضورِ القَلْبِ عندَ الذكرِ والدعاءِ بها، فقد كَمُلَ نصيبُهُ مِنَ الخيرِ، وعَظُمَ حظُّهُ مِنَ السَّدَاد.

ولهذا أيضًا اعتَنَى أهلُ العلمِ بجمعِ الأدعيةِ المأثورة؛ لتكونَ بين أيدي الناسِ وفي متناولهم؛ فيستغنوا بها عن الأورادِ المُحْدَثة، والأدعية المبتَدَعة؛ **قال الإمامُ أبو القاسم الطَّبَرانيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **في مقدِّمة كتابه «الدعاء»**: «هذا كتابٌ أَلَّفْتُهُ جامعًا لأدعيةِ رسولِ الله ﷺ؛ حَدَاني على ذلك أنِّي رأيتُ كثيرًا مِنَ الناسِ قد تَمَسَّكوا بأدعيةِ سَجْعٍ، وأدعيةٍ وُضِعَتْ على عَدَدِ الأيامِ مِمَّا أَلَّفها الورَّاقون، لا تُرْوَى عن رسولِ الله ﷺ، ولا عن أحدٍ مِنْ أصحابه، ولا عن أحدٍ مِنَ التابعينَ بإحسان، مع ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ الكراهيَةِ للسَّجْعِ في الدعاءِ والتعدِّي فيه، فأَلَّفْتُ هذا الكتابَ بالأسانيدِ المأثورةِ عن رسولِ الله ﷺ...»[1]، إلى آخر كلامِه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومِنَ المؤلَّفاتِ الجيِّدةِ في هذا الباب: **«الأذكار»** للنووي، و**«الكَلِمُ الطيِّب»** لابن تيميَّة، و**«الوابل الصَّيِّب»** لابن القيِّم؛ فحريٌّ بالمسلم أن يُفِيدَ مِنْ مثلِ هذه الكتب القيِّمة، المَبْنِيَّةِ على ما أُثِرَ عن رسولِ الله ﷺ، ويَدَعَ ما سوى ذلك مِمَّا أَحَدَثَهُ الورَّاقون، وأنشأه المتكلِّفون، رَزَقَنَا اللهُ جميعًا لزومَ السُّنَّة، واقتفاءَ آثارِ خيرِ الأُمَّة، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه.

❊ ❊ ❊

(١) «الدعاء» للطبراني (٢/ ٧٨٥).

٦٥

التَّحْذِيرُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمُحْدَثَةِ

تَقدَّمَ الكلامُ حولَ أهميَّةِ التقيُّدِ بالسُّنَّةِ في الدعاء، وضرورةِ لزومِ هَدْيِ النبيِّ ﷺ فيه؛ لأنَّ الدعاءَ عبادةٌ، **والعبادةُ مبناها على التوقيف والاتِّباع، لا على الهَوَى والابتداع**، وسَبَقَ الإشارةُ إلى أنَّ السُّنَّةَ قد جاء فيها بيانُ الدعاءِ وجميعِ ما يَتعلَّقُ به بيانًا وافيًا شافيًا، لا مَزِيدَ عليه بذكرِ أنواعِهِ وشروطِهِ، وآدابِهِ وأوقاته، وغيرِ ذلك ممَّا يَتعلَّقُ به.

ولهذا، فإنَّ المُتَأكِّدَ على كلِّ مسلم في هذا البابِ العظيمِ: أن يَجْتَهِدَ في طلبِ هَدْيِ النبيِّ ﷺ في الدعاء، وأنْ يَحْرِصَ أشدَّ الحِرْصِ على معرفةِ سبيلِهِ فيه؛ ليقتفيَ آثارَه، وليسيرَ على نهجه، وليلزمَ طريقتَهُ، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه.

ولا يجوزُ لمسلمٍ أن يلتزمَ أدعيةً راتبةً، أو مُخصَّصةً بأوقاتٍ معيَّنةٍ، أو بصفاتٍ معيَّنة، سوى ما ورَدَ مِنْ ذلكَ في سُنَّةِ الرسولِ الكريمِ ﷺ، أمَّا الأدعيةُ العارضةُ التي تَحْصُلُ مِنَ المسلمِ بسببِ أمورٍ قد تَعْرِضُ له، فله أن يَسْأَلَ اللهَ ما شاءَ فيما لا يتنافى مَعَ الشرع.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأذكارُ والدعواتُ مِنْ أفضلِ العبادات، والعباداتُ مبناها على الاتِّباع، وليسَ لأحدٍ أن يَسُنَّ منها غيرَ المسنون، ويَجْعَلَهُ عبادةً راتبةً يواظبُ الناسُ عليها، بل هذا ابتداعُ دِينٍ لم يَأْذَنْ به الله، بخلافِ ما يدعو به المرءُ أحيانًا مِنْ غيرِ أن يجعلَهُ سُنَّةً»(١). اهـ.

---

(١) «مجموع مؤلَّفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب» «ملحق المصنَّفات» (ص٤٦)، في ضمن فوائدَ عديدةٍ لخَّصها رَحِمَهُ اللَّهُ من كلامِ شيخِ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ. **وانظر**: أصل كلام شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥١٠ ـ ٥١١).

ولهذا نجدُ أنَّ الصحابةَ ﷺ بادروا إلى إنكارِ تخصيصِ هيئاتٍ معيَّنةٍ للأذكارِ والأدعية، أو أوقاتٍ معيَّنة، أو نحوِ ذلك ممَّا لَم يَرِدْ به الشرعُ، ولم تَثْبُتْ به السُّنةُ، **ومِنْ ذلكم**: إنكارُ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على أولئكَ النَّفرِ الذين تَحَلَّقُوا في المسجدِ، وفي أيديهم حصًى يُسَبِّحُونَ بها، ويُهَلِّلون، ويُكَبِّرونَ بطريقةٍ مُحدَثةٍ، وصفةٍ مبتدعةٍ، لَم تكنْ موجودةً على عهدِ رسولِ الله ﷺ، فبادَرَهُمْ بالإنكار، ونهاهم عن ذلكَ أشدَّ النهي، وبيَّن لهم خطورةَ ذلكَ وسوءَ مَغَبَّتِهِ عليهم؛ روى الإمامُ الدارميُّ رحمه الله بإسنادٍ جيِّد، **عن عَمْرو بن سَلَمةَ الهَمْدانيِّ، قال**: «كنَّا نجلس على بابِ عبد الله بن مسعودٍ قبلَ صلاةِ الغَدَاة، فإذا خَرَجَ مَشَيْنا معه إلى المسجدِ، فجاءنا أبو موسى الأشعريُّ، فقال: أخَرَجَ إليكم أبو عبد الرحمٰن بعدُ؟ قلنا: لا، فجلَسَ معنا حتى خرَجَ، فلمَّا خرَجَ، قُمْنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسى: يا أبا عبدِ الرحمٰنِ! إنِّي رأيتُ في المسجدِ آنفًا أمرًا أنْكَرْتُهُ، ولَم أَرَ ـ والحمدُ لله ـ إلا خيرًا، قال: فما هو؟ فقال: إنْ عِشْتَ فستراه، قال: رأيتُ في المسجدِ قومًا حِلَقًا جلوسًا ينتظرونَ الصلاةَ، في كلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ، وفي أيديهم حَصًى، فيقولُ: كَبِّرُوا مِائَةً! فيكبّرون مِائَةً، فيقول: هَلِّلوا مِائَةً، فيهلِّلون مِائَةً، ويقول: سبِّحوا مِائَةً! فيسبِّحون مِائَةً، قال: فماذا قلتَ لهم؟ قال: ما قلتُ لهم شيئًا انتظارَ رأيك، قال: أفلا أَمَرْتَهُمْ أن يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وضَمِنْتَ لهم أن لا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شيءٌ. ثمَّ مضى ومضينا معه، حتى أتى حَلْقةً مِنْ تلك الحِلَقِ، فوقَفَ عليهم، فقال: ما هذا الذي أَرَاكُمْ تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبدِ الرحمٰن! حَصًى نَعُدُّ به التكبيرَ والتهليلَ والتسبيحَ، قال: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ، فأنا ضامِنٌ أَن لا يَضِيعَ مِنْ حسناتكم شيءٌ؛ وَيْحَكُمْ يا أُمَّةِ محمَّد! ما أسرَعَ هَلَكَتَكُمْ، هؤلاءِ صحابةُ نبيِّكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابُهُ لَم تَبْلَ، وآنيتُهُ لم تُكْسَرْ! والذي نفسي بيده، إنَّكم لعلى مِلَّةٍ هي أَهْدىَ مِنْ مِلَّةِ محمد، أو مُفْتَتِحُو بابِ ضلالةٍ!! قالوا: واللهِ، يا أبا عبد الرحمٰن! ما أَرَدْنَا إلا الخيرَ، قال: وكم مِنْ مُرِيدٍ للخيرِ لن يُصِيبَهُ!»(١).

(١) «سنن الدارمي» (١/ ٧٩) رقم (٢٠٤).

فتأمَّلْ كيفَ أنكرَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه على أصحابِ الحَلَقاتِ هؤلاءِ، مع أنَّهم في حَلْقَةِ ذِكْرٍ ومجلسِ عبادةٍ لَمَّا كان ذِكْرُهُمْ للهِ، وتَعبُّدُهُمْ له بغيرِ الواردِ المشروعِ، وفي هذا دَلَالةٌ على أنَّه ليسَ العبرةُ في العبادةِ والدعاءِ والذِّكْرِ كثرتَهُ، وإنَّما العبرةُ في موافقتِهِ للسُّنَّةِ؛ **كما قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه في مقام آخر**: «اقتصادٌ في سُنَّة، خيرٌ مِنِ اجتهادٍ في بِدْعة»[1]، وابنُ مسعود رضي الله عنه لَمْ يُنْكِرْ عليهم ذكرَهُمْ لله، واشتغالَهُمْ بذلك، وإنَّما أنكَرَ عليهم مفارقتَهُمْ للسُّنَّةِ في صفةِ أدائِهِ، وكيفيةِ القيامِ به، مع أنَّ الألفاظَ التي كانوا يَذْكُرُونَ اللهَ بها ألفاظٌ صحيحةٌ ورَدَتْ بها السُّنَّة؛ فكيف الحالُ بمَنْ تركَ السُّنَّةَ في ذلكَ جملةً وتفصيلًا في الألفاظِ، وفي صفةِ الأداءِ، وفي غيرِ ذلك؛ كالأورادِ التي يقرؤها بعضُ الناسِ ممَّا كتبَهُ بعضُ أشياخِ الطُّرُقِ الصوفيَّةِ بِصِيَغٍ مختلفةٍ، وأساليبَ متنوِّعةٍ، ممَّا هو مُتضمِّنٌ لأنواعٍ مِنَ الباطلِ، وصنوفٍ مِنَ الضلالِ؛ كالتوسُّلاتِ الشِّرْكِيَّة، والألفاظِ البِدْعِيَّةِ، والأذكارِ المُحْدَثة، ويُرتِّبُ هؤلاءِ لأورادهم وظائفَ مُحدَّدةً، وصفاتٍ معيَّنة، وأوقاتًا ثابتة، وهذا كلُّه ـ ولا ريبَ ـ من الإحداثِ في الدِّين، ومِنَ المفارقةِ لسبيلِ سَيِّدِ الأنبياءِ والمُرْسَلين، والاستعاضةِ عنه بما أحدَثَهُ شيوخُ الضَّلال وأئمةُ الباطل، وهو تشريعٌ في الدِّينِ بما لَمْ يأذنْ به الله؛ والله تعالى يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ثُمَّ تَجِدُهم ـ مَعَ ذلك ـ يُعظِّمونَ أورادَهُمْ هذه، ويُعْلُونَ مِنْ شأنها، ويرفعونَ مِنْ قَدْرِها، ويُقدِّمونها على الأورادِ الصحيحة، والأدعيةِ الثابتةِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أفضلِ الخلقِ، وأكملِهِمْ ذكرًا ودعاءً لربِّه سبحانه.

قال القاضي عياضٌ رحمه الله: «أَذِنَ اللهُ في دعائِهِ، وعَلَّمَ الدعاءَ في كتابِهِ لخليقته، وعلَّم النبيُّ ﷺ الدعاءَ لأمَّته، واجتمَعَتْ فيه ثلاثةُ أشياء: العلمُ بالتوحيد، والعلمُ باللغة، والنصيحةُ للأمَّة، فلا ينبغي لأحدٍ أن يَعْدِلَ عن دعائه ﷺ، وقد احتالَ الشيطانُ للناسِ مِنْ هذا المقام، فقَيَّضَ لهم قَوْمَ سوءٍ

(١) **انظر**: «المعجم الكبير» للطبراني (١٠/٢٠٨).

يخترعونَ لهم أدعيةً يشتغلونَ بها عن الاقتداءِ بالنَّبيِّ ﷺ»[١].

وقال الإمام القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»: «فعلى الإنسانِ أن يَسْتَعْمِلَ ما في كتابِ اللهِ وصحيحِ السُّنَّةِ مِنَ الدعاء، ويَدَعَ ما سواه، ولا يقول: أختارُ كذا؛ فإنَّ اللهَ قد اختارَ لنبيِّهِ وأوليائِهِ وعلَّمهم كيفَ يَدْعُونَ»[٢]. اهـ.

❁ **فالواجبُ على مَنْ أراد لنفسِهِ الفضيلةَ والسلامة، والتمامَ والرِّفْعَةَ**: أنْ يَلْزَمَ هَدْيَ النبيِّ الكريم ﷺ، ويتقيَّدَ بسنَّته، ويَدَعَ ما أحدَثَهُ المُحْدِثون، وأنشأه المبطلون، ممَّا لا أصلَ له ولا أساسَ إلَّا اتِّباعُ الأهواء، واللهُ المستعان، وإليه المشتكى، وهو حسبنا ونِعْمَ الوكيل.

❁ ❁ ❁

---

(١) **انظر**: «الفتوحات الربانية» لابن علان (١/ ١٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ١٤٩).

٦٦

الْآثَارُ السَّيِّئَةُ لِلْأَدْعِيَةِ الْمُحْدَثَةِ

لقد تَميَّزتِ الأدعيةُ الشرعيَّةُ والأذكارُ المأثورةُ عن رسولِ الله ﷺ بكمالها في مبناها ومعناها؛ فألفاظُها وعباراتُها مُوجَزَةٌ مُخْتَصَرةٌ، ومعانيها ودَلَالاتُها عظيمةٌ واسعة، مُتضمِّنةٌ الخيرَ كلَّه، مشتملةٌ على المقاصدِ العالية، والمطالبِ العظيمة، والخيراتِ العميمة؛ ولهذا فإنَّ مِنَ الخيرِ لكلِّ مسلم - بل مِنَ الواجبِ عليه - أن يَجْتَهِدَ قدرَ الاستطاعةِ في تَعلُّمها وحفظِها والتعبُّدِ بها، ويَدَعَ ما سواها مِنَ الأورادِ والأحزابِ المُخْتَرَعةِ التي أنشأها بعضُ شيوخِ الضلالةِ وأئمَّةِ الباطلِ، والتي صَدُّوا بها كثيرًا مِنْ عوامِّ المسلمينَ وجُهَّالِهِمْ عن الأدعيةِ المأثورةِ، والأذكار المشروعةِ.

ومَن يَتأمَّلُ واقعَ بعضِ المسلمين، ولا سيَّما مَنِ انتَسَبَ إلى بعضِ الطرقِ الصوفية، يَجِدُ أنَّهم قد انشَغَلُوا بهذه الأذكارِ المُخْتَرَعَةِ، والأدعيةِ المُبْتَدَعة، فأصبَحُوا يَتْلُونَها ليلًا ونهارًا، وصباحًا ومساءً، تاركين بسببها كتابَ اللهِ تعالى، مُعْرِضِينَ عن الأدعيةِ المأثورةِ عن رسول الله ﷺ.

ثمَّ إنَّ لكلِّ فئةٍ مِنْ هؤلاءِ أورادًا خاصَّةً يتلونها بطريقةٍ خاصَّة، ونَمَطٍ معيَّن، فلكلِّ طريقةٍ مِنْ هذه الطرقِ الصوفيَّةِ أحزابُها وأورادُها الخاصَّةُ، و﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وكلٌّ منهم يعتقدُ أنَّ أورادَهُ أفضلُ مِنْ أورادِ الطرقِ الصوفيَّةِ الأخرى.

وما مِنْ ريبٍ أنَّ هذه الأدعيةَ المُبْتَدَعَةَ لها نتائجُها المُؤْسِفة، وآثارُها السيِّئةُ على المسلمِ في عقيدتِهِ وأعمالِهِ التَّعبُّديَّة، وهي آثارٌ كثيرةٌ يطولُ حصرُها، لكن قد أوجَزَها ولخَّصها الشيخ جيلان بن خضر العروسيُّ - وفقه الله - في كتابه القيِّم: «الدعاءُ ومنزلتُهُ من العقيدةِ الإسلامية»[1]، **في النقاط التالية:**

(١) انظره: (٢/ ٥٩٢ - ٥٩٨).

أولًا: أنَّ الأدعيةَ المبتدَعَةَ لا تفي بالغرض المطلوبِ مِنَ العباداتِ مِنْ تزكيةِ النفوسِ وتطهيرِها مِنَ الرُّعُونات، وتقريبِها إلى باريها، وتَعَلُّقِها بربِّها رجاءً ورغبةً ورهبةً؛ فهي لا تَشْفِي عليلًا، ولا تَرْوِي غليلًا، ولا تهدي سبيلًا.

وأما الأدعيةُ المشروعةُ، فهي الدواءُ الناجعُ والبَلْسَمُ الشافي للأدواءِ النفسيَّة، والأمراضِ القلبيَّة، والأهواءِ الشيطانية، فمَنِ استَبْدَلَ بها الأدعيةَ المُبْتَدَعَةَ، فقد استَبْدَلَ الذي هو أدنى بالذي هو خَيْر.

ثـانـيًا: أنَّ الأدعيةَ المبتدعَةَ تُفوِّتُ على العبدِ الأَجْرَ العظيم، والثوابَ الجزيل، الذي يحصُلُ لِمَنِ التَزَمَ بالأدعيةِ الواردة، وحافَظَ عليها، وطبَّقها كما ورَدَتْ؛ فإنَّه يحوزُ السَّبْقَ، ويَتعرَّضُ لنفحاتِ الربِّ وجُودِه، بخلافِ مَنْ يدعو بالأدعيةِ المُبْتَدَعة، فإنَّه يُفوِّتُ على نفسِهِ الأجرَ والثوابَ، ويُعرِّضُها لِسَخَطِ اللهِ وغضبه.

ثـالـثًا: عَدَمُ إجابةِ الأدعيةِ المُبْتَدَعة، مَعَ أنَّ الهدفَ والأساسَ للداعي في الغالبِ هو إجابةُ مطلوبه، ونيلُ مرغوبه، ودفعُ مرهوبه، والأدعيةُ المبتَدَعةُ لا يُجابُ الداعي بها، ولا تكونُ مُتقبَّلةً منه؛ وفي الحديث: (**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**)(١).

رابـعًا: أنَّ الأدعيةَ المُبْتَدَعَةَ تشتملُ غالبًا على محذورٍ شرعيٍّ، وقد يكونُ ذلك المحذورُ مِنْ وسائلِ الشركِ وذرائعِه؛ إذِ البدعةُ تَجُرُّ إلى الشركِ والضلالِ، فمِنَ الأدعيةِ البدعيَّةِ التي تَجُرُّ إلى الشرك: التوسُّلُ البدعيُّ، فهو الذي فتَحَ البابَ لدعاءِ غيرِ الله، والاستغاثةِ والاستمدادِ بغيره، وقد يكونُ ذلك المحذورُ اعتداءً في الدعاء ومجاوزةً للحدِّ، وسُوءَ أدبٍ في خطابِ الربِّ ومناجاتِهِ، وقد يكونُ ذلكَ المحذورُ ما يَصْحَبُ تلكَ الأدعيةَ مِنْ بِدَعٍ أخرى؛ مِنْ تحديدها بأوقاتٍ معيَّنة، وبصفاتٍ خاصَّة، ورفعِ الأصواتِ على نَغَمَاتٍ معيَّنة، وإيقاعاتٍ خاصَّةٍ، وأسجاع مُصْطَنَعَةٍ، وتراكيبَ ركيكةٍ تَمُجُّها الأسماعُ، وتَسْتقبحُها القريحةُ السليمةُ.

خامسًا: أنَّ الأدعيةَ المُبْتَدَعَةَ مَنِ التزَمَ بها واعتادها قلَّما يَرْجِعُ عنها

---

(١) رواه البخاري معلقًا، ومسلم رقم (١٧١٨).

إلى الأدعيةِ المشروعة، إلَّا إذا وَفَّقَهُ اللهُ وأعانه، وهداهُ إلى الخير؛ وذلكَ لأنَّ القلوبَ متى اشتَغَلَتْ بالبدعِ أعرَضَتْ عن السُّنَن؛ حيثُ إنَّ المُلْتزمَ بتلكَ الأدعيةِ المبتَدَعَةِ يعتقدها مشروعةً، ويُدَافِعُ عنها، ولا يسمعُ إلى حُجَّةٍ ولا برهانٍ.

سادسًا: أنَّ استعمالَ الأدعية البِدْعِيَّةِ، وتَرْكَ الأدعيةِ المشروعةِ مِنْ بابِ استبدالِ الخبيثِ بالطيِّب، والضارِّ بالنافع، والشرِّ بالخير، وهذا ـ ولا ريب ـ غَبْنٌ فاحشٌ، وتَهَوُّرٌ ظاهر، وخسارةٌ فادحةٌ.

سابعًا: أنَّ في الأدعيةِ المُبْتَدَعةِ المخترعةِ تَشَبُّهًا بأهلِ الكتابِ في اختراعِهِمْ للأدعيةِ المخالفةِ لِمَا جاءتْ به رُسُلُهم، وفيها أيضًا تَشَبُّهٌ بهم في النَّغَمَاتِ والإيقاعاتِ والتمايُلات، وغير ذلك.

ثامنًا: أنَّ الذي يُلازمُ الأدعيةَ المُبْتَدَعَةَ المُخْتَرَعَةَ، لا سيَّما التي هي مؤلَّفةٌ مِنْ أحزابٍ وأورادٍ، يكونُ ـ في الغالب ـ جاهلًا لمعناها، وتنصرفُ هِمَّتُهُ إلى ألفاظها، وإلى سردها سردًا بدونِ تدبُّر، مَعَ أنَّ المطلوبَ في الدعاءِ إحضارُ القلب، والإخلاصُ في السؤال، ولا سيَّما أنَّ كثيرًا مِنْ هذه الأدعيةِ عبارةٌ عن كلماتٍ مرصوصةٍ، خفيَّةِ المعنى، غامضةِ الدَّلَالة، وهذا الداعي بمثلِ هذه الأدعيةِ غيرُ سائلٍ ولا داعٍ، بل هو حاكٍ لكلامِ غَيْرِه، ثمَّ إنَّ اختيارَهُ ذلك الدعاءَ على غيرِهِ مِنَ الأدعيةِ لأجلِ الذي نَظَمَهُ، وإعجابَهُ به، ففي ذلك تقديسٌ لهذا الذي جَمَعَها، ورَفْعٌ له فوق منزلتِهِ مِنْ حيثُ يعتقدُ الداعي أنَّ لِأَدْعِيَتِهِ خَاصِّيَّةً لا توجدُ في غيرها، وإلَّا لَمَا داوَمَ عليها ليلَ نهارَ، بل بعضُهم يُصرِّحُ أنَّ وِرْدَ شيخِهِ أفضلُ الأورادِ وأتمُّها وأكملُها.

وبهذا يُعْلَمُ مدى جنايةِ هذه الأدعيةِ المُخْتَرَعَةِ على المسلمين، وعِظَمُ خطورتها عليهم، وأنَّ الواجبَ على كلِّ مسلم الحَذَرُ منها، والبُعْدُ عنها، ومجانبتُها، وأن يَقْتَصِرَ على الواردِ والمأثورِ عن الرسولِ الكريمِ ﷺ؛ فإنَّه أقومُ قِيلًا، وأهدى سبيلًا.

وإنَّا لنسألُ اللهَ الكريمَ أن يَرْزُقَنا لُزُومَ سُنَّته، واتباعَ هَدْيِه، واقتفاءَ أَثَرِه، وسلوكَ مَنْهَجِه؛ إنَّه سميعٌ مجيب.

٦٧

جَوامِعُ الْكَلِمِ وَالْأَدْعِيَةُ الْمَأْثُورَةُ

لا يزالُ حديثنا موصولًا في بيانِ فضلِ الأذكار النبويةِ، والأدعيةِ المأثورةِ التي كان يدعو بها النبيُّ ﷺ ويُعلِّمُها أصحابَهُ؛ **لكمالها في مبانيها ومعانيها، ولاشتمالِها على جوامعِ الخَيْرِ وفواتحِهِ وخواتِمِهِ؛ كما قالتْ أُمُّ المؤمنين عائشةُ** رضي الله عنها: «كان النبيُّ ﷺ **يُعْجِبُهُ** الجوامعُ مِنَ الدعاءِ، ويَدَعُ ما بينَ ذلك»؛ رواه الإمام أحمد في «مسنده» وأبو داود في «سننه»، وابن حِبَّان في «صحيحه»(١).

وروى الفِرْيابيُّ وغيرُهُ من حديثِ عائشةَ أيضًا أنَّ النبيَّ ﷺ قال لها: **(يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِجَوَامِعِ الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمِ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ مُحَمَّدٌ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ مَا قَضَيْتَ لِي مِنْ قَضَاءٍ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا)**(٢).

---

(١) «المسند» (٦/ ١٤٨، ١٨٩)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٨٢)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٦٧)، وهو في «صحيح أبي داود» رقم (١٣١٥).

(٢) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٣٣)، وأخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ١٣٤، ١٤٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٤٦)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٨٦٩)، و«المستدرك» (١/ ٥٢١، ٥٢٢)، وليس عندهم ذِكْرُ جوامعِ الدعاء، وعند أحمد والحاكم: **(عَلَيْكِ بِالكَوَامِلِ...)**، وذكَرَهُ.
وخرَّجه أبو بكرٍ الأثرمُ، وعنده: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لها: **(مَا مَنَعَكِ أَنْ تَأْخُذِي بِجَوَامِعِ الكَلِمِ وَفَوَاتِحِهِ...)**، وذكَرَ هذا الدعاءَ.

وروى الإمام أحمد في «المسند»، **عن عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه، **قال**: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عُلِّمَ فواتحَ الخَيْرِ وجَوَامِعَهُ، أو جوامعَ الخير وفواتحَهُ وخواتمَهُ...»[١].

والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ؛ فإنَّه ﷺ أُعْطِيَ جوامعَ الكَلِم، وخُصَّ ببدائعِ الحِكَم؛ كما في «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **(بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ)**[٢]، **قال الإمام محمَّد بن شِهَاب الزُّهْري** رحمه الله: «جوامعُ الكلمِ ـ فيما بلغنا ـ أنَّ اللهَ يَجْمَعُ له الأمورَ الكثيرةَ التي كانت تُكْتَبُ في الكتبِ قبله في الأمرِ الواحدِ والأمرَيْنِ ونحوِ ذلك»[٣]. اهـ.

وحاصلُهُ: أنَّه ﷺ كان يَتكلَّمُ بالكلامِ المُوجَزِ القليلِ اللفظِ، الكثيرِ المعاني، وهكذا الشأنُ في أذكارِهِ وأدعيتِهِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، كان يُعْجِبُهُ مِنْ ذلك جوامعُ الذِّكر والدعاءِ، ويَدَعُ ما بين ذلك.

۞ **وإذًا، فالوَاجبُ على كلِّ مسلم**: أنْ يعرفَ عِظَمَ قدرِ الأدعيةِ النبوية، ورفيعَ مكانتها، وأنَّها مشتملةٌ على مجامعِ الخيرِ، وأبوابِ السعادةِ، ومفاتيح الفلاح في الدنيا والآخرة، فخيرُ السؤالِ أن يسألَ المسلمُ ربَّه مِنْ خيرِ ما سألَهُ منه عبدُهُ ورسولُهُ ﷺ، وأفضلُ الاستعاذة أن يَسْتَعيذَ باللهِ مِنْ شرِّ ما استعاذَ منه عبدُه ورسولُهُ ﷺ؛ فإنَّ في ذلك فواتحَ الخير وخواتِمَهُ وجوامعَهُ، وأوَّلَهُ وآخرَهُ، وظاهرَهُ وباطنَهُ. ومَنْ يتأمَّلُ جميعَ الأدعيةِ الواردةِ في القرآن والسُّنَّةِ يَجِدُها كذلك؛ فإنَّ اللهَ تبارك وتعالى قد اختار لنبيِّه محمَّد ﷺ جوامعَ الأدعيةِ وفواتحَ الخيرِ، وتمامَ الأمرِ وكمالَهُ في الدنيا والآخرة؛ فكيف يَدَعُ المسلمُ هذا الخيرَ العميم، والفضلَ العظيم، الذي اشتَمَلَتْ عليه أدعيةُ النبيِّ الكريمِ ﷺ،

---

(١) «المسند» (١/٤٠٨، ٤٣٧)، و«سنن النسائي» رقم (١١٦٣)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٨٩٢).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٧٠١٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٢٣).

(٣) ذكره البخاري في «صحيحه» بإثر حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويُقْبِلُ على أدعيةٍ أخرى لغيرِهِ مِمَّنْ لا تُؤْمَنُ غائلتُهُمْ من شيوخِ الضلالة، وأئمَّةِ الباطل، المتكلِّفينَ في الدِّينِ ما ليس منه؛ **ولهذا يقولُ الخطَّابيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَوْلَى ما يُدعَىٰ به، ويُستعمَلُ منه: ما صَحَّتْ به الروايةُ عن رسولِ اللهِ ﷺ، وثبَتَ عنه بالأسانيدِ الصحيحة؛ فإنَّ الغَلَطَ يَعْرِضُ كثيرًا في الأدعيةِ التي يختارُهَا الناسُ؛ لاختلافِ معارفهم، وتباينِ مذاهبهم في الاعتقادِ والانتحال، وبابُ الدعاءِ مَطِيَّةٌ مَظِنَّةٌ للخَطَر، وما تحتَ قدمِ الداعي دَحْضٌ؛ فَلْيَحْذَرْ فيه الزلل، ولْيَسْلُكْ منه الجَدَد، الذي يُؤْمَنُ معه العِثَار، وما التوفيقُ إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ»[(١)].اهـ.

ومَنْ يَتأمَّلُ الأدعيةَ المأثورةَ التي جاءتْ في كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رسوله ﷺ يَجِدُ فيها الجمالَ والكمالَ والوفاءَ بتحقيقِ المطالبِ العالية، والمقاصدِ الرفيعة، والخيرِ الكاملِ في الدنيا والآخرة، مع السلامةِ فيها والأمانِ مِنَ الوقوعِ في الخطأِ والزلل، فهي معصومةٌ من ذلك؛ لأنَّها وَحْيُ اللهِ وتنزيلُه.

ولذا نجدُ أئمةَ العلمِ الأمناءَ الناصحينَ يُرغِّبونَ الناسَ في المحافظةِ على الأدعيةِ المأثورة، والأذكارِ المشروعةِ، ويعتنون تمامَ الاعتناءِ بربطِ الناسِ بكتابِ ربِّهم وسنَّةِ نبيِّهم ﷺ؛ لأنَّ في ذلكَ السلامةَ والعصمةَ والفَوْزَ بأكبرِ الغنيمة، **ومِنْ ذلكَ قولُ الإمامِ الجليلِ شيخِ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وينبغي للخَلْقِ أنْ يَدْعُوا بالأدعيةِ الشرعيَّةِ التي جاء بها الكتابُ والسُّنَّة؛ فإنَّ ذلكَ لا ريبَ في فَضْلِهِ وحُسْنِه، وأنَّه الصراطُ المستقيم، صَرَاطُ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصالحين، وحَسُنَ أولئكَ رفيقًا»[(٢)].

فتَأمَّلْ كلامَ هذا الإمامِ الناصحِ وغيرِهِ مِنْ أهلِ العلم، أهلِ السُّنَّةِ والجماعة؛ كيفَ أنَّهم كَرَّسُوا جهودَهم، وبَذَلُوا أوقاتَهم وأنفاسَهم في سبيلِ تفقيهِ الناسِ بالسُّنَّةِ، ورَبْطِهِمْ بها، ودعوتِهم إلى تحقيقها، وحُسْنِ القيام بها؛ إذ هي صراطُ اللهِ المستقيم، وحبلُهُ المتين.

تأمَّلْ قولَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي للخلقِ أن يَدْعُوا بالأدعيةِ الشرعيَّةِ التي جاء بها

---

(١) «شأن الدعاء» للخطابي (ص٢ ـ ٣). (٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٤٦).

الكتابُ والسُّنَّة» تجدْ فيه تمامَ النصيحةِ للخَلْقِ وصِدْقَ القيامِ بالحقِّ، بخلافِ أئمةِ الضلالِ ودعاةِ الباطل؛ فإنَّهم يدعونَ الناسَ إلى أنفسهم، ويَرْبِطُونَهُمْ بأشخاصهم، فتراهم يُنْشِئُونَ للناس أورادًا وأدعيةً مِنْ قِبَلِ أنفسهم، ويعظِّمون مِنْ شأنِها، ويُعْلُونَ مِنْ قَدْرِها؛ رغبةً في تكثيرِ الأتباعِ واستقطابِ المُريدين؛ **كما قال الصحابيُّ الجليلُ مُعَاذ بن جَبَل** رضي الله عنه: «إنَّ مِنْ ورائِكم فِتَنًا يَكْثُرُ فيها المالُ، ويُفْتَحُ فيها القُرْآن، حتى يأخذَهُ المؤمنُ والمنافقُ، والرَّجُلُ والمرأةُ، والصغيرُ والكبيرُ، والعبدُ والحرُّ، فيُوشِكُ قائلٌ أن يقولَ: ما للناسِ لا يَتَّبِعُونِي وقد قَرَأْتُ القرآنَ؟ ما هم بِمُتَّبِعِيَّ حتى أَبْتَدِعَ لهم غَيْرَه. فإيَّاكم وما ابْتَدعَ؛ فإنَّ ما ابْتُدِعَ ضَلَالَةٌ»، وسنده صحيح[1].

فليكنِ المسلمُ على تَمَام الحَذَرِ مِنْ مثلِ هؤلاءِ، ولْيَحْرِصْ تَمَامَ الحِرْصِ على لزومِ السُّنَّة، ففيها السلامةُ والرِّفْعة، والتوفيقُ بيدِ اللهِ وحده.

❁ ❁ ❁

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (٤٦١١)، و«المستدرك» (٤/٥٠٧)، و«الشريعة» رقم (٩٠، ٩١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (٣٨٥٥).

٦٨

أَهَمِّيَّةُ الْعِنَايَةِ بِالْأَلْفَاظِ النَّبَوِيَّةِ فِي الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ

تقدَّمَ معنا الإشارةُ إلى عِصْمَةِ الأدعيةِ المأثورةِ في مبناها ومعناها، وسلامتِها مِنَ الخَطَأِ والزَّلَلِ في ألفاظها ودَلَالتها؛ لأنَّها وَحْيُ الله وتنزيلُه، اختارَهَا اللهُ لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ وعَلَّمَهُ إيَّاها، فعَلِمَها صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، وعَمِلَ بها على التمامِ والكمال، وبلَّغها أُمَّتَهُ البلاغَ المبين، وتلقَّاها عنه صحبُهُ الكرامُ خيرَ تَلَقٍّ، فعَمِلُوا بها، واجتهدوا في تطبيقها وعِمَارةِ الأوقاتِ بها، **ثُمَّ بلَّغوها مَنْ وراءَهم وافيةً تامَّةً بحروفها وألفاظها**، فكان لهم بذلكَ الحظُّ الأوفرُ، والنصيبُ الأكملُ مِنْ قوله ﷺ: (**نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا**)[١].

ولعلَّنا نقفُ وَقْفة، نَتأمَّلُ فيها حِرْصَ الصحابةِ ﷺ على ضبطِ الأدعيةِ النبويَّةِ وتَعَلُّمِها، وحِرْصَ النبيِّ ﷺ على توجيههم وتسديدِهم فيها.

* **فمِنْ ذلك**: ما ورَدَ في عِدَّةِ أحاديثَ مُتعلِّقةٍ بالذِّكْرِ والدعاءِ: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُعَلِّمهم إيَّاها كما يُعَلِّمُهُمُ السورةَ مِنَ القرآنِ الكريم.

منها: ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن ابن عباس ﷺ: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يُعلِّمهم هذا الدعاءَ كما يُعلِّمهم السورةَ من القرآن، يقول: (**اللَّهُمَّ، إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ،**

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٤٣٧)، (٤/ ٨٠)، وأبو داود رقم (٣٦٦٠)، والترمذي رقم (٢٦٥٧)، وابن ماجه رقم (٢٣٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٧٦٦).

وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ)»(١).

وكذلك دعاءُ الاستخارةِ؛ ففي «صحيح البخاري»، **من حديث جابر بن عبد الله** ﭬ، **قال**: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا دُعَاءَ الاستخارةِ كما يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القرآن»(٢).

قال ابن أبي جَمْرة ؒ: «التشبيهُ في تَحفُّظِ حروفه، وترتيبِ كلماته، ومنعِ الزيادةِ والنقصِ فيه، والدَّرْسِ له، والمحافظةِ عليه، ويَحتمِلُ أن يكونَ مِنْ جهةِ الاهتمامِ به، والتحقُّقِ لبركته، والاحترامِ له، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ مِنْ جهةِ كونِ كلٍّ منهما عُلِمَ بالوحي»(٣). اهـ.

* **ومِنْ ذلك أيضًا**: أنَّ الصحابةَ ﭫ كانوا يأتونه، ويَطْلُبُونَ منه أن يعلِّمهم دعاءً يَدْعُونَ به، مع أنَّهم كانوا أهلَ علمٍ وفصاحةٍ؛ ومِنْ هذا ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي بكر الصديق ﭬ، أنَّه قال لرسول الله ﷺ: «عَلِّمْنِي دُعَاءً أدعو به في صلاتي، قال: قل: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ)**»(٤)، **قال الحافظ في «الفتح»**: «وفي هذا الحديثِ مِنَ الفوائدِ أيضًا: استحبابُ طَلَبِ التعليمِ مِنَ العالِم، خصوصًا في الدعواتِ المطلوبِ فيها جوامعُ الكَلِم»(٥). اهـ.

* **ومِنْ ذلك**: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُصَوِّبُ مَنْ يخطئُ منهم، ولو في

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٥٩٠).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (١١٦٢).
(٣) «فتح الباري» (١١/ ١٨٤).
(٤) «صحيح البخاري» رقم (٨٣٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٥).
(٥) «فتح الباري» (٢/ ٣٢٠).

لفظٍ من ألفاظِ الذِّكْرِ والدعاءِ؛ كما في «الصحيحين»، من حديث البَرَاء بن عازب رضي الله عنه، قال: «قال لي رسول الله ﷺ: (**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، وَقُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الفِطْرَةِ، فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ**)، فقلتُ أستذكرهنَّ: وبِرَسُولِكَ الذي أَرْسَلْتَ، قال: (**لَا، وَبِنَبِيِّكَ الذِي أَرْسَلْتَ**)»[(١)].

قال الحافظ في «الفتح»: «وأَوْلَى ما قيلَ في الحِكْمةِ في رَدِّهِ ﷺ على مَنْ قال «الرسولُ» بدل «النبيّ»: أنَّ ألفاظَ الأذكارِ توقيفيَّةٌ، ولها خصائصُ وأسرارٌ لا يَدْخُلُها القياس، فيجبُ المحافظةُ على اللَّفْظِ الذي ورَدَتْ به»[(٢)].

* **وَمِنْ ذلكَ أيضًا**: أنَّ الإنسانَ قد يختارُ لنفسِهِ صيغةً معيَّنةً مِنَ الدعاءِ يرى أنَّ فيها تحقيقَ سعادتِهِ في الدنيا والآخرة، ويخفى عليه ما قد تَتَضَمَّنُهُ من شرٍّ أو خطرٍ؛ إمَّا في الدنيا أو الآخرة، بينما الأدعيةُ النبويةُ ليس فيها إلَّا الخيرُ والصلاحُ والسلامةُ في الدنيا والآخرة؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عادَ رَجُلًا مِنَ المسلمينَ قد خَفَتَ، فصارَ مِثْلَ الفَرْخِ، فقال له رسول الله ﷺ: (**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟**)، قال: نَعَمْ؛ كنتُ أقولُ: اللَّهُمَّ ما كنتَ مُعَاقِبِي به في الآخرةِ، فعَجِّلْهُ لي في الدنيا، فقال رسولُ الله ﷺ: (**سُبْحَانَ اللهِ! لَا تُطِيقُهُ ـ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ ـ أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**)، قال: فدعا اللهَ له فَشَفَاهُ»[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٤٧، ٦٣١١)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧١٠).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ١١٢).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٨٨).

فجمَعَ له - صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه - في هذا الدعاءِ العظيم - الذي أرشَدَهُ إليه - بين خَيْرَي الدنيا والآخرةِ، والسلامةِ فيهما مِنْ جميعِ الشرور.

* **ومِنْ ذلك أيضًا**: أنَّ الصحابةَ ﷺ كانوا يُنْكِرُونَ على مَنْ يسمعونَ منه المخالفةَ لِهَدْيِ النبيِّ ﷺ في الذِّكْرِ والدعاء. والأمثلةُ على ذلك عنهم كثيرةٌ؛ **منها**: ما رواه الترمذيُّ، والحاكم، عن نَافِعٍ «أَنَّ رَجُلًا عَطَسَ إِلَى جَنْبِ ابْنِ عُمَرَ، فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَأَنَا أَقُولُ: الحَمْدُ للهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، وَلَيْسَ هَكَذَا عَلَّمَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، عَلَّمَنَا أَنْ نَقُولَ: (**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**)»(١).

وروى أحمد، وأبو داود، وغيرُهما، عن ابن سَعْد بنِ أبي وقَّاص ﷺ، قال: سَمِعَني أبي وأنا أقولُ: «اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ الجَنَّةَ ونَعِيمَها وبَهْجَتَها، وكذا وكذا، وأعوذُ بِكَ مِنَ النارِ وسَلَاسِلِهَا وأَغْلَالِهَا وكذا وكذا، فقال: يا بُنَيَّ، إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: (**سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ**)؛ فإيَّاكَ أن تكونَ منهم، إنْ أُعْطِيتَ الجَنَّةَ أُعْطِيتَها وما فيها مِنَ الخير، وإنْ أُعِذْتَ مِنَ النارِ أُعِذْتَ منها وما فيها مِنَ الشَّرِّ»(٢).

ومثلُه ما رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرهم، عن عبد الله ابن مغفَّل ﷺ: «أنَّهُ سَمِعَ ابنَهُ يقولُ: اللَّهُمَّ، إنِّي أسألُكَ القَصْرَ الأَبْيَضَ عن يَمِينِ الجَنَّةِ إذا دَخَلْتُها، فقال: أيْ بُنِيَّ! سَلِ اللهَ الجَنَّةَ، وتَعَوَّذْ به من النارِ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (**سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ**)»(٣).

---

(١) «جامع الترمذي» رقم (٢٧٣٨)، و«المستدرك» (٤/ ٢٦٥)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (٣/ ٢٤٥).

(٢) «المسند» (١/ ١٧٢)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٨٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (١٣١٣).

(٣) «المسند» (٤/ ٨٦، ٨٧)، (٥/ ٥٥)، و«سنن أبي داود» رقم (٩٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٦٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (٨٧).

فهذه نماذجُ يسيرةٌ تُبيِّنُ مكانةَ الدعاءِ النبويّ، وأهميَّةَ العنايةِ بألفاظِهِ المأثورةِ لكمالِها ورِفْعَتِها وسَلَامتِها، ووَفَائِها بتحقيقِ أَهمِّ المطالب، وأجلِّ الغايات.

❋ ❋ ❋

٦٩

التَّحْذِيرُ مِنَ الاِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ

إنَّ مِنَ الضوابطِ المُهِمَّةِ للدُّعَاءِ: أنْ يَحْذَرَ المسلمُ أَشَدَّ الحَذَرِ مِنَ الاعتداءِ فيه. **والاعتداءُ:** هو تجاوُزُ ما ينبغي أن يُقْتَصَرَ عليه؛ يقولُ الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فأرشَدَ ـ تبارك وتعالى ـ في هذه الآيةِ الكريمةِ عبادَهُ إلى دعائِهِ الذي هو صلاحُ دينهم ودنياهم وآخرتهم، ثمَّ نهاهُمْ سبحانَهُ في هذا السياقِ عن الاعتداءِ؛ بإخبارِهِ أنَّه لا يُحِبُّ المعتدين؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الاعتداءَ مكروهٌ له، مسخوطٌ عنده، لا يُحِبُّ فاعلَهُ، ومَنْ لا يُحِبُّهُ الله، فأيَّ خيرٍ ينال؟! وأيَّ فضلٍ يُؤَمِّل؟!

ثمَّ إنَّ النهيَ عن الاعتداءِ في الآية، وإنْ كان عامًّا يَشْمَلُ كلَّ نوعٍ من الاعتداء، إلَّا أنَّه ـ لمجيئِهِ عَقِبَ الأمرِ بالدعاءِ ـ يَدُلُّ دَلَالَةً خاصَّةً على المنعِ مِنَ الاعتداءِ في الدعاءِ والتحذيرِ منه، وبيانِ أنَّ الدعاءَ المشتملَ على الاعتداءِ لا يُحِبُّهُ اللهُ من عبادِهِ ولا يرضاهُ لهم؛ **ولهذا رُوِيَ عن ابن عبَّاس** رضي الله عنهما **في قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾، **قال:** «في الدعاءِ، ولا في غيرِهِ»[(١)].

وعن قتادة في معنى الآية، قال: «اعلموا أنَّ في بعضِ الدعاءِ اعتداءً، فاجتنبوا العدوانَ والاعتداءَ إنِ استطعتُمْ، ولا قوةَ إلَّا باللهِ».

وعن الرَّبِيعِ في معنى الآية، قال: «إيَّاكَ أن تَسْأَلَ رَبَّكَ أمرًا قد نُهِيتَ عنه، أو ما ينبغي لك».

وعن ابن جُرَيْجٍ في معنى الآية، قال: «إنَّ مِنَ الدعاءِ اعتداءً؛ يُكْرَهُ رفعُ الصوتِ والنداءُ والصِّياحُ بالدعاءِ، ويُؤْمَرُ بالتضرُّعِ والاستكانة»[(٢)].

---

(١) «تفسير الطبري» (٥/٢٠٧).

(٢) **انظر هذه الآثار في:** «تفسير الطبري» (٥/٢٠٧).

وقد جاء عن النبيِّ ﷺ ما يَدُلُّ على أنَّ مِنَ الأُمَّةِ مَنْ سيقَعُ في الاعتداءِ في الدعاءِ، وهو ﷺ عندما أخبَرَ بذلكَ أخبَرَ به مُحذِّرًا منه، ناهيًا عنه، مُبيِّنًا لِخَطَرِهِ، وهذا مِنْ تَمَامِ وكمالِ نُصْحِهِ لأمَّتِهِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، وهو أيضًا مِنْ علاماتِ نُبوَّته ﷺ.

روى الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرُهم، عن عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنه: أنَّه سَمِعَ ابنَهُ يقولُ: «اللَّهُمَّ، إنِّي أسألُكَ القَصْرَ الأبيَضَ عَنْ يمينِ الجنَّةِ إذا دَخَلْتُها، فقال: أيْ بُنَيَّ! سَلِ اللهَ الجَنَّةَ، وتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النارِ؛ فإنِّي سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: (**سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ**)»[(١)].

فأخبَرَ ـ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه ـ أنَّه سيكونُ قومٌ مِنْ أُمَّتِهِ يَعْتَدُونَ في الدعاءِ ناهيًا عن ذلك، وليكونَ المسلمونَ في حِيطَةٍ وحَذَرٍ مِنَ الوقوعِ في شيءٍ منه، ولا سبيلَ إلى السلامةِ مِنْ ذلكَ إلَّا بلزوم السُّنَّةِ واقتفاءِ آثارِ الرسولِ ﷺ؛ كما قال عليه الصلاةُ والسلام: (**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**)[(٢)].

إنَّ الاعتداءَ في الدعاءِ بابٌ واسعٌ، ومَهْيَعٌ فجٌّ؛ إذْ هو ـ كما تَقَدَّمَ تعريفُهُ ـ: تَجَاوُزُ ما ينبغي أن يُقْتَصَرَ عليه؛ وعلى هذا: فكلُّ مخالفةٍ للسُّنَّة ومفارقَةٍ للهَدْيِ النبويِّ الكريمِ في الدعاءِ يُعَدُّ اعتداءً، ومِنَ المعلومِ أنَّ المخالفاتِ متنوِّعةٌ وكثيرةٌ، لا يجمعها نوعٌ واحد، ثمَّ هي أيضًا متفاوتةٌ في خطورتها، فمِنَ الاعتداءِ ما قد يبلُغُ حَدَّ الكُفر، ومنه ما هو دونَ ذلك، فمَنِ اعتدَى في دعائِهِ بأنْ دعا غيرَ اللهِ، أو سأله، أو طلَبَ منه كَشْفَ ضُرِّه، أو جَلْبَ نَفْعِه، أو شفاءَ مَرَضِه، أو نحوَ ذلك، فقد وقَعَ في أعظمِ أنواعِ الاعتداءِ في الدعاءِ وأشدِّها خطرًا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) تقدَّم تخريجه (ص٣٠٧).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٧)، وأبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه رقم (٤٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح جامع الترمذي» رقم (٢١٥٧).

ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، **وحاصلُ كلام المفسِّرين في معنى هذه الآية:** أنَّ اللهَ تعالى حكَمَ بأنَّه لا أضلَّ مِمَّنْ يدعو مِنْ دونِ اللهِ مَنْ لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة، ومعنى الاستفهامِ في الآيةِ إنكارُ أن يكونَ في الضُّلَّالِ كلِّهم أبلغُ ضلالًا مِمَّنْ عَبَدَ غيرَ اللهِ ودعاه؛ حيثُ يترُكُ دعاءَ السميعِ المجيبِ القدير، ويدعو مِنْ دونِهِ الضعيفَ العاجزَ الذي لا قُدْرةَ له على الاستجابةِ؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤]؛ فهذا أخطرُ أنواعِ الاعتداءِ في الدعاءِ، وأشدُّها ضررًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «فهؤلاءِ أعظمُ المُعْتَدِينَ عدوانًا؛ فإنَّ أعظمَ العدوانِ الشركُ، وهو وَضْعُ العبادةِ في غيرِ موضعها؛ فهذا العدوانُ لا بدَّ أن يكون داخلًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]»(١).

وأيُّ اعتداءٍ أعظمُ وأشدُّ مِنْ هذا، أنْ يَصرِفَ العبدُ حقَّ اللهِ الخالصَ الذي لا يجوزُ أن يُصْرَفَ لأحدٍ سواهُ إلى مخلوقٍ لا يَمْلِكُ لنفسِهِ ضرًّا ولا رَشَدًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فضلًا عن أن يَمْلِكَ شيئًا مِنْ ذلك لغيره؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

وما مِنْ ريبٍ أنَّ هذا هو أعظمُ العدوان، وأشدُّ الانحرافِ والطُّغْيان، نسألُ اللهَ العافيةَ والسلامة.

❁ ❁ ❁

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٣).

٧٠

مِنَ الاعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ

إنَّ مِمَّا ينبغي للمسلم أن يَتنبَّهَ له في أمرِ الدعاءِ **أنْ يَحْذَرَ غايةَ الحَذَرِ من الاعتداءِ فيه**، فإنَّ اللهَ جلَّ وعلَا لمَّا أمَرَ عبادَهُ في آيةِ الأعرافِ بالدعاءِ تَضرُّعًا وخُفيَةً، أخبَرَ في أثناءِ ذلكَ بأنَّه لا يحبُّ المعتدين؛ وذلكَ في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وهذه الآيةُ الكريمةُ، وإنْ كان التحذيرُ فيها مِنَ الاعتداءِ، وَرَدَ بصيغةِ العمومِ متناولًا لكلِّ نوعٍ من أنواعِ الاعتداء، إلَّا أنَّ تناولَها للتحذير مِنَ الاعتداءِ في الدعاءِ أكثرُ لِمَجيئِها في سياقِ الأمرِ به، وذِكرِ شروطِهِ وآدابه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: قيل: المرادُ: إنَّه لا يُحِبُّ المعتدينَ في الدعاء، كالذي يَسْأَلُ ما لا يليقُ به من منازلِ الأنبياءِ وغير ذلك، وقد روى أبو داود في «سننه»، عن عبد الله بنِ مغفَّل: أنَّه سَمِعَ ابنَهُ يقولُ: «اللَّهُمَّ إنِّي أسأَلُكَ القَصرَ الأَبْيَضَ عن يمينِ الجَنَّةِ إذا دَخَلْتُها، فقال: أَيْ بُنيَّ! سَلِ اللهَ الجَنَّةَ، وتَعوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (**سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطُّهُورِ وَالدُّعَاءِ**)»[1].

ثمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنْ كان الاعتداءُ مرادًا بها، فهو مِنْ جملةِ المرادِ، واللهُ لا يحبُّ المعتدينَ في كلِّ شيء، دعاءً كان أو غيرَهُ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]»[2]. اهـ.

وعلى هذا، فإنَّ الآيةَ الكريمةَ تكونُ دَالَّةً على أمرَيْن اثنَيْن:

أحدهما: محبوبٌ إلى اللهِ، مُرغَّبٌ فيه، وهو دعاءُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ تضرُّعًا وخُفْيَةً.

---

(١) تقدَّم تخريجه (ص٣٠٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٢ ـ ٢٣).

والثاني: مكروهٌ له، مسخوطٌ عنده، مُحَذَّرٌ منه أشدَّ التحذير، وهو الاعتداءُ، فأَمَرَ بما يُحبُّه، ونَدَبَ إليه، ورغَّبَ فيه، وحَذَّرَ مما يُبْغِضُه، وزجَرَ عنه بما هو أبلغُ طرقِ الزجرِ والتحذير، وهو إخبارُهُ سبحانَهُ بأنَّه لا يُحِبُّ فاعلَهُ، ومَنْ لا يحبُّهُ الله، فأيَّ خيرٍ ينالُ؟! وأيَّ فضلٍ يُؤَمِّل[(١)]؟!

۞ **ومن هنا كان مُتَأَكِّدًا على كلِّ مسلم أنْ يكونَ في حذرٍ بالغٍ وحَيْطةٍ كاملةٍ مِنَ الاعتداءِ في الدعاءِ بتجاوزِ حدِّ الشَّريعةِ فيه، والبعدِ عن ضوابطِهِ وأصولِهِ المعلومة.** والاعتداءُ مشتقٌّ مِنَ العُدْوان، وهو تجاوُزُ ما ينبغي أن يُقتَصَرَ عليه مِنْ حدودِ الشريعةِ وضوابطها المعلومة؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ **أي**: إنَّ ما فصَّلَهُ اللهُ سبحانه لعبادِهِ من الشرائع والأحكام يجبُ ملازمتُهُ، والوقوفُ عنده، وعدمُ تعدِّيه؛ ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾ [الطلاق: ١]، وأيُّ ظلمٍ للنفسِ أنكى وأشدّ مِنْ تجاوزِ الحدودِ الشرعيَّة، وضوابِطِها المهمَّةِ المتَّبَعة؟!

ثمَّ كيف يُؤَمِّلُ في الإجابةِ ويَطْمَعُ في القَبُولِ مَنْ يتجاوزُ في دعائِهِ ضوابطَ الشريعة، ويَتعدَّى حدودَها المُقَرَّرة؟! فالدعاءُ المُعْتَدَى فيه لا يحبُّهُ الله ولا يرضاه، فكيف يُؤَمِّلُ صاحبُهُ أن يُستجابَ منه ويُقبلَ؟!

والاعتداءُ في الدعاء يتناولُ أمورًا عديدةً متفاوتةً في الخطورةِ والبُعْدِ عن الحقِّ والاعتدال، إلَّا أنَّ أشدَّ الاعتداءِ خطرًا، وأعظمَهُ ضررًا على صاحبِهِ دعاءُ غيرِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ ذلكَ أعظمُ العدوان، وأقبحُ الذُّلِّ والهوان؛ إذْ كيف يَتوجَّهُ المخلوقُ بدعائِهِ ورجائِهِ وذُلِّهِ وخضوعِهِ إلى مخلوقٍ مثلِهِ لا يُعْطِي ولا يمنع، ولا يَخْفِضُ ولا يَرْفَع، ويَدَعُ مَنْ بيده أَزِمَّةُ الأمورِ ومقاليدُ السمٰوات والأرض؛ ولهذا فإنَّ مَنْ يدعو غيرَ اللهِ وهو يُؤَمِّلُ أنْ يُستجابَ له قد بلَغَ النهايةَ في الضلال، ولم يَحْصُلْ مِنْ ذلكَ إلَّا على الخَيْبةِ والحِرْمان، والذُّلِّ والخُسْران في الدنيا والآخرة؛ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٥/ ٢٣ ـ ٢٤).

* **ومِنَ الاعتداءِ في الدعاء**: سؤالُ اللهِ ﷻ ما لا يجوزُ أن يُسْأَلَهُ مِنَ المعونةِ على فعلِ المُحَرَّمات، وارتكابِ الذنوب، وغِشْيانِ المعاصي؛ كأنْ يَسْأَلَ اللهَ أن يُعِينَهُ على سَفَرٍ يريدُ به الإثمَ والباطلَ، أو أنْ يُيَسِّرَ له طريقًا للفاحشةِ والعدوان.

* **ومِنَ الاعتداءِ في الدعاء**: أنْ يَسْأَلَ اللهَ ما عُلِمَ مِنْ حكمتِهِ سبحانه أنَّه لا يفعلُهُ؛ كأنْ يَسْأَلَهُ تخليدَهُ إلى يومِ القيامة، أو أنْ يَسْأَلَهُ أنْ يَرْفَعَ عنه لوازمَ البشريَّةِ مِنَ الحاجةِ إلى الطعامِ والشرابِ والهواء، أو أنْ يَسْأَلَهُ إطلاعَهُ على غَيْبِهِ وما استأثَرَ سبحانه بِعِلْمه، أو أن يسألَهُ أن يَجْعَلَهُ مِنَ المعصومين، أو أن يَهَبَ له ولدًا مِنْ غيرِ زَوْجة، ونحوَ ذلك مِمَّا سؤالُهُ اعتداءٌ لا يحبُّهُ اللهُ ولا يحبُّ فاعلَهُ[1].

* **ومِنَ الاعتداءِ في الدعاء**: سؤالُ اللهِ ما لا يليقُ بالسائلِ مِنَ المنازلِ والدرجات، كأنْ يَسْأل اللهَ منازلَ الأنبياءِ والمرسَلين، أو يكونَ ملَكًا، أو نحوَ ذلك.

* **وكذلك مِنَ العدوانِ في الدُّعاء**: أن يدعوَ اللهَ غيرَ متضرِّعٍ، بل دعاءُ هذا يكون كالمستغنِي المُدِلِّ على ربِّه.

* **ومِنَ الاعتداء**: أن يَعْبُدَهُ بما لم يَشْرَع، ويُثْنِي عليه بما لَمْ يُثْنِ به على نفسِهِ ولا أذِنَ فيه.

* **ومِنَ الاعتداءِ في الدعاءِ كذلك**: الدعاءُ على المؤمنينَ باللَّعْنَةِ والخِزْيِ والهوان؛ **قال بعضُ السَّلَفِ في معنى المعتدين في الآيةِ المتقدِّمة**: «هم الذين يدعون على المؤمنينَ فيما لا يَحِلُّ، فيقولون: اللَّهُمَّ أَخْزِهِمْ، اللَّهُمَّ الْعَنْهُمْ»[2].

وجاء عن سعيد بن جُبَيْر في معنى الآية، قال: «لا تدعوا على المؤمنِ والمؤمنةِ بالشَّرِّ: اللَّهمَّ أَخْزِه والْعَنْهُ ونحو ذلك؛ فإنَّ ذلك عدوانٌ»[3].

---

(١) **انظر**: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٥/ ٢٢).
(٢) «تفسير البغوي» (٢/ ١٦٦).
(٣) رواه ابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٧٥).

* **ومِنَ الاعتداءِ**: رفعُ الصوتِ به رفعًا يُخِلُّ بالأدب؛ **قال عبد المَلِك بنُ عبد العزيز بن جُرَيْج** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ مِنَ الدعاءِ اعتداءً: يُكْرَهُ رفعُ الصوتِ والنداءُ والصياحُ بالدعاء، ويؤمَرُ بالتضرُّعِ والاستكانة»[(١)].

وعمومًا: فإنَّ الإنسانَ بِحَسَبِ مفارقتِهِ للسُّنَّة، وابتعادِهِ عن هَدْيِ خيرِ الأمة محمَّدِ بن عبد الله صلواتُ الله وسلامُهُ عليه: يكونُ نصيبُهُ من الاعتداءِ والتجاوز، ومَنْ لزِمَ هديَ النبيِّ الكريمِ ﷺ، وتقيَّدَ بسنَّتِهِ، أَمِنَ مِنَ الزَّلَل، وحُفِظَ بإذنِ الله من الخَطَل.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنَّما اشتَغَلَتْ قلوبُ طوائفَ من الناسِ بأنواعٍ من العباداتِ المبتدَعة: إمَّا بالأدعية، وإمَّا مِنَ الأسفار، وإمَّا من السماعاتِ، ونحو ذلك؛ لإعراضِ قلوبهم عن المشروع، وإنْ قاموا بصورةِ المشروع، وإلَّا فمَنْ أقبَلَ على الصلواتِ الخمس بوجهِهِ وقَلْبه، عاقلًا لِمَا اشتَمَلَتْ عليه مِنَ الكَلِمِ الطيِّب والعملِ الصالح، مهتمًّا بها كلَّ الاهتمام، أَغْنَتْهُ عن كلِّ ما يَتوهَّمُ فيه خيرًا مِنْ جنسها، ومَنْ أصغى إلى كلامِ اللهِ وكلامِ رسولِهِ ﷺ بعقله، وتَدبَّرَ بقلبِهِ وجَدَ فيه مِنَ الفهمِ والحلاوةِ والهدى وشفاءِ القلوبِ والبركةِ والمنفعةِ ما لا يجدُهُ في شيءٍ مِنَ الكلام؛ لا منظومِهِ، ولا منثوره، ومَن اعتادَ الدعاءَ المشروعَ في أوقاته؛ كالأسحارِ وأدبارِ الصلواتِ والسجودِ ونحوِ ذلك، أغناه عن كلِّ دعاءٍ مُبْتدَعٍ في ذاته، أو في بعضِ صفاته، فعلى العاقلِ أن يجتهدَ في اتِّباعِ السُّنَّة في كلِّ شيء مِنْ ذلك، ويعتاضَ عن كلِّ ما يَظُنُّ مِنَ البدع أنَّه خيرٌ بنوعِهِ من السُّنَن؛ فإنَّه مَنْ يتحرَّ الخيرَ يُعْطه، ومَنْ يَتوقَّ الشرَّ يُوقَه»[(٢)]. اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهو ـ كما ترى ـ كلامٌ عظيمُ النفع، جليلُ الفائدةِ مِنْ هذا الإمامِ الجليلِ رَحِمَهُ اللَّهُ وأسكنَهُ الجَنَّةَ وجزاهُ عن الإسلامِ والمسلمينَ خَيْرَ الجزاءِ وأَوْفَره.

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير الطبري» (٥/ ٢٠٧).
(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٣٨٤).

٧١

مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ: إِخْفَاؤُهُ

مَرَّ معنا قولُ اللهِ تبارَكَ وتعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وما فيه مِنْ نهيٍ وتحذيرٍ مِنَ الاعتداءِ في الدعاءِ بجميعِ صُوَرِه، وأنَّ الدعاءَ الذي يَتضمَّنُ الاعتداءَ لا يُحِبُّهُ الله، ولا يرضاهُ، ولا يَقْبَلُه؛ مِمَّا يتطلَّبُ من المسلمِ الحِيطَةَ والحذَرَ مِنَ الوقوعِ في شيءٍ من ذلك.

والآيةُ الكريمةُ ـ مع هذا ـ تَضمَّنتْ أيضًا بيانَ أدبٍ آخَرَ عظيمٍ من آدابِ الدعاءِ، **ألا وهو إخفاؤُهُ وإسرارُهُ وعدمُ الجهرِ به**، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾؛ أي: سِرًّا لا عَلَنًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقد ثبَتَ في «الصحيحين»، عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، قال: «رفَعَ الناسُ أصواتَهُمْ بالدُّعَاءِ، فقال رسولُ الله ﷺ: **(أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)**»[(١)].

قال الحسنُ البصريُّ رحمه الله: «لقد أَدْرَكْنا أقوامًا ما كان على الأرضِ من عَمَلٍ يَقْدِرُونَ أن يعملوه في السرِّ، فيكونَ علانيةً أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدونَ في الدعاءِ وما يُسْمَعُ لهم صوتٌ، إنْ كان إلَّا همسًا بينهم وبين ربِّهم عز وجل؛ وذلك أنَّ الله تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾؛ وذلك أنَّ اللهَ ذَكَرَ عبدًا صالحًا رَضِيَ فِعْلَه؛ فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣]»[(٢)].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٤٩).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (ص٤٥)، و«تفسير الطبري» (٥/ ٥١٤).

وقال ابن جُرَيْج رَحِمَهُ اللَّهُ: «يكرهُ رفعُ الصوتِ والنداءُ والصياحُ في الدعاء، ويؤمرُ بالتضرُّعِ والاستكانة»(١).

فإخفاءُ الدعاءِ وعَدَمُ الجهرِ به أدبٌ لا بُدَّ منه، ويَترتَّبُ عليه مِنَ الفوائدِ والفضائلِ والمنافعِ ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، **وقد ذكَرَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ **لإخفاءِ الدعاءِ فوائدَ عديدةً يَتبيَّنُ مِنْ خلالها أهميَّةُ إخفاءِ الدعاءِ، وكثرةُ العوائدِ والفضائلِ المترتِّبةِ على إخفائِه**:

أحدها: أنَّه أعظمُ إيمانًا؛ لأنَّ صاحبَهُ يَعْلَمُ أنَّ اللهَ يسمعُ الدعاءَ الخفيَّ.

وثانيها: أنَّه أعظمُ في الأدب والتعظيمِ، فإذا كان يسمعُ الدعاءَ الخفيَّ، فلا يليقُ بالأدبِ بين يديه إلَّا خفضُ الصوتِ به.

ثالثها: أنَّه أبلغُ في التضرُّعِ والخشوع، الذي هو رُوحُ الدعاءِ ولُبُّهُ ومقصودُه؛ فإنَّ الخاشعَ الذليلَ إنَّما يَسْأَلُ مسألةَ مسكينٍ ذليلٍ، قد انكسَرَ قلبُهُ، وذَلَّتْ جوارحُهُ، وخشَعَ صَوْتُهُ.

رابعها: أنَّه أبلغُ في الإخلاص.

خامسها: أنَّه أبلغُ في جَمْعِيَّةِ القَلْبِ على الذِّلَّةِ في الدعاءِ؛ فإنَّ رفعَ الصوتِ يفرِّقه، فكلَّما خفَضَ صوتَهُ كان أبلغَ في تجريدِ هِمَّتِهِ وقصدِهِ للمدعوِّ سبحانه.

سادسها: أنَّه دالٌّ على قُرْبِ صاحبِهِ للقريب، لا مسألةَ نداءِ البعيدِ للبعيد؛ ولهذا أثنى اللهُ على عبدِهِ زكريَّا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، فلمَّا استحضَرَ القلبُ قُرْبَ اللهِ ﷻ، وأنَّه أقربُ إليه مِنْ كلِّ قريبٍ، أخفى دعاءَهُ ما أمكنَهُ.

سابعها: أنَّه أَدْعَىٰ إلى دوامِ الطلبِ والسؤال؛ فإنَّ اللسانَ لا يَمَلُّ، والجوارحَ لا تتعب، بخلافِ ما إذا رفَعَ صوتَه؛ فإنَّه قد يَمَلُّ اللسانُ، وتَضْعُفُ قواه،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣١٥).

وهذا نظيرُ مَنْ يقرأُ ويكرِّر، فإذا رفَعَ صوتَهُ؛ فإنَّه لا يطولُ له، بخلاف مَنْ خفَضَ صوتَه.

ثامنها: أنَّ إخفاءَ الدعاءِ أبعدُ له مِنَ القواطعِ والمشوِّشات؛ فإنَّ الداعيَ إذا أخفى دعاءَهُ لَم يَدْرِ به أحدٌ؛ فلا يَحْصُلُ على هذا تشويشٌ ولا غيرُهُ، وإذا جَهَرَ به فرَطَتْ له الأرواحُ البشريَّةُ ولا بُدَّ، ومانَعَتْهُ وعارَضَتْه، ولو لَمْ يكنْ إلَّا أنَّ تَعَلُّقَهَا به يُفْزِعُ عليه هِمَّتَهُ، فيَضْعُفُ أثرُ الدعاء، ومَنْ له تجربةٌ يعرفُ هذا، فإذا أَسَرَّ الدعاءَ أَمِنَ هذه المفسدةَ.

تاسعُها: أنَّ أعظَمَ النعمةِ الإقبالُ والتعبُّدُ، ولكلِّ نعمةٍ حاسدٌ على قَدْرِها، دقَّتْ أو جَلَّت، ولا نعمةَ أعظمُ مِنْ هذه النعمةِ؛ فإنَّ أَنْفُسَ الحاسدينَ متعلِّقةٌ بها، وليس للمحسودِ أسلمُ مِنْ إخفاءِ نعمتِهِ عن الحاسدِ، وقد قال يعقوبُ لِيُوسُفَ عليه السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ الآيةَ [يوسف: ٥].

فهذه جملةٌ من الفوائدِ العظيمةِ، والثمارِ الكريمةِ، التي تَترتَّبُ على إخفاءِ الذِّكرِ وعَدَمِ الجهرِ به، ومِنْ خلالها يظهرُ للمسلم أهميَّةُ إخفاءِ الدعاءِ وإسرارِه، بخلافِ الجهرِ به وإعلانِه؛ فإنَّه يَترتَّبُ عليه ضِدُّ ذَلك.

ثمَّ إنَّ شيخَ الإسلام رحمه الله عقَدَ مقارنةً مفيدةً بين الذِّكْرِ والدعاءِ في هذا الباب، بعدَ أنْ بَيَّنَ أنَّ كلَّ واحدٍ من الدعاءِ والذِّكْر يَتضمَّنُ الآخَرَ ويدخُلُ فيه، قال رحمه الله: «وتَأَمَّلْ كيفَ قال [تعالى] في آيةِ الذِّكْرِ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفي آيةِ الدعاءِ قال: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، فذكَرَ التَّضرُّعَ فيهما معًا، وهو التذلُّلُ والتمسكنُ والانكسارُ، وهو رُوحُ الذِّكرِ والدعاءِ.

وخصَّ الدعاءَ بالخُفْيَة؛ لِمَا ذَكَرْنا مِنَ الحِكَم وغيرِها، وخصَّ الذِّكْرَ بالخِيفَةِ؛ لحاجةِ الذَّاكِرِ إلى الخوف؛ فإنَّ الذِّكْرَ يستلزمُ المحبَّةَ ويُثْمِرُها، ولا بدَّ لِمَنْ أكثرَ مِنْ ذكرِ اللهِ أن يُثْمِرَ له ذلك مَحَبَّتَه، والمحبَّةُ ما لم تقترنْ بالخوفِ

فإنَّها لا تنفعُ صاحبَها، بل تَضُرُّه؛ لأنَّها توجبُ التواني... فما حُفِظَتْ حدودُ اللهِ ومحارمُهُ، ووصَلَ الواصلون إليه بمثلِ خوفِهِ ورجائِهِ ومَحَبَّتِه، فمتى خلا القلبُ مِنْ هذه الثلاثِ فسَدَ فسادًا لا يُرْجَى صلاحُه أبدًا، ومتى ضَعُفَ فيه شيءٌ من هذه ضَعُفَ إيمانُهُ بِحَسَبه، فتأمَّلْ أسرارَ القرآنِ وحكمتَهُ في اقترانِ الخِيفَةِ بالذِّكْرِ، والخُفْيَةِ بالدعاء.

... وذكَرَ الطمعَ الذي هو الرجاءُ في آيةِ الدعاءِ؛ لأنَّ الدعاءَ مبنيٌّ عليه؛ فإنَّ الداعيَ ما لَمْ يَطْمَعْ في سؤالِهِ ومطلوبِهِ لَمْ تتحرَّكْ نفسُهُ لطلبه؛ إذ طَلَبُ ما لا طَمَعَ له فيه ممتنعٌ.

وذَكَرَ الخوفَ في آيةِ الذِّكْرِ لشدَّةِ حاجة الذاكر[1] إليه، فذكَرَ في كلِّ آيةٍ ما هو اللائقُ بها مِنَ الخوفِ والطمعِ، فتباركَ مَنْ أنْزَلَ كلامَهُ شفاءً لِمَا في الصدور»[2]. اهـ كلامُه رَحِمَهُ اللهُ.

وإذا كان الجهرُ بالدعاءِ يَترتَّبُ عليه ما تَقدَّمَ مِنْ فواتٍ لتلكَ المصالحِ والفوائدِ إنْ كان صادرًا مِنْ فردٍ، فلا ريبَ أنَّ صُدُورَهُ مِنْ جماعةٍ وبأداءٍ واحدٍ أبلغُ في تفويتِ تلكَ المصالحِ والفوائدِ المترتِّبةِ عليه. وكان السلفُ رحمهم الله يَعُدُّونَ ذلك نوعًا مِنَ الإحداثِ في الدِّين، والخروجِ عن نهجِ سيِّدِ المُرْسَلين.

رُوِيَ عن مُجَالدِ بنِ مسعودٍ السُّلَميِّ رضي الله عنه: «أنَّه سمعَ قومًا يَعُجُّونَ في دعائهم، فمشى إليهم، **فقال**: أيُّها القومُ، لقد أَصَبْتُمْ فَضْلًا على مَنْ كان قَبْلَكم أو لقد هَلَكْتُمْ. فجَعَلُوا يَتسلَّلونَ رجلًا رجلًا حتى تَرَكُوا بُقْعَتَهم التي كانوا فيها»[3].

فاللهُ وحده المستعان، وهو وليُّ التوفيقِ والسداد.

❁ ❁ ❁

(١) في الأصل «الخائف» وهو تصحيف لدلالة ما قبله عليه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٩ ـ ٢٢).

(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٧٥).

٧٢

أَنْوَاعُ التَّوَسُّلِ الْمَشْرُوعِ

إنَّ مِنْ آدابِ الدعاءِ العظيمةِ التوسُّلَ إلى اللهِ تبارَكَ وتعالى بين يَدَيِ الدعاء بما شرَعَهُ وأحبَّهُ ورضيَهُ لعباده وسيلةً تقرِّبُهم إليه؛ يقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؛ **أي**: القُرْبَةَ. ومِنَ المعلومِ أنَّ التوسُّلَ إلى اللهِ والتقرُّبَ إليه وطلَبَ مرضاتِهِ إنَّما يكون بما أَحَبَّ وَشَرَعَ، لا بالأهواءِ والبدع، وهذا بابٌ مهمٌّ للغايةِ ينبغي للمسلم أنْ يتفطَّنَ له، وأن يَحْذرَ من الوقوعِ في المخالفةِ فيه؛ إذْ إنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يقعُ في هذا البابِ في مخالفاتٍ عديدةٍ، وانحرافاتٍ متنوِّعةٍ، وهو يَظُنُّ أنَّ ما يفعلُهُ أمرٌ يُقرِّبُهُ إلى الله، ووسيلةٌ تدنيه منه، إلَّا أنَّ التوسُّلَ إلى اللهِ والتقرُّبَ إليه لا يكونُ نافعًا للعبدِ مقبولًا عندَ اللهِ إلَّا إذا كان مشروعًا قد دَلَّ على مشروعيَّتِهِ كتابُ اللهِ وسُنَّةُ رسولِهِ ﷺ، **وعندَ التأمُّلِ للنصوصِ في هذا نجدُ أنَّها قد دَلَّتْ على أنواعٍ معيَّنةٍ يُشْرَعُ للعبادِ أن يَتوسَّلُوا إلى الله بها؛ وهي**:

أولًا: التوسُّلُ إلى الله بأسمائِهِ الحسنى الواردةِ في كتابِهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠].

* **ومن أمثلة هذا النوع**: قولُهُ تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرِ السورة، فقَدَّم بين يدي الدعاء؛ وهو قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الثناءَ على الله بِذِكْرِ أسمائِهِ الحسنى العظيمة.

* **ومِنْ ذلك أيضًا**: قولُ الداعي: يا رحمانُ ارحمني، أو: يا غفورُ اغفرْ لي، أو: يا رَزَّاقُ ارزقني، ونحوُ ذلك مِنَ التوسُّلاتِ إلى اللهِ بأسمائِهِ الحسنى.

ثانيًا: التوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بالأعمالِ الصالحةِ التي يقومُ بها العبدُ؛ كأنْ يَتوسَّلَ إلى اللهِ بالإيمانِ به، وطاعتِهِ، واتِّباعِ رسولِهِ ﷺ، ومحبَّتِهِ.

* **ومن هذا النوع**: قولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، وقولُه: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

* **ومن ذلك**: تَوَسُّلُ النَّفَرِ الثلاثةِ بأعمالهم عندما انطَبَقَتْ عليهم الصخرةُ وهم في الغار، فاستجابَ اللهُ دعاءَهم وفَرَّجَ هَمَّهم؛ روى البخاريُّ ومسلم، عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: (**بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ، أَخَذَهُمُ المَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَىٰ غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً للهِ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ، إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَإِنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُّهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ.**

وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ، إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ

النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ.

وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ، قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ، فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ البَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ البَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، ففرج اللهُ مَا بَقِيَ)[١].

فهؤلاءِ تَوسَّلَ كلٌّ واحدٍ منهم إلى اللهِ تعالى بعملٍ صالحٍ يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاه؛ فكان ذلكَ سببًا لإجابةِ دعائهم، وتحقيقِ رجائهم، وكَشْفِ كُرْبَتِهِم.

ثالثًا: التوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بدعاءِ الصالحينَ الأحياء، بأنْ يَطْلُبَ المسلمُ مِنْ أخيه الحيِّ الحاضرِ أنْ يَدْعُوَ اللهَ له؛ فهذا النوعُ مِنَ التوسُّلِ مشروعٌ؛ لثبوتِهِ عن بعضِ الصحابةِ مع النبيِّ ﷺ؛ حيثُ كان بعضُهم يأتيه صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، ويطلُبُ منه الدعاءَ له أو لعمومِ المسلمين.

* **ومن ذلك**: ما ثبَتَ في «الصحيحين»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنَّ أعرابيًّا قام يومَ الجُمُعةِ والنبيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فقال: يا رسولَ اللهِ! هلَكَ المالُ، وجاعَ العيالُ، فَادْعُ اللهَ لنا، فرفَعَ يديه ـ وما نَرَى في السماءِ قَزَعَةً ـ فوالذي نفسي بيدِهِ! ما وضَعَهَا حتى ثَارَ السَّحَابُ أمثالَ الجِبالِ، ثمَّ لَمْ يَنزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حتى رأيتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ على لِحْيَتِهِ ﷺ...»[٢]، إلى آخر الحديث.

* **ومثلُهُ كذلك**: توسُّلُ الصحابةِ رضي الله عنهم بدعاءِ العَبَّاسِ رضي الله عنه، وهو في

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٣٣٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٩٣٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٧).

«صحيح البخاري»، من حديث أنس ﵁: «أنَّ عُمَرَ بن الخَطَّابِ ﵁ كان إذا قُحِطُوا، اسْتَسْقَى بِالعَبَّاسِ بْن عَبْدِ المُطَّلِبِ، فقال: اللَّهُمَّ، إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا ﷺ فَتَسْقِينَا، وإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نبيِّنا فَاسْقِنَا، قال: فَيُسْقَوْنَ»[١].

والمرادُ بقوله: «إِنَّا نَتَوَسَّلُ إليكَ بِعَمِّ نبيِّنا»؛ **أي**: بدعائِهِ.

فهذه الأنواعُ الثلاثةُ مِنَ التوسُّلِ كلُّها مشروعةٌ؛ لِدَلَالةِ نصوصِ الشرعِ عليها، وأمَّا ما سوى ذلكَ مما لا أصلَ له، ولا دليلَ على مشروعيَّتِهِ، فينبغي على المسلمِ أنْ يَجْتَنِبَهُ، واللهُ الموفِّق.

❁ ❁ ❁

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠١٠).

٧٣

التَّحْذِيرُ مِنَ الانْحِرَافِ فِي فَهْمِ مَعْنَى التَّوَسُّلِ

تَقدَّمَ الحديثُ عن التوسُّلِ أو ابتغاءِ الوسيلةِ إلى اللهِ، وهو لفظٌ شرعيٌّ وَرَدَ في القرآنِ الكريمِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وهذه الوسيلةُ التي أَمَرَ اللهُ أن تُبْتَغَى إليه، وأَخْبَرَ عن ملائكتِهِ وأنبيائِهِ أنَّهم يَبْتغُونَهَا إليه، هي ما يُتقرَّبُ به إليه مِنَ الواجباتِ والمستحبَّات، وما ليس بواجبٍ ولا مستَحبٍّ لا يدخُلُ في ذلك؛ سواءٌ كان مُحرَّمًا أو مكروهًا أو مباحًا.

والواجبُ والمستحبُّ هو ما شرَعَهُ الرسولُ ﷺ، فأمَرَ به أمرَ إيجابٍ أو استحبابٍ، وأصلُ ذلكَ الإيمانُ بما جاءَ به الرسولُ ﷺ؛ ولهذا يُمكنُ أن يُقال: **إنَّ جماعَ الوسيلةِ التي أمَرَ اللهُ الخَلْقَ بابتغائها هو التوسُّلُ إليه بِاتِّباعِ ما جاءَ به الرسولُ ﷺ، لا وسيلةَ لِأَحدٍ إلى اللهِ إلَّا بذلك.**

وسبَقَ الإشارةُ إلى أنواعٍ ثلاثةٍ مِنَ التوسُّلِ قامَ الدليلُ على مَشْروعيَّتِها في دعاءِ المسلمِ لربِّه، وهي التوسُّلُ إلى اللهِ بأسمائِهِ، والتوسُّلُ إليه بالأعمالِ الصالحة، والتوسُّلُ إليه بدعاءِ الصالحينَ الأحياءِ. لكنْ ينبغي على المسلمِ أنْ يعلمَ أنَّ لفظَ «الوسيلةِ» و«التوسُّلِ» صارَ فيه إجمالٌ واشتباهٌ في إطلاقاتِ الناسِ وفُهُومِهِمْ؛ بسببِ كثرةِ الأهواء، وانتشارِ البدع؛ ولهذا فإنَّ الواجبَ أن تُعْرَفَ معانيه ويُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، فيُعْرَفَ ما وَرَدَ به الكتابُ والسُّنَّةُ مِنْ ذلكَ ومعناه، وما كان يَتكلَّمُ به الصحابةُ ويفعلونَهُ من ذلك، وأيضًا ينبغي أن يُعْرَفَ ما أحدَثَهُ المُحْدِثُونَ في هذا اللفظِ ومعناه؛ إذْ إنَّ المفاهيمَ الخاطئةَ في هذا البابِ قد كَثُرتْ، والأهواءَ والبدعَ فيه عَمَّتْ وانتشَرَتْ، فأُدْخِلَ في معنى التوسُّلِ

أمورٌ كثيرةٌ مُحْدَثةٌ لا أَصْلَ لها ولا أُسُس، لَمْ تكنْ موجودةً زمنَ النبيِّ ﷺ، ولم تكنْ معروفةً في شيءٍ مِنَ الأدعيةِ المشهورةِ بينهم.

وأخطرُ ما كان ويكونُ في هذا الأمرِ: هو دعاءُ الأمواتِ والغائبين، والاستغاثةُ بهم، وسُؤَالُهم، وإنزالُ الحوائجِ بهم، وطَلَبُهُمْ قضاءَ الحاجات، وكَشْفَ الكُرُبات، وشفاءَ المرضى، ونحوَ ذلك، وتسميةُ ذلك توسُّلًا، فجعَلَ هؤلاءِ لفظَ التوسُّلِ مُتَّكأً لهم، نَشَرُوا مِنْ خلالِهِ هذه الأمورَ الكُفْرِيَّة، والضلالاتِ الخطيرة. وحقيقةُ هذه الأمورِ: أنَّها توسُّلٌ إلى الشيطان، لا إلى الرحمٰن، وإلى الضلالِ والباطل، لا إلى الحقِّ والهُدَى؛ إذْ هي من الشركِ الأكبرِ الناقلِ من المِلَّةِ، والعياذُ بالله.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنْ قال: أنا أسألُهُ لكونِهِ أقربَ إلى اللهِ منِّي؛ لِيَشْفَعَ لي في هذه الأمور؛ لأنِّي أَتَوَسَّلُ إلى اللهِ به كما يُتوسَّلُ إلى السلطانِ بِخَواصِّهِ وأعوانِهِ، فهذا مِنْ أفعالِ المشركينَ والنصارى؛ فإنَّهم يَزْعُمونَ أنَّهم يتخذونَ أحبارَهُمْ ورُهْبانَهُمْ شُفَعاءَ يستشفعونَ بهم في مطالبهم، وكذلك أخبرَ اللهُ عن المشركينَ أنَّهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فبيَّنَ الفرقَ بينَهُ وبينَ خَلْقِه؛ فإنَّ مِنْ عادةِ الناسِ أنْ يستشفعوا إلى الكبيرِ مِنْ كُبَرائِهِمْ بِمَنْ يَكْرُمُ عليه، فيسألُهُ ذلك الشفيعُ، فيقضي حاجتَهُ؛ إمَّا رغبةً، وإمَّا رهبةً، وإمَّا حياءً، وإمَّا مَوَدَّةً، وإمَّا غيرَ ذلك. واللهُ سبحانه لا يَشْفَعُ عنده أحدٌ حتى يَأْذَنَ هو للشافع، فلا يَفْعَلُ إلَّا ما شاء، وشفاعةُ الشافعِ مِنْ إذنه؛ فالأمرُ كلُّه له»[1]. اهـ كلامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٧٢ ـ ٧٣).

إنَّ تسميةَ هذه الأمورِ الشركيَّةِ توسُّلًا لا يُغَيِّرُ مِنْ حقيقةِ الأمرِ، ولا يغني مِنَ الحقِّ شيئًا، فمُجَرَّدُ الاختلافِ في التسميةِ لا يُؤثِّرُ تحليلًا ولا تحريمًا، فالحلالُ لو سَمَّاهُ أحدٌ بغيرِ اسمِهِ لا يصبحُ حرامًا، والحرامُ إذا سمَّاهُ أحدٌ بغيرِ اسمِهِ لا يصبحُ حلالًا؛ فمَنْ أطلَقَ على الخمرِ غيرَ اسمِها وشَرِبَها، كان حُكْمُهُ حكمَ مَنْ شَرِبَها وهو يُسَمِّيها باسمها بلا خلافٍ بينَ المسلمين.

ولا شكَّ أنَّ الدعاءَ مِنْ جملةِ العباداتِ، بل هو أفضلُ أنواعِ العبادة، فصَرْفُهُ لغيرِ اللهِ شِرْكٌ، وتسميةُ ذلكَ تَوسُّلًا لا يُغيِّرُ مِنْ حقيقةِ الأمرِ شيئًا، فمَنْ دعا المخلوقينَ مِنَ الموتى والغائبينَ، واستغاثَ بهم، كان مُشْرِكًا باللهِ العظيم، وخَسِرَ الخُسْرانَ المبين.

ولقد فتَحَ هؤلاءِ بهذه الضلالاتِ الطريقَ أمامَ أعداءِ الدِّينِ لنشرِ ضلالهم، وإنفاذِ باطلهم، والدفاعِ عن عقائدهم، والكَيْدِ للمسلمين، **وإليكم قِصَّةً عجيبةً فيها تجليةٌ لهذا الأمرِ وبيانٌ لخطورتِهِ**: لَقِيَ ثلاثةٌ من الرُّهْبانِ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ، فناظَرَهُمْ رَحِمَهُ اللهُ، وأقام عليهمُ الحُجَّةَ بأنَّهم كفارٌ، وأنَّهم ليسوا على ما كان عليه إبراهيمُ وعيسَى عليهما السلام، فقالوا له: نحنُ نَعْمَلُ مِثْلَ ما تعملونَ: أنتم تقولونَ بالسَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ، ونحنُ نقولُ بالسَّيِّدَةِ مَرْيَمَ، وقد أجمعنا نحنُ وأنتمْ على أنَّ المَسِيحَ ومريمَ أفضلُ مِنَ الحُسَيْنِ ومِنْ نَفِيسَة، وأنتمْ تستغيثونَ بالصالحينَ الذين قَبْلَكُمْ ونحنُ كذلك.

فانظُرْ أخي المسلمُ كيف فتَحَ هؤلاءِ الطريقَ أمامَ أعداءِ الدِّينِ عندما شَابَهُوهُمْ في العملِ، وابتعدوا عن رُوحِ الإسلامِ وحقيقتِهِ.

ولهذا أجاب شيخُ الإسلامِ هؤلاءِ الرهبانَ بقوله: «إنَّ مَنْ فعَلَ ذلك، ففيه شَبَهٌ منكم، وهذا ما هو دِينُ إبراهيمَ الذي كان عليه؛ فإنَّ الدِّينَ الذي كان عليه إبراهيمُ عليه السلام: أن لَا نَعْبُدَ إلَّا اللهَ وحدَهُ لا شريكَ له، ولا نِدَّ له، ولا صاحبةَ، ولا وَلَدَ له، ولا نُشْرِكَ معه مَلَكًا ولا شَمْسًا ولا قَمَرًا ولا كوكبًا، ولا نُشْرِكَ معه نبيًّا مِنَ الأنبياءِ ولا صالحًا»، وذكَرَ رَحِمَهُ اللهُ أمورًا بيَّن فيها حقيقةَ توحيدِ الأنبياءِ والمُرْسَلين، بخلافِ ما عليه أولئك المُبْطِلون، فلمَّا سَمِعَ الرُّهْبانُ ذلك،

قالوا له: «الدِّينُ الذي ذَكَرْتَهُ خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ الذي نحنُ وهؤلاءِ عليه، ثُمَّ انْصَرَفُوا مِنْ عنده»[١].

فهذه القِصَّةُ فيها عِظَةٌ وعِبْرةٌ وفوائدُ متنوِّعة، أهمُّها ضرورةُ العنايةِ بدِينِ اللهِ ﷻ كما جاء ووَرَد، بعيدًا عن انحرافِ المُضِلِّين، وضلالِ المُبْطِلِين، واللهُ وحدَهُ المستعان.

❊ ❊ ❊

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

٧٤

مِنَ التَّوَسُّلِ الْبَاطِلِ: دُعَاءُ الصَّالِحِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

لقد تَقدَّمَ معنا الكلامُ على التوسُّل، وبيانُ معناه الصحيحِ الثابتِ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، وكذلك سبَقَ الإشارةُ إلى وجودِ جملةٍ من المفاهيم الخاطئة، والتقريراتِ الفاسدة، شاعَتْ بين بعضِ الناسِ، ظنُّوها من التوسُّلِ المشروعِ المقرِّبِ إلى الله ﷻ، **وربَّما أيضًا حَمَلَ بعضَ الناسِ حُبُّهُمْ للأولياءِ والصالحينَ على تعظيمِهِمْ تعظيمًا غيرَ مشروعٍ بالاستغاثةِ بهم، ودعائِهِمْ مِنْ دونِ اللهِ، وإنزالِ الحاجاتِ بهم، وتسميةِ ذلك توسُّلًا.**

۞ **إنَّ مِنَ الواجبِ على المسلمِ في هذا البابِ العظيم**: أنْ يَعْرِفَ للأولياءِ والصالحينَ قَدْرَهُمْ ومَكَانتَهم ومنزلتَهم، دونَ أنْ يَحمِلَهُ ذلكَ على الغلوِّ فيهم؛ إذْ إنَّ الغلوَّ في الأولياءِ والصالحينَ أصلُ الشركِ وسببُهُ في قديمِ الزمانِ وحديثِهِ؛ لقُرْبِ الشركِ بهم مِنَ النفوس؛ فإنَّ الشيطانَ يُظْهِرُ ذلكَ في قَالَبِ المحبَّةِ والتعظيمِ، والاحترامِ والتوقيرِ للأولياءِ والصالحين.

روى البخاريُّ في «صحيحه»، **عن ابن عَبَّاس ﵄، في قوله تعالى**: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، **قال**: «هذه أسماءُ رجالٍ صالحينَ مِنْ قومِ نُوحٍ، فلمَّا هَلَكُوا، أَوْحَى الشيطانُ إلى قومهم أَنِ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِمُ التي كانوا يجلسونَ فيها أنصابًا، وسَمُّوها بأسمائهم، فَفَعَلُوا، ولم تُعْبَدْ، حتى إذا هَلَكَ أولئكَ وتَنَسَّخَ العلمُ، عُبِدَتْ»(١).

وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ الشيطانَ يَتنقَّلُ بهؤلاءِ في طريقِ الباطلِ عَبْرَ مراتبَ عديدة، ودرجاتٍ متنوِّعة، إلى أنْ يَصِلَ بهم إلى غايةِ الباطلِ ومنتهاه، فيبدأُ معهم

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٩٢٠).

عدوُّ الله أولًا بدعوتهم إلى تعظيم الصالحينَ تعظيمًا مُبْتَدَعًا بالبناءِ على قبورهم، أو اتخاذِ تصاويرَ لهم، أو نحوِ ذلك، فإذا فعلوا ذلك، نَقَلَهُمْ إلى ما هو أعظمُ من ذلك، وهو الإقسامُ على اللهِ بهم، وشأنُ اللهِ أعظمُ مِنْ أن يُقْسَمَ عليه أو يُسْأَلَ بأحدٍ مِنْ خَلْقه، فإذا تَقرَّرَ ذلك عندهم، نَقَلَهُمْ مِنْ ذلكَ إلى دُعَائِهِمْ وعِبَادَتِهم، وسؤالِهِمُ الشفاعةَ مِنْ دونِ الله، واتخاذِ قبورِهِمْ أوثانًا يُعْكَفُ عليها، وتُعَلَّقُ عليها القناديلُ والستورُ، ويُطَافُ بها، وتُسْتَلَمُ وتُقَبَّل، ويُحَجُّ إليها، ويُذْبَحُ عندها، فإذا تَقرَّرَ ذلكَ عندهم، نَقَلَهُمْ منه إلى دعاءِ الناسِ إلى عبادتها، واتخاذِهَا عيدًا ومَنْسَكًا، ورَأَوْا أنَّ ذلكَ أنفعُ لهم في دنياهُمْ وأُخْرَاهُم، فإذا تَقرَّرَ ذلك عندهم، نَقَلَهُمْ منه إلى التحذيرِ ممَّن ينهى عن ذلك، ووَصْفِهِ بأنَّه يَتنقَّصُ الصالحين، ويَحُطُّ مِنْ أقدارهم، ولا يُعَظِّمُهُمْ، ونحوِ ذلك؛ ومعلومٌ أنَّ ذلك ليس من التعظيمِ في شيءٍ، بل مِنَ البهتانِ المبين، والكُفْرِ الصريح، والضلالِ العظيم.

إنَّ بابَ التعظيم عندما لا يُضْبَطُ بالضوابطِ الشرعيَّة، ولا يُتقيَّدُ فيه بنصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ: يُوقِعُ الإنسانَ في صنوفٍ مِنَ الخطأِ، وأنواعٍ من الضلال، يَتوهَّمُ أنَّها مِنَ التعظيمِ وليستْ كذلك، والشرعُ المُطهَّرُ قد دلَّ على مشروعيةِ تعظيمِ الأنبياءِ والأولياءِ والصالحينَ في حدودٍ مُعيَّنةٍ، دونَ رَفْعٍ لهم عن منزلتهم التي أنزَلَهُمُ اللهُ إيَّاها؛ فمَنْ عظَّمهم بغيرِ ما حُدَّ في الشرعِ، وأتتْ به الأدلةُ، فقد جاء بضدِّ التعظيم ونقيضِه؛ ولهذا قالَ الرسولُ الكريمُ ﷺ لِمَنْ أطراه: (**أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ! مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي التِي أَنْزَلَنِي اللهُ** ﷻ)[١]، فمَنْ عظَّمه ﷺ بما لا يُحِبُّ، فإنَّما أتى بِضِدِّ التعظيم، والتعظيمُ الحقُّ قد دَلَّ عليه الشرعُ، ومحلُّهُ القلبُ واللسانُ والجوارح.

• **أمَّا تعظيمُهُ ﷺ بالقَلْبِ**: فهو ما يَتْبَعُ اعتقادَ كونِهِ رسولَ الله مِنْ تقديمِ

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٥٣)، وابن حبان رقم (٦٢٤٠)، من حديث أنس ﷺ، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٧٢).

محبَّتِهِ على النفسِ والولدِ والوالدِ والناسِ أجمعين، **ويُصَدِّقُ هذه المحبَّةَ أمران:**

أحدهما: تجريدُ التوحيدِ لله ﷻ؛ فإنَّه ﷺ كانَ أحرصَ الناسِ على تجريدِهِ، حتى قطَعَ أسبابَ الشركِ ووسائلَهُ مِنْ جميعِ الجهات؛ فنهى أن يُقال: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وأنْ يُحْلَفَ بغيرِ الله، وأخبَرَ أنَّ ذلكَ شركٌ، ونهى أنْ يُصَلَّى إلى القبورِ، وأنْ تُتَّخَذَ مسجدًا أو عِيدًا، أو أنْ يُوقَدَ عليها السُّرُجُ، أو غيرُ ذلكَ ممَّا قَرَّرَهُ ﷺ أتمَّ التقريرِ بقولِهِ وفِعْلِهِ وهَدْيِه، فتعظيمُهُ ﷺ إنَّما يكونُ بموافقتِهِ على ذلك، لا بمناقضتِهِ فيه.

الأمرُ الثاني: تجريدُ متابعتِهِ وتحكيمُهُ وحدَهُ في الدقيقِ والجليلِ، من أصولِ الدينِ وفروعه، والرضا بحكمِهِ، والانقيادُ له، والتسليمُ، والإعراضُ عمَّن خالفه، وعَدَمُ الالتفاتِ إليه، حتى يكونَ وحدَهُ الحاكمَ المُتَّبَعَ المقبولَ قولُهُ؛ كما كان رَبُّهُ تعالى وحدَهُ المعبودَ المألوهَ المَخُوفَ المَرْجُوَّ المستعانَ لا شريكَ له.

• **أمَّا تعظيمُهُ ﷺ باللسان:** فيكونُ بالثناءِ عليه بما هو أهلُهُ مِمَّا أثنى به على نفسِهِ، وأثنى به عليه رَبُّهُ؛ مِنْ غيرِ غلوٍّ ولا تقصيرٍ، فكما أنَّ المُقَصِّرَ المُفَرِّطَ تاركٌ لتعظيمه، فالغالي المُفْرِطُ كذلك، وكلٌّ منهم شَرٌّ مِنَ الآخرِ مِنْ وجهٍ دونَ وجه، وأولياؤُهُ سَلَكُوا بينَ ذلك قَوَامًا.

• **أمَّا التعظيمُ بالجوارحِ:** فهو العَمَلُ بطاعتِهِ، والسعيُ في إظهارِ دينِهِ وإعلاءِ كَلِمَتِهِ، ونصرِ ما جاءَ به، وبتصديقِهِ فيما أَخْبَر، وطاعتِهِ فيما أَمَر، والانتهاءِ عمَّا نَهى عنه وزَجَر، والموالاةُ والمعاداةُ والحُبُّ والبغضُ لأجلِهِ وفيه، وتحكيمُهُ وحدَهُ والرضا بحُكْمِه(١).

فهذا هو مدارُ دِينِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ؛ وبهذا يكونُ تعظيمُهُ وتوقيرُهُ، وهذا هو التعظيمُ الحَقُّ المطابقُ لحالِ المُعَظَّم، النافعُ للمُعَظِّم في معاشِهِ ومعاده، خلافًا لِمَنْ سلَكَ في حَقِّهِ ﷺ جَانِبَ الغُلُوِّ والإفراطِ، أو جَانِبَ الجفاءِ

---

(١) **انظر:** «الصارم المُنْكِي» لابن عبد الهادي (ص٤٥٢ ـ ٤٥٤).

والتفريطِ، وكلا هذَيْنِ قد أضاعوا الواجبَ عليهم تُجَاهَ رَسُولِهِمُ الكريمِ محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ، عليه صلواتُ اللهِ وسلامُهُ وبركاتُهُ.

وقد ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **(لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ)**؛ رواه البخاري[(١)]. ورَغْم وضوحِ هذا المنهجِ وبيانه، إلَّا أنَّ أهلَ الأهواءِ أَبَوْا إلَّا مخالفةَ أَمْرِه، وارتكابَ نهيه، ونَاقَضُوهُ أعظَمَ المناقضةِ، وظنُّوا أنَّهم إذا وَصَفُوهُ بأنَّه عبدُ اللهِ ورسولُهُ، وأنَّه لا يُدْعَى، ولا يُستغاثُ به، ولا يُنْذَرُ له، ولا يُطافُ بحُجْرَتِهِ، ونحوِ ذلك، أنَّ في ذلك هَضْمًا لِجَنَابِهِ، وغضًّا مِنْ قَدْرِهِ، وانتقاصًا مِنْ شأنِهِ، وقد جَهِلَ هؤلاءِ أنَّ التعظيمَ للرسولِ الكريمِ ﷺ إنَّما يكونُ بالمتابعةِ له في هَدْيِهِ، ولزومِ نَهْجِهِ، وتَرَسُّمِ خُطاه، لا بالأهواءِ والضلالات، والبِدَعِ والمنكرات.

❁ ❁ ❁

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٤٤٥).

٧٥

أَوْقَاتٌ يُسْتَجَابُ فِيهَا الدُّعَاءُ

إنَّ اللهَ ﷻ لَمَّا شرَعَ لعبادِهِ الدعاءَ، ورَغَّبَهَمْ فيه، وحثَّهم عليه، ووَعَدَهُمْ عليه الإجابةَ تفضُّلًا منه سبحانَهُ وتَكَرُّمًا؛ هَيَّأَ لهم ـ مع ذلك ـ أمكنةً فاضلةً، وأزمنةً فاضلةً، وآدابًا عظيمةً، يكونُ حظُّ العبدِ ونصيبُهُ مِنَ القَبُولِ والإجابةِ بِحَسَبِ حَظِّهِ ونصيبِهِ من تحقيقِ تلك الأمورِ وعنايتِهِ بها.

*** ومِنَ الأوقاتِ الفاضلةِ التي يَحْسُنُ بالمسلم أن يَتَحَرَّى دعاءَ اللهِ فيها:** وقتُ السَّحَرِ، وحينَ يبقى ثلثُ الليلِ الأخيرُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات]، وثبَتَ في الحديثِ المتواترِ، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: **(يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟! مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟! مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟!)**(١).

وهذا الحديثُ العظيمُ يَدُلُّ على شَرَفِ هذا الوقتِ عندَ اللهِ، وعِظَمِ شأنِهِ عنده، وأنَّه سبحانه ـ لكمالِ إحسانِهِ، وتمامِ لُطْفِهِ ـ يَنْزِلُ في ذلكَ الوقتِ هو سبحانَهُ بِنَفْسِهِ إلى سماءِ الدنيا نزولًا حقيقيًّا يليقُ به سبحانه، لا يُشْبِهُ نزولَ المخلوقين، تعالى اللهُ وتَنَزَّهَ عن ذلك، ولا يُدْرِكُ أحدٌ مِنَ المخلوقينَ كيفيَّةَ نزولِهِ سبحانه؛ إذْ إنَّ كيفيَّةَ صفاتِهِ سبحانه مجهولةٌ للخَلْقِ، كما أنَّ كيفيَّةَ ذاتِهِ مجهولةٌ لهم، وليس لأحدٍ أنْ يخوضَ في شيءٍ من صفات الله ـ لا النزولِ، ولا غيرِهِ ـ بتحريفٍ أو تعطيل، أو تكييفٍ أو تمثيل.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٧٧).

والحديثُ دليلٌ على فَضْلِ هذا الوقتِ المُبَارِكِ، وأنّه أفضلُ أوقاتِ الدعاءِ والاستغفارِ والإقبالِ على اللهِ بالسؤال، وأنَّ الدعاءَ في ذلك الوقتِ مستجابٌ؛ **قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ** رَحِمَهُ اللهُ: «والناسُ في آخرِ الليلِ يكونُ في قلوبهم من التوجُّهِ والتقرُّبِ والرِّقةِ ما لا يوجدُ في غيرِ ذلكَ الوقتِ، وهذا مناسبٌ لنزولِهِ إلى سماءِ الدنيا، وقولِهِ: «**هَلْ مِنْ داعٍ؟!**»، «**هَلْ مِنْ سائلٍ؟!**»، «**هل مِنْ تائبٍ؟!**»»[1]. اهـ كلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ.

* **ومِنَ الأوقاتِ الفاضلةِ التي يُسْتَجَابُ فيها الدعاءُ**: الساعةُ التي في يومِ الجُمُعةِ؛ فقد ثبَتَ في «الصحيحين»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ يَوْمَ الجُمُعَةِ فقال: (**فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**)، وأشارَ بيده يُقلِّلُها»[2].

وقد اختلَفَ أهلُ العلمِ في تعيينِ هذه الساعةِ على أقوالٍ عديدةٍ تُقارِبُ الأربعينَ قولًا، إلَّا أنَّ أقواها وأقربَها للدليلِ قولان:

أحدُهما: أنَّها ما بينَ جلوسِ الإمامِ على المِنْبرِ إلى حينِ فراغِهِ من الصلاةِ؛ وحُجَّةُ هذا القولِ: حديثُ أبي بُرْدَةَ بنِ أبي موسى الأشعريِّ: أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ قالَ له: «أَسَمِعْتَ أباكَ يُحدِّثُ عن رسولِ اللهِ ﷺ في شأنِ ساعةِ الجُمُعةِ شيئًا؟ قال: نَعَمْ، سمعتُهُ يقولُ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: (**هِيَ بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ**)»؛ رواه مسلم[3].

والقولُ الثاني: أنَّها بعدَ العصرِ إلى غروبِ الشمسِ؛ ومِنْ أدلَّةِ هذا القولِ: ما رواه أحمدُ، وابن ماجه في «سننه»، عن عبد الله بن سَلَامٍ، قال: «قلتُ ورسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ: إنَّا لَنَجِدُ في كتابِ اللهِ (**يعني**: التوراةَ) في يومِ الجُمُعةِ ساعةً لا يُوَافِقُها عبدٌ مُؤْمِنٌ يصلِّي يَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ شيئًا، إلَّا قَضَى اللهُ

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٣٠ ـ ١٣١).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٩٣٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٥٢).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٨٥٣).

له حاجتَهُ، قال عبدُ اللهِ: فأشارَ إليَّ رسولُ اللهِ ﷺ (**أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ**)، قلتُ: صَدَقْتَ يا رسولَ اللهِ: أَوْ بَعْضَ ساعةٍ، قلتُ: أيُّ ساعةٍ هي؟ قال: (**هِيَ آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ النَّهَارِ**)، قلتُ: إنَّها ليستْ ساعةَ صلاةٍ، قال: (**بَلَى، إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا صَلَّى، ثُمَّ جَلَسَ، لَا يُجْلِسُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، فَهُوَ فِي صَلَاةٍ**)»[١].

قال الحافظ ابن حَجَرٍ ـ وقد سَرَدَ الأقوالَ ـ: «ولا شكَّ أنَّ أرجحَ الأقوالِ المذكورةِ حديثُ أبي موسى وحديثُ عبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ»[٢]. اهـ.

ورَجَّحَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «زاد المعاد» القولَ الثاني، وهو أنَّها بعدَ صلاةِ العصر؛ واحتَجَّ بحديثِ عبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ المتقدِّمِ وأحاديثَ أخرى وردَتْ في الباب[٣].

* **ومن الأزمنة الفاضلةِ**: شهرُ رمضانَ المبارك، ولا سيَّما العشرُ الأواخرُ منه، وخاصَّةً ليلة القَدْرِ التي هي خيرٌ مِنْ ألف شهر، وقد ثبَتَ في «جامع الترمذي»، وغيره، عن أمِّ المؤمنينَ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: «قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ إنْ عَلِمْتُ ليلةَ القَدْرِ، ما أقولُ فيها؟ قال: (**قُولِي: اللَّهُمَّ، إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي**)»[٤].

* **ومِنَ الأوقاتِ الفاضلةِ أيضًا، والتي ينبغي للمسلم أن يتحرَّى فيها الدعاءَ**: يومُ عَرَفَةَ؛ فهو يومٌ فاضلٌ، تُستجابُ فيه الدعوات، وتُغْفَرُ فيه الزَّلَّات، وتُكفَّرُ فيه الخطيئات؛ وقد ثبَتَ في الحديثِ عن النبي ﷺ، أنَّه قال: (**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)[٥].

---

(١) «المسند» (٥/ ٤٥١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١١٣٩)، وقال الحافظ ابن حجر: «حديثٌ صحيح، وظاهر سياقه الرفع». «نتائج الأفكار» (٢/ ٤١٠).

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٤٢١).

(٣) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ١٧١)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥١٣)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٥٠)، وصحَّحه الترمذي، والألباني في «تخريج المشكاة» رقم (٢٠٩١).

(٥) تقدم تخريجه (ص١٥٠).

* **ومن الأوقاتِ التي يُرْجَى فيها قَبُولُ الدعاءِ**: ما بينَ الأذانِ والإقامةِ؛ لِمَا ثبَتَ عن أنس بن مالك ﵁، عن رسولِ الله ﷺ، أنَّه قال: **(الدُّعَاءُ لَا يُرَدُّ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ؛ فَادْعُوا)**(١).

وثبت عن النبي ﷺ أنَّ الدعاءَ لا يُرَدُّ عندَ النداءِ للصلاة؛ وذلك فيما رواه سَهْل بن سَعْد الساعديُّ ﵁، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ ـ أَوْ: قَلَّمَا تُرَدَّانِ ـ: الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يَلْحُمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا)**(٢).

* **ومِمَّا ينبغي للمسلمِ أن يَتحرَّى فيه الدعاءَ**: أدبارُ الصلواتِ المكتوبةِ؛ ففي «الترمذي» وغيره، بسندٍ جيِّدٍ عن أبي أُمامةَ الباهليِّ ﵁، قال: «قيل: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الدعاءِ أَسْمَعُ؟ قال: **(جَوْفُ اللَّيْلِ الآخِرِ، وَدُبُرُ الصَّلَوَاتِ المَكْتُوبَاتِ)**»(٣).

وأوصى صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه مُعَاذَ بن جَبَلٍ أن يقولَ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ: **(اللَّهُمَّ، أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)**(٤)، ودُبُرُ الصلاةِ المذكورُ في هذا الحديثِ والذي قبلَهُ يَحْتَمِلُ قبلَ السلامِ وبعدَهُ؛ **قال ابن القيِّم** ﵀: «وكان شيخُنا ـ **يعني**: ابنَ تيميَّة ﵀ ـ يُرجِّحُ أن يكونَ قبلَ السلامِ، فراجعتُهُ فيه، فقال: دُبُرُ كلِّ شيءٍ منه كَدُبُرِ الحيوانِ»(٥).

وبالله التوفيق.

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١١٩، ١٥٥)، والترمذي رقم (٢١٢)، وأبو داود رقم (٥٢١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٤٠٨).

(٢) رواه أبو داود رقم (٣٥٤٠)، والحاكم (١/ ١٩٨)، وقال الحافظ ابن حجر: «حديث حسن صحيح». «نتائج الأفكار» (١/ ٣٨١).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٩٩)، وحسَّنه الألباني في «صحيح جامع الترمذي» رقم (٢٧٨٢).

(٤) تقدم تخريجه (ص٢٥٥).

(٥) «زاد المعاد» (١/ ٣٠٥).

٧٦

أَحْوَالٌ لِلْمُسْلِمِ يُسْتَجَابُ فِيهَا الدُّعَاءُ

سبَقَتِ الإشارةُ إلى جُمْلةٍ من الأوقاتِ الفاضلةِ التي يُرْجَى فيها قَبُولُ الدعاءِ أكثرَ مِنْ غيرها؛ إذْ إنَّ المسلمَ في كلِّ وقتٍ يدعو اللهَ ﷻ في أيِّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ يرجو أن يَتقبَّلَ اللهُ منه، إلَّا أنَّ هناكَ أوقاتًا فاضلةً خصَّها الشارعُ بمزيدِ فضيلةٍ، فكانَ القَبُولُ فيها أرجى، والإجابةُ فيها أَحْرى من غيرها، فينبغي للمسلمِ أن يَتحرَّى فيها الدعاءَ؛ كثُلُثِ الليلِ الآخِرِ، وكالساعةِ التي في يومِ الجمعة، وغيرِ ذلك مِمَّا سَبَقَ الإشارةُ إليه.

وكما أنَّ هناك أوقاتًا فاضلةً ينبغي أن يَتحرَّى المسلمُ فيها الدعاءَ، **فكذلكَ هناكَ أحوالٌ فاضلةٌ في المسلمِ يزيدُ فيها قُرْبُهُ مِنَ الله، وإقبالُهُ عليه، وخشوعُهُ وخضوعُهُ واستكانتُه، ينبغي على المسلمِ أن يُكْثِرَ فيها الدعاءَ، وأن يُعْظِمَ فيها الطلب.**

* **ومِنْ ذلك**: في الصلاةِ، عندما يَقِفُ العبدُ بين يَدَي اللهِ خاشعًا خاضعًا متذلِّلًا منيبًا، ولا سيَّما حالَ السجودِ؛ فإنَّ العبدَ في سجودِهِ يكونُ قريبًا من ربِّه، فينبغي في هذه الحالِ أن يُكْثِرَ مِنْ دعاءِ اللهِ وسؤالِهِ ومناجاتِه؛ لعِظَمِ قربِهِ فيه مِنَ الله ﷻ؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة ﵁: أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: (**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**)(١).

وروى مسلمٌ في «صحيحه»، عن ابن عَبَّاس ﵄: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**أَلَا وإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ القُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا؛ فَأَمَّا الرُّكُوعُ، فَعَظِّمُوا**

(١) «صحيح مسلم» رقم (٤٨٢).

فِيهِ الرَّبَّ عَجَّلَ، وَأَمَّا السُّجُودُ، فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[١]؛ أي: حقيقٌ وجديرٌ أن يُستجابَ لكم.

*** وكذلكَ يُتحرَّى الدعاءُ في آخِرِ الصلاةِ قبلَ السلامِ بعدَ الصلاةِ الإبراهيميَّةِ على النبيِّ ﷺ**؛ فقد روى الإمامُ أحمد، والترمذي، والنسائي، وغيرُهم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «كنتُ أُصلِّي والنبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ وعُمَرُ معه، فلمَّا جَلَسْتُ، بدأتُ بالثناءِ على اللهِ، ثمَّ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ، ثمَّ دعوتُ لنفسي، فقال النبيُّ ﷺ: **(سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ)**»[٢].

وروى الترمذي، والنسائي، وغيرُهما، عن فَضَالَةَ بن عُبَيْدٍ رضي الله عنه، قال: «سَمِعَ رسولُ الله ﷺ رجلًا يدعو في صلاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللهَ، ولم يُصَلِّ على النبيِّ ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: **(عَجِلْتَ أَيُّهَا الْمُصَلِّي)**، ثمَّ علَّمهم رسولُ اللهِ ﷺ، وسَمِعَ رسولُ الله ﷺ رجلًا يُصَلِّي، فمَجَّدَ اللهَ وحَمِدَهُ وصلَّى على النبيِّ ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: **(ادْعُ تُجَبْ، وَسَلْ تُعْطَ)**»[٣].

*** ومِنَ الأحوالِ التي يكونُ فيها المسلمُ حريًّا بالقَبُولِ وإجابةِ الدعاء:** دعوتُهُ حالَ صيامِهِ؛ فقد روى البيهقيُّ، من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: **(ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ لَا تُرَدُّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ)**[٤].

*** وكذلكَ عندما يكونُ المسلمُ مُتلبِّسًا بإحرامِهِ، قاصدًا بيتَ ربِّه، يريدُ الحجَّ أو العمرةَ، فإنَّ هذا مِنْ أسبابِ إجابةِ الدعاءِ**؛ روى ابنُ ماجه في «سننه» وغيرُه، بإسنادٍ حَسَنٍ، عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: **(الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْحَاجُّ وَالْمُعْتَمِرُ وَفْدُ اللهِ، دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ،**

(١) تقدم تخريجه (ص٨٩).
(٢) «المسند» (١/ ٤٤٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٥٩٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي رقم (٨٢٥٨)، وحسَّنه الألباني في «تخريج المشكاة» رقم (٩٣١).
(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٧٦)، و«سنن النسائي» (٢/ ٤٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح جامع الترمذي» رقم (٢٧٦٥).
(٤) «السنن الكبرى» للبيهقي (٣/ ٣٤٥)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٧٩٧).

وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ)[١].

وأفضلُ ما يكونُ الدعاءُ للحاجِّ يومَ عَرَفَةَ؛ فهو يومُ إجابةِ الدعوات، وإقالةِ العَثَرات، وتفريجِ الكُرُبات، وإغاثةِ الملهوفين؛ وقد ثبَتَ في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال: **(خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**[٢]؛ إذْ في هذا اليومِ المبارَكِ يَغْشَى الناسَ مِنَ الإيمانِ والطمأنينةِ والخشوعِ والخضوعِ ما يكونُ سببًا لِقَبُولِ دَعَوَاتِهم، وإقالةِ عثراتهم؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنَ المعلومِ أنَّ الحجيجَ عَشيَّةَ عَرَفةَ يَنْزِلُ على قلوبهم مِنَ الإيمانِ والرحمةِ والنُّورِ والبركةِ ما لا يمكنُ التعبيرُ عنه»[٣].

۞ **وفي الحجِّ أمكنةٌ خاصَّةٌ ينبغي للمسلمِ أن يَقِفَ بها، ويَتَحَرَّى فيها الدعاءَ اقتداءً بالنبيِّ ﷺ**؛ حيثُ ثبَتَ عنه أنَّه كان يَقِفُ فيها، ويستقبلُ القبلةَ، ويدعو اللهَ عَزَّوَجَلَّ، **وهي بالأخصِّ ستةُ أماكن**:

في عَرَفَةَ؛ كما تقدَّم.

وفي المَشْعَرِ الحرامِ؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقد جاء في حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صفةِ حَجَّةِ النبيِّ ﷺ: «أنَّه رَكِبَ القَصْوَاءَ حتى أتى المَشْعَرَ الحَرَامَ، فاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، فدَعَاهُ وكَبَّرَهُ، وهَلَّلَهُ ووَحَّدَهُ، فلم يَزَلْ واقفًا حتى أَسْفَرَ جِدًّا، فدفَعَ قَبْلَ أن تَطْلُعَ الشمسُ»؛ رواه مسلم[٤].

وكذلك على الصَّفَا والمَرْوة؛ لِمَا ثبَتَ في «صحيح مسلم»، في حديث جابرٍ المتقدِّمِ: «أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا وقَفَ على الصفا يُكبِّرُ ثلاثًا، ويقول:

---

(١) «سنن ابن ماجه» رقم (٢٨٩٣)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٤٦١٣)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٨٢٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٥٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٧٤).

(٤) «صحيح مسلم» رقم (١٢١٨).

(لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ)، ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ، قَالَ مِثْلَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، . . . حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ فَفَعَلَ عَلَى الْمَرْوَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا».

وكذلكَ بعدَ رَمْيِ الجمرتَيْنِ الصغرى والوُسْطَى؛ لِمَا ثبَتَ في «صحيح البخاري»، أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ رضي الله عنهما «كان يَرْمي الجَمْرَةَ الدنيا بِسَبْعِ حَصَياتٍ، يُكبِّرُ على إِثْرِ كلِّ حَصَاة، ثمَّ يَتقدَّمُ حتى يُسْهِلَ، فيقومُ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، فيقومُ طويلًا يَدْعُو ويَرْفَعُ يديه، ثمَّ يرمي الوُسْطَى، ثمَّ يأخُذُ ذاتَ الشمالِ، فيُسْهِلُ ويقومُ مستقبلَ القبلةِ، فيقومُ طويلًا ويدعو ويَرْفَعُ يديه ويقومُ طويلًا، ثمَّ يرمي جمرةَ العَقَبةِ مِنْ بطنِ الوادي ولا يقفُ عندها، ثمَّ يَنْصرِفُ، فيقولُ: هكذا رأيتُ النبيَّ ﷺ يفعلُهُ»(١).

فهذه ستةُ مواضعَ ثبَتَ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يَقِفُ فيها، ويَتحرَّى الدعاءَ، ويرفعُ يديه. **وعمومًا**: فالدعاءُ له شأنٌ عظيمٌ في الحجِّ والصلاةِ والصيام، بل له شأنٌ بالغٌ في العباداتِ كلِّها، بل هو رُوحُ العبادةِ ولُبُّها.

❁ ❁ ❁

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٧٥١).

٧٧

مَنْ تُسْتَجَابُ دَعْوَتُهُمْ

تَقدَّمَ معنا الإشارةُ إلى أوقاتٍ وأحوالٍ تُجابُ فيها الدعوات، وهي أوقاتٌ وأحوالٌ فاضلةٌ يزدادُ فيها قُرْبُ العبدِ مِنْ رَبِّهِ، ويَعْظُمُ إلْحاحُهُ عليه، ويَقْوَى إقبالُهُ وقربُهُ وإخلاصُهُ، وفي السُّنَّةِ النبويةِ المباركةِ إشاراتٌ إلى أمورٍ عديدةٍ مِنْ هذا القبيلِ يُنَبِّهُ فيها رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ مَنْ كان كذلك، فإنَّ دعوتَهُ لا تُرَدُّ.

ولَعلِّي أشيرُ هنا إلى جملةٍ مِنْ نصوصِ السُّنَّةِ الواردةِ فيمنْ لا تُردُّ دعوتُهُمْ.

* **فمِمَّا ورَدَ في السُّنَّةِ أنَّ دعوتهم لا تُرَدُّ**: الصائمُ حتى يُفْطِرَ، ودعوةُ المسافرِ، ودعوةُ الوالدِ لِوَلَدِهِ أو عليه، ودعوةُ المظلومِ؛ ففي «السنن الكبرى» للبيهقي، من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: **(ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ لَا تُرَدُّ: دَعْوَةُ الوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ)**[(١)].

وروى الإمامُ أحمدُ في «مسنده»، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُنَّ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ)**[(٢)].

* **ومِمَّا ورَدَ أيضًا في دعوةِ المظلوم**: حديثُ ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، في ذكرِ بَعْثِ النَّبيِّ ﷺ معاذًا إلى اليمنِ، وفيه: **(وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ)**[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٣٧).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢٨٣).
(٣) رواه البخاري رقم (٢٤٤٨).

وكُتُبُ السيرِ والأخبارِ مليئةٌ بذكرِ الوقائعِ والشواهدِ على ذلك؛ ومِنْ ذلك: ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن عُرْوة بن الزُّبَيْرِ: «أنَّ أَرْوَى بنتَ أُوَيْسٍ ادَّعَتْ على سعيدِ بنِ زيدٍ أنَّه أخذَ شيئًا مِنْ أرضها، فخاصَمَتْهُ إلى مَرْوَانَ بنِ الحَكَمِ، فقال سعيدٌ: أنا كنتُ آخُذُ مِنْ أرضها شيئًا بعدَ الذي سَمِعْتُ مِنْ رسولِ الله ﷺ؟! قال: وما سَمِعْتَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ؟ قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: (**مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا، طُوِّقَهُ إِلى سَبْعِ أَرَضِينَ**)، فقال له مَرْوَانُ: لا أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بعدَ هذا، فقال: اللَّهُمَّ، إنْ كانتْ كاذبةً، فَعَمِّ بَصَرَها، واقْتُلْهَا في أرضها، قال: فما مَاتَتْ حتى ذَهَبَ بَصَرُها، ثُمَّ بَيْنَا هي تَمْشِي في أَرْضِها إذْ وقَعَتْ في حُفْرَةٍ، فمَاتَتْ»[1].

* **وكذلكَ دَلَّتِ السُّنَّةُ أنَّ دَعْوةَ المسلمِ لأخيه المسلم بظهرِ الغَيْبِ لا تُرَدُّ؛** ففي «صحيح مسلم»، عن أم الدَّرْداءِ رضي الله عنها: أنَّها قالتْ لِصَفْوانَ: «أتريدُ الحَجَّ العامَ؟ قال: فقلتُ: نَعَمْ، قالتْ: فادْعُ اللهَ لنا بخيرٍ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: (**دَعْوَةُ المَرْءِ المُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**)»[2].

وروى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: (**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ إِلَّا قَالَ المَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ**)[3].

* **ومِمَّا ورَدَ في السُّنَّةِ في إجابةِ الدعاءِ:** ما ثبَتَ في «صحيح البخاري»، عن عُبادَةَ بنِ الصامتِ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: (**مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَه المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ**

---

(١) رواه البخاري رقم (٣١٩٨)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦١٠).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣٣).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣٢).

وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى، قُبِلَتْ صَلَاتُهُ)(١).

وروى الإمامُ أحمدُ في «المسنَدِ»، وأبو داود في «سننه»، وغيرُهما، عن مُعَاذ بن جَبَلٍ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ، قال: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَبِيتُ عَلَى ذِكْرِ اللهِ طَاهِرًا، فَيَتَعَارُّ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ)(٢).

* وكلَّما كان العبدُ قريبًا مِنَ الله، مطيعًا له، محافظًا على أوامرِهِ، كان حريًّا بالإجابةِ والقَبُولِ في دعواتِهِ ومناجاتِهِ لربِّه؛ وقد ثبَتَ في «صحيح البخاري»، عن أبي هُرَيْرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ التِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)(٣).

* وكذلكَ عندما يُقْبِلُ العبدُ على اللهِ إذا مَسَّهُ الضُّرُّ: بصدقٍ وإخلاصٍ وشِدَّةِ رغبةٍ، فإنَّ دعاءَهُ لا يُرَدُّ، واللهُ يقولُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، قال بعضُ أهلِ العلمِ في هذه الآية: «ضَمِنَ اللهُ تعالى إجابةَ المضطرِّ إذا دعاهُ، وأَخْبَرَ بذلك عن نفسه، والسَّبَبُ في ذلكَ: أنَّ الضرورةَ إليه باللَّجَأِ ينشأُ عن الإخلاصِ وقَطْعِ القلبِ عمَّا سواه، وللإخلاصِ

(١) «صحيح البخاري» رقم (١١٥٤).
(٢) «المسند» (٥/ ٢٣٤، ٢٤١، ٢٤٤)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٤٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٨١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٧٥٤).
(٣) تقدم تخريجه (ص٢٧٧).

عنده سبحانَهُ مَوْقِعٌ وذِمَّةٌ وُجِدَ مِنْ مؤمنٍ أو كافر، طائعٍ أو فاجر»(١).

* **ودعوةُ ذي النُّونِ عليه السلام التي دعا بها في بَطْنِ الحُوتِ لها شأنٌ عظيمٌ في الإجابةِ والقَبُولِ؛** قال اللهُ تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء]، وقد ثبتَ في السُّنَّةِ أنَّ هذه الدعوةَ العظيمةَ المباركةَ لا يدعو بها مسلمٌ في شيءٍ إلَّا استجابَ اللهُ له؛ روى الإمام أحمد، والترمذي، عن رسولِ الله ﷺ قال: **(دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا بِهَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ)**(٢).

وإذا ضَمَّ العبدُ إلى ذلكَ التوسُّلَ إلى اللهِ بأعمالِهِ الصالحةِ التي قامَ بها في حياتِهِ، مُتقرِّبًا بها إلى الله، طالبًا بها مرضاتَهُ، لَم تُرَدَّ له دعوةٌ؛ كما هو الشأنُ في النفرِ الثلاثةِ الذين أَطْبَقَتْ عليهمُ الصخرةُ وهم في الغار، فتَوَسَّلَ كلُّ واحدٍ منهم بعملٍ مِنْ أعمالِهِ الصالحةِ حتى فَرَّجَ اللهُ عنهم بذلك، وقد مضَتْ قِصَّتُهُمْ كاملةً.

فَتَقَرُّبُ العبدِ إلى الله، وإكثارُهُ من الأعمالِ الصالحة، وإقبالُهُ على ربِّه بما يرضيه: هو أعظمُ أسبابِ القَبُول، وأهمُّ دواعي الإجابة، والتوفيقُ بِيَدِ اللهِ وحده.

❁ ❁ ❁

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٤٨).

(٢) «المسند» (١/ ١٧٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٣).

٧٨

التَّحْذِيرُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمُبْتَدَعَةِ

إنَّ الدعاءَ طاعةٌ عظيمة، وعبادةٌ جليلة، يلزمُ المسلمَ فيها ـ شأنَ جميعِ العبادات ـ التقيُّدُ بهديِ الرسولِ الكريم ﷺ، ولزومُ سُنَّته، واتباعُ طريقته، وسلوكُ سبيله؛ فإنَّ خيرَ الهَدْيِ وأكملَهُ وأقومَهُ هديُ محمَّدٍ ﷺ، وقد كان عليه الصلاةُ والسلامُ يقولُ إذا خطَبَ الناسَ: **(أَمَّا بَعْدُ، فإنَّ خير الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُها، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)**[1]؛ ولذا، فإنَّ الواجبَ على كلِّ مسلم أنْ يَحْذَرَ أشدَّ الحذرِ مِنَ المُحْدَثاتِ في الدين، ويلزمَ في جميعِ أمورِ دينِهِ هَدْيَ سيِّدِ الأنبياءِ والمرسَلين.

إنَّ هديَ النبيِّ ﷺ في الدعاءِ هديٌ كاملٌ لا نَقْصَ فيه بوجهٍ من الوجوه، فلم يَدَعْ ﷺ شيئًا مِنَ الخيرِ والفائدةِ المُتعلِّقةِ بالدعاء إلَّا بيَّنها على أتمِّ الوجوهِ وأَكْمَلِها وأوفاها، كما هو شأنُهُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه في جميعِ جوانبِ الدين، ولم يَمُتْ ﷺ حتى أنزلَ اللهُ قولَهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ومَنْ يتأمَّلُ هَدْيَهُ ﷺ في الدعاءِ يجدْهُ هديًا كاملًا وافيًا شاملًا لا نقصَ فيه، فبَيَّنَ للأمَّةِ الأدعيةَ المتعلِّقةَ بالأوقاتِ المعيَّنة، أو الأمكنةِ المعيَّنة، أو الأحوالِ المعيَّنة، ووَضَّحَ المطلقَ من الدعاءِ والمقيَّد. وقد سبَقَ ذكرُ بعضِ ما ورَدَ عنه مما يَتعلَّقُ بالأوقاتِ الفاضلةِ التي يُستحَبُّ للمسلمينَ أنْ يَتحرَّوْا فيها الدعاءَ، وسَبَقَ ذكرُ ما ورَدَ عنه من بيانٍ للأمكنةِ الفاضلةِ التي يستحبُّ تحرِّي الدعاءِ فيها، وكذلك سَبَقَ الإشارةُ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٨٦٧).

إلى جملةٍ مِنَ الأحوالِ الفاضلةِ التي يكونُ عليها المسلمُ، فيستحبُّ له فيها تحرِّي الدعاء؛ لعِظَمِ قُرْبِهِ فيها مِنَ اللهِ، وشدَّةِ إخباتِهِ وخضوعِهِ وذُلِّه.

وقد اشتَمَلَتْ أدعيةُ النبيِّ ﷺ الثابتةُ عنه جميعَ أحوالِ الناسِ مِنْ سرورٍ أو حُزْنٍ، وصِحَةٍ أو سُقْمٍ، ونعمةٍ أو مصيبةٍ، وسَفَرٍ أو إقامةٍ، وغيرِ ذلك؛ فَدَلَّ أُمَّتَهُ ﷺ في ذلك كلِّه إلى خيرِ ما ينبغي أن يقولوهُ في جميعِ تلكَ الأحوال، ولَمْ يَدَعْ ﷺ شيئًا من الدعاءِ المقرِّبِ إلى اللهِ، والمُوصِلِ إلى الخيرِ والسعادةِ في الدنيا والآخرة إلَّا بَيَّنَهُ للأُمَّةِ تامًّا كاملًا، كيفَ لا وهو القائلُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه: (**مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ**)؛ رواه مسلم(١).

وإنَّ مِنَ العجبِ حقًّا أنْ يَدَعَ بعضُ عوامِّ المسلمينَ الأدعيةَ الصحيحةَ الثابتةَ عن رسولِ اللهِ ﷺ، وهي مجموعةٌ في كتبٍ كثيرةٍ مُعْتَبَرةٍ مُتَدَاوَلَةٍ بين المسلمينَ، ويُقْبِلُوا على أَدْعِيَةٍ مُحْدَثَةٍ مُبْتَدَعَةٍ أنشَأَهَا بعضُ المتكلِّفِينَ، وكَتَبَها بعضُ المتخرِّصينَ دُونَ تعويلٍ على الكتابِ والسُّنَّة، ودونَ اعتبارٍ لِهَدْيِ خيرِ الأُمَّةِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، فشَغَلُوا بذلكَ الناسَ عن السُّنَنِ وأَوْقَعُوهُمْ في البدعِ، **وفي مثلِ هذا يقولُ بعضُ السَّلَفِ**: «ما ابتَدَعَ قومٌ بدعةً في دينهم إلَّا نَزَعَ اللهُ مِنْ سُنَّتِهم مِثْلَها، ثُمَّ لا يُعيدُها إليهم إلى يومِ القيامة»(٢)، وكيف يليقُ بمسلم يعرفُ فضلَ الرسولِ ﷺ وقَدْرَهُ ونُصْحَهُ لأمَّته، ثمَّ مع ذلك يَدَعُ هَدْيَهُ وأَدْعِيَتَهُ العظيمةَ المبارَكَةَ، ويُقْبِلُ على أدعيةِ وكُتُبِ هؤلاءِ المتخرِّصينَ المتَكَلِّفين؟!

قال أبو بكرٍ محمَّدُ بنُ الوليدِ الطَّرْطُوشِيُّ صاحبُ كتاب «الحوادث والبِدَع»: «ومِنَ العَجَبِ العُجَابِ: أن تُعرِضَ عن الدعواتِ التي ذَكَرَهَا اللهُ في كتابِهِ عن الأنبياءِ والأولياءِ والأصفياءِ مقرونةً بالإجابةِ، ثمَّ تَنْتَقِيَ ألفاظَ الشُّعَرَاءِ

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (١٨٤٤).

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ٨٥)، و«المصنف» لعبد الرزاق (١/ ٩٣).

والكُتَّابِ، كَأَنَّكَ قد دَعَوْتَ - في زَعْمِكَ - بجميعِ دَعَوَاتِهِم، ثُمَّ استَغَنْتَ بدعواتِ مَنْ سواهم!!»(١).

ويقول الإمامُ القرطبيُّ في تفسيرِهِ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] **وهو يذكُرُ جملةً مِنْ أنواعِ الاعتداءِ في الدعاء:** «ومنها أن يَدْعُوَ بما ليس في الكتابِ والسُّنَّة، فيَتَخَيَّرَ ألفاظًا مُفَقَّرةً، وكلماتٍ مُسَجَّعةً، قد وجَدَهَا في كراريسَ، لا أصلَ لها ولا مُعوَّلَ عليها، فيجعلَهَا شعارَه، ويترُكَ ما دعا به رسولُهُ ﷺ، وكلُّ هذا يَمْنَعُ مِنِ استجابةِ الدعاء»(٢).

وإنَّ أشدَّ ما يكونُ في هذا الأمرِ خطورةً: أنَّ بعضَ هذه الأدعيةِ المؤلَّفةِ مشتملةٌ على ألفاظٍ كُفْرِيَّة، واستغاثاتٍ شِرْكِيَّة، وشَطَطٍ بالغ؛ **قال أبو العَبَّاس أحمدُ بن إدريسَ القَرَافيُّ بعدَ أنْ ذكَرَ أنَّ الأصلَ في الدعاءِ التوقُّف، وذكَرَ أنواعًا من الأدعيةِ الكُفْرِيَّة، الناقلةِ مِنَ المِلَّةِ الإسلامية:** «إذا تَقرَّرَ هذا، فينبغي للسائلِ أن يَحْذَرَ هذه الأدعيةَ وما يجري مَجْرَاها حَذَرًا شديدًا؛ لِمَا تؤدِّي إليه من سَخَطِ الدَّيَّان، والخلودِ في النيران، وحبوطِ الأعمال، وانفساخِ الأنكحة، واستباحةِ الأرواحِ والأموال؛ وهذا فسادٌ كُلُّهُ يتحصَّلُ بدعاءٍ واحدٍ مِنْ هذه الأدعية، ولا يَرْجِعُ إلى الإسلام، ولا ترتفعُ أكثَرُ هذه المفاسدِ إلَّا بتجديدِ الإسلام، والنطقِ بالشهادتَيْن؛ فإنْ مات على ذلكَ، كان أمرُهُ كما ذكرناه، نسألُ الله تعالى العافيةَ مِنْ مُوجِبَاتِ عقابه»(٣).

۞ **إنَّ الواجبَ على كلِّ مسلم:** أنْ يَحْذَرَ أشدَّ الحَذَرِ مِنْ مِثْلِ هذه الأدعيةِ التي أَحْدَثَها بعضُ شيوخِ الضلالِ وأئمَّةِ الباطلِ، فصَدُّوا بها الناسَ عَنْ هَدْيِ النبيِّ ﷺ، وصَرَفُوهم بها عن سُنَّتِه، فضَلُّوا وأَضَلُّوا كثيرًا، وضَلُّوا عن سواءِ السبيل، وإنَّ المسلمَ الفَطِنَ ليتساءلُ في هذا المقام: ما الذي دعا أولئكَ إلى ابتكارِ تلكَ الأدعيةِ، واختراعِ تلكَ الأورادِ، رَغْمَ ما فيها من ضلالٍ وباطل؟!

---

(١) «الفتوحات الربانية» لابن علان (١/ ١٧).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ١٤٤). (٣) «الفروق» للقرافي (٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥).

فلا يَجِدُ جوابًا على ذلك إلَّا أنَّ أولئكَ يريدونَ أكلَ أموالِ الناسِ بالباطلِ، وتكثيرَ الأتباعِ والمريدين، **وقد سبَقَ أن مرَّ معنا قولُ مُعَاذ بن جَبَلٍ** رضي الله عنه: «إنَّ من ورائكم فِتَنًا يَكْثُرُ فيها المال، ويُفْتَحُ فيها القرآن، حتى يَأْخُذَهُ المؤمنُ والمنافق، والرجلُ والمرأة، والصغيرُ والكبير، والعبدُ والحرُّ، فيُوشِكُ قائلٌ أن يقولَ: ما للناسِ لا يَتَّبِعُوني وقد قرأتُ القرآنَ؟! ما هم بِمُتَّبِعِيَّ حتى أَبْتَدِعَ لهم غَيْرَه. فإيَّاكم وما ابتَدَعَ؛ فإنَّ ما ابْتُدِعَ ضلالةٌ»(١)؛ فمِنْ هؤلاء يجبُ أن يكونَ المسلمُ على حَذَرٍ بالغٍ، وحِيطَةٍ كاملة، ولْيَلْزَمِ السُّنَّةَ، وَلْيَتَّبعْ سبيلَ أهلِها، ففي ذلك السلامةُ والفَلَاحُ.

❀ ❀ ❀

---

(١) تقدَّم تخريجه (ص٣٠٣).

٧٩

خُطُورَةُ دُعَاةِ الْبَاطِلِ وَأَئِمَّةِ الضَّلَالِ

لقد تَضافَرَتِ الأدلَّةُ، وكَثُرَتِ النصوصُ في الكتابِ والسُّنَّةِ، الدالّةُ على تحريمِ صَرْفِ الدعاءِ لغيرِ الله، وأنَّ ذلكَ نوعٌ مِنَ الشركِ الناقلِ مِنَ المِلَّةِ، **وأنَّ الدعاءَ لا يكونُ إلَّا لِمَنْ بيده المنعُ والعَطَاء، والخَفْضُ والرَّفْع، والقبضُ والبَسْط**، وليس لله شريكٌ في شيءٍ مِنْ ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس]؛ ولهذا فكيفَ يليقُ بإنسانٍ، ويَصِحُّ من عاقلٍ خَلَقَهُ اللهُ فيدعو غيرَهُ، ويرزقُهُ اللهُ ويسألُ سواه، ويعطيهِ اللهُ ويُقْبِلُ على غيره؟! مَعَ أنَّ كلَّ مدعوٍّ غيرِ اللهِ ليس بيدِهِ عطاءٌ ولا منعٌ، ولا نَفْعٌ ولا ضُرٌّ؛ يقول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، ويقولُ تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ]، ويقولُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

ورغمَ وضوحِ هذا الأمرِ، وكثرةِ الشواهدِ عليه، وظهورِ دَلَالَتِها على ذلك، إلَّا أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ لا يزالُ يَفُتُّ في عَضُدِهِمْ دُعَاةُ الضلال، وأئمَّةُ الباطل؛ فيُشَبِّهونَ عليهمُ الأمورَ، ويَلْبِسُونَ عليهمُ الحقائقَ، ويُزَيِّنونَ لهم الباطلَ، وقد خاف النبيُّ ﷺ على أُمَّتِهِ مِنَ الأئمَّةِ المضلِّين؛ روى الإمام أحمدُ، وأبو داود، والحاكم، وغيرُهم، بإسناد صحيح، من حديث ثَوْبانَ، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: **(وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ)**(١)، وهذا الذي خافه النبيُّ ﷺ على أمَّتِهِ قد وقَعَ، حيثُ تَسلَّطَ بعضُ دعاةِ الباطلِ وأئمةِ الضلال، فزيَّنوا للناسِ دعاءَ الأحجارِ، والتعلُّقَ بالقبور، والتَّقدُّمَ إليها بأنواعِ القرابينِ والنذور؛ **قال أبو الوَفَاءِ ابنُ عَقِيلٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صَبِئَتْ قلوبُ أهلِ الإلحادِ؛ لانتشارِ كلمةِ الحق، وثبوتِ الشرائعِ بَيْنَ الخلق، والامتثالِ لأوامرها... ثمَّ ـ مع ذلك ـ لا يَرَوْنَ لمقالتهم نباهةً ولا أثرًا، بل الجوامعُ تَتدفَّقُ زحامًا، والأذاناتُ تملأُ أسماعهم بالتعظيمِ لشأنِ النبيِّ ﷺ والإقرارِ بما جاء به، وإنفاقِ الأموالِ والأنفسِ في الحَجِّ، مع ركوبِ الأخطار، ومعاناةِ الأسفار، ومفارقةِ الأهلِ والأولاد، فجعَلَ بعضُهم يَنْدَسُّ في أهلِ النقل، فيَضَعُ المفاسدَ على الأسانيد، ويَضَعُ السِّيَرَ والأخبار، وبعضُهم يَرْوِي ما يُقارِبُ المُعْجِزَاتِ مِن ذِكْرِ خواصَّ في أحجار، وخوارقِ العاداتِ في بعضِ البلاد، وإخبارٍ عن الغيوبِ عن كثيرٍ من الكَهَنةِ والمنجِّمين، ويُبالغُ في تقريرِ ذلك... فقالوا: تعالَوْا نُكْثِرُ الجَوَلَانَ في البلادِ والأشخاص والنجوم والخواص، فلا يخلو مع الكثرة من مصادفة الاتفاق لواحدة من هذه فيصدَّقُ بها الكلّ...»(٢)، إلخ كلامِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

۞ **فتأمَّلْ أخي المسلمُ**، كيف تَمكَّنَ هؤلاءِ بِخَفِيِّ مكرهم، وعِظَمِ كيدهم مِنْ صَدِّ كثيرٍ مِنْ عوامِّ المسلمين وجُهَّالِهِمْ عن الحقِّ والهدى الذي جاء به

---

(١) «المسند» (٥/٢٧٨، ٢٨٤)، و«سنن أبي داود» رقم (٤٢٥٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٢٢٩)، و«المستدرك» (٤/٤٤٩) في حديث طويل، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٧٧٣).

(٢) **انظر**: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص٦٨، ٦٩).

رسولُ اللهِ ﷺ، ونَقْلِهم منه إلى أنواعٍ مِنَ الضلالاتِ وصنوفٍ من الباطلِ؛ مِنْ تَعَلُّقٍ بقبور، أو تَبَرُّكٍ بأشجارٍ وأحجار، أو ذبحٍ ونذرٍ لأضرحةٍ وقِبَاب، ونحوِ ذلكَ من الضلالِ المفارقِ لدينِ الإسلام، المباينِ لِمِلَّةِ التوحيدِ القائمةِ على إخلاصِ العملِ للمعبود، والمتابعةِ في ذلك كُلِّهِ للرسول ﷺ.

ومِمَّا ينبغي أن يُعْلَمَ هنا: أنَّ سببَ ضلالِ هؤلاءِ وغَيْرِهم مِمَّنْ تَأَثَّرَ بهم وسارَ على طريقهم ثلاثةُ أشياء:

أحـــدُهـــا: إمَّا اعتمادُهُمْ على ألفاظٍ متشابهةٍ مُجْمَلَةٍ مُشْكِلَةٍ، منقولةٍ عن الأنبياء، وعَدَلُوا عن الألفاظِ الصريحةِ المُحْكَمة، وتَمَسَّكوا بها، وهم كلَّما سمعوا لفظًا فيه شُبْهةٌ، تَمَسَّكوا به، وحَمَلُوهُ على مذهبهم، وإنْ لَمْ يكنْ دليلًا على ذلك، والألفاظُ الصريحةُ المخالفةُ لذلكَ إمَّا أن يُفَوِّضوها، وإمَّا أن يتأوَّلوها، كما يَصْنَعُ أهلُ الضلال؛ يَتَّبِعُونَ المُتَشَابِهَ مِنَ الأدلَّةِ العقليَّةِ والسمعيَّة، ويَعْدِلونَ عن المُحْكَمِ الصريح؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

الأمر الثانـي: أخبارٌ منقولةٌ إليهم عن الأنبياءِ ظَنُّوها صدقًا، وهي مكذوبةٌ عليهم، وَضَعَهَا عُبَّادُ الأصنامِ وأئمَّةُ الباطلِ؛ انتصارًا لمذاهبهم، وتأييدًا لباطلهم، وليس في جميعِ ما يُرْوَىٰ في هذا البابِ حديثٌ واحدٌ مرفوعٌ إلى النبيِّ ﷺ يُعْتَمَدُ عليه باتِّفاقِ أهلِ المعرفةِ بحديثِهِ ﷺ، بل المرويُّ في ذلك إنَّما يَعْرِفُ أهلُ المعرفةِ بالحديثِ أنَّه مِنَ الموضوعات، إمَّا تعمُّدًا مِنْ واضعِهِ، وإمَّا غلطًا منه؛ مثلُ نِسْبَتِهِمْ إلى الرسولِ ﷺ أنَّه قال: «لو حَسَّنَ أحدُكُمْ ظَنَّهُ في حَجَرٍ، لَنَفَعَهُ اللهُ به»(١)، ونحوَ ذلكَ مِنَ الإفكِ البيِّن، والكذبِ الواضح.

---

(١) أورده ملَّا علي قاري في «الموضوعات» (ص١٨٩)، **وقال**: «قال ابن تيميَّة: موضوعٌ، وقال ابن القيِّم: هو مِنْ كلامِ عُبَّادِ الأصنامِ الذين يُحسِنُونَ ظنَّهم بالأحجار، وقال ابن حَجَرٍ العسقلاني: لا أصلَ له».

الأمر الثالث: خوارقُ ظنُّوها مِنَ الآيات، وهي مِنْ أحوالِ الشيطان(١)، وحكاياتٌ حُكِيَتْ لهم عن أصحابِ القبور؛ مثلُ أنَّ فلانًا استغاثَ بالقبرِ الفلانيِّ في شِدَّةٍ، فخُلِّصَ منها، وفلانًا دعاه أو دعا به في حاجةٍ فقُضِيَتْ له، وفلانًا نزَلَ به ضُرٌّ، فاستَرْجَى صاحبَ القبر، فكشَفَ ضُرَّه. والنفوسُ مُولَعَةٌ بقضاءِ حوائجها، وإزالةِ ضروراتها. ومِنْ هذا المدخل نفَذَ الشيطانُ إلى قلوبِ هؤلاء، وتَدَرَّجَ بهم في دعوتهم إليه، فحَسَّنَ للواحدِ مِنْ هؤلاءِ أولًا الدعاءَ عندَ القبور، وأنَّه أرجَحُ منه في بيتِهِ ومَسْجِدِهِ وأوقاتِ سَحَرِه، فإذا تَقرَّرَ ذلكَ عنده، نقلَهُ درجةً أخرى مِنَ الدعاءِ عندَهُ إلى الدعاءِ به، والإقسامِ على اللهِ به، وهذا أعظمُ مِنَ الذي قبله، فإذا قَرَّرَ الشيطانُ عنده أنَّ الإقسامَ على اللهِ به أبلَغُ في تعظيمِهِ واحترامِهِ، وأنجَحُ في قضاءِ حَاجَتِه، نَقَلَهُ درجةً أخرى إلى دعائِهِ نفسِهِ مِنْ دونِ الله، ثمَّ ينقُلُهُ بعدَ ذلكَ درجةً أخرى إلى أن يَتَّخِذَ قبرَهُ وَثَنًا يَعْكُفُ عليه، ويُوقِدُ عليه القناديلَ، ويُعَلِّقُ الستورَ، ويبني عليه المَسْجِدَ، ويَعْبُدُهُ بالسجودِ له، والطوافِ به، وتقبيلِهِ، واستلامِهِ، والحجِّ إليه، والذبحِ عنده(٢).

والواجبُ الحَذَرُ مِنَ الشيطانِ وجنودِهِ، ولزومُ سبيلِ المؤمنينَ بإخلاصِ العملِ كلِّه للهِ ﷻ، مع المتابعةِ في ذلكَ كلِّه للرسولِ الكريمِ ﷺ، جعلَنَا اللهُ مِنْ أتباعه، وهدانا للزومِ سُنَّتِه.

❊ ❊ ❊

---

(١) **انظر:** «الجواب الصحيح» لابن تيمية (١/ ٣١٦ ـ ٣١٧).

(٢) **انظر:** «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

٨٠

خُطُورَةُ التَّعلُّقِ بِالْقُبُورِ

لقد تَقدَّمَ الكلامُ على فضلِ الدعاءِ ومكانتِهِ من الدِّين، وأنَّه حقٌّ خالصٌ للهِ لا يجوزُ صرفُهُ لغيره؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]؛ أي: لا تشركوا مع اللهِ أحدًا، ولكنْ أَفرِدُوا له التوحيدَ، وأَخْلِصوا له الدِّينَ. **والمسلمُ مطلوبٌ منه أن يَسْأَلَ اللهَ في كلِّ أحوالِهِ، ويَدْعُوَ اللهَ في جميعِ حاجاتِهِ، يسألُهُ وحدَهُ دونَ سواه، ويرجوهُ ولا يرجو غيرَهُ، ويُنْزِلُ حاجاتِهِ كلَّها به.**

۞ **ومِنْ عجيبِ أمرِ بعضِ الناسِ في هذا البابِ الخطير**: أنَّهم أَقْبَلُوا على غيرِ اللهِ من القِبَابِ والقبورِ والأضرحةِ ونحوِها، يستنجدون بأهلها، ويستغيثون بهم، ويسألونهم النَّصْرَ، والرِّزْقَ، والعافيةَ، وقضاءَ الديون، وتفريجَ الكُرُبات، وإغاثةَ اللَّهَفَات، وغيرَ ذلك مِنْ أنواعِ الطلبات، فبدَّلَ هؤلاءِ قولًا غيرَ الذي قيل لهم، بدَّلوا الدعاءَ لهم بدعائِهِمْ مِنْ دونِ الله، والترحُّمَ عليهم بطلبِ الرَّحْمةِ والمغفرةِ منهم. ومِنَ المُحَالِ أن يكونَ دعاءُ الموتى، أو الدعاءُ بهم، أو الدعاءُ عندهم أمرًا مشروعًا، أو عملًا صالحًا يَقْبَلُهُ الله، فهذه سُنَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ في أهلِ القبورِ بضعًا وعشرينَ سنةً حتى توفَّاه الله، وهذه سُنَّةُ خلفائِهِ الراشدين، وهذه طريقةُ جميعِ الصحابةِ والتابعينَ لهم بإحسان، هل يمكنُ لِبَشَرٍ على وجهِ الأرضِ أن يأتي عن أحدٍ منهم بنقلٍ صحيحٍ أو ضعيفٍ أو منقطعٍ أنَّهم كانوا إذا كان لهم حاجةٌ قَصَدُوا القبورَ، فدَعَوْا عندها، وتَمَسَّحُوا بها؟! فضلًا عن أن يُصَلُّوا عندها، أو يسألوا اللهَ بأصحابها، أو يسألوهُمْ حوائجَهُمْ؟! ولو كان ذلك سُنَّةً أو فضيلةً، لنُقِلَ عن الرسولِ الكريمِ ﷺ، ولَفَعَلَهُ الصحابةُ والتابعون، وقد كان عندهم قبرُ النبيِّ ﷺ وقبورُ ساداتِ الصحابة؛ فما منهم مَنِ استغاثَ عندَ قبرِ صاحبٍ، ولا دَعَاهُ، ولا دعا

به، ولا دعا عنده، ولا استَشْفَىٰ به، ولا استَسْقَىٰ به، وحاشاهم أن يفعلوا شيئًا مِنْ ذلك، بل ثبَتَ عنهم إنكارُ ما هو دون ذلكَ بكثير.

روى غيرُ واحدٍ عن المَعْرُورِ بن سُوَيْدٍ، قال: «صَلَّيْتُ خلفَ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه في طريقِ مكةَ صلاةَ الصُّبْحِ، فقرأَ فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، ثمَّ رأى الناسَ يذهبونَ مذاهبَ، فقال: أينَ يَذْهَبُ هؤلاءِ؟ فقيل: يا أميرَ المؤمنينَ، مَسْجِدٌ صلَّى فيه النبيُّ ﷺ، فهُمْ يُصَلُّونَ فيه، فقال: إنَّما هلَكَ مَنْ كان قَبْلَكُمْ بِمِثْلِ هذا، كانوا يَتَّبِعُونَ آثارَ أنبيائهم، ويَتَّخِذونها كنائسَ وبِيَعًا، فمَنْ أدركَتْهُ الصلاةُ منكم في هذه المساجِدِ فلْيُصَلِّ، ومَنْ لا، فلْيَمْضِ ولا يَتَعَمَّدْهَا»[(١)].

وأرسَلَ رضي الله عنه أيضًا، فقطَعَ الشجرةَ التي بايَعَ تحتها أصحابُ النبيِّ ﷺ؛ خشيةَ افتتانِ الناسِ بها[(٢)].

وروى محمَّد بن إسحاقَ في «مغازيه»، عن خالد بن دينار، قال: **حدَّثنا أبو العاليةِ** رحمه الله، **قال:** «لَمَّا فَتَحْنَا تُسْتُرَ، وَجَدْنا في بيتِ مالِ الهُرْمُزَانِ سريرًا عليه رجلٌ مَيِّتٌ، عندَ رأسِهِ مُصْحَفٌ له، فأخذْنَا المُصْحَفَ، فحَمَلْنَاهُ إلى عمرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه، فدعا له كعبًا، فنَسَخَهُ بالعربيَّة، فأنا أَوَّلُ رجلٍ من العرب قَرَأَهُ، قرأتُهُ مِثْلَ ما أقرأُ القرآنَ، فقلتُ لأبي العالية: ما كانَ فيه؟ قال: سِيرَتُكُمْ، وأمورُكُمْ، ولحونُ كلامكم، وما هو كائنٌ بعدُ. قلتُ: فما صنعتُمْ بالرَّجُلِ؟ قال: حَفَرْنَا بالنهارِ ثلاثةَ عشَرَ قبرًا متفرِّقةً، فلمَّا كان الليلُ دفنَّاه، وسَوَّيْنَا القبورَ كلَّها لِنُعَمِّيَهُ على الناسِ لا ينبشونَهُ، قلتُ: وما يرجونَ منه؟ قال: كانتِ السماءُ إذا حُبِسَتْ عنهم، بَرَزُوا بسريرِهِ فيُمْطَرُونَ، فقلتُ: مَنْ كنتم تظنُّون الرجلَ؟ قال: رجلٌ يُقالُ له: دانيالُ، فقلت: منذ كم وَجَدتُّمُوهُ مات؟ قال: منذُ ثلاثِمِائةِ سَنَةٍ، قلتُ: ما كان تَغيَّرَ منه شيءٌ؟ قال: لا، إلَّا شُعَيْراتٌ من

(١) «المصنف» لعبد الرزاق رقم (٢٧٣٤)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ١٥٢).
(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٧٦)، وصحَّحه الحافظ في «الفتح» (٧/ ٥١٣).

قفاه، إنَّ لحومَ الأنبياءِ لا تُبْلِيهَا الأرضُ، ولا تأكلُهَا السِّبَاع»؛ أورَدَ هذا الأثرَ ابنُ كثيرٍ في كتابِ «البداية والنهاية»، وقال: «إسنادُهُ صحيحٌ إلى أبي العالية»(١).

وفي هذا الأثرِ دَلَالةٌ على ما كانَ عليه السَّلَفُ رحمهمُ اللهُ من حِيطَةٍ كاملة، وحَذَرٍ شديدٍ في هذا البابِ الخطير، وما فعلَهُ المهاجرونَ والأنصارُ بتوجيهٍ مِنْ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب ﷺ مِنْ إخفاءٍ لقبرِ دانيالَ وتَعْمِيَةٍ لمكانِهِ: دليلٌ على ما كانوا عليه من حِيطَةٍ وحَذَرٍ لئلا يَفْتَتِنَ به الناس، ولو كان الدعاءُ عند القبورِ والصلاةُ عندها والتبرُّكُ بها فضيلةً وسُنَّةً أو مباحًا، لَنَصَبَ الصحابةُ هذا القَبْرَ عَلَمًا لذلك، ودَعَوْا عنده، وسَنُّوا ذلكَ لِمَنْ بعدَهم، ولكنْ كانوا أعلمَ باللهِ ورسولِهِ ودينِهِ مِمَّنْ جاءَ بَعْدَهم، وكذلكَ التابعونَ لهم بإحسانٍ سَارُوا على هذا السبيل، وقد كان عندهم مِنْ قبورِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بالأمصارِ عددٌ كثير، وهم متوافرون، فما منهم مَنِ استغاثَ عند قبرِ صاحب، ولا دعاهُ، ولا دعا به، ولا دعا عنده؛ ومِنَ المعلومِ أنَّ مِثْلَ هذا مِمَّا تتوافرُ الهِمَمُ والدواعي على نقله، بل على نَقْلِ ما هو دونَهُ، ولم يُنْقَلْ عنهم في فعلِ شيءٍ مِنْ ذلكَ حرفٌ واحد؛ وحينئذٍ يُقالُ: إنْ كان هذا الأمرُ مشروعًا وسُنَّةً، فكيف يخفى علمًا وعملًا على الصحابةِ والتابعينَ وتابعيهم؟! وكيف تكونُ القرونُ الثلاثةُ المفضَّلةُ جاهلةً به، مع حرصهم على كلِّ خير؟! وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ هذا الأمرَ ليسَ مِنْ دِينِ الله، ولا مِنْ شَرْعه، واللهُ يقولُ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فإذا لَمْ يَشْرَعِ اللهُ ذلكَ، فمَنْ شَرَعَهُ فقد شرَعَ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يأذنْ به الله، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

لقد ذكَرَ علماءُ الإسلامِ وأئمَّةُ الدِّينِ الأدعيَةَ الشرعيَّةَ المأخوذةَ

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٤٠).

مـن الكتـابِ والسُّنَّـةِ بحدودهـا الشرعيـَّة، وضوابطهـا المَرْعِيَّـة، وأعرضـوا تـمـامَ الإعـراضِ عـن الأدعيـةِ البدعيَّـة، والـواجـبُ اتِّباعُـهُـمْ فـي ذلـك، **ومَنْ يتأمَّلُ الأدعيةَ التي أحدَثَها الناسُ في هذا الباب، ولم تكنْ موجودةً عندَ الصحابةِ ومَنِ اتَّبَعَهُمْ بإحسان، يجدُ أنَّها على ثلاثِ مراتب**[1]:

إحـداها: أنْ يَدْعُوَ غيرَ اللهِ وهو مَيِّتٌ أو غائبٌ؛ سواءٌ كان مِنَ الأنبياء، أو الصالحينَ، أو غيرِهم، فيقولُ: يا سيِّدي فلانُ أَغِثْنِي، أو: أنا أستجيرُ بك، أو: أستغيثُ بك، أو: انْصُرْنِي على عدوِّي، وأَعْظَمُ مِنْ ذلكَ: أن يقولَ: اغْفِرْ لي، وتُبْ عليَّ، كما يفعلُهُ طائفةٌ من الجُهَّالِ المشركين، وأعظمُ مِنْ ذلكَ: أنْ يَسْجُدَ لقبره، ويُصَلِّيَ إليه، ويرى الصلاةَ فيه أفضلَ مِنِ استقبالِ القبلة؛ وكلُّ ذلك مِنَ الشركِ الناقلِ عن مِلَّةِ الإسلام.

الـثـانية: أن يقالَ للميِّتِ أو الغائبِ مِنَ الأنبياءِ والصالحين: ادعُ اللهَ لي، أو: ادعُ لنا ربَّك، أو: اسألِ اللهَ لنا؛ فهذا لا يستريبُ عالمٌ أنَّه غيرُ جائزٍ، وأنَّه مِنَ البِدَعِ التي لم يَفْعَلْهَا أحدٌ مِنْ سلفِ الأمةِ المُفْضِيَةِ إلى الشركِ بالله، **بل نصَّ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ **أنَّ ذلكَ عينُ الشِّرْك**؛ «سواءٌ طلَبَ منهم قضاءَ الحاجات، وتفريجَ الكُرُبات، أو طلَبَ منهم أن يَطْلُبُوا ذلكَ من الله»[2].

الثالثة: أن يُقالَ: أسأَلُكَ بحقِّ فلانٍ، أو بجاهِ فلانٍ عندك، أو نحوِ ذلك، وهذا أيضًا لَمْ يكنِ الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يفعلونَهُ، ولا يُعْرَفُ هذا في شيءٍ من الأدعيةِ المشهورةِ بينهم، وإنَّمَا يُنْقَلُ شيءٌ مِنْ ذلكَ في أحاديثَ ضعيفةٍ أو موضوعة.

۞ **وينبغـي أن يُعْلَمَ هنا أنَّه لو كانَ في شيءٍ ممَّا تَقدَّمَ ذِكْرُهُ خيرٌ، لَسَبَقَنَا إليه الصحابةُ، ولَدَلُّونَا عليه**، فإنْ كان هديًا صوابًا، فقد ضَلُّوا عنه، وهذا لا يقولُهُ عاقل، وإنْ كان الذي كانوا عليه هو الهُدَى والحَقَّ، فماذا بعد الحَقِّ إلَّا الضلال؟!

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٥٠ ـ ٣٥٦).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٤٠٦).

٨١

الْغُلُوُّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ

إنَّ مِنْ أعظمِ أسبابِ وقوعِ الشركِ في الدعاءِ ما أوحاهُ عدوُّ اللهِ وعدوُّ عبادِهِ المؤمنين إبليسُ، إلى حِزْبِهِ وأوليائِهِ، مِنَ الفتنةِ بقبورِ الأنبياءِ والأولياءِ والصالحين، حتى آل الأمرُ فيها إلى أنْ عُبِدَ أربابُها مِنْ دونِ الله، وعُبِدَتْ قبورُهم، واتُّخِذَتْ أوثانًا، وبُنِيَتْ عليها الهياكلُ، وصُوِّرَتْ أربابُهَا، ثمَّ جُعِلَتْ تلك الصُّوَرُ أجسادًا لها ظِلٌّ، ثمَّ جُعِلَتْ أصنامًا، وعُبِدَتْ مع الله تعالى، وكان أولُ وقوعِ هذا الداءِ في قومِ نُوحٍ، كما أخبرَ اللهُ سبحانه عنهم في كتابه؛ حيث يقولُ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح]، روى البخاريُّ في «صحيحه»، **عن ابن عبَّاس** رضي الله عنهما، **قال**: «هذه أسماءُ رجالٍ صالحينَ مِنْ قومِ نُوحٍ، فلمَّا هَلَكُوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم أنِ انْصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يَجْلِسُونَ فيها أنصابًا، وسَمُّوهَا بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعْبَدْ، حتى إذا هلَكَ أولئكَ وتَنَسَّخَ العلمُ، عُبِدَتْ»(١).

وقال ابن جرير في «تفسيره»: «وكان مِنْ خبرِ هؤلاءِ ـ فيما بلغنا ـ: ما حَدَّثَنَا به ابنُ حُمَيْدٍ، قال: حدَّثنا مِهْرانُ، عن سُفْيان، عن موسى، عن محمَّد بن قَيْس: أنَّ يغوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا كانوا قومًا صالحينَ مِنْ بني آدم، وكان لهم أتباعٌ يقتدونَ بِهم، فلمَّا ماتوا قال أصحابُهُمُ الذين كانوا يقتدونَ بهم: لو صوَّرناهم، كان أَشْوَقَ لنا إلى العبادةِ إذا ذكرناهم، فصوَّروهم، فلمَّا ماتوا وجاءَ آخَرُونَ، دَبَّ إليهم إبليسُ، فقال: إنَّما كانوا يَعْبُدُونَهُمْ، وبهم يُسْقَوْنَ المطرَ، فعَبَدُوهُمْ»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٢٨).

(٢) «تفسير ابن جرير» (١٢/ ٢٥٤).

ونُقِلَ هذا المعنى عن عددٍ مِنَ السَّلَفِ رحمهم الله؛ **قال ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال غيرُ واحدٍ من السلف: كان هؤلاءِ قومًا صالحينَ في قومِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلَمَّا ماتوا، عَكَفُوا على قبورهم، ثمَّ صَوَّروا تماثيلهم، ثمَّ طَالَ عليهم الأَمَدُ فعَبَدُوهُمْ»[١].

ولهذا تضافَرَتِ الأدلَّةُ، وتواتَرَتِ النصوصُ عن النبيِّ ﷺ؛ في المنع مِنْ ذلك، والتحذيرِ منه، والتغليظِ فيه، ولَعْنِ فاعله، ووَصْفِ مَنْ فعَلَهُ بأنَّهُ من شرارِ الخَلْق، وأنَّ ذلكَ ليس من سُنَنِ المسلمين، وإنَّما هو مِنْ سُنَنِ اليهودِ والنصارى؛ والنصوصُ عنه في هذا المعنى كثيرة:

روى البخاري، ومسلم، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ أمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذكَرَتْ لرسولِ اللهِ ﷺ كنيسةً رأتها بأرض الحَبَشَةِ، وما فيها مِنَ الصُّوَرِ، فقال: (**أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ**)[٢].

وروى مسلمٌ في «صحيحه»، عن جُنْدُبِ بنِ عبد الله البَجَليِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ قبل أن يموتَ بِخَمْسٍ وهو يقول: (**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ؛ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**)[٣].

وروى البخاري، ومسلم، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: (**قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**)، وفي رواية لمسلمٍ: (**لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**)[٤].

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٢٠٣).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٣٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٢٨).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٥٣٢).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٤٣٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٣٠).

وروى البخاريُّ، عن عائشة وابن عَبَّاس ﷺ، قالا: «لَمَّا نزَلَ برسولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً له على وَجْهه، فإذا اغتَمَّ بها كَشَفَهَا، فقال وهو كذلك: **(لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيائِهِمْ مَسَاجِدَ)**؛ يُحَذِّرُ ما صنعوا»[(١)].

وقالتْ عائشةُ ﵂: «قال رسولُ اللهِ ﷺ في مَرَضِهِ الذي لَمْ يَقُمْ منه: **(لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)**، ولولا ذلكَ، لَأُبرِزَ قبرُهُ، غيرَ أنَّه خَشِيَ أنْ يُتَّخَذَ مسجدًا»؛ رواه البخاري ومسلم[(٢)].

فقد نهى صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه عن اتخاذِ القبورِ مساجدَ في آخِرِ حياتِهِ، ثمَّ إنَّه لعَنَ ـ وهو في السِّيَاقِ ـ مَنْ فَعَلَ ذلكَ مِنْ أهلِ الكتابِ؛ لِيُحَذِّرَ أمتَهُ أنْ يفعلوا ذلك، والأحاديثُ والآثارُ المرويَّةُ في هذا البابِ كثيرةٌ جدًّا.

والنبيُّ ﷺ إنَّما نَهَى أُمَّتَهُ عن اتخاذِ القبورِ مساجدَ بِتَحَرِّي الدعاءِ أو العبادةِ عندها سَدًّا لذريعةِ الشِّرْك، ولأنَّهُ مَظِنَّةُ اتخاذِهَا أوثانًا؛ **قال الإمامُ الشافعيُّ** ﵀: «وأكرَهُ أنْ يُعَظَّمَ مخلوقٌ حتى يُجْعَلَ قَبْرُهُ مسجدًا؛ مخافةَ الفتنةِ عليه وعلى مَنْ بعدَهُ مِنَ الناسِ»[(٣)].

وقد ذكَرَ هذا المعنى غيرُ واحدٍ مِنْ أهلِ العلم، وأمَّا مَنْ علَّل ذلكَ بأنَّها مَظِنَّةُ النَّجاسةِ لِمَا يَخْتلِطُ بالترابِ مِنْ صديدِ الموتى، فقد أبعَدَ غايةَ البُعْد؛ لأنَّ نجاسةَ الأرضِ مانعٌ مِنَ الصلاةِ عليها، سواءٌ كانتْ مَقْبُرَةً أو لَمْ تكنْ، ولأنَّ النبيَّ ﷺ قد نبَّه على العِلَّةِ بقوله: **(اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ)**[(٤)]، وبقوله: **(إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ؛ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)**[(٥)].

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٣٥، ٤٣٦).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (١٣٩٠، ٤٤٤١)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٢٩).
(٣) **انظر**: «المجموع» للنووي (٥/ ٣١٤).
(٤) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٦)، و«موطأ مالك» رقم (٤١٦).
(٥) رواه مسلم رقم (٥٣٢).

قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «**وبالجملةِ**: فمَنْ له معرفةٌ بالشِّرْكِ وأسبابِهِ وذرائعِهِ، وفَهِمَ عن الرسولِ ﷺ مقاصدَهُ، جزَمَ جزمًا لا يحتملُ النقيضَ أنَّ هذه المبالغةَ منه باللَّعْنِ والنهيِ بصيغتَيْهِ: صيغة (**لَا تَفْعَلُوا**)، وصيغةِ (**إِنِّي أَنْهَاكُمْ**)، ليس لأجل النَّجَاسةِ، بل هو لأجلِ نجاسةِ الشِّرْكِ اللاحقةِ بمَنْ عصاه، وارتكَبَ ما عنه نهاه، واتَّبَعَ هواه، ولم يَخْشَ رَبَّهُ ومولاه، وقلَّ نصيبُهُ أو عُدِمَ في تحقيقِ شهادةِ لا إلـه إلَّا الله؛ فإنَّ هذا وأمثالَهُ من النبيِّ ﷺ صيانةٌ لحِمَى التوحيدِ أن يَلْحَقَهُ الشركُ ويغشاه، وتجريدٌ له وغَضَبٌ لربِّه أن يُعْدَلَ به سواه، فأبى المشركونَ إلَّا معصيةً لأمرِهِ وارتكابًا لنهيه، وغرَّهم الشيطانُ، فقال: بل هذا تعظيمٌ لقبور المشايخِ والصالحين، وكلَّما كنتم أشدَّ لها تعظيمًا وأَشَدَّ فيهم غُلوًّا، كنتم بِقُرْبِهِمْ أسعدَ، ومِنْ أعدائهم أبعدَ، ولعَمْرُ اللهِ، مِنْ هذا البابِ بعَيْنِهِ دخَلَ على عُبَّادِ يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرٍ، ومنه دخَلَ على عُبَّادِ الأصنامِ منذُ كانوا إلى يومِ القيامة، فجمَعَ المشركون بين الغلوِّ فيهم والطعنِ في طريقتهم، وهَدَى اللهُ أهلَ التوحيدِ لسلوكِ طريقتهم، وإنزالِهم مَنَازِلَهُمُ التي أنزلهم الله إيَّاها مِنَ العبوديَّة، وسَلْبِ خصائصِ الإلـهيةِ عنهم؛ وهذا غايةُ تعظيمهم وطاعتهم»(١).

۞ **وبما تَقدَّمَ يَتبيَّنُ أنَّ أصلَ الشركِ في الأوَّلينَ والآخرينَ إلى قيامِ الساعةِ**: الغُلُوُّ في الصالحين، واللهُ ﷻ إنَّما أمرنا بمحبَّتهم، وإنزالِهِمْ مَنَازِلَهُمْ من العبوديَّة، وسَلْبِ خصائصِ الإلـهيَّةِ عنهم؛ وهذا غايةُ التعظيمِ لهم، وطَاعَتِهِمْ واتباعِ سبيلهم، ونهانا عن الغلوِّ فيهم، فلا نَرْفَعُهم فوق منازلهم، ولا نَحُطُّهم منها؛ لِمَا يَعْلَمُهُ تعالى في ذلكَ مِنَ الفسادِ العظيم، فما وقَعَ الشركُ إلَّا بسببِ الغلوِّ فيهم، فتَجِدُ الغالين فيهم عاكفينَ على قبورهم، يدعونهم، ويسألونهم، ويَنْذُرُونَ لهم، وفي الوقتِ نفسِه هم مُعْرِضُونَ عن طريقتهم وسبيلهم، بل عائبون لها ومشتغلون بقبورهم عمَّا أَمَرُوا به ودَعَوْا إليه. وتعظيمُ الأنبياءِ والصالحينَ إنَّما يكونُ باتِّبَاعِ ما دَعَوْا إليه مِنَ العلمِ النافعِ، والعملِ الصالحِ، واقتفاءِ آثارِهِمْ، وسلوكِ طريقتهم، دُونَ عبادَتِهِمْ، وعبادةِ قبورهم.

---

(١) «إغاثة اللَّهفان» (١/٢٠٨ ـ ٢٠٩).

٨٢

إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ

لا شكَّ أنَّ كلَّ مسلـم يدعو اللهَ تبارَكَ وتعالى، **يدعوهُ وهو يرجو أن يجيبَ دعاءَهُ، ويُحَقِّقَ رجاءَهُ، ويعطيَهُ سُؤْلَهُ**، إلَّا أنَّ الدعاءَ له شروطٌ عظيمة، وآدابٌ مهمَّةٌ ينبغي على المسلمِ أن يعتنيَ بها، ويحافظَ عليها؛ ليُستجابَ له بتحقيقِهَا دعاؤُهُ، ولِيتحقَّقَ له بتكميلها أملُهُ باللهِ ورجاؤُهُ، وهذه الشروطُ والآدابُ، وإنْ كانتْ جميعُها مهمَّةً عظيمةً، إلَّا أنَّها متفاوتةٌ في الأهميَّةِ؛ بعضُها أهمُّ من بعض، فمنها شروطُ صِحَّةٍ لا يُستجابُ الدعاءُ إلَّا بها، ومنها آدابٌ وسُنَنٌ ومُكمِّلاتٌ، والمسلمُ المُوَفَّقُ يحافظُ على ذلكَ كلِّه، ويعتني به جميعِهِ؛ لِيَكْمُلَ له نصيبُهُ من الخير.

وقد مَرَّ معنا الإشارةُ إلى جملةٍ طَيِّبَةٍ من شروطِ الدعاءِ وآدابه، ولا سيَّما عند ذكرِ حديثِ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ المُخَرَّجِ في «صحيح مسلم»، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ؛ فَقَالَ تَعَالَى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وَقَالَ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!**)[1]. وفي قوله ﷺ في هذا الحديث: (**فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!**): إشارةٌ إلى أنَّ لِقَبُولِ الدعاءِ واستجابتِهِ شروطًا لا بدَّ من تحقيقها، وضوابطَ لا بدَّ مِنِ التزامها، والمخلُّ بها حَرِيٌّ به ألَّا يستجابَ دعاؤه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٨٠).

ويأتي في مقدِّمةِ شروطِ الدعاء، بل وفي مقدِّمةِ شروطِ كلِّ طاعةٍ يَتقرَّبُ بها العبدُ إلى اللهِ: الإخلاصُ لله تبارَكَ وتعالى؛ فهو شرطٌ أساسٌ وقَيْدٌ مُهِمٌّ، لا قَبُولَ للدعاءِ، ولا لأيِّ عبادةٍ إلَّا بتحقيقِهِ والإتيانِ به؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وثبَتَ في الحديثِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لابن عَبَّاس رضي الله عنهما: **(إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ!)**(١).

فقولُهُ ﷺ: **(إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ)**: أمرٌ بالإخلاصِ للهِ تعالى في السؤالِ والاستعانةِ بأَن لَا يُسْأَلَ إلَّا اللهُ، ولا يُستعانَ إلَّا به، وهذا أمرٌ مُتعيِّنٌ على كلِّ مسلم؛ «لأنَّ السؤالَ فيه إظهارُ الذُّلِّ من السائلِ والمسكنةِ والحاجةِ والافتقارِ، وفيه الاعترافُ بقُدرةِ المسؤولِ على دفعِ هذا الضررِ، ونيلِ المطلوب، وجَلْبِ المنافعِ، ودَرْءِ المضارِّ، ولا يصلُحُ الذُّلُّ والافتقارُ إلَّا للهِ وحدَهُ؛ لأنَّهُ حقيقةُ العبوديَّةِ»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «ومِنْ أعظمِ الاعتداءِ والعُدْوان، والذُّلِّ والهوان: أن يُدْعَى غيرُ الله؛ فإنَّ ذلكَ مِنَ الشِّرْكِ، والله لا يغفرُ أن يُشْرَكَ به، و﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وسؤالُ المخلوقِ مُحرَّمٌ لغيرِ الحاجةِ، **[أي: فيما يَقْدِرُ عليه]**؛ كما ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ في

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣)، والترمذي رقم (٢٥١٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح جامع الترمذي» رقم (٢٠٤٣).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨١).

الأحاديثِ الصحيحةِ في تحريمِ المسألةِ له ولغيره؛ كحديثِ حَكِيم، وقَبِيصةَ، وغيرِهما؛ ففي حديثِ حَكِيم بن حِزَام قال: «سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ، فأَعْطَاني، ثمَّ سألتُهُ فأعطاني، ثمَّ سألتُهُ فأعطاني، ثمَّ قال: (**يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى**)»، أخرجاه(١).

وعن عَوْف بن مالكٍ الأَشْجَعيِّ، قال: «كنَّا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ سبعةً أو ثمانيةً، فقال: (**أَلَا تُبَايِعُون؟**)، فقلنا: قد بايَعْنَاكَ يا رسولَ اللهِ، فعَلَامَ نُبايِعُكَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: (**عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وَأَنْ تُطِيعُوا** - وأسَرَّ كلمةً خَفِيَّةً - **وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا**)، قال: فلقد رأيتُ بعضَ أولئكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أحدهم، فما يسألُ أحدًا أنْ يُناوِلَهُ إيَّاه»؛ رواه مسلم(٢).

وعن قَبِيصَةَ بنِ مُخَارِقٍ الهِلَاليِّ، أنَّه قال: «تَحمَّلْتُ حَمَالَةً، فأتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ أسألُهُ فيها، فقال: (**أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا**، ثُمَّ قال: **يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ المَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٌ تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، ورَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الحِجَىٰ مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ**، أَوْ قَالَ: **سِدَادًا، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ المَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ فَسُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا**)»؛ رواه مسلمٌ، وأبو داود، والنَّسَائي(٣).

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٤٧٢)، و«صحيح مسلم» رقم (١٠٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (١٠٤٣).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (١٠٤٤)، و«سنن أبي داود» رقم (١٦٤٠)، و«سنن النسائي» (٥/ ٨٩).

وتركُ السؤالِ للمخلوقِ اعتياضًا بسؤالِ الخالقِ أفضلُ مطلقًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح]... وفي «الصحيحَيْن»، عن أبي سعيد الخدريِّ، قال: «أصابتني فاقةٌ، فأتيتُ النبيَّ ﷺ فوجدتُّهُ يَخْطُبُ الناسَ وهو يقولُ: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، وَاللهِ مَهْمَا يَكُونُ عِنْدَنَا مِنْ خَيْرٍ، فَلَنْ نَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**)، فقلتُ في نفسي: والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ لا أَسْأَلُكَ شيئًا، فَرَجَعْتُ، فأَغْنَى اللهُ، وجاءَ بِخَيْرٍ»[١]؛ فأبو سعيدٍ فَهِمَ من كلام النبيِّ ﷺ أنَّ تركَ سؤالِهِ تَعَفُّفًا واستغناءً خيرٌ له مِنْ سؤالِه، فإذا كان تركُ سؤالِ الأنبياءِ في حياتهم أفضلَ مَعَ الحاجةِ والفاقةِ، ومَعَ عَدَمِ الحاجةِ يكونُ حرامًا، فكيفَ سؤالُ الغائبِ والمَيِّتِ منهم ومِنْ غيرهم...»[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ سؤالَ المخلوقينَ فيه ثلاثُ مفاسدَ: مفسدةُ الافتقارِ إلى غيرِ الله، وهي مِنْ نوعِ الشرك، ومفسدةُ إيذاءِ المسؤول، وهي مِنْ نوعِ ظلمِ الخَلْق، وفيه ذُلٌّ لغيرِ اللهِ، وهو ظلمٌ للنفس؛ فهو مُشْتَمِلٌ على أنواعِ الظلمِ الثلاثة»[٣]. اهـ كلامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

۞ **والمسلمُ الموفَّقُ يعلمُ علمَ يقينٍ أنَّه لا يَنْفَعُ ولا يَضُرُّ، ولا يُعْطِي ولا يمنعُ غيرُ الله**؛ ولهذا فهو يُفْرِدُهُ وحدَهُ بالخَوْفِ والرجاء، والمحبَّةِ والسؤال، والتضرُّعِ والدعاء، والذُّلِّ والخضوع، وإنَّا لنرجوهُ سبحانه أن يُوَفِّقَنا لتحقيقِ ذلك، وألَّا يَكِلَنَا إلى أحدٍ سواه، فإنَّه سبحانَهُ نِعْمَ المسؤول، ونِعْمَ المرجوُّ والمستعان.

❁ ❁ ❁

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٤٦٩، ٦٤٧٠)، و«صحيح مسلم» رقم (١٠٥٣) بلفظ مقارب.
(٢) «تلخيص الاستغاثة» (١/ ٢١٠ ـ ٢١٦) باختصار.
(٣) «قاعدة جليلة، في التوسل والوسيلة» (ص٦٦).

٨٣

تَرْوِيجُ أَهْلِ الْبَاطِلِ لِلأَدْعِيَةِ الْبَاطِلَةِ بِالحِكَايَاتِ الْمُلَفَّقَةِ

سبَقَ الكلامُ عن أهميَّةِ الإخلاصِ في الدعاءِ، وأنَّه شرطٌ مهمٌّ مِنْ شروطِ قبوله، وأنَّ عَدَمَ إخلاصِهِ لله مِنْ أعظمِ الاعتداءِ والعدوان، والذُّلِّ والهوان، سواءٌ في ذلك مَنْ دعا غيرَ اللهِ دعاءً مستقِلًّا، أو جعَلَهُ واسطةً بينه وبينَ الله؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ أعظمِ الإثم، وأشدِّ الضلال، واللهُ يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

۞ **وهٰهنا أمرٌ لا بدَّ مِنَ التنبيه عليه؛ وهو:** أنَّ طائفةً مِنَ الضُّلَّالِ مِنْ عُبَّادِ القبور والأضرحةِ والقِبَابِ ونحوها قد يُلَبِّسُونَ على العوامِّ وجهَّالِ الناسِ في هذا البابِ بذكرِ بعضِ القِصَصِ والأخبارِ بأنَّ فلانًا دعا عندَ قبرِ فلانٍ فأُجِيبَ، وأنَّ جماعاتٍ دَعَوْا عندَ قبورِ جماعاتٍ من الأنبياءِ والصالحينَ فاستجيبَ لهم الدعاءُ، وكقولهم: إنَّ قبرَ فلانٍ تِرْيَاقُ المجرِّبين، وزَعْمِهِمْ بأنَّه عند القبورِ تُقالُ العَثَرات، وتستجابُ الدَّعوات، وتَتنزَّلُ الرَّحمات، وأنَّ بعضَهم رأى مناماتٍ في الدعاءِ عندَ قبورِ بعضِ الأشياخ، وجَرَّبَ أقوامٌ استجابةَ الدعاءِ عندَ قبورٍ معروفة، ونحوِ ذلك مِمَّا لَبَّسَ به هؤلاءِ الضُّلَّالُ على بعضِ جُهَّالِ المسلمين، فصَرَفُوهُمْ بذلكَ عن التوحيدِ الخالص، واليقينِ الصادق، والثقةِ باللهِ إلى التعلُّقِ بالقبور، والعُكُوفِ عندها، والاستغاثةِ بأهلها، ودعائِهم مِنْ دونِ الله.

وما مِنْ رَيْبٍ أنَّ القِصَصَ والحكاياتِ لها تأثيرٌ بالغٌ في قلوبِ العامَّةِ والجُهَّالِ، فكم أوقَعَتْ كثيرًا منهم في صنوفِ الضَّلَال، وأنواعٍ مِنَ الباطل، والواجبُ على عبدِ اللهِ المسلم أن لا يَبْنِيَ دِينَهُ على شيءٍ مِنْ ذلكَ؛ إذْ لا عبرةَ به، ولا مُعَوَّلَ عليه، ولا حُجَّةَ فيه، وإنَّما الحُجَّةُ في كتابِ اللهِ تعالى،

وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، لا في الحكاياتِ المُخْتَلَقَة، والقِصَصِ المُلَفَّقَة، والأخبارِ المزوَّرة.

قال الإمام العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ **وهو بصدد بيانِ بعضِ الأمورِ التي أوقَعَتْ بعضَ الناسِ في الافتتانِ بالقبورِ والتعلُّقِ بها، مع أنَّ ساكنيها أمواتٌ لا يملكونَ لهم ضَرًّا ولا نَفْعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، قال** رَحِمَهُ اللهُ: «ومنها [أي: الأمور التي أدَّت إلى ذلك]: حكاياتٌ حُكِيَتْ لهم عن تلكَ القبور: أنَّ فلانًا استغاثَ بالقبرِ الفلانيِّ فِي شِدَّةٍ، فخَلَصَ منها، وفلانًا دعاه أو دعا به في حاجةٍ، فقُضِيَتْ له، وفلانًا نزَلَ به ضُرٌّ، فاستَرْجَى صاحبَ ذلكَ القبرِ، فكَشَفَ ضُرَّه، وعند السَّدَنَةِ والمَقَابِرِيَّةِ مِنْ ذلكَ شيءٌ كثيرٌ يطولُ ذكرُهُ، وهم مِنْ أكذبِ خَلْقِ اللهِ تعالى على الأحياءِ والأمواتِ...»، إلى آخرِ كلامه رَحِمَهُ اللهُ[1].

وما كان لهذا التقريرِ الفاسد، والاستدلال الباطل أنْ يَرُوجَ بينَ أحدٍ من المنتسبينَ للإسلام، والمنتمينَ لهذه المِلَّةِ الحنيفيَّةَ؛ لولا غَلَبَةُ الجَهْلِ، وقِلَّةُ العلمِ بحقيقةِ ما بعَثَ اللهُ به رسولَهُ ﷺ، بل جميعَ الرُّسُل؛ مِنْ تحقيقِ التَوحيدِ، وقطعِ أسبابِ الشركِ ووسائلِه.

وقد ذَكَرَ أهلُ العلم أجوبةً كثيرةً ووجوهًا عديدةً في الرَّدِّ تُبيِّنُ وَهَاءَ هذا الاستدلالِ وفسادَهُ، **ومِنْ تلك الأجوبة**:

أنَّ دِينَ الله تامٌّ كاملٌ لا نَقْصَ فيه؛ والله يقول: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]، فما لَمْ يكنْ دِينًا زمنَ نبيِّنا ﷺ وأصحابِهِ، فليسَ اليومَ دينًا، ولنْ يكونَ دينًا إلى أنْ تقومَ الساعةُ، واللهُ جلَّ وعلا لا يَقْبَلُ في الدِّينِ إلَّا ما دَلَّ عليه كتابُهُ وسُنَّةُ نبيِّه ﷺ، وأمَّا الحكاياتُ والمناماتُ، والقِصَصُ والأخبارُ، فليستْ مما يُقامُ عليه شرعٌ، أو يُبنى عليه دينٌ؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ: «وإنَّما المُتَّبَعُ عند علماءِ الإسلام في إثباتِ الأحكامِ هو: كتابُ اللهِ، وسُنَّةُ رسولِهِ ﷺ، وسبيلُ السابقينَ الأوَّلين، ولا يجوزُ إثباتُ حكمٍ شرعيٍّ بدونِ هذه الأصولِ الثلاثة

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٣٣).

نصًّا أو استنباطًا بحال»(١).

ولَم يَرِدْ في تحرِّي الدعاءِ عندَ القبورِ آيةٌ مُحْكَمةٌ، ولا سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، ولم يُنْقَلْ في جوازِ ذلكَ شيءٌ ثابتٌ عن القرونِ الثلاثةِ المفضَّلةِ التي أثنى عليها رسولُ اللهِ ﷺ؛ حيثُ قال: (**خَيْرُ أُمَّتِي القَرْنُ الذِي بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**)(٢)، ولم يُنْقَلْ شيءٌ مِنْ ذلكَ عن إمامٍ معروف، ولا عالِمٍ مُتَّبَع.

ثُمَّ إنَّ كثيرًا مِنْ هذه الحكاياتِ والمناماتِ التي تُرْوَى في هذا البابِ لا تصحُّ عَمَّنْ نُقِلَتْ عنه، وإنَّما هي مُتقوَّلَةٌ مكذوبةٌ مفتراةٌ، ولا سيَّما منها ما يُنْسَبُ إلى بعضِ أهلِ العلمِ والفضل؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا ـ والحمدُ للهِ ـ لَم يُنْقَلْ عن إمامٍ معروف، ولا عالمٍ مُتَّبَع؛ بل المنقولُ في ذلكَ إمَّا أنْ يكونَ كذبًا على صاحبِهِ، وإمَّا أن يكونَ المنقولُ مِنْ هذه الحكاياتِ عن مجهولٍ لا يُعْرَفُ، ومنها ما قد يكونُ صاحبُهُ قالَهُ أو فَعَلَهُ باجتهادٍ يخطئُ فيه ويُصِيب، أو قالَهُ بقيودٍ وشروطٍ كثيرةٍ على وجهٍ لا محذورَ فيه، فحُرِّفَ النقلُ عنه، كما أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا أذِنَ في زيارةِ القبورِ بعدَ النهيِ عنها، فَهِمَ المُبْطِلُونَ أنَّ ذلكَ هو الزيارةُ التي يفعلونها مِنْ حَجِّها للصلاةِ عندها والاستغاثةِ بها»(٣).اهـ.

ثُمَّ إنَّ قضاءَ حاجاتِ بعضِ هؤلاءِ الداعينَ، وتَحَقُّقَ رَغَبَاتِهم لا يَدُلُّ على صِحَّةِ عَمَلِهم وسلامتِه؛ فقد تكونُ الإجابةُ استدراجًا وابتلاءً وامتحانًا، فليس مُجَرَّدُ كونِ الدعاءِ حصَلَ به المقصودُ، أو تَحقَّقَ به المرادُ دليلًا على أنه سائغٌ في الشريعة؛ فإنَّ حصولَ التأثيرِ ليس دليلًا على المشروعيَّة، فالسِّحْرُ والطِّلْسَمَاتُ والعَيْنُ وغيرُ ذلك مِنَ المُؤَثِّراتِ فِي العَالَم بإذنِ اللهِ قد يقضي اللهُ بها كثيرًا مِنْ أغراضِ النفوسِ الشِّرِّيرَة، ومَعَ ذلكَ فهي مُحرَّمةٌ وباطلةٌ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «وليس مُجرَّدُ كونِ الدعاءِ حصَلَ به

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٣٤٤).
(٢) رواه مسلم رقم (٢٥٣٤).
(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٣٤٣ ـ ٣٤٤) مختصرًا.

المقصودُ ما يَدُلُّ على أنَّه سائغٌ في الشريعة؛ فإنَّ كثيرًا من الناسِ يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ مِنَ الكواكبِ والمخلوقين، ويَحْصُلُ ما يحصُلُ مِنْ غَرَضِهم، وبعضُ الناسِ يقصدونَ الدعاءَ عندَ الأوثانِ والكنائسِ وغيرِ ذلك، ويدعو التماثيلَ التي في الكنائس، ويَحْصُلُ ما يحصُلُ مِنْ غَرَضِهِ، وبعضُ الناسِ يدعو بأدعيةٍ مُحرَّمةٍ باتِّفَاقِ المسلمين، ويَحْصُلُ ما يَحْصُلُ مِنْ غرضهم.

فحصولُ الغرضِ ببعضِ الأمورِ لا يستلزمُ إباحتَهُ، وإنْ كان الغرضُ مباحًا؛ فإنَّ ذلكَ الفعلَ قد يكونُ فيه مفسدةٌ راجحةٌ على مصلحته، والشريعةُ جاءتْ بتحصيلِ المصالحِ وتَكْمِيلِهَا، وتَعْطِيلِ المفاسدِ وتَقْلِيلِهَا، وإلَّا فجميعُ المُحَرَّماتِ مِنَ الشركِ والخَمْرِ والميسرِ والفواحشِ والظلمِ قد يَحْصُلُ لصاحبِهِ به منافعُ ومقاصدُ، لكنْ لمَّا كانتْ مفاسدُها راجحةً على مصالحها، نهى اللهُ ورسولُه عنها، كما أنَّ كثيرًا مِنَ الأمورِ ـ كالعباداتِ، والجَهادِ، وإنفاقِ الأموال ـ قد تكونُ مُضِرَّةً، لكنْ لَمَّا كانتْ مصلحتُهُ راجحةً على مَفْسَدَتِهِ أمَرَ به الشارعُ، فهذا أصلٌ يجبُ اعتبارُه»[1].

ثمَّ إنَّ تلكَ التأثيراتِ قد تكونُ من الشيطان؛ فإنَّه قد يَتَرَاءَى لبعضِ هؤلاءِ في صورةِ مَنْ يُعَظِّمُهُ أو يعتقدُ فيه أو يَنْتَسِبُ إليه، وقد يُخَاطِبُ هؤلاءِ، أو يقضي بعضَ حوائجهم بإذنِ الله، فيكونُ فتنةً لهم، ويُظَنُّ أنَّ ذلكَ كَرَامَةٌ لهؤلاءِ المدعوِّين، وما هو في الحقيقةِ إلَّا فتنةٌ، ولا يَعْلَمُ هؤلاءِ أنَّ هذا مِنْ جنسِ ما تفعلُهُ الشياطينُ بِعُبَّادِ الأوثان؛ حيثُ تتراءى أحيانًا لِمَنْ يَعْبُدُها، وتخاطبُهُمْ ببعضِ الأمورِ الغائبة، وتقضي لهم بعضَ طَلَبَاتِهم؛ فكان ذلكَ أعظمَ أسبابِ عبادةِ الأوثانِ والتعلُّقِ بها.

والحاصلُ: أنَّ مثلَ تلكَ الحكاياتِ لا يَسْتَقِيمُ الاحتجاجُ بها، ولا يصحُّ الاعتمادُ عليها، ولا يُبْنَى دِينُ اللهِ على شيءٍ منها، وإنَّما يُبْنَى على ما جاءَ في الكتابِ والسُّنَّة، لا على الظنونِ والتَّخرُّصَات، والقِصَصِ والحكايات، والتَّجارِبِ والمنامات، أعاذنا اللهُ مِنَ الزَّلَل، ووفَّقَنا لصائبِ القولِ وصحيحِ العَمَل.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

٨٤

مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ عَدَمُ اسْتِعْجَالِ الْإِجَابَةِ

إنَّ مِنْ آداب الدعاءِ العظيمةِ: **أن لَا يَسْتَعْجِلَ الدعاء، ويستبطئَ الإجابة،** فيَسْتَحْسِرُ، ويَمَلُّ، ويتركُ الدعاءَ، ويقعُ في اليأسِ مِن رَوْحِ اللهِ، والقنوطِ من رحمتِهِ؛ وقد ورَدَ في الحديثِ عن النبيِّ ﷺ النهيُ عن استعجالِ الدعاء، وأنَّ ذلك مِنْ موانِعِ إجابتِهِ، وأسبابِ عدم قبوله؛ ففي «الصحيحين»، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: (**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**)(١)، وفي لفظٍ عندَ مسلم: (**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**)، قيل: يا رسولَ اللهِ، ما الاستعجالُ؟ قال: (**يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَدَعُ الدُّعَاءَ**)(٢).

قال ابن حَجَرٍ رحمه الله: «وفي هذا الحديثِ أدبٌ مِنْ آدابِ الدعاء، وهو أنَّه يُلازِمُ الطلبَ، ولا يَيْئَسُ مِنَ الإجابة؛ لِمَا في ذلكَ مِنَ الانقيادِ والاستسلامِ وإظهارِ الافتقار، حتى قال بعضُ السَّلَفِ: لَأَنَا أَشَدُّ خشيةً أنْ أُحْرَمَ الدعاءَ من أن أُحْرَمَ الإجابةَ... وقال الداووديُّ: يُخْشَى على مَنْ خالَفَ، وقال: قد دَعَوْتُ فلم يستجبْ لي أن يُحْرَمَ الإجابةَ، وما قام مَقَامَها مِنَ الادِّخارِ والتكفير»(٣).

ونقَلَ عن ابن بَطَّالٍ أنَّه قال في شرح الحديث: «**المعنى**: أنَّه يَسْأَمُ، فيترُكُ الدعاءَ، فيكونُ كالمانِّ بدعائه، أو أنَّه أتى مِنَ الدعاء ما يستحقُّ به الإجابةَ، فيصيرُ كالمُبَخِّلِ للرَّبِّ الكريم الذي لا تُعْجِزُهُ الإجابةُ، ولا يُنْقِصُهُ العطاءُ».

(١) تقدم تخريجه (ص٢٨٠).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢٨١).
(٣) «فتح الباري» (١١/ ١٤١).

❁ **إنَّ الواجبَ على مَنْ أراد أن يُحقِّقَ اللهُ رجاءَهُ، وأنْ يُجِيبَ دعاءَهُ:** أن يَدْعُوَ ربَّهُ وهو مُوقِنٌ بالإجابة؛ عظيمُ الثقةِ باللهِ، شديدُ الرجاءِ فيما عنده.

قال ابن رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ومِنْ أعظمِ شرائطِهِ [**أي**: الدعاء]: حضورُ القَلْب، ورجاءُ الإجابةِ مِنَ اللهِ تعالى؛ كما خرَّج الترمذيُّ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **(ادْعُوا اللهَ، وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ)**(١)، وفي «المسند»، عن عبد الله بن عَمْرٍو، عن النبي ﷺ، قال: **(إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ، فَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاءً مِنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ)**(٢)؛ ولهذا نُهِي العبدُ أن يقولَ في دعائه: **(اللَّهُمَّ، اغْفِرِ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ)**(٣)، ونُهِيَ أن يَسْتعجِلَ، ويَتْرُكَ الدعاءَ؛ لاستبطاءِ الإجابة، وجُعِلَ ذلك مِنْ موانعِ الإجابة، حتى لا يَقْطَعَ رجاءَهُ مِنْ إجابةِ دعائِهِ ولو طالتِ المُدَّة؛ فإنَّه سبحانَهُ يُحِبُّ الملحِّين في الدعاء... فما دام العبدُ يُلِحُّ في الدعاءِ ويَطْمَعُ في الإجابةِ مِنْ غيرِ قطعِ الرجاء، فهو قريبٌ مِنَ الإجابة، ومَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ الأبواب، يُوشِكُ أن يُفْتَحَ له». اهـ(٤).

وكيف لا يكونُ المسلمُ واثقًا بربِّه والأمورُ كلُّها بيده، ومعقودةٌ بقضائِهِ وقَدَرِه؟! فما شاءَ اللهُ كان كما شاء، في الوقتِ الذي يشاء، على الوجهِ الذي يشاء، مِنْ غيرِ زيادةٍ ولا نُقْصان، ولا تَقدُّمٍ ولا تأخُّر، وحُكْمُهُ سبحانه نافذٌ في السمٰواتِ وأقطارِها، وفي الأرضِ وما عليها وما تحتها، وفي البحارِ والجَوِّ، وفي سائرِ أجزاءِ العالَم وذرَّاتِهِ، يُقلِّبُها ويُصرِّفُها، ويُحْدِثُ فيها ما يشاء؛ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٨٠).

(٢) «المسند» (٢/ ١٧٧)، وإسنادُهُ ضعيف؛ لأنَّ فيه عبدَ اللهِ بنَ لَهِيعَةَ، وهو سيِّىء الحِفْظِ، وباقي رجالِهِ ثقاتٌ، إلَّا أنَّ له شاهدًا يتقوَّى به عند الإمام الترمذيِّ في «جامعه» رقم (٣٤٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، **وانظر**: «الصحيحة» رقم (٥٩٤).

(٣) تقدم تخريجه (ص٢٧٣).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

أحاطَ بكلِّ شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا، ووَسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وحِكْمةً، له الخلقُ والأمر، وله المُلكُ والحَمْد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمةُ والفَضْل، وله الثناءُ الحَسَن، شَمِلتْ قدرتُهُ كلَّ شيء، ووَسِعَتْ رحمتُهُ كلَّ شيءٍ، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩]، لا يتعاظمُهُ ذنبٌ أن يَغفِرَه، ولا حاجةٌ يُسْألُها أنْ يُعْطِيَها، لَوْ أنَّ أهلَ سمٰواتِهِ وأهلَ أرضِهِ إنْسَهم وجِنَّهم، حَيَّهم ومَيِّتَهم، صَغِيرَهم وكَبِيرَهم، رَطْبَهُمْ ويابسهم، قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألُوهُ، فأعطىٰ كلَّ واحدٍ منهم ما سأله، ما نقَصَ ذلك مما عنده مثقالَ ذرةٍ؛ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]؛ ولهذا، فإنَّ مِمَّا يتنافى مع تمامِ الإيمانِ به، وكمالِ توحيدِهِ سبحانه: أن يَدْعُوَهُ العبدُ وهو غيرُ عازمٍ في مسألته؛ بأنْ يقولَ في دعائه: اللَّهُمَّ ارحمني إنْ شِئْتَ، أو: اللَّهُمَّ اغفرْ لي إنْ شئتَ، أو: اللَّهُمَّ وفِّقني إنْ شئتَ، ونحوَ ذلك؛ لِمَا في هذا القولِ مِنْ إيهامِ الاستغناءِ عن الله، وعدمِ الثقةِ فيما عنده؛ ففي «الصحيحَيْن»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمُ: اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، وَلِيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ)**؛ وهذا لفظ مسلم(١).

وفي «الصحيحين» أيضًا، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ، فَلْيَعْزِمْ فِي الدُّعَاءِ، وَلَا يَقُلِ: اللَّهُمَّ، إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي؛ فَإِنَّ اللهَ لَا مُسْتَكْرِهَ لَهُ)**(٢).

وقد أورَدَ الإمامُ المجدِّدُ شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوَهَّاب رحمه الله هذا الحديثَ في كتاب «التوحيد»، **وتَرْجَمَ له بقوله**: «بابُ قولِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي إنْ شِئْتَ»، وهو رحمه الله ينبِّه بهذه الترجمةِ إلى أنَّ عَدَمَ العزمِ في الدعاء،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٧٣).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٣٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٧٨).

وتعليقَهُ بالمشيئةِ ممَّا يتنافى مَعَ التوحيدِ الواجب، الذي ينبغي أن يكونَ عليه المسلمُ؛ لأنَّ قولَ القائلِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي إنْ شئتَ»، يَدُلُّ على فتورٍ في الرَّغْبة، وقلَّةِ اهتمامٍ في الطلب، وكأنَّ هذا القولَ يَتضمَّنُ أنَّ هذا المطلوبَ إنْ حَصَلَ وإلَّا استغنى عنه، ومَنْ كان هذا حَالُهُ، لَمْ يَتحقَّقْ منه الافتقارُ والاضطرارُ الذي هو رُوحُ العبادةِ ولُبُّها، وكان ذلكَ دليلًا على قِلّةِ معرفتِهِ بذنوبِهِ، وسُوءِ عاقبتها، وقِلَّةِ معرفتِهِ برحمةِ ربِّه، وشِدَّةِ احتياجه إليه، وضعفِ يقينِهِ بالله ﷻ وإجابتِهِ للدعاء.

ولهذا قال في الحديث: **(وَلْيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ)**؛ **أي**: لِيَجْزِمْ في طَلِبَتِهِ، ويُحَقِّقْ رَغْبَتَهُ، ويَتيقَّنِ الإجابةَ؛ فإنَّه إذا فعَلَ ذلك، دلَّ على علمِهِ بعظيمِ ما يطلُبُ مِنَ المغفرةِ والرحمة، وعلى أنَّه مفتقرٌ إلى ما يَطْلُبُ، مضطرٌّ إليه، وعلى أنَّه محتاجٌ إلى الله، مفتقرٌ إليه، لا يستغني عن مغفرتِهِ ورحمتِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ(١).

۞ **ولهذا، فإنَّ الواجبَ على المسلمِ ـ إذا دعا اللهَ ـ** أنْ يَجْتهِدَ ويُلِحَّ في الدعاء، ولا يَقُلْ: «إنْ شئتَ»، كالمستثني، بل يدعو دعاءَ البائسِ الفقيرِ بإلحاحٍ وصِدْق، وجِدٍّ واجتهاد، مع الثقة الكاملةِ باللهِ، والطَّمَعِ فيما عنده، وحُسْنِ الظنِّ به سبحانه، وهو جلَّ وعلا يقولُ كما في الحديثِ القدسيِّ: **(أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي)**؛ أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»(٢).

وإنَّا نسألُ اللهَ الكريمَ أن يَرْزُقَنا حُسْنَ الظنِّ به، وعظيمَ الثقةِ فيما عنده، وأن يُوَفِّقَنا لكلِّ خيرٍ يُحِبُّهُ ويرضاه في الدنيا والآخرة.

۞ ۞ ۞

---

(١) **انظر**: «تيسير العزيز الحميد» (ص٦٥١ ـ ٦٥٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٠).

٨٥

أَهَمِّيَّةُ حُضُورِ الْقَلْبِ فِي الدُّعَاءِ وَجُمْلَةٌ مِنَ الْآدَابِ الْأُخْرَىٰ

إنَّ الدعاءَ مِنْ أقوى الأسباب التي تُجْلَبُ بها الأمورُ المحبوبة، وتُدْفَعُ بها الأمورُ المكروهة، لكنَّه قد يَتخلَّفُ أثرُهُ، وتَضْعُفُ فائدتُهُ، وربَّما تنعدمُ؛ لأسباب؛ **منها**: إمَّا لِضَعْفٍ في نفسِ الدعاء؛ بأنْ يكونَ دعاءً لا يُحِبُّهُ اللهُ لِما فيه مِنَ العدوان، وإمَّا لضعفِ القَلْبِ، وعَدَمِ إقبالِهِ على اللهِ وقتَ الدعاء، وإمَّا لحصولِ المانعِ من الإجابةِ مِنْ أكلِ الحرام، ورَيْنِ الذنوبِ على القلوب، واستيلاءِ الغَفْلَةِ والسهوِ واللهوِ وغلبتهما عليها؛ إذْ إنَّ هذه الأمورَ تُبْطِلُ الدعاءَ، وتُضْعِفُ مِنْ شأنِه.

ولهذا، فإنَّ مِنَ الضوابطِ المُهمَّة، والشروطِ العظيمةِ التي لا بُدَّ مِنْ توفُّرها في الدعاء: **حضورَ قَلْبِ الداعي، وعَدَمَ غَفْلَتِهِ**؛ لأنَّه إذا دعا بقلبٍ غافلٍ لاهٍ ضَعُفَتْ قوةُ دعائه، وضَعُفَ أثرُه، وأصبَحَ شأنُ الدعاءِ فيه بمنزلةِ القوسِ الرِّخوِ جِدًّا؛ فإنَّه إذا كان كذلك، خرَجَ منه السهمُ خروجًا ضعيفًا، فيضعُفُ بذلك أثرُه؛ ولهذا، فإنَّه قد ورَدَ عن النبيِّ ﷺ الحَثُّ على حضورِ القلبِ في الدعاء، والتحذيرُ مِنَ الغفلةِ، والإخبارُ بأنَّ عَدَمَ ذلكَ مانعٌ مِنْ موانعِ قبوله.

روى الإمامُ أحمد في «مسنده»، من حديث عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: (**الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ، وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ عز وجل أَيُّهَا النَّاسُ، فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ**)[١].

ومعنى الحديثِ صحيحٌ؛ إذْ لا بدَّ للمسلمِ مع الدعاءِ مِنْ حضورِ القَلْبِ،

(١) تقدم تخريجه (ص٣٦٩).

وعَدَم الغفلةِ، والإيقانِ بالإجابة؛ **ولهذا فقد عَدَّ الإمامُ العلَّامةُ ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ **في كتابه «الجواب الكافي» غَفْلَةَ القلبِ وعَدَمَ حضورِهِ مانعًا مِنْ موانعِ إجابةِ الدعاء؛ واحتجَّ على ذلك بهذا الحديثِ، ثمَّ قال:** «وهذا دواءٌ نافعٌ، مزيلٌ للداء، ولكنَّ غفلةَ القلبِ تُبطِلُ قُوَّتَه»، **وقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا جُمِعَ مع الدعاءِ حضورُ القلبِ وجَمْعِيَّتُهُ بكُلِيَّتِهِ على المطلوب، وصادَفَ وقتًا مِنْ أوقاتِ الإجابةِ السِّتَّة، وهو الثلثُ الأخيرُ مِنَ الليل، وعندَ الأذانِ، وبَيْنَ الأذانِ والإقامة، وأدبارَ الصلواتِ المكتوبة، وعندَ صعودِ الإمامِ يَوْمَ الجمعةِ على المِنْبَرِ حتى تُقْضَى الصلاةُ من ذلكَ اليومِ، وآخِرُ ساعةٍ بعدَ العصر، وصادَفَ خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يَدَي الرَّبِّ، وذُلًّا له، وتضرُّعًا ورِقَّةً، واسْتَقْبَلَ الداعي القِبْلَةَ، وكان على طهارة، ورفَعَ يَدَيْهِ إلى الله، وبَدَأَ بحمدِ اللهِ والثناءِ عليه، ثمَّ ثنَّى بالصلاةِ على محمَّدٍ عبدِهِ ورسوله، ثمَّ قَدَّمَ بين يَدَيْ حاجتِهِ التوبةَ والاستغفار، ثمَّ دخَلَ على الله، وأَلَحَّ عليه في المسألة، وتَمَلَّقَهُ ودعاهُ رَغْبةً ورَهْبةً، وتَوَسَّلَ إليه بأسمائِهِ وصفاتِهِ وتوحيده، وقَدَّمَ بين يَدَيْ دعائِهِ صدقةً؛ فإنَّ هذا الدعاءَ لا يكادُ يُرَدُّ أبدًا، ولا سيَّما إنْ صادفَ الأدعيَةَ التي أخبَرَ النبيُّ ﷺ أنَّها مَظِنَّةُ الإجابةِ، أو أنَّها مُتضمِّنَةٌ للاسمِ الأعظم». اهـ. كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)].

وهو كلامٌ عظيمُ النفع، مُشْتمِلٌ على ذِكْرِ جملةٍ من الشروطِ المهمَّة، والآدابِ العظيمة، التي لا يكادُ يُرَدُّ الدعاءُ حالَ توفُّرها. **ويُمكنُ تلخيصُ هذه الآداب في الأمور التالية:**

الأول: حضورُ القلبِ وجَمْعِيَّتُهُ بكُلِّيَّتِهِ على المطلوب.

الثاني: تحرِّي أوقاتِ الإجابة.

الثالث: أنْ يكونَ عن خشوعٍ في القلب، وتَذَلُّلٍ وتَضرُّعٍ ورِقَّةٍ، وانكسارٍ بين يَدَيِ اللهِ ﷻ.

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٩).

الرابع: أن يستقبلَ الداعي القبلةَ.

الخامس: أن يكونَ على طهارة.

السادس: أن يَرْفَعَ يَدَيْهِ إلى اللهِ ﷻ عندَ الدعاء.

السابع: أن يَبْدَأَ دعاءَهُ بحَمْدِ اللهِ وحُسْنِ الثناءِ عليه، ثمَّ يُثَنِّيَ بالصلاةِ والسلامِ على عبدِهِ ورسولِهِ محمَّدٍ ﷺ.

الثامن: أن يُقدِّمَ بين يَدَيْ حاجتِهِ وطَلَبِهِ التوبةَ والاستغفارَ.

التاسع: أن يُلِحَّ على اللهِ ويَتَملَّقَهُ ويُكْثِرَ من مناجاته.

العاشر: أن يَجْمَعَ في دعائِهِ بين الرَّغْبةِ والرَّهْبة.

الحادي عَشَرَ: أنْ يَتوسَّلَ إلى اللهِ بأسمائِهِ الحسنى وصفاتِهِ العظيمة، وتوحيدِهِ.

الثاني عَشَرَ: أن يُقدِّمَ بين يَدَيْ دعائِهِ صدقةً.

الثالث عَشَرَ: أن يَتخيَّرَ الأدعيةَ الجامعةَ التي أخبَرَ النبيُّ ﷺ أنَّها مَظِنَّةُ الإجابة، أو أنَّها مُتضمِّنَةٌ لاسمِ اللهِ الأعظمِ الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى.

فإذا جمَعَ المسلمُ في دعائِهِ هذه الأمورَ العظيمةَ، فإنَّ دعاءَهُ لا يكادُ يُرَدُّ أبدًا؛ إلَّا أنَّ هٰهنا أمرًا نَبَّهَ عليه أهلُ العلمِ لا بُدَّ مِنَ العنايةِ به وتحقيقِهِ، **وهو**: أنَّ الداعيَ ينبغي له - مع قيامِهِ بالدعاءِ مستوفيًا لشروطِهِ وآدابِهِ - أن يستتبعَ ذلك القيامَ بلوازمِ ذلكَ ومُتَمِّمَاتِهِ، وذلك بالسعيِ والجِدِّ والاجتهادِ في نيلِ المطلوب؛ «فسؤالُ اللهِ الهدايةَ يستدعي فِعْلَ جميعِ الأسبابِ التي تُدْرَكُ بها الهدايةُ؛ العِلْمِيَّةُ والعَمَلِيَّةُ، وسؤالُ اللهِ الرحمةَ والمغفرةَ يقتضي مع ذلكَ فِعْلَ الممكنِ مِنَ الأسبابِ التي تُنالُ بها الرحمةُ والمغفرة، وهي معروفةٌ في الكتابِ والسُّنَّة، وإذا قال الداعي: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لي ديني الذي هو عِصْمةُ أمري، وأَصْلِحْ لي دنياي التي فيها معاشي، إلى آخِرِهِ، يقتضي في هذا الطلبِ والالتجاءِ إلى الله أن يَسْعَى العبدُ في إصلاحِ دِينِهِ بمعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِهِ،

ومعرفةِ الباطلِ واجتنابه، ودَفْعِ فِتَنِ الشُّبُهَاتِ والشهواتِ، ويقتضي أنْ يسعى ويَقُومَ بالأسبابِ التي تَصْلُحُ بها دنياه، وهي متنوِّعةٌ بِحَسَبِ أحوالِ الخلق.

وإذا قال الداعي: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ فمَعَ هذا التضرُّعِ إلى اللهِ يسعى في شُكْرِ نِعَمِ اللهِ عليه وعلى والدَيْهِ اعترافًا وثناءً وحمدًا واستعانةً بها على طاعته، وتَعَرُّفِ الأعمالِ الصالحةِ التي تُرْضِي اللهَ، والعملِ بها، والسَّعْيِ في تربيةِ الذُّرِّيَّةِ تربيةً إصلاحيَّةً دينيَّة، وهكذا جميعُ الأدعيةِ صريحةٌ في الاتكالِ والتضرُّعِ إلى الله، والالتجاءِ إليه في حصولِ المطالب المتنوِّعة، وصريحةٌ في الاجتهادِ في فعلِ كلِّ سَبَبٍ يُنالُ به ذلك المقصود؛ فإنَّ اللهَ تعالى جعَلَ للمطالِبِ كلِّها أسبابًا بها تُنال، وأَمَرَ بفعلها مع قوةِ الاعتمادِ على الله، والدعاءُ يُعبِّرُ عن قوةِ الاعتمادِ على الله؛ ولهذا كان رُوحَ العبادةِ ومُخَّها، وإذا سأل العَبْدُ رَبَّهُ أن يتوفَّاهُ مسلمًا، وأن يتوفَّاهُ مع الأبرار، كانَ سؤالًا لِحُسْنِ الخاتمة، ويستدعي فِعْلَ الأسباب، والتوفيقَ للأسباب التي تُنَالُ بها الوفاةُ على الإسلام؛ ولهذا يقولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]؛ وذلك بفعلِ الأسبابِ والاعتمادِ على مسبِّبِها»(١)، وهو اللهُ وحدَهُ الذي بيده أَزِمَّةُ الأمور.

❁ ❁ ❁

(١) «مجموع الفوائد، واقتناص الأوابد» لابن سعدي (ص٩٨).

٨٦

افْتِقَارُ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ

إنَّ مِنَ الخصالِ الكريمة، والخلالِ العظيمة التي ينبغي أن يتصفَ بها مَنْ يدعو اللهَ ﷻ: **أن يَعْلَمَ علمَ يقينٍ أنَّه مفتقرٌ إلى اللهِ ﷻ، محتاجٌ إليه، لا يستغني عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ**؛ وذلك أنَّ الإنسان، بل وجميعَ المخلوقاتِ، عبادٌ لله تعالى، فقراءُ إليه، مماليكُ له، وهو ربُّهم ومليكُهم وإلٰهُهم، لا إلَـٰهَ لهم سواه، فالمخلوقُ ليس له مِنْ نَفْسِهِ شيءٌ أصلًا، بل نفسُهُ وصفاتُهُ وأفعالُهُ وما ينتفعُ به أو يستحقُّهُ وغيرُ ذلك إنَّما هو مِنْ خَلْقِ الله، واللهُ ﷻ ربُّ ذلك كلِّه، ومليكُهُ وبارئُهُ وخالقُهُ ومصوِّرُهُ، ومُدَبِّرُ شؤونه، فما شاء اللهُ كان، وما لَمْ يشأْ لَمْ يكن، فلا رادَّ لقضائه، ولا مُعقِّبَ لِحُكْمِهِ؛ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

فالمخلوقُ فقيرٌ إلى الله، محتاجٌ إليه، ليس فقيرًا إلى سواه؛ يقولُ اللهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فليس المخلوقُ مستغنيًا بنفسه، ولا بغيرِ رَبِّهِ سبحانه؛ إذْ إنَّ ذلك الغيرَ فقيرٌ أيضًا، محتاجٌ إلى الله، **ولهذا قيل**: استغاثةُ المخلوق بالمخلوق، كاستغاثةِ الغَرِيقِ بالغريق، **وقيل**: استغاثةُ المخلوقِ بالمخلوقِ؛ كاستغاثةِ المسجونِ بالمسجون.

وقد جاء في الحديثِ القدسيِّ أنَّ الله تباركَ وتعالى يقول: (**يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا،**

فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ...)[(١)]، **قال ابن رَجَب** رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا يقتضي أنَّ جميعَ الخلقِ مُفْتَقِرونَ إلى اللهِ تعالى في جَلْبِ مصالِحِهم، ودَفْعِ مَضَارِّهم، في أمورِ دينهم ودنياهم، وأنَّ العبادَ لا يملكونَ لأنفسهم شيئًا مِنْ ذلك كلِّه، وأنَّ مَنْ لَمْ يَتفضَّلِ اللهُ عليه بالهُدَى والرِّزْق، فإنَّه يُحْرَمُهُما في الدنيا، ومَنْ لَمْ يَتفضَّلِ اللهُ عليه بمغفرةِ ذنوبِهِ أَوْبَقَتْهُ خطاياه في الآخرة»[(٢)]. اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

فالأمورُ كلُّها بيده: الهدايةُ والعافيةُ، والرزقُ والصحةُ، وغيرُ ذلك، وما شاء سبحانَهُ مِنْ ذلك كان، وما لَمْ يشأْ لَمْ يكن، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فعطاؤُهُ سبحانه كلام، وعذابُهُ كلام، فإذا أراد شيئًا مِنْ عطاءٍ أو عذاب، أو غيرِ ذلك، قال له: كُنْ فيكون، ولهذا فكيف ـ والأمرُ كذلك ـ يُلْجَأُ إلى سواه، أو يُخْضَعُ لِمَنْ دُونَه، أو يُطْلَبُ ويُدْعَى غيرُه؟!

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]؛ «فالعبدُ لا بُدَّ له مِنْ رزقٍ، وهو محتاجٌ إلى ذلك، فإذا طلَبَ رِزْقَهُ مِنَ اللهِ، صار عبدًا لله، فقيرًا له، وإذا طلَبَهُ مِنْ مخلوقٍ، صار عبدًا لذلكَ المخلوقِ فقيرًا له»[(٣)].

إنَّ فَقْرَ المخلوقِ واحتياجَهُ لربِّه أمرٌ ذاتيٌّ له، لا وجودَ له بدونِهِ، لكنَّ المخلوقين يتفاوتون في إدراكِ ذلكَ الافتقارِ أو العزوبِ عنه، **والعبدُ فقيرٌ إلى اللهِ من جهتَيْنِ: من جهةِ** العبادة، **ومن جهةِ** الاستعانة؛ كما قال الله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فالعبدُ يفتقرُ إلى اللهِ مِنْ جهةِ أنَّه معبودُهُ الذي يُحبُّهُ حُبَّ إجلالٍ وتعظيم، وقلبُهُ لا يَصْلُحُ ولا يُفْلِحُ، ولا يُسَرُّ ولا يلتذُّ، ولا يَطِيبُ ولا يَسْكُن، ولا يطمئنُّ إلَّا بعبادةِ ربِّهِ، والإنابةِ إليه، ولو حصَلَ له كلُّ ما يَلْتَذُّ به مِنَ المخلوقاتِ، لَمْ يطمئنَّ ولم يسكُنْ؛ إذْ فيه فقرٌ ذاتيٌّ إلى ربِّه

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٨).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٧ ـ ٣٨).
(٣) «العبودية» لابن تيمية (ص٢٢).

مِنْ حيثُ هو معبودُهُ ومحبوبُهُ ومطلوبُهُ؛ وبهذا يحصُلُ له الفرحُ والسرورُ واللَّذَّةُ، والنِّعْمةُ والسكونُ والطمأنينة، والعبدُ يفتقرُ إلى الله من جهةِ استعانتِهِ به للاستسلامِ لأمره، والانقيادِ لِحُكْمه، والخضوعِ لِشَرْعِه؛ إذْ لا يَقْدِرُ على تحصيلِ شيءٍ مِنْ ذلكَ والقيامِ به إلَّا إذا أعانَهُ اللهُ»[(١)].

وهٰهنا قاعدةٌ مهمةٌ نبَّه عليها أهلُ العلم، وهي أنَّ كلَّ حَيٍّ سوى اللهِ، فهو فقيرٌ إلى جَلْبِ ما ينفعُهُ، ودَفْعِ ما يَضُرُّهُ، فلا بدَّ له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوبُ المحبوبُ الذي ينتفعُ به ويتلذَّذ به.

والثاني: وهو المُعِينُ الموصِلُ لذلكَ المقصود، والمانعُ لحصولِ المكروه، والدافعُ له بَعْدَ وقوعه.

فهنا أربعةُ أشياء يحتاجُ إليها الإنسان:

أحدها: أمرٌ محبوبٌ مطلوبُ الوجودِ.

والثاني: أمرٌ مكروهٌ مُبْغَضٌ مطلوبُ العَدَمِ.

والثالث: الوسيلةُ إلى حصولِ المحبوب.

والرابع: الوسيلةُ إلى دَفْعِ المكروه.

فهذه أربعةُ أمورٍ ضروريَّةٍ للعبد، بل ولكلِّ حيٍّ، لا يقومُ وجودُهُ، ولا يكونُ صلاحُهُ إلَّا بها.

إذا عُرِفَ هذا، فاللهُ سبحانه هو المطلوبُ المعبودُ المحبوبُ وحده، لا شريكَ له، وهو وحدَهُ المُعِينُ للعبدِ على حصولِ مطلوبه، فلا معبودَ سواه، ولا مُعِينَ على المطلوبِ غيره، فهو سبحانَهُ الجامعُ للأمورِ الأربعةِ المتقدِّمَةِ دون ما سواه، وهذا معنى قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فإنَّ هذه العبادةَ تَتضمَّنُ المقصودَ المطلوبَ على أكملِ الوجوه، والمستعانُ هو الَّذي يُستعانُ به على حصولِ المطلوب، ودفعِ المكروه، **وفي القرآنِ الكريمِ سبعةُ مواضعَ تنتظمُ هَذَيْنِ الأصلَيْن:**

---

(١) **انظر:** «العبودية» لابن تيمية (ص٢٩)، و«مجموع الفتاوى» له (١٤/ ٣١).

أحدها: قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.
الثاني: قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].
الثالث: قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].
الرابع: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤].
الخامس: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨].
السادس: قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].
السابع: قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل].

إنَّ حاجةَ العبدِ إلى أنْ يَعْبُدَ اللهَ وحدَهُ ولا يُشْرِكَ به شيئًا في محبَّته، ولا في خَوْفِهِ، ولا في رَجَائِهِ، ولا في التَّوَكُّلِ عليه، ولا في التَّذَلُّلِ والتعظيمِ والتقرُّبِ = أعظمُ مِنْ حاجةِ الجَسَدِ إلى رُوحِه، والعَيْنِ إلى نُورِها، بل ليس لهذه الحاجةِ نظيرٌ تُقاسُ به، فالعبدُ لا بُدَّ له مِنْ إلٰهِهِ الحقِّ في كلِّ حالةٍ، وكلِّ دقيقةٍ، وكلِّ طَرْفةِ عَيْن، وضرورتُهُ وحاجتُهُ إليه لا تشبهها ضرورةٌ ولا حاجة، بل هي فوقَ كلِّ ضرورة، وأعظَمُ مِنْ كلِّ حاجة، والقرآنُ الكريمُ مملوءٌ مِنْ ذكرِ حاجةِ العبادِ إلى اللهِ دونَ ما سواه، ومِنْ ذِكْرِ نَعْمَائِهِ عليهم، ومِنْ ذِكْرِ ما وَعَدَهُمْ في الآخرةِ مِنْ صنوفِ النعيمِ واللَّذَّات، وعِلْمُ العبدِ بهذا يُحقِّقُ له تمامَ التَّوكُّلِ على الله، وكمالَ الشُّكْرِ له، ومحبَّتَهُ على إحسانه، واللجوءَ إليه وحدَهُ دونَ ما سواه في الأمورِ كلِّها، صَغِيرِها وكَبِيرِها، دقيقِها وجَلِيِّها[١].

وإنا لنسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يوفِّقنا لتحقيقِ ذلك وحُسْنِ القيامِ به، وأن لا يَكِلَنا إلى أنفسنا طرفةَ عَيْنٍ، وأنْ يَهْدِيَنا إليه صراطًا مستقيمًا.

❁ ❁ ❁

---

(١) **انظر**: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١/ ٢٠ ـ ٣٦)، و«طريق الهجرتين» لابن القيم (ص١٠٠ ـ ١٠٤).

٨٧

جُمْلَةٌ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ

إنَّ مِنْ آدابِ الدعاءِ المهمَّة، وأسبابِ قَبُولِهِ العظيمة: **أنْ يَسْبِقَ الدعاءَ توبةٌ من العبدِ إلى اللهِ ﷻ مِنْ جميعِ ذنوبِهِ وخطاياه،** فيُقِرُّ بذنبه، ويعترفُ بتقصيره، ويندمُ على تفريطه؛ فإنَّ تراكمَ الذنوبِ واجتماعَ الخطايا سببٌ مِنْ أسباب عدمِ الإجابة؛ **كما قال بعضُ السلف:** «لا تستبطئِ الإجابةَ وقد سَدَدتَّ طُرُقَها بالمعاصي»، وقد نظَمَ بعضُهم هذا المعنى في بيْتَيْنِ من الشعرِ، **فقال:**

نَحْنُ نَدْعُو الإِلَـهَ فِي كُلِّ كَرْبٍ ... ثُمَّ نَنْسَاهُ عِنْدَ كَشْفِ الكُرُوبِ

كَيْفَ نَرْجُو إِجَابَةً لِدُعَاءٍ ... قَدْ سَدَدْنَا طَرِيقَهَا بِالذُّنُوبِ

وقد سبَقَ أنْ مَرَّ معنا حديثُ النبيِّ ﷺ عندما ذَكَر الرجلَ يطيلُ السَّفَرَ أشعَثَ أغبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السماء، يقولُ: يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام؛ فأنَّى يُستجابُ لذلكَ؟! فاستبعَدَ النبيُّ ﷺ إجابةَ دعاءِ مَنْ كانتْ هذه حالَهُ، «وقد يكونُ ارتكابُ المحرَّماتِ الفِعْليةِ مانعًا مِنَ الإجابةِ أيضًا، وكذلك ترك الواجبات»[1].

۞ **ولهذا، فإنَّ مَنْ أرادَ أنْ يجيبَ اللهُ دعاءَهُ، ويُحقِّقَ رجاءَهُ،** فعليه أن يتوبَ إلى اللهِ توبةً نصوحًا مِنْ ذنوبِهِ وخطاياه، واللهُ جلَّ وعلا لا يتعاظمُهُ ذنبٌ أن يَغْفِرَهُ، ولا حاجةٌ يُسْأَلُهَا أنْ يُعْطِيَها، وقد كان أنبياءُ اللهِ ورُسُلُهُ يُرَغِّبونَ أُمَمَهُمْ، ويحثُّونهم على التوبةِ والاستغفار، ويُبيِّنونَ لهم أنَّ ذلكَ سببٌ مِنْ أسبابِ إجابةِ الدعاء، ونزولِ الأمطار، وكثرةِ الخَيْر، وانتشارِ البَرَكةِ في الأموالِ والأولاد؛ قال تعالى عن نوحٍ ﵇ أنَّه قال لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٧٥).

غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح]، وقال عن هود عليه السلام أنَّه قال لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ [هود: ٣].

فالتوبةُ إلى اللهِ واستغفارُهُ سببُ نزولِ الخَيْرَات، وتوالي البَرَكَات، وإجابةِ الدعوات؛ يُرْوَى أنَّ أميرَ المؤمنين عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه خرجَ يستسقي، فلم يَزِدْ على الاستغفارِ حتى رجَعَ، فأُمْطِرُوا، فقالوا: ما رأيناكَ استَسْقَيْتَ؟ **فقال**: «لقد طَلَبْتُ المَطَرَ بِمَجَادِيح السَّماءِ التي يُسْتَنْزَلُ بها المَطَرُ، ثمَّ قرأَ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾»(١).

وقال ابن صَبِيح رحمه الله: «شكا رجلٌ إلى الحَسَنِ البصريِّ رحمه الله الجُدُوبةَ؟ فقال له: استَغْفِرِ اللهَ، وشكا إليه آخرُ الفَقْرَ، فقال له: استغفرِ اللهَ، وقال له آخر: ادْعُ اللهَ أن يَرْزُقَني وَلَدًا، فقال له: استَغْفِرِ اللهَ، وشكا إليه آخرُ جفافَ بستانِهِ، فقال له: استَغْفِرِ اللهَ، فقلنا له في ذلكَ؟ فقال: ما قلتُ مِنْ عندي شيئًا؛ إنَّ اللهَ تعالى يقولُ في سورة نُوح: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾»(٢).

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٩٨)، **والمَجَادِحُ** جمع مِجْدَح، وهو عند العرب من الأنواء التي تزعم أنها تُمْطَرُ بها، أراد رضي الله عنه الرد على المشركين في تعلقهم بالأنواء واستسقائهم بها، وأن المطر إنما يستنزل باللجوء إلى الله وطلب غفرانه، ونظيره ما رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٩٢٦) عن أبي هريرة أنه كان إذا أصبح في الليلة التي يمطرون فيها قال: مطرنا بنوء الفتح، ثم يتلو: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٩٠٢)، وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٨٣٤٣)، والطبراني في «الدعاء» رقم (٩٦٤).

ومعنى الآية: «أي: إذا تُبْتُمْ إلى اللهِ واستغفرتُمُوهُ وأطعتموهُ، كَثُرَ الرزقُ عليكم، وأسقاكم مِنْ بَرَكَاتِ السماء، وأَنْبتَ لكم مِنْ بَرَكَاتِ الأرض، وأنبتَ لكم الزرعَ، وأَدَرَّ لكمُ الضَّرْعَ، وأمدَّكم بأموالٍ وبنينَ؛ أي: أعطاكُمُ الأموالَ والأولادَ، وجعَلَ لكم جَنَّاتٍ فيها أنواعُ الثِّمار، وخلَّلها بالأنهارِ الجاريةِ بينها»(١)، إلى غير ذلكَ مِنْ صنوفِ الخيرات، وأنواعِ العطايا والهِبَات. وسيأتي الكلامُ على الاستغفار، فَضْلِهِ وأهميتِهِ وفوائِدِهِ في الدنيا والآخرة.

* **ومِنْ آدابِ الدعاءِ المهمَّة**: أن يدعو المسلمُ رَبَّهُ وهو في حالِ تَضرُّعٍ وخشوعٍ، وتذلُّلٍ وخضوعٍ، بل إنَّ ذلكَ «هو رُوحُ الدُّعَاءِ ولُبُّهُ ومقصودُهُ؛ فإنَّ الخاشعَ الذليلَ إنَّما يَسْأَلُ مسألةَ مسكينٍ ذليل، قد انكَسَرَ قلبُهُ، وذَلَّتْ جوارحُه، وخشَعَ صوتُه»(٢)، قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فأمَرَ سبحانه بدعائِهِ بتضرُّعٍ وخُفْيَةٍ، وحذَّر في هذا السياقِ مِنَ الاعتداءِ؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِنَ العدوانِ: أنْ يَدْعُوَهُ غيرَ مُتضرِّعٍ، بل دعاءُ هذا كالمستغني المُدْلِي على ربِّه، وهذا مِنْ أعظمِ الاعتداءِ لمنافاتِهِ لدعاءِ الذليل، فمَنْ لَمْ يسألْ مسألةَ مسكينٍ متضرِّعٍ خائفٍ، فهو مُعْتدٍ»(٣).

وقد سَبَقَ الكلامُ على الاعتداءِ في الدعاءِ وأنواعه، وأنَّ كلَّ تَجَاوُزٍ لِمَا حَدَّتْهُ الشريعةُ في ذلك، فهو اعتداءٌ.

* **ومِنْ آدابِ الدعاء**: الإلحاحُ على الله، وكثرةُ سؤالِهِ، وعدمُ السَّآمَةِ والملل؛ «واللهُ يحبُّ الملحِّين في الدعاء؛ ولهذا تجدُ كثيرًا مِنْ أدعيةِ النبيِّ ﷺ فيها مِنْ بسطِ الألفاظ، وذِكْرِ كلِّ معنًى بصريحِ لفظه، دون الاكتفاءِ بدَلَالةِ اللفظِ الآخَرِ عليه ما يشهدُ لذلك؛ كقوله ﷺ في حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رواه مسلمٌ في «صحيحه»: (**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ المُقدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**)(٤)؛ ومعلومٌ أنَّه لو قيل: اغْفِرْ لي كلَّ ما صَنَعْتُ، كان أوجزَ، ولكنَّ لفظَ الحديثِ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٦٠).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٦).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٣).
(٤) «صحيح مسلم» رقم (٧٧١).

في مقامِ الدعاءِ والتضرُّعِ، وإظهارِ العبوديَّةِ والافتقارِ؛ باستحضارِ الأنواعِ التي يتوبُ العبدُ منها تفصيلًا: أَحْسَنُ وأبْلَغُ مِنَ الإيجازِ والاختصارِ؛ وكذلك قوله ﷺ في الحديثِ الآخرِ: (**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ؛ دِقَّهُ وَجِلَّهُ، سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**)[١]، وفي الحديث: (**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي**)[٢]، وهذا كثيرٌ في الأدعيةِ المأثورةِ؛ فإنَّ الدعاءَ عبوديةٌ لله، وافتقارٌ إليه، وتَذَلُّلٌ بين يديه، فكلَّما كَثَّرَهُ العبدُ وطَوَّلَهُ، وأعادَهُ وأبداهُ، ونَوَّعَ جُمَلَهُ، كان ذلك أبلَغَ في عبوديَّتِهِ وإظهارِ فَقْرِهِ وتَذَلُّلِهِ وحاجته، وكان ذلك أقربَ له مِنْ ربِّهِ وأعظمَ لثوابِهِ، وهذا بخلافِ المخلوقِ؛ فإنَّكَ كلَّما كثَّرْتَ سؤالَهُ، وكَرَّرْتَ حوائجَكَ إليه، أبرَمْتَهُ وثَقَّلْتَ عليه، وهُنْتَ عليه، وكلَّما تَرَكْتَ سؤالَهُ، كان أعظمَ عندَهُ وأحبَّ إليه، واللهُ سبحانه كلَّما سَأَلْتَهُ، كنتَ أقرَبَ إليه وأحبَّ إليه، وكلَّما أَلْحَحْتَ عليه في الدعاء، أَحبَّكَ، ومَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عليه.

فَاللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ»[٣]

وقد رُوِيَ في «المسند» و«سنن أبي داود»، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يُعْجِبُهُ أنْ يَدْعُوَ ثلاثًا، ويَسْتَغْفِرَ ثلاثًا»[٤]، **وقال الأوزاعيُّ** رحمه الله: «كان يُقالُ: أفضلُ الدعاءِ: الإلحاحُ على اللهِ والتضرُّعُ»[٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم رقم (٤٨٣).
(٢) رواه البخاري رقم (٦٣٩٩)، ومسلم رقم (٢٧١٩).
(٣) «جلاء الأفهام» لابن القيِّم (ص٢٠٣).
(٤) «المسند» (١/ ٣٩٤)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥٢٤)، وأورده الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٤٩٨٤).
(٥) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٣٨).

٨٨

تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ

تَقدَّمَ معنا ذِكْرُ ثلاثةِ آدابٍ للدعاءِ عظيمةٍ؛ **وهي**: أن يُقَدِّمَ العبدُ بين يَدَيْ دعائِهِ توبةً مِنْ ذنوبِهِ وخطاياه، وأنْ يكونَ دعاؤُهُ لربِّه في حالِ تَضرُّعٍ وخشوعٍ وخضوعٍ، وأن يُلِحَّ على اللهِ في الدعاء ويُكْثِرَ من سؤالِهِ دونَ سآمةٍ أو مَلَلٍ، وهذه جملةٌ أخرى مِنْ آدابِ الدعاءِ التي ينبغي أن يعتني بها المسلمُ.

* **فمِنْ آدابِ الدعاءِ المهمَّة**: أن لَا يقتصرَ المسلمُ على دعائِهِ ربَّه في حالِ الشِّدَّةِ فقطْ، بل الواجبُ أن يدعوَ ربَّهُ في سَرَّائِهِ وضَرَّائه، وشدَّتِهِ ورخائه، وصِحَّتِهِ وسَقَمه، وفي أحوالِهِ كلِّها. وملازمةُ المسلمِ للدعاءِ حالَ الرخاءِ، ومواظبتُهُ عليه في حالِ السَّرَّاءِ سببٌ عظيمٌ لإجابةِ دعائِهِ عندَ الشدائدِ والمصائبِ والكُرَبِ؛ وقد جاء في الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكُرَبِ، فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ**)(١).

وقد ذَمَّ اللهُ المشركينَ في مواطنَ كثيرةٍ من كتابِهِ العزيزِ بأنَّهم لا يَلْجَؤُونَ إلى الله، ولا يُخْلِصُونَ له الدِّينَ إلَّا في حالِ شِدَّتهم، أمَّا في حالِ رخائهم ويُسْرِهِمْ وسَرَّائهم، فإنَّهم يُشْرِكُونَ مع اللهِ غَيْرَه، ويُقْبِلُونَ على أوثانٍ لا تَمْلِكُ لهم شيئًا، ولا تنفعهم ولا تَضُرُّهم، فيَسْتَنْجِدُونَ بها، ويستغيثون بها، ويُنْزِلُونَ بها حاجاتِهم وطَلَباتِهم؛ يقولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [الزمر: ٨]، ويقولُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، ويقولُ تعالى:

(١) رواه الترمذي رقم (٣٣٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٤٤)، مِنْ حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٩٠).

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]، ويقولُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصِّلت: ٥١]. والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ، وهي تدلُّ دَلَالةً واضحةً على ذمِّ مَنْ لا يَعْرِفُ اللهَ إلَّا في حالِ ضَرَّائِهِ وشِدَّته، أمَّا في حالِ يُسْرِهِ ورخائه، فإنَّه يكون في صدودٍ وإعراضٍ ولَهْوٍ وغفلةٍ وعدمِ إقبال على اللهِ تبارَكَ وتعالى.

❁ **ولهذا، فإنَّ الواجبَ على المسلمِ:** أنْ يُقْبِلَ على اللهِ في أحوالِهِ كلِّها في اليُسْرِ والعُسْرِ، والرَّخَاءِ والشِّدَّةِ، والغنى والفقرِ، والصِّحَّةِ والمَرَضِ، ومَنْ تَعرَّفَ إلى اللهِ في الرخاءِ، عَرَفَهُ اللهُ في الشدَّة؛ فكان له معينًا وحافظًا ومؤيِّدًا وناصرًا.

ولهذا قال النبيُّ ﷺ كما في حديثِ عبدِ اللهِ بن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما المشهور: (**تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**)[١].

قال ابن رَجَبٍ رحمه الله **في جزءٍ له أَفْرَدَهُ في شرحِ هذا الحديثِ:** «**المعنى:** أنَّ العبدَ إذا اتَّقى اللهَ، وحَفِظَ حدودَهُ، وراعى حقوقَهُ في حالِ رخائِهِ وصِحَّته، فقد تَعرَّفَ بذلكَ إلى اللهِ، وكان بينه وبينه معرفةٌ، فَعَرَفَهُ ربُّه في الشِّدَّة، وعَرَفَ له عملَهُ في الرخاء، فنَجَّاهُ مِنَ الشدائدِ بتلكَ المعرفة... وهذا التعرُّفُ الخاصُّ هو المشارُ إليه في الحديثِ الإلٰهيِّ، (**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ** ـ إلى أنْ قال ـ **وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**)[٢]»[٣].

ثمَّ أورَدَ عن الضَّحَّاك بن قَيْس أنَّه قال: «اذْكُرُوا اللهَ في الرخاءِ يَذْكُرْكُمْ في الشدَّة؛ إنَّ يُونُسَ عليه السلام كان يَذْكُرُ اللهَ، فلمَّا وقَعَ في بطنِ الحُوتِ، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات]، وإنَّ فِرْعَوْنَ كان طاغيًا ناسيًا لذكر الله، فلمَّا أدركَهُ الغَرَقُ، قال: آمَنْتُ، فقال اللهُ تعالى:

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٣٠٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٩٦١).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢٧٧). (٣) «نور الاقتباس» لابن رجب (ص٤٣).

﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]»، فمَنْ لَمْ يَتعرَّفْ إلى اللهِ في الرخاء، فليسَ له أنْ يَعْرِفَهُ في الشدَّة؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال رَجُلٌ لأبي الدَّرْداء رضي الله عنه: «أَوْصِني، فقال: اذْكُرِ اللهَ في السَّرَّاءِ يَذْكُرْكَ اللهُ عز وجل في الضرَّاء»[١].

وعنه رضي الله عنه **أنَّه قال**: «ادْعُ اللهَ في يومِ سَرَّائِكَ، لعلَّهُ أن يَسْتَجيبَ لكَ في يومِ ضَرَّائِكَ»[٢].

وإنَّ مِنَ التعرُّفِ إلى اللهِ في الرخاءِ أنْ يَجْتَهِدَ العبدُ في حالِ رخائِهِ بالتقرُّبِ إلى اللهِ، وطلبِ مرضاته، والإكثارِ مِنَ الأعمالِ الصالحةِ المُقرِّبةِ إليه؛ كالبِرِّ والصِّلَة، والصَّدَقةِ والإحسان، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنكر، وغيرِ ذلكَ مِنْ وجوهِ البرِّ وسُبُلِ الخير. «وحديثُ الثلاثةِ الذين دَخَلُوا الغارَ وانطبَقَتْ عليهم الصخرةُ يشهدُ لهذَا؛ فإنَّ اللهَ فرَّج عنهم بدعائهم بما كان منهم مِنَ الأعمالِ الصالحةِ الخالِصَةِ في حالِ الرخاءِ مِنْ بِرِّ الوالدَيْن، وتَرْكِ الفجور، والأمانةِ الخفيَّة»[٣].

وحديثُ هؤلاءِ مشهورٌ خرَّجه الإمامُ البخاريُّ في مواطنَ عديدةٍ من «صحيحه»، وخرَّجه مسلمٌ وغيرُهما مِنَ الأئمَّة، ولفظُ الحديثِ **في باب**: حديث الغارِ مِنْ كتاب: أحاديثِ الأنبياءِ من «صحيح البخاري»، عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: (**بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ، إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ، فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللهِ يَا هَؤُلَاءِ لَا يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَجِيرٌ عَمِلَ لِي**

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٩).

(٢) «المصنف» لعبد الرزاق (١١/ ١٨٠)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٢/ ٥٢)، **وانظر**: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦).

(٣) «نور الاقتباس» لابن رجب (ص٤٦).

عَلَى فَرَقٍ مِنْ أَرُزٍّ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ، وَأَنِّي عَمَدتُّ إِلَى ذَلِكَ الفَرَقِ، فَزَرَعْتُهُ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا، وأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْمَدْ إِلَىٰ تِلْكَ البَقَرِ، فَسُقْهَا، فَقَالَ لِي: إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرُزٍّ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْمَدْ إِلَىٰ تِلْكَ البَقَرِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الفَرَقِ، فَسَاقَهَا؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاخَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ، فَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ آتِيهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لِي، فَأَبْطَأْتُ عَنْهُمَا لَيْلَةً، فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدَا، وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاغَوْنَ مِنَ الجُوعِ، وَكُنْتُ لَا أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبَوَايَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَهُمَا فَيَسْتَكِنَّا لِشَرْبَتِهِمَا، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّىٰ طَلَعَ الفَجْرُ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاخَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ حَتَّىٰ نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَأَبَتْ إِلَّا أَنْ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّىٰ قَدَرْتُ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدتُّ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، فَقَالَتِ: اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارٍ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا، فَفَرَّجَ اللهُ عَنْهُم، فَخَرَجُوا)(١).

فكانتْ أعمالُ هؤلاءِ الثلاثةِ الصالحةُ سببًا لتفريجِ همِّهم، وكشفِ كُرْبَتِهِم، وإجابةِ دعوتهم، وتحقيقِ أملهم ورجائهم، فلمَّا تَعرَّفَ هؤلاءِ إلى ربِّهم في حالِ رخائهم، تَعرَّفَ إليهم ربُّهم سبحانَهُ في حالِ شِدَّتهم، فأمدَّهم بعونه، وأحاطَهُم بحفظه، وكَلَأَهُمْ برعايتِهِ وعنايته، وهو وحده الموفِّقُ والمعين، لا شريكَ له.

❁ ❁ ❁

(١) تقدم تخريجه (ص٣٢٢)، وهذا اللفظ جاء في «صحيح البخاري» رقم (٣٤٦٥).

٨٩

رَفْعُ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ

إنَّ مِنْ آدابِ الدعاءِ العظيمةِ رَفْعَ اليدَيْنِ في الدعاءِ إلى اللهِ ﷻ؛ لثبوتِ ذلك عن النبيِّ ﷺ في أحاديثَ كثيرةٍ، عدَّها بعضُ أهلِ العلمِ في جملةِ ما تواتَرَ فيه النقلُ عن النبيِّ الكريمِ ﷺ؛ **قال السيوطيُّ في شرحه لتقريبِ الإمامِ النوويِّ، رحمهما الله، ممثِّلًا لِمَا تواتَرَ معناه عن النبيِّ ﷺ**: «فقد ورَدَ عنه ﷺ نحوُ مِائَةِ حديثٍ فيه رفعُ يَدَيْهِ في الدعاء، وقد جَمَعْتُها في جزءٍ، لكنَّها في قضايا مختلفةٍ، فكلُّ قضيةٍ منها لَمْ تتواترْ، والقَدْرُ المُشْتَرَكُ فيه هو الرفعُ عندَ الدعاءِ تواتَرَ باعتبارِ المجموعِ»[(١)].

وعقَدَ الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الصحيح» في كتابِ الدَّعَواتِ منه **بابًا بعنوان**: رَفْعِ الأيدي في الدعاءِ، وأورَدَ تحتَهُ عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: «دعا النبيُّ ﷺ، ثمَّ رفَعَ يديه، ورأيتُ بياضَ إِبْطَيْهِ»[(٢)]، وعن ابن عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «رفَعَ النبيُّ ﷺ يَدَيْهِ، وقال: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ)**»[(٣)]، وعن أنس، عن النبي ﷺ: «رفَعَ يَدَيْهِ حتى رأيتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ»[(٤)].

وقد أشار شارحُ «الصحيح» الحافظُ ابن حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى كثرةِ الأحاديثِ الواردةِ عن النبيِّ ﷺ في هذا المعنى، **وذكَرَ جملةً مِنَ الأحاديثِ في ذلك**:

* **منها**: حديثُ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «قَدِمَ الطُّفَيْلُ بنُ عَمْرٍو على النبيِّ ﷺ، فقال: إنَّ دَوْسًا عَصَتْ، فادْعُ اللهَ عليها، فاسْتَقْبَلَ القبلةَ، ورفَعَ

---

(١) «تدريب الراوي» (٢/ ١٨٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٧/ ١٩٨) تعليقًا.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١)، و«صحيح البخاري» (٧/ ١٩٨) تعليقًا.

(٤) «صحيح البخاري» رقم (١٠٣٠، ١٠٣١)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٥).

يَديه، فقال: **(اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْسًا)**»؛ أخرجَهُ الإمام البخاري في «الأدب المفرد»، وهو في «الصحيحين» دون قوله: «وَرَفَعَ يَدَيْهِ»[(١)].

* **ومنها**: حديث جابر بن عبد الله: «أنَّ الطُّفَيْلَ بن عَمْرٍو هاجَرَ...»، وذَكَرَ قصَّةَ الرَّجُلِ الذي هاجَرَ معه، وفيه: «فقال النبيُّ ﷺ: **(اللَّهُمَّ، وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ)**، ورفَعَ يَدَيْهِ»، قال الحافظ: «وسنده صحيحٌ، وأخرجه مسلم»[(٢)].

* **ومنها**: حديثُ عائشةَ ﵂: «أنَّها رأتِ النبيَّ ﷺ يدعو رافعًا يَدَيْهِ، يقول: **(اللَّهُمَّ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ...)**»، الحديثَ[(٣)]، قال الحافظ: «وهو صحيحُ الإسناد».

* **قال الحافظ** ﵀: «ومِنَ الأحاديثِ الصحيحةِ في ذلكَ: ما أخرَجَهُ المصنِّفُ [**أي**: البخاريُّ] في «جزء رفْعِ اليدَيْن»: «رأيتُ النبيَّ ﷺ رافعًا يَدَيْهِ يدعو لعثمان»[(٤)]، ولمسلم من حديثِ عبدِ الرحمٰنِ بن سَمُرَةَ في قصَّة الكسوف: «فانتهَيْتُ إلى النبيِّ ﷺ وهو رافعٌ يَدَيْهِ يدعو»[(٥)]، وعنده في حديثِ عائشةَ في الكسوفِ أيضًا: «ثمَّ رفَعَ يَدَيْهِ يدعو»[(٦)]، وفي حديثها عنده في دعائِهِ لأهلِ البقيع: «فرفَعَ يَدَيْهْ ثلاثَ مرَّات...» الحديثَ[(٧)]، ومن حديثِ أبي هريرة الطويلِ في فتح مكَّة: «فرفَعَ يَدَيْهِ، وجعَلَ يدعو»[(٨)]، وفي «الصحيحين»، من حديث أبي حُمَيْدٍ، في قصة ابن اللُّتْبِيَّةِ: «ثمَّ رفَعَ يَدَيْهِ حتى رأَيْتُ عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ،

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٣)، و«الأدب المفرد» رقم (٦١١)، **وانظر**: «صحيح البخاري» رقم (٢٩٣٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٥٢٤).

(٢) «الأدب المفرد» رقم (٦١٤)، وهو في «المسند» (٣/ ٣٧٠ ـ ٣٧١)، و«صحيح مسلم» رقم (١١٦)، دون قوله: «ورفَع يديه».

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ١٦٠)، و«الأدب المفرد» رقم (٦١٣).

(٤) «المعجم الكبير» (١٧/ رقم ٦٩٤)، و«المعجم الأوسط» رقم (٧٢٥٥)، و«رفع اليدين» رقم (٩٠).

(٥) «صحيح مسلم» رقم (٩١٣).

(٦) «صحيح مسلم» رقم (٩٠١).

(٧) «صحيح مسلم» رقم (٩٧٤).

(٨) «صحيح مسلم» رقم (١٧٨٠).

يقولُ: (**اللَّهُمَّ، هَلْ بَلَّغْتُ؟!**)»[١]، ومِنْ حديثِ عبد الله بن عَمْرو: «أنَّ النبيَّ ﷺ ذَكَر قولَ إبراهيمَ وعيسى، فرفَعَ يَدَيْهِ، وقال: (**اللَّهُمَّ، أُمَّتِي**)»[٢]، وفي حديث عُمَرَ: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا نَزَلَ عليه الوحيُ، يُسْمَعُ عندَ وجهِهِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، فأنزَلَ اللهُ عليه يومًا، ثُمَّ سُرِّيَ عنه، فاسْتَقْبَلَ القبلةَ، ورفَعَ يديه ودعا»، والحديثُ أخرجَهُ الترمذيُّ واللفظُ له، والنَّسَائيُّ، والحاكم[٣]، وفي حديث أسامةَ: «كنتُ رِدْفَ النبيِّ ﷺ بعرفاتٍ، فرفَعَ يَدَيْهِ يدعو، فمالَتْ به ناقتُهُ، فسقَطَ خِطَامُها، فتناوَلَهُ بيده، وهو رافعٌ اليدَ الأخرى»، أخرجَهُ النَّسَائِيُّ بسندٍ جيِّد[٤]، وفي حديث قَيْس بن سَعْد عند أبي داودَ: «ثُمَّ رفَعَ رسولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، وهو يقولُ: (**اللَّهُمَّ، صَلَوَاتُكَ وَرَحْمَتُكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ...**)» الحديثَ، وسندُهُ جيِّد[٥]، والأحاديثُ في ذلك كثيرةٌ». اهـ. كلام الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ[٦]، وقد تقصَّى فيه جملةً مباركةً مِنْ أحاديثِ رفعِ الأيدي في الدعاء.

* **ومن الأحاديثِ الثابتةِ في ذلك**: ما رواه الترمذيُّ، وأبو داودَ، وغيرهما عن سَلْمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا**)[٧].

فهذه الأحاديثُ وما جاء في معناها تَدُلُّ على أنَّ مِنْ آدابِ الدعاءِ العظيمةِ رَفْعَ اليَدَيْنِ إلى اللهِ، وأنَّ ذلكَ مِنْ أسبابِ إجابةِ الدعاءِ وقَبُوله، ودَلَّتِ السُّنَّةُ

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٥٩٧)، و«صحيح مسلم» رقم (١٨٣٢).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٠٢).
(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣١٧٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي رقم (١٤٣٩)، و«المستدرك» (٢/ ٣٩٢).
وقال النسائي: «هذا حديث منكر، لا نعلمُ أحدًا رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفُهُ، والله أعلم».
(٤) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٠٩)، و«السنن الكبرى» رقم (٤٠٠٧)، و«الصغرى» رقم (٣٠١١).
(٥) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٢١)، و«سنن أبي داود» رقم (٥١٨٥).
(٦) «فتح الباري» (١١/ ١٤٢).
(٧) تقدم تخريجه (ص٢٧٦).

أيضًا أنَّ لرفعِ اليدَيْنِ في الدعاءِ صفاتٍ ثلاثًا ترجعُ إلى نوعِ الدعاء، فإذا كان ابتهالًا، وهو شِدَّةُ المبالغةِ في الطلب، فلرفعِ اليَدَيْنِ فيه صفةٌ، وإذا كان دعاءً ومسألةً، فللرفعِ فيه صِفَةٌ، وإذا كان استغفارًا أو توحيدًا وتمجيدًا، فللرفعِ فيه صفةٌ، يُوَضِّحُ ذلك ويُبَيِّنُهُ ما رُوِيَ **عن ابن عَبَّاس** رضي الله عنهما **مرفوعًا وموقوفًا، قال**: «المسألةُ: أن تَرْفَعَ يَدَيْكَ حَذْوَ مَنْكِبَيْكَ أو نحوهما، والاستغفارُ: أن تُشِيرَ بإصبعٍ واحدة، والابتهالُ: أنْ تَمُدَّ يَدَيْكَ جميعًا»، وفي لفظ: «هكذا الإخلاصُ يشيرُ بإصبعِهِ التي تلي الإبهامَ، وهذا الدعاءُ، فرفَعَ يَدَيْهِ حَذْوَ مَنْكِبَيْهِ، وهذا الابتهالُ، فرفَعَ يَدَيْهِ مَدًّا»؛ رواه أبو داود في «سننه»، والطبرانيُّ في «الدعاء»، وغيرهما[1].

قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زَيْد رحمه الله **معلِّقًا على هذا الحديث**: «وقد جاءتِ الأحاديثُ مِنْ فعلِ النبيِّ ﷺ مبيِّنةً مَقَامَ كلِّ حالةٍ مِنْ هذه الصفاتِ الثلاثة، لا أنَّها مِنَ اختلافِ التنوُّع، **وبيانُها كالآتي**:

المقام الأول: مقامُ الدعاءِ العامِّ، ويُسمَّى المسألةَ، ويُقالُ: الدعاء، وهو رَفْعُ اليدَيْنِ إلى المَنْكِبَيْنِ أو نحوهما، ضامًّا لهما، باسطًا لبطونِهِمَا نحوَ السماءِ، وظهورِهِمَا إلى الأرض، وإنْ شاءَ قَنَّعَ بهما وجهَهُ، وظُهُورُهما نحوَ القِبْلة، وهذه هي الصفةُ العامَّةُ لرفع اليدَيْنِ حالَ الدعاءِ مطلقًا، وفي قنوتِ الوِتْرِ والاستسقاء، أو في مواطنِ رَفْعِهِمَا الستةِ في الحَجِّ [**أي**: في عَرَفَةَ، والمشعرِ الحرام، وبعدَ رمي الجمرتَيْنِ الصغرى والوسطى، وعلى الصَّفَا والمروة]، وغير ذلك.

المقام الثاني: الاستغفارُ، ويُقالُ: الإخلاصُ، وهو رَفْعُ إصبعٍ واحدة، وهي السَّبَّابة، من اليَدِ اليمنى، وهذه الصفةُ خاصَّةٌ بمقامِ الذِّكْرِ

(١) «سنن أبي داود» رقم (١٤٨٩، ١٤٩٠)، و«الدعاء» للطبراني رقم (٢٠٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» رقم (١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٤) موقوفًا ومرفوعًا.

والدعاءِ حالَ الخُطْبَةِ على المنبر، وحالَ التشهُّدِ في الصلاة، وحالَ الذِّكْرِ والتمجيدِ والهيللةِ خارجَ الصلاة. . .

المقام الثالث: الابتهالُ، وهو التضرُّعُ والمبالغةُ في المسألة، ويُسمَّى أيضًا دعاءَ الرَّهَبِ، وصفتُهُ: رَفْعُ اليدَيْنِ مَدًّا نحوَ السماءِ حتى تُرى عُفْرَةُ إِبْطَيْهِ؛ **أي**: بياضُهُمَا، ويُقالُ في وَصْفِهِ: حتى يَبْدُوَ عَضُدَاهُ؛ **أي**: يرتفعانِ مِنَ المبالغةِ في الرفع، وهذه الصفةُ أخصُّ مِنَ الصفتَيْنِ السابقتَيْنِ في المقامِ الأوَّل والثاني، وهي خاصَّةٌ في حالِ الشِّدَّةِ والرَّهْبَةِ كحالِ الجَدْبِ، والنازلةِ بتسلُّطِ العدو، ونحو ذلك من مقاماتِ الرَّهَبِ». اهـ[1].

فهذه أحوالُ الرفعِ في الدعاء، وهي أحوالٌ ثلاثةٌ بِحَسَبِ نوعِ الدعاء، وللموضوعِ صِلَةٌ، واللهُ الموفِّق.

❋ ❋ ❋

(١) «تصحيح الدعاء» (ص١١٦ ـ ١١٧).

٩٠

مَرَاتِبُ رَفْعِ الْيَدَيْنِ فِي الدُّعَاءِ

كان الحديثُ فيما سبَقَ عن أدبٍ عظيمٍ مِنْ آدابِ الدعاءِ، وسببٍ عظيمٍ من أسبابِ إجابته؛ ألا وهو رَفْعُ اليَدَيْنِ إلى اللهِ ﷿ عندَ الدعاءِ بتَذَلُّلٍ وتمسكُنٍ وافتقار، ومَرَّ معنا جملةٌ مِنَ الأحاديثِ الثابتةِ عن النبيِّ ﷺ في ذلك، وأنَّ ذلكَ ممَّا تواتَرَ معناه عن رسولِ اللهِ ﷺ؛ كما مرَّ أيضًا صفاتُ الرفعِ في الدعاء، وأنَّها ثلاثةٌ بِحَسَبِ نوعِ الدعاء، فإذا كان الدعاءُ ابتهالًا وتَضَرُّعًا، فإنَّ رَفْعَ اليَدَيْنِ يكونُ بمدِّهما نحوَ السماءِ حتى يَبْدُوَ بياضُ الإبط، وإذا كان الدعاءُ دعاءَ المسألةِ، فيكونُ رفعُ اليَدَيْنِ إلى المَنْكِبَيْنِ أو نحوهما، وإذا كان الدعاءُ استغفارًا وتمجيدًا وثناءً، فإنَّ الرفعَ يكونُ بإصبعٍ واحدةٍ، وهي السَّبَّابَةُ من اليد اليمنى.

وقد ثبَتَ في الحديث **عن أنسِ بنِ مالك** ﵁ **أنَّه قال**: «كانَ النبيُّ ﷺ لا يَرْفَعُ يَدَيْهِ في شيءٍ مِنْ دعائِهِ إلَّا في الاستسقاءِ»؛ متفقٌ عليه[(١)].

فذهَبَ بعضُ أهلِ العلمِ ـ عملًا بهذا الحديثِ ـ إلى أنَّ الدعاءَ لا يُشْرَعُ فيه رفعُ اليَدَيْنِ إلَّا في الاستسقاءِ فقطْ، أمَّا سوى ذلك مِنَ الأدعيةِ، فلا يُشْرَعُ فيها رفعُ اليَدَيْنِ، لكنَّ هذا الحديثَ مُعَارَضٌ بأحاديثَ كثيرةٍ دَالَّةٍ على مشروعيَّةِ رفعِ اليَدَيْنِ في الدعاءِ في غيرِ الاستسقاءِ؛ **ولذا يقولُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة** ؒ: «والصحيحُ: الرفعُ مطلقًا؛ فقد تَوَاتَرَ في الصِّحَاحِ: «أنَّ الطُّفَيْلَ قال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ دَوْسًا قد عَصَتْ وأَبَتْ، فادْعُ عليهم»، فاستَقْبَلَ القبلةَ ورفَعَ يديه، وقال: **(اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْسًا، وَأْتِ بِهِمْ)**[(٢)]، وفي «الصحيح»:

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٣١)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٨٩).

«أنَّه عليه الصلاةُ والسلامُ لـمَّا دعا لأبي عامرٍ، رَفَعَ يَدَيْهِ»[١]، وفي حديثِ عائشةَ ﵂ لَمَّا دعا النبيُّ ﷺ لأهل البَقِيعِ: «رَفَعَ يَدَيْهِ ثلاثَ مَرَّاتٍ»؛ رواه مسلم[٢]، وفيه: «أنَّه ﷺ رَفَعَ يَدَيْهِ، فقال: **(أُمَّتِي أُمَّتِي)**، وفي آخره: **(قَالَ اللهُ تَعَالَى: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ)**»[٣]، وفي قِصَّةِ بَدْرٍ لَمَّا رأى ﷺ المشركينَ، مَدَّ يَدَيْهِ، وجعَلَ يهتفُ بربِّه، فما زال يَهْتِفُ بربِّه مادًّا يَدَيْهِ، حتى سقَطَ رداؤُهُ عن مَنْكِبَيْهِ[٤]، وفي حديثِ قَيْس بن سَعْد ﵄: «فرفَعَ يَدَيْهِ ﷺ وهو يقولُ: **(اللَّهُمَّ، اجْعَلْ صَلَاتَكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ)**»[٥]، وبعَثَ جيشًا فيه عليٌّ ﵁، فَرَفَعَ يديه، وقال: **(اللَّهُمَّ، لَا تُمِتْنِي حَتَّى تُرِيَنِي عَلِيًّا)**[٦]، وفي حديثِ القُنُوتِ رَفَعَ يَدَيْهِ[٧]. . . .، ثمَّ ذكر شيخُ الإسلام ﵀ حديثَ أنسٍ المتقدِّمَ في أنَّ النبيَّ ﷺ ما كان يرفَعُ يَدَيْهِ في شيءٍ مِنْ دعائِهِ إلَّا في الاستسقاءِ، **ثمَّ قال**: «والجمعُ بين حديثِ أنسٍ هذا وسائرِ الأحاديثِ: ما قاله طوائفُ مِنَ العلماء، وهو أنَّ أنسًا ذكَرَ الرفعَ الشديدَ الذي يُرَىٰ فيه بياضُ إِبْطَيْهِ، وينحني فيه بَدَنُهُ، وهذا الذي سمَّاه ابنُ عَبَّاسٍ الابتهالَ، **فجعَلَ المراتبَ ثلاثةً**: الإشارةُ بِإِصْبَعٍ واحدةٍ؛ كما كان يفعلُ يومَ الجمعةِ على المِنْبَرِ، والثانيةُ: المسألةُ؛ وهو أن يَجْعَلَ يَدَيْهِ حَذْوَ منكبيه؛ كما في أكثرِ الأحاديث، والثالثةُ: الابتهالُ، وهو الذي ذكَرَهُ أنسٌ؛ ولهذا قال: «كان يَرْفَعُ يَدَيْهِ حتى يُرَىٰ بياضُ إِبْطَيْهِ»[٨]، وهذا الرفعُ إذا اشتَدَّ، كان بطونُ يَدَيْهِ مِمَّا يَلِي وَجْهَهُ والأرضَ، وظهورُهما مما يلي السماءَ؛ ويُؤَيِّدُ هذا التأويلَ: ما روى أبو داودَ في «مراسيله»، من حديثِ أبي أَيُّوبَ سُلَيْمَانَ بنِ موسى الدِّمَشْقِيِّ ﵀، **قال**: «لَمْ يُحْفَظْ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه رفَعَ يَدَيْهِ الرفعَ كلَّه إلَّا في ثلاثةِ مواطنَ:

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٣٢٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٤٩٨).
(٢) تقدم تخريجه (ص٣٨٩). (٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٠٢).
(٤) «صحيح مسلم» رقم (١٧٦٣).
(٥) تقدم تخريجه (ص٣٩٠).
(٦) رواه الترمذي رقم (٣٧٣٧)، وذكره الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» رقم (٧٨١).
(٧) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٣٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢١١)، عن أنس ﵁.
(٨) تقدم تخريجه (ص٣٨٨).

الاستسقاءُ، والاستنصارُ، وعشيَّةَ عَرَفَةَ، ثمَّ كان بعدُ رفعًا دونَ رَفْع»[١]. **قال**: «وقد يكونُ أنسٌ ﷺ أرادَ بالرفع على المِنْبَرِ يومَ الجُمُعةِ ـ كما في «مسلم» وغيره ـ: أنَّه كان لا يزيدُ على أنْ يَرْفَعَ إِصْبَعَهُ المسبِّحةَ»[٢]، **قال**: «وفي هذه المسألةِ قولانِ هما وجهانِ في مذهبِ الإمامِ أحمدَ؛ **يعني**: في رفعِ الخطيبِ يَدَيْهِ، قيل: يُستحَبُّ؛ قاله ابنُ عَقِيلٍ، وقيل: لا بل يُكْرَهُ، وهو أصحُّ». اهـ[٣].

وقال الحافظ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في الجمعِ بينَ حديثِ أنسٍ والأحاديثِ الأخرى الدالَّةِ على مشروعيَّةِ الرفعِ في سائر الأدعيَةِ: «لكنْ جُمِعَ بينه وبين أحاديثِ البابِ وما في معناهـا: بأنَّ المنفيَّ صفةٌ خاصَّةٌ لا أصلُ الرفعِ؛ فإنَّ الرفعَ في الاستسقاءِ يخالفُ غيرَهُ بالمبالغةِ إلى أنْ تَصِيرَ اليدانِ في حَذْوِ الوجهِ مثلًا، وفي الدعاءِ إلى حَذْوِ المَنْكِبَيْنِ، ولا يُعكِّرُ على ذلكَ أنَّه ثبَتَ في كلٍّ منهما: «حتى يُرَىٰ بياضُ إِبْطَيْهِ»، بل يُجْمَعُ بأنْ تكونَ رؤيةُ البياضِ في الاستسقاءِ أبلغَ منها في غيرِهِ، وإمَّا أنَّ الكفَّيْنِ في الاستسقاءِ يَلِيَانِ الأرضَ، وفي الدعاء يَلِيَانِ السماء، قال المنذريُّ: وبتقديرِ تعذُّرِ الجمعِ، فجانبُ الإثباتِ أرجحُ. قلتُ: [**أي**: ابن حجر]: ولا سيَّما مَعَ كثرةِ الأحاديثِ الواردةِ في ذلك». اهـ[٤].

وبما تَقَدَّمَ يَتبيَّنُ أنَّ الدعاءَ مشروعٌ فيه رَفْعُ اليدَيْنِ؛ سواءٌ في الاستسقاءِ أو غيرِهِ، بل إنَّ الرفعَ مِنْ أسباب الإجابة؛ كما في الحديثِ: **(إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)**[٥]؛ **أي**: خائبتَيْنِ، لكنَّ صفةَ الرفعِ في الاستسقاءِ، الذي هو مقامُ شِدَّةٍ ورَهَبٍ، تكونُ بالمبالغةِ في الرفعِ والابتهالِ الشديد، وأمَّا ما سواه، فيكونُ الرفعُ إلى المنكبَيْنِ أو نحوِهما، عملًا بجميعِ الأحاديثِ الواردةِ في الباب.

وقد ثبَتَ عن أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ في حديثٍ آخَرَ: «أنَّ النبيَّ ﷺ

---

(١) «المراسيل» رقم (١٤٨).
(٢) سيأتي تخريجه (ص٤٠٦).
(٣) **انظر**: «شرح ثلاثيات المسند» للسفاريني (١/ ٦٥٣ ـ ٦٥٤).
(٤) «فتح الباري» (١١/ ١٤٢).
(٥) تقدم تخريجه (ص٢٧٦).

استَسْقَى، فأشارَ بِظَهْرِ كَفَّيْهِ إلى السماءِ»؛ رواه مسلم(١)؛ وفي ذلكَ إشارةٌ إلى المبالغةِ في رفعِ اليَدَيْنِ في حالِ الجَدْبِ في الاستسقاء؛ **ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّما هو لشدَّةِ الرفعِ انحنَتْ يَدُه، فصارتْ كَفُّهُ ممَّا يلي السماءَ لِشِدَّةِ الرفعِ، لا قصدًا لذلك؛ كما جاء أنَّه رفعهما حِذاءَ وَجْهه».

ثم إن الأحوال في الدعاء من حيث رفع اليدين أو عدمه ثلاثة، قال الشيخ محمَّد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «رَفْعُ اليَدَيْنِ في الدعاءِ **على ثلاثةِ أقسام**:

القسم الأول: ما ورَدَتْ به السُّنَّةُ؛ فهذا ظاهرٌ أنَّه يُسَنُّ فيه الرفعُ؛ مثلُ دعاءِ الاستسقاءِ، والدعاءِ على الصفا والمروةِ، وفي عَرَفَةَ.

والقسم الثاني: ما ورَدَ فيه عدَمُ الرفعِ؛ مثلُ الدعاءِ في الصلاة، والتشهُّدِ الأخير.

القسم الثالث: ما لَمْ يَرِدْ فيه الرفعُ ولا عَدَمُ الرفع؛ فهذا الأصلُ فيه أنَّ مِنْ آدابِ الدعاءِ أن يَرْفَعَ الإنسانُ يَدَيْهِ»(٢).

ثُمَّ إنَّ رفعَ اليدَيْنِ في الدعاءِ فيه مِنَ التذلُّلِ والخضوعِ والانكسارِ والمسكنة، وإظهارِ الحاجةِ والافتقارِ إلى الربِّ الكريم ما يكونُ سببًا لِقَبُولِهِ وإجابتِهِ؛ **قال السَّفَّارينيُّ** رَحِمَهُ اللهُ: «قال العلماءُ: إنَّما شُرِعَ رَفْعُ اليَدَيْنِ في الدعاءِ؛ لزيادةِ التذلُّل، فيجتمعُ للإنسانِ أحوالُ الضَّرَاعَةِ في مقامِ العبوديَّة، وأيضًا: فإنَّ العبدَ ربَّما عجَزَ عن إيقاظِ قَلْبِهِ مِنَ الغَفْلة، وله قدرةٌ على حَرَكَةِ اليدِ واللسانِ فيهما، فكانَ ذلكَ وسيلةً إلى خشوعِ القلب، وقد قالوا: حَرَكَاتُ الظواهر، توجبُ بَرَكَاتِ السرائر، وهو نظيرُ رَفْعِ السَّبَّابَةِ فِي تَشَهُّدِ الصلاة، فيوحِّدُ الجَنَانُ، ويُتَرْجِمُ اللِّسَانُ، وتزكِّيه الأركانُ»(٣).

❁ ❁ ❁

(١) «صحيح مسلم» رقم (٨٩٦).
(٢) «لقاء الباب المفتوح» (٥١ ـ ٦٠) (ص١٧، ١٨) باختصار.
(٣) **انظر**: «شرح ثلاثيات المسند» للسفاريني (١/ ٦٥٥ ـ ٦٥٦).

٩١

الدَّلَائِلُ وَالْمَعَانِـي الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ رَفْعِ الْيَدَيْنِ

لا يزالُ الحديثُ ماضيًا في الكلامِ على رَفْعِ اليدَيْن إلى اللهِ ﷻ حالَ الدعاء، ذلكُم الأدبُ الرفيعُ مِنَ المخلوقِ الفقيرِ المحتاج، مَعَ ربِّه الغنيِّ الجَوَادِ الكريم؛ **حيثُ يُظْهِرُ المخلوقُ برفعِ يَدَيْهِ احتياجَهُ لربِّه، وافتقارَهُ إليه، وذُلَّه، وخضوعَهُ وانكسارَهُ بين يَدَيْ ربِّه**، وكلَّما عظُمَتْ حاجةُ المخلوق، واشتدَّتْ رَغْبَتُه، وزادَ إلحاحُهُ، بالَغَ في رَفْعِهِ يَدَيْه، وزادَ في مَدِّهما إلى اللهِ مُتذلِّلًا مُتوسِّلًا؛ ولهذا لَمَّا كان دعاءُ الاستسقاءِ فيه مِنَ الرَّغْبةِ والإلحاحِ ما ليسَ في غيرِهِ، كان رفعُ النبيِّ ﷺ وإشارتُهُ فيه أعظمَ منه في غيره، وفي ذلك أعظمُ دَلَالةٍ على توحيدِ اللهِ وتعظيمِهِ وتكبيرِهِ، والإيمانِ بعلوِّهِ على خَلْقِهِ وقَيُّومِيَّته، وغِناهُ الكاملِ عنهم، وافتقارِهِمْ واحتياجِهِمْ إليه؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣].

* **ففي رفع اليَدَيْنِ إلى اللهِ**: إقرارٌ بقَيُّومِيَّتِهِ جلَّ وعلا، وأنَّه قائمٌ على كلِّ شيء، وقائمٌ على كلِّ نفس، وأنَّهُ المُدَبِّرُ للأمورِ كلِّها، المتصرِّفُ في الخلائقِ جميعِهم، ومَنْ كان كذلك، فهو المُسْتَحِقُّ أن يُؤْلَهَ ويُعْبَدَ، ويُصَلَّى له ويُسْجَدَ، وهو المُسْتَحِقُّ نهايةَ الحُبِّ مع نهايةِ الذُّلِّ؛ لكمالِ أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، وهو المُطاعُ المعبودُ وحدَهُ على الحقيقة؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فكلُّ عبوديَّةٍ لغيرِهِ باطلةٌ وعَنَاءٌ وضلال، وكلُّ مَحبَّةٍ لغيرِهِ عذابٌ لصاحبها، وكلُّ غِنًى لغيرِهِ فقرٌ وضلال، وكلُّ عِزٍّ بغيرِهِ ذُلٌّ وصَغار، وكلُّ تكثُّرٍ بغيرِه قِلَّةٌ وفَاقَة؛ فهو الذي انتهَتْ إليه الرَّغَبات،

وتَوجَّهَتْ نحوَهُ الطَّلَبات، وأُنْزِلَتْ ببابِهِ الحاجات؛ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

* **وفي مَدِّ اليَدَيْنِ إلى اللهِ**: إقرارٌ بأنَّ اللهَ كريمٌ جَوَادٌ مُحْسِنٌ، يجيبُ الداعين، ويُغيثُ الملهوفين، ويُعْطِي السائلين، لا يتعاظمُهُ ذنبٌ أن يَغْفِرَه، ولا حاجةٌ يُسْألُهَا أن يُعْطيَها، لو أنَّ أهلَ سماواتِهِ وأهلَ أرضِهِ؛ إنسَهُمْ وجِنَّهم، حَيَّهم ومَيِّتَهم، رَطْبَهُمْ ويَابِسَهُمْ، قاموا في صعيدٍ واحد، فسألوه، فأَعْطَى كلَّ واحدٍ منهم ما سَأَلَهُ، ما نقَصَ ذلك مما عنده مثقالَ ذَرَّة، وَسِعَتْ رحمتُهُ كلَّ شيء، يمينُهُ مَلْأىٰ لا تَغيضُها نَفَقَة، سَحَّاءُ الليلِ والنهار، وفي الحديثِ: **(إنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)**[1].

* **وفي مَدِّ اليَدَيْنِ إلى اللهِ**: إقرارٌ بعلم الله، وإحاطتِهِ بِخَلْقِهِ، واطِّلاعِهِ عليهم، وأنَّه لا تخفى عليه منهم خافية، لا يَشْغَلُهُ سبحانه سَمْعٌ عَنْ سمع، ولا تُغْلِطُهُ الأصواتُ على كثرتِهَا واختلافِهَا واجتماعها، بل هي عنده كصوتٍ واحد، كما أنَّ خلْقَ الخلقِ جَميعِهم وبعثَهم عنده بمنزلةِ نَفْسٍ واحدة، يرى دَبِيبَ النملةِ السوداء، على الصخرةِ الصَّمَّاء، في الليلةِ الظَّلْماء، ويرى تفاصيلَ خَلْقِ الذرَّةِ الصغيرة، ومُخَّها وعُرُوقَها، ولَحْمَها وحَرَكَتَها، ويرى مَدَّ البعوضةِ جَنَاحَها في الليلِ المُظْلِم.

* **وفي مَدِّ اليَدَيْنِ إلى اللهِ**: إقرارٌ بعلوِّهِ على خَلْقِه؛ ذلكَ أنَّ الذين يرفعونَ أَيْدِيَهم إلى السماءِ وَقْتَ الدعاءِ تَقْصِدُ قلوبُهُمُ الربَّ الذي هو فوقَ عبادِهِ، وتكونُ حركةُ جوارحهم بالإشارةِ إلى فَوْقُ، تبعًا لحركةِ قلوبهم إلى فَوْقُ، وهذا أمرٌ يجدُهُ كلُّ داعٍ وَجْدًا ضروريًّا، إلَّا مَنْ تَغيَّرتْ فِطْرَتُهم، وانحرَفَتْ عقيدتُهم، وعلوُّ اللهِ على خَلْقِهِ قامتْ عليه الأدلةُ الكثيرة، والبراهينُ

(١) تقدم تخريجه (ص٢٧٦).

العديدة؛ فَدَلَّ عليه الكتابُ الكريم، والسُّنَّةُ الثابتة، وإجماعُ الأمَّة، والعقلُ السليم، والفِطَرُ المستقيمة؛ **حُكِيَ عن أبي جعفرٍ الهَمَذانيِّ** رَحِمَهُ اللهُ: **أنَّه حضرَ مجلسَ أبي المعالي الجُوَيْنِيِّ ـ أحدِ علماءِ الكلامِ ـ فذكَرَ العَرْشَ، وقال:** «كان اللهُ ولا عَرْشَ، ونحوَ ذلك، يريدُ بذلك أن يَتوصَّلَ إلى إنكارِ علوِّ اللهِ، فقال له الهَمَذَانيُّ: يا شيخُ، دَعْنا مِنْ ذلك، وأَخْبِرْنا عن هذه الضرورةِ التي نَجِدُها في قلوبنا؛ فإنَّه ما قال عارفٌ قطُّ: يا أَللهُ، إلَّا وَجَدَ في قلبِهِ ضرورةً لطلبِ العلوِّ، لا يَلْتَفِتُ يَمْنةً ولا يَسْرةً، فضرَبَ أبو المعالي على رَأْسِهِ، وقال: حيَّرني الهَمَذاني».

والهَمَذانيُّ رَحِمَهُ اللهُ إنَّما بيَّن ما يقومُ في قلبِ كلِّ داعٍ عندما يقولُ: يا الله، مِنْ حركةٍ في قلبِهِ ضروريَّةٍ إلى العلوِّ؛ وهذا يقتضي أنَّه مركوزٌ في الفِطَرِ أنَّ اللهَ فوقَ عبادِهِ، عليٌّ على خَلْقِهِ.

وإذا أَقَرَّ العبدُ بذلكَ يصيرُ لِقَلْبِهِ صَمَدٌ يتجهُ إليه مناجيًا له، مُطْرِقًا واقفًا بين يَدَيْهِ وقوفَ العبدِ الذليلِ، بين يَدَيِ الملكِ العزيزِ الجليل، فيَشْعُرُ بأنَّ كلامَهُ وعملَهُ صاعدٌ إليه، معروضٌ عليه، فيستحيي أنْ يَصْعَدَ إليه مِنْ كلامِهِ ما يخزيه ويَفْضَحُهُ هناك، ويجتهدُ في قولِ الخير، وفعلِ الخير؛ لعلمِهِ بأنَّه سبحانه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

ولهذا، فإنَّهُ لا يُنْكِرُ عُلُوَّ اللهِ على خلقِهِ إلَّا ضُلَّالُ الناسِ وجُهَّالُهُمْ؛ مِمَّنْ تَحوَّلَتْ فِطَرُهم، وانْحَرفَتْ عقائدُهم، وصَدَّهُمُ الشيطانُ عن سواءِ السبيل؛ وإلَّا فكيف يَصِحُّ مِنْ عاقلٍ إنكارُ عُلُوِّ اللهِ، مَعَ كثرةِ الشواهدِ على ذلك، وتنوُّعِ البراهين؟! مِنْ ذلك ـ كما تَقَدَّمَ ـ أنَّ المؤمنينَ جَمِيعَهُمْ عندما يَدْعُونَ اللهَ يرفعون أَيْدِيَهُمْ إلى الله، ويَمُدُّونها نحوَهُ؛ وهذا إجماعٌ منهم على علوِّ اللهِ على خلقه.

قال أبو الحَسَنِ الأشعريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ورأينا المسلمينَ جميعًا يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ ـ إذا دَعَوْا ـ نحوَ السَّماءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى مستوٍ عَلَى العرْشِ الذي هو فوقَ السَّماوات، فلولا أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ على العرْشِ لم يرفعُوا أيديَهُم نحْوَ العرش،

كما لا يَحُطُّونها ـ إذا دَعَوْا ـ نَحْوَ الأرضِ»[١].

وهذا الاحتجاجُ منه رَحِمَهُ اللهُ احتجاجٌ بإجماعِ المسلمين على رَفْعِ أيديهم في الدعاءِ على أنَّ اللهَ فوقَ سماواتِهِ، عالٍ على خلقه؛ لأنَّهم إنَّما يرفعون إليه نَفْسِهِ، لا إلى غيرِهِ.

ولهذا، فإنَّ غالبَ النُّفَاةِ لِأَنْ يكونَ اللهُ فوقَ العرشِ فيهم مِنَ الانحلالِ عن دعاءِ اللهِ ومسألتِهِ وعبادتِهِ بِقَدْرِ ما قامَ في قلوبِهِمْ مِنْ إنكارٍ لعلوِّ اللهِ على خلقه، إلَّا مَنْ يكونُ منهم جاهلًا بحقيقةِ مذهبهم، فيوافقُهُمْ بلسانِهِ على قولٍ لا يَفْهَمُ حقيقتَهُ، وفطرتُهُ على الصِّحَّةِ والسلامة، فإذا استَحْوَذَ قولُهُمْ على قلبه، انحَرَفَتْ فطرتُهُ وَتَغَيَّرَتْ[٢]، فنحمدُ اللهَ تعالى على السلامة مِنْ هذه الأهواء، ونسألُ اللهَ ـ رافعينَ أَيْدِيَنَا إليه ـ الثباتَ على الحَقّ، والعزيمةَ على الرُّشْد؛ فإنَّه تبارَكَ وتعالى نِعْمَ المجيبُ.

❁ ❁ ❁

---

(١) «الإبانة» (ص٩٧ ـ ٩٨).

(٢) **انظر**: «نقض تأسيس الجهمية» (٢/ ٤٤٥ ـ ٤٥١).

٩٢

رَفْعُ الأَيْدِي إِلَى اللَّهِ مِنْ دَلَائِلِ عُلُوِّهِ

لقد كان الحديثُ فيما مَضَى عن دَلَالاتِ رفعِ الأيدي في الدعاءِ إلى الله، وما يَتضمَّنُهُ ذلكَ من الإقرارِ بتوحيدِ اللهِ وتعظيمه، والإيمانِ بِعُلوِّهِ على خلقه، وغِنَاهُ الكاملِ عنهم، وافتقارِهِمْ إليه من جميعِ الوجوه، وقد مضى الإشارةُ إلى أنَّ هذا أمرٌ ـ أعني: الإيمانَ بِعُلُوِّهِ ـ يَجِدُهُ الناسُ في فِطَرِهِمْ؛ صغيرُهم وكبيرُهم، عالِمُهم وجاهلُهم.

يقول الإمام أبو بكر محمَّد بن إسحاق بن خُزَيْمَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في كتاب «التوحيد»**: «وكما هو مفهومٌ في فِطَرِ المسلمينَ؛ عُلَمَائِهم وجُهَّالهم، وأحرارِهم ومَمَالِيكِهم، وذُكْرَانِهم وإِنَاثِهم، وبَالِغِيهِمْ وأطفالِهم، كلُّ مَنْ دعا اللهَ ـ جلَّ وعَلَا ـ فإنَّما يَرْفَعُ رأسَهُ إلى السماءِ، ويَمُدُّ يَدَيْهِ إلى الله تعالى إلى أعلاه، لا إلى الأسفل»(١).

ويقول الإمام أبو محمَّد عبد الله بن مُسْلِم بن قُتَيْبَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو أنَّ هؤلاءِ ـ **أي**: مَنْ ينكرونَ عُلُوَّ اللهِ ـ رَجَعُوا إلى فِطَرِهِمْ، وما رُكِّبَتْ عليه خِلْقَتُهُمْ من معرفةِ الخالقِ سبحانه، لَعَلِمُوا أنَّ اللهَ تعالى هو العليُّ، وهو الأعلى، والأيدي تُرْفَعُ بالدعاءِ إليه، والأُمَمُ كلُّها ـ عَرَبُها وعَجَمُها ـ تقولُ: إنَّ اللهَ في السماءِ ما تُرِكَتْ على فِطَرِها»(٢). اهـ.

فالإيمانُ بعلوِّ اللهِ على خلقِهِ مستقرٌّ في الفِطَرِ السليمة، ثابتٌ في نصوصِ الكتابِ والسُّنَّة، مُتقرِّرٌ في العقولِ القويمة، مُجْمَعٌ عليه بين علماءِ الأُمَّة؛ ولذا كان تَوَجُّهُ الناسِ عندَ الدعاءِ بقلوبِهم وإشارتِهم ورَفْعِ أيديهم إنَّما يكونُ إلى

---

(١) «التوحيد» لابن خزيمة (١/ ٢٥٤).

(٢) «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (ص١٨٣) باختصار.

العُلُوِّ، لا إلى جهةٍ أخرى؛ وهذا أمرٌ فِطْريٌّ ضروريٌّ عقليٌّ، يَجِدُهُ كلُّ داعٍ في قَلْبه، فالقلبُ عندَ التوجُّهِ والسؤالِ والدعاءِ، والابتهالِ والمناجاةِ له وِجْهَةٌ واحدةٌ يقصدها، ويَتَّجِهُ إليها، هي إلى اللهِ ﷻ في عُلُوِّهِ، لا يَتَّجِهُ إلى يمينٍ أو شمالٍ أو أسفلَ أو نحوِ ذلك، وإنَّما يتجهُ إلى العلوِّ، وهذا أمرٌ ضروريٌّ، لا ينفكُّ منه القلبُ إلَّا إذا فسَدَ وانتكَسَ وأَظْلَمَ، وتَحوَّلَ عن الفِطْرة.

ولهذا تَرَى في أحوالِ الداعينَ والذاكرينَ أنَّه يَحْصُلُ من بعضهم حركةٌ في جوارحهم اضطرارًا إلى فوقُ، إلى جهةِ العُلُوِّ؛ وذلك تَبَعًا لحركةِ قلوبهمْ؛ بالإشارةِ أو الإصبعِ أو العَيْن أو الرأسِ، أو غير ذلكَ من الإشاراتِ الحِسِّيَّة، وهذا أمرٌ قد تواتَرَتْ به السننُ عن النبيِّ ﷺ واتفقَ عليه المسلمون؛ ولذا تراهم يقولون بألسنتهم: «ارْفَعُوا أيديَكُمْ إلى اللهِ»، ونحوَ ذلكَ من العبارات، وهذا إخبارٌ منهم عن أنفسهم أنَّهم يَقْصِدُونَ الإشارة إلى اللهِ، ورَفْعَ الأيدي إليه ﷻ.

وقد تواتَرَ من هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ رَفْعُ الأيدي إلى اللهِ في الدعاء، والإشارةُ بالسَّبَّابَةِ من اليدِ اليمنى يدعو بها في خُطْبَةِ الجُمُعة، وفي التشهُّدِ في الصلاة، ورَفْعُ البصرِ إلى السماء، والإشارةُ بالإصبع إلى السماءِ ونحوُ ذلك.

أمَّا رفعُهُ يديه في الدعاءِ، فهو ثابتٌ في أحاديثَ كثيرةٍ جدًّا، وقد مضى معنا ذكرُ جملةٍ منها[1].

وأمَّا إشارتُهُ بالسَّبَّابَةِ من اليدِ اليمنى يدعو بها في خُطْبةِ الجمعةِ، فهو ثابتٌ فيما رواه **حُصَيْنُ بن عبد الرحمٰن، قال**: «رأى عُمَارَةُ بن رُؤَيْبَةَ بِشْرَ بنَ مَرْوانَ وهو يدعو في يوم الجُمُعة، فقال عُمَارةُ: قَبَّحَ اللهُ هاتَيْنِ اليَدَيْنِ، لقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو على المِنبَرِ ما يزيدُ على هذه؛ **يعني**: السَّبَّابَةَ»، وفي رواية: «رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو على المِنْبَرِ يَخْطُبُ إذا دعا يقولُ هكذا، فرفَعَ السبابةَ وَحْدَها»[2].

---

(١) **انظر**: (٣٨٨)، فما بعدها.

(٢) «المسند» (٤/ ١٣٦)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٧٤).

وأمَّا إشارتُهُ بالسَّبَّابَةِ مِنَ اليدِ اليمنى يدعو بها في التشهُّدِ، **فثابتٌ فيما رواه ابن عُمَرَ** رضي الله عنهما، **قال:** «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا جلَسَ في الصلاةِ، وضَعَ يَدَيْهِ على رُكْبَتَيْهِ، ورفَعَ إِصْبَعَهُ اليمنى التي تلي الإبهامَ، فدعا بها، ويَدُهُ اليسرى على رُكْبَتِهِ بَاسِطَهَا عليها»، وفي رواية: «كان إذا جلَسَ في الصلاةِ، وضَعَ كَفَّهُ اليمنى على فَخِذِهِ اليمنى، وقبَضَ أصابِعَهُ كلَّها، وأشارَ بإصبعِهِ التي تلي الإبهامَ، ووضَعَ كَفَّهُ اليسرى على فَخِذِهِ اليسرى»؛ رواهما مسلم، وأحمد، وغيرُهما[(١)]، وفي الباب أحاديثُ عديدةٌ.

وأمَّا رفعُهُ بصرَهُ إلى السماء، فيقولُ اللهُ تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، **قال ابن عبَّاس** رضي الله عنهما: «كان أوَّلَ ما نُسِخَ مِنَ القرآنِ القبلةُ؛ وذلك أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لَمَّا هاجَرَ إلى المدينةِ، وكان أكثَرَ أهلها اليهودُ، فأَمَرَهُ اللهُ أن يَسْتقبِلَ بيتَ المَقْدِسِ، ففَرِحَتِ اليهودُ، فاسْتَقْبَلَهَا رسولُ الله ﷺ بِضْعةَ عشَرَ شهرًا، وكان يحبُّ قِبْلَةَ إبراهيمَ، فكان يدعو إلى اللهِ، وينظُرُ إلى السماء، فأنزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى آخرِ الآية»[(٢)].

وفي «صحيح البخاري»، عن عِكْرمةَ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خطبَ الناسَ يوم النَّحْرِ، وقال: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**) قالوا: هذا يومٌ حرامٌ، قال: (**فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟**)، قالوا: بلدٌ حرام، قال: (**فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟**)، قالوا: شهرٌ حرامٌ، قال: (**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا**) ـ فأعادَهَا مرارًا، ثمَّ رفَعَ رأْسَهُ ـ فقال: (**اللَّهُمَّ، هَلْ بَلَّغْتُ؟! اللَّهُمَّ، هَلْ بَلَّغْتُ؟!**)»[(٣)].

---

(١) «المسند» (٢/ ٦٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ٤٥٠).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (١٧٣٩)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٧٩).

وأمَّا إشارتُهُ بإصبعِهِ إلى السماء، فقد ثبَتَ في حديثِ جابرِ بنِ عبد الله في ذكر حَجَّةِ الوداعِ، وفيه: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال في خُطْبَتِهِ يومَ عَرَفَةَ: **(أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟!)** فقالوا: نَعَمْ، فجعَلَ يرفعُ إِصْبَعَهُ إلى السماءِ، ويَنْكُتُها إليهم، ويقول: **(اللَّهُمَّ اشْهَدْ)** ـ ثلاثَ مَرَّاتٍ ـ»؛ أخرجه مسلمٌ في «صحيحه»[(١)].

والنصوصُ في هذا المعنى العظيم كثيرةٌ، وهي دَالَّةٌ دَلَالَةً ظاهرةً على عُلُوِّ اللهِ جلَّ وعلا وفَوْقِيَّتِه، وأنَّه تبارَكَ وتعالى الكبيرُ المتعال؛ ولهذا تَقْصِدُهُ القلوبُ، وتَصْمُدُ إليه الخلائق، ويرفعونَ أَكُفَّهُمْ إليه عندَ دعائهم وسؤالهم، ويشيرونَ إليه في عُلُوِّهِ بأصابعهم مُوَحِّدِينَ له، مُقِرِّينَ بِعَظَمَتِهِ، خلافًا للمنكرينَ لِعُلُوِّ اللهِ مِنْ أهلِ الضلالِ والباطل؛ فإنَّ هؤلاءِ في الحقيقةِ ينكرونَ حقيقةَ كونِهِ أحدًا صَمَدًا، ويَجْحَدُونَ حقيقةَ دعائِهِ، وصِدْقَ التوجُّهِ إليه، ويُسَوِّغُونَ الإشراكَ به، ويُعطِّلونَ صفاتِ كماله، واللهُ المستعان، وهو الهادي وَحْدَهُ إلى سواءِ السبيل.

❁ ❁ ❁

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (١٢١٨).

٩٣

الْأَخْطَاءُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِرَفْعِ الْيَدَيْنِ

لا يزالُ حديثُنا عن رفعِ الأيدي في الدعاء، وقد سبَقَ الكلامُ على فائدةِ ذلك وأَهَمِّيَّتِهِ في الدعاء، وأنَّه سببٌ مِنْ أسبابِ قَبُوله؛ لِمَا في ذلكَ من إظهارِ الافتقارِ والاستكانةِ والحاجةِ إلى الربِّ الكريم؛ حيثُ يَمُدُّ العبدُ يَدَيْهِ إليه مُسْتَكِينًا، سائلًا، متذلِّلًا، واللهُ جلَّ وعلا لا يَرُدُّ يَدَيْنِ مُدَّتَا إليه صِفْرًا خائبَتَيْنِ.

وإنَّ مِمَّا يجبُ على المسلمِ أن يعتنيَ به في هذا الباب: الحِرْصَ على معرفةِ هَدْيِ النبيِّ ﷺ في ذلك، وَتَرَسُّمَ خطاه، ولزومَ منهجه، والبعدَ عمَّا أَحَدَثَهُ الناسُ مِنْ صفاتٍ في الرفع، وهيئاتٍ وحَرَكَاتٍ لَمْ تَثْبُتْ عن خيرِ الأمَّةِ وأكملِهِمْ دعاءً وطاعةً لله، رسولِ اللهِ ﷺ؛ وقد ثبَتَ في الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **(إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ بِبُطُونِ أَكُفِّكُمْ، وَلَا تَسْأَلُوهُ بِظُهُورِهَا)**[(١)]، **وجاء عن ابن عبَّاس** رضي الله عنهما **موقوفًا ومرفوعًا**: «المسألةُ: أن تَرْفَعَ يَدَيْكَ حَذْوَ منكبيك، أو نحوِهِمَا، والاستغفارُ: أن تُشيرَ بإصبعٍ واحدة، والابتهالُ: أن تَمُدَّ يَدَيْكَ جميعًا»[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله **في التعليقِ على هذا الحديث**: «فجعَلَ المراتبَ ثلاثةً: الإشارةُ بإصبعٍ واحدة؛ كما كان يفعلُ يومَ الجُمُعةِ على المنبر، والثانيةُ: المسألةُ؛ وهو أن يَجْعَلَ يَدَيْهِ حَذْوَ مَنْكِبَيْهِ، كما في أكثرِ الأحاديث، والثالثةُ: الابتهالُ»[(٣)]. اهـ.

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (١٤٨٦)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٩٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٩١).

(٣) **انظر**: «شرح ثلاثيات المسند» للسفاريني (١/٦٥٣).

۞ **فعلى المسلم أن ينظُرَ إلى الثابتِ عن النبيِّ ﷺ في ذلك، فيلتزمهُ ويَتقيَّدُ به؛ فهَدْيُهُ ﷺ خيرُ الهَدْيِ**، ولْيَحْذَرِ المسلمُ من تكلُّفاتِ الناسِ وتجاوزاتهم في هذا الباب، فقد كان السلفُ رحمهم الله يُحَذِّرُونَ من جعلِ صفةٍ مِنَ الصفاتِ المأثورةِ في غيرِ موضعها المشروع، كمَنْ يَرْفَعُ يَدَيْهِ في الدعاءِ وهو على المنبر يومَ الجُمُعةِ في غيرِ الاستسقاء، مَعَ أنَّ رفعَ اليَدَيْنِ في الدعاءِ مشروعٌ في غيرِ هذا الموطن.

روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن عُمَارَةَ بن رُؤَيْبَةَ أنَّه رأى بِشْرَ بن مَرْوانَ على المنبر رافعًا يَدَيْهِ، فقال: «قبَّحَ اللهُ هاتَيْنِ اليَدَيْنِ؛ لقد رأيتُ رسول الله ﷺ ما يزيدُ على أنْ يقولَ بيدِهِ هكذا، وأشارَ بإصبعِهِ المسبِّحةِ»[1]؛ فكيف بمن يَخْتَرِعُ في الرفعِ صفاتٍ لا أساسَ لها، أو حركاتٍ لا أصلَ لها. **ومَنْ يَتأمَّلُ أحوالَ الداعين يَرَى منهم عجبًا في هذا الباب**[2].

* **ومِنْ ذلك**: أنَّ بعضَ الداعينَ يَنْزِلُ في رفعِهِ يَدَيْهِ ـ مُفَرَّقَتَيْنِ، أو مجموعَتَيْنِ ـ إلى ما تحتَ السُّرَّةِ أو إلى السُّرَّة، ولا يخفى ما في ذلكَ مِنْ عدمِ المبالاة، وقِلَّةِ الاهتمامِ بهذا الأمرِ العظيم.

* **ومنهم**: مَنْ يَجْعَلُ يديه عندما يرفعهما مفرَّقَتَيْنِ، رؤوسُ الأصابعِ إلى القبلةِ، والإبهامانِ إلى السماء، ولا يخفى ما في ذلك مِنَ المخالفةِ لقولِ النبيِّ ﷺ في الحديثِ المتقدِّم: (**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ بِبُطُونِ أَكُفِّكُمْ**).

* **ومنهم**: مَنْ يُقَلِّبُ يديه إذا رَفَعَهُمَا في الدعاءِ إلى جهاتٍ عديدة، أو يقومُ بهزِّهما، أو يحرِّكُهما حركاتٍ متنوِّعةً.

* **ومنهم**: مَنْ إذا دعا أو أراد أن يدعو يمسحُ إحدى اليدَيْنِ بالأخرى، أو ينفُضُ يديه، ونحو ذلك.

* **ومنهم**: مَنْ يُقبِّلُ يديه بعدَ رَفْعِهما للدعاءِ؛ وهذا كلُّه لا أصلَ له.

* **ومنهم**: مَنْ إذا دعا، مسَحَ وَجْهَهُ بيدَيْهِ بعدَ الدعاءِ؛ وهذا ورَدَ فيه

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٠٢).

(٢) **انظر**: «تصحيح الدعاء» للشيخ بكر أبو زيد (ص١٢٦ ـ ١٢٩).

بعضُ الأحاديث، إلَّا أنَّها لا تثبُتُ عن النبيِّ ﷺ؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا رفعُ النبيِّ ﷺ يَدَيْهِ في الدعاءِ، فقد جاء فيه أحاديثُ كثيرةٌ صحيحةٌ، وأمَّا مسحُهُ وجهَهُ بيديه، فليسَ عنه فيه إلَّا حديثٌ أو حديثانِ لا يقومُ بهما حُجَّةٌ»[(١)].

* **ومِنَ الهيئاتِ المُحْدَثةِ في رفعِ اليدين**: تقبيلُ الإبهامَيْنِ، ووَضْعُهما على العينَيْنِ عندَ ذكرِ اسمِ النبيِّ ﷺ في الأذانِ أو غيره، وقد رُوِيَ في ذلكَ حديثٌ باطلٌ لا يَصِحُّ عن النبيِّ ﷺ، ولفظُهُ: «مَنْ قال حينَ يسمعُ: أشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ: مرحبًا بحبيبي وقُرَّةِ عيني محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ، ثمَّ يُقبِّلُ إبهامَيْهِ، ويجعلُهما على عينيه، لَم يَعْمَ ولم يَرْمَدْ أبدًا»، وقد نصَّ غيرُ واحدٍ من أهلِ العلمِ على أنَّ هذا الحديثَ باطلٌ لا يصحُّ عن النبي ﷺ[(٢)]، ومِنْ خُزَعْبَلَاتِ المتصوِّفةِ أنَّ بعضهم يَنْسُبُ ذلكَ لقولِ الخَضِرِ[(٣)].

* **ومِنَ الأمورِ المُحْدَثةِ في ذلك**: ما يفعلُهُ بعضُهم؛ حيثُ يجمعُ أصابعَ يَدِهِ اليمنى، ويجعلُها على عينه اليمنى، وأصابعَ يَدِهِ اليسرى على عينه اليسرى، ثمَّ يُهَمْهِمُ بالقراءةِ أو الدعاء.

* **ومن الأمورِ التي تُفْعَلُ ولم تَثْبُتْ**: أنَّ بعضَهم يَجْعَلُ يَدَهُ اليمنى على رأسِهِ عقبَ السلامِ مِنَ الصلاةِ يدعو، ويَسْتَنِدُونَ في ذلكَ إلى ما يُرْوَى عن أنسِ بنِ مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّه قال: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا قَضَى صلاتَهُ، مسَحَ جَبْهَتَهُ بيده اليُمْنَى، ويقولُ: بِاسْمِ اللهِ الذي لا إلٰهَ إلَّا هو الرحمٰنُ الرحيم، اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عنِّي الغَمَّ والحَزَنَ»، رواه الطبرانيُّ في «الأوسط»، وهو حديثٌ لَمْ يثبُتْ عن النبي ﷺ[(٤)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥١٩)، **وانظر**: «جزء في مسح الوجه باليدين بعد رفعهما للدعاء» للشيخ بكر أبو زيد.

(٢) **انظر**: «الفوائد المجموعة، في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص٢٠).

(٣) **انظر**: «كشف الخفاء» للعَجْلُوني (٢/ ٢٧٠).

(٤) «المعجم الأوسط» رقم (٢٤٩٩)، **وانظر**: «السلسلة الضعيفة» رقم (٦٦٠).

* **ومِنَ الأخطاءِ في هذا البابِ**: أنَّ بعضَ المصلِّين قد يُشِيرُ بالسَّبَّابَتَيْنِ في التشهُّد؛ وقد ثبَتَ في الحديث: «أَنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ على إنسانٍ يدعو وهو يشيرُ بإصبَعَيْهِ السبابَتَيْنِ، فقال رسولُ الله ﷺ: **(أَحِّدْ أَحِّدْ)**؛ رواه الترمذي[(١)].

* **ومن المخالفاتِ في هذا الباب**: أنَّ بعضَ الدَّاعِينَ قد يُخصِّصُ أوقاتًا يرفعُ فيها يَدَيْهِ بالدعاءِ دونَ مستندٍ شرعيٍّ لذلك التخصيص؛ كمَنْ يرفعُ يَدَيْهِ بعدَ إقامةِ الصلاةِ وقبلَ تكبيرةِ الإحرام، وكرفعِ اليدَيْنِ عَقِبَ السلامِ من الصلاةِ المفروضةِ جماعيًّا أو كلٌّ بمفرده، **قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز** رَحِمَهُ اللهُ: «لَمْ يَصِحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه كان يرفعُ يَدَيْهِ بعدَ صلاةِ الفريضة، ولم يَصِحَّ ذلك أيضًا عن أصحابِهِ رضي الله عنهم فيما نَعْلَمُ، وما يفعلُهُ بعضُ الناسِ مِنْ رفعِ أيديهم بعدَ صلاةِ الفريضةِ بدعةٌ لا أصلَ لها»[(٢)].

* **ومِنْ ذلك أيضًا**: رَفْعُ الأيدي بالدعاءِ بعدَ سجودِ التلاوة، وكذلكَ رَفْعُهما عند رؤيةِ الهلالِ، ونحوِ ذلك.

والحاصلُ: أنَّ المواضعَ التي وُجِدَتْ في عهدِ النبيِّ ﷺ ولم يَثْبُتْ أنَّ النبيَّ ﷺ رفَعَ فيها يَدَيْهِ لا يجوزُ الرفعُ فيها؛ لأنَّ فِعْلَهُ سُنَّةٌ، وتركَهُ سُنَّةٌ، وهو ﷺ الأسوةُ الحسنةُ فيما يأتي ويَذَرُ[(٣)]، والواجبُ التقيُّدُ بما جاء عنه ﷺ وتركُ ما سِوَى ذلكَ.

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٥٢٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٥٧)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٩٩)، و«سنن النسائي» رقم (١٢٧٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» رقم (٢٨٢٠).

(٢) «مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز» (١١/ ١٨٤).

(٣) **انظر**: «مجموع فتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز» (١١/ ١٧٨ ـ ١٨٣).

٩٤

اَسْتِقْبَالُ الدَّاعِي الْقِبْلَةَ

إنَّ مِنْ آدابِ الدعاءِ: أن يَسْتقبِلَ الداعي القِبْلَةَ وقْتَ دعائِهِ؛ ذلكَ أنَّ القبلةَ هي الجهةُ الفاضلةُ التي أُمِرَ المسلمون بالاتِّجاهِ إليها في عبادتهم، فكما أنَّها قِبْلةٌ للمسلمينَ في الصلاة، فهي قِبْلةٌ لهم في الدعاء، **وقد ثبَتَ استقبالُ النبيِّ ﷺ للقِبْلَةِ عندَ دعائِهِ في أحاديثَ عديدةٍ:**

* **مِنْ ذلك**: ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ في «صحيحيهما»، **من حديث عبد الله بن مَسْعود** رضي الله عنه، **قال**: «استَقْبَلَ النبيُّ ﷺ الكَعْبةَ، فدعا على نَفَرٍ من قريشٍ، على شَيْبَةَ بنِ رَبِيعةَ، وعُتْبَةَ بنِ رَبيعةَ، والوَلِيدِ بن عُقْبَةَ، وأبي جَهْل بن هشامٍ، فأَشْهَدُ باللهِ لقد رأيتُهُمْ صَرْعَىٰ قد غَيَّرَتْهُمُ الشمسُ، وكان يومًا حارًّا»(١).

* **وخرَّج مسلمٌ في «صحيحه»، من حديثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ** رضي الله عنه، **قال**: «لَمَّا كانَ يَوْمُ بَدْرٍ، نظَرَ رسولُ الله ﷺ إلى المشركينَ وهم أَلْفٌ، وأصحابُهُ ثلاثُمِائَةٍ وتسعةَ عَشَرَ رجلًا، فاسْتَقْبَلَ نبيُّ اللهِ ﷺ القِبْلَةَ، ثمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فجَعَلَ يهتفُ بربِّه: (**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدتَّنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدتَّنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**)، فما زال يهتفُ بربِّه مادًّا يَدَيْهِ مستقبلَ القِبْلَةِ حتى سقَطَ رِدَاؤُهُ عن مَنْكِبَيْهِ، فأتاه أبو بَكْرٍ، فأَخَذَ رداءَهُ، فألقاهُ على مَنْكِبيهِ، ثمَّ التزَمَهُ مِنْ ورائه، وقال: يا نبيَّ اللهِ، كفاكَ مُناشَدَتُكَ رَبَّكَ؛ فإنَّهُ سيُنْجِزُ لَكَ ما وَعَدَكَ، فأنزلَ اللهُ عز وجل: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ [الأنفال: ٩]، فأَمَدَّهُ اللهُ بالملائكةِ»(٢).

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٩٦٠)، و«صحيح مسلم» رقم (١٧٩٤).
(٢) تقدم تخريجه (ص٣٩٤).

* **وخرَّج البخاري ومسلم، عن عبد الله بن زَيْد، قال:** «خرَجَ النبيُّ ﷺ إلى هذا المُصلَّى يَسْتَسْقِي، فدعا واستَسْقَى، ثمَّ استَقْبَلَ القبلةَ، وقلَبَ رِدَاءَهُ»[١].

* **وثبَتَ كذلك استقبالُ القِبْلةِ في الدعاءِ في الحجِّ على الصفا والمروة، وفي عَرَفَةَ، وعندَ المَشْعَرِ الحرام، وعندَ الجَمْرةِ الأولى والثانية.** والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ، وهي تَدُلُّ على مشروعيَّةِ استقبالِ القِبْلَةِ وقتَ الدعاء، وأنَّ ذلك أفضلُ وأكملُ للداعي، على أنَّ ذلكَ ليس لازمًا ولا واجبًا في الدعاءِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ ثبتَ عنه أنَّه دعا وهو غيرُ مستقبلٍ القِبْلَةَ، وقد عقَدَ الإمامُ البخاريُّ في كتابِ الدَّعَوَاتِ من «صحيحه» **بابًا بعنوان** «الدعاءُ غيرَ مُسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ»، وخرَّج فيه حديثَ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قال: «بينا النبيُّ ﷺ يخطُبُ يومَ الجمعةِ، فقام رَجُلٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أنْ يَسْقِيَنا، فتغَيَّمَتِ السماءُ، ومُطِرْنا، حتى ما كادَ الرَّجُلُ يَصِلُ إلى مَنْزِلِهِ، فلم تَزَلْ تُمْطِرُ إلى الجمعةِ المُقْبِلةِ، فقام ذلكَ الرجلُ أو غيرُهُ، فقال: ادْعُ اللهَ أن يَصْرِفَهُ عنَّا، فقد غَرِقْنَا، فقال: **(اللَّهُمَّ، حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا)**، فجعَلَ السَّحَابُ يَتقطَّعُ حولَ المدينةِ، ولا يُمْطِرُ أهلَ المدينةِ»[٢]، ومعلومٌ أنَّ الخطيبَ وقتَ الخُطْبةِ يكونُ معطيًا القبلةَ ظَهْرَهُ، فهذا فيه دلالةٌ على أنَّ استقبالَ القبلةِ ليسَ شرطًا في الدعاء، لكنَّهُ هو الأَوْلَى والأكملُ؛ **قال شيخُ الإسلام** رحمه الله: «ولهذا كان النبيُّ ﷺ إذا اجتهَدَ في الدعاءِ يستقبلُها، كما فعلَهُ في أثناءِ الاستسقاءِ الذي رفَعَ فيه يَدَيْهِ رفعًا تامًّا، فعن عَبَّاد بن تَمِيم، عن عمِّه: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خرَجَ بالناسِ يستسقي، فصَلَّى بهم ركعتَيْنِ، جهَرَ بالقراءةِ فيهما، وحَوَّلَ رِدَاءَهُ، ورفَعَ يديه، فدعا واستسقى، واستَقْبَلَ القبلةَ»[٣]؛ رواه الجماعةُ أهل الصِّحَاحِ والسُّنَنِ والمسانيدِ؛ كالبخاريِّ،

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٢٣، ٦٣٤٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٤).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٤٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٧).
(٣) **انظر:** «المسند» (٤/ ٣٩)، و«صحيح البخاري» رقم (١٠٢٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٤)، و«سنن أبي داود» رقم (١١٦١)، و«جامع الترمذي» رقم (٥٥٦)، و«سنن النسائي» رقم (١٥١٩).

ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنَّسَائي، وابن ماجه، وغيرهم، فأخبَرَ أنَّه استَقْبَلَ القبلةَ التي هي قبلةُ الصلاةِ في أثناءِ دعاءِ الاستسقاءِ»[١].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ المسلمينَ مُجْمِعُونَ على أنَّ القبلةَ التي يُشْرَعُ للداعي استقبالُها حينَ الدعاءِ هي القبلةُ التي شُرِعَ استقبالُها حينَ الصلاةِ، فكذلكَ هي التي شُرِعَ استقبالُها حينَ ذِكْرِ اللهِ كما تُستَقْبَلُ بعَرَفَةَ، والمزدلفةِ، وعلى الصفا والمروة، وكما يُستَحَبُّ لكلِّ ذاكرٍ للهِ وداعٍ أن يستقبلَ القبلةَ، كما ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه كان قد يَقْصِدُ أن يستقبلَ القبلةَ حينَ الدعاءِ، كذلك هي التي يُشْرَعُ استقبالُهَا بتَوْجِيهِ الميِّتِ إليها، وتوجيهِ النسائكِ والذبائحِ إليها، وهي التي يُنْهَى عن استقبالها بالبَوْلِ والغائط، فليس للمسلمين ـ بل ولا لغيرهم ـ قبلتان أصلًا في العباداتِ التي هي مِنْ جِنْسَيْنِ؛ كالصلاةِ والنُّسُك، فضلًا عن العباداتِ التي هي مِنْ جنسٍ واحد، وبعضُهَا مُتَّصِلٌ ببعض؛ فإنَّ الصلاةَ فيها الدعاءُ في الفاتحةِ وغيرِها، والدعاءُ نفسُهُ هو الصلاةُ، قد سمَّاهُ اللهُ في كتابه صلاةً؛ حيثُ قال: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وفي «الصحيح» عن عبد الله بن أبي أوْفَى: «أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أتاه قومٌ بِصَدَقتهم، صَلَّى عليهم، وإنَّ أبي أتاه بِصَدَقَةٍ، فقال: (**اللَّهُمَّ، صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى**)»[٢]، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقد عَلَّمَ النبيُّ ﷺ أُمَّتَهُ الصلاةَ عليه في غيرِ حديثٍ في الصِّحَاحِ وغيرِها، وفي جميعها إنَّما يُعَلِّمها الدعاءَ له بصلاةِ اللهِ وبركاتِهِ...» إلى آخرِ كلامه رَحِمَهُ اللهُ[٣].

وقد ذكَرَ ذلكَ في سياقِ رَدِّه على مَنْ ينكرُ علوَّ اللهِ؛ كالجهميَّةِ ومَنْ تأثَّر بهم مِنْ أهلِ الأهواء؛ حيثُ يَزْعُمون أنَّ رفعَ الأيدي في الدعاءِ إلى العلوِّ إنَّما يُشْرَع؛ لأنَّ السماءَ قِبْلةُ الدعاءِ، كما أنَّ الكعبةَ قبلةُ الصلاة، فجعلوا بذلك قبلتَيْنِ للمسلمينَ: قبلةً للدعاءِ، وهي السماءُ، وقبلةً للصلاةِ، وهي الكَعْبةُ،

---

(١) **انظر**: «نقض التأسيس» لابن تيمية (٢/ ٤٥٩).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (١٤٩٧)، و«صحيح مسلم» رقم (١٠٧٨).

(٣) «نقض التأسيس» (٢/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣).

وقد ألجأَهُمْ إلى هذا التقريرِ الفاسدِ: إنكارُهُمْ لعلوِّ الربِّ تبارك وتعالى على خَلْقِهِ، وتَعَسُّفُهُمْ في حملِ النصوصِ الكثيرةِ الدالَّةِ على علوِّ اللهِ على غيرِ وجهِهَا ومُرَادِها بأنواعٍ مِنَ التأويلات، وصنوفٍ مِنَ التحريفات، التي هي في الحقيقةِ نوعٌ من الإلْحادِ في آياتِ اللهِ وأسمائِهِ وصفاته؛ واللهُ تعالىٰ يقول: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت: ٤٠]، **وقد بيّن** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في سياق رَدِّهِ عليهم**: «أنَّ القِبْلَةَ هي ما يستقبلُهُ الإنسانُ بِوَجْهِهِ، والاستقبالُ ضدُّ الاستدبار، فالقبلةُ ما يستقبلُهُ الإنسانُ ولا يستدبرُهُ، فأمَّا ما يرفعُ الإنسانُ إليه يَدَهُ أو رأسَهُ أو بَصَرَهُ، فهذا ـ باتِّفاقِ الناس ـ لا يُسَمَّى قبلةً؛ لأنَّ الإنسانَ لَمْ يستقبلْهُ كما لا يَسْتدبِرُ الجهةَ التي تقابلُهُ، ومَنِ استقبلَ شيئًا، فقد استَدْبَرَ ما يقابلُهُ، كما أنَّ مَنِ استقبَلَ الكعبةَ، فقد استَدْبَرَ ما يقابلها، ومعلومٌ أنَّ الداعيَ لا يكونُ مستقبلًا للسماءِ ومستدبرًا للأرض، بل يكونُ مستقبلًا لبعضِ الجهات: إمَّا القبلةِ أو غيرِها، مستدبرًا لِمَا يُقَابِلُها؛ كالمصلِّي؛ فظهَرَ أنَّ جَعْلَ ذلكَ قبلةً باطلٌ في العقلِ واللغةِ والشرعِ بطلانًا ظاهرًا لكلِّ أحد»(١).

والمقصودُ: أنَّ قِبْلَةَ المسلمينَ في الدعاءِ هي قبلتُهم في الصلاة، أمَّا رَفْعُهم لأيديهم عندَ الدعاءِ إلى السماء؛ فلأنَّ ربَّهم الذي يَدْعُونَهُ ويسألونَهُ ويرجونَهُ، ويطمعونَ في نَيْلِ ثوابِهِ ورحمته، ويخافونَهُ: في سمائِهِ، مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، يسمعُ دعاءَهم، ويُجيبُ نداءَهم؛ كما قال سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «نقض التأسيس» (٢/ ٤٦٢).

٩٥

مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ

إنَّ مِنْ ضوابطِ الدعاءِ المهمَّة، وآدابِهِ العظيمة: أن يُقدِّمَ المسلمُ بين يَدَيْ دعائِهِ الثناءَ على ربِّه بما هو أهلُهُ مِنْ نعوتِ الجلال، وصفاتِ العظمةِ والكمال، وذِكْرِ جُودِهِ وفضلِهِ وكَرَمِهِ وعظيم إنعامه؛ وذلك أنَّه أبلغُ ما يكونُ في حالِ السائلِ والطالبِ ثناؤُهُ على ربِّه، وحمدُهُ له، وتمجيدُهُ، وذكرُ نِعَمِهِ وآلائِهِ، وجَعْلُ ذلكَ كلِّه بين يَدَيْ مسألتِهِ وسيلةً للقَبُول، ومفتاحًا للإجابة.

ومَنْ يَتَأمَّلِ الأدعيةَ الواردةَ في الكتابِ والسُّنَّة، يَجِدْ كثيرًا منها مبدوءًا بالثناءِ على اللهِ، وَعَدِّ نِعَمِهِ وآلائه، والاعترافِ بفضلِهِ وجُودِهِ وعَطَائه.

ومِنَ الأمثلة على ذلك: الدعاءُ العظيمُ الذي اشتَمَلَتْ عليه سورةُ الفاتحة، التي هي أعظَمُ سُوَرِ القرآنِ الكريم وأجلُّها؛ لاشتمالِهَا على أجلِّ المطالبِ العالية، وأعلى المقاصِدِ الجليلة؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا كان أنفعُ الدعاءِ وأعظمُهُ وأحكمُهُ دعاءَ الفاتحةِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فإنَّه إذا هداه هذا الصراطَ، أعانَهُ على طاعتِهِ وتركِ معصيته، فلم يُصِبْهُ شرٌّ لا في الدنيا ولا في الآخرة»(١). اهـ.

فهذا الدعاءُ العظيمُ مبدوءٌ بالثناءِ على اللهِ وحَمْدِهِ وتمجيده، مما هو سببٌ لِقَبُوله، ومفتاحٌ لإجابته؛ يُوضِّحُ ذلك ويبيِّنُه ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، من حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **(قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قَالَ اللهُ تَعالى: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ)**[(١)]؛ فعَلَّمَ سبحانه عبادَهُ في هذه السورةِ العظيمةِ كيفَ يدعونَهُ ويسألونَهُ ويتوسَّلُونَ إليه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «ولمَّا كان سؤالُ اللهِ الهدايةَ إلى الصراطِ المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُهُ أشرَفَ المواهب، عَلَّمَ اللهُ عبادَهُ كيفيةَ سؤاله، وأَمَرَهُمْ أَنْ يقدِّموا بين يَدَيْهِ حمدَهُ والثناءَ عليه وتمجيدَه، ثمَّ ذَكَرَ عبوديَّتَهَمْ وتَوْحِيدَهَمْ، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: تَوسُّلٌ إليه بأسمائِهِ وصفاته، وتوسُّلٌ إليه بعبوديَّته، وهاتان الوسيلتان لا يكادُ يُرَدُّ معهما الدعاءُ...» **إلى أنْ قال** رَحِمَهُ اللهُ: «وقد جَمَعَتِ الفاتحةُ الوسيلتَيْنِ، وهما التوسُّلُ بالحمدِ والثناءِ عليه وتمجيدِهِ، والتوسُّلُ إليه بعبوديَّتِهِ وتوحيدِهِ، ثمَّ جاء سؤالُ أَهَمِّ المطالب، وأنجحِ الرغائب، وهو الهدايةُ بعدَ الوسيلتَيْنِ، فالداعي به حقيقٌ بالإجابة.

ونظيرُ هذا دعاءُ النبيِّ ﷺ الذي كان يدعو به إذا قامَ يصلِّي من الليل؛ رواه البخاري في «صحيحه»، من حديث ابن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: **(اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتَ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ؛ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَٰهِي، لا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ)**[(٢)]؛ فذكَرَ التوسُّلَ إليه بِحَمْدِهِ والثناءِ عليه، وبعبوديَّته له،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٥).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢٠٣).

ثمَّ سألَهُ المغفرةَ»[١]. اهـ.

قال الحافظ ابن حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحِهِ لهذا الحديث: «وفيه استحبابُ تقديمِ الثناءِ على المسألةِ عندَ كلِّ مطلوبٍ؛ اقتداءً به ﷺ»[٢].

ومِنَ الأمثلةِ على ذلك: دعاءُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، ودعاءُ أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء]، ودعاءُ أُولي الألبابِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ودعاءُ الملائكةِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ جدًّا، يطولُ عدُّها.

۞ **فينبغي على المسلم أن يحافظَ على هذا الأدبِ الرفيع عندَ سؤالِهِ له سبحانَهُ:** بأنْ يُثْنِيَ عليه ويَحْمَدَهُ ويُمَجِّدَهُ، ويَعْتَرِفَ بفضلِهِ وإنعامه، ثمَّ يَسْأَلَهُ بعدَ ذلكَ ما يشاءُ مِنْ خَيْرَيِ الدنيا والآخرة.

كما ينبغي للمسلم أيضًا ـ بين يَدَيْ دعائه ـ أنْ يُصَلِّيَ على صَفِيِّ اللهِ وخليلِهِ، وعبدِهِ ورسولِهِ، نبيِّنا محمَّد ﷺ، وقد جاء الحثُّ على ذلكَ في أحاديثَ عديدةٍ؛ **منها:** حديثُ فَضَالَةَ بن عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «سمعَ النبيُّ ﷺ رجلًا يدعو في صلاتِهِ، فلم يُصَلِّ على النبيِّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: **(عَجِلَ هَذَا)**، ثمَّ دعاه، فقال له ولغيره: **(إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ)**»[٣].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٣ ـ ٢٤). (٢) «فتح الباري» (٣/ ٥).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ١٨)، وأبو داود رقم (١٤٨١)، والترمذي رقم (٣٤٧٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٨).

ولهذا ثلاثُ مراتبَ:

إحداها: أن يصلِّيَ على النبيِّ ﷺ قبلَ الدعاء، وبعدَ حَمْدِ اللهِ تعالى.

والمرتبة الثانية: أن يُصَلِّيَ عليه في أولِ الدعاءِ، وأوسطِهِ، وآخره.

والمرتبة الثالثة: أن يُصَلِّيَ عليه في أولِهِ وآخره، ويَجْعَلَ حاجتَهُ متوسِّطةً بينهما؛ والصلاةُ على النبيِّ ﷺ للدعاءِ مثلُ المفتاح؛ **قال ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللهُ: «فمفتاحُ الدعاءِ الصلاةُ على النبيِّ ﷺ، كما أنَّ مفتاحَ الصلاةِ الطُّهُورُ».

ثمَّ نقَلَ عن أحمَدَ بن أبي الحَوَارِيِّ، قال: سمعتُ أبا سُلَيْمَانَ الدارانيَّ يقول: «مَنْ أرادَ أنْ يَسْأَلَ اللهَ حاجتَهُ، فليبدأْ بالصلاةِ على النبيِّ ﷺ وليسأَلْ حاجَتَهُ، ولْيَخْتِمْ بالصلاةِ على النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ الصلاةَ على النبيِّ ﷺ مقبولةٌ، واللهُ أكرمُ أن يَرُدَّ ما بينهما»[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) «جلاء الأفهام» (ص٢٦٠ ـ ٢٦٢).

٩٦

مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ أَيْضًا

مِمَّا ينبغي للمسلمِ تَجَنُّبُهُ في دعائه: تَكَلُّفُ السجعِ في الدعاء، وتَكَلُّفُ صَنْعةِ الكلامِ له، **قال الإمام البخاريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **في كتاب الدعواتِ من «صحيحه»**: «بابُ ما يُكْرَهُ مِنَ السَّجْعِ في الدعاء»، ثمَّ ساق بسنده إلى عِكْرمةَ، **عن ابن عَبَّاس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال**: «حَدِّثِ الناسَ كلَّ جُمُعَةٍ مَرّةً، فإنْ أبيتَ فمرَّتَيْنِ، فإن أكثَرْتَ فثلاثَ مَرَّات، ولا تُمِلَّ الناسَ هذا القرآنَ، ولا أُلْفِيَنَّكَ تأتي القومَ وهم في حديثٍ مِنْ حديثهم، فَتَقُصُّ عليهم، فتَقْطَعُ عليهم حَدِيثَهم فتُمِلُّهم، ولكنْ أَنْصِتْ، فإذا أَمَرُوكَ، فحَدِّثْهُمْ وهم يَشْتَهُونَهُ، فانظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدعاءِ فاجتنبْهُ، فإنِّي عَهِدتُّ رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ لا يفعلونَ إلَّا ذلك؛ **يعني**: لا يفعلونَ إلَّا ذلكَ الاجتنابَ»[1].

والسَّجْعُ هو: الكلامُ المقفَّى مِنْ غيرِ مراعاةِ وزن. وتَكَلُّفُ ذلكَ في الدعاءِ أمرٌ مكروهٌ، لَمْ يكنْ عليه النبيُّ ﷺ، ولا أحدٌ مِنْ أصحابه.

ولهذا قال ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فإنِّي عهدتُّ رسولَ الله ﷺ وأصحابَهُ لا يفعلونَ إلَّا ذلكَ الاجتنابَ». **قال الأزهريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنَّما كرهَهُ ﷺ لمشاكلتِهِ كلامَ الكَهَنَة، كما في قِصَّةِ المرأةِ من هُذَيْل»[2]، يشيرُ إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «اقتَتَلَتِ امرأتانِ مِنْ هُذَيْل، فرَمَتْ إحداهما الأخرى بِحَجَرٍ فقتلتها وما في بطنها، فاختَصَمُوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقَضَى رسولُ اللهِ ﷺ أَنَّ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ: عَبْدٌ أو وَلِيدَةٌ، وقَضَى بِدِيَةِ المرأةِ على عَاقِلَتِها، وَوَرَّثَهَا وَلَدَهَا وَمَنْ معهم،

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٣٧). (٢) **انظر**: «فتح الباري» (١١/ ١٣٩).

فقال حَمَلُ بنُ النابغةِ الهُذَلِيُّ: يا رسولَ الله، كيفَ أَغْرَمُ مَنْ لا شَرِبَ ولا أَكَلَ، ولا نَطَقَ ولا استَهَلَّ؟! فمِثْلُ ذلكَ يُطلُّ [أي: **يُهْدَرُ**]، فقال رسولُ الله ﷺ: (**إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الكُهَّانِ**)[١]؛ مِنْ أجل سجعِهِ الذي سَجَعَ.

ولذا عدَّ بعضُ أهلِ العلمِ تَكَلُّفَ السجعِ في الدعاءِ في جملةِ موانعِ الإجابة، **قال القرطبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ومنها**: أن يَدْعُوَ بما ليسَ مِنَ الكتابِ والسُّنَّة، فيتخيَّرَ ألفاظًا مُفَقَّرَةً، وكلماتٍ مُسَجَّعةً، قد وجدَهَا في كراريسَ لا أَصلَ لها، ولا مُعوَّلَ عليها، فيَجْعَلَهَا شِعارَهُ، ويَتْرُكَ ما دعا به رسولُهُ ﷺ، وكلُّ هذا يمنعُ مِنِ استجابةِ الدعاء»[٢].

والسجعُ المذمومُ هو: المتكلَّفُ الذي يجتهدُ صاحبُهُ في تصنُّعه، فيشغلُهُ ذلك عن الإخلاصِ والخشوع، ويُلْهِيهِ عن الضَّرَاعَةِ والافتقار، فأمَّا إنْ وُجِدَ وحصَلَ بلا تصنُّعٍ ولا تكلُّف، ومِنْ غيرِ قَصْدٍ إليه، فلا بأسَ به.

قال السَّفَّارينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يتكلَّفُ السجعَ في الدعاء؛ فإنَّه يَشْغَلُ القلبَ، ويُذْهِبُ الخشوعَ، وإن دعا بِدَعَوَاتٍ محفوظةٍ معه لَهُ أو لغيرِهِ مِنْ غيرِ تكلُّفِ سجعٍ، فليس بممنوع»[٣].

وقال الحافظ ابن حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ **في شرحه لحديث ابن عَبَّاسٍ المتقدِّم، في ذمِّ السجعِ في الدعاء**: «ولا يَرِدُ على ذلك ما وقَعَ في الأحاديثِ الصحيحة؛ لأنَّ ذلكَ كان يصدُرُ مِنْ غيرِ قصدٍ إليه؛ ولأجلِ هذا يجيءُ في غايةِ الانسجام؛ كقولِهِ ﷺ في الجهاد: (**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابْ، سَرِيعَ الحِسَابْ، هَازِمَ الأَحْزَابْ**)[٤]، وكقوله ﷺ: (**صَدَقَ وَعْدَه، وَأَعَزَّ جُنْدَه**...)، الحديثَ[٥]،

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٧٥٨)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٨١).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/٢٦٦).
(٣) «غذاء الألباب» (١/٤٠٩).
(٤) رواه البخاري رقم (٢٩٣٣، ٢٩٦٦)، ومسلم رقم (١٧٤٢).
(٥) رواه أحمد في «المسند» (٢٣٤٩٣)، وأبو داود رقم (٤٥٤٧)، والنسائي رقم (٤٧٩٩)، وابن ماجه رقم (٢٦٢٨)، و(**أعز جُندَه**) جاءت في حديث تقدم تخريجه (ص٢٤٤).

وكقوله: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَيْنٍ لَا تَدْمَعْ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعْ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعْ)[١]، وكلُّها صحيحة»[٢].

وينبغي للداعي أن يَتجنَّبَ اللَّحْنَ في الدعاء، ولا سيَّما إذا كان اللَّحْنُ مُحِيلًا للمعنى، مُخِلًّا بالمقصود، مُفْسِدًا للمراد؛ فإنَّ الإعرابَ عمادُ الكلام، وبه يستقيمُ المعنى، وبِعَدَمِهِ يختلُّ ويَفْسُدُ، وربَّما انقَلَبَ المعنى باللَّحْنِ إلى معنًى باطلٍ، أو دعاءٍ مُحرَّم، أو نحو ذلك.

ولهذا قال أبو عثمانَ المازنيُّ لبعضِ تلاميذه: «عليكَ بالنَّحْو؛ فإنَّ بني إسرائيلَ كَفَرَتْ بِحَرْفٍ ثقيلٍ خفَّفوه، قال اللهُ ﷻ لعيسى: «إنِّي وَلَّدتُّكَ»، فقالوا: إنِّي وَلَدتُكَ، فكَفَرُوا».

ويُذْكَرُ عن الأصمعيِّ: أنَّه مَرَّ برجلٍ يقولُ في دعائه: يا ذو الجَلَالِ والإكرام، فقال له: ما اسْمُكَ؟ قال: لَيْثٌ، فأنشأَ يقول:

يُنَادِي رَبَّهُ بِاللَّحْنِ لَيْثٌ ... لِذَاكَ إِذَا دَعَاهُ لَا يُجِيبُ[٣]

ولهذا ينبغي على الداعي تَجَنُّبُ اللَّحْنِ في الدعاءِ إنْ كان مستطيعًا لذلكَ قادرًا عليه؛ وإلَّا فإنَّ اللهَ جلَّ وعلَا لا يُكَلِّفُ نفسًا إلَّا وُسْعَهَا.

وقد سُئِلَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ عن رجلٍ دعا دعاءً ملحونًا، فقال له رجلٌ: ما يَقْبَلُ اللهُ دعاءً ملحونًا؟

فأجاب رَحِمَهُ اللهُ **بما نصُّه:** «مَنْ قال هذا القولَ، فهو آثِمٌ، مخالفٌ للكتابِ والسُّنَّة، ولِمَا كان عليه السَّلَف، وأمَّا مَنْ دعا اللهَ مُخْلِصًا له الدينَ بدعاءٍ جائزٍ، سَمِعَهُ اللهُ وأجابَ دعاءَهُ؛ سواءٌ كان مُعْرَبًا أو ملحونًا، والكلامُ المذكورُ لا أصلَ له، بل ينبغي للداعي إذا لَمْ تكنْ عادتُهُ الإعرابَ ألَّا يَتكلَّفَ الإعرابَ، قال بعضُ السلف: إذا جاء الإعرابُ ذهَبَ الخشوعُ، وهذا كما يُكْرَهُ تكلُّفُ

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٧٢٢) وليس فيها (من عين لا تدمع).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ١٣٩).

(٣) **انظر:** «شأن الدعاء» للخَطَّابي (١٩ ـ ٢٠).

السَّجْعِ في الدعاء، فإذا وقَعَ بغيرِ تكلُّف، فلا بأسَ به، فإنَّ أصلَ الدعاءِ من القلب، واللسانُ تابعٌ للقلب.

ومَنْ جعَلَ هِمَّتَهُ في الدعاءِ تقويمَ لسانِهِ أضعفَ توجُّهَ قَلْبه؛ ولهذا يدعو المضطرُّ بقلبِهِ دعاءً يُفْتَحُ عليه لا يحضُرُهُ مِنْ قَبْلِ ذلك، وهذا أمرٌ يَجِدُهُ كلُّ مؤمنٍ في قلبه، والدعاءُ يجوزُ بالعربية، وبغيرِ العربية، واللهُ سبحانه يعلمُ قَصْدَ الداعي ومرادَهُ، وإنْ لَمْ يُقوِّمْ لسانه، فإنَّه يعلمُ ضجيجَ الأصوات، باختلافِ اللغات، على تنوُّعِ الحاجات»[١].

۞ **ولا يجوزُ للمسلمِ أن يتحرَّى في دعائِهِ أنغامًا معيَّنةً، أو تكلُّفاتٍ في الأداء مِنْ خفضٍ ورفعٍ، أو تطريبٍ، أو ترجيعٍ، أو نحو ذلك**، مما يُسَمِّيهِ البعضُ في زماننا ابتهالاتٍ، ويَجْعَلُ له أداءً معيَّنًا شبيهًا بالتغنِّي، فمِثْلُ هذا لا يجوزُ؛ لأنَّ مقامَ الدعاءِ مقامُ طَلَبٍ وإظهارِ حاجةٍ وخشوعٍ وتضرُّعٍ إلى اللهِ وليس مقامَ تَغَنٍّ وهو مقامُ خضوعٍ وعبوديةٍ، وليس مقامَ إظهارٍ للصناعةِ النَّغْمِيَّة، وهو مقامُ ذُلٍّ وخضوعٍ وإيمان، وليس مقامَ شغلٍ للخواطرِ بتنميقِ الأداءِ وإقامةِ الأوزان، واللهُ وحدَهُ الهادي والموفِّق، وهو وحدَهُ المستعان.

۞ ۞ ۞

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٤٨٨ ـ ٤٨٩).

٩٧

التَّحْذِيرُ مِنَ السَّمَاعَاتِ الْمُبْتَدَعَةِ

لا يزالُ حديثُنا موصولًا ببيانِ ضوابطِ الدعاءِ المشروعِ الذي كانَ عليه سَيِّدُ الأنبياءِ والمُرْسَلين، واتَّبَعَهُ فيه ساداتُ الأولياءِ والصالحينَ، مِنَ الصحابةِ والتابعين، وهو وحدَهُ المقبولُ عندَ الله، دونَ ما أحدَثَهُ المُحْدِثون، وأنشأَهُ المتكلِّفون، ممَّن هَجَرُوا الأذكارَ المشروعة، والأدعيةَ المأثورة، واستعاضوا عنها بسماعاتٍ مُبْتدَعة، وتَعبُّدٍ بإنشادِ أشعارٍ، وأراجيزَ مُحْدَثةٍ اتَّخذُوهَا أورادًا، ووظَّفوا لها أوقاتًا، وادَّعَوْا أنَّ تأثيرَهَا في القلوبِ أبلغُ، وتحريكَها للنفوسِ أقوى؛ فمالَتْ لها قلوبُهم، واطمأنَّتْ إليها نفوسُهم، وآثَرُوهَا على الأذكارِ المشروعة، والأدعيةِ المأثورة.

وما مِنْ رَيْبٍ أنَّ هذا حدَثٌ في الدين، ومخالفةٌ لهَدْيِ سَيِّدِ الأنبياءِ والمرسلين؛ والنقولُ عن أهلِ العلمِ في ذمِّ ذلك، والتحذيرِ منه، والنَّهْيِ عنه، وبيانِ أنَّه مِنَ البِدَعِ المحدَثةِ كثيرةٌ جدًّا.

يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «خَرَجْتُ مِن بغدادَ، وخَلَّفْتُ بها شيئًا أحدَثَهُ الزنادقة، يُسمُّونَهُ التغبيرَ، يَصُدُّونَ الناسَ به عن القرآن».

والتغبيرُ ذِكرٌ أحدَثَهُ هؤلاءِ بنوعٍ مِنَ التغنِّي بالشعر، مَعَ ضَرْبِ قضيبٍ على جِلْدٍ، أو نحوِ ذلك.

ولَمَّا سُئِلَ عنه الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ**، قال:** «بدعةٌ مُحْدَثَةٌ»(١).

ويقول محمَّد بن الوليد الطرطوشيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ومِنَ العَجَبِ العُجَابِ أن تُعرِضَ عن الدعواتِ التي ذَكَرَها اللهُ في كتابِهِ عن الأنبياءِ والأولياءِ والأصفياءِ

---

(١) **انظر**: كتاب «الكلام على مسألة السماع» لابن القيِّم (ص١١٩ ـ ١٢٨).

مقرونةً بالإجابةِ، ثمَّ تنتقي ألفاظَ الشُّعَرَاءِ والكُتَّاب، كَأَنَّكَ قد دَعَوْتَ في زعمِكَ بجميعِ دَعَوَاتِهم، ثُمَّ استَغَنْتَ بدعواتِ مَنْ سواهم»[(١)] .اهـ.

وقد نَبَّهَ أهلُ العلمِ على أنَّ السماعَ على نوعَيْنِ:

نوعٌ: هو سماعُ لَهْوٍ وطَرَبٍ؛ فهذا حكمُهُ محرَّمٌ وباطلٌ، وقد بسَطَ غيرُ واحدٍ من أهلِ العلمِ الأدلَّةَ على منعِهِ وتحريمه، منهم ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «إغاثةُ اللَّهفانَ».

والنوع الثاني: السماعُ المُحْدَثُ على وجهِ التَّدَيُّنِ والتقرُّبِ إلى اللهِ تعالى؛ فهذا يُقالُ فيه: إنَّه بدعةٌ ضلالةٌ؛ فإنَّ اللهَ جلَّ وعلا إنَّما يُتقرَّبُ إليه بما شَرَعْ، لا بالأهواءِ والمُحْدَثاتِ والبِدَعْ، وقد ضَمَّ بعضُ هؤلاءِ إلى ذلكَ على وجهِ التديُّنِ والتقرُّبِ: التلحينَ والتطريبَ وآلاتِ اللهو، والتصفيقَ والتمايل، ونحوَ ذلك مِنَ الأعمالِ التي يقومون بها ويُؤدُّونها - بزعمهم - تقرُّبًا إلى الله جلَّ وعلَا، وطلبًا لثوابه، ولا رَيْبَ أنَّ ذلكَ مِنْ أقبحِ الأعمال، وأقبحِ أنواعِ الاعتداءِ في الذِّكْرِ والدعاء.

وهكذا صارَ هؤلاءِ يَتَرَقَّوْنَ في دَرَجَاتِ الباطل، ويَتَمَادَوْنَ في الغَيِّ والضلال، إلى أنْ بَلَغُوا إلى هذه الحالِ المُزْرِيَة، والنهايةِ المُؤْسِفة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ أصلَ سماعِ القصائدِ كان تلحينًا بإنشادِ قصائدَ مُرَقِّقةٍ للقلوب، تُحَرِّكُ المحبَّةَ والشوقَ، أو الخوفَ والخشيةَ، أو الحُزْنَ والأَسَف، وغيرَ ذلك، وكانوا يشترطونَ له المكانَ والإمكانَ والخِلَّان، فيشترطونَ أن يكونَ المجتمعون لسماعها مِنْ أهلِ الطريقِ المُريدِينَ لوجهِ اللهِ والدارِ الآخرة، وأن يكونَ الشِّعْرُ المُنْشَدُ غيرَ متضمِّنٍ لِمَا يُكْرَهُ سماعُهُ في الشريعة، وقد يشترِطُ بعضُهم أن يكونَ القَوَّالُ منهم، وربَّما اشترَطَ بعضُهم ذلك في الشاعرِ الذي أنشَأَ تلكَ القصائد، وربَّما ضَمُّوا إليه آلَةً تُقَوِّي الصوتَ، وهو الضَّرْبُ بالقضيبِ على جِلْدِ مِخَدَّةٍ أو غيرِها، وهو التغبيرُ.

---

(١) «الفتوحات الربانية» لابن علان (١/ ١٧).

ومِنَ المعلومِ أنَّ استماعَ الأصواتِ يوجبُ حَرَكَةَ النفسِ بِحَسَبِ ذلكَ الصوت الذي يُوجِبُ الحَرَكَةَ. . . وللأصواتِ طبائعُ متنوِّعةٌ، تَتنوَّعُ آثارُهَا في النفس، وكذلكَ للكلامِ المسموعِ نظمِهِ ونثرِهِ، فيَجْمَعُونَ بين الصوتِ المناسبِ والحروف المناسبةِ لهم.

وهذا الأمرُ يفعلُهُ بنو آدمَ مِنْ أهلِ الدياناتِ البِدْعيَّة؛ كالنصارى والصابئة، وغيرِ أهلِ الدياناتِ مِمَّنْ يحرِّكُ بذلك حبَّهُ وشوقَهُ ووَجْدَهُ، أو حزنَهُ وأسفَهُ، أو حَمِيَّتَهُ وغضبَهُ، أو غيرَ ذلك، فخلَفَ بعدَ أولئك مَنْ صار يجمعُ عليه أخلاطًا من الناس، ويَرَوْنَ اجتماعَهُمْ لذلكَ شبكةً تصطادُ النفوسَ بزعمهم إلى التوبة، والوصولِ في طريقِ أهلِ الإرادة. . .»[1]. إلخ كلامه.

وقد سُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ عن رجلٍ مِنَ المعروفينَ بالخيرِ أرادَ تتويبَ جماعةٍ يجتمعونَ على قصدِ الكبائرِ؛ مِنَ القتلِ، وقطعِ الطريقِ، والسرقةِ، وشرب الخمر، وغيرِ ذلك، فلم يُمْكِنْهُ إلَّا أن يقيمَ لهم سماعًا يجتمعونَ فيه بهذه النية، وهو بِدُفٍّ بلا صلاصلَ، وغناءُ المغنِّي بشعرٍ مباحٍ بغيرِ شَبَّابةٍ، فلمَّا فَعَلَ هذا، تابَ منهم جماعةٌ، وأصبحَ مَنْ لا يصلِّي، ويَسْرِقُ ولا يزكِّي يَتورَّعُ عَنِ الشُّبُهات، ويُؤدِّي المفروضات، ويَتجنَّبُ المحرَّمات، فهل يُباح فعلُ هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه؛ لِما يترتَّب عليه مِنَ المصالح، مَعَ أنَّه لا يُمْكِنُهُ دعوتُهم إلَّا بهذا؟

فقال رَحِمَهُ اللَّهُ **في جوابِهِ على هذا السؤال**: «إنَّ الشيخَ المذكورَ قصَدَ أنْ يُتوِّبَ المجتمعينَ على الكبائر، فلم يُمْكِنْهُ ذلكَ إلَّا بما ذَكَرَهُ من الطريقِ البِدْعيِّ، يَدُلُّ أنَّ الشيخَ جاهلٌ بالطرقِ الشرعيَّةِ التي بها تتوبُ العُصَاة، أو عاجزٌ عنها؛ فإنَّ الرسولَ ﷺ والصحابةَ والتابعينَ كانوا يَدْعُونَ مَنْ هو شَرٌّ مِنْ هؤلاءِ مِنْ أهلِ الكفرِ والفسوقِ والعصيان، بالطرقِ الشرعيَّةِ التي أغناهُمُ الله بها عن الطرقِ البِدْعيَّة؛ فلا يجوزُ أن يُقالَ: إنَّه ليس في الطرقِ الشرعيَّةِ

---

(١) «الاستقامة» (١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦).

التي بعَثَ اللهُ بها نبيَّه ما يَتُوبُ به العُصَاةُ؛ فإنَّه قد عُلِمَ بالاضطرارِ والنقلِ المتواترِ أنَّه قد تابَ مِنَ الكُفْرِ والفسوقِ والعصيانِ مَنْ لا يُحْصِيهِ إلَّا اللهُ تعالى مِنَ الأمم بالطُّرُقِ الشرعيَّةِ التي ليس فيها ما ذُكِرَ مِنَ الاجتماعِ البِدْعيِّ، بل السابقونَ الأولونَ من المهاجرينَ والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهم خيرُ أولياءِ اللهِ المتَّقِينَ من هذه الأمة، تابوا إلى اللهِ تعالى بالطُّرُقِ الشرعيَّة، لا بهذه الطرقِ البِدْعية، وأمصارُ المسلمينَ وقُرَاهُمْ قديمًا وحديثًا مِمَّنْ تابَ إلى اللهِ واتَّقاه، وفعَلَ ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ بالطرقِ الشرعية، لا بهذه الطرق البِدْعية؛ فلا يُمكنُ أن يُقال: إنَّ العصاةَ لا تمكنُ توبتهم إلَّا بهذه الطرقِ البِدْعيَّة، بل قد يُقال: إنَّ في الشيوخ مَنْ يكونُ جاهلًا بالطرقِ الشرعيَّةِ عاجزًا عنها، ليس عنده عِلْمٌ بالكتابِ والسُّنَّة، وما يُخاطِبُ به الناسَ، ويُسْمِعُهُمْ إيَّاه مِمَّا يتوبُ اللهُ عليهم به، فيَعْدِلُ هذا الشيخُ عن الطرقِ الشرعيةِ إلى الطرقِ البِدْعية»[1]، إلى آخرِ كلامه رَحِمَهُ اللهُ، وهو عظيمُ الفائدة، جليلُ النَّفْع، غنيٌّ عن البيانِ والتعليق، وللموضوعِ صلةٌ، وباللهِ وحدَهُ التوفيقُ والسداد.

❊ ❊ ❊

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٢٠ ـ ٦٣٥).

٩٨

الْفَرْقُ بَيْـنَ السَّمَاعِ الْمَشْرُوعِ وَالسَّمَاعِ الْمُحْدَثِ

سبَقَ الحديثُ عمَّا أحدَثَهُ بعضُ الناسِ فِي الذِّكْرِ والدعاءِ من السماعاتِ المُحْدَثة، والتعبُّدِ للهِ باتِّخاذِ أراجيزَ وأشعارٍ أورادًا لهم، فجَنَى عليهمْ ذلكَ جناياتٍ بالغةً، وأفسَدَ عليهمْ مَسْلَكهم، وصدَّهم عن الذِّكْرِ القويم، والدعاءِ السليم، الواردِ في هَدْيِ سيِّدِ الأنبياءِ والمُرْسَلين، نبيِّنا محمَّد ﷺ.

والواجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يُفرِّقَ بين السماعِ الذي يُنْتَفَعُ به في الدِّينِ المتقرِّرِ في شرعِ ربِّ العالمين، وبينَ السماعاتِ المُحْدَثةِ التي أنشأها واخترعها بعضُ الناسِ على وَفْقِ أهوائهم.

فأمَّا السماعُ الذي شرَعَهُ اللهُ تعالى لعباده، وكان سلفُ الأُمَّةِ من الصحابةِ والتابعينَ وتابعيهم يجتمعونَ عليه لصلاحِ قلوبهم، وزكاةِ نفوسهم، فهو سماعُ آياتِ الله تعالى، وهو سماعُ النبيِّين والمؤمنينَ وأهلِ العلم؛ قال الله تعالى لَمَّا ذكَرَ مَنْ ذكرَهُ مِنَ الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ [الإسراء] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وبهذا السماعِ أَمَرَ اللهُ تعالى عبادَهُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ

﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وعلى أهله أثْنَى؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر]، وقال في الآية الأخرى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، فالقولُ الذي أُمِرُوا بتدبُّرِهِ هو القولُ الذي أُمِرُوا باستماعه، وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

وكما أثنى اللهُ على هذا السماعِ ذَمَّ المُعْرِضِينَ عنه؛ فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ [المدثر]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء].

فهذا هو السماعُ الذي شَرَعَهُ اللهُ لعباده، ورتَّب لهم عليه الأجورَ الكثيرةَ، والخَيْراتِ العظيمةَ في الدنيا والآخرة، وعلى هذا السماعِ كان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يجتمعونَ، فكانوا إذا اجتمَعُوا أَمَرُوا واحدًا منهم أن يَقْرَأَ والباقونَ يستمعون، **وكان عُمَر بن الخطَّاب** رضي الله عنه **يقول لأبي موسى** رضي الله عنه: «يا أبا موسى، ذَكِّرْنَا رَبَّنَا، فيقرأُ وهم يَسْمَعُونَ»[(١)]، وهذا هو السماعُ الذي كان النبيُّ ﷺ يَشْهَدُهُ مَعَ أصحابِهِ ويستدعيه منهم؛ كما في «الصحيح»، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «قال لي النبيُّ ﷺ: **(اقْرَأْ عَلَيَّ القُرْآنَ)**، قلتُ:

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٤/١٠٩)، وأورده الذهبيُّ في «السير» (٢/٣٩٨).

أقرأُهُ عليكَ وعليك أُنْزِلَ، فقال: (**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**)، فقرأتُ عليه سورةَ النساءِ حتى بَلَغْتُ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: ٤١] قال: (**حَسْبُكَ!**)، فنَظَرْتُ، فإذا عيناهُ تَذْرِفَانِ»[(١)].

فهذا هو سماعُ أهلِ الإيمانِ الذي مَنْ سَمِعَهُ وآمَنَ به واتبَعَهُ، اهتَدَى وأفلَحَ، ومَنْ أعرَضَ عنه، شَقِيَ وضَلَّ، ثُمَّ إنَّ له مِنَ الآثارِ الإيمانيَّة، والمعارفِ القُدُسِيَّة، والأحوالِ الزكيَّة، والنتائجِ المحمودةِ في الدنيا والآخرة ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى.

وأمَّا سماعُ المُكَاءِ والتَّصْدِيَةِ، وهو التصفيقُ بالأيدي والصَّفِيرُ ونحوُهُ، فهذا هو سماعُ المُشْرِكِينَ الذي ذكرَهُ اللهُ تعالى في قوله: ﴿**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً**﴾ [الأنفال: ٣٥]، فأخبَرَ عنهم أنَّهم كانوا يتَّخذونَ التصفيقَ باليد، والتصويتَ بالفمِ قُرْبةً ودينًا، ولم يكنِ النبيُّ ﷺ وأصحابُهُ يجتمعونَ على مثلِ هذا السماعِ ولا حضَرُوهُ، ولم يكنْ في القرونِ الثلاثةِ المُفَضَّلةِ مِنْ أهلِ الدِّينِ والصلاحِ والعبادةِ مَنْ يَجتمِعُ على مثلِ هذا المُكاءِ والتَّصْدية، لا بِدُفٍّ ولا بكفٍّ ولا بقضيبٍ، وإنَّما أُحْدِثَ هذا بعد ذلك في أواخرِ المِائةِ الثانية، فلمَّا رآه الأئمةُ أنكروه، وقد مَرَّ قولُ الإمامِ الشافعيِّ والإمامِ أحمدَ رحمهما الله في ذلك، فمَنْ فعَلَ هذه الأمورَ على وجهِ الديانةِ والتقرُّبِ إلى اللهِ ﷻ، فلا ريبَ في ضلالتِهِ وجهالته وانحرافِهِ عن الصراطِ المستقيم.

وأمَّا إذا فعَلَهَا الإنسانُ على وجهِ التمتُّعِ واللَّعِبِ، **فمذهبُ الأئمَّةِ الأربعةِ أنَّ آلاتِ اللَّهْوِ كلَّها حرامٌ**، فقد ثبَتَ في «صحيح البخاري» وغيره: أنَّ النبيَّ ﷺ أخبَرَ أنَّه سيكونُ مِنْ أُمَّتِهِ مَنْ يَستَحِلُّ الحِرَ والحَرِيرَ والخَمْرَ والمعازفَ[(٢)]، **والمعازفُ هي**: المَلَاهِي، جمعُ مَعْزَفَةٍ، وهي الآلةُ التي يُعْزَفُ بها؛ **أي**:

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٥٨٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٠٠).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٥٥٩٠).

يُصَوَّتُ بها، ولا خلافَ بينَ أهلِ العلمِ وأئمَّةِ السلفِ في تحريمِ ذلك[١].

۞ **وينبغي أن يُعلَمَ أنَّ ثَمَّةَ فرقًا بين مَنْ يفعلُ هذه الأمورَ على وجهِ اللهوِ واللعب، وبين مَنْ يَفْعَلُها على وجهِ التديُّنِ والتعبُّد**، فإنَّ الأَوَّلَ يفعلُ ذلك وهو لا يَعُدُّهُ مِنْ صالحِ عَمَلِهِ، ولا يرجو به الثوابَ، بل ربَّما كان يفعلُهُ وهو يشعُرُ بالذنبِ والخطأ، أما مَنْ فعَلَهُ على وجهِ التقرُّب والتعبُّد، وأنَّه طريقٌ إلى اللهِ تعالى، فإنَّه يتَّخِذُهُ دِينًا، وإذا نُهِيَ عنه كان كمَنْ يُنْهَى عن دينه، ورأى أنَّه قد انقَطَعَ عن الله، وحُرِمَ نصيبَهُ مِنَ الله تعالى إذا تركه، فهؤلاءِ ضُلَّالٌ باتفاقِ المسلمين، وهذا الأمرُ أَحَبُّ إلى إبليسَ مِنَ الأوَّل؛ لأنَّ العاصيَ يعلمُ أنَّه عاصٍ فيتوب، والمُبْتَدِعَ يَحْسِبُ أنَّ الذي يفعلُهُ طاعةٌ فلا يتوب، فالبدعةُ أحبُّ إلى إبليسَ مِنَ المعصية؛ حمانا الله منه، وهدانا إلى صراطِهِ المستقيم.

❊ ❊ ❊

(١) **انظر**: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٥٥٧ ـ ٥٨٦).

٩٩

الدُّعَاءُ لِلْمُسْلِمِينَ

إنَّ مِنَ الأمورِ المهمَّةِ التي ينبغي أن يَلْحَظَهَا المسلمُ في الدعاء، **بل قد عدَّه بعضُ أهلِ العلمِ في جملةِ آدابِ الدعاء**: العنايةَ بالدعاءِ للمسلمينَ بالتوفيقِ والمغفرةِ والرحمةِ والإعانةِ على الخير؛ إذْ إنَّ الجميعَ مشتركون في الحاجةِ إلى ذلك، وما مِنْ رَيْبٍ أنَّ كلَّ مسلمٍ يُحِبُّ من إخوانِهِ المسلمينَ أن يدعوا له، ويُسَرُّ بذلك، ويتمنَّى زيادته، والمسلمُ يُحِبُّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسِهِ من الخير، فكما أنَّه يُحِبُّ ذلك لنفسه، فينبغي أن يكونَ معتنيًا بذلك تُجَاهَ إخوانِهِ المسلمين بحبِّ الخيرِ لهم، والدعاءِ لهم، والاستغفارِ، ونحوِ ذلك، ومَنْ كان هذا شأنَهُ مع إخوانِهِ المسلمين، قَيَّضَ الله له مِنْ إخوانِهِ مَنْ يدعون له ويستغفرون له، والمسلمُ ينتفعُ بدعوةِ أخيهِ المسلمِ حيًّا وميِّتًا.

وإذا نظَرَ المسلمُ إلى أحوالِ إخوانِهِ المسلمين، وجَدَها أحوالًا متفاوتة، وكلُّ واحدٍ منهم بحاجةٍ إلى دعاءِ إخوانه، فذاك مريضٌ يعاني من المَرَضِ ويُكابِدُ آلامَه، ولربَّما يكونُ قد أمضى في مَرَضِهِ الأسابيعَ العديدةَ، أو الشهورَ الطويلة، وقد لا يَغْمَضُ له جَفْنٌ، ولا يهدأُ له بالٌ في آلامٍ مُتْعِبَةٍ، وأوجاعٍ مؤلمة، فهو بحاجةٍ إلى دعاءِ إخوانِهِ المسلمينَ له بأنْ يَشْفِيَ اللهُ مَرَضَهُ، ويُزِيلَ بأسه، ويُفرِّجَ هَمَّه، ويكشفَ كَرْبَه، ويُلْبِسَهُ ثوبَ الصِّحَّةِ والعافية.

روى أبو داود، والترمذي، وقال: «حَسَنٌ»، عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قال: (**مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ رَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ، إِلَّا عَافَاهُ اللهُ**)[١].

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٣٨)، و«سنن أبي داود» رقم (٣١٠٦)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٠٨٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٣٨٨).

وفي «الصحيحين»، عن عائشة ﵂، قالتْ: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا أَتى المريضَ يدعو له، قال: (**أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سُقْمًا**)»(١).

ومِنَ المسلمينَ مَنِ اختَرَمَتْهُ المَنِيَّةُ، وأدركَهُ الموتُ، فهو في قبرِهِ مُحْتَجَز، وبأعمالِهِ مُرْتَهَن، وبما قَدَّمَتْ يداه مَجْزِيّ، فهو بحاجةٍ إلى دعاءِ إخوانِهِ المسلمين بأن يُقِيلَ اللهُ عَثْرَتَه، ويَغْفِرَ زَلَّته، ويتجاوزَ عن خطيئته؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، **قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي** ﵀: «هذا شاملٌ لجميعِ المؤمنين؛ ينتفعُ بعضُهُمْ ببعض، ويدعو بعضُهم لبعضٍ، بسببِ المشاركةِ في الإيمانِ المقتضي لعقدِ الأخُوَّةِ بين المؤمنين، التي مِنْ فروعها أن يدعو بعضُهم لبعض، وأن يُحِبَّ بعضُهم بعضًا؛ ولهذا ذكَرَ اللهُ في هذا الدعاءِ نَفْيَ الغِلِّ عن القلب، الشاملَ لقليلِهِ وكثيره، الذي إذا انتَفَى ثبَتَ ضِدُّه، وهو المحبَّةُ بين المؤمنين، والموالاةُ والنصحُ، ونحوُ ذلك مِمَّا هو مِنْ حقوقِ المؤمنين...»(٢).

ومِنَ المسلمينَ مَنْ يعيشونَ في بلدانهم في فِتَنٍ مُؤَرِّقة، وحروبٍ مُهْلِكة، وبلاءٍ شديد، قد تَسلَّطَ عليهم عدوُّهم، فأُرِيقَتْ فيهم الدماء، ورُمِّلَتِ النساء، ويُتِّمَ الأطفالُ، ونُهِبَتِ الأموالُ، وهُمْ بحاجةٍ إلى الدعاءِ لهم بأنْ يُنفِّسَ اللهُ كَرْبَهم، ويُفَرِّجَ هَمَّهم، ويَكْبِتَ عَدُوَّهم، ويَنْشُرَ الأمنَ والاطمئنانَ بينهم، وقد كان مِنْ هَدْيِ النبيِّ الكريمِ ﷺ القنوتُ في النوازلِ التي تَنْزِلُ بالمسلمين، فيدعو للمسلمينَ بالنَّصْرِ والنجاة، ولعدوِّهم بالهزيمةِ والهلاك؛ كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﵁: «أنَّ رسولَ الله ﷺ قَنَتَ في صلاةِ العَتَمَةِ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٦٧٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٩١).
(٢) «تيسير الكريم الرحمٰن» (٨/ ١٠٣).

شهرًا يقولُ في قنوته: (اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الـمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الـمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ)، قال أبو هُرَيْرَةَ: وأصبحَ ذاتَ يومٍ، فلم يَدْعُ لهم، فذكَرْتُ ذلكَ له، فقال: (أَوَمَا تَرَاهُمْ قَدْ قَدِمُوا؟!)[1].

وثبَتَ في «الصحيح»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «قَنَتَ النبيُّ ﷺ شهرًا يدعو على رِعْلٍ وذَكْوانَ، ويقولُ: (عُصَيَّةُ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ)»[2].

وكذلك قنوتُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه في محاربةِ الصحابةِ لِمُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ، وعندَ محاربةِ أهلِ الكتاب، وكذلكَ قنوتُ عُمَرَ بن الخَطَّابِ رضي الله عنه، وفيه يقولُ: اللَّهُمَّ عَذِّبْ كَفَرَةَ أهل الكتاب، الذين يَصُدُّونَ عن سَبِيلِك، ويَجْحَدُونَ آياتِك، ويُكَذِّبُونَ رُسُلَك، ويَتَعَدَّوْنَ حُدُودَك...»، إلى آخر دعائه رضي الله عنه[3].

ومِنَ المسلمينَ مَنْ أَرَّقَهُمُ الفقرُ، وأقعدَتْهُمُ الحاجةُ، فمنهم مَنْ قد لا يجدُ لباسًا يُوَارِيه، أو مسكنًا يُؤْوِيه، أو طعامًا يُشْبِعُهُ ويغذِّيه، أو شرابًا يَرْوِيه، بل منهم مَنْ أدركَهُ حَتْفُهُ في مَجَاعاتٍ مُهْلِكةٍ، وقَحْطٍ مُفْجِعٍ، فهم بحاجةٍ إلى دعواتٍ صادقةٍ بأن يُغْنِيَ اللهُ فَقِيرَهم، ويُشْبِعَ جائعَهم، ويَكْسُوَ عَارِيَهم، ويَسُدَّ حاجتَهم، ويَكْشِفَ فاقتَهم، إلى غيرِ ذلك مِنْ أنواعِ الاهتمامِ بأمورِ المسلمينَ، وحُبِّ الخيرِ لهم، والدعاءِ لهم، وذلك كلُّه منطلقٌ من الرابطةِ الإيمانيَّةِ التي تجمعُهُمْ وتؤلِّفُ بينهم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]،

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨٠٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٦٧٥)، واللفظ له.

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٠٩٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٦٧٧).

(٣) **انظر**: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، و«زاد المعاد» لابن القيم (١/ ٢٨٥). وأثر عمر أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢/ ١٥٥ ـ ١٥٦) وغيره. مع اختلاف في اللفظ عما أورد هنا، وقد صحَّحه الألباني في تعليقه على «صحيح ابن خزيمة»، وصحَّحه قبله الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/ ١٥٠).

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وفي الحديث يقول ﷺ: **(مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى)**؛ رواه البخاريُّ ومسلم[1].

وفي «صحيح مسلم»، عن النُّعْمان بن بَشِير رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(المُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ، إِنِ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّه)**[2].

وثبَتَ عن النبيِّ ﷺ، مِنْ حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)**[3].

وروى الطبرانيُّ عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، أنَّه سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقول: «**(لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَرَاحَمُوا)**، قالوا: يا رسولَ اللهِ، كلُّنا رحيمٌ، **(قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ، وَلَكِنَّهَا رَحْمَةُ النَّاسِ رَحْمَةُ العَامَّةِ)**»[4].

والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ؛ فينبغي على المسلم أن يكونَ مراعيًا لحقوقِ إخوانِهِ المسلمين، مُحِبًّا الخيرَ لهم، رحيمًا بهم، عَطُوفًا عليهم، داعيًا لهم بالتوفيقِ والسداد، والخيرِ والفلاح، والصلاحِ والاستقامة.

❊ ❊ ❊

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٠١١)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٥٨٦).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٥٨٦).

(٣) رواه البخاري رقم (٦٠٢٦)، ومسلم رقم (٢٥٨٥).

(٤) رواه الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨٦)، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح»، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٨٥)، وقال: «صحيح الإسناد»، وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٤٣٨): «رجاله ثقات»، وللحديث شاهدٌ من حديث أنس؛ رواه أبو يعلى في «مسنده» (٧/ ٢٥١).

١٠٠

الاسْتِغْفَارُ لِلْمُسْلِمِينَ

تَقدَّمَ بيانُ أهميَّةِ دعاءِ المسلم لغيرِهِ مِنْ إخوانِهِ المسلمينَ بالمغفرةِ والتوفيقِ، والهدايةِ والسدادِ، ونحوِ ذلك، وتَقدَّمَ الإشارةُ إلى أنَّ حاجةَ الجميعِ إلى ذلك مشتَرَكَةٌ، فكما أنَّ المسلمَ بحاجةٍ إلى دعواتِ إخوانِهِ المسلمين، فكذلكَ إخوانُهُ المسلمونَ بحاجةٍ إلى ذلك، **قال العلَّامةُ ابنُ القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «والجميعُ مشتركونَ في الحاجة، بل في الضَّرُورَةِ إلى مغفرةِ اللهِ وعفوِهِ ورحمتِهِ، فكما يُحِبُّ [أي: المسلمُ] أن يَسْتغفِرَ له أخوهُ المسلمُ، كذلك هو أيضًا ينبغي أن يَستغفِرَ لأخيهِ المسلم، فيصيرُ هِجِّيرَاهُ: رَبِّ اغفِرْ لي ولوالدَيَّ وللمسلمينَ والمسلمات، وللمؤمنينَ والمؤمنات، وقد كان بعضُ السلفِ يَسْتَحِبُّ لكلِّ أحدٍ أن يُداوِمَ على هذا الدعاءِ كلَّ يومٍ سبعينَ مَرَّةً، فيجعلُ له منه وِردًا لا يُخِلُّ به.

وسمعتُ شيخَنا - أي: ابن تيميَّة - يذكُرُهُ، وذكَرَ فيه فضلًا عظيمًا لا أحفظُهُ، وربَّما كان مِنْ جملةِ أورادِهِ التي لا يُخِلُّ بها، وسمعتُهُ يقولُ: إنَّ جَعْلَهُ بين السجدتَيْنِ جائزٌ، فإذا شَهِدَ العبدُ أنَّ إخوانَهُ مصابون بِمِثْلِ ما أُصِيبَ به، محتاجونَ إلى ما هو محتاجٌ إليه، لَمْ يمتنعْ مِنْ مساعدتهم إلَّا لِفَرْطِ جهلِهِ بمغفرةِ اللهِ وفضلِه، وحقيقٌ بهذا ألَّا يُسَاعَدَ؛ فإنَّ الجزاءَ مِنْ جنسِ العمل»(١).

ومِنَ الأجورِ الواردةِ في هذا الدعاءِ العظيم. ما ثبَتَ في «المعجم الكبير» للطبراني، بإسنادٍ حسنٍ، عن عُبادَةَ بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً)**(٢).

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٩٨).

(٢) «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٩٠٦)، **وانظر**: تعليق الشوكانيِّ على هذا الحديث في «تحفة الذاكرين» (ص٣٢٠).

❁ **فَتَأَمَّلْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ عِظَمَ هذا الأجرِ المترتِّبِ على هذا الدعاءِ وكَثْرَتَهُ**، فالمسلمُ عندما يقولُ في دعائه: اللَّهُمَّ اغفِرْ للمسلمينَ والمسلمات، والمؤمنينَ والمؤمنات، الأحياءِ منهم والأمواتِ، يكونُ له بكلِّ واحدٍ مِنَ المسلمينَ والمسلمات، والمؤمنينَ والمؤمنات، المتقدِّمينَ منهم والمتأخِّرين حسنةٌ، فهي حَسَناتٌ لا تُحْصَى، فأعدادُ المسلمينَ المتقدِّمينَ والمتأخِّرينَ لا يُحْصِيهِمْ إلَّا اللهُ جلَّ وعلا؛ ولهذا كان هذا الدعاءُ العظيمُ في جملة أدعيةِ النبيِّين، وأمَرَ اللهُ به خاتَمَهُمْ محمَّدًا ﷺ، وذكَرَهُ في جملةِ ما امتدَحَ به عبادَهُ المؤمنين؛ قال الله تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وقال تعالى إخبارًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال تعالى آمِرًا نبيَّهُ محمَّدًا ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى عن عباده المؤمنين الذين جاؤوا مِنْ بعدِ الصحابة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وكلُّ ذلك دالٌّ على عِظَمِ شأنِ هذا الدعاء، وجَلَالةِ قَدْرِه، وكَثْرَةِ ثوابه عندَ اللهِ؛ ولهذا كان شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله يُعَظِّمُ شأنَ هذا الدعاء، وكان مِنْ جملةِ أورادِهِ التي لا يُخِلُّ بها، كما سبَقَ نقلُ ذلكَ عن الإمام ابن القيِّم رحمه الله.

وقد روى عبد الرزَّاق في «مصنَّفه»، **عن ابن جُرَيْج، قال:** «قلتُ لعطاءٍ: أَستَغْفِرُ للمؤمنينَ والمؤمنات؟ قال: نَعَمْ، قد أُمِرَ النبيُّ ﷺ بذلك؛ فإنَّ ذلك الواجبُ على الناس، قال اللهُ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، قلتُ: أَفَتَدَعُ ذلكَ في المكتوبة أبدًا؟ قال: لا، قلتُ: فبِمَنْ تبدأُ، بنفسِكَ أم بالمؤمنين؟ قال: بل بنفسي، كما قال الله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾»(١).

---

(١) «مصنَّف عبد الرزاق» (٢/٢١٧).

وروى البيهقيُّ في «شُعَب الإيمان»، **عن عبد الله بن المبارك** رَحِمَهُ اللهُ: «أنَّه كان إذا ختَمَ القرآنَ أكثَرَ دعاءَهُ للمؤمنينَ والمؤمنات»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «فالأمرُ الذي كان معروفًا بين المسلمينَ في القرونِ المُفضَّلةِ، أنَّهم كانوا يَعْبُدُونَ اللهَ بأنواعِ العباداتِ المشروعة، فَرْضِهَا ونَفْلِها مِنَ الصلاةِ والصيام، والقراءةِ والذِّكْرِ، وغيرِ ذلك، وكانوا يَدْعُونَ للمؤمنينَ والمؤمنات، كما أَمَرَ اللهُ بذلك لأحيائهم وأمواتهم في صلاةِ الجَنَازة، وعند زيارةِ القبور، وغير ذلك. ورُوِي عن طائفةٍ مِنَ السلف: عندَ كلِّ ختمةٍ دعوةٌ مستجابةٌ، فإذا دعا الرجلُ عَقيبَ الخَتْمِ لنفسِهِ ولوالدَيْهِ ولمشايخِهِ وغيرِهِمْ مِنَ المؤمنينَ والمؤمنات، كان هذا مِنْ جنسِ المشروع، وكذلك دعاؤُهُ لهم في قيامِ الليلِ وغير ذلكَ مِنْ مواطنِ الإجابة»[٢].

ثمَّ إنَّ دَعْوةَ المسلم لِأَخِيهِ أو إخوانِهِ المسلمينَ بظهرِ الغَيْبِ مستجابةٌ، بل إنَّ اللهَ جلَّ وعلا وَكَّلَ مَلَكًا عند رأسِ الداعي، كلَّما دعا لأخيه بخيرٍ، قال المَلَكُ: **(آمينَ، وَلَكَ بِمِثْلِهِ)**.

روى مسلم في «صحيحه»، عن أبي الدَّرْداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّه سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **(مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، إِلَّا قَالَ المَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ)**[٣]، وفي روايةٍ أخرى في «صحيح مسلم»، عن أبي الدرداء: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **(دَعْوَةُ المَرْءِ المُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِهِ)**[٤].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ **في شرحه لهذا الحديث**: «وفي هذا فضلُ الدعاءِ لأخيهِ المسلم بظهرِ الغيب، ولو دعا لجماعةٍ مِنَ المسلمينَ، حَصَلَتْ هذه الفضيلةُ، ولو دعا لجملةِ المسلمينَ، فالظاهرُ حصولُها أيضًا، وكان بعضُ السَّلَفِ

---

(١) «شعب الإيمان» (٢/ ٤١١).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٢٢).
(٣) تقدم تخريجه (ص٣٤١).
(٤) تقدم تخريجه (ص٣٤١).

إذا أراد أن يَدْعُوَ لنفسِهِ يدعو لأخيه المسلمِ بتلك الدعوةِ؛ لأنَّها تُستجابُ ويَحْصُلُ له مثلُها»(١).

إنَّ جميعَ ما تَقدَّمَ فيه أبلغُ دلالةٍ على أهميَّةِ الدعاءِ للمسلمينَ بالمغفرةِ والرحمةِ ونحو ذلك، فحَرِيٌّ بكلِّ مسلم أن يُكْثِرَ مِنَ الدعاءِ لإخوانه؛ لينالَ تلك الأجورَ الكريمةَ، والفضائلَ العظيمةَ، ومِنْ لطيفِ ما يُستأنسُ به في هذا المقامِ: ما رواه أبو نُعَيْم في «حِلْية الأولياء»، **عن أحمد بن الضَّحَّاكِ الخَشَّاب، قال**: «رأيتُ فيما يَرَى النائمُ شُرَيْحَ بنَ يُونُسَ، فقلتُ: ما فعَلَ بكَ ربُّكَ يا أبا الحارث؟ قال: غَفَرَ لي، ومَعَ ذلك جَعَلَ قَصْرِي إلى جَنْبِ قَصْرِ محمَّد بن بَشِيرِ بن عَطَاءِ الكِنْدِيِّ، فقلتُ: يا أبا الحارث، أنتَ عندنا أكبرُ مِنْ محمَّد بن بَشِير، فقال: لا تَقُلْ ذاك؛ فإنَّ الله تعالى جَعَلَ لمحمَّد بن بَشِيرٍ حظًّا في عملِ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ؛ لأنَّه كان إذا دعا، قال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي وللمؤمنينَ والمؤمنات، والمسلمينَ والمسلمات»(٢).

فنسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يَغْفِرَ لنا ولِوَالِدِينَا وللمسلمينَ والمسلمات، والمؤمنينَ والمؤمنات، الأحياءِ منهم والأموات.

❁ ❁ ❁

---

(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٧/ ٤٩).

(٢) «حِلْية الأولياء» (١٠/ ١١٣).

١٠١

فَضْلُ الدُّعَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْإِمْسَاكُ عَنِ الطَّعْنِ فِيهِمْ

لقد مَرَّ الكلامُ على أهميَّةِ الدعاءِ للمسلمينَ بالمغفرةِ والرحمةِ والتوفيقِ، ونحوِ ذلك، وبيانُ ما يَترتَّبُ على ذلكَ مِنْ فوائدَ عظيمةٍ، وأجورٍ كريمة، وخيراتٍ متواليةٍ في الدنيا والآخرة. وما مِنْ شكٍّ أنَّ وجودَ مثلِ ذلكَ بينَ المسلمينَ دليلٌ على قُوَّةِ اللُّحمة، وشِدَّةِ الرابطةِ، ووُثُوقِ الصِّلَةِ، وهو دليلٌ أيضًا على كمالِ العقلِ، وسلامةِ الصَّدْرِ، ورَجَاحةِ الفَهْم، **والمسلمُ المُوَفَّقُ يكونُ دائمًا محبًّا الخيرَ لإخوانِهِ المسلمين، عطوفًا عليهم، رحيمًا بهم، راجيًا صَلَاحَهم وفَلَاحَهم وهدايتَهم، متمنِّيًا تحقُّقَ الخيرِ لهم، مُكْثرًا من دعاءِ اللهِ وسؤالِهِ لهم**، ومَنْ كان كذلك، فهو حَرِيٌّ بأنْ يكونَ مِنَ الشهداءِ والشفعاءِ للناسِ يومَ القيامة، ثبَتَ في الحديث عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **﴿لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**[(١)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ **في معنى هذا الحديث**: «إنَّ الشهادةَ مِنْ بابِ الخَبَرِ، والشفاعةَ مِنْ باب الطَّلَبِ، ومَنْ يكونُ كثيرَ الطَّعْنِ على الناس، وهو الشهادةُ عليهمْ بالسُّوء، وكثيرَ اللَّعْنِ لهم، وهو طَلَبُ السوءِ لهم، لا يكونُ شهيدًا عليهم ولا شفيعًا لهم؛ لأنَّ الشهادةَ مبناها على الصِّدْق، وذلك لا يكونُ فِيمَنْ يُكْثِرُ الطعنَ فيهم، ولا سيَّما فيمَنْ هو أَوْلَى باللهِ ورسولِهِ منه، والشفاعةُ مبناها على الرحمةِ وطَلَبِ الخيرِ، وذلك لا يكونُ ممَّن يُكْثِرُ اللَّعْنَ لهم، ويترُكُ الصلاةَ عليهم»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٥٩٨).

(٢) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٥٠٥). وقد أورد ابنُ القيِّم الحديث بلفظ: **﴿لَا يَكُونُ الطَّعَّانُونَ وَاللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**.

ولهذا حريٌّ بالمسلمِ أن يكونَ مُصَلِّيًا على إخوانِهِ المسلمين، محبًّا الخيرَ لهم، مبتعدًا عن لعنهم وسبِّهم والوقيعةِ فيهم؛ إذْ ليس ذلك مِنْ شأنِ المسلمِ، ولا من خُلُقِه.

روى الحاكم، عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنَ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا**)[١].

وروى الإمام أحمد، والترمذي، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: (**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ**)[٢].

وثبتَ في صحيحي البخاري ومسلم، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: (**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**)[٣]، والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

وهذه أقلُّ أحوالِ المسلمِ، إنْ لَمْ يكنْ داعيًا لإخوانِهِ المسلمين، باذلًا الخَيْرَ لهم، ساعيًا في حاجَتِهِمْ ومَصَالِحِهِمْ، فلا أَقَلَّ مِنْ أن يكونَ كافًّا عن أَذِيَّتهم وإيصالِ الشرِّ لهم.

وروى البخاري ومسلم، عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ ﷺ: «(**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**)، قالوا: فإنْ لَمْ يَجِدْ؟ قال: (**فَيَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**)، قالوا: فإنْ لَمْ يستطعْ أو لَم يَفْعَلْ؟ قال: (**فَيُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ**)، قالوا: فإنْ لَمْ يفعلْ؟ قال: (**فَلْيَأْمُرْ بِالْخَيْرِ، أَوْ قَالَ: بِالْمَعْرُوفِ**)، قالوا: فإنْ لَمْ يفعلْ؟ قال: (**فَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ**)»[٤].

---

(١) «المستدرك» (١/ ٤٧)، **وانظر**: «جامع الترمذي» رقم (٢٠١٩)، ورواه مسلم رقم (٢٥٩٧) بلفظ: (**لَا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا**).

(٢) «المسند» (١/ ٤٠٤)، و«جامع الترمذي» رقم (١٩٧٧)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٢٠).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (١٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٤١).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (١٤٤٥)، و«صحيح مسلم» رقم (١٠٠٨).

ففي هذا دليلٌ على أنَّه لا أَقَلَّ مِنَ الإمساكِ عن الشرِّ إنْ لَمْ يحصلْ من المسلمِ فعلُ الخيرِ لإخوانِهِ المسلمين، وتقديمُهُ المساعدةَ لهم.

وليُعْلَمْ أنَّ لعنَ المسلمينَ على مراتبَ، أخطرُها وشرُّها: لَعْنُ خيارِهم ومُقَدَّميهم وأفاضِلهم؛ كالصَّحَابةِ ومَنِ اتَّبَعَهُمْ بإحسانٍ مِنْ ذوي العلمِ والفضلِ والإيمان، ومثلُ ذلك لا ينشأُ إلَّا عندَ ذوي القلوبِ المريضة، والأهواءِ البغيضة، مِنْ أهلِ الأهواءِ والبدع.

روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، عن النبي ﷺ، أنَّه قال: **(لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)**[(١)].

وروى ابن ماجه، **عن ابن عُمَرَ** رضي الله عنهما، **أنَّه كان يقول:** «لا تَسُبُّوا أصحابَ محمَّدٍ ﷺ، فلَمَقَامُ أَحدِهِمْ ساعةً خيرٌ مِنْ عَمَلِ أحدِكم عُمُرَهُ»[(٢)]، فمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يكونُ في قلبِهِ غِلٌّ لخيارِ المؤمنينَ وساداتِ أولياءِ اللهِ تعالى بعدَ النبيِّين، أصحابِ النبيِّ ﷺ.

وهكذا الشأنُ أيضًا فِيمَنْ يتناولُ بالطعنِ علماءَ الأمةِ وخيَارَهم مِنْ ذوي العلمِ والفقهِ والنصحِ للمسلمين؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رحمه الله: «ومِنَ الكلامِ السائر: لحومُ العلماءِ مسمومةٌ»[(٣)].

وهكذا الشأنُ في لَعْنِ أمواتِ المسلمين الذين أَفْضَوْا إلى ما قدَّموا؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رحمه الله: «الكلامُ في لَعْنةِ الأمواتِ أعظمُ مِن لعنةِ الحيِّ؛ فإنَّه قد ثبَتَ في «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: **(لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ؛ فَإِنَّهُمْ أَفْضَوْا إِلَىٰ مَا قَدَّمُوا)**[(٤)]، حتى إنَّه قال: **(لَا تَسُبُّوا أَمْوَاتَنَا؛ فَتُؤْذُوا أَحْيَاءَنَا)**[(٥)]،

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٦٧٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٥٤٠).
(٢) «سنن ابن ماجه» رقم (١٦٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (١٣٣).
(٣) «الصارم المسلول» (ص١٤٣). (٤) «صحيح البخاري» رقم (١٣٩٣).
(٥) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٥٢)، والترمذي رقم (١٩٨٢)، بلفظ مقارب، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٣١٢).

لَمَّا كان قومٌ يَسُبُّونَ أبا جهلٍ ونحوَهُ مِنَ الكفار الذين أسلَمَ أَقَارِبُهم، فإذا سبُّوا ذلك، آذَوْا قرابَتَهُ»(١).

وأما ما يتعلَّق بلعنِ العُصَاةِ والفُسَّاقِ وذوي الفجورِ من أهلِ المِلَّة، فإنَّ السُّنَّةَ لَم تأتِ بالأمرِ بلعنِ الفاسقِ المعيَّن، وإنَّما جاءتِ السُّنَّةُ بلعنةِ الأنواع؛ كقول النبيِّ ﷺ: **(لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ؛ يَسْرِقُ البَيْضَةَ، فَتُقْطَعُ يَدُهُ)**(٢)، وقولِهِ: **(لَعَنَ اللهُ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا، أَوْ آوَىٰ مُحْدِثًا)**(٣)، وقولِهِ: **(لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ)**(٤)، وقوله: **(لَعَنَ اللهُ المُحَلِّلَ وَالمُحَلَّلَ لَهُ)**(٥)، وقولِهِ: **(لَعَنَ اللهُ الخَمْرَ، وعَاصِرَهَا، ومُعْتَصِرَهَا، وحَامِلَها، والمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وسَاقِيَهَا، وشَارِبَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا)**(٦).

وقد تنازع العلماءُ في لعنةِ الفاسقِ المعيَّن، **فقيل**: إنَّه جائزٌ، **وقيل**: إنَّه لا يجوزُ، والمعروفُ عن الإمام أحمدَ رَحِمَهُ اللهُ: كراهةُ لَعْنِ المعيَّن، وأنْ يقولَ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وقد ثبَتَ في «صحيح البخاري»: «أنَّ رَجُلًا كان يُدْعَى حمارًا، وكان يَشْرِبُ الخَمْرَ، وكان يُؤْتَىٰ به إلى النبيِّ ﷺ، فيَضْرِبُهُ، فأُتِيَ به إليه مَرَّةً، فقال رجلٌ: لَعَنَهُ اللهُ، ما أَكْثَرَ ما يُؤْتَىٰ به إلى النبيِّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: **(لَا تَلْعَنْهُ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ)**(٧).

---

(١) «منهاج السُّنَّة» (٤/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣).
(٢) رواه البخاري رقم (٦٧٨٣)، ومسلم رقم (١٦٨٧).
(٣) رواه البخاري رقم (١٨٧٠)، ومسلم رقم (١٣٧٠).
(٤) رواه مسلم رقم (١٥٩٨).
(٥) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٨٣)، وأبو داود رقم (٢٠٧٦)، والترمذي رقم (١١٢٠)، والنسائي رقم (٣٤١٦)، وابن ماجه رقم (١٩٣٦)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» رقم (١٨٩٧).
(٦) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٣١٦)، (٢/ ٧١)، وأبو داود رقم (٣٦٧٣)، وابن ماجه رقم (٣٣٨٠)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» رقم (٢٣٨٥).
(٧) **انظر**: «صحيح البخاري» رقم (٦٧٨٠).

فقد نهى النبيُّ ﷺ عن لعنةِ هذا المعيَّنِ الذي كان يُكْثِرُ شربَ الخمر، مُعلِّلًا ذلك بأنَّه يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ، مع أنَّه ﷺ لَعَنَ شاربَ الخمرِ مطلقًا؛ فَدَلَّ ذلك على أنَّه يجوزُ أن يُلْعَنَ المطلقُ، ولا يجوزُ أن يُلْعَنَ المعيَّنُ الذي يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ(١).

وعلى كلٍّ، فاللعنُ وعيدٌ، والوعيدُ لا يستلزمُ ثبوتَهُ في حقِّ المعيَّنِ إلَّا إذا وُجِدَتْ شروطُهُ، وانتفَتْ موانعُهُ، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) «منهاج السُّنَّة» (٤/ ٥٦٧ ـ ٥٧٤).

١٠٢

الدُّعَاءُ لِلْوَالِدَيْنِ وَلِذَوِي الْقُرْبَىٰ

سَبَقَ أنْ مرَّ معنا بيانُ فضلِ الدعاءِ للمسلمينَ بالخيرِ والرحمةِ والمغفرة، وما يَترتَّبُ على ذلكَ مِنْ أجورٍ عظيمةٍ، وخيراتٍ عميمة. وإذا كان الدعاءُ مطلوبًا مِنَ المسلم لعموم المسلمين، **فإنَّهُ متأكِّدٌ ومطلوبٌ بشكلٍ أخصَّ لقرابةِ الإنسان؛ إذِ الأقربونَ أوْلَى بالمعروف، وأحقُّ بالإحسان، ولا سيَّماً الوالدان.**

ففي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: «جاءَ رجلٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ! مَنْ أحقُّ الناسِ بِحُسْنِ صَحابَتي؟ قال: **(أُمُّكَ)**، قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: **(أُمُّكَ)**، قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: **(أُمُّكَ)**، قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: **(ثُمَّ أَبُوكَ)**»، وزاد مسلم: **(ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ)**[١].

وروى الترمذي، والبخاري في «الأدب المفرد»، عن بَهْز بن حَكِيم، عن أبيه، عن جَدِّه، «قلتُ: يا رسولَ اللهِ، مَنْ أبرُّ؟ قال: **(أُمَّكَ)**، قلتُ: مَن أَبَرُّ؟ قال: **(أُمَّكَ)**، قلتُ: مَنْ أَبرُّ؟ قال: **(أُمَّكَ)**، قلتُ: مَنْ أَبرُّ؟ قال: **(أَبَاكَ، ثُمَّ الأَقْرَبَ فَالأَقْرَبَ)**»[٢].

ومِنْ أعظم البرِّ: الدعاءُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء]، فأمَرَ جَلَّ وعلَا بالإحسانِ إليهما بجميعِ وجوهِ الإحسانِ القوليِّ والفعليِّ؛ لأنَّهما سببُ وجودِ العبد، ولهما من المحبَّةِ والحقوقِ

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٩٧١)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٥٤٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٥/٣)، وأبو داود رقم (٥١٣٩)، و«جامع الترمذي» رقم (١٨٩٧)، و«الأدب المفرد» رقم (٣)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٣).

والإحسانِ والقُرْبِ ما يقتضي تَأَكُّدَ الحقّ، ووجوبَ التقديمِ في البرِّ، وخَصَّ بالذِّكْرِ مِنْ ذلك الدعاءَ لهما بالرحمةِ أحياءً وأمواتًا، جزاءً على إحسانهما.

والدعاءُ للوالدَيْنِ بالرحمةِ خاصٌّ فيما إذا كانا مُسْلِمَيْنِ، أمَّا المشركُ، فلا يُدْعَىٰ له بالرحمةِ والمغفرة، **قال ابنُ عَبَّاس** رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾: «فنَسَخَتْهَا[1] الآيةُ التي في براءة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]»[2].

وروى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا، فَأَذِنَ لِي)**[3].

لكنْ لا بأس، بل يَحْسُنُ، أنْ يَدْعُوَ لهما بالهدايةِ والتوفيقِ لِقَبُولِ الحقِّ، كما في «الصحيح»، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **(اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْسًا، وَأْتِ بِهِمْ)**[4]، وروى مسلمٌ في «صحيحه»، عن يَزِيد بن عبد الرحمٰن، قال: حدَّثني أبو هريرةَ رضي الله عنه، قال: «كنتُ أدعو أُمِّي إلى الإسلامِ، وهي مُشْرِكةٌ، فدعَوْتُها يومًا، فأسْمَعَتْنِي في رسولِ اللهِ ﷺ ما أَكْرَهُ، فأَتَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ وأنا أبكي، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي كنتُ أدعو أُمِّي إلى الإسلامِ، فتَأبَىٰ عليَّ، فدعوتُها اليومَ، فأسمعَتْنِي فيك ما أَكْرَهُ، فادْعُ اللهَ أن يَهْدِيَ أمَّ أبي هريرةَ، فقال رسولُ الله ﷺ: **(اللَّهُمَّ، اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ)**، فخَرَجْتُ مستبشرًا بدعاءِ نبيِّ الله، فلمَّا جِئْتُ، فصِرْتُ إلى البابِ، فإذا هو مُجَافٍ، فَسَمِعَتْ أُمِّي خشْفَ قَدَمَيَّ، فقالت: مكانَكَ يا أبا هُرَيْرَةَ، وسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الماءِ، قال: فاغْتَسَلَتْ،

---

(١) أي: قيَّدتها.

(٢) «الأدب المفرد» رقم (٢٣)، و«تفسير الطبري» (٨/ ٦٣)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٣).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٦٧١).

(٤) تقدم تخريجه (ص٣٨٩).

ولَبِسَتْ دِرْعَها، وعَجِلَتْ عن خِمَارِها، فَفَتَحَتِ البابَ، ثمَّ قالتْ: يا أبا هريرةَ، أَشْهَدُ أنْ لَا إلـٰهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، قال: فرجَعْتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فأتيتُهُ وأنا أبكي من الفَرَحِ، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَبْشِرْ، قد استجابَ اللهُ دَعْوَتَكَ وهَدَى أُمَّ أبي هريرةَ، فحَمِدَ اللهَ وأثْنَى عليه، وقال خيرًا، قال: قلتُ: يا رسول اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يُحَبِّبَني أنا وأمِّي إلى عبادِهِ المؤمنينَ ويُحَبِّبَهُمْ إلينا، قال: قال رسول الله ﷺ: **(اللَّهُمَّ، حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا** ـ **يعني**: أبا هريرة ـ **وَأُمَّهُ إِلىٰ عِبَادِكَ المُؤْمِنِينَ)**، فما خُلِقَ مؤمنٌ يسمعُ بي ولا يراني إلَّا أَحَبَّني»[(١)].

فهذه القِصَّةُ العظيمةُ الرائعةُ دالَّةٌ على جوازِ الدعاءِ للوالدَيْنِ إذا كانا مُشْرِكَيْنِ بالهدايةِ، وأهميَّةِ ذلك، وعِظَمِ فائدته، وينبغي له أن يَجْمَعَ لهما بين الدعاءِ والدَّعْوة، كما فعَلَ أبو هريرةَ رضي الله عنه مع أُمِّهِ رضي الله عنها، فقد كان يُكْثِرُ من دعوتها إلى الإسلامِ، والدعاءِ لها بالهدايةِ والتوفيق، ثمَّ إنَّه رضي الله عنه كان يُكْثِرُ من الدعاءِ لها ـ بعد هدايتها ـ بالرحمةِ والمغفرة.

روى البخاريُّ في «الأدب المفرد»، **عن أبي مُرَّةَ مولى أُمِّ هانئ بنتِ أبي طالب**: «أنَّهُ رَكِبَ مع أبي هريرةَ إلى أَرْضِهِ بالعَقِيقِ، فإذا دخَلَ أرضَهُ، صاح بأعلى صوتِهِ: عليكِ السلامُ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ يا أُمَّتَاه، تقولُ: وعليك السلامُ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ، يقولُ: رَحِمَكِ اللهُ كما رَبَّيْتِنِي صغيرًا، فتقولُ: يا بُنَيَّ، وأنتَ جزاكَ اللهُ خيرًا ورَضِيَ عنك كما بَرَرْتَنِي كبيرًا»[(٢)].

ورَوَىٰ أيضًا **عن محمَّد بن سِيرِينَ، قال**: «كنَّا عندَ أبي هريرةَ ليلةً، فقال: «اللَّهمَّ، اغفر لأبي هريرةَ ولأُمِّي، ولِمَن استَغْفَرَ لهما، قال محمَّد بن سِيرِينَ: فنحنُ نَسْتَغْفِرُ لهما حتى نَدْخُلَ في دعوةِ أبي هريرة»[(٣)].

ودعاءُ الوَلَدِ لوالدَيْهِ يَنْفَعُهما بعدَ موتهما، حيثُ ينقطعُ عملُهما في هذه الحياةِ؛ فقد ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٤٩١).

(٢) «الأدب المفرد» رقم (١٤)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (١١).

(٣) «الأدب المفرد» رقم (٣٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٢٨).

قال: (**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُوَ لَهُ**)(١).

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، بإسناد حسن، **عن أبي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه، **قال**: «تُرْفَعُ للميِّتِ بعد موتِهِ درجتُهُ، فيقولُ: أيْ ربِّ، أيُّ شيءٍ هذه؟ فيُقال: وَلَدُكَ استَغْفَرَ لَكَ»(٢).

وإذا كان الدعاءُ للوالدَيْنِ بالرحمةِ والمغفرَةِ بِرًّا وإحسانًا وحقًّا ينبغي على الابنِ أن يعتنيَ به، فإنَّ مِنْ أعظمِ الإثْمِ ومِنْ كبائرِ الذنوب أنْ يَسُبَّ ـ والعياذُ بالله ـ الولدُ والدَيْهِ، سواءٌ ابتداءً ـ وهو أشدُّ ـ أو تسبُّبًا؛ ففي «الصحيحين»، عن عبد الله بن عَمْرٍو رضي الله عنهما، قال: «قال النبيُّ ﷺ: (**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**)، قيل: يا رسولَ الله، وكيف يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قال: (**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ؛ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ؛ فَيَسُبُّ أُمَّهُ**)»(٣).

وفي «الأدب المفرد»، **عن عبد الله بن عَمْرٍو** رضي الله عنهما، **قال**: «مِنَ الكبائرِ عندَ اللهِ أن يَسْتَسِبَّ الرجلُ لِوَالِدِهِ»(٤).

وثبتَ في «صحيح مسلم»، عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ**)(٥).

ومِثْلُ هذا لا يكونُ إلَّا مِنْ ذوي النفوسِ الدنيئة، والأخلاقِ الرديئة. نسألُ اللهَ الحِفْظَ والعافية، ونسألُهُ سبحانَهُ أنْ يَغْفِرَ لنا ولِوَالِدِينا وللمسلمينَ والمسلمات؛ إنَّهُ غفورٌ رحيم.

❁ ❁ ❁

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (١٦٣١).
(٢) «الأدب المفرد» رقم (٣٦)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٢٧).
(٣) «صحيح البخاري» رقم (٥٩٧٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٩٠).
(٤) «الأدب المفرد» رقم (٢٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٢٢).
(٥) «صحيح مسلم» رقم (١٩٧٨).

١٠٣

الدُّعَاءُ لِوُلَاةِ أَمْرِ المُسْلِمِينَ

إنَّ الدعاءَ بالخيرِ والمغفرةِ لعمومِ المسلمينَ له شأنٌ عظيمٌ، ويَترتَّبُ عليه أجورٌ كثيرة، وخيراتٌ متنوِّعةٌ في الدنيا والآخرة، وهو مِنْ مقتضياتِ أُخُوَّةِ الإيمانِ التي تَجْمَعهم وتَرْبِطهم، وقد سبَقَ ذكرُ بعضِ الأدلَّةِ على ذلك. أمَّا الحديثُ هنا، فسيكونُ خاصًّا بالدعاءِ لوُلَاةِ أمرِ المسلمينَ الذين بهم ـ بتوفيقٍ مِنَ الله ـ تنتظمُ مصالحُهم، وتجتمعُ كلمتهم، وتُؤَمَّنُ سُبُلُهم، وتُقامُ صلاتُهم، ويُجَاهَدُ عَدُوُّهم، وبدونهم تَتعطَّلُ الأحكام، وتَعُمُّ الفوضى، ويختلُّ الأمنُ، ويَكْثُرُ السَّلْبُ والنهبُ وأنواعُ الاعتداء، وينثلمُ صَرْحُ الإسلام، ولا يَأْمَنُ الناسُ على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يجبُ أن يُعْرَفَ أنَّ ولايةَ أمرِ الناسِ مِنْ أعظمِ واجباتِ الدِّينِ، بل لا قيامَ للدِّينِ إلَّا بها؛ فإنَّ بني آدَمَ لا تَتِمُّ مصلحتُهم إلَّا بالاجتماعِ لحاجةِ بعضهم إلى بعض، ولا بدَّ لهم عندَ الاجتماعِ مِنْ رأسٍ. . . ـ **إلى أن قال** ـ: ولأنَّ الله تعالى أوجَبَ الأمرَ بالمعروف، والنهيَ عن المنكرِ، ولا يَتِمُّ ذلكَ إلَّا بِقُوَّةٍ وإمارةٍ، وكذلك سائرُ ما أوجبَهُ مِنَ الجهادِ والعدل، وإقامةِ الحجِّ والجُمَعِ والأعيادِ، ونَصْرِ المظلومِ، وإقامةِ الحدود: لا تَتِمُّ إلَّا بالقوَّةِ والإمارة. . . ـ **إلى أن قال** ـ: فالواجبُ اتِّخاذُ الإمارةِ دِينًا وقُرْبةً يُتقرَّبُ بها إلى الله؛ فإنَّ التقرُّبَ إليه فيها بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ مِنْ أفضلِ القُرُباتِ»(١).

❁ ومن هنا، فإنَّه يَتأَكَّدُ على كلِّ مَسلمٍ أن يكونَ ناصحًا لِمَنْ وَلِيَ أمرَه،

---

(١) «السياسة الشرعية» (ص١٦١ ـ ١٦٢).

مطيعًا له بالمعروف، غيرَ مُبْطِنٍ لشرٍّ أو غِشٍّ أو خديعة؛ لمنافاة ذلكَ لهدي الإسلام، وما دعا إليه الرسولُ عليه الصلاةُ والسلام؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن تَمِيمِ بن أوسٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**(الدِّينُ النَّصِيحَةُ)**، قالوا: لِمَنْ يا رسولِ الله؟ قال: **(للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)**»[(١)].

وثبَتَ في «صحيح مسلم» أيضًا، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: **(إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا: أَنْ تَعْبُدُوهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمرَكُمْ)**[(٢)].

وفي السُّنَنِ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وزيد بن ثابت رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: **(نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَبَلَّغَهُ إِلَىٰ مَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، ثَلَاثٌ لَا يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الأُمُورِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ)**[(٣)].

وما مِنْ رَيْبٍ أنَّ مِنَ النصحِ لولاةِ أمر المسلمينَ: الدعاءَ لهم بالتوفيقِ والسَّدادِ، والصلاحِ والمعافاةِ، فهُمْ أوْلَى مَنْ يُدْعَى له بذلك؛ لأنَّ صلاحَهم صلاحٌ للأمَّة، وسدادَهم نفعُهُ عائدٌ عليهم وعلى المسلمين، فالدعاءُ لهم مِنْ أهمِّ الدعاءِ وأكثرِهِ عائدةً ونفعًا؛ **ولهذا قال الإمام الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ** رحمه الله: «لو كانتْ لي دعوةٌ مستجابةٌ، لَمْ أَجعَلْها إلَّا في إمامٍ؛ لأنَّه إذا صَلَحَ الإمامُ،

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٥٥).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (١٧١٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٤٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٤٥٦٠)، وليس في مسلم الخصلة الثالثة المأمور بها.

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٢٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٦٥٨)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٣٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٧٦٦).

أَمِنَ البلادُ والعبادُ»[١].

وهذا مِنْ تمامِ فِقْهِهِ وحُسْنِ فَهْمِه؛ **ولهذا قال عبد الله بن المبارك** رَحِمَهُ اللَّهُ **معلِّقًا على كلمته هذه**: «يا مُعلِّمَ الخَيْر، مَنْ يجتري على هذا غَيْرُك؟!».

يَقْصِدُ أنَّ الفضيلَ لَمْ يُرِدْ أن يَخُصَّ نفسَهُ بالدعوةِ المستجابةِ لو كانتْ له، بل أراد أن يَجْعَلَها لِمَنْ يَعُمُّ نفعُهُ إذا صَلَحَ، وهو السلطان.

وقد نُقِلَ أيضًا عن الإمام أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ نحوُ كلمةِ الفُضَيْلِ المتقدِّمةِ، **قال أبو بكرٍ المروزيُّ**: «سمعتُ أبا عبد الله ـ **يعني**: أحمدَ بنَ حَنْبَلٍ ـ وذَكَرَ المتوكِّلَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: إنِّي لأدعو له بالصلاحِ والعافيةِ»[٢].

ولهذا تَكَاثَرتِ النقولُ عن أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في تقريرِ هذا في ضمنِ ما كتبوه في بيانِ المنهجِ الحقِّ، والمعتقَدِ السليم، الذي ينبغي أن يكونَ عليه كلُّ مسلمٍ؛ **ومِنْ ذلك قولُ الإمامِ أبي جعفرٍ الطَّحاويِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا نَرَى الخروجَ على أئِمَّتِنا ووُلَاةِ أمورِنا وإنْ جاروا، ولا نَدْعُو عليهم، ولا ننزِعُ يدًا مِنْ طاعتهم، ونرى طاعتَهُمْ مِن طاعةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فريضةً، ما لَمْ يأمروا بمعصيةٍ، ونَدْعُو لهم بالصلاحِ والمعافاة»[٣].

وقال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابونيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويَرَى أصحابُ الحديثِ الجُمُعةَ والعِيدَيْنِ وغيرَهما مِنَ الصلواتِ خلفَ كلِّ إمامٍ، بَرًّا كانَ أو فاجرًا، ويَرَوْنَ جهادَ الكَفَرةِ معهم، وإنْ كانوا جَوَرَةً فَجَرَةً، ويَرَوْنَ الدعاءَ لهم بالإصلاحِ والتوفيقِ والصلاح، وبَسْطِ العدلِ في الرعيَّة»[٤].

وقال الإمام الحافظ أبو بكرٍ الإسماعيليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَرَوْنَ ـ **أي**: أهلُ السُّنَّة ـ الصلاةَ، والجُمُعَةَ وغيرَها خلفَ كلِّ إمامٍ مسلم، بَرًّا كان أو فاجرًا... ويَرَوْنَ الدعاءَ لهم بالصلاحِ والعطفِ إلى العدلِ»[٥]. والنقولُ عن السلفِ في هذا المعنى كثيرةٌ.

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩١)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ١٩٧).

(٢) رواه الخلال في «السُّنَّة» رقم (١٦).

(٣) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٢٨).

(٤) «عقيدة السلف» (ص١٠٦).

(٥) «اعتقاد أهل السُّنَّة» (ص٥٥ ـ ٥٦).

❁ **ويجبُ على المسلمِ أن يَحْذَرَ أشدَّ الحَذَرِ مِنْ سبِّ الوُلَاةِ والوقيعةِ فيهم**، وعَدَمِ الدعاءِ لهم بالخير، والدعاءِ عليهم بالشرِّ؛ روى ابنُ أبي عاصمٍ في «السُّنَّةِ» ـ وصحَّحه الألباني ـ **عن أنس بن مالك** ﷺ، **قال**: «نهانا كبراؤنا مِنْ أصحابِ محمَّدٍ ﷺ، قالوا: قال رسولُ الله ﷺ: **(لَا تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ، وَلَا تَغُشُّوهُمْ، وَلَا تُبْغِضُوهُمْ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاصْبِرُوا؛ فَإِنَّ الأَمْرَ قَرِيبٌ)**»[1].

وقال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللهُ **في كتابه «التمهيد»**: «إنْ لَمْ يكنْ يَتمكَّنُ نُصْحُ السلطان، فالصَّبْرُ والدعاء، فإنَّهم كانوا ـ **أي**: الصحابة ـ يَنْهَوْنَ عن سبِّ الأمراء»، ثمَّ ساق بسنده حديثَ أنسٍ المتقدِّمِ[2].

وكان السلفُ رحمهم الله يَعُدُّونَ الاشتغالَ بسبِّ الولاةِ والدعاءِ عليهم مِنَ الأمور المُحْدَثة، **وفي ذلك يقولُ الإمام الحسن بن علي البَرْبَهَارِيُّ** رَحِمَهُ اللهُ: «إذا رأيتَ الرَّجُلَ يدعو على السلطانِ، فاعْلَمْ أنَّه صاحبُ هَوًى، وإذا سمعتَ الرجلَ يدعو للسلطانِ بالصلاحِ، فاعلَمْ أنَّه صاحبُ سُنَّةٍ ـ إنْ شاء الله تعالى ـ»[3].

وقد سُئِلَ سَمَاحَةُ الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ **عمَّن يمتنعُ عن الدعاء لولاةِ الأمر، فقال**: «هذا مِنْ جَهْلِهِ وعَدَمِ بصيرتِهِ، الدعاءُ لوليِّ الأمرِ مِنْ أعظمِ القُرُبَاتِ، وأفضلِ الطاعات، ومِنَ النصيحةِ للهِ ولعبادِهِ...»، إلى آخرِ كلامه، رَحِمَهُ اللهُ وغَفَرَ له، وجَعَلَ منزلتَهُ في الجَنَّةِ الفردوسَ الأعلى، كما نسألُهُ سبحانَهُ أن يُصْلِحَ لنا شأنَنَا كلَّه، وأنْ يُوَفِّقَنَا لكلِّ خيرٍ يُحِبُّهُ في الدنيا والآخرة، وأن يُصْلِحَ وُلَاةَ أَمْرِنا، وأن يَهْدِيَنا وإيَّاهم إليه صراطًا مستقيمًا.

❁ ❁ ❁

(١) «السُّنَّة» (ص٤٨٨).
(٢) «التمهيد» (٢١/ ٢٨٧).
(٣) «شرح السُّنَّة» (ص١١٣).

١٠٤

أَقْسَامُ الدُّعَاءِ بِاعْتِبَارِ الْمَدْعُوِّ لَهُ

لا يزالُ الحديثُ موصولًا في بيانِ فضلِ دعاءِ المسلمِ لإخوانِهِ المسلمينَ، الذي هو مِنْ مُقْتَضِيَاتِ أُخُوَّةِ الإسلامِ التي تجمعهم، ورابطةِ الدين التي تربطهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وما مِنْ ريبٍ أنَّ مِنْ مُتطلَّباتِ هذه الأخوَّةِ ومقتضياتها الدعاءَ مِنْ كلِّ فردٍ مِنْ أفرادِ المسلمينَ لعمومِ المسلمين بالخيرِ والعافيةِ، والمغفرةِ والرحمةِ، ونحو ذلك؛ إذ المسلمُ يُحِبُّ لإخوانِهِ ما يُحِبُّهُ لنفسِهِ مِنَ الخيرِ؛ كما قال ﷺ: **(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)**[١]، وقد سَبَقَ أنْ مَرَّ معنا جملةٌ مِنَ الأدلَّةِ الدَّالةِ على فضل الدعاءِ للغيرِ، وعِظَمِ ما يَترتَّبُ على ذلك من الأجر والثوابِ والخير.

وممَّا يحسُنُ أن يُعْلَمَ في هذا المقام: أنَّ كلَّ دعاءٍ يدعو به المسلمُ لا يخلو مِنْ أقسامٍ أربعةٍ، وذلك باعتبارِ المدعوِّ له:

أحدها: أن يدعوَ المسلمُ لنفسِهِ بما يشاءُ مِنْ خيرَيِ الدنيا والآخرة؛ كأنْ يقول: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى والسَّدَادَ»، أو يقولَ: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أسأَلُكَ الهُدَى والتُّقَى، والعَفَافَ والغِنَى»، أو يقولَ: «اللَّهُمَّ، اغفِرْ لي ذنبي»، ونحوَ ذلك من الأدعيةِ، فيأتي بها بلفظِ الإفراد، حتى الإمامُ في الصلاةِ في الأدعيةِ التي يدعو بها لنفسِهِ في السجودِ أو في الجلسةِ بَيْنَ السجدتَيْنِ، أو في آخرِ الصلاة قبلَ السلامِ.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «والمحفوظُ في أدعيتِهِ كلِّها بلفظِ الإفراد؛ كقوله:

(١) رواه البخاري رقم (١٣)، ومسلم رقم (٤٥).

(**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي**)(١)، وسائرِ الأدعية المحفوظةِ عنه، ومنها قوله في دعاء الاستفتاح: (**اللَّهُمَّ، اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالمَاءِ وَالبَرَدِ، اللَّهُمَّ، بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدتَّ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ...**)، الحديث(٢)، وروى الإمام أحمد، وأهل السُّنَنِ، من حديث ثَوْبَانَ، عن النبيِّ ﷺ: (**لَا يَؤُمُّ عَبْدٌ قَوْمًا، فَيَخُصُّ نَفْسَهُ بِدَعْوَةٍ دُونَهُمْ، فَإِنْ فَعَلَ فَقَدْ خَانَهُمْ**)(٣)... **ثمَّ قال ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ يقولُ: هذا الحديثُ عندي في الدعاءِ الذي يدعو به الإمامُ لِنَفْسِهِ وللمأمومين، ويشتركون فيه؛ كدعاءِ القنوتِ ونحوه»(٤).

ثمَّ إنَّه إذا كان الدعاءُ الذي دعا به في صلاتِهِ مِنْ أدعيةِ القرآنِ الكريم، فإنَّه يأتي به على الصيغةِ التي ورَدَتْ في القرآنِ الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فهذا دعاءٌ عظيمٌ يدعو به المسلمُ في صلاته، بل في كلِّ ركعةٍ مِنْ رَكَعاتِ الصلاة. ووجهُ الإتيانِ بصيغةِ ضميرِ الجمعِ في هذا الدعاءِ - **كما بيَّن ذلك ابنُ القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ - ليكون مطابقًا لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، «والإتيانُ بضميرِ الجمعِ في الموضعَيْنِ أحسنُ وأفْخَمُ؛ فإنَّ المقامَ مقامُ عبوديَّةٍ وافتقارٍ إلى الربِّ تعالى، وإقرارٍ بالفاقةِ إلى عبوديَّتِهِ واستعانتِهِ وهدايته، فأتى به بصيغةِ ضميرِ الجمع؛ **أي**: نحنُ معاشرَ عَبِيدِكَ مُقِرُّونَ لك بالعبوديَّة»(٥).

وأما القسمُ الثاني من أقسامِ الدعاءِ باعتبارِ المدعوِّ له، فهو: أن يَدْعُوَ المسلمُ لغيرِهِ بالهدايةِ أو المغفرةِ أو نحوِ ذلك؛ كقوله ﷺ في دعائِهِ

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٩٦).
(٢) رواه البخاري رقم (٧٤٤)، ومسلم رقم (٥٩٥).
(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٨٠)، وأبو داود رقم (٩٠)، والترمذي رقم (٣٥٧)، وابن ماجه رقم (٩٢٣)، وذكره الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» رقم (١٥).
(٤) «زاد المعاد» لابن القيم (١/ ٢٦٣ - ٢٦٤).
(٥) **انظر**: «بدائع الفوائد» (٢/ ٣٩).

لأنس بنِ مالك رضي الله عنه: (**اللَّهُمَّ، أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا رَزَقْتَهُ**)(١)، وكقوله ﷺ في دعائِهِ لمعاويةَ بنِ أبي سفيان رضي الله عنهما: (**اللَّهُمَّ، اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا، وَاهْدِهِ وَاهْدِ بِهِ**)(٢)، وهذه تُعَدُّ مَنْقَبَةً عظيمةً لهذا الصحابيِّ الجليل، الذي هو خالُ المؤمنين، وكاتبُ وَحْيِ ربِّ العالمين، وأَحَدُ خلفاءِ المسلمين، وأولُ ملوكهم، وخيرُ ملوكهم رضيَ اللهُ عنه وأرضاه. ومِنْ ذلك أيضًا: قولُ النبيِّ ﷺ في دعائِهِ له: (**اللَّهُمَّ، عَلِّمْ مُعَاوِيَةَ الكِتَابَ وَالحِسَابَ، وَقِهِ العَذَابَ**)(٣).

القسم الثالث: أنْ يَدْعُوَ لنفسِهِ ولغيرِهِ، فيبدأُ بالدعاءِ لنفسِهِ أولًا، ثمَّ يدعو لغيره؛ **لحديثِ أُبَيِّ بن كَعْب** رضي الله عنه: «أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا ذَكَرَ أحدًا فدعا له، بدَأَ بنفسِهِ»؛ رواه الترمذي(٤).

وفي القرآن الكريم مِنْ هذا النوعِ أمثلةٌ عديدةٌ؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقولِهِ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهذا يقولُهُ الداعي عندما يريدُ الدعاءَ لنفسِهِ ولغيره، وأمَّا إنْ أرادَ الدعاءَ لغيرِهِ فقطْ، فلا يلزمُهُ في هذه الحالةِ أن يَدْعُوَ لنفسه؛ كما ورَدَ مثلُ ذلكَ في كثيرٍ مِنْ أدعيةِ النبيِّ ﷺ كما تَقدَّمَ معنا في دعائِهِ ﷺ لأنسٍ، ودعائِهِ لمعاويةَ رضي الله عنهما.

القسم الرابع: أن يَدْعُوَ لنفسِهِ ولغيرِهِ بضميرِ الجمع؛ كما في دعاءِ القنوت، ودعاءِ الاستسقاء، ودعاءِ الخطيبِ يومَ الجُمُعة.

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٣٧٨)، ومسلم رقم (٢٤٨٠).
(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/٢١٦)، والترمذي رقم (٣٨٤٢)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/٢٩٢)، واللفظ له، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٩٦٩).
(٣) رواه أحمد في «المسند» (٤/١٢٧).
(٤) رواه مسلم رقم (٢٣٨٠)، وأبو داود رقم (٣٩٨٤)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٨٥)، واللفظ للترمذي.

ومن ذلك: ما رواه الترمذي، وغيرُهُ، عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: «قلَّما كان رسولُ اللهِ ﷺ يقومُ مِنْ مجلسٍ حتى يَدْعُوَ بهؤلاءِ الدَّعَواتِ لأصحابه: **(اللَّهُمَّ، اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ، مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَىٰ مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا)**»[1]، فهذه أقسامٌ أربعةٌ للدعاءِ باعتبارِ المدعوِّ له.

❁ **ويُستحبُّ للمسلم أن يَدْعُوَ لِمَنْ أحسَنَ إليه، ولا سيَّما قولُ: جزاكَ اللهُ خيرًا**؛ فإنَّها أَبْلَغُ ما يكونُ في الدعاء؛ لِما ثبَتَ في «المسند»، عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **(مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ بِهِ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ)**[2]، وفي «الترمذي»، عن أسامةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ)**[3]، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمين.

❁ ❁ ❁

---

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٠٢).

(٢) «المسند» (٢/ ٦٨، ٩٩)، و«سنن أبي داود» رقم (١٦٧٢)، و«سنن النسائي» رقم (٢٥٦٧)، و«الأدب المفرد» رقم (٢١٦)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٥٤).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٢٠٣٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٣٦٨).

١٠٥

خُطُورَةُ الدُّعَاءِ عَلَى النَّفْسِ أَوِ الْغَيْرِ

إنَّ مِنَ الأمورِ المهمَّةِ التي ينبغي أن يُرَاعِيَها المسلمُ في دعائِهِ أنْ يكونَ مُتبصِّرًا بما يدعو به، ويطلُبُهُ من ربِّه ﷻ، غيرَ مستَعْجِلٍ ولا مُتسرِّعٍ فيما يطلبُ ويسأل، بل ينبغي أن يَتدبَّرَ في أمورِهِ حَقَّ التدبُّر؛ لِيتحقَّقَ ما هوَ خيرٌ حقيقٌ بالدعاءِ به، وما هو شرٌّ جديرٌ بالاستعاذةِ منه؛ وذلك أنَّ كثيرًا مِنَ الناسِ عند غضبِهِ وتضجُّرِهِ وحصولِ الأمورِ المزعجةِ له قد يدعو على نفسِهِ أو وَلَدِهِ أو مالِهِ بما لا يَسُرُّهُ تحقُّقُهُ وحصولُه، وهذا ناشئٌ عن تسرُّعِ الإنسانِ وعجلتِهِ وعدم نظرِهِ في العواقب؛ يقول الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]؛ أي: يُسارِعُ إلى طلبِ ما يخطرُ ببالِهِ، متعاميًا عن ضررِهِ وسوءِ عواقبه، وإنَّما يَحْمِلُ الإنسانَ على ذلك عَجَلَتُهُ وقَلَقُهُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾.

وإنَّ مِنْ أبلغِ ما يكونُ خطرًا وأشدِّ ما يكونُ ضررًا في هذا المقام: الدعاءَ على النفس بالهلاكِ أو العذاب، أو دخولِ النار، أو الحرمانِ مِنْ دخولِ الجنة، أو نحو ذلك؛ وهذا لا يفعلُهُ إلَّا مَنْ بلَغَ الغايةَ في السَّفَهِ، والنهايةَ في الغَيِّ، كما حكى اللهُ ذلك عن الكُفَّارِ المُعْرِضِينَ عن دعوةِ الرُّسُلِ، المعارضين لدعوتهم؛ كقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، إلى غير ذلكَ مِمَّا حَكَى اللهُ عنهم، مما يَدُلُّ على تمامِ جهلهم، وعِظَمِ غَيِّهم وسَفَهِهم، وشدَّةِ إعراضِهِمْ وصدودهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]

يَحْتَمِلُ أنَّ المرادَ بالإنسانِ القائلِ هذه المقالةَ هو الكافرُ؛ **أي**: يدعو على نفسه بالشرِّ والهلاكِ واستعجالِ العقوبة والعذابِ دعاءَهُ بالخير، كما تَقدَّمتِ الأمثلةُ على ذلك.

ويَحْتمِلُ أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا الجِنْسُ؛ لوقوعِ هذا الدعاءِ من بعضِ أفرادِهِ، وهو دعاءُ الرجلِ على نفسِهِ وولدِهِ عندَ الضجرِ والغضبِ بما لا يُحِبُّ أن يُستجابَ له فيه(١).

قال ابن كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ **في معنى الآية**: «يُخبِرُ تعالى عن عَجَلَةِ الإنسانِ ودعائِهِ في بعضِ الأحيانِ على نفسِهِ أو ولدِهِ أو مالِهِ بالشرِّ؛ **أي**: بالموتِ أو الهلاكِ، أو الدَّمَارِ أو اللعنةِ، أو نحوِ ذلك، فلو استجابَ له ربُّه، لَهَلَكَ بدعائه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]. . .»(٢).

وقد جاء في هذا المعنى آثارٌ عديدةٌ عن السلف؛ منها ما جاء **عن ابن عبَّاس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال**: «قولُهُ: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]؛ **يعني قولَ الإنسانِ**: اللَّهُمَّ، الْعَنْهُ واغضَبْ عليه. فلو يُعَجِّلُ له ذلك كما يُعجِّلُ له الخيرَ، لَهَلَكَ».

وقال قَتَادة رَحِمَهُ اللَّهُ **في معنى الآية**: «**أي**: يدعو على مالِهِ، فَيَلْعَنُ مالَهُ وولدَهُ، ولو استجابَ اللهُ له لأَهْلَكَهُ».

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذلك دعاءُ الإنسانِ بالشَّرِّ على ولدِهِ وعلى امرأتِهِ، فيَعْجَلُ فيدعو عليه، ولا يُحِبُّ أن يُصِيبَه»؛ أخرَجَ هذه الآثارَ ابنُ جرير في «تفسيره»(٣).

وأخرَجَ ابنُ أبي حاتمٍ، **عن الحَسَنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ، **قال**: «ذلكَ دعاءُ الإنسانِ بالشرِّ على ولدِهِ وعلى امرأتِهِ، يغضبُ أحدُهُمْ فيدعو عليه، فيَسُبُّ نفسَهُ ويَسُبُّ

---

(١) **انظر**: «فتح القدير» للشوكاني (٣/ ٢١١).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٤٥ ـ ٤٦). (٣) «جامع البيان» (٩/ ٤٧ ـ ٤٨).

زوجتَهُ ومالَهُ وولدَهُ، فإنْ أعطاه اللهُ ذلك، شَقَّ عليه، فيمنعُهُ ذلك، ثمَّ يدعو بالخيرِ فيعطيه»(١).

ومِنْ رحمةِ اللهِ بعباده: أنَّه لا يستجيبُ لهم في دعائهم بالشَّرِّ حالَ غَضَبِهِمْ وضَجَرِهم كاستجابتِهِ لهم في دعائهم بالخير؛ رحمةً منه وإحسانًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «يُخبِرُ تعالى عن حِلْمِهِ ولُطْفِهِ بعبادِهِ أنَّه لا يستجيبُ لهم إذا دَعَوْا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضَجَرِهِمْ وغَضَبهم، وأنَّه يعلمُ منهم عَدَمَ القصدِ إلى إرادةِ ذلك؛ فلهذا لا يستجيبُ لهم ـ والحالةُ هذه ـ لطفًا ورحمةً، كما يستجيبُ لهم إذا دَعَوْا لأنفسهم أو أموالهم وأولادهم بالخيرِ والبركةِ والنَّماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾؛ **أي**: لو استجابَ لهم كلَّما دَعَوْهُ به في ذلكَ، لَأَهْلَكهم، ولكنْ لا ينبغي الإكثارُ مِنْ ذلك»(٢).

۞ **فالواجبُ على المسلمِ**: أنْ يَحْذَرَ تمامَ الحَذَرِ ـ ولا سيَّما حالَ غضبِهِ وتضجُّره ـ من أنْ يدعو على نفسِهِ أو مالِهِ أو ولدِهِ باللعنةِ أو العذابِ أو النار، أو نحوِ ذلك مما لا يَسُرُّهُ تحقُّقُه؛ وذلك أنَّ مقصودَ الدعاءِ جَلْبُ النفعِ، ودفعُ الضُّرِّ، وأما الدعاءُ على النفسِ أو المالِ أو الولد، فليس فيه أيُّ منفعةٍ، بل هو ضررٌ محضٌ، ووبالٌ وهلاكٌ.

روى مسلم في «صحيحه»، عن عُبادةَ بن الصامتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، في حديثٍ طويلٍ، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «سِرْنَا مع رسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوةِ بَطْنِ بُوَاطٍ، وهو يطلُبُ المَجْدِيَّ بنَ عَمْرٍو الجُهنيَّ، وكان الناضحُ [**وهو: البعيرُ الذي يُستقى عليه**] يَعْقُبُهُ منَّا الخمسةُ والستةُ والسبعةُ، فدارَتْ عُقْبةُ رجلٍ مِنَ الأنصارِ على ناضحٍ له [**أي: جاءتْ نوبتُهُ في الركوب**]، فأناخَهُ فَرَكِبَهُ،

---

(١) **انظر**: «الدر المنثور» (٥/٢٤٦). (٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٨٨).

ثُمَّ بَعَثَهُ، فَتَلَدَّنَ عليه بعضَ التلدُّنِ [أي: **تلكَّأ وتوقَّف**]، فقال له: شَأْ لَعَنَكَ اللهُ، فقال رسولُ الله ﷺ: (**مَنْ هَذَا اللَّاعِنُ بَعِيرَهُ؟!**)، قال: أنا يا رسول اللهِ، قال: (**انْزِلْ عَنْهُ، فَلَا تَصْحَبْنَا بِمَلْعُونٍ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءً فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ**)»(١).

وفي هذا الحديثِ دَلَالةٌ على أنَّ ذلكَ قد يُستجابُ؛ لقوله ﷺ: (**لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءً فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ**)، وثبَتَ في الحديث عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: (**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ**)(٢).

۞ **ولهذا ينبغي على المسلمِ**: أن يُعَوِّدَ نفسَهُ الدعاءَ لنفسِهِ وولدِهِ ومالِهِ بالخيرِ والنماءِ، والبركةِ والصلاحِ، ونحوِ ذلك، وأن يَمْلِكَ نفسَهُ ـ ولا سيَّما عندَ غضبه ـ من أن يَدْعُوَ على نفسِهِ أو ولدِهِ أو مالِهِ بالهلاك، أو الشرِّ أو الفساد، فقد يُستجابُ له في ذلك، فيندَمُ ويَتحسَّرُ، مع أنَّه هو الذي دعا بذلك وطلبَهُ. وإنَّا لنرجو اللهَ أن يهدينا جميعًا سواء السبيل، وأن يُوَفِّقَنا لكلِّ خيرٍ يُحِبُّهُ ويرضاه في الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

(١) «صحيح مسلم» رقم (٣٠٠٤).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢٨٣).

١٠٦

التَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ بَيْـنَ يَدَيِ الدُّعَاءِ

سَبَقَتِ الإشارةُ إلى أنَّ مِنْ آدابِ الدعاءِ العظيمةِ: أن يُقدِّمَ الداعي بين يدي دعائِهِ التوبةَ إلى الله ﷻ مِنْ كلِّ ذنبٍ وخطيئةٍ؛ فإنَّ تَراكُمَ الذنوبِ واجتماعَهَا قد يكونُ سببًا مِنْ أسبابِ عدمِ إجابةِ الدعاء، كما أنَّ التوبةَ والإقبالَ على اللهِ والصدقَ معه سببٌ مِنْ أسبابِ القَبُولِ والإجابة؛ **ولهذا قال يحيى بنُ مُعَاذٍ الرازيُّ** رَحِمَهُ اللهُ: «لا تستبطئِ الإجابةَ إذا دَعَوْتَ، وقد سَدَدتَّ طُرُقَهَا بالذنوب»[١].

فالذنوبُ لها عواقبُ وخيمةٌ، ونتائجُ أليمةٌ في الدنيا والآخرة، فهي تُزيلُ النِّعَم، وتُحِلُّ النِّقَم، فما زالتْ عن العبدِ نعمةٌ إلَّا بذنب، ولا حَلَّتْ به نقمةٌ إلَّا بذنب؛ **كما قال عليُّ بنُ أبي طالب** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما نزَلَ بلاءٌ إلَّا بذنب، ولا رُفِعَ إلَّا بتوبة»[٢]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فأخبرَ سبحانه أنَّه لا يُغيِّرُ نِعَمَهُ التي أنعَمَ بها على أحدٍ حتى يكونَ هو الذي يُغَيِّرُ ما بنفسه، فيُغيِّرُ طاعةَ اللهِ بمعصيتِهِ، وشُكْرَهُ بِكُفْره، وأسبابَ رضاهُ بأسبابِ سَخَطِه، فإذا غَيَّرَ غُيِّرَ عليه، جزاءً وفاقًا.

ثمَّ إنَّ الذنوبَ سببٌ لهوانِ العبد على ربِّه، وإذا هانَ العبدُ على اللهِ، لَم يُكْرِمْهُ أحدٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، وأكرمُ الخلقِ عندَ اللهِ أتقاهم له، وأقربُهم منه منزلةً أَطْوَعُهم له، وعلى قَدْرِ

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٥٤).
(٢) ذكره ابن القيِّم في «الجواب الكافي» (ص٨٥).

طاعةِ العبدِ تكونُ منزلتُهُ عنده، فإذا عصاه هان عنده، وأوجَبَ ذلك القطيعةَ بينَ العبد وبينَ مولاه، وإذا وقَعَتِ القطيعةُ انقطَعَتْ عن العبدِ أسبابُ الخير، واتصَلَتْ به أسبابُ الشَّرِّ، فأيُّ فلاح، وأيُّ رجاء، وأيُّ عيشٍ لِمَنِ انقطَعَتْ عنه أسبابُ الخير، وقُطِعَ ما بينه وبين وَليِّهِ ومولاهُ الذي لا غِنَىٰ له عنه طَرْفةَ عَيْن، ولا أقلَّ مِنْ ذلك.

ثُمَّ إنَّ الذنوبَ تستدعي نسيانَ اللهِ لعبدِهِ وتَرْكَهُ وتخليتَهُ بينه وبين نفسِهِ وشيطانِهِ، وهناكَ الهلاكُ الذي لا يُرْجَى معه نجاة؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر]، فأمَرَ سبحانَهُ بتقواه، ونهى أن يَتشبَّهَ عبادُهُ المؤمنونَ بمَنْ نَسِيَهُ بتركِ تقواه، وأخبَرَ أنَّه عاقَبَ مَنْ ترَكَ التقوى بأنْ أنساه نفسَهُ؛ **أي**: أنساه مَصَالِحَهَا وما يُنْجِيها مِنْ عذابه، فترى العاصِيَ مُهْمِلًا مصالحَ نفسه، مضيِّعًا لها، قد انفرَطَتْ عليه مصالحُ دينِهِ ودنياه، بل إنَّ أمورَهُ تَتعسَّرُ عليه، فلا يَتوجَّهُ لأمرٍ إلَّا يجدُهُ مُغْلَقًا دونَهُ أو متعسِّرًا عليه، وهذا كما أنَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ جعَلَ له مِنْ أمرِهِ يُسْرًا، فمَن عطَّلَ التقوى جعَلَ له مِنْ أمرِهِ عُسْرًا، فالخيرُ والراحةُ، والسعادةُ والطمأنينةُ في الطاعةِ، والشرُّ والشقاوةُ والتعسيرُ في المعصية.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ للحسنةِ ضَيَاءً في الوجه، ونُورًا في القلبِ، وسَعَةً في الرِّزْقِ، وقوةً في البَدَن، ومحبَّةً في قلوبِ الخَلْقِ، وإنَّ للسيِّئةِ سوادًا في الوجه، وظُلْمةً في القَلْب، ووَهَنًا في البَدَن، ونقصًا في الرِّزْق، وبُغْضَةً في قلوبِ الخَلْق»(١).

وعلى كلٍّ فالذنوبُ تُحدِثُ للعبدِ أضرارًا كثيرةً في قلبِهِ وبدنِهِ ومالِهِ وحياتِهِ كلِّها، فليسَ في الدنيا شَرٌّ وداءٌ إلَّا سَبَبُهُ الذنوبُ والمعاصي، ولها من الآثارِ القبيحة، والنتائجِ المذمومةِ والمضرَّةِ بالقلبِ والبدنِ في الدنيا والآخرة

(١) ذكره ابن القيِّم في «الجواب الكافي» (ص٦٢).

ما لا يعلمُهُ إلَّا اللهُ[(١)].

۞ **ولهذا، فإنَّ الواجبَ على كلِّ مسلم**: أنْ يَحْذَرَ أشدَّ الحَذَرَ مِنَ الذنوبِ والمعاصي، وأنْ يتوبَ إلى اللهِ ﷿ مِنْ كلِّ ذنبٍ وخطيئة، وأنْ ينيبَ إلى ربِّه ومولاهُ لينالَ السعادةَ والطمأنينةَ، ولِيتحقَّقَ له الفلاحُ في الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فلا سبيلَ إلى الفلاحِ إلَّا بالتوبة، وهي الرجوعُ ممَّا يَكْرَهُهُ اللهُ ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبُّهُ ظاهرًا وباطنًا؛ ولهذا فإنَّ التوبةَ واجبةٌ ومتعيِّنةٌ على كلِّ مسلم ومسلمة، والأدلةُ على وجوبها متظاهرةٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ سلفِ الأمة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

وروى مسلم في «صحيحه»، عن الأغرِّ بن يَسَارٍ المُزَنيِّ ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**يا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي اليَوْمِ إليه مِائَةَ مَرَّةٍ**)[(٢)].

قال النوويُّ ﵀ **في كتابه العظيم «رياض الصالحين»**: «قال العلماءُ: التوبةُ واجبةٌ مِنْ كلِّ ذنبٍ، فإنْ كانتِ المعصيةُ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالى لا تتعلَّقُ بحقِّ آدميٍّ، **فلها ثلاثةُ شروط**: **أحدها**: أن يُقْلِعَ عن المعصية، **والثاني**: أن يَنْدَمَ على فِعْلِها، **والثالث**: أن يَعْزِمَ أن لَا يعودَ إليها أبدًا، فإن فُقِدَ أحدُ الثلاثة، لَمْ تصحَّ توبتُهُ.

وإنْ كانتِ المعصيةُ تَتعلَّقُ بآدميٍّ، **فشروطُها أربعةٌ**: هذه الثلاثةُ، وأن يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صاحبها: فإنْ كانتْ مالًا أو نحوَهُ، ردَّهُ إليه، وإنْ كان حَدَّ قذفٍ ونحوَهُ، مَكَّنَهُ منه، أو طلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كانتْ غِيبَةً، استَحَلَّهُ منها. ويجبُ أن يتوبَ

(١) **انظر**: «الجواب الكافي» لابن القيم (ص٤٦ ـ ١٠٥).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٢).

من جميعِ الذنوب، فإنْ تابَ مِنْ بعضِها، صَحَّتْ توبتُهُ عندَ أهلِ الحقِّ مِنْ ذلك الذنب، وبَقِيَ عليه الباقي، وقد تظاهَرَتْ دلائلُ الكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأمةِ على وجوبِ التوبة»[١]، ثمَّ ساق رَحِمَهُ اللهُ جملةً مِنْ أدلَّةِ الكتـابِ والسُّنَّـةِ الدَّالَّةِ على ذلك.

۞ **فحريٌّ بالمسلم**: أنْ يكونَ تائبًا إلى ربِّه، منيبًا إليه؛ فَتَرْتَفِعَ درجاتُهُ، وتُقالَ عَثَرَاتُه، وتُقبَلَ دَعَوَاتُه، وتَعْلُو منزلتُهُ عندَ ربِّه، وإنَّا لنرجو اللهَ أن يكتبَ لنا توبةً نصوحًا، وأن يُوَفِّقَنَا لكلِّ خيرٍ يُحِبُّهُ ويرضاه.

❊ ❊ ❊

(١) «رياض الصالحين» (ص٧).

١٠٧

الْمُبَادَرَةُ إِلَى التَّوْبَةِ، وَالنُّصْحُ فِيهَا

تَقدَّمَ الحديثُ عن التوبةِ إلى الله ﷻ وأهميَّتِها، وشِدَّةِ حاجةِ العبدِ إليها لِيتحقَّقَ فَلَاحُهُ، وليظفرَ بسعادةِ الدنيا والآخرة، **وحقيقةُ التوبةِ**: الرجوعُ إلى اللهِ بالتزامِ ما يُحِبُّ، وتَرْكِ ما يكره، فهي رجوعٌ مِنْ مكروهٍ إلى محبوبٍ، **فهي تتضمَّنُ أمرَيْنِ**: تركٌ للذنوب، ونَدَمٌ على فعلها، وعزمٌ على عدمِ العودةِ إليها، وإقبالٌ على الطاعةِ، والتزامٌ بها، وعزمٌ على الاستقامةِ عليها. ولهذا عَلَّقَ اللهُ سبحانه الفلاحَ المُطْلَقَ على فعلِ ذلكَ بقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فكلُّ تائبٍ مفلحٌ، ولا يكونُ مفلحًا إلَّا إذا أتى بالأمرَيْنِ معًا، فإن أَخلَّ بذلكَ بأنِ ارتكَبَ المحظور، أو ترَكَ المأمور، نقَصَ حظُّهُ ونصيبُهُ من الفلاحِ بِحَسَبِ ذلك، وكان بتركِهِ للمأمور وفعلِهِ للمحظورِ ظالمًا لنفسِهِ بِحَسَبِ ذلك، واللهُ يقولُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، فتاركُ المأمورِ ظالمٌ لنفسِهِ، كما أنَّ فاعلَ المحظورِ ظالمٌ لها، وزوالُ اسمِ الظلمِ عنه إنَّما يكونُ بالتوبةِ الجامعةِ للأمرَيْنِ.

ولهذا، فإنَّ التوبةَ جامعةٌ لشرائعِ الإسلام، وحقائقِ الإيمانِ، والدِّينُ كلُّهُ داخلٌ في مسمَّاها، وبهذا استَحَقَّ التائبُ أن يكونَ حَبِيبَ الله؛ فإنَّ اللهَ يُحِبُّ التوَّابين، ويُحِبُّ المتطهِّرين(١)، بل لقد ثبَتَ في الحديث، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِه بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ ـ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ ـ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ،**

---

(١) **انظر**: «مدارج السالكين» لابن القيِّم (١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٧).

أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ)، رواه مسلم في «صحيحه»، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه[(١)].

❁ **ولا ينبغي للمسلم**: أن يُؤَخِّرَ التوبةَ ويُؤَجِّلَها ويُسَوِّفَ فيها، بل الواجبُ المبادرةُ والمسارعةُ؛ فإنَّ المرءَ لا يدري ما يَعْرِضُ له في هذه الحياة، ولا يزالُ بابُ التوبةِ مفتوحًا للعبدِ ما لَمْ يُغَرْغِرْ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨]، وفي الحديثِ الذي رواه الإمامُ أحمدُ عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما يقولُ رسولُ الله ﷺ: **(إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ)**[(٢)]؛ **أي**: ما لَمْ تبلغْ رُوحُهُ حُلْقُومَهُ.

وكذلك لا يقبلُ اللهُ توبةَ العبدِ إذا طَلَعَتِ الشمسُ مِنْ مغربها؛ ففي «المسند» للإمام أحمد، و«سنن أبي داود»، عن معاويةَ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)**[(٣)].

وروى الطبرانيُّ عن صَفْوانَ بن عَسَّالٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: **(إِنَّ لِلتَّوْبَةِ بَابًا عَرْضُ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْهِ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)**[(٤)].

ولهذا، فإنَّ الواجبَ على الإنسانِ أن يُبادِرَ إلى التوبةِ قبلَ فواتِ أوانها، وقبلَ أن يُحَالَ بينه وبينها، ولا يجوزُ له تأخيرُها في أيِّ حالٍ مِنَ الأحوال، بل إنَّ تأخيرها يُعَدُّ معصيةً ينبغي أن يُتابَ منها.

قال العلَّامةُ ابنُ القيِّم رحمه الله: «إنَّ المبادرةَ إلى التوبةِ مِنَ الذَّنبِ فرضٌ على الفَوْر، ولا يجوزُ تأخيرُها، فمتى أَخَّرَها عصى اللهَ بالتأخيرِ، فإذا تابَ مِنَ الذنبِ،

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٤٧).

(٢) «المسند» (٢/ ١٣٢، ١٥٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٣٧)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٤٢٥٣).

(٣) «المسند» (٤/ ٩٩)، و«سنن أبي داود» رقم (٢٤٧٩).

(٤) «المعجم الكبير» (٨/ ٦٥) رقم (٧٣٨٣)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢١٧٧).

بَقِيَ عليه توبةٌ أخرى، وهي توبتُهُ مِنْ تأخير التوبةِ، وقَلَّ أنْ تَخْطُرَ هذه ببالِ التائبِ، بل عندَهُ أنَّه إذا تابَ مِنَ الذنبِ، لَمْ يَبْقَ عليه شيءٌ آخرُ، وقد بقيَ عليه التوبةُ من تأخيرِ التوبةِ، ولا يُنْجِي مِنْ هذا إلَّا توبةٌ عامَّة، مِمَّا يَعْلَمُ من ذنوبِهِ ومِمَّا لا يَعْلَم، فإنَّ ما لا يَعْلَمُهُ العبدُ مِنْ ذنوبِهِ أكثرُ مِمَّا يعلمه، ولا ينفعُهُ في عدمِ المؤاخذةِ بها جهلُهُ إذا كان مُتمكِّنًا من العلمِ؛ فإنَّه عاصٍ بتركِ العلمِ والعملِ، فالمعصيةُ في حقِّه أشدُّ، وفي «المسند» للإمام أحمد، و«الأدب المفرد» للبخاريِّ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (**الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**)، فقال أبو بكر: فكيفَ الخلاصُ منه يا رسولَ اللهِ؟ قال: (**أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ**)[(١)]، فهذا طلبُ الاستغفارِ مِمَّا يعلمُهُ اللهُ أنَّه ذنبٌ، ولا يَعْلَمُهُ العبدُ.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «أنَّه كان يدعو في صلاته: (**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**)»[(٢)].

وفي الحديثِ الآخرِ: (**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، خَطَأَهُ وَعَمْدَهُ، سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**)[(٣)].

فهذا التعميمُ وهذا الشمولُ؛ لتأتِيَ التوبةُ على ما عَلِمَهُ العبدُ مِنْ ذنوبِهِ وما لَمْ يَعْلَمْه»[(٤)]. اهـ.

ولا ريبَ أنَّ هذا مِنَ النُّصْحِ في التوبةِ المأمورِ به في قولِ الله تعالى:

---

(١) «المسند» (٤/٤٠٣)، و«الأدب المفرد» رقم (٧١٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٥٥١).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٩٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧١٩).

(٣) تقدم تخريجه (ص٣٨٣)، وليس فيه: «خطأه وعمده».

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٢ _ ٢٧٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨]، **وقد بيَّن ابنُ القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ **أنَّ النصحَ في التوبةِ يَتضمَّنُ ثلاثةَ أشياء:**

الأول: تعميمُ جميعِ الذنوب واستغراقُها بها؛ بحيثُ لا تَدَعُ ذنبًا إلَّا تَناوَلَتْهُ.

والثاني: إجماعُ العزمِ والصدقِ بكليَّتِهِ عليها؛ بحيثُ لا يبقى عنده تَرَدُّدٌ ولا تَلَوُّمٌ ولا انتظارٌ، بل يجمعُ عليها كلَّ إرادتِهِ وعزيمتِهِ مبادرًا بها.

الثالث: تَخْلِيصُها مِنَ الشوائبِ والعِلَلِ القادحةِ في إخلاصها، ووقوعُها لمحضِ الخوفِ مِنَ اللهِ وخشيتِه، والرغبةِ فيما لديه، والرهبةِ ممَّا عنده، لا كَمَنْ يتوبُ لِحِفْظِ جاهِهِ وحُرْمَتِهِ ومَنْصِبِهِ ورياستِه، ولحفظِ حالِهِ، أو لحفظِ قُوَّتِهِ وماله، أو استدعاءِ حَمْدِ الناس، أو الهَرَبِ مِنْ ذمِّهم، أو لئلَّا يَتسلَّطَ عليه السفهاء، أو لقضاءِ نَهْمَتَهُ مِنَ الدنيا، أو لإفلاسِهِ وعَجْزِه، ونحوِ ذلك مِنَ العِلَلِ التي تقدحُ في صِحَّتها وخُلُوصِها لله عَزَّوَجَلَّ.

فالأوَّل: يتعلَّقُ بما يتوبُ منه، والثالثُ: يَتعلَّقُ بمَنْ يتوبُ إليه، والأوسطُ: يَتعلَّقُ بذاتِ التائبِ ونفسِهِ(١).

وبهذه الأمورِ الثلاثةِ يكونُ العبدُ قد أتى بأكملِ ما يكونُ مِنَ التوبةِ، والتوفيقُ بيدِ اللهِ وحده. فنسألُهُ أن يَمُنَّ علينا بالتوبةِ النصوح، وأنْ يَهْدِيَنا سواءَ السبيل.

❁ ❁ ❁

(١) **انظر:** «مدارج السالكين» (١/ ٣١٠).

١٠٨

قَرْنُ التَّوْبَةِ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَقَرْنُ الِاسْتِغْفَارِ بِالتَّوْحِيدِ

لقد كان حديثُنا السابقُ عن التوبةِ وبيانِ فضلِها، وعِظَمِ شأنِها، وشِدَّةِ احتياجِ العبدِ إليها، وعن بعضِ الأحكامِ المتعلِّقةِ بها، وكثيرًا ما تأتي التوبةُ في النصوصِ مقرونةً بالاستغفار؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]، وقولِ هُودٍ لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]، وقولِ صالحٍ لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، وقولِ شُعَيْبٍ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وفي هذا دَلَالةٌ على عِظَمِ التلازُمِ بينَ الاستغفارِ والتوبة، وشِدَّةِ احتياجِ العبدِ إليهما؛ للوقايةِ مِنْ شرورِ الذنوبِ وغوائلها، **والذنوبُ نوعان:**

«ذنبٌ قد مَضَى، فالاستغفارُ منه: طَلَبُ وقايةِ شَرِّه، وذنبٌ يُخافُ وقوعُهُ، فالتوبة: العزمُ على أن لَا يَفْعَلَه، والرجوعُ إلى اللهِ يتناولُ النوعَيْنِ، رجوعٌ إليه لِيَقِيَهُ شَرَّ ما مضى، ورجوعٌ إليه لِيَقِيَهُ شَرَّ ما يستقبلُ من نفسِهِ وسيِّئاتِ أعماله.

وأيضًا، فإنَّ المُذْنِبَ بمنزلةِ مَنْ رَكِبَ طريقًا تؤدِّيه إلى هَلَاكِهِ، ولا تُوصِلُهُ إلى المقصود، فهو مأمورٌ أنْ يولِّيها ظَهْرَهُ، ويرجعَ إلى الطريقِ التي فيها نجاتُهُ، والتي تُوصِلُهُ إلى مقصوده، وفيها فلاحُهُ، **فههنا أمرانِ لا بدَّ منهما**: مفارقةُ شيءٍ، والرجوعُ إلى غيره، فخُصَّتِ التوبةُ بالرجوعِ، والاستغفارُ بالمفارقةِ...»(١).

(١) «مدارج السالكين» لابن القيِّم (١/٣٠٨).

أمَّا إذا أُفرِدَتِ التوبةُ بالذِّكرِ أو أُفرِدَ الاستغفارُ، فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما يَتَناوَلُ معنى الآخر.

والاستغفارُ له شأنٌ عظيمٌ، ومكانةٌ عاليةٌ؛ فهو - كما بيَّن شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ - «يُخرِجُ العبدَ مِنَ الفِعْلِ المكروهِ إلى الفِعْلِ المحبوبِ، ومِنَ العملِ الناقصِ إلى العملِ التامِّ، ويرفعُ العبدَ مِنَ المقامِ الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل؛ فإنَّ العابدَ لله، والعارفَ باللهِ، في كلِّ يوم، بل في كلِّ ساعة، بل في كلِّ لحظةٍ: يزدادُ علمًا باللهِ، وبصيرةً في دينِهِ وعبوديَّتِهِ، بحيثُ يجدُ ذلكَ في طعامِهِ وشرابِهِ، ونومِهِ ويَقَظَتِهِ، وقولِهِ وفِعْلِه، ويرى تقصيرَهُ في حضورِ قَلْبِهِ في المقاماتِ العالية وإعطائِهَا حقَّها، فهو يحتاجُ إلى الاستغفارِ آناءَ الليلِ، وأطرافَ النهار، بل هو مُضْطَرٌّ إليه دائمًا في الأقوالِ والأحوال، في الغوائبِ والمَشاهِد؛ لِمَا فيه مِنَ المصالحِ، وجَلْبِ الخيرات، ودَفْعِ المَضَرَّات، وطَلَبِ الزيادةِ في القوَّةِ في الأعمالِ القلبية والبدنية، اليقينية الإيمانية»[(١)].

وممَّا يُبيِّنُ عِظَمَ شأنِ الاستغفار، ورفيعَ مكانتِهِ: أنَّه كثيرًا ما يأتي في النصوصِ مقرونًا مَعَ كلمةِ التوحيدِ: **لا إلـه إلَّا الله**، التي هي خيرُ الكلماتِ وأفضلُها وأجلُّها على الإطلاقِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقولِهِ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود]، وقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وقولِهِ: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٠ - ٥٢]، وكقولِهِ ﷺ في كفَّارة المَجْلِسِ: **(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)**[(٢)]، وكقوله ﷺ عَقِبَ الانتهاءِ من الوضوء: **(أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،**

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٦٩٦).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٧٩) وهو مخرج بهذا اللفظ أيضًا في «سنن أبي داود» رقم (٤٨٥٧).

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ)[(١)]، وكقوله ﷺ في دعائِهِ الذي كان يختمُ به الصلاةَ: **(اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ)**[(٢)]، والنصوصُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ثبتَتْ دائرةُ الاستغفارِ بينَ أهلِ التوحيد، واقترانُهَا بشهادةِ أنْ لا إلـه إلَّا الله، مِنْ أَوَّلِهِمْ إلى آخِرِهم، ومن آخِرِهِمْ إلى أَوَّلِهم، ومِنَ الأعلى إلى الأدنى، وشمولُ دائرةِ التوحيدِ والاستغفارِ للخَلْقِ كلِّهم، وهم فيها درجاتٌ عندَ اللهِ، ولكلِّ عاملٍ مَقَامٌ معلوم، فشهادةُ أنْ لا إلـهَ إلَّا اللهُ بصِدْقٍ ويقينٍ تُذْهِبُ الشركَ كلَّه، دِقَّهُ وجِلَّهُ، خَطَأَهُ وعَمْدَه، أَوَّلَهُ وآخِرَهُ، سِرَّهُ وعلانِيَتَهُ، وتأتي على جميعِ صفاتِهِ وخفاياهُ ودقائِقِهِ، والاستغفارُ يمحو ما بَقِيَ مِنْ عَثَرَاتِهِ، ويَمْحُو الذنبَ الذي هو مِنْ شُعَبِ الشِّرْك؛ فإنَّ الذنوبَ كلَّها مِنْ شُعَب الشِّرْك، فالتوحيدُ يُذْهِبُ أصلَ الشرك، والاستغفارُ يمحو فُرُوعَهُ، فأبلغُ الثناءِ قولُ: لا إلـهَ إلَّا اللهُ، وأبلغُ الدعاءِ قولُ: أستغفرُ الله»[(٣)].

وقد جمَعَ النبيُّ ﷺ بينَ التوحيدِ والاستغفارِ، في حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، المخرَّجِ في «جامع الترمذي» يقولُ ﷺ: **(قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)**[(٤)].

---

(١) «جامع الترمذي» رقم (٥٥)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (١/ ١٣٤).
(٢) تقدم تخريجه (ص٣٨٢).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٩٦ ـ ٦٩٧).
(٤) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٤)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٤٠)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٢٧).

وهو حديثٌ عظيمٌ جامعٌ لأهمِّ وأعظمِ أسبابِ مغفرةِ الذنوب، **حيثُ تَضمَّنَ الحديثُ ثلاثةَ أسبابٍ عظيمةٍ يَحْصُلُ بها مغفرةُ الذنوب:**

أحدها: دعاءُ اللهِ مع رَجَائِهِ، فمِنْ أعظم أسبابِ المغفرةِ: أنَّ العبدَ إذا أَذْنَبَ ذنبًا، لَمْ يَرْجُ مغفرتَهُ مِنْ غيرِ ربِّه، ويعلمُ أنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلَّا اللهُ.

الثاني: الاستغفارُ؛ فإنَّ الذنوبَ ولو عَظُمَتْ وبَلَغَتْ مِنَ الكَثْرةِ عَنَانَ السماء، فإنَّ اللهَ يَغْفِرُها إذا طَلَبَ العبدُ مِنْ ربِّه المغفرةَ.

الثالث: التوحيدُ؛ وهو السببُ الأعظمُ للمغفرة، فمَنْ فَقَدَهُ فَقَدَ المغفرةَ، ومَنْ جاءَ به، فقَدْ أتى بأعظم أسبابِ المغفرة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، فمَنْ جاءَ يوم القيامةِ مُوحِّدًا، فقد أتى بأعظمِ أسبابِ المغفرةِ[١].

فهذه أبوابُ الخيرِ مفتَّحة، ومداخلُهُ مُشْرَعَةٌ، ومناراتُهُ ظاهرةٌ، فنسألُهُ سبحانه الهدايةَ إليها، والتوفيقَ لتحقيقها.

❁ ❁ ❁

---

(١) **انظر**: «جامع العلوم والحِكَم» لابن رجب (ص٣٦٧ ـ ٣٧٥).

١٠٩

مَكَانَةُ الِاسْتِغْفَارِ وَحَالُ الْمُسْتَغْفِرِينَ

إنَّ للاستغفارِ مكانةً في الدِّينِ عظيمة، وللمستغفرينَ عندَ اللهِ أُجُورًا كريمة، وثمارُ الاستغفارِ ونتائجُهُ الحميدةُ في الدنيا والآخرة لا يُحْصِيهَا إلَّا اللهُ، ولهذا كَثُرَتِ النصوصُ القرآنيَّة، والأحاديثُ النبويَّةُ المرشدةُ إلى الاستغفارِ، والحَاثَّةُ عليه، والمُبيِّنَةُ لفضلِهِ وعظيمِ أَجْرِه.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، ويقولُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ويقولُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ويقولُ تعالى عن نُوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ، وهي دالَّةٌ على عظيمِ شأنِ الاستغفار، وتَنوُّعِ فوائِدِهِ وثَمَراته.

جاء في الأثرِ عن الحَسَنِ البصريِّ رحمه الله: «أنَّ رجلًا شَكَا إليه الجَدْبَ، فقال: اسْتَغْفِرِ اللهَ، وشَكَا إليه آخرُ الفقرَ، فقال: اسْتَغْفِرِ اللهَ، وشَكَا إليه آخرُ جفافَ بُسْتَانه، فقال: استغْفِرِ اللهَ، وشَكَا إليه آخرُ عدمَ الوَلَدِ، فقال: اسْتَغْفِرِ اللهَ، ثمَّ تلا عليهم قولَ اللهِ تعالى عن نُوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾»(١)، «**أي**: إذا تُبْتُمْ إلى اللهِ واستغفرتموه وأطعتموه، كَثُرَ الرزقُ عليكم،

(١) ذكره الحافظ في «الفتح» (١١/ ٩٨).

وأسقاكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ السماء، وأنبتَ لكُمْ مِنْ بَرَكاتِ الأرض، وأنبتَ لكم الزَّرْعَ، وأَدَرَّ لكم الضَّرْعَ، وأَمَدَّكم بأموالٍ وبنينَ؛ أي: أعطاكُمْ الأموالَ والأولادَ، وجعَلَ لكمْ جَنَّاتٍ فيها أنواعُ الثِّمار، وخلَّلها بالأنهارِ الجاريةِ بينها»[١]. وفي هذا دَلَالةٌ على عِظَمِ فوائدِ الاستغفار، وكثرةِ خَيْراته، وتعدُّدِ ثمراته.

وهذه الثمراتُ المذكورةُ هنا هي مِمَّا ينالُهُ العبدُ في دنياه مِنَ الخَيْراتِ العميمة، والعطايا الكريمة، والثمراتِ المتنوِّعة، وأمَّا ما ينالُهُ المستغفرونَ يومَ القيامةِ مِنَ الثوابِ الجزيلِ، والأجرِ العظيمِ، والرحمةِ والمغفرةِ، والعِتْقِ من النار، والسلامةِ مِنَ العذاب، فأمرٌ لا يُحْصِيهِ إلَّا اللهُ تعالى.

روى ابن ماجه في «سننه»، عن عبد الله بن بُسْرٍ ﷺ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(طُوبَىٰ لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا)**؛ وسندُهُ صحيح[٢].

وروى الطبرانيُّ في «الأوسط»، والضِّيَاءُ المَقْدِسِيُّ في «الأحاديث المختارة»، عن الزُّبَيْرِ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ، فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ)**[٣].

وروى أبو داود، والترمذي، وغيرُهما، عن بِلَال بن يَسَارِ بن زَيْد، عن أبيه، عن جَدِّهِ: أنَّه سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: **(مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ)**[٤].

وفي هذا الحديثِ دَلَالةٌ على أنَّ الاستغفارَ يمحو الذنوبَ؛ سواءٌ كانتْ كبائرَ أو صغائرَ؛ فإنَّ الفرارَ مِنَ الزَّحْفِ مِنَ الكبائرِ.

۞ **لكن ممَّا ينبغي أن يُعْلَمَ هنا**: أنَّ المرادَ بالاستغفارِ ما اقترَنَ به تَرْكُ الإصرارِ؛ فهو حينئذٍ يُعَدُّ توبةً نصوحًا تَجُبُّ ما قَبْلَها. أمَّا إنْ قال المرءُ بلسانِهِ:

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٨/ ٢٦٠).

(٢) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٨١٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٩٣٠).

(٣) «الأوسط» رقم (٨٣٩)، و«الأحاديث المختارة» رقم (٨٩٢)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٢٩٩).

(٤) «سنن أبي داود» رقم (١٥١٧)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٧٧).

أستغفرُ اللهَ، وهو غيرُ مُقْلِعٍ عن ذنبٍ، فهو داعٍ للهِ بالمغفرة، كما يقولُ: اللَّهُمَّ اغفرْ لي، وهذا طلبٌ مِنَ اللهِ المغفرةَ ودعاءٌ بها، فيكونُ حكمُهُ حكمَ سائرِ الدعاءِ للهِ، ويُرْجَى له الإجابةُ.

وقد ذكَرَ أهلُ العلمِ أنَّ القائلَ: أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، له حالتان:

الأولى: أنْ يقولَ ذلكَ وهو مُصِرٌّ بقلبِهِ على الذنب؛ فهذا كاذبٌ في قوله: وأتوبُ إليه؛ لأنَّه غيرُ تائبٍ؛ فإنَّ التوبةَ لا تكونُ مَعَ الإصرارِ مِنَ العبدِ على الذنب.

والحالة الثانية: أن يقولَ ذلك وهو مُقْلِعٌ بقلبِهِ وعَزْمِهِ ونِيَّتِهِ عن المعصية، وجمهورُ أهلِ العلمِ على جوازِ قولِ التائب: أتوبُ إلى اللهِ، وعلى جوازِ أنْ يُعاهِدَ العبدُ ربَّه على أن لَا يعودَ إلى المعصيةِ أبدًا؛ فإنَّ العزمَ على ذلكَ واجبٌ عليه، فهو مُخْبِرٌ بما عزَمَ عليه في الحال. وقد تَقدَّمَ أنَّ مِنْ شروطِ قَبُولِ التوبةِ العزمَ مِنَ العبدِ على عدمِ العودةِ إلى الذنب، فإنْ صَحَّ منه العزمُ على ذلك، قُبِلَتْ توبتُه، فإنْ عاد إلى الذنبِ مَرَّةً ثانيةً، احتاجَ إلى توبةٍ أخرى ليغفرَ له ذنبَهُ؛ ولهذا فإنَّ العبدَ ما دام كذلك؛ كلَّما أذنَبَ تاب، وكلَّما أخطَأَ استغفَرَ، فهو حريٌّ بالمغفرة، وإن تكرَّرَ الذنبُ والتوبةُ.

روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، فيما يحكي عن ربِّه عز وجل، قال: (**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**)[1]؛ أي: ما دُمْتَ تائبًا أوَّاهًا منيبًا.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٧٥٠٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٥٨).

فهذه توبةٌ مقبولةٌ وإنْ تكرَّرَ الذنبُ، فإنَّه كلَّما كَرَّرَ العبدُ التوبةَ مستوفيًا شروطها، قُبِلَتْ منه، أمَّا الاستغفارُ بدونِ توبة، فلا يستلزمُ المغفرةَ، بل هو سببٌ من الأسبابِ التي تُرْجَى بها المغفرةُ.

۞ **ولا ينبغي للعبدِ أنْ يَقْنَطَ من رحمةِ اللهِ وإنْ عَظُمَتْ ذنوبُهُ وكَثُرَتْ وتنوَّعت**؛ فإنَّ بابَ التوبةِ والمغفرةِ والرحمةِ واسعٌ؛ فاللهُ يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: «مَنْ آيَسَ عِبَادَ اللهِ مِنَ التوبةِ بعدَ هذا، فقد جَحَدَ كتابَ اللهِ عز وجل»[١].

ويقولُ سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤]، ويقولُ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال الله تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [التوبة]، وقال في شأنِ النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة]، وقال في شأن الكُفَّار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ [البروج: ١٠].

قال الحَسَنُ البَصْريُّ رحمه الله: «انظُروا هذا الكَرَمَ والجُودَ، قَتَلُوا أولياءَهُ وهو يدعوهم إلى التوبةِ والمغفرةِ»[٢].

فما أعظَمَ فَضْلَ اللهِ! وما أوسَعَ عَطَاءَهُ ومغفرتَهُ! فنسألُهُ سبحانه أنْ يشملنا بعفوه، وأنْ يَمُنَّ علينا بمغفرتِهِ؛ إنَّه هو الغفورُ الرحيم.

❊ ❊ ❊

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٥٩). (٢) **انظر**: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٨).

١١٠

مُلَازَمَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلاسْتِغْفَارِ

لقد كان إمامُ المُرْسَلِين، وقُدْوَةُ الموحِّدين، وقائدُ الغُرِّ المُحَجَّلين، الرسولُ الكريمُ ﷺ كثيرَ الاستغفارِ والتوبةِ إلى الله، مع أنَّه ﷺ قد غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تأخَّر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح]، وفي «الصحيح»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا صَلَّى قامَ حتى تَتفطَّرَ رِجْلَاهُ، فقلتُ له: يا رسولَ اللهِ، أَتَصْنَعُ هذا وقد غفرَ لكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبكَ وما تَأَخَّرَ؟ فقال: (**يَا عَائِشَةُ، أَفَلَا أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟!**)»[١].

قال ابن كَثِيرٍ رحمه الله: «هذا مِنْ خصائصِهِ صلواتُ الله وسلامُهُ عليه التي لا يشاركُهُ فيها غيرُهُ، وليس في حديثٍ صحيحٍ في ثوابِ الأعمالِ لغيرِهِ: غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه وما تأَخَّر؛ وهذا فيه تشريفٌ عظيمٌ للرسولِ ﷺ، وهو صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه في جميعِ أمورِهِ على الطاعةِ والبِرِّ والاستقامةِ التي لَمْ ينلها بَشَرٌ سواه، لا من الأوَّلين ولا من الآخرين، وهو أكملُ البَشَرِ على الإطلاق، وسَيِّدُهُمْ في الدنيا والآخرة»[٢].

ومع ذلك كلِّه، فقد كانَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه يُكْثِرُ في جميعِ أوقاتِهِ مِنَ الاستغفارِ، وكان الصحابةُ رضي الله عنهم يُحْصُونَ له في مجالسِهِ الاستغفارَ الكثيرَ.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٨٣٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٨٢٠).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٣١٠).

روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن الأَغَرِّ المُزَنِيِّ ﵁: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **(إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)**(١).

وروى البخاري في «صحيحه»، عن أبي هريرة ﵁، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **(وَاللهِ، إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةٍ)**(٢).

وروى أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، **عن ابن عُمَرَ** ﵄، **قال**: «كنَّا نَعُدُّ لرسولِ اللهِ ﷺ في المَجْلِسِ الواحدِ مِائَةَ مرةٍ: **(رَبِّ اغفِرْ لي، وتُبْ عليَّ، إنَّك أنتَ التوابُ الرحيم)**»(٣).

وأخرج النسائيُّ عن أبي هريرة ﵁: «أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جمَعَ الناسَ، فقال: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)**»(٤).

وقد ثبت عنه ﷺ في الاستغفار صِيَغٌ عديدة:

*** منها:** قوله: **(أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ)**، **قال أبو هريرة** ﵁: «ما رَأَيْتُ أحدًا أكثَرَ مِنْ أن يقولَ: **أَسْتَغْفِرُ اللهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ** مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ»(٥).

*** ومنها:** قوله: **(رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)**، وقد تَقَدَّمَ في حديث ابن عُمَرَ ﵄.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٠٨).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢١)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥١٦)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٣٤)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨١٤)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٥٦).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي رقم (١٠٢٦٥)، وهو عند مسلمٍ من حديث الأغر بلفظ مقارب، تقدم (ص٤٦٠).

(٥) «السنن الكبرى» للنسائي رقم (١٠٢٨٨)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٩٢٨).

* **ومنها**: ما ثبَتَ في «الصحيحين»: أنَّ أبا بكرٍ قال للنبيِّ ﷺ: «علِّمْنِي دُعَاءً أدعو به في صلاتي، قال: (**قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**)[1].

* **ومنها**: ما في «الصحيحين»، من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه كان يدعو بهذا الدعاءِ: (**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)[2].

* **ومنها**: ما ثبَتَ في «صحيح مسلم»، أنَّه كان مِنْ آخِرِ ما يقولُهُ ﷺ بين التشهُّد والتسليم: (**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**)[3].

* **ومنها**: وهو أتَمُّها وأكملُها ما ثبَتَ في «صحيح البخاري»، عن شَدَّاد بن أَوْسٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: (**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ العَبْدُ: اللَّهُمَّ، أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**)[4].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٠٥).
(٢) تقدم تخريجه (ص٣٨٣).
(٣) تقدم تخريجه (ص٣٨٢).
(٤) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٠٦).

❁ **فهذا الحديثُ لَمَّا كان جامعًا لمعاني التوبة، مُشْتمِلًا على حقائقِ الإيمان، مُتَضَمِّنًا لمحضِ العبوديَّة، وتمامِ الذُّلِّ والافتقار**، فاقَ سائرَ صِيَغِ الاستغفارِ في الفضيلةِ، وارتَفَعَ عليها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتَضَمَّنَ هذا الاستغفارُ: الاعترافَ من العبدِ بربوبيَّةِ اللهِ وإلٰـهيَّتِهِ وتوحيده، والاعترافَ بأنَّه خالقُهُ، العالِمُ به؛ إذْ أنشأَهُ نشأةً تستلزمُ عَجْزَهُ عن أداءِ حَقِّهِ، وتقصيرَهُ فيه، والاعترافَ بأنَّه عبدُهُ الذي ناصيتُهُ بيده وفي قَبْضَتِه، لا مَهْرَبَ له منه، ولا وَلِيَّ له سواه، ثُمَّ التزامَ الدخولِ تحتَ عهدِهِ ـ وهو أمرُهُ ونَهْيُهُ ـ الذي عَهِدَهُ إليه على لسانِ رسوله، وأنَّ ذلك بِحَسَبِ استطاعتي، لا بِحَسَبِ أداءِ حقِّك، فإنَّه غيرُ مقدورٍ للبشر، وإنَّما هو جُهْدُ المقلِّ، وقَدْرُ الطاقة، ومع ذلك، فأنا مُصدِّقٌ بوعدِكَ الَّذي وعدتَّهُ لأهلِ طاعتكَ بالثواب، ولأهلِ معصيتكَ بالعقاب، فأنا مقيمٌ على عَهْدِك، مُصدِّقٌ بوعدِك، ثمَّ أَفْزَعُ إلى الاستعاذةِ والاعتصام بك مِنْ شَرِّ ما فَرَّطْتُ فيه مِنْ أَمْرِكَ ونهيكَ؛ فإنَّكَ إنْ لَمْ تُعِذْني مِنْ شَرِّه، وإلَّا أحاطَتْ بِيَ الهَلَكَةُ؛ فإنَّ إضاعةَ حقِّك سببُ الهلاكِ، وأنا أُقِرُّ لكَ وألتزمُ بنعمتِكَ عليَّ، وأُقِرُّ وألتزمُ وأَبْخَعُ بذنبي، فمنكَ النعمةُ والإحسانُ والفضلُ، ومنِّي الذنبُ والإساءة، فأسألكَ أن تَغْفِرَ لي بمحوِ ذنبي، وأنْ تُعْفِيَني مِنْ شَرِّه، إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلَّا أنتَ؛ فلهذا كان هذا الدعاءُ سَيِّدَ الاستغفارِ»[(١)].

* **ومِنْ صِيَغِ الاستغفارِ التي ورَدَتْ عنه ﷺ**: ما رواه البخاريُّ، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أنَّها سمعتْ رسولَ اللهِ ﷺ وأَصْغَتْ إليه قبلَ أن يموتَ وهو مُسْنِدٌ إليها ظَهْرَهُ يقولُ: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى**)»[(٢)].

وفي هذا إشارةٌ إلى ملازمتِهِ ﷺ للاستغفارِ في كلِّ أوقاتِهِ وجميعِ أحيانِهِ إلى آخرِ لَحَظاتِ حياتِهِ الكريمةِ، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٤٤٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٤٤٤).

وكما أنَّه ﷺ كان يختمُ أعمالَهُ الصالحةَ ـ كالصلاةِ، والحجِّ، وقيام الليل، وسائرِ مَجَالسِهِ ـ بالاستغفارِ، فقد ختَمَ حياتَهُ كلَّها به. رزَقَنَا اللهُ حُسْنَ الاقتداءِ به، والاتِّبَاعَ لنهجِهِ، ونسأَلُهُ سبحانَهُ أن يَرْزُقَنا الخاتمةَ الحسنة، إنَّه سميعٌ مُجِيب، وآخِرُ دعوانا أن الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين، وصلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين.

ويليه القسمُ الثالثُ ـ إن شاء الله ـ وهو في شرحِ الأذكارِ المتعلِّقةِ بِعَمَلِ اليومِ والليلة.

❁ ❁ ❁

الْقِسْمُ الثَّالِثُ

فِقْهُ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ

(عَمَلُ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين، والعاقبةُ للمتَّقين، والصلاةُ والسَّلَامُ على إمامِ المُرْسَلين، نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

أمَّا بعدُ:

فهذا القسمُ الثالث من **«فِقْهِ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ»**، تناوَلْتُ فيه بيانَ الأذكارِ والأدعيةِ المتعلِّقةِ بعملِ المسلمِ في يَوْمِهِ وليلته، كأذكارِ الصباحِ والمساءِ، والنوم، وأذكارِ الصلواتِ وأدبارها، وأذكارِ الدخولِ والخروج، والركوبِ والسَّفَر، والطعامِ والشراب، إلى غيرِ ذلك من الأذكارِ العظيمة، والدَّعَوات المباركة، التي تصحبُ المسلمَ في أيَّامه ولياليه، مع بيانِ معانيها ودَلَالاتها.

وما مِنْ شَكٍّ أنَّ في المواظبةِ على هذه الأذكارِ والمحافظةِ عليها خَيْراتٍ متواليةً، ونِعَمًا متتاليةً في الدنيا والآخرة، لا سيَّما إن وُفِّقَ المحافظُ عليها إلى التأمُّلِ في دَلَالاتها، والتفكُّرِ في مَقَاصِدها وغايتها، والتحقيقِ لأهدافها ومقتضياتها.

وإنِّي لَأُؤَمِّلُ أن يُحَقِّقَ هذا الكتابُ شيئًا من ذلكَ بتوفيقِ الله ﷻ، وقد أفدتُّ فيه من كلامِ أهلِ العلمِ في شُرُوحاتِ كُتُبِ الحديثِ عمومًا، وكتبِ الأذكارِ على وجهِ الخصوص، وكُتُبِ اللغة، وكتبِ غريبِ الحديثِ وغيرها، مع اعترافي بقصورِ باعي، وضَعْفِ عِلْمي، وقِلَّةِ اطِّلاعي، وكثرةِ تقصيري، أسألُ اللهَ أن يعفوَ عنِّي ويغفرَ لي بِمَنِّهِ وفضلِهِ، إنَّه غفورٌ رحيم.

وهو في الأصل حَلَقَاتٌ إذاعيَّةٌ تَمَّ تقديمُها عَبْرَ الإذاعةِ المباركةِ إذاعةِ القرآنِ الكريمِ بالمملكة العربية السعودية **تحت عنوان: «عملُ اليَوْمِ واللَّيْلَةِ»**.

وهو يَتكوَّنُ من خَمْسٍ وسِتِّينَ حَلْقةً متماثلةً في الحجم، ولكلٍّ حلقةٍ عنوانٌ خاصٌّ يُرْشِدُ إلى مضمونها.

وأسألُهُ سبحانَهُ أنْ يَتقبَّلَ منِّي عَمَلِي هذا وسائرَ أعمالِي، وأنْ يَجْعَلَهُ لوجهِهِ خالصًا، ولسُنَّةِ نبيِّه ﷺ موافقًا، ولعبادِهِ نافعًا، وأن لَا يَجْعَلَ لأحدٍ فيه شيئًا، إنَّه سميعٌ مجيبٌ قريب، وصلَّى الله وسَلَّمَ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبه.

١١١

فَضْلُ الْأَذْكَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِعَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ

إنَّ مِنَ الموضوعات الجليلة، والأمورِ المهمَّة التي تَمَسُّ إليها حاجةُ كلِّ مسلم: ما يَتعلَّقُ بعملِ المسلمِ في يومِهِ وليلتِهِ، في قيامِهِ وقعودِهِ، وحركتِهِ وسكونِهِ، ودخولِهِ وخروجِهِ، وسائرِ شؤونه، بأنْ يُوظِّفَ ذلك كلَّه في طاعةِ الله، ويَسْتعمِلَهُ فيما يرضيه، فيكونَ في ذلك كلِّه ذاكرًا لربِّه، مستعينًا به وحدَهُ، مُفوِّضًا أمورَهُ كلَّها إليه.

وقد ثبَتَ في «صحيح مسلم»، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يذكُرُ ربَّه في كلِّ أحيانه[1]؛ أي: أنَّه صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه لا يَدَعُ ذِكْرَ اللهِ ﷻ في أيِّ حالٍ من الأحوال، في ليلِهِ ونَهارِه، وصباحِهِ ومسائه، وسَفَرِهِ وحَضَره، وقيامِهِ وقعوده، وسائرِ أحواله، فلا يُباشرُ أيَّ عملٍ من الأعمال؛ من نومٍ وقيام، ودخولٍ وخروج، وركوبٍ ونزول، إلى غيرِ ذلك، إلَّا وبدأَهُ بذكرِ اللهِ ﷻ ودعائه.

ومَنْ يَتأمَّل السُّنَّةَ المباركةَ والهَدْيَ النبويَّ الكريم، يجدْ أنَّ هناك أذكارًا للصباحِ والمساء، وأذكارًا للنومِ والانتباه، وأذكارًا للصلواتِ وأعقابِها، وأذكارًا للطعامِ والشراب، وأذكارًا لركوبِ الدابَّةِ والسَّفَر، وأذكارًا تَتعلَّقُ بِطَرْدِ الهمِّ والغَمِّ والحَزَن، وأذكارًا تقالُ عندَ رؤيةِ المسلم لِمَا يُحِبُّ أو لِمَا يَكْرَه، إلى غيرِ ذلكَ من الأذكارِ التي تَتعلَّقُ تعلُّقًا مباشرًا بأحوالِ المسلمِ في يومه وليلته.

وفي تلكَ الأذكارِ العظيمةِ وتنوُّعِها بِحَسَبِ مناسباتها تجديدٌ لعهدِ الإيمان، وتقويةٌ للصِّلَةِ بالله ﷻ، واعترافٌ بِنَعَمِهِ المتوالية، وآلائِهِ المتتالية، وشُكْرٌ له على تَفَضُّلِهِ وإنعامِهِ وجُودِهِ وإحسانه، وفيها لُجُوءٌ إليه وحده،

(١) رواه البخاري معلقًا، و«صحيح مسلم» رقم (٣٧٣).

واعتمادٌ عليه دُونَ ما سواه بالتعوُّذِ به سبحانه مِنْ نَزَغَاتِ الشيطان وشرورِ النفس، وشَرِّ كُلِّ ذي شَرٍّ مِنَ الخَلْق، ومِنْ شَرِّ كلِّ نقمةٍ أو بلاءٍ أو مصيبة.

وفيها تقريرٌ لتوحيدِ اللهِ ﷻ، وبراءةٌ وخلوصٌ مِنَ الإشراكِ به، وإقرارٌ وإذعانٌ بربوبيَّتِهِ وألوهيَّته، ومَنْ كان ذا عنايةٍ واهتمام بأدعيةِ النَّبِيِّ ﷺ المأثورةِ عنه، فإنَّه يبوءُ ويعترفُ مَرَّاتٍ كثيرةً بأنَّ اللهَ ﷻ وحدَهُ هو الذي أماتَ وأحيا، وأَطْعَمَ وأَسْقَى، وأفقَرَ وأغنى، وألبَسَ وأَكْسَى، وأَضَلَّ وهَدَى، وأنَّه وحدَهُ المُسْتَحِقُّ لِأَنْ يُؤْلَهَ ويُعْبَدَ، ويُخضَعَ له ويُذَلّ، وتُصْرَفَ له جميعُ أنواعِ العبادة.

فالذِّكْرُ ـ كما يقول العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ **ـ:** «شجرةٌ تُثْمِرُ المعارفَ والأحوالَ التي شَمَّرَ إليها السالكون، فلا سبيلَ إلى نيلِ ثِمَارِها إلَّا مِنْ شجرةِ الذِّكْر، وكلَّما عَظُمَتْ تلكَ الشجرةُ ورَسَخَ أصلُها، كان أعظَمَ لثمرتها، فالذِّكْرُ يُثمِرُ المقاماتِ كلَّها من اليقظةِ إلى التوحيد، وهو أصلُ كلِّ مقام، وقاعدتُهُ التي يُبْنَى ذلك المقامُ عليها، كما يُبْنَى الحائطُ على أُسِّه، وكما يقومُ السَّقْفُ على حائطه»[1].

إضافةً إلى ذلك، فهي مُشْتمِلَةٌ على غايةِ المطالبِ الصحيحة، ونهايةِ المقاصدِ العليَّة، وفيها مِنَ الخيرِ والنفعِ والبَرَكة، والفوائدِ الحميدة، والنتائجِ العظيمةِ ما لا يمكنُ أن يُحِيطَ به إنسان، أو يُعَبِّرَ عنه لسان.

۞ **ولذلك، فإنَّ مِنَ الحَرِيِّ بالمؤمنِ أنْ يكونَ محافظًا تَمَامَ المحافظةِ على تلكَ الأذكارِ العظيمة**، كلُّ ذِكْرٍ في وقتِهِ المناسبِ له مِنْ يَوْمِهِ وليلته، بِحَسَبِ ورودِهِ في السُّنَّة؛ لِتَتحقَّقَ له تلكَ الأفضالُ العظيمة، والمعاني الكريمة، وليكونَ مِمَّن أثنى اللهُ ﷻ عليهم بقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

رُوِيَ عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما **في معنى الآية أنه قال:** «المرادُ: يَذْكُرُونَ اللهَ

(١) «الوابل الصَّيِّب» (ص١٣٢).

في أدبارِ الصلوات، وغُدُوًّا وعَشِيًّا، وفي المضاجعِ، وكلَّما استيقَظَ من نَوْمه، وكلَّما غَدَا أو راحَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذكَرَ اللهَ تعالى».

وعن مجاهدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، **قال:** «لا يكونُ من الذاكرينَ اللهَ كثيرًا والذاكراتِ حتى يَذْكُرَ اللهَ قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا»[(١)].

وقد سُئِلَ الشيخ أبو عَمْرِو بن الصَّلَاح رَحِمَهُ اللَّهُ **عن القَدْرِ الذي يصيرُ به المسلمُ مِنَ الذاكرينَ اللهَ كثيرًا والذاكراتِ، فقال:** «إذا واظَبَ على الأذكارِ المأثورةِ المُثْبَتَةِ صباحًا ومساءً، في الأوقاتِ والأحوالِ المختلفةِ ليلًا ونهارًا، وهي مُبيَّنَةٌ في كتابِ عَمَلِ اليومِ والليلة، كان مِنَ الذاكرينَ اللهَ كثيرًا والذاكرات»[(٢)].

ولقد حَظِيَ هذا الموضوعُ الجليلُ باهتمامِ العلماءِ الفائقِ، وعنايتِهِمُ الكبيرة، فألَّفوا فيه المؤلَّفاتِ الكثيرةَ، وبَسَطُوا القولَ فيه في كتبٍ عديدة، نفَعَ اللهُ بها مَنْ شاءَ من عباده؛ ككتاب «**عَمَلِ اليومِ والليلة**» للإمام أبي عبد الرحمٰن أحمد بن شُعَيْب النَّسَائيِّ صاحب «السنن»، وكتاب «**عمل اليوم والليلة**» لتلميذه أبي بكر أحمد بن محمَّد بن إسحاق، المعروف بابن السُّنِّيِّ، وكتاب «**الدعاء الكبير**» للحافظ أبي بكر البيهقي، وكتاب «**الأذكار**» للإمام أبي زكريا النووي، وكتاب «**الكَلِمِ الطَّيِّب**» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة، وكتاب «**الوابل الصَّيِّبِ**» لتلميذه العلامة ابن القيِّم، وكتاب «**تحفة الذاكرين**» للإمام الشوكاني، وكتاب «**تحفة الأخيار**» للإمام الشيخ عبد العزيز بن باز - رحم الله الجميع - إلى غير ذلكَ مِنَ الكتب القيِّمة والمؤلَّفات النافعة، التي كتبها أهلُ العلمِ قديمًا وحديثًا في هذا البابِ العظيم[(٣)].

ومؤلَّفاتُهُمْ في هذا البابِ متفاوتةٌ؛ فمنهم الراوي للأخبارِ بالأسانيد،

---

(١) أوردهما النووي في «الأذكار» (ص١٠). (٢) **انظر**: «الأذكار» للنووي (ص١٠).

(٣) ولي في هذا الباب رسالةٌ أسميتها: «**الذِّكْرُ والدعاء في ضوءِ الكتاب والسُّنَّة**»، وهي مطبوعة في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وقد مشيتُ في هذا الشرح على ترتيب تلك الرسالة، وأتيتُ فيه على عامَّة الأذكار الواردة فيها.

ومنهم الحاذفُ لها، ومنهم المُطَوِّلُ المُسْهِب، ومنهم المُخْتصِرُ والمتوسِّطُ والمهذِّب.

ومن المعلومِ: أنَّ هذه الأذكارَ المتعلِّقةَ بعملِ المسلم في يومِهِ وليلتِهِ تَحْظَى باهتمامِ المسلمينَ البالغ، وعنايَتِهِمُ الكبيرة، غيرَ أنَّ الكثيرَ منهم قد لا يميِّزون في ذلك بينَ الصحيحِ الثابتِ عن النَّبيِّ ﷺ وبينَ الضعيفِ الذي لا يَثْبُتُ عنه، وقد لا يعرفونَ أيضًا معانيَ هذه الأذكارِ العظيمة، ولا مَقَاصِدَها الجليلة، فيَفُوتُهم بذلك نَفْعُها العظيم، وتأثيرُها البالغ؛ **قال ابنُ القيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأَفْضَلُ الذِّكْرِ وأنفعُهُ ما واطَأَ القَلْبَ اللِّسَانُ، وكان مِنَ الأذكارِ النبويَّة، وشَهِدَ الذاكرُ مَعَانِيَهُ ومَقَاصِدَه»[1]. اهـ. كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذا، وسوفَ أتناولُ ـ إن شاءَ الله ـ طائفةً عَطِرةً، ونُخْبةً مباركةً من تلكَ الأذكارِ المتعلِّقةِ بعملِ المسلمِ في يَوْمِهِ وليلته، مع بيان ما يَتيسَّرُ مِنْ حِكَمِهَا العظيمة، ودَلَالتها القويمة، ومعانيها الجليلة، مستمنحًا مِنَ اللهِ وحدَهُ العَوْنَ والتوفيقَ والسداد، وأسألُهُ سبحانَهُ أن يوفِّقنا لكلِّ خيرٍ يُحبُّه ويرضاه.

❁ ❁ ❁

(١) «الفوائد» لابن القيِّم (ص٢٤٧).

١١٢

أَذْكَارُ طَرَفَيِ النَّهَارِ

إنَّ مِنَ الأذكارِ والأَدْعِيةِ الراتبةِ التي وظَّفها الشرعُ الحكيمُ على المسلم في يومِهِ وليلتِهِ: أذكارَ طَرَفَي النهار، بل هي أوسعُ الأذكارِ المُقيَّدةِ وأكثرُها ورودًا في النصوص، حثًّا عليها، وترغيبًا فيها، وذِكْرًا لأنواعٍ كثيرةٍ من الأذكارِ تُقَالُ في هذَيْنِ الوقتَيْنِ الفاضلَيْن.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب] **والأصيلُ**: ما بينَ العَصْرِ وغروبِ الشمس.

ويقولُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، **والإبكارُ**: أوَّلُ النهار، **والعشيُّ**: آخِرُه.

ويقولُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، ويقول تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

ومَحَلُّ هذه الأورادِ هو الصباحُ الباكرُ مِنْ بعدِ صلاةِ الصُّبْحِ إلى ما قبلَ طلوعِ الشمس، والمساءُ ـ ويقال: العَشِيُّ، والآصالُ ـ: مِنْ بعدِ صلاةِ العصر إلى ما قبلَ الغروب، فقد جاء في «سنن أبي داود» أن النبي ﷺ قال: **(لَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى مِنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَة مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَأَنْ أَقْعُدَ مَعَ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ أَحَبُّ إِلَيَّ مَنْ أَنْ أُعْتِقَ أَرْبَعَة)**(١)، على أنَّ الأمرَ في ذلكَ واسعٌ ـ إنْ شاءَ الله ـ فيما لو نسي العبدُ ذلكَ في وقتِهِ،

(١) «سنن أبي داود» رقم (٣٦٦٧) من حديث أنس بن مالك، وحسنه الألباني.

أو عَرَضَ له عارضٌ، فلا بأسَ أن يأتيَ بأذكارِ الصباحِ بعدَ طلوعِ الشمس، وأذكارِ المساءِ بعدَ غروبها.

وأمَّا عن الأذكارِ المشروعة، والأدعيَةِ المأثورة التي تقالُ في هذَيْنِ الوقتَيْنِ الفاضلَيْن، فهي كثيرةٌ ومتنوِّعة، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ طائفةٌ طيِّبةٌ منها، مع بيانِ شيءٍ مِنْ معانيها العظيمة، ودلالتها القويمة.

روى أبو داود، والترمذي، وغيرهما، عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِاسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ)**(١).

فهذا من الأذكارِ العظيمةِ التي ينبغي أن يُحافِظَ عليها المسلمُ كلَّ صباحٍ ومساء؛ ليكونَ بذلك محفوظًا ـ بإذنِ الله تعالى ـ مِنْ أنْ يصيبَهُ فجأةُ بلاءٍ، أو ضُرُّ مصيبةٍ، أو نحوُ ذلك.

جاء في «جامع الترمذي»، عن أَبَانَ بنِ عُثْمانَ رحمه الله، وهو راوي الحديثِ عن عُثْمان، أنَّه قد أصابَهُ طَرَفُ فَالَجٍ ـ وهو شَلَلٌ يصيبُ أحدَ شِقَّي الجسمِ ـ فجعَلَ رجلٌ منهم ينظُرُ إليه، **فقال له أبانُ**: «ما تَنْظُرُ؟! أَمَا إنَّ الحديثَ كما حَدَّثْتُكَ، ولكنِّي لَمْ أَقُلْهُ يومئذٍ لِيُمْضِيَ اللهُ عليَّ قَدَرَهُ»(٢).

والسُّنَّةُ في هذا الذِّكْرِ أنْ يُقالَ ثلاثَ مرَّاتٍ كلَّ صباحٍ ومساء، كما أرشَدَ النَّبيُّ ﷺ إلى ذلك.

وقولُهُ في هذا الحديثِ: **(بِاسْمِ اللهِ)**؛ **أي**: باسم الله أستعيذُ، فكلُّ فاعلٍ يُقَدِّرُ فعلًا مناسبًا لحالِهِ عندما يُبَسْمِلُ، فالآكِلُ يُقدِّر: آكُلُ؛ **أي**: باسمِ الله آكُلُ، والذَّابِحُ يُقَدِّرُ: أَذْبَحُ، والكاتبُ يُقَدِّرُ: أَكْتُبُ، وهكذا.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٦٦)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٨٨)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٨٨)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٦٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٢٦).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٣٣٨٨)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٦٩).

وقوله: (**الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**)؛ **أي**: مَنْ تَعوَّذَ باسمِ الله، فإنَّه لا تَضُرُّهُ مُصيبةٌ مِنْ جهةِ الأرضِ ولا من جهةِ السماء.

وقوله: (**وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**)؛ **أي**: السَّمِيعُ لأقوالِ العباد، والعليمُ بأفعالِهم، الذي لا تَخْفَى عليه خافيةٌ في الأرضِ ولا في السَّمَاء.

وثبَتَ في «صحيح مسلم»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي البَارِحَةَ، قَالَ: (**أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّكَ**)»(١).

وفي رواية للترمذي: (**مَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ حُمَةٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ**)(٢).

والحُمَةُ: لَدْغةُ كُلِّ ذي سُمٍّ كالعَقْرَبِ ونحوِها.

وقد أورد الترمذي عَقِبَ الحديث **عن سُهَيْلِ بن أبي صالح ـ أحدِ رواته ـ أنَّه قال**: «كان أهلُنا تَعَلَّمُوها، فكانوا يَقُولُونَها كلَّ ليلةٍ، فلُدِغَتْ جَارِيَةٌ منهم، فلَمْ تَجِدْ لَها وَجَعًا».

فالحديثُ فيه دَلَالةٌ على فضلِ هذا الدعاءِ، وأنَّ مَنْ قاله حين يُمْسِي يكونُ مَحفوظًا بإذنِ الله مِنْ أن يَضُرَّهُ لَدْغُ حَيَّةٍ أو عَقْرَبٍ أو نحوِ ذلك.

وقوله في الحديث: (**أَعُوذُ**)؛ **أي**: ألتجئُ، **فالاستعاذةُ**: الالتجاءُ والاعتصامُ، **وحقيقتُها**: الهَرَبُ مِن شيءٍ تَخافُهُ إلى مَنْ يَعْصِمُكَ منه، ويَحْمِيكَ مِنْ شَرِّه، فالعَائِذُ باللهِ قد هَرَبَ مِمَّا يؤذيه أو يُهْلِكُهُ إلى ربِّه ومَالِكِه، وفَرَّ إليه، وألقى نَفْسَهُ بين يديه، واعتصَمَ به، واستجارَ به، والتَجأَ إليه.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٩).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٣٦٠٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٢٧).

والمرادُ بكلماتِ اللهِ: قيل: هي القرآنُ الكريم، **وقيل**: هي كلماتُهُ الكونيَّةُ القَدَرِيَّة، **والمرادُ بالتامَّات؛ أي**: الكاملاتُ التي لا يَلْحَقُها نَقْصٌ ولا عَيْبٌ، كما يلحقُ كلامَ البَشَر.

وقوله: **(مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)؛ أي**: مِنْ كلِّ شرٍّ في أيِّ مخلوقٍ قامَ به الشَّرُّ مِنْ حيوانٍ أو غيره؛ إنسيًّا كان أو جِنِّيًا، أو هَامَةً أو دَابَّةً، أو ريحًا أو صاعقة، أيَّ نوعٍ كان مِنْ أنواعِ البلاءِ في الدنيا والآخرة(١).

وثبَتَ في سنن أبي داود، والترمذي، وغيرهما، عن عبد الله بن خُبَيْب رضي الله عنه، قال: «خَرَجْنَا فِي لَيْلَةِ مَطَرٍ وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ، نَطْلُبُ رَسُولَ الله ﷺ لِيُصَلِّيَ لَنَا، فَأَدْرَكْتُهُ، فَقَالَ: **(قُلْ)**، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: **(قُلْ)**، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: **(قُلْ)**، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا أَقُولُ؟ قَالَ: **(قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَالمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)**»(٢).

ففي هذا الحديثِ فضيلةُ قراءةِ هذه السُّوَرِ الثلاثِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثلاثَ مرَّات، كُلَّ صباحٍ ومساء، وأنَّ مَنْ حافَظَ عليها، كَفَتْهُ بإذنِ اللهِ مِنْ كلِّ شيء؛ **أي**: إنَّها تدفعُ عنه الشرورَ والآفاتِ، وباللهِ وحدَهُ التوفيقُ لا شريكَ له.

❁ ❁ ❁

(١) **انظر**: «تيسير العزيز الحميد» للشيخ سليمان بن عبد الله (ص٢١٣ ـ ٢١٤).

(٢) «سنن أبي داود» رقم (٥٠٨٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٧٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٦٤٩).

١١٣

وَمِنْ أَذْكَارِ طَرَفَيِ النَّهَارِ

• **إنَّ مِنَ الأذكارِ العظيمة، والدعواتِ المباركة التي ينبغي على المسلم أنْ يحافظَ عليها كلَّ صباحٍ ومساء**: ما ثبَتَ في «صحيح البخاري»، من حديث شَدَّاد بن أَوْس رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قال: (**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنا عَبْدُكَ، وَأَنا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَن قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**)[١].

فهذا دعاءٌ عظيمٌ جامعٌ لمعاني التَّوْبةِ، والتَّذَلُّلِ لله تبارَكَ وتعالى، والإنابةِ إليه، وَصَفَهُ ﷺ بأنَّه سَيِّدُ الاستغفارِ؛ وذلكَ لأنَّه قد فاقَ سائرَ صِيَغِ الاستغفارِ في الفضيلة، وعلا عليها في الرُّتْبة، ومِنْ معاني السَّيِّد؛ **أي**: الذي يفوقُ قومَهُ في الخير ويرتفعُ عليهم. ووجهُ أفضليَّةِ هذا الدعاءِ على غيرِهِ من صِيَغِ الاستغفار: أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَدَأَهُ بالثَّناءِ على الله، والاعترافِ بأنَّه عبدٌ لله، مربوبٌ مخلوقٌ له عز وجل، وأنه سبحانَهُ المعبودُ بحقٍّ، ولا معبودَ بحقٍّ سواه، وأنَّه مُقِيمٌ على الوَعْد، ثابتٌ على العَهْدِ من الإيمانِ به وبكتابِهِ وبسائرِ أنبيائِهِ ورسله، وأنَّه مقيمٌ على ذلكَ بِحَسَبِ طَوْقِهِ واستطاعتِهِ، ثم استعاذَ به سبحانَهُ مِنْ شَرِّ كلِّ ما صَنَعَ مِنَ التقصيرِ في القيامِ بما يجبُ عليه مِنْ شُكْرِ الإنعام، والتوبةِ مِنِ ارتكابِ الآثام، ثم أَقَرَّ بترادفِ نِعَمِهِ سبحانه وتوالي عطاياهُ ومِنَنِه،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٧٦).

واعتَرَفَ بما يصيبُ مِنَ الذنوبِ والمعاصي، ثم سألَهُ سبحانه المغفرةَ مِنْ ذلك كلِّه، معترفًا بأنَّه لا يَغْفِرُ الذنوبَ سواهُ سبحانه.

وهذا أكملُ ما يكونُ في الدُّعَاء؛ ولهذا كان أعظمَ صِيَغِ الاستغفارِ وأفضلَها وأجمعَها للمعاني الموجبةِ لِغُفْرَانِ الذنوب.

وقوله في أوَّل هذا الدعاء: **(اللَّهُمَّ) هي بمعنى**: يا اللهُ، حُذِفَ منها ياءُ النداء، وعوِّض عنها بالميمِ المشدَّدةِ؛ ولهذا لا يجوزُ الجمعُ بينهما؛ لأنَّه لا يجمعُ بين العِوَضِ والمعوَّضِ عنه، ولا تستعملُ هذه الكلمةُ إلَّا في الطلبِ، فلا يقالُ: اللَّهُمَّ غفورٌ رحيمٌ، وإنَّما يقالُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي وارحمني، ونحو ذلك.

وقوله: **(أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ)** فيه تَذَلُّلٌ وخضوعٌ، وانكسارٌ بين يَدَيِ الله، وإيمانٌ بوحدانيَّتِهِ سبحانَهُ في ربوبيَّتِهِ وألوهيَّته؛ فقوله: **(أَنْتَ رَبِّي)**؛ **أي**: ليسَ لي ربٌّ ولا خالقٌ سواك، والربُّ هو المالكُ الخالقُ الرازقُ المدبِّرُ لشؤونِ خلقه؛ فهذا إقرارٌ بتوحيدِ الربوبيَّة؛ ولهذا أعقبَهُ بقوله: **(خَلَقْتَنِي)**؛ **أي**: أنتَ ربِّي الذي خَلَقْتَنِي ليس لي خالقٌ سِوَاك.

وقوله: **(لَا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ)**؛ **أي**: لا معبودَ بحقٍّ سواكَ، فأنتَ وحدَكَ المستحِقُّ للعبادة، وهذا تحقيقٌ لتوحيدِ الألوهيَّة؛ ولهذا أعقبَهُ بقوله: **(وَأَنَا عَبْدُكَ)**؛ **أي**: وأنا عابدٌ لكَ، فأنتَ المعبودُ بحقٍّ، ولا معبودَ بحقٍّ سواك.

وقوله: **(وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ)**؛ **أي**: وأنا على ما عاهدتُك عليه وواعدتُّكَ من الإيمانِ بك، والقيامِ بطاعتك، وامتثالِ أوامرك، **(مَا اسْتَطَعْتُ)**؛ **أي**: على قَدْرِ استطاعتِي؛ فإنَّهُ سبحانه لا يُكلِّفُ نفسًا إلَّا وُسْعَها.

وقوله: **(أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ مَا صَنَعْتُ)**؛ **أي**: ألتجئُ إليكَ يا اللهُ، وأَعْتَصِمُ بكَ مِنْ شَرِّ الذي صنعتُهُ؛ مِنْ شَرِّ مَغَبَّتِه، وسوءِ عَاقِبَتِهِ، وحلولِ عُقُوبَتِهِ، وعدمِ مغفرتِهِ، أو مِنَ العَوْدِ إلى مثلِهِ؛ مِنْ شرِّ الأفعال، وقبيحِ الأعمال، ورديءِ الخِصَال.

وقوله: (**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ**)؛ **أي**: أعترفُ بِعِظَمِ إنعامِكَ عليَّ، وَتَرَادُفِ فَضْلِكَ وإحسانك، وفي ضِمْنِ ذلكَ شكرُ المنعمِ سبحانه، والتَّبَرِّي مِنْ كُفْرانِ النِّعَم.

وقوله: (**وأَبوءُ بِذَنْبِي**)؛ **أي**: أُقِرُّ بذنبي، وهو ما ارتكبتُهُ مِنْ إثمٍ وخطيئة؛ مِنْ تقصيرٍ في واجبٍ، أو فعلٍ لمحظور، والاعترافُ بالذَّنْبِ والتقصيرِ سبيلٌ إلى التوبةِ والإنابة، ومَنِ اعترَفَ بذنبِهِ وتاب منه، تابَ اللهُ عليه.

وقوله: (**فاغْفِرْ لِي**)؛ **أي**: يا أللهُ، جميعَ الذنوب؛ فإنَّ رحمتَكَ واسعةٌ، وصَفْحَكَ كريمٌ، ولا يتعاظمُكَ ذنبٌ أن تَغْفِرَهُ، فأنتَ الغفورُ الرحيم، ولا يغفرُ الذنوبَ إلَّا أنتَ؛ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عِمران: ١٣٥].

ثم إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد ختَمَ هذا الدعاءَ ببيانِ الأجرِ العظيم، والثوابِ الجزيل، الذي يناله من يحافظُ عليه كلَّ صباحٍ ومساء، فقال: (**مَنْ قَالَها**) ـ **أي**: هؤلاءِ الكلماتِ ـ (**مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا**) ـ **أي**: مصدِّقًا بها ومُعْتقِدًا لها؛ لكونها من كلامِ المعصومِ الذي لا ينطقُ عن الهوى، إنْ هو إلَّا وحيٌ يُوحَى، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه ـ (**فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**).

وإنَّما حاز المحافظُ على هذا الدعاءِ هذا الموعودَ الكريمَ، والأجرَ العظيمَ، والثوابَ الجزيل؛ لأنَّه افتتَحَ نهارَهُ واختتَمَهُ بتوحيدِ اللهِ في ربوبيَّتِهِ وألوهيَّته، والاعترافِ بالعبوديَّة، ومشاهدةِ المِنَّة، والاعترافِ بالنِّعْمة، ومطالعةِ عَيْبِ النفس وتقصيرها، وطَلَبِ العفوِ والمغفرةِ من الغفَّار، مع القيامِ على قَدَمِ الذُّلِّ والخضوعِ والانكسار، وهي معانٍ جليلةٌ، وصفاتٌ كريمةٌ يُفْتَتَحُ بها النهارُ ويختتم، جديرٌ صاحبُها أو المحافظُ عليها بالعَفْوِ والغفران، والعِتْقِ من النيران، والدخولِ للجِنان[1]، نسألُ اللهَ الكريمَ مِنْ فضله.

---

(١) **انظر**: كتاب «نتائج الأفكار، في شرح حديث سيِّد الاستغفار» للسفاريني كاملًا.

١١٤

وَمِنْ أَذْكَارِ طَرَفَيِ النَّهَارِ

لا يزالُ الحديثُ موصولًا حولَ بيانِ الأذكارِ المتعلِّقةِ بِطَرَفَي النهار.

● روى الإمام مسلم في «صحيحه»، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: «كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِذَا أَمْسَى، قَالَ: (**أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ للهِ، وَالحَمْدُ للهِ، لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ وَسُوءِ الكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي القَبْرِ**)، وَإِذَا أَصْبَحَ، قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: (**أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ للهِ**)»(١).

وهذا دعاءٌ نافع، وذِكْرٌ عظيم، ووِرْدٌ مُبارَك، يَحْسُنُ بالمسلمِ أنْ يُحافِظَ عليه كلَّ صباحٍ ومساء، تَأَسِّيًا بالنبيِّ الكريمِ ﷺ، واقتداءً بهديه القويم.

ومعنى قوله ﷺ في أوَّل هذا الدعاءِ: (**أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ للهِ، وَالحَمْدُ للهِ**)؛ **أي**: دَخَلْنَا في المساء، ودخَلَ فيه المُلْكُ كائنًا للهِ، ومختصًّا به، وهذا بيانٌ لحالِ القائل: **أي**: عَرَفْنَا وأَقْرَرْنَا بأنَّ المُلْكَ لله، والحمدَ له لا لغيره، فالتجأْنا إليه وَحْدَه، واستَعَنَّا به، وخَصَصْنَاهُ بالعبادةِ والثناءِ عليه والشكرِ له؛ ولهذا أعلَنَ بعدَ ذلك إيمانَهُ وتوحيدَهُ، فقال: (**لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**)؛ **أي**: لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ.

وينبغي أن نلاحظَ أنَّ كلمةَ التوحيدِ: (**لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ**) مُشْتمِلةٌ على رُكنَيْنِ،

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٣).

لا يَتحقَّقُ التوحيدُ إلَّا بهما، وهما النفيُ والإثباتُ، فـ (**لَا إلٰه**): نافيةٌ لجميعِ المعبودات، و(**إلَّا الله**) مُثْبِتةٌ العبادةَ لله سبحانه، ولعِظَمِ هذا الأمرِ وجَلَالَةِ شأنِهِ أَكَّدَهُ بقوله: (**وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**)، فقوله: (**وَحْدَهُ**): فيه تأكيدٌ للإثبات، وقوله: (**لَا شَرِيكَ لَهُ**): فيه تأكيدٌ للنفي، وهذا تأكيدٌ مِنْ بعدِ تأكيدٍ؛ اهتمامًا بمقامِ التوحيدِ وتعليةً لشأنه.

ولَمَّا أَقَرَّ لله بالوحدانيَّةِ، أَتْبَعَ ذلكَ بالإقرارِ له بالمُلْكِ والحَمْدِ والقُدْرةِ على كلِّ شيء؛ فقال: (**لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)؛ فالمُلكُ كلُّه لله، وبيده سبحانَهُ مَلَكُوتُ كلِّ شيء، والحمدُ كلُّه له مُلْكًا واستحقاقًا، وهو سبحانه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فلا يخرُجُ عن قدرته شيءٌ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فَاطِر: ٤٤].

وفي الإتيان بهذه الجُمْلةِ المتقدِّمةِ بين يَدَي الدعاءِ فائدةٌ عظيمة؛ فهو أبلغُ في الدعاء، وأرجى للإجابة.

ثمَّ بَدَأ بعدَ ذلك بذكرِ مسألتِهِ وحاجاتِهِ، فقال: (**رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا**)؛ **أي**: أسألُكَ خيرَ ما أَرَدتَّ وقوعَهُ في هذه الليلةِ للصالحينَ مِنْ عبادِكَ مِنَ الكمالاتِ الظاهرةِ والباطنة، ومِنَ المنافعِ الدينيَّةِ والدنيوية، (**وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا**)؛ **أي**: ما بعدها من اللَّيالي.

(**أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا**)؛ **أي**: وأَعْتَصِمُ بك وألتجئُ إليك مِنْ شرِّ ما أردتَّ وقوعَهُ فيها مِنْ شرورٍ ظاهرةٍ أو باطنة.

وقوله: (**رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ وَسُوءِ الكِبَرِ**)، **والمرادُ بالكسلِ**: عدَمُ انبعاثِ النفسِ للخيرِ، مَعَ ظهورِ القدرةِ عليه، ومَنْ كان كذلك، فإنَّه لَا يكونُ معذورًا، بخلافِ العاجز، فإنَّه معذورٌ لعدمِ قُدْرته، **والمرادُ بسوءِ الكِبَرِ؛ أي**: ما يُورِثُهُ كِبَرُ السِّنِّ؛ مِنْ ذَهَابِ العقل، واختلاطِ الرأي، وغيرِ ذلك مِمَّا يسوءُ به الحال.

وقوله: (**رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي القَبْرِ**)؛ **أي**: أَسْتَجِيرُ بكَ يا أَللهُ مِنْ أنْ يَنالَنِي عذابُ النارِ وعذابُ القبر، وإنَّما خَصَّهما بالذِّكْرِ مِنْ بين سائرِ أعذبةِ يوم القيامةِ لِشِدَّتهما، وعِظَم شأنهما، فالقبرُ أوَّلُ مَنَازِلِ الآخرة، ومَنْ سَلِمَ فيه سَلِمَ فيما بعده، والنَّارُ أَلَمُها عظيمٌ وعذابُها شديد، حَمَانا اللهُ ووقانا.

• **ويُستَحَبُّ للمسلم إذا أصبَحَ أن يقولَ ذلك، إلَّا أنَّه يقولُ: (أَصْبَحْنا وأَصْبَحَ المُلْكُ للهِ وَالحَمْدُ للهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذَا اليَوْمِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذَا اليَوْمِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ وَسُوءِ الكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي القَبْرِ)**.

• **ومِنْ أذكارِ طَرَفَيِ النَّهار**: ما رواه ابن السُّنِّيِّ عن أبي الدرداءِ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ: (**مَنْ قَالَ فِي كُلِّ يَوْمٍ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَفَاهُ اللهُ عز وجل هَمَّهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**)(١).

فهذا الذِّكْرُ المبارَكُ له أثرٌ بالغٌ ونفعٌ عظيمٌ في كلِّ ما يهمُّ المسلمَ مِنْ أمرِ الدنيا والآخرة، ومعنى: حَسْبِيَ اللهُ؛ **أي**: كافيني.

• **ومِنَ الأذكارِ العظيمةِ المشروعةِ في الصباحِ والمساء**: أنْ يقولَ المسلمُ إذا أصبَحَ وإذا أمسى: سبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ؛ لِمَا ثبَتَ في «صحيح مسلم»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (**مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ**)(٢).

(١) «عمل اليوم والليلة» رقم (٧١)، وقد رُوِيَ مرفوعًا وموقوفًا، وصحَّحه الألباني في «الضعيفة» رقم (٥٢٨٦) عن أبي الدرداء موقوفًا، ومثله لا يُقال بالرأي.

(٢) تقدم تخريجه (ص١٧٧).

وفي هذا الذِّكْرِ العظيمِ جَمْعٌ بين التسبيحِ والحَمْدِ، والتسبيحُ فيه تَنْزِيهٌ للهِ عن النَّقائصِ والعيوب، والحَمْدُ فيه إثباتُ الكمالِ له سبحانه، وتعيينُ المِائَةِ لِحِكْمةٍ أرادها الشارعُ، وخَفِيَ وَجْهُها علينا.

والسُّنَّةُ أنْ يَعْقِدَ هذه التسبيحاتِ بِيَدِهِ تَأَسِّيًا به ﷺ، لا بِالسُّبْحَةِ أو الآلَةِ، أو نحوِ ذلك مِمَّا يفعلُهُ كثيرٌ مِنَ الناس؛ ففي «سنن أبي داود»، **عن عبد الله بن عَمْرو** رضي الله عنهما، **قال**: «رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَعْقِدُ التَّسْبِيحَ بِيَمِينِهِ»[1].

ومِنَ المعلوم لدى كلِّ مسلم أنَّ خَيْرَ الهَدْي هو هَدْيُهُ ﷺ، رَزَقَنا اللهُ التمسُّكَ بسنَّته، ولُزُومَ نَهْجِه، واقتفاءَ آثارِهِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ وبركاتُهُ عليه، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين.

❀ ❀ ❀

(١) «المسند» (٢/ ١٦٠ ـ ١٦١)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥٠٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (١٣٣٠).

١١٥

وَمِنْ أَذْكَارِ طَرَفَيِ النَّهَارِ

• **إنَّ مِنَ الأذكارِ العظيمة، والأورادِ المباركة التي كان النَّبيُّ ﷺ يَحُثُّ أصحابَهُ على تَعَلُّمِها والمحافظةِ عليها كلَّ صباحٍ ومساء**: ما ورَدَ في حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه المُخرَّجِ في «سنن أبي داود»، و«جامع الترمذي»، وغيرهما: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُعلِّمُ أصحابَهُ، يقول: **(إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ، وَإِذَا أَمْسَى فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)**»(١).

فهذا دعاءٌ نَبوِيٌّ عظيمٌ، وذِكْرٌ مُبارَكٌ، يَجْدُرُ بالمسلم أنْ يُحافِظَ عليه كلَّ صباحٍ ومساء، ويَتأمَّلَ في معانِيهِ الجليلة، ودَلَالاتِهِ العظيمة، وكيف أنَّه قد اشتَمَلَ على تَذْكِيرِ المسلم بعظيمِ فَضْلِ اللهِ عليه، ووَاسِعِ مَنِّهِ وإِكْرامِه، فنَوْمُ الإنسانِ ويَقَظَتُه، وحركتُهُ وسكونُه، وقيامُهُ وقُعُودُه إنَّما هو بالله عز وجل، فما شاءَ اللهُ كان، وما لَمْ يشأْ لَمْ يكن، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ العظيم.

وقوله في الحديث: **(بِكَ أَصْبَحْنَا)**؛ **أي**: بنعمتِكَ وإعانتِكَ وإمدادِكَ أصبحنا؛ **أي**: أدركْنَا الصباحَ، وهكذا المعنى في قوله: **(بِكَ أَمْسَيْنَا)**.

وقوله: **(وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ)**؛ **أي**: حالُنا مُستَمِرٌّ على هذا في جميعِ الأوقاتِ، وسائرِ الأحوال، في حَرَكاتنا كلِّها وشؤونِنَا جَمِيعِهَا، فإنَّما نحنُ بك، أنتَ المعينُ وحدَك، وأَزِمَّةُ الأمورِ كلِّها بيدك، ولا غِنَىٰ لنا عنك طَرْفَةَ عَيْن، وفي هذا مِنَ الاعتمادِ على اللهِ واللُّجُوءِ إليه والاعترافِ بِمَنِّهِ وفَضْلِهِ ما يُحقِّقُ للمرءِ إيمانَه، ويُقوِّي يقينَه، ويُعْظِمُ صِلَتَهُ بربِّه سبحانه.

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (٥٠٦٨)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٩١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٦٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٥٣).

وقوله في الحديث: (**وَإِلَيْكَ النُّشُورُ**)؛ أي: المَرْجِعُ يومَ القيامةِ، بِبَعْثِ النَّاسِ مِنْ قبورهم، وإحيائِهِمْ بعد إِمَاتَتِهم.

وقوله: (**وَإِلَيْكَ المَصِيرُ**)؛ أي: المَرْجِعُ والمآبُ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العَلَق: ٨].

وقد جعَلَ ﷺ قولَهُ: (**وَإِلَيْكَ النُّشُورُ**) في الصباحِ، وقولَهُ: (**وَإِلَيْكَ المَصِيرُ**) في المساء؛ رعايةً للتَّناسُبِ والتشاكُلِ؛ لأنَّ الإصباحَ يُشبِهُ النَّشْرَ بعدَ الموت، والنومُ مَوْتةٌ صغرى، والقيامُ منه يشبهُ النَّشْرَ من بعدِ الموت؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٢].

والإمساءُ يُشبِهُ الموتَ بعدَ الحياة؛ لأنَّ الإنسانَ يصيرُ فيه إلى النَّوْمِ الذي يشبه الموتَ والوفاة.

فكانتْ بذلكَ خاتمةُ كلِّ ذِكْرٍ متجانسةً غايةَ المجانسةِ مع المعنى الذي ذُكِرَ فيه.

ومِمَّا يُوَضِّحُ هذا: ما ثبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ كان يقولُ عندَ قيامِهِ من النوم: (**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**)(١)، فسُمِّيَ النومُ مَوْتًا والقيامُ منه حياةً مِنْ بعدِ الموت. وسيأتي الكلامُ على هذا الحديثِ وبيانُ معناه عند الكلامِ على أذكارِ النومِ والانتباهِ منه - إن شاء الله -.

● **ومِنْ أذكارِ الصباحِ والمساءِ**: ذَلِكُمُ الذِّكْرُ العظيمُ، والدعاءُ النافعُ الذي عَلَّمَهُ النَّبيُّ ﷺ أبا بكرٍ الصديقَ رضي الله عنه عندما سألَهُ أنْ يُرْشِدَهُ إلى كلماتٍ يقولُها كلَّ صباح ومساء؛ فقد رَوَى الترمذي، وأبو داود، وغيرُهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه قال: «يَا رَسُولَ الله، مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ، قَالَ: (**قُلِ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ،**

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٢٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧١١).

رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وشِرْكِهِ)، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: (**وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ**)، قَالَ: (**قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجِعَكَ**)[1].

۞ **فهذا دعاءٌ عظيمٌ يُستحَبُّ للمسلم أن يقولَهُ في الصباحِ والمساءِ، وعندَ النوم**، وهو مُشْتَمِلٌ على التعوُّذِ بالله، والالتجاءِ إليه، والاعتصامِ به ـ سبحانَهُ ـ من الشرور كلِّها، مِنْ مصادرها وبداياتها، ومِنْ نتائِجِهَا ونهاياتها، وقد بدَأَهُ بِتَوَسُّلاتٍ عظيمةٍ إلى اللهِ جلَّ وعلا؛ بذكرِ جُمْلةٍ من نُعُوتِهِ العظيمة، وصفاتِهِ الكريمة، الدَّالَّةِ على عَظَمَتِهِ وجلالِهِ وكمالِهِ، فتوسَّلَ إليه بأنَّه: (**فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**)؛ **أي**: خالقُهُما ومُبْدِعُهما ومُوجِدُهما على غيرِ مثالٍ سابق، وأنَّه (**عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**)؛ **أي**: لا يخفى عليه خافيةٌ، فهو عليمٌ بكلِّ ما غابَ عن العبادِ وما ظهَرَ لهم، فالغيبُ عنده شهادةٌ، والسِّرُّ عنده علانيَةٌ، وعِلْمُهُ سبحانه مُحيطٌ بكلِّ شيء، وتَوسَّلَ إليه بأنَّه (**رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ**)؛ فلا يَخْرُجُ شيءٌ عن ربوبيَّته، وهو المالكُ لكلِّ شيء، فهو سبحانه رَبُّ العالمين، وهو المالكُ للخَلْقِ أجمعين، ثمَّ أَعْلَنَ بعد ذلكَ توحيدَهُ وأقَرَّ له بالعبوديَّة، وأنَّهُ المعبودُ بحقٍّ ولا معبودَ بحقٍّ سواه، فقال: (**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**)، وكلُّ ذلك جاء مُقدِّمةً بينَ يَدَيِ الدعاءِ، مُظْهِرًا فيه العبدُ فاقتَهُ وفَقْرَهُ واحتياجَهُ إلى ربِّه، معترفًا فيه بجلالِهِ وعَظَمَتِهِ، مُثْبِتًا لصفاتِهِ العظيمة، ونعوتِهِ الكريمة، ثمَّ ذكَرَ بعد ذلكَ حاجتَهُ وسؤالَهُ، وهو أن يُعِيذَهُ اللهُ مِنَ الشرورِ كلِّها، فقال: (**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ**)، وفي هذا جمعٌ بين التعوُّذِ باللهِ مِنْ أصولِ الشَّرِّ ومنابعِهِ، ومن نهاياتِهِ ونتائجه.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ **في التعليقِ على هذا الحديث**: «فذَكَرَ ـ **أي**: النَّبيُّ ﷺ ـ مَصْدَرَيِ الشَّرِّ، وهما النَّفْسُ والشيطانُ، وذَكَرَ مَوْرِدَيْهِ ونِهَايَتَيْهِ،

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ١٧١)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٣٩٢، ٣٥٢٩)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٦٧، ٥٠٨٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢٧٠١).

وهما عَوْدُهُ على النفسِ أو على أخيهِ المسلم، فجمَعَ الحديثُ مصادرَ الشَّرِّ ومَوارِدَهُ في أوجزِ لفظٍ وأخصرِهِ وأجمعِهِ وأَبْيَنِهِ»(١). **فالحديثُ فيه تَعوُّذٌ باللهِ ﷻ مِنْ أربعةِ أمورٍ تتعلَّقُ بالشر:**

الأول: شَرُّ النَّفْسِ، وشَرُّ النفسِ يُولِّدُ الأعمالَ السيِّئَةَ والذُّنوبَ والآثامَ.

والثاني: شَرُّ الشيطان، وعداوةُ الشيطانِ للإنسانِ مَعْلُومةٌ بتحريكِهِ لِفِعْلِ المعاصي والذُّنوبِ، وتَهييجِ الباطل في نفسِهِ وقَلْبِه.

وقوله: **(وشِرْكِهِ)**؛ **أي**: ما يدعو إليه مِنَ الشِّرْك، ويُرْوَى: بفتحِ الشينِ والراء: **(وَشَرَكِهِ)**؛ **أي**: حبائِلِهِ.

والثالث: اقترافُ الإنسانِ السُّوءَ على نفسِهِ؛ وهذه نتيجةٌ من نتائجِ الشَّرِّ عائدةٌ إلى نفسِ الإنسان.

والرابع: جَرُّ السُّوءِ على المسلمين؛ وهذه نتيجةٌ أخرى مِنْ نتائجِ الشَّرِّ عائدةٌ إلى الآخرين.

وقد جمَعَ الحديثُ التعوُّذَ باللهِ مِنْ ذلك كلِّه، فما أَجْمَعَهُ مِنْ حديث! وما أعظَمَ دَلَالَتَهُ، وما أَكْمَلَ إحاطتَهُ بالتَّخَلُّصِ مِنَ الشَّرِّ كلِّه!

إذا كان النبيُّ ﷺ علَّمَ أَبَا بَكْرٍ صدِّيقَ الأُمَّةِ رضي الله عنه هذا الدُّعاءَ وعلَّمَهُ أيضًا أنْ يقولَ: **(اللَّهُمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)**(٢).

«فَلَيْسَ لأحدٍ أنْ يظُنَّ استغناءَهُ عنِ التَّوبةِ إِلَىٰ اللهِ والاستغفارِ مِنَ الذُّنوبِ؛ بلْ كلُّ أَحدٍ مُحتاجٌ إِلَى ذلكَ دائمًا»(٣).

والله المستعانُ، وهو وحدَهُ المُوفِّقُ لا شريك له.

❁ ❁ ❁

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٠٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٥٥).

١١٦

وَمِنْ أَذْكَارِ طَرَفَيِ النَّهَارِ

• **إنَّ مِنَ الدعواتِ العظيمة التي كان يحافظُ عليها النَّبيُّ ﷺ كلَّ صباحٍ ومساء، بل كان لا يَدَعُهَا كلَّ ما أصبَحَ وأمسَى**: ما ثبَتَ في «سنن أبي داود»، و«سنن ابن ماجه»، وغيرهما، مِنْ حديث عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: (**اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِن فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**)»[(١)].

وقد بَدَأَ ﷺ هذا الدعاءَ العظيمَ بسُؤَالِ اللهِ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ، والعافيةُ لا يَعْدِلُها شيءٌ، ومَنْ أُعطِيَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ، فقد كَمُلَ نَصِيبُهُ من الخيرِ؛ روى الترمذي في «جامعه»، عن العَبَّاس بن عبد المُطَّلِبِ رضي الله عنه عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ، قال: «قلتُ: يا رسولَ اللهِ، علِّمْني شيئًا أسألُهُ اللهَ عز وجل، قال: (**سَلِ اللهَ العَافِيَةَ**)، فمَكَثْتُ أيامًا، ثُمَّ جِئْتُ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، عَلِّمْني شيئًا أسألُهُ اللهَ، فقال لي: (**يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، سَلِ اللهَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ**)»[(٢)].

وفي «المسند»، و«جامع الترمذي»، عن أبي بكر الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: (**سَلُوا اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْرًا**

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٥)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٧٤)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٧١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (٣١٢١).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٠٩)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥١٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢٧٩٠).

مِنَ العَافِيَةِ)[(١)].

والعَفْوُ: مَحْوُ الذنوب وسَتْرُها، **والعافيةُ:** هي تأمينُ اللهِ لعبدِهِ مِنْ كلِّ نِقْمَةٍ ومِحْنَة، بصرفِ السُّوءِ عنه، ووقايتِهِ من البلايا والأسقام، وحِفْظِهِ من الشرورِ والآثام.

وقد سأَلَ ﷺ العافيةَ في الدنيا والآخرة، والعافيةَ في الدِّينِ والدنيا والأهلِ والمال. **وأمَّا سؤالُ العافيةِ في الدِّينِ:** فهو طَلَبُ الوقايةِ مِنْ كلِّ أمرٍ يَشِينُ الدِّينَ، أو يُخِلُّ به، **وأمَّا في الدنيا:** فهو طَلَبُ الوقايةِ مِنْ كلِّ أمرٍ يَضُرُّ العبدَ في دنياه مِنْ مُصيبةٍ أو بَلَاءٍ أو ضَرَّاءَ أو نحوِ ذلك، **وأمَّا في الآخرة:** فهو طَلَبُ الوقايةِ مِنْ أهوالِ الآخرةِ وشدائدها، وما فيها من أنواعِ العقوبات، **وأمَّا في الأهل:** فبِوِقَايَتِهِمْ مِنَ الفِتَن، وحِمَايَتِهم من البَلَايَا والمِحَن، **وأمَّا في المال:** فبِحفْظِهِ مِمَّا يُتْلِفُهُ مِنْ غَرَقٍ أو حَرْقٍ أو سَرِقَةٍ أو نحو ذلك، فجَمَعَ في ذلك سؤالَ اللهِ الحِفْظَ من جَمِيعِ العَوارِضِ المُؤْذِيَة، والأخطارِ المُضِرَّة.

وقوله: **(اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي)**؛ أي: عُيُوبِي وخَلَلِي وتقصيري، وكلَّ ما يَسُوؤُنِي كَشْفُه، ويدخُلُ في ذلك الحفظُ من انكشافِ العَوْرة، وهي في الرَّجُلِ ما بينَ السُّرَّةِ إلى الرُّكْبة، وفي المرأةِ جَمِيعُ بدنها، وحَرِيٌّ بالمرأةِ أن تُحافظَ على هذا الدُّعَاء، ولا سيَّما في هذا الزمانِ الذي كَثُرَ فيه في أنحاءِ العالمِ تَهَتُّكُ النساء، وعَدَمُ عِنَايَتِهِنَّ بالسَّتْرِ والحجاب؛ فتلك تُبْدِي ساعدَها، والأخرى تَكْشِفُ سَاقَها، وثالثةٌ تُبْدِي صَدْرَها ونَحْرَها، وأُخْرَيَاتٌ يَفْعَلْنَ ما هو أَشَدُّ وأقبحُ من ذلك، بينما المسلمةُ الصَّيِّنَةُ العفيفةُ تَتجَنَّبُ ذلك كلَّه، وهي تسألُ اللهَ دائمًا وأبدًا أن يَحْفَظَها مِنَ الفتن، وأن يَمُنَّ عليها بِسَتْرِ عَوْرَتِها.

وقوله: **(وَآمِنْ رَوْعَاتِي)** هو مِنَ الأمنِ، ضِدُّ الخوف، **والرَّوْعَاتُ:** جَمْعُ رَوْعَةٍ، وهو الخَوْفُ والحزن، ففي هذا سؤالُ اللهِ أن يُجَنِّبَهُ كلَّ أمرٍ يُخِيفُهُ،

---

(١) «مسند أحمد» (٣/١)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٥٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٦٣٢).

أو يُحْزِنُهُ، أو يُقْلِقُهُ، وذِكْرُ الرَّوْعاتِ بصيغةِ الجمعِ إشارةٌ إلى كثرتها وتعَدُّدِها.

وقوله: (**اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِن بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَن يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**) فيه سؤالُ اللهِ الحِفْظَ من المهالكِ والشُّرُورِ التي تَعْرِضُ للإنسانِ مِنَ الجهاتِ السِّتِّ؛ فقد يأتيه الشَّرُّ والبلايا مِنَ الأمام، أو مِنَ الخَلْف، أو مِنَ اليمين، أو مِنَ الشمال، أو مِنْ فوقه، أو مِنْ تحته، وهو لا يدري مِنْ أيِّ جهةٍ قد يَفْجَؤُهُ البلاءُ، أو تَحُلُّ به المصيبةُ، فسأَلَ ربَّهُ أنْ يَحْفَظَهُ مِن جميعِ جهاتِه.

ثم إنَّ مِنَ الشَّرِّ العظيمِ الذي يحتاجُ الإنسانُ إلى الحفظِ منه شَرَّ الشيطانِ الذي يَتَرَبَّصُ بالانسانِ الدوائر، ويأتيه مِنْ أمامِهِ وخلفه، وعن يمينِهِ وعن شماله؛ لِيُوقِعَهُ في المصائب، وليَجُرَّهُ إلى البلايا والمهالك، وليُبْعِدَهُ عن سبيلِ الخيرِ وطريقِ الاستقامة، كما في دعواه في قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

فالعَبْدُ بحاجةٍ إلى حِصْنٍ مِنْ هذا العدوِّ، ووَاقٍ له مِنْ كَيْدِهِ وشَرِّه. وفي هذا الدعاءِ العظيمِ تَحصينٌ للعبدِ مِنْ أنْ يَصِلَ إليه شَرُّ الشَّيطانِ مِنْ أيِّ جهةٍ من الجهات؛ لأنَّه في حفظِ اللهِ وكَنَفِهِ ورعايته.

وقوله: (**وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**) فيه إشارةٌ إلى عِظَمِ خُطورةِ البلاءِ الذي يَحُلُّ بالإنسانِ مِنْ تحته، كأنْ تُخْسَفَ به الأرضُ مِنْ تَحْته، وهو نوعٌ مِنَ العقوبةِ التي يُحِلُّها اللهُ ﷻ ببعض مَنْ يَمْشُونَ على الأرض دونَ قيام منهم بطاعةِ خالقها ومُبْدِعها، بل يَمْشُونَ عليها بالإثم والعدوان، والشَّرِّ والعصيان، فيُعَاقَبُونَ بأن تُزَلْزَلَ مِنْ تحتهم، أو أن تُخْسَفَ بهم؛ جزاءً على ذنوبهم، وعقوبةً لهم على عصيانهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ومِنَ الأذكارِ العظيمةِ التي يَجْدُرُ بالمسلمِ أن يُحَافِظَ عليها كلَّ صباحٍ ومساءٍ: ما ثبَتَ في «مسند الإمام أحمد»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ قَال: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ حِينَ يُصْبِحُ، كَتَبَ اللهُ لَهُ مِائَةَ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ مِائَةَ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ عَدْلَ رَقَبَةٍ، وَحُفِظَ بِهَا يَوْمَئِذٍ حَتَّى يُمْسِيَ، ومَنْ قَالَهَا مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ)(١).

ومِنَ الأذكارِ العظيمةِ التي يُشْرَعُ للمسلمِ أن يَقُولَها كلَّ صباحٍ مِائَةَ مَرَّةٍ(٢): ما ثبَتَ في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ، أنَّه قال: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَومٍ مِائَةَ مرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، ومُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، ومَن قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ)(٣).

وفي هذا دَلَالةٌ على عِظَمِ شَأْنِ كلمةِ التوحيدِ «لا إله إلَّا الله»، التي هي أَجَلُّ الكلماتِ على الإطلاق، وأفضلُ ما قالَهُ النبيُّون، ولأجلها قَامَتِ الأرضُ والسمٰوات، وخُلِقَتِ الخَلَائِقُ والبَرِيَّات، وأهلُها هُمْ أهلُ السعادةِ والفلاح، والفوزِ في الدنيا والآخرة، فكلمةٌ هذا شأنُها حَرِيٌّ بالمسلمِ أن تَعْظُمَ عِنايتُهُ بها، واللهُ وحدَهُ بيدِهِ التوفيقُ والسداد.

❁ ❁ ❁

(١) «المسند» (٢/ ٣٦٠)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٦/ ١/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) وهو ليس مختصًّا بوقت الصباح، لكنَّ الإتيان به في الصباح أفضلُ؛ لِمَا في ذلك من المبادرة بالخير، وليحصلَ أجرُهُ من أوَّلِ يومه، وليكونَ حِرْزًا له مِنَ الشيطانِ مِنْ بدايةِ اليوم؛ ولهذا أورده العلماء في جملةِ أذكارِ الصباح.

(٣) تقدم تخريجه (ص٢٠).

١١٧

وَمِنْ أَذْكَارِ الصَّبَاحِ

• **إنَّ مِنَ الأذكارِ العظيمةِ التي كان يقولُها النَّبِيُّ ﷺ كلَّ صباح**: ما رواه الإمام أحمد، عن عبد الرحمٰن بن أَبْزَىٰ رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَصْبَحَ قَالَ: **(أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ)**»(١).

وما أَجْمَلَ أنْ يَفْتَتِحَ المسلمُ يَوْمَهُ بهذه الكلماتِ العظيمة، المشتملةِ على تجديدِ الإيمان، وإعلانِ التوحيد، وتأكيدِ الالتزام بِدِينِ محمَّدٍ ﷺ، والاتِّباعِ لِمِلَّةِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام، الحنيفيَّةِ السَّمْحة، والبُعْدِ عن الشركِ كُلِّهِ صغيرِهِ وكبيرِهِ.

فهي كلماتُ إيمانٍ وتوحيد، وصِدْقٍ وإخلاص، وخضوعٍ وإذعان، ومتابعةٍ وانقياد، جديرٌ بِمَنْ يُحافِظُ عليها أن يَتأمَّلَ في دَلَالاتِها العظيمة، ومعانيها الجليلة وأن يحقق ما دلت عليه من الإيمان والتوحيد.

وقوله: **(أَصْبَحْنَا عَلَى فِطرَةِ الإِسْلَامِ)**؛ **أي**: مَنَّ اللهُ علينا بالإصباح، ونحنُ على فطرةِ الإسلامِ، مستمسكينَ بها، مُحَافِظِينَ عليها، غيرَ مُغيِّرين ولا مُبَدِّلين.

وقوله: **(فِطْرَة الإِسْلَام)**؛ **أي**: دِينِ الإسلام الذي فطَرَ اللهُ الناسَ عليه؛ وذلك بأن يُقِيمَ المرءُ وجهَهُ لِدِينِ اللهِ حنيفًا، بالتوجُّهِ بالقلبِ والقصدِ والبدنِ إلى الالتزام بشرائع الدينِ الظاهرةِ والباطنة؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٠].

(١) «مسند أحمد» (٣/٤٠٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٦٧٤).

قال ابن كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ **في معنى الآية**: «يقولُ تعالى: فسَدِّدْ وَجْهَكَ، واستَمِرَّ على الدِّينِ الذي شَرَعَهُ اللهُ لك مِنَ الحنيفيَّةِ مِلَّةِ إبراهيمَ الذي هداك اللهُ لها، وكمَّلها لَكَ غايةَ الكمال، وأنت مَعَ ذلك لازمْ فطرتَكَ السليمةَ التي فطَرَ الخَلْقَ عليها؛ فإنَّه تعالى فطَرَ خَلْقَهُ على معرفتِهِ وتوحيدِهِ، وأنَّه لا إلـهَ غيره»[(١)]. اهـ. كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

فهذا الأصلُ في جميعِ الناس، ومَنْ خرَجَ عن هذا الأصلِ، فلعارضٍ عَرَضَ لفطرتِهِ فأفسَدَهَا؛ كما في حديث عِيَاضٍ المُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ ﷺ، فيما يرويه عن ربِّه أنَّه قال: **(إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا)**؛ رواه مسلم في «صحيحه»[(٢)].

وفي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)**[(٣)].

ولا شكَّ أنَّ نِعْمَةَ اللهِ على عبدِهِ عظيمةٌ أنْ يُصْبِحَ حين يُصْبِحُ وهو على فطرةٍ سليمة، لَمْ يُصِبْهَا تَلَوُّثٌ أو تَغَيُّرٌ أو انحرافٌ.

وقوله: **(وكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ)**؛ **أي**: وأصبَحْنا على كلمةِ الإخلاص، وهي كلمة التوحيد: **«لا إلـه إلَّا الله»**، تلكُمُ الكلمةُ العظيمةُ الجليلةُ التي هي أفضلُ الكلماتِ العظيمةِ وأجلُّها على الإطلاق، بل هي رأسُ الدِّين وأساسُهُ ورأْسُ أمره، لِأَجْلِهَا خُلِقَتِ الخليقةُ، وأُرْسِلَتِ الرُّسُل، وأنزِلَتِ الكُتُب، وبها افترَقَ الناسُ إلى مؤمنينَ وكُفَّارٍ، وهي زُبْدَةُ دَعْوةِ المرسلين، وخلاصةُ رسالاتِهِم، وهي أعظَمُ نِعَمِ اللهِ على عباده؛ **وفي هذا يقولُ سُفْيان بن عُيَيْنَةَ** رَحِمَهُ اللهُ:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٢٠).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٨٦٥).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (١٣٥٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٥٨).

«ما أنعَمَ اللهُ على عبدٍ مِنَ العبادِ نِعْمةً أعظمَ مِنْ أنْ عَرَّفَهُمْ لا إلـه إلَّا الله»(١).

وكلمةُ «**لا إلـه إلَّا الله**» هي كلمةُ إخلاصٍ وتوحيد، ونَبْذٍ للشرك، وبراءةٍ منه ومِنْ أهله؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزُّخْرُف].

وإذا أصبحَ العبدُ وهو على هذه الكلمةِ العظيمةِ لَمْ يُغيِّرْ ولَمْ يُبَدِّلْ، فقد أصبَحَ على خيرِ حال، ولعِظَمِ شأنِ بَدْءِ اليومِ بهذه الكلمةِ العظيمةِ جاء الحثُّ على الإكثارِ مِنْ قولها مَرَّاتٍ عديدةً كلَّ صباح، وقد سبَقَ ذكرُ أجرِ مَنْ قالها حين يصبحُ عَشْرَ مراتٍ، وأجرِ مَنْ قالها حين يصبحُ مِائَةَ مرةٍ.

وقوله: (**وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ**)؛ **أي**: وأصبَحْنا على ذلكمُ الدِّينِ العظيم، الذي رَضِيَهُ اللهُ لعباده دينًا، وبعَثَ به نبيَّه الكريمَ محمَّدًا ﷺ، وقال فيه سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥].

فهذا هو دينُ النَّبيِّ الكريم محمَّد ﷺ، وهو الاستسلامُ لله بالتوحيدِ، والانقيادُ له بالطاعة، والبراءةُ مِنَ الشِّرْكِ وأهله، وإنَّ نعمةَ اللهِ جلَّ وعلا على عبدِهِ عظيمةٌ أن يُصْبِحَ على هذا الدِّينِ العظيم، والصراطِ المستقيم، صراطِ الذينَ أنعَمَ اللهُ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالِّين.

يقولُ الله تعالى مُذكِّرًا عبادَهُ الذين حَباهُمْ بهذه النعمةِ ومَنَّ عليهم بها: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحُجرَات: ٧]، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٢١].

---

(١) ذكره ابن رجب في «كلمة الإخلاص» (ص٥٣).

فللَّه ما أعظَمَها مِنْ مِنَّة! وما أجلَّها مِنْ نِعْمة!

وقوله: (**وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)؛ **أي**: وأصبَحْتُ على هذه المِلَّةِ المباركة، مِلَّةِ إبراهيمَ خليلِ الرحمٰن عليه السلام، وهي الحنيفيةُ السَّمْحة، والتمسكُ بالإسلام، والبعدُ عن الشِّرْك؛ ولهذا قال: (**حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)، وهي ملَّةٌ مباركةٌ، لا يتركُها ولا يَرْغَبُ عنها إلَّا مَنْ حَكَمَ على نفسِهِ بالغَيِّ والسَّفَه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقد أمَرَ اللهُ ﷻ نبيَّه ﷺ باتِّباعِ هذه المِلَّةِ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وهداه إليها؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى مُمْتَنًّا على عبادِهِ بهذه النعمة: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

وإذا أصبَحَ العبدُ وهو على هذه المِلَّةِ المباركةِ الحنيفيَّةِ السَّمْحة، فقد أصبَحَ على خيرٍ عظيم، وفضلٍ عميم.

فكم هو جميلٌ وعظيمٌ أن يَفْتَتِحَ المسلمُ يومَهُ بهذه الكلماتِ المباركة! ويومٌ يُفْتَتَحُ بكلماتٍ هذا شأنُها مِنْ قلبٍ صادقٍ أَكْرِمْ به مِنْ يومٍ!

❁ ❁ ❁

١١٨

وَمِنْ أَذْكَارِ الصَّبَاحِ

• **إنَّ مِنَ الدَّعواتِ العظيمةِ النافعةِ التي كان النَّبيُّ ﷺ يُلازمُ المحافظةَ عليها كلَّ صباحٍ**: ما ثَبتَ في «مسند الإمام أحمد»، و«سنن ابن ماجه»، من حديث أمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ حِينَ يُسَلِّمُ: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا)**(١).

۞ **ومَنْ يتأمَّلْ هذا الدعاءَ العظيمَ، يَجدْ أنَّ الإتيانَ به في هذا الوقتِ بعدَ صلاةِ الصبحِ في غاية المناسبة**؛ لأنَّ الصُّبحَ هو بدايةُ اليومِ ومُفْتَتَحُه، والمسلمُ ليس له مَطْمَعٌ في يومِهِ إلَّا تحصيلُ هذه الأهدافِ العظيمة، والمقاصدِ الجليلةِ المذكورةِ في هذا الحديث؛ وهي العِلْمُ النافع، والرِّزْقُ الطَّيِّب، والعملُ المتقبَّل، وكأنَّه في افتتاحِهِ ليومِهِ بذكرِ هذه الأمورِ الثلاثةِ دُونَ غيرها يُحَدِّدُ أهدافَهُ ومقاصدَهُ في يومه. ولا ريبَ أنَّ هذا أجمعُ لقلبِ الإنسان، وأضبَطُ لسيره ومَسْلَكِهِ، بخلافِ مَنْ يصبحُ دون أن يَسْتشعِرَ أهدافَهُ وغاياتِهِ ومقاصدَهُ التي يَعْزِمُ على القيامِ بها في يومه، ونجدُ المُعتنينَ بالتربيةِ والآدابِ يُوصُونَ بتحديدِ الأهدافِ في كلِّ عملٍ يقومُ به الإنسان، وفي كلِّ سبيلٍ يسلكه؛ ليكونَ ذلك أَدْعَى لتحقيقِ أهدافه، وأسْلَمَ مِنَ التشتُّتِ والارتباك، وأضبَطَ له في مسارِهِ وعمله. وما مِنْ شكٍّ أنَّ مَنْ يسيرُ وَفْقَ أهدافٍ محدَّدةٍ، ومقاصدَ معيَّنةٍ: أكملُ وأضبطُ وأسلَمُ مِمَّنْ يسيرُ دونَ تحديد أهداف، ودونَ تعيينِ مقاصدَ.

والمسلمُ ليس له في يومِهِ بأجمعه، بل ليس في أيامِهِ كلِّها إلَّا الطمعُ في

---

(١) «مسند أحمد» (٦/ ٣٢٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٩٢٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (٧٥٣).

تحصيلِ هذه الأهدافِ الثلاثةِ وتكميلِها، ونَيْلِها مِنْ أقربِ وجه، وأحسنِ طريق.

وعلى هذا فما أجمَلَ أن يُفتتَحَ اليومُ بِذْكِرِ هذه الأمورِ الثلاثةِ التي تُحَدِّدُ أهدافَ المسلمِ في يومه، وتُعيِّنُ غاياتِهِ ومقاصدَه!

وليس المسلمُ في إتيانِهِ بهذا الدعاءِ في مفتتحِ يومِهِ يَقْصِدُ تحديدَ أهدافِهِ فحسبُ، بل هو يَتضَرَّعُ إلى ربِّه، ويلجأُ إلى سيِّده ومولاه، بأن يَمُنَّ عليه بتحصيلِ هذه المقاصدِ العظيمة، والأهدافِ النبيلة؛ إذْ لا حولَ له ولا قُوَّةَ، ولا قُدرةَ عنده على جَلْبِ نفعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ إلَّا بإذنِ ربِّه سبحانه، فهو إليه يلجأُ، وبه يستعينُ، وعليه يَعتمِدُ ويَتوكَّل.

فقولُ المسلمِ في كلِّ صباح: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا)** هو استعانةٌ منه في صباحِهِ وأوَّلِ يومِهِ بربِّه سبحانه: بأن يُيَسِّرَ له العسير، ويُذلِّلَ له الصِّعَابَ، ويُعِينَهُ على تحقيقِ غاياتِهِ المباركةِ الحميدة.

وتَأمَّلْ كيفَ بَدَأَ النَّبِيُّ ﷺ هذا الدعاءَ بسؤالِ اللهِ العلمَ النافع، قبل سؤالِهِ الرِّزْقَ الطَّيِّبَ والعملَ المتقبَّل، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ العلمَ النافعَ مُقدَّمٌ، وبه يُبْدَأ؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمَّد: ١٩]، فبَدَأَ بالعلم قبلَ القولِ والعمل. وفي البدءِ بالعلمِ النافعِ حكمةٌ ظاهرةٌ لا تخفى على المتأمِّل، أَلَا وهي أنَّ العِلْمَ النافعَ به يستطيعُ المرءُ أنْ يُميِّزَ بين العملِ الصالحِ وغيرِ الصالح، ويستطيعُ أن يُميِّزَ بين الرزقِ الطَّيِّبِ وغيرِ الطيِّب، ومَنْ لَمْ يكنْ على علم، فإنَّ الأمورَ قد تختلطُ عليه، فيقومُ بالعملِ يَحْسَبُهُ صالحًا نافعًا، وهو ليس كذلك؛ والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف]، وقد يكتسبُ رزقًا ومالًا، ويَظُنُّهُ طَيِّبًا مفيدًا، وهو في حقيقتِهِ خبيثٌ ضارٌّ، وليس للإنسانِ سبيلٌ إلى التمييزِ بينَ النافعِ والضارِّ، والطيِّبِ والخبيثِ إلَّا بالعلمِ النافع؛ ولهذا تكاثَرَتِ النصوصُ في الكتابِ والسُّنَّة، وتضافَرَتِ الأدلَّةُ في الحَثِّ على طلبِ العلم، والترغيبِ في تحصيله،

وبيانِ فضلِ مَنْ سلَكَ سبيلَه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

وقوله ﷺ في الحديث: **(عِلْمًا نَافِعًا)** فيه دَلَالةٌ على أنَّ العلمَ **نوعان: علمٌ** نافعٌ، **وعلمٌ** ليس بنافعٍ، وأعظمُ العلمِ النافعِ ما ينالُ به المسلمُ القُربَ من ربِّه، والمعرفةَ بدينه، والبصيرةَ بسبيلِ الحَقِّ الذي ينبغي أن يسيرَ عليه؛ وتأمَّلْ في هذا قولَ الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة]، فَحَرِيٌّ بالمسلم في يومه أن يَعْتَنِيَ بالقرآنِ الكريم وبمذاكرتِهِ ومدارستِهِ، وأنْ يَعْتَنِيَ بسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ المبيِّنة له، والشارحةِ لِدَلَالتِهِ ومقاصده.

وقوله في الحديث: **(وَرِزْقًا طَيِّبًا)** فيه إشارةٌ إلى أنَّ الرِّزْقَ **نوعان**: طَيِّبٌ وخبيثٌ، واللهُ تعالى طَيِّبٌ لا يقبلُ إلَّا طَيِّبًا، وقد أمَرَ المؤمنينَ بما أمَرَ به المُرْسَلِينَ؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقَرَة: ١٧٢]، وقد بعَثَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ بتحليلِ الطيِّب، وتحريمِ الخبيث؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فَحَرِيٌّ بالمسلم في يومِهِ أنْ يَتَحَرَّى المالَ الطيِّبَ الحلالَ، والرِّزقَ السليمَ النافعَ، ويَحْذَرَ أشدَّ الحَذَرِ من الأموالِ الخبيثة، والمكاسبِ المحرَّمة.

وقولُهُ في الحديث: **(وعَمَلًا مُتَقَبَّلًا)** وفي رواية: **(وعَمَلًا صَالِحًا)** فيه إشارةٌ إلى أنَّه ليس كُلُّ عَمَلٍ يَتقرَّبُ العبدُ به إلى اللهِ يكونُ مُتقبَّلًا، بل المُتقبَّلُ مِنَ العَمَلِ هو الصالحُ فقطْ، **والصالحُ**: هو ما كانَ للهِ وحدَهُ، وعلى هَدْيِ نبيِّهِ محمَّد ﷺ وسنَّته؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢]، **قال الفُضَيْلُ بن عِيَاضٍ في معنى الآية**: «**أَيْ**: أَخْلَصُهُ وأَصْوَبُهُ، **قيل**: يا أبا عليٍّ، وما أَخْلَصُهُ وأَصْوَبُهُ؟ قال: إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولَمْ يكنْ صوابًا لَمْ يُقْبَلْ، وإذا كان صوابًا ولم يكنْ خالصًا لَمْ يُقْبَلْ؛

حتى يكونَ خالصًا صوابًا، والخالصُ: ما كان لله، والصوابُ: ما كان على السُّنَّة»[١].

۞ **فهذا دعاءٌ عظيمُ النَّفْعِ، كبيرُ الفائدة**، يَحْسُنُ بالمسلم أن يُحَافِظَ عليه كلَّ صباحٍ تَأَسِّيًا بالنبيِّ الكريم ﷺ، ثمَّ يُتْبِعُ الدعاءَ بالعمل، فَيَجْمَعَ بين الدُّعَاءِ وبَذْلِ الأسباب؛ لِيَنَالَ هذه الخيراتِ العظيمةَ، والأفضالَ الكريمةَ، واللهُ وحده الموفِّق، والمُعِينُ على كلِّ خير.

❁ ❁ ❁

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخلاص والنية» (ص٥٠ ـ ٥١)، وأبو نُعَيْمٍ في «الحِلْية» (٨/ ٩٥).

١١٩

وَمِنْ أَذْكَارِ الصَّبَاحِ

• **إنَّ مِنَ الأذكارِ العظيمةِ الجامعةِ التي يُستحبُّ للمسلم أن يُواظِبَ عليها كلَّ صباحٍ**: أن يقولَ: (**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**)؛ وذلك لِمَا رَوَى مسلم في «صحيحه»، عن جُوَيْرِيَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا [أي: موضع صلاتها]، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: (**مَا زِلْتِ عَلَى الحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟**) قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ اليَوْمِ، لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**)»[(١)].

فهذا ذِكْرٌ عظيمٌ مُبارَكٌ أرشَدَ إليه النَّبِيُّ ﷺ وبيَّن أنَّه ذِكْرٌ مُضاعَفٌ، يزيدُ في الفضلِ والأجرِ على مجرَّدِ الذِّكْرِ بـ (سبحانَ اللهِ) أضعافًا مضاعفةً؛ لأنَّ ما يقومُ بقلبِ الذَّاكِرِ حينَ يقولُهُ مِنْ معرفةِ اللهِ وتَنْزِيهِهِ وتعظيمِهِ بهذا القدر المذكورِ من العددِ أعظمُ مِمَّا يقوم بقلبِ مَن قال: (**سُبْحَانَ اللهِ**) فقطْ.

والمقصودُ: أنَّ اللهَ سبحانَهُ يَسْتَحِقُّ التسبيحَ بذلكَ القَدْرِ والعدد؛ كقوله ﷺ: (**رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَٰوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**)، وليس المرادُ أنَّ العبدَ سَبَّحَ تسبيحًا بذلكَ القَدْرِ؛ فإنَّ فِعْلَ العبدِ محصورٌ، وإنَّما المرادُ ما يستَحِقُّهُ الرَّبُّ مِنَ التسبيحِ، فذاكَ الذي يَعْظُمُ قَدْرُه[(٢)].

قال العلَّامة ابن القيِّم رحمه الله **في شرح هذا الحديث، وبيانِ ما فيه مِنْ**

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ١٢).

لطائفَ جليلةٍ، ومعارفَ عظيمةٍ: «وهذا يُسمَّى الذِّكْرَ المُضَاعَفَ، وهو أعظمُ ثناءً من الذِّكْرِ المفرد، وهذا إنَّما يَظْهَرُ في معرفةِ هذا الذِّكْرِ وفَهْمِه؛ فإنَّ قولَ المسبِّح: **(سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ)** تَضمَّنَ إنشاءً وإخبارًا: تَضمَّنَ إخبارًا عمَّا يستحقُّهُ الرَّبُّ من التسبيحِ عَدَدَ كلِّ مخلوقٍ كان أو هو كائنٌ إلى ما لا نهايةَ له:

فتَضمَّنَ الإخبارَ عن تنزيهِ الرَّبِّ وتعظيمِهِ والثناءِ عليه هذا العَدَدَ العظيمَ، الذي لا يَبْلُغهُ العادُّون، ولا يُحصِيهِ المُحْصُون.

وتَضمَّنَ إنشاءَ العبدِ لتسبيحٍ هذا شأنُهُ، لا أنَّ ما أتى به العبدُ من التسبيح هذا قدرُهُ وعددُهُ، بل أخبَرَ أنَّ ما يستحقُّهُ الرَّبُّ ﷻ من التسبيح هو تسبيحٌ يبلُغُ العَدَدَ الذي لو كان في عَدَدٍ ما يزيدُ عليه، لذَكَرَهُ؛ فإنَّ تَجدُّدَ المخلوقاتِ لا ينتهي عددًا، ولا يُحْصَى الحاضِرُ.

وكذلك قوله: **(وَرِضَا نَفْسِهِ)**، وهو يَتضمَّنُ **أمرَيْنِ عظيمَيْن**:

أحدهما: أن يكونَ المرادُ تسبيحًا هو في العَظَمةِ والجلالِ مساوٍ لرضا نفسه، كما أنَّه في الأوَّلِ مُخْبِرٌ عن تسبيحٍ مساوٍ لعددِ خَلْقه، ولا ريبَ أنَّ رضا نفسِ الرَّبِّ أمرٌ لا نهايةَ له في العَظَمَةِ والوصف، والتسبيحُ ثناءٌ عليه سبحانه يَتضمَّنُ التعظيمَ والتنزيهَ.

فإذا كانتْ أوصافُ كمالِهِ ونعوتُ جلالِهِ لا نهايةَ لها ولا غايةَ، بل هي أعظمُ مِنْ ذلكَ وأجلُّ، كان الثناءُ عليه بها كذلك؛ إذْ هو تابعٌ لها إخبارًا وإنشاءً، وهذا المعنى ينتظمُ المعنى الأوَّلَ مِنْ غير عَكْس.

وإذا كان إحسانُهُ سبحانه وثوابُهُ وبركتُهُ وخيرُهُ لا منتهىٰ له، وهو من مُوجِبَاتِ رضاهُ وثَمَرَتِهِ، فكيف بصفة الرضا؟!

وقوله: **(وَزِنَةَ عَرْشِهِ)** فيه إثباتُ العرش، وإضافتُهُ إلى الرَّبِّ ﷻ، وأنَّه أثقلُ المخلوقاتِ على الإطلاق؛ إذْ لو كان شيءٌ أثقلَ منه، لَوُزِنَ به التسبيحُ.

فالتضعيفُ الأوَّلُ: للعَدَدِ والكميَّة، والثاني: للصِّفَةِ والكيفيَّة، والثالث: للعِظَمِ والثِّقَلِ وكِبَرِ المقدار.

وقوله: **(ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ)** هذا يَعُمُّ الأقسامَ الثلاثةَ ويَشْمَلُها؛ فإنَّ مِدَادَ كلماتِهِ ﷻ لا نهايةَ لِقَدْرِهِ، ولا لصفتِهِ، ولا لِعَدَدِهِ؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]؛ **ومعنى هذا**: أنَّه لو فرِضَ البحرُ مدادًا، وجميعُ أشجارِ الأرضِ أقلامًا، والأقلامُ تَسْتَمِدُّ بذلك المدادِ، فتفنى البحارُ والأقلامُ، وكلماتُ الرَّبِّ لا تفنى ولا تَنْفَدُ.

والمقصودُ: أنَّ في هذا التسبيح من صفاتِ الكمال، ونعوتِ الجلالِ ما يُوجِبُ أن يكونَ أفضلَ مِنْ غيره . . .».اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ(١).

هذا وقد نبَّه العلماءُ ـ رحمهم الله ـ إلى أهميَّةِ معرفةِ العبدِ بمعاني هذه الكلماتِ واستحضارِهِ لِدَلَالتها، وأنَّه بِحَسَبِ ما يقومُ بقلبِ العبدِ من هذه المعرفةِ والاستحضارِ يكونُ له مِنَ المَزِيَّةِ والفضلِ ما ليس لغيره، ويكونُ تأثيرُ هذا الذِّكرِ فيه أبلغَ مِنْ تأثيرِهِ في غيره.

ومَنْ أتى بهذا الذِّكرِ أو بغيرِهِ مِنَ الأذكارِ المأثورةِ دُونَ استحضارٍ منه للمعنى ولا تَعقُّلٍ لِلدَّلَالة، فإنَّ تأثيرَ الذِّكرِ فيه يكونُ ضعيفًا.

وعلى كلٍّ، فالجديرُ بالمسلمِ أنْ يُواظِبَ على هذا الذِّكْرِ المبارَكِ صباحَ كلِّ يومٍ، وأن يجتهدَ في استحضارِ معناه وتَعَقُّلِ دَلَالته، وباللهِ وحدَهُ التوفيق، وهو سبحانه المُعِينُ والهادي إلى سواءِ السبيلِ.

* * *

(١) «المنار المنيف» (ص٢٧ ـ ٣٠).

١٢٠

فَضْلُ الصَّبَاحِ وَبَرَكَتُهُ

روى الإمام مسلمٌ في «صحيحه»، **عن أبي وائل شَقِيق بن سَلَمة الأَسَديِّ، قال:** «غَدَوْنَا عَلَى عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه يَوْمًا، بَعْدَمَا صَلَّيْنَا الغَدَاةَ، فَسَلَّمْنَا بالباب، فأُذِنَ لنا، قال: فَمَكَثْنَا بالبابِ هُنَيَّةً [**أي**: انتظَرْنَا وتريَّثنا قليلًا]، قال: فخَرَجَت الجاريةُ، فقالتْ: أَلَا تَدْخُلُونَ؟ فدَخَلْنَا، فإذا هو جالسٌ يُسَبِّحُ، فقال: ما مَنَعَكُمْ أنْ تَدْخُلُوا وقد أُذِنَ لكم؟ فقلنا: لا، إلَّا أَنَّا ظَنَنَّا أنَّ بعضَ أهلِ البيتِ نائمٌ، قال: ظَنَنْتُمْ بِآلِ ابن أُمِّ عَبْدٍ غَفْلَةً؟ [**يعني**: نَفْسَهُ؛ فإنَّ أم عبدٍ الهُذَلِيَّةَ أُمُّهُ، وهي صحابيَّةٌ رضي الله عنه وعنها]، قال: ثمَّ أَقْبَلَ يُسبِّحُ حتى إذا ظَنَّ أنَّ الشمسَ قد طلَعَتْ، قال: يا جَارِيَةُ، انْظُرِي هل طَلَعَتْ؟ قال: فنَظَرَتْ، فإذا هي لَمْ تَطْلُعْ، فأقبلَ يُسبِّحُ، حتى إذا ظَنَّ أنَّ الشمسَ قد طلَعَتْ، قال: يا جاريةُ، انْظُرِي هل طلَعَتْ؟ قال: فنَظَرَتْ، فإذا هي قد طلَعَتْ، قال: الحمدُ للهِ الذي أقالنا يَوْمَنَا هذا، ولم يُهْلِكْنا بِذُنُوبِنا»(١).

إنَّ هذا الأَثَرَ يُعْطِي المتأمِّلَ صورةً واضحةً ودَلَالَةً ناصعةً على تلكَ الحياةِ الجادَّة، والهِمَّة العالية، والاستثمارِ للوقتِ عندَ السَّلَفِ الصالح رحمهم الله، ولا سيَّما الصحابةُ رضي الله عنهم وأرضاهم، مع فِقْهٍ منهم بالأوقاتِ، ومعرفةٍ لأقدارها، والفاضلِ منها، وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

فهذا الوقتُ الذي دخَلَ فيه أبو وائلٍ رحمه الله ومَنْ معه على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقتٌ مُبارَكٌ وثمينٌ للغاية، وهو وقتُ ذِكْرٍ للهِ وَجِدٍّ ونشاطٍ وهِمَّةٍ في الخير، إلَّا أنَّ كثيرًا من الناس يُهْمِلُونه، ويفرِّطون فيه، ولا يعرفونَ له

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٨٢٢).

مكانتَهُ وقَدْرَه، فهو ضائعٌ إمَّا في النَّوْم، أو في الكَسَلِ والفتور، أو بشَغْلِهِ في التَّوافِهِ مِنَ الأمور، مع أنَّ أوَّلَ اليومِ بمَنْزِلَةِ شَبَابه، وآخِرَهُ بمنزلةِ شيخوخته[١]، ومَن شَبَّ على شيءٍ شابَ عليه؛ ولهذا فإنَّ ما يكونُ مِنَ الإنسانِ في باكورةِ اليوم وأوَّلِه ينسحبُ على بقيَّةِ يومه؛ إنْ نشاطًا فنشاطٌ، وإنْ كسلًا فكَسَلٌ، ومَنْ أمسَكَ بزمامِ اليوم - وهو أَوَّلُهُ - سَلِمَ له يومُهُ كلُّه بإذن الله، وأُعِينَ فيه على الخير، وبُورِكَ له فيه، **وقد قيل**: «يَوْمُكَ مثلُ جَمَلِكَ؛ إنْ أمسكْتَ أَوَّلَهُ تبِعَكَ آخِرُه»، وهذا المعنى مستفادٌ مِنْ أَثَرِ ابن مسعودٍ المتقدِّم؛ فإنَّهُ ﵁ لَمَّا تَحقَّقَ له حفظُ أوَّلِ اليومِ بالذِّكْرِ، **قال**: «الحمدُ لله الذي أَقَالَنا يَوْمَنا هذا، ولم يُهْلِكْنَا بذنوبنا».

بل إنَّ المحافظةَ على الذِّكْرِ في هذا الوقتِ يُعْطِي الذَّاكِرَ هِمَّةً وقوَّةً ونشاطًا في يومِهِ كلِّه؛ **يقولُ ابن القيِّم** ﵀: «حَضَرْتُ شيخَ الإسلام ابن تيميَّةَ مَرَّةً صلَّى الفجرَ، ثم جلَسَ يذكُرُ اللهَ تعالى إلى قريبٍ مِنِ انتصافِ النهار، ثم التفَتَ إِلَيَّ، وقال: هذه غَدْوَتِي، ولو لَمْ أَتغَدَّ هذا الغَدَاءَ، سَقَطَتْ قُوَّتِي، أو كلامًا قريبًا مِنْ هذا». اهـ[٢].

وقد ثَبَتَ في السُّنَّةِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دعا اللهَ أن يُبارك لِأُمَّتِهِ في هذا الوقت؛ فقد رَوَى أبو داود، والترمذي، والدارمي، وغيرُهم عن صَخْر بن وَدَاعَةَ الغامديِّ ﵁: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا)**، وكان إذا بعَثَ سَرِيَّةً أو جيشًا، بَعَثَهُمْ أَوَّلَ النهارِ، وكان صَخْرٌ ﵁ تاجرًا، فكان يَبْعَثُ تجارتَهُ مِنْ أوَّلِ النهارِ، فأَثْرَى وكَثُرَ مالُهُ[٣].

وهو حديثٌ ثابتٌ عن النبيِّ ﷺ؛ فقد رواه جمعٌ مِنَ الصحابة، منهم عليُّ بن أبي طالب، وابنُ عَبَّاس، وابنُ مسعود، وابنُ عُمَر، وأبو هُرَيْرة، وأَنَسُ بن مالك، وعبدُ الله بن سَلَام، والنَّوَّاسُ بن سَمْعَان، وعِمْرانُ بن حُصَيْن،

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٢/ ٢١٦).

(٢) «الوابل الصيِّب» (ص٨٥ - ٨٦).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٣١ - ٤٣٢)، و«سنن أبي داود» رقم (٢٦٠٦)، و«جامع الترمذي» رقم (١٢١٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٢٣٦).

وجابرُ بن عبدِ الله، وغيرُهم، رضي الله عنهم أجمعين[١].

ونظرًا إلى أهميَّةِ هذا الوقتِ، وعِظَم بَرَكَتِهِ، وكثرةِ ما فيه من خيرٍ، فإنَّ السلفَ ـ رحمهم الله ـ كانوا يكرهون النَّوْمَ فيه، وإضاعتَهُ بالكَسَلِ والعَجْزِ؛ **يقول ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللهُ **ـ وهو العلَّامة المُرَبِّي ـ في كتابه «مَدارِج السالكين»**: «ومِنَ المكروهِ عندهم ـ **أي**: السَّلَفِ رحمهم الله ـ النَّوْمُ بين صلاةِ الصبحِ وطلوعِ الشمس؛ فإنَّهُ وقتُ غَنِيمَةٍ، وللسَّيْرِ ذلكَ الوقتَ عندَ السالكينَ مَزِيَّةٌ عظيمةٌ، حتى لو ساروا طُولَ لَيْلِهم لَمْ يَسْمَحُوا بالقعودِ عن السيرِ ذلكَ الوقتَ حتى تَطْلُعَ الشمسُ؛ فإنَّه أَوَّلُ النهارِ ومفتاحُهُ، ووقتُ نزولِ الأرزاق، وحصولِ القَسْم، وحلولِ البَرَكة، ومنه يَنْشَأُ النهار، ويَنْسَحِبُ حُكْمُ جميعِهِ على حكمِ تلك الحِصَّة، فينبغي أن يكونَ نَوْمُها كنومِ المضطر». اهـ[٢].

ومِن الآثارِ الواردةِ عن السلف ـ رحمهم الله ـ في هذا المعنى: **ما رُوِيَ عن عبد الله بن عَبَّاس** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، **أنَّه رأى ابنًا له نائمًا نَوْمةَ الصُّبْحةِ، فقالَ له**: «قُمْ، أتنامُ في الساعةِ التي تُقَسَّمُ فيها الأرزاقُ؟!»[٣].

ورُوِيَ عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، **أنَّه قال**: «النَّوْمُ على ثلاثةِ أوجهٍ: نَوْمُ خُرْق، ونَوْمُ خُلْق، ونومُ حُمْق؛ فأمَّا النومُ الخُرْق: فنومةُ الضُّحَى يقضي الناسُ حوائجَهم وهو نائمٌ، وأمَّا النومُ الخُلْق: فنومُ القائلةِ نصفَ النهارِ، وأمَّا نومُ الحُمْقِ: فنومٌ حين تَحْضُرُ الصلاةُ»[٤].

يقول العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ **في كتابه «زاد المعاد»**: «ونَوْمُ الصُّبْحةِ يَمْنَعُ الرِّزْقَ؛ لأنَّ ذلك وقتٌ تَطْلُبُ فيه الخليقةُ أرزاقَها، وهو وقتُ قِسْمَةِ الأرزاقِ، فنومُهُ حِرْمانٌ إلَّا لعارضٍ أو ضرورةٍ، وهو مُضِرٌّ جِدًّا بالبَدَنِ لإرخائِهِ البدنَ، وإفسادِهِ لِلْفَضَلاتِ التي ينبغي تحليلُها بالرِّيَاضة، فيُحْدِثُ تكسُّرًا وَعِيًّا وضعفًا،

---

(١) **انظر**: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٠٨).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٩).

(٣) أورده ابن القيم في «زاد المعاد» (٤/ ٢٤١).

(٤) رواه البيهقي في «الشعب» (٤/ ١٨٢)، وأورده ابن مُفْلِح في «الآداب الشرعية» (٣/ ١٦٢).

وإنْ كان قبلَ التبرُّزِ والحَرَكةِ والرياضةِ وإشغالِ المَعِدةِ بشيء، فذلكَ الدَّاءُ العُضَالُ المُولِّدُ لأنواعٍ مِنَ الأدواء». اهـ[1]. وقد ذكَرَ نحوًا مِنْ هذا العلَّامةُ ابنُ مُفْلِحٍ رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الآدابُ الشرعية»[2].

وبهذا يَتبيَّنُ قيمةُ هذا الوقتِ المباركِ، وعِظَمُ نفعه، وأنَّه وقتُ جِدٍّ ونشاط، وذِكْرٍ لله عَزَّ وَجَلَّ، وهو وقتُ نزولِ الأرزاق، وحصولِ القَسْم، وحلولِ البَرَكة، وقد كان للسَّلَفِ ـ رحمهم الله ـ معه شأنٌ عظيم؛ إذْ أدركوا أهميَّتَهُ وقِيمَتَهُ، ولغيرهم معه شأنٌ آخرُ.

نسألُ اللهَ أنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَ أنفسنا، وأنْ يُوفِّقَنا جميعًا لكلِّ خير، وأن يَرْزُقَنا اتِّباعَ نَهْجِ السلفِ الصالح، وسلوكَ سبيلهم.

❁ ❁ ❁

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٢٤٢).
(٢) (٣/ ١٦٢).

١٢١

أَذْكَارُ النَّوْمِ

• **إنَّ مِنَ الأورادِ المبارَكَةِ التي كان يُحَافِظُ عليها النَّبيُّ الكريمُ ﷺ كلَّما أَوَىٰ في الليلِ إلى فراشِهِ لينامَ:** ما ثبتَ في «الصحيحِ»، عن أم المؤمنينَ عائشةَ رضي الله عنها «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»(١).

فهذا تَعَوُّذٌ عظيمٌ، وحِرْزٌ للإنسان، وحافِظٌ له بإذنِ اللهِ مِنْ أنْ يَمَسَّهُ في مَنَامِهِ مكروهٌ، أو ينالَهُ شَرٌّ أو أَذًى، أو يصيبَهُ شيءٌ مِنَ الهوامِّ المُؤْذِيَة، أو الحشراتِ القاتلة، لا سيَّما والإنسانُ عندَ نومِهِ يكونُ غافلًا عن كلِّ ما يجيءُ إليه، وعن جميعِ ما يَحْدُثُ له، فإذا اشتَغَلَ عندما يأْوِي إلى فراشِهِ بهذا الورْدِ العظيم، والحِرْزِ المتين، حُفِظَ بإذنِ اللهِ وكُفِيَ وَوُقِيَ، ولَم يَزَلْ عليه مِنَ اللهِ حافظٌ إلى أن يُصْبِح، وهذا يُؤَكِّدُ أهميَّةَ محافظة المسلم على هذا الورْدِ كلَّ ليلةٍ عندما يأوي إلى فراشِهِ؛ لينالَ هذا الحِفْظَ، ولِتَتَحَقَّقَ له تلك العنايةُ والرعايةُ.

وقد كان رسولُ اللهِ ﷺ يحافظُ على هذا الورْدِ أشدَّ المحافظة، ولا يَتْرُكُ قولَهُ في كلِّ ليلة؛ ومِمَّا يَدُلُّ على عِظَم عنايةِ النَّبيِّ ﷺ به: ما ثبتَ في بعضِ طرقِ الحديثِ، أنَّ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: «فلمَّا اشتَكَى ﷺ كان يَأْمُرُ أنْ أَفْعَلَ ذلكَ به»(٢).

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٠١٧).

(٢) رواه البخاري رقم (٥٧٤٧).

وثبَتَ في «الصحيح» عنها ﵂: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يَنْفُثُ على نَفْسِهِ في مَرَضِهِ الَّذي قُبِضَ فيه بالمُعَوِّذَاتِ، فلمَّا ثَقُلَ، كُنْتُ أنا أَنْفُثُ عليه بِهِنَّ، فأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا»(١).

فكان ﷺ يحافظُ على هذا التعوُّذِ إلى آخرِ حياته، ولم يَتْرُكْهُ حتى في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيه؛ فيأمُرُ عائشةَ ﵂ أن تُمِرَّ يَدَهُ على جَسَدِهِ؛ لِعدَمِ تَمكُّنِهِ مِنْ فعلِ ذلكَ بسببِ المرضِ والوَجَع.

وقولُ عائشةَ ﵂ في الحديث: «كان إذا أَوَىٰ إلى فراشِهِ»؛ **أي**: إذا رجَعَ إليه وضَمَّهُ فراشُهُ ودخَلَ فيه، ومنه: المَأْوَىٰ، وهو المكانُ الذي يَأْوِي إليه الإنسان.

وقولها: «كلَّ لَيْلَةٍ» فيه دَلَالةٌ على محافظةِ النَّبيِّ ﷺ على هذا التعوُّذِ في جَمِيعِ لياليه.

وقولها: «جَمَعَ كَفَّيْهِ»؛ **أي**: ضَمَّ يَدَيْهِ وأَلْصَقَ إحداهما بالأخرى، وهما مفتوحتانِ إلى جهةِ الوَجْه؛ لِيُباشِرَ النَّفْثَ فيهما.

وقولها: «ثُمَّ نفَثَ فيهما»؛ **أي**: اليَدَيْنِ، والنَّفْثُ شَبِيهُ النَّفْخ، وهو أَقَلُّ مِنَ التَّفْل، وهو خروجُ الهَوَاءِ مِنَ الفمِ مَعَ شيءٍ يسيرٍ مِنَ الرِّيق.

وقولها: «ثُمَّ مَسَحَ بهما ما استَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ» فيه دليلٌ على أنَّ السُّنَّةَ أن يَمْسَحَ بيدِهِ ما استطاعَ مَسْحَهُ مِنْ بدنه.

ومِمَّا ينبغي أن يُعْلَمَ هنا: أنَّ مَسْحَ الوجهِ والبدنِ خاصٌّ بهذا الموطن، ولا يَصِحُّ أن يُعَمَّمَ في كلِّ ذِكْرٍ أو دعاء، ولم يَثْبُتْ عن النَّبيِّ ﷺ في ذلكَ حديثٌ؛ **ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** ﵀: «وأمَّا مَسْحُهُ وَجْهَهُ بيديه، فليس عنه فيه إلَّا حديثٌ أو حديثانِ لا تقومُ بهما حجةٌ»(٢).

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٧٥١)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٩٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/٥١٩).

وقولها: «يَبْدَأُ بهما على رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وما أقبَلَ مِنْ جَسَدِهِ» فيه بيانٌ أنَّ السُّنَّةَ أن يبدأَ المسلمُ بأعالي بدنه، فيَمْسَحَ على رأسِهِ ووجهِهِ وما أقبَلَ من جَسَدِهِ، ثم ينتهي إلى ما أدبرَ منه.

والسُّنَّةُ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ المسلمُ ثلاثَ مرَّاتٍ، تَأَسِّيًا بالرسولِ الكريم ﷺ.

ثم إنَّ السورةَ الأُولَىٰ مِنْ هذه السُّوَرِ الثلاثِ قد اشتَمَلَتْ على ذِكْرِ صفةِ الرَّبِّ جلَّ شأنُهُ، بل أُخْلِصَتْ لبيانِ تلك الصفة، ولهذا سُمِّيَتْ سورةَ الإخلاص؛ لأنَّها مُشْتمِلةٌ على إخلاصِ التوحيدِ العِلْمِيِّ للهِ تباركَ وتعالى، ولو قيل لأحدٍ: مَنْ هو اللهُ؟ فاكتَفَىٰ في الجوابِ على هذا السؤالِ بتلاوةِ هذه السورة، لكانَ الجوابُ وافيًا كافيًا، والأحدُ هو المُتفرِّدُ بالكمالِ والجلال، الذي له الأسماءُ الحسنى، والصفاتُ الكاملةُ العليا، والأفعالُ المُقدَّسةُ العظيمة، الذي لا نَظِيرَ له ولا مَثِيلَ، والصَّمَدُ؛ **أي**: المقصودُ في جميعِ الحوائج، فأهلُ العالَمِ العُلْويِّ والسُّفْليِّ مفتقرونَ إليه غايةَ الافتقار، يسألونه حوائجَهُمْ، ويَرْغَبُونَ إليه في مُهِمَّاتهم؛ لأنَّه العظيمُ الكاملُ في جميعِ أوصافِهِ ونعوته؛ ومِنْ كماله سبحانَهُ أنَّه ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ لكمال غناه، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لا في أسمائِهِ، ولا في أوصافِهِ، ولا في أفعالِهِ؛ تباركَ وتعالى.

وأمَّا المعوِّذتان: ففيهما التعوُّذُ بالله ﷻ مِنَ الشُّرور جميعها، والآفاتِ كلِّها، فسورةُ الفَلَقِ فيها التعوُّذُ باللهِ العظيم ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾؛ **أي**: فالقِ الحَبِّ والنَّوَىٰ، وفالقِ الإصباح، ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، وهذا يَشْمَلُ جميعَ ما خلَقَ اللهُ مِنَ الإنسِ والجنِّ والحيوانات، فيستعيذُ بخالقها مِنَ الشرِّ الذي فيها، ثم خَصَّصَ بعد هذا العموم، فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾؛ **أي**: مِن شَرِّ ما يكونُ في الليل، حينَ يَغْشَى الناسَ، وتنتشرُ فيه كثيرٌ مِنَ الأرواحِ الشِّرِّيرَة، والحيواناتِ المؤذية، ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾؛ **أي**: السَّواحِرِ اللَّاتِي يَسْتَعِنَّ على سِحْرِهِنَّ بالنَّفْثِ في العُقَد، ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، **والحاسدُ هو**: الذي يُحِبُّ زوالَ النعمةِ عن المحسود، ويدخُلُ في ذلك العائنُ؛

لأنَّه لاتصدُرُ العينُ إلَّا عن نوعِ حَسَدٍ، فتَضمَّنتْ هذه السورةُ الكريمةُ التعوذَ مِن جميعِ الشرورِ عمومًا وخصوصًا.

وسورةُ الناسِ فيها التعوُّذُ بِرَبِّ الناس ومَالِكِهم وإِلَـٰهِهِم مِنَ الشيطانِ الرجيم الذي هو أصلُ الشرورِ كلِّها، ومَادَّتُها، وأساسُ بُدُوِّها وفُشُوِّها[١].

فحريٌّ بالمسلمِ أن يُحافِظَ على قراءةِ هذه السُّوَر الثلاثِ كلَّ ليلةٍ عندما يأوي إلى فراشِهِ، على الصِّفَةِ التي كان يفعلُها رسولُ اللهِ ﷺ؛ لينالَ بذلكَ حِفْظَ اللهِ ورعايتَهُ وكفايتَهُ، ولينامَ قريرَ العَيْن، وباللهِ التوفيق.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «تفسير السعدي» (ص٩٣٧ ـ ٩٣٨).

١٢٢

وَمِنْ أَذْكَارِ النَّوْمِ

• **إنَّ مِنَ الأذكارِ العظيمةِ التي يُستَحَبُّ للمسلمِ أنْ يحافظَ عليها كلَّ ليلةٍ عندما يأوي إلى فراشِهِ:** قراءةَ آيةِ الكُرْسِيِّ، التي هي أعظمُ آيةٍ في القرآنِ الكريم؛ فقد جاء في السُّنَّةِ ما يدلُّ على فضل ذلك، وأنَّ مَنْ قرأها إذا أوَى إلى فراشِهِ، فإنَّه لَمْ يزَلْ عليه مِنَ اللهِ حافظٌ، ولا يَقرَبُهُ شيطانٌ حتى يُصْبِحَ.

روى البخاريُّ في «صحيحه»، عن أبي هريرة ﵁، قال: «وَكَّلَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ، لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟**)، قَالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: (**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**)، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ ـ وَذَكَرَ الحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ ـ: فَأَخَذْتُهُ ـ **يَعْنِي**: فِي الثَّالِثَةِ ـ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ؛ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟**)، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ الله، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: (**مَا هِيَ؟**)، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ،

فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ـ وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ ـ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يا أَبَا هُرَيْرَةَ؟)** قَالَ: لَا، قَالَ: **(ذَاكَ شَيْطَانٌ)**»[1].

فهذا الحديثُ فيه فضلُ هذه الآيةِ الكريمة، وعِظَمُ نَفْعِها، وشِدَّةُ تأثيرها في التحرُّزِ مِنَ الشيطانِ والوقايةِ مِنْ شَرِّه، وأنَّ مَنْ قرأَها عندَ نومِهِ حُفِظَ وكُفِيَ ولَم يَقْرَبْهُ شيطانٌ حتى يُصْبِحَ؛ ذلك أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ فيها مِنْ توحيدِ اللهِ وتمجيدِهِ وتعظيمِهِ وبيانِ تفرُّده بالكمال والجلال ما يُحَقِّقُ لِمَنْ قرأها الحفظَ والكفايةَ؛ ففيها مِنْ أسماءِ اللهِ الحسنى خمسةُ أسماء، وفيها مِنْ صفاتِ اللهِ ما يزيد على العشرينَ صفةً، وقد بُدِئَتْ بذكرِ تفرُّدِ اللهِ بالألوهيَّة وبطلانِ ألوهيَّةِ كلِّ مَنْ سواه، ثم ذِكْرِ حياةِ اللهِ الكاملةِ التي لا يَلْحَقُها فناء، وذِكْرِ قيوميَّتِهِ سبحانه؛ **أي**: قيامِهِ بنفسِهِ، وقيامِهِ بتدبيرِ أمورِ خَلْقه، وذِكْرِ تَنَزُّهِهِ سبحانَهُ عن صفاتِ النقصِ كالسِّنَةِ والنوم، وبيانِ سَعَةِ مُلْكِهِ سبحانه، وأنَّ جميعَ مَنْ في السمٰواتِ والأرضِ عبيدٌ له، داخلونَ تحتَ قَهْرِهِ وسلطانه، وذَكَرَ مِنْ أدلَّةِ عظمتِهِ أنَّه لا يمكنُ لأحدٍ مِنَ الخَلْقِ أنْ يَشْفَعَ عنده سبحانَهُ إلَّا مِنْ بعدِ إذنه، وفيها إثباتُ صفةِ العلمِ للهِ سبحانه، وأنَّ عِلْمَهُ سبحانه محيطٌ بكلِّ معلوم، فهو يعلمُ ما كان وما سيكون، وما لَمْ يكنْ لو كان كيفَ يكونُ، وفيها بيانُ عَظَمَةِ اللهِ سبحانَهُ بِذِكْرِ عَظَمةِ مخلوقاته، فإذا كان الكرسيُّ ـ وهو مخلوقٌ مِنْ مخلوقاتِهِ ـ وَسِعَ السمٰواتِ والأرضَ، فكيف بالخالقِ الجليل، والربِّ العظيم، وفيها بيانُ عظمةِ اقتدارِهِ سبحانه، وأنَّه سبحانَهُ مِنْ كمالِ قُدْرتِهِ لا يؤودُهُ؛ **أي**: لا يُثْقِلُهُ حفظُ السمٰواتِ والأرضِ، ثم خُتِمَتِ الآيةُ بذكرِ اسمَيْنِ عظيمَيْنِ لله، وهما **«العليُّ العظيم»**، وفيهما إثباتُ علوِّ اللهِ سبحانه ذاتًا وقدْرًا وقَهْرًا، وإثباتُ عَظَمَتِهِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٩).

سبحانه بالإيمان بأنَّ له جميعَ معاني العَظَمةِ والجلال، وأنَّه لا يَسْتَحِقُّ أحدٌ التعظيمَ والتكبيرَ والإجلالَ سواه.

فهي آيةٌ عظيمةٌ فيها مِنَ المعاني الجليلة، والدَّلالاتِ العميقة، والمعارفِ الإيمانية: ما يَدُلُّ على عِظَمِها وجلالةِ شأنها، وقد ثبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّها أعظمُ آيةٍ في القرآن الكريم؛ كما في «الصحيح»: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لأُبيِّ بن كَعْبٍ: **(يا أَبا المُنْذِرِ، أَتَدْري أَيَّ آيَةٍ في كِتابِ اللهِ أَعْظَمُ؟)** فقالَ: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ، فرَدَّدَها مِرارًا، ثُمَّ قال أُبيٌّ: هي آيةُ الكُرْسِيِّ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، فقال: **(لِيَهْنِكَ العَلْمُ أَبا المُنْذِرِ!)**»(١)؛ أي: لِيَكُنِ العلمُ هَنيئًا لك.

● **ومِمَّا يُستحَبُّ للمسلم أن يحافظَ عليه عندما يأوي إلى فراشِهِ:** أن يقرَأَ سورةَ الكافرون، ويَجْعَلَها آخِرَ ما يَقْرَأُ؛ فإنَّها براءةٌ مِنَ الشِّرْك.

روى الإمام أحمد في «مسنده»، عن فَرْوَةَ بن نَوْفَلٍ الأشجعيِّ، عن أبيه رضي الله عنه، قال: «دفعَ إِلَيَّ النَّبيُّ ﷺ ابْنَةَ أم سَلَمَةَ، وقال: **(إِنَّما أَنْتَ ظِئْري)**، قال: فمَكَثْتُ ما شاءَ اللهُ، ثم أَتَيْتُهُ، فقال: **(ما فَعَلَتِ الجارِيَةُ أَوِ الجُوَيْرِيَةُ؟)**، قال: قلتُ: عندَ أُمِّها، قال: **(فَمَجِيءُ ما جِئْتَ؟)** قال: قلتُ: تُعَلِّمُني ما أقولُ عندَ مَنامِي، فقال: **(اقْرَأْ عِنْدَ مَنامِكَ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ثُمَّ نَمْ عَلَى خاتِمَتِها؛ فَإِنَّها بَراءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ)**»(٢).

وقد دلَّ هذا الحديثُ على فَضْلِ هذه السورة، وفَضْلِ قراءتها عندَ النوم، والترغيبِ في أنْ ينامَ المسلمُ على خاتمتها؛ ليكونَ آخِرُ ما نامَ عليه هو إعلانَ التوحيد، والبراءةَ مِنَ الشِّرْك، ولا رَيْبَ أنَّ مَنْ قرأها، وفَهِمَ ما دَلَّتْ عليه، وعَمِلَ بما تقتضيه، فقد برئَ مِنَ الشِّرْكِ ظاهرًا وباطنًا، وقد كان بعضُ السَّلَفِ يُسمِّيها: **المُقَشْقِشَةَ**؛ يقالُ: قَشْقَشَ فلانٌ: إذا بَرِئَ مِنْ مَرَضِه؛ فهي تُبْرِئُ صاحبَها مِنَ الشرك.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٨).

(٢) «المسند» (٥/٤٥٦)، ورواه الترمذي رقم (٣٤٠٣) مختصرًا، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٦٠٤).

وتُسَمَّى هي وسورةُ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بِسُورَتَي الإخلاصِ؛ لأنَّ فيهما إخلاصَ التوحيدِ بنوعَيْهِ العِلْميِّ والعَمَلِيِّ للهِ تبارَكَ وتعالى.

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يُواظِبُ على قراءتهما في رَكْعَتَي الفَجْر، فيَفْتَتِحُ بهما عَمَلَ النَّهارِ، وكان يَقْرَؤُهما في سُنَّةِ المَغْرِب، فيَخْتتِمُ بهما عَمَلَ النهار، وكان يُوتِرُ بهما، فيكونانِ خَاتِمةَ عملِ الليل، وسبَقَ أن مَرَّ معنا أنَّه ﷺ كان يقرأُ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إذا أَوَىٰ إلى فراشِهِ، وفي حديثِ نَوْفَلٍ هذا الترغيبُ في قراءةِ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ عند النوم، فيكونانِ بذلكَ الخاتمةَ التي ينامُ عليها المسلمُ.

❀ ❀ ❀

١٢٣

فَضْلُ قِرَاءَةِ الآيَتَيْنِ الأَخِيرَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ

لقد ثبتَ في السُّنَّةِ عن النَّبيِّ ﷺ الترغيبُ في قراءة الآيتَيْنِ اللَّتَيْنِ خُتِمَتْ بهما سورةُ البَقرةِ في كلِّ ليلة، وذكَرَ ﷺ في ذلك فضلًا عظيمًا؛ ففي «الصحيحين»، عن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: قال النَّبيُّ ﷺ: **(مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ، كَفَتَاهُ)**(١).

وقد دَلَّ هذا الحديثُ على فضلِ قراءةِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ كلَّ ليلة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة].

وهما آيتانِ عظيمتانِ، **دَلَّتِ الأُولَىٰ منهما** على إيمانِ الرسولِ والمؤمنينَ معه باللهِ، وبكلِّ ما أَمَرَهُمْ سبحانه بالإيمانِ به، وانقيادِهِمْ وطاعتِهِمْ له سبحانه في جميعِ أوامره؛ حيثُ أخبرَ فيها سبحانه أَنَّهُمْ آمَنُوا باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورسلِهِ، وهذا يَتضمَّنُ الإيمانَ بجميعِ ما أخبرَ اللهُ به عن نفسه، وأَخبرَتْ به عنه رسُلُهُ مِنْ صفاتِ كمالِهِ، ونعوتِ جلالِهِ، وتَنْزِيهِهِ عن التمثيلِ والتعطيلِ، وعن جميعِ صفاتِ النَّقْصِ، ويتضمَّنُ الإيمانَ بالملائكةِ الكرامِ، وبجميعِ ما ذُكِرَ عنهم

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٠٠٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٠٨).

في الوحي؛ مِنْ أسمائِهِمْ وأوصافهم، وأعدادِهِمْ ووظائفهم، والإيمانَ بجميعِ الرُّسُلِ عليهم السلام والكُتُبِ المُنَزَّلةِ عليهم، وما تَضمَّنتْهُ الكُتُبُ من الأخبارِ والأوامرِ والنواهي، وأنَّهُمْ لا يُفرِّقونَ بين أحدٍ مِنْ رُسُلِ الله، بل يؤمنونَ بالجميع، ويقولون: سَمِعْنَا ما أَمَرْتَنَا به ونَهَيْتَنَا عنه، وأَطَعْنَا لكَ في ذلك، ويسألونَهُ المغفرةَ على ما صدَرَ منهم مِنْ تقصيرٍ أو إخلال، ويؤمنونَ بأنَّ مَرْجِعَهُمْ ومَصِيرَهم إليه سبحانه، فيجازيهِمْ بما عَمِلُوا مِنْ خيرٍ وشر؛ هذا خلاصةُ ما دَلَّتْ عليه الآيةُ الأولى.

والآيةُ الثانيةُ: فيها الإخبارُ بأنَّ اللهَ لا يُكلِّفُ الناسَ ما لا يطيقون، أو يَشُقُّ عليهم فِعْلُه، بل كلَّفهم بما فيه غِذاءُ أرواحهم، ودَوَاءُ أبدانهم، وصلاحُ قلوبهم، وزكَاءُ نفوسهم، وفيها الإخبارُ بأنَّ لكلِّ نفس ما كَسَبَتْ مِنَ الخير، وعليها ما اكتَسَبَتْ مِنَ الشَّرِّ، ولَمَّا أخبَرَ تعالى عن إيمانِ الرَّسُولِ والمؤمنينَ معه، وأنَّهم قابلوا أمرَ اللهِ بالسَّمْعِ والطاعة، وأنَّ كلَّ عاملٍ سيُجَازَى بِعَمَلِهِ، وكان الإنسانُ عُرْضَةً للتقصيرِ والخطأِ والنِّسْيان؛ أخبَرَ أنَّه لا يُكلِّفُ العبادَ إلَّا ما يطيقون، وأخبَرَ عن دعاءِ المؤمنينَ بذلك: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾، إلى آخر ما جاء في الآيات مِنْ دَعَواتٍ مُبارَكة، وقد أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ قال: **(قَدْ فَعَلْتُ)**؛ **أي**: أَجَبْتُ لِمَنْ دعا بهذه الدعوات.

وقد ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: **(قَالَ اللهُ: نَعَمْ)**[1].

فتَضمَّنَتِ الآيتان إيمانَ المؤمنينَ بالله، ودُخُولَهم تحتَ طاعتِهِ وعبوديَّته، واعترافَهُمْ بربوبيَّته، واضطرارَهُمْ إلى مغفرته، واعترافَهُمْ بالتقصيرِ في حقِّه، وإقرارَهُمْ برجوعهم إليه، واستشعارَهُمْ لمجازاتِهِ إيَّاهم على أعمالهم، ودعاءَهُمْ إيَّاه سبحانه، وسؤالَهُمُ العفوَ والمغفرةَ والرحمةَ والنصرَ على الأعداء، وهي - بلا ريبٍ - معانٍ عظيمةٌ تَدُلُّ على كمال إيمانهم، وتمامِ قَبُولهم، وصِدْقِ انقيادِهِمْ لله ربِّ العالمين.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (١٢٥).

ولهذا أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ في الحديثِ المُتقدِّم: أنَّ مَنْ قرأهما في ليلةٍ كَفَتَاهُ؛ **قال الشوكانيُّ** رَحِمَهُ اللهُ: «**أي**: أغنتاهُ عن قيامِ تلكَ الليلةِ بالقرآن، أو أجزَأَتَاهُ عن قراءتِهِ القرآنَ، أو أجزأَتَاهُ فيما يَتعلَّقُ بالاعتقادِ؛ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه مِنَ الإيمانِ والأعمالِ إجمالًا، أو وَقَتَاهُ مِنْ كلِّ سوءٍ ومكروه، أو كَفَتَاهُ شرَّ الشياطين، أو شرَّ الثَّقَلَيْنِ أو شرَّ الآفات كلِّها، أو كَفَتَاهُ بما حصَلَ له مِنْ ثوابِ غيرها، ولا مانعَ مِنْ إرادةِ هذه الأمورِ جَمِيعِها؛ ويؤيِّدُ ذلك: ما تَقرَّرَ في علمِ المعاني والبيانِ مِنْ أنَّ حذفَ المتعلَّقِ مُشْعِرٌ بالتعميم، فكأنَّه قال: كفتاه مِنْ كلِّ شَرٍّ أو مِنْ كلِّ ما يخافُ، وفضلُ اللهِ واسعٌ»[١]. اهـ. كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وقد اختار ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ **أنَّ معنى (كَفَتَاهُ)؛ أي**: مِنْ شرِّ ما يؤذيه، **فقال في كتابه «الوابل الصيِّب»**: «**الصحيحُ أنَّ معناها**: كفتاه مِنْ شَرِّ ما يؤذيه، **وقيل**: كفتاه مِنْ قيامِ الليل؛ وليس بشيء»[٢]. اهـ.

❁ **فحريٌّ بالمسلم**: أنْ يُحافِظَ على قراءةِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ كلَّ ليلةٍ؛ لينالَ هذا الموعودَ الكريمَ بأنْ يُكْفَى مِنْ كلِّ شَرٍّ يؤذيه، **وقد ورَدَ عن علي بن أبي طالب** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، **أنَّه قال**: «ما أَرَىٰ أحدًا يَعْقِلُ بَلَغَهُ الإسلامُ، يَنَامُ حتَّى يقرأَ آيةَ الكرسيِّ، وخواتيمَ سُورةِ البَقَرة؛ فإنَّها مِنْ كنْزٍ تحتَ العرشِ»[٣].

وقوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «فإنَّها مِنْ كَنْزٍ تحتَ العرشِ» ثبَتَ مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ في غيرِ ما حديثٍ؛ منها ما رواه الإمام أحمد في «مسنده»، عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ العَرْشِ)**[٤].

وفي «المسند» أيضًا، عن عُقْبَةَ بن عامرٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال:

---

(١) «تحفة الذاكرين» (ص٩٩). (٢) «الوابل الصيب» (ص١٥٦).

(٣) أورده ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٥٠٧)، وأورده النووي في «الأذكار» (ص٨٩) بلفظ آخر، وقال: «إسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم».

(٤) «المسند» (٥/ ١٨٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٠٦٠).

قال رسولُ الله ﷺ: **(اقْرَإِ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ؛ فَإِنِّي أُعْطِيتُهُمَا مِنْ تَحْتِ العَرْشِ)**(١).

ومِمَّا ورَدَ في فضلِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: ما أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه»، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «بينما جبريلُ قاعدٌ عندَ النَّبِيِّ ﷺ إذْ سَمِعَ نَقِيضًا من فوقِهِ، فرفَعَ رأْسَهُ، فقال: **(هَذَا بَابٌ فُتِحَ اليَوْمَ لَمْ يُفتَحْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فنزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ، نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ)**»(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «اعلَمْ أنَّ اللهَ سبحانَهُ أَعْطَى نبيَّهُ محمَّدًا - صلَّى الله عليه وسلَّم وبارَكَ - خواتيمَ سورةِ البَقَرةِ مِنْ كَنْزٍ تحتَ العرش، لَمْ يُؤْتَ منه نَبِيٌّ قبله، ومَنْ تَدَبَّرَ هذه الآياتِ، وفَهِمَ ما تَضَمَّنَتْهُ من حقائقِ الدِّين، وقواعدِ الإيمانِ الخمس، والردِّ على كُلِّ مُبْطِل، وما تَضَمَّنَتْهُ من كمالِ نِعَم اللهِ تعالى على هذا النَّبِيِّ ﷺ وأُمَّتِهِ، ومحبَّةِ اللهِ سبحانه لهم، وتفضيلِهِ إيَّاهم على مَنْ سواهم -: فلْيَهْنِهِ العلمُ»(٣)، ثم ذكَرَ رحمه الله كلامًا نفيسًا في بيانِ معناها.

وفي كلامهِ رحمه الله حثٌّ على العنايةِ بهاتَيْنِ الآيتَيْنِ حفظًا وقراءةً، وتَدَبُّرًا وتحقيقًا، واللهُ المرغوبُ أن يُوَفِّقَنَا لذلكَ ولكلِّ خير.

❁ ❁ ❁

---

(١) «المسند» (٤/ ١٤٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١١٧٢).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٨٠٦).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٢٩).

١٢٤

مِنْ أَذْكَارِ النَّوْمِ

لقد أرشَدَ النَّبِيُّ الكريمُ ﷺ المسلمَ عندما يَأْوِي إلى فراشِهِ لينامَ إلى جُمْلةٍ مِنَ الآدابِ العظيمة، والخصالِ الكريمة، والتي يَترَتَّبُ على محافظَتِهِ عليها وعنايتِهِ بها آثارٌ حَمِيدةٌ عديدة؛ **منها**: هُدُوؤُهُ في نَوْمِه، وسكونُهُ وراحتُه، وسلامتُهُ مِنَ الشرورِ والآفات، ولِيُصْبِحَ مِنْ ذلكَ النومِ على نفسٍ طَيِّبة، وهِمَّةٍ عالية، وخيرٍ ونشاط.

● **ومِنْ ذلك**: ما ثبَتَ في «الصحيحين»، من حديث البَرَاء بن عازب رضي الله عنهما، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجِعَكَ، فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مُتَّ وَأَنْتَ عَلَى الفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلَامِكَ**»، قَالَ: فَرَدَدتُهُنَّ لِأَسْتَذْكِرَهُنَّ، فَقُلْتُ: آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: «**لَا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»[1].

فهذا الحديثُ العظيمُ يشتملُ على بعضِ الآدابِ التي يَحْسُنُ بالمسلم أنْ يُحافِظَ عليها عندَ نَوْمه، وقد أرشَدَ ﷺ أَوَّلَ ما أرشَدَ في هذا الحديثِ مَنْ أَوَى إلى فراشِهِ أنْ يتوضَّأَ وُضوءَهُ للصلاة؛ وذلكَ ليكونَ عندَ النومِ على أكملِ أحوالِهِ، وهي الطهارةُ، وليكونَ ذِكْرُهُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ عندَ نومِهِ على حالِ الطهارة، وهي الحالُ الأكملُ للمسلمِ في ذِكْرِهِ لله عَزَّ وَجَلَّ. ثم وَجَّهَ ﷺ إلى أن ينامَ المسلمُ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٠٦).

على شِقِّه الأيمن، وهي أكملُ أحوالِ المسلمِ في نَوْمه، ثمَّ أرشَدَهُ ﷺ وهو على هذه الحالِ الكاملةِ أن يبدَأَ في مناجاةِ ربِّه ﷻ بذلكَ الدعاءِ العظيمِ الذي أرشَدَ إليه صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه.

۞ **وإنَّ مِمَّا ينبغي أنْ يَعْتَنِيَ به المسلمُ في مثلِ هذا المقام**: أنْ يَتَأَمَّلَ مَعَانِيَ الأدعيةِ والأذكارِ المأثورة؛ ليكونَ ذلك أكمَلَ له في مناجاتِهِ لربِّه ﷻ، ودعائِهِ إيَّاه.

وعندما نَتأمَّلُ هذا الدعاءَ العظيمَ الواردَ في هذا الحديثِ نَجِدُ أنَّه اشتمَلَ مِنَ المعاني الجليلة، والمقاصدِ العظيمة على جانبٍ عظيم، يَحْسُنُ بالمسلمِ أنْ يكونَ مستحضرًا لها عندَ نَوْمه.

وقوله: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ)؛ أي**: إنَّني - يا اللهُ - قد رَضِيتُ تَمَامَ الرِّضَا أن تكونَ نفسي تحتَ مشيئتك، تَتَصرَّفُ فيها بما شِئْتَ، وتقضي فيها بما أَرَدتَ مِنْ إمساكِهَا أو إرسالِهَا، فأنتَ الذي بيدِهِ مقاليدُ السمٰوات والأرض، ونواصي العبادِ جميعِهِمْ معقودةٌ بقضائِكَ وقَدَرِك، تقضي فيهم بما أردتَ، وتَحْكُمُ فيهم بما تشاء، لا رَادَّ لقضائِك، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِك.

قولُه: **(وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ)؛ أي**: مُخْلِصًا لَا أَبْتَغِي بِعَمَلِي وَقَصْدِي غَيْرَكَ، وَمِنْهُ قَوْلُ إِبْراهِيمَ الْخَلِيلَ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وقول: **(وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ)؛ أي**: جَعَلْتُ شَأْنِي كلَّهُ إليك، وفي هذا الاعتمادُ على اللهِ ﷻ، والتوكُّلُ التامُّ عليه؛ إذْ لا حولَ للعبدِ ولا قُوَّةَ إلَّا به ﷻ.

وقوله: **(وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ)؛ أي**: أَسنَدْتُهُ إلى حِفْظِكَ ورعايتِكَ؛ لِمَا علمتُ أنَّه لا سَنَدَ يُتقوَّى به سواك، ولا ينفعُ أحدًا إلَّا حِمَاك، وفي هذا إشارةٌ إلى افتقارِ العبدِ إلى اللهِ جلَّ وعلا في شأنِهِ كلِّه؛ في نومِهِ ويَقَظَتِه، وحركتِهِ وسكونه، وسائرِ أحواله.

وقوله: (**رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ**)؛ **أي**: إنَّني أقولُ ما سبَقَ كلَّه وأنا راغبٌ راهبٌ؛ **أي**: راغبٌ تمامَ الرَّغْبةِ في فضلِكَ الواسع، وإنعامِكَ العظيم، وراهبٌ منك ومِنْ كلِّ أمرٍ يوقعُ في سَخَطك، وهذا هو شأنُ الأنبياءِ والصالحينَ مِنْ عبادِ الله؛ يَجْمَعُونَ في دعائِهِمْ بينَ الرَّغَبِ والرَّهَبِ؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ثم قال ﷺ في هذا الدعاء: (**لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**)؛ **أي**: لا مَلاذَ ولا مَهْرَبَ ولا مَخْلَصَ مِنْ عقوبتِكَ إلَّا بالفَزَعِ إليك، والاعتمادِ عليك؛ كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وكما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة].

ثم قال: (**آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**)؛ **أي**: آمنتُ بكتابِكَ العظيمِ ـ القرآنِ الكريم ـ، الذي لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يَدَيْه، ولا مِنْ خلفه، تَنْزِيلٌ مِنْ حكيمٍ حَمِيد، آمنتُ وأقْرَرْتُ أنَّهُ وَحْيُكَ وتَنْزِيلُكَ على عبدِكَ ورسولِكَ نبيِّنا محمَّد ﷺ، وأنَّه مُشْتمِلٌ على الحَقِّ والهُدَى والنور، وآمنتُ كذلكَ بِنَبِيِّكَ الذي أَرْسَلْتَ، وهو محمَّدٌ ﷺ عبدُ اللهِ ورسولُهُ، وخِيرَتُهُ مِنْ خلقه، المبعوثُ رحمةً للعالمين، آمنتُ به وبكلِّ ما جاءَ به، فهو ﷺ لا ينطقُ عن الهَوَى؛ إنْ هو إلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، فكلُّ ما جاء به، فهو صِدْقٌ وحقٌّ.

وقوله: (**الَّذِي أَرْسَلْتَ**)؛ **أي**: إلى كافَّةِ الخَلْقِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإذنِهِ وسراجًا منيرًا، فبَلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانة، ونصَحَ الأُمَّة، وجاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ حتى أتاه اليقين.

ثم قال ﷺ مبيِّنًا فضيلةَ هذا الدعاء، وعِظَمَ الخيرِ والفضلِ المترتِّبِ عليه: (**فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الفِطْرَةِ**)؛ **أي**: على الإسلام، فالإسلامُ هو دِينُ الفِطْرة؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾

[الرُّوم: ٣٠]، وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث أنَّه قال: **(وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيْرًا)**؛ **أي**: إنْ لَمْ تَمُتْ مِنْ ليلتِكَ تلكَ، أَصَبْتَ في الصباحِ خيرًا؛ ثوابًا لك على اهتمامِكَ بهذا الأمر.

وقد أرشَدَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه إلى أنْ يَجْعَلَ المسلمُ هذا الدعاءَ في آخرِ الدعواتِ والأذكارِ التي يقولُها المسلمُ عندَ نَوْمه؛ لتكونَ هذه الكلماتُ آخِرَ كلامِ المسلمِ عندَ نومه؛ ولهذا **قال**: **(وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلَامِك)**.

وفي قولِ النَّبِيِّ ﷺ للبَرَاءِ لَمَّا رَدَّدَ الدعاءَ أمامَهُ مِنْ أجلِ استذكارِهِ: **(لَا، وبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ)** دليلٌ على أهميَّةِ التقيُّدِ بهذه الأذكارِ حسَبَ ألفاظِها الواردة؛ لكمالها في مبناها ومعناها.

۞ **فهذا دعاءٌ عظيمٌ ينبغي على المسلمِ أنْ يُحَافِظَ عليه عندَ نومه**، ويَتأَمَّلَ في دَلَالاتِهِ العظيمة، ومعانِيهِ الجليلة؛ لِيَظْفَرَ بعظيمِ موعودِ اللهِ لِمَنْ حافَظَ عليه واعتنى به، واللهَ الكريمَ نسألُ أنْ يُوَفِّقَنَا للمحافظةِ عليه والعنايةِ به، وأنْ يوفِّقنا لكلِّ خيرٍ يحبُّهُ ويرضاه في الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

١٢٥

وَمِنْ أَذْكَارِ النَّوْمِ

• **إنَّ مِنَ الأذكارِ العظيمةِ التي كان يُواظِبُ عليها النَّبِيُّ الكريمُ ﷺ عند النَّومِ وعندَ الانتباهِ منه**: ما رواه البخاريُّ في «صحيحه»، مِنْ حديثِ حُذَيْفَةَ بن اليَمَانِ رضي الله عنه، قال: «كانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا أَرَادَ أنْ يَنَامَ، قال: **(بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ مَنَامِهِ، قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)**»(١)، وفي لفظ: «كَانَ إذا أَوَى إلى فِرَاشِهِ»(٢)؛ **أي**: دخلَ فيه، وفي لفظٍ آخَرَ: «كان إذا أخَذَ مَضْجِعَهُ»(٣)، وكلُّها بمعنًى واحدٍ.

وقولُهُ: **(بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ)**؛ **أي**: باسمِكَ يا اللهُ، والباءُ للاستعانةِ؛ **والمعنى**: أنامُ مستعينًا بك، طالبًا حِفْظَك، راجيًا منك الوِقَايةَ والسلامةَ والعافيةَ.

وقولُهُ: **(أَمُوتُ وَأَحْيَا)**؛ **أي**: أنا على هذه الحالِ ذاكرًا لاسمِكَ، فبذكرِ اسمِكَ أحيا ما حَيِيتُ وعليه أموتُ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المسلمَ لا غِنَىٰ له عن ذِكْرِ رَبِّهِ طَرْفةَ عَيْنٍ عندَ نَوْمِهِ، وفي يَقَظَتِهِ، وفي جميعِ شؤونه، فها هو عندَ النَّوْمِ يَخْتِمُ أعمالَهُ بذكرِ اللهِ، وعندَ الانتباهِ يكونُ أَوَّلَ أعمالِهِ ذِكْرُ اللهِ، ثم هو في جميعِ أحايينِهِ محافظٌ على ذكرِ الله، فعلى ذِكْرِهِ سبحانه يَحْيَا، وعليه يموت، وعليه يُبْعَثُ يومَ القيامة.

وفي قوله: **(بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ)** عندَ إرادةِ النَّوْمِ: دَلَالةٌ على أنَّ النَّوْمَ يُسمَّى مَوْتًا، ويُسمَّى وَفَاةً، وإنْ كانتِ الحياةُ موجودةً فيه؛ ومِنْ ذلك

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٩٩).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣١٢).
(٣) «صحيح البخاري» رقم (٦٣١٤).

قولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزُّمَر: ٤٢]؛ ولهذا قال في تمامِ هذا الحديثِ عندَ الاستيقاظِ: **(الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا)**؛ يشيرُ إلى النَّوْمِ الذي كان عليه الإنسانُ، والنَّائِمُ يُشْبِهُ المَيِّتَ؛ لأنَّ الحَرَكَةَ فيه تَتوقَّفُ، والتَّمْيِيزَ يذهبُ؛ ولهذا كان التكليفُ عنه مرفوعًا حتى يستيقظَ مِنْ نومه.

والنَّوْمُ آيَةٌ مِنْ آياتِ اللهِ العظيمةِ الدَّالَّةِ على كمالِ الخالقِ سبحانَهُ وعَظَمَتِهِ واستحقاقِهِ وحدَهُ للعبادة، فهو سبحانَهُ الحَيُّ الذي لا يموتُ، الذي لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ؛ قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٣]، وهو أيضًا مِنْ رحمةِ اللهِ تعالى بعبادِهِ، حيثُ جعَلَ لهم وقتًا يستريحونَ فيه ويَسْتَجِمُّون؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القَصَص: ٧٣].

* **ومن فوائدِ النَّوْمِ العظيمةِ**: أنَّه يُذكِّرُ الإنسانَ بالموتِ الذي هو نهايةُ كلِّ إنسانٍ، ومآلُ كلِّ حَيٍّ إلَّا الحَيَّ الذي لا يموت، وفي الاستيقاظِ منه دَلالةٌ على قدرةِ اللهِ سبحانه على بَعْثِ الأجسادِ بعدَ مَوْتها وإحيائها بعدَ وفاتها؛ ولهذا قال عندَ الاستيقاظِ: **(الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)**، والنُّشُورُ هو البعثُ يومَ القيامة، والإحياءُ بعدَ الإماتة، فنبَّهَ بإعادةِ اليَقَظَةِ بعدَ النَّوْمِ ـ الذي هو موتٌ كما تَقدَّمَ ـ على إثباتِ البعثِ بعدَ الموتِ يومَ القيامةِ، يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين، ولهذا ثبَتَ في «الأدب المُفْرَد»، من حديثِ البَرَاء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا أرادَ أن ينامَ، وضَعَ يَدَهُ تحت خَدِّهِ الأيمنِ، ويقولُ: **(اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ، يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ)**[(١)].

وقولُه: **(الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا)** فيه حَمْدُ اللهِ على هذه

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨١)، وأبو داود رقم (٥٠٤٥) عن حفصة رضي الله عنها، والترمذي رقم (٣٣٩٩)، و«الأدب المفرد» رقم (١٢١٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٩٢١).

النِّعْمةِ العظيمة، والمِنَّةِ الجسيمة، وهي الإحياءُ بعدَ الإماتة؛ **أي**: الاستيقاظُ بعدَ النَّوْم. ومِنَ المعلومِ أنَّ الإنسانَ حالَ نَوْمِهِ يَتعطَّلُ عن الانتفاعِ بهذه الحياة، والتمكُّنِ مِنْ أداءِ العبادات، فإذا استيقَظَ زالَ عنه ذلك المانعُ، فهو يَحْمَدُ الله جلَّ وعلا على هذا الإنعام، ويَشْكُرُهُ سبحانَهُ على هذا العطاءِ والإكرام.

ومِنْ جميلِ ما يَرْتَبِطُ بهذا المعنى تمامَ الارتباط، ويَتَّفِقُ معه تمامَ الاتِّفاق: ما خَرَّجَهُ الشيخان: البخاريُّ ومسلم، من حديثِ أبي هريرة ﵁، قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: **(إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ)**[1].

ومثلُه كذلك ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن عبد الله بن عُمَرَ ﵄: «أنَّهُ أمَرَ رَجُلًا إنْ أخَذَ مَضْجِعَهُ قال: **(اللَّهُمَّ خَلَقْتَ نَفْسِي، وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا، إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا، اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ)**، فقال له الرجلُ: أَسَمِعْتَ هذا مِنْ عُمَرَ؟ فقال: مِنْ خَيْرٍ مِنْ عُمَرَ، من رسولِ اللهِ ﷺ»[2].

وفي هذه الأحاديث دَلَالةٌ واضحةٌ على أنَّ رُوحَ الإنسانِ بيدِ اللهِ سبحانه؛ فهو الذي أوجَدَهَا بعدَ العَدَم، وخلَقَهَا بعدَ أن لَمْ تكن، وهو سبحانه الذي إنْ شاء أمسَكَهَا حالَ نَوْمِ الإنسان، فيُصْبِحُ في عِدَادِ الأموات، وإنْ شاء أرسَلَهَا، فيبقى الإنسانُ بذلكَ على قَيْدِ الحياة؛ ولهذا قال: **(لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا)**؛ **أي**: أنَّ ذلك بيدِكَ وتحتَ تَصرُّفِكَ وتدبيرِكَ، ولا يَقْدِرُ عليه أحدٌ سواك، فأنتَ المُحْيِي، وأنتَ المُمِيتُ، وأنتَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٢٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧١٤).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧١٢).

ولهذا شُرِعَ للمسلمِ في هذا المقامِ أن يَسْأَلَ ربَّهُ الحفظَ إنْ كَتَبَ له البقاءَ والحياةَ، ويَسْأَلَهُ الرحمةَ والمغفرةَ إنْ كَتَبَ له الموتَ؛ ففي حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه، قال: **(إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ)**، وفي حديثِ ابن عُمَرَ، قال: **(إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا)**.

وكما ينبغي على المسلمِ أن يكونَ عندما يأوي إلى فراشِهِ مُتذكِّرًا مآلَهُ ومصيرَهُ، فإنَّه كذلك ينبغي عليه أن يَتذكَّرَ نِعْمةَ اللهِ عليه فيما مَضَى مِنْ أيَّامِهِ بالطعامِ والشراب، والمسكنِ والصِّحَّةِ والعافية، فيَحْمَدُ اللهَ ويشكرُهُ على ذلك.

ولهذا ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه، قال: **(الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ)**»[1].

۞ **وعلى هذا، فإنَّ المسلمَ عندما يأوي إلى فراشِهِ ينبغي أنْ يكونَ مُتذكِّرًا أمرَيْن**: ما مَضَىٰ مِنْ أيَّامه، فيَحْمَدُ اللهَ على ما أمَدَّهُ فيها مِنَ الصِّحَّةِ والعافية، والمطعمِ والمَشْرَب والمسكن، وغيرِ ذلك، وأن يَتَذَكَّرَ ما يستقبلُ مِنْ أوقاته؛ وهو فيها بين **أمرين**: إمَّا أن تُقْبَضَ روحُه، فهو يَسْأَلُ اللهَ إنْ كان ذلكَ المغفرةَ والرحمةَ، أو أن يُفْسِحَ له في أجلِهِ، فهو يسألُ اللهَ في هذه الحالِ أن يَحْفَظَهُ بما يحفظُ به عبادَهُ الصالحين.

❁ ❁ ❁

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧١٥).

١٢٦

وَمِنْ أَذْكَارِ النَّوْمِ

• **إنَّ مِنَ الدَّعَواتِ العظيمةِ التي كان النَّبِيُّ ﷺ يَحُثُّ مَنْ أوى إلى فِرَاشِهِ على المحافظةِ عليها، والعنايةِ بها**: ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، من حديث أبي هُرَيْرة رضي الله عنه، قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَأْمُرُنَا إِذَا أَخَذْنَا مَضْجِعَنَا أَنْ نَقُولَ: **(اللَّهُمَّ، رَبَّ السَّمٰوَاتِ، وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ)**[(١)].

وهو دعاءٌ عظيم، يَحْسُنُ بالمسلمِ أن يُحافِظَ عليه كلَّ ليلةٍ عندما يأوي إلى فراشِهِ، وهو مُشتمِلٌ على تَوسُّلاتٍ عظيمةٍ إلى اللهِ تبارك وتعالى بربوبيَّتِهِ لكلِّ شيء؛ للسمواتِ السبعِ، والأرضينَ السبعِ، والعرشِ العظيم، وبإنزالِهِ لكلامِهِ العظيم، ووحيِهِ المبين: بأن يُحِيطَ الإنسانَ برعايتِهِ ويكلأَهُ بعنايته، ويَحْفَظَهُ من جميعِ الشرور، ومُشْتمِلٌ على تَوسُّلٍ إلى اللهِ جلَّ وعلا ببعضِ أسمائِهِ العظيمةِ الدَّالَّةِ على كمالِهِ وجلالِهِ وعظمته، وإحاطتِهِ بكلِّ شيء، بأن يَقْضِيَ عن الإنسانِ دَيْنَهُ ويُغْنِيَهُ من فَقْره.

وقولُهُ: **(اللَّهُمَّ، رَبَّ السَّمٰوَاتِ، وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ)**؛ **أي**: يا خالقَ هذه الكائناتِ العظيمة، ومُبْدِعَهَا ومُوجِدَهَا بعدَ العَدَم. وقد خصَّ

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧١٣).

هذه المخلوقاتِ بالذِّكرِ؛ لعِظَمِهَا وكِبَرِها، ولكثرةِ ما فيها مِنَ الآياتِ البيِّنات، والدَّلَالاتِ الباهرات، على كمالِ خالقها، وعَظَمَةِ مُبْدِعها؛ وإلَّا فإنَّ جميعَ المخلوقات؛ صَغيرِها وكبيرِها، دَقيقِها وجليلها، فيها آيةٌ بَيِّنةٌ على كمالِ الخالقِ سبحانه.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ الْوَاحِدُ

ولهذا عقَّبَ هذا الدعاءَ بقوله: (رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ)؛ وهذا تعميمٌ بعد تخصيص؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ الأمرَ مختصٌّ بما ذُكِرَ.

وقوله: (رَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ) فيه دَلَالةٌ على عَظَمَةِ العرش، وأنَّه أعظمُ المخلوقات، وقد جاء في الحديثِ عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: (مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ)[1]، وإذا كان هذا المخلوقُ بهذه العَظَمةِ والمَجْدِ والسَّعَة، فكيف بخالقِهِ ومُبْدِعِهِ سبحانه؟!

وقوله: (فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ) مِنَ الفَلْقِ، وهو الشَّقُّ؛ أي: الذي يَشُقُّ حَبَّةَ الطعام، ونَوَى التمرِ وغيره؛ لتَخْرُجَ الأشجارُ والزروع؛ فإنَّ النباتاتِ إمَّا أشجارٌ أصلُهَا النَّوَى، أو زروعٌ أصلُهَا الحَبُّ، واللهُ سبحانه لكمالِ قُدْرَتِهِ وبديعِ خلقِهِ هو الذي يَفْتَحُ هذا الحَبَّ والنَّوَى اليابسَ الذي كالحَجَرِ لا ينمو ولا يزيد، فيَنْفَرِجُ وتخرُجُ منه الزروعُ العظيمة، والأشجارُ الكبيرة؛ وفي هذا آيةٌ باهرةٌ على كمالِ المُبْدِعِ وعَظَمَةِ الخالقِ سبحانه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

وقولُهُ في هذا الدعاء: (وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ) فيه توسُّلٌ إلى اللهِ ﷻ بإنزالِهِ لهذه الكُتُبِ العظيمةِ، المشتملةِ على هدايةِ الناسِ وفلاحِهِمْ وسعادتهِمْ في الدنيا والآخرة، وقد خَصَّ هذه الكتبَ الثلاثة؛ لأنَّها أعظمُ كتبٍ أنزَلَهَا اللهُ، وذكَرَهَا مُرَتَّبةً ترتيبًا زمنيًّا، فذكَرَ أوَّلًا التوراةَ التي أُنْزِلَتْ على

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٤١).

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ الإنجيلَ الذي أُنْزِلَ على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثمَّ الفرقانَ ـ وهو القرآنُ الكريمُ ـ الذي أُنْزِلَ على محمَّدٍ ﷺ.

وفي هذا دَلَالةٌ على أنَّ هذه الكتبَ مِنْ كلامِ الله، وأنَّها مُنزَّلةٌ مِنْ عندِهِ سبحانه، وأنَّها غيرُ مخلوقة؛ ولهذا فَرَّقَ في هذا الدعاءِ بينها؛ ففي المخلوقاتِ قال: (رَبَّ) و(فَالِقَ)، وفي كلامِهِ ووحيِهِ قال: (مُنْزِلَ)؛ وفي هذا ردٌّ على أهلِ البدعِ والأهواءِ الذين يقولون: إنَّ كلامَ اللهِ مخلوقٌ؛ تعالى اللهُ عمَّا يقولون، وسبحان الله عمَّا يصفون!

ثمَّ قال بعدَ ذكرِهِ لهذه الوسائلِ العظيمة: **(أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)**، وهذا شروعٌ في ذكرِ رَغْبةِ الإنسانِ وحاجتِهِ ومطلوبِهِ مِنْ ربِّه سبحانه، وقولُهُ: **(أَعُوذُ بِكَ)**؛ **أي**: أَلْتجِئُ وأَعْتصِمُ بك، وأحتمي بجنابِكَ **(مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)**، **والدابَّةُ**: هي كلُّ ما يَدِبُّ على الأرض، وهو يشملُ الذي يمشي على بَطْنه، أو على رِجْلَيْن أو على أربعٍ؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النُّور: ٤٥].

وقوله: **(أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)** فيه دَلَالةٌ على أنَّ المخلوقاتِ كلَّها داخلةٌ تحتَ قَهْرِهِ وسلطانِهِ؛ فهو سبحانَهُ آخِذٌ بنواصيها، قادرٌ عليها، يَتصرَّفُ فيها كيفَ يشاء، ويَحْكُمُ فيها بما يريد.

قال اللهُ تعالى فيما ذَكَرَهُ عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هُود: ٥٦].

والنَّاصيةُ: مُقدَّمُ الرأس.

ثمَّ قال مُتوسِّلًا إلى اللهِ سبحانه ببعضِ أسمائِهِ الحسنى، وصفاتِهِ العظيمة: **(اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ)**؛ وفي هذا دَلَالةٌ على أَوَّلِيَّةِ اللهِ سبحانه، وأنَّه قبلَ كلِّ شيء، وأَبَدِيَّتِهِ سبحانه، وبقائِهِ بعدَ كلِّ

شيء، وعُلُوِّهِ على خَلْقِهِ واستوائِهِ على عرشِهِ وفوقيَّته، وأنَّه الظاهرُ الذي لا شيءَ فوقَهُ، وقُرْبِهِ سبحانَهُ مِنْ خلقِهِ وإحاطتِهِ بهم، وأنَّه جلَّ وعلَا الباطنُ الذي لا شيءَ دونه. ومدارُ هذه الأسماءِ الأربعةِ على بيانِ إحاطةِ الرَّبِّ سبحانه، **وهي إحاطتان**: زمانيَّةٌ ومكانيَّةٌ؛ **أمَّا الزمانيَّةُ**، فقد دلَّ عليها اسمُهُ الأوَّلُ والآخِرُ، **وأمَّا المكانيَّةُ**، فقد دلَّ عليها اسمُهُ الظَّاهِرُ والباطن؛ هذا مقتضى تفسيرِ النَّبِيِّ ﷺ، ولا تفسيرَ أكمَلُ مِنْ تفسيره.

وقوله: (**اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ**) هو سؤالُ اللهِ تبارَكَ وتعالى وطَلَبٌ منه سبحانه بعد تلك التوسُّلات.

وقوله: (**اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ**)؛ **أي**: أَدِّ عنَّا حقوقَ اللهِ، وحقوقَ العبادِ مِنْ جميعِ الأنواع، وفي هذا تبرِّي الإنسانِ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّة، وأنَّه لا حولَ ولا قوةَ له إلَّا باللهِ العظيم.

وقوله: (**وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ**)؛ **والغِنَى هو**: عدَمُ الحاجة، **والفقرُ**: خُلُوُّ ذاتِ اليد، **والفقيرُ**: هو مَنْ وجَدَ بعضَ كفايتِهِ، أو لَمْ يجدْ شيئًا أصلًا.

ومِنَ المعلومِ أنَّ الدَّيْنَ والفقرَ كلاهما هَمٌّ عظيمٌ، قد يُؤَرِّقُ الإنسانَ ويمنعُهُ مِنَ النوم، فإذا لَجَأَ العبدُ إلى الله، وطَلَبَ منه سبحانه مَدَّهُ وعَوْنَهُ مُتوسِّلًا إليه بتلكَ التوسُّلاتِ العظيمة، فإنَّ نَفْسَهُ عندئذٍ تسكُنُ وتطمئن، وقلبَهُ يرتاحُ ويهدأ؛ لأنَّه وكَّلَ أمرَهُ إلى مَنْ بيدِهِ أَزِمَّةُ الأمورِ، ومقاليدُ السمٰوات والأرض، ولَجَأَ إلى مَنْ أمرُهُ إذا أرادَ شيئًا أن يقولَ له: كُنْ فيكون، وكيف لا يطمئنُّ القلبُ وقد تعلَّقَ بِمَنْ هذا شأنُهُ؟!

❁ ❁ ❁

١٢٧

وَمِنْ أَذْكَارِ النَّوْمِ

• **إنَّ مِنَ الدعواتِ المبارَكَةِ التي كان يُحَافِظُ عليها رسولُ اللهِ ﷺ عندما يأوي إلى فراشِهِ لينامَ**: ما روى مسلمٌ في «صحيحه»، مِنْ حديثِ أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان إذا أَوَى إلى فراشِهِ قال: (**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ**)[١].

وهذا الدعاءُ فيه تَذكُّرٌ من المسلمِ عندما يريدُ أن ينامَ لِمَاضِي أيَّامِهِ وسالفِ أوقاته، وما أمدَّهُ اللهُ فيها مِنَ المطعم والمشرب، والكفايةِ والإيواء، في حالِ وجود عددٍ مِنَ الناسِ منهم مَنْ لا يجدُ طعامًا يُشْبِعُهُ ويُغَذِّيه، أو شرابًا يَسُدُّ ظَمَأَهُ ويَرْوِيه، أو لباسًا يَسْتُرُهُ ويُوَارِيه، أو مسكنًا يَسْتكِنُّ فيه ويُؤْوِيه، بل منهم مَنْ أدركَهُ حتفُهُ في مَجَاعاتٍ مُهْلِكةٍ وقحطٍ مُفْجِع، فمَنْ أكرَمَهُ اللهُ بالطعامِ والشراب، ومَنَّ عليه بالكفايةِ والإيواء، يَجِبُ أن يَسْتشعِرَ عِظَمَ نعمةِ اللهِ عليه وكِبَرَ مِنَّتِهِ سبحانَهُ بأنْ يَسَّرَ له الغذاءَ والشراب، وأكرَمَهُ بالكفايةِ والإيواء، وشُكْرُ النِّعْمةِ مُؤْذِنٌ بدوامها والمزيد؛ فاللهُ جلَّ وعلا يقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، فالشُّكْرُ معه المزيدُ دائمًا وأبدًا؛ **ولذا قيل**: «فمتى لَمْ تَرَ حَالَكَ في مَزِيدٍ، فاستَقْبِلِ الشكرَ»؛ **أي**: فإنَّكَ إذا استقبلْتَهُ كان المزيدُ حَلِيفَك.

وقولُه: (**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا...**)، إلى آخرِهِ؛ فيه الثناءُ على اللهِ عز وجل وحمدُهُ سبحانَهُ على سوابغِ نَعْمائِه، وتوالي فَضْلِهِ وعطائه، وجزيلِ مواهبِهِ وسَعَةِ إحسانه، وكريمِ أياديه، وهو سبحانَهُ أهلُ الحَمْدِ والثناء.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٤٠).

وقوله: **(وَكَفَانَا)** مِنَ الكِفَايةِ؛ **أي**: دَفَعَ عنَّا شَرَّ المؤذيات، ووقَانا أَذى الغوائلِ والعاديات، **وقيل**: **معناه**: كفانا مُهِمَّاتِنا، وقَضى لنا حاجاتِنا، ولا مانعَ مِنْ أنْ يكونَ كلا المعنَيَيْنِ مرادًا؛ إذْ كلٌّ منهما داخلٌ في معنى الكفايةِ، مُنْدَرِجٌ تحتَ مدلولها.

وقوله: **(وَآوَانَا)**؛ **أي**: هَيَّأَ لنا مَأْوًى نأوي إليه، ورزَقَنا مسكنًا نسكُنُ فيه، وردَّنا إلى المَنْزِلِ لنستريحَ فيه، ولم يَجْعَلْنا منتشرين كالبهائم بلا مسكنٍ ولا مأوًى؛ قال الله تعالى مُمْتَنًّا على عبادِهِ بهذه النِّعْمة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النّحل: ٨٠]؛ **أي**: تسكنون فيها، وتُكِنُّكُمْ مِنَ الحَرِّ والبَرْد، وتَسْتُرُكُمْ من الأعين، وتجتمعون فيها أنتم ومَنْ تَعُولُون، وفيها مِنَ المصالحِ والمنافعِ ما لا يمكنُ الإحاطةُ به، فالحمدُ لله الذي مَنَّ فأَفْضَل، وأعطى فأَجْزَل، له الحمدُ حمدًا كثيرًا طيِّبًا مُبارَكًا فيه كما يُحِبُّ سبحانه ويرضى.

ومِنَ الأورادِ المأثورةِ عندَ النومِ: ما ثبَتَ في «الصحيحين»، عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أنَّ فاطمةَ رضي الله عنها أَتَتِ النَّبيَّ ﷺ تسألُهُ خادمًا، فقال: **(أَلَا أُخْبِرُكِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْهُ: تُسَبِّحِينَ اللهَ عِنْدَ مَنَامِكِ ثَلَاثًا وثَلَاثِينَ، وتَحْمَدِينَ الله ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ الله أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ)**، قال عليٌّ رضي الله عنه: «فما تَرَكْتُها بَعْدُ»، قيل: ولا ليلةَ صِفِّينَ؟ قال: «وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ»(١).

فهذه فاطمةُ بنتُ رسولِ اللهِ ﷺ، ورَضِيَ عنها، تشتكي إلى رسولِ اللهِ ﷺ ما تقاسيه مِنَ الطَّحْنِ والسَّقْيِ والخِدْمة، وتسألُهُ أن يُعْطِيَها خادمًا (والخادمُ يطلقُ على الذَّكَرِ والأنثى)؛ لِيَخِفَّ عنها ما تجدُهُ مِنْ تعبٍ ومَشَقَّةٍ في تلك الأعمال، وقد رُوِيَ في «سنن أبي داود»، عن عليٍّ رضي الله عنه، في وصفِ ما كانتْ تجدُهُ رضي الله عنها من مَشَقَّةٍ في أعمالها المنزليَّةِ أنَّه قال: «إنَّها جَرَّتْ بالرَّحَى حتَّى أَثَّرَتْ في يَدِهَا، واستَقَتْ بالقِرْبَةِ حتَّى أَثَّرَتْ في نَحْرِها، وكَنَسَتِ البَيْتَ

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٣٦٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٧).

حتَّى اغْبَرَّتْ ثيابُها»[١].

فأرشَدَهَا صلواتُ الله وسلامُهُ عليه إلى ماهو خيرٌ لها مِنْ خادمٍ، فقال: **(أَلَا أُخْبِرُكِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْهُ)؛ أي**: الخادم، وفي هذا مِنْ حُسْنِ النصحِ وتمامِ التشويقِ ما لا يخفى، فلمَّا تهيَّأَتْ نَفْسُها وتَحفَّزَتْ لمعرفةِ هذا الأمر، الذي هو خيرٌ لها مِنَ الشيء الذي جاءتْ تسألُهُ، قال لها رسولُ الله ﷺ: **(تُسَبِّحِينَ اللهَ عِنْدَ مَنَامِكِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدِينَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ)؛ أي**: تقولين إذا أَخَذْتِ مَضْجِعَكِ: سبحان الله ثلاثًا وثلاثينَ مَرَّةً، والحمدُ لله ثلاثًا وثلاثين مَرَّةً، واللهُ أكبَرُ أربعًا وثلاثينَ مَرَّة، فيكونُ مجموعُ ذلك مائةً.

ففَرِحَتْ رضي الله عنها بهذا الخيرِ العظيم الذي دَلَّهَا عليه الناصحُ الأمينُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، وفَرِحَ به زوجُها عليٌّ رضي الله عنه، حتَّى إنَّه قال: «فما تركتُها بَعْدُ»؛ **أي**: بعد سماعه له، وفي روايةٍ قال: «فما تَرَكْتُهُنَّ منذُ سَمِعْتُهُنَّ من رسولِ اللهِ ﷺ»، فقيل له: ولا ليلةَ صِفِّينَ؟ **أي**: ما تَرَكْتُ تلكَ الكلماتِ ولا في تلكَ الليلةِ. وليلةُ صِفِّينَ هي ليلةُ الحَرْبِ المعروفةُ بِصِفِّينَ قريبًا من الفُرَات، التي دارَتْ بينه وبينَ أهلِ الشام، فقال رضي الله عنه: «ولا ليلةَ صِفِّينَ»؛ **أي**: لم يتركْ هذه الكلماتِ ولا في تلكَ الليلةِ، ومِنَ المعلومِ أنَّ الإنسانَ عندَ بعضِ الشدائدِ قد يَذْهَلُ عن أمورٍ اعتَنَىٰ بها وأَلِفَ المحافظةَ عليها، ومع ذلك لم يَدَعْ رضي الله عنه هؤلاءِ الكلماتِ ولا في تلكَ الليلةِ، وفي هذا دَلَالةٌ على شِدَّةِ المحافظة، وحُسْنِ الاهتمام، وتمامِ الحِرْص.

ثمَّ إنَّ أهلَ العلم قد استَدَلُّوا بهذا الحديثِ على أنَّ مِنْ فضائلِ الذِّكْرِ وفوائدِهِ العظيمة: أنَّه يعطي الذَّاكِرَ قُوَّةً في بَدَنِهِ وصِحَّتِهِ، ونشاطِهِ وهِمَّته؛ **وفي هذا يقول ابن القيِّم** رحمه الله: «الذِّكْرُ يُعْطِي الذَّاكِرَ قُوَّةً، حتَّى إنَّه لَيَفْعَلُ مَعَ الذِّكْرِ ما لَمْ يُطِقْ فعلَهُ بدونه، وقد شاهدتُ مِنْ قُوَّةِ شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّةَ في مِشْيَتِهِ

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (٥٠٦٣)، لكنَّ سنده ضعيف.

وكلامِهِ وإقدامِهِ وكتابتِهِ أمرًا عجيبًا...»، ثمَّ أورَدَ حديثَ عليٍّ المتقدِّمَ، وقال عَقِبَهُ: «فقيل: إنَّ مَنْ داوَمَ على ذلكَ، وجَدَ قُوَّةً في بَدَنِهِ مغنيةً عن خادمٍ»[١].

ونقل رَحِمَهُ اللَّهُ **عن شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ أنَّه قال:** «بَلَغَنا أنَّه مَنْ حافَظَ على هؤلاءِ الكلماتِ، لَمْ يَأْخُذْهُ إعياءٌ فيما يُعَانِيهِ مِنْ شُغْلٍ وغيرِهِ»[٢]. اهـ.

واللهُ المسؤولُ أن يوفِّقنا جميعًا لهذا ولكلِّ خيرٍ، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

* * *

(١) «الوابل الصيِّب» (ص١٥٥ ـ ١٥٦).

(٢) «الوابل الصيِّب» (ص٢٠٦).

١٢٨

أَذْكَارُ الانْتِبَاهِ مِنَ النَّوْمِ

لقد ثبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أذكارٌ مُتنوِّعةٌ يُشْرَعُ للمسلمِ أن يَقُولَها عندَ الاستيقاظِ مِنَ النوم، وهي في الجملةِ مُشْتَمِلةٌ على إعلانِ التوحيدِ للهِ ﷻ، والاستعاذةِ مِنَ الشيطانِ الرجيم، وحَمْدِ اللهِ سبحانَهُ على حفظِهِ للعبد، وإعانتِهِ له على طاعتِهِ وذِكْرِه.

ومِنْ هذه الأحاديثِ: ما رواه البخاريُّ في «صحيحه»، عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (**مَنْ تَعارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ للهِ، وسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ، فَإِنْ تَوَضَّأَ، قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**)[(١)].

وفي هذا الحديثِ فضلُ المبادرةِ إلى ذِكْرِ الله ﷻ والثَّناءِ عليه سبحانَهُ عندَ الاستيقاظِ من النَّوْم، وأنْ يكونَ ذلكَ أَوَّلَ شيءٍ يَفْعَلُهُ المؤمنُ عند استيقاظِهِ، وهذا إنَّما يَتحقَّقُ لِمَنْ أَلِفَ الذِّكْر، وتَعوَّدَ عليه، واستَأْنَسَ به، وغَلَبَ عليه حتى صارَ حديثَ نَفْسِهِ في نومِهِ ويَقَظَتِهِ؛ فإنَّه إذا كان شأنُهُ كذلك، فإنَّ أوَّلَ شيءٍ يفعلُهُ عند قيامِهِ مِنْ نومِهِ هو المبادرةُ إلى ذِكْرِ ربِّه سبحانَهُ وتمجيدِهِ وحَمْدِهِ والثناءِ عليه بما هو أهله، ومَنْ كان على هذه الحال، فهو حَرِيٌّ ـ بإذن الله ـ أن يُعْطَى إذا سَأَلَ، وأن يُستجابَ له إذا دعا.

قال ابن بَطَّال رحمه الله: «وَعَدَ اللهُ على لسان نبيِّه ﷺ أنَّ مَنِ استيقَظَ مِنْ نومِهِ لَهِجًا لسانُهُ بتوحيدِ ربِّه، والإذعانِ له بالمُلْكِ، والاعترافِ بنِعَمِهِ يَحْمَدُهُ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٤٢).

عليها، ويُنزِّهُهُ عمَّا لا يليقُ به بتسبيحِهِ والخضوعِ له بالتكبيرِ والتسليمِ له بالعَجْزِ عن القُدْرةِ إلَّا بعونه: أنَّه إذا دعاه أجابه، وإذا صلَّى قُبِلَتْ صلاتُه، ينبغي لِمَنْ بلَغَهُ هذا الحديثُ أن يَغْتنِمَ العملَ به، ويُخْلِصَ نِيَّتَهُ لربِّه سبحانه»[(١)] .اهـ.

وقوله في الحديث: **(مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ)**؛ **أي**: استيقَظَ مِنْ نومِهِ ليلًا.

وقد بدَأَ ﷺ هؤلاءِ الكلماتِ بكلمةِ التوحيد: **(لَا إِلـٰهَ إِلَّا اللهُ)** مؤكِّدًا معناها وما دلَّت عليه بقوله: **(وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ)**؛ لأنَّ «لا إلـٰه إلَّا الله» فيها ركنان عظيمان؛ **هما**: النَّفْيُ والإثبات: **النَّفْيُ** في قوله: **(لَا إِلـٰهَ)**، وهو نفيٌ للعبوديةِ عن كلِّ مَنْ سوى الله، **والإثباتُ** في قوله: **(إِلَّا اللهُ)**، وهو إثباتٌ للعبودية بكلِّ معانيها لله ﷻ.

وقد أكَّد هذَيْنِ الأمرَيْن بقوله: **(وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ)**؛ فقوله: **(وَحْدَهُ)** فيه تأكيدٌ للإثبات، وقوله: **(لَا شَرِيكَ لَهُ)**، فيه تأكيدٌ للنَّفْي.

وفي هذا دَلَالةٌ على أهميَّةِ التوحيدِ، والبدءِ به، وتقديمِهِ على ما سواه، والتأكيدِ على العنايةِ بفهم معناه، والقيامِ بمدلولِهِ، وتطبيقِ مقتضاه.

ثم قال: **(لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**، وهذه براهينُ التوحيدِ ودلائلُهُ؛ فالذي له التوحيدُ الخالصُ هو المالكُ للمُلْك، المستحقُّ للحَمْدِ، القديرُ على كلِّ شيء، ومَنْ سواه لا يَستحِقُّ مِنَ العبادةِ شيئًا؛ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سَبَأ: ٢٢].

ثم قال: **(الحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلـٰهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)**، فذكَرَ الكلماتِ الأربعَ التي هي أحبُّ الكلامِ إلى اللهِ ﷻ؛ كما في «صحيح مسلم»، من حديثِ سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ تَعَالَىٰ أَرْبَعٌ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلـٰهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)**[(٢)]، وفي الحديث يقول ﷺ: **(لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ،**

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٤١/٣).
(٢) تقدم تخريجه (ص٨٧).

وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ: أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)(١).

والتسبيحُ فيه تَنْزِيهُ اللهِ عمَّا لا يليقُ بجلالِهِ وكماله، والحمدُ فيه إثباتُ أنواعِ الكمالِ له سبحانه، والتهليلُ فيه توحيدُهُ وإخلاصُ الدِّينِ له، والتكبيرُ فيه تعظيمُهُ سبحانه، وأنَّه لا شَيْءَ أكبَرُ منه.

ثم قال: **(ولَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ)**، وهي كلمةُ استعانةٍ، الإتيانُ بها في مِثْلِ هذا الوقتِ مناسبٌ غايةَ المناسبة؛ لأنَّ الإنسانَ عندما يقومُ من النَّوْمِ بحاجةٍ إلى هِمَّةٍ عاليةٍ ونشاطٍ، وجِدٍّ واجتهاد، والمُعِينُ على ذلك كلِّه هو اللهُ وحده، وكلمة **(لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ)** فيها تفويضُ الأمرِ للهِ ﷻ، وتَبرُّؤٌ من الحولِ والقُوَّةِ إلَّا به، وأنَّ العبدَ لا يملكُ مِنْ أَمْرِهِ شيئًا، ولا حِيلَةَ له في دفعِ شرٍّ، ولا قُوَّةَ له في جلبِ خَيْرٍ إلَّا بإرادتِهِ سبحانه.

ثم قال: **(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ)**؛ هكذا جاءت الروايةُ بالشكِّ، ويَحتمِلُ أن تكونَ للتَّنْوِيع؛ **أي**: إنِ استغفَرَ غفرَ اللهُ له، وإنْ دعا أجابَ اللهُ دعاءَهُ.

ثم قال: **(فَإِنْ تَوَضَّأَ، قُبِلَتْ صَلَاتُهُ)**؛ **أي**: إنْ صلَّى، وقد جاء اللفظ في بعضِ الرواياتِ لـ«صحيح البخاري» هكذا: **(فَإِنْ تَوَضَّأَ وصَلَّى، قُبِلَتْ صَلَاتُهُ)**، وفي هذا حَثٌّ على الجِدِّ في الطاعةِ، والنشاطِ لأداءِ العبادة، وتركِ الخمولِ والتواني والكسل، وقد أخرَجَ الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديثَ في «كتابِ التهجُّد» من «صحيحه»، **باب**: فضل مَنْ تَعَارَّ مِنَ الليلِ فصَلَّى.

أي: إنَّ مَنْ صلَّى في ذلك الوقتِ، وبادَرَ إلى الصلاةِ في تلكَ الحال، فصلاتُهُ حَرِيَّةٌ بالقَبُول، والقَبُولُ في هذا الموطنِ أرجى منه في غيره.

وقد أورَدَ الحافظ ابن حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ في شرحه لهذا الحديث فائدةً لطيفةً حولَ العنايةِ بهذا الذِّكْرِ، **عن أبي عبد الله الفِرَبْرِيِّ الراوي عن البخاري، قال:**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢١).

«أجرَيْتُ هذا الذِّكْرَ على لساني عند انتباهي، ثم نِمْتُ فأتاني آتٍ [أي: في المنام]، فقرأ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾» [الحج: ٢٤][(١)].

وما من شَكٍّ أنَّ المحافظةَ على هذا الذِّكْرِ من الهدايةِ إلى الطَّيِّبِ مِنَ القولِ ومِنَ الهدايةِ إلى صراطِ الحميد، نسألُ اللهَ الكريمَ مِنْ فضله.

❁ ❁ ❁

(١) «فتح الباري» (٣/ ٤١).

١٢٩

أَذْكَارُ الِاسْتِيقَاظِ مِنَ النَّوْمِ

• **إنَّ مِنَ الأذكارِ التي يُشْرَعُ للمسلمِ قَوْلُها إذا استيقَظَ مِنْ نومه:** ما ثبَتَ في «جامع الترمذي»، من حديث أبي هُرَيْرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: (**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلِ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ**)[1].

وفي هذا حَمْدُ اللهِ عز وجل على المعافاةِ في الجَسَدِ والسلامةِ من الأمراضِ والأسقام، وحَمْدُهُ سبحانه على رَدِّ الرُّوحِ على العبدِ ليتمكَّنَ من الزيادةِ في الطاعة، والإكثارِ مِنَ العبادةِ، والعنايةِ بالذِّكر؛ ولهذا قال (**وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ**)؛ **أي**: وفَّقني لذلك، وأعانني عليه. **والمرادُ بالإذْنِ هنا؛ أي**: الإذنُ الكونيُّ القَدَرِيُّ؛ لأنَّ الإِذْنَ إذا ورَدَ في النصوص تارةً يُرادُ به الإذنُ الكونيُّ القدريُّ، وتارةً يرادُ به الإذنُ الشرعيُّ الدينيُّ، ومن المعلومِ أنَّ اللهَ عز وجل أَذِنَ للعبادِ جميعِهم شرعًا ودينًا بِذِكْرِهِ، ولزومِ طاعتِه، لكنَّه سبحانه لَمْ يأذنْ بذلك كَوْنًا وقَدَرًا إلَّا لِمَنْ أنعَمَ عليهم بالإيمان، وهداهُمْ للإسلام، ووفَّقهم للخير؛ وعليه: فإنَّ مَنْ أَذِنَ اللهُ له بذكرِهِ كونًا وقَدَرًا، فقد أكرَمَهُ بأعظمِ كرامةٍ، وهداه بتوفيقِهِ ومنِّه سبحانه إلى الخير، وهذا مِنْ أعظمِ ما يَسْتوجِبُ الحَمْدَ؛ ولهذا شُرِعَ للمسلمِ أن يَحْمَدَ اللهَ عز وجل على هذه النِّعْمة العظيمة، ويَشْكُرَهُ سبحانه على هذا العطاءِ والفضل.

وتأمَّل أخي: الآذِنُ بالذِّكْرِ هو الله، والمستفيدُ مِنَ الذِّكْرِ هو العبد، والمثيبُ على الذِّكْرِ هو الله، فهو سبحانه مِنْ عظيمِ فضلِهِ وواسعِ إنعامه يبتدئُ

---

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٠١)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٢٩).

عبادَه بالنعم، ويُثِيبُهم عليها أعظمَ الثواب؛ فله الحمدُ شكرًا، وله المنُّ فضلًا، وله سبحانه الحمدُ في الآخرة والأولى.

۞ **وعمومًا: الذي ينبغي على المسلم عندَ قيامِهِ مِنْ نَوْمِهِ هو:** المبادرةُ إلى ذكرِ اللهِ، والوضوءِ، والصلاةِ لِيُبَارَكَ له في يومه، وليكونَ فيه نشيطًا ذا همَّةٍ عاليةٍ، وحرصٍ على الخير، ولِيَسْلَمَ بذلك مِنَ الكَسَلِ وخُبْثِ النفس؛ وقد روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: (**يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ**)[1].

وفي «المسند» للإمام أحمد، مِنْ حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (**مَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى إِلَّا وَعَلَى رَأْسِهِ جَرِيرٌ**[2] **مَعْقُودٌ ثَلَاثَ عُقَدٍ حِينَ يَرْقُدُ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ، فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِذَا قَامَ فَتَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا**)[3].

وقد دَلَّ هذانِ الحديثانِ على أنَّ الشيطانَ يَعْقِدُ على مُؤَخَّرِ رأسِ الإنسانِ عندما ينامُ ثلاثَ عُقَدٍ، ويضربُ على كلِّ عُقْدةٍ مكانَها: عليكَ ليلٌ طويلٌ فارْقُدْ؛ تخذيلًا للإنسان، وتثبيطًا له، ونقضًا لهمَّتِهِ وعزيمته، فإذا ذكَرَ العبدُ ربَّه انْحَلَّتْ عُقْدةٌ مِنْ هذه العُقَد، فإذا قام وتَوضَّأَ انحلَّتْ عُقْدةٌ ثانيةٌ، فإذا صلَّى انْحَلَّتْ عنهُ جميعُ العُقَدِ، وذهَبَ عنه الكَسَل، وارتفَعَتْ هِمَّتُه، وطابتْ نَفْسُه، وأصبَحَ نشيطًا حريصًا على الخير، مُقْبِلًا عليه؛ وذلك لأنَّه تخلَّصَ مِنْ عُقَدِ الشيطان، وتخفَّف عنه أعباءُ الغَفْلةِ والنسيان، وحصَلَ له الفوزُ برضا الرحمٰن.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (١١٤٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٧٦).
(٢) **الجرير**: الحبل.
(٣) «المسند» (٣/ ٣١٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٦١٤).

وجاء في نصٍّ آخَرَ أنَّ الشيطانَ قد يَعْقِدُ على مواضعِ الوضوءِ مِنَ المسلم، فإذا قام وتوضَّأ انحلَّتْ عنه تلك العُقَدُ.

فقد أخرَجَ أحمد، وابن حِبَّان في «صحيحه» - واللفظُ له - من حديث عُقبةَ بن عامر رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي يَقُومُ اللَّيْلَ يُعَالِجُ نَفْسَهُ إلى الطُّهُورِ وَعَلَيْهِ عُقَدٌ، فَإِذَا وَضَّأَ يَدَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِذَا وَضَّأَ وَجْهَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا مَسَحَ رأسَهُ انحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وإِذَا وَضَّأَ رِجلَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَيَقُولُ اللهُ جَلَّ وعَلَا لِلَّذِي وَرَاءَ الحِجَابِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُعَالِجُ نَفْسَهُ لِيَسْأَلَنِي، مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ، مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ**)(١).

فهذه عُقَدٌ أربعٌ تنحلُّ عن المسلم بالوضوء؛ فبغسلِ اليَدَيْنِ تنحلُّ عُقْدة، وبغسلِ الوَجْهِ تنحلُّ عُقْدة، وبمسحِ الرَّأْسِ تنحلُّ عُقْدة، وبغسلِ الرِّجْلَيْنِ تنحلُّ عُقْدة.

وهي عُقَدٌ حقيقيَّةٌ يَعْقِدُها الشيطانُ على الإنسانِ لِيُثَبِّطَهُ عن الخير، ولِيَثْنِيَهُ عن القيامِ إلى طاعةِ الله.

وثبت في «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ، فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيَاشِيمِهِ**)(٢).

وقد ذكَرَ بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ مَنْ ذَكَرَ اللهَ تعالى عند النَّوْمِ وأتى بالأذكارِ المشروعةِ، والتعوُّذاتِ المأثورة، لا يدخُلُ في هذه الأحاديث، ويَسْلَمُ من هذه العُقَد؛ لأنَّه قد نُصَّ في بعضِ أذكارِ النومِ أنَّ مَنْ أتى بها لا يزالُ عليه مِنَ اللهِ حافظٌ، ولا يَقْرَبُهُ شيطانٌ حتى يُصْبِحَ(٣).

---

(١) «المسند» (٤/ ٢٠١)، و«صحيح ابن حبان» رقم (٢٥٥٥).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٩٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٣٨).
(٣) **انظر**: «الاستعاذة» لابن مفلح المطبوع بعنوان: «مصائب الإنسان، من مكايد الشيطان» (ص٧٥).

ثم إنَّ مَن استَمَرَّ في نومِهِ وتمادى في كَسَلِهِ إلى أن يُفَوِّتَ على نفسِهِ صلاةَ الصُّبْح؛ فإنَّ الشيطانَ يبولُ في أُذُنِه، كما أخبَرَ بذلك رسولُ الله ﷺ؛ ففي «الصحيحين»، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «ذُكِرَ رَجُلٌ عندَ النَّبِيِّ ﷺ نام حتى أصبح، فقال: (**ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ، أَوْ قَالَ: فِي أُذُنِه**)»[1]، فيُصْبِحُ والعُقَدُ كلُّها كهيئتِها، وإضافةً إلى ذلك يبولُ الشيطانُ في أذنه، وحَسْبُ مَنْ كان كذلك خَيْبَةً وخسارة وشرًّا، **وقد جاء عن ابن مسعود** رضي الله عنه، **أنَّه قال**: «حَسْبُ الرَّجُلِ مِنَ الخَيْبَةِ والشَّرِّ أن ينامَ حتى يُصْبِحَ وقد بالَ الشيطانُ في أُذُنِهِ، فلم يَذْكُرِ اللهَ لَيْلَهُ حتى يُصْبِحَ»[2]، نسألُ اللهَ العافيةَ والسلامة.

❁ ❁ ❁

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٧٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٧٤).

(٢) رواه محمد بن نصر في «قيام الليل» (ص١٠٣ ـ مختصر المقريزي)، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٣/٢٩): «وهو موقوفٌ صحيحُ الإسناد».

١٣٠

مَا يُقَالُ عِنْدَ الفَزَعِ فِي النَّوْمِ

• **إنَّ مِنَ الأذكارِ العظيمةِ النافعةِ لِمَنْ يُروَّعُ في منامِهِ، أو يجدُ وَحْشةً وقلقًا، أو يُصِيبُهُ الفزعُ في نَوْمِهِ**: أنْ يقولَ عند حصول شيءٍ مِنْ ذلك له: (**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ**).

فقد روى أبو داود، والترمذي، وغيرُهما، من حديث عبد الله بن عَمْرو ابن العاص ﵄، أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: (**إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ فِي النَّوْمِ، فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ؛ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ**)[١].

وروى الإمام أحمد في «مسنده»، عن الوليد بن الوليد ﵁، أنَّه قال: يا رسولَ اللهِ إنِّي أَجِدُ وَحْشَةً، قال: (**إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ، فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِن غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، وَبِالحَرِيِّ أَنْ لَا يَقْرَبَكَ**)[٢].

وروى مالك في «الموطأ»، عن يحيى بن سعيد، قال: بَلَغَنِي أنَّ خالد بن الوليد قال لرسولِ اللهِ ﷺ: إنِّي أُرَوَّعُ في مَنَامِي، فقال له رسولُ الله ﷺ: (**قُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ**)[٣].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ١٨١)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٨٩٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٢٨) واللفظ له، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٠١).

(٢) «المسند» (٤/ ٥٧)، وذكره الألباني في «صحيح الكلم الطيب» (ص٤١).

(٣) «الموطأ» رقم (٢٧٣٧)، وقال ابن عبد البر: «وهذا حديث مشهور مسندًا وغير مسند»، ثم أسنده من طريق ابن عيينة وغيره. «التمهيد» (٢١/ ١٠٩)، وانظر: «الصحيحة» رقم (٢٦٤).

وروى ابن السُّنِّيِّ في «عمل اليوم والليلة»، عن محمَّد بن المنكدر، قال: جاء رَجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، فشكا إليه أهاويلَ يَرَاهَا في المنامِ، فقال: (**إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِن شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ**)(١).

فهذا دعاءٌ عظيمٌ أَرْشَدَ النَّبيُّ ﷺ مَن يُصَابُ في نومِهِ بشيء مِنَ الفَزَعِ والخوفِ، بسبب ما قد يَرَى في منامِهِ مِنَ الأشياءِ المَخُوفةِ أن يَقُولَهُ ليذهبَ عنه فَزَعُه، ولتطمئنَّ نَفْسُه، ولِيَسْكُنَ ويهدأَ في نومه، ولِيَنْصَرِفَ عنه خوفُهُ ورَوْعُه، وهو دعاءٌ عظيمٌ مُبارَك، يعلنُ فيه العبدُ التجاءَهُ إلى الله واحتماءَهُ به وفرارَهُ إليه مِنْ غضبِهِ وعقابِهِ سبحانه، ومِنْ شرِّ عبادِه، ومِنْ هَمَزاتِ الشياطين ومِنْ أن يحضروا العبدَ، سواءٌ في نومه، أو في كلِّ أحواله.

وقد أخبر ﷺ أنَّ مَنْ قاله لا تَضُرُّهُ الشياطين، بل يكونُ في عافيةٍ وسلامةٍ منها.

وقوله: (**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ**)؛ **أي**: أَلْتجِئُ؛ **فالاستعاذةُ**: التجاءٌ إلى اللهِ، واعتصامٌ به، والعائذُ بالله فارٌّ مِنْ كلِّ ما يؤذيه إلى ربِّه سبحانه الذي بيده أَزِمَّةُ الأمور، وتدبيرُ الخلائق، و(**كَلِمَاتُ اللهِ التَّامَّةُ**)؛ **أي**: التي لا يَلْحَقُها نقصٌ ولا عيبٌ، كما يَلْحَقُ كلامَ البَشَر.

وقوله: (**مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ**)، الغضَبُ: صفةٌ فعليَّةٌ ثابتةٌ لله تباركَ وتعالى، وَصَفَ بها نفسَهُ في كتابه، ووصَفَهُ بها رسولُهُ ﷺ في سنَّته، وهو جلَّ وعلا يَغْضَبُ ويرضى، ويُحِبُّ ويُبْغِض، وله صفاتٌ فِعْلِيَّةٌ كثيرةٌ ورَدَتْ في الكتاب والسُّنَّة، ومنهجُ أهل السنَّة ـ وهو المنهجُ الحقُّ الذي ينبغي أن يكونَ عليه كلُّ مسلم ـ تُجاهَ هذه الصفات: أنَّهم يُثْبِتُونَهَا لله كما أثبَتَهَا سبحانه لنفسه، وكما أثبتها له رسولُهُ ﷺ، دون أن يخوضوا في شيء منها بتحريفٍ أو تعطيل، أو تكييفٍ أو تمثيل، فهم يُؤمنون بأنَّ الرَّبَّ العظيمَ يَغْضَبُ، ويَتعوَّذونَ به سبحانه

---

(١) «عمل اليوم والليلة» لابن السني رقم (٧٤٢)، وراجع: «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٦٤).

مِنْ غضبِهِ، ومِنْ كلِّ شيءٍ يُغْضِبُه، ويُجاهِدُونَ أَنْفُسَهم على البُعْدِ عن كلِّ ما يُغْضِبُهُ سبحانه ويُوجِبُ عقابه.

❁ **وإنَّ مِمَّا يُغْضِبُ الرَّبَّ ويُوجِبُ عقابَهُ**: أن يلجأَ العبدُ في مُلِمَّاتِهِ وعندَ خوفِهِ وفزعِهِ إلى غَيْرِهِ سبحانه، وكيف يليقُ بالعبدِ الضَّعيفِ أن يلجأ إلى عبدٍ ضعيفٍ مثلِه، وكيف يلجأُ المخلوقُ إلى مخلوقٍ مثلِه، ويَدَعُ ربَّ العالَمِينَ وخالقَ الخَلْقِ أجمعين، وهنا ندركُ ضَحَالةَ عُقُولِ وتفاهةَ أفكارِ مَنْ يذهبون في مُلِمَّاتِهِمْ وعند فَزَعهم إلى الكَهَنةِ والعرَّافين، والدَّجَاجِلَةِ والمُشَعْوِذِين، والسَّحَرة والمنجِّمين، وغَيْرِهم من إخوانِ الشياطين، يَشْكُون إليهم حالَهم، ويُنْزِلُونَ بأبوابهم حَاجَتهم، ويطلبون منهم تَخْلِيصَهم مِنْ كُرْبتِهم، وإنجاءَهُمْ مِنْ فَزَعهم، إلى غيرِ ذلك من الأمور التي لا تُطْلَبُ إلَّا مِنَ الله، ولا يُلجأُ فيها إلَّا إليه وحده؛ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّمل: ٦٢]؛ فهلْ يُجيبُ المضطَرَّ، الذي أقلقتْهُ الكروبُ، وتعسَّر عليه المطلوب، واضْطَرَّ للخَلاصِ مِمَّا هو فيه، إلَّا اللهُ وَحْدَه؟! وهل يكشفُ السوءَ الذي يُصِيبُ الإنسانَ ويَحُلُّ به إلَّا اللهُ وحده؟! ولكنْ تذَكُّرُ الناسِ لهذا الأمرِ قليلٌ، وتدبُّرُهم له ضعيفٌ، وإلَّا لَمَا أَقْبلُوا على غيرِ الله، ولَمَا لجؤوا إلى أحدٍ سواه.

وقوله: **(مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ)**، فيه جمعٌ بين الصفةِ وأثرها، **فالصفةُ هي**: الغَضَب، **وأثَرُها هو**: حلولُ العقاب، نعوذُ بالله مِنْ ذلك.

وقوله: **(وَشَرِّ عِبَادِهِ)**؛ **أي**: مِنْ كلِّ شرٍّ في أيِّ عبدٍ مِنْ عِبَادِكَ قام به الشرُّ، والعبوديَّةُ هنا المرادُ بها العبوديَّةُ العامَّة؛ إذِ المخلوقاتُ كلُّها مُعبَّدةٌ مُذلَّلةٌ لله، خاضعةٌ له سبحانه؛ كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وقوله: **(وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُون)**، الهمزاتُ: جمعُ هَمْزة، **والهَمْزةُ**: النَّخسُ، **والمراد**: نَزَغَاتُ الشياطين، ووَسَاوِسُهم، وجميعُ إصاباتهم وأذاهم لبَنِي آدم.

وقوله: **(وَأَنْ يَحْضُرُونِ)**؛ **أي**: أنْ يَحْضُرَ الشياطينُ عندي في جميعِ أحوالي. وعلى هذا، فالعبدُ يستعيذُ باللهِ مِنْ هَمَزاتِ الشياطين، وأن يحضروه أصلًا، ويَحُومُوا حَوْلَه، فتَضمَّنتِ الاستعاذةُ أن لا يَمَسُّوهُ ولا يقربوه.

فما أعظَمَهُ مِنْ دعاء، وما أعظَمَ أَثَرَه، وما أجمَعَهُ للتعوُّذِ مِنْ كلِّ ما قد يكونُ سببًا لفزعِ الإنسانِ وقَلَقِه! واللهُ وحده وليُّ التوفيق.

❀ ❀ ❀

١٣١

مَا يَقُولُهُ مَنْ رَأَى فِي مَنَامِهِ مَا يُحِبُّ أَوْ يَكْرَهُ

ثبَتَ في السُّنَّة أحاديثُ عديدةٌ عن النَّبيِّ ﷺ في بيان ما ينبغي أن يقولَهُ المسلمُ ويَفْعَلَهُ عندما يرى في منامه ما يُحِبُّ، أو عندما يرى فيه ما يَكْرَه.

ومِنْ هذه الأحاديث: ما رواه البخاريُّ في «صحيحه»، عن أبي سعيد الخُدْريِّ ﷺ، أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقول: **(إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللهِ؛ فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا، وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَلْيَسْتَعِذْ مِن شَرِّهَا، وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ؛ فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ)**(١).

وفي «الصحيحين»، عن أبي سَلَمة، قال: «لَقَدْ كُنْتُ أَرَى الرُّؤْيَا فَتُمْرِضُنِي، حَتَّى سَمِعْتُ أَبَا قَتَادَةَ يَقُولُ: وَأَنَا كُنْتُ لَأَرَى الرُّؤْيَا تُمْرِضُنِي، حَتَّى سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **(الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ مِنَ اللهِ؛ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ، فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِن شَرِّهَا وَشَرِّ الشَّيْطَانِ، وَلْيَتْفُلْ ثَلَاثًا، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا؛ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ)**(٢).

وفي «صحيح مسلم»، من حديث جابر ﷺ، عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: **(إِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا، فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ)**(٣).

وقد دَلَّتْ هذه الأحاديثُ على جملةٍ مِنَ الفوائدِ تَتعلَّقُ بالرؤيا، وما ينبغي

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٩٨٥).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٧٠٤٤) واللفظ له، و«صحيح مسلم» رقم (٢٢٦١).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٢٦٢).

أن يكونَ عليه المؤمنُ تُجاهَ ما يراه في منامه مِنْ أمورٍ يفرحُ برؤيتها ويُسَرُّ، أو أمورٍ يحزنُ لرؤيتها ويضجر. **ومِنْ فوائد هذه الأحاديث ما يأتي:**

أوَّلًا: تعظيمُ شأنِ الرؤيا الصالحةِ يَرَاها المسلم، وأنَّها مِنَ اللهِ ﷻ، ساقها إلى عبدِهِ المؤمنِ في حياتِهِ؛ بِشَارةً له بالخير، وتأنيسًا لقلبه، وطَمْأنةً لفؤاده؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يُونس: ٦٤]، **قال غيرُ واحدٍ مِنَ السلف:** «هي الرؤيا الصالحةُ يَرَاها الرَّجُلُ الصالحُ أو تُرَىٰ له».

ثانيًا: بيانُ أنَّ ما يراه المؤمنُ في منامِهِ مِمَّا يَكْرَهُهُ إنَّما هو مِنَ الشيطانِ لِيَحْزُنَ الذين آمنوا، وليس بِضَارِّهم شيئًا إلَّا بإذنِ الله.

وما يراه الإنسانُ في منامِهِ **يَنْقسِمُ إلى ثلاثة أقسام: الرؤيا الصالحةُ** التي هي بُشْرَى مِنَ اللهِ لِمَنْ رآها أو رُئِيَتْ له، **والرؤيا التي هي مِنَ الشيطانِ،** وهي أهاويلُ يأتي بها الشيطانُ للإنسانِ في منامِهِ، وأمثالٌ مكروهةٌ يَضْرِبُها بقصدِ التشويشِ على الإنسان، وإدخالِ الحُزْنِ عليه، والضَّجَرِ في قلبه، **والقسمُ الثالث:** هي الأحلامُ التي تجري على الإنسانِ في منامِهِ مِمَّا يُحَدِّثُ به الرَّجُلُ نفسَهُ في اليَقَظَةِ؛ تجري عليه في المنامِ جَرَيَانَها في اليَقَظَة.

ثالثًا: بيانُ ما ينبغي أن يفعلَهُ المسلمُ عندما يَرَىٰ في منامه ما يُحِبُّ؛ **ويَتلخَّصُ ذلك في عدَّة أمور:**

ـ **الأوَّل:** أنَّ المسلمَ ينبغي له أن يَفْرَحَ ويَسْتبشِرَ بالرؤيا الصالحةِ يَرَاها أو تُرَىٰ له، وأنْ لَا يَغْتَرَّ، فالرؤيا ـ **كما قال بعضُ السلف** ـ: «تَسُرُّ المؤمنَ ولا تَغُرُّه».

ـ **الثاني:** أن يَحْمَدَ اللهَ ﷻ على هذا الخيرِ الذي ساقه إليه، والفضلِ الذي منحه إيَّاه، حيث أكْرَمَهُ بهذه الرؤيا المبشِّرة.

ـ **الثالث:** أن يُحَدِّثَ بها مَنْ يُحِبُّ مِنْ إخوانِهِ وجُلَسَائِهِ الذين شَأْنُهم معه أنَّهم يتعاونون معه على الخير، ويَتَوَاصَوْنَ معه على البِرِّ والإحسان، فتكونُ

الرؤيا التي رآها سببًا لزيادةِ الخيرِ فيهم، وحافزًا للمُضِيِّ في مجالاته.

ـ **الرابع**: أنْ لَا يُحدِّثَ بها مَنْ يَكْرَهُ درءًا لمفسدةِ حصولِ الأذى منه، أو الحَسَدِ، أو نحوِ ذلك.

رابعًا: ومِنَ الفوائدِ التي اشتَمَلَتْ عليها الأحاديثُ المتقدِّمة: بيانُ ما ينبغي أنْ يَفْعَلَهُ المسلمُ إذا رأى في منامِهِ ما يَكْرَهُ، **ويتلخَّص ذلك في الأمور الآتية**:

ـ **الأول**: أن يعلمَ أنَّ ذلك إنَّما هو مِنَ الشيطان يريدُ به تحزينَ المؤمن، وإدخالَ الهمِّ والغمِّ والفَزَعِ عليه؛ فعليه أنْ لَا يلتفتَ إلى مَكْرِ الشيطان، وأنْ لَا يَشْغَلَ بالَهُ بذلك.

ـ **الثاني**: أنْ يَتعوَّذَ باللهِ مِنْ شرِّها وشَرِّ الشيطانِ الرجيم. **والتعوُّذُ**: التجاءٌ إلى الله، واعتصامٌ به سبحانه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عِمرَان: ١٠١].

ـ **الثالث**: أن يَبْصُقَ عن يسارِهِ ثلاثًا، **وقد قيل**: لأنَّ الشيطانَ يأتي ابنَ آدَمَ مِنْ قِبَلِ يساره؛ لأنَّه يريدُ أنْ يُوَسْوِسَ في القلب، والقلبُ قريبٌ من جهة اليسار، فيأتي الشيطانُ مِنْ جهتِهِ القريبة، والله أعلم.

ـ **الرابع**: أن يتحوَّلَ عن جَنْبِهِ الذي كان عليه، **وقيل في الحِكْمةِ من هذا**: إنَّ في ذلك تفاؤلًا بالتحوُّل مِنْ هذه الحالِ المسيئةِ المُحْزِنَةِ إلى حالٍ مُسِرَّةٍ مُفْرِحة.

ـ **الخامس**: أنْ لَا يُحدِّثَ أحدًا بما رَأَى في منامِهِ مِنْ أمورٍ يَكْرَهُها، وقد جاء في «صحيح مسلم»، عن جابر ﵁، قال: «جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، رَأَيْتُ في المَنَام كأنَّ رَأْسِي قُطِعَ، قال: فضَحِكَ النَّبيُّ ﷺ، وقال: (**إِذَا لَعِبَ الشَّيْطَانُ بِأَحَدِكُمْ فِي مَنَامِهِ، فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ النَّاسَ**)[1]، وفي روايةٍ أخرى، قال: «جاءَ أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ،

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٢٦٨).

فقال: يا رسولَ اللهِ، رأيتُ في المنامِ كَأَنَّ رَأْسِي ضُرِبَ فتَدَحْرَجَ، فاشْتَدَدتُ على أَثَره، فقال رسولُ الله ﷺ للأعرابيِّ: **(لَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِتَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ بِكَ فِي مَنَامِكَ)**[1].

ثم إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد أخبَرَ أنَّ مَنْ فعَلَ ما تَقدَّمَ لا تَضُرُّهُ رؤياه، بل يكونُ فعلُهُ لهذه الأمور سببًا واقيًا ـ بإذنِ اللهِ ـ مِنْ شرِّ الرؤيا وشرِّ الشياطين.

۞ **وعلى العبد ـ مع ذلك كلِّه ـ** أن يكونَ مُتَّقِيًا لله، محافظًا على طاعته، بعيدًا عن معاصيه؛ ليكونَ بذلك محفوظًا بحفظِ الله، مُحاطًا برعايتِهِ وعنايتِهِ سبحانه.

وقد قال ابن سِيرِينَ رَحِمَهُ اللهُ: «اتَّقِ اللهَ في اليَقَظَة، ولا تُبالِ بما رأيتَ في المنام»[2].

والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيم.

۞ ۞ ۞

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٢٦٨).

(٢) رواه أحمد في «الزهد» رقم (١٧٦٨).

١٣٢

أَذْكَارُ الخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلِ

لقد ثبَتَ في السُّنَّةِ عن النَّبيِّ ﷺ أذكارٌ مباركةٌ، وأدعيةٌ نافعةٌ، يقولها المسلمُ إذا خرَجَ من مَنْزِله، فإذا قالها حُفِظَ بإذنِ الله، وكُفِيَ ما أَهَمَّهُ، ووُقِيَ من الشرورِ والآفات، وهُدِيَ إلى طريقِ الحقِّ والصواب، روى الترمذي، وأبو داود، وغيرُهما، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **(إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: بِاسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فَيَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟!)**[١].

وهذا الذِّكْرُ المبارَكُ نافعٌ للمسلم أن يقولَهُ في كلِّ مرَّةٍ يخرُجُ فيها من بيته لقضاءِ شيءٍ من مصالِحِهِ الدينيَّة أو الدنيويَّة؛ وذلك ليكونَ محفوظًا في سَيْره، ومُعانًا في قضاءِ مصالحه، مسدَّدًا في وِجْهَتِهِ وحاجته، والعبدُ لا غِنَىٰ له عن ربِّه طَرْفَةَ عَيْن، بأنْ يكونَ له حافظًا ومؤيِّدًا، ومُسدِّدًا وهاديًا، ولا ينالُ العبدُ ذلك إلَّا بالتوجُّهِ إلى الله عز وجل في حصولِهِ ونيله، فأرشَدَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه مَنْ خرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ إلى أن يقولَ هذا الذِّكْرَ المبارَكَ ليُهْدَى في طريقه، وليُكْفَى هَمَّه وحاجتَه، وليُوقَى الشرورَ والآفات.

وقوله: **(إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ)**؛ **أي**: حالَ خروجِهِ مِنْ بيته، ومثلُ البيتِ: المنزلُ الذي يُسافِرُ منه المسافرُ.

وقوله: **(بِاسْمِ اللهِ)**؛ **أي**: باسمِ اللهِ أخرُجُ؛ فكلُّ فاعلٍ يُقدِّر فعلًا مناسبًا

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (٥٠٩٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٢٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٩٩).

لحالِه عندما يُبَسْمِلُ، والباءُ في (**بِاسْمِ اللهِ**): للاستعانةِ؛ **أي**: أخرُجُ طالبًا مِنَ اللهِ العَوْنَ والحفظَ والتسديد.

وقوله: (**تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ**)؛ **أي**: اعتَمَدتُّ عليه، وفَوَّضتُ جميعَ أموري إليه؛ فالتوكُّلُ هو الاعتمادُ والتفويض، وهو مِنْ أعمالِ القلوب، ولا يجوزُ صَرْفُهُ لغيرِ الله، بل يجبُ إخلاصُهُ لله وحده؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ **أي**: عليه وَحْدَهُ لا على غيره، فجعَلَ ذلك شرطًا في الإيمان، والتوكُّلُ أجمعُ أنواعِ العبادة، وأعلى مقاماتِ التوحيدِ وأَعْظَمُها؛ لِمَا ينشأُ عنه مِنَ الأعمالِ الصالحة، والطاعاتِ المتنوِّعة؛ فإنَّه إذا اعتَمَدَ العبدُ على اللهِ في جميعِ أمورِهِ الدينيَّةِ والدنيويَّة دونَ مَنْ سواه، صحَّ إخلاصُه، وقَوِيَتْ صلتُهُ بالله، وزاد إقباله عليه، وكفاه اللهُ همَّه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]؛ **أي**: كافيه، ومَنْ كان اللهُ كَافِيَهُ، فلا مَطْمَعَ فيه لعدوٍّ، ولو كادَتْ له السمٰواتُ والأرضُ ومَنْ فيهنَّ، لَجَعَلَ اللهُ له فرَجًا ومخرجًا، ورزَقَهُ اللهُ مِنْ حيثُ لا يحتسب؛ وفي هذا دَلَالةٌ على عِظَمِ فضلِ التوكُّل، وأنَّه أعظمُ أسبابِ جلبِ المنافعِ، ودفعِ المَضَارِّ.

وقوله: (**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**)، هي كلمةُ إسلامٍ واستسلامٍ وتفويضٍ إلى الله، وتبَرُّؤٍ من الحَوْلِ والقوَّةِ إلَّا به، وأنَّ العبدَ لا يملكُ مِنْ أمرِهِ شيئًا، وليس له حيلةٌ في دفعِ شرٍّ، ولا قُوَّةٌ في جلبِ خيرٍ إلَّا بإرادتِهِ سبحانه، وقولُ: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله» تُنالُ به الإعانةُ.

ولو تأمَّلَ المسلمُ هذا الذِّكْرَ، لَوَجَدَهُ مِنْ أوَّله إلى آخره مُشْتمِلًا على الالتجاءِ إلى الله، والاعتصام به، والاعتمادِ عليه، وتفويضِ الأمورِ كلِّها إليه، ومَنْ كان كذلك، حَظِيَ بحفظِ اللهِ له، وعَوْنِهِ، وتوفيقِهِ، وتسديدِه.

وقوله: (**يُقَالُ حِينَئِذٍ**)، وفي رواية: (**يُقالُ لَهُ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ**)، يجوزُ أن يكونَ القائلُ هو الله، ويجوزُ أنْ يكون مَلَكًا مِنَ الملائكةِ.

وقوله: (**هُدِيتَ**)؛ **أي**: إلى طريقِ الحقِّ والصوابِ؛ بسببِ استعانتِكَ باللهِ على سلوكِ ما أنتَ بِصَدَدِه، ومَن يَهْدِهِ الله، فلا مُضِلَّ له.

وقوله: (**وَكُفِيتَ**)؛ **أي**: كُفِيتَ كلَّ همٍّ دنيويٍّ أو أُخروي.

وقوله: (**وَوُقِيتَ**)؛ **أي**: حُفِظْتَ مِنْ شرِّ أعدائِكَ مِنَ الشياطينِ وغيرهم.

وقوله: (**فَيَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ**)؛ **أي**: يبتعدُ عنه الشيطان؛ لأنَّه مَنْ كان هذا شأنه، فلا سبيلَ للشيطانِ عليه؛ لأنَّه قد أصبَحَ في حِصْنٍ حَصِين، وحِرْزٍ مَكِين، يُحْمَى فيه من الشيطانِ الرجيم.

وقوله: (**فَيَقُولُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ**)؛ **أي**: يقولُ أحدُ الشياطينِ لهذا الشيطانِ الذي كان يريدُ إغواءَ هذا الشخصِ وإيذاءَهُ: كيف لك برجلٍ قد هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ؛ **أي**: كيف لك السبيلُ إلى إغواءِ وإيذاءِ رجلٍ نال هذه الخِصَال: الهدايةَ والكفايةَ والوقايةَ.

وهذا يَدُلُّنا على عِظَمِ شأنِ هذا الذِّكْرِ المبارك، وأهميَّةِ المحافظةِ عليه عند خروجِ المسلمِ من منْزِلِهِ في كلِّ مَرَّةٍ يخرُجُ فيها؛ لينالَ هذه الأوصافَ المبارَكَةَ، والثِّمَارَ العظيمةَ المذكورةَ في هذا الحديث.

ومِنَ الأذكارِ العظيمةِ النافعةِ للمسلمِ عندَ خروجِهِ من منزلِه: ما ثبَتَ في سنن أبي داود، وابن ماجه، وغيرِهما، عن أم سَلَمة ﵂، قالت: «مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِن بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**)»[(١)].

۞ **وهو حديثٌ عظيمٌ ودعاءٌ مُبَارَك يَجْدُرُ بالمسلمِ أن يُحَافِظَ عليه عند خروجِهِ مِنْ منزلِهِ**؛ تأسِّيًا بالنَّبِيِّ ﷺ الذي كان يحافظُ عليه عندَ كلِّ خروجٍ

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٣١٨)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٩٤)، و«سنن النسائي» رقم (٥٤٨٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (٣١٣٤). وجملةُ رفعِ الطَّرْفِ إلى السماءِ ضعَّفها الألباني في «الصحيحة» (٣١٦٣).

من مَنْزِلِهِ، كما يَدُلُّ على ذلك قولُ أم سَلَمة ﵂: «مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِن بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فقال...»، ثم ذكَرَتْ هذا الدعاءَ.

ولو تَأَمَّلْتَ هذا الدعاءَ لوجدتَ أنَّه موافقٌ للحديثِ السابقِ في الغايةِ والمقصود:

فقولُهُ في الحديثِ السابق: (**هُدِيتَ**): موافقٌ لقوله في هذا الحديث: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ**).

وقولُهُ: (**وَكُفِيتَ**): موافقٌ لقوله: (**أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ**).

وقوله: (**وَوُقِيتَ**): موافقٌ لقوله: (**أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عليَّ**).

فيكونُ العبدُ بذلكَ متعوِّذًا باللهِ مِمَّا يُبْعِدُهُ مِنَ الهدايةِ والكفايةِ والوقايةِ، ولا بأسَ لو أنَّ العبدَ جمَعَ بين هذَيْن الدعاءَيْن.

ثم إنَّ في هذا الدعاءِ معانيَ جليلةً، ودَلَالاتٍ نافعةً يأتي بيانها، وبالله وَحْدَهُ التوفيق.

❀ ❀ ❀

١٣٣

مِنْ أَذْكَارِ الخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلِ

لقد مَرَّ معنا دعاءُ النَّبِيِّ ﷺ الذي كان يُوَاظِبُ عليه ﷺ كلَّما خرَجَ من منزله، وذلك في الحديث الذي رواه أبو داود، وابن ماجه، وغيرُهما، عن أم المؤمنينَ أم سَلَمَةَ هِنْدٍ المخْزوميَّةِ ﵂، زوجِ النَّبِيِّ ﷺ، قالت: «مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**)»(١).

وكلامُها ﵂ في أَوَّلِ هذا الحديثِ فيه دَلَالَةٌ ظاهرةٌ على مواظبةِ النَّبِيِّ ﷺ على قولِ هذا الدعاءِ في كلِّ مَرَّةٍ يخرُجُ فيها - صلواتُ الله وسلامُهُ عليه - من مَنْزِلِهِ؛ وفي هذا دَلَالةٌ على أهميَّةِ مواظبةِ المسلم على هذا الدعاءِ في كلِّ مَرَّةٍ يخرُجُ فيها من منزلِهِ تأسيًّا بالنبيِّ ﷺ، وفي ذلك الخيرُ والبركةُ، والسلامةُ والغنيمة.

وقولها ﵂: «إِلَّا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ» فيه دَلَالةٌ على عُلُوِّ اللهِ على خَلْقه، وأنَّ الرَّبَّ الذي ندعوه ونسألُهُ ونرجوهُ مستوٍ على عَرْشه، بائنٌ من خَلْقه؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفُرقان].

فَرَفْعُ الطرفِ إلى السماءِ فيه إيمانٌ بِعُلُوِّ الله، كما أَنَّ رَفْعَ الأيدي إلى السماء فيه إيمانٌ بعلوِّ الله ﷻ؛ **قال حافظُ المَغْرِبِ أبو عُمَر بن عبد البَرِّ في**

(١) تقدم تخريجه (ص٥٦٧).

كتابه «التمهيد»، وهو بصدد ذِكْرِهِ الأدلَّةَ على علوِّ الله: «ومِنَ الحُجَّةِ أيضًا في أنَّه ﷻ على العرشِ فوقَ السمٰوات السبعِ: أنَّ الموحِّدينَ أجمعينَ مِنَ العَرَبِ والعَجَمِ إذا كَرَبَهُمْ أمرٌ، أو نزَلَتْ بهم شِدَّةٌ، رَفَعُوا وُجُوهَهم إلى السماءِ يستغيثونَ ربَّهم تبارَكَ وتعالى؛ وهذا أَشْهَرُ وأَعْرَفُ عندَ الخاصَّةِ والعامةِ مِنْ أن يُحتاجَ فيه إلى أكثرَ مِنْ حكايتِهِ؛ لأنَّه اضطرارٌ لَمْ يُؤَنِّبْهُمْ عليه أحدٌ، ولا أنكَرَهُ عليهم مسلمٌ»(١). اهـ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

والأدلَّةُ على علوِّ اللهِ على خَلْقِهِ كثيرةٌ لا تُحْصَى؛ وقد دلَّ على علوِّ اللهِ الكتابُ والسُّنَّة، والإجماعُ والفِطرةُ والعقولُ، ولا مجال هنا لِبَسْطِ هذه الأدلَّة. وفي رفعِ الطَّرْفِ إلى السماءِ دَلَالةٌ على أهميَّةِ استشعارِ مراقبةِ الله تعالى، وأنَّه سبحانه مُطَّلِعٌ على عباده، عليمٌ بهم، لا تَخْفَى عليه منهم خافية، وأنَّ أَزِمَّةَ الأمورِ بيده؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يَكُنْ.

وقوله ﷺ في هذا الدعاء: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ...**)، إلى آخره؛ الاستعاذةُ: سبَقَ بيانُ معناها، وأنَّها اعتصامٌ بالله ﷻ، والتجاءٌ إليه سبحانه، وفي هذا الدعاءِ التجاءٌ إلى الله ﷻ بأن يَحْمِيَ العبدَ مِنْ أن يقَعَ في شيءٍ من هذه الأمورِ المذكورة، وهي أَنْ يَضِلَّ أَوْ يُضَلَّ، أَوْ يَزِلَّ أَوْ يُزَلَّ، أَوْ يَظْلِمَ أَوْ يُظْلَمَ، أَوْ يَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عليه.

ومِنَ المعلومِ: أنَّ مَنْ يخرُجُ مِنْ بيته لا بدَّ له في خروجِهِ مِنْ مخالطةِ الناسِ ومعاشرتِهم، والنَّاصِحُ لنفسِهِ يخافُ أن يُبْتَلَى ـ بسببِ هذه المخالطةِ والمعاشرةِ ـ بالعدولِ عن الطريقِ القويم، والمسلكِ المستقيم، الذي ينبغي أن يكونَ عليه المسلم، وذلك قد يكونُ متعلِّقًا بالدِّينِ بأنْ يَضِلَّ أو يُضَلَّ، أو مُتعلِّقًا بأمرِ الدنيا بأنْ يَظْلِمَ أو يُظْلَم، أو متعلِّقًا بشأنِ المخالِطِينَ والمعاشَرِينَ بأنْ يَزِلَّ أو يُزَلَّ، أو يَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليه، فاستعاذَ مِنْ جميعِ هذه الأحوالِ بهذه الألفاظ البليغة، والكلماتِ الوافيةِ الدقيقة.

---

(١) «التمهيد» (٧/ ١٣٤).

وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ**)، فيه تَعوُّذٌ باللهِ مِنَ الضلال، وهو ضِدُّ الهداية، وسؤالُهُ تبارَكَ وتعالى الإعاذةَ مِنَ الضلالِ مُتضمِّنٌ طلبَ التوفيقِ للهداية.

وقوله: (**أَنْ أَضِلَّ**)؛ **أي**: أنْ أَضِلَّ في نفسي بأنْ أرتكبَ أمرًا يُفْضِي بي إلى الضلال، أو أقترفَ ذنبًا يَجْنَحُ بي عن سبيلِ الهداية.

وقوله: (**أَوْ أُضَلَّ**)؛ **أي**: أنْ يُضِلَّنِي غيري مِنْ شياطينِ الإنسِ والجنِّ، الذين لا هَمَّ لهم إلَّا إضلالُ الناس، وصَدُّهُمْ عن سواءِ السبيل.

وقوله: (**أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ**)؛ مِنَ الزَّلَّةِ، وهي العَثْرةُ، وذلك بأنْ يَهْوِيَ الإنسانُ عن طريقِ الاستقامة؛ **ومِنْ ذلك قولهم**: زلَّت قَدَمُ فُلان؛ **أي**: وقَعَ من عُلُوٍّ إلى هبوط، **ويُقال**: طريقٌ مَزَلَّة؛ **أي**: تَزِلُّ عليه الأقدامُ ولا تَثْبُت، **والمرادُ هنا**: الوقوعُ في الذنبِ مِنْ حيثُ لا يَشْعُرُ؛ تشبيهًا بِزَلَّةِ الرِّجْلِ.

وقوله: (**أَزِلَّ**)؛ **أي**: مِنْ نفسي، وقوله: (**أُزَلَّ**)؛ **أي**: أنْ يُوقِعَنِي غيري في الزَّلَل.

وقوله: (**أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ**)؛ مِنَ الظُّلْم، وهو وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعِهِ.

وقوله: (**أَوْ أَظْلِمَ**)؛ **أي**: نفسي بإيقاعِها في الخطأ، وجَرِّها إلى الإثم، وغيري بأنْ أَعْتَدِيَ عليه، أو أَتَصَرَّفَ في مُلْكِهِ بغيرِ حقٍّ، أو أنالَهُ بشيءٍ مِنَ الأذى والسُّوء.

وقوله: (**أَوْ أُظْلَمَ**)؛ **أي**: أن يَظْلِمنِي أحدٌ مِنَ الناسِ في نفسي أو مالي أو عِرْضي.

وقوله: (**أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**)؛ مِنَ الجهل، وهو ضِدُّ العلم.

وقوله: (**أَجْهَلَ**)؛ **أي**: أفعلَ فِعْلَ الجُهَلاء، أو أشتغلَ في شيءٍ لا يَعْنِينِي، أو أَجْهَلَ الحقَّ الواجبَ عليَّ.

وقوله: **(أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ)**؛ أي: أن يَجْهَلَ غيري عليَّ بأنْ يُقَابِلَنِي مقابلةَ الجُهَلاءِ: بالسفاهةِ والوقاحةِ والسِّبَابِ ونحوِ ذلك.

ومَنْ سَلِمَ مِنَ الغَلَطِ مَعَ غيرِهِ في شيء مِنْ هذه الخصال، ومِنْ أن يَغْلَطَ معه غيرُهُ في شيءٍ منها، فقد عُوفِيَ وعُوفِيَ الناسُ منه؛ فالحديثُ فيه التعوُّذُ من هذه الأمورِ **من الطرفَيْن**: من طرفِ المتعوِّذِ نَفْسِه، ومِنْ طرفِ الناسِ الذين يلقاهم ويحتكُّ بهم، **وكان بعضُ السَّلَفِ يقولُ في دعائه**: «اللَّهُمَّ سلِّمْنِي وسَلِّمْ مِنِّي»[1]. ومَنْ كان هذا شأنَهُ سالِمًا مِنْ شرِّ الناس، والناسُ سَالِمُونَ مِنْ شَرِّه، فهو على خيرٍ عظيم.

۞ **فهذا دعاءٌ عظيمٌ ينبغي على المسلمِ أن يُحَافِظَ عليه كلَّما خرَجَ من منزله**؛ ليكونَ ملتجئًا إلى الله، ومعتصمًا به سبحانه مِنْ أن ينالَهُ شيءٌ مِنْ تلك الأمور، ثم عليه ـ مَعَ هذا الالتجاءِ ـ أن يأخذَ بالأسبابِ، فيَحْذَرَ أشدَّ الحَذَرِ من الضلالِ والزللِ، والظُّلْمِ والجهل، فيكونَ بذلك جامعًا بين فعلِ الأسباب، والاستعانةِ عليها باللهِ تبارَكَ وتعالى.

❊ ❊ ❊

(١) ذكره ابن رجب في كتابه: «شرح حديث لبيك اللهمَّ لبيك» (ص١٠٢).

١٣٤

أَذْكَارُ دُخُولِ الْمَنْزِلِ

لقد ورَدَ في السُّنَّةِ أذكارٌ عظيمةٌ مُتعلِّقةٌ بما ينبغي للمسلمِ أن يقولَهُ عندَ دخولِ المَنْزِلِ، وفي الجملةِ يُستَحَبُّ للمسلمِ أن يقولَ عندَ دخولِ المَنْزِلِ: باسمِ الله، وأَن يُكْثِرَ من ذكرِ الله، وأن يُسَلِّمَ؛ سواءٌ كان في البيتِ أحدٌ أم لا.

روى الإمام مسلمٌ في «صحيحه»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنَّه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقُولُ: **(إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالعَشَاءَ)**[١].

وقد دَلَّ هذا الحديثُ على أنَّ ذِكْرَ المسلمِ لربِّه عندَ دخولِهِ منزلَهُ، وعندَ طعامِهِ وشرابِهِ سببُ حِفْظِهِ ووقايتِهِ مِنَ الشيطان؛ إِذْ إِنَّ الشيطانَ يتبعُ المسلمَ في أحوالِهِ كلِّها، عندَ دخولِ البيتِ، وعندَ الطعامِ والشرابِ، وغيرِ ذلك، فإذا ذَكَرَ المسلمُ رَبَّهُ، خَنَسَ الشيطانُ، وأَيِسَ منه، ولَم يَقْرَبْهُ، وكان في حِفْظٍ منه ومِنْ مَكْرِهِ وكَيْدِه. وأمَّا إذا غَفَلَ المسلمُ عن الذِّكْرِ، فإنَّ الشيطانَ يُلَازِمُهُ ويُشَارِكُهُ في طعامِهِ وشرابِهِ ومبيته؛ والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزّخرُف: ٣٦]؛ **أي**: يُقارِنُهُ ويُلازمُهُ ويَؤُزُّهُ إلى المعاصي أَزًّا.

وذِكْرُ اللهِ عز وجل طاردٌ للشيطان، حافظٌ للإنسان، والذَّاكِرُ لله محفوظٌ من الشيطان بحفظِ اللهِ عز وجل، بل إنَّ الشيطانَ يَيْئَسُ منه ويُدْرِكُ أنَّه لا سبيلَ له عليه.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٠١٨).

ولهذا ورَدَ في الحديثِ المُتقدِّم أنَّ الشيطانَ عندما يَسْمَعُ الإنسانَ يَذْكُرُ اللهَ عند دخولِهِ منزلَهُ وعندَ طعامِهِ يقولُ: لا مَبِيتَ لكم ولا عَشَاءَ؛ **أي**: يقولُ ذلك لجنودِهِ وأعوانِهِ، فَيَيْئَسُ هو وأعوانُهُ من مشاركةِ هذا الذَّاكر لله في منزلِهِ وطعامه. وأمَّا الغافِلُ، فإنَّه لا ينفكُّ عن هذه المشاركة ولا يَسْلَمُ منها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]؛ وهذا في حقِّ الغافلين، أمَّا الذَّاكِرُونَ لله، فأَمْرُهم كما قال الله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ **عند تفسيره لهذه الآية**: «ذكَرَ كثيرٌ من المفسِّرين أنَّه يدخُلُ في مشاركةِ الشيطانِ في الأموالِ والأولادِ: تَرْكُ التسميةِ عندَ الطعامِ والشرابِ والجِمَاع، وأنَّه إذا لم يُسَمِّ اللهَ في ذلكَ شارَكَ فيه الشيطانُ كما ورَدَ في الحديث»؛ **أي**: حديثنا المتقدِّم.

ويُستحبُّ للمسلمِ عند دخولِ المنزلِ أن يسلِّم، سواءٌ كان المنزلُ منزلَهُ أو مَنْزِلَ غيره، وسواءٌ كان فيه أحدٌ أم لا؛ لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ﴾ [النور: ٦١]، **قال ابنُ سعدي** رَحِمَهُ اللهُ **في تفسير هذه الآية**: «﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾: نكرةٌ في سياقِ الشرط، يشملُ بيتَ الإنسان وبيتَ غيره، سواءٌ كان في البيتِ ساكنٌ أم لا، فإذا دخلها الإنسانُ ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ **أي**: فليُسلِّمْ بَعْضُكم على بعض؛ لأنَّ المسلمين كأنَّهم شخصٌ واحد، مِنْ تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم، فالسلامُ مشروعٌ لدخولِهِ سائرَ البيوتِ مِنْ غيرِ فرقٍ بينَ بيتٍ وبيت. ثم مدَحَ هذا السلامَ، فقال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ﴾؛ **أي**: سَلامًا بقولكم: السلامُ عليكُمْ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ، أو السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحين؛ إذْ تدخلون البيوتَ ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ **أي**: قد شرَعَها لكم وجعَلَها تَحِيَّتَكم، ﴿مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ﴾؛ لاشتمالها على السلامةِ مِنَ النقصِ، وحصولِ الرَّحْمةِ والبَرَكَةِ والنَّماءِ والزيادةِ، ﴿طَيِّبَةٌ﴾؛ لأنَّها من الكَلِمِ الطَّيِّبِ المحبوبِ

عند الله، الذي فيه طِيبُ نفسٍ للمُحَيَّا، ومَحَبَّةٌ وجَلْبُ مَوَدَّة». اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: «السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحينَ» عندَ دخولِ المَنْزِلِ ـ ولا سيَّما غير المسكون ـ ورَدَ فيه حديث، لكنَّه لم يَثْبُتْ عن النَّبِيِّ ﷺ بسندٍ صحيح؛ **ففي «الموطَّأ» للإمام مالك** رَحِمَهُ اللَّهُ **أنَّه بَلَغَهُ**: «أنَّه يستحبُّ إذا دخَلَ بيتًا غيرَ مسكونٍ أن يقولَ: «السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحين»[(١)]، **ووردَ فيه أثرٌ عن عبد الله بن عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «إذا دخَلَ البيتَ غيرَ المسكونِ، فليقل: «السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحين»؛ رواه البخاري في «الأدب المفرد»[(٢)]، وورَدَ فيه كذلك آثارٌ أخرى عن بعضِ السَّلَفِ؛ منهم: قَتَادة، ومجاهد، وعَلْقمة، وعَطَاء، رحمهم الله.

وقول: «السلامُ عليكُمْ» عندَ دخولِ المَنْزِلِ فيه بَرَكةٌ على الإنسانِ وعلى أهلِ بيته؛ كما دَلَّتْ على هذا الآيةُ المتقدِّمة، وفي «الترمذي»، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: **(يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ، يَكُون بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ)**[(٣)].

ومَنْ سلَّم إذا دخَلَ بيتَهُ، فهو ضامنٌ على اللهِ تعالى؛ **أي**: صاحبُ ضمان؛ ففي «سنن أبي داود»، عن أبي أُمَامةَ الباهليِّ، عن رسول الله ﷺ، قال: **(ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: رَجُلٌ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى يَتَوَفَّاهُ، فَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى المَسْجِدِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى حَتَّى يَتَوَفَّاهُ، فَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ دَخَلَ بيتَهُ بِسَلَامٍ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)**[(٤)].

---

(١) «الموطأ» (٢٠٢٦ ـ رواية أبي مصعب).
(٢) «الأدب المفرد» رقم (١٠٥٥) حسن إسناده الحافظ في «الفتح» (١١/ ٢٠).
(٣) «جامع الترمذي» رقم (٢٦٩٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٦٠٨).
(٤) «سنن أبي داود» رقم (٢٤٩٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٦٠٩).

ورواه ابن حِبَّانَ في «صحيحه»، ولفظُهُ: **(ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ، إِنْ عَاشَ رُزِقَ وَكُفِيَ، وَإِنْ مَاتَ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ: مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ فَسَلَّمَ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى المَسْجِدِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ، وَمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ)**[١].

وقوله: **(ضَامِنٌ عَلَى اللهِ)**؛ **أي**: صاحبُ ضَمَانٍ. **والضَّمَانُ**: الرعايةُ للشيءِ، **ومعناه**: أنَّه في حِفْظِ اللهِ ورعايتِهِ وتوفيقه، فما أَجَلَّها مِنْ عَطِيَّةٍ! وما أَعْظَمَهُ مِنْ فضلٍ! نسألُ اللهَ الكريمَ مِنْ فضله.

❁ ❁ ❁

(١) «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» رقم (٤٩٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣٢١).

١٣٥

آدَابُ الخَلَاءِ وَأَذْكَارُهُ

لقد جاء في السُّنَّةِ الغَرَّاءِ بيانُ الأدبِ الذي ينبغي أن يكونَ عليه المسلمُ عندَ دخولِهِ الخَلَاءَ، وحالَ قضائِهِ للحاجةِ، وعندَ خروجِهِ منه، **وهي آدابٌ عديدةٌ تَدُلُّ على كمالِ هذه الشريعةِ المبارَكَةِ وتمامها**. وما مِنْ ريبٍ في أنَّ المسلمَ يَفْرَحُ غايةَ الفَرَحِ بتلكَ الآداب؛ لِمَا فيها مِنْ كمالِ الحُسْنِ في التطهيرِ والنظافةِ، والتنقيةِ والتزكية، بل إنَّها مَفْخَرةٌ للمسلم، وأَكْرِمْ بها من مفخرةٍ!

روى الإمام مسلم في «صحيحه»، **عن سَلْمانَ الفارسيِّ** ﷺ، **أنَّه**: «قيل له: قد عَلَّمَكُمْ نبيُّكم كُلَّ شيءٍ حتى الخِرَاءَةَ [**أي**: حتى كيفيَّةَ قضاءِ الحاجة]؟ فقال: أَجَلْ؛ لقد نهانا أن نستقبلَ القِبْلَةَ لغائطٍ أو بولٍ، أو أنْ نَسْتَنجِيَ باليمين، أو أنْ نَسْتنجِيَ بأقلَّ مِنْ ثلاثةِ أحجارٍ، أو أنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أو عَظْمٍ»(١).

وفي لفظٍ آخَرَ للحديثِ عندَ مسلمٍ **عن سَلْمان** ﷺ، **قال**: «قال لنا المُشْرِكون: إنِّي أَرَى صاحبَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ حتى يُعَلِّمَكُمُ الخِرَاءَةَ، فقال: أَجَلْ؛ إنَّه نهانا أن يَسْتَنْجِيَ أَحَدُنا بيمينِهِ، أو يَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ، ونَهَى عن الرَّوْثِ والعَظْم، وقال: لا يستنجي أحدُكُمْ بدونِ ثلاثةِ أحجارٍ»(٢).

فهؤلاءِ المُشْرِكونَ أرادوا عَيْبَ الصَّحَابةِ ﷺ بما اشتَمَلَ عليه دينُهم من تعاليمَ مُتعلِّقةٍ بكيفيَّةِ قضاءِ الحاجةِ، فقالوا على وجه السُّخْرِيَةِ: قد عَلَّمَكُمْ نبيُّكم كلَّ شيءٍ حتى الخِرَاءَةَ، فانبرَىٰ لهم سَلْمانُ الفارسيُّ ﷺ مُبْطِلًا انتقادَهم مُحطِّمًا تَهَكُّمَهم، وقال بكلِّ افتخارٍ واعتزازٍ: «أَجَلْ»؛ **أي**: نَعَمْ، لقد علَّمنا

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٢).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٢).

هذا الأمرَ ونحنُ نَفْخَرُ بذلك، ثم أخَذَ ﷺ يُعَدِّدُ لهم - مفتخرًا - شيئًا من الآدابِ الكريمة، والتعاليم المباركة التي جاءتْ بها السُّنَّةُ في هذا الشأن، وهي بحقٍّ تعاليمُ مباركةٌ لا يَعْرِفها هؤلاءِ ونظراؤهم مِنْ أشباهِ الأنعام، وإنَّما يَعْرِفها مَنْ مَنَحَهُ اللهُ التوفيق، وهداه لهذا الدِّين الحنيف، فالحمدُ لله على ما هدانا، والشُّكْرُ له على ما أولانا.

وفيما يلي وقفةٌ في بيانِ شيء من هذه الآداب:

* يُسْتَحَبُّ أوَّلًا للمسلم عندَ دخولِ الخلاءِ أن يقولَ: باسمِ اللهِ، اللَّهُمَّ، إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ؛ لِمَا ثبتَ في «الصحيحين»، عن أَنَسِ بنِ مالكٍ ﷺ، قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الخَلَاءَ، قَالَ: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ**)»[١].

والخُبُثُ: جمعُ خَبِيثٍ، **والخَبَائِثُ**: جمعُ خبيثةٍ، وقد جاء في بعضِ طرقِ الحديثِ ذِكرُ البَسْملةِ في أوَّله، **قال ابن حَجَرٍ** ﷺ: «وقد روى العُمَرِيُّ هذا الحديثَ من طريقِ عبد العزيز بن المختار، عن عبد العزيز بن صُهَيْبٍ بلفظ الأمر: (**إِذَا دَخَلْتُمُ الخَلَاءَ، فَقُولُوا: بِاسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ**)؛ وإسنادُهُ على شرطِ مسلم»[٢].

ويشهدُ لهذا ما رواه ابن ماجه وغيرُه عن عليٍّ ﷺ مرفوعًا: (**سِتْرُ مَا بَيْنَ الجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلَ الخَلاءَ أَنْ يَقُول: بِاسْمِ اللهِ**)؛ وهو حديثٌ صحيحٌ بمجموعِ طرقه[٣].

* **ومن الأدبِ إذا كان في سَفَرٍ وذهَبَ لقضاءِ الحاجة: أن ينطلقَ حتى يَتَوَارَىٰ عن أصحابه**؛ لِمَا رواه أبو داود عن المُغِيرة بن شُعْبة: «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٤٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٧٥).
(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٤٤).
(٣) رواه الترمذي رقم (٦٠٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٩٧)، **وانظر**: «إرواء الغليل» للألباني (١/ ٨٧ - ٩٠).

كان إذا أراد البَرَازَ، انطَلَقَ حتى لا يَرَاهُ أحدٌ»(١).

* **ومِنَ السُّنَّةِ**: أنْ لَا يرفعَ ثوبَهُ حتى يَدْنُوَ مِنَ الأرضِ؛ لِما روى أبو داودَ **عن ابن عُمَرَ** رضي الله عنهما: «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان إذا أراد حاجةً لا يَرْفَعُ ثَوْبَهُ حتى يَدْنُوَ مِنَ الأرضِ»(٢).

* **ومن السُّنَّةِ: أن يَسْتَتِرَ عنِ الناسِ**؛ لِمَا في «صحيح مسلم»، **عن عبد الله بن جَعْفَرٍ** رضي الله عنه، **قال**: «كان أَحَبَّ ما اسْتَتَرَ به رسولُ الله ﷺ لحاجَتِهِ هَدَفٌ أو حَائِشُ نَخْلٍ»(٣).

* **ومِنَ الأدب: أنْ لَا يبولَ في طريقِ الناس**؛ ففي «صحيح مسلم»، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ)**، قالوا: وما اللَّعَّانَانِ يا رسولَ اللهِ؟ قال: **(الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ ظِلِّهِمْ)**(٤).

وروى أبو داود في «سننه»، عن مُعَاذ بن جَبَل رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(اتَّقُوا المَلَاعِنَ الثَّلَاثَةَ: البَرَازَ فِي المَوَارِدِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالظِّلِّ)**(٥)، **والمَوَارِدُ**: طُرُقُ الماءِ.

* **ومِنْ آدابِ قضاءِ الحَاجَةِ: أنْ لَا يَسْتقبِلَ المسلمُ القِبْلَةَ بغائطٍ ولا بولٍ**؛ احترامًا لها، ولا يَسْتَدْبِرَها، وأن لا يستنجيَ بيدِهِ اليمنى؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ، فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمُ الغَائِطَ، فَلَا يَسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ وَلَا يَسْتَدْبِرْهَا، وَلَا يَسْتطِبْ بِيَمِينِهِ)**، وكان يَأْمُرُ بثلاثةِ

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٢).
(٢) «سنن أبي داود» رقم (١٤)، و«جامع الترمذي» رقم (١٤)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٠٧١).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٣٤٢).
(٤) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٩).
(٥) «سنن أبي داود» رقم (٢٦)، ورواه ابن ماجه رقم (٣٢٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٢١).

أحجارٍ، وينهى عن الرَّوْثِ»(١).

وتأمَّلْ ما في قوله ﷺ: (**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ**)، مِنْ تَمَامِ الرِّعَايَة، وحُسْنِ العناية، وكمالِ النصح.

* **ومِنَ الأدبِ إذا استَجْمَرَ المسلمُ بعدَ قضائِهِ الحاجةَ: أَلَّا يَسْتجمِرَ بأقلَّ مِنْ ثلاث**؛ لِمَا في ذلكَ مِنْ تمامِ الإنقاءِ، ولا بأسَ أنْ يستعملَ ما يقومُ مقامَ الأحجار؛ كالمناديلِ ونحوها، وله أن يستنجيَ بالماءِ وهو أفضلُ؛ ففي «الصحيحين»، **عن أنس بن مالك** رضي الله عنه، **قال**: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا خرجَ لحاجتِهِ أَجِيءُ أنا وغلامٌ معنا إِدَاوَةٌ مِن ماء؛ **يعني**: يَسْتَنْجِي به»(٢).

* **وعلى المسلمِ عندَ قضاءِ الحاجةِ أن يَحْذَرَ مِنْ رَشَاشِ البَوْلِ أنْ يُصِيبَ بَدَنَهُ أو ثيابَهُ**؛ لِمَا روى ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ على قَبْرَيْنِ، فقال: (**أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا، فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخرُ، فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِن بَوْلِهِ**)، وفي رواية: (**لَا يَسْتَنْزِهُ عَنِ البَوْلِ، أَوْ مِنَ البَوْلِ**)(٣).

* **ولا يجوزُ للمسلمِ أن يَتكلَّمَ وقتَ قضائِهِ الحاجةَ**، ولا يَشْتغِلَ بشيءٍ من الذِّكْرِ والدعاء؛ ففي «صحيح مسلم»، **عن ابن عمر** رضي الله عنهما، **قال**: «إنَّ رجلًا مَرَّ ورسولُ الله يبول، فَسَلَّمَ عليه، فلَمْ يَرُدَّ عليه»(٤)؛ وفي الحديثِ دَلَالةٌ على أنَّ المسلمَ لا ينبغي له أن يَتكلَّمَ وقتَ قضاءِ الحاجة؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يَرُدَّ عليه بشيء، ولا ينبغي له كذلكَ أنْ يَشْتَغِلَ بشيءٍ مِنَ الذِّكْرِ والدعاء، والسلامُ ذِكْرٌ ودعاء، والنبيُّ ﷺ لم يَرُدَّ السلامَ على هذا المسلِّم.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٧)، وأبو داود رقم (٨)، وابن ماجه رقم (٣١٣)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٣٤٦).
(٢) رواه البخاري رقم (١٥٠)، ومسلم رقم (٢٧١).
(٣) «صحيح البخاري» رقم (١٣٦١)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٩٢).
(٤) «صحيح مسلم» رقم (٣٧٠).

فهذه جملةٌ مِنَ الآداب العظيمةِ لقضاءِ الحاجة، نَدَبَ إليها الإسلامُ، وحَثَّتْ عليها الشريعة؛ وهي تَدُلُّ على كمالِ هذا الدِّينِ وحُسْنِهِ وجماله.

ثُمَّ إنَّ المسلمَ يُسْتَحَبُّ له إذا خرَجَ من الخلاءِ أن يقولَ: غُفْرَانَكَ؛ لِمَا رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِنَ الخَلَاءِ، قَالَ: **(غُفْرَانَكَ)**»[1].

وقوله: **(غُفْرَانَكَ)** في هذا المقام؛ **قيل في معناه: أي:** «خَوْفًا من تقصيرِهِ في أداءِ شكرِ هذه النِّعْمةِ الجليلة؛ أنْ أَطْعَمَهُ، ثم هَضَّمَهُ، ثم سَهَّلَ خروجَهُ، فرأى شُكْرَهُ قاصرًا عن بلوغِ حَقِّ هذه النعمة، فتدارَكَهُ بالاستغفار»[2].

اللَّهمَّ اغفِرْ ذنوبنا، وأَعِنَّا على طَاعَتِكَ يا ذا الجَلَالِ والإكرام.

❁ ❁ ❁

(١) «المسند» (٦/ ١٥٥)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٧)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٠٠)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٠٧).

(٢) **انظر**: «الفتوحات الربانية» لابن علَّان (١/ ٤٠١).

١٣٦

أَذْكَارُ الوُضُوءِ

روى الإمامُ أحمدُ، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرُهم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قال: **(لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ، وَلَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ)**(١)؛ وهو حديثٌ حسَنٌ بشواهده، وقد حسَّنه غيرُ واحدٍ مِنْ أهلِ العلم، وهو دالٌّ على مشروعيَّةِ التسميةِ في أَوَّلِ الوضوء.

وقد اختلَفَ العلماءُ ـ رحمهم الله ـ في حُكْمها؛ فذهَبَ الجمهورُ إلى أنَّها مستحبَّةٌ، وذهَبَ بعضُ أهلِ العلم إلى القولِ بوجوبها، إذا كان عالمًا بالحكم ذاكرًا لها، فإنْ جَهِلَ حكمها أو نسيها، فلا حَرَجَ عليه، ولا يلزمُه إعادةُ الوضوء.

وقد سئل الإمام الشيخُ عبد العزيز بنُ باز رحمه الله عن حكم مَنْ ترَكَ التسميةَ في الوضوءِ ناسيًا، فقال: «قد ذهب جمهورُ أهل العلم إلى صِحَّةِ الوضوءِ بدونِ تسمية، وذهَبَ بعضُ أهلِ العلمِ إلى وجوب التسميةِ مع العلم والذِّكْر؛ لما روي عنه ﷺ أنَّه قال: **(لَا وُضُوءَ لِمَنْ لَم يَذْكُرِ اسمَ اللهِ عَلَيْهِ)**، لكنْ مَنْ تركها ناسيًا أو جاهلًا، فوضوؤُهُ صحيحٌ، وليس عليه إعادتُهُ، ولو قلنا بوجوب التسمية؛ لأنَّه معذورٌ بالجهلِ والنِّسْيان، والحُجَّةُ في ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنَّ الله سبحانه قد استجابَ هذا الدعاءَ، وبذلك تَعْلَمُ أنَّكَ إذا نسيتَ التسميةَ في أولِ

(١) «المسند» (٢/ ٤١٨)، و«سنن أبي داود» رقم (١٠١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٩٩)، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (١/ ١٢٢).

الوضوء، ثم ذَكَرْتَها في أثنائه، فإنَّك تُسَمِّي، وليس عليك أنْ تعيدَ أوَّلًا؛ لأنَّك معذورٌ بالنسيان»[١]. اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأمَّا الدعاءُ على أعضاءِ الوضوءِ في أثناءِ الوضوء، كلُّ عُضْوٍ بدعاءٍ مخصوص، بأنْ يَجْعَلَ لِغَسْلِ اليدِ دعاءً، ولِغَسْلِ الوجهِ دعاءً، ولغسلِ القَدَمِ دعاءً، ونحوِ ذلك، فهذا لم يَثْبُتْ فيه شيءٌ عن النَّبِيِّ ﷺ، وليس للمسلمِ أن يَعْمَلَ بشيء من ذلك، ومن ذلك قولُ بعضِهم عند المضمضة: اللَّهُمَّ اسْقِنِي من حوضِ نبيِّك كأسًا لا أظمأ بعده أبدًا، وعند الاستنشاقِ: اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنِي رائحةَ نَعيمِكَ وجَنَّاتِكَ، وعند غَسْلِ الوجه: اللَّهُمَّ بَيِّضْ وجهي يومَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوه، وعند غَسْلِ اليدين: اللَّهُمَّ أَعْطِنِي كتابي بيميني، اللَّهُمَّ لا تُعْطِنِي كتابي بشمالي، وعند مسحِ الرأس: اللَّهُمَّ حَرِّمْ شَعْرِي وبَشَرِي على النار، وعند مَسْحِ الأذن: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الذين يستمعون القَوْلَ فيتَّبعونَ أحسنَهُ، وعندَ غسل الرِّجْلين: اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَدَمِي على الصراط؛ فكلُّ ذلك مِمَّا لا أصلَ له عن النَّبِيِّ الكريم ﷺ.

والواجبُ على المسلمِ الاقتصارُ على ما جاءتْ به السُّنَّة، والبُعْدُ عمَّا أحدَثَهُ الناسُ بعدَ ذلكَ؛ **قال ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا الأذكارُ التي يقولها العامَّةُ على الوضوءِ عندَ كلِّ عُضْوٍ، فلا أصلَ لها عن رسولِ الله ﷺ، ولا عَنْ أحدٍ مِنَ الصحابةِ والتابعين، ولا الأئمَّةِ الأربعة، وفيها حديثٌ كَذِبٌ على رسولِ الله ﷺ». اهـ[٢].

ويُسْتَحَبُّ للمسلم أنْ يقولَ عَقِبَ فراغِهِ مِنَ الوضوء: أَشْهَدُ أنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الله، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ؛ لِمَا ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الإِبِلِ، فَجَاءَتْ نَوْبَتِي، فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ، [**أي**: رَددتُهَا إِلَى مَكَانِ رَاحتِهَا فِي آخِرِ النَّهَارِ]، فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَدْرَكْتُ مِن قَوْلِهِ: **(مَا مِن مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ،**

---

(١) «مجموع فتاواه ومقالاته» (٧/ ١٠٠). (٢) «الوابل الصيب» (ص٣١٦).

فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ)، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَجْوَدَ هَذِهِ! فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجْوَدُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ ﵁، قَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ جِئْتَ آنِفًا، قَالَ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُبْلِغُ ـ أَوْ فَيُسْبِغُ ـ الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ)»[1].

ورواه الترمذيُّ، وزاد: (اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِينَ)[2]، وهي زيادةٌ ثابتةٌ كما بَيَّنَ أهلُ العلم.

وفي هذا الحديثِ يَذْكُرُ عُقْبةُ بنُ عامرٍ ﵁ حِرْصَ الصحابةِ ﵃ على أوقاتِهم، وتعاونَهم بينهم التعاونَ الذي يُحَقِّقُ الفائدةَ للجميع، ومِنْ ذلك أنَّهم كانوا يتناوبون رَعْيَ إِبِلِهم، فيجتمعُ الجماعةُ، ويَضُمُّونَ إِبِلَهم بعضَها إلى بعض، فيرعاها كلَّ يومٍ واحدٌ منهم؛ ليكونَ ذلك أرفقَ بهم، ولينصرفَ الباقون في مَصَالِحهم وحاجاتهم، وليَتَهَيَّأَ لهم فرصةٌ أكبرُ للاستفادةِ من النَّبيِّ ﷺ وحضورِ مجالِسِهِ. ولَمَّا كانتْ نَوْبةُ عُقْبَةَ ﵁، وعندما عادَ بالإبلِ إلى مَرَاحِها في آخرِ النهار، وفرَغَ من أمرِها، جاء إلى مجلسِ رسولِ الله ﷺ لِيُدْرِكَ شيئًا مِنْ فوائده، ولينهلَ مِنْ مَعِينِهِ المبارك، فأدرَكَ فائدةً عظيمةً فَرِحَ بها، وهي قول النَّبيِّ ﷺ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ)، فقال ﵁ مُبْدِيًا إعجابَهُ بهذه الفائدةِ العظيمة: «ما أَجْوَدَ هذه!»، فسمعَهُ عمرُ بنُ الخَطَّابِ ﵁ وكان قد رآه حِينَ دخَلَ، **فقال له**: «الَّتِي قَبْلَهَا أَجْوَدُ»؛ يُشِيرُ إلى فائدةٍ قالها النَّبيُّ ﷺ قبلَ دخولِ عُقْبَةَ ﵁؛ وفي هذا دَلَالةٌ على ما كان عليه الصحابةُ ﵃ من الحِرْصِ على الخَيْر، والتعاونِ في الدَّلَالةِ على أبوابِ العلمِ وأمورِ الإيمان؛ فذكَرَ له

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٣٤).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٥٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٤٨).

عُمَرُ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُبْلِغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ)**.

وفي هذا فضلُ إسباغِ الوضوءِ بإكمالِهِ وإتمامِهِ على الوجه المسنون، وفضلُ المحافظةِ على هذا الذِّكْرِ العظيم عَقِبَ الوضوء، وأنَّ مَنْ فعَلَ ذلكَ، فُتِحَتْ له أبوابُ الجَنَّةِ الثمانيةُ لِيَدْخُلَ مِنْ أَيِّها شاءَ.

ويُسْتَحَبُّ أن يضمَّ إليه: **(اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِينَ)**؛ لثبوت هذه الزيادةِ عندَ الترمذيِّ كما تقدَّم، وله أن يقولَ كذلك: **(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)**؛ لِما رواه النَّسائيُّ في «عمل اليوم والليلة»، والحاكم في «مستدركه»، وغيرُهما، عن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ تَوَضَّأَ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، كُتِبَ فِي رَقٍّ، ثُمَّ طُبِعَ بِطَابَعٍ، فَلَمْ يُكْسَرْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ)**[(١)]، **والطَّابَعُ**: الخَاتَمُ، يريدُ أنَّه يُخْتَمُ عليه، ولا يُفتَحُ إلى يومِ القيامة.

فهذا جملةُ ما ثَبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ من الذِّكْرِ المتعلِّقِ بالوضوء؛ **قال ابن القيِّم** رحمه الله: «ولم يُحفَظْ عنه [**أي**: رسول الله ﷺ] أنَّه كان يقولُ على وضوئِهِ شيئًا غيرَ التسمية، وكلُّ حديثٍ في أذكارِ الوضوءِ الذي يُقالُ عليه، فكَذِبٌ مُخْتَلَقٌ، لَمْ يَقُلْ رسولُ اللهِ ﷺ شيئًا منه»[(٢)]، ثم استثنى رحمه الله حديثَ التسميةِ وحَدِيثَيْ عُمَرَ وأبي سعيدٍ المتقدِّمَيْن.

واللهُ وحده الموفِّقُ، والهادي إلى سواءِ السبيل.

❁ ❁ ❁

---

(١) «المستدرك» (١/ ٥٦٤)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٣٣٣).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ١٩٥).

١٣٧

أَذْكَارُ الخُرُوجِ إِلَى الصَّلاةِ، وَدُخُولِ المَسْجِدِ وَالخُرُوجِ مِنْهُ

ثبَتَ في «صحيح مسلم»، من حديث عبد الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ يَقُولُ: (**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَعَظِّمْ لِي نُورًا**)[١].

وهذا الحديثُ يَدُلُّ على مشروعيَّةِ قولِ هذا الدعاءِ عندَ التوجُّهِ إلى المسجد، وكلُّهُ سؤالٌ لله تبارَكَ وتعالى بأن يَجْعَلَ النورَ في كلِّ ذَرَّاتِهِ الظاهرةِ والباطنة، وأنْ يَجْعَلَهُ محيطًا به مِنْ جميعِ جهاته، وأنْ يجعلَ ذاتَهُ وجملتَهُ نورًا، وهذا مناسبٌ غايةَ المناسبةِ مع ما ثبَتَ في «صحيح مسلم»، أنَّه ﷺ قال: (**وَالصَّلَاةُ نُورٌ**)[٢]، فالصلاةُ نورٌ للمؤمنِ في دنياه وفي قبرِهِ وفي الآخرة، وفي حديثٍ آخَرَ قال عليه الصلاةُ والسلامُ: (**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا، كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ**)؛ رواه أحمد[٣]، فكان في غايةِ المناسبةِ وتمامِ الحُسْنِ والمسلمُ مُتَّجِهٌ إلى المسجد لأداءِ هذه الصلاةِ التي هي نُورٌ للمؤمنِ: أنْ يسألَ اللهَ أنْ يُعْظِمَ حَظَّهُ مِنَ النورِ في جسمِهِ كلِّه، وأنْ يجعلَهُ محيطًا به مِنْ جميعِ جوانبه.

ثُمَّ إنَّ المسلمَ يُسْتَحَبُّ له إذا دخَلَ المسجدَ أنْ يقولَ: (**بِاسْمِ اللهِ،**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٢). (٢) تقدم تخريجه (ص١٩٩).

(٣) «المسند» (٢/١٦٩)، قال الشيخ عبد العزيز بن باز: «بإسناد حسن». «مجموع فتاواه» (١٠/٢٧٨).

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ)، وأن يقولَ كذلك: (**أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**).

وإذا خرَجَ أن يقول: (**بِاسْمِ اللهِ، وَالصَّلَاةُ والسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ**)؛ وقد دلَّ على ذلك مجموعُ أحاديثَ:

فعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا دخَلَ المسجدَ، قال: (**بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ**)، وإذا خَرَجَ، قال: (**بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ**)؛ رواه ابن السُّنِّيِّ في «عمل اليوم والليلة»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قال: (**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ، وَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ، وَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ**)؛ رواه النسائيُّ وابن ماجه والحاكم[(٢)]، وجاء في بعض ألفاظه: (**اللَّهُمَّ بَاعِدْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ**).

وعن أبي حُمَيْدٍ ـ أو عن أبي أُسَيْدٍ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِن فَضْلِكَ**)؛ رواه مسلم[(٣)].

وعن عبد الله بن عَمْرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ، قَالَ: (**أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ**

---

(١) «عمل اليوم والليلة» رقم (٨٩)، وسنده ضعيف، وقال الألباني: «لكنْ للحديث شاهدٌ من حديث فاطمة عند ابن السني والترمذي، وقال: حديث حسن». «تخريج الكلم الطيب» (ص٥١).

(٢) «السنن الكبرى» (٦/ ٢٧)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٧٧٣)، و«المستدرك» (١/ ٢٠٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥١٤).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٧١٣).

الرَّجِيمِ، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ، قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ)؛ رواه أبو داود(١).

وهذا مجموعُ ما ورَدَ مِمَّا يُسْتَحَبُّ للمسلمِ أن يقولَهُ عندَ دخولِ المسجدِ وعند الخروجِ منه، وإنْ طالَ عليه ذلكَ، اقتَصرَ على ما في «صحيح مسلم»، وهو أن يقولَ عندَ الدخول: **(اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ)**، وعند الخروج: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ)**.

قوله: **(إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ)**؛ **أي**: حالَ دخولِهِ المسجدَ، وقوله: **(إِذَا خَرَجَ)**؛ **أي**: حالَ خروجِهِ منه.

قوله: **(بِاسْمِ اللهِ)** عندَ الدخولِ وعندَ الخروجِ، الباءُ: للاستعانة، وكلُّ فاعلٍ يُقَدَّرُ الفعلُ المناسبُ لحالِهِ عند البسملة، والتقديرُ هنا: باسمِ الله أدخُلُ؛ **أي**: طالبًا عَوْنَهُ سبحانه وتوفيقَهُ، وهكذا الشأنُ في الخروج.

قوله: **(وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ)**؛ فيه فضلُ الصلاةِ والسلامِ على رسولِ اللهِ ﷺ عندَ دخولِ المسجدِ وعندَ الخروجِ منه، وهو مِنَ المواطنِ التي يُستَحَبُّ الصلاةُ فيها والسلامُ على رسولِ الله ﷺ، وقد فصَّلها ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «جِلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام».

وفي قوله: **(اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ)**، عند الدخول، **و(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ)** عندَ الخروجِ: حِكْمةٌ؛ **فقيل**: لعلَّ ذلك لأنَّ الداخلَ طالبٌ للآخرة، والرَّحمةُ أخصُّ مطلوبٍ له، والخارجُ طالبٌ لِلْمَعَاشِ في الدنيا، وهو المرادُ بالفضل، وقد أشارَ إلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: ١٠]، **وقيل**: لأنَّ مَنْ دخلَ المسجدَ، فإنَّه يَنْشغِلُ بما يُقرِّبُهُ إلى الله ونيلِ ثوابِهِ وجنَّته، فناسَبَ ذكرَ الرَّحمة، وإذا خرَجَ من المسجدِ، انتشَرَ في الأرضِ ابتغاء فضلِ اللهِ لرزقِهِ الطيِّبِ والحلال، فناسَبَ ذِكْرَ الفضل(٢)، والله أعلم.

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (٤٦٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٦٠٦).
(٢) انظر: «شرح الأذكار» لابن علَّان (٢/ ٤٢).

وقد دَلَّتِ النصوصُ المُتقدِّمةُ على أهميَّةِ التعوُّذِ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيم، والالتجاءِ إلى اللهِ ﷻ منه؛ سواءٌ عندَ دخولِ المسجدِ أو عند الخروجِ منه، وفي الدخولِ يقولُ ـ كما في حديث عبد الله بنِ عَمْرٍو المتقدِّمِ ـ: **(أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)**، وأنَّ العبدَ إذا قال ذلِكَ، قال الشيطانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ اليوم؛ **أي**: جميعَهُ.

وفي الخروجِ يقولُ ـ كما في حديث أبي هريرة ﷺ المتقدِّم ـ: **(اللَّهُمَّ اعْصِمْني مِنَ الشَّيْطَانِ)**.

وما مِنْ شَكٍّ أنَّ الشيطانَ حريصٌ على الإنسان غايةَ الحرصِ عندَ دخولِ المسجدِ لِيَصُدَّهُ عن صلاتِهِ، ولِيُفَوِّتَ عليه خَيْرَها، ولِيُقَلِّلَ حظَّهُ ونصيبَهُ من الرحمةِ التي تُنَالُ بها، وحريصٌ غايةَ الحرصِ على الإنسانِ عندَ خروجِهِ من المسجدِ ليسوقَهُ إلى أماكنِ الحرام، وليوقِعَهُ في مواطنِ الرِّيَبِ، وقد صَحَّ في الحديثِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: **(إِنَّ الشَّيْطَانَ قَاعِدٌ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ)**[1]؛ **أي**: في كلِّ طريقٍ يسلكُهُ الإنسانُ؛ سواءٌ كان طريقَ خيرٍ أو طريقَ شرٍّ، فإنْ كان طريقَ خيرٍ، قعَدَ له فيه لِيُثَبِّطَهُ عنه وَلِيَثْنِيَهُ عن المُضِيِّ فيه، وإنْ كان بخلافِ ذلك، قعَدَ له فيه لِيُشَجِّعَهُ على المضيِّ فيه، وليدفعَهُ على الاستمرارِ والمواصلةِ، نسألُ اللهَ أن يُعِيذَنا وجميعَ المسلمينَ منه.

وقوله: **(أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)**؛ فيه تَعَوُّذٌ باللهِ وأسمائِهِ وصفاته. **ومِنْ صفاتِهِ سبحانه**: وجهُهُ الموصوفُ بالكرم، وهو الحُسْنُ والبَهَاء. **ومِنْ صفاته**: السلطانُ الموصوفُ بالقِدَمِ، وهو الأَوَّلِيَّةُ التي ليس قَبْلَها شيءٌ، وفي هذا دَلالةٌ على عَظَمةِ اللهِ سبحانه وجلالِهِ وكمالِهِ، وكمالِ قدرتِهِ وكفايتِهِ لعبدِهِ المستعيذِ به الملتجئِ إليه سبحانه.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٨٣)، والنسائي (٦/ ٢١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٦٥٢).

١٣٨

مَا يَقُولُهُ مَنْ سَمِعَ الْأَذَانَ

لقد ورَدَ في شأنِ الأذان ـ وهو النِّداءُ إلى الصلاةِ، والإعلامُ بدخولِ وَقْتِها، بألفاظٍ مخصوصة ـ نصوصٌ كثيرةٌ في سُنَّةِ النَّبِيِّ الكريم ﷺ تَدُلُّ على فضلِهِ، وعِظَمِ شأنِهِ، وكثرةِ منافعِهِ وفوائده؛ سواءٌ على المؤذِّنِ نفسِهِ أو على مَنْ يسمعُ نداءه.

فمِنْ فضائلِ الأذانِ ما رواه البخاريُّ في «صحيحه»، عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **(لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**(١)، **ومَدَى صَوْتِهِ: أي**: غايتُهُ ومنتهاه.

وفي الحديثِ دَلَالةٌ على أنَّ كلَّ مَنْ سمعَ صوتَ المؤذِّنِ مِنَ الإنسِ أو الجنِّ، أو الشجرِ أو الحجرِ، أو الحيواناتِ، يَشْهَدُ له بذلكَ يومَ القيامة. وفي هذا دَلَالةٌ على استحبابِ رَفْعِ الصوتِ بالأذانِ لِيَكْثُرَ مَنْ يَشْهَدُ له، ما لَمْ يُجْهِدْهُ أو يتأذَّى به.

ومِنْ فضائلِ الأذانِ ما رواه البخاريُّ ومسلم، عن أبي هريرةَ ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **(لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي العَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا)**(٢).

والاستهامُ: الاقتراعُ، **والتَّهْجِيرُ**: التبكيرُ إلى صلاةِ الظهر، **وقيل**: إلى كلِّ صلاة، **والعَتَمَةُ**: صلاةُ العِشَاء.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٠٩).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦١٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٤٢٧).

* **ومِنْ فضائلِ الأذان**: ما رواه البخاريُّ ومسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: (**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ، أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينُ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ** [أي: إِذَا أُقِيمَتِ الصلاةُ]، **فَإِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا؛ لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدْرِي كَمْ صَلَّى**)(١).

وقد دَلَّ الحديثُ على أنَّ الأذانَ يَطْرُدُ الشيطانَ، وأنَّه إذا سَمِعَهُ، ولَّى هاربًا حتى لا يَسْمَعَ التأذينَ، فهو حينما يسمعُهُ يهرُبُ نفورًا عن سماعه، فإذا قُضِيَ يَرْجِعُ مُوَسْوِسًا لِيُفْسِدَ على المصلِّي صلاتَهُ.

والنصوصُ في فضلِ الأذانِ كثيرةٌ.

ثم إنَّ المسلمَ إذا سمعَ النِّدَاءَ يُستَحَبُّ له أن يقولَ مثلَ ما يقولُ المؤذِّن؛ لِمَا ثبتَ في «الصحيحين»، عن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: (**إِذَا سَمِعْتُمُ النِّدَاءَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ**)(٢).

وفي «صحيح مسلم»، عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: (**إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الجَنَّةَ**)(٣).

وهذا فيه فضلُ سماعِ النِّدَاءِ وترديدِ كلماتِهِ مَعَ المؤذِّن، بأن يقولَ مثلَ

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٠٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٨٩).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦١١)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٨٣).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٣٨٥).

قولِهِ في جميعِ الكلمات، إلَّا قولَهُ: حَيَّ على الصلاةِ، حَيَّ على الفلاحِ، فيقولُ بدلَهما: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ؛ لأنَّ قولَهُ: حيَّ على الصلاةِ: دعوةٌ للناسِ للمجيءِ لأداءِ الصلاة، وقوله: حيَّ على الفلاحِ: دعوةٌ لهم للمجيء لتحصيلِ ثوابها، وفي قولِ المسلمِ عند سماعِ ذلك: **(لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ)**: طَلَبٌ للعونِ مِنَ اللهِ في تحقيق ذلك.

ثم قوله ﷺ: **(مِنْ قَلْبِهِ)** فيه دَلَالةٌ على اشتراطِ الإخلاص؛ لأنَّه أصلٌ لا بدَّ منه في قبولِ الأعمالِ والأقوال.

ومن السُّنَّةِ أنْ يقولَ المسلمُ عَقِبَ سماعِهِ للشهادتَيْنِ: وأنا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا؛ لِمَا رَوَى مسلمٌ في «صحيحه»، عن سعد بن أبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه قال: **(مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ)**[(١)].

ورواه أبو عوانة في «مستخرجه» بلفظ: **(مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، رَضِيتُ بِاللهِ ...)**[(٢)]، الحديثَ، وهو صريحٌ في أنَّ السامعَ يقولُ ذلك بعدَ جوابِ المؤذِّنِ على الشهادتَيْنِ، يقوله مرَّةً واحدة[(٣)].

ويُسْتَحَبُّ للمسلمِ بعدَ انتهاءِ الأذانِ أن يُصَلِّيَ على رسولِ اللهِ ﷺ، وأنْ يَسْأَلَ اللهَ له الوسيلةَ، ومَنْ سأل له الوسيلةَ حَلَّتْ له الشفاعةُ؛ ففي «صحيح مسلم»، عن عبد الله بن عَمْرِو بن العاص رضي الله عنهما: أنَّه سمعَ النَّبيَّ ﷺ يقول: **(إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً**

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٣٨٦).
(٢) «مستخرج أبي عوانة» رقم (٩٩٥).
(٣) **انظر**: «تصحيح الدعاء» للشيخ بكر أبو زيد (ص٣٧١).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ؛ فَمَن سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ)[1].

وأفضلُ صِيَغِ الصلاةِ عليه: هي الصلاةُ الإبراهيميَّةُ التي علَّمها النَّبِيُّ ﷺ أمَّته بأنْ تقول: (**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**).

وروى البخاريُّ في «صحيحه»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: (**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلَاةِ القَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ**)[2].

ثُمَّ إنَّ للمسلمِ بعدَ ذلكَ أن يدعوَ اللهَ لنفسِهِ بما شاء مِنْ خَيْرَيِ الدنيا والآخرةِ؛ فإنَّ هذا الموطنَ مِنْ مواطنِ إجابةِ الدعاء؛ فقد روى أبو داودَ في «سننه»، عن عبد الله بن عَمْرِو بن العاص رضي الله عنهما: «أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ المُؤَذِّنِينَ يَفْضُلُونَنَا؟ فقال رسولُ الله ﷺ: (**قُلْ كَمَا يَقُولُونَ، فَإِذَا انْتَهَيْتَ، فَسَلْ تُعْطَهْ**)»[3].

وروى أيضًا عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (**لَا يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ**)[4].

فهذا جملةُ ما ورَدَ في هذا الباب، ولْيَحْذَرِ المسلمُ أشدَّ الحَذَرِ مِمَّا أحدَثَهُ الناسُ مِمَّا لَمْ تَثْبُتْ به سُنَّةٌ، ولم يَقُمْ عليه دليلٌ، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٣٨٤). (٢) «صحيح البخاري» رقم (٦١٤).

(٣) «سنن أبي داود» رقم (٥٢٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٤٠٣).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١١٩)، وأبو داود رقم (٥٢١)، والترمذي رقم (٢١٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٤٠٨).

١٣٩

أَذْكَارُ ٱسْتِفْتَاحِ الصَّلَاةِ

لقد ثبَتَ عن النَّبِيِّ ﷺ أنواعٌ من الأذكارِ والأدعيَةِ يَسْتفتِحُ بها المسلمُ صلاتَهُ فَرْضَها ونَفْلَها، ولم يكنِ النَّبِيُّ ﷺ يُداوِمُ على استفتاحٍ واحد، بل كان يَسْتفتِحُ بأنواعٍ مِنَ الاستفتاحاتِ، وهي ـ في الجملة ـ مشتملةٌ على تعظيمِ اللهِ، وتمجيدِهِ، وحُسْنِ الثناءِ عليه تبارَكَ وتعالى بما هو أهلُهُ، وسؤالِهِ مغفرةَ الذنوب، ولا يَلْزَمُ المسلمَ نوعٌ معيَّنٌ من هذه الأنواع، بل بأيٍّ منها أخَذَ لا حرَجَ عليه، والأَوْلَى أنْ يَفْعَلَ بَعْضَها تارَةً، وبَعْضَها تارَةً؛ لأنَّ ذلك أكملُ في الاتِّباع.

ومِنْ هذه الاستفتاحاتِ ما ثبَتَ في «الصحيحين»، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ، سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يا رَسُولَ اللهِ! بِأَبِي وَأُمِّي، أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ: (**أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدتَ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالمَاءِ وَالبَرَدِ**)»[1].

وفي هذا الاستفتاحِ سؤالٌ لله تبارَكَ وتعالى أن يُباعِدَ بينَ العبدِ وبينَ خطاياهُ ـ وهي الذنوبُ ـ كما باعَدَ بين المشرقِ والمغربِ، وذلك بِمَحْوِ الذنوب، وعَدَمِ المؤاخذةِ عليها، والتوفيق للبُعْدِ عنها، وأن يُنَقِّيَهُ مِنْ خطاياه؛ **أي**: يُنَظِّفَهُ منها كما يُنظَّفُ الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَس، بحيث لا يبقى فيه أيُّ أَثَر، وأنْ يَغْسِلَهُ من خطاياه بالثَّلْجِ والماءِ والبَرَد، وفي هذا إشارةٌ إلى شِدَّةِ حاجةِ القلبِ والبَدَنِ إلى ما يُطَهِّرُهُمَا ويبرِّدهما ويقوِّيهما.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٧٤٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٩٨).

ومن استفتاحاتِهِ ﷺ ما رواه أبو داودَ وغيرُهُ عن عائشة وأبي سَعِيدٍ رضي الله عنهما، وغيرِهما: «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان إذا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ، قَالَ: (**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**)»(١).

وهذا الاستفتاحُ أُخْلِصَ للثناءِ على الله سبحانه وتنزيهِهِ عن كلِّ ما لا يليقُ به، وأنَّه تبارَكَ وتعالى مُنزَّهٌ عن كلِّ عَيْب، سالمٌ مِنْ كلِّ نقص، محمودٌ بكلِّ حَمْد.

ومعنى قوله: (**تَعَالَى جَدُّكَ**)؛ **أي**: ارتَفَعَتْ وعَلَتْ عَظَمَتُك، وجَلَّتْ فوقَ كلِّ عَظَمة، وعلا شأنُكَ على كلِّ شأن، وقَهَرَ سُلْطَانُكَ على كلِّ سلطان، فتعالى جَدُّهُ تبارك وتعالى أن يكونَ معه شريكٌ في المُلْكِ أو الربوبيَّةِ أو الألوهيَّة، أو في شيءٍ مِنْ أسمائِهِ وصفاته، كما قال مؤمنو الجنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجنّ: ٣]؛ **أي**: تعالَتْ عَظَمَتُهُ وتَقدَّستْ أسماؤُهُ مِنْ أن يكونَ له صاحبةٌ أو ولد.

وقوله: (**وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**)؛ **أي**: لا معبودَ بحقٍّ سِوَاكَ.

فاشتَمَلَ هذا الاستفتاحُ العظيمُ على **أنواعِ التوحيدِ الثلاثة**: توحيدِ الربوبيَّة، وتوحيدِ الألوهيَّة، وتوحيدِ الأسماءِ والصفات.

ومِنَ الاستفتاحاتِ الثابتةِ ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهما، قال: «بينما نحنُ نُصَلِّي مع رسولِ اللهِ ﷺ إذْ قال رَجُلٌ مِنَ القَوْم: اللهُ أكبرُ كبيرًا، والحمدُ للهِ كثيرًا، وسبحانَ اللهِ بُكْرةً وأصيلًا، فقال رسولُ الله ﷺ: (**مَنِ القَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا؟**)، قال رَجُلٌ مِنَ القومِ: أنا يا رسولَ اللهِ، قال: (**عَجِبتُ لَهَا؛ فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ**)».

قال ابن عُمَرَ رضي الله عنهما: «فما تَرَكْتُهُنَّ منذُ سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ ذلك»(٢).

---

(١) «المسند» (٣/ ٥٠)، و«سنن أبي داود» رقم (٧٧٥، ٧٧٦)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٤٢)، و«سنن النسائي» رقم (٨٩٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٨٠٤)، ورواه مسلم في «صحيحه» رقم (٣٩٩)، عن عُمَرَ بن الخَطَّاب رضي الله عنه موقوفًا عليه.

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٠٣).

وهذا كلُّه ذِكْرٌ لله وثناءٌ عليه سبحانه بهذه الكلماتِ العظيمة: **(اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، والحَمْدُ للهِ كَثِيرًا، وسُبْحَانَ اللهِ بُكْرةً وأَصِيلًا)**، فكلُّهُ تكبيرٌ وتحميدٌ وتَسبيحٌ لله؛ فهو مُخْلَصٌ في الثناءِ على الله ﷻ.

ومِنَ الاستفتاحاتِ الواردةِ: ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن عليٍّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: **(وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)**»(١).

وهذا كلُّهُ خبرٌ مِنَ العَبْدِ عمَّا ينبغي أنْ يكونَ عليه مِنْ ذُلٍّ وخضوعٍ وانكسارٍ بينَ يَدَيْ فاطرِ السمٰوات والأرض.

وقوله: **(وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ)**؛ **أي**: أخلصْتُ دِينِي وعملي، وقَصَدتُك وَحْدَكَ بعبادتِي وتوجُّهي، وقوله: **(حَنِيفًا)**؛ **أي**: مائلًا عن الشِّرْكِ إلى التوحيد.

وقوله: **(إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ)**، خصَّ هاتَيْنِ العِبادَتَيْنِ الصلاةَ والنُّسُكَ ـ وهو الذبحُ ـ بالذِّكْر؛ لشرفهما وعِظَمِ فضلهما، ومَنْ أخلَصَ في صلاتِهِ ونُسُكِهِ استلزَمَ إخلاصَهُ لله في سائرِ أعمالِه، وقوله: **(مَحْيَايَ وَمَمَاتِي)**؛ **أي**: ما آتيه في حياتِي، وما أموتُ عليه مِنَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ كلُّه لله ربِّ العالمين، لا شريكَ له في شيءٍ مِنْ ذلك.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٧٧١).

وقوله: (**اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**)، فيه التوسُّلُ إلى اللهِ بملكِهِ وألوهيتِهِ وربوبيتِهِ، واعترافُ العبدِ بأنَّه عبدٌ له، ظالِمٌ لنفسِهِ، معترفٌ بذنبه، وأنَّه سبحانه غافرُ الذنوب، ولا يغفرُهَا إلَّا هو، وهو بهذا يَطْمَعُ مِنْ ربِّه أن يَغْفِرَ له ذنبَهُ.

وقوله: (**واهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ**)، فيه سؤالُ اللهِ الهدايةَ إلى الخُلُقِ الحَسَن، واعترافُهُ بأنّه لا يهدي إليه إلَّا اللهُ، وأن يَصْرِفَ عنه الخُلُقَ السيِّئَ الرديء، واعترافُهُ بأنَّه لا يصرفُهُ عنه إلَّا اللهُ.

وقوله: (**لَبَّيْكَ**): استجابةٌ لنداءِ اللهِ، وامتثالُ أمرِهِ سبحانه. وقوله: (**وَسَعْدَيْكَ**)؛ **أي**: إسعادًا بعدَ إسعاد، **والمرادُ**: طاعةٌ بعدَ طاعةٍ.

وقوله: (**وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ**)؛ **أي**: خزائنُهُ عندك، وأنتَ المانُّ به المتفضِّلُ وحدك.

وقوله: (**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ**)، فيه تنزيهُ الله عن الشرِّ أن يُنسَبَ إليه؛ فالشرُّ لا يُنْسَبُ إلى اللهِ بوجهٍ مِنَ الوجوه؛ لا في ذاتِهِ، ولا في أسمائِهِ، ولا في صفاتِهِ، ولا في أفعالِهِ، وإنَّما الشرُّ يدخُلُ في مخلوقاتِهِ ومفعولاتِهِ؛ فالشرُّ في المَقْضِيِّ لا في القَضَاءِ، فتبارَكَ وتعالى عن نسبةِ الشَّرِّ إليه، بل كلُّ ما نُسِبَ إليه فهو خيرٌ.

وقوله: (**وَأَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ**)؛ **أي**: بك أستجيرُ، وإليكَ ألتجئُ، أو بك أحيا وأموت، وإليك المرجعُ والمصير.

وقوله: (**تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ**)، فيه إثباتُ استحقاقِهِ سبحانَهُ الثناءَ والتعظيم.

ثم ختَمَ هذا الاستفتاحَ بالاستغفارِ والتوبة، وللحديثِ صِلَةٌ، والله تعالى أعلم.

١٤٠

أَنْوَاعُ ٱسْتِفْتَاحَاتِ الصَّلَاةِ

سبَقَ أنْ مرَّ معنا ذِكْرُ أنواعِ استفتاحاتِ النَّبيِّ ﷺ للصلاة، وبيانُ شيءٍ من مَعَانيها ودَلَالتها، وسبق الإشارةُ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَم يكنْ يداومُ على نوعٍ من تلكَ الأنواع، بل يَسْتفتِحُ بهذا تَارةً وبهذا تَارةً. ومَنْ يَتأمَّلْ في هذه الاستفتاحاتِ المأثورةِ عن النَّبيِّ ﷺ يَجِدْ أنَّها **على ثلاثةِ أنواع: نوعٌ** فيه الثناءُ على الله، **ونوعٌ** فيه إخبارٌ مِنَ العَبْدِ عن عبادةِ الله، **ونوعٌ** فيه دعاءٌ وطَلَب.

وقد قرَّر شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ **أصلًا عظيمًا في هذا الباب، وأطال في ذِكْرِ شواهدِهِ ودَلَائله، ألَا وهو أنَّ أعلى الذِّكْرِ ما كان ثناءً على الله، ويليه ما كان خبَرًا مِنَ العبدِ عن عبادةِ الله، ويليه ما كان دُعَاءً مِنَ العَبْد، ثم قال** رَحِمَهُ اللَّهُ **عَقِبَ ذلك**: «إذا تَبيَّنَ هذا الأصلُ، فأفضلُ أنواع الاستفتاح ما كان ثناءً مَحْضًا، مثلُ: **(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ)**، وقوله: **(اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، والحَمْدُ للهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)**، ولكنَّ ذاك فيه مِنَ الثناءِ ما ليس في هذا، فإنَّه تَضمَّنَ ذِكْرَ الباقياتِ الصالحاتِ التي هي أفضلُ الكلامِ بعدَ القرآن، وتضمَّن قولَهُ: **(تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ)**، وهما من القرآنِ أيضًا؛ ولهذا كان أكثرُ السَّلَفِ يَسْتفتِحُونَ به، وكان عُمَرُ بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَجْهَرُ به يُعلِّمُهُ الناسَ.

وبعده النوعُ الثاني، وهو الخَبَرُ عن عبادةِ العبد؛ كقوله: **(وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ...)**، إلخ، وهو يَتضمَّنُ الدعاءَ، وإن استفتَحَ العبدُ بهذا بعدَ ذلك، فقد جمَعَ بين الأنواعِ الثلاثة، وهو أفضلُ الاستفتاحاتِ، كما جاءَ ذلك، في حديثٍ مُصرَّحًا به، وهو اختيارُ أبي يوسفَ، وابنِ هُبَيْرَةَ الوزيرِ، ومِنْ أصحابِ أحمدَ صاحبُ «الإفصاح»؛ وهكذا أستفتحُ أنا.

وبعده النوعُ الثالث، كقوله: (**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...**) إلخ...».اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ قد قرَّر في مواضعَ مِنْ مؤلَّفاته قاعدةً نافعةً تَتعلَّقُ بالعباداتِ التي جاءتْ في الشريعةِ على أنواعٍ، وهي أنَّها تُفْعَلُ على جميعِ تلكَ الأنواعِ الواردة؛ **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد تَقدَّمَ القولُ في مواضعَ أنَّ العباداتِ التي فَعَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ على أنواعٍ يُشْرَعُ فِعْلُها على جميعِ تلكَ الأنواعِ، لا يُكْرَهُ منها شيءٌ، وذلكَ مثلُ أنواعِ التشهُّداتِ، وأنواعِ الاستفتاحِ، ومثلُ الوِتْرِ أوَّلَ الليلِ وآخِرَهُ، ومثلُ الجهرِ بالقراءةِ في قيامِ الليلِ والمخافتةِ، وأنواعِ القراءاتِ التي أُنْزِلَ القرآنُ عليها، والتكبيرِ في العيدِ، ومثلُ الترجيعِ في الأذانِ وتَرْكِه، ومثلُ إفرادِ الإقامةِ وتثنيتِها ...»، **ثم ذكرَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **أنَّ الكلامَ في هذه المسألة من مقامَيْنِ**:

«**أحدهما**: في جوازِ تلكَ الوجوهِ كلِّها بلا كَرَاهة، **والمقامُ الثاني**: هو أنَّ ما فعلَهُ النَّبِيُّ ﷺ من أنواعٍ متنوِّعةٍ، وإنْ قيل: إنَّ بعضَ تلك الأنواعِ أفضلُ، فالاقتداءُ بالنَّبِيِّ ﷺ في أنْ يُفْعَلَ هذا تَارَةً، وهذا تَارَةً: أفضلُ مِنْ لزومِ أحدِ الأمرَيْنِ وهجرِ الآخر؛ وذلك أنَّ أفضلَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، ولم يكنْ يُدَاوِمُ على استفتاحٍ واحدٍ قطعًا»[2].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونحنُ إذا قلنا: التنوُّعُ في هذه الأذكارِ أفضلُ، فهو أيضًا تفضيلٌ لجِنْسِ التنوُّعِ، والمفضولُ قد يكونُ أنفعَ لبعضِ الناسِ لمناسبتِهِ له ... لأنَّ انتفاعَهُ به أتمُّ، وهذه حالُ أكثر الناس، قد ينتفعون بالمفضولِ لمناسبتِهِ لأحوالِهِمُ الناقصةِ ما لا ينتفعونَ بالفاضل، فالعبادةُ التي يَنْتَفِعُ بها؛ فيَحْضُرُ لها قلبُهُ، ويرغبُ فيها أفضلُ مِنْ عبادةٍ يفعلها مَعَ الغفلةِ وعدمِ الرغبة، وعلى هذا قد تكونُ مداومتُهُ على النوعِ المفضولِ أنفعَ لمحبَّتِهِ وشهودِ قلبِهِ وفهمِهِ ذلك الذِّكْرَ»[3].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥).
(٢) **انظر**: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٣٦ ـ ٣٤٣).
(٣) **انظر**: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٤٨).

ثم إنَّ النَّبِيَّ ﷺ ثبتَ عنه أنواعٌ أخرى مِنَ الاستفتاحِ كان يستفتحُ بها صلاةَ الليلِ؛ منها ما رواه البخاريُّ، عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ: (**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ**)»(١).

وهذا الذِّكْرُ تَضمَّنَ الأنواعَ الثلاثةَ المتقدِّمةَ: الثناءَ على اللهِ، والإخبارَ من العبدِ عن عبادةِ اللهِ، والسؤالَ والطَّلَبَ، وقدَّمَ ما هو خبرٌ عن اللهِ واليومِ الآخرِ ورسولِهِ ﷺ، ثم ذَكَرَ ما هو خبرٌ عن توحيدِ العبدِ وإيمانه، ثم ختَمَهُ بالسؤالِ والطلب(٢).

وهو في الجُمْلةِ: ذكرٌ عظيمٌ، ودعاءٌ مُبارَكٌ مشتملٌ على أصولِ الإيمان، وأُسُسِ الدِّين، وحقائقِ الإسلام، وفيه التوسُّلُ إلى اللهِ بِحَمْده، والثناءِ عليه، والإقرارِ بعبوديَّته، ثم سؤالُهُ تبارك وتعالى مغفرةَ الذنوب.

ومِن استفتاحاتِهِ ﷺ لصلاةِ الليلِ ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ الصَّلَاةَ: (**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ**

(١) «صحيح البخاري» رقم (١١٢٠)، ورواه مسلم رقم (٧٦٩).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٩٠).

مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)»[١].

وهذا فيه التوسُّلُ إليه سبحانه بربوبيَّتِهِ العامَّةِ والخاصَّةِ لهؤلاءِ الثلاثةِ من الملائكةِ الموكَّلينَ بالحياة؛ فجبريلُ مُوكَّلٌ بالوَحْيِ الذي به حياةُ القلوبِ والأرواح، وميكائيلُ مُوكَّلٌ بالقَطْرِ الذي به حياةُ الأرضِ والنباتِ والحيوان، وإسرافيلُ مُوكَّلٌ بالنفخِ في الصُّورِ الذي به حياةُ الخَلْقِ بعدَ مماتِهم[٢]، وتوسُّلٌ إليه سبحانه بكونِهِ فاطرَ السمٰوات والأرض؛ **أي**: خَالِقَهُمَا ومُبْدِعَهما، وبعلمِهِ سبحانه الغيبَ والشهادة؛ **أي**: السِّرَّ والعلانيةَ، وبأنَّه سبحانه هو الذي يحكُمُ بين عبادِهِ فيما كانوا فيه يختلفون: أن يَهْدِيَهُ لِمَا اختُلِفَ فيه مِنَ الحقِّ بإذنه، والهدايةُ هي العِلْمُ بالحَقِّ مع قَصْدِهِ وإيثارِهِ على غيره، والمهتدي هو العاملُ بالحقِّ المُرِيدُ له، وهي أعظمُ نعمةٍ للهِ على العبد، نسألُ اللهَ أن يَهْدِيَنا جميعًا إليه صراطًا مستقيمًا، وأنْ يُوَفِّقنا لكلِّ خير.

❁ ❁ ❁

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٧٧٠).

(٢) **انظر**: «إغاثة اللهفان» لابن القيِّم (٢/ ١٧٢).

١٤١

أَذْكَارُ الرُّكُوعِ والقِيَامِ مِنْهُ وَالسُّجُودِ وَالجَلْسَةِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ

ورَدَ في هذا أنواعٌ مِنَ الأذكار والأدعية، وفيما يلي عرضٌ لجملةٍ من النصوصِ الواردةِ في هذا الباب، مع إيضاحِ شيءٍ من مَعَانيها ودَلَالتها.

روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن حُذَيْفة رضي الله عنه، قال: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ البَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: **(سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ)**، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: **(سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)**، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: **(سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى)**، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ»(١).

ففي هذا الحديثِ مشروعيةُ أن يقولَ المسلمُ في ركوعه: **(سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيم)** وفي سجوده: **(سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى)**، **قال ابن القيِّم** رحمه الله: «فشُرِعَ للرَّاكِعِ أنْ يَذْكُرَ عَظَمَةَ ربِّه في حالِ انخفاضِهِ هو، وتطامُنِهِ وخضوعِهِ، وأنه سبحانه يُوصَفُ بوصفِ عَظَمَتِه عما يضادُّ كبرياءَهُ وجلالَهُ وعظمتَهُ، فأفضلُ ما يقولُ الراكعُ على الإطلاق: **(سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيم)**؛ فإنَّ الله سبحانه أمَرَ العبادَ بذلك، وعيَّن المبلِّغُ عنه؛ السفيرُ بينه وبين عباده هذا المَحَلَّ لهذا الذِّكْرِ لَمَّا نزلَتْ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، قال: **(اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ)**...»(٢).

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٧٧٢).

(٢) «كتاب الصلاة» لابن القيِّم (ص١٧٦).

وقال عن السجود: «وشرَعَ فيه مِنَ الثناءِ على اللهِ ما يناسبُهُ، وهو قول العبد: (**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**)، فهذا أفضلُ ما يُقالُ فيه، ولم يَرِدْ عن النَّبِيِّ ﷺ أمرُهُ في السجودِ بغيره، حيث قال: (**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُم...**)، وكان وصف الربِّ بالعلُوِّ في هذه الحالِ في غايةِ المناسبةِ لحالِ الساجد الذي قد انحَطَّ إلى السُّفْلِ على وجهه، فذكَرَ عُلُوَّ ربه في حالِ سقوطه، وهو كما ذكَرَ عظَمَتَهُ في حالِ خضوعِهِ في ركوعه، ونزَّه ربَّه عما لا يليقُ به مما يضادُّ عَظَمَتَهُ وعُلُوَّهُ»[1].

وفي «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**)، يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ»[2].

والمرادُ بقولها رضي الله عنها: «**يَتَأَوَّلُ القرآن**»؛ **أي**: يَتأوَّلُ قولَ اللهِ عز وجل في سورةِ النصر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النّصر: ٣]؛ فكان يُكْثِرُ أن يقولَ في ركوعِهِ وسجوده: (**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهمَّ اغْفِرْ لِي**).

وروى مسلمٌ في «صحيحه» عنها رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**)»[3].

وقوله: (**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ**)، هما اسمانِ للهِ دَالَّانِ على تعظيم اللهِ وتَنْزيهِهِ سبحانَهُ عن كلِّ ما لا يليقُ به مِنَ النقائصِ والعيوب، وعن أن يُشْبِهَهُ أحدٌ من خَلْقِهِ في شيء مِنْ خصائصِهِ ونعوتِ كماله. وقوله: (**رَبُّ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**) فيه ذكرُ ربوبيَّةِ اللهِ للملائكةِ عمومًا، ثم خَصَّ بالذِّكْرِ جبريلَ عليه السلام الرُّوحَ الأمين؛ لكونِهِ أفضلَ الملائكةِ ومُقَدَّمَهم، وهو الذي كان يَنْزِلُ بالوحي على رسولِ اللهِ ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعَرَاء]، وقد سُمِّي جبريلُ عليه السلام رُوحًا؛ لأنَّه كان يَنْزِلُ بالوحي الذي به حياةُ القلوب.

---

(١) «كتاب الصلاة» لابن القيِّم (ص١٨١).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٤٤).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٤٨٧).

وروى أبو داود، والنَّسَائيّ، وغيرهما، عن عَوْف بن مالك الأشجعيِّ ﵁، قال: «قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ البَقَرَةِ، لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: (**سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ**)، ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَرَأَ سُورَةً سُورَةً»(١).

وقوله: (**سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ والمَلَكُوتِ**)؛ **أي**: تَنَزَّهَ وتَقَدَّسَ، و(الجَبَرُوتُ وَالمَلَكُوتُ): فَعَلُوتٌ مِنَ الجَبْرِ والمُلْك، كالرَّحَمُوتِ والرَّغَبُوتِ والرَّهَبُوتِ؛ فَعَلُوتٌ من الرَّحْمةِ والرَّغْبة والرَّهْبة، **والعَرَبُ تقول**: «رَهَبُوتٌ خيرٌ من رَحَمُوت»؛ **أي**: أنْ تُرْهِبَ خيرٌ مِنْ أن تَرْحَمَ، فالجبروتُ والملكوتُ يَتضمَّنُ مِنْ معاني أسماءِ اللهِ وصفاتِهِ ما دلَّ عليه معنى الملِكِ الجبَّار(٢)، قال الله تعالى في آخر سورة يس: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

وقوله: «**وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ**»؛ **أي**: وذي الكبرياءِ والعَظَمَة، وهما وصفانِ متقاربانِ خَاصَّانِ باللهِ تعالى، لا يستحقُّهما أحدٌ سواه؛ كما ثبَتَ في الحديثِ الصحيحِ عن النَّبيِّ ﷺ: (**قَالَ اللهُ ﷻ: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**)(٣).

فجعَلَ العَظَمَةَ بِمَنْزِلَةِ الإزارِ، والكبرياءَ بِمَنْزِلَةِ الرِّدَاءِ، إشارةً إلى اختصاصِ الرَّبِّ سبحانه بهما، وتَنْزِيهِ سبحانَهُ عن الشريكِ في شيءٍ من ذلك.

وروى مسلم في «صحيحه»، عن علي بن أبي طالب ﵁، في حديثِ

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (٨٧٣)، و«سنن النسائي» رقم (١١٢٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٧٧٦).
(٢) **انظر**: «الرد على المنطقيين» لابن تيميَّة (ص١٩٦).
(٣) تقدم تخريجه (ص٢٤١).

طويل: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إذا رَكَعَ، قَالَ: **(اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي)**، وَإِذَا رَفَعَ، قَالَ: **(اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمٰوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)**، وَإِذَا سَجَدَ، قَالَ: **(اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ)**[(١)].

قوله: **(اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ)**، تأخيرُ الفعلِ يَدلُّ على الاختصاصِ؛ **أي**: لك ركوعي، لا لسواك.

وقوله: **(وَبِكَ آمنْتُ)**؛ **أي**: أَقْرَرْتُ وصدَّقت.

وقوله: **(وَلَكَ أَسْلَمْتُ)**؛ **أي**: انقَدتُ وأَطَعْتُ.

وقوله: **(خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي)**؛ **أي**: أَنَّ هذه الأشياءَ مِنِّي كلَّها خضَعَتْ لك، وذَلَّتْ بين يديك، وانكَسَرَتْ لِجَنَابك.

وقوله إذا رفَعَ من الركوع: **(سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)**؛ **أي**: استجابَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فالسمعُ هنا سمعُ إجابةٍ.

وقوله: **(اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمٰوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيءٍ بَعْدُ)**، سيأتي الكلام عن معناه ـ إن شاء الله ـ.

وقوله: **(سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ)** فيه استحضارُ العبدِ لِعَظَمَةِ اللهِ سبحانه، وكمالِ خَلْقِهِ للإنسانِ في أكملِ صُورَة، وأحسنِ تقويم، فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين.

❁ ❁ ❁

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٧٧١).

١٤٢

وَمِنْ أَذْكَارِ الصَّلَاةِ

لا يزالُ الحديثُ عن الأذكارِ المتعلِّقةِ بالصلاة موصولًا؛ ولقد ثبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنواعٌ مِنَ الأذكارِ يُشْرَعُ للمسلمِ أن يَقُولَها عند الرفعِ مِنَ الركوع، وهي في الجملةِ حَمْدٌ لله، وثناءٌ عليه، وتمجيدٌ له سبحانه.

ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: **(إِذَا قَالَ الإِمَامُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)**[1].

وفي لفظ: **(اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ)** بزيادةِ «الواو»، وهو في «الصحيحين»؛ **قال ابن القيِّم** رحمه الله: «ولا يُهْمَلُ أمرُ هذه الواوِ في قوله: **(رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ)**؛ فإنَّه قد نُدِبَ الأمرُ بها في «الصحيحين»، وهي تجعلُ الكلامَ في تقديرِ جملتَيْنِ قائمتَيْنِ بأنفسِهما؛ فإنَّ قوله: **(رَبَّنَا)** مُتضمِّنٌ في المعنى: أنتَ الربُّ والمَلِكُ القَيُّومُ الذي بيديه أَزِمَّةُ الأمور، وإليه مرجعها، فعُطِفَ على هذا المعنى المفهوم مِنْ قوله: **(رَبَّنَا)** قولُهُ: **(وَلَكَ الحَمْدُ)**؛ فتَضَمَّنَ ذلك معنى قولِ الموحِّدِ: له المُلْكُ وله الحَمْد»[2].

وفي «صحيح مسلم»، من حديث عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إذا رفَعَ من الركوع، قال: **(اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمٰوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُما، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)**»[3].

وقوله: **(مِلْءَ السَّمٰوَاتِ...)**، إلخ، **أي**: حمدًا وَصْفُهُ وقدرُهُ أنَّه يملأُ

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٧٩٥، ٧٩٦)، و«صحيح مسلم» رقم (٤٠٩).

(٢) «كتاب الصلاة» (ص١٧٧) بتصرُّف يسير. (٣) تقدم تخريجه (ص٢٠٣).

العالَمَ العُلْويَّ والسُّفْليَّ والفضاءَ الذي بينهما، فهذا الحمدُ بهذه الصفةِ يملأُ جميعَ الخلقِ الموجود.

وقوله: **(وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)**؛ **أي**: حَمْدًا يَمْلَأُ ما يَخْلُقُهُ الرَّبُّ تبارَكَ وتعالى بعدَ ذلك، وما يشاؤُهُ سبحانه.

وعلى هذا، فحَمْدُهُ سبحانه مَلَأَ كلَّ موجود، ومَلأَ ما سيُوجَدُ[١].

وفي «صحيح مسلم»، من حديث أبي سَعِيدٍ الخُدْريِّ ﵁، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، قَالَ: **(رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمـوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِن شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ)**»[٢].

روى مسلم من حديث عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: **(اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ مِلْء السَّمَاءِ، وَمِلْء الأَرْضِ، وَمِلْء مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي بِالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَالْمَاءِ الْبَارِدِ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ)**[٣]. وفي رواية: «إِذَا رَفَعَ ظَهْرَهُ مِنَ الرُّكُوعِ».

قوله: **(رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ مِلْءَ السَّمـوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ)**، تَقَدَّمَ بيانُ معناه، وقوله: **(أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ)**؛ **أي**: أنتَ ـ يا اللهُ ـ أهلٌ أن يُثْنَى عليكَ وتُمَجَّدَ؛ لعَظَمَةِ صفاتِك، وكمالِ نعوتِك، وتوالي نِعَمِك، وكثرةِ آلائك.

وقوله: **(أَحقُّ مَا قَالَ العَبْدُ)**؛ **أي**: إنَّ هذا الثناءَ عليك والتمجيدَ هو أحقُّ شيءٍ قالَهُ العبدُ، وتَلَفَّظَ به؛ فقوله: **(أَحَقُّ)**: خبَرٌ لمبتدإ محذوفٍ تقديرُهُ: هذا الثناءُ والتمجيد، وقد جاءَتْ هذه الجملةُ تقريرًا لحمدِهِ وتمجيدِهِ والثناءِ عليه، ولبيانِ أنَّ ذلك أحقُّ شيءٍ نَطَقَ به العبدُ، وأفضلُ أمرٍ تكلَّمَ به.

---

(١) **انظر**: «كتاب الصلاة» لابن القيِّم (ص١٧٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٠٣).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٤٧٦).

وقوله: **(وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ)**، فيه اعترافٌ بالعبوديَّة، وأنَّ ذلك حكمٌ لجميعِ الناس؛ فكلُّهم مُعبَّدونَ مُذَلَّلونَ للهِ سبحانه، هو ربُّهم وخالقُهم، لا ربَّ لهم ولا خالقَ سواه.

وقوله: **(لَا مَانِعَ لِمَا أَعطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ)**، فيه الاعترافُ بتفرُّدِ اللهِ تعالى بالعَطَاءِ والمنع، والقَبْضِ والبَسْط، والخَفْض والرَّفْع، لا شريكَ له في شيء مِنْ ذلك، فما يكتُبُهُ سبحانَهُ لعبدِهِ مِنْ خيرٍ ونعمة، أو بلاءٍ ونِقْمةٍ، فلا رادَّ له، ولا مانعَ لوقوعِهِ، وما يَمْنَعُهُ سبحانه عن عبدِهِ مِنَ الخيرِ والنِّعْمة، أو البلاءِ والنِّقْمة، فلا سبيلَ لوقوعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وكما قال سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، فهو سبحانَهُ المتفرِّدُ بالعطاءِ والمَنْع، وإذا أعطى سبحانه لَم يُطِقْ أحدٌ مَنْعَ مَنْ أعطاه، وإذا مَنَعَ لَمْ يُطِقْ أحدٌ إعطاءَ مَنْ مَنَعَهُ.

وقوله: **(وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ)**؛ **أي**: لا ينفعُ عنده، ولا يُخلِّصُ مِنْ عذابه، ولا يُدْنِي مِنْ كرامتِهِ: جُدُودُ بني آدم؛ **أي**: حُظوظُهُمْ مِنَ المُلْكِ والرياسةِ، والغِنَى وطِيبِ العيش، وغيرِ ذلك، وإنما يَنْفَعُهم عنده التقرُّبُ إليه بطاعتِهِ وإيثارِ مرضاته(١).

وروى البخاري في «صحيحه»، عن رِفاعةَ بنِ رافعٍ الزُّرَقيِّ رضي الله عنه، قال: «كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ، قَالَ: **(سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ)**، قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ: **(مَنِ المُتَكَلِّمُ؟)**، قَالَ: أَنَا، قَالَ: **(رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ)**»(٢).

قوله: **(حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيه)**؛ **أي**: أَحْمَدُهُ حمدًا، و**(حَمْدًا)**:

---

(١) **انظر**: «كتاب الصلاة» لابن القيِّم (ص١٧٧ ـ ١٨٧).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢٠٣).

مفعولٌ مطلقٌ مؤكِّدٌ لعامله، وقولُهُ: (**كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ**)، هذه صفاتٌ للحَمْد؛ **أي**: أَحْمَدُكَ حمدًا موصوفًا بالكثرةِ والطِّيبِ والبَرَكة.

وقوله ﷺ: (**مَنِ الْمُتَكَلِّمُ؟**)؛ **أي**: مَنِ القائلُ لهذه الكلمة: (**رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ**)؟

قوله: (**لَقَدْ رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا**)، **البِضْعَةُ**: قطعةٌ من العَدَدِ، **قيل**: ما بينَ الثلاثِ إلى التِّسْع، **وقيل**: ما بينَ الواحدِ إلى العَشَرة، قوله: (**يَبْتَدِرُونَهَا**)؛ مِنَ الابتدار، وهو السَّبْق؛ **أي**: يَتَسابَقُونَ إلى كتابتها في صحائفِ الحسنات.

* **ومِنْ فوائدِ هذا الحديث**: أنَّ على المأمومِ المبادرةَ إلى قول: (**رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ**)، عَقِيبَ تسميعِ الإمام، وهذا مستفادٌ مِنْ حرفِ الفاءِ مِنْ قوله: «فقال رَجُلٌ وَرَاءَهُ»؛ فإنَّ الفاءَ تفيدُ التعقيبَ.

* **ومِنْ فوائدِ الحديث**: كثرةُ الملائكةِ الكاتبين، ومحبَّةُ الملائكةِ للخيرِ وأهلِهِ، وتسابُقُهم وتَنَافُسُهم فيه.

* **وفي الحديثِ خصُوصيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ برؤيتِهِ هؤلاءِ الملائكةَ**: حيث رآهم صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه، ولم يَرَهُمْ مَنْ حولَهُ مِنَ الصحابة.

ثُمَّ هل هؤلاءِ الملائكةُ الذين يبتدرون إلى كتابةِ هذه الكلمةِ مِنَ الحَفَظَةِ أو مِنْ غيرهم: قولانِ لأهلِ العلم، والأقربُ ـ واللهُ تعالى أعلم ـ أنَّهم غيرُ الحَفَظَةِ؛ ومِمَّا يُؤَيِّدُ هذا ما جاء في «صحيح البخاري»، عن النَّبِيِّ ﷺ، أنَّه قال: (**إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ...**)، إلى آخر الحديث، وفي لفظ: (**فُضُلًا عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ**)[١]، وقد استَدَلَّ به أهلُ العلمِ على أنَّ بعضَ الطاعاتِ قد يكتبها غيرُ الحَفَظَةِ، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) تقدم تخريجه (ص٣٠).

١٤٣

وَمِنَ الْأَذْكَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالصَّلَاةِ

لا نزالُ في الحديث عن الأذكار المتعلِّقة بالصلاة. خَرَّجَ الإمامُ مسلمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الصحيح»، عن عبد اللهِ بن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ السِّتَارَةَ والنَّاسُ صفوفٌ خَلْفَ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: (**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ، فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ، فاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**)»(١).

فقد أوضَحَ النَّبِيُّ ﷺ في هذا الحديثِ ما يَخْتَصُّ به هذانِ الرُّكْنانِ العظيمانِ؛ الركوعُ والسجودُ مِنْ ذكرٍ يُناسبُ هيئتَهما بعد ذكرِهِ للنهي عن قراءةِ القرآنِ فيهما؛ لأنَّهما حالتَا ذُلٍّ وخضوعٍ وتَطَامُنٍ وانخفاضٍ، **فأَمَّا الركوعُ**، وهو حالُ انخفاضٍ وتطامنٍ وخُضوعٍ، فيُشْرَعُ للمسلمِ فيه أن يَذْكُرَ عظمةَ ربِّه، وأنَّه سبحانه العظيمُ الذي له جميعُ معاني العظمةِ والجلال؛ كالقُوَّةِ والعِزَّة، وكمالِ القُدْرة، وسَعَةِ العِلْم، وكَمَالِ المَجْد، وغيرها مِنْ أوصافِ العَظَمَةِ والكبرياء، وأنَّه لا يَستَحِقُّ أحدٌ التعظيمَ والتكبيرَ، والإجلالَ والتمجيدَ غَيْرُه، فيَستحقُّ على العبادِ أنْ يُعظِّموهُ بقلوبهم وألسنتِهم وأعمالِهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأفضلُ ما يقولُ الراكعُ على الإطلاقِ: (**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**)؛ فإنَّ اللهَ سبحانه أمَرَ العبادَ بذلك، وعيَّن المبلِّغُ عنه؛ السفيرُ بينه وبين عبادِهِ هذا المَحَلَّ لهذا الذكرِ لَمَّا نزَلَتْ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، قال: (**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ...**)، **وبالجملةِ**:

(١) «صحيح مسلم» رقم (٤٧٩).

فسِرُّ الركوعِ تعظيمُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ بالقلبِ والقالَبِ والقولِ؛ ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ**»[(١)]. اهـ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأَمَّا السُّجُودُ ـ وهو حالُ قُرْبٍ من الله، وخضوعٍ له، وتذلُّلٍ بين يديه، وانكسارٍ له سبحانه ـ فيُشْرَعُ للمسلمِ فيه أن يُكْثِرَ مِنَ الدعاء، والدعاءُ في هذا المحلِّ أقربُ إلى الإجابةِ وقد ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»، وفي الحديثِ المتقدِّمِ قال عليه الصلاة والسلام: «**وَأَمَّا السُّجُودُ، فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»؛ **أي**: حَرِيٌّ وجَدِيرٌ أن يُستجابَ لكم؛ لأنَّ العبدَ أقربُ ما يكونُ مِنْ ربِّه وهو ساجدٌ، وأَفضلُ الأحوالِ له حالٌ يكونُ فيها أقربَ إلى الله؛ ولهذا كان الدعاءُ في هذا المحلِّ أَقْرَبَ إلى الإجابة.

ومن الأدعيةِ المأثورةِ عن النَّبِيِّ ﷺ في السجود: ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالتْ: «فَقَدتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الفِرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي المَسْجِدِ، وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَعُوذ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»»[(٢)].

وقد دلَّ هذا الحديثُ العظيمُ على أنَّه لا مَفَرَّ إلَّا إلى الله، ولا مَلْجَأَ منه إلَّا إليه، فأَزِمَّةُ الأمورِ كلُّها بيده، ونواصي العبادِ معقودةٌ بقضائِهِ وقَدَره، الأمرُ كلُّه له، والحمدُ كلُّه له، والمُلْكُ كلُّه له، والخيرُ كلُّه في يديه، فمنه تعالى المَنْجَى، وإليه المَلْجَأُ، وبه الاستعاذةُ مِنْ شرِّ ما هو كائنٌ بمشيئتِهِ وقدرتِهِ، فالإعاذةُ فِعْلُهُ، والمستعاذُ منه فِعْلُهُ أو مفعولُهُ الذي خَلَقَهُ بمشيئته، وهذا كلُّه تحقيقٌ للتوحيدِ والقَدَر، وأنه لا ربَّ غيره، ولا خالقَ سواه، ولا يملكُ المخلوقُ لنفسِهِ ولا لغيرِهِ ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل الأمرُ كلُّه لله، ليس لأحدٍ سواه منه شيءٌ.

---

(١) «كتاب الصلاة» (ص١٧٦).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٢٩).

وقوله في ختام هذا الدعاء: (**لَا أُحْصِي ثَناءً عَلَيْكَ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**)، فيه الاعترافُ بأنَّ شأنَ اللهِ سبحانه وعظمتَهُ وكمالَ أسمائِهِ وصفاتِهِ أعظمُ وأَجَلُّ مِنْ أن يُحْصِيَها أحدٌ مِنَ الخَلْق، أو يَبْلُغَ أحدٌ حقيقةَ الثناءِ عليه غيرُهُ سبحانه.

ومِنْ أدعيةِ السجودِ كذلك: ما رواه مسلم في «صحيحه»، عن أبي هُرَيْرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ**)[(١)].

وقوله: (**ذَنْبِي كُلَّهُ**)؛ **أي**: ذنوبي جميعَها؛ فإنَّ المُفرَدَ إذا أُضيفَ يَعُمُّ، ثم إنَّ هذا التعميمَ والشمولَ في هذا الدعاءِ ليأتي طلبُ الغُفْرانِ على جميعِ ذنوبِ العبد، ما عَلِمَهُ منها وما لَمْ يَعْلَمه، لا سيَّما والمقامُ مقامُ دعاءٍ وتضرُّعٍ وإظهارِ العبوديَّةِ والافتقار، فناسَبَ ذكرَ الأنواعِ التي يتوبُ العبدُ منها تفصيلًا؛ ولهذا قال: (**دِقَّهُ وجِلَّهُ، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ**)؛ وهذا أبلغُ وأحسنُ مِنَ الإيجازِ والاختصار.

ثمَّ إنَّ بين السَّجدَتَيْنِ ركنًا لا بدَّ منه في الصلاة، وهو الجَلْسةُ بين السَّجْدَتَيْن، وقد شُرِعَ فيه مِنَ الدعاءِ ما يليقُ به ويُناسِبُهُ، وهو سؤالُ العبدِ رَبَّهُ المغفرةَ والرَّحْمةَ، والهدايةَ والعافيةَ والرِّزْقَ؛ فإنَّ هذه الأمورَ تَتضمَّنُ جلبَ خَيْرَيِ الدنيا والآخرة، ودفعَ الشرورِ فيهما.

فعن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: (**رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي**)؛ رواه أبو داود[(٢)]؛ **أي**: أنَّه ﷺ يُكرِّرُ هذا الدعاءَ بين السجدتَيْن، لا أنَّه يقولُهُ مرتَيْنِ فقط.

وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: (**اللَّهُمَّ**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨٣).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٩٨)، و«سنن أبي داود» رقم (٨٧٤)، والنسائي رقم (١١٤٥)، وابن ماجه رقم (٨٩٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٧٧٧).

اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاجْبُرْنِي، وَعَافِنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي)؛ رواه أبو داود والترمذي(١).

وسؤالُ المغفرةِ فيه الوقايةُ من شَرِّ الذنوب، وسؤالُ الرَّحْمةِ فيه تَحْصِيلُ الخيرِ والبِرِّ والإحسان، وسؤالُ الله أن يَجْبُرَهُ فيه سدُّ حاجته، وجَبْرُ كَسْرِه، وأن يَرُدَّ عليه ما ذهَبَ مِنَ الخيرِ وأن يُعَوِّضَه، وسؤالُ العافيةِ فيه السلامةُ مِنَ الآفاتِ والفتن، والنجاةُ مِنَ البلايا والمِحَن، وسؤالُ الهدايةِ فيه التوصُّلُ إلى أبوابِ السعادةِ والفلاحِ في الدنيا والآخرة، وسؤالُ الرزقِ فيه نيلُ ما به قِوَامُ البَدَنِ من الطعامِ والشراب، وما به قِوَامُ الرُّوحِ مِنَ العلمِ والإيمان.

فجاء هذا الدعاءُ العظيمُ المشروعُ في هذه الجَلْسةِ جامعًا لأصولِ السعادة، محيطًا بأبوابِ الخير، مشتملًا على سُبُلِ الفلاحِ في الدنيا والآخرة، فما أعظمَهُ مِنْ دعاء! وما أَحْسَنَ إحاطتَهُ وجَمْعَه!

❀ ❀ ❀

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٣٧١) بنحوه، «سنن أبي داود» رقم (٨٥٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٨٤)، ورواه ابن ماجه رقم (٨٩٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٧٥٦).

١٤٤

أَذْكَارُ التَّشَهُّدِ

إنَّ مِنَ الأذكارِ المتعلِّقةِ بالصلاة: أذكارَ التشهُّد، وقد ثبَتَ فيه عن النَّبيِّ ﷺ أحاديثُ عدَّة، فيها صيَغٌ متقاربةٌ للتشهُّد، كلُّها جائزةٌ ومشروعة؛ **منها**: ما ثبت في «صحيح مسلم»، من حديث عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما، أنَّه قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنا التشهُّدَ كما يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القرآنِ، فكان يقول: (**التَّحِيَّاتُ المُبَارَكَاتُ الصلوات الطَّيِّبَاتُ للهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**)»[١].

وثبَتَ في «الصحيحين»، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: (**إِنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ السَّلَامُ، فَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلِ: التَّحِيَاتُ للهِ، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ ـ فَإِنَّكُمْ إذا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ـ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**)»[٢].

وثبَتَ في هذا أحاديثُ أخرى.

* **وأكملُ هذه الصِّيَغِ**: الصيغةُ الواردةُ في حديثِ ابن مسعودٍ رضي الله عنه المتقدِّم؛ فهي أكملُ مِنَ الصيغةِ الواردةِ في حديثِ ابن عَبَّاس رضي الله عنهما وغيرِهِ من

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٤٠٣).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٨٣٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٤٠٢).

الأحاديثِ الواردةِ في هذا الباب؛ **وذلك كما يقول ابن القيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأنَّ تشهدَ ابن مسعودٍ يَتضمَّنُ جُملًا متغايرةً، وتَشهُّدُ ابن عَبَّاسٍ جملةٌ واحدة»[١]، فتكونُ كلُّ جملةٍ في حديثِ ابن مسعودٍ ثناءً مستقلًّا؛ لوجودِ الواوِ في قوله: **(التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ)**؛ بخلاف ما إذا حُذِفَتْ، فإنَّها تكونُ صفةً لِمَا قبلها، فتعدُّدُ الثناءِ في حديثِ ابن مسعودٍ صريحٌ، فهو أَوْلَى وأكمل.

ثم إنَّه هو المشهورُ بينَ كثيرٍ مِنْ أهلِ العلم، ومِنْ حيثُ الإسنادُ هو أصحُّ ما ورَدَ في هذا الباب؛ **يقولُ الترمذيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حديثُ ابن مسعودٍ قد رُوِيَ عنه مِنْ غيرِ وجه، وهو أصحُّ حديثٍ رُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ في التشهُّد، والعملُ عليه عندَ أكثرِ أهلِ العلمِ مِنْ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ ومَنْ بَعْدَهم مِنَ التابعين»[٢].

وعلى كلٍّ، فإنَّ العملَ به أو بغيرِهِ مِنَ التشهُّداتِ الواردةِ كلُّ ذلك حقٌّ وسائغ.

قوله: **(التَّحِيَّاتُ)**: جمعُ تحيَّة، **والمرادُ**: التعظيماتُ بكافَّةِ صِيَغِها وجميعِ هيئاتِهَا مِنْ ركوعٍ وسجود، وذُلٍّ وخضوع، وخشوعٍ وانكسار، كلُّ ذلك للهِ وحده لا شريكَ له، وهي له سبحانه مُلْكًا واستحقاقًا.

وقوله: **(وَالصَّلَوَاتُ)**، **قِيلَ**: المرادُ به الصلاةُ الشرعيَّةُ ذاتُ الركوعِ والسجودِ، **وقيل**: المرادُ الدعاءُ؛ **فإنَّ معنى الصلاةِ لغةً**: الدعاءُ، وكلُّ ذلكَ للهِ؛ فالصلاةُ كلُّها لله، فلا يُصْرَفُ شيءٌ منها لغيرِهِ، والدعاءُ لله، فلا يُصْرَفُ شيءٌ منه لأحدٍ سواه.

وقوله: **(وَالطَّيِّبَاتُ)**: جمعُ طَيِّبة، **والمرادُ**: الأقوالُ الطيِّبات. والأعمالُ الطيباتُ كلُّها لله، يُتقرَّبُ بها إليه، ولا يُتقرَّبُ بشيءٍ منها لأحدٍ سواه، فهو سبحانه يُتَقرَّبُ إليه بكلِّ طيبٍ مِنْ قولٍ أو فعل.

وقوله: **(السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ)**؛ هذا دعاءٌ للنَّبيِّ ﷺ بالسلام والرَّحْمةِ والبَرَكة، والذي يُدْعَى له، لا يُدْعَى مع الله.

---

(١) «كتاب الصلاة» (ص٢١١).
(٢) «جامع الترمذي» (٢/ ٨٢).

وقوله: (**السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**)، فيه دعاءٌ للنفسِ ولعمومِ المؤمنينَ بالسَّلَامةِ مِنْ كلِّ آفةٍ وعيبٍ، ونقصٍ وسوءٍ؛ وهو مِنْ جوامعِ كَلِمِ النَّبِيِّ ﷺ.

قال بعضُ أهلِ العلم: «عَلَّمَهُمْ أن يُفرِدُوهُ ﷺ بالذِّكْرِ؛ لِشَرَفِهِ ومزيدِ حقِّه عليهم، ثم علَّمَهُمْ أَنْ يُخَصِّصُوا أنفسَهم أوَّلًا؛ لأنَّ الاهتمامَ بها أهمُّ، ثم أَمَرَهم بتعميمِ السَّلامِ على الصالحينَ إعلامًا منه بأنَّ الدعاءَ للمؤمنينَ ينبغي أن يكونَ شاملًا لهم»[١].

وقوله: (**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**) فيه الشهادةُ للهِ تبارَكَ وتعالى بالوحدانيَّة، ولنبيِّه ﷺ بالعبوديَّةِ والرِّسَالة، فهو صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه عَبْدٌ لا يُعْبَدُ؛ بل رسولٌ يُطَاعُ ويُتَّبع.

ثم إنَّ المسلمَ يُشْرَعُ له بعدَ التشهُّدِ أن يُصَلِّيَ على النَّبِيِّ الكريمِ ﷺ بالصلاةِ الإبراهيميَّةِ الثابتةِ عنه ﷺ، وقد وَرَدَ فيها غيرُ حديثٍ؛ **منها**: ما رواه البخاري ومسلم، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، قال: «لَقِيَنِي كَعْبُ بنُ عُجْرَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ: أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟! فَقُلْتُ: بَلَى، فَأَهْدِهَا لِي، فَقَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ؟ قَالَ: (**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**)»[٢].

وفي «الصحيحين» أيضًا، مِنْ حديث أبي حُمَيْدٍ الساعديِّ رضي الله عنه: «أَنَّهُمْ قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ ﷺ: (**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى**

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٢/٣١٣) نقلًا عن البيضاوي.
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٣٣٧٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٤٠٦).

مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»(١).

وقولُ كَعْبٍ رضي الله عنه: «أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُها من النَّبيِّ ﷺ؟!»، فيه عِظَمُ عنايةِ السلفِ رحمهمُ اللهُ بِسُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وشدَّةُ فَرَحِهم بها، بل كانوا يَعُدُّونها مِنْ نفائسِ الأمورِ وثَمينِ الأشياء، وهي عندهم هديةٌ ثمينةٌ يَفْرَحُونَ بها، ويُسَرُّونَ بسماعها، ويَهْنَؤُونَ بتهاديها.

والصلاةُ على النَّبيِّ ﷺ هي مِنَ اللهِ ثناؤُهُ عليه في الملأ الأعلى وتعظيمُهُ، وصلاةُ الملائكةِ والمؤمنينَ عليه هي طَلَبُ ذلك له ﷺ مِنَ الله تعالى، **والمرادُ**: طَلَبُ الزيادةِ، لا طَلَبُ أصلِ الصلاة.

ومعنى قوله: **(اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ)** **البَرَكَةُ**: النماءُ والزيادةُ، **والتبريكُ**: الدُّعَاءُ بذلك، يقولُ: بَارَكَهُ اللهُ، وبارَكَ فيه، وبارَكَ عليه، وبارَكَ له، فهو دعاءٌ يَتضمَّنُ إعطاءَهُ ﷺ مِنَ الخيرِ، وإدامتَهُ له، ومضاعفتَهُ له، وزيادتَهُ.

ثُمَّ إنَّ المسلمَ له بعدَ ذلكَ أن يَتخيَّرَ من الدعاءِ أعجبَهُ إليه، فيدعو به إلى أن يُسلِّمَ، وقد ثبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ في هذا الموضعِ أنواعٌ مِنَ الأدعيةِ سيكونُ الحديثُ الآتي عنها ـ إن شاء الله تعالى ـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٣٦٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٤٠٧).

١٤٥

الدُّعَاءُ الْوَارِدُ مَا بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ

إنَّ مِنَ المواطنِ التي يُستحبُّ للمسلمِ أنْ يَتحرَّى فيها الدعاءَ في الصلاة: ما بين التَشهُّدِ والتسليم؛ فقد ثَبَتَ في «الصحيحين»، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّمه التشهُّدَ، ثم قال في آخره: **(ثُمَّ لِيَتَخَيَّرْ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ، فَيَدْعُو)**(١)، وفي روايةٍ لمسلمٍ: **(ثُمَّ يَتَخَيَّرْ مِنَ المَسْأَلَةِ مَا شَاءَ)**.

والأولى بالمسلمِ في هذا المقامِ أن يَأْتِيَ بالأدعيةِ المأثورةِ عن النَّبيِّ ﷺ وإنْ دعا بأدعيةٍ غيرِها لا محذورَ فيها، فلا بأسَ بذلك.

* **وفيما يلي ذِكْرٌ لبعضِ الأدعيةِ المأثورةِ في هذا المقامِ**: ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ)**(٢)، وقد ذهَبَ بعضُ أهلِ العلمِ إلى القولِ بوجوبِ هذه الاستعاذةِ قُبَيْلَ السلامِ، وجمهورُ العلماءِ على أنَّها مستحبةٌ، وليست بواجبةٍ.

قوله: **(مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ)**؛ قَدَّمَ التعوُّذَ مِن عذابِ جهنم؛ لأنَّهُ الغايةُ التي لا أعظَمَ في الهلاكِ منها، وجهنَّمُ: اسمٌ للنارِ التي أعدَّها اللهُ للكفَّارِ يومَ القيامةِ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦١٤).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (١٣٧٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٨).

وقوله: **(وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ)**؛ فيه أنَّ عذابَ القبرِ حقٌّ، وأنَّ المسلمَ ينبغي عليه أن يَتعوَّذَ باللهِ منه.

وقوله: **(وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ)**؛ **أي**: الحياةِ والموتِ، **والمرادُ**: التعوُّذُ مِنْ جميعِ فتنِ الدارَيْن؛ في الحياةِ مِنْ كُلِّ ما يَضُرُّ بِدِينِ الإنسانِ أو بدنِهِ أو دنياه، وفي الموتِ مِنْ شدائدِهِ وما يكونُ بعده مِنْ أهوال.

وقوله: **(وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ)**، **المسيحُ الدَّجَّالُ**: هو منبعٌ مِنْ منابعِ الكفرِ والضلال، ومصدرٌ مِنْ مصادرِ الفِتَنِ والأَوْجال، يكونُ خروجُهُ على الناسِ آخِرَ الزمان، وهو شرطٌ مِنْ أشراطِ الساعة، سُمِّيَ مَسِيحًا؛ لأنَّ إحدى عَيْنَيْهِ مَمسوحةٌ، فهو أعوَرُ عينِهِ اليمنى، وسُمِّيَ دَجَّالًا مِنَ الدَّجَل، وهو الكذب، وفتنةُ خروجِهِ مِنْ أعظمِ الفتن، وما مِنْ نَبِيٍّ بعثَهُ اللهُ إلَّا حَذَّرَ منه قومَهُ وأنذر.

وفي «الصحيحين»، عن عائشةَ ﵂: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا، وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ)**، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ الْمَغْرَمِ؟ فَقَالَ: **(إِنَّ الرَّجُلَ إِذا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ)**»(١).

والمَأْثَمُ: هو الأمرُ الذي يَأْثَمُ به الإنسانُ مِنْ جميعِ المعاصي والذنوب، **والمَغْرَمُ**: ما يلزمُ الإنسانَ أداؤُهُ بسببِ جنايةٍ أو معاملةٍ أو نحوِ ذلك، **فالمأثَمُ**: إشارةٌ إلى حقِّ اللهِ، **والمَغْرَمُ**: إشارةٌ إلى حقِّ العباد.

* **ومِنَ الأدعيةِ في هذا المقام**: ما رواه مسلم في «صحيحه»، عن علي بن أبي طالب ﵁، في حديثٍ طويل: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ: **(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ**

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨٣٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٩).

وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)»(١).

قوله: **(مَا قَدَّمْتُ)**؛ **أي**: مِنْ خطإٍ وتقصير، **(وَمَا أَخَّرْتُ)**؛ **أي**: ما سيقعُ مِنِّي مِنْ ذلك في الزمنِ المستقبل، **(وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ)**؛ **أي**: ما وقَعَ مني منها في السِّرِّ أو العلانية، **(وَمَا أَسْرَفْتُ)**؛ **أي**: على نفسي بارتكابِ المعاصي القاصرة، أو المظالمِ المُتعَدِّية.

وقوله: **(أَنْتَ المُقَدِّمُ)**؛ **أي**: لِمَنْ تشاءُ بالمَعُونةِ والتوفيقِ والسداد، و**(أَنْتَ المُؤَخِّرُ)**؛ **أي**: لِمَنْ تشاءُ بالخِذْلانِ والحِرْمانِ وعدمِ المعونة.

وقوله: **(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)**؛ **أي**: لا معبودَ بِحَقٍّ سواكَ.

* **ومِنَ الأدعيةِ المأثورةِ في هذا المقام**: ما رواه أبو داود، وابن ماجه، وغيْرُهما عن أبي صالح، عن بعضِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ، قال النَّبيُّ ﷺ لرجلٍ: **(كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟)**، قَالَ: أَتَشَهَّدُ، وَأَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَمَا إِنِّي لَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: **(حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ)**(٢)؛ **أي**: حولَ طَلَبِ دخولِ الجَنَّةِ والنجاةِ مِنَ النارِ نُدَنْدِنُ، **والدَّنْدَنَةُ**: أنْ يَتَكَلَّمَ الرجلُ بالكلامِ، فتُسْمَعُ نغمتُه، ولا يُفْهَمُ كلامُه.

وقد جاء في السُّنَّةِ أحاديثُ مشتملةٌ على أدعيةٍ تُقالُ في الصلاة، ولم يُبَيَّنْ محلُّها، والأَوْلَى أنْ تكونَ في أحدِ موطنَيْنِ؛ إمَّا في السجودِ أو بعدَ التشهُّد؛ لأنَّ السُّنَّةَ جاءتْ بتحرِّي الدعاءِ فيهما، ومِنْ هذه الأدعية: ما رواه البخاري ومسلم، عن أبي بكر الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، أنه قال للنَّبيِّ ﷺ: «عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي؟ قَالَ: **(قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٨٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٧٤)، و«سنن أبي داود» رقم (٧٩٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٩١٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (٧٤٢).

إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ)»[(١)].

* **ومنها**: ما رواه النسائيُّ، عن عَطاء بن السائب، عن أبيه ﷺ، قال: «صَلَّى بِنَا عَمَّارُ بنُ يَاسِرٍ ﷺ صَلَاةً، فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ القَوْمِ: لَقَدْ خَفَّفْتَ أَوْ أَوْجَزْتَ الصَّلَاةَ؟ فَقَالَ: أَمَا عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا قَامَ تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ ـ هُوَ أَبِي، غَيْرَ أَنَّهُ كَنَّى عَنْ نَفْسِهِ ـ فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ القَوْمَ: **(اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ القَصْدَ فِي الفَقْرِ وَالغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ)»**[(٢)].

وهو حديثٌ عظيمٌ ثابتٌ عن النَّبيِّ الكريمِ ﷺ، مُشْتمِلٌ على فوائدَ عظيمةٍ، ومقاصدَ كريمةٍ، وغاياتٍ مباركةٍ.

وقد أفرَدَ الحافظُ ابن رجب ﷺ رسالةً لطيفةً في شرحِ هذا الحديثِ وبيانِ معانيه، وهي رسالةٌ نافعة، ولعلِّي أقفُ مع بعضِ دَلالاتِ هذا الحديثِ ومعانِيهِ العظيمة؛ ليكون ذلك عونًا لنا ـ بإذن الله ـ على العنايةِ به، والمواظبةِ عليه، واللهُ الموفِّق.

❁ ❁ ❁

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٠٥).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٦٤)، و«سنن النسائي» رقم (١٣٠٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٣٠١).

١٤٦

شَرْحُ حَدِيثِ عَمَّارٍ فِي الذِّكْرِ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ

لقد مَرَّ معنا حديثُ عَمَّار بن ياسر رضي الله عنه المُشْتمِلُ على ذلكمُ الدُّعَاءِ العظيمِ الذي كان يدعو به النَّبيُّ ﷺ في صلاتِهِ، وهو ما رواه النسائيُّ وغيره، عن عَطَاء بن السائب، عن أبيه رضي الله عنه، قال: «صَلَّى بِنَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ رضي الله عنهما صَلَاةً، فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ القَوْمِ: لَقَدْ خَفَّفْتَ أَوْ أَوْجَزْتَ الصَّلَاةَ؟ فَقَالَ: أَمَا عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا قَامَ، تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ ـ هُوَ أبي غَيْرَ أَنَّهُ كَنَّى عَن نَفْسِهِ ـ فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ القَوْمَ: (**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ القَصْدَ فِي الفَقْرِ وَالغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**)»(١).

وهو حديثٌ عظيمُ النَّفْع، كبيرُ الفائدة، مُشْتمِلٌ على معانٍ عظيمة، ودَلَالاتٍ نافعةٍ متعلِّقةٍ بالعقيدةِ والعبادةِ والأخلاق، وإنَّما تَعْظُمُ فائدةُ المسلم مِن مثلِ هذه الدعواتِ المباركةِ، بوقوفِهِ على معانيها، وفهمِهِ لِدَلَالاتِها ومَرَاميها، ومجاهدتِهِ لنفسِهِ على تحقيقها، وفيما يلي وَقْفَةٌ في بيانِ بعضِ معاني هذا الحديث(٢).

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) **ينظر للاستزادة:** كتاب «شرح حديث عَمَّار بن ياسر رضي الله عنه» لابن رجب.

قوله: (**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي**)، فيه تفويضُ العبدِ أمورَهُ إلى الله، وطلبُ الخِيَرَةِ في أحوالِهِ منه سبحانه، متوسِّلًا إليه سبحانه بعلمِهِ الذي أحاطَ بكلِّ شيء، وأنَّه سبحانه يَعْلَمُ خفايا الأمورِ وبواطنَها، كما يعلمُ ظَاهِرَها وعَلَنَها، وبقُدرتِهِ النافذةِ في جميعِ الخلق، فلا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، ولا رادَّ لقضائه.

ومِنَ المعلومِ أنَّ العبدَ لا يَعْلَمُ عواقبَ الأمورِ ومآلاتِهَا، وهو ـ مع هذا ـ عاجزٌ عن تحصيلِ مصالحِهِ ودفعِ مَضارِّه، إلَّا بما أعانَهُ اللهُ عليه ويَسَّرَهُ له، فتبقى حاجةُ العبدِ مَاسَّةً إلى العليمِ القديرِ سبحانه، بأنْ يُصْلِحَ له شأنَهُ كلَّه، ويختارَ له الخيرَ حيثُ كان؛ ولهذا قال: (**أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي**)؛ ولهذا جاء النهيُ في السُّنَّةِ عن تَمَنِّي الموتِ لِضُرٍّ نزَلَ بالعبدِ لجهلِ العبدِ بالعواقب؛ ففي «صحيح البخاري»، عن النَّبِيِّ ﷺ، أنَّه قال: (**لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ المَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ**)؛ **أي**: يسترضي اللهَ بالإقلاعِ عَنِ الذنوبِ وطَلَبِ المغفرة.

وقوله: (**وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**)؛ **أي**: أنْ أَخْشَاكَ ـ يا اللهُ ـ في السِّرِّ والعلانية، والظاهرِ والباطن، وفي حالِ كَوْنِي مَعَ الناس، أو غائبًا عنهم؛ فإنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يرى نفسَهُ يَخْشَى اللهَ في العلانيةِ والشهادة، ولكنَّ الشأنَ خشيةُ اللهِ في الغيب، إذا غاب عن أعيُنِ الناسِ وأنظارهم، وقد مدَحَ اللهُ مَنْ خافَهُ بالغيب؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

وقوله: (**وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ**)، فيه سؤالُ اللهِ قولَ الحقِّ حالَ رضا الإنسانِ وحالَ غَضَبِه، وقولُ الحقِّ في الناسِ حالَ الغضبِ عزيزٌ؛ لأنَّ الغَضَبَ يَحْمِلُ صاحبَهُ على أن يقولَ خلافَ الحقِّ، ويفعلَ غيرَ العدل، وقد مدَحَ اللهُ مِنْ عبادِهِ مَنْ يغفرُ إذا غَضِبَ، دون أن يحملَهُ غضبُهُ على البغي والعدوان؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]،

ومَنْ كان لا يقولُ إلَّا الحقَّ في الغضبِ والرضا، فهذا دليلٌ على شدةِ إيمانه، وأنَّه يملكُ زِمَامَ نفسه، وفي الحديث: (**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**)(١).

وقوله: (**وَأَسْأَلُكَ القَصْدَ فِي الفَقْرِ وَالغِنَى**)؛ **أي**: أن يكونَ مقتصدًا في حالِ فَقْرِه وغناه، **والقَصْدُ**: هو التوسُّطُ والاعتدالُ؛ فإنْ كان فقيرًا، لَمْ يُقَتِّرْ خوفًا من نَفَادِ الرِّزق، ولم يُسْرِفْ بتحميلِ نفسِهِ ما لا طاقةَ له به؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وإنْ كان غنيًّا لم يحملْهُ غناهُ على السَّرَفِ والطُّغيان؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفُرقان: ٦٧]، **والقَوَامُ**: القصدُ والتوسُّط، وهو في كلِّ الأمورِ حَسَنٌ.

وقوله: (**وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ**)؛ **النَّعِيمُ الذي لا ينفدُ**: هو نعيمُ الآخرة؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النّحل: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

وقوله: (**وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ**)، قُرَّةُ العينِ: مِنْ جملةِ النعيمِ، والنعيمُ منه ما هو منقطعٌ، ومنه ما لا ينقطع، ومَنْ قَرَّتْ عينُهُ بالدنيا، فقُرَّةُ عينِهِ منقطعةٌ، وسرورُهُ فيها زائلٌ، وهو مَعَ ذلك مَشُوبٌ بالخوف مِنَ الفواجعِ والمنغِّصات؛ ولهذا فإنَّ المؤمنَ لا تَقَرُّ عينُهُ في الدنيا إلَّا بِمَحَبَّةِ اللهِ وذكرِهِ والمحافظةِ على طاعته؛ كما قال ﷺ: (**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**)(٢)، ومَنْ حَصَلَتْ له قُرَّةُ العينِ بهذا، فقد حصَلَتْ له قُرَّةُ العينِ التي لا تنقطعُ في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة.

وقوله: (**وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ**)، سأل الرضا بعد القضاء؛ **لأنَّه** حينئذٍ تَبِينُ حقيقةُ الرِّضا، وأمَّا الرِّضا قبلَ القضاء، فإنَّه عزمٌ مِنَ العبدِ على الرضا، وإنَّما يَتحقَّقُ الرضا إذا وقَعَ القضاءُ.

---

(١) رواه البخاري رقم (٦١١٤)، ومسلم رقم (٢٦٠٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/١٢٨)، والنسائي رقم (٣٨٧٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٠٩٨).

وقوله: (**وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ**)؛ وهذا يَدُلُّ على أنَّ العيشَ وطِيبَهُ وبَرْدَهُ إنَّما يكونُ بعد الموت؛ فإنَّ العيشَ قبلَ الموتِ مُنَغَّصٌ، ولو لم يكنْ له مُنغِّصٌ غيرُ الموتِ لكفى، فكيفَ وله مُنغِّصاتٌ كثيرةٌ من الهمومِ والغمومِ والأسقامِ والهَرَمِ ومفارقةِ الأحبة، وغيرِ ذلك.

وقوله: (**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**)؛ وهذا قد جَمَعَ فيه بين أَطْيَبِ شيءٍ في الدنيا، وهو الشوقُ إلى لقاءِ اللهِ سبحانه، وأَطْيَبِ شيءٍ في الآخرة، وهو النَّظَرُ إلى وجهِهِ الكريم. ولَمَّا كان تَمَامُ ذلكَ موقوفًا على عَدَمِ وجودِ ما يَضُرُّهُ في الدنيا، أو يفتنُهُ في الدين، **قال**: «في غيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ».

ورؤيةُ المؤمنينَ لربِّهم يومَ القيامةِ أَمْرٌ تَضافَرَتْ فيه النصوص، وتَكَاثَرَتْ فيه الأدلَّة، ولا يُنْكِرُهُ إلَّا مَنْ ضلَّ عن سواءِ السبيل، بل إنَّه أعلى نعيم أهلِ الجنة، وأعظمُ مَلاذِّهِم، يقول ﷺ: (**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ**)؛ رواه مسلم(١)، نسأل اللهَ الكريمَ مِنْ فضله.

وقوله: (**اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**)، زِينَةُ الإيمانِ تشملُ زِينَةَ القلبِ: بالاعتقادِ الصحيح، والأعمالِ القلبيَّةِ الفاضلةِ، وزينةَ اللِّسَانِ: بالذِّكْرِ، وتلاوةِ القرآن، والأمرِ بالمعروف، والنهي عن المُنْكَر، ونحوِ ذلك، وزينةَ الجوارحِ، بالأعمالِ الصالحة، والطاعاتِ المقرِّبةِ إلى الله.

وقوله: (**وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**)؛ **أي**: بأنْ نَهْدِيَ أَنْفُسَنَا ونَهْدِيَ غيرَنا، وهذا أفضلُ الدرجات: أنْ يكونَ العبدُ عالمًا بالحقِّ، مُتَّبِعًا له، مُعلِّمًا لغيرِهِ مرشدًا له؛ فبهذا يكونُ هاديًا مَهْدِيًّا، نسألُ اللهَ أنْ يَهْدِيَنا إليه جميعًا صراطًا مستقيمًا، وأن يَجْعَلَنا هُداةً مُهتدين.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (١٨١).

١٤٧

الأَذْكَارُ بَعْدَ السَّلَامِ

الحديثُ هنا سيكونُ عن الأذكارِ التي يقولُهَا المسلمُ إذا انصَرَفَ من صلاتِهِ بعدَ السَّلَام، **وقد جاء في هذا أحاديثُ عديدةٌ:**

* **منها:** ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن ثَوْبان ﵁، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ: (**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تبَارَكْتَ ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**)».

قَالَ الوَلِيدُ ـ أَحَدُ رواةِ الحديث ـ: «فَقُلْتُ لِلأَوْزَاعِيِّ: كَيْفَ الِاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ»[(١)].

قوله: (**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ**)، السَّلَامُ: اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ الحسنى التي أمرنا اللهُ بدعائِهِ بها في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، **ومعناه: أي:** المُنَزَّهُ عن كلِّ عَيْبٍ وآفةٍ ونقص، وهو سبحانه مُنَزَّهٌ عن كلِّ ما ينافي صفاتِ كمالِه، ومُنزَّهٌ عن مماثَلَةِ أحدٍ مِنْ خَلْقه، أو أنْ يكونَ له نِدٌّ بوجهٍ مِنَ الوجوه.

وقوله: (**وَمِنْكَ السَّلَامُ**)؛ **أي:** أنَّ السَّلامةَ مِنَ المَهالِكِ إنَّما ترجى وتُسْتَوْهَبُ منك وحدك، ولا تُرْجَى مِنْ أحدٍ سواك؛ وهذا مستفادٌ من أسلوبِ الحصرِ في قوله: (**وَمِنْكَ السَّلَامُ**)؛ **أي:** وحدَكَ دونَ غيرِك.

وقوله: (**تبَارَكْتَ ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**)، **تبَارَكْتَ؛ أي:** تَعالَيْتَ وتعاظَمْتَ، و(**ذا الجلالِ والإكرام**)؛ **أي:** يا صاحبَ الجَلَالِ والإكرام، وهما وصفانِ عظيمانِ للرَّبِّ سبحانه، دَالَّانِ على كمالِ عَظَمَتِهِ وكبريائِهِ ومَجْدِه، وعلى كثرةِ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٥٩١).

صفاتِهِ الجليلة، وتعدُّدِ عطاياهُ الجميلة؛ مِمَّا يَسْتوجِبُ على العبادِ أنْ تمتلئ قلوبُهُمْ محبةً وتعظيمًا وإجلالًا له.

والحِكْمةُ مِنَ الإتيانِ بالاستغفارِ بعدَ الصلاةِ: هي إظهارُ هَضْمِ النَّفْس، وأنَّ العبدَ لَم يَقُمْ بحقِّ الصلاة، ولَم يأتِ بما ينبغي لها على التَّمَامِ والكمال، بل لا بدَّ أن يكونَ قد وَقَعَ في شيءٍ مِنَ النَّقْصِ والتقصير، والمُقَصِّرُ يستغفرُ لعلَّهُ أن يُتجاوَزَ عن تقصيرِه، ويكونَ في استغفارِهِ جَبْرٌ لِمَا فيه مِنْ نقصٍ أو تقصير.

* **ثم يَشْتغِلُ المصلِّي بعدَ ذلكَ بالتهليل؛** فعن وَرَّادٍ مولى المُغِيرَةِ بن شُعْبة، قال: كتَبَ المُغِيرَةُ إلى معاويةَ بن أبي سُفْيان: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (**لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**)». رواه البخاري ومسلم(١).

وعن عبد الله بن الزُّبَيْر رضي الله عنهما: «أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: (**لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ، لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ**)، وَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ»؛ رواه مسلم(٢).

وقد تكرر في هٰذا الذكر المبارك كلمة التوحيد «لا إلٰه إلا الله» ثلاث مرات وأُتبعت في كلِّ مرَّة بما يقرّر معناها، ويؤكِّد حقيقتها، ويوضِّح مدلولها.

فقوله بعد التهليلة الأولى: (**وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**) تأكيدٌ لما قرّرته من النفي والإثبات؛ فقوله: (**وَحْدَهُ**) تأكيدٌ للإثبات، وقوله: (**لَا شَرِيكَ لَهُ**) تأكيد للنّفي.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨٤٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٩٣).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٥٩٤).

وقوله بعد التهليلة الثانية: (**وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ**) فيه بيان لمعناها وتفسير لمدلولها، وأنها تعني نفي العبادة بجميع أنواعها وأفرادها عن كلِّ من سوى الله وإثباتها لله وحده لا شريك له.

وقوله بعد التهليلة الثالثة: (**مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**) تقريرٌ لمدلولها كذلك، وأنّها كلمة الإخلاص، فلا يستفيد منها قائلها إلّا إذا أخلص دينه لله كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

قوله: (**وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**)؛ **أي**: لا ينفع صاحبَ الغنى منكَ غناه، وإنَّما ينفعُهُ طاعتُهُ لك، وإيمانُهُ بك، وامتثالُهُ لأمرك.

وقوله: (**لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ**)؛ **أي**: نحنُ على هذا التوحيدِ والإخلاصِ ولو كَرِهَ الكفَّار ذلك.

*** ثمَّ يَشْرَعُ المسلمُ بعد ذلكَ في التسبيحاتِ الواردةِ التي كان يقولها ﷺ أدبارَ الصلوات.**

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: (**مَنْ سَبَّحَ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ المِائَةِ: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**)(١).

وعنه رضي الله عنه، قال: «جَاءَ الفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ العُلَا، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا، وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ! قَالَ: (**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَمْرٍ إِنْ أَخَذْتُم بِهِ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ، إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ؛ تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ**)»(٢).

---

(١) رواه مسلم رقم (٥٩٧).

(٢) رواه البخاري رقم (٨٤٣)، ومسلم رقم (٥٩٥).

قال أبو صالح ـ راوي الحديث عن أبي هريرة ـ: «يقول: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، واللهُ أكبرُ حتى يكونَ منهنَّ كُلِّهِنَّ ثلاثًا وثلاثين»؛ لكنَّ هذا فَهْمٌ منه للحديث، **والأظهر**: أنَّ المجموعَ لكلِّ كلمةٍ مِنْ هؤلاءِ الكلماتِ بأن يسبِّح ثلاثًا وثلاثين، ويَحْمَدَ ثلاثًا وثلاثين، ويُكَبِّرَ ثلاثًا وثلاثين؛ كما في حديثِ أبي هريرة السابق(١).

وعن عبد الله بن عَمْرٍو رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: (**خَصْلَتَانِ ـ أَوْ خَلَّتَانِ ـ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، هُمَا يَسِيرٌ، وَمَن يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؛ يُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُ عَشْرًا؛ فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسمائَةٍ فِي المِيزَانِ، وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذا أَخَذَ مَضْجِعَهُ، وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي المِيزَانِ**)؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ؛ قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ هُمَا يَسِيرٌ، وَمَن يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؟ قَالَ: (**يَأْتِي أَحَدَكُمُ الشَّيْطَانُ فِي مَنَامِهِ، فَيُنَوِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ، وَيَأْتِيهِ فِي صَلَاتِهِ، فَيُذَكِّرُهُ حَاجَةً قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا**)؛ رواه أبو داود، والترمذي(٢).

* **ويُستحبُّ للمسلم أن يقرأ أدبارَ الصلواتِ:** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، **فعن عُقْبة بن عامر** رضي الله عنه، **قال:** «أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ المُعَوِّذَاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ»؛ رواه أبو داود، والنَّسائي(٣)، **والمراد بالمعوِّذات**: هذه السُّوَرَ الثلاثَ، وقد أُطلِقَ عليها المعوِّذاتُ تغليبًا(٤).

---

(١) **انظر**: «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ٣٢٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٠٥)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٦٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤١٠)، ورواه ابن ماجه رقم (٩٢٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٦٠٦).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ١٥٥)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥٢٣)، و«سنن النسائي» رقم (١٣٣٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (١٣٤٨).

(٤) **انظر**: «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ١٣٢).

* **وأنْ يقرأَ كذلك آيةَ الكرسيِّ**؛ لحديث أبي أُمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ)**؛ رواه النَّسَائي فِي «عمل اليوم والليلة»[(١)].

والمراد بقوله: (لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ)؛ أي: لم يكنْ بينه وبين دخولِ الجنةِ إلَّا الموتُ.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «بلغني عن شيخنا أبي العَبَّاسِ ابن تيميَّة ـ قدَّس اللهُ رُوحَهُ ـ أنه قال: ما تركتُها عَقِيبَ كلِّ صلاة»[(٢)].

ومِنَ المشروعِ للمسلمِ أن يقولَ أدبارَ الصلواتِ ما أوصى به النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ رضي الله عنه؛ ففي سنن أبي داود، والنسائي، وغيرهما، عن معاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمًا، وَقَالَ: **(يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)**[(٣)]؛ وهذا الدعاءُ هل يقالُ قبلَ السلامِ أو بعدَهُ: قولانِ لأهلِ العلم، واختارَ شيخُ الإسلامِ أنْ يقالَ قبلَ السلامِ، والله تعالى أعلم.

❀ ❀ ❀

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» رقم (٩٨٤٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» رقم (٧٥٣٢)، و«عمل اليوم والليلة» رقم (١٠٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٦٤).
(٢) «زاد المعاد» (١/ ٣٠٤).
(٣) تقدم تخريجه (ص٢٥٥).

١٤٨

دُعَاءُ القُنُوتِ فِي صَلَاةِ الوِتْرِ

الحديثُ هنا عن دعاءِ القُنُوتِ في صلاةِ الوِتْرِ؛ ففي سنن أبي داود، والنسائي، وغيرهما، عن الحَسَن بن علي ﭭ، قال: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الوِتْرِ: **(اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ)**[(١)].

وهذا دعاءٌ عظيمٌ مُشْتمِلٌ على مَطَالِبَ جليلةٍ، ومقاصدَ عظيمةٍ، ففيه سؤالُ اللهِ الهدايةَ والعافيةَ، والتَّوَلِّيَ والبركةَ والوِقَايةِ، مع الإقرارِ بأنَّ الأمورَ كلَّها بيدِهِ وتحتَ تدبيرِه، فما شاء كان، وما لَمْ يشأْ لَم يكن[(٢)].

وقوله في أوَّلِ هذا الدعاء: **(اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ)**، فيه سؤالُ اللهِ الهدايةَ التامَّة، النافعة الجامعة، لعلم العبدِ بالحقِّ وعملِه به، فليستِ الهدايةُ أن يَعْلَمَ العبدُ الحقَّ بلا عَمَلٍ به، وليستْ كذلك أن يعملَ بلا علمٍ نافعٍ يهتدي به، فالهدايةُ النافعةُ **هي**: التوفيقُ للعلم النافع، والعملِ الصالح.

وقوله: **(فِيمَنْ هَدَيْتَ)، فيه فوائد:**

إحداها: أنَّه سؤالٌ له أن يُدْخِلَهُ في جملةِ المهديِّين وزُمْرَتِهم ورُفْقَتِهم؛ وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

---

(١) «المسند» (١/ ١٩٩)، و«سنن أبي داود» رقم (١٤٢٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٤٦٤)، و«سنن النسائي» رقم (١٧٤٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١١٧٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (١٢٦٣).

(٢) **انظر في شرح هذا الدعاء**: «شفاء العليل» لابن القيم (ص١١١)، و«دروس وفتاوى في الحرم المكي» للشيخ محمد بن صالح العثيمين (ص١٣١ ـ ١٣٧).

الثانية: أنَّ فيه توسُّلًا إليه بإحسانِهِ وإنعامه؛ **أي**: يا رَبِّ قد هَدَيْتَ مِنْ عبادِكَ بَشَرًا كثيرًا فضلًا منكَ وإحسانًا؛ فأَحْسِنْ إليَّ كما أحسنتَ إليهم، واهدني كما هَدَيْتَهم.

الثالثة: أنَّ ما حصَلَ لأولئكَ مِنَ الهُدَى، لَمْ يكنْ منهم ولا بأنفسهم، وإنَّما كان منكَ، فأنتَ الذي هَدَيْتَهم.

وقوله: (**وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ**)، فيه سؤالُ اللهِ العافيةَ المطلقةَ، وهي العافيةُ مِنَ الكُفْرِ والفسوقِ والعصيان، والغفلةِ والأمراضِ والأسقام والفتن، وفِعْلِ ما لا يحبُّه، وتَرْكِ ما يحبُّه، فهذه حقيقةُ العافية؛ ولهذا ما سُئِلَ الرَّبُّ شيئًا أحبَّ إليه مِنَ العافية؛ لأنَّها كلمةٌ جامعةٌ للتخلُّصِ مِنَ الشَّرِّ كلِّه وأسبابه، ومِمَّا يدلُّ على هذا ما رواه البخاري في «الأدب المفرد» وغيرُه، عن شَكَلِ بنِ حُمَيْدٍ ﵁، قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، عَلِّمْنِي دعاءً أنتفعُ به، قال: (**قُلِ: اللَّهُمَّ عَافني مِنْ شَرِّ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَلِسَانِي وَقَلْبِي، وَشَرِّ مَنِيِّي**)(١).

فهي دعوةٌ جامعةٌ وشاملةٌ للوقايةِ مِنَ الشرورِ كلِّها في الدنيا والآخرة، وفي «الأدب المفرد» وغيره، عن العَبَّاس عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ، أنَّه قال: «قلتُ: يا رسولَ اللهِ، عَلِّمْنِي شيئًا أسألُ اللهَ به، فقال: (**يَا عَبَّاسُ! سَلِ اللهِ العَافِيَةَ**)، ثمَّ مكثتُ قليلًا، ثم جئتُ، فقلتُ: عَلِّمْنِي شيئًا أسألُ اللهَ به يا رسولَ اللهِ! فقال: (**يَا عَبَّاسُ! يا عَمَّ رَسُولِ اللهِ! سَلِ اللهَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ**)(٢).

وقوله: (**وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ**)، فيه سؤالُ اللهِ التَّوَلِّيَ الكاملَ الذي يقتضي التوفيقَ والإعانةَ، والنصرَ والتسديدَ، والإبعادَ عن كلِّ ما يُغْضِبُ اللهَ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقولُهُ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمران: ٦٨]، وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]،

---

(١) «سنن النسائي» رقم (٥٤٥٦)، و«الأدب المفرد» رقم (٦٦٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٥١٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص٥٠٢).

وهي وَلَايةٌ خَاصَّةٌ بهم، تقتضي حِفْظَهم ونَصْرَهم، وتأييدَهم ومَعُونَتَهم، ووِقَايَتَهم مِنَ الشرور؛ ويَدُلُّ على هذا قولُهُ في هذا الدعاء: (**إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ**)؛ **أي**: إنَّه منصورٌ عزيزٌ غالبٌ بسببِ تولِّيك له؛ وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ مَنْ حَصَلَ له ذُلٌّ في الناس، فهو بنقصانِ ما فاتَهُ مِنْ تولِّي الله، وإلَّا فمَعَ الوَلَايةِ الكاملةِ ينتفي الذُّلُّ كلُّه، ولو سُلِّطَ عليه مَنْ في أقطارِ الأرض، فهو العزيزُ غيرُ الذليل.

وقوله: (**وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ**) **البَرَكَةُ**: هي الخيرُ الكثيرُ الثابت؛ ففي هذا سؤالُ اللهِ البَرَكَةَ في كلِّ ما أعطاه مِنْ علم أو مالٍ، أو وَلَدٍ أو مسكن، أو غيرِ ذلك؛ بأن يثبِّتَهُ له ويُوسِّعَ له فيه، ويحفظَهُ ويسلِّمَهُ مِنَ الآفات.

وقوله: (**وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ**)؛ **أي**: شرَّ الذي قضيتَهُ؛ فإنَّ الله تعالى قد يقضي بالشرِّ لحكمةٍ بالغة، والشرُّ واقعٌ في بعضِ مخلوقاته، لا في خَلْقِهِ وفِعْلِهِ؛ فإنَّ فعلَهُ وخلقَهُ خيرٌ كلُّه، وهذا الدعاءُ يَتضمَّنُ سؤالَ اللهِ الوقايةَ مِنَ الشرورِ، والسلامةَ مِنَ الآفات، والحِفْظَ عن البلايا والفتن.

وقوله: (**إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ**)، فيه التوسُّلُ إلى اللهِ سبحانه بأنَّه يقضي على كلِّ شيء؛ لأنَّ له الحُكْمَ التامَّ، والمشيئةَ النافذةَ، والقُدْرةَ الشاملة، فهو سبحانه يقضي في عبادِهِ بما يشاء، ويحكُمُ فيهم بما يريدُ، لا رادَّ لحُكْمِهِ، ولا مُعقِّبَ لقضائه، وقوله: (**وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ**)؛ **أي**: إنَّه سبحانه لا يقضي عليه أحدٌ مِنَ العباد بشيءٍ؛ فالعبادُ لا يَحْكُمُونَ على الله، بل اللهُ سبحانه هو الذي يَحْكُمُ عليهم بما يشاء، ويقضي فيهم بما يريد.

وقوله: (**إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ**)، هذا كالتعليلِ لِمَا سبَقَ في قوله: (**وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ**)؛ فإنَّ الله سبحانه إذا تولَّى العبدَ فإنَّه لا يَذِلُّ، وإذا عادى العبدَ فإنَّه لا يعِزُّ، ولا يُطْلَبُ نيلُ العِزِّ، والوقايةُ مِنَ الذُّلِّ إلَّا منه سبحانه؛ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمرَان: ٢٦].

وقوله: **(تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ)**؛ **معنى تَبَارَكْتَ: أي**: تعاظمتَ يا أللهُ، فلك العَظَمَةُ الكاملةُ والكبرياءُ التامُّ، وعظُمَتْ أوصافُك، وكَثُرَتْ خَيْرَاتُك، وعمَّ إحسانُك.

وقوله: **(وَتَعَالَيْتَ)**؛ **أي**: إنَّ لك العُلُوَّ المُطْلَقَ ذاتًا وقَدْرًا وقَهْرًا؛ فهو سبحانه العَلِيُّ بذاته، قد استَوَى على عرشِهِ استواءً يليقُ بجلالِهِ وكماله، والعليُّ بِقَدْرِهِ، وهو علوُّ صفاتِهِ وعظمتُها؛ فإنَّ صفاتِهِ عظيمةٌ، لا يماثلُهَا ولا يقاربُهَا صفةُ أحدٍ، والعليُّ بِقَهْره، حيثُ قَهَرَ كلَّ شيء، ودانتْ له الكائناتُ بأسرها، فجميعُ الخلقِ نواصيهم بيده، فلا يَتحرَّكُ منهم متحرِّك، ولا يَسْكُنُ ساكنٌ إلَّا بإذنه.

۞ **وعلى كلٍّ**: فهذا دعاءٌ عظيمٌ جامعٌ لأبوابِ الخيرِ وأصولِ السعادةِ في الدنيا والآخرة. فعلى المسلم أن يَعْتَنِيَ به في هذه الصلاةِ ـ صلاةِ الوِتْر ـ التي يختمُ بها صلاةَ الليل، ولا بأسَ لو زاد المسلمُ على ذلكَ الدعاءَ لعمومِ المؤمنينَ بما استطاعَ مِنْ خير، والاستغفارَ لهم، والدعاءَ على أعدائهم، والصلاةَ والسلامَ على رسولِ اللهِ ﷺ، واللهُ الموفِّق.

۞ ۞ ۞

١٤٩

دُعَاءُ الاِسْتِخَارَةِ

الحديثُ هنا عن دُعَاءِ الاستخارة الذي يُستَحَبُّ للمسلمِ أن يقولَهُ إذا هَمَّ بفعلِ أمرٍ لا يدري عاقبتَهُ، ولا يعرفُ مآلَهُ؛ ففي «صحيح البخاري»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاِسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ، يَقُولُ: (**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لْيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِن فَضْلِكَ العَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، واقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ؛ قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ**)»[١].

وهذا الدعاءُ العظيمُ المباركُ الذي أرشَدَ إليه النَّبيُّ ﷺ في هذا المقامِ، مقامِ طلبِ الخِيَرَةِ في الأمرِ الذي يُقْدِمُ عليه المسلمُ، وهو متردِّدٌ في مآله: هل هو إلى خيرٍ أو إلى شرٍّ، وهل هو إلى نفعٍ أو إلى ضُرٍّ، هو عِوَضٌ لِأُمَّةِ الإسلامِ عمَّا كان عليه أهلُ الجاهليَّةِ مِنْ زَجْرِ الطيرِ والاستقسام بالأزلام إذا بَدَتْ للواحدِ منهم حاجةٌ مِنْ نكاحٍ أو سفرٍ أو بيعٍ أو نحوِ ذلك، فَيَطْلُبونَ بذلك عِلْمَ ما قُسِمَ لهم في الغيب؛ وهذا ضلالٌ وسَفَهٌ كان عليه أهلُ الجاهلية،

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (١١٦٢)، **وانظر حول هذا الحديث**: «حديث صلاة الاستخارة رواية ودراية» للدكتور عاصم القريوتي.

وأمَّا أُمَّةُ الإسلامِ، فقد هداهُمُ اللهُ تعالى إلى مَرَاشِدِ الأمور، ومفاتيحِ الخير، وسُبُلِ السعادةِ في الدنيا والآخرة، ومِنْ ذلكم: هذا الدعاءُ العظيمُ الذي هُدِيَتْ إليه أمةُ الإسلام.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وعَوَّضَهُمْ بهذا الدعاءِ الذي هو توحيدٌ وافتقارٌ وعبوديةٌ وتَوَكُّلٌ، وسؤالٌ لِمَنْ بيدِهِ الخيرُ كلُّه، الذي لا يأتي بالحسناتِ إلَّا هو، ولا يَصْرِفُ السَّيِّئاتِ إلَّا هو، الذي إذا فتَحَ لعبدِهِ رَحْمةً، لَمْ يستطعْ أحدٌ حَبْسَها عنه، وإذا أمسكها، لَمْ يستطعْ أحدٌ إرسالَها إليه مِنَ التطيُّرِ والتنجيمِ واختيارِ الطالعِ ونحوه، فهذا الدعاءُ هو الطالعُ الميمونُ السعيدُ، طالعُ أهلِ السعادةِ والتوفيق، الذين سبقَتْ لهم مِنَ اللهِ الحسنى، لا طَالِعُ أهلِ الشركِ والشقاءِ والخِذْلان، ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٦].

فتَضمَّنَ هذا الدعاءُ الإقرارَ بوجودِهِ سبحانه، والإقرارَ بصفاتِ كمالِهِ من كمالِ العلم والقدرةِ والإرادة، والإقرارَ بربوبيَّته، وتفويضَ الأمرِ إليه، والاستعانةَ به، والتوكُّلَ عليه، والخروجَ من عُهْدةِ نَفْسِهِ، والتَّبَرِّيَ من الحولِ والقوة إلَّا به، واعترافَ العبدِ بعَجْزِهِ عن علمِهِ بمصلحةِ نَفْسه، وقدرتِهِ عليها، وإرادتِهِ لها، وأنَّ ذلك كلَّهُ بيدِ وليِّهِ وفاطرِهِ وإلَهِهِ الحقِّ . . . **إلى أن قال: والمقصودُ**: أنَّ الاستخارةَ توكُّلٌ على الله، وتفويضٌ إليه، واستقسامٌ بقُدْرَتِهِ وعلمِهِ وحُسْنِ اختيارِهِ لعبده، وهي مِنْ لوازمِ الرِّضَا به ربًّا، الذي لا يذوقُ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ لَم يكنْ كذلك، وإنْ رَضِيَ بالمقدورِ بعدها، فذلكَ عَلَامةُ السعادة»[(١)] .اهـ.

وما نَدِمَ مَنِ استخارَ ربَّه بعلمِهِ المحيطِ بكلِّ شيء، واستقْدَرَهُ بقدرتِهِ الكاملةِ على كلِّ شيء، وسألَهُ سبحانَهُ مِنْ فضلِهِ العظيم.

وقولُ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ في الأمورِ كلِّها كما يعلِّمنا السورةَ مِنَ القُرْآنِ»؛ فيه دَلالةٌ على شِدَّةِ اهتمامِ النَّبِيِّ ﷺ بهذا الدعاء، والمحافظةِ عليه، والعنايةِ به.

(١) «زاد المعاد» لابن القيِّم (٢/ ٤٤٣ ـ ٤٤٥).

وقوله: «يقولُ لنا: (**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ**)»؛ **أي**: مِنَ الأمورِ التي لا يدري ما عاقبتُها **مثل**: السفرِ، أو الزواجِ، أو نحوِ ذلك، ولا استخارةَ في فعلِ الواجب، أو تَرْكِ المحرَّم.

وقوله: (**فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غيرِ الفَرِيضَةِ**)؛ **أي**: فلْيُصَلِّ ركعتَيْنِ مِنْ غيرِ الصلواتِ المفروضة؛ وذلك لتكونَ صلاتُهُ مفتاحًا له لنيلِ الخير، وسببًا لإجابةِ مطلوبِهِ، وتحقيقِ مرغوبِهِ، ولم يَأْتِ في شيءٍ مِنْ طرقِ الحديثِ تعيينُ قراءةٍ معيَّنةٍ مِنْ آيِ القرآنِ أو سُوَرِهِ لتُقْرَأَ في هذه الصلاةِ؛ ولذا يقرأُ المستخيرُ ما يَسَّرَهُ اللهُ له مِنَ القرآنِ دونَ التزامِ شيءٍ معيَّن.

وقوله: (**ثُمَّ لْيَقُلْ**)، ظاهرُهُ أنَّ الدعاءَ يكونُ بعدَ الفراغِ مِنَ الصلاة؛ **أي**: بعدَ أنْ يسلِّم، ويَحتمِلُ أنَّ ذلكَ قبلَ السلام؛ **أي**: بعدَ الفراغِ مِنْ أذكارِ الصلاةِ ودعائها، والأَوْلَى الأوَّل؛ **أي**: أنْ يكونَ الدعاءُ بعدَ السلامِ، والأفضلُ أنْ يرفعَ يَدَيْهِ عندَ الدعاءِ؛ لأنَّ رَفْعَهما مِنْ أسبابِ إجابةِ الدعاء.

ومَنْ كان لا يحفظُ الدعاءَ، وقرأه مِنْ كتابٍ، فلا حَرَجَ عليه، وعليه أن يجتهدَ في إحضارِ قلبه، والخشوعِ لله، والصِّدْقِ في الدعاء، والتأمُّلِ في معاني هذا الدعاءِ العظيم، ومَنْ لم يكنْ حافظًا للدعاء، وليس بحضرتِهِ كتابٌ، واحتاجَ إلى الاستخارةِ فإنَّه يصلِّي ركعتَيْنِ، ويدعو بما تَيسَّرَ له من معاني طلبِ الخِيَرَةِ.

وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ**)؛ **أي**: أطلُبُ منك ـ يا اللهُ ـ أن تختارَ لِيَ الخيرَ مِنَ الأمور، والأَرْشَدَ منها: بعلمِكَ المحيطِ بكلِّ شيء، بما كان، وبما سيكونُ، وبما لَمْ يكنْ لو كانَ كيفَ يكون.

وقوله: (**وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ**)؛ **أي**: أطلُبُ منك أن تُقْدِرَني عليه بقدرتِكَ على كلِّ شيء.

وقوله: (**وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ**)؛ **أي**: أطلُبُ منك ـ يا اللهُ ـ أن تُكْرِمَني بفضلك، وتَمُنَّ عليَّ بعطائك؛ لأنَّك أنت المتفضِّلُ وَحْدَكَ والمُنْعِمُ، لا شريكَ لك.

وقوله: (**فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ**)، فيه الإيمانُ بقدرةِ اللهِ على كلِّ شيءٍ، وبكلِّ شيء، وأنَّه لا يَعْزُبُ عن علمِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء، والاعترافُ بضعفِ العبدِ وعَجْزِهِ وافتقارِهِ إلى سيِّده ومولاه.

وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ**)، ويُسَمِّيهِ بعينِهِ إنْ كان زواجًا، أو بيعًا، أو سفرًا، أو غيرَ ذلك.

وقوله: (**إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ**)، يرجعُ إلى عَدَمِ علمِ العبدِ بعاقبةِ أمره، وأمَّا الرَّبُّ سبحانه، فعلمُهُ محيطٌ بكلِّ شيء.

وقوله: (**خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي**)؛ قَدَّمَ الدِّينَ؛ لأنَّه الأهمُّ، فإذا سَلِمَ الدِّينُ، فالخيرُ حاصلٌ، وإذا اختَلَّ، فلا خَيْرَ بعده.

وقوله: (**أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ**)، هذا شكٌّ مِنَ الراوي، وهما يؤدِّيان للمعنى السابق.

وقوله: (**فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي**)؛ **أي**: اجعلْهُ لي مُقَدَّرًا ومُيَسَّرًا.

وقوله: (**ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ**)؛ **أي**: أَدِمْهُ عليَّ وضَاعِفْهُ؛ فالبَرَكَةُ تَتضمَّنُ ثبوتَ النِّعْمةِ ونُمُوَّها.

وقوله: (**وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي...**)، إلى آخرِ الدعاءِ، فيه سؤالُ اللهِ أنْ يَصْرِفَ هذا الأمرَ عن باله إن كان شرًّا، وأنْ يُبَاعِدَ بينه وبينه، وأن يكتبَ له الخيرَ حيثُ كان، وأن يَرْزُقَهُ الرِّضَا بما قسَمَ اللهُ مِنْ وجودِ ذلكَ الأمرِ إنْ وُجِدَ، أو عدمِهِ إنْ عُدِمَ.

والخيرُ فيما يختارُهُ اللهُ، والتوفيقُ بيده سبحانه، وهو الهادي وَحْدَهُ إلى سواءِ السبيل.

❁ ❁ ❁

١٥٠

أَذْكَارُ الكَرْبِ

لقد ثبَتَ في السُّنَّةِ أحاديثُ عديدةٌ عن النَّبِيِّ ﷺ في علاجِ ما قد يصيبُ الإنسانَ مِنَ الكَرْب، وهو الشِّدَّةُ والأَلَمُ الذي قد يجدُهُ الإنسانُ في نفسِهِ بسببِ ما يَحُلُّ به مِنْ مصائبَ ونوازلَ، تَدْهُو الإنسانَ، فتَغُمُّهُ وتُحْزِنُهُ وتُؤَرِّقه.

ومِنَ الأحاديثِ الواردةِ في علاجِ ذلك: ما رواه البخاري ومسلم، عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: **(لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ)**»[(١)].

وروى أبو داود، وابن ماجه، وغيرُهما، عن أسماءَ بنتِ عُمَيْسٍ رضي الله عنها، قالت: «قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: **(أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الكَرْبِ - أَوْ فِي الكَرْبِ -: اللهُ اللهُ رَبِّي، لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)**»[(٢)].

وروى أبو داود في «سننه»، عن أبي بَكْرة رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ، أنَّه قال: **(دَعَوَاتُ المَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ، رَحْمَتَكَ أَرْجُو؛ فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ)**[(٣)].

وروى الترمذي، عن سَعْد بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ**

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٤٦)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٣).

(٢) «المسند» (٦/ ٣٦٩)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥٢٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٨٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٨٢٤).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٦)، «سنن أبي داود» رقم (٥٠٩٠)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٨).

إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ)[(١)].

وجميعُ هذه الكلماتِ الواردةِ في هذه الأحاديثِ كلماتُ إيمانٍ وتوحيدٍ وإخلاصٍ لله ﷻ، وبُعْدٍ عن الشِّرْكِ كلِّه كبيرِهِ وصغيرِهِ. وفي هذا أَبْيَنُ دَلَالةٍ على أنَّ أعظمَ علاجٍ للكَرْبِ هو تجديدُ الإيمان، وترديدُ كلمةِ التوحيد: **(لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)**؛ فإنَّه ما زَالَتْ عن العبدِ شِدَّةٌ، ولا ارتفَعَ عنه هَمٌّ وكَرْبٌ بمثلِ توحيدِ اللهِ وإخلاصِ الدِّينِ له، وتحقيقِ العبادةِ التي خُلِقَ العبدُ لأجلها، وأُوجِدَ لتحقيقها؛ فإنَّ القلبَ عندما يُعْمَرُ بالتوحيدِ والإخلاصِ، ويُشْغَلُ بهذا الأمرِ العظيمِ الذي هو أعظمُ الأمورِ وأجلُّها على الإطلاق، تَذْهَبُ عنه الكُرُبات، وتزولُ عنه الشدائدُ والغمومُ، ويَسْعَدُ غايةَ السعادة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «التوحيدُ مَفْزَعُ أعدائِهِ وأوليائِهِ؛ فأمَّا أعداؤُهُ: فيُنْجِيهِمْ مِنْ كُرَبِ الدنيا وشدائدها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وأمَّا أولياؤُهُ: فيُنْجِيهِمْ مِنْ كُرُباتِ الدنيا والآخرةِ وشدائدها؛ ولذلك فَزِعَ إليه يونسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فنجَّاهُ اللهُ من تلك الظُّلُمات، وفَزِعَ إليه أتباعُ الرُّسُل، فَنَجَوْا به ممَّا عُذِّبَ به المشركون في الدنيا، وما أُعِدَّ لهم في الآخرة، ولمَّا فزع إليه فِرْعَوْنُ عندَ مُعَايَنَةِ الهلاكِ وإدراكِ الغَرَقِ لَمْ يَنْفَعْهُ؛ لأنَّ الإيمانَ عند المعاينةِ لا يُقْبَلُ، هذه سُنَّةُ اللهِ في عباده، فما دُفِعَتْ شدائدُ الدنيا بمثلِ التوحيد؛ ولذلك كان دعاءُ الكَرْبِ بالتوحيد، ودعوةُ ذي النُّونِ التي ما دعا بها مكروبٌ إلَّا فَرَّجَ اللهُ كَرْبَهُ بالتوحيد، فلا يُلْقِي في الكُرَبِ العِظَامِ إلَّا الشِّرْكُ، ولا ينجي منها إلَّا التوحيدُ، فهو مَفْزَعُ الخليقةِ ومَلْجَؤُها وحِصْنُها وغايتُها، وبالله التوفيق»[(٢)]. اهـ.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ١٧٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٣).

(٢) «الفوائد» (ص٩٥ ـ ٩٦).

وقد مَرَّ معنا أحاديثُ دالَّةٌ على هذا المعنى:

أوَّلُها: حديثُ ابن عَبَّاسٍ ﵄؛ وكلُّه توحيدٌ وتمجيدٌ لله ﷻ، وترديدٌ لكلمة التوحيد: «**لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ**»، مقرونةً بما يَدُلُّ على عَظَمَةِ اللهِ وجلالِهِ وكمالِهِ وربوبيَّتِهِ للسَّمَوات والأرضِ وللعرشِ العظيم، فقد انتَظَمَتْ هؤلاءِ الكلماتُ **أنواعَ التوحيدِ الثلاثةَ**: توحيدَ الربوبيَّةِ، وتوحيدَ الألوهيَّةِ، وتوحيدَ الأسماءِ والصفات، فإذا قالها المسلمُ مُتَأَمِّلًا لمعانيها، مُتَفَكِّرًا في دَلَالاتها، سكَنَ قلبُه، واطمأنَّتْ نَفْسُه، وزال عنه كَرْبُهُ وشِدَّتُه، وهُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم.

وثانيها: حديثُ أسماءَ بنتِ عُمَيْسٍ ﵂، حيثُ أرشدها النَّبِيُّ ﷺ أنْ تَفْزَعَ في الكَرْبِ أو عندَ الكَرْبِ إلى التوحيد، الذي ما دُفِعَتْ عن العبدِ الشدائدُ، ولا زالتْ عنه الكُرُباتُ بمثله، وقد شدَّ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه انتباهَها لهذا الأمر، وشَوَّقَها إلى معرفته، وهيَّأ نفسَها لتَلَقِّيه؛ بأنْ طَرَحَ عليها استفهامًا مُشَوِّقًا: (**أَلَا أُعلِّمُك كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهنَّ عِنْدَ الكَرْبِ، أَوْ فِي الكَرْبِ؟**)، وما مِنْ ريبٍ أنَّ نفسَها قد تاقتْ لمعرفةِ هؤلاءِ الكلمات، فأرشَدَهَا ﷺ أنْ تقول: (**اللهُ اللهُ ربِّي، لَا أُشرِك بِه شَيْئًا**)؛ وهي كلمةُ إخلاص وتوحيد.

وقوله: (**اللهُ اللهُ**)، هو بالرَّفْعِ فيهما، على أنَّ الأوَّلَ مبتدأٌ، والثاني تأكيدٌ لفظيٌّ له؛ إشارةً إلى عِظَمِ المقامِ، وأهميَّة الأمر، وخبرُ المبتدأِ هو قوله: (**رَبِّي**)؛ **والمعنى**: أنَّ إلـٰهي الذي أعبدُهُ وأَخُصُّهُ بجميعِ أنواعِ العبادة؛ مِنْ خوفٍ ورجاء، وذلٍّ وخضوعٍ وخشوع، وانكسارٍ وغيرِ ذلك، هو ربِّي الذي ربَّانِي بنعمته، وأَوْجَدَنِي من العَدَمِ، وتَفَضَّلَ عليَّ بصنوفِ العطايا والمِنَن.

وقوله: (**لَا أُشْرِكُ بِه شَيْئًا**)؛ **أي**: لا أَتَّخِذُ معه شريكًا في العبادةِ كائنًا مَنْ كان، فقوله: (**شَيْئًا**): نكرَةٌ في سياقِ النفيِ تفيدُ العمومَ.

وعلى كلٍّ، فهذه الكلمةُ العظيمةُ اشتَمَلَتْ على تحقيقِ التوحيدِ بِرُكْنَيْهِ النفيِ والإثباتِ: نفيُ العبوديَّةِ عن كلِّ مَنْ سوى الله، وإثباتُهَا له وحده، وفي الحديثِ دليلٌ على أنَّ التوحيدَ هو المَفْزَعُ في الكُرَبِ، وأعظمُ أسبابِ زوالِ الهمومِ، وذهابِ الغُمُوم.

وثالثها: حديثُ أبي بَكْرةَ عن النَّبيِّ ﷺ: **(دعَواتُ المَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ)**؛ وهو كلُّه توحيدٌ لله، والتجاءٌ إليه، واعتصامٌ به.

وقوله: **(اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو)**، في تأخير الفعلِ دَلَالةٌ على الاختصاص؛ **أي**: نَخُصُّكَ برجاءِ الرَّحْمةِ منك، فلا نرجوها مِنْ أحدٍ سواك.

وقوله: **(فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ)**، فيه شدَّةُ افتقارِ العبدِ إلى الله، وأنَّه لا غِنَىٰ له عن ربِّه ومولاهُ طَرْفةَ عَيْنٍ في كلِّ شأنٍ مِنْ شؤونه؛ ولهذا قال: **(وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ)**؛ **أي**: في كلِّ جزئيَّةٍ من جزئيَّاته، وكلِّ جانبٍ مِنْ جوانبه. ثم ختَمَ هذ الدعاءَ المبارَكَ بكلمةِ التوحيد: **«لا إِلَٰهَ إِلَّا الله»**.

ورابعها: حديثُ سَعْدِ بنِ أبي وَقَّاص، وفيه ذكرُ دعوةِ ذي النُّونِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في بطنِ الحُوتِ: **(لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)**، **وعن هذه الدعوة يقول ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ فيها مِنْ كمالِ التوحيد، والتَّنْزيهِ للرَّبِّ تعالى، واعترافِ العبدِ بظلمِهِ وذنبِهِ ما هو مِنْ أبلغِ أدويةِ الكَرْبِ والهمِّ والغمِّ، وأبلغِ الوسائلِ إلى اللهِ سبحانه في قضاءِ الحوائج؛ فإنَّ التوحيدَ والتَّنْزيهَ يَتضمَّنانِ إثباتَ كلِّ كمالٍ لله، وسَلْبَ كلِّ نقصٍ وعَيْبٍ وتمثيلٍ عنه، والاعترافُ بالظلم يَتضمَّنُ إيمانَ العبدِ بالشَّرْعِ والثوابِ والعقاب، ويوجبُ انكسارَهُ ورجوعَهُ إلى الله، واستقالتَهُ عثرتَهُ، والاعترافَ بعبوديَّته، وافتقارَهُ إلى ربِّه، فها هنا أربعةُ أمورٍ قد وقَعَ التوسُّلُ بها: التوحيدُ والتَّنْزيهُ، والعبوديَّةُ والاعتراف»[(١)]. اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٢٠٨).

١٥١

دُعَاءُ الغَمِّ وَالهَمِّ وَالحُزْنِ

إنَّ العبدَ في هذه الحياة قد يُصابُ بآلام متنوِّعَة، وقد يَرِدُ على قلبه وَارِدَاتٌ مُتعدِّدةٌ تؤرِّق قلبَهُ، وتُؤْلِمُ نَفْسَه، وتَجْلِبُ له الكدَرَ والضِّيقَ، فإن كان هذا الأَلَمُ الذي يُصِيبُ القلبَ متعلِّقًا بأمورٍ ماضيةٍ، فهو حُزْنٌ، وإنْ كان متعلِّقًا بأمورٍ مُسْتَقْبَلَةٍ، فهو هَمٌّ، وإن كان متعلِّقًا بواقعِ الإنسانِ وحاضرِهِ، فهو غَمٌّ. **وهذه الأمورُ الثلاثة**: الحزنُ والهَمُّ والغَمُّ إنَّما تزولُ عن القلبِ وتَنْجَلِي عن الفؤادِ بالعودةِ الصادقةِ إلى الله، وتَمامِ الانكسارِ بين يَدَيْه، والتَّذَلُّلِ له سبحانه، والخضوعِ له، والاستسلامِ لأمره، والإيمانِ بقضائِهِ وقدره، ومعرفتِهِ سبحانه، ومعرفةِ أسمائِهِ وصفاته، والإيمانِ بكتابِهِ، والعنايةِ بقراءتِهِ وتدبُّره والعملِ بما فيه، فبذلكَ لا بغيرِهِ تزولُ هذه الأمور، وينشرحُ الصَّدْرُ، وتتحقَّقُ السَّعادة.

جاء في «المسند» للإمام أحمد، و«صحيح ابن حِبَّان»، وغيرهما، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**(مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إذا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ عز وجل هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا)**، قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ، قَالَ: **(أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ)**»[١].

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٣٠)، **وانظر في شرح هذا الحديث**: «الفوائد» لابن القيِّم (ص٤٤).

فهذه كلماتٌ عظيمةٌ ينبغي على المسلمِ أن يَتَعَلَّمَها، وأنْ يَحْرِصَ على قولِها عندما يُصابُ بالحُزْنِ أو الهَمِّ أو الغَمِّ، وليعلم كذلك أنَّ هؤلاءِ الكلماتِ إنَّما تكونُ نافعةً له إذا فَهِمَ مدلولَها، وحقَّق مقصودَها، وعَمِلَ بما دلَّت عليه، أمَّا الإتيانُ بالأدعيةِ المأثورةِ، والأذكارِ المشروعة، دونَ فَهْمٍ لمعانيها، ودونَ تحقيقٍ لمقاصدها، فإنَّ هذا قليلُ التأثيرِ، عديمُ الفائدة.

وإذا تَأَمَّلْنا هذا الدعاءَ نجدُ أنَّه يَتضمَّنُ أربعةَ أصولٍ عظيمة، لا سبيلَ للعبد إلى نيل السعادة، وزوالِ الهَمِّ والغَمِّ والحزن إلَّا بالإتيانِ بها وتحقيقها:

أمَّا الأصلُ الأوَّل: فهو تحقيقُ العبادةِ للهِ، وتَمَامِ الانكسارِ بين يديه، والخضوعِ له، واعترافِهِ بأنَّه مخلوقٌ لله، مَمْلوكٌ له هو وآباؤُهُ وأمهاتُه، ابتداءً من أبويه القريبَيْنِ، وانتهاءً إلى آدَمَ وحَوَّاء؛ ولهذا قال: (**اللَّهُمَّ إنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ**)؛ فالكلُّ مَمَالِيكُ لله، وهو خالقُهم وربُّهم وسيِّدُهم ومُدَبِّرُ شؤونهم، الذي لا غِنَىٰ لهم عنه طَرْفَةَ عين، وليس لهم مَنْ يعوذون به، ويلوذون به سواه، ومِنْ تحقيقِ ذلك: التزامُ العبدِ عبوديَّتَهُ سبحانه؛ من الذُّلِّ والخضوع، والانكسارِ والإنابة، وامتثالِ الأوامر، واجتنابِ النواهي، ودوام الافتقارِ إليه، واللَّجأِ إليه، والاستعانةِ به، والتوكُّلِ عليه، والاستعاذةِ به، وأَنْ لَا يَتعلَّقَ القلبُ بغيرِهِ مَحبَّةً وخوفًا ورجاءً.

وأمَّا الأصلُ الثاني: فهو أن يؤمنَ العبدُ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، وأنَّ ما شاءَ اللهُ كان وما لَمْ يشأْ لَم يَكُنْ، وأنَّه سبحانه لا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ، ولا رادَّ لقضائِهِ: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ﴾ [فَاطِر: ٢]؛ ولهذا قال في هذا الدعاء: (**نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**)؛ فناصيةُ العبدِ ـ وهي مُقدَّمةُ رأسِهِ ـ بيدِ الله، يَتصرَّفُ فيه كيف يشاء، ويَحْكُمُ فيه بما يريد، لا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ ولا رادَّ لقضائه، فحياةُ العبدِ وموتُهُ وسعادتُهُ وشقاوتُهُ وعافيتُهُ وبلاؤه، كلُّ ذلك إليه سبحانه ليس إلى العبدِ منه شيء، وإذا آمَنَ العبدُ بأنَّ ناصيتَهُ ونواصيَ العبادِ كلَّها بيدِ اللهِ وحده

يصرِّفهم كيف شاء، لَمْ يَخَفْ بعد ذلك منهم، ولم يَرْجُهم، ولم يُنْزِلْهم مَنْزِلَةَ المالكين، ولم يُعلِّقْ أملَهُ ورجاءَهُ بهم؛ وحينئذٍ يستقيمُ له توحيدُهُ وتوكُّلُهُ وعبوديتُهُ؛ ولهذا قال هود ﷺ لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هُود: ٥٦].

وقوله: **(مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ)**، يَتناوَلُ الحُكْمَيْنِ: الحكمَ الدينيَّ الشرعيَّ، والحكمَ القَدَرِيَّ الكونيَّ، فكلاهما ماضيان في العبدِ شاء أم أَبَى، لكنَّ الحكمَ الكونيَّ القَدَريَّ لا يمكنُ مخالفتُهُ، وأمَّا الحكمُ الدِّينِيُّ الشرعيُّ، فقد يخالفُهُ العبدُ، ويكونُ متعرِّضًا للعقوبةِ بِحَسَبِ ما وقَعَ فيه مِنْ مخالفة.

وقوله: **(عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ)**، يتناولُ جميعَ أقضيتِهِ سبحانه في عبدِهِ مِنْ كلِّ الوجوه؛ مِنْ صحةٍ وسُقْم، وغِنًى وفَقْر، ولَذَّةٍ وأَلَم، وحياةٍ وموت، وعقوبةٍ وتجاوز، وغيرِ ذلك، فكلُّ ما يقضي على العبد، فهو عَدْلٌ فيه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت: ٤٦].

والأصلُ الثالث: أن يُؤْمِنَ العبدُ بأسماءِ اللهِ الحسنى وصفاتِهِ العظيمةِ الواردةِ في الكتابِ والسُّنَّة، ويَتوسَّلَ إلى اللهِ بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، والعبدُ كلَّما كان عظيمَ المعرفةِ باللهِ وأسمائِهِ وصفاته، زادتْ خشيتُهُ له، وعَظُمَتْ مراقبتُهُ له، وازدادَ بُعْدًا عن معصيتِهِ والوقوعِ فيما يُسْخِطُه؛ **كما قال بعضُ السَّلَفِ**: «مَنْ كان باللهِ أَعْرَفَ كان منه أخوفَ»؛ ولهذا، فإنَّ أعظمَ ما يَطرُدُ الهمَّ والحُزْنَ والغَمَّ أن يَعرِفَ العبدُ ربَّه، وأن يَعْمُرَ قلبَهُ بمعرفتِهِ سبحانه، وأن يَتوسَّلَ إليه بأسمائِهِ وصفاته؛ ولهذا قال: **(أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ)**؛ فهذا توسُّلٌ إلى الله بأسمائِهِ كلِّها ما عَلِمَ العبدُ منها وما لَمْ يَعْلَمْ، وهذا أحبُّ الوسائلِ إلى الله سبحانه.

والأصلُ الرابع: هو العنايةُ بالقرآنِ الكريم، كلامِ الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطلُ مِنْ بين يديه ولا مِنْ خَلْفِهِ، المُشْتَمِلِ على الهدايةِ والشفاء، والكفايةِ والعافية، والعبدُ كلَّما كان عظيمَ العنايةِ بالقرآنِ تلاوةً وحِفْظًا، ومذاكرةً وتدبُّرًا، وعملًا وتطبيقًا، نال مِنَ السعادةِ والطمأنينة، وراحةِ الصَّدْر، وزوالِ الهمِّ والغَمِّ والحُزْنِ بِحَسَبِ ذلك؛ ولهذا قال في هذا الدعاء: (**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**).

فهذه أربعةُ أصولٍ عظيمةٍ مستفادةٍ مِنْ هذا الدعاءِ المبارك، ينبغي علينا أن نَتَأَمَّلَها ونَسْعَى في تحقيقها؛ لننالَ هذا الموعودَ الكريمَ، والفضلَ العظيم، وهو قوله ﷺ: (**إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا**)، وفي رواية: (**فَرَجًا**)، ومِنَ اللهِ وحدَهُ نطلُبُ العَوْنَ والتوفيق.

❊ ❊ ❊

١٥٢

مَا يُقَالُ عِنْدَ لِقَاءِ العَدُوِّ

لقد جاء في السُّنَّةِ أذكارٌ وأدعيةٌ يقولُها المسلمُ عند لقائه العدوَّ، أو ذي السلطانِ الجائر، وهي في الجملةِ الْتِجَاءٌ إلى الله، واعتصامٌ به، واعتمادٌ عليه سبحانه في أن يَقِيَهُ شَرَّهم، ويُسَلِّمَهُ منهم، ويَحْفَظَهُ مِنْ كَيْدهم ومَكْرهم، واللهُ ﷻ حافظٌ لِمَنْ لَجأَ إليه، وكافٍ مَنِ اعتصَمَ به؛ إذِ الأمورُ كلُّها بيده، وما مِنْ دابَّةٍ إلَّا هو آخذٌ بناصيتها.

ومِنَ الأذكارِ التي جاءتْ بها السُّنَّةُ عند لقاءِ العدوِّ: ما رواه أبو داود، والترمذي، وغيرُهما، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا غَزَا قَالَ: (**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ**)»(١).

وقولُه: (**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي**)؛ **أي**: عَوْنِي، فلا مُعِينَ لِي سواك، ولا مَلْجَأَ لي غَيْرُك، بك وَحْدَكَ أستعين، وإليكَ وَحْدَكَ ألتجئ.

وقوله: (**وَنَصِيرِي**)؛ **أي**: لا ناصرَ لي سواك، ومَنْ كان اللهُ ناصِرَهُ، فلا غالبَ له؛ كما قال تعالى: ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [آل عِمران: ١٦٠].

وقوله: (**بِكَ أَحُولُ**)؛ **أي**: أحتالُ؛ ومنه قولك: (**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**)؛ **أي**: لا حِيلَةَ في دفعِ سوءٍ، ولا قوةَ في دَرْكِ خيرٍ إلَّا بالله.

وقوله: (**وَبِكَ أَصُولُ**)؛ **أي**: بك أحملُ على العَدُوِّ، مِنَ الصَّوْلة، وهي الحَمْلَة.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٨٤)، و«سنن أبي داود» رقم (٢٦٣٢) واللفظ له، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٥٧).

وقوله: (**وَبِكَ أُقَاتِلُ**)؛ **أي**: بعونِكَ أقاتلُ عدوِّي.

ومِنَ الأدعيـة في هـذا المقـامِ: ما رواه أبـو داود، عـن أبـي مـوسى الأشعري ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا، قَالَ: (**اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ**)»[١].

وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ**)؛ **أي**: في نَحْرِ العدوِّ: بأنْ تكونَ حافظًا لنا، ومدافعًا عنَّا، وحائلًا بينهم وبيننا مِنْ أن يَصِلُوا إلينا بأيِّ نوعٍ من الأَذى، وخَصَّ نُحُورَهم بالذِّكْر؛ لأنَّ العدوَّ يستقبلُ بنحرِهِ عندَ القتالِ، ولعلَّ في ذِكْرِ النَّحْرِ تفاؤلًا بأنَّ المؤمنينَ يَنْحَرُونَهم عن آخرهم بِمَدٍّ مِنَ اللهِ وعَوْن.

وقوله: (**وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ**)؛ **أي**: مِنْ أن ينالونا بأيِّ نوعٍ من الشَّرِّ؛ فأنت الذي تَدْفَعُ شرورَهم، وتكفينا أَمْرَهم، وتحولُ بيننا وبينهم.

ومِمَّا يُشْرَعُ للمسلمِ أن يقولَهُ في مثلِ هذا المقام: (**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**)؛ ففي «صحيح البخاري»، عن عبد الله بن عبَّاس ﷺ، قال: «(**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**) قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عِمران: ١٧٣]»[٢].

ومعنى: (**حَسْبُنَا اللهُ**)؛ **أي**: كافينا كلَّ ما أَهَمَّنا، فلا نتَوَكَّلُ إلَّا عليه، ولا نعتمدُ إلَّا عليه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: ٣]؛ **أي**: كافيه؛ كما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٣٦].

وقوله: (**وَنِعْمَ الوَكِيلُ**)؛ **أي**: نِعْمَ المتوكَّلُ عليه في جلبِ النَّعْماء، ودفعِ الضُّرِّ والبلاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحجّ: ٧٨].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٤١٥)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥٣٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٤٥٦٣).

وقد تَضمَّنَتْ هذه الكلمةُ العظيمةُ التَّوَكُّلَ على الله، والاعتمادَ عليه، والالتجاءَ إليه سبحانه، وأنَّ ذلك سبيلُ عِزِّ الإنسانِ ونَجاتِهِ وسلامتِهِ؛ **قال ابنُ القيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو حَسْبُ مَنْ توَكَّلَ عليه، وكافي مَنْ لجَأَ إليه، وهو الذي يُؤمِّنُ خوفَ الخائف، ويُجِيرُ المستجير، وهو نِعْمَ المولى ونعم النَّصِير، فمَنْ تولَّاه، واستَنْصَرَ به، وتَوكَّلَ عليه، وانقَطَعَ بكُلِّيَّتِهِ إليه، تَوَلَّاهُ وحَفِظَهُ وحَرَسَهُ وصانَه، ومَنْ خافَهُ واتَّقَاهُ، أَمَّنَهُ مِمَّا يخافُ ويَحْذَر، وجَلَبَ إليه كلَّ ما يحتاجُ إليه مِنَ المنافع ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق]، فلا تَسْتَبْطِئْ نَصْرَهُ ورزقَهُ وعافيتَهُ؛ فإنَّ اللهَ بالغُ أمرِهِ، وقد جعَلَ اللهُ لكلِّ شيء قَدْرًا، لا يتَقدَّمُ عنه ولا يتأخَّر»(١).

ثمَّ إنَّ فيما تَقدَّمَ دَلَالَةً على عِظَمِ شأنِ هذه الكلمة، وأنَّها قولُ إبراهيمَ ومحمدٍ، عليهما الصلاةُ والسلامُ في الشدائد.

فإبراهيمُ عليه الصلاةُ والسلامُ لَمَّا أَفْحَمَ قومَهُ، وبيَّن لهم بالحُجَجِ القاطعة، والبراهينِ الساطعة: أنَّ المعبودَ بحقٍّ هو الله، وأنَّ ما يَعْبُدُونَهُ مِنْ دونه إنَّما هي أوثانٌ لا تَمْلِكُ لعابديها جلبَ نفعٍ، ولا دَفْعَ ضُرٍّ، ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء]، فلمَّا أُفحِمَ القومُ، ولم يكنْ لديهم أيُّ حجةٍ يقاومونَهُ بها لَجَؤُوا إلى استعمالِ القوة، و﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وقد دَلَّتْ كلمتُهم هذه على إفلاسِهِمْ من الحُجَجِ والبراهين، وعلى شِدَّةِ سَفَهِهِمْ، وحَقَارةِ عقولهم؛ إذْ كيف يعبدون مَنْ أقرُّوا أنَّه يحتاجُ إلى نَصْرِهم، ثم إنَّهم أَجَّجُوا نارًا عظيمةً، وأَلْقَوْا فيها نبيَّ الله إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ قاصدين قتلَهُ بأشنعِ القَتَلات، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أُلْقِيَ في النار: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فانتصَرَ اللهُ لخليله، وقال

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانتْ كذلك بَرْدًا وسلامًا عليه، لَم ينلْهُ فيها أذى، ولَم يُصِبْهُ فيها مكروه.

ومحمَّدٌ ﷺ قالها حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عِمران: ١٧٣]، وذلك بعدما كان مِنْ أمرِ أُحُدٍ ما كان، بلَغَ النَّبِيَّ ﷺ وأصحابَهُ أنَّ أبا سُفْيانَ ومَنْ معه مِنَ المشركينَ قد أجمعوا الكَرَّةَ عليهم، فخرَجَ النَّبيُّ ﷺ ومعه جَمْعٌ من أصحابِهِ حتى انتهى إلى حَمْراءِ الأَسَدِ ـ وهي تَبْعُدُ عن المدينةِ قَدْرَ ثلاثةِ أميال ـ فأَلْقَى اللهُ الرُّعْبَ في قلبِ أبي سُفْيانَ حين بلَغَهُ الخبَرُ، فرجَعَ إلى مكة، ومَرَّ به ركبٌ مِنْ عبد قيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريدُ المدينةَ، قال: فهل أنتم مُبَلِّغُونَ عنِّي محمَّدًا رسالةً أُرْسِلُكم بها إليه؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه، فأَخْبِرُوهُ أنَّا قد أَجْمَعْنَا السيرَ إليه وإلى أصحابه؛ لنستأصلَ بَقِيَّتَهم، يريدُ بذلك إِرْعَابَهم وإخافتَهم، فمَرَّ الرَّكبُ برسولِ اللهِ ﷺ وهو بحمراءِ الأسد، فأخبَرُوهُ بالذي قاله أبو سُفْيانَ وأصحابُهُ، فقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عِمران: ١٧٣]، وازداد إيمانُهم بالله وثقتُهم به، ورجعوا إلى المدينةِ دون أن يُصابُوا بِسُوءٍ أو أذًى، بخلافِ المشركين الذين رَجَعُوا وقلوبُهم مُمتلئةٌ خوفًا ورعبًا.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عِمران].

وفي هذا أنَّ التوكُّلَ على اللهِ أعظمُ الأسبابِ في حصولِ الخير، ودَفْعِ الشَّرِّ في الدنيا والآخرة[١].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٥٠٢ ـ ٥٠٥).

١٥٣

مَا يَقُولُ إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ

الحديثُ هنا عمَّا يُشْرَعُ للمسلمِ أنْ يقولَهُ عندما يُصابُ بمصيبةٍ في نفسِهِ أو وَلَدِهِ أو مالِهِ أو نحوِ ذلك، وليعلَمْ أَوَّلًا أنَّ سُنَّةَ اللهِ ماضيةٌ في عبادِهِ بأن يَبْتَلِيَهم في هذه الحياةِ الدنيا بأنواعٍ مِنَ البلايا، وألوانٍ من المِحَنِ والرَّزَايا، فيبتليهم بالفقرِ تَارَةً، وبالغنى تارةً أخرى، وبالصِّحَّةِ تارة، وبالمرضِ تارةً أخرى، وبالسَّرَّاءِ حينًا، وبالضَّرَّاءِ حينًا آخر، وليس في النَّاسِ إلَّا مَنْ هو مُبْتَلًى؛ إمَّا بفواتِ محبوب، أو حصولِ مكروه، أو زوالِ مرغوب، فسرورُ الدنيا أحلامُ نومٍ أو كَظِلٍّ زائلٍ، إنْ أَضْحَكَتْ قليلًا أبكَتْ كثيرًا، وإن سَرَّتْ يومًا أحزَنَتْ دهرًا، وإن مَتَّعَتْ قليلًا مَنَعَتْ طويلًا، وما مَلأَتْ دارًا حَبْرَةً إلَّا مَلأَتْها عَبْرَةً؛ **كما قال ابن مسعود** ﷺ: «لكلِّ فَرْحةٍ تَرْحةٌ، وما مُلِئَ بيتٌ فَرَحًا إلَّا مُلِئَ تَرَحًا»، إلَّا أنَّ عبدَ اللهِ المسلمَ صائرٌ إلى خيرٍ في كلِّ أحواله؛ كما قال ﷺ: **(عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّه خَيرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا له، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)**؛ رواه مسلم(١).

وقد أرشَدَ اللهُ عبادَهُ إلى الحالِ التي ينبغي أن يكونوا عليها عند المصيبة، وإلى الذِّكْرِ الذي ينبغي أن يقولَهُ المُصابُ؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة].

(١) تقدم تخريجه (ص١٩٨).

فأخبرَ سبحانه في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه يبتلي عبادَهُ بالمِحَن؛ لِيَتَبَيَّنَ الصادقُ مِنَ الكاذبِ، والجازعُ مِنَ الصابرِ، والمُوقِنُ مِنَ المُرْتابِ، وذَكَرَ أنواعًا مِمَّا يبتليهم به، فهو يبتليهم بشيءٍ مِنَ الخوف؛ أي: مِنَ الأعداءِ، والجوعِ؛ أي: بنقصِ الطعامِ والغذاء، ونَقْصٍ من الأموال، وهو يَشْمَلُ جميعَ أنواعِ النقصِ المعتري للأموال، سواءٌ بالجوائحِ السماويَّة، أو الغَرَق، أو الضَّيَاع، أو السَّلْب، أو غيرِ ذلك، ويبتليهم كذلك بنقصِ الأنفسِ بِذَهَابِ الأحبابِ من الأولادِ والأقاربِ والأصحاب، ويَدْخُلُ تحتَ هذا ما يُصِيبُ البَدَنَ من أنواعِ الأمراضِ والأسقام، ويبتليهم كذلك بنقصِ الثَّمَرَاتِ مِنَ الحبوبِ وثمارِ النخيلِ والأشجار، وهي أمورٌ لا بدَّ وأن تَقَعَ؛ لأنَّ العليمَ الخبيرَ أخبَرَ بوقوعها، وحظُّ الإنسانِ مِنَ المصيبةِ هو ما تُحْدِثُ له مِنْ أثرٍ، فمَنْ رَضِيَ فله الرِّضَا، ومن سَخِطَ فله السَّخَط؛ ولهذا لا بدَّ أن يَعْلَمَ المصابُ أنَّ الذي ابتلاه بمصيبتِهِ هو أحكمُ الحاكمين، وأرحمُ الراحمين، وأنَّه سبحانه لم يُرْسِلْ بلاءَهُ عليه لِيُهلِكَهُ ولا ليعذِّبَهُ، وإنَّما ابتلاه ليمتحنَ صبرَهُ ورضاه وإيمانَهُ، وليسمعَ تضرُّعَهُ وابتهالَهُ ودعاءَهُ، ولِيَرَاهُ طريحًا ببابه، لائذًا بِجَنَابه، مكسورَ القلبِ بين يديه، رافعًا يدي الضَّرَاعةِ إليه، يشكو بَثَّهُ وحُزْنَهُ إليه؛ فينالَ بذلك عظيمَ موعود الله، وجزيلَ عطائه، ووافرَ آلائِهِ ونعمائه، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة]؛ فما أوسعَهُ مِنْ فضلٍ! وما أكرمَهُ من عَطاء! **يقول عمر بنُ الخَطَّاب** رضي الله عنه: «نِعْمَ العِدْلَان، ونعمتِ العَلَاوة».

لقد جعَلَ اللهُ هذه الكلمةَ كلمةَ الاسترجاع، وهي قول المُصاب: **(إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)**: ملجأً وملاذًا لذوي المصائب، وعِصْمةً للمُمْتَحَنين، فإذا لَجأَ المُصابُ إلى هذه الكلمةِ الجامعةِ لمعاني الخيرِ والبركةِ، سكَنَ قلبُه، واطمأنَّتْ نفسُه، وهدأ بالُه، وعوَّضَهُ اللهُ في مصيبتِهِ خيرًا.

روى مسلم في «صحيحه»، عن أم سَلَمة رضي الله عنها، أنَّها قالت: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **(مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولَ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ**

رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ آجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا آجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا)، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أبو سَلَمَةَ، قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ؛ رَسُولَ اللهِ ﷺ»[1]؛ **أي**: إنَّ اللهَ أكرَمَها، فتزوَّجَتْ رسولَ الله ﷺ.

ومَنْ يَتأمَّلُ هذه الكلمةَ العظيمةَ كلمةَ الاسترجاعِ، يجدُ أنَّها مشتملةٌ على علاجٍ عظيمٍ لذوي المصائب، بل فيها لهم أبلغُ علاجٍ وأنفعُهُ في الحالِ والمآل، وكَم لهذه الكلمةِ مِنَ الآثارِ الحميدة، والعواقبِ الرشيدة، والنتائجِ العظيمةِ في الدنيا والآخرة، ويكفي في هذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٧]، لكنْ مع قولها لا بُدَّ مِنْ فهمِ مدلولها، وتحقيقِ مقصودها؛ لِيَحْظَى العبدُ بهذا الموعودِ الكريم، والثوابِ العظيم.

وقد تَضمَّنتْ هذه الكلمةُ أصلَيْنِ عظيمَيْنِ، إذا حَقَّقَهما العبدُ علمًا وعملًا تَسَلَّى عن مصيبته، ونال عظيمَ الثواب، وجميلَ المآب:

أمَّا الأصلُ الأوَّل: فهو أن يَتحقَّقَ العبدُ أنَّ نفسَهُ وأهلَهُ ومالَهُ وولَدَهُ مِلْكٌ لله ﷻ، فهو الذي أَوْجَدَهم من العَدَم، ويَتصرَّفُ فيهم بما شاء، ويحكُمُ فيهم بما يريد، لا مُعقِّبَ لحُكْمه، ولا رادَّ لقضائه؛ وهذا مستفادٌ من قوله: (**إِنَّا للهِ**)؛ **أي**: نحنُ مماليكُ له، وتحت تصرُّفِهِ وتدبيرِهِ، هو ربُّنا ونحنُ عبيدُه، وكلُّ شيءٍ واقعٌ علينا فبقضائه وقدره، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحَديد: ٢٢].

والأصل الثاني: أن يَعْلَمَ العبدُ أنَّ مصيرَهُ ومَرْجِعَهُ إلى الله؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النّجم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العَلق: ٨]، فلا بُدَّ للعبدِ أن يُخَلِّفَ الدنيا وراءَ ظَهْرِه، ويأتيَ رَبَّهُ يومَ القيامةِ فردًا كما خَلَقَهُ أَوَّلَ مَرَّة، بلا أهلٍ ولا مالٍ ولا عشيرة، وإنَّما يأتيه بالحسناتِ

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٩١٨).

والسيِّئات، وهذا مستفادٌ مِنْ قوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وهو إقرارٌ من العبدِ بأنَّه راجعٌ إلى الله، وأنَّه سبحانه سيُجازِيهِ على ما قَدَّمَ في هذه الحياة، وعندئذٍ يَتَّجِهُ إلى شَغْلِ نفسِهِ بما ينفعُهُ عندَ لقاءِ الله، فإذا قالَها المصابُ على هذا الوصفِ مُسْتحضِرًا لمعناها، مُحقِّقًا لمدلولها ومقتضاها، هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم.

روى أبو نُعَيْم في «الحِلْية»، **عن الحَسَن بن علي العابد، قال**: «قال الفُضَيْلُ بن عِيَاضٍ لرجلٍ: كم أَتَتْ عليك؟ قال: سِتُّونَ سنةً، قال: فأنتَ منذ ستينَ سنةً تسيرُ إلى رَبِّكَ تُوشِكُ أن تَبْلُغَ، فقال الرَّجُلُ: يا أبا عليٍّ، **إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**، قال له الفُضَيْلُ: تعلمُ ما تقول؟ فقال الرجلُ: قلتُ: **إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**، قال الفضيل: تَعْلَمُ ما تَفْسِيرُه؟ قال الرَّجُلُ: فَسِّرْهُ لنا يا أبا عليٍّ، قال: قولُك: إنَّا لله، تقول: أنا لله عبدٌ، وأنا إلى اللهِ راجعٌ، فمَنْ عَلِمَ أنَّه عبدُ اللهِ وأنَّه إليه راجعٌ، فلْيَعْلَمْ بأنَّه موقوفٌ، ومَنْ عَلِمَ بأنَّه موقوفٌ، فليعلمْ بأنَّه مسؤولٌ، ومَنْ عَلِمَ أنَّه مسؤولٌ، فلْيُعِدَّ للسؤالِ جوابًا، فقال الرجل: فما الحِيلَةُ؟ قال: يَسِيرة، قال: ما هي؟ قال: تُحْسِنُ فيما بَقِيَ، يُغْفَر لك ما مَضَى؛ فإنَّك إن أسأتَ فيما بَقِيَ أُخِذْتَ بما مَضَى وما بَقِي»[1].

وفي هذا دَلَالةٌ على عِظَمِ اهتمامِ السَّلَفِ رحمهم الله بمعاني الأذكار، ومعرفةِ دَلَالاتها، وتحقيقِ مَقَاصِدِها وغاياتها، وتأكيدِهِمْ على هذا الأمرِ العظيم؛ لتتحقَّقَ للعبدِ ثِمَارُها، وتَظْهَرَ فيه آثارُها، وتَتَوَافَرَ له خيراتُها وبركاتها.

❁ ❁ ❁

(١) «حِلْية الأولياء» (٨/ ١١٣).

١٥٤

مَا يَقُولُهُ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ

الكلامُ هنا سيكونُ ـ بإذنِ الله ـ عـن الدُّعَـاءِ الـذي يستحـبُّ للمسلـم أن يَدْعُوَ به إذا كان عليه دَيْنٌ؛ روى الترمذي في «جامعه»، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أَنَّ مُكَاتَبًا جَاءَهُ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَجزْتُ عَنْ كِتَابَتِي، فَأَعِنِّي؟ قَالَ: أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ الله ﷺ، لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ ثَبِيرٍ دَيْنًا، أَدَّاهُ اللهُ عَنْكَ؟ قَالَ: قُلِ: (**اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ**)»[١].

فهذا دعاءٌ عظيمٌ يقولُهُ مَنْ عليه دَيْنٌ وهو عاجزٌ عن أدائه، فإذا قالَهُ واعتنى به، أَدَّاهُ اللهُ عنه مهما كان حَجْمُ الدَّيْن، ولو كان مثلَ الجَبَل، كما مَرَّ في الحديث؛ لأنَّ التيسيرَ بيدِ الله، وخزائنُهُ سبحانه مَلْأَى، لا يَغِيضُها نفقةٌ، فمَنِ التَجأ إليه كفاه، ومَنْ طلَبَ العَوْنَ منه أعانه وهداه.

وهذا المُكَاتَبُ جاء إلى عليٍّ رضي الله عنه يشكو عجزَهُ وعَدَمَ قُدرتِهِ على أداءِ ما تَحَمَّلَهُ مِنْ مالٍ لسيِّدِهِ لِيُعْتِقَهُ، فأرشدَهُ رضي الله عنه إلى هذا الدعاءِ العظيمِ الذي سمعَهُ من رسول الله ﷺ، وبيَّن له عِظَمَ فائدتِهِ، وكِبَرَ عائدتِهِ على قائله، وأنَّ الله يقضي عنه دينَهُ مهما كَثُرَ، قال: «أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ ثَبِيرٍ دَيْنًا، أَدَّاهُ اللهُ عَنْكَ»، وهذا فيه تشويقٌ عظيمٌ وترغيبٌ للسامع، وحثٌّ على المواظبةِ على هذا الدعاءِ المباركِ؛ لِيتخلَّصَ العبدُ مِنَ الدَّيْنِ الذي تَحمَّلَهُ، ومِنْ هَمِّه الذي كَدَّرَ بالَهُ وأشغله.

وقوله: (**اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ**)؛ يقال: كَفَاهُ الشيءُ كفايةً؛

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ١٥٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٦٣)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٨٢٠).

أي: استغْنَى به عن غيره، فهو يسألُ اللهَ أنْ يجعلَهُ مكتفيًا بالحلال، مستغنيًا به عن الحرام.

وقوله: **(وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ)**؛ أي: واجعَلْ فضلَكَ ـ وهو ما تَمُنُّ به عليَّ من نعمةٍ وخيرٍ ورزق ـ مغنيًا لي عمَّن سواك، فلا أفتقرُ إلى غيرك، ولا ألتجئُ إلى أحدٍ سواك.

وهذا فيه أنَّ العبدَ ينبغي أن يكونَ مُفوِّضًا أمرَهُ إلى الله، معتمدًا عليه وَحْدَهُ، مستعينًا به سبحانه، متوكِّلًا في جميعِ أمورِهِ عليه، وكفى به سبحانه وكيلًا.

ولا بدَّ مع الدعاءِ مِنْ بذلِ السَّبَب، والسَّعْي الجادِّ لسدادِ الدَّيْن، والعزمِ الصادقِ على الوفاءِ به، والمبادرةِ إلى ذلكَ في أقربِ وقتٍ يَتَهَيَّأُ فيه السَّدَادُ، والحذرِ الشَّديدِ من المُماطَلَةِ والتَّسويف؛ فإنَّ مَنْ كان كذلك، فحَرِيٌّ به أن لا يُعان، أمَّا مَنْ حَمَلَ في قلبه هَمَّ الدَّيْن، وكانت له نِيَّةٌ صادقةٌ في أدائِهِ، أعانَهُ الله، وأدَّى عنه دَيْنَهُ.

روى البخاري، عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ)**[١].

وروى الإمام أحمد، عن عائشة ﵂، قالت: قال رسول الله ﷺ: **(مَا مِنْ عَبْدٍ كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ فِي أَدَاءِ دَيْنِهِ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنَ اللهِ عَوْنٌ)**[٢].

وروى النسائي، عن مَيْمونةَ ﵂، عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قال: **(مَا مِنْ أَحَدٍ يَدَّانُ دَيْنًا، فَعَلِمَ اللهُ أَنَّهُ يُرِيدُ قَضَاءَهُ إِلَّا أَدَّاهُ اللهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا)**[٣].

فإنْ صَدَقَ العبدُ في عَزْمِهِ وصَلُحَتْ نيَّتُهُ، تَيَسَّرَتْ أمورُه، وأتاه اللهُ باليُسْرِ

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٣٨٧).
(٢) «المسند» (٦/ ٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٨٠١).
(٣) «سنن النسائي» (٧/ ٣١٥)، ورواه ابن ماجه رقم (٢٤٠٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٧٧).

والفَرَج مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِب، ومَن صَحَّ توكُّلُهُ على الله، تَكَفَّلَ اللهُ بعونه، وسَدَّدَ أَمْرَه، وقَضى دَيْنَه.

روى البخاري في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ: **(أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، قَالَ: فَائْتِنِي بِالكَفِيلِ، فَقَالَ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ عَلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي البَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَها فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا** [أي: سَوَّى موضعَ النَّقْرِ وأَصْلَحَهُ]**، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى البَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَإِنِّي جَهِدتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ، فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي البَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا المَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا** [أي: قَطَعَهَا بالمِنْشَار]**، وَجَدَ المَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا)**(١).

فهذه قِصَّةٌ عجيبة ذَكَرَها رسولُ الله ﷺ عن هذا الرَّجُلِ من بني إسرائيل؛ لِنَتَّعِظَ بها ونَعْتَبِرَ، ولِنَعْلَمَ كمالَ قدرةِ الله، وتمامَ عَوْنه، وحُسْنَ كفايتِهِ لعبده، إذا أحسَنَ الالتجاءَ إليه، وصَدَقَ في الاعتمادِ عليه، وتَأَمَّلْ كمالَ التوفيقِ حيثُ لم تقعْ

(١) «صحيح البخاري» رقم (٢٢٩١).

هذه الخَشَبةُ المُشْتمِلةُ على المالِ إلَّا في يَدِ صاحبه؛ فتبارَكَ اللهُ العليمُ القدير.

ولا ينبغي للمسلمِ أن يستهينَ بأمر الدَّيْن، أو يُقَلِّلَ مِنْ شأنه، أو يتهاونَ في سَدَادِه؛ فقد ورَدَ في السُّنَّةِ أحاديثُ عديدةٌ تفيدُ خطورةَ ذلك، وتَدُلُّ على أنَّ نفسَ المؤمنِ معلَّقةٌ بالدَّيْن، وأنَّ المَيِّتَ محبوسٌ بِدَيْنِهِ حتى يُقْضَى عنه.

روى الإمام أحمد، عن سَعْد بن الأطول ﷺ، قال: «ماتَ أخي، وتَرَكَ ثَلاثَمِائةِ دينارٍ، وتَرَكَ وَلَدًا صِغَارًا، فأردتُ أن أُنْفِقَ عليهم، فقال لي رسولُ الله ﷺ: **(إِنَّ أَخَاكَ مَحْبُوسٌ بِدَيْنِهِ، فَاذْهَبْ فَاقْضِ عَنْهُ)**، قال: فذَهَبْتُ فقَضَيْتُ عنه، ثم جِئْتُ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، قد قَضَيْتُ عنه، ولم يَبْقَ إلَّا امرأةٌ تَدَّعِي دِينَارَيْنِ، وليستْ لها بَيِّنةٌ، قال: **(أَعْطِهَا، فَإِنَّهَا صَادِقَةٌ)**»(١).

وروى أيضًا من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ مَا كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ)**(٢).

ولهذا فإنَّ الواجبَ على المسلم إذا كان عليه دَيْنٌ أن يُبادِرَ إلى سدادِهِ قبل أن يَبْغَتَهُ الموتُ، فتُحْبَسَ نفسُهُ بدَيْنِه، ويكونَ مرتهَنًا به، وإذا لم يكن عليه دَيْنٌ، فلْيَحْمَدِ اللهَ على العافية، وليتحاشَ الاستدانةَ ما لَمْ يكنْ لها حاجةٌ داعيةٌ أو ضَرورةٌ مُلِحَّةٌ؛ ليسلمَ مِنْ هَمِّ الدَّيْن، وليريحَ نفسَهُ مِنْ عواقبه، وليكونَ في أَمَنَةٍ من مَغَبَّته.

ففي «المسند»، من حديث عُقْبة بن عامر، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**(لَا تُخِيفُوا أَنْفُسَكُمْ بَعْدَ أَمْنِهَا)**، قالوا: وما ذلك يا رسولَ اللهِ؟ قال: **(الدَّين)**»(٣).

أي: لا تسارعوا إلى الدَّيْنِ، فتُخِيفُوا أنفسَكم مِنْ توابعِهِ وعواقِبه، ونسألُ اللهَ العافيةَ والسلامةَ والهدايةَ إلى كلِّ خير.

---

(١) «مسند أحمد» (٤/ ١٣٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٥٥٠).

(٢) «مسند أحمد» (٢/ ٤٤٠)، ورواه الترمذي رقم (١٠٧٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٤١٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٨١١).

(٣) «مسند أحمد» (٤/ ١٤٦)، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٤٢٠).

١٥٥

الأَذْكَارُ الَّتِي تَطْرُدُ الشَّيْطَانَ

لقد وَرَدَ في نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ أذكارٌ مباركةٌ، وأدعيةٌ نافعةٌ، تَطْرُدُ الشيطانَ، وتباعدُهُ عن العبدِ المؤمن، ويكونُ بمواظبَتِهِ ومحافظتِهِ عليها في حِصْنٍ حَصين، وحِرْزٍ مَكِين، يقيه ـ بإذن الله ـ من الشيطانِ الرجيم، فلا يَخْلُصُ إليه، ولا يَجِدُ سبيلًا إلى إيذائِهِ أو إغوائه؛ إذْ لا سبيلَ للشيطانِ على المُوَاظِبِ على ذِكْرِ الله، المُقْبِلِ على طاعةِ الله، وإنَّما سبيلُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ، وسلطانُهُ على الذين يُصْغُونَ إلى إغوائِهِ ووساوسِهِ ويطيعونَهُ؛ ولهذا فإنَّ الحريَّ بالمؤمنِ أن يواظبَ على ما جاءتْ به الشريعةُ مِنْ أذكارٍ وأدعيةٍ تَحْمِي العبدَ من الشيطانِ، وتقيه مِنْ كيدِهِ وشرِّه.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون]، ويقولُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٦].

والاستعاذةُ هي: طلبُ العَوْذِ؛ يقالُ: عُذْتُ به، واستَعَذْتُ به؛ **أي**: لَجَأْتُ إليه، واستَجَرْتُ به، واعتَصَمْتُ به، **والاستعاذةُ بالله مِنَ الشيطانِ**: سؤالُ لله، وطَلَبٌ منه سبحانه أن يُعِيذَ العبدَ مِنَ الشيطان، ويحميَهُ منه، ويقيَهُ مِنْ شرِّه، ومَنِ استعاذَ باللهِ أعاذه، ومَنِ اعتَصَمَ به هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم. وعليه، فإنَّ الاستعاذةَ باللهِ تَطْرُدُ الشيطانَ، وتُحَصِّنُ العبدَ.

روى مسلم في «صحيحه»، عن أبي الدرداء ﵁، قال: «قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: **(أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ)**، ثُمَّ قَالَ: **(أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ)** ثَلَاثًا، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ

يَدَكَ؟ قَالَ: (**إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدتُ أَخْذَهُ، وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ، لأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ المَدِينَةِ**)»[١].

وروى أيضًا عن عُثْمان بن أبي العاص الثَّقَفِيِّ ﷺ: «أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خِنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفُلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**)، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي»[٢].

وقوله: (**يَلْبِسُهَا عَلَيَّ**)؛ **أي**: يَخْلِطُها عليَّ، ويُشَكِّكُني فيها.

وفي «الصحيحين»، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**)[٣].

فهذه النصوصُ ظاهرةُ الدَّلَالةِ على عِظَمِ شأنِ الاستعاذة، وأنها تَطْرُدُ الشيطانَ، وتَقِي العبدَ منه، ويسلمُ بها مِنْ كيدِهِ ووساوسِهِ وشرِّه.

* **ومِمَّا يَطْرُدُ الشيطانَ**: الأذانُ؛ فإنَّ الشيطانَ إذا سَمِعَهُ وَلَّى وأَدْبَر؛ ففي «الصحيحَيْن»، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ النِّدَاءُ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ**)[٤].

وفي «صحيح مسلم»، عن سُهَيْل بن أبي صالح، قال: «أَرْسَلَنِي أَبِي إِلَى بَنِي حَارِثَةَ، قَالَ: وَمَعِي غُلَامٌ لَنَا أَوْ صَاحِبٌ لَنَا، فَنَادَاهُ مُنَادٍ مِنْ حَائِطٍ بِاسْمِهِ،

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٥٤٢).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٢٠٣).
(٣) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٧٦)، و«صحيح مسلم» رقم (١٣٤).
(٤) تقدم تخريجه (ص٥٩١).

قَالَ: وَأَشْرَفَ الَّذِي مَعِي عَلَى الحَائِطِ، فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي، فَقَالَ: لَوْ شَعَرْتُ أَنَّكَ تَلْقَى هَذَا، لَمْ أُرْسِلْكَ، وَلَكِنْ إِذا سَمِعْتَ صَوْتًا، فَنَادِ بِالصَّلَاةِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ ﵁ يُحدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **(إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ، وَلَّى وَلَهُ حُصَاصٌ)**»[1].

و**(الحُصَاصُ)**؛ **أي**: الضُّرَاطُ، **وقيل**: شدةُ العَدْوِ.

* **ومِمَّا يقي العبدَ مِنَ الشيطان ويَطْرُدُهُ عنه**: مواظبتُهُ على ذكرِ اللهِ في كلِّ أحواله؛ عندَ الدخولِ، وعندَ الخروجِ، وعندَ الركوبِ، وعندَ النومِ، وغيرِ ذلك.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ويقول: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزّخرف: ٣٦].

وفي «المسند»، و«جامع الترمذي»، بإسناد صحيح، عن الحارث الأشعري، عن النَّبِيِّ ﷺ، أنَّه قال: **(إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّه كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ عِيسَى ﵇: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أن يَعْمَلُوا بِهَا، فإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وإِمَّا أَنْ آمُرَهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، فَامْتَلأَ المَسْجِدُ، وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ...)** فَذَكَرَ أَمْرَهُمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالصَّدَقَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ الكَلِمَةَ الخَامِسَةَ، فَقَالَ: **(وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لا يَحْرُزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ ...)**[2].

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٣٨٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٧).

وفي «الصحيحين»، عن جابر رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: **(إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ، أَوْ كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ، فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا)**(١).

فالمسلمُ إذا كان ذاكرًا ربَّه في كلِّ أحايينه، فإنَّه يَسْلَمُ مِنْ أذى الشيطانِ، ومِنْ أن يَحْضُرَهُ، فلا يَخْلُصُ إليه لا وسوسةً ولا حضورًا للمكانِ الذي هو فيه؛ كما تَقدَّمَ في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون].

وقد سبَقَ أنْ مَرَّ معنا أنواعٌ مِنَ الأذكارِ مَنْ قَالَها حُفِظَ مِنَ الشيطان؛ كالتسميةِ عندَ دخولِ المَنْزِلِ، وعندَ تناولِ الطَّعَام، وكقراءةِ آيةِ الكرسيِّ عندما يَأْوِي المسلمُ إلى فراشِهِ، فإذا قَرَأَها لَمْ يَزَلْ عليه مِنَ اللهِ حافظٌ، ولا يَقْرَبُهُ شيطانٌ حتى يصبح، ومَنْ قال إذا أصبَحَ: **(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**، عَشْرَ مَرَّاتٍ، كان فِي حِرْزٍ مِنَ الشيطانِ حتَّى يُمْسِيَ، ومَنْ قَالَهَا إِذَا أَمْسَى، كان في حِرْزٍ مِنَ الشيطانِ حتى يُصْبِحَ، ومَنْ قَرَأَ الآيتَيْنِ مِنْ آخرِ سورةِ البَقَرةِ في ليلةٍ، كَفَتَاهُ؛ **أي**: من كلِّ شَرٍّ، ومِنْ ذلك شَرُّ الشيطان، وإذا قال المسلمُ عند خروجِهِ من مَنْزِلِهِ: **(بِاسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، تَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ)**، إلى غير ذلك من الأذكارِ المباركةِ المأثورةِ في سُنَّةِ النَّبِيِّ الكريمِ، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ وبركاتُهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين.

❁ ❁ ❁

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٨٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٠١٢). (اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ)؛ **أي**: أقبل، (جُنْحُ اللَّيْلِ)؛ **أي**: ظلامه.

١٥٦

مَا يُرْقَى بِهِ الْمَرِيضُ

لقد جاء في السُّنَّةِ المطهَّرةِ أنواعٌ مِنَ الأذكارِ والأدعيةِ يُشْرَعُ أن يُرْقَى بها المريضُ، وقد جعَلَها اللهُ سببًا للشِّفَاءِ والعافية، وسأتناولُ طائفةً مباركةً مِنْ هذه الأذكارِ والأدعية. وإنَّ أعظمَ ما يُرْقَى به المريضُ: فاتحةُ الكتابِ أم القرآن؛ فإنَّها كافيةٌ شافيةٌ؛ ففي «الصحيحين»، عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه: «أَنَّ رَهْطًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ انْطَلَقُوا فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ قَدْ نَزَلُوا بِكُمْ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، فَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ وَاللهِ، إِنِّي لَرَاقٍ، وَلَكِنْ وَاللهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانْطَلَقَ، فَجَعَلَ يَتْفُلُ وَيَقْرَأُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، حَتَّى لَكَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي مَا بِهِ قَلَبَةٌ [أي: أَلَمٌ وَعِلَّةٌ]، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: **(وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ)**»[(١)].

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٧٤٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٢٠١).

فدلَّ هذا الحديثُ على عِظَم شأنِ هذه السورة، وأنَّ لها تأثيرًا عظيمًا في شفاءِ المريض، وزوالِ علَّتِهِ بإذنِ الله.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ **في التعليقِ على هذا الحديث:** «فقد أَثَّرَ هذا الدواءُ في هذا الداءِ وأَزَالَهُ، حتى كأنَّه لَمْ يكن، وهو أسهلُ دواءٍ وأيسرُهُ، ولو أحسنَ العبدُ التداويَ بالفاتحةِ، لَرَأَى لَهَا تأثيرًا عجيبًا في الشِّفَاء، ومَكَثْتُ بمكَّةَ مدةً يعترينِي أدواءٌ ولا أجدُ طبيبًا ولا دواءً، فكنتُ أعالجُ نفسي بالفاتحةِ، فأَرَى لها تأثيرًا عجيبًا، فكنتُ أَصِفُ ذلكَ لِمَنْ يشتكي أَلَمًا، فكان كثيرٌ منهم يَبْرَأُ سريعًا»[(١)] اهـ.

ومِمَّا يُرْقَى به المريضُ: المعوِّذاتُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ففي «الصحيحين»، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إذا اشْتَكَى، يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ، كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا»[(٢)].

وفي «صحيح مسلم» عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كان رسولُ الله ﷺ إذا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ، نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ»[(٣)].

وقولها: «بالمعَوِّذاتِ»؛ **أي**: الإخلاصِ، والفَلَقِ، والناس، ودخَلَتْ سورةُ الإخلاصِ معهما تغليبًا لِمَا اشتَمَلَتْ عليه مِنْ صفةِ الرَّبِّ، وإنْ لَمْ يُصَرِّحْ فيها بلفظِ التعويذ[(٤)].

وقد دَلَّ الحديثُ على عِظَم شأنِ هذه السُوَرِ الثلاث، وأنَّها رُقْيةٌ وشفاءٌ للوَجَعِ بإذنِ الله، وقد ورَدَ في شأنِ هذه السُوَرِ أحاديثُ كثيرةٌ تَدُلُّ على عِظَمِ شأنها، وسُورَتَا المعوِّذتَيْنِ لهما تأثيرٌ عظيمٌ، لا سِيَّما إنْ كان المرضُ ناشئًا عن سِحْرٍ أو عَيْنٍ، أو نحوِ ذلك.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ **في مقدِّمة تفسيره للمعوذتَيْنِ:** «والمقصودُ: الكلامُ

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٥).
(٢) تقدم تخريجه (ص٥٢٢).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢١٩٢).
(٤) **انظر**: «فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٦٢).

على هاتَيْنِ السورتَيْنِ، وبيانُ عظيم منفعتهما، وشدةِ الحاجةِ بل الضرورةِ إليهما، وأنَّه لا يستغني عنهما أحدٌ قَطُّ، وأنَّ لهما تأثيرًا خاصًّا في دفعِ السِّحْرِ والعَيْنِ وسائرِ الشُّرُور، وأنَّ حاجةَ العبد إلى الاستعاذة بِهاتَيْنِ السورتَيْنِ أعظمُ مِن حاجتِهِ إلى النَّفَسِ والطَّعَامِ والشَّرَابِ واللِّبَاس»[1]، ثمَّ بسَطَ الكلامَ عليهما بسطًا عظيمَ النفعِ والفائدة.

ومـمَّـا يُـرقـى بـه الـمـريـضُ مـا ثـبَـتَ فـي «صـحـيـح مـسـلـم»، عـن عُثْمان بن أبي العاص، أنَّه شَكَا إلى رسولِ اللهِ ﷺ وَجَعًا في جَسَدِهِ منذُ أَسْلَمَ، فقال له رسولُ الله ﷺ: (**ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِن جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**)[2].

وقوله: (**مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**)؛ **أي**: مِنْ شرِّ ما أَجِدُ مِنْ وَجَعٍ وأَلَمٍ، ومِنْ شرِّ ما أحاذرُ مِنْ ذلك؛ **أي**: ما أخافُ وأَحْذَر.

وهذا فيه التعوُّذُ مِنَ الوجعِ الذي هو فيه، والتعوُّذُ مِنَ الوجعِ الذي يَخافُ حصولَهُ، أو يَتوقَّعُ حصولَهُ في المستقبل، ومِنْ ذلك تفاقُمُ المرضِ الذي هو فيه وتزايُدُهُ، وهذا يحصُلُ للإنسانِ كثيرًا عندما يصابُ بمرضٍ، فإنَّه قد ينتابُهُ شيءٌ مِنَ القَلَقِ تخوُّفًا مِنْ تزايُدِ المرضِ وتفاقمِهِ؛ وفي هذا الدعاءِ العظيمِ تَعوُّذٌ باللهِ من ذلك.

وثبت في «صحيح مسلم»، عَنْ أبي سَعِيدٍ الخُدْري رضي الله عنه: (**أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يا مُحَمَّدُ، اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**)[3].

وثبت في «الصحيحين»، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ

(١) **انظر**: «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ١٩٩).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٢٠٢).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢١٨٦).

أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِهِ اليُمْنَى، وَيَقُولُ: **(اللَّهمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذْهِبِ البَاسَ، وَاشْفِهِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا)**»[(١)]، وفي روايةٍ عنها قالت: «كان رَسُولُ الله ﷺ إذا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ مَسَحَهُ بيمينِهِ، ثُمَّ قَالَ... وذَكَرَتِ الدعاءَ[(٢)]، وفي روايةٍ قالتْ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كان يَرْقِي بِهَذِهِ الرُّقْيَةِ... وذَكَرَتْهُ»[(٣)].

وفي «صحيح البخاري»، عن عبد العزيز بن صُهَيْب، قال: «دَخَلْتُ أنا وثابتٌ على أنسِ بنِ مالك، فقال ثابتٌ: يا أبا حَمْزَةَ، اشْتَكَيْتُ، فقال أنسٌ: أَلَا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رسولِ اللهِ ﷺ؟ قال: بَلَى، قال: **(اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ البَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا)**»[(٤)].

قوله: **(اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ)**، فيه التوسُّلُ إلى اللهِ بربوبيَّتِهِ للنَّاسِ أجمعين؛ بِخَلْقِهم، وتدبيرِ شؤونهم، وتصريفِ أمورهم، فَبِيَدِهِ سبحانه الحياةُ والمَوْتُ، والصحةُ والسَّقَم، والغنى والفقر، والقُوَّةُ والضعف.

وقوله: **(أَذْهِبِ البَاسَ)**، **والبَاسُ هو**: التَّعَبُ والشدَّةُ والمرضُ، وهو هنا بغيرِ هَمزةٍ مراعاةً للازدواجِ والمؤاخاة.

وجاء في حديث أنس: **(اللَّهُمَّ ربَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ البَاسِ)**، وفي هذا التوسُّلُ إلى اللهِ سبحانه بأنَّه وحدَهُ المُذْهِبُ للبأس، فلا ذهابَ للبأسِ عن العبدِ إلَّا بإذنِهِ ومشيئتِهِ سبحانه.

وقوله: **(واشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي)**، فيه سؤالُ اللهِ الشفاءَ، وهو العافيةُ والسلامةُ من المرض، وقوله: **(وَأَنْتَ الشَّافِي)**: توسُّلٌ إلى الله سبحانه بأنَّه

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٣٠).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢١٩١).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢١٩١).

(٤) «صحيح البخاري» رقم (٥٧٤٢).

الشافي الذي بيده الشفاءُ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٠].

وقوله: (لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ)، فيه تأكيدٌ لِمَا سبَقَ، وإقرارٌ بأنَّ العلاجَ والتداوي إنْ لَمْ يوافقْ إذنًا مِنَ اللهِ بالعافيةِ والشِّفَاء؛ فإنَّه لا ينفعُ ولا يُجْدِي.

وقوله: (شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا)؛ أي: لا يتركُ مَرَضًا ولا يخلِّفُ عِلَّةً، والفائدةُ مِنْ هذا أنَّ الشفاءَ مِنَ المَرَضِ قد يَحْصُل، ولكنْ قد يَخْلُفُهُ مرضٌ آخرُ يَتَوَلَّدُ منه وينشأُ بسببه، فسأَلَ اللهَ أن يكونَ شفاؤُهُ مِنَ المَرَضِ شفاءً تامًّا لا يبقى معه أثرٌ، ولا يخلِّفُ في المريضِ أيَّ علَّةٍ، وهذا مِنْ تَمامِ الدعواتِ النبويَّةِ وكمالها ووفائها.

❋ ❋ ❋

١٥٧

التَّعَوُّذُ مِنَ السِّحْرِ وَالْعَيْنِ وَالحَسَدِ

إنَّ مِنَ الأدواءِ الفَتَّاكة، والشَّرِّ العظيم: ما يكونُ في الإنسانِ مِنْ مَرَضٍ بسببِ السِّحْرِ أو العينِ أو الحَسَد. والسِّحْرُ له تأثيرٌ بالغٌ في المسحور؛ فقد يُمْرِضُ وقد يَقْتُل، وهكذا الشأنُ في عَيْنِ الحاسدِ إذا تَكَيَّفَتْ نفسُهُ بالخُبْث، واستجمَعَ في قلبِهِ الشَّرُّ؛ فإنَّه يَضُرُّ بالمحسود، فربَّما أمرضَهُ، وربَّما قتَلَهُ، فالسِّحْرُ له حقيقةٌ وتأثير، والحَسَدُ له حقيقةٌ وتأثير.

وإنَّ مِنْ نِعْمةِ اللهِ على عبدِهِ المؤمنِ أنْ هَيَّأَ له أسبابًا مباركةً، وأمورًا نافعةً، يندفعُ بها عنه شَرُّ هؤلاء، ويزولُ بها عنه ضُرُّهُمْ والبلاءُ النازلُ به بسببهم. **وقد أَجْمَلَ العلَّامة ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللهُ **ذلك في عَشَرةِ أسبابٍ عظيمة، إذا قام بها العبدُ وطَبَّقَها، زالَ عنه شَرُّ الحاسدِ والعائنِ والسَّاحِرِ:**

السَّبَبُ الأول: التعوُّذُ باللهِ مِنْ شَرِّه، والتَّحصُّنُ به، واللَّجأُ إليه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

واللهُ تعالى سميعٌ لِمَن استعاذَ به، عليمٌ بما يستعيذُ منه، قادرٌ على كلِّ شيء، وهو وحدَهُ المستعاذُ به، لا يُستعاذُ بأحدٍ مِنْ خلقه، ولا يُلْجَأُ إلى أحدٍ سواه، بل هو الذي يعيذُ المستعيذين، ويَعْصِمُهم، ويَحْمِيهِمْ مِن شَرِّ ما استعاذوا من شَرِّه.

وحقيقةُ الاستعاذة: الهُرُوبُ مِنْ شيءٍ تَخافُهُ، إلى من يَعْصِمُكَ ويَحْمِيكَ منه، ولا حافظَ للعبدِ ولا معيذَ له إلَّا الله، وهو سبحانه حَسْبُ مَنْ توكَّلَ عليه، وكافي مَنْ لَجأَ إليه، وهو الذي يُؤَمِّنُ خوفَ الخائف، ويُجِيرُ المستجيرَ، وهو نعمَ المولى، ونعمَ النصير.

السبب الثاني: تقوى اللهِ وحفظُهُ عندَ أمرِهِ ونَهْيِهِ؛ فمَنِ اتَّقَى اللهَ تَوَلَّى حِفْظَهُ، ولَمْ يَكِلْهُ إلى غيره؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال النَّبِيُّ ﷺ لعبد الله بن عبَّاس ﵄: **(احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ)**(١)، فمَنْ حفظ اللهَ حفظَهُ اللهُ، ووَجَدَهُ أمامَهُ أينما توجَّه، ومَنْ كان اللهُ حافظَهُ وأمامَهُ، فمِمَّنْ يخافُ ومِمَّنْ يحذر؟!

السبب الثالث: الصَّبْرُ على عدوِّه، وأنْ لَا يقاتلَهُ، ولا يَشْكُوَهُ، ولا يُحدِّثَ نفسَهُ بأذاهُ أصلًا، فما نُصِرَ على حاسدِهِ وعَدُوِّهِ بمثلِ الصَّبْرِ عليه، وكلَّما زاد بغيُ الحاسدِ، كان بغيُهُ جندًا وقوةً للمَبْغِيِّ عليه، يقاتلُ بها الباغي نفسَهُ وهو لا يشعر، فبغيُهُ سهمٌ يرميه من نفسه إلى نفسه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، فإذا صَبَرَ المحسودُ، ولم يَسْتطِلِ الأمرَ، نال حُسْنَ العاقبةِ بإذن الله.

السبب الرابع: التوكُّلُ على الله؛ فمَنْ يَتوكَّلْ على الله فهو حَسْبُهُ، والتوكُّلُ مِنْ أقوى الأسباب التي يدفعُ بها العبدُ ما لا يطيقُ مِنْ أذى الخَلْقِ وظُلْمِهم وعدوانهم، ومَنْ كان اللهُ كافيَهُ، فلا مَطْمَعَ فيه لعدوٍّ، ولو تَوكَّلَ العبدُ على اللهِ حقَّ تَوَكُّلِهِ، وكادَتْهُ السمٰوات والأرضُ ومَنْ فيهنَّ، لَجَعَلَ له مخرجًا من ذلك وكفاه ونَصَرَه.

السبب الخامس: فَرَاغُ القلبِ مِنَ الاشتغالِ به والفكرِ فيه، وأن يَقْصِدَ أنْ يَمْحُوَهُ مِنْ باله كلَّما خَطَرَ له، فلا يلتفتُ إليه، ولا يخافُهُ، ولا يملأُ قلبَهُ بالفكرِ فيه. وهذا من أنفعِ الأدويةِ وأقوى الأسبابِ المُعِينةِ على اندفاعِ شرِّه؛ فإنَّ هذا بِمَنْزلةِ مَنْ يَطْلُبُهُ عَدُوُّهُ ليمسكَهُ ويُؤْذِيَهُ، فإذا لَمْ يَتعرَّضْ له ولا تَماسَكَ هو وإياه، بل انعزَلَ عنه، لَم يَقْدِرْ عليه، فإذا تَماسَكَا وتَعلَّقَ كلٌّ منهما بصاحبِهِ، حصَلَ الشَّرُّ، وهكذا الأرواحُ سواءٌ، فإذا تَعلَّقتْ كلُّ روحٍ منهما بالأخرى، عُدِمَ القرارُ، ودام الشَّرُّ حتى يَهْلِكَ أحدُهما، فإذا جبَذَ روحَهُ عنه وصانَها عن

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٦١).

الفكرِ فيه والتعلُّقِ به، وأخذ يَشْغَلُ بالَهُ بما هو أنفعُ له، بقي الحاسدُ الباغي يأكلُ بعضُهُ بعضًا؛ فإنَّ الحسدَ كالنار، إذا لَم تَجِدْ ما تأكلُهُ أكلَ بعضُها بعضًا.

السبب السادس: الإقبالُ على الله، والإخلاصُ له، وجعلُ محبتِهِ، ونيلِ رضاه، والإنابةِ إليه في كلِّ خواطرِ نفسِهِ وأمانيها، تَدِبُّ فيها دبيبَ تلكَ الخواطرِ شيئًا فشيئًا حتى يَقْهَرَها ويَغْمُرَها ويُذْهِبَها بالكليَّة، فتبقى خواطرُهُ وهواجسُهُ وأمانيه كلُّها في مَحَابِّ الرَّبِّ والتقرُّبِ إليه، وذكرِهِ، والثناءِ عليه؛ قال تعالى عن عدوِّه إبليسَ أنَّه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص]، فالمُخْلِصُ بمثابةِ مَنْ آوى إلى حصنٍ حصين، لا خوفَ على مَنْ تَحَصَّنَ به، ولا ضَيْعَةَ على مَنْ آوى إليه، ولا مَطْمَعَ للعدوِّ في الدُّنُوِّ منه.

السبب السابع: تَجْرِيدُ التوبةِ إلى اللهِ مِنَ الذنوبِ التِي سَلَّطَتْ عليه أعداءَهُ؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشّورى: ٣٠]، فما سُلِّط على العبدِ مَنْ يؤذيه إلَّا بذنبٍ، يَعْلَمُهُ أو لا يعلمُهُ، وما لا يعلمُهُ العبدُ مِنْ ذنوبِهِ أضعافُ ما يعلمُهُ منها، وما ينساهُ مِمَّا عَلِمَهُ وعَمِلَهُ أضعافُ ما يذكره، وفي الدعاء المشهور: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَم**)[1]، فما يحتاجُ العبدُ إلى الاستغفارِ منه مِمَّا لا يعلمُهُ أضعافُ أضعافِ ما يَعْلَمُهُ، فما سُلِّط عليه مُؤْذٍ إلَّا بذنب، وليس في الوجودِ شَرٌّ إلَّا الذنوبُ ومُوجِبَاتُها، فإذا عُوفِيَ من الذنوبِ عُوفِيَ مِنْ مُوجِباتها، فليس للعبدِ إذا بُغِيَ عليه وأُوذِيَ وتَسلَّط عليه خصومُهُ شيءٌ أنفعَ له من التوبةِ النصوحِ مِنَ الذنوبِ التي كانتْ سببًا لِتسلُّطِ عَدُوِّهِ عليه.

السبب الثامن: الصَّدَقَةُ والإحسانُ ما أمكنَهُ؛ فإنَّ لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفعِ البلاء، ودفعِ العَيْنِ وشَرِّ الحاسد، فما يكادُ العينُ والحسدُ والأذى يَتسلَّطُ على مُحْسِنٍ مُتصدِّق، وإن أصابَهُ شيءٌ من ذلك، كان مُعَامَلًا فيه باللُّطْفِ

(١) تقدم تخريجه (ص٤٦٤).

والمعونةِ والتأييد، وكانتْ له فيه العاقبةُ الحميدة، والصدقةُ والإحسانُ مِنْ شُكْرِ النعمة، والشُّكْرُ حارسُ النِّعْمةِ مِنْ كلِّ ما يكونُ سببًا لزوالها.

السبب التاسع: أن يطفئَ نارَ الحاسدِ والباغي والمُؤْذِي بالإحسانِ إليه، فكلَّما ازدادَ أذًى وشرًّا وبغيًا وحسدًا، ازْدَدتَ إليه إحسانًا، وله نصيحةً، وعليه شفقةً؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فُصّلت]، وتَأَمَّلْ في ذلك حالَ النَّبيِّ ﷺ الذي حَكَىٰ عنه نبيُّنا ﷺ أنه ضَرَبَهُ قومُهُ حتى أَدْمَوْه، فجعلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عنه، ويقول: **(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ)**[(١)].

السبب العاشر: تجريدُ التوحيدِ، والترحُّلُ بالفكرِ في الأسبابِ إلى المسبِّبِ العزيزِ الحكيم، والعلمُ بأنَّ كلَّ شيءٍ لا يَضُرُّ ولا ينفعُ إلَّا بإذنِ الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال النَّبيُّ ﷺ لعبد الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما: **(وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ)**[(٢)]؛ فإذا جَرَّدَ العبدُ التوحيدَ، فقد خَرَجَ من قلبه خوفُ ما سواه، وكان عدوُّه أهونَ عليه من أن يَخافَهُ مَعَ الله، بل يُفرِدُ اللهَ بالمَخَافة، ويَرَى أنَّ إعمالَهُ فِكْرَهُ في أمرِ عدوِّه، وخَوْفَهُ منه، واشتغالَهُ به مِنْ نقصِ توحيده، وإلا فلو جَرَّدَ توحيدَهُ، لكان له فيه شغلٌ شاغل، واللهُ يَتولَّى حفظَهُ والدفعَ عنه؛ فإنَّ الله يدافعُ عن الذين آمنوا، فإنْ كان مؤمنًا، فاللهُ يدافعُ عنه ولا بُدَّ، وبِحَسَبِ إيمانِهِ يكونُ دفاعُ الله عنه، فإنْ كَمُلَ إيمانُهُ كان دفاعُ اللهِ عنه أتَمَّ دفع، وإنْ مَزَجَ مَزَجَ له، وإن كان مَرَّةً ومرةً فالله له مَرَّةً ومَرَّة، **كما قال بعضُ السلف**: «مَنْ أقبلَ على اللهِ بكُلِّيَّتِهِ

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٧٧)، ومسلم رقم (١٧٩٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٦١).

أقبَلَ اللهُ عليه جُمْلةً، ومَنْ أعرَضَ عن اللهِ بكليَّتِهِ أعرَضَ اللهُ عنه جُمْلةً، ومَنْ كان مَرَّةً ومَرَّةً فاللهُ له مَرَّةً ومَرَّةً».

فالتوحيدُ حِصْنُ الله الأعظمُ الذي مَنْ دَخَلَهُ كان من الآمنين؛ قال بعضُ السلف: «مَنْ خافَ اللهَ، خافَهُ كلُّ شيء، ومَنْ لَمْ يَخَفِ الله، أخافَهُ اللهُ مِنْ كلِّ شيء».

فهذه عَشَرةُ أسبابٍ عظيمةٍ يندفعُ بها شَرُّ الحاسدِ، والعائنِ، والسَّاحر[1]، ونسألُ اللهَ الكريمَ أن يَقِيَنا والمسلمين مِنَ الشُّرورِ كلِّها، إنَّه سميعٌ مجيب.

❀ ❀ ❀

(١) **انظر**: «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/٢٣٨ ـ ٢٤٦).

١٥٨

مَا يُقَالُ لِلْمَرِيضِ

لقد جاء الإسلامُ بالحَثِّ على مراعاةِ حقِّ المريضِ وتعاهدِهِ بالزيارة، والدعاءِ له بالشِّفَاءِ والعافية، وبيانِ أنواعٍ من الأدعيةِ يَحْسُنُ أنْ تُقالَ عندَ زيارةِ المريض، وكلُّ هذه الرعايةِ والتعاهُدِ والدعاءِ يَنْطَلِقُ من كونِ المؤمنينَ حالُهم كالنَّفْسِ الواحدة، فما يُفْرِحُ الواحدَ منهم يُفْرِحُ الجميعَ؛ وما يُؤْلِمُ الواحدَ يُؤْلِمُ الجميعَ؛ ففي «الصحيحين»، عن النُّعْمان بن بَشِيرٍ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(مَثَلُ المُؤْمِنينَ فِي تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى)**[1]، وفي روايةٍ لمسلم: **(المُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ؛ إِنِ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ)**[2].

ولهذا شُرِعَتْ عِيَادةُ المَرْضَى لمواساتِهم، وتَهْوِينِ الأمر عليهم، وجُعِلَ ذلك حقًّا مِنْ حقوقهم؛ ففي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: **(حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ)**[3]، وجاء في نصوصٍ كثيرةٍ بيانُ فضلِ مَنْ يَزُورُ المَرْضَى وعِظَمِ ثوابِهِ عندَ الله.

روى مسلم في «صحيحه»، عن ثَوْبانَ مولى رسولِ الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(عَائِدُ المَرِيضِ فِي مَخْرَفَةِ الجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ)**، وفي رواية قال:

---

(١)(٢) تقدم تخريجه (ص٤٣٢).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢١٦٢).

(مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الجَنَّةِ)، قيل: يا رسولَ اللهِ، وما خُرْفَةُ الجَنَّةِ؟ قال: **(جَنَاهَا)**[(١)]؛ **أي**: إنَّهُ في بساتينِ الجَنَّةِ يَخْتَرِفُ منها ما يشاء، ويَجْتَنِي منها ما يريد.

وروى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ زَارَ أَخًا لهُ فِي اللهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ: أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلًا)**[(٢)]، والأحاديثُ في هذا البابِ كثيرةٌ.

ويُسْتَحَبُّ للمسلمِ إذا عاد مريضًا أن يُطَمْئِنَهُ، ويُهوِّنَ الأمرَ عليه، ويُذكِّرَهُ بثوابِ الله، وأنَّ في المرضِ تكفيرًا له وتطهيرًا.

ففي «صحيح البخاري»، عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، قَالَ: وَكَانَ النَّبيُّ ﷺ إذا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ، قَالَ: **(لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ)**، قَالَ: قُلْتَ: طَهُورٌ! كَلَّا، بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُور - أَوْ تَثُور - عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ، تُزِيرُهُ القُبُور، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: **(فَنَعَمْ إِذًا)**[(٣)].

وقوله: **(طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ)**، هو خبرُ مبتدإٍ محذوف؛ **أي**: هو طهورٌ لك مِنْ ذنوبك؛ **أي**: مُطَهِّرٌ لك منها.

وفي «السنن» للإمام أبي داود، عن أم العَلَاءِ رضي الله عنها، قالت: عادني رسولُ اللهِ ﷺ وأنا مريضةٌ، فقال: **(أَبْشِرِي يا أم العَلَاءِ؛ فَإِنَّ مَرَضَ المُسْلِمِ يُذْهِبُ اللهُ بِهِ خَطَايَاهُ كَمَا تُذْهِبُ النَّارُ خَبَثَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ)**[(٤)].

وفي «صحيح مسلم»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أَنَّ رسولَ الله ﷺ دَخَلَ على أم السائبِ أو أم المسيِّبِ رضي الله عنها، فقال: **(مَا لَكِ يا أم السَّائِبِ أَوْ أم المُسَيِّبِ تُزَفْزِفِينَ؟)**؛ **أي**: تَرْعَدِينَ، قالت: الحُمَّى لا بَارَكَ اللهُ فيها، فقال:

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٥٦٨).
(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٤٤)، و«جامع الترمذي» رقم (١٩٣١) واللفظ له، ورواه ابن ماجه رقم (١٤٤٣)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣٤٧٤).
(٣) «صحيح البخاري» رقم (٥٦٥٦).
(٤) «سنن أبي داود» رقم (٢٦٨٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣٤٣٨).

(لَا تَسُبِّي الحُمَّى؛ فَإِنَّها تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ)(١).

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، **عن سَعِيد بن وَهْب، قال:** «كُنْتُ مع سَلْمان ـ وعاد مريضًا في كِنْدَةَ ـ فلمَّا دَخَلَ عليه، قال: أَبْشِرْ؛ فإنَّ مَرَضَ المؤمنِ يَجْعَلُهُ اللهُ له كَفَّارةً ومُسْتَعْتَبًا، وإنَّ مَرَضَ الفاجرِ كالبعيرِ عَقَلَهُ أهلُهُ ثمَّ أرسلوه، فلا يدري لِمَ عُقِلَ ولِمَ أُرْسِلَ»(٢).

فبَشَّرَهُ، وذكَّرَهُ بأنَّ المصائبَ التي تُصِيبُ المؤمنَ في بدنِهِ كلُّها كفاراتٌ لخطاياه؛ كما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ، أنَّه قال: **(مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)**(٣).

وقوله: «وَمُسْتَعْتَبًا»؛ **أي:** إنَّه في مرضِهِ يَتَهيَّأُ له مِنِ استذكار ذنوبِهِ، ومعرفةِ خَطَئِهِ وتقصيرِهِ ما لا يَتهيَّأُ له حالَ صِحَّتِهِ وعافيته؛ وحينئذٍ يكونُ مرضُهُ سببًا لمعاتبةِ نفسِهِ على التقصير، ودافعًا للرجوعِ عن الإساءةِ، وطَلَبِ الرضا، هذا بالنسبةِ للمؤمن، أمَّا الفاجرُ فشأنُهُ عندما يَمْرَضُ كشأنِ البعير الذي قَيَّدَهُ أهلُهُ بالعقالِ، ثم أطلقوه، فهو لا يدري لِمَ قُيِّدَ ولِمَ أُطْلِقَ، فهو مُسْتَمِرٌّ في غيِّه، مُتَمَادٍ في فُجوره، لا يكونُ له في مرضِهِ عِبْرةٌ، ولا يَحْصُلُ له بسببه عِظَةٌ.

وينبغي على مَنْ أراد عِيَادةَ مريضٍ أنْ يَتخيَّرَ الوقتَ المناسبَ لعيادته؛ لأنَّ مقصودَ العيادة إراحةُ المريضِ، وتطييبُ قلبه، لا إدخالُ المَشَقَّةِ عليه؛ ولهذا أيضًا عليه أَنْ لا يُطِيلَ المُكْثَ والجلوسَ عنده، إلَّا إنْ أَحَبَّ المريضُ ذلك، وكان في الجلوس فائدةٌ ومصلحة.

ومن السُّنَّةِ للعائدِ: أنْ يَجْلِسَ عندَ رأسِ المريض؛ ففي «الأدب المفرد»

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٥٧٥).
(٢) «الأدب المفرد» رقم (٤٩٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٣٧٩).
(٣) «صحيح البخاري» رقم (٥٦٤٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٥٧٣).

للبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا عادَ المَرِيضَ، جَلَسَ عندَ رأسِهِ، ثمَّ قال سَبْعَ مِرارٍ: (**أَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ رَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ**)، فإن كان في أجله تأخيرٌ، عُوفِيَ مِنْ وَجَعِهِ»[١].

ومن السُّنَّةِ أنْ يَضَعَ العائدُ يَدَهُ على جَسَدِ المريضِ عندما يريدُ الدعاءَ له؛ ففي «الصحيحين» لَمَّا عادَ النَّبيُّ ﷺ سَعْد بنَ أبي وَقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَضَعَ يَدَهُ على جَبْهَتِهِ، ثمَّ مَسَحَ يَدَهُ على وَجْهِهِ وبَطْنه، ثم قال: (**اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا**)[٢]، وفي وَضْعِ اليدِ على المريضِ تأنيسٌ له، وتَعَرُّفٌ على مرضِهِ شِدَّةً وضعفًا، وتَلَطُّفٌ به.

ثمَّ ينبغي للعائدِ أنْ يَنْصَحَ للمريضِ بالدعاء، وأنْ لَا يقولَ عنده إلَّا خيرًا؛ ففي «صحيح مسلم»، عن أم سَلَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: (**إِذَا حَضَرْتُمُ المَرِيضَ أَوِ المَيِّتَ، فَقُولُوا خَيْرًا؛ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**)[٣].

وعليه أنْ يَتخيَّرَ مِنَ الدعاءِ أَجْمَعَهُ، وأنْ يَحْرِصَ على الدعواتِ المأثورةِ عن النَّبِيِّ ﷺ؛ فإنَّها دعواتٌ مباركةٌ جامعةٌ للخير، معصومةٌ من الخطأ والزَّلَل؛ كأنْ يقولَ: (**اللَّهُمَّ اشْفِ فُلَانًا**)، أو يقولَ: (**طَهُورٌ، إِنْ شَاءَ اللهُ**)، أو يقولَ: (**أَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ رَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ**)، أو يقول: (**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاس، أَذْهِبَ الباسَ، وَاشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلَّا شِفاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا**)، وقد مَضَتْ معنا الأحاديثُ فِي ذلك، أو أن يَرْقِيَهُ بفاتحةِ الكتابِ والمعوِّذات، وقد مضى حديثُ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحديثُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في ذلك، أو أن يَرْقِيَهُ بقوله: (**بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِن كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ**

---

(١) «الأدب المفرد» رقم (٥٣٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٤١٦)، وانظر: (ص٤٢٩).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٥٦٥٩)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٢٨).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٩١٩).

كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَينِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ)، وهي الرُّقْيَةُ التي رَقَى بها جبريلُ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا اشتَكَى، أو أنْ يَقُولَ ما ثبَتَ في «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ: **(بِاسْمِ اللهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا)**»(١).

وعلى المُعَافَى عندَ رؤيةِ المَرْضَى أن يَتَّعِظَ ويَعْتَبِرَ، وأنْ يَحْمَدَ اللهَ على نِعْمةِ الصِّحَّةِ والعافية، وأن يسألَهُ سبحانَهُ المعافاةَ.

ونسألُ اللهَ الكريمَ أن يَشْفِيَ مَرْضَانا ومَرْضَى المسلمين، وأن يَكْتُبَ للجميعِ الصِّحَّةَ والسلامةَ والعافية؛ إنَّه سَمِيعٌ مجيب.

❁ ❁ ❁

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٧٤٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٩٤).

١٥٩

مَا يُقَالُ عِنْدَ مَنْ حَضَرَهُ المَوْتُ

سبَقَ الكلامُ على جملةٍ مِنَ الآدابِ المتعلِّقةِ بعيادةِ المريض، والأدعيةِ التي يَحْسُنُ أن تُقالَ عندَ عيادتِهِ، والحديثُ هنا سيكونُ عمَّا يُفْعَلُ ويُقالُ عند مَنْ حَضَرَتْهُ الوفاةُ، وكذلك ما يقولُه مَنْ حَضَرَتْهُ الوفاةُ.

وأهمُّ شيءٍ في ذلكَ الدعاءُ له، وأنْ لَا يَقولَ في حضورِهِ إلَّا خيرًا؛ ففي «صحيح مسلم»، عن أم سَلَمَةَ ﵂، قالت: قال رسول الله ﷺ: **(إِذَا حَضَرْتُمُ المَرِيضَ أَوِ المَيِّتَ، فَقُولُوا خَيْرًا؛ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ)**[١].

وأنْ يَحْرِصَ على تَلْقِينِه كلمةَ التوحيد: **(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)**؛ لتكونَ آخرَ كلامِهِ من الدُّنيا؛ فعن أبي سَعِيدٍ الخُدْريِّ ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: **(لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)**؛ رواه مسلم[٢]، والمرادُ بقوله: **(مَوْتَاكُمْ)**؛ أي: مَنْ حَضَرَهُ الموتُ منكم، لا مَنْ ماتَ فعلًا.

وعن معاذ بن جَبَل ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ)** رواه أبو داود[٣].

وعن عُثْمان بن عَفَّان ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّه لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ)** رواه مسلم[٤].

وثبت في «المسند» للإمام أحمد، من حديث أنس ﵁: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عاد رجلًا من الأنصارِ، فقال: **(يَا خَالُ! قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)**،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٧٦).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٩١٦).
(٣) تقدم تخريجه (ص١٦٨).
(٤) تقدم تخريجه (ص١٥٦).

فقال: أَخَالٌ أم عَمٌّ؟ فقال: (بَلْ خَالٌ)، فقال: فخَيْرٌ لي أَنْ أقولَ: لا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ؟ فقال النَّبِيُّ ﷺ: (نَعَم)[(١)].

* **ومِنْ لطيفِ ما رُوِيَ في هذا الباب:** قِصَّةُ الإمامِ المحدِّث أبي زُرْعَةَ الرازيِّ رَحِمَهُ اللهُ عندما حضرتْهُ الوَفَاةُ، وهي قصَّةٌ ثابتةٌ رواها غيرُ واحدٍ من أهلِ العلمِ، عن أبي عبدِ اللهِ محمَّدِ بنِ مسلمٍ البادي، قال: حَضَرْتُ مع أبي حاتمٍ محمَّدِ بن إدريسَ، عندَ أبي زُرْعَةَ عُبَيْدِ اللهِ بنِ عبدِ الكريمِ الرازيِّ، وهو في النَّزْعِ، فقلتُ لأبي حاتم: تعال حتى نُلَقِّنَهُ الشهادةَ، فقال أبو حاتم: إِنِّي لَأَسْتَحْيِي من أبي زُرْعةَ أنْ أُلَقِّنَهُ الشهادةَ، ولكنْ تعالَ حتى نتذاكرَ الحديثَ، فلعلَّهُ إذا سمعَهُ يقولُ، قال محمَّد بن مسلم: فبدأتُ فقلتُ: حَدَّثَنا أبو عاصمٍ النَّبِيلُ، قال: حدَّثنا عبدُ الحميدِ بنُ جعفرٍ، فَأُرْتِجَ عليَّ الحديثُ، حتى كأنِّي ما سمعتُهُ ولا قرأتُهُ، فبدأ أبو حاتمٍ، وقال: حدَّثنا محمَّد بنُ بَشَّار، قال: حدَّثنا أبو عاصمٍ النبيل، عن عبدِ الحميدِ بن جعفرٍ، فَأُرْتِجَ عليه حتى كأنَّه ما قرأَهُ ولا سمعَهُ، فبدأ أبو زُرْعَةَ: (أي: وهو في النَّزْعِ)، وقال: حدَّثنا محمَّد بن بَشَّار، قال: حدَّثنا أبو عاصمٍ النَّبِيلُ، قال: حدثنا عبدُ الحميدِ بنُ جعفرٍ، عن صالحِ بن أبي عَرِيبٍ، عن كَثِيرِ بنِ مُرَّةَ، عن مُعَاذ بن جَبَل، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنيَا: لا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ**)، وخرَجَتْ رُوحُهُ مع الهاءِ، من قبلِ أن يَقُولَ: (**دَخَلَ الجَنَّةَ**)»[(٢)].

ومِنَ الدعواتِ العظيمةِ التي يَحْسُنُ بالمُحْتَضَرِ أنْ يدعوَ الله بها: سؤالُهُ سبحانه المغفرةَ والرَّحْمةَ؛ ففي «الصحيحين»، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ مُسْنِدٌ إِلَيَّ ظَهْرَهُ يَقُولُ: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى**)[(٣)].

---

(١) «مسند أحمد» (٣/ ١٥٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٣٠٥): «ورجاله رجال الصحيح».
(٢) رواها ابن البنا في «فضل التهليل، وثوابه الجزيل» (ص٨٠ ـ ٨١)، **وانظر القصة مختصرة برواية عبد الرحمٰن بن أبي حاتم في كتابه:** «الجرح والتعديل» (١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).
(٣) تقدم تخريجه (ص١٥٦).

ومِمَّا يَحْسُنُ أن يُذَكَّرَ به المحتضَرُ: إحسانُ الظَّنِّ بربِّه؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ قَبْلَ وفاتِهِ بثلاثٍ، يقول: (**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ**)؛ رواه مسلم[١].

وروى ابن أبي الدنيا في كتابه «حُسْن الظَّنِّ بالله»، **عن إبراهيم النَّخعي، أنَّه قال**: «كانوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يُلَقِّنوا العبدَ مَحَاسِنَ عَمَلِهِ عندَ موتِهِ؛ لكيْ يُحْسِنَ ظَنَّهُ بربِّه عز وجل»[٢].

ولَم يثبُتْ حديثٌ صحيحٌ عن النَّبيِّ ﷺ يَدُلُّ على مشروعيَّةِ قراءةِ شيءٍ مِنَ القرآنِ الكريمِ على المحتضَرِ، وحديثُ: «اقْرَؤُوا يس عَلَى مَوْتَاكُمْ» حديثٌ ضعيفٌ لَم يثبُتْ عن النَّبيِّ ﷺ، كما نَبَّهَ على ذلك غيرُ واحدٍ من أهل العلم[٣].

ثم إنَّ هناك أمورًا ينبغي على المحتضَر مراعاتُها وملاحظتُها:

* **مِنْ ذلك: أنَّ عليه أن يَرْضَى بقضاءِ اللهِ ويَصْبِرَ على قَدَرِهِ**؛ لينالَ أجرَ الصابرين، وثوابَ المحتسبين؛ ففي «صحيح مسلم»، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: (**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ، شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**)[٤].

* **وعليه أن يَحْذَرَ من تَمَنِّي الموتِ**، حتَّى وإنِ اشتَدَّ به المرضُ، وزاد عليه الألَمُ؛ لِمَا في «الصحيحين»، من حديث أنس رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: (**لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي مَا كَانَتِ الوفاةُ خَيْرًا لِي**)[٥].

وفي «المسند» للإمام أحمد، عن أم الفضل رضي الله عنها: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٨٧٧).
(٢) «حسن الظن بالله» رقم (٣٠).
(٣) **انظر**: «إرواء الغليل» (٣/ ١٥٠).
(٤) تقدم تخريجه (ص٦٥١).
(٥) «صحيح البخاري» رقم (٣٦٥١)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٨٠).

دَخلَ عَلَيْهِمْ، وعَبَّاسٌ عمُّ رسولِ اللهِ ﷺ يشتكي، فتَمَنَّى عبَّاسٌ المَوْتَ، فقال له رسولُ الله ﷺ: (**يا عَمِّ! لا تَتمَنَّ المَوْتَ؛ فَإِنَّك إِنْ كُنْتَ مُحْسِنًا، فَإِنْ تُؤَخَّرَ تَزْدَدْ إِحْسَانًا إِلَى إِحْسَانِك خَيْرٌ لَك، وَإِنْ كُنْتَ مُسِيئًا، فَإِنْ تُؤَخَّرَ تَسْتَعْتِبْ مِنْ إِسَاءَتِك خَيْرٌ لَك، فَلَا تَتمَنَّ المَوْتَ**)(١).

* **وينبغي عليه أن يَجْمَعَ لنفسِهِ بين الرَّجَاءِ والخوفِ**، رجاءِ رحمةِ اللهِ، والخوفِ مِنْ عقابِهِ على ذنوبه؛ فقد روى الترمذي، وابنُ ماجه، عن أنس رضي الله عنه: «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخلَ على شابٍّ وهو بالمَوْتِ، فقال: (**كَيْفَ تَجِدُك؟**) قال: واللهِ يا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي أَرْجُو اللهَ، وإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فقالَ رسولُ الله ﷺ: (**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ**)»(٢).

* **ويُسْتَحَبُّ له أَنْ يَكْتُبَ وَصِيَّتَهُ**، وإنْ كان عليه حقوقٌ، فلْيَرُدَّها إلى أصحابِهَا إنْ أمكَنَهُ ذلك، وإلَّا أوصى بذلك، والوصيَّةُ واجبةٌ بما له وما عليه من الحقوقِ؛ لئلَّا تَضِيعَ؛ لِمَا في «الصحيحين»، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: (**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ، وَلَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ فِيهِ، إِلَّا وَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ**)(٣).

وأمَّا الوصيَّةُ بشيءٍ مِنْ مالِهِ بأنْ تُصْرَفَ في سُبُلِ البرِّ والإحسانِ؛ ليَصِلَ إليه ثوابُها بعد موته، فهي مستَحَبَّةٌ، وقد أَذِنَ له الشَّارِعُ بالتصرُّفِ عندَ الموتِ بثُلُثِ المالِ فأَقَلَّ.

* **ويُسْتَحَبُّ له كذلك أن يُوصِيَ أهلَهُ بتقوى الله عز وجل، والمحافظةِ على أوامرِهِ، والتَّمسُّك بسُنَّةِ نبيِّه ﷺ**، وأن يُحَذِّرَهُمْ من الأهواءِ والبدع، وقد روى

---

(١) «المسند» (٦/ ٣٣٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣٣٦٨).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٩٠٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٤٣٥١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٣).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٢٧٣٨)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٢٧).

سعيد بن منصور في «سننه» وغيرُه، **عن أنس بن مالك** رضي الله عنه، **قال**: «كانوا يَكْتُبُونَ في صدورِ وَصَايَاهُمْ: بِسْمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيم، هذا ما أَوْصَى به فلانُ بنُ فلان، أوصى أنَّه يَشْهَدُ أَنْ لا إلَـهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيها، وأنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ في القبور، وأَوْصَى مَنْ تَرَكَ مِنْ أهلِهِ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ، ويُصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ، ويُطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ إنْ كانوا مُؤْمِنِينَ، وأَوْصَاهُمْ بما أَوْصَى به إبراهيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٢]»(١).

* **وينبغي أن يُوصِيَهُمْ بأنْ يُجَهَّزَ ويُدْفَنَ على السُّنَّةِ، وأن يُحَذِّرَهم من البدع**، لا سيَّما إنْ خشي وقوعَ شيءٍ مِنْ ذلك، أو كان للبِدَعِ رواجٌ في مجتمعِهِ، **وقد أَوْصَى أبو موسى** رضي الله عنه **حين حَضَرَهُ الموتُ، فقال**: «إذا انطلقتُمْ بجنازتي، فأَسْرِعُوا بي المَشْيَ، ولا تُتْبِعُونِي بمِجْمَرٍ، ولا تَجْعَلُنَّ على لَحْدِي شيئًا يَحُولُ بيني وبين الترابِ، ولا تَجْعَلُنَّ على قَبْرِي بِنَاءً، وأُشْهِدُكم أَنِّي بريءٌ مِنْ كلِّ حَالِقَةٍ أو سَالِقَةٍ أو خَارِقَة، قالوا: سَمِعْتَ فيه شيئًا؟ قال: نَعَمْ، مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ»؛ رواه أحمد(٢).

نسأل الله لنا جميعًا حُسْنَ الخِتَام، والوَفَاةَ على الإيمانِ بمَنِّه وكرمه.

❁ ❁ ❁

---

(١) «سنن سعيد بن منصور» (ص١٢٦).

(٢) «مسند أحمد» (٤/٣٩٧)، وحسَّنه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٨). والحالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة والسالقة التي ترفع صوتها، والخارقة التي تقطع ثوبها.

١٦٠

مَا يُقَالُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ

لقد ورَدَ في السنَّةِ أحاديثُ عديدةٌ تَتعلَّقُ بما يُقالُ في الصلاةِ على الجنازةِ، **وفيما يلي بيانُها:**

* ثبت في «صحيح مسلم»، عن عَوْف بن مالك رضي الله عنه، قال: «صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ، فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ، وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ**)، قَالَ: حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ المَيِّتَ»[1].

وهو دعاء عظيمٌ جامعٌ، مُحِضَ فيه الدعاءُ للميِّتِ بالعفوِ والغفران، والسلامةِ والنجاة، والإكرام والإحسان، يُؤْتَى به في هذا الموضعِ العظيمِ عندَ الصلاةِ عليه، وهو موضعٌ يُستَحَبُّ فيه المبالغةُ في الترحُّم على الميِّتِ والدعاءِ له؛ لأنَّه قد أُتِيَ به إلى إخوانِهِ المسلمين لِيَدْعُوا له، وليسألوا اللهَ مغفرةَ ذنوبِهِ، وسَتْرَ عيوبه، وإقالةَ عَثَراتِه، وهو دعاءٌ ينفعُ الميِّتَ ـ بإذن الله ـ وهو من جملةِ الأمور الدالَّةِ على التراحمِ والتعاطفِ بين أهلِ الإيمان. والسُّنَّةُ في هذا الدعاءِ أن يُؤْتَى به بعدَ التكبيرةِ الثالثة، أمَّا التكبيرةُ الأولى: فيقرأُ بعدها الفاتحةَ، والتكبيرةُ الثانيةُ: يُصلِّي بعدها على النبيِّ ﷺ، وبعد التكبيرة الثالثة: يُؤْتَى بهذا الدعاءِ أو غيرِهِ من الدعواتِ المأثورة.

(١) «صحيح مسلم» رقم (٩٦٣).

قوله: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ**)، **المغفرةُ**: سَتْرُ الذنوبِ مَعَ التجاوزِ عنها، **والرحمةُ أبلغُ**؛ لأنَّ فيها حصولَ المرغوبِ، بعدَ زوالِ المكروه.

وقوله: (**وَعَافِهِ، وَاعْفُ عَنْهُ**)؛ **أي**: عَافِهِ مِنَ العذابِ وسَلِّمْهُ منه، واعْفُ عنه ممّا وقَعَ فيه مِنْ زللٍ وتقصير.

وقوله: (**وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ**)، **النُّزُلُ**: ما يُقَدَّمُ للضيف؛ **أي**: اجعَلْ نُزُلَهُ وضيافتَهُ عندَكَ كريمةً.

وقوله: (**وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ**)؛ **أي**: وَسِّعْ له في قبره، وافْسَحْ له فيه، ووَسِّعْ له كذلك منازلَهُ عندك في الجنَّة؛ لأنَّ المُدْخَلَ هنا مفردٌ مضافٌ، فيَعُمُّ.

وقوله: (**وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ**)، وهذه الأمورُ الثلاثةُ تُقابِلُ حرارةَ الذنوبِ، فتُبْرِدُها وتُطفئُ لَهِيبَها.

وقوله: (**وَنَقِّهِ مِنَ الذُّنُوبِ كَمَا يُنقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ**)؛ **من التنقيةِ، وهي**: بمعنى التطهيرِ؛ **أي**: طَهِّرْهُ من ذنوبِهِ وخطاياهُ كما يُطَهَّرُ ويُنظَّفُ الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَسِ الذي عَلِقَ به، وخُصَّ الأبيضُ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ إزالةَ الأوساخِ فيه أظهَرُ مِنْ غيرِهِ من الألوان.

وقوله: (**وأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ**)؛ **أي**: أَدْخِلْهُ الجَنَّةَ دارَ كَرَامَتِكَ، بدلًا عن دارِ الدنيا التي رحَلَ عنها.

وقوله: (**وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ**)؛ **أي**: وأبدلْهُ خيرًا منهم؛ وهذا شاملٌ للتبديلِ في الأعيانِ والأوصاف؛ **أمَّا في الأعيانِ**: بأنْ يُعوِّضَهُ اللهُ عنهم خيرًا منهم في دارِ كَرَامَتِهِ، **وأمَّا في الأوصافِ**: بأن تَعُودَ العجوزُ شَابَّةً، وسيِّئةُ الخُلُقِ حسنةَ الخُلُق، وغيرُ الجميلةِ جميلةً.

ثمَّ سألَ اللهَ له دخولَ الجنَّة، والنجاةَ من النار، والسلامةَ مِنْ فتنةِ القبرِ بأن يُوقَى شرَّها وأثرَها.

* **ومِمَّا يُقالُ في الصلاةِ على الجَنَازة**: ما رواه أحمد، وابن ماجه، وغيرُهما، من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: «صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ،

فَقَالَ: **(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا، اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلَامِ، وَمَن تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيمَانِ، اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ وَلَا تُضِلَّنَا بَعْدَهُ)**[(١)].

وهو دعاءٌ عظيمٌ شَمِلَ الميِّتَ المصلَّى عليه وغيرَهُ من المسلمينَ الأحياءِ منهم والأموات، والصغارِ والكبار، والذكورِ والإناث، والشاهدِ منهم والغائب؛ لأنَّ الجميعَ مشتركون في الحاجةِ، بل الضرورةِ، إلى مغفرةِ اللهِ وعفوِهِ ورحمتِهِ، ومَنْ دعا بهذه الدَّعْوةِ، فله بكلِّ واحدٍ من المسلمينَ والمسلماتِ المتقدِّمينَ منهم والمتأخِّرين حسنةٌ؛ لِمَا ثبَتَ في «المعجم الكبير» للطبراني، بإسناد حسن، عن عُبَادةَ بن الصامت ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً)**[(٢)].

وقوله: **(اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا، فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا، فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيمَانِ)**، فذكَرَ الإسلامَ في الحياةِ، والإيمانَ عند المماتِ؛ وذلك أنَّ الإسلامَ إذا قُرِنَ بالإيمانِ يُرَادُ به الشرائعُ العمليَّةُ الظاهرةُ، ويُرادُ بالإيمانِ الاعتقاداتُ الباطنةُ؛ ولهذا ناسَبَ في الحياةِ أنْ يُذْكَرَ الإسلامُ؛ لأنَّ الإنسانَ ما دام حيًّا، فلَدَيْهِ مَجَالٌ وفُسْحَةٌ للعملِ والتعبُّد، وأمَّا عندَ المماتِ، فلا مجالَ لذلكَ، بل لا مجالَ إلَّا للموتِ على الاعتقادِ الصحيحِ والإيمانِ السليمِ بتوفيقٍ من الله؛ ولهذا قال: **(وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا، فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيمَانِ)**.

وقوله: **(اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ)**؛ أي: الأجرَ الذي نحصِّلُهُ من تجهيزه، والصلاةِ عليه، وتشييعِهِ، ودفنِهِ، وكذلك الأجرُ الذي نحصِّلُهُ مِنْ صبرنا على مصيبتنا فيه، وأمَّا أجرُ عمله فهو له، وليس لنا منه شيءٌ.

---

(١) «مسند أحمد» (٢/٣٦٨)، «سنن أبي داود» رقم (٣٢٠١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٤٩٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (١٢١٧).

(٢) «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٠)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٠٢٦).

وقوله: (**وَلَا تُضِلَّنَا بَعْدَهُ**)؛ **أي**: أَعِذْنَا مِنَ الضلال، وجنِّبنا الفتنةَ والزَّلَلَ بعد فَقْدِنا له.

* **ومِنَ الدعواتِ التي تُقالُ في الصلاةِ على الجَنَازةِ**: ما رواه الطبرانيُّ في «المعجم الكبير»، والحاكم في «المستدرك»، عن يَزِيدَ بنِ رُكَانةَ بنِ المُطَّلِب رضي الله عنه، قال: «كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا قَامَ إلى جَنَازَةٍ لِيُصَلِّيَ عليها، قال: (**اللَّهُمَّ عَبْدُكَ وَابْنُ أَمَتِكَ احْتَاجَ إِلَى رَحْمَتِكَ، وأَنْتَ غَنِيٌّ عَن عَذَابِهِ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا، فَزِدْ فِي حَسَنَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا، فتَجَاوَزْ عَنْهُ**)»، وهو حديثٌ ثابتٌ[1].

وروى مالكٌ في «الموطأ»، عن سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، أنَّه سأل أبا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: كيف تُصَلِّي على الجنازة؟ **فقال أبو هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه: «أَنَا لَعَمْرُ اللهِ أُخْبِرُكَ؛ أَتَّبِعُهَا مِن أَهْلِهَا، فإذا وُضِعَتْ كَبَّرْتُ، وحَمِدتُ اللهَ، وصَلَّيْتُ على نَبِيِّهِ، ثمَّ أقولُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ عَبْدُكَ وابْنُ عَبْدِكَ وابْنُ أَمَتِكَ، كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ، اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَزِدْ فِي إِحْسَانِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَتَجَاوَزْ عَنْ سَيِّئَاتِهِ، اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعدَهُ»[2].

نسألُ اللهَ أن يَغْفِرَ لنا ولجميعِ موتى المسلمين؛ إنَّه هو الغفورُ الرحيم.

❁ ❁ ❁

---

(١) «المعجم الكبير» (٢٢/ ٢٤٩)، و«المستدرك» (١/ ٣٥٩)، **وانظر**: «أحكام الجنائز» للألباني (ص١٥٩).

(٢) «الموطأ» رقم (٦٠٩).

١٦١

مَا يُقَالُ عِنْدَ دَفْنِ المَيِّتِ وَبَعْدَهُ، وَعِنْدَ التَّعْزِيَةِ، وَزِيَارَةِ الْمَقَابِرِ

لقد مَرَّ معنا الكلامُ على الأذكارِ التي تُقالُ في الصَّلَاةِ على الجَنَازةِ، وسنتناولُ هنا بيانَ ما يُقالُ عندَ دفنِ الميِّت، وما يُقالُ بعدَ دفنِهِ، وما يُقالُ لذويه عند تَعْزيتهم، وما يُقالُ عندَ زيارةِ المقابر.

مِنَ السُّنَّةِ أن يقولَ الذي يضعُ المَيِّتَ في لَحْدِه: (**بِاسْمِ اللهِ، وَعَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ**)، أو (**وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**)؛ لِمَا رواه أبو داود، والترمذي، وابنُ ماجه، وغيرُهم، عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان إِذَا وَضَعَ المَيِّتَ في القَبْرِ، قال: (**بِاسْمِ اللهِ، وَعَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ**)، وفي رواية: (**وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**)، وجاء في رواية أنَّه قال: (**إِذَا وَضَعْتُمْ مَوتَاكُمْ فِي القُبُورِ، فَقُولُوا...**)»، وذكره[١].

ثمَّ مِنَ السنَّةِ بعدَ الفراغِ مِنْ دفنِهِ: الدعاءُ له بالمغفرةِ والتثبيتِ عندَ السؤالِ؛ لِمَا رواه أبو داود، وغيرُه، عن عُثمانَ بن عَفَّان رضي الله عنه، قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا فَرَغَ مِن دَفْنِ المَيِّتِ، وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: (**اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**)»[٢].

ولا يُشْرَعُ قراءةُ شيءٍ مِنَ القرآنِ في هذا الموضعِ، ولا أنْ يُلقَّنَ المَيِّتُ حُجَّتَهُ كما يفعلُهُ بعضُ الناس؛ إذْ لم يثبُتْ بذلك حديثٌ، وإنَّما المشروعُ في هذا المقامِ ـ كما تَقدَّمَ ـ الاستغفارُ له وسؤالُ اللهِ تثبيتَهُ.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٥٩)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٢١٣)، و«جامع الترمذي» رقم (١٠٤٦)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٥٥٠)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (٣/ ١٩٧).

(٢) «سنن أبي داود» رقم (٣٢٢١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٦٠).

وأمَّا ما يُقالُ لذويه عندَ تَعزِيَتِهم، فإنَّ المشروعَ للمسلم أن يُعزِّيَ أخاه بما يَظُنُّ أنَّه يُسَلِّيهِ، ويُذْهِبُ حُزْنَهُ، ويُعِينُهُ على الرِّضا بالقضاءِ والصبرِ على المصيبةِ؛ مِمَّا ثبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه يقولُهُ في هذا المقامِ إنْ كان يستحضرُ شيئًا من ذلك، وإلَّا يقولُ ما تَيسَّرَ له من الكلامِ الحَسَنِ، والقولِ الطيِّبِ الذي يُحقِّقُ المقصودَ، ولا يُخالفُ الشرعَ.

والمسلمُ مأجورٌ على تعزيتِهِ لإخوانِهِ ووقوفِهِ معهم في مِحْنتهم ومُصَابِهم؛ ففي الحديثِ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: (**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ إِلَّا كَسَاهُ اللهُ ﷻ مِنْ حُلَلِ الكَرَامَةِ يَوْمَ القِيامَةِ**)؛ رواه ابن ماجه وغيرُه[1].

ومِمَّا ورَدَ في السنة في التعزية: ما رواه البخاري ومسلم، عن أُسَامةَ بنِ زيد رضي الله عنهما، قال: «أَرْسَلَتِ ابْنَةُ النَّبيِّ ﷺ إِلَيْهِ: إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَائْتِنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: (**إِنَّ للهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**)[2]، وهذه التعزية ـ كما قال النووي وغيره ـ: «أحْسَنُ ما يُعزَّى به».

وفي حديث أبي سَلَمةَ: لَمَّا مات، شَقَّ بَصَرُهُ، فأغمضَهُ النَّبيُّ ﷺ، ثم قال: (**إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ، تَبِعَهُ البَصَرُ**)، فصاح ناسٌ مِنْ أهلِهِ، فقال: (**لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**)، ثم قال: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يا رَبَّ العَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ**). رواه مسلم[3].

أمَّا ما يُقالُ عندَ زيارةِ القبور، فإنَّ السُّنَّةَ قد جاءتْ بمشروعيَّةِ زيارةِ القبورِ للاتِّعاظِ، وتذكُّرِ الآخرة، وللدعاءِ لأهلها بالرَّحْمةِ والمغفرة. وقد مُنِعَ الناسُ

---

(١) «سنن ابن ماجه» رقم (١٦٠١)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣٥٠٨).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (١٢٨٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٩٢٣).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٩٢٠).

في بَدْءِ الأمرِ من زيارةِ القبور؛ لقُرْبِ عَهْدِهم مِنَ الجاهليَّة، وخشيةِ أن يَتَكلَّموا بشيءٍ مِنْ كلامِ أهلِ الجاهليَّةِ عندها، فلمَّا استقرَّتْ قواعدُ الإسلام، وتَمهَّدَتْ أحكامُهُ، واشتَهرَتْ مَعالِمُه، أُبِيحَتْ لهم الزيارةُ، مع البيانِ لمقاصدها، والتحذيرِ مِنْ قولِ الباطل عندَ زيارتها.

فعن بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْبِ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ، فزورُوهَا)**؛ رواه مسلم، وأحمد، والنسائي، وغيرهم، وزاد أحمد: **(فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ)**، وزاد النَّسائِيُّ: **(فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَزُورَ فَلْيَزُرْ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا)**(١).

والهُجْرُ: الباطلُ مِنَ القولِ؛ كدعاءِ المقبورين، والاستغاثةِ بهم من دونِ اللهِ، أو التوسُّلِ بهم، أو طَلَبِ البَرَكَةِ منهم، ونحوِ ذلك مِنَ الباطلِ والضلالِ.

ولقد جاء في سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ بيانُ ما يُشْرَعُ للمسلم أن يقولَهُ عندَ زيارةِ القبور، **ومن ذلك**: ما رواه مسلم في «صحيحه»، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: **(إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ البَقِيعِ، فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ)**، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **(قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ المُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ)**(٢).

وروى مسلم أيضًا، عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذا خَرَجُوا إِلَى المَقَابِرِ، فَكَانَ قائلهم يَقُولُ: **(السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَلَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ العَافِيَةَ)**(٣).

قال ابن القيِّم رحمه الله في كتابه «زاد المعاد» في كلامه عن هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) «المسند» (٥/ ٣٥٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٩٧٧)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٢٣٥)، و«جامع الترمذي» رقم (١٠٥٤)، و«سنن النسائي» (٤/ ٨٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٥٧١).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٩٧٤).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٩٧٥).

في زيارة القبورِ: «كان إذا زار قبورَ أصحابِهِ يَزُورُهَا؛ للدعاءِ لهم، والترحُّم عليهم، والاستغفارِ لهم، وهذه هي الزيارةُ التي سنَّها لِأُمَّته، وشَرَعَها لهم، وأمرهم أن يقولوا إذا زاروها: (**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ العَافِيَةَ**)، وكان هديُهُ أن يقولَ ويفعلَ عندَ زيارتها مِنْ جنسِ ما يقولُهُ عندَ الصلاةِ على المَيِّتِ من الدعاءِ والترحُّمِ والاستغفار، فأَبَى المشركونَ إلَّا دعاءَ المَيِّتِ، والإشراكَ به، والإقسامَ على اللهِ به، وسؤالَهُ الحوائجَ، والاستعانةَ به، والتوجُّهَ إليه، بعكسِ هديِهِ ﷺ، فإنَّه هديُ توحيدٍ وإحسانٍ إلى الميِّت، وهَدْيُ هؤلاءِ شركٌ وإساءةٌ إلى نفوسِهِمْ وإلى الميِّت، **وهم ثلاثةُ أقسام**: إمَّا أن يدعوا المَيِّتَ، أو يدعوا به أو عنده، ويَرَوْنَ الدعاءَ عنده أوجبَ وأَوْلَى مِنَ الدعاءِ في المساجد، ومَنْ تَأَمَّلَ هَدْيَ رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ تَبَيَّنَ له الفرقُ بين الأمرَيْنِ، وبالله التوفيق»(١). اهـ كلامه.

وبما تَقَدَّمَ يَتَّضِحُ أنَّ أحوالَ الناسِ في زيارةِ القبورِ لا تخرُجُ عن أربعِ حالاتٍ:

الأولى: أن يزورَ القبورَ لِيَدْعُوَ للأمواتِ، فيَسْأَلَ اللهَ لهم المغفرةَ والرحمةَ، وليعتبرَ بحال الموتى وما آلُوا إليه، فيُحْدِثَ له ذلك عبرةً وذكرى، وهذه هي الزيارةُ الشرعية.

الثانية: أن يزورها لِيَدعُوَ لنفسِهِ ولِمَنْ أحبَّ عندها، معتقدًا أنَّ الدعاءَ في المقابرِ، أو عندَ قبورِ الصالحينَ أفضلُ وأحرى بالقَبُولِ والإجابة؛ وهذا بدعةٌ منكرة.

الثالثة: أن يزورها لِيَدْعُوَ الله مُتَوَسِّلًا بجاه الموتى أو حقِّهم، فيقول: أسأَلُكَ يا ربِّي بجاهِ فلانٍ أو بحقِّ فلانٍ؛ فهذا بدعةٌ محرَّمةٌ ووسيلةٌ إلى الشرك.

الرابعة: أن يزورها ليدعُوَ المقبورين، ويستغيثَ بهم، ويَطْلُبَ منهم المَدَدَ والعونَ والشِّفاءَ وغيرَ ذلك؛ فهذا شركٌ أكبرُ ناقلٌ عن مِلَّةِ الإسلام.

نسألُ اللهَ أنْ يَحفَظَنَا، وأنْ يُوَفِّقَنَا لكلِّ خير؛ إنَّه سميعٌ مجيب.

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧).

١٦٢

دُعَاءُ الاستِسْقَاءِ

لقد شَرَعَ اللهُ لعبادِهِ إذا أَجْدَبَتْ فيهم الدِّيَارُ، وقَلَّتِ الأمطارُ، وحصَلَ القَحْطُ أن يَفْزَعوا إلى الصلاةِ والدعاءِ والاستغفار، وأخبَرَ أنَّه لا يُخَيِّبُ عبدًا دعاه، ولا يَرُدُّ مؤمنًا ناداه، فمَنْ دعاه بِصِدْقٍ، وأقبلَ عليه بإلحاحٍ، حَقَّقَ رجاءَه، وأجابَ دعاءه، وأعطاهُ سُؤْلَه، فهو القائلُ سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، وأرشَدَ عباده سبحانَهُ عندَ احتباسِ المطرِ عنهم أن يستغفروهُ من ذنوبهِمُ التي بسببها حُبِسَ المطرُ، ومُنِعَ القطرُ.

وأخبر سبحانه عن أنبيائِهِ ورسلِهِ ﵈ أنَّهم كانوا يرغِّبون أُمَمَهم، ويَحُثُّونهم على التوبةِ والاستغفار، ويبيِّنون لهم أنَّ ذلك سببٌ من أسبابِ إجابةِ الدعاء، ونزولِ الأمطار، وكَثْرةِ الخيرات، وانتشارِ البَرَكَةِ في الأموالِ والأولاد؛ فذكَرَ تعالى عن نوحٍ ﵇ أنَّه قال لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نُوح]، وذكَرَ عن هود ﵇ أنَّه قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هُود: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ [هُود: ٣].

❁ وفي هذه النصوصِ دَلَالةٌ على أنَّ التوبةَ والاستغفارَ سببٌ لِنُزُولِ الخيرات، وتَوَالِي البَرَكَات، وإجابةِ الدَّعَوات.

وليحذرِ المسلمُ في هذا المقامِ مِنْ أن يَستوليَ على قلبهِ اليأسُ والقُنُوطُ،

أو أن يَتفوَّهَ بكلامٍ يدلُّ على التَّضَجُّرِ والتسخُّط؛ فإنَّ المؤمنَ لا يزالُ يسألُ ربَّه، ويَطْمَعُ في فضله، ويرجو رَحْمَتَه، ولا يزالُ مفتقرًا إليه في جلب المنافع، ودفعِ المَضَارِّ من جميعِ الوجوه، يعلم أنَّه لا ربَّ له غيرُهُ يَقْصِدُهُ ويدعوه، ولا إلـٰه له سواه يُؤَمِّلُهُ ويرجوه، ليس له عن بابِ مولاه تحوُّلٌ ولا انصراف، ولا لقلبه إلى غيره تعلُّقٌ ولا التفات.

وقد جاء في سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وهَدْيِهِ الكريم دعواتٌ مباركة يُشرعُ للمسلم أن يَدْعُوَ بها في الاستسقاء، فيها تَذَلُّلٌ لله، وخضوعٌ بين يديه، واعترافٌ بعظمتِهِ وكمالِهِ وافتقارِ العبادِ إليه، وأنَّه سبحانه الغنيُّ الحميد.

روى البخاري ومسلم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ وُجَاهَ المِنْبَرِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا، فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأموال، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، فَقَالَ: (**اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا**)، قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللهِ! مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِن سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةٍ وَلَا شَيْئًا، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ، انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللهِ! مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سَبْتًا، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِن ذَلِكَ البَابِ فِي الجُمُعَةِ المُقْبِلَةِ، ورَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَتِ الأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكهَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: (**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ والجبال وَالظِّرَابِ وَالأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**)، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ»(١).

وسَلْعٌ المذكورُ في الحديث: جبلٌ معروفٌ بالمدينة.

وقوله: «سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ»؛ **أي**: في الاستدارةِ والكَثَافة.

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠١٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٨٩٧)، وجاء مختصرًا (ص٤١٠).

وقوله: (**اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ والجبال وَالظِّرَابِ**): **الآكَامُ**: التِّلَالُ، **والظِّرَابُ**: الجبالُ الصغيرةُ.

وقولُ الرجلِ: «فَادْعُ اللهَ يُمْسِكهَا»، ودعاءُ النَّبِيِّ ﷺ بقوله: (**حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا** ...)، إلى آخرِ الدعاءِ: فيه دَلَالةٌ على مشروعيَّةِ الاستصحاءِ حينما تطولُ الأمطارُ وتَكْثُر، ويحصُلُ بها الضَّرَرُ.

وروى أبو داود في «سننه»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «شَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قُحُوطَ المَطَرِ، فَأَمَرَ بِمِنْبَرٍ، فَوُضِعَ لَهُ فِي المُصَلَّى، وَوَعَدَ النَّاسَ يَوْمًا يَخْرُجُونَ فِيهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ بَدَا حَاجِبُ الشَّمْسِ، فَقَعَدَ عَلَى المِنْبَرِ، فَكَبَّرَ، وَحَمِدَ اللهَ عز وجل، ثُمَّ قَالَ: (**إِنَّكُمْ شَكَوْتُمْ جَدْبَ دِيَارِكُمْ، وَاسْتِئْخَارَ المَطَرِ عَنْ إِبَّانِ زَمَانِهِ عَنْكُمْ، وَقَدْ أَمَرَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَدْعُوهُ، وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ**، ثُمَّ قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الغَنِيُّ، وَنَحْنُ الفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الغَيْثَ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلَاغًا إِلَى حِينٍ**)، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ فِي الرَّفْعِ حَتَّى بَدَا بَيَاضُ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ حَوَّلَ إِلَى النَّاسِ ظَهْرَهُ وَقَلَّبَ أَوْ حَوَّلَ رِدَاءَهُ، وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، وَنَزَلَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَأَنْشَأَ اللهُ سَحَابَةً فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ بِإِذْنِ اللهِ، فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَالَتِ السُّيُولُ، فَلَمَّا رَأَى سُرْعَتَهُمْ إِلَى الكِنِّ، ضَحِكَ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، فَقَالَ: (**أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**)»[1].

قُحُوطُ المَطَرِ؛ أي: انحباسُهُ وانقطاعُهُ.

وقوله: «حِينَ بَدَا حَاجِبُ الشَّمْسِ»؛ **أي**: حينَ ظهرَ ولاحَ طرفُ الشمس.

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (١١٧٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (١٠٤٠).

وقوله: **(عَنْ إبَّانِ زَمَانِهِ)؛ أي**: وقتِ نزولِهِ.

وقوله: **(وَبَلَاغًا إِلَى حِينٍ)** أرادَ به المَطَرَ الكافيَ إلى وقتِ انقطاعِ الحاجةِ.

وقوله: «فلمَّا رَأَى سُرْعَتَهُمْ إِلَى الكِنِّ»، **الكِنُّ**: ما يَرُدُّ الحَرَّ والبَرْدَ من الأبنيةِ والمساكن.

وروى أبو داود في «سننه»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: «أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ بَوَاكِي، فَقَالَ: **(اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيئًا مَرِيعًا نَافِعًا، غَيْرَ ضَارٍّ، عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ)**؛ قَالَ: فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ»(١).

قوله: «أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ بَوَاكِي»: **جمعُ باكيةٍ**، وفي بعضِ النسخِ: «رأيتُ النَّبِيَّ ﷺ يُوَاكِي»، **ومعناه**: التحاملُ على يَدَيْهِ إذا رفعهما ومدَّهما في الدعاء.

وعلى المسلم إذا دعا اللهَ في الاستسقاءِ أو غيرِهِ أنْ يَحْسُنَ ظَنُّهُ بالله، وأن يَعْظُمَ رجاؤُهُ فيه، وأن يُلِحَّ عليه في الدعاء، وألَّا يَقْنَطَ من رحمتِهِ سبحانه؛ فخزائنُهُ ملأى، وجُودُهُ عظيم، ورحمتُهُ وَسِعَتْ كلَّ شيء.

❁ ❁ ❁

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (١١٦٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (١٠٣٦).

١٦٣

مَا يُقَالُ عِنْدَ نُزُولِ الغَيْثِ

لقد مَرَّ معنا الأدعيةُ المتعلِّقةُ بالاستسقاء، والتي يُشْرَعُ للمسلمِ أن يَقُولَها عند قُحُوطِ المطرِ واستئخارِهِ عن إِبَّانِ نزوله، وما يترتَّبُ على ذلك من جفافٍ في الزروع، وهلاكٍ في الماشية، وغيرِ ذلكَ من الأضرار. وهي دعواتٌ مباركة، واستغاثاتٌ نافعةٌ بربِّ العالمين، وخالقِ الخَلْقِ أجمعين، الذي بيده أَزِمَّةُ الأمور، ومقاليدُ السمَوَاتِ والأرض، الذي أَمْرُهُ لشيءٍ إذا أرادَهُ أن يقولَ له: كُنْ فيكونُ، والدعاءُ يُنْبِئُ عن قُوَّةِ الافتقارِ، وتحقيقِ العبوديَّة، ويوجبُ للعبدِ خضوعَهُ وخشوعَهُ، وشِدَّةَ انكسارِهِ لربِّ البريَّة، فكم مِنْ دعوةٍ رفَعَ اللهُ بها المكارِهَ وأنواعَ المضارِّ، ونال بها العبدُ الخَيْراتِ العديدةَ والبَرَكاتِ المتنوِّعةَ وأنواعَ المَسَارِّ.

والعبدُ يدعو اللهَ في كلِّ أحيانه، ويدعو الله في كلِّ شؤونه؛ إذا تَأَخَّرَ المطَرُ دعا اللهَ، وإذا نزَلَ المطرُ دعا الله، وإذا سَمِعَ الرَّعْدَ ذكَرَ الله، ففقرُهُ إلى اللهِ ذاتيٌّ، لا غِنَىٰ له عن ربِّه وسَيِّده ومولاهُ طَرْفةَ عَيْن، واللهُ ﷻ غَنِيٌّ حميد.

وقد تَقدَّمَ فيما مضى ما يُقَالُ في الاستسقاءِ والاستصحاءِ، وأمَّا إذا نزَلَ الغيثُ، فإنَّ مِنَ السُّنَّةِ أن يقولَ المسلمُ عندَ نزولِهِ: **(اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا)**؛ لِمَا رواه البخاري، عن عائشة ﵂: «أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى المَطَر، قَالَ: **(اللَّهُمَّ صَيِّبًا نافِعًا)**»(١).

وقوله: **(صَيِّبًا)**: منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ؛ **أي**: اجعلْهُ، **والصَّيِّبُ**: المطَرُ.

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٣٢).

وقوله: **(نَافِعًا)**: وصفٌ للصَّيِّب، احترَزَ به عن الصَّيِّبِ الضارِّ، وفي هذا دَلَالةٌ على أنَّ المطرَ قد يكونُ نزولُهُ رحمةً ونعمةً، وهو النافعُ، وقد يكونُ نزولُهُ عقوبةً ونقمةً، وهو الضارُّ.

والمسلمُ يسألُ اللهَ عندَ نزولِ المَطَرِ أنْ يكونَ نافعًا غيرَ ضارٍّ، وهذا الدعاءُ المذكورُ يُستَحَبُّ بعدَ نزولِ المطرِ للازدياد مِنَ الخيرِ والبَرَكة، مقيَّدًا بدفعِ ما يُخْشَى من ضَرَر.

ومِنَ الواجبِ على العبدِ في هذا المقامِ الكريمِ أنْ يَعْرِفَ نِعْمةَ اللهِ عليه، ويَنْسُبَ الفضلَ إليه، فهو سبحانه مُولِي النِّعَمِ ومُسْدِيها، بيدِهِ العَطَاءُ والمَنْع، والخَفْضُ والرفع، لا ربَّ سواه، ولا إلـٰهَ غيره.

وقد ثبَتَ في «الصحيحين»، عن زيد بن خالد ﷺ، قال: «صَلَّى لَنَا رسولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَةِ، على إِثْرِ سَمَاءٍ كانتْ مِنَ اللَّيْلِ [**أي**: على إثرِ مَطَرٍ]، فلمَّا انْصَرَفَ، أَقْبَلَ على النَّاسِ، فقال: **(هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟)**، قالوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: **(أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ؛ فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ)**»[(١)].

* **فالقائلُ عندَ نزولِ المَطَرِ**: مُطِرْنَا بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ، قد نسَبَ النعمةَ لمُعْطِيها، وأضافَ المِنَّةَ لِمُولِيها، واعتقَدَ أنَّ نزولَ هذا الفضلِ والخَيْرِ والرحمةِ إنَّما هو مَحْضُ نعمةِ اللهِ وآثار رحمتِهِ سبحانه.

* **وأمَّا القائلُ عند نزولِ المَطَرِ**: مُطِرْنَا بنَوْءِ كذا وكذا، **فلا يخلو من أمرين**:

- إمَّا أن يعتقدَ أنَّ المُنْزِلَ للمطر هو النجمُ؛ وهذا كفرٌ ظاهرٌ ناقلٌ عن مِلَّةِ الإسلامِ.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٣٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٧١)، وقوله: «صَلَّى لنا»؛ **أي**: «صلَّى بنا»؛ كما هو لفظ الحديث عند مسلم.

ـ أو يعتقدَ أنَّ المُنْزِلَ للمطرِ هو اللهُ، والنَّوْءُ سببٌ، فيضيفُ النِّعْمةَ إلى ما يراه سببًا في نزولها، وهذا مِنْ كُفْرِ النِّعْمةِ، وهو من الشركِ الخفيِّ.

والأنواءُ ليستْ مِنَ الأسبابِ لنُزُولِ المطرِ، وإنَّما سببُ نزولِ المطرِ حاجةُ العبادِ، وافتقارُهُمْ إلى ربِّهم، وسؤالُهُمْ إيَّاه، واستغفارُهُمْ وتوبتُهُمْ إليه، ودعاؤُهم إيَّاهُ بلسانِ الحال ولسانِ المقال، فيُنْزِلُ عليهم الغَيْثَ بحكمتِهِ ورحمتِهِ في الوقتِ المناسبِ لحاجتهم وضرورتهم، ولا يتمُّ توحيدُ العبدِ حتى يعترفَ بنِعَمِ اللهِ الظاهرةِ والباطنةِ عليه وعلى جميعِ الخلق، ويُضِيفَها إليه، ويستعينَ بها على عبادتِهِ وذِكْرِهِ وشُكْره(١).

ومن السُّنَّةِ أن يقولَ المسلمُ عند اشتدادِ هبوب الرِّيح: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**)؛ لِمَا رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن عائشة رضي الله عنها، أنَّها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا عَصَفَتِ الرِّيحُ [أي: اشْتَدَّ هبوبُهَا]، قَالَ: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**)»(٢).

ولا يجوزُ للمسلمِ أن يَسُبَّ الرِّيحَ؛ فإنَّها مُسَخَّرةٌ بأمرِ الله، مُدبَّرةٌ مأمورةٌ؛ روى البخاري في «الأدب المفرد»، وأبو داود في «السنن»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: (**الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأْتِي بِالعَذَابِ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِن شَرِّهَا**)(٣).

وقوله: (**مِنْ رَوْحِ اللهِ**)؛ **أي**: مِنَ الأرواحِ التي خَلَقَهَا اللهُ؛ فالإضافةُ هنا إضافةُ خَلْقٍ وإيجادٍ.

---

(١) **انظر**: «القول السديد» لابن سعدي (ص١٠٨ ـ ١٠٩).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٨٩٩).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٦٨)، و«الأدب المفرد» رقم (٩٠٦)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٩٧)، ورواه ابن ماجه رقم (٣٧٢٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٦٩٦).

وكان مِنْ هديِهِ ﷺ أن يقولَ إذا اشتدَّتِ الرِّيحُ: **(اللَّهُمَّ لَاقِحًا لا عَقِيمًا)**؛ لِمَا رواه البخاري في «الأدب المفرد»، عن سَلَمةَ بن الأَكْوَع رضي الله عنه، قال: «كان النَّبيُّ ﷺ إذا اشتدَّت الرِّيحُ يقولُ: **(اللَّهُمَّ لَاقِحًا لا عَقِيمًا)**»[١]؛ **ومعنى (لَاقِحًا)؛ أي**: مُلْقِحَةٌ لِلسَّحابِ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ**﴾ [الحجر: ٢٢]؛ **أي**: وسخَّرنا الرِّيَاحَ ـ رياحَ الرَّحْمةِ ـ تُلْقِحُ السحابَ كما يُلْقِحُ الذَّكَرُ الأنثى، فينشأُ عن ذلكَ الماءُ ـ بإذن الله ـ فيَسْقِيهِ اللهُ العبادَ والمواشيَ والزروع، ويبقى في الأرضِ مُدَّخَرًا لحاجتهم وضروراتهم؛ فله الحمدُ والنعمةُ لا شريكَ له.

وللمسلم أن يُسَبِّحَ عندَ سماعِهِ الرَّعْدَ، ففي «الأدب المفرد» للبخاري، عن عبد الله بن الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما: «أَنَّهُ كَانَ إذا سَمِعَ الرَّعْدَ، تَرَكَ الحَدِيثَ، **وَقَالَ**: سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ»[٢].

ورَوَىٰ عن عبد الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما أنَّه كان إذا سَمِعَ صوتَ الرعدِ، **قال**: «سبحانَ الذي سَبَّحْتَ له»[٣].

وفي التسبيحِ في هذا المقامِ تعظيمٌ للربِّ سبحانه، الذي الرَّعْدُ أثرٌ من آثارِ كمالِ قُوَّتِهِ وقدرتِهِ، وفيه تجاوبٌ مع الرَّعْدِ الذي يُسبِّحُ بحمدِ اللهِ، ولكنْ لا نفقهُ تسبيحَهُ.

❁ ❁ ❁

---

(١) «الأدب المفرد» رقم (٧١٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٥٥٣).

(٢) «الأدب المفرد» رقم (٧٢٣)، و«الموطأ» رقم (١٨٢٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٥٥٦).

(٣) «الأدب المفرد» رقم (٧٢٢)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٥٥٥).

١٦٤

مَا يُقَالُ عِنْدَ كُسُوفِ الشَّمْسِ أَوْ خُسُوفِ القَمَرِ

الحديثُ هنا عن كسوفِ الشَّمْسِ وخسوفِ القمر، وما يُسْتَحَبُّ للمسلمِ أن يقولَهُ عندَ حصولِ ذلك.

إنَّ اللهَ ﷻ سَخَّرَ لابنِ آدمَ أنواعًا مِنَ المخلوقاتِ إكرامًا له وتَفضُّلًا عليه؛ ليقومَ بطاعةِ الله، ولِيُحَقِّقَ توحيدَ اللهِ، وليكونَ شاكرًا لِأَنْعُمِ الله، فقد سَخَّرَ جلَّ وعلَا للإنسانِ السمٰواتِ والأرضَ، والليلَ والنهار، والشمسَ والقَمَر، ونِعَمُهُ سبحانه على الإنسانِ لا تُحْصَى ولا تُعَدُّ.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم].

فالشمسُ والقمرُ هما مِنْ جملةِ النِّعم التي تَفضَّلَ اللهُ بها على عباده، ومَنَّ بها عليهم، وجَعَلَهما سبحانه دائِبَيْن؛ **أي**: مُسْتَمِرَّيْنِ، لا يَفْتُرانِ، يسعيانِ

لمصالحِ الإنسانِ مِنْ حسابِ الأزمنة، ومصلحةِ الأبدانِ والحيوانِ والزروعِ والثمار، وجَعَلَهما سبحانه يجريان بِحِسَابٍ مُتْقَنٍ، وتقديرٍ مقدَّرٍ، لا يَتخلَّفانِ عنه عُلُوًّا ولا نزولًا، ولا ينحرفان يمينًا ولا شِمَالًا، ولا يَتغيَّرانِ تقدُّمًا ولا تأخُّرًا؛ كما قال سبحانه: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرَّحمٰن: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس].

ثمَّ إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ مِنْ آياتِ الله، ومخلوقانِ مِنْ مخلوقاته، ينجليانِ بأمرِهِ، وينكسفانِ بِأَمْره، فإذا أرادَ اللهُ تعالى أنْ يُخوِّفَ عبادَهُ مِنْ عاقبةِ مَعَاصِيهم وذنوبِهِمْ، كَسَفَهما باختفاءِ ضَوْئِهما كلِّه أو بعضِه؛ إنذارًا للعبادِ وتذكيرًا لهم؛ لعلَّهم يرجعون ويتوبون ويُنِيبون، فيقومون بما أَمَرَهم به ربُّهم، ويتركونَ ما حَرَّمَهُ عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وفي هذا دَلَالةٌ على كمالِ قدرةِ اللهِ سبحانه، حيثُ إنَّه سبحانه قادرٌ على تحويلِ الأشياء، وتبديلِ الأمور، وتصريفِ الخلائقِ كيفَ شاء، **ومِنْ ذلك**: تغييرُ حالِ الشمسِ والقمرِ من النورِ والوَضَاءةِ إلى السَّوادِ والظُّلْمة، واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ولذا شُرِعَ عندَ حصولِ الكسوفِ الفَزَعُ إلى الصلاةِ والدُّعَاءِ والذِّكْرِ، والاستغفارِ والصدقة.

روى البخاري ومسلم، عن عائشة ﵂، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: (**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ، فَادْعُوا اللهَ، وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا**)(١).

وفي «الصحيحين»، عن أبي موسى الأشعري ﵁، قال: «خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَزِعًا يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، فَأَتَى المَسْجِدَ، فَصَلَّى

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٤٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٩٠١).

بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ يَفْعَلُهُ، وَقَالَ: **(هَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي يُرْسِلُ اللهُ لا تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ يُخَوِّفُ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ)**»[1].

لقد خَسَفَتِ الشمسُ في عهد النَّبيِّ ﷺ مرَّةً واحدةً، وذلكَ في السنةِ العاشرةِ مِنَ الهِجْرة، حيثُ ماتَ ابنُهُ إبراهيمُ رضي الله عنه، وقد كان الناسُ في الجاهليَّةِ يَظُنُّونَ أنَّ كسوفَ الشمسِ أو القمرِ إنَّما يكونُ لموتِ عظيمٍ أو حياته، فبيَّن ﷺ فسادَ هذا الظنِّ وخطَأَهُ، وقال ـ كما في حديثِ عائشةَ المتقدِّمِ ـ: **(إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ)**.

وقد فَزِعَ ﷺ عندَ كسوفها إلى المسجدِ، وأمَرَ مناديًا ينادي: «الصلاةَ جامعةً»؛ فاجتمَعَ الناسُ في المسجدِ رجالًا ونساءً، فقام فيهم النَّبيُّ ﷺ، وصَفُّوا خلفه، فكبَّر وقرَأَ الفاتحةَ وسورةً طويلةً يجهرُ بقراءتِهِ، ثم ركع ركوعًا طويلًا جِدًّا، ثم رفَعَ، وقال: **(سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ)**، ثُمَّ قرَأَ الفاتحةَ وسورةً طويلةً، لكنَّها أقصرُ مِنَ الأولى، ثم ركَعَ ركوعًا طويلًا دُونَ الأول، ثم رفَعَ، وقال: **(سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ)**، وقام قيامًا طويلًا نحوَ ركوعِهِ، ثم سجَدَ سجودًا طويلًا جِدًّا نحوًا مِنْ ركوعه، ثُمَّ رفَعَ وجلَسَ جلوسًا طويلًا، ثُمَّ سجَدَ سجودًا طويلًا، ثُمَّ قام إلى الركعةِ الثانية، فصنَعَ مِثْلَ ما صنَعَ في الأولى، لكنَّها دونها في القراءةِ والركوعِ والسجودِ والقيام، ثُمَّ تَشهَّدَ وسلَّم، وقد تَجلَّتِ الشمسُ، ثم خطَبَ ﷺ خُطْبةً عظيمةً بليغةً، بيَّن فيها أنَّ الشمسَ والقَمَرَ آيتانِ مِنْ آياتِ الله، لا ينكسفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ، وحثَّهم عندَ حصولِ ذلكَ على الفزعِ إلى الصلاة، وذِكْرِ اللهِ، ودعائِهِ، واستغفارِهِ، حتى يُفَرِّجَ اللهُ وتنجليَ، ومِمَّا قال في خُطْبتِهِ: **(يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، واللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)**، ومِمَّا قال في خُطْبتِهِ: **(مَا مِنْ**

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠٥٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٩١٢).

شَيْءٍ كُنْتُ لَمْ أَرَهُ إِلَّا رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا، حَتَّى الجَنَّةُ وَالنَّارُ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُم تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، يُقَالُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ أَوِ المُوقِنُ، فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ رَسُولُ اللهِ، جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَالهُدَىٰ، فَأَجَبْنَا واتَّبَعْنَا، فَيُقَالُ: نَمْ صَالِحًا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ، وَأَمَّا المُنَافِقُ أَوِ المُرْتَابُ، فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ).

وقال له الصَّحَابةُ: «يا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شيئًا في مَقَامِكَ، ثمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ [أي: رَجعْتَ إلى الوراءِ]، قال: (**إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ عُنقُودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُم مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَاليَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**)، قالوا: بِمَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: (**بِكُفْرِهِنَّ**)، قيل: يَكْفُرْنَ باللهِ؟ قال: (**يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ**)»[١].

إنَّ فَزَعَ النَّبيِّ ﷺ للكسوفِ، وصلاتَهُ هذه الصلاةَ، وعَرْضَ الجَنَّةِ والنارِ عليه أثناءَ هذه الصلاةِ، ورؤيتَهُ لكلِّ ما نحنُ لاقوه مِنْ أمرِ الدنيا والآخرة، ورؤيتَهُ الأُمَّةَ تُفْتَنُ في قبورها، وخطبتَهُ هذه الخُطْبةَ البليغةَ المؤثِّرة، وأمرَهُ أُمَّتَهُ عندَ الكسوفِ أن يفزعوا إلى الصلاةِ والذِّكْرِ والدعاءِ والاستغفارِ، والتكبيرِ والصَّدَقةِ، لَيَدُلُّ على عِظَمِ شأنِ الكسوفِ، وأهميَّةِ الفزعِ فيه إلى الصلاةِ والدعاءِ والاستغفار.

والحالُ أنَّ كثيرًا من الناس في هذا الزمانِ تهاونوا بأمرِ الكسوف، ولم يُقِيمُوا له وزنًا، ولم يُحَرِّكْ لهم ساكنًا، وما ذاك إلَّا لِضَعْفِ الإيمان، والجهلِ بالسُّنَّةِ، والاعتمادِ على مَنْ يُحِيلُ أَمْرَ الكسوفِ إلى الأسبابِ الطبيعيَّة، مَعَ الغَفْلةِ عن أسبابِهِ الشرعيَّة، والحكمةِ البالغةِ التي مِنْ أَجْلِهَا يُحْدِثُ اللهُ الكسوفَ. وفَّقنا اللهُ لتعظيمِ آياتِهِ والخوفِ منه، ورَزَقَنَا الاعتبارَ بآياتِهِ والانتفاعَ بها؛ إنَّه جَوَادٌ كريم.

---

(١) هو في «الصحيحين» مفرَّقٌ في عدة مواضع، **انظر**: «صحيح البخاري» رقم (١٠٤٤)، وغيره، و«صحيح مسلم» (٩٠١).

١٦٥

مَا يُقَالُ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْهِلَالِ

لقد ورَدَ في السُّنَّةِ دعاءٌ يُستَحَبُّ للمسلمِ أن يَقُولَهُ عندَ رؤيةِ الهلالِ مِنْ كلِّ شهر، فيه سؤالُ الرَّبِّ سبحانَهُ أنْ يَجْعَلَ هذا الشهرَ الذي هَلَّ هِلَالُهُ شَهْرَ يُمْنٍ وإيمان، وسلامةٍ وإسلام، وهي دعوةٌ مباركةٌ يَحْسُنُ بالمسلمِ أن يَدْعُوَ بها كلَّما رأى الهلالَ.

روى الترمذي عن طَلْحة ﵁: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إذا رَأَى الهِلَالَ، قَالَ: **(اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِاليُمْنِ وَالإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالإِسْلَامِ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ)**»[(١)].

وقبل الدخول في معاني هذه الدعوةِ المباركةِ، لِنَقِفْ قليلًا نَتَأَمَّل هذه الآيَةَ الباهرةَ الدَّالَّةَ على عَظَمَةِ الرَّبِّ سبحانه وكمالِ قُدْرته، **يقولُ ابن القيِّم** ﵀: «وانظُرْ إلى القمرِ وعجائبِ آياته، كيف يُبْدِيهِ اللهُ كالخَيْطِ الدَّقِيق، ثم يتزايدُ نُورُهُ ويتكاملُ شيئًا فشيئًا كلَّ ليلةٍ حتى ينتهيَ إلى إبدارِهِ وكمالِهِ وتمامه، ثمَّ يأخذُ في النُّقْصانِ حتى يعودَ على حالتِهِ الأولى؛ ليظهرَ مِنْ ذلك مواقيتُ العبادِ في معاشهم وعباداتهم ومناسكهم، فتميَّزتْ به الأشهرُ والسنون، وقام به حِسَابُ العَالَمِ، مع ما في ذلكَ مِنَ الحِكَمِ والآياتِ والعِبَرِ التي لا يُحْصِيها إلَّا اللهُ»[(٢)]. اهـ.

وقد عدَّ اللهُ في القرآنِ الكريم هذا ضِمْنَ آياتِهِ العِظَام، وبراهينِهِ الجِسَام؛ يقول الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس].

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ١٦٢) واللفظ له، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٥١)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٢٦).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٧).

وقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾؛ **أي**: يَنْزِلُهَا؛ كلَّ ليلةٍ يَنْزِلُ منها واحدةً، إلى أن يَصْغُرَ جِدًّا، فيكونَ كالعُرْجُونِ القديم؛ **أي**: كعِذْقةِ النخلِ إذا قَدُمَ وجَفَّ، وصَغُرَ حجمُهُ وانحنى، ثمَّ يُهِلُّ في أولِ الشهر، ويبدأ يزيدُ شيئًا فشيئًا حتَّى يتمَّ نُورُه، ويَتَّسِقَ ضياؤه، فما أعظمَها مِنْ آية، وما أَوْضَحَها مِنْ دَلَالةٍ على عظمةِ الخالق، وعظمةِ أوصافِهِ سبحانه. ولا ريبَ أنَّ التَّأَمُّلَ في هذه الآيةِ وغيرها مِمَّا دعا اللهُ عبادَهُ في كتابِهِ إلى التفكُّر فيها يَهْدِي العبدَ إلى العلمِ بالربِّ سبحانه بوحدانيَّتِهِ، وصفاتِ كمالِهِ، ونعوتِ جلالِهِ، مِنْ عمومِ قدرتِهِ، وسَعَةِ عِلْمه، وكمالِ حِكْمته، وتعدُّدِ بِرِّهِ وإحسانه؛ ومِنْ ثَمَّ يُخْلِصُ الدِّينَ له، ويُفْرِدُهُ وحدَهُ بالذُّلِّ والخضوعِ، والحُبِّ والإنابة، والخوفِ والرجاء، فهي دلائلُ ظاهرة، وبراهينُ واضحةٌ على تَفرُّدِ اللهِ بالربوبيَّةِ والألوهيَّةِ، والعظمةِ والكبرياء.

ولهذا كان ﷺ إذا رأى الهلالَ كبَّر؛ لأنَّه آيةٌ عظيمةٌ على عظمةِ الرَّبِّ وكبريائه، **والتكبيرُ**: تعظيمُ اللهِ، واعتقادُ أنَّه أكبرُ مِنْ كلِّ شيءٍ، وأنَّه لا شيءَ أكبرُ منه؛ كما قال ﷺ في حديث عَدِيٍّ رضي الله عنه: **(فَهَلْ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ؟!)**[١].

بل إنَّ التكبيرَ مشروعٌ عندَ رؤيةِ كلِّ كبيرٍ وعظيم؛ ليبقى القلبُ ليس فيه اشتغالٌ إلَّا بتكبيرِ اللهِ وتعظيمِهِ؛ **قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّةَ** رحمه الله: «التكبيرُ مشروعٌ في المواضعِ الكبارِ؛ لكثرةِ الجَمْع، أو لِعَظَمَةِ الفعل، أو لقوةِ الحال، أو نحوِ ذلكَ مِنَ الأمورِ الكبيرة؛ ليُبيِّنَ أنَّ اللهَ أكبرُ، وتستوليَ كبرياؤُهُ في القلوبِ على كبرياءِ تلكَ الأمورِ الكبار، فيكونُ الدِّينُ كلُّه لله، ويكونُ العبادُ له مكبِّرين، **فيحصُلُ لهم مقصودان: مقصودُ** العبادةِ بتكبيرِ قلوبهم لله، **ومقصودُ** الاستعانةِ بانقيادِ سائرِ المطالبِ لكبريائه»[٢].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٤٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٤/٢٢٦).

أمَّا تكبيرُ النَّبيِّ ﷺ عندَ رؤيةِ الهلال، فقد رواه الدارميُّ من حديث عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا رَأى الهِلَالَ، قَالَ: (**اللهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالأَمْنِ وَالإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالإِسْلَامِ، والتَّوْفِيقِ لِمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ**)»(١).

ولنبدأْ هنا في الكلامِ على معنى الحديث:

قوله: «إذا رَأى الهلالَ»؛ **الهِلَالُ هو**: غُرَّةُ القَمَرِ لليلتَيْنِ أو لثلاثٍ، وفي غيرِ ذلك يُقالُ له: قَمَرٌ.

وقوله: (**أَهِلَّهُ عَلَيْنَا**)؛ **أي**: أَطْلِعْهُ علينا، وأَرِنَا إيَّاه.

وقوله: (**بِالأَمْنِ وَالإِيمَانِ**) **الأَمْنُ هو**: الطمأنينةُ والراحةُ والسكونُ والسلامةُ مِنَ الآفاتِ والشرور، وفي حديثِ طَلْحةَ: «**بِاليُمْنِ**»، **واليُمْنُ**: هو السعادة، **والإيمانُ هو**: الإقرارُ والتصديقُ والخضوعُ لله.

وقوله: (**وَالسَّلَامَةِ وَالإِسْلَامِ**)، **السَّلَامَةُ هي**: الوقاية والنجاةُ مِنَ الآفاتِ والمصائب، **والإسلامُ هو**: الاستسلامُ لله، والانقيادُ لِشَرْعِه.

وقوله: (**رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ**) فيه إثباتُ أنَّ الناسَ والقمرَ وجميعَ المخلوقاتِ كلُّها مربوبةٌ لله، مسخَّرةٌ بأمره، خاضعةٌ لِحُكْمِهِ؛ وفي هذا ردٌّ على مَنْ عَبَدَها مِنْ دُونِ اللهِ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧].

ثُمَّ إنَّ الحديثَ فيه فوائدُ كثيرةٌ، أُشِيرُ إلى شيءٍ منها:

* **فمِنْ فوائدِ الحديثِ**: أنَّ فيه بيانًا لِلْفَرْقِ بين الإيمانِ والإسلام، وأنَّهما ليسا شيئًا واحدًا عندما يجتمعانِ في الذِّكْرِ، بل لكلٍّ واحدٍ منهما معنًى خاصٌّ؛ فالإيمانُ يُرادُ به: الاعتقاداتُ الباطنة، والإسلامُ يُرادُ به: الأعمالُ الظاهرة، أمَّا عندَ إفراد كلٍّ واحدٍ منهما بالذِّكْر، فإنَّه يكونُ متناولًا لمعنى الآخر.

---

(١) «سنن الدارمي» رقم (١٦٨٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/١٣٩): «فيه عثمان بن إبراهيم الحاطبي، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات».

* **ومِنْ فوائدِ الحديثِ:** أنَّ الأمنَ مرتبطٌ بالإيمان، والسلامةَ مرتبطةٌ بالإسلام؛ فالإيمانُ طريقُ الأمان، والإسلامُ طريقُ السلامة، ومَنْ رام الأمنَ والسلامةَ بغيرهما ضَلَّ، والله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعَام: ٨٢].

* **ومِنْ فوائدِ الحديثِ:** أنَّ فيه لَفْتةً كريمةً إلى أنَّ أَهَمَّ ما تُشْغَلُ به الشهورُ، وتُمْضَى فيه الأوقاتُ هو الإيمانُ باللهِ، وبما أمَرَ عبادَهُ بالإيمانِ به، والاستسلامُ له سبحانه في كلِّ أحكامِهِ، وجميعِ أوامره.

ومرورُ الشهورِ على العبدِ مَعَ الانشغالِ عن هذا المقصدِ الجليلِ: ضياعٌ للشهور، وحرمانٌ مِنَ الخير، فالشهورُ لَمْ تُخْلَقْ ولم توجدْ إلَّا لتكونَ مستودَعًا للإيمانِ والأعمال، وهذا إنَّما ينجلي أمرُهُ للناس عندما يقفون يومَ القيامةِ بين يَدَيِ اللهِ لِيَرَوْا نتائجَ أعمالهم، وحَصَادَ حياتهم، وثَمَرَةَ أوقاتهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السَّنَةُ شَجَرة، والشهورُ فُرُوعُها، والأيامُ أغصانها، والساعاتُ أوراقُها، والأنفاسُ ثَمَرُها، فمَنْ كانتْ أنفاسُهُ في طاعةٍ، فثمرةُ شجرتِهِ طَيِّبةٌ، ومَنْ كانتْ في معصية، فثمرتُهُ حَنْظَلٌ، وإنَّما يكونُ الجَذَاذُ يومَ المعاد، فعند الجَذَاذِ يَتبيَّنُ حُلْوُ الثمارِ مِنْ مُرِّها»(١). اهـ.

ونسألُ الله أن يُصْلِحَ أوقاتَنا جميعًا، ويَعْمُرَها بالأمنِ والإيمان، والسلامةِ والإسلام، والتوفيقِ لِمَا يُحِبُّهُ ويرضاه، هو ربُّنا لا ربَّ لنا سواه.

❁ ❁ ❁

(١) «الفوائد» (ص٢٩٢).

١٦٦

الدُّعَاءُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ

إنَّ في السَّنَةِ أيَّامًا فاضلةً، وأوقاتًا شريفةً، الدعاءُ فيها أفضلُ، والإجابةُ فيها أحرى، والقَبُولُ فيها أرجى، وله سبحانه الحكمةُ البالغة: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القَصَص: ٦٨]؛ فلكمالِ حِكْمَتِهِ وقدرته، وتمامِ علمِهِ وإحاطتِهِ يختارُ مِنْ خلقِهِ ما يشاءُ مِنَ الأوقاتِ والأمكنةِ والأشخاص، فيخصُّهُمْ سبحانه بمزيدِ فضله، وجزيلِ عنايته، ووافرِ مِنَّته، وهذا مِنْ أكبرِ آياتِ ربوبيته، وأعظمِ شواهدِ وَحْدانيتِهِ وتفرُّدِهِ بصفاتِ الكمال، وأنَّ الأمرَ له سبحانَهُ مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ، يقضي في خلقِهِ بما يشاء، ويحكُمُ فيهم بما يريدُ؛ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية].

وإنَّ مِمَّا خَصَّهُ اللهُ ﷻ مِنَ الأوقاتِ بمزيدِ تفضيله، ووافرِ تكريمه: شهرَ رمضان؛ حيثُ فَضَّلَهُ على سائرِ الشهور، والعَشْرَ الأواخرَ مِنْ لياليه؛ حيثُ فَضَّلَهَا على سائرِ الليالي، وليلةَ القَدْر، حيثُ جعَلَهَا ـ لمزيدِ فضلها عنده، وعظيمِ مكانتها ـ خيرًا مِنْ ألف شَهْر، وفَخَّمَ سبحانَهُ أمرها، وأَعْلَى شأنَهَا، ورفَعَ مكانتها عنده، فأنزَلَ فيها وَحْيَهُ المبين، وكلامَهُ الكريم، وتنزيلَهُ الحكيم؛ هُدًى للمتَّقين، وفُرقانًا للمؤمنين، وضياءً ونورًا ورَحْمة.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الدّخان].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر].

فَلِلّهِ ما أَعْظَمَها مِنْ ليلة! وما أَجَلَّ خَيْرَها! وما أَوْفَرَ بَرَكَتَها! ليلةٌ واحدةٌ خيرٌ مِنْ ألفِ شهر؛ **أي**: ما يزيدُ على ثلاثةٍ وثمانينَ عامًا، عُمْرِ رجلٍ معمَّر، وهو عمرٌ طويلٌ لو قضاه المسلمُ كلَّه في طاعةِ اللهِ ﷻ، فليلةُ القَدرِ ـ وهي ليلةٌ واحدة ـ خيرٌ منه؛ هذا لِمَنْ حصَّلَ فَضْلَها، ونالَ بَرَكَتَها.

قال مجاهدٌ رَحِمَهُ اللهُ: «ليلةُ القَدْرِ خيرٌ مِنْ ألفِ شهر، ليس في تلك الشهور ليلةُ القدر»؛ وكذا قال قتادة، والشافعي، وغيرُ واحد.

وفي هذه الليلةِ المباركةِ يَكْثُرُ تنزُّلُ الملائكةِ لكثرةِ بركتها؛ إذ الملائكةُ يَتنزَّلونَ مع تَنزُّلِ البَرَكة، وهي سلامٌ حتى مَطْلَعِ الفَجْر؛ **أي**: إنَّها خيرٌ كلُّها، ليس فيها شرٌّ إلى مَطْلَعِ الفجر، وفي هذه الليلةِ يُفْرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم؛ **أي**: يُقدَّرُ فيها ما يكونُ في تلك السنةِ بإذنِ اللهِ العزيزِ الحكيم، **والمرادُ بالتقديرِ هنا**: التقديرُ السنوي، أمَّا التقديرُ العامُّ في اللوحِ المحفوظ، فهو مُتقدِّمٌ على خلقِ السمٰوات والأرضِ بخمسينَ ألفَ سنةٍ؛ كما صحَّ بذلك الحديثُ عن رسولِ الله ﷺ.

إنَّ ليلةً هذا شأنُها ينبغي على المسلم أنْ يَحْرِصَ على طلبها تمامَ الحرصِ ليفوزَ بثوابها، ولِيَغْنَمَ خَيْرَها، ولِيُحَصِّلَ أجرها، ولينالَ بَرَكَتَها، والمحرومُ مَنْ حُرِمَ الثوابَ، ومَنْ تَمُرُّ عليه مواسمُ الخيرِ وأيامُ البَرَكَةِ والفضلِ وهو مستمرٌّ في ذنوبه، متمادٍ في غيِّه، منهمكٌ في عصيانه، أَتْلَفَتْهُ الغَفْلةُ، وأهلَكَهُ الإعراضُ، وصَدَّتْهُ الغِوَاية، فما أعظَمَ حَسْرَتَه! وما أشدَّ ندامتَه! ومَنْ لَم يحرصْ على الرِّبْحِ في هذه الليلةِ المباركة، فمتى يكونُ الحِرْصُ؟! ومَنْ لم يُنِبْ إلى اللهِ في هذا الوقتِ الشريف، فمتى تكونُ الإنابةُ؟! ومَنْ لم يَزَلْ متقاعسًا فيها عن الخيرات، ففي أيِّ وقتٍ يكونُ العمل؟!

إنَّ الحرصَ على طَلَبِ هذه الليلة، وتَحَرِّي الطاعةِ فيها، والاجتهادَ في

الدعاءِ مِنْ سِمَاتِ الأخيار، وعلاماتِ الأبرار، بل إنَّهم يُلِحُّونَ على اللهِ فيها أن يكتب لهم العفوَ والمعافاةَ؛ لأنَّها الليلةُ التي يُكْتَبُ فيها ما يكونُ من الإنسانِ في عامِهِ كلِّه، ففي هذه الليلةِ يدعون ويُلِحُّون، وفي عامهم كلِّه يَجِدُّونَ ويجتهدون، ومِنَ اللهِ يَطْلُبُونَ العَوْن، ويسألونَ التوفيق.

روى الترمذي، وابن ماجه، وغيرُهما، عن أم المؤمنين عائشة ﵂، قالت: «قلتُ: يا رَسُولَ اللهِ، إنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ القَدْرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: (**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي**)»[(١)].

ثبت عن عائشة أنها قالت: «لَوْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَكَانَ أَكْثَر دُعَائِي فِيهَا أَنْ أَسْأَلَ اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ»[(٢)].

وهذا الدعاءُ المبارَكُ عظيمُ المعنى، عميقُ الدَّلَالة، كبيرُ النَّفْعِ والأثر، وهو مناسبٌ لهذه الليلةِ غايةَ المناسبة، فهي - كما تَقَدَّمَ - الليلةُ التي يُفْرَقُ فيها كلُّ أمرٍ حكيم، ويُقَدَّرُ فيها أعمالُ العبادِ لِسَنَةٍ كاملةٍ حتى ليلةِ القَدْرِ الأخرى، فمن رُزِقَ في تلك الليلةِ العافيةَ، وعفا عنه ربُّه، فقد أفلَحَ وفازَ ورَبِحَ أعظمَ الرِّبْح، ومَنْ أُوتِيَ العافيةَ في الدنيا والآخرة، فقد أوتي الخيرَ بحذافيره، والعافيةُ لا يَعْدِلُهَا شيءٌ.

روى البخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي في «الجامع»، عن العَبَّاس بن عبد المُطَّلِب ﵁، قال: «قلتُ: يا رسولَ اللهِ، عَلِّمْنِي شيئًا أسأَلُهُ اللهَ ﷿، قال: (**سَلِ اللهَ العَافِيَةَ**)، فمَكَثْتُ أَيَّامًا، ثُمَّ جِئْتُ، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ، فَقَالَ لِي: (**يا عَبَّاسُ، يا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، سَلِ اللهَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**)»[(٣)].

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي في «الجامع»، عن

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٣٤).

(٢) «السنن الكبرى» رقم (١٠٦٤٨)، و«مصنف ابن أبي شيبة» رقم (٢٩١٨٩).

(٣) تقدم تخريجه (ص٥٠٢).

أنس بن مالك ﷺ، قال: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **(سَلِ اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)**، ثُمَّ أتاه الغَدَ، فقالَ: يا نَبِيَّ اللهِ، أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ؟ قال: **(سَلِ اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَـإِذَا أُعْطِيتَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَقَدْ أَفْلَحْتَ)**»(١).

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، عن أَوْسَط بنِ إسماعيلَ، قال: «سمعتُ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ بعدَ وفاةِ رسولِ الله قال: قام النَّبِيُّ ﷺ عامَ أَوَّلَ مَقَامِي هذا، ثم بكى أبو بكرٍ، ثم قال: **(عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّهُ مَعَ البِرِّ، وَهُمَا فِي الجَنَّةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ؛ فَإِنَّهُ مَعَ الفُجُورِ، وَهُمَا فِي النَّارِ، وَسَلُوا اللهَ المُعَافَاةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْتَ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْرٌ مِنَ المُعَافَاةِ، وَلَا تَقاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا)**»(٢).

۞ **ولهذا فإنَّ مِنَ الخيرِ للمسلمِ أن يُكْثِرَ مِنْ هذه الدعوةِ المباركةِ في كلِّ وقتٍ وحين**، ولا سيَّما في ليلةِ القدر، التي فيها يُفْرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم، وليعلمَ المسلمُ أنَّ اللهَ ﷻ عفوٌّ كريمٌ يُحِبُّ العفوَ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]، ولم يَزَلْ سبحانه ولا يزالُ بالعفوِ معروفًا، وبالصَّفْحِ والغفرانِ موصوفًا، وكلُّ أحدٍ مضطرٌّ إلى عفوه، محتاجٌ إلى مغفرته، لا غِنَىٰ لأحدٍ عن عفوِهِ ومغفرته، كما أنَّه لا غِنَىٰ لأحدٍ عن رحمتِهِ وكرمه، فنسأله سبحانَهُ أنْ يَشْمَلَنا بعفوه، وأنْ يُدْخِلَنا في رحمته، وأنْ يستعملَنا في طاعته، وأنْ يَهْدِيَنا إليه صراطًا مستقيمًا.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٢٧)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥١٢)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٤٨)، و«الأدب المفرد» رقم (٦٣٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٤٩٥).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٥)، وابن ماجه رقم (٣٨٤٩)، و«الأدب المفرد» رقم (٧٢٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب» رقم (٥٥٧).

١٦٧

أَذْكَارُ رُكُوبِ الدَّابَّةِ وَالسَّفَرِ

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف].

لقد أرشَدَ سبحانه إلى أنَّ وسائلَ النقلِ مِنَ السُّفُنِ والأنعام، وكذلك ما سَخَّرَهُ للناسِ في هذا الزمانِ مِنْ وسائلَ حديثةٍ، للنقل منها ما يَسِيرُ على الأرض، ومنها ما يَطِيرُ في الهواء، ومنها ما يَمْشِي في البحار، واستقرارَ الناسِ على ظهورها، واستواءَهُمْ على متونها، وتَنَقُّلَهم عليها مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ براحةٍ واطمئنان، كلُّ ذلكَ مِنْ لُطْفِ اللهِ وتسخيرِهِ وإكرامِهِ وإنعامه، فكيف يليقُ بمَنْ رَكِبَهَا أن يَغْفُلَ عن ذِكْرِ المنعمِ والمتفضِّلِ بها، والثناءِ عليه بما هو أهلُهُ.

وقد كان هَدْيُ النَّبِيِّ ﷺ عندَ ركوبِ الدَّابَّةِ وفي السفرِ أكملَ الهدي وأَتَمَّهُ، كيفَ لا وهو أكملُ الناس طاعةً، وأحسنُهم عبادةً، وأجملُهم وأزكاهم سِيرَةً؟! وفيما يلي عرضٌ لشيءٍ من هَدْيِهِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه في ذلك:

ففي «جامع الترمذي»، و«سنن أبي داود»، وغيرهما، عن علي بن رَبِيعة، قال: «شَهِدتُ عَلِيًّا رضي الله عنه، وَأُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ، قَالَ: (**بِاسْمِ اللهِ**)، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا، قَالَ: (**الحَمْدُ للهِ**)، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، ثُمَّ قَالَ: (**الحَمْدُ للهِ**) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: (**اللهُ أَكْبَرُ**) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: (**سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**)، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقِيلَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ، ثُمَّ

ضَحِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: (**إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذنُوبِي، يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي**)»[١].

ولْيتأمَّلِ المسلمُ هذا وما فيه مِنْ دَلالةٍ على كَمالِ فضلِ الله، وسَعَةِ مغفرتِهِ، وتَمَامِ بِرِّهِ وإحسانِهِ، مع غناهُ الكاملِ عَنْ توبةِ عبادِهِ واستغفارِهِمْ.

وكان مِنْ هديهِ ﷺ إذا رَكِبَ دَابَّتَهُ مسافرًا أنْ يسألَ اللهَ أنْ يكتُبَ له البِرَّ والتقوى في سَفَرِهِ، وأن يُيَسِّرَ له العملَ الصالحَ الذي يرضيه، وأن يُهَوِّنَ عليه السفَرَ، وأن يعيذَهُ فيه مِنَ العواقبِ السيِّئةِ في نفسِهِ أو مالِهِ أو أهله.

ففي «صحيح مسلم»، من حديثِ عبدِ اللهِ بن عُمَرَ ﵄: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: (﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾، **اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالأَهْلِ**)، وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: (**آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**)»[٢].

وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَى**)، **البِرُّ**: فعلُ الطاعات، **والتقوى**: تَرْكُ المعاصي والذنوب، هذا عندَ اجتماعهما في الذِّكْرِ كما في هذا النصِّ، وأمَّا إذا ذُكِرَ كلُّ واحدٍ منهما منفردًا، فإنَّهُ يتناولُ معنى الآخر.

وقوله: (**اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ**)؛ **أي**: يَسِّرْهُ لنا، وقَصِّرْ لنا مسافته.

وقوله: (**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**)، **المرادُ بالصُّحْبةِ**: المَعِيَّةُ

---

(١) «سنن أبي داود» رقم (٢٦٠٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٤٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢٧٤٢).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (١٣٤٢).

الخاصَّةُ التي تقتضي الحفظَ والعَوْنَ والتأييد، ومَنْ كان اللهُ مَعَهُ فمِمَّنْ يخاف؟!

وقوله: (**وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**)، **الخليفةُ**: مَنْ يَخْلُفُ مَنِ استخلفَهُ فيما استَخْلَفَ فيه؛ **والمعنى**: أنِّي أعتمدُ عليكَ وَحْدَكَ ـ يا اللهُ ـ في حفظِ أهلي.

وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ**)؛ **أي**: مِنْ مشقَّته وتَعَبه.

وقوله: (**وَكَآبَةِ المَنْظَرِ**)؛ **أي**: سوءِ الحالِ والانكسارِ؛ بسببِ الحزنِ والألم.

وقوله: (**وَسُوءِ المُنْقَلَبِ**)؛ **أي**: الانقلابِ والقفولِ مِنَ السفرِ بما يُحْزِنُ ويسوءُ؛ سواءٌ في نفسِهِ أو في مالِهِ وأهله.

وقوله: «وإذا رجَعَ قالَهُنَّ وزَادَ فِيهِنَّ: (**آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**)، مِنَ السُّنَّةِ أن يُقالَ هذا عندَ القُفُولِ، وأن يُقالَ كذلك عندَ الإشرافِ على بلدِهِ والقربِ منه؛ لِمَا روى البخاري ومسلم، عن أنس ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى المَدِينَةِ، قَالَ: (**آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**)، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُهَا حَتَّى دَخَلَ المَدِينَةَ»[1].

وقوله: (**آيِبُونَ**)؛ **أي**: نحنُ آيبون، مِنْ «آبَ»: إذا رجَعَ، **والمرادُ**: راجعون بالسلامةِ والخير.

وقوله: (**تَائِبُونَ**)؛ **أي**: إلى اللهِ ﷻ مِنْ ذنوبنا وتفريطنا.

وقوله: (**لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**)؛ **أي**: لِنِعَمِهِ العظيمة، وعطاياهُ الجسيمة، وتسهيلِهِ وتيسيره.

ومِنَ السُّنَّةِ: التكبيرُ عندَ صعودِ الأشرافِ والأماكنِ المرتفعة، والتسبيحُ عندَ نزولِ الأوديةِ والأمكنةِ المنخفضة؛ ففي «البخاري»، **عن جابر بن عبد الله** ﷺ، **قال**: «كُنَّا إذا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا»[2].

وفي التكبير في الصعودِ: شُغْلٌ للقلبِ واللسانِ بتعظيمِ الرَّبِّ وإعلانِ

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٠٨٥)، و«صحيح مسلم» رقم (١٣٤٥).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٢٩٩٣).

كبريائِهِ وعظمته، وفيه طَرْدٌ لِلْكِبْرِ والعُجْبِ والغرور، وفي التسبيحِ في الهبوطِ: تَنْزِيهٌ للهِ عَنِ النقائصِ والعيوب، وعَنْ كلِّ ما يُنافِي ويُضَادُّ كمالَهُ وجَلالَه.

وكان مِنْ هديِهِ ﷺ الدعاءُ لِمَنْ أرادَ السَّفَرَ بالحفظِ، وحُسْنِ العاقبةِ، وتيسيرِ الأمر، مع الوصيَّةِ بتقوى الله ﷻ.

ففي «جامع الترمذي»، عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما: «كَانَ يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا: ادْنُ مِنِّي أُوَدِّعْكَ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُوَدِّعُنَا، فَيَقُولُ: (**أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ، وَأَمَانَتَكَ، وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ**)»(١)؛ **أي**: أسألُ اللهَ أنْ يَحْفَظَها عليك.

وفي «جامع الترمذي» أيضًا، عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ، فَأَوْصِنِي، قَالَ: (**عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ**)، فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ: (**اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ**)»(٢).

وفي «جامع الترمذي» أيضًا، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا، فَزَوِّدْنِي، قَالَ: (**زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى**)، قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: (**وَغَفَرَ ذَنْبَكَ**)، قَالَ: زِدْنِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: (**وَيَسَّرَ لَكَ الخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ**)»(٣).

وكان ﷺ يوصي مَنْ أرادَ السفرَ أنْ يَدْعُوَ لِمَنْ يُخلِّفُ بأنْ يكونَ في وَدَاعِ اللهِ وحفظِهِ؛ ففي «عمل اليوم والليلة» لابن السُّنِّيِّ، عن موسى بن وَرْدان، قال: «أتيتُ أبا هُرَيْرَةَ أُوَدِّعُهُ لسفرٍ أردتُهُ، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: أَلَا أُعَلِّمُكَ

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/٧)، وأبو داود رقم (٢٦٠٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٤٤٣)، وابن ماجه رقم (٢٨٦٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٣٧٣٨).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٤٥)، ورواه ابن ماجه رقم (٢٧٧١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢٧٣٩).

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٤٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢٧٣٩).

يا ابن أَخِي شيئًا عَلَّمَنِيهِ رسولُ اللهِ ﷺ أقولُهُ عندَ الوداعِ؟ قال: قلتُ: بَلَى، قال: قل: «**أَسْتَوْدِعُكُمُ اللهَ الَّذِي لا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ**»، ورواه ابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وَدَّعَنِي رسولُ اللهِ ﷺ، فقال، وذَكَرَهُ[١]؛ **أي**: إنَّه سبحانه يحفظُ ما استُودِعَ.

عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إِذَا اسْتُودِعَ اللهُ شَيْئًا، حَفِظَهُ**»[٢].

فنسألُ اللهَ أن يَحْفَظَ علينا دِينَنَا، وأنْ يُوَفِّقَنا جميعًا لكلِّ خير.

* * *

(١) «عمل اليوم والليلة» رقم (٥٠٥)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٨٢٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (٢٢٧٨).

(٢) رواه ابن حبان (٢٣٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح موارد الظمآن» (٢٠١٦).

١٦٨

مَا يَقُولُهُ إِذا نَزَلَ مَنْزِلًا أَوْ رَأَىٰ قَرْيَةً أَوْ بَلْدَةً يُرِيدُ دُخُولَهَا

لقد كان الحديثُ عن الأذكارِ التي يُسْتَحَبُّ للمسلم أن يَقُولَها عندَ ركوبِ الدَّابَّةِ وعندَ السَّفَرِ، وهي أذكارٌ مباركةٌ، لها آثارُهَا الحميدةُ على الرَّاكِبِ والمسافرِ في سَدَادِ أمرِهِ، وسلامتِهِ، وحفظِهِ مِنَ الآفاتِ والشرور.

ثمَّ إنَّ المسلمَ يُسْتَحَبُّ له إذا نزَلَ مَنْزِلًا أن يقول: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ فإنَّهُ إنْ قال ذلكَ، حُفِظَ ووُقِيَ ـ بإذنِ الله ـ ولم يَضُرَّهُ شيءٌ حتى يَرْتَحِلَ مِنْ ذلكَ المكانِ الذي نزَلَ فيه.

ففي «صحيح مسلم»، مِنْ حديثِ خَوْلَةَ بنتِ حَكِيم ﵂، قالتْ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: (**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**)[١].

وهو دعاءٌ عظيمٌ؛ فيه التجاءٌ إلى اللهِ ﷻ، واعتصامٌ به، وتَعَوُّذٌ بكلماتِهِ، خلافَ ما كان عليه أهلُ الجاهليَّةِ مِنَ التعوُّذِ بالجِنِّ والأحجارِ وغيرِ ذلك مما لا يزيدُهُمْ إلَّا رَهَقًا وضَعْفًا وذِلَّةً؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجنّ: ٦]، فنعى تبارَكَ وتعالى عليهم هذه الاستعاذَةَ، وبيَّنَ عواقبَهَا الوخيمة، ومَغَبَّتَها الأليمةَ في الدنيا والآخرة، وشرَعَ سبحانه لعبادِهِ المؤمنينَ الاستعاذَةَ بِهِ وحده، والالتجاءَ إليه دُونَ سواه؛ إذْ هو الذي بِيَدِهِ مقاليدُ الأمور، ونواصي العباد، وأمَّا ما سواه، فإنَّه لا يملكُ لنفسِهِ نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن يَمْلِكَ شيئًا مِنْ ذلك لغيرِهِ.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٨).

وقوله: (**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ**)؛ **أي**: أَلْتَجِئُ وأَعْتَصِمُ، **وكلماتُ اللهِ، قيل**: هي القرآنُ، **وقيل**: هي الكلماتُ الكونيَّةُ القَدَرِيَّةُ؛ **ومعنى (التَّامَّات)؛ أي**: التي لا يَلْحَقُها نقصٌ ولا عَيْبٌ، كما يَلْحَقُ كلامَ البشر.

وفي الحديثِ: دَلَالةٌ على مشروعيَّةِ الاستعاذةِ بصفاتِ الله، وأنَّ الاستعاذةَ عبادةٌ لا يجوزُ صَرْفُها لغيرِ الله، وأنَّ كلامَ اللهِ ـ ومنه القرآنُ ـ ليس بمخلوقٍ؛ إذْ لو كان مخلوقًا، لم يُسْتَعَذْ به؛ لأنَّ الاستعاذةَ بالمخلوقِ لا تجوزُ، بل هي شركٌ باللهِ العظيم.

وقولُه: (**مِن شَرِّ مَا خَلَقَ**)؛ **أي**: مِنْ كلِّ شرٍّ في أيِّ مخلوقٍ قام به الشرُّ مِنْ حيوانٍ أو غيرِه، إنسيًّا كان أو جنيًّا، أو هامَّةً أو دابَّةً، أو رِيحًا أو صاعقةً، أيَّ نوعٍ من أنواعِ البلاء.

وقولُه: (**لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِن مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**)؛ أيَّ شيءٍ كان؛ لأنَّه محفوظٌ بحفظِ الله. لكنْ يُشترَطُ في هذا الدعاءِ وغيرِهِ قابليَّةُ المَحَلِّ، وصِحَّةُ النِّيَّة، وحُسْنُ الثقةِ باللهِ ﷻ، والحِرْصُ على المواظبةِ عليه في كلِّ منزلٍ ينزلُهُ الإنسانُ.

يقول القُرْطُبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا خبرٌ صحيحٌ، وقولٌ صادقٌ، عَلِمْنَا صدقَهُ دليلًا وتجربةً؛ فإنِّي منذ سمعتُ هذا الخبرَ عَمِلْتُ عليه، فلم يَضُرَّني شيءٌ إلى أنْ تَرَكْتُهُ، فلَدَغَتْني عَقْرَبٌ بالمَهْدِيَّةِ ليلًا، فتَفَكَّرْتُ في نفسي، فإذا بي قد نَسِيتُ أنْ أَتَعَوَّذَ بتلكَ الكلماتِ»[(١)].

ويُستحبُّ للمسلم إذا أراد دخولَ قَرْيةٍ أو بلدةٍ أنْ يقولَ: (**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ القَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وخَيْرَ مَا فِيهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ أَهْلِهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا**)؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ ذلك كلَّما رَأَى قَرْيةً يريدُ دُخُولَها؛ كما رواه النسائيُّ وغيرُهُ عن

---

(١) ذكره الشيخ سليمان بن عبد الله في «تيسير العزيز الحميد» (ص٢١٤).

صُهَيْبٍ رضي الله عنه(١) أن النبي ﷺ لم ير قرية يريد دخولها إلا قاله حين يراها.

والقريةُ: اسمٌ للموضعِ الذي يجتمعُ فيه الناسُ مِنَ المساكنِ والأبنيةِ والضِّيَاع، وقد تُطْلَقُ على المُدُنِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]، **فقد قيل**: إنَّها أَنْطَاكِيَةُ، **ويقال لِمَكَّةَ: أم القُرَى؛ وعليه**: فإنَّ هذا الدعاءَ يقال عند دخولِ القريةِ أو المدينة.

وقولُهُ: (**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ**)، فيه توسُّلٌ إلى الله عز وجل بربوبيَّتِهِ للسمٰوات السبعِ وما أَظَلَّتْ تحتها مِنَ النُّجُوم والشمسِ والقمرِ، والأرضِ وما عليها، فقولُه: (**وَمَا أَظْلَلْنَ**): مِنَ الإظلالِ؛ **أَي**: ما ارتفَعَتْ عليه وعَلَتْ، وكانت له كالظُّلَّة.

وقوله: (**وَرَبَّ الأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ**): مِنَ الإقلالِ، **والمرادُ**: ما حَمَلَتْهُ على ظهرها مِنَ الناسِ والدَّوَابِّ والأشجارِ وغيرِ ذلك.

وقوله: (**وَرَبَّ الشَيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ**)، **مِنَ الإضلالِ، وهو**: الإغواءُ والصَّدُّ عن سبيلِ اللهِ؛ قال الله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء].

وإذا عَلِمَ العبدُ أنَّ اللهَ عز وجل ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ، وأنَّه سبحانَهُ بكلِّ شيءٍ محيطٌ، وأنَّ قُدْرَتَهُ سبحانه شاملةٌ لكلِّ شيءٍ، ومشيئتَهُ سبحانه نافذةٌ في كلِّ شيءٍ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ ـ: لجأَ إليه وَحْدَهُ، واستعاذَ به وحدَهُ، ولم يَخَفْ أحدًا سواه.

وقوله: (**وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنَ**)، **يقال**: ذَرَتْهُ الرِّيَاحُ وأَذْرَتْهُ وتَذْرُوهُ؛ **أَي**:

---

(١) رواه الحاكم رقم (١٦٣٤)، و«عمل اليوم والليلة» للنسائي رقم (٥٤٧)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٧٥٩).

أطارَتْهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله: **(فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ القَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا)**، فيه سؤالُ اللهِ ﷻ أن يجعلَ هذه القريةَ مباركةً عليه، وأن يَمْنَحَهُ مِنْ خيرها، وأن يُيَسِّرَ له السُّكْنَى فيها بالسلامةِ والعافية، **(وَخَيْرَ أَهْلِهَا)**؛ **أي**: ما عندهم من الإيمانِ والصلاحِ، والاستقامةِ والتعاونِ على الخيرِ، ونحوِ ذلك، **(وَخَيْرَ مَا فِيهَا)**؛ **أي**: مِنَ الناسِ والمساكنِ والمطاعمِ وغيرِ ذلك.

وقوله: **(وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ أَهْلِهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا)**، فيه تعوُّذٌ باللهِ ﷻ مِنْ جميعِ الشرورِ والمُؤْذِيات؛ سواءٌ في القريةِ نَفْسِها، أو في الساكنينَ لها، أو فيما احتَوَتْ عليه.

فهذه دعوةٌ جامعةٌ لسؤالِ اللهِ الخيرَ، والتعوُّذِ به مِنَ الشرِّ بعدَ التوسُّلِ إليه سبحانه بربوبيَّتِهِ لكلِّ شيء.

ثمَّ إنَّ المسافرَ يُسْتَحَبُّ له في سفرِهِ الإكثارُ مِنَ الدعاءِ لنفسِهِ ووالدَيْهِ وأهلِهِ وولدِهِ وجميعِ المسلمين، ويَتخيَّرُ مِنَ الدعاءِ أجمَعَهُ، مع الإلحاحِ على الله ﷻ؛ لأنَّ دعوةَ المسافرِ مستجابةٌ.

ففي «السنن الكبرى» للبيهقي، من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: **(ثَلاثُ دَعَوَاتٍ لا تُرَدُّ: دَعْوَةُ الوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ)**[1].

وروى أبو داودَ، والترمذي، وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(ثَلاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ لِوَلَدِهِ)**[2].

هذا، وأسألُ اللهَ أن يُوَفِّقَنا جميعًا لطاعته، وأن يُعِينَنا على ذِكْرِهِ وشُكْرِهِ وحُسْنِ عبادتِهِ في سَفَرِنَا وإقامَتِنَا، وفي كلِّ شؤوننا؛ إنَّه سميعٌ مجيب.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٣٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٨٣).

١٦٩

أَذْكَارُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

إنَّ مِنَ السُّنَّةِ للمسلمِ أن يقولَ عندَ بدءِ طعامِهِ وشرابه: **(بِاسْمِ اللهِ)**؛ لِيُحْفَظَ ويُوقَىٰ، وليُبارَكَ له في طعامِهِ وشرابه.

روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، عن عُمَرَ بن أبي سَلَمةَ رضي الله عنهما، قال: «كُنْتُ غُلَامًا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ)**؛ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ»(١).

* **وفي التسميةِ على الطعامِ فوائدُ كثيرةٌ؛ منها**: أنَّه يُبارَكُ له في طعامِهِ؛ ففي سنن أبي داود، وابن ماجه، وغيرهما، عن وَحْشِيِّ بن حَرْب بن وَحْشي، عن أبيه، عن جَدِّه رضي الله عنه: «أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ؟ قَالَ: **(فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ)**، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **(فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ)**»(٢).

* **ومِنْ فوائدِ التسميةِ على الطعام**: طَرْدُ الشيطانِ وإبعادُهُ، فلا يَتمكَّنُ من مشاركةِ الإنسانِ في طعامه؛ ففي «صحيح مسلم»، عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، قال: «كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا، لَمْ نَضَعْ أَيْدِينَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَضَعَ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ**

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥٣٧٦)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٠٢٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٥٠١)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٧٦٤)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٢٨٦).

اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا)»(١).

وثبَتَ في حديث آخرَ أنَّ الشيطانَ يقول ـ عندما يترُكُ المسلمُ التسميةَ عند دخولِ بيتِهِ وعند طعامِهِ ـ: (**أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالعَشَاءَ**)، وفي هذا أنَّ التسميةَ طاردةٌ للشيطان، مانعةٌ له مِنْ دخولِ المَنْزِل، ومِنَ المشاركةِ في الطعامِ والشراب، ويكفي المسلمَ أن يقولَ في هذا الموضعِ: (**بِاسْمِ اللهِ**)، أمَّا زيادةُ «الرحمٰن الرحيم»، فلَمْ يَثْبُتْ بها حديثٌ عن النَّبِيِّ ﷺ.

ثمَّ إنَّ المسلمَ إنْ نَسِيَ التسميةَ في أوَّلِ طعامِهِ يُشْرَعُ له أن يقولَ في أثنائِهِ إذا ذكَرَ: (**بِاسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**)؛ فقد روى أبو داود، وابن ماجه، وغيرُهما، عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: (**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِهِ، فَلْيَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**)(٢).

وقد أفاد هذا الحديثُ أنَّ مَحَلَّ التسميةِ قبل البدءِ بالطعامِ، فإنْ نَسِيَها المسلمُ في هذا الموضعِ، أجزأَهُ أن يَأْتِيَ بالتسميةِ في أثنائِهِ بهذه الصيغةِ المذكورةِ في الحديث.

وقد جاء في حديثٍ في إسنادِهِ ضعفٌ أنَّ الشيطانَ يستقيءُ ما في بطنِهِ إذا أتى المسلمُ بهذه التسمية؛ وذلك فيما رواه أبو داود، والنسائي، عن أميَّة بن مَخْشِيٍّ رضي الله عنه، قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ جالسًا ورَجُلٌ يأْكُلُ، فلَمْ يُسَمِّ حتى لَمْ يَبْقَ مِنْ طَعَامِهِ إلَّا لُقْمَةٌ، فلمَّا رَفَعَهَا إلى فيه، قال: بِاسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٠١٧).

(٢) «سنن أبي داود» رقم (٣٧٦٧)، و«جامع الترمذي»، رقم (١٨٥٨)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٢٦٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٨٠).

وَآخِرَهُ، فضحِكَ النَّبِيُّ، ثمَّ قال: (**مَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ، فَلَمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللهِ، اسْتَقَاءَ مَا فِي بَطْنِه**)(١)، لكنَّ الحديثَ ضعيفٌ، ضعَّفه الحافظ ابن حَجَرٍ وغيرُه، وأمَّا التسميةُ في أثناءِ الطعامِ في حقِّ مَنْ نَسِيَ بقول: (**بِاسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**)، فهي ثابتةٌ كما في الحديثِ الذي قبله.

ثمَّ على المسلم أن يَحْمَدَ اللهَ ﷻ إذا فرَغَ مِنْ طعامِهِ وشُرْبِهِ؛ فإنَّ اللهَ ﷻ يرضى عن عبدِهِ إذا فعَلَ ذلك؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**)(٢).

وقد جاء في السُّنَّةِ صِيَغٌ عديدةٌ للحمدِ بعدَ الطعامِ، فإنْ تمكَّنَ المسلمُ من حِفْظها والإتيانِ بها هذا مَرَّةً وهذا مَرَّةً، فهو ـ لا شكَّ ـ أكملُ في حقِّه، وأبلغُ في متابعتِهِ لنبيِّه ﷺ، وإنْ لَمْ يتمكَّنْ من ذلك، فلا يَدَعْ أن يقولَ عَقِبَ طعامه: (**الحَمْدُ للهِ**)؛ فهي كلمةٌ عظيمةٌ مُبارَكةٌ حبيبةٌ إلى الله ﷻ.

* **ومِنَ الصِّيَغِ الثابتةِ في الحمدِ بعدَ الطعام**: ما رواه أبو داود، والترمذي، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: (**مَنْ أَكَلَ طَعَامًا، ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ**)(٣).

* **ومنها**: ما رواه البخاري، عن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ، قَالَ: (**الحَمْدُ للهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلَا مُوَدَّعٍ، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا**)»(٤).

ومعنى قوله: (**غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلَا مُوَدَّعٍ، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ**)؛ **أي**: الحمد، **فكأنَّه قال**: حمدًا كثيرًا غيرَ مَكْفِيٍّ ولا مُوَدَّعٍ، ولا مُستغنًى عن هذا الحمدِ.

---

(١) «المسند» (٤/ ٣٣٦)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٧٦٨)، **وانظر**: «إرواء الغليل» (٧/ ٢٦).
(٢)(٣)(٤) تقدم تخريجها (ص٢٠٢).

* **ومن الصِّيَغ الواردةِ في هذا**: ما رواه أحمد وغيره، عن عبد الرحمٰن بن جُبَيْرٍ، أنَّه حَدَّثَهُ رجلٌ خدَمَ رسولَ اللهِ ﷺ ثمان سنينَ، أنَّه كان سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ إذا قُرِّب إليه الطعامُ يقولُ: (**بِاسْمِ اللهِ**)، وإذا فرَغَ قال: (**اللَّهُمَّ أَطْعَمْتَ وَأَسْقَيْتَ، وَأَغْنَيْتَ وَأَقْنَيْتَ، وَهَدَيْتَ وَأَحْيَيْتَ، فَلَكَ الحَمْدُ عَلَى مَا أَعْطَيْتَ**)(١).

ويُستحبُّ للمسلم إذا تناوَلَ طعامَ الإفطارِ مِنْ صيامِهِ أن يقولَ: (**ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ العُرُوقُ، وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ**)؛ لِمَا رواه أبو داود، عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا أَفْطَرَ، قَالَ: (**ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ العُرُوقُ، وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ**)»(١).

وقد جاءتِ السُّنَّةُ بأنواعٍ مِنَ الأدعيةِ يُدْعَى بها لأهلِ الطعام، فيُستَحَبُّ للمسلمِ أن يَحفَظَ ما تيسَّرَ له مِنْ ذلك، وأن يقولَهُ لِمَنْ ضَيَّفَهُ أو قَدَّمَ له طعامًا.

* **ومِنْ هذه الأدعية**: ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، عن المِقْداد رضي الله عنه، قال: «أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي، وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الجَهْدِ، فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ ...»، فَذَكَرَ الحَدِيثَ بِطُولِهِ، وفيه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (**اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي، وَاسْقِ مَنْ سَقَانِي**)(٢).

* **ومنها**: ما رواه مسلمٌ أيضًا، عن عبد الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه، قال: «نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي، قَالَ: فَقَرَّبْنَا إِلَيْهِ طَعَامًا، وَوَطْبَةً [**أي**: حَيْسًا، وهو مكوَّنٌ من التمرِ والأَقِط والسَّمْن]، فَأَكَلَ مِنْهَا، ثُمَّ أُتِيَ بِتَمْرٍ، فَكَانَ يَأْكُلُهُ وَيُلْقِي النَّوَى بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ، وَيَجْمَعُ السَّبَّابَةَ وَالوُسْطَى، ثُمَّ أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَهُ، ثُمَّ نَاوَلَهُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ، قَالَ: فَقَالَ أَبِي ـ وَأَخَذَ بِلِجَامِ دَابَّتِهِ ـ: ادْعُ اللهَ لَنَا، فَقَالَ: (**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِيمَا رَزَقْتَهُمْ، وَاغْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمْهُمْ**)»(٣).

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٠٢).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٠٥٥).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٠٤٢).

* **ومنها**: ما رواه أبو داود، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ إِلَى سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ، فَجَاءَ بِخُبْزٍ وَزَيْتٍ فَأَكَلَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ المَلَائِكَةُ)**»(١).

وكم هو جميلٌ بالمسلم أنْ يراعيَ في الطعامِ آدابَهُ وأذكارَهُ؛ ليكونَ ذلك أبرَكَ له في طعامِهِ وأهنأَ وأمرأَ.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «إذا جمَعَ الطعامُ أربعًا، فقد كَمُلَ: إذا ذُكِرَ اسمُ اللهِ في أوَّله، وحُمِدَ اللهُ في آخره، وكَثُرَتْ عليه الأيدي، وكان مِنْ حِلٍّ»(٢)؛ وبالله وحده التوفيق.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١١٧)، و«سنن أبي داود» رقم (٣٨٥٤)، وابن ماجه رقم (١٧٤٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٣٢٦٣).

(٢) **انظر**: «زاد المعاد» (٤/ ٢٣٢).

١٧٠

مَا وَرَدَ فِي السَّلَامِ

إنَّ مِنْ آدابِ الإسلام الحميدة، وخصالِهِ الرشيدة: إفشاءَ السَّلَام؛ فإنَّ السلامَ تَحِيَّةُ المؤمنين، وشِعَارُ الموحِّدين، وداعيةُ الإخاءِ والأُلْفةِ والمَحَبَّةِ بين المسلمين، وهو تحيَّةٌ مُبارَكةٌ طيِّبةٌ، كما وصفَهُ بذلك ربُّ العالمين؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النُّور: ٦١]، وهو تَحِيَّة أهلِ الجَنَّة، يُحَيِّيهم بها الملائكةُ الكرام، وذلك عندما يُساقُ أهلُ الجَنَّةِ إلى الجَنَّةِ زُمَرًا، وتُفْتَحُ لهم أبوابُها الثمانية، فيَتَلَقَّاهم خَزَنَتُها بهذه التحيَّةِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٣]، وهو تَحِيَّةُ أهلِ الجَنَّةِ بينهم؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وهو تَحيَّةُ الملائكة، وتحيَّةُ آدَمَ وذريَّته.

ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: **(خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ؛ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ المَلَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ)**[١].

* **ومِنْ فضائلِ السلام**: أنَّه مِنْ خيرِ الإسلام؛ ففي «الصحيحين»، عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: **(تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَن لَّمْ تَعْرِفْ)**»[٢].

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٢٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٨٤١).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٢٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٩).

وهو حقٌّ للمسلم على أخيه المسلم؛ لقوله ﷺ: **(حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ سِتٌّ)**، وذكَرَ منها: **(وَإِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّم عَلَيْهِ)**(١).

وهو سببٌ عظيمٌ للأُلْفَةِ بين المسلمين والمَحَبَّةِ بين المؤمنين؛ كما قال ﷺ: **(لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؛ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ)**؛ رواه مسلم(٢).

والمَحَبَّةُ الحاصلةُ هنا سببُها أنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ المتلاقيَيْنِ يدعو للآخَرِ بالسلامةِ مِنَ الشرور، وبالرحمةِ الجالبةِ لكلِّ خير؛ ولهذا ثبَتَ في «المسند» وغيرِهِ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: **(أَفْشُوا السَّلَامَ تَسْلَمُوا)**(٣)؛ **أي**: تَسْلَمُوا من كلِّ مُوجِبٍ للفُرْقةِ والقطيعة، وكيف إذا انضمَّ إلى هذا بشاشةُ الوَجْه، وحُسْنُ الترحيب، وجمالُ الأخلاق.

وعلى المُسلَّم عليه رَدُّ التحيَّةِ بأَحْسَنَ منها أو مِثْلِها؛ لقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾ [النِّساء: ٨٦].

وخيرُ الرَّجُلَيْنِ مَنْ يبدأُ صاحبَهُ بالسَّلَام؛ ففي «سنن أبي داود»، عن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللهِ مَن بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ)**(٤).

وإذا لَم يُسَلِّمْ مَنْ يُطْلَبُ منه ابتداءُ السلام، فليُسَلِّمِ الآخَرُ، ولا يتركوا السُّنَّةَ.

ومِنَ السُّنَّةِ أن يُسلِّمَ الصغيرُ على الكبير، والقليلُ على الكثير، والراكبُ على الماشي، والماشي على القاعد؛ ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى المَاشِي، وَالمَاشِي عَلَى القَاعِدِ،**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٧٣).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٥٤).
(٣) «المسند» (٤/٢٨٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٠٨٧).
(٤) «سنن أبي داود» رقم (٥١٩٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٢٧٠٣).

والقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ)، وفي رواية للبخاري: (يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الكَبِيرِ، والمَارُّ عَلَى القَاعِدِ، والقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ)(١).

وكان ﷺ يُسَلِّمُ على الصبيانِ، ويَبْدَؤُهُمْ بالسَّلَام، وهذا مِنْ كمالِ تواضعه، وهو دَأْبُ السَّلَفِ الصالحِ رحمهم الله؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن يَسَارٍ، قال: «كنتُ أَمْشِي مَعَ ثابتٍ البُنَانِيِّ، فَمَرَّ بِصِبْيَانٍ فسَلَّمَ عليهم، وحَدَّثَ ثابتٌ أنَّه كان يَمْشِي مَعَ أنسٍ رضي الله عنه، فمَرَّ بصبيانٍ فسَلَّمَ عليهم، وحدَّث أنسٌ أنَّه كان يَمْشِي مع رسولِ اللهِ ﷺ، فمَرَّ بصبيانٍ فسَلَّمَ عليهم»(٢).

ثمَّ إنَّ ابتداءَ السلامِ سُنَّةٌ مؤكَّدةٌ؛ فإنْ كان المُسَلِّمُ جماعةً كَفَى عنهم واحدٌ، ولو سَلَّمُوا جميعًا كان أفضلَ.

ورفعُ الصوتِ بابتداءِ السَّلَام سُنَّةٌ لِيَسْمَعَهُ المسلَّمُ عليهم كلُّهم سماعًا محقَّقًا؛ لحديث: (أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ).

وإن سلَّمَ على أيقاظٍ ونيامٍ، خَفَضَ صوتَهُ بحيثُ يُسْمِعُ الأيقاظَ، ولا يُوقِظُ النيامَ، وهذا أدبٌ إسلاميٌّ رفيعٌ، وقد كان النَّبِيُّ ﷺ يجيءُ من اللَّيل فيُسلِّمُ تسليمًا لا يُوقظ نائمًا، ويُسْمِعُ اليقظانَ. رواه مسلم في «صحيحه» ضمنَ حديثٍ طويلٍ(٣).

ويُسَنُّ أن يَبْدَأَ بالسَّلَامِ قبلَ الكلامِ؛ لحديثِ: (مَنْ بَدَأَ بِالكَلَامِ قَبْلَ السَّلَامِ، فَلَا تُجِيبُوهُ)؛ رواه ابن السُّنِّيِّ في «عمل اليوم والليلة»(٤).

وكلَّما زاد المسلِّمُ مِنْ صِيَغِ السلامِ المأثورةِ، زاد أَجْرُه؛ بكلِّ واحدةٍ عَشْرُ حسناتٍ؛ روى أبو داود، والترمذي، عن عِمْرانَ بن حُصَيْنٍ رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ:

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٣٢، ٦٢٣٤)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٦٠).
(٢) رواه البخاري مختصرًا رقم (٦٢٤٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٦٨).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٠٥٥).
(٤) «عمل اليوم والليلة» رقم (٢١٠)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٨١٦).

(عَشْرٌ)، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: **(عِشْرُونَ)**، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: **(ثَلَاثُونَ)**[1].

ولا يزيدُ المسلِّمُ على هذا؛ كأنْ يقول: «ومغفرتُه ومَرْضَاتُه»؛ لأنَّ السَّلامَ المسنونَ انتهىٰ إلى: **(وَبَرَكَاتُهُ)**، ولو كان في الزيادةِ خيرٌ، لَدَلَّنا إليه رسولُ اللهِ ﷺ؛ روى مالك في «الموطأ»، **عن محمَّد بن عَمْرو بن عَطَاء، أنَّه قال**: «كنتُ جالسًا عندَ عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فدخَلَ عليه رَجُلٌ مِنْ أهلِ اليَمَنِ، فقال: السَّلَامُ عليكُمْ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ، ثُمَّ زادَ شيئًا مع ذلك أيضًا، قال ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، وهو يومئذٍ قد ذهَبَ بَصَرُهُ: مَنْ هذا؟ قالوا: هذا اليَمَانِيُّ الذي يَغْشَاك، فعرَّفُوهُ إيَّاه، فقال ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: إنَّ السَّلامَ انْتَهَى إلى البَرَكَةِ»[2].

* **ومِنْ أحكامِ السلامِ**: أنْ لَا يُقْصَرَ على المعرفةِ، بل يُسلِّمُ المسلمُ على مَنْ عرَفَ ومَنْ لَمْ يَعْرِف، وقد مرَّ معنا حديثُ عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما في هذا، وجاء في السُّنَّةِ: أنَّ مِنْ أشراطِ الساعةِ قَصْرَ السلامِ على المعرفةِ؛ ففي «المسند» بسندٍ جَيِّدٍ، عن الأسود بن يزيد، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ إِذَا كَانَتِ التَّحِيَّةُ عَلَى المَعْرِفَةِ)**[3]، وفي رواية: **(أَنْ يُسَلِّمَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ لا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا لِلْمَعْرِفَةِ)**.

* **ومِنْ أحكامِ السلامِ**: أن لا يُبْدَأَ اليهودُ والنصارى بالسلامِ؛ لقوله ﷺ: **(لَا تَبْدَؤُوا اليَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ)**[4]، وإذا بَدَؤُوا هم بالسلامِ، فإنَّه يُكتفى بالردِّ عليهم بأن يُقالَ: **(وَعَلَيْكُمْ)**؛ لِمَا في «الصحيحين»، عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **(إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ،**

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠)، و«سنن أبي داود» رقم (٥١٩٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٦٨٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٢٧١٠).

(٢) «موطأ مالك» رقم (٢٧٥٨).

(٣) «المسند» (١/ ٣٨٧)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (٦٤٨).

(٤) رواه مسلم رقم (٢١٦٧).

فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقُلْ: وَعَلَيْكُمْ)[١].

وأمَّا أهلُ البِدَعِ والأهواءِ، ففي حُكْمِ السلامِ عليهم تفصيلٌ يُعْلَمُ بمطالعةِ الأدلَّةِ، ومعرفةِ هَدْيِ سلفِ الأُمَّةِ رحمهم الله، فإذا كان المبتدعُ كافرًا بِبِدْعته، وحَكَمَ المحقِّقون مِنْ أهلِ العلمِ بخروجِهِ من المِلَّةِ، فإنَّه لا يُسَلَّمُ عليه؛ إذ حكمُ السَّلَامِ عليه كحُكْمِ السلام على الكُفَّارِ سواءً.

أمَّا إذا لَمْ يَبْلُغْ ببدعتِهِ حَدَّ الكُفْر، فالسلامُ عليه جائزٌ ابتداءً وردًّا ما دام أنَّ الإسلامَ ـ وهو مُوجِبُ استحقاقِهِ للسلامِ ـ موجودٌ فيه، وهكذا الشأنُ في العُصاةِ مِنْ أهلِ الإسلام.

وإنَّما يُشْرَعُ تركُ السلامِ على هؤلاءِ في بعض الأحوال إذا كان في تركِهِ تحصيلُ مصلحةٍ راجحةٍ، أو دفعُ مفسدةٍ متحقِّقةٍ؛ كأَنْ يَتْرُكَ السلامَ عليهم؛ تأديبًا لهم، أو زَجْرًا لغيرهم، أو صيانةً لنفسِهِ مِنَ التأثُّرِ بهم؛ أو غيرِ ذلكَ مِنَ المقاصدِ الشرعيَّة.

وأمَّا التهاجُرُ والتقاطُعُ وتركُ السلامِ بلا سببٍ شرعيٍّ، فهو أمرٌ لا يُحبُّهُ الله مِنْ عباده، ونسألُ اللهَ أنْ يجمعَ المسلمين على الحقِّ والهُدَى، وأن يُؤلِّفَ بين قُلُوبِهِمْ على البِرِّ والتقوى، وأنْ يَهْدِيَنَا جميعًا سواءَ السبيل.

❁ ❁ ❁

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٥٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٦٤).

١٧١

مَا يُقَالُ عِنْدَ العُطَاسِ، وَمَا يُفْعَلُ عِنْدَ التَّثَاؤُبِ

الحديثُ هنا عَمَّا يُقالُ عندَ العُطَاسِ وما يُفْعَلُ عندَ التثاؤب؛ روى البخاري في «صحيحه»، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: **(إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العُطَاسَ، وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ؛ فَإِذا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ، فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُشَمِّتَهُ، وَأَمَّا التَّثَاؤُبُ، فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِذاً قَالَ: هَاء، ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ)**(١).

والحِكْمةُ في الحَمْدِ عِنْدَ العُطَاسِ: أنَّ العاطسَ ـ **كما يقول ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللهُ ـ: «قد حصَلَ له بالعُطَاسِ نِعْمةٌ ومنفعةٌ بخروجِ الأَبْخِرةِ المحتقنةِ في دِمَاغه، التي لو بَقِيَتْ فيه أحدَثَتْ له أدواءً عسيرةً؛ ولهذا شُرِعَ له حمدُ اللهِ على هذه النِّعْمة، مع بقاءِ أعضائِهِ على التئامها وهيئتها بعدَ هذه الزلزلةِ التي حصَلَتْ للبدن؛ فللَّهِ الحمدُ كما ينبغي لكريمِ وجهِهِ وعِزِّ جَلَالِه»(٢).

وقد تَقَدَّمَ في الحديث: **(إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العُطَاسَ)**؛ وذلك لِمَا فيه من النَّفْعِ والخيرِ للإنسان، ولِمَا يَترتَّبُ عليه مِنْ حمدٍ وثناءٍ ودعاءٍ.

وأمَّا التثاؤُبُ، فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّهُ؛ لأنَّه مِنَ الشيطانِ، ولأنَّه ـ في الغالب ـ لا يكونُ إلَّا مَعَ ثِقَلِ البدنِ وامتلائِهِ واسترخائه، ومَيْلِهِ إلى الكَسَل، والمسلمُ مأمورٌ بكظمِهِ ما استطاع؛ ففي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **(التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَرُدَّهُ مَا**

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٢٣).

(٢) **انظر**: «زاد المعاد» (٢/٤٣٨ ـ ٤٣٩).

اسْتَطَاعَ؛ **فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَالَ: هَا، ضَحِكَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ**)، وفي لفظٍ لمسلمٍ: (**فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ**)[١].

وقولُه: (**فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ**) هذا يكونُ بمحاولةِ مَنْعِ حصولِ التثاؤب، فإنْ لَمْ يَتمكَّنْ مِنْ ذلك، يحاولُ إغلاقَ فَمِهِ عندَ حصوله، فإنْ لَمْ يَتمكَّنْ مِنْ ذلك، وضَعَ يدَهُ أو طَرْفَ لباسِهِ على فمه.

ولا يليقُ بالمسلمِ أن يَتثاءَبَ مفتوحَ الفَمِ دونَ وضعِ يَدِهِ أو شيءٍ من لباسِهِ على فيه؛ فإنَّ هذا ـ إضافةً إلى ما فيه مِنْ قبحٍ في الهيئةِ والمنظر ـ فإنَّه ذريعةٌ وسبيلٌ لدخولِ الشيطان؛ فقد روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن أبي سعيد الخُدْري ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ عَلَى فِيهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ**)[٢].

والتعوُّذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ عندَ التثاؤُبِ لَمْ يثبُتْ فيه دليلٌ؛ لكنْ إنْ تَذكَّرَ المسلمُ عندَ التثاؤُبِ أنَّ ذلكَ مِنَ الشيطان، وتَعوَّذَ باللهِ منه، فلا حرَجَ في ذلك ما لم يَتَّخِذْهُ سُنَّةً.

وأمَّا فيما يَتعلَّقُ بالعُطَاس، فقد جاءتِ السُّنَّةُ بجملةٍ مِنَ الآدابِ والأحكامِ العظيمةِ التي يَحْسُنُ بالمسلمِ مراعاتُها والعنايةُ بها، وهي مِنْ جمالِ هذه الشريعةِ وكمالِها، ووفائِهَا بكلِّ شؤونِ الإنسانِ وجميعِ أحواله.

روى البخاري في «صحيحه»، عن أبي هريرة ﵁، عن النبيِّ ﷺ، قال: (**إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلِ: الحَمْدُ للهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ ـ أَوْ صَاحِبُهُ ـ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ اللهُ، وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ**)[٣]؛ أي: شأْنَكُمْ.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٢٨٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٩٩٤).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٩٩٥).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٢٤).

۞ **فانظر - أخي المسلمُ رَعَاكَ الله - إلى هذا الجمالِ والكمالِ الذي دعَتْ إليه الشريعةُ عند العُطَاس**؛ حَمْدٌ وثناءٌ، وتراحُمٌ ودعاءٌ؛ العاطسُ يَحْمَدُ اللهَ، ومَنْ يَسْمَعُهُ يدعو له بالرحمة، ثم هو يُبادِلُ الدعاءَ بالدعاءِ، فيدعو لِمَنْ شَمَّتَهُ بالهدايةِ وصلاحِ الحال؛ فما أقواها مِنْ لُحْمة! وما أجمَلَهُ مِنْ ترابُطٍ ووصال!

بل جعَلَ الإسلامُ تشميتَ العاطسِ حَقًّا مِنَ الحقوقِ المتبادلةِ بين المسلمين؛ ففي «الصحيح»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: **(حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ وَحَمِدَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ)**[(١)].

والتشميتُ هو: الدعاءُ بالخير، **قيل**: هو مشتقٌّ مِنَ الشوامتِ، وهي القوائمُ؛ كأنَّه دعا له بالثباتِ والقيامِ بالطاعة، **وقيل**: معناه: أَبْعَدَكَ اللهُ عن الشماتةِ، وجَنَّبَكَ ما يُشْمَتُ عليك به.

ثمَّ إنَّ هذا التشميتَ إنَّما يستحقُّهُ مَنْ يَحْمَدُ اللهَ عند العُطَاس، وأمَّا مَنْ لَمْ يَحْمَدْ، فإنَّه لا يُشَمَّتُ؛ ففي «الصحيحين»، عن أنس رضي الله عنه، قال: «عَطَسَ عندَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلَانِ، فشَمَّتَ أَحَدَهُمَا ولَمْ يُشَمِّتِ الآخَرَ، فقال الذي لَمْ يُشَمِّتْهُ: عَطَسَ فلانٌ فشَمَّتَّهُ، وعَطَسْتُ أنا فلَمْ تُشَمِّتْنِي، فقال: **(إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللهَ، وَإِنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللهَ)**»[(٢)].

وروى مسلم، عن أبي بُرْدة، قال: «دَخَلْتُ على أبي موسى الأشعريِّ، وهو في بَيْتِ بنتِ الفضلِ بنِ عَبَّاسٍ، فعَطَسْتُ فلم يُشَمِّتْنِي، وعَطَسَتْ فشَمَّتَهَا، فرجعتُ إلى أُمِّي فأخبرتُها، فلمَّا جاءها، قالتْ: عطَسَ عندَكَ ابْنِي فلم تُشَمِّتْهُ، وعَطَسَتْ فشَمَّتَّهَا؟ فقال: إنَّ ابْنَكِ عَطَسَ، فلَم يَحْمَدِ اللهَ فلم أُشَمِّتْهُ، وعَطَسَتْ فحَمِدَتِ اللهَ فَشَمَّتُّها؛ سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: **(إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ، فَحَمِدَ اللهَ، فَشَمِّتُوهُ، فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللهَ، فَلَا تُشَمِّتُوهُ)**»[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٧٣).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٢٢٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٩٩١).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٩٩٢).

والتشميتُ ثلاثُ مَرَّاتٍ، وما زاد فهو زُكَامٌ يُدْعَى لصاحبِهِ بالشِّفَاءِ والعافية؛ روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن سَلَمة بن الأَكْوَع رضي الله عنه، أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ وعَطَس رجلٌ عنده، فقال له: **(يَرْحَمُكَ اللهُ)**، ثمَّ عطَس أخرى، فقال له رسولُ الله ﷺ: **(الرَّجلُ مَزْكُومٌ)**[1]، ورواه الترمذي، وفيه: «ثمَّ عطَسَ الثانيةَ والثالثةَ، فقال رسول الله ﷺ: **(هَذَا رَجُلٌ مَزْكُومٌ)**»[2].

وروى أبو داود في «سننه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعًا وموقوفًا: **(شَمِّتْ أَخَاكَ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، فَمَا زَادَ فَهُو زُكَامٌ)**[3].

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وقوله في هذا الحديث: **(الرَّجُلُ مَزْكُومٌ)** تنبيهٌ على الدعاءِ له بالعافيةِ؛ لأنَّ الزَّكْمَةَ علةٌ، وفيه اعتذارٌ مِنْ تركِ تشميتِهِ بعدَ الثلاثِ، وفيه تنبيهٌ له على هذه العِلَّةِ ليتداركها ولا يُهْمِلَهَا، فيَصْعُبَ أَمْرُها؛ فكلامُهُ ﷺ كلُّه حكمةٌ ورحمةٌ، وعِلْمٌ وهُدًى»[4].

ومن السُّنَّةِ خَفْضُ الصوتِ بالعُطَاسِ حتى لا يُزْعِجَ الناسَ؛ روى أبو داود، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كانَ رَسُولُ الله ﷺ إذا عَطَسَ، وَضَعَ يَدَهُ أَوْ ثَوْبَهُ على فيه، وخَفَضَ أَوْ غَضَّ بِهَا صَوْتَهُ»[5].

ثمَّ إنَّ العاطسَ والمُشَمِّتَ عليهما أنْ يلتزمَا في ذلكَ بما جاء في السُّنَّةِ، والسُّنَّةُ أن يقولَ العاطسُ: **(الحَمْدُ للهِ)**، وله أن يقول: **(الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ)**؛ لثبوتِ هذه الزيادةِ في «سنن أبي داود»، وأن يقولَ المشمِّتُ: **(يَرْحَمُكَ اللهُ)**، وأن يقولَ له العاطسُ بعد تشميتِهِ: **(يَهْدِيكُمُ اللهُ، وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ)**، وقد تَقَدَّمَ حديثُ أبي هريرةَ رضي الله عنه في هذا[6].

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٩٩٣).

(٢) «جامع الترمذي» رقم (٢٧٤٣).

(٣) «سنن أبي داود» رقم (٥٠٣٤)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٣٣٠).

(٤) «زاد المعاد» (٢/ ٤٤١).

(٥) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٤٣٩)، و«سنن أبي داود» رقم (٥٠٢٩)، والترمذي رقم (٢٧٤٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٥٥).

(٦) انظر: (ص٧١٣).

وللعاطسِ أن يقولَ بدل هذا: **(يَرْحَمُنَا اللهُ وَإِيَّاكَ، وَيَغْفِرُ لَنَا وَلَكُمْ)**؛ لِمَا رواه مالك في «موطئه»، عن نافع، **عن ابن عُمَرَ** رضي الله عنهما: «كانَ إذا عطَسَ، فقيل: يَرْحَمُكَ اللهُ، قال: يَرْحَمُنَا اللهُ وإِيَّاكُمْ، وَيَغْفِرُ لنا ولكم»[١].

وقد أنكر السَّلَفُ ـ رحمهم الله ـ مَنْ يزيدُ على هذا المأثور؛ فقد روى الترمذي في «جامعه»، **أَنَّ رجلًا عطَسَ عندَ ابن عُمَرَ** رضي الله عنهما، **فقال**: «الحمدُ للهِ والسلامُ على رسولِ اللهِ، فقال ابن عُمَرَ: وأنا أقولُ: الحَمْدُ للهِ، والسلامُ على رسولِ اللهِ ﷺ، وليسَ هكذا عَلَّمَنَا رسولُ اللهِ ﷺ، ولكن عَلَّمَنَا أنْ نقولَ: الحمدُ للهِ على كُلِّ حالٍ»[٢].

وفي هذا حِرْصُ السَّلَفِ ـ رحمهم الله ـ على لزومِ السُّنَّةِ واقتفاءِ هدي خَيْرِ الأُمَّةِ وآثارِه؛ أَلْحَقَنَا اللهُ بهم، ووَفَّقَنَا لاتِّباعهم.

❁ ❁ ❁

(١) «الموطأ» رقم (٢٧٧٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٠٧).

١٧٢

ذِكْرُ النِّكَاحِ وَالتَّهْنِئَةِ بِهِ وَالدُّخُولِ بِالزَّوْجَةِ، والذِّكْرُ المُتَعَلِّقُ بِالأَبْنَاءِ

النِّكَاحُ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ عظيمةٌ على عباده، يَتحقَّقُ به مِنَ المنافعِ والمصالحِ والفوائدِ ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، وهو مِنْ سُنَنِ الأنبياءِ والمرسلين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرّعد: ٣٨].

وقد ذكره اللهُ تعالى في مَعْرِضِ التفضُّلِ والامتنانِ في آياتٍ عديدةٍ من القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النّحل: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرُّوم: ٢١].

والقرآنُ الكريمُ فيه آياتٌ عديدةٌ فيها الأمرُ بالنكاح، والترغيبُ فيه، وبيانُ آثارِهِ وثماره، وبيانُ الحقوقِ المتعلِّقةِ به؛ كحُسْنِ العِشْرَةِ، والصُّحْبَةِ بالمعروف، وكفِّ الأذى، ونَحْوِ ذلكَ مِنَ الضوابطِ والحقوق، مِمَّا يُحَقِّقُ للزوجَيْنِ حياةً طَيِّبة، وعِشْرةً صالِحة.

وقد جاء في السُّنَّةِ النَّبويَّةِ أذكارٌ نافعةٌ تَتعلَّقُ بِعَقْدِ النكاح، وبالتهنئةِ به للزوجَيْنِ، وعندَ الدخولِ بالزَّوْجة، وعندَ الجِمَاع؛ يَترتَّبُ على المحافظةِ عليها والعنايةِ بها فوائدُ عديدةٌ، وآثارٌ مباركةٌ تعودُ على الزوجَيْنِ في حياتهما الزوجيَّةِ بالخيرِ والنَّفْعِ والبركة.

فأمَّا الذِّكْرُ عند عقدِ النكاح؛ فقد روى أبو داود، والترمذي، وغيرُهما، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «عَلَّمَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خُطْبَةَ الحَاجَةِ:

(الحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب]»[١].

وهي خُطْبةٌ عظيمةٌ، وذكرٌ مُباركٌ، يُسْتَحَبُّ الإتيانُ به عند عَقْدِ النكاح، وهو مُشْتمِلٌ على معانٍ عظيمة، ودَلَالاتٍ جليلة؛ ففيه: حَمْدُ الله، والاستعانةُ به وحده، وطلبُ مغفرته، والتعوُّذُ به مِنْ شرورِ النَّفْسِ وسَيِّئَاتِ الأعمال، والإيمانُ بقضائِهِ وقدَرِه، والشهادةُ له سبحانه بالوحدانيَّةِ ولنبيِّه بالرِّسَالة، مع الوَصِيَّةِ بِتقوى الله ﷻ وتَذَكُّرِ فضلِهِ ونعمته، ولزومِ طاعتِهِ سبحانه؛ فهي مِنْ جوامع الكَلِم، وقد كانتْ هذه الخُطْبَةُ سببًا لإسلامِ ضِمَامٍ الأزديِّ وقومِهِ في قِصَّةٍ عَجِيبَةٍ رواها الإمام مسلم «في صحيحه»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «فهذه الخُطْبَةُ عَقْدُ نِظَامِ الإسلامِ والإيمان»[٣].

أي: إنَّها جَمَعَتْ ـ مع وَجَازتِها ـ ما ينتظمُ به أمرُ الإسلامِ والإيمانِ من الاعتقاداتِ الصحيحةِ القويمة، والأعمالِ الصالحةِ المستقيمة.

ومِمَّا يُنبَّهُ عليه في هذا المقام: أنَّه لَمْ يَرِدْ دليلٌ على مشروعيَّةِ قراءةِ الفاتحةِ عندَ العَقْد؛ خلافًا لِمَا يَفْعَلُهُ كثيرٌ من عوامِّ المسلمين.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٠٤).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٨٦٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٢٣).

وأمَّا التهنئةُ للزوجَيْنِ بالنكاح؛ فقد جاءتِ السُّنَّةُ بأنْ يُدْعَى لهما بالبَرَكَةِ، وأن يَجْمَعَ اللهُ بينهما في خير.

ففي «الصحيحين»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ أَثَرَ صُفْرَةٍ، فَقَالَ: (**مَا هَذَا؟**) قال: يا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً عَلَى وَزْنِ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: (**فَبَارَكَ اللهُ لَكَ، أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**)»[(١)].

وروى أبو داود، والترمذي، وغيرُهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إذا رَفَّأَ الإِنْسَانَ إذا تَزَوَّجَ، قَالَ: (**بَارَكَ اللهُ لَكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ، وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا فِي خَيْرٍ**)»[(٢)].

وقوله: (**إِذَا رَفَّأَ الإِنْسَانَ إِذا تَزَوَّجَ**)؛ **أي**: إذا هَنَّأَهُ ودعا له بمناسبةِ زواجِهِ، وكان الناسُ في الجاهليَّةِ يقولون للمتزوِّج: «بالرِّفَاءِ والبَنِينَ»، فنهى ﷺ عن ذلك، **وقولهم**: «بالبنين» يتوافقُ مع ما جَرَتْ عليه عادتُهم من الكراهيَةِ للإناثِ، والتنفيرِ منهنَّ، وعَدَمِ الرَّغْبَةِ في مجيئهنَّ، وفي قولهم هذا تأكيدُ هذه الكراهةِ والبغضاء، فنهى ﷺ عن ذلك، وأرشَدَ إلى هذه الدعوةِ المباركةِ المشتملةِ على الدعاءِ لهما بالبركة، وأن يَجْمَعَ اللهُ بينهما في خير.

وأمَّا ما يقولُهُ الزوجُ إذا دخَلَ على زوجتِهِ ليلةَ الزِّفَافِ؛ فقد روى أبو داود، وابن ماجه، عن عَمْرو بن شُعَيْب، عن أبيه، عن جَدِّهِ رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: (**إِذا تَزَوَّجَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً أَوِ اشْتَرَى خَادِمًا، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّهَا وَمِن شَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ، وَإِذَا اشْتَرَى بَعِيرًا، فَلْيَأْخُذْ بِذِرْوَةِ سَنَامِهِ، وَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ**)[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥١٥٥)، و«صحيح مسلم» رقم (١٤٢٧).
(٢) «المسند» (٢/ ٣٨١)، و«سنن أبي داود» رقم (٢١٣٠)، و«جامع الترمذي» رقم (١٠٩١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٩٠٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٧٢٩).
(٣) «سنن أبي داود» رقم (٢١٦٠)، و«سنن ابن ماجه» رقم (١٩١٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (١٥٥٧).

وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا**)؛ **أي**: خيرَ هذه المرأةِ؛ كحُسْنِ المعاشرةِ، وحِفْظِ الفِرَاش، والأمانةِ في المال، ورعايةِ حَقِّ الزوج، ونحوِ ذلك.

وقوله: (**وَخَيْرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ**)؛ **أي**: خَيْرَ ما خَلَقْتَهَا عليه مِنَ الأخلاقِ الحسنة، والطِّبَاعِ المَرْضِيَّة، والسجايا الكريمة.

وقوله: (**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ**)، فيه التعوُّذُ باللهِ والالتجاءُ إليه، بأنْ يَقِيَهُ ويُسَلِّمَهُ مِمَّا فيها مِنْ شرٍّ في خُلُقِهَا وتعامُلِهَا ومعاشرتها وسجاياها.

وهذا فيه دَلَالَةٌ على أنَّ صلاحَ أمرِ الزوجَيْنِ والتئامَ شَمْلِهما لا يَتحقَّقُ إلَّا بالالتجاءِ إلى الله، والاعتمادِ عليه، وسؤالِهِ وَحْدَهُ العونَ والتوفيقَ والصلاحَ.

وأمَّا ما يقولُهُ إذا أراد أن يأتيَ أهلَهُ؛ فقد روى البخاري ومسلم، في «صحيحيهما»، عن عبد الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: (**لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا**)(١).

والحكمةُ في ذلك: أنَّ الشيطانَ له مُشَارَكَةٌ في الأموالِ والأولاد؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، فإذا دعا المسلمُ بهذه الدعوةِ، سَلِمَ مِنْ هذه المشاركةِ، ووُقِيَ من شرِّه.

وقد جاء في السُّنَّة كذلك تعويذُ الأبناءِ للحفظِ مِنَ الشيطان؛ ففي «صحيح البخاري»، عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: (**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ؛ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّة،**

(١) «صحيح البخاري» رقم (٥١٦٥)، و«صحيح مسلم» رقم (١٤٣٤).

مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّهْ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّهْ)»(١).

وكان مِنْ هديه ﷺ فيما يَتعلَّقُ بالأبناءِ الدعاءُ لهم بالبركة؛ **ومِنْ ذلك:** ما رواه البخاري ومسلم، عن أسماءَ رضي الله عنها: «أَنَّهَا أَتَتْ بِابْنِهَا عَبْدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَوَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ حَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ، ثُمَّ دَعَا لَهُ وَبَرَّكَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الإِسْلَامِ»(٢)؛ **أي:** أَوَّلَ مَولُودٍ وُلِدَ بِالمَدِينَةِ مِنَ المُهَاجِرِينَ.

❁ ❁ ❁

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٣٧١).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٣٩٠٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٤٦).

١٧٣

مَا يُقَالُ عِنْدَ الغَضَبِ

الغَضَبُ مِنَ الخصالِ الذَّميمة، والخلالِ المَشِينةِ التي نهى عنها الإسلامُ، وحَذَّرَ منها أشدَّ التحذير، وهو غَلَيانُ دَمِ القَلْبِ وازديادُ خَفَقَانه؛ طلبًا لدفعِ المؤذي عندَ خشيةِ وُقُوعه، أو طلبًا للانتقامِ مِمَّنْ يَحْصُلُ منه الأذى بعدَ وُقُوعه، وينشأُ عن ذلك كثيرٌ من الأفعالِ المحرَّمةِ؛ كالقتلِ، والضَّرْبِ، وأنواعِ الظلمِ والعُدْوان، وكثيرٌ مِنَ الأقوالِ المحرَّمة؛ كالقَذْفِ، والسَّبِّ، والفُحْش، والبَذَاء، وكالأَيْمانِ التي لا يجوزُ التزامُها شرعًا، وكتطليقِ الزوجة، ونحوِ ذلك من الأمورِ التي لا تُعْقِبُ إلَّا النَّدَمَ؛ مِمَّا يَدُلُّ أوضحَ دَلَالةٍ على أنَّ الغضبَ جماعُ الشرِّ ومفتاحُ أبوابه.

روى البخاري في «صحيحه»، عن أبي هريرة ﷺ: «أنَّ رجلًا قال للنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قال: **(لا تَغْضَبْ)**، فردَّدَ مرارًا، قال: **(لَا تَغْضَبْ)**»[(١)].

فهذا الرَّجُلُ قد طلَبَ من النَّبِيِّ ﷺ أن يوصيَهُ بوصيَّةٍ وَجيزةٍ جامعةٍ لخصالِ الخيرِ ليَحْفَظَها ويعملَ بها، فوصَّاه النَّبِيُّ ﷺ أنْ لَا يَغْضَبَ، وردَّد السؤالَ مرارًا والنَّبِيُّ ﷺ يجيبُهُ بقوله: **(لَا تَغْضَبْ)**؛ وفي هذا دَلَالةٌ على أنَّ الغَضَبَ جِمَاعُ الشرِّ ومفتاحُه، وأنَّ التحرُّزَ منه جِماعُ الخير.

وفي «المسند» للإمام أحمد، من حديث الزُّهْري، عن حُمَيْد بن عبد الرحمٰن، عن رجلٍ من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ قال: «قلت: يا رسول الله، أَوْصِنِي، قال: **(لا تَغْضَبْ)**، قال الرَّجُلُ: ففَكَّرْتُ حينَ قال النَّبِيُّ ﷺ ما قال، فإذا الغَضَبُ يَجْمَعُ الشرَّ كلَّهُ»[(٢)].

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦١١٦).

(٢) «المسند» (٥/ ٣٧٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٢٧٤٦).

وقد جاء عن السَّلَفِ ـ رحمهم الله ـ نُقُولٌ عديدةٌ في التحذيرِ من الغضبِ، وبيانِ نتائجِهِ وعواقبِهِ الوخيمة؛ **يقولُ جعفر بن محمَّد** رَحِمَهُ اللهُ: «الغضبُ مفتاحُ كلِّ شرٍّ».

وقيل لعبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: **اجْمَعْ لنا حُسْنَ الخُلُقِ في كلمةٍ، فقال:** «تركُ الغَضَب».

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «قد أفلَحَ مَنْ عُصِمَ مِنَ الهوى، والغَضَبِ، والطَّمَع».

وكان يُقال: «أوَّلُ الغَضَبِ جُنُونٌ، وآخِرُهُ نَدَمٌ»، **ويُقال:** «عَدُوُّ العقلِ الغَضَب»، **ويُقال أيضًا:** «كلُّ العَطَب في الغَضَب».

ولَمَّا كان الغَضَبُ بهذا القدرِ مِنَ الخطورة، كان متعيِّنًا على كلِّ مسلمٍ أن يَحْذَرَ منه، وأن يُجاهِدَ نفسَهُ على البُعْدِ عنه؛ لِيَسْلَمَ مِنْ عواقبه ونتائجه.

وقولُ النَّبِيِّ ﷺ في الحديثِ المتقدِّم: (لَا تَغْضَبْ) يتضمَّنُ أمرَيْنِ عظيمَيْنِ للسلامةِ مِنَ الغضب ونتائجه:

أحدهما: الأمرُ بفعلِ الأسبابِ وتمرينِ النفسِ على حُسْنِ الخلق، والحِلْمِ، والصَّبْرِ، واحتمالِ أذى الناس القوليِّ والفعلي، فإذا وُفِّقَ العبدُ لذلك، فإنَّه إذا وردَ عليه واردُ الغضبِ، احتمَلَهُ بحسنِ خُلُقه، وتلقَّاه بحِلْمِهِ وصبره.

ومن القواعدِ المتقرِّرة: أنَّ الأمرَ بالشيءِ أمرٌ به وبما لا يَتِمُّ إلَّا به، والنَّهْيُ عن الشيء أمرٌ بِضِدِّه؛ فنهيُ النَّبِيِّ ﷺ عن الغضبِ يَتضمَّنُ الأمرَ بالصَّبْرِ، والحِلمِ، وحُسْنِ الخُلُق.

ثانيًا: أنَّ أَمْرَهُ ﷺ بعدمِ الغضبِ فيه أمرٌ بعدمِ تنفيذِ الغضب؛ لأنَّ الغضبَ غالبًا لا يَتمكَّنُ الإنسانُ مِنْ دفعِهِ وردِّه، ولكنَّه يَتمكَّنُ من عدم تنفيذه؛ فعليه أن يَمنعَ نفسَهُ مِنَ الأقوالِ والأفعالِ المحرَّمةِ التي يَجُرُّ الغضبُ إليها، فمتى منع نفسَهُ من آثارِ الغضب الضارَّة، فكأنَّه ـ في الحقيقة ـ لَم يَغْضَبْ؛

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وفي الحديث: **(لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ)**(١).

ولهذا كان الرسولُ ﷺ يوَجِّهُ ويأمرُ مَنْ غَضِبَ بفعلِ الأسباب التي تدفعُ الغضبَ وتُسَكِّنُهُ، ويأمرُ بالتعوُّذِ باللهِ مِنَ الشيطانِ الذي يُحرِّكُ الغضبَ في القلوب، ويُثِيرُ الفتنَ، ويدعو إلى الشرِّ والفساد.

روى البخاري ومسلم، عن سُلَيْمانَ بنِ صُرَدٍ رضي الله عنه، قال: «اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)**، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ»(٢).

وفي الحديثِ دَلَالَةٌ على أنَّ الغضبَ مِنْ نزغِ الشيطان، وأنَّ مَنْ حصَلَ له الغضبُ ينبغي له أن يستعيذَ باللهِ منه؛ كما يَدُلُّ على ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ثمَّ إنَّ الشيطانَ ـ أعاذنا اللهُ منه ـ يَتمكَّنُ من الإنسان حالَ غضبه، فيدفعُهُ إلى ارتكابِ الآثام، ويَؤُزُّهُ إلى السَّبِّ والأذى والإجرام، فإذا استعاذَ المسلمُ باللهِ، حُفِظَ منه ووُقِيَ من شرِّه.

ومِمَّا أرشَدَ النَّبِيُّ ﷺ الغضبانَ إلى فعلِهِ: التباعدُ عن كلِّ ما يستثيرُهُ ويُقرِّبُهُ من الانتقام، سواءٌ بالقولِ أم الفعل:

* **فأمَّا القولُ**: فقد روى الإمام أحمد، من حديث عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما، عن النَّبِيِّ ﷺ، أنَّه قال: **(إذا غَضِبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَسْكُتْ)**؛ قالها ثلاثًا(٣).

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٢٤).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦١١٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦١٠).
(٣) «المسند» (١/ ٢٣٩).

وذلك أنَّ الغضبانَ إن تَكَلَّمَ حالَ غضبِهِ، فإنَّ الغالبَ على كلامِهِ التعدِّي والإساءةُ؛ فمِنَ الخيرِ له أن يَكُفَّ عن الكلامِ حالَ الغضبِ حتى يَسْكُنَ، فإذا سكَنَ، اتَّزَنَ كلامُه، وحَسُنَ حديثُه، وكان كلامُهُ حينئذٍ قريبًا أو مساويًا لكلامِهِ حال الرِّضا، ليس فيه ظلمٌ ولا عُدْوان.

ومِنَ الدعواتِ النبويَّة المباركة: قول النَّبيِّ ﷺ في دعائه: **(وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الغَضَبِ وَالرِّضَا)**(١)، وهذا عزيزٌ أنْ لَا يقولَ الإنسانُ إلَّا الحقَّ، سواءٌ غَضِبَ أو رَضِيَ.

* **وأمَّا الفعلُ**: فقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، وغيرُهما، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **(إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الغَضَبُ، وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ)**(٢).

وذلك أنَّ الغضبانَ إنْ بَقِيَ قائمًا حالَ غضبه، فإنَّه سيكونُ قريبًا مِمَّنْ أغضَبَهُ، متهيِّئًا للانتقامِ منه، فربَّما ضرَبَهُ، أو لطَمَهُ، أو اعتدى عليه، فإذا جلَسَ تباعَدَ منه، وإذا اضطجَعَ كان أبعدَ وأبعدَ.

وهذا فيه دَلَالةٌ على أنَّ الغضبانَ ينبغي عليه أن يَحْرِصَ على أن يملكَ نفسَهُ حالَ الغضب في الأقوالِ والأفعال، فلا يُباشِرُ شيئًا منها حتى يَسْكُنَ ويطمئنَّ؛ ليكونَ قولُهُ حقًّا، وفعلُهُ عدلًا، لا زلَلَ فيه ولا شطَطَ.

واللهُ وحده المسؤولُ أن يُوَفِّقَنَا إلى سديدِ القول، وصالحِ العمل، وأنْ يَهْدِيَنا جميعًا سواءَ السبيل.

❀ ❀ ❀

(١) جزء من حديث عَمَّار بن ياسر رضي الله عنه، وقد تقدَّم (ص٦٢١).

(٢) «المسند» (٥/ ١٥٢)، و«سنن أبي داود» رقم (٤٧٨٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٩٤).

١٧٤

أَدْعِيَةٌ مَأْثُورَةٌ فِي أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ

سنتناولُ ـ فيما يلي ـ أنواعًا من الأدعيةِ المأثورةِ في أبوابٍ متفرِّقة، مع الإشارةِ إلى شيء مِنْ معانيها؛ وهي تَدُلُّ على كمالِ هدي النَّبيِّ ﷺ وعِظَمِ شأنِ أدعيته، وتَنَاوُلِها لجميعِ أبوابِ الخيرِ، في جميعِ شؤونِ الحياة.

* **فمن السُّنَّةِ أن يقولَ مَنْ لَبِسَ ثوبًا جديدًا:** اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ؛ لِمَا رواه أبو داود، والترمذي، وغيرُهما، من حديث أبي سَعِيدٍ الخُدْريِّ ﷺ، قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا، سَمَّاهُ بِاسْمِهِ، عِمَامَةً أَوْ قَمِيصًا أَوْ رِدَاءً، ثُمَّ يَقُولُ: (**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**)(١).

وقوله: «اسْتَجَدَّ ثَوْبًا»؛ **أي**: لَبِسَ ثَوْبًا جَدِيدًا.

وقوله: (**أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ، وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ**)، مِنْ أعظمِ خيرِهِ أنَّه يَسْتُرُ عَوْرَةَ الإنسان، ويُوارِي سَوْءَتَه، ويُجَمِّلُ هَيْئَتَه، ويُحَسِّنُ مَظْهَرَهُ ومنظرَه.

وقوله: (**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**)، مِنْ أعظمِ شرِّهِ أنْ يُلْبَسَ على وجهِ الأَشَرِ والكِبْرِ والتعالي على الخلق، ومَنْ لَمْ يُزَيِّنْ بَاطِنَهُ، لَم تُغْنِ عنه زينتُهُ الظاهرةُ شيئًا؛ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

* **ويُستحبُّ للمسلمِ إذا رَأَى على صاحبِهِ ثوبًا جديدًا أن يقولَ:**

---

(١) «المسند» (٣/ ٣٠)، «سنن أبي داود» رقم (٤٠٣٠)، و«جامع الترمذي» رقم (١٧٦٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٦٦٤).

تُبْلِي وَيُخْلِفُ اللهُ تَعَالَى؛ فقد روى أبو داود، **عن أبي نَضْرة، قال**: «كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إذا لَبِسَ أَحَدُهُمْ ثَوْبًا جَدِيدًا، قِيلَ لَهُ: تُبْلِي وَيُخْلِفُ اللهُ تَعَالَى»[(١)].

وقد جاء نحوُه مرفوعًا من حديث أم خالدٍ بنتِ خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنها، رواه البخاري في «صحيحه»[(٢)].

وقولهم: «تُبْلِي ويُخْلِفُ اللهُ»، فيه دعاءٌ له بأن يُبْقِيَهُ اللهُ ويَبْلَى الثوبُ، ويُخْلِفَهُ اللهُ خيرًا منه.

* **ومن السُّنَّة أن يقولَ المسلمُ لِمَنْ صنَعَ إليه معروفًا**: جزاكَ اللهُ خيرًا؛ فإنَّها دعوةٌ عظيمةٌ، وثناءٌ بالغ؛ روى الترمذي، عن أُسَامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ)**[(٣)].

* **وكان مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ الدعاءُ بالبَرَكَةِ عندَ رؤيةِ باكورةِ الثَّمَر**؛ روى مسلم في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّه قال: «كَانَ النَّاسُ إِذا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاؤُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: **(اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ)**، قَالَ: ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ لَهُ، فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ»[(٤)].

* **ومِنَ السُّنَّةِ إذا كان عندَ الإنسانِ شيءٌ، وخافَ عليه مِنَ العَيْنِ**: ذِكرُ اللهِ، والدعاءُ، والاستعاذة.

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٠٢٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٣٣٩٣).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٥٨٢٣).
(٣) تقدم تخريجه ص(٤٥٣).
(٤) «صحيح مسلم» رقم (١٣٧٣).

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

وعن سَهْل بن حُنَيف، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: **(إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُعْجِبُهُ فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ، فَلْيُبَرِّكْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ العَيْنَ حَقٌّ)**؛ رواه أحمد(١).

وعن أبي سعيد الخُدْري ﷺ، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجَانِّ، وَعَيْنِ الإِنْسَانِ، حَتَّى نَزَلَتِ المُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا، وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا»؛ رواه الترمذي، وابن ماجه(٢).

وفي الحديثِ دَلَالةٌ على عِظَمِ شأنِ هاتَيْنِ السورَتَيْنِ، وعِظَمِ منفعتهما، وشِدَّةِ الحاجة ـ بل الضرورةِ ـ إليهما، وأنَّه لا يستغني عنهما أحدٌ، وأنَّ لهما تأثيرًا خاصًّا في دفعِ الجانِّ والسِّحْرِ والعَيْنِ وسائرِ الشرور، وقد تَضمَّنَتْ هاتان السورتانِ الاستعاذةَ مِنْ هذه الشرورِ كلِّها بأَوْجَزِ لفظٍ وأجمعِه، وأَدَلِّهِ على المراد، وأَعَمِّهِ استعاذةً؛ بحيثُ لَمْ يبقَ مِنَ الشرورِ شيءٌ إلَّا دخَلَ تحتَ الشرِّ المستَعاذِ منه فيهما.

* **ومن السُّنَّةِ أن يقولَ المسلمُ إذا رأى أحدًا مِنْ أهلِ البلاء:** الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا؛ وهي دعوةٌ عظيمةٌ نافعةٌ، مَنْ قالَها حينَ يرى البلاء، لم يُصِبْهُ ذلك البلاءُ بإذنِ اللهِ ﷻ؛ ففي الترمذي، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(مَنْ رَأَى مُبْتَلًى، فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ البَلَاءُ)**(٣).

ولْيَحْذَرِ المسلمُ من الشماتةِ بأهلِ البلاء؛ فإنَّه لا يَأْمَنُ أنْ يَبْتلِيَهُ اللهُ بما ابتلاهم فيه؛ **يقول إبراهيم النَّخَعِيُّ** ﷺ: «إِنِّي لَأَرَى الشيءَ أَكْرَهُهُ، فما

(١) «المسند» (٣/ ٤٤٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٥٦).
(٢) «جامع الترمذي» رقم (٢٠٥٨)، ورواه النسائي رقم (٥٤٩٤)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٥١١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٩٠٢).
(٣) تقدم تخريجه (ص٢٠٥).

يَمْنَعُنِي أن أتكلَّمَ فيه إلَّا مخافةَ أن أُبْتَلَى بمثلِهِ»(١).

* **ومن السُّنَّةِ أن يدعوَ المسلمُ لأخيه إذا قال له: إنِّي أُحِبُّكَ في اللهِ،** بأنْ يقولَ: أَحَبَّكَ اللهُ الذي أَحْبَبْتَنِي فيه؛ ففي «سنن أبي داود»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **(أَعْلَمْتَهُ؟)** قَالَ: لَا، قَالَ: **(أَعْلِمْهُ)**، قَالَ: فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللهِ، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ»(٢).

* **ومِنَ السُّنَّةِ أنْ يَسْأَلَ المسلمُ ربَّه مِنْ فضلِهِ عندَ سَمَاعِ صِيَاحِ الدِّيَكَةِ،** وأن يَتعوَّذَ باللهِ من الشيطانِ عندَ سماعِ نُبَاحِ الكِلَابِ ونهيقِ الحُمُرِ؛ روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: **(إذا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ، فَاسْأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الحِمَارِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا)**(٣).

وروى أحمد، وأبو داود، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا سَمِعْتُمْ نُبَاحَ الكِلَابِ وَنَهِيقَ الحُمُرِ بِاللَّيْلِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَرَيْنَ مَا لَا تَرَوْنَ**»(٤).

* **ومن السُّنَّةِ أن يقولَ المسلمُ إذا دخلَ السُّوقَ:** لا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ ففي الترمذي، وابن ماجه، عن عُمَرَ بن الخَطَّاب رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **(مَنْ دَخَلَ السُّوقَ، فَقَالَ:**

---

(١) **انظر:** «شعب الإيمان» للبيهقي (٥/ ٣١٥).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٤٠ ـ ١٤١)، و«سنن أبي داود» رقم (٥١٢٥)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١/ ٢/ ٧٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٣٣٠٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٩).

(٤) «مسند أحمد» (٣/ ٣٠٦)، و«سنن أبي داود» رقم (٥١٠٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٠).

لا إلـهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ)[1].

واللهُ المسؤولُ أن يُعِينَنا جميعًا على كلِّ خير، وأن يَهْدِيَنا جميعًا سواءَ السبيل.

❁ ❁ ❁

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٤٢٨)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٢٣٥)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٣١).

١٧٥

كَفَّارَةُ المَجْلِسِ

إنَّ الواجبَ على كلِّ مسلم أنْ يَحْفَظَ مجالسَهُ مِنْ أن تضيعَ في اللَّغطِ والباطل، وفيما يَضُرُّ الإنسانَ في الآخرة، وأن يَحْرِصَ على مَلْئِها بالنافعِ المفيدِ من أمرِ الدِّينِ والدنيا، وليعلمْ أنَّ ألفاظَهُ معدودةٌ عليه، مكتوبةٌ في صحائفه، مُسطَّرةٌ في أعماله، وسوف يُحَاسَبُ عليها عندما يلقى اللهَ ﷻ؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، والله تعالى يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

فمِنَ الخيرِ للمسلم أن يَحْفَظَ مجالسَهُ، ويجتهدَ في عِمَارَتِها بذكرِ اللهِ تعالى، ونحوِ ذلك مِمَّا يَسُرُّهُ أن يلقى اللهَ به، وما جلَسَ أحدٌ مجلسًا ضَيَّعَهُ في غيرِ ذكرِ اللهِ إلَّا نَدِمَ أشدَّ النَّدم.

روى أبو داود في «سننه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(مَا مِن قَوْمٍ يَقُومُونَ مِن مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ، إِلَّا قَامُوا عَن مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً)**(١)؛ لأنَّ الذين يقومون عن مجلسٍ فيه جِيفَةُ حمارٍ لا يحصُلُ لهم في مجلسهم ذلك إلَّا الروائحُ المنتنة، والمنظرُ الكريه، ولا يقومون إلَّا وهم بندامةٍ وحسرة، فكذلك مَنْ يقومون عن مجلسٍ ليس فيه ذِكْرُ الله، لا يحصُلُ لهم إلَّا الخوضُ في الآثام، والتنقُّلُ في أباطيلِ الكلام، إلى غيرِ ذلكَ من الأمورِ التي تَضُرُّ في الآخرة، وتُورِثُ الحَسْرَةَ والندامة.

ثم إنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أرشَدَ إلى أن يُخْتَمَ المجلسُ بذكرِ اللهِ، وطَلَبِ مغفرته؛ ليكونَ ذلك كفَّارةً لِمَا كان من الإنسانِ في مجلسه؛ ففي أبي داود، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: **(مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ،**

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٨٩)، «سنن أبي داود» رقم (٤٨٥٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٧٥٠).

فَكَثُرَ فِيهِ لَغطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِن مَجْلِسِهِ ذَلِك: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ)[١].

وروى أبو داود، عن أبي بَرْزَةَ الأَسْلَميِّ ﷺ، قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ بِأَخَرَةٍ إذا أرادَ أن يقومَ مِنَ المجلس: **(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)**»[٢].

وروى النسائي، عن عائشة ﷺ: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان إذا جَلَسَ مجلسًا، أو صَلَّى، تَكَلَّمَ بكلماتٍ، فسَأَلَتْهُ عائشةُ عن الكلماتِ؟ فقال: **(إِنْ تَكَلَّمَ بِخَيْرٍ، كَانَ طَابِعًا عَلَيْهِنَّ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ ذَلِكَ، كَانَ كَفَّارَةً لَهُ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)**»[٣].

ورغمَ أهميَّةِ هذا الدعاءِ وعِظَمِ فضله، إلَّا أنَّ كثيرًا مِنَ الناسِ تَضِيعُ مجالسُهم في اللَّغَطِ واللَّهْوِ وما لا فائدةَ فيه، وفي الوقتِ نفسِهِ يَحْرِمُونَ أنفسَهم من هذا الخيرِ العظيم.

وقد ذهَبَ عددٌ من أهلِ العلمِ إلى أنَّ هذا الذِّكْرَ هو المَعْنِيُّ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطُّور: ٤٨].

قال ابن عبد البرِّ ﷺ: «ورُوي عن جماعةٍ مِنْ أهلِ العلم بتأويلِ القرآنِ في قولِ الله ﷻ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾؛ **منهم**: مجاهدٌ، وأبو الأحوصِ، ويحيى بنِ جَعْدَةَ، قالوا: حين تقومُ مِنْ كلِّ مجلسٍ تقولُ: سبحانَكَ اللَّهُمَّ وبحمدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وأتوبُ إليك، قالوا: ومَنْ قالَها، غُفِرَ له ما كان منه في

(١) تقدم تخريجه (ص١٧٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٤٢٠)، و«سنن أبي داود» رقم (٤٨٥٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٥١٧).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٧٧)، «سنن النسائي» (٣/ ٧١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٥١٨).

المجلس، وقال عطاءٌ: إنْ كنتَ أحسنتَ ازددتَّ إحسانًا، وإنْ كان غيرَ ذلك، كان كفَّارةً»(١).

ومن الدَّعواتِ العظيمةِ التي كان يَخْتِمُ بها رسولُ الله ﷺ كثيرًا من مجالسه: ما رواه الترمذي، وغيرُه، من حديث عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: «قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ مِنَ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: **(اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا)**»(٢).

وهي دعوةٌ جامعةٌ لأبوابِ الخيرِ والسعادةِ في الدنيا والآخرة.

وقوله: **(اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ)؛ أي:** اجعلْ لنا حظًّا ونصيبًا مِنْ خَشْيَتِكَ ـ وهي الخوفُ المقرونُ بالتعظيمِ لله ومعرفتِهِ سبحانه ـ ما يكونُ حاجزًا لنا ومانعًا مِنَ الوقوعِ في المعاصي والذنوبِ والآثام؛ وهذا فيه دَلَالةٌ على أنَّ خشيةَ اللهِ أعظمُ رادعٍ وحاجزٍ للإنسانِ عن الوقوعِ في الذنوب؛ واللهُ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فكلَّما ازدادَتْ معرفةُ العبدِ باللهِ، ازدادَ خشيةً لله، وإقبالًا على طاعتِهِ، وبُعدًا عن معاصيه.

وقوله: **(وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ)؛ أي:** ويَسِّرْ لي من طاعتِكَ ما يكونُ سببًا لنيل رضاك، وبلوغِ جَنَّتِكَ التي أَعْدَدتَّها لعبادِكَ المتَّقين.

وقوله: **(وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا)؛ أي:** اقسمْ لنا مِنَ اليقينِ ـ **وهو:** تمامُ العِلْمِ وكمالُهُ بأنَّ الأمرَ لله مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ، وأنَّه سبحانه يُدَبِّرُ أمورَ الخلائقِ كيف يشاء، ويقضي فيهم ما يريد ـ ما يكونُ سببًا لتهوينِ

---

(١) «بهجة المجالس» (١/ ٥٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٥٣).

المصائبِ والنوازلِ التي قد تَحُلُّ بالإنسانِ في هذه الحياة. واليقينُ كلَّما قَوِيَ في الإنسانِ، كان ذلك فيه أدعى إلى الصبرِ على البلاء؛ لعلم المُوقِنِ أنَّ كلَّ ما أصابه إنَّما هو مِنْ عندِ اللهِ، فيرضى ويُسَلِّمُ.

وقوله: (**وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا**)، فيه سؤالُ اللهِ أن يُبْقِيَ له السمعَ والبصرَ وسائرَ القوى؛ ليَتمتَّعَ بها مُدَّةَ حياته.

وقوله: (**وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا**)؛ **أي**: اجعلْ هذا التمتُّعَ بالحواسِّ والقُوَى باقيًا مستمرًّا؛ بأن تبقى صحيحةً سليمةً إلى أن أَمُوت.

وقوله: (**وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا**)؛ **أي**: وَفِّقْنَا للأخذِ بثأرنا مِمَّنْ ظَلَمَنا؛ دونَ أن نتعدَّى فنأخذَ بالثأرِ مِنْ غيرِ الظالم.

وقوله: (**وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا**)؛ **أي**: اكتبْ لنا النصرَ على الأعداء.

وقوله: (**وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا**)؛ **أي**: لا تُصِبْنا بما يُنْقِصُ دِينَنَا ويُذْهِبُه؛ مِنِ اعتقادٍ سَيِّئٍ، أو تقصيرٍ في الطاعة، أو فعلٍ للحرام؛ وذلك لأنَّ المصيبةَ في الدِّين أعظمُ المصائبِ فليس عن الدِّين عِوَضٌ، خلافَ المصيبةِ في الدنيا.

وقوله: (**وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا**)؛ **أي**: لا تجعلْ أكبرَ قَصْدِنا وحُزْنِنا لأجلِ الدنيا؛ لأنَّ مَنْ كان أكبرُ قصدِهِ الدنيا فهو بمعزلٍ عن الآخرة؛ وفي هذا دَلَالةٌ على أنَّ القليلَ مِنَ الهَمِّ مِمَّا لا بدَّ منه في أمرِ المعاشِ مُرَخَّصٌ فيه.

وقوله: (**وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا**)؛ **أي**: لا تَجْعَلْنا بحيثُ لا نعلمُ ولا نُفَكِّرُ إلَّا في أحوالِ الدنيا.

وقوله: (**وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا**)؛ **أي**: مِنَ الكُفَّارِ والفُجَّارِ والظَّلَمة.

وبهذا ينتهي الكلامُ على هذا الدعاءِ العظيم، وهو مِنْ جوامعِ كَلِمِ النَّبِيِّ ﷺ، وبه مِسْكُ الختام، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين.

تَمَّ الكتابُ ـ بحمدِ اللهِ ـ ويليه القسمُ الرابع ـ إن شاء الله ـ وهو في شَرْحِ جملةٍ مِنَ الأدعيةِ الجوامعِ المأثورةِ عن النَّبِيِّ الكريمِ ﷺ.

الْقِسْمُ الرَّابِعُ

فِقْهُ الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ

(جَوَامِعُ الْأَدْعِيَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الْمُقَدِّمَةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، الرحمٰنِ الرحيم، مالكِ يَوْمِ الدِّين، وأشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له الإلٰهُ الحقُّ المُبين، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ المبعوثُ رحمةً للعالمين، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.

أما بعد:

فهذا القسمُ الرابعُ والأخيرُ من كتاب «فِقْه الْأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ»، وقد خَصَّصْتُهُ لفقهِ الدَّعوَاتِ الجوامعِ في الكتابِ والسُّنَّة، وقد حوى ـ بفضلِ اللهِ ومَنِّهِ ـ على نُخْبةٍ مباركةٍ مِنْ دَعَواتِ الأنبياءِ والصالحينَ المذكورةِ في القرآنِ الكريم، ومجموعةٍ طيِّبةٍ مِنَ الدعواتِ النبويَّةِ الثابتةِ في سُنَّةِ النبيِّ الكريم ﷺ، مع بيان معانيها، وتوضيحِ دَلَالاتها، والتنبيهِ على ما تَيسَّرَ مِنْ حِكَمِها وغايتها، مستفيدًا ذلك كلَّه مِنْ كلامِ أهلِ العلمِ ـ رحمهم الله ـ في كتبِ التفسيرِ، وشروحاتِ الحديثِ، وكتبِ الغريبِ، وغيرها، مع اعترافي بالقصورِ والتقصيرِ، عفا الله عنِّي وغفَرَ لي.

وأرجوه سبحانه ـ وهو أهلُ الرَّجاءِ ـ أن يَجْعَلَ عملي هذا خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده، وأنْ يَجعلَ فيه البَرَكَةَ والقَبُول، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبينا محمَّد وعلى آلِهِ وصحبه.

١٧٦

مَكَانَةُ الْأَدْعِيَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

إنَّ كتابَ الله ﷻ كتابُ هدايةٍ وصلاحٍ وفلاحٍ للناس، ينهلُ مِنْ مَعِينِهِ السُّعَداء، ويهتدي بهديِهِ الموفَّقونَ مِنْ عبادِ الله، فيُرْشِدُهم إلى أقومِ السُّبُلِ وأرشدها وأنفعها في كلِّ مجال؛ في العقائدِ والعباداتِ والأخلاق، ويهديهم إلى كلِّ صلاحٍ وفلاحٍ دينيٍّ ودنيوي؛ بحيثُ تقومُ به أمورهم، وتزكو نفوسهم، وتعتدلُ أحوالُهم، ويستقيمُ طريقهم، ويحصُلُ لهم الكمالُ المتنوِّعُ من كل وجه؛ فهو كتابُ علمٍ وتعليمٍ تزولُ به الضلالاتُ المتفرِّقة، والجهالاتُ المتنوِّعة، وكتابُ تربيةٍ وتأديبٍ تتحقَّقُ به الأخلاقُ الفاضلة، والأعمالُ الكريمة، أنزله اللهُ تبارَكَ وتعالى هُدًى للعالمين، وتبصرةً للمتقين، ومَحَجَّةً للسالكين، وجمَعَ فيه سبحانه العلوم النافعة، والمعانيَ الجليلةَ الكاملة.

فمَنْ تَمسَّكَ به، فقد هُدِيَ، ومَنْ سار على نهجه، غَنِمَ؛ إذْ هو أعظمُ أبوابِ الهدايةِ، وأجَلُّ سبل الفلاح؛ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وكذلك الشأنُ في سُنَّةِ النبيِّ الكريمِ عليه الصلاة والسلام؛ فإنها تُوضِّحُ القرآنَ وتبيِّنُهُ وتفسِّرُهُ وتَدُلُّ عليه، وهي وحيٌ أُنْزِلَ عليه كما أُنْزِلَ القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وفي سنن أبي داود، والترمذي، وغيرهما، عن النبي ﷺ، أنه قال: **(أَلَا إِنِّي أُوْتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)**(١)، وقال ﷺ: **(تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا**

(١) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٣٠ ـ ١٣١)، و«سنن أبي داود» (٤٦٠٤)، و«جامع الترمذي» (٢٦٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣/ ١١٨).

مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي)(١).

وقد أُوتِيَ ﷺ جوامعَ الكَلِم، وخُصَّ ببدائعِ الحِكَم؛ كما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **(بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ)**(٢)، وفي «المسند»، **عن عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه، قال: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عُلِّمَ فَوَاتِحَ الخَيْرِ وجَوَامِعَهُ، أو جَوَامِعَ الخَيْرِ وفَوَاتِحَهُ، وخَوَاتِمَهُ»(٣).

۞ **وإذا تقرَّر هذا**، فإنَّ الواجبَ على المسلمِ أن يَعْلَمَ عِظَمَ شأنِ الأدعيةِ الواردةِ في كتابِ الله، والمأثورةِ في سنة رسولِهِ الكريم ﷺ، وأنَّ فيها - بلا ريب - فواتحَ الخيرِ وخواتمَهُ وجوامعَهُ، وأولَهُ وآخرَهُ، وظاهرَهُ وباطنَهُ، مع ما فيها من جمالٍ وكمال، وحُسْنٍ وبهاء، وتحقيقٍ للمطالبِ العالية، والمقاصدِ الجليلة، والخيرِ الكاملِ في الدنيا والآخرة، وسلامةٍ مِنَ الخطأِ والزللِ والانحراف؛ فهي معصومةٌ مِنْ ذلك؛ لأنها وحيُ اللهِ وتنزيلُه. واللهُ جل وعلا قد اختارَ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ جوامعَ الأدعية، وفواتحَ الخيرِ، وتمامَ الأمرِ وكمالَهُ في الدنيا والآخرة.

ولذا عُنِيَ أئمةُ السَّلَفِ وعلماءُ المسلمين بربطِ الناسِ بأدعيةِ القرآنِ وأدعيةِ السنة؛ لِمَا فيهما مِنْ كمالٍ وعِصْمةٍ وسَلَامة.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «يُعْجِبُنِي في الفريضةِ أن يَدْعُوَ بِمَا في القرآن»(٤).

وقال القاضي عِياضٌ رحمه الله: «أَذِنَ اللهُ في دعائه، وعَلَّمَ الدعاءَ في كتابِهِ لخليقتِهِ، وعَلَّمَ النبيُّ ﷺ الدعاءَ لأمته، واجتمَعَتْ فيه ثلاثةُ أشياء: العلمُ بالتوحيد، والعلمُ باللغة، والنصيحةُ للأمة؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يَعْدِلَ عن دعائه ﷺ، وقد احتالَ الشيطانُ للناسِ مِنْ هذا المقام، فقَيَّضَ لهم قومَ سُوءٍ

(١) رواه مالك في «الموطَّأ» (١٦١٩)، وحسَّنه الألباني في التعليق على «هداية الرواة» (١/ ١٤١).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٢٩٧٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٢٣).
(٣) «مسند أحمد» (١/ ٤٠٨)، ورواه ابن ماجه رقم (١٨٩٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٥٤٧).
(٤) «سنن أبي داود»، بعد الحديث رقم (٨٨٤).

يخترعون لهم أدعيةً يشتغلون بها عن الاقتداءِ بالنبيِّ ﷺ»[١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»**: «فعلى الإنسانِ أنْ يستعملَ ما في كتابِ اللهِ وصحيحِ السنة مِنَ الدعاء، ويَدَعَ ما سواه، ولا يقولَ: أختارُ كذا؛ فإنَّ اللهَ قد اختارَ لنبيِّهِ وأوليائِهِ، وعلَّمهم كيف يدعون»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينبغي للخلقِ أن يَدْعُوا بالأدعيةِ الشرعيَّةِ التي جاء بها الكتابُ والسنة؛ فإنَّ ذلك لا رَيْبَ في فضلِهِ وحُسْنه، وأنه الصراطُ المستقيم، صراطُ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم من النبيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا»[٣].

والنقولُ عن أهل العلم في هذا المعنى كثيرة[٤].

ولمَّا سُئِلَ الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عمَّن يقولُ في الدعاء: يا سيِّدي، قال:** «يقول: يا رَبِّ، كما قالتِ الأنبياءُ في دُعَائِهِم».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد كَرِهَ مالكٌ وابنُ أبي عِمْرانَ من أصحابِ أبي حنيفةَ، وغيرُهما: أن يقولَ الداعي: يا سَيِّدي يا سَيِّدي، وقالوا: قل كما قالتِ الأنبياءُ: رَبِّ رَبِّ»[٥].

۞ **فانظر - رعاكَ اللهُ - حُسْنَ ربطِ هؤلاءِ الأئمةِ الناسَ بدعواتِ الأنبياء، وأدعيةِ القرآن، والأدعيةِ المأثورةِ عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام**، وأنه أَوْلَى ما يُدعى به، وأفضلُ ما يُسْتَعْمَل، وأنَّ مَنْ دعا بها، فهو على صراطٍ مستقيم، وسبيلٍ آمنة، وجادَّةٍ سَوِيَّة، يُؤْمَنُ معها العِثَارُ، ويُظْفَرُ بكلِّ خيرٍ وفضيلةٍ في الدنيا والآخرة.

وإذا اجتمَعَ للعبدِ الدعاءُ بالأدعيَةِ المأثورةِ، مَعَ فَهْمِ معانيها ودَلَالاتها، والصدقِ مَعَ اللهِ في السؤالِ والطلب، حاز الخَيْرَ كلَّه، وفُتِحَتْ له أبوابُهُ وسبُلُهُ، والتوفيقُ بيدِ اللهِ وَحْدَهُ.

---

(١) **انظر**: «الفتوحات الربانية» لابن علَّان (١/ ١٧).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ١٧٩). (٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٤٦).
(٤) **انظر**: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص١٠١).
(٥) «التوسل والوسيلة» (ص٩٣).

١٧٧

مَكَانَةُ الدُّعَاءِ الْوَارِدِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

إنَّ من أعظمِ الأدعيةِ الواردةِ وأجمعِهَا للخيرِ: ذلكُمُ الدُّعَاءَ المبارَكَ الذي اشتمَلَتْ عليه «**سورة الفاتحة**»، أفضلُ سُوَرِ القرآنِ الكريم في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

فهذا دعاءٌ عظيمٌ مبارك، بل هو أنفعُ الدعاءِ وأعظمُهُ، وحاجةُ الناسِ إليه أعظمُ مِنْ حاجتهم إلى سائر الأدعية؛ ولهذا أُمِرُوا بالدعاءِ به في كلِّ ركعةٍ من صلاة؛ فالمسلمُ يقولُهُ في كلِّ يومٍ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً فرضًا واجبًا، ولم يكنْ مثلُ هذا لأيِّ دعاءٍ آخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان أنفعُ الدعاء وأعظمُهُ وأحكمُهُ دعاءَ الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ فإنه إذا هداه هذا الصراطَ، أعانَهُ على طاعتِهِ وتَرْكِ معصيته، فلم يُصِبْهُ شرٌّ لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لكنَّ الذنوبَ هي مِنْ لوازمِ نفسِ الإنسان، وهو محتاجٌ إلى الهُدَى في كلِّ لحظة، وهو إلى الهدى أحوجُ منه إلى الأكلِ والشرب؛ ليس كما يقولُهُ طائفةٌ مِنَ المفسِّرين: إنه قد هداه، فلماذا يَسْأَلُ الهُدَى، وإنَّ المرادَ بسؤالِ الهدى: الثباتُ أو مزيدُ الهداية!

بل العبدُ محتاجٌ إلى أن يُعَلِّمَهُ ربُّهُ ما يفعلُهُ مِنْ تفاصيلِ أحوالِهِ، وإلى ما يَتَوَلَّدُ مِنْ تفاصيلِ الأمورِ في كلِّ يوم، وإلى أنْ يُلْهَمَ أن يعملَ ذلك؛ فإنه لا يكفي مُجَرَّدُ علمِهِ إنْ لم يجعلْهُ اللهُ مُرِيدًا للعملِ بعلمه، وإلَّا كان العلمُ حجةً عليه، ولم يكنْ مهتديًا، والعبدُ محتاجٌ إلى أن يجعلَهُ اللهُ قادرًا على العملِ بتلك

الإرادةِ الصالحة؛ فإنه لا يكونُ مهتديًا إلى الصراط المستقيم، صراطِ الذينَ أنعَمَ اللهُ عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالحين، إلا بهذه العلومِ، والإراداتِ، والقُدْرةِ على ذلك. ويدخُلُ في ذلك مِنْ أنواعِ الحاجات ما لا يمكنُ إحصاؤه؛ ولهذا كان الناسُ مأمورينَ بهذا الدعاءِ في كلِّ صلاةٍ لِفَرْطِ حاجتِهِمْ إليه، فليسوا إلى شيءٍ أحوجَ منهم إلى هذا الدعاء. وإنَّما يَعْرِفُ بعضَ قَدْرِ هذا الدعاءِ مَنِ اعتبَرَ أحوالَ نَفْسِهِ ونفوسِ الإنسِ والجِنِّ والمأمورين بهذا الدعاء، ورأى ما في النفوسِ مِنَ الجهلِ والظلمِ الذي يقتضي شَقَاءَهَا في الدنيا والآخرة، فيعلمُ أنَّ اللهَ ـ بفضلِهِ ورحمته ـ جعَلَ هذا الدعاءَ من أعظمِ الأسبابِ المقتضيةِ للخير، المانعةِ مِنَ الشر»[(١)]. اهـ.

ومع ما لهذا الدعاءِ العظيمِ مِنْ مكانةٍ وقَدْر، إلا أنَّ كثيرًا مِنَ الناسِ قد يقرأُ هذا الدعاءَ في **«سورة الفاتحة»** دُونَ أن يستشعرَ أنه دعاء، فما أحوَجَ عوامَّ المسلمينَ إلى التنبيهِ إلى أنَّ هذا دعاءٌ عظيمٌ أَمَرَ الربُّ ﷻ عبادَهُ أن يدعوه به.

قال شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوَهَّاب رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا تَأَمَّلَ العبدُ هذا، وعَلِمَ أنها نصفان: نصفٌ لله، وهو أوَّلها إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصفٌ للعبدِ دعاءٌ يدعو به لنفسه، وتَأَمَّلَ أن الذي عَلَّمَهُ هذا هو اللهُ تعالى، وأمرَهُ أن يَدْعُوَ به ويُكَرِّرَهُ في كلِّ ركعة، وأنه سبحانه ـ مِنْ فضلِهِ وكرمه ـ ضَمِنَ إجابةَ هذا الدعاءِ إذا دعاه بإخلاصٍ وحضورِ قلب، تبيَّنَ له ما أضاع أكثرُ الناس»[(٢)]. اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ **في رسالةٍ لطيفةٍ عظيمةِ النفعِ فيما ينبغي للمعلِّم أن يَعْلَمَهُ:** «ومِنْ أعظمِ ما تنبِّهه عليه: التضرُّعُ عندَ اللهِ، والنصيحةُ، وإحضارُ القلبِ في دعاءِ الفاتحةِ إذا صَلَّى»[(٣)].

وما أحوَجَهُمْ كذلك إلى تَعقُّلِ معناه، وفَهْم دَلَالته، ومعرفةِ كمالِ هذا الدعاءِ المبارك، وجمعِهِ لخيري الدنيا والآخرة، وأنه مِنْ أجمعِ الأدعيةِ وأنفعها

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٢٠ ـ ٣٢١). (٢) «الدرر السنية» (١٠/ ٢٨).
(٣) «الدرر السنية» (١/ ١١٥).

للعبدِ؛ ولهذا وجَبَ على المسلمِ أن يَدْعُوَ اللهَ به في كلِّ ركعةٍ مِنْ صلاتِهِ؛ لضرورتِهِ إلى هذه الدعوةِ الجامعةِ المباركة.

وقد بيَّن رَحِمَهُ اللهُ وجهَ كونِ هذا الدعاءِ جامعًا لخيري الدنيا والآخرة؛ **فقال**: «أما جمعُهُ لخيرِ الآخرة: فواضحٌ، وأما جمعُهُ لخيرِ الدنيا: فلأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، والإيمانُ والتقوى هو الصراطُ المستقيم، فقد أخبَرَ أنَّ ذلك سببٌ لفتحِ بَرَكَاتِ السماءِ والأرض؛ هذا في الرِّزْق، وأمَّا في النصرِ، فقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فأخبَرَ اللهُ أن العزةَ تحصُلُ بالإيمان، وهو الصراطُ المستقيم. فإذا حصَلَ العزُّ والنصر، وحصل فتحُ بركاتِ السماءِ والأرض، فهذا خيرُ الدنيا»(١).

وإنَّ خيرَ ما يَفْتَحُ للمسلمِ بابَ فهمِ هذه السورة وما اشتَمَلَتْ عليه من دعاءٍ عظيمٍ جامعٍ: ما رواه مسلمٌ في «صحيحه»، من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: (**قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإذا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَال اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَال: مَجَّدَنِي عَبْدِي، (وقَال مَرةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي)، فإذا قَال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَال: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**)(٢).

فإذا تأمَّلَ ذلك العبدُ، وعَلِمَ ما اشْتَمَلَتْ عليه هذه السورةُ مِنَ الثناءِ على اللهِ وتعظيمِهِ، وما تضمَّنَتْهُ مِنْ دعاءٍ وسؤالٍ وطلبٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وأيقَنَ بإجابةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ له، تبَيَّنَ له عَظِيمُ نفعِهَا وأثرِها، وكثرةُ فوائدِهَا وعوائدِها؛ فإذا

---

(١) «الدرر السنية» (١٠/ ٣٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص٧٥).

قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقَفَ هُنَيْهَةً ينتظرُ جوابَ ربِّه له بقوله: (حَمِدَنِي عَبْدِي)، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، انتظَرَ الجواب بقوله: (أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي)، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، انتظَرَ جوابَهُ بقوله: (مَجَّدَنِي عَبْدِي)؛ فيا لذةَ قلبه، وقُرَّةَ عينه، وسرورَ نفسه بهذا الفضلِ العظيم، والنوالِ الكريم!

❁ ❁ ❁

١٧٨

مَضَامِينُ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

تَقدَّمَ بيانُ مكانةِ الدعاءِ العظيمِ الذي اشتَمَلَتْ عليه **«سورة الفاتحة»**، وجمعِهِ لخيري الدنيا والآخرة، مع غفلةِ كثيرٍ من الناس عن معانيه العظيمة، ودَلَالتِهِ النافعة، وفوائِدِهِ الجليلة، وفيما يلي وقفةٌ مع شيءٍ من مضامينِ هذه السورةِ المباركة.

«وقد اشتَمَلَتْ هذه السورةُ الكريمة، وهي سبعُ آيات، على حَمْدِ اللهِ وتمجيده، والثناءِ عليه: بذكرِ أسمائِهِ الحسنى المستلزمةِ لصفاتِهِ العُلَا، وعلى ذكرِ المعاد ـ وهو يومُ الدين ـ وعلى إرشادِ عبادِهِ إلى سؤالِهِ والتضرُّعِ إليه، والتَبرِّي مِنْ حولهم وقوتهم، وإلى إخلاصِ العبادةِ له وتوحيدِهِ بالإلـٰهية، وتنزيهِهِ أنْ يكونَ له شريكٌ أو نظيرٌ أو مُمَاثِلٌ، وإلى سؤالهم إيَّاه الهدايةَ إلى الصراطِ المستقيم ـ وهو الدينُ القويم ـ وتثبيتِهِمْ عليه حتى يُفْضِيَ بهم ذلك إلى جوازِ الصراطِ الحِسِّيِّ يومَ القيامةِ المُفْضِي بهم إلى جَنَّاتِ النعيم، في جِوَارِ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، واشتَمَلَتْ على الترغيبِ في الأعمالِ الصالحة؛ ليكونوا مَعَ أَهْلِها يومَ القيامة، والتحذيرِ مِنْ مسالكِ الباطل؛ لئلا يُحْشَرَ مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوبُ عليهم والضالُّون»[(١)].

واللهُ ﷻ قد عَلَّمَ عبادَهُ في هذه السورةِ المباركةِ كيف يدعونَهُ ويسألونَهُ ويطلبونَ منه، وقولُكُ بين يدي السورة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ **أي**: أبتدِئ باسم الله، والباءُ للاستعانةِ، و﴿ٱللَّهُ﴾: هو المألوهُ المعبودُ المستحقُّ لأنْ يُفْرَدَ وحدَهُ بالعبادة، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمانِ دالَّانِ على أنه سبحانه ذو

(١) «الدرر السنية» (١٠/ ٣٩)؛ وهو من كلام الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن في تفسيره للفاتحة.

الرحمةِ الواسعةِ العظيمةِ التي وَسِعَتْ كلَّ شيء، وعَمَّتْ كلَّ حيٍّ، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **الحَمْدُ**: هو الثناءُ على اللهِ بصفاتِ الكمال، ونعوتِ الجلال، وأفعالِهِ الدائرةِ بين الفضلِ والعدل؛ فله الحمدُ الكاملُ بجميعِ الوجوه.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **الرَّبُّ**: المُرَبِّي جميعَ العالمين، وهم مَنْ سوى اللهِ، بِخَلْقِهِ لهم وإعدادِهِ لهم الآلاتِ، وإنعامِهِ عليهم بالنعمِ العظيمة.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **المَالِكُ**: هو مَنِ اتَّصَفَ بصفةِ المُلْكِ التي مِنْ آثارِهَا أنه يأمُرُ وينهى، ويُثِيبُ ويعاقب، ويَتصرَّفُ بممالِيكِهِ بجميعِ أنواعِ التصرُّفات. وأضاف المُلْكَ ليوم الدين، وهو يومُ القيامةِ، يَوْمَ يُدانُ الناسُ فيه بأعمالِهِمْ خَيْرِها وشرِّها؛ لأنَّ في ذلك اليومِ يظهرُ للخلقِ تمامَ الظهورِ كمالُ مُلْكِهِ وعَدْلِهِ وحكمته، وانقطاعُ أملاكِ الخلائق؛ وإلا فهو المالكُ ليومِ الدين وغيرِهِ مِنَ الأيام.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ **أي**: نَخُصُّكَ وَحْدَكَ بالعبادةِ والاستعانة؛ لأنَّ تقديمَ المعمولِ يفيدُ الحصر؛ **فكأنه يقول**: نعبدُكَ ولا نعبُدُ غيرك، ونستعينُ بك ولا نستعينُ بغيرك. **والعِبَادَةُ**: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاه من الأعمالِ والأقوالِ، الظاهرةِ والباطنة، **والاستعانةُ هي**: الاعتمادُ على اللهِ تعالى في جلبِ المنافع، ودفعِ المَضَارِّ، مع الثقةِ به في تحصيلِ ذلك.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ **أي**: دُلَّنا وأَرْشِدْنا ووَفِّقْنا إلى سلوكِ **الصِّرَاطِ المُسْتَقِيم**، **وهو**: الطريقُ الواضحُ الموصِلُ إلى اللهِ وإلى جَنَّته، وهو معرفةُ الحَقِّ، والعملُ به.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ **أي**: مَنَنْتَ عليهم بالعلمِ النافع، والعملِ الصالح؛ مِنَ النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي: غيرِ طريقِ المغضوبِ عليهم، وهم الذين عَرَفُوا الحَقَّ وتركوه ولم يعملوا به؛ كاليهودِ ونحوِهم، وغيرِ طريقِ الضالِّين، وهم الذين تركوا الحَقَّ على جهلٍ وضلال؛ كالنصارى ونحوهم.

وقوله في هذه السورة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، هذا هو الدعاءُ الصريحُ الذي هو حَظُّ العبدِ مِنَ الله، وهو التضرُّعُ إليه والإلحاحُ عليه بعدَ الثناءِ عليه وحَمْدِهِ وتمجيده: أن يرزُقَهُ هذا المطلبَ العظيمَ الذي لم يُعْطَ أحدٌ في الدنيا والآخرةِ أفضلَ منه؛ ولَمَّا كان سؤالُ اللهِ الهدايةَ إلى الصراطِ المستقيم أجلَّ المطالب، ونيلُهُ أشرفَ المواهب، علَّم عبادَهُ كيفيَّةَ سؤاله، وأَمَرَهُمْ أن يقدِّموا بين يديه حمدَهُ والثناءَ عليه وتمجيدَه، ثم ذكَرَ عبوديَّتَهُمْ وتوحيدهم.

أما عن حاجة العبد إلى هذه الدعوةِ العظيمةِ والمواظبة عليها:

* **فيقول ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللهُ: «فليس العبدُ أحوجَ منه إلى هذه الدعوة، وليس شيءٌ أنفعَ له منها؛ فإنَّ الصراطَ المستقيمَ يتضمَّنُ علومًا وإراداتٍ وأعمالًا وتروكًا ظاهرةً وباطنةً، تجري عليه كلَّ وقت، فتفاصيلُ الصراطِ المستقيمِ قد يعلمها العبدُ وقد لا يعلمها، وقد يكونُ ما لا يعلمُهُ أكثرَ مما يعلمُهُ، وما يعلمه قد يَقْدِرُ عليه وقد لا يَقْدِرُ عليه، وهو من الصراطِ المستقيم وإنْ عَجَزَ عنه، وما يَقْدِرُ عليه قد تريدُهُ نفسُهُ وقد لا تريده؛ كسلًا وتهاوُنًا، أو لقيامِ مانعٍ وغيرِ ذلك، وما تريدُهُ قد يفعلُهُ وقد لا يفعله، وما يفعلُهُ قد يقومُ فيه بشروطِ الإخلاصِ وقد لا يقومُ فيه، وما يقومُ فيه بشروطِ الإخلاصِ قد يقومُ فيه بكمالِ المتابعةِ وقد لا يقوم، وما يقومُ فيه بالمتابعة قد يَثْبُتُ عليه وقد يُصْرَفُ قلبُهُ عنه؛ وهذا كلُّه واقعٌ سارٍ في الخلق، فمستقِلٌّ ومستكثِرٌ»(١). اهـ. وذكَرَ نحوًا من هذا في موضعٍ آخر، **ثم قال**: «وبهذا يُعْرَفُ قدرُ هذا الدعاءِ

(١) «الجواب الكافي» (ص١٤٣ ـ ١٤٤)، **وانظر**: «الدرر السنية» (١٠/ ٣٧ ـ ٣٨).

العظيم، وشِدَّةُ الحاجةِ إليه، وتَوَقُّفُ سعادةِ الدنيا والآخرةِ عليه»(١).

ومَنْ تأمَّل كلامَهُ رَحِمَهُ اللهُ أدرَكَ شدةَ حاجةِ العبادِ وعِظَمَ ضرورتهم إلى العنايةِ بهذه الدعوةِ العظيمة.

ونسألُ اللهَ الكريمَ أن يَهْدِيَنا إليه صراطًا مستقيمًا، وأَنْ يُجَنِّبَنا الزَّلَل؛ إنَّه سبحانَهُ سميعُ الدعاء، وهو أهلُ الرَّجَاء، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

❊ ❊ ❊

(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص٨).

١٧٩

مَكَانَةُ دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

في القرآنِ الكريمِ آياتٌ كثيرةٌ ذكَرَ اللهُ ﷻ فيها أمثلةً مِنْ دعواتِ الأنبياءِ والمرسلين، ومناجاتِهم لربِّهم، وتوسُّلِهم إليه، وفَزَعِهم إليه، وانكسارِهِمْ بين يديه، وذُلِّهم وخُضُوعِهِم، ورَغَبِهم ورَهَبِهِمْ، وكمالِ أَدَبِهِمْ في مناجاتهم لربِّهِمْ، وتضرُّعِهم ودعائهم؛ وذلك لِيتعلَّمَ عبادُ اللهِ المؤمنون النهجَ السديد، والطريقَ الرشيد، والمسلكَ القويمَ والأدبَ الرَّفيعَ في دُعَاءِ الرَّبِّ ﷻ ومناجاته.

ولهذا لَمَّا ذَكَرَ اللهُ ﷻ في **«سورة الأنعام»** طرفًا مِنْ أخبارِهِمُ المباركة، وأعمالِهِمُ الجليلة، وأوصافِهِمُ الفاضلة، قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهذا فيه أمرٌ للنبيِّ ﷺ باتباعِ سَنَنهم، ولزومِ نَهْجهم، وتوجيهٌ لأمتِهِ عليه الصلاةُ والسلام بأن يكونوا كذلك. وقد فعَلَ ﷺ ما أُمِرَ به، وامتثَلَ ذلك حقَّ الامتثال؛ فاهتَدَى بِهَدْيِ المرسلين قَبْلَه، وجمَعَ كلَّ كمالٍ فيهم؛ فاجتمَعَتْ لديه فضائلُ مباركةٌ، وخِصَالٌ عظيمةٌ، فاقَ بها جميعَ العالمين، وكان سَيِّدَ المرسلين، وإمامَ المتقين، وقُدْوةَ الصالحين، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه وعلى جميعِ الأنبياءِ والمرسلين.

والأنبياءُ هم صفوةُ الناسِ وخُلَاصَتُهم، وفي قَصَصِهِمْ وأخبارِهِمْ عِبَرٌ وعِظَاتٌ بالغاتٌ للمؤمنينَ ليقتدوا بِهِمْ في جميعِ مَقَاماتِ الدِّينِ؛ في مقامِ التوحيدِ والقيامِ بالعبودية، وفي مقاماتِ الدَّعْوةِ والصبرِ والثبات عند جميعِ النوائب والشدائد، وتَلَقِّي ذلك بالسكونِ والثباتِ والطمأنينة، وفي مقامِ الصِّدْقِ والإخلاصِ لله في جميعِ الحَرَكاتِ والسَّكَنات، وفيها مِنَ الوعظِ والتذكيرِ والترغيب، والفَرَجِ بعد الشدَّة، وتيسيرِ الأمورِ بعدَ تَعَسُّرها، وحُسْنِ العواقبِ المشاهَدَةِ في هذه الدارِ ما فيه سَلْوَةٌ للمحزونين، وزادٌ للمتقين، وسرورٌ

للعابدين، وأُنْسٌ للمؤمنين؛ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قد اختارَ أنبياءَهُ واصطفاهم وفَضَّلَهُمْ واجتباهم، وجعَلَهُمْ للخَلْقِ قادةً، وفي الخيرِ قُدْوةً؛ فبهم عُرِفَ الله، وبهم وُحِّدَ، وبهم عُرِفَ الصراطُ المستقيم، وعلى آثارِهِمْ وصَلَ أهلُ الجَنَّةِ إلى كلِّ نعيم، وفازوا بكلِّ خيرٍ وسعادةٍ في الدنيا والآخرة، بل حَظُّ العبدِ مِنَ السعادةِ يكونُ بِحَسَبِ حَظِّهِ مِنَ الاقتفاءِ لآثارهم، والسيرِ على نهجهم، وتَرَسُّم خطاهم.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]؛ فكمَّلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بفعلِ الخيرات، وإقامِ الصلوات، وإيتاءِ الزكاة، والمداومةِ على عبادةِ الله؛ فكانوا بذلك قُدْوةً لِمَنْ عداهم، فمَنِ اقتدى بهم فاز، ومَنِ ائْتَسَى بهم غَنِمَ.

ومِنْ كمالِ الأنبياء: ما ذكَرَهُ اللهُ عنهم مِنْ عظيمِ صِلَتِهِمْ بالله، وكمالِ إقبالهم عليه، وقوةِ التجائهم إليه في أحوالِهِمْ جميعِهَا، وشؤونِهِمْ كلِّها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ **أي**: يبادرونَ إلى الخَيرات، ويَفْعَلُونَهَا في أوقاتها الفاضلة، ويُكَمِّلُونَهَا على الوجهِ اللائقِ الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلةً يَقْدِرُونَ عليها إلا انتهزوا الفرصةَ فيها، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾؛ **أي**: يسألوننا الأمورَ المرغوبَ فيها مِنْ مصالحِ الدنيا والآخرة، ويَتَعوَّذونَ بنا مِنَ الأمورِ المرهوبِ منها مِنْ مَضَارِّ الدارَيْن، وهم راغبون راهبون، لا غافلون لاهون، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾؛ **أي**: خاضعين متذلِّلين متضرِّعين؛ فما أَكْمَلَها من حال! وما أَحْسَنَها من صلةٍ ومعرفةٍ بالربِّ العظيم، والخالق الجليل!

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ الأنبياءَ كلَّهم سألوا اللهَ ودَعَوْهُ، كما ذكَرَ اللهُ ذلك في قِصَّةِ آدَمَ وإبراهيمَ ومُوسَى وغيرِهم»[1].

(١) «التوسل والوسيلة» (ص٥٥).

كم هو جميلٌ بالمسلمِ أن يَعْرِفَ سِيَرَ الأنبياءِ وأَخْبَارَهم، وكمالَ تعبُّدهم وتذلُّلهم، وخضوعِهِمْ وخشوعهم، وما وصَفَهُمُ اللهُ به مِنَ الصدقِ الكاملِ والأوصافِ الكاملة، وما لهم مِنَ الفضلِ والفواضلِ والإحسان؛ لِيَعْظُمَ حظُّهُ مِنَ الاقتداءِ بهم!! وقد ذكَرَ اللهُ ﷻ في مواضعَ عديدةٍ مِنَ القرآنِ الكريم أمثلةً عديدةً مِنْ دَعَواتِ النبيِّين، وسؤالاتِ المرسلين، لربِّ العالمين، وعظيم رجائهم لرحمته، وطَمَعِهم في فضله، وفزَعِهم إليه في جميعِ أحوالهم؛ فذكَرَ دعاءَ آدمَ ونُوحٍ وإبراهيمَ وإسماعيلَ، ومُوسَى ويُونُسَ وأيُّوبَ وعيسى، وغَيْرِهم مِنْ أنبيائِهِ ورسلِه ـ عليهم صلواتُ اللهِ وسلامه ـ لِيتعلَّمَ الناسُ صفةَ الدعاءِ وأَدَبَهُ، وكمالَ الالتجاءِ والتذلُّلِ لربِّ العالمين، وذكَرَ تعالى إجابتَهُ لِدَعَوَاتهم، وتحقيقَهُ لِرَغَبَاتهم، وتيسيرَهُ لأمورهم مهما عَظُمَ الخَطْب، واشتدَّ الكَرْب، وكم لَقُوا مِنَ الابتلاءِ والمكابدةِ وعُتُوِّ الأقوام، فصَبَرُوا والْتَجَؤُوا إلى ربِّهم مؤمِّلين منه الفرجَ، راجين منه التيسيرَ؛ فجاءهم فَرَجُ اللهِ ونَصْرُهُ وتأييدُه؛ لكمالِ التجائِهِمْ، وحُسْنِ رجائهم.

ومَنِ اقتدى بهم في ذلك، أعانَهُ كما أعانهم، وأنجاهُ كما أنجاهم؛ وتَأَمَّلْ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء]، وهذا وَعْدٌ وبِشَارَةٌ لكلِّ مؤمنٍ اقتَدَى في شِدَّتِهِ وكَرْبِهِ بيونسَ ﵇ في هذه الدعوة؛ روى الترمذي، عن سَعْد بن أبي وَقَّاص ﵁، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ)**[1].

هذا وسيَمُرُّ معنا ـ إن شاء الله ـ عرضٌ لدعواتِ الأنبياءِ الواردةِ في القرآنِ الكريم، وبيانٌ لِمَا فيها مِنْ حِكَمٍ وعظاتٍ، سائلينَ اللهَ العونَ والتسديدَ، وأن يُوفِّقَنَا لاتِّباعهم، والسيرِ على مِنْهَاجِهِمْ؛ إنه سميعٌ مجيب.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٤٣).

١٨٠

اسْتِغْفَارُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

لقد ذكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في كتابِهِ القرآنِ الكريمِ عن أنبيائِهِ ورسله ـ عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُهُ ـ مِنْ كمالِ تعبُّدهم، وتمامِ تذلُّلهم وخضوعِهِمْ واستكانَتِهِمْ لله ربِّ العالمين، فكانوا في الخيرِ قادةً، وللمهتدين مِنْ عبادِ اللهِ قُدْوةً وسادة. ومع هذا التمامِ والكمال، فقد كانوا مُلازِمينَ للتوبةِ والاستغفار، والإنابةِ إلى العزيزِ الغفار، وقد ذكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في غيرِ موضعٍ مِنَ القرآنِ عن غيرِ واحدٍ من الأنبياءِ: استغفارَهُمْ وتَوْبَتَهم إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ ومن ذلكم: ما ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن نبيِّه آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة]، وقال تعالى في سورة أخرى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه].

وذكَرَ عن نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لَمَّا سأَلَ ربَّه وناداه: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ

﴿ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]؛ حيثُ أدركَتْهُ الشفقةُ على وَلَدِهِ، وقد وعده الله بنجاةِ أهلِه، فظَنَّ أنَّ الوعدَ لعمومِ مَنْ آمَنَ ومَنْ لم يؤمنْ؛ لذلك دعا بهذه الدعوة، فقال اللهُ له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، فندمَ عليه السلام مما صدرَ منه، وطلَبَ من ربِّه العفوَ والغُفْران: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]؛ فهذا استغفارٌ وتوبةٌ منه عليه السلام.

وذكَرَ عز وجل استغفارَ نَبِيِّهِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام، فذكَرَ أنه قال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقال: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وذكَرَ سبحانه استغفارَ نبيِّهِ موسى عليه السلام، ومِنْ ذلك قولُهُ تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وقال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، وقال موسى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف].

وذكَرَ سبحانه استغفارَ سُلَيْمانَ عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص].

وذكَرَ سبحانه استغفارَ دَاوُدَ عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟

ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص].

وقال عن يُونُسَ عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء].

فهذه الآياتُ مشتملةٌ على توبةِ الأنبياء، واستغفارِهِمْ، وعظيمِ إنابتهم إلى اللهِ عز وجل قد ذَكَرَهَا اللهُ عنهم في كتابهِ في مَعْرِضِ الثناءِ عليهم، وبيانِ فَضْلِهِمْ وكمالهم، ليتأسَّى بهم الناس، ويقتدي بهم الخَلْق. **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رحمه الله: «واللهُ تعالى قَصَّ علينا قَصَصَ توبةِ الأنبياءِ لنقتدِيَ بهم في المَتَاب»(١). اهـ.

وكم هو جميلٌ بالمسلمِ أن يَتأمَّلَ هذا القَصَصَ الكريم، والحالَ العظيم الذي عليه هؤلاءِ الصَّفْوةُ المختارة، أنبياءُ اللهِ ورُسُلُهُ ـ عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُهُ ـ فيَجْعَلَهُمْ قُدْوَةً في لزومِ التوبةِ إلى الله، والإنابةِ إليه، والإكثارِ من الاستغفار؛ فإنَّ في ذلك رِفْعةَ الدرجات، وتواليَ الخَيْرات، وكثرةَ العطايا والهِبَات؛ فإنَّ اللهَ يُحِبُّ التوَّابين ويحبُّ المتطهِّرين.

❁ ❁ ❁

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٨٠).

١٨١

دُعاءُ آدمَ عليه السلام

إنَّ من الدعواتِ العظيمةِ الواردةِ في القرآن: دعاءَ آدمَ عليه السلام أبي البَشَر، المُشْتَمِلَ على توبتِهِ إلى الله، وطَلَبِ مغفرتِهِ ورحمتِهِ وإقالةِ عثرته؛ حيثُ كان قد ارتكَبَ ما نهاه اللهُ عنه، ووقَعَ فيما منعه منه؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف].

فهذه خطيئةُ آدَمَ وذنبُهُ الذي اقترَفَهُ، ولكنَّه سُرْعانَ ما أناب، واعترَفَ بذنبه، وأَقَرَّ بخطيئته، وطلَبَ مِنْ ربِّه العفوَ والغُفْران؛ وقد ألهَمَهُ ربُّه كلماتٍ يقولها، ودعوات يدعو بها، فقَبِلَ تَوْبَتَه، وأقالَ عَثْرَتَه، ورفَعَ دَرَجَتَه، وهداه واجتباه؛ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وهذه الكلماتُ التي تَلَقَّى آدمُ عليه السلام من ربِّه ـ **على الصحيح مِنْ أقوالِ أهلِ العلم** ـ هي المبيَّنةُ في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، **قال ابن جرير الطبريُّ** رحمه الله: «والذي يَدُلُّ عليه كتابُ اللهِ جلَّ ثناؤه: أنَّ الكلماتِ التي تلقاهُنَّ آدمُ مِنْ ربِّه: هُنَّ الكلماتُ التي أخبَرَ جلَّ ذكرُهُ عنه أنه قالها متنصِّلًا بِقِيلِهَا إلى ربِّه، معترفًا بذنبه؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾»(١).

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٥٨٦).

ومعنى هذه الدعوةِ: أي: قد فَعَلْنَا الذنبَ الذي نُهِينَا عنه، وضَرَرْنا أَنْفُسَنا باقترافه، ووَقَعْنا في سَبَبِ الخُسْرانِ إنْ لم تغفرْ لنا بِمَحْوِ أثرِ الذنبِ وعقوبتِهِ، وتَرْحَمْنا بِقَبُولِ التوبةِ والمعافاة مِنْ أمثالِ هذه الخطايا؛ فغفَرَ اللهُ لهما ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه]، وذِكْرُ هذا الأمرِ عنه وبيانُ هذه التوبةِ منه فيه تعليمٌ لذُرِّيَّتِهِ إذا وقعوا في الذنبِ والخطيئةِ سبيلَ الرجوعِ والأَوْبة، وطريقَ الإنابةِ والتوبة.

قال ابن جريرٍ رحمه الله: «وهذا الخبَرُ الذي أخبَرَ اللهُ عن آدمَ مِنْ قِيلِه الذي لقَّاهُ اللهُ إياه، فقاله تائبًا إليه مِنْ خطيئته، تعريفٌ منه جلَّ ذكره جميعَ المخاطبينَ بكتابِهِ كيفيَّةَ التوبةِ إليه مِنَ الذنوب. . . وأنَّ خَلَاصَهم مما هم عليه مقيمون مِنَ الضلالةِ نظيرُ خلاصِ أبيهم آدمَ مِنْ خطيئته»(١).

وقال ابن كثير رحمه الله: «وهذا اعترافٌ ورجوعٌ إلى الإنابة، وتذلُّلٌ وخضوعٌ واستكانة، وافتقارٌ إليه تعالى في الساعةِ الراهنة، وهذا السرُّ ما سَرَىٰ في أحدٍ من ذريته إلا كانتْ عاقبتُهُ إلى خيرٍ في دنياه وأخراه»(٢).

هذا، وإنَّ الخطأَ واقعٌ مِنْ بني آدمَ لا محالةَ، وكلُّ بني آدم خَطَّاء، ولكنْ كم هو عظيمٌ مِنَ الإنسانِ أن يبادرَ إلى الخلاصِ مِنْ مَغَبَّةِ الإثم، وأن يسارعَ إلى الفَكَاكِ مِنْ عاقبةِ الخطأ، متشبِّهًا بأبيه آدمَ، ومؤتسيًا به!!

روى الإمام أحمد في «الزهد»، وأبو الشيخ **عن قتادة، قال:** «إنَّ المؤمنَ ليستحي ربَّهُ مِنَ الذنبِ إذا وقَعَ به، ثم يَعْلَمُ ـ بحمدِ الله ـ أين المخرَجُ، يعلمُ أنَّ المخرجَ في الاستغفارِ والتوبةِ إلى الله عز وجل، فلا يَحْتَشِمَنَّ رجلٌ من التوبة؛ فإنَّه لولا التوبةُ لم يَخْلُصْ أحدٌ مِنْ عبادِ الله، وبالتوبةِ أدرَكَ اللهُ أباكم الرئيسَ في الخير مِنَ الذنبِ حين وقَعَ به»(٣).

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٥٨٧). (٢) «البداية والنهاية» (١/ ١٨٤).

(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٣٣).

ثم إن أعظم الخسران وأشدَّ الحِرمان أن يَتْرُكَ العبدُ التأسِّيَ بأبيه، ثم يتأسَّى بعَدُوِّ أبيه وعَدُوِّ بنيه إبليسَ الطريدِ؛ فإنَّ آدم لَمَّا وقَعَ في الذنبِ، اعتَرَفَ به وأَقَرَّ وسألَ اللهَ المغفرةَ، وأمَّا إبليسُ فإنه عَصَى وأصرَّ، ولم يُقِرَّ بالخطأ، ومن تَشبَّهَ بآدمَ سَعِدَ مثلَه، ومَنْ تَشبَّهَ بإبليسَ شَقِيَ مثله.

وقد نقل القاسميُّ رَحِمَهُ اللهُ **في «تفسيره» عن بعضِ أهلِ العلم أنه قال:** «إنَّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ سَعِدَ بخمسة أشياء: اعتَرَفَ بالذنب، ونَدِمَ عليه، ولامَ نَفْسَه، وسارَعَ إلى التوبة، ولم يَقْنَطْ مِنَ الرحمة.

وشقِيَ إبليسُ بخمسة أشياء: لم يُقِرَّ بالذنب، ولم يَنْدَمْ، ولم يَلُمْ نَفْسَه، بل أضافَ إلى ربِّه، فلم يَتُبْ، وقَنِطَ مِنَ الرحمة»[1]. اهـ.

فمَنْ أشبَهَ آدمَ بالاعترافِ وسؤالِ المغفرةِ والندمِ والإقلاع إذا صدَرَتْ منه الذنوب، اجتباهُ ربُّهُ وهداه، ومَنْ أشبَهَ إبليسَ إذا صدَرَ منه الذنبُ، لا يزالُ يزدادُ مِنَ المعاصي؛ فإنه لا يزدادُ مِنَ اللهِ إلا بعدًا؛ وقد قال الله تعالى في السياقِ نفسِهِ محذِّرًا الذرية: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أعاذنا اللهُ منه، وحمانا مِنْ شَرِّه، ووفَّقنا للتوبةِ النصوحِ وحُسْنِ الإنابة، وألحَقَنَا بأبينا آدَمَ وبالصالحين مِنْ عباده؛ إنه سميعٌ مجيب.

❊ ❊ ❊

(١) «تفسير القاسمي» (٧/ ٢٦٤٣).

١٨٢

دُعَاءُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١)

لقد ذكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دَعَواتِ نبيِّه نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكَرَ قصتَهُ وما كان مِنْ قومه، وما أنزَلَ بمَنْ كفَرَ به مِنَ العذابِ والطُّوفان، وكيف أنجاه وأصحابَ السفينة، في غيرِ موضعٍ مِنْ كتابِهِ العزيز، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أرسَلَهُ اللهُ تعالى لَمَّا عُبِدَتِ الأصنامُ والطواغيتُ، وشرَعَ الناسُ في الضلالةِ والكُفْر؛ فبعَثَهُ اللهُ رحمةً للعباد، يدعو إلى عبادةِ اللهِ وحده لا شريكَ له، وينهى عن عبادةِ ما سواه.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف]، لقد تلقَّى قومُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوةَ نبيِّهم بالصدودِ والإعراض، والكِبْرِ والأَنَفَة، والمَكْرِ والكيد، والعُتُوِّ والتكبُّر، والتهديدِ لنبيِّهم بالرَّجْمِ والقتل، ولَمَّا طال مُقامُ نبيِّ اللهِ بين أَظْهُرِهم يدعوهم إلى اللهِ ليلًا ونهارًا، وجهرًا وإسرارًا، حيثُ مكَثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا، وكلَّما كرَّر عليهم الدعوة طَوَالَ هذه المُدَّة، صمَّموا على الكفرِ الغليظ، والامتناعِ الشديد؛ وحينئذٍ دعا عليهم عَلَيْهِ السَّلَامُ دعوةً استجابها اللهُ منه؛ فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]؛ **أي**: فاحكمْ بيني وبينهم حكمًا مِنْ عندك تُهْلِكُ به المُبْطِلَ، وتَنْتَقِمُ

ممَّن كفرَ بك، وجحَدَ توحيدَكَ، وكذَّبَ رَسُولَك، وسأَلَ اللهَ أن يُنْجِيَهُ ومَنْ معه مِنْ أهلِ الإيمان.

وقد بيَّن اللهُ تعالى أنه استجابَ دعاءَ عَبْدِهِ ونبيِّه نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء]، وقال الله تعالى في موضعٍ آخرَ في بيانِ دَعْوةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومِه لَمَّا كذَّبوا رسالته، وبيانِ استجابةِ اللهِ تعالى لدعائِهِ بإهلاكِ قومه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر].

ونُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّما دعا بهذه الدعوةِ لمَّا يَئِسَ مِنْ صلاحِ قومِهِ وفلاحهم، ورأى أنَّهم لا خيرَ فيهم، وأنَّهم توصَّلوا إلى أذِيَّتِهِ وتكذيبِهِ بكلِّ طريقٍ مِنْ فِعَالٍ ومَقَالٍ. ودعوتُهُ عليهم إنما كانتْ غَضَبًا لله، فلبَّى سبحانه دعوتَهُ، وأجابَ طَلِبَتَهُ، ولَنِعْمَ المجيبُ هو سبحانه والمانُّ، ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات].

ولمَّا أراد سبحانه إنجاءَ نُوحٍ والمؤمنينَ وإهلاكَ قومِهِ، أمرَهُ تعالى أن يَصْنَعَ الفُلْك، وهي السفينةُ العظيمةُ؛ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون]، وعَمِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ على صُنْعِ السفينةِ، وكان قومُه يَمُرُّونَ به وهو يصنعُها، فيَسْخَرُونَ منه، ويهزؤون مِنْ صنيعه؛ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]؛ **أي**: نحنُ الذين نَسْخَرُ منكم، ونَتعجَّبُ منكم في استمرارِكُمْ على كُفْرِكُمْ وعنادِكُمُ الذي يقتضي وقوعَ العذابِ بكم،

وحلولَهُ عليكم؛ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]، وقد كانتْ سَجِيَّتُهُمُ الكفرَ الغليظ، والعنادَ البالغ، والعُتُوَّ والطغيان، وحَلَّتِ العقوبةُ؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، فنَبَعَتِ الأرضُ بالماءِ مِنْ سائرِ أرجائها، وارتَفَعَ الماءُ على أعالي الجبال، وعَمَّ جميعَ الأرضِ طُولَها وعَرْضَها، سَهْلَها وحَزْنها، قِفَارَها ورِمَالَها، ولم يَبْقَ على وجهِ الأرضِ مِمَّنْ كان بها مِنَ الأحياءِ أحدٌ لا صغيرٌ، ولا كبيرٌ، ولمَّا هَلَكُوا أجمعين، أَذِنَ اللهُ عَجَّلَ للأرضِ بابتلاعِ الماء، وللسماءِ بالتوقُّفِ عن المطرِ؛ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وأَمَرَهُ سبحانه أن يَهْبِطَ بسلامٍ ومَنْ معه لَمَّا نَضِبَ الماءُ الذي على الأرض، وأمكَنَ السعيُ فيها، والاستقرارُ عليها؛ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

فهذه استجابةُ اللهِ لدعوةِ نبيِّه المعصوم، وتنفيذٌ لِمَا سبَقَ في قَدَرِهِ المحتوم؛ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

❁ ❁ ❁

١٨٣

دُعَاءُ نُوحٍ عليه السلام (٢)

لقد مَرَّ بنا دعوةُ نبيِّ الله نُوحٍ عليه السلام، وسُؤالُهُ ربَّه سبحانه النجاةَ مِنَ القومِ الظالمين، ودعاؤُهُ عليهم بالهلاكِ لَمَّا عَتَوْا وتكبَّروا وتجبَّروا، واستجابةُ اللهِ له بأنْ أَهْلَكَهُمْ بالطُّوفان، وأنجى نوحًا ومَنْ معه في الفُلْكِ المشحون.

وقد كان عليه السلام عبدًا شكورًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]؛ وفي هذا تنويهٌ بالثناءِ عليه بقيامِهِ بشكرِ اللهِ، واتِّصافِهِ بذلك، وفيه حَثٌّ لذريتِهِ أن يقتدوا به في شُكْرِهِ، ويتابعوه عليه، وأن يتذكَّروا نعمةَ اللهِ عليهم إذْ أبقاهم واستَخْلَفَهُمْ في الأرضِ، وأغرَقَ غيرهم.

ومِنْ شُكْرِ نوحٍ عليه السلام: ما ورَدَ في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون]؛ وهذا فيه تعليمٌ مِنَ الله سبحانه لنبيِّه نُوحٍ عليه السلام ولِمَنْ معه مِنَ المؤمنين: أنْ يقولوا هذا الدعاءَ شُكْرًا له سبحانه، وحَمْدًا على نَجاتِهِمْ مِنَ القومِ الظالمين، وسؤالًا منه سبحانه أنْ يُيسِّرَ لهم منزلًا مباركًا.

قال ابن كَثِيرٍ رحمه الله: «أمره أنْ يَحْمَدَ ربَّه على ما سَخَّرَ له مِنْ هذه السفينة، فنجَّاه بها، وفتَحَ بينه وبين قومه، وأَقَرَّ عينه مِمَّنْ خالَفَهُ وكَذَّبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف]؛ وهكذا يُؤمَرُ بالدعاءِ في ابتداءِ الأمور: أنْ يكونَ على الخيرِ والبَرَكة، وأن تكونَ عاقبتُها محمودةً؛ كما قال تعالى لرسوله ﷺ حينَ هَاجَرَ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ

وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]»[1]. اهـ. وقد امتثَلَ نُوحٌ عليه السلام هذه الوصيةَ، فذكَرَ اللهَ تعالى عندَ ابتداءِ سَيْرِه وعندَ انتهائِهِ؛ كما حَكَى اللهُ عنه بقولِه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]؛ أي: على اسمِ اللهِ ابتداءُ سَيْرِهَا وانتهاؤُهُ.

ودعاءُ نُوحٍ عليه السلام في هذا المقامِ قد استجابَهُ اللهُ؛ كما قال سبحانه: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]؛ أي: اهْبِطْ سالمًا مُبارَكًا عليك وعلى أممٍ ممَّن سيُولَدُ بعدُ؛ أي: مِنْ أولادك؛ فإنَّ اللهَ لم يَجْعَلْ لأحدٍ ممَّن كان معه مِنَ المؤمنينَ نَسْلًا ولا عَقِبًا سوى نُوحٍ عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وفي هذا السياقِ المبارَكِ الذي ذكَرَ اللهُ ﷻ عن عبدِهِ الشكورِ، ونبيِّه الذَّكُورِ نُوحٍ عليه السلام: فوائدُ عظيمةٌ، ومنافعُ جليلةٌ، ينبغي للمسلم أن يتنبَّه لها، وأن يَحْرِصَ على التزامها؛ **قال العَلَّامة عبد الرحمٰن بن سِعْدي رحمه الله، وهو بصددِ ذكرِ الفوائدِ المستنبطةِ من قصَّة نُوحٍ** عليه السلام: «ومنها: ـ **أي**: الفوائد ـ أنه ينبغي الاستعانةُ بالله، وأنْ يُذْكَرَ اسمُهُ عندَ الركوبِ والنزولِ، وفي جميع التقلُّباتِ والحَرَكات، وحمدُ اللهِ والإكثارُ مِنْ ذكرِهِ عند النعم، لا سيَّما النجاةُ من الكُرُباتِ والمشقَّات؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ﴾ [هود: ٤١] وقال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وأنه ينبغي أيضًا الدعاءُ بالبَرَكَةِ في نزولِ المَنَازِلِ العارضةِ؛ كالمَنَازِلِ في إقاماتِ السَّفَرِ وغيره، والمنازِلِ المستقرَّةِ؛ كالمساكنِ والدُّور؛ لقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، وفي ذلك كلِّه من اصطحابِ ذِكْرِ اللهِ، ومن القُوَّةِ على الحَرَكَاتِ والسَّكَنات، ومِنْ قوةِ الثقةِ بالله، ومِنْ نزولِ بركةِ اللهِ التي [هي] خَيْرُ ما صَحِبَتِ العبدَ في أحوالِهِ كلِّها: ما لا غنى للعبدِ عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ»[2].

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

(٢) «تيسير اللطيف المنان، في خلاصة تفسير القرآن» (ص١١١).

ومن يَتأمَّلْ سنةَ نبيِّنا الكريمِ ﷺ يَجِدْ فيها هذه المعانيَ العظيمة، والأحوالَ الكاملة، والهَدْيَ القويم، في ركوبِهِ وتنقُّلاتِهِ، وذَهَابِهِ ورَوَاحِهِ.

ففي سنن أبي داود، والترمذي، وغيرهما، **عن علي بن رَبِيعةَ، قال**: «شَهِدتُ عليًّا رضي الله عنه وأُتِيَ بدابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فلمَّا وضعَ رِجْلَهُ في الرِّكَاب، قال: بِاسْمِ اللهِ، فلمَّا استوَى على ظَهْرِها، قال: **الحَمْدُ للهِ**، ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، ثم قال: **الحَمْدُ للهِ**، ثَلاثَ مَرَّات، ثم قال: **اللهُ أَكْبَرَ**، ثَلاثَ مَرَّات، ثم قال: **سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**، ثم ضَحِكَ، فقيل: يا أميرَ المؤمنينَ، مِنْ أيِّ شيءٍ ضَحِكْتَ؟ قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ فعَلَ كما فَعَلْتُ، ثم ضَحِكَ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، مِنْ أيِّ شيءٍ ضَحِكْتَ؟ قال: (**إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي**)»[(١)].

وفي «صحيح مسلم»، مِنْ حديثِ عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان إذا اسْتَوَى على بَعِيرِهِ خارجًا إلى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثلاثًا، ثم قال: (﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف]، **اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، والخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المَالِ والأَهْلِ**)، وإذا رجَعَ، قَالَهُنَّ وزاد فيهنَّ: (**آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**)»[(٢)].

وكلُّ هذا ذِكْرٌ لله، واستعانةٌ به، والتجاءٌ إليه، واعتمادٌ عليه، وهو هَدْيُ نبيِّنا عليه الصلاةُ والسلام، وهَدْيُ النبيِّين مِنْ قبله. رَزَقَنَا اللهُ الاقتداءَ بهم، والسيرَ على نهجهم؛ إنه سميعٌ مجيب.

---

(١)(٢) تقدم تخريجه (ص٧١٢).

١٨٤

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام

(١)

إنَّ مِنْ دَعَواتِ الأنبياءِ المذكورةِ في القرآن: دعوةَ إبراهيمَ الخَلِيلِ عليه الصلاةُ والسلام لِمَكَّةَ بأنْ تكونَ بلدًا آمنًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم].

ففي الآيةِ الأولى قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وفي الآية الثانية قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾؛ فنكَّرَ البلدَ في الأولى، وعرَّفَهُ في الثانية.

وقد قيل: إنَّ إبراهيمَ عليه السلام دعا بهذه الدعوةِ مَرَّتَيْن: مرةً قبلَ بناءِ البيت، وناسَبَ التنكيرُ في هذا الموضعِ، ومرةً بعدَ بنائِهِ واستقرارِ أهلِهِ به، فناسَبَ التعريفُ؛ ولهذا قال في آخرِ الدعاءِ في موضعه الثاني: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومعنى قوله: ﴿ءَامِنًا﴾؛ **أي:** ذا أَمْنٍ كاملًا في الأمنِ، يَأْمَنُ فيه أهلُهُ مِنَ الخوفِ والرُّعْب.

وقوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، إنَّما سأَلَ ذلك؛ لأنَّ مكةَ لم يكنْ بها زرعٌ ولا ثمرٌ ولا ماء.

فإبراهيمُ عليه السلام دعا لِمَكَّةَ ولأهلها بالأمنِ ورَغَدِ العيش، مع قِلَّةِ المياهِ فيها

والأشجارِ والزروعِ والثمار، وأنْ تكونَ حَرَمًا مُحرَّمًا وأَمْنًا مُحتَّمًا، فاستجابَ اللهُ تعالى لإبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاءَهُ، وآتاهُ سُؤْلَه؛ **قال الحَسَنُ البصريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا دعاءٌ دعا به إبراهيم، فاستجابَ له دعاءَهُ، فجَعَلَهُ بَلَدًا آمنًا»(١).

قال الله تعالى ممتنًّا على أهلِ مَكَّةَ بهذه المِنَّةِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد بَيَّنَ أهلُ العلم ـ رحمهم الله تعالى ـ أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ مكةَ شَرْعًا وقَدَرًا، فحَرَّمَ مَكَّةَ في الشرعِ في آيٍ عديدةٍ مِنَ القرآن، ويَسَّرَ مِنْ أسبابِ حُرْمتها قَدَرًا ما هو معلوم.

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِنَ الآياتِ البيِّناتِ فيها: أنَّ مَنْ دَخَلَهُ كان آمنًا شَرْعًا وقدَرًا؛ فالشرعُ قد أمَرَ اللهُ ورسولُهُ إبراهيمُ، ثم رسولُهُ محمدٌ ـ عليهما الصلاةُ والسلام ـ باحترامِهِ وتأمينِ مَنْ دخَلَهُ، وأنْ لا يُهَاجَ، حتى إنَّ التحريمَ في ذلك شَمِلَ صيودَها وأشجارَها ونباتَها... وأما تأمينُهَا قَدَرًا فلأنَّ الله تعالى بقضائِهِ وقَدَرِهِ وضَعَ في النفوس ـ حتى نفوسِ المشركينَ به، الكافرين بربِّهم ـ احترامَهُ، حتى إنَّ الواحد منهم ـ مَعَ شِدَّةِ حَمِيَّتِهم ونَعْرَتِهِمْ، وعدمِ احتمالهم للضَّيْم ـ يجدُ أَحَدُهم قاتلَ أبيه في الحَرَم، فلا يَهِيجُهُ. ومِنْ جعلِهِ حَرَمًا: أنَّ كلَّ مَنْ أرادَهُ بسوء، فلا بدَّ أن يعاقبَهُ عقوبةً عاجلةً، كما فَعَلَ بأصحابِ الفيلِ وغيرهم»(٢).

ومما يدلُّ على عِظَمِ شأنِ تحريمِ مكةَ، وخطورةِ محاولةِ العَبَثِ بأمنها:

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٢٩). (٢) «تفسير السعدي» (ص١٤٦).

ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما في معنى الآية، قال: «هو أنْ تَسْتَحِلَّ مِنَ الحَرَام ما حَرَّمَ اللهُ عليكَ مِنْ لسانٍ أو قتل، فَتَظْلِمَ مَنْ لا يَظْلِمُك، وتَقْتُلَ مَنْ لا يقتلك، فإذا فعَلَ ذلك، فقد وجَبَ له عذابٌ أليم»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «لو أنَّ رجلًا همَّ فيه بسيئةٍ وهو بِعَدَنِ أَبْيَنَ، لأذاقَهُ اللهُ عز وجل عذابًا أليمًا»(٢).

والآثارُ في هذا المعنى عن السَّلَفِ كثيرةٌ؛ **قال ابن كَثِيرٍ** رحمه الله: «وهذا مِنْ خَصُوصِيَّةِ الحَرَمِ: أنه يُعاقَبُ البادي فيه الشَّرَّ إذا كان عازمًا عليه، وإنْ لم يُوقِعْهُ»(٣).

وقال السَّعْدِيُّ رحمه الله: «والحالُ أنَّ هذا المسجدَ الحرامَ مِنْ حُرْمَتِهِ واحترامِهِ وعَظَمَتِه: أنَّ مَنْ يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلمٍ نُذِقْهُ مِنْ عذابٍ أليم. فمجرَّدُ إرادةِ الظلمِ والإلحادِ في الحرمِ مُوجِبٌ للعذاب، وإنْ كان غيرُهُ لا يُعَاقَبُ العبدُ عليه إلا بعملِ الظلم، فكيف بمَنْ أتى فيه أعظمَ الظلم؛ مِنَ الكُفْرِ والشركِ، والصدِّ عن سبيلِهِ، ومَنْعِ مَنْ يريدُهُ بزيارةٍ، فما ظنُّكم أن يفعلَ اللهُ بهم؟! وفي هذه الآيةِ الكريمةِ وجوبُ احترامِ الحَرَم، وشدةُ تعظيمِه، والتحذيرُ مِنْ إرادةِ المعاصي فيه وفِعْلِهَا»(٤).

ولذا، فإنَّ مَنْ سعى في زعزعةِ أَمْنِ بَلَدِ اللهِ الحرام، وانتَهَكَ حُرْمَته، وظلَمَ عبادَ اللهِ فيه، فقد ارتَكَبَ جُرْمًا عظيمًا، ومنكرًا شنيعًا؛ وقد تَوعَّدَ اللهُ مَنْ هَمَّ بشيءٍ مِنْ ذلك بأن يُذِيقَهُ العذابَ الأليم، فكيف بِمَنْ يفعلُ ذلك؟! واللهُ جلَّ وعلا جعل مكةَ بلدًا حرامًا إلى يومِ القيامة، كما أن دماءَ المسلمينَ وأموالَهُمْ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٥٠٧).
(٢) «تفسير الطبري» (١٦/ ٥٠٨).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٠٧).
(٤) «تفسير السعدي» (ص٥٣٦).

وأعراضَهُمْ حرامٌ إلى يوم القيامة؛ وقد جاء في خُطْبةِ النبيِّ ﷺ في حَجَّةِ الوداعِ: (**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**)[1].

وإنا لنسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يَحْفَظَ على المسلمينَ في بلادِ الحَرَمَيْنِ وسائرِ بلادِ المسلمينَ أَمْنَهم وإِيمَانَهم، وأن يَصْرِفَ عنهم الفِتَنَ والشرور، وأن يَرُدَّ كيدَ مَنْ أرادَ الإخلالَ بأمنِهِ في نَحْرِه، وأنْ يَفْضَحَهُ بين خَلْقه، وأن يُسَلِّمَ المسلمينَ مِنْ شَرِّه؛ إنه سبحانه سميعٌ مجيب.

❀ ❀ ❀

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٠٣).

١٨٥

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام (٢)

إنَّ مِنْ دَعواتِ الأنبياءِ العظيمةِ الواردِ ذِكْرُها في القرآنِ الكريم: ما جاء في سياق قِصَّةِ إبراهيمَ الخليلِ مع قومه، ودعوتِهِ لهم إلى توحيدِ الله، وإخلاصِ الدِّينِ له، والبراءةِ مِنَ المعبوداتِ الباطلة، التي لا تملكُ لنفسها نفعًا أو ضرًّا، فضلًا عن أن تملكَ شيئًا مِنْ ذلكَ لغيرها؛ قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء].

فهذا السياقُ المباركُ فيه إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى عن عبدِهِ وخليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام، وعن دعوتِهِ لقومِهِ إلى توحيدِ الله تعالى وعبادتِهِ وحدَهُ لا شريكَ له، مع بيانِ بُطْلانِ المعبوداتِ التي اتَّخَذَها قومُهُ من دون الله تعالى، وأنه عليه السلام مُتَبَرِّئٌ منها كلِّها سوى المعبودِ الحقِّ، الذي هو رَبُّ العالمين. وذَكَرَ جملةً مِنْ نعوتِهِ الدالَّةِ على عَظَمَتِهِ وجلالِهِ وكماله، وأنه وحدَهُ المستحقُّ للعبادة، لا تلكَ المعبوداتُ الباطلةُ التي لا تسمعُ إذا دُعِيَتْ، ولا تنفعُ ولا تَضُرُّ.

بعد هذا انتقلَ إبراهيمُ عليه السلام مِنْ وصفِ ربِّه بجلائلِ الصفات، وعظيمِ النعوت، إلى دعائِهِ وسؤالِهِ وطلبِهِ بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ...﴾، إلى آخرِ الدعواتِ المباركةِ التي ذكرها؛ وهي دعواتٌ

عظيمة، مشتملةٌ على مطالبَ جليلة؛ مِنَ المصالحِ الدينيةِ والدنيويةِ والأُخْروية.

فقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾؛ **أي**: عِلْمًا كثيرًا أعرفُ به الأحكام، والحلالَ والحرام، وأَحْكُمُ به بين الأنام.

وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ **أي**: اجْعَلْنِي مَعَ الصالحينَ في الدنيا والآخرة، وألحقني بِمَنْ قبلي من النبيين في المنزلةِ والدرجة.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ **أي**: اجعَلْ لي في الناسِ ذكرًا جميلًا، وثناءً حَسَنًا باقيًا فيمن يجيءُ مِنَ القرونِ بعدي.

قال ابن زَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ: «اللسانُ الصِّدْقُ: الذكرُ الصِّدْق، والثناءُ الصالح، والذكرُ الصالحُ في الآخِرينَ: مِنَ الناسِ، مِنَ الأمم»(١).

قال أهل العلم: وقد أجابَ اللهُ دعاءَ إبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، «فوهَبَ له مِنَ العلم والحُكْم ما كان به مِنْ أفضلِ المرسلين، وألحَقَهُ بإخوانِهِ المرسلين، وجعَلَهُ محبوبًا مقبولًا معظَّمًا، مُثْنًى عليه في جميعِ المِلَلِ في جميعِ الأوقات»(٢).

وهذا كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقد أخَذَ أهلُ العلمِ مِنْ هذه الدعوةِ الترغيبَ في العملِ الصالحِ الذي يَكْسِبُ العبدُ به الثناءَ الحَسَن، ويُورِثُهُ الذِّكْرَ الجميل؛ إذْ هو الحياةُ الثانية **كما قيل**:

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

أي: بِذِكْرِهِمُ الطيِّب، وسيرتهم العَطِرَة.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٩٤).

(٢) «تفسير السعدي» (ص٦٩٤).

وقوله: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ **أي**: ممَّن تعطيه الجنةَ، وتَمُنُّ عليه بدخولها، وقد أجاب اللهُ دَعْوَتَهُ، فرفَعَ منزلَتَهُ في جناتِ النعيم.

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ **أي**: أَجِرْني يا اللهُ مِنَ الخِزْيِ يومَ القيامةِ يومَ يُبْعَثُ الخلائقُ أَوَّلُهم وآخرهم، وأَسْعِدْني في ذلك اليومِ العظيمِ الذي لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنونَ إلَّا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليم؛ فهذا الذي ينفعُ عندك وينجو به العبدُ مِنْ عقابك، وينالُ به كريمَ الثوابِ، وجميلَ المآب.

والقلبُ السَّليمُ هو: الذي سَلِمَ مِنَ الشركِ والشَّكِّ، ومحبةِ الشَّرِّ، والإصرارِ على البدعةِ والذنب، ويلزمُ مِنْ سلامتِهِ مما ذُكِرَ اتصافُهُ بأضدادها من الإخلاصِ والعلمِ واليقين، ومحبةِ الخيرِ وتزيينِهِ في قلبه، وأن تكونَ إرادتُهُ ومحبتُهُ تابعةً لمحبةِ اللهِ، وهواهُ تبعًا لِمَا جاء عن الله.

قال العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «والقلبُ السليمُ هو الذي سَلِمَ مِنَ الشركِ والغِلِّ، والحِقْدِ والحسد، والشُّحِّ والكِبْرِ، وحبِّ الدنيا والرياسة، فسَلِمَ مِنْ كلِّ آفةٍ تُبْعِدُهُ من الله، وسَلِمَ مِنْ كلِّ شبهةٍ تعارضُ خَبَرَهُ، ومِنْ كلِّ شَهْوةٍ تعارضُ أمره، وسَلِمَ مِنْ كلِّ إرادةٍ تُزاحمُ مراده، وسَلِمَ مِنْ كلِّ قاطعٍ يقطعُ عن الله؛ فهذا القلبُ السليمُ في جَنَّةٍ معجَّلةٍ في الدنيا، وفي جنةٍ في البرزخ، وفي جنةٍ يومَ المَعَاد، ولا تتمُّ له سلامتُهُ مطلقًا حتى يَسْلَمَ من خمسةِ أشياءَ: مِنْ شركٍ يناقضُ التوحيد، وبدْعةٍ تخالفُ السنة، وشَهْوةٍ تخالفُ الأمر، وغَفْلةٍ تناقضُ الذِّكْرَ، وهَوًى يناقضُ التجريدَ والإخلاصَ. وهذه الخمسةُ حُجُبٌ عن الله، وتحتَ كلِّ واحدٍ منها أنواعٌ كثيرةٌ تتضمَّنُ أفرادًا لا تنحصر»(١).

هذا وإنا لنسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يُلْحِقَنا بالصالحينَ مِنْ عباده، وأن يَجْعَلَنا مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم، وألَّا يُخْزِيَنا يومَ يُبْعَثُونَ، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء].

---

(١) «الجواب الكافي» لابن القيم (ص١٤٣).

١٨٦

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٣)

إنَّ مِنْ دَعَواتِ الأنبياءِ العظيمةِ الواردةِ في القرآنِ الكريم: ما ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن نبيِّه إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ مِنْ سؤالِهِ ربَّه عَزَّ وَجَلَّ أن يَهَبَهُ وَلَدًا صالحًا؛ إذِ الولَدُ الصالحُ نعمةٌ في الحياةِ عظيمةٌ، يَهَبُها اللهُ سبحانه لِمَنْ شاء مِنْ عباده؛ ولهذا كان دأبُ الصالحين سؤالَ الله تعالى الوَلَدَ الصالح، الذي هو قُرَّةُ عَيْنِ العبدِ وسَلْوَةُ قلبه، وزِينةُ حياته.

وقد ذكَرَ اللهُ في كتابِهِ أنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال في دعائِهِ ومناجاتِهِ لربِّه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه مسألةُ إبراهيمَ رَبَّهُ أنْ يرزُقَهُ ولدًا صالحًا، يقولُ: يا ربِّ هَبْ لي منك وَلَدًا يكونُ مِنَ الصالحين الذين يُطِيعُونَكَ ولا يعصونك، ويُصْلِحُونَ في الأرض ولا يُفْسِدُونَ»(١)، **وقال ابن كثير** رَحِمَهُ اللهُ: «**يعني**: أولادًا مطيعين عِوَضًا مِنْ قومِهِ وعشيرتِهِ الذين فارقهم»(٢).

وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾، فيه الإيمانُ بأنَّ وجودَ الوَلَدِ وصلاحَهُ مِنَّةٌ ربانية، وهِبةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ المتفرِّدِ بالتصرُّفِ والتدبيرِ في هذا الكون، لا شريكَ له؛ كما قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى].

فالأمرُ لله مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ، ما شاء كان وما لم يشأْ لم يكنْ، يُعْطِي مَنْ

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٧٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٢ ـ ٢٣).

يشاء، ويمنعُ مَنْ يشاء، لا مانعَ لِمَا أعطى، ولا مُعْطِيَ لما مَنَع، وهو جلَّ وعلا يعطي مَنْ يشاءُ مِنْ خلقِهِ مِنَ الأولادِ، ويمنعُ مَنْ شاء، وهو العليمُ القدير.

وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾؛ **أي**: يرزقُهُ بناتٍ فقطْ، ليس معهنَّ ذكورٌ، وقوله: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾؛ **أي**: يرزقُهُ البنينَ فقطْ، ليس معهم إناثٌ، وقوله: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًا﴾؛ **أي**: يجمعُ لِمَنْ شاءَ الذكورَ والإناثَ في العطاء، وقوله: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾؛ **أي**: لا يُولَدُ له أصلًا.

فقسَّم سبحانه حال الزوجَيْنِ إلىٰ **أربعةِ أقسام**: **منهم** مَنْ يعطيه البناتِ، **ومنهم** مَنْ يعطيه البنين، **ومنهم** مَنْ يعطيه مِنَ النوعَيْنِ ذكورًا وإناثًا، **ومنهم** مَنْ يمنعه هذا وهذا، فيجعلُهُ عقيمًا لا نَسْلَ له، ولا يُولَدُ له.

وقد ذكَرَ بعضُ المفسِّرين مَثَلًا للآيةِ مما كان للأنبياء عليهم السلام، وإنْ كانتِ الأقسامُ موجودةً في سائرِ الناسِ: بأنَّ قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾؛ كنبيِّ اللهِ لوطٍ عليه السلام؛ كان له بناتٌ، ولم يكنْ له ولدٌ ذكَرٌ، وقوله: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾؛ كنبيِّ اللهِ إبراهيمَ عليه السلام؛ كان له بَنُون، ولم تكنْ له بنتٌ أنثى، وقوله: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًا﴾؛ كخاتَمِ النبيِّينَ محمدٍ ﷺ؛ وُلِدَ له بنونَ وبناتٌ، وقوله: ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾؛ كنبيِّ اللهِ يحيى، ونبيِّه عيسى عليهما السلام؛ لم يكنْ لهما وَلَدٌ ولا زوجةٌ(١).

وعَوْدًا على دعوةِ إبراهيمَ عليه السلام ربَّه أن يَهَبَهُ من الصالحين؛ **أي**: أولادًا بَرَرَةً مطيعين؛ فإنَّ اللهَ قد استجابَ لإبراهيمَ الخليلِ عليه السلام دعاءَهُ؛ كما قال سبحانه عقبَ الآيةِ السابقةِ مباشرةً: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠١]؛ وهذا فيه دَلَالةٌ على أنه بُشِّرَ بابن ذَكَرٍ، وأنه يبقى حتى ينتهيَ في السِّنِّ، ويُوصَفَ بالحلم.

وهذا الابنُ الذي بُشِّرَ به هو إسماعيلُ عليه السلام.

---

(١) **انظر**: «تفسير أبي المظفَّر السمعاني» (٥/ ٨٦)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٧/ ٢٩٦)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٣).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا الغلامُ هو إسماعيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنه أولُ وَلَدٍ بُشِّرَ به إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أكبرُ مِنْ إسحاقَ؛ باتفاقِ المسلمينَ، وأهلِ الكتاب»[1].

ولما كانتْ هبةُ الولدِ الصالحِ مِنَّةً عظيمةً مِنَ الله تعالى، ونعمةً جليلةً مِنْ نِعَمِه، كان شكرُها وحَمْدُ الربِّ تعالى عليها واجبًا على العبد، وقد وَفَّى إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا المقام؛ كما ذكَرَ اللهُ تعالى عنه ذلك في قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

أي: الحمدُ لله الذي رَزَقَنِي على كِبَرٍ مِنَ السِّنِّ ولدًا إسماعيلَ وإسحاقَ، فَهِبَتُهُم مِنْ أكبرِ النِّعَم، وكَوْنُها على الكِبَرِ في حالِ اليأسِ مِنَ الأولادِ نعمةٌ أخرى، وكونُهُمَا أنبياءً صالحينَ أجلُّ وأفضلُ، وقولُهُ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾؛ **أي**: لقريبُ الإجابةِ مِمَّنْ دعاه، وقد دعوتُهُ فلم يُخَيِّبْ رجائي.

* **ومِنَ الفوائدِ العظيمةِ المستفادةِ مِنْ هذا السياق**: «أنَّ مِنْ نعمةِ اللهِ على العبدِ هِبَةَ الأولادِ الصالحين، وأنَّ عليه في ذلك أن يَحْمَدَ اللهَ، ويدعُوَ اللهَ لذريَّتِهِ كما فعَلَ الخليلُ ﷺ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم]، وقال جلَّ ذِكْرُهُ في الثناءِ عمومًا على مَنْ يدعو اللهَ بصلاحِ ذُرِّيَّتِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ فإنَّ العبدَ إذا مات انقطَعَ عمَلُهُ إلا مِنْ ثلاثٍ: صدقةٍ جارية، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»[2].

ونسألُ اللهَ أن يَمُنَّ علينا بالذريةِ الصالحة، وأنْ يَهْدِيَ أبناءَ المسلمين وبناتِهِمْ؛ إنه سبحانه سميعٌ مجيب.

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٣).

(٢) «تيسير اللطيف المنان، في خلاصة تفسير القرآن» لابن سعدي (ص١٢٢ ـ ١٢٣).

١٨٧

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٤)

إنَّ مِنَ الدعواتِ الجوامعِ الواردةِ في القرآن: ما ذَكَرَهُ اللهُ عن نبيِّه وخليلِهِ إبراهيمَ، وابنِهِ إسماعيل عليهما السلام، في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة].

وقد اشتَمَلَتْ هذه الآياتُ على جملةٍ مِنَ المطالبِ التي دعا بها إبراهيمُ وابنُهُ إسماعيلُ عليهما السلام لأنفسهما ولِذُرِّيتهما:

وأوَّلُ ذلك: قولُهُما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ وهذا دعاءٌ مبارَكٌ، قالاه في حالِ بنائهما البيت، **كما جاء عن ابن عبَّاس** رضي الله عنهما، **قال**: «قاما يرفعان القواعدَ مِنَ البيتِ ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»؛ فهما في عملٍ صالحٍ جليل، ويسألان ربَّهما أن يَتقبَّلَ منهما ما هما فيه من الطاعةِ العظيمة، والسعيِ المشكور.

وتأمَّلْ حالَ إمامِ الحُنَفَاء، وقدوةِ الموحِّدين عليه السلام؛ يبني بيتَ اللهِ عز وجل، وبأمرِهِ سبحانه، وهو خائفٌ أنْ لَا يُقْبَلَ.

جاء عن وُهَيْبِ بن الوَرْد، أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، **ثم بكى، ويقول**: «يا خليلَ الرحمٰن، تَرْفَعُ قوائمَ بيتِ الرحمٰن، وأنتَ مُشْفِقٌ أنْ لَا يُتقبَّلَ منك»؛ أورده الحافظ ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»، **وقال**: «وهذا كما حَكَى اللهُ تعالى من حال المؤمنينَ المخلصينَ في

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ **أي**: يُعْطُونَ ما أَعْطَوْا مِنَ الصدقاتِ والنفقاتِ والقُرُبات، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾؛ **أي**: خائفةٌ أنْ لَا يُتقبَّلَ منهم؛ كما جاء به الحديثُ الصحيحُ عن عائشةَ ﵂، عن رسول الله ﷺ».

يشيرُ إلى ما رواه الإمام أحمد في «مسنده»، عن أم المؤمنين عائشةَ ﵂، أنها قالت: «قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أهو الرَّجُلُ يزني ويشربُ الخمر؟ قال: **(لَا يا بِنْتَ أبي بَكْرٍ ـ أَوْ لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ـ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ ويُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ)**[(١)].

والثاني: قولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾؛ **أي**: اجعَلْنا مُسْتَسْلِمَيْنِ لأمرك، خَاضِعَيْن لطاعتك، مُنْقَادَيْن لِحُكْمك؛ وفي هذا سؤالُ الثَّبَاتِ على الطاعةِ، والدوامِ على الإسلام؛ وفي هذا دليلٌ واضحٌ على حاجةِ العبدِ إلى التوفيقِ والتثبيتِ مِنْ ربِّه ﷻ في الدوامِ على الإسلامِ والثباتِ عليه؛ ولهذا جاء في الحديث عن أم المؤمنين أم سَلَمَةَ ﵂، قالَتْ: «كان أكثَرُ دعائِهِ ﷺ **(يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)**، قالَتْ: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما لأكثرِ دعائِكَ: **(يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)**؟ قال: **(يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهُ لَيْسَ آدمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ؛ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ)**؛ أخرجَهُ الترمذي[(٢)].

الثالث: قولهما: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ **أي**: واجعَلْ مِنْ أولادنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لك؛ **قال الحافظ ابن كثير** ﵀: «وهذا الدعاءُ مِنْ إبراهيمَ وإسماعيلَ ﵉، كما أخبَرَ اللهُ تعالى عن عبادِهِ المتقين المؤمنين في قوله:

(١) «مسند أحمد» (٦/ ٢٠٥)، ورواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وقوّاه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٣٠٢)، و«جامع الترمذي» (٣٥٢٢)، وصحَّحه بشواهده الألباني في «الصحيحة» (٢٠٩١).

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وهذا القَدْرُ مرغوبٌ فيه شرعًا؛ فإنَّ مِنْ تمامِ محبةِ عبادةِ اللهِ تعالى أنه يحبُّ أن يكونَ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ يعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا شريكَ له؛ ولهذا لمَّا قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤][١].

الرابع: قولُهما: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾؛ **أي**: وعَلِّمْنَا وعَرِّفنا مناسكنا؛ **أي**: شرائعَ ديننا، وأعلامَ حَجِّنا.

الخامس: قولهما: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾؛ وهذا دعاءٌ منهما بالتوبة، **والتوبةُ هي**: الأَوْبَةُ إلى الله، والرجوعُ إليه بالندم، والإقلاعُ والعَزْمُ على تركِ العَوْد.

قال العَلَّامةُ ابن سِعْدِيّ رحمه الله: «ولمَّا كان العبدُ ـ مهما كان ـ لا بدَّ أنْ يعتريه التقصيرُ، ويحتاجَ إلى التوبةِ، قالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾»[٢].

السادس: قولهما: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وهذا الدعاءُ قيل: إنه للأمَّةِ المسلمةِ مِنْ ذريةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام، **وقيل**: إنه إخبارٌ عن تمامِ دعوةِ إبراهيمَ عليه السلام لأهلِ مَكَّةَ أن يبعَثَ اللهُ فيهم رسولًا منهم؛ **أي**: مِنْ جنسهم وعلى لغتهمُ الفصيحةِ البليغةِ لتتمَّ عليهم النعمتان الدينية والدنيوية؛ وعلى هذا القول الثاني يكونُ دعاؤهما هذا لنبينا محمَّد ﷺ خاصَّةً؛ إذْ لم يبعثِ اللهُ تعالى في أهلِ مكةَ غيرَ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ[٣].

ولا اختلافَ في الحقيقةِ بين القولَيْنِ في المرادِ بهذا الدعاءِ؛ لأنَّ نبينا محمَّدًا ﷺ مِنْ ولدِ إسماعيلَ عليه السلام، وإسماعيلُ من ذريةِ إبراهيمَ عليه السلام؛ ولهذا كان

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٦٧). (٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٠).
(٣) **انظر**: «تفسير الطبري» (٢/ ٥٧٢).

النبيُّ محمَّدٌ ﷺ يقول: (**أَنَا دَعْوَةُ أبي إِبْرَاهِيمَ**)؛ رواه أحمدُ، والحاكم[1]، وغيرهما، **والمراد**: هذه الدعوةُ؛ كما ذكَرَ ذلك أهلُ العلم.

والمرادُ بقوله: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ**﴾؛ **أي**: القرآنَ الكريمَ، ﴿**وَٱلْحِكْمَةَ**﴾؛ **أي**: السُّنَّةَ، وقولُهُ: ﴿**وَيُزَكِّيهِمْ**﴾؛ **أي**: بالإخلاصِ والطاعةِ والانقيادِ للهِ ﷻ.

❁ ❁ ❁

(١) «مسند أحمد» (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، و«مستدرك الحاكم» (٢/ ٤١٨، ٦٠٠)، عن العِرْباض بن سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه، ورواه أحمد (٥/ ٢٦٢) عن أبي أمامة الباهِلِيِّ رضي الله عنه، والحاكم (٢/ ٦٠٠) عن أصحاب رسول الله ﷺ، وصحَّحه بشواهده الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٥٤٥، ١٥٤٦).

١٨٨

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام
(٥)

ومِنْ دَعَواتِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام: ما ورَدَ في السورةِ المعروفةِ باسمِهِ عليه السلام «سورة إبراهيم»، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم]، فهذه دعواتٌ عظيمةٌ، ومطالبُ جليلةٌ، سألها إبراهيمُ عليه السلام ربَّه عز وجل لنفسِهِ ولذريته، وقد انتظَمَتْ مقاصدَ جليلةً، وسؤالاتٍ عظيمةً، يَجْدُرُ بالمسلمِ أن يقفَ عندها، وأن يَتأمَّلَها.

قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، مضى الكلامُ على هذه الدعوةِ العظيمةِ المشتملةِ على سؤالِهِ عليه السلام الأمنَ لِبَلَدِ اللهِ الحرامِ مكةَ، وأنَّ اللهَ استجابَ دعاءَهُ، فجعلها بلدًا آمنًا.

قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؛ **أي**: أَبْعِدْني وبنيَّ مِنْ عبادةِ الأصنام، واجعلني وإيَّاهم في جانبٍ بعيدٍ عن عبادتها والإلمام بها؛ وفي هذا الخوفُ من عبادةِ الأصنامِ، والحذرُ الشديدُ من ذلك، وليتأمَّلِ العاقلُ ذلك؛ فإنَّ هذا مما يُخِيفُ العبدَ مِنَ الشرك، ويوجبُ للقلبِ الحيِّ الخوفَ منه، فإذا كان إبراهيمُ عليه السلام ـ إمامُ الحنفاء، الذي جَعَلَهُ اللهُ أمةً وحده، وابتُلِيَ بكلماتٍ

فَأَتَمَّهُنَّ، وكَسَرَ الأصنامَ بيده ـ يخافُ أن يقَعَ في الشرك، ويَسْأَلُ ربَّه أن يُجَنِّبَهُ ويُجَنِّبَ بنيه عبادةَ الأصنام، فما الظنُّ بغيره؟! وكيف يأمنُ الوقوعَ فيه مَنْ هو دُونَهُ بمراتبَ؟!(١).

روى الإمام الطبري في «تفسيره»، **عن إبراهيمَ التَّيْمِيِّ أنه كان يَقُصُّ ويقولُ في قَصَصِهِ**: «ومَنْ يأمنُ البلاءَ بعدَ خليلِ اللهِ إبراهيمَ؛ حيثُ يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؟!».

وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ذكَرَ فيه المُوجِبَ لخوفِهِ عليه وعلى بَنِيهِ مِنْ عبادتها، وهو كثرةُ مَنِ افْتُتِنَ وابْتُلِيَ مِنَ الناسِ بعبادتها، وبيَّن براءتَهُ منها وممَّن عبدها، وردَّ أمرهم إلى الله تعالى، وهو قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾؛ **أي**: على ما جِئْتُ به من التوحيد، وإخلاصِ العبادةِ لله رَبِّ العالمين، وفراقِ عبادةِ الأصنام؛ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾؛ **أي**: مِنْ أهلِ ديني ومِلَّتي، ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وهذا مِنْ شَفَقَةِ إبراهيمَ عليه السلام حيثُ دعا للعاصينَ بالمغفرةِ والرحمة؛ وهذا دليلٌ على عظيم شفقتِهِ ورحمتِهِ بعبادِ الله، واللهُ تعالى أَرْحَمُ بعبادِهِ منه، لا يُعَذِّبُ إلا مَنْ تمرَّدَ عليه.

ولهذا جاء عن قتادةَ أنه قرأ: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، **ثُمَّ قال**: «اسمعوا إلى قولِ خليلِ اللهِ إبراهيمَ، لا واللهِ ما كانوا طَعَّانين ولا لَعَّانين، وكان يقال: إنَّ مِنْ أشرِّ عبادِ اللهِ كلَّ طَعَّانٍ لَعَّانٍ؛ قال نبيُّ اللهِ ابنُ مَرْيَمَ عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]»(٢).

روى مسلمٌ في «صحيحه»، عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما: «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم تلا قولَ اللهِ عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن

(١) **انظر في هذا**: «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وشروحاته: «بابُ الخوفِ مِنَ الشركِ».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٨٨ ـ ٦٨٩).

تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فرفَعَ يدَيْهِ، وقال: (**اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**) وبَكَى، فقال الله عز وجل: (**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ** ـ ورَبُّكَ أعلمُ ـ **فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟**)، فأتاه جبريلُ عليه السلام فسأله، فأخبَرَهُ رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: (**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوؤُكَ**)»[(١)].

وروى مسلم أيضًا في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ: ادْعُ على المشركينَ، قال: (**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**)»[(٢)].

وأمَّا قوله: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، فقد تَقَدَّمَ الكلامُ على شيءٍ مِنْ معناه عند ذكرِ دعائِهِ عليه السلام لأهلِ مكةَ.

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فيه بيانُ أنَّ قَصْدَهُ وجهُ الله، الذي لا تخفى عليه خافيةٌ، فقال: ربَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما تُخْفِي قلوبُنا عندَ مَسْأَلَتِنا ما نَسْأَلُك، وفي غيرِ ذلكَ مِنْ أحوالنا، وما نُعْلِنُ مِنْ دعائنا فنجهرُ به، وغيرَ ذلك مِنْ أعمالنا، وما يَخْفى عليك يا ربَّنا مِنْ شيءٍ يكونُ في الأرضِ ولا في السماء؛ لأنَّ ذلك كلَّه ظاهرٌ لك مُتجلٍّ بادٍ.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، سبَقَ عندَ الكلامِ على دعائِهِ عليه السلام بالولدِ الصالح[(٣)].

وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾، فيه

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٩٤).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٥٩٩).

(٣) انظر: (ص٧٧٢).

سؤالُ اللهِ أن يَجْعَلَهُ مقيمًا لها بحدودها وأركانها، وأن يَجْعَلَ مِنْ ذريتِهِ مَنْ يقيمون الصلاةَ، ويحافظون عليها، وأن يَسْتَجِيبَ اللهُ لدعائِهِ فيما سأَلَهُ فيه كلِّه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ **في تفسيره لهذه الآيات:** «ينبغي لكلِّ داعٍ أن يَدْعُوَ لنفسِهِ ولوالِدَيْهِ ولذريته»[١].

وقد استجابَ اللهُ تعالى لنبيِّه وخليلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما دعاه لنفسِهِ ولذريتِهِ مما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ في الآيات؛ **وقد جاء عن ابن جُرَيْج** رَحِمَهُ اللهُ، **أنه قال:** «فلنْ يزالَ مِنْ ذريةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ناسٌ على الفِطْرَةِ يَعْبُدُونَ اللَّهَ تعالى حتى تقومَ الساعةُ»[٢]؛ وهذا من استجابةِ اللهِ له.

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٣١).
(٢) **انظر:** «الدر المنثور» (٥/ ٤٩).

١٨٩

دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٦)

إنَّ ممَّا ذكَرَ اللهُ في كتابِهِ العزيزِ مِنْ دعاءِ خليلِهِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: استغفارُهُ لأبيه؛ كقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]، وقولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقد بيَّن اللهُ تعالى في كتابِهِ أنَّ دعاءَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه بالمغفرةِ مِنَ اللهِ كان وَعْدًا وَعَدَهُ إبراهيمُ أباه؛ طمعًا في إيمانِهِ، وترغيبًا له فيه، ولكنْ لما أَصَرَّ أبوه على الشركِ باللهِ تعالى حتى مات على ذلك، تَبرَّأَ خليلُ اللهِ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ من أبيه حينئذٍ، وترَكَ الاستغفارَ له؛ لأنَّ الله سبحانه: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي هذا يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «ما زالَ إبراهيمُ يَسْتغفِرُ لأبيه حتى مات، فلمَّا ماتَ، تَبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله»، **وقال أيضًا** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «استَغْفَرَ له ما كان حيًّا، فلما مات، أَمْسَكَ عن الاستغفار»(١)، **وقال الضحَّاك** رَحِمَهُ اللهُ: «كان إبراهيمُ صلواتُ اللهِ عليه يرجو أن يُؤْمِنَ أبوه ما دام حيًّا، فلمَّا ماتَ على شِرْكِهِ، تَبرَّأَ منه»(٢).

ولمَّا كان هذا هو واقعَ الحالِ لاستغفارِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه، نَهى اللهُ تعالى المؤمنينَ عَنِ الاستغفارِ للمشركينَ اقتداءً بإبراهيمَ في ذلك، وأمرَهُمْ

---

(١) رواهما ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٣٠).

(٢) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٣١).

بالاقتداءِ بخليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام في التمسُّكِ بالتوحيدِ، والبراءةِ من الشركِ وأهله؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، **قال الإمام الطبري** رحمه الله: «يقول تعالى ذِكْرُهُ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، في هذه الأمورِ التي ذكرناها: مِنْ مُبايَنَةِ الكفارِ، ومعاداتِهم، وتركِ موالاتهم، إلا في قولِ إبراهيمَ لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾؛ فإنه لا أُسوةَ لكم فيه في ذلك؛ لأنَّ ذلك كان مِنْ إبراهيمَ لأبيه عن موعدةٍ وَعَدَهَا إيَّاه قبلَ أن يَتبيَّنَ له أنه عدُّو لله، فلما تَبيَّنَ له أنه عدُّو لله، تبرَّأَ منه؛ يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله، تَبَرَّؤوا من أعداءِ اللهِ مِنَ المشركين به، ولا تتخذوا منهم أولياءَ حتى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرؤوا مِنْ عبادة ما سواه، وأَظْهِرُوا لهم العداوةَ والبغضاء».اهـ.

وفي هذا المعنى قولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وفي «الصحيحين»، عن ابن المسيِّب، عن أبيه، قال: «لمَّا حَضَرَتْ أبا طالبٍ الوفاةُ، دخَلَ عليه النبيُّ ﷺ، وعِنْدَهُ أبو جَهْلٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ، فقال: (**أَيْ عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ** ﷻ)، فقال أبو جَهْلٍ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ؟! قال: فَلَمْ يَزالا يُكَلِّمَانِهِ، حتى قال آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ به: هو عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فقال النبيُّ ﷺ: (**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**)؛ فنزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، قال: ونزلَتْ فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى

مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]»(١).

وفي «المسند»، **عن عليٍّ** رضي الله عنه، **قال**: «سمعتُ رجلًا يستغفرُ لأبوَيْهِ وهما مُشْرِكَانِ، فقلت: أيستغفرُ الرَّجُلُ لأبوَيْهِ وهما مشركان؟ فقال: أَوَلَمْ يَسْتَغْفِرْ إبراهيمُ لأبيه؟! فذكَرْتُ ذلك للنبيِّ ﷺ، فنزلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾، إلى قوله: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾»(٢).

وفي هذا كلِّه بيانٌ للمؤمنين، وإرشادٌ لهم إلى عدمِ الدعاءِ للمشركين بالمغفرة؛ لأنَّ ذلك ليس بنافعٍ لهم ما داموا مقيمين على الشرك، واللهُ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به، ولكنْ له أن يَدْعُوَ لهم بالهدايةِ وبالتوفيقِ للإيمانِ والإسلام؛ **كما قال الإمام البخاري في «صحيحه»**: «بابُ الدُّعَاءِ للمُشْرِكينَ بالهُدَى لِيَتَأَلَّفَهم»؛ ثم أخرَجَ حديثَ أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «قَدِمَ طُفَيْلُ بنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وأصحابُهُ على النبيِّ ﷺ، فقالوا: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ، فادْعُ اللهَ عليها، فقيل: هَلَكَتْ دَوْسٌ، قال: **(اللَّهُمَّ، اهْدِ دَوْسًا، وَائْتِ بِهِم)**(٣)»، وفي «المسند»، والترمذي، عن جابر رضي الله عنه، قال: «قالوا: يا رَسُولَ اللهِ، أَحْرَقَتْنَا نِبَالُ ثَقِيفٍ، فَادْعُ اللهَ عليهم، قال: **(اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا)**(٤)».

ومن ذلك: ما ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، في ذكرِ دعوتِهِ لِأُمِّهِ بالإسلام، وقد كانتْ مُشْرِكةً، وطَلَبِهِ مِنَ النبيِّ ﷺ أن يدعُوَ لها، فقال عليه الصلاة والسلام: **(اللَّهُمَّ اهْدِ أم أبي هُرَيْرَةَ)**، فاستجابَ اللهُ دعوتَهُ، وهَدَى أم أبي هريرة(٥).

ويجوزُ كذلك الدعاءُ له بالرزقِ أو الغيثِ؛ تأليفًا لقلبه؛ كما في «صحيح

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٦٧٥)، و«صحيح مسلم» رقم (٣٩).
(٢) «مسند أحمد» (١/ ٩٩)، وحسَّن إسناده الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٢٤).
(٣) تقدم تخريجه (ص٢٨٩).
(٤) «المسند» (٣/ ٣٤٣)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٩٤٢)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (ص٤٨٠).
(٥) تقدم تخريجه (ص٤٤٣).

البخاري»، لمَّا طُلِبَ من النبيِّ ﷺ أن يَسْتَسْقِيَ لِمُضَرَ، فاستَسْقَى لهم[1].

وهذا من الإحسانِ الذي ذكَرَهُ اللهُ في حقِّ الكفارِ الذين لم يقاتلوا المسلمين ولم يُخْرِجُوهُمْ مِنْ ديارهم؛ طمعًا في هدايتهم، وتأليفًا لقلوبهم في قوله: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

❀ ❀ ❀

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٨٢١).

١٩٠

دُعَاءُ لُوطٍ عليه السلام

إنَّ مما حَكَى اللهُ تعالى في كتابِهِ العزيزِ مِنْ أدعيةِ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ: دعاءَ نبيِّ اللهِ لُوطٍ عليه السلام، وقد كان مُرْسَلًا إلى قومٍ جمعوا - مع شركهم بالله تعالى - منكرًا عظيمًا لم يَفْعَلْهُ أحدٌ قبلَهم مِنْ أهلِ الدنيا، وهو فعلُ الفاحشةِ في الذكورِ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف].

وكانتْ هذه الفَعْلَةُ القبيحةُ فاشيةً فيهم، حتى إنه لربَّما وقَعَتْ منهم في المحافل، ولا يستنكفون، ولا يَرْعَوُونَ لوعظِ واعظٍ، ولا لنصيحة ناصحٍ، وكانوا في ذلك كالأنعامِ، بل هم أضلُّ سبيلًا.

ولهذا كان مِنْ دعاءِ نبيِّ اللهِ لُوطٍ عليه السلام: ما حكاه اللهُ عنه في قوله: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء].

فَلُوطٌ عليه السلام قد أعلَنَ بُغْضَهُ الشديدَ وبراءتَهُ مِنْ هذا العملِ الشنيع، ثم دعا ربَّه، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ وهذا الدعاءُ يَتضمَّنُ الاستعاذةَ باللهِ تعالى مِنْ هذا العمل المنكر، ومِنْ شُؤْمِهِ وغائلتِهِ وعقوبته.

وفي هذا الدعاءِ تعليمٌ وإرشادٌ للعبادِ إلى الاعتصامِ بالله تعالى، والاستعاذةِ به، من منكراتِ الأعمالِ والأقوال، وطَلَبِ النجاةِ مِنْ شؤمها وغوائلها، ولا سيَّما عند كثرةِ هذه المنكرات وانتشارها، ومجاهرةِ فَسَقَةِ الخَلْقِ بها.

وقد كان من أدعيةِ رسولِ اللهِ ﷺ ما جاء في حديث زِيَادِ بنِ عِلَاقَةَ، عن عمِّه رضي الله عنه، قال: كان النبيُّ ﷺ يقول: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن مُنْكَرَاتِ**

الأَخْلَاقِ والأَعْمَالِ والأَهْوَاءِ)؛ رواه الترمذي[١].

وما جاء في حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه كان يقول: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ والعَفَافَ وَالغِنَى)**؛ رواه مسلم[٢].

وعن شَكَل بن حُمَيْدٍ رضي الله عنه، قال: «أتيتُ النبيَّ ﷺ، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، عَلِّمْني تَعوُّذًا أَتعوَّذُ به - وفي رواية: عَلِّمْني دُعَاءً أنتفعُ به - فأخَذَ بيدي، ثم قال: **(قُلْ: أَعُوذُ بِكَ)** - وفي روايةٍ: **(اللَّهُمَّ عَافِنِي)** - **(مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي)**»؛ رواه النسائي[٣].

والتعوُّذُ بالله مِنْ شَرِّ المَنِيِّ له شأنٌ مهمٌّ في حياةِ الإنسانِ، ذكرًا كان أو أنثى، ولا سيَّما عندَ كثرةِ دواعي الفتنة، وبواعثِ الفساد؛ فإنَّ شهوةَ الفَرْجِ من أعظمِ ما ابتُلِيَ به الإنسانُ، وثَوْرَتُها أو إثارتُها تؤدِّي بالإنسانِ إلى مسالكَ رديئةٍ، وإلى مهالكَ بعيدةٍ. وقد كانتْ فَعْلَةُ قوم لُوطٍ مِنْ هذا الباب، وانزلاقُهم كان مِنْ هذا المُنْزَلَقِ، حتى إنَّ الله تعالى وَصَفَهم في شهوتهم هذه بقولِهِ سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

قال العلامة ابن سِعْدي رحمه الله: «وهذه السَّكْرةُ هي سَكْرةُ مَحبَّةِ الفاحشةِ التي لا يبالون معها بعَذْلٍ ولا لوم»[٤]؛ فهذا مِنْ شَرِّ المَنِيِّ الذي يجبُ على العبدِ أن يسأل ربَّه العصمةَ والنجاةَ منه.

ولمَّا تَملَّكتْ هذه الشهوةُ قومَ لُوطٍ لم يستجيبوا لدعوتِهِ، ولا لنهيِهِ إيَّاهم عن إتيانِ الذكور، بل ازدادوا عِنادًا وطُغيانًا، حتى طَلَبوا منه وقوعَ ما حذَّرهم عنه مِنْ مجيءِ العذابِ الأليمِ، وحلولِ البأسِ العظيم، فعند ذلك سأَلَ لوطٌ ربَّ

---

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٤٧٣).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢١).

(٣) رواه أبو داود رقم (١٥٥١)، والترمذي رقم (١٩٥٣)، و«سنن النسائي» رقم (٥٤٥٦)، وصحَّحه الألباني. قال المناوي في «فيض القدير» (٢/ ١٣٥): «ومن شَرِّ مَنِيِّي: مِنْ شرِّ شِدَّةِ الغُلْمةِ، وسَطْوةِ الشهوةِ إلى الجِمَاعِ، الذي إذا أفرَطَ ربما أوقَعَ في الزنا أو مقدِّماته لا محالةَ؛ فهو حقيقٌ بالاستعاذةِ مِنْ شره».

(٤) «تفسير ابن سِعْدي» (ص٥٠٢).

العالمين وإلهَ المرسلين: أن يَنْصُرَهُ على القومِ المفسدين؛ فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]؛ فغارَ الله تعالى لِغَيْرَتِه، وغَضِبَ لِغَضْبَتِه، واستجابَ لِدَعْوَتِه، فبعَثَ ملائكتَهُ العِظامَ لإهلاكهم، وإنزالِ بأسِهِ الذي لا يُرَدُّ عن القومِ الظالمينَ المعتدين.

ومِنْ عجيبِ أمرِ قومه وتماديهم في سَكْرتهم: أنَّ ملائكةَ العذابِ عندما أَتَوْا إلى لُوطٍ عليه السلام، وكانوا في صورةِ أضيافٍ آدميِّينَ شَبابٍ حِسَانٍ، تَوافَدَ إليه قَوْمُهُ في بيته، وجاؤوه يُهْرَعُونَ إليه يريدونَ فِعْلَ الفاحشةِ بأضيافه، فزَجَرَهُمْ ونهاهم، وحَذَّرهم وأنذرهم، وكان مِنْ قوله لهم: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، إلَّا أنَّ القومَ كانوا في سَكْرَتهم يَعْمَهون، وفي غِيِّهم متمادين، وفي شَهَواتِهِمْ سادرين، إلى أنْ حَلَّ بهم العقاب، ونزَلَ بهم العذاب؛ كما قَصَّ اللهُ تعالى ذلك في مواضعَ مِنْ كتابِهِ العزيز.

منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت]، وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود].

وهذه الآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ هذه العقوبةَ التي حَلَّتْ بهم، والنَّكالَ الذي نزَلَ بهم، ليس ببعيدٍ ممَّن يَعْمَلُ عملهم، ويفعل فِعْلَهم.

نعوذُ بالله مِنْ مُوجِباتِ غَضَبِه، وأليمِ عقابه، ونسألُهُ سبحانه أن يُجَنِّبَ المسلمين الفِتَن، وأنْ يُعِيذَهم مِنَ الشرورِ والمِحَن، وأن يُجيرَهُمْ مِنَ الفواحشِ وغوائلها وعواقبها ما ظَهَرَ منها وما بَطَن؛ إنه سميعٌ مجيب.

١٩١

دُعَاءُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إنَّ مِنْ دعواتِ الأنبياءِ الواردةِ في القرآن ما ذكَرَهُ الله تعالى في سياقِ قصةِ نبيِّ اللهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي كان مثالًا عاليًا في الصبر على الأذى، وتحمُّلِهِ في سبيلِ نشرِ دِينِ اللهِ والدعوةِ إلى صراطِهِ المستقيم، وكان مِنْ أمرِهِ مع قومه ما قصَّه اللهُ علينا بقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا إخبارٌ مِنَ اللهِ عمَّا واجَهَتْ به الكفارُ نبيَّ اللهِ شُعَيْبًا ومَنْ معه مِنَ المؤمنين، في توعُّدهم إيَّاه ومَنْ معه بالنفيِ مِنَ القريةِ، أو الإكراهِ على الرجوعِ في مِلَّتهم والدخولِ معهم فيما هم فيه؛ وهذا خطابٌ مع الرسول، والمرادُ أتباعُهُ الذين كانوا معهم على المِلَّة»(١).

فهاهنا تهديدٌ صريح، وتوعُّدٌ شديد مِنَ الكفارِ لنبيِّ اللهِ شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولِمَنْ معه من المؤمنين بالطَّرْدِ مِنْ بلدهم إنْ لم يعودوا في ملة الكفر؛ ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ جوابًا لقومه: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾، والهمزةُ هنا للاستفهام، وهو استفهامُ إنكارٍ وتعجُّب، «**أي**: أنُتابعُكُمْ على دينِكُمْ ومِلَّتِكُمُ الباطلةِ ولو كنَّا كارهين لها، لِعِلْمِنَا بِبُطْلانها، فإنَّما يُدْعَى إليها مَنْ له نوعُ رغبةٍ فيها، أمَّا مَنْ يعلنُ بالنهي عنها، والتشنيعِ على مَنِ اتَّبَعَهَا، فكيف يُدْعَى إليها؟!»(٢).

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٤٤).

(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٣٣٤).

وفي هذا السياقِ دَلَالةٌ على أنَّ مَنْ هداه اللهُ إلى الإيمانِ، وخالَطَتْ بشاشتُهُ قلبَهُ لا يَسْخَطُهُ أبدًا، ولا يريدُ التحوُّلَ عنه؛ لوضوحِ طريقِ الهدايةِ وحسنه، ولفسادِ طريقِ الضلالِ وقُبْحِه؛ ولهذا قال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقولُ: قد اختَلَقْنَا على اللهِ كذبًا وتَخَرَّصْنا عليه مِنَ القولِ باطلًا إنْ نحنُ عُدْنا في مِلَّتكم، فرجعنا فيها بعدَ إذْ أنقذنا اللهُ منها، بأنْ بَصَّرنا خَطَأَها وصوابَ الهدى الذي نحنُ عليه»[1].اهـ.

وهذا القولُ مِنْ نبيِّ اللهِ شعيبٍ عليه السلام تيئيسٌ للكفَّارِ من دَعْوته هو ومَنْ معه من المؤمنين إلى مِلَّتهم، وبيانٌ منه لهم أنَّ ما هم عليه من الكُفْرِ والشركِ افتراءٌ عظيمٌ على الله تعالى، وأنه لا أحدَ أعظمُ افتراءً ممَّن عَبَدَ غيرَ اللهِ تعالى، وجعَلَ معه شريكًا في شيءٍ مِنْ حقوقه وخصائصه، بل اللهُ تعالى لا إلـٰه غيره، ولا ربَّ سواه، ولا شريكَ معه.

كما تَضمَّنَ قولُهُ عليه السلام ذكرًا لِمِنَّةِ اللهِ تعالى عليه وعلى مَنْ آمَنَ معه: بالنجاةِ من الكفرِ والشركِ، والهدايةِ إلى الإيمانِ والإسلامِ والتوحيد؛ فإنَّ اللهَ عز وجل يَمُنُّ على مَنْ يشاء مِنْ عباده، فيوفِّقُهُ للهداية إلى الحق، ويَخْذُلُ مَنْ يشاءُ مِنْ عباده، فَيَضِلُّ عن الحقِّ، ويُقِيمُ على الباطل؛ وهذا المعنى أَكَّدَهُ نبيُّ الله شعيبٌ عليه السلام بقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾؛ فهذا ردٌّ للأمر إلى مشيئةِ اللهِ على جهةِ التسليم له؛ إذْ هو الذي وَسِعَ كلَّ شيءٍ علمًا؛ يعلمُ ما كان، وما هو كائنٌ، وما لم يكنْ لو كان كيفَ يكونُ، وأنَّ توفيقَ العبدِ وهدايتَهُ بيدِ الله؛ إذْ لا خروجَ لأحدٍ عن مشيئتِهِ وقضائِهِ وقَدَره.

ثم ختَمَ نبيُّ الله شعيبٌ عليه السلام مُحَاجَّتَهُ لكفارِ قومِهِ بالدعاءِ والتوكُّلِ على الله تعالى؛ فقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠/٣١٨).

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول: على اللهِ نعتمدُ في أمرنا، وإليه نستندُ فيما تَعِدُونَنَا به مِنْ شَرِّكم أيُّها القوم؛ فإنَّهُ الكافي مَنْ نَتوكَّلُ عليه»(١).

وقد حكى الله تعالى عن نبيِّه شُعَيْبٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في آية أخرى: أنه قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]؛ **أي**: اعتَمَدتُ عليه في أموري، ووَثِقْتُ في كفايتِهِ، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ **أي**: في أداءِ ما أَمَرَنِي به مِنْ أنواعِ العبادات. وبهذَيْنِ الأمرَيْنِ تستقيمُ أحوالُ العبد، وهما الاستعانَةُ بربه، والإنابةُ إليه؛ وهذا في معنى قولِهِ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾؛ **أي**: احكُمْ بيننا وبينهم بحُكْمِكَ الحقِّ، الذي لا ظُلْمَ فيه، ولا حَيْفَ، ولا جَوْرَ بأن يَنْصُرَ الحقَّ وأهله، ويُذِلَّ الباطلَ وأهلَهُ، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾؛ **أي**: خيرُ الحاكمين؛ ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]، **والفَتَّاحُ**: اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ الحسنى، وهو دالٌّ على صفةِ كمالِ عظيمةٍ لله عَزَّوَجَلَّ، فهو سبحانه يَحْكُمُ بين عبادِهِ بما شاء، ويقضي فيهم بما يريد، ويَمُنُّ على مَنْ يشاءُ منهم بما يشاء، لا رادَّ لِحُكْمه، ولا مُعقِّبَ لقضائِهِ وأمره.

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفتحُهُ تعالى لعبادِهِ نوعان:

فتحُ العلمِ بتبيينِ الحقِّ مِنَ الباطل، والهُدَى مِنَ الضلال، ومَنْ هو مِنَ المستقيمين على الصراطِ ممَّن هو منحرفٌ عنه.

النوع الثاني: فَتْحُهُ بالجزاءِ وإيقاعِ العقوبةِ على الظالمين، والنجاةِ والإكرامِ للصالحين.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠/٣١٩).

فسألوا اللهَ أن يَفْتَحَ بينهم وبين قومهم بالحَقِّ والعدل، وأن يُرِيَهُمْ مِنْ آياتِهِ وعِبَرِهِ ما يكونُ فاصلًا بين الفريقين»(١).

وقد استجاب الله دعوةَ نبيِّه شُعَيْبٍ عليه السلام، ففتَحَ بينه وبين قومه بالحق، فجاء أمرُهُ سبحانه بنصرِ نبيِّه شعيبٍ عليه السلام والمؤمنين معه وإهلاكِ الكافرين؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٣٣٥).

١٩٢

دُعَاءُ يُوسُفَ عليه السلام

لقد ذكَرَ اللهُ تعالى في موضعَيْنِ من «**سورة يوسف**» دُعَاءَيْنِ لنبيِّه يوسف عليه السلام؛ كلٌّ دعاءٍ له شأنُهُ ومناسبتُهُ التي يحسُنُ تأمُّلها وتدبُّرها.

* **الدعاء الأول**: قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف].

وهذا مقامٌ مِنْ مَقَاماتِ الفَزَعِ إلى اللهِ في طَلَبِ العِصْمةِ مِنْ مقارفةِ الذنب، والوقايةِ مِنْ كيدِ الأشرار؛ ولا سيَّما كيدُ النساءِ وفتنتُهُنَّ التي هي مِنْ أشدِّ الفِتَنِ على الرجالِ في هذه الحياة، بل قال رسولُ الله ﷺ: **(مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ)**(١)، ويوسفُ عليه السلام قد تَعرَّضَ في شبابِهِ وفُتُوَّتِهِ لهذه الفتنةِ العظيمةِ مِنَ النسوة اللاتي أَرَدْنَ منه فعلَ الفاحشة، فما كان منه عليه السلام إلا البعدُ عن كيدهنَّ، واللَّجأُ إلى اللهِ بطلبِ العِصْمةِ مِن فتنتهن، وذلك قولُه سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ﴾؛ **يعني**: أن دخولَ السجنِ الذي هَدَّدَتْهُ به امرأةُ العزيز إنْ لم يُلَبِّ رغبتها ـ على ما فيه مِنْ شَظَفٍ وشدة ـ أسهلُ عليه وأهونُ مِنَ الوقوعِ في المعصية، واقترافِ الخطيئة، فآثَرَ عليه السلام مَرْضاةَ الله، والتجأَ إليه؛ لعلمِهِ بأنه لا يُطِيقُ صرفَ ذلكَ عن نفسِهِ إنْ لم يعصِمْه ربُّه مِنْ ذلك وينجِّه مِنَ الوقوعِ فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قال الطبري رحمه الله: «يقول: وإنْ لم تَدْفَعْ عني يا ربِّ فِعْلَهُنَّ الذي

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٨٠).

يَفْعَلْـنَ بي فـي مُرَاوَدَتِهِـنَّ إِيَّـايَ علـى أنفسهـن، ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، يقول: أَمِيلُ إليهنَّ وأُتابِعُهُنَّ على ما يُرِدْنَ مني ويَهْوَيْنَ»(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «**يعني**: إنْ وَكَلْتَنِي إلى نفسي، فليس لي مِنْ نفسي إِلَّا العَجْزُ والضعف، ولا أملكُ لنفسي نفعًا ولا ضَرًّا إلا ما شاء الله، فأنا ضعيفٌ إلا ما قَوَّيْتَنِي وعَصَمْتَنِي وحَفِظْتني وحُطْتَني بحولِكَ وقُوَّتك»(٢).

وقوله: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: معطوفٌ على قوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾؛ **أي**: أَكُنْ بِصَبْوتي إليهنَّ مِنَ الذين جَهِلُوا حقَّك، وخالفوا أَمْرَكَ ونهيك؛ وقد دَلَّ هذا على أنَّ أحدًا لا يمتنعُ عن معصيةِ الله، ولا يَسْلَمُ مِنَ الوقوع فيها إلا بعونِ اللهِ وتوفيقه؛ كما دَلَّ أيضًا على قبحِ الجهل، وذمِّ صاحبه، وأنَّ كلَّ مَنْ عصى الله فهو جاهل.

قال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ **في رسالةٍ عظيمةٍ أفردها بعنوان: «فوائدُ مستنبطةٌ مِنْ قصَّة يوسف»**: «**ومنها ـ أي**: الفوائد ـ أنه ينبغي للعبدِ أنْ يلتجئَ إلى اللهِ عندَ خوفِ الوقوعِ في فتنةِ المعاصي والذنوب، مع الصبرِ والاجتهادِ في البعد عنها كما فعَلَ يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعا ربَّه، قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وأنَّ العبدَ لا حَوْلَ له ولا قوةَ ولا عِصْمةَ إلا بالله؛ فالعبدُ مأمورٌ بفعلِ المأمور، وتركِ المحظور، والصبرِ على المقدور، مع الاستعانة بالمَلِكِ الشكور»(٣). اهـ.

وقد استجاب اللهُ دعوةَ نبيِّه يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ **أي**: فاستجابَ اللهُ ليوسفَ دعاءَهُ، ولَطَفَ به، وعَصَمَهُ مِنْ كيدِ النِّسْوةِ ومِنَ الوقوعِ في المعصية؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فيوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أَخْلَصَ لله تعالى توحيدَهُ وحُبَّهُ،

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ١٤٤). (٢) «البداية والنهاية» (١/ ٤٧٣).

(٣) «فوائد مستنبطة من قصة يوسف» (ص١٩).

فأخلَصَهُ اللهُ لنفسه، وخَلَّصَهُ مِنْ فتنةِ النساءِ المُهْلِكة، ومِنَ الوقوعِ في الشهواتِ المُرْدِيَة.

* **الدعاء الثاني**: قال الله تعالى حكايةً عن نبيه يوسف ﷺ، في تمام ذكر قصته: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «هذا دعاءٌ مِنْ يوسفَ الصِّدِّيق، دعا به ربَّه عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا تَمَّتِ النعمةُ عليه باجتماعِهِ بأبوَيْهِ وإخوته، وما مَنَّ اللهُ به عليه مِنَ النبوَّةِ والمُلْك، سأل ربَّه عَزَّ وَجَلَّ كما أَتَمَّ نعمتَهُ عليه في الدنيا أن يَسْتَمِرَّ بها عليه في الآخرة، وأن يتوفَّاه مسلمًا حين يتوفَّاه ـ قاله الضَّحَّاك ـ وأن يُلْحِقَهُ بالصالحين، وهم إخوانُهُ مِنَ النبيين والمُرْسَلين، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهم أجمعين»[١].

فهي دعوةٌ عظيمةٌ مباركةٌ جامعة؛ **قال العلامة ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللهُ: «جَمَعَتْ هذه الدعوةُ الإقرارَ بالتوحيد، والاستسلامَ للرَّبِّ، وإظهارَ الافتقارِ إليه، والبراءةَ مِنْ موالاةِ غيرِهِ سبحانه، وكونَ الوَفَاةِ على الإسلامِ أجلَّ غاياتِ العبد، وأنَّ ذلك بيدِ اللهِ لا بيدِ العبد، والاعترافَ بالمَعَاد، وطَلَبَ مرافقةِ السُّعَداء»[٢].

* **ويُستفاد مِنْ هذا الدعاء**: أنَّ على العبدِ أنْ يَلْجَأَ دائمًا إلى ربِّه، ويُلِحَّ عليه بالدعاء بأنْ يُثَبِّتَ إيمانه، ويَعْمَلَ الأسبابَ المُوجبةَ لذلك، ويسألَ اللهَ تعالى أن يُتِمَّ له النِّعْمة، ويُحْسِنَ له الخاتمة، وأنْ يَجْعَلَ خيرَ أيَّامِهِ آخرَها، وخيرَ أعمالِهِ خَوَاتِمَها؛ فإنَّ اللهَ كريمٌ، جَوَادٌ رحيمٌ.

وليس فيما حكاه الله مِنْ دعاءِ يوسفَ ﷺ في هذا المقامِ ما يَدُلُّ على أنه دعا باستعجالِ الموت، وإنما الذي يَدُلُّ عليه ظاهرُ الكلام أنه ﷺ سأل ربَّهُ الثباتَ على الإسلامِ حتى يَتَوَفَّاهُ حين يتوفَّاه عليه، ويُلْحَقَ بالصالحين مِنْ عباده.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٧).

(٢) «الفوائد» (٣٤٩).

وقد ثبت عن النبي ﷺ النهيُ عن تمنِّي الموت؛ كما في حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدَكُمُ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي مَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي)** متفقٌ عليه(١).

❁ ❁ ❁

(١) رواه البخاري رقم (٥٦٧١)، ومسلم رقم (٢٦٨٠).

١٩٣

دُعَاءُ أَيُّوبَ عليه السلام

إنَّ مِنَ الدعواتِ العظيمةِ الواردةِ في القرآنِ الكريم دعاءَ نبيِّ اللهِ أيوبَ عليه السلام الصابرِ المُحْتَسِبِ، وقد تَعرَّضَ لابتلاءٍ عظيم في بَدَنِهِ وأهلِهِ وماله، حتى إنَّ المَثَلَ لَيُضْرَبُ بما حصَلَ له عليه السلام مِنْ أنواع البلايا؛ ولم يَزِدْهُ هذا كلُّه إلا صبرًا واحتسابًا وابتهالًا إلى الله تعالى وتضرُّعًا إليه لكشفِ ما به من الضُّرِّ والبلاء؛ لأنه سبحانه هو وَحْدَهُ المَلاذُ في الكُرُبات، المُدْعُوُّ في الشدةِ والرخاء.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]؛ **أي**: واذكُرْ - والخطابُ لنبيِّنا محمَّد ﷺ - عَبْدَنا أيوبَ إذْ نادى ربَّه داعيًا مستغيثًا به، وإليه لا إلى غيرِهِ شاكيًا، فقال: يا رَبِّ إنِّي مسَّني الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذاب؛ **أي**: بِمَشَقَّةٍ وتَعَبٍ في جَسَدِهِ، وعذابٍ وهلاكٍ في أهلِهِ وماله.

وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]؛ **أي**: واذكُرْ أيوبَ إذْ نادى ربَّه وقد مَسَّهُ الضُّرُّ والبلاءُ؛ ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ وفي هذا السياقِ ثناءٌ عظيمٌ على عبدِ اللهِ ورسولِهِ أيوبَ عليه السلام، ورفعٌ لقدرِهِ حينَ ابتلاه الله جلَّ وعلا ببلاءٍ شديد، فوجَدَهُ صابرًا محتسبًا، حتى صار بهذا الصبرِ قدوةً للصابرين، وسَلْوةً للمُبْتَلِينَ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وقد توسَّل عليه السلام إلى اللهِ جلَّ وعلا بالإخبارِ عن حال نفسه، وأنه بَلَغَ الضرُّ منه مبلغًا عظيمًا، وبرحمةِ اللهِ الواسعةِ العامَّة؛ فنادى ربَّه: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «جمَعَ - **يعني**: أيُّوبَ عليه السلام - في هذا الدعاءِ بين حقيقةِ التوحيد، وإظهارِ الفقرِ والفاقةِ إلى ربه، ووجودِ طعمِ المَحَبَّةِ في التملُّقِ له، والإقرارِ له بصفةِ الرحمة، وأنه أرحمُ الراحمين، والتوسُّلِ إليه بصفاتِهِ سبحانه، وشدةِ حاجتِهِ هو وفَقْرِه، ومتى وجَدَ المُبْتَلَى هذا، كُشِفَتْ عنه بَلْواه»(١).

وقد استجاب اللهُ تعالى دعاءَ نبيِّه أيوب عليه السلام؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]؛ وبَيَّنَ الله سبحانه كيفيةَ كَشْفِهِ الضُّرَّ عن أيوب عليه السلام، وأنه سبحانه لَمَّا أرادَ إذهابَ الضُّرِّ عن أيوب، أمَرَهُ أن يَرْكُضَ بِرِجْلِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «**أي**: اضربِ الأرضَ بِرِجْلك، فامْتَثَلَ ما أُمِرَ به، فأنبَعَ اللهُ له عينًا باردةَ الماء، وأُمِرَ أن يَغْتَسِلَ فيها ويَشْرَبَ منها، فأذهَبَ اللهُ عنه ما كان يجدُهُ مِنَ الألمِ والأذى، والسَّقَمِ والمرضِ الذي كان في جسدِهِ ظاهرًا وباطنًا، وأبدَلَهُ اللهُ بعدَ ذلكَ كلِّه صحةً ظاهرةً وباطنة، وجمالًا تامًّا، ومالًا كثيرًا، حتى صبَّ له مِنَ المالِ صبًّا مَطَرًا عظيمًا جَرادًا مِنْ ذَهَب، وأخلَفَ اللهُ له أهلَهُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾، **فقيل**: أحياهُمُ اللهُ بأعيانهم، **وقيل**: آجَرَهُ فيمَنْ سلَفَ، وعَوَّضَهُ عنهم في الدنيا بدَلَهم، وجَمَعَ له شَمْلَهُ بكلِّهم في الدارِ الآخرة، وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ **أي**: رَفَعْنَا عنه شِدَّتَهُ، ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾؛ رحمةً منا به ورأفةً وإحسانًا، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾؛ **أي**: تذكرةً لِمَنِ ابتُلِيَ في جَسَدِهِ أو مالِهِ أو وَلَدِه، فله أسوةٌ بنبيِّ اللهِ أيوبَ؛ حيثُ ابتلاه اللهُ بما هو أعظمُ مِنْ ذلك، فصبَرَ واحتسَبَ حتى فَرَّجَ اللهُ عنه»(٢).

وقال الطبري رحمه الله **في معنى قوله تعالى**: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾: «يقولُ:

---

(١) «الفوائد» (ص٣٤٩).
(٢) «البداية والنهاية» (١/ ٥١٣).

وتذكرةً للعابدين رَبَّهم فَعَلْنا ذلك به؛ ليعتبروا به، ويَعْلَمُوا أنَّ اللهَ قد يبتلي أولياءَهُ ومَنْ أحبَّ مِنْ عبادِهِ في الدنيا بضروبٍ من البلاءِ في نفسِهِ وأهلِهِ وماله، مِنْ غيرِ هوانٍ به عليه، ولكن اختبارًا منه؛ ليبلُغَ بصبرِهِ عليه، واحتسابِهِ إياه، وحُسْنِ يقينِهِ: منزلتَهُ التي أعدَّها له تبارَكَ وتعالى مِنَ الكرامةِ عنده»، ثم ساق بسنده إلى **محمَّد بن كَعْب القُرَظي، أنه قال:** «أيُّما مؤمنٍ أصابَهُ بلاءٌ، فذكَرَ ما أصاب أيوبَ، فليقلْ: قد أصاب مَنْ هو خيرٌ منا، نبيًّا من الأنبياء»[1].

والمؤمنُ عُرْضةٌ في هذه الحياةِ للابتلاء، بل جاء في الحديث عن سعد ابن أبي وَقَّاص ﷺ، قال: «قلتُ: يا رَسُولَ الله، أيُّ الناسِ أشدُّ بَلَاءً؟ قال: **(الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ؛ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ، زِيدَ فِي بَلَائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)**»؛ رواه أحمد، والترمذي[2].

ومَنْ يَتأَمَّلْ مِنَ المُبْتَلَينَ ما أصاب نبيَّ اللهِ أيوبَ ﷺ يجدْ في ذلك سَلْوةً وعِبْرةً، فإذا رَأَوْا ما أصابه مِنَ البلاءِ الشديد، ثم ما أثابه اللهُ بعدَ زواله، وتأمَّلوا في سببِ ذلك، وَجَدُوهُ الصبرَ، فجعَلُوهُ أُسْوةً وقدوةً لهم.

وفيما حكى اللهُ تعالى مِنْ دعاءِ أيوب ﷺ: بيانُ أنَّ مِنْ أعظمِ أسبابِ الفرجِ دعاءَهُ ﷻ، والابتهالَ إليه، والتضرُّعَ له، وإظهارَ الفاقةِ لديه، وذِكْرَهُ بأسمائِهِ الحسنى، وصفاتِهِ العليا، والتوسُّلَ إليه بذلك.

وفيه: أنَّ البلاءَ لا يَدُلُّ على الهوانِ والشقاء، بل قد يكونُ تكفيرًا للسيئات، أو رفعًا للدرجات، فللَّه الحكمةُ البالغةُ في ذلك؛ وقد ثبَتَ في «الصحيحين»، مِنْ حديثِ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، عن النبي ﷺ، أنه قال: **(مَا يُصِيبُ**

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

(٢) «مسند أحمد» (١/ ١٧٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٣٩٨)، ورواه ابن ماجه رقم (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ٥٦٥).

المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا خَطَايَاهُ)[١].

وفيه كذلك: أنَّ الدعاءَ بكشفِ الضُّرِّ ورَفْعِ البلاء، لا ينافي الصبرَ والرضا بالقضاء؛ فإنَّ ترْكَ الصبرِ يكونُ بإظهارِ الشكوى إلى الخلق، أمَّا إظهارُها إلى الله تعالى، فلا يكونُ تركًا للصبر.

❀ ❀ ❀

(١) تقدم تخريجه (ص٦٧٥).

١٩٤

دُعَاءُ يُونُسَ عليه السلام

ومِنَ الدعواتِ العظيمةِ المذكورةِ في القرآن: ما ورَدَ في قصَّة يونس، وكان عليه السلام نبيًّا مِنْ أنبياءِ الله تعالى، وكان مبعوثًا إلى أهل نِينَوَىٰ مِنْ أرضِ المَوْصِلِ بالعراق، فدعاهم إلى الله تعالى، فأَبَوْا عليه، وتَمادَوْا في كُفْرهم، فوعدهم بالعذاب، ثم خرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لهم قبلَ أن يَأْمُرَهُ اللهُ تعالى بذلك، إلى أنْ رَكِبَ مَعَ جماعةٍ في سفينةٍ مليئةٍ بالرُّكَّاب والأحمال، فلَجَّجَتْ بهم في البحر، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على مَنْ يُلْقُونَهُ مِنْ بينهم في البحرِ ليتخفَّفوا منه، فوقَعَتِ القُرْعةُ على يونس عليه السلام ابتلاءً مِنَ الله تعالى له؛ وعندئذ قامَ عليه السلام وألْقَى بنفسِهِ في البحر، فأرسَلَ اللهُ تعالى مِنَ البحرِ حُوتًا عظيمًا، فالتقَمَ يُونُسَ عليه السلام، وأوحى اللهُ إلى ذلك الحوتِ أنْ لَا يأكُلَ له لحمًا، ولا يَهْشِمَ له عظمًا، بل يبتلعُهُ ليكونَ بطنُهُ له سِجْنًا؛ وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات].

ولمَّا صارَ يُونُسُ عليه السلام في بَطْنِ الحُوتِ في تلك الظُّلُمات، نادى ربَّه مستغيثًا، مُعْترفًا بخطئه، كما أخبَرَ عنه ذو العِزَّةِ والجلال، الذي يعلمُ السرَّ والنجوى، ويكشفُ الضُّرَّ والبَلْوَى، سامعُ الأصواتِ وإنْ ضَعُفَت، وعالمُ الخفِيَّاتِ وإنْ دَقَّت، ومجيبُ الدعواتِ وإنْ عَظُمت؛ حيث قال في كتابه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء].

فقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، **قال الإمام الطبري** رحمه الله: «يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: واذكُرْ يا محمَّدُ ذا النون؛ **يعني**: صاحبَ النون، **والنونُ**: الحُوتُ، وإنَّما عنى بذي النونِ: يُونُسَ بنَ مَتَّى»(١).

وقوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾، **عن ابن عباس** رضي الله عنهما، **قال**: «غَضِبَ على قَوْمِهِ»؛ ومثلُهُ عن الضَّحَّاك(٢).

وقوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، **عن ابن عباس** رضي الله عنهما، **قال**: «يقولُ: ظَنَّ أنْ لَنْ نَقْضِيَ عليه عقوبةً ولا بلاءً فيما صَنَعَ بقومِهِ في غَضَبِهِ عليهم وفراره، وعقوبتُهُ أَخْذُ النون إياه»، ونحوُه عن قتادةَ، ومجاهدٍ، والضحاك(٣).

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، **قال ابن مسعود، وابن عباس، وغيرُهما من المفسِّرين**: «ظُلْمَةُ بَطْنِ الحَوْت، وظلمةُ البَحْر، وظلمةُ الليل»(٤).

وقوله: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ **أي**: نادى يونسُ عليه السلام ربَّه بهذا القولِ مُعْتَرِفًا بذنبه، تائبًا مِنْ خطيئته.

وهذا الدعاءُ العظيمُ الذي نادى به يونسُ عليه السلام ربَّه في بطنِ الحُوتِ يَتضمَّنُ ثلاثةَ جوانبَ:

الأول: قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رحمه الله: «فيه إثباتُ انفرادِهِ بالإلـٰهية، والإلـٰهيةُ تَتضمَّنُ كمالَ عِلْمِهِ وقدرتِهِ، ورحمتِهِ وحكمتِهِ؛ ففيها إثباتُ إحسانِهِ إلى العباد؛ فإنَّ الإلـٰه هو المألوهُ، والمألوهُ هو الذي يَستحِقُّ أن يُعْبَدَ، وكونُهُ يستحقُّ أن يُعْبَدَ هو بما اتصَفَ به مِنَ الصفاتِ التي تَسْتلزِمُ أن يكونَ هو المحبوبَ غايةَ الحُبِّ، المخضوعَ له غايةَ الخضوع، والعبادةُ تَتضمَّنُ غايةَ الحُبِّ بغايةِ الذُّلِّ»(٥).

الثاني: قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، وفيه إثباتُ تنزيهِ الله مِنْ كلِّ نقصٍ وعيبٍ،

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٧٤). (٢) رواهما ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٣٧٤).
(٣) **انظر**: «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).
(٤) **انظر**: «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٨٢)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٢/ ٢٠ ـ ٢١).
(٥) «دقائق التفسير» (٤/ ٣٦٤).

وإثباتُ عَظَمَتِهِ المُوجِبَةِ له براءتَهُ مِنَ النقائصِ والعيوب؛ فقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ يَتضمَّنُ معانيَ أسماءِ اللهِ الحسنى وصفاتِه العليا، ففيه كمالُ المدحِ والثناءِ لله تعالى، مَعَ كمالِ الذُّلِّ والحبِّ والخضوع.

الثالث: قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفيه اعترافٌ بذنبِهِ، وبحقيقةِ حاله، وهو يَتضمَّنُ طلَبَ المغفرةِ مِنَ الله تعالى؛ فإنَّ الطالبَ السائلَ تَارَةً يسألُ بصيغةِ الطلب، وتارَةً يسألُ بصيغةِ الخبر: إمَّا بوصفِ حالِهِ، وإمَّا بوصفِ حالِ المسؤولِ، وإمَّا بوصفِ الحالَيْن.

فدعاءُ يُونُسَ عليه السلام في هذا المقامِ قد تَضمَّنَ من المعانِي الجليلةِ والدَّلالاتِ العظيمةِ ما يُوجِبُ القَبُولَ والإجابة.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وأما دعوةُ ذي النُّونِ، فإنَّ فيها مِنْ كمالِ التوحيدِ، والتنزيهِ للربِّ تعالى، واعترافِ العبد بظُلْمِهِ وذنبِهِ ما هو مِنْ أبلغِ أدويةِ الكَرْبِ والهَمِّ والغَمِّ، وأبلغِ الوسائلِ إلى اللهِ سبحانه في قضاءِ الحوائج؛ فإنَّ التوحيدَ والتنزيهَ يَتضمَّنانِ إثباتَ كلِّ كمالٍ لله، وسَلْبَ كلِّ نقصٍ وعيبٍ وتمثيلٍ عنه، والاعترافُ بالظلم يَتضمَّنُ إيمانَ العبدِ بالشرعِ والثوابِ والعقاب، ويوجبُ انكسارَهُ ورجوعَهُ إلى اللهِ، واستقالتَهُ عَثْرَتَه، والاعترافَ بعبوديَّته، وافتقارَهُ إلى ربه؛ **فهٰهنا أربعةُ أمور قد وقَعَ التوسُّل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبوديَّة، والاعتراف**»[(١)].

وقد استجاب اللهُ لنبيِّه يُونُسَ عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾؛ **أي**: فاستجبنا لِيُونُسَ دعاءَهُ إيانا؛ إذْ دعانا في بطن الحوت، ونجيناه مِنَ الغَمِّ الذي كان بسبب حَبْسِهِ في بطنِ الحوت.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فيه كمالُ هذه الدَّعْوة، وأنها دعوةٌ مستجابة؛ **قال ابن جرير الطبري** رحمه الله: «يقولُ جلَّ ثناؤه: وكما أنجينا يُونُسَ مِنْ كَرْبِ الحَبْسِ في بطنِ الحوتِ في البحرِ إذْ دعانا، كذلك نُنْجِي

---

(١) «زاد المعاد» (٤/٢٠٨).

المؤمنين مِنْ كربهم إذا استغاثوا بنا ودَعَوْنَا»[١].

وذكَرَ ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ **نحوًا مِنْ هذا، وقال:** «ولا سيَّما إذا دَعَوْا بهذا الدعاءِ في حالِ البلاء؛ فقد جاء الترغيبُ في الدعاء بها عن سَيِّد الأنبياء»[٢]، ثم أورَدَ ما رواه أحمد، والترمذي، وغيرُهما، عن سَعْد بن أبي وَقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا رَبَّهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ)**[٣].

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٨٥).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٦٣).
(٣) تقدم تخريجه (ص٦٤٠).

١٩٥

دُعَاءُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١)

لقد ساق اللهُ تعالى قِصَّةَ نبيِّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في مواضعَ كثيرةٍ مِنْ كتابه العزيزِ بأساليبَ متنوعةٍ، وليس في قَصَصِ القرآنِ أعظمُ مِنْ قِصَّته، ولا أكثرُ منها مواقفَ وعِبَرًا؛ لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ عالَجَ أكبرَ طاغيةٍ عَرَفَهُ التاريخ؛ فرعونَ وجنودَهُ، وعالَجَ أَعْنَتَ شَعْبٍ عرَفَهُ الناس؛ بني إسرائيل، فكانتْ مُهِمَّةُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أقوى المهمات، ورسالتُهُ مِنْ أظهرِ الرسالات.

وقد اشتَمَلَتْ قصةُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم على مواقفَ عديدةٍ دعا فيها اللهَ تعالى بدعواتٍ عظيمةٍ، دَالَّةٍ على كمالِ ذُلِّهِ وخضوعه، وتمامِ عبوديَّتِهِ للهِ ربِّ العالمين، وعلى مكانتِهِ ووَجَاهَتِهِ وعُلُوِّ شأنِهِ عندَ ربِّه عَزَّ وَجَلَّ.

فمِنْ دعاءِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وهذا الدعاءُ قد قاله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ استغفارًا وتوبةً إلى ربِّه سبحانه لقتلِهِ رجلًا قِبْطِيًّا خطأً مِنْ غيرِ قصدٍ لقتله، ولكنه قَصَدَ مساعدةَ رجلٍ إسرائيليٍّ مِنْ شِيعَتِهِ استغاثَ به على القبطي، فوكَزَهُ موسى؛ **أي**: ضرَبَهُ بِقَبْضَةِ يده، فقضى عليه لِقُوَّةِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يَنْسُبْ عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الفعلَ إلى القَدَرِ معتذرًا بذلك، بل بادَرَ بالتوبةِ والاستغفار؛ لأنه كان السببَ فيه؛ **وهذا معنى ما رُوي عن قَتَادَةَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **في قوله تعالى**: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، **قال**: «وعرَفَ نبيُّ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أينَ المَخْرَجُ، فأرادَ المَخْرَجَ، فلم يُلْقِ ذنبَهُ على ربِّه»(١).

---

(١) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٩).

وقد ذكر العَلَّامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ **مِنْ فوائد هذه القصَّة:** «أنَّ قَتْلَ الكافرِ الذي له عهدٌ بعقدٍ أو عُرْفٍ لا يجوزُ؛ فإنَّ موسى نَدِمَ على قتلِهِ القِبْطيَّ، واستَغْفَرَ اللهَ وتابَ إليه»، **وذكَرَ أيضًا مِن فوائدها:** «أن الذي يقتُلُ النفوسَ بغيرِ حقٍّ يُعَدُّ مِنَ الجبَّارين المُفْسِدِينَ في الأرض، ولو كان غرضُهُ من ذلك الإرهاب، ولو زعَمَ أنه مُصْلِح، حتى يَرِدَ الشرعُ بما يبيحُ قتلَ النفس»(١).اهـ.

وبهذا الكلامِ المتينِ الذي ذكَرَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ يُعْلَمُ فسادُ ما عليه بعضُ المندفعين والمتهوِّرين ممَّن جعلوا إرهابَ المؤمنين، وإرعابَ الآمنين، وإخافةَ المطمئنين، وقتلَ المسلمين والمستأْمَنِينَ سبيلًا للإصلاحِ بزعمهم، وهم في الحقيقةِ مِنَ الجَبَّارين في الأرض ومِنَ المفسدين.

ومِنْ دعاءِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه لمَّا أُخْبِرَ بأنَّ الأقباطَ يأتمرون به ليثأروا منه لقتله القبطيَّ خرَجَ من المدينةِ فرارًا بنفسِهِ، داعيًا ربَّه عَزَّ وَجَلَّ في هذه الحال؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص].

فقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: دعاءٌ بالنجاةِ مِنْ فرعونَ وقومِهِ الذين يأتمرون لقتله، وسمَّاهم ظالمين؛ لأنه قد تاب مِنْ ذنبه، وفعَلَهُ غضبًا مِنْ غيرِ قَصْدٍ منه للقتل، فتوعُّدُهُمْ له بالقتلِ ظُلْمٌ منهم واعتداءٌ، **وقيل:** سَمَّاهم ظالمين؛ لأنهم ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ بالله تعالى.

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: دعاءٌ بالهدايةِ إلى الطريقِ الوَسَطِ المُوصِلِ إلى البلدِ الذي قَصَدَهُ ـ وهو مَدْيَنُ ـ وإلى كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة.

وقد استجابَ اللهُ دعاءَهُ، وأعطاه ما سأل؛ **قال ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ففعَلَ اللهُ به ذلك، وهداه إلى الطريقِ المستقيمِ في الدنيا والآخرة، فجعَلَهُ هاديًا مَهْدِيًّا»(٢).

---

(١) «تيسير اللطيف المنان» (ص١٣١).   (٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٣٦).

وأشار **العَلَّامة ابن سعدي** في هذا المقام إلى أنَّ في هذا الدعاء تنبيهًا لطيفًا على أنَّ الناظرَ في العلمِ عندَ الحاجةِ إلى العلمِ أو التكلُّم به إذا لم يَترجَّحْ عنده أحدُ القولَيْن، فإنه يستهدي ربَّه ويَسْأَلُهُ أن يَهْدِيَهُ إلى الصوابِ من القولَيْن، بعد أن يَقْصِدَ الحقَّ بقلبِهِ، ويبحثَ عنه؛ فإنَّ الله لا يُخيِّبُ مَنْ هذه حالُه، كما جرى لموسى عليه السلام لَمَّا قصدَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ، ولا يدري الطريقَ المُعَيَّنَ إليها، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقد هداه الله، وأعطاهُ ما رَجاهُ وتمنَّاه[١].

ومِنْ دعائه عليه السلام: أنه لما جَهِدَ به السفرُ، وبلَغَ به الجُوعُ كلَّ مبلغ، ولم يكنْ معه مِنَ الطعامِ ما يأكُلُهُ، قال في هذه الحالِ مسترزِقًا ربَّه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤].

وقد أجمَعَ المفسِّرون على أنَّ موسى عليه السلام طلَبَ في هذا الدعاءِ ما يأكلُهُ، لِمَا به مِنَ الجوعِ الشديد؛ فإنَّ هذا وصفٌ لحالِهِ بأنه فقيرٌ إلى ما أنزَلَ اللهُ إليه مِنَ الخير، وهو متضمِّنٌ لسؤالِ اللهِ إنزالَ الخيرِ إليه؛ وهذا مِنْ أبلغِ الوسائل إلى الله عز وجل.

قال ابن سِعْدي رحمه الله: «إنَّ اللهَ كما يُحِبُّ مِنَ الداعي أن يَتَوَسَّلَ إليه بأسمائِهِ وصفاتِهِ ونِعَمِهِ العامَّةِ والخاصَّة، فإنه يُحِبُّ منه أن يَتوسَّلَ إليه بضعفِهِ وعجزِهِ وفقرِهِ، وعدمِ قدرتِهِ على تحصيلِ مصالحِهِ ودفعِ الأضرارِ عن نفسه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾؛ لِمَا في ذلكَ من إظهارِ التضرُّعِ والمسكنةِ والافتقارِ لله، الذي هو حقيقةُ كلِّ عَبْد»[٢]. اهـ.

ويلاحظُ أن الطالبَ السائلَ تَارَةً يسألُ بصيغةِ الطلبِ، وتارةً يسألُ بصيغةِ الخبر، إمَّا بوصفِ حالِهِ مِنْ فقرٍ واحتياجٍ وضعف، وإمَّا بوصفِ حالِ المسؤولِ مِنْ غِنًى وكمالٍ، ومَنٍّ وعطاءٍ، وإمَّا بوصفِ الحالَيْن: حالِ السائلِ، وحالِ المسؤول.

---

(١) **انظر**: «تيسير اللطيف المنان» (ص١٣١، ١٣٢).
(٢) «تيسير اللطيف المنان» (ص١٣٢).

وموسى عليه السلام وصَفَ في هذه الدعوةِ حالَهُ، وأظهَرَ فَقْرَهُ واحتياجَهُ إلى ربه ومولاه، وهو يَتضمَّنُ سؤالَهُ سبحانه إنزالَ الخيرِ إليه، وموالاةَ المَنِّ عليه.

وقد أجابه اللهُ فيما سأل، فوالى المَنَّ عليه، وأجزَلَ له العطاءَ، وبقي عليه السلام في مَدْيَنَ في أمنٍ وعافية، وفي خيرٍ ورزقٍ إلى أنِ اصطفاهُ اللهُ واجتباهُ رسولًا أمينًا، ونبيًّا كريمًا، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ وبركاتُهُ عليه وعلى جميعِ النبيين.

❀ ❀ ❀

١٩٦

دُعَاءُ مُوسَى عليه السلام
(٢)

ومِنْ دعاءِ موسى عليه السلام: أنَّ الله تعالى لَمَّا بَعَثَهُ إلى فِرْعَوْنَ وقومِهِ لدعوتهم إلى الإسلامِ، سأل ربَّه عز وجل أن يَفْتَحَ عليه في تبليغِ الرسالة، وبيانِ الدين؛ كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه].

وهذا دعاءٌ عظيمٌ، في مقام عظيم؛ **كما قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله: «هذا سؤالٌ مِنْ موسى عليه السلام لربِّه عز وجل أن يَشْرَحَ له صدرَهُ فيما بعَثَهُ به؛ فإنه قد أمرَهُ بأمرٍ عظيم، وخَطْبٍ جسيم، بعثه إلى أعظمِ مَلِكٍ على وجهِ الأرض إذْ ذاك، وأَجْبَرِهم وأشدِّهم كفرًا، وأكثرِهم جنودًا، وأَعْمَرِهم مُلْكًا، وأطغاهم، وأبْلَغِهم تمرُّدًا، بَلَغَ مِنْ أمرِهِ أَنِ ادَّعى أنه لا يَعْرِفُ اللهَ، ولا يَعْلَمُ لرعاياه إلَـهًا غَيْرَهُ»(١).

والدعاء بشرحِ الصدرِ له أهميةٌ كبيرةٌ في هذا الشأن؛ فإنَّه قوةٌ معنويَّة، يستعينُ بها نبيُّ اللهِ موسى عليه السلام على أداءِ تلك المهمَّة الكبرى، فإنه مَدْعَاةٌ للصبرِ، واحتمالِ المَشَاقِّ، والإقبالِ على الدعوةِ بهمَّةٍ ونشاط؛ وأما ضِيقُ الصَّدْرِ والسَّآمةُ، فهي من أسبابِ الضعفِ وخَوَرِ العزيمة، ومَنْ هذا حالُهُ لا يصلُحُ لهدايةِ الخَلْقِ ودعوتهم إلى الله تعالى؛ كما قال الله سبحانه لنبيه

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٦).

مـحـمَّـد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومَعَ سَعَةِ الصدرِ وانشراحِهِ، لا بدَّ مِنْ تيسيرِ الله تعالى وتوفيقِهِ؛ ولهذا قال عليه السلام في هذا الدعاء: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾؛ **قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله: «**أي**: إنْ لم تكنْ أنت عَوْني ونصيري، وعَضُدِي وظهيري، وإلَّا فلا طاقةَ لي بذلك»[(١)].

وقال ابن سِعْدي رحمه الله: «ومِنْ تيسيرِ الأمرِ أن يُيسِّرَ للداعي أن يَأْتِيَ جميعَ الأمورِ مِنْ أبوابها، ويُخَاطِبَ كلَّ أحدٍ بما يناسبُ له، ويَدْعُوَهُ بأقربِ الطرقِ المُوصِلَةِ إلى قَبُولِ قوله»[(٢)].

ثم إنَّ مِنْ أهمِّ وسائلِ الدعوةِ إلى الله: قدرةَ الداعي على البيانِ والإفهامِ بالقول؛ ولهذا دعا موسى عليه السلام ربَّه أن يَفْتَحَ عليه بذلك، في قوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾، وقد ذكَرَ المفسِّرون أنه كان في لسان موسى ثِقَلٌ لا يكادُ يُفْهَمُ عنه الكلامُ، فسأَلَ اللهَ تعالى أن يَحُلَّ عُقْدةً مِنْ لسانِهِ ليفهموا قوله، ولِيَحْصُلَ المقصودُ التامُّ مِنَ المخاطبةِ والمراجعةِ والبيانِ عن المعاني.

ولذا ذكر العلامة ابن سِعْدي رحمه الله **مِنْ جملةِ الفوائد المستفادةِ مِن قصَّة موسى** عليه السلام: «أنَّ الفصاحةَ والبيانَ ممَّا يعين على التعليم، وعلى إقامةِ الدعوة؛ لهذا طلَبَ موسى من ربِّه أن يَحُلَّ عُقْدةً مِن لسانِهِ ليفقهوا قولَه، وأنَّ اللَّثْغةَ لا عَيْبَ فيها إذا حصَلَ الفهمُ للكلام، ومِنْ كمالِ أدبِ موسى عليه السلام مَعَ ربِّه أنه لم يسأل زوالَ اللَّثْغةِ كلِّها، بل سأل إزالةَ ما يَحْصُلُ به المقصودُ»[(٣)]؛ **قال الحسن البصري** رحمه الله: «الرسل إنما يسألون بِحَسَبِ الحاجة؛ ولهذا بَقِيَتْ في لسانه بقيَّةٌ»[(٤)].

ثـم قـال مـوسـى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَـٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٦). (٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٨٧).
(٣) «تيسير اللطيف المنان» (ص١٣٦).
(٤) أورده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٦٠).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا أيضًا سؤالٌ مِنْ موسى في أمرٍ خارجيٍّ عنه، وهو مساعدةُ أخيه هارونَ له»[١].

وجاء في موضعٍ آخرَ مِنَ القرآنِ الكريمِ بيانُ التعليلِ لهذا السؤالِ من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو ما حكاه اللهُ عنه من قوله: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]، فمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سأَلَ ربَّه أن يَجْعَلَ أخاه هارونَ شَرِيكًا له في النبوَّةِ وتبليغِ الرسالة، وهذا مِنْ وجاهتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندَ ربِّه، حين شفَعَ أنْ يُوحِيَ اللهُ إلى أخيه، وطلَبَ موسى أن يكونَ مُعِينهُ مِنْ أهله؛ لأنه مِنْ باب البِرِّ، وأحقُّ بِبِرِّ الإنسانِ قرابتُه، **ويقال**: إنه لم يكنْ أحدٌ على أخيه أسعدَ، ولأخيه أنفعَ مِنْ موسى لهارون[٢]، ثم ذكَرَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الفائدةَ في سؤاله هذا، فقال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه].

قال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «علم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنَّ مدارَ العباداتِ كلِّها والدينِ على ذكرِ اللهِ، فسأَلَ اللهَ أن يَجْعَلَ أخاه معه يتساعدانِ ويتعاوناِن على البِرِّ والتقوى، فيَكْثُرُ منهما ذِكْرُ اللهِ مِنَ التسبيحِ والتهليلِ وغيرِهِ من أنواعِ العبادات»[٣]، وبيَّن أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الذِّكْرَ كما أنه هو الذي خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ لأجله، والعباداتُ كلُّها ذِكْرٌ لله، فكذلك الذِّكْرُ يُعِينُ العبدَ على القيامِ بالطاعاتِ وإن شَقَّت، ويُهَوِّنُ عليه الوقوفَ بين يدي الجبابرة، ويُخَفِّفُ عليه الدعوةَ إلى الله تعالى، وقد قال الله تعالى لموسى حين بَعَثَهُ: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾[٤] [طه: ٤٢]؛ **أي**: لا تَفْتُرَا ولا تَضْعُفا عن ذِكْري؛ فإنه لكما سلاحٌ وعُدَّةٌ.

وختَمَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاءَهُ لربِّه في هذه الأمورِ كلِّها بقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٥]؛ **أي**: «تعلمُ حالَنا وضَعْفَنا وعَجْزَنا وافتقارَنا إليكَ في كلِّ

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٧).
(٢) «تفسير أبي المظفر السمعاني» (٣/ ٣٢٨).
(٣) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٨٧).
(٤) «تيسير اللطيف المنان» (ص١٣٥).

الأمور، وأنت أَبْصَرُ بنا مِنْ أنفسنا وأرحمُ، فمُنَّ علينا بما سألناك، وأَجِبْ لنا فيما دعوناك»(١). فاستجاب اللهُ تعالى دعاءَ نبيِّه وكليمِه مُوسَىٰ عليه السلام، فقال عز وجل: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]؛ **أي**: أُعْطِيتَ جميعَ ما سَأَلْـتَ، **والسُّؤْلُ**: الطَّلِبَـةُ والمرغـوبُ فيـه، وقال تعالى جوابًا لموسى أيضًا على سؤاله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]؛ فأخبر سبحانه أنه استجابَ له الدعاءَ، وحَقَّقَ له الرجاءَ، فعَضَدَهُ وقَوَّاهُ بأخيه، وجعَلَ لهما سلطانًا على فِرْعَوْنَ وقومِهِ، فلا سبيلَ لهم إلى أذاهما بما أيَّدهما به مِنَ الآياتِ الساطعات، وجعَلَ الغَلَبَةَ والنصرَ والعاقبةَ الحميدةَ لهما ولأتباعهما؛ فنِعْمَ المَوْلَى هو سبحانه ونِعْمَ النصير.

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٨٧).

١٩٧

دُعَاءُ مُوسَىٰ عليه السلام (٣)

لا يزالُ الحديثُ ماضيًا عن دعاء نبيِّ الله موسى عليه السلام، **فمِنْ دعائه**: أنه لَمَّا بلَغَهُ تهديدُ فرعونَ له بالقتل، التجأَ إلى ربِّه مستعيذًا به مِنْ بأسِ فرعونَ وجَبَرُوتِهِ؛ كما حكى اللهُ تعالى ذلك، حيثُ قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر].

وقولُ فِرْعَوْنَ هذا ـ قبَّحه الله ـ مِنْ أعجب ما يكون، وهو مِنَ التمويهِ والترويجِ للباطلِ الذي هو عليه؛ ولهذا يقالُ في المثل ـ على سبيلِ التهكُّم ـ: «صارَ فرعونُ مُذَكِّرًا»؛ وهذا تضليلٌ منه؛ فإن فرعونَ يزعُمُ في كلامِهِ هذا أنه يخافُ على الناس أن يُضِلَّهُمْ موسى عليه السلام، فصار واعظًا يُشْفِقُ على الناس من موسى، ويخشى عليهم منه، من أن يُبَدِّلَ على الناس دِينَهم، أو أن يُظْهِرَ في الأرضِ الفسادَ، ويَزْعُمُ لنفسِهِ أنه إنما يريدُ بالناسِ الخيرَ وهدايتَهم إلى سبيلِ الرشاد، وهذا شأنُ دعاةِ الباطل وأئمةِ الضلالِ في كلِّ زمانٍ ومكان؛ وقد قال فرعونُ ذلك مع أنه مِنْ شَرِّ خَلْقِ اللهِ تعالى وأشدِّهم فسادًا وخُبْثًا، ومَكْرًا بالناس، واستخفافًا بالعقول، وتكبُّرًا على الحَقِّ، وتعاليًا عليه.

ولهذا قال موسى عليه السلام داعيًا الله تعالى، ومنبِّهًا الناسَ: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

قال الإمام الطبري رحمه الله **في معنى هذا الدعاء**: «إني استجَرْتُ ـ أيها القومُ ـ بربي وربِّكم مِنْ كلِّ متكبِّرٍ عليه، تكبَّرَ عن توحيدِهِ والإقرارِ بألوهيَّتِهِ وطاعتِهِ، لا يؤمِنُ بيومٍ يُحَاسِبُ اللهُ فيه خَلْقَه، فيجازي المُحْسِنَ بإحسانه، والمسيءَ بما أساء،

وإنما خَصَّ موسى صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه الاستعاذةَ باللهِ مِمَّنْ لا يؤمنُ بيومِ الحساب؛ لأنَّ مَنْ لم يؤمنْ بيومِ الحسابِ مصدِّقًا، لم يكنْ للثوابِ على الإحسانِ راجيًا، ولا للعقابِ على الإساءةِ وقبيحِ ما يأتي مِنَ الأفعالِ خائفًا؛ ولذلك كانتِ استجارتُهُ مِنْ هذا الصنفِ مِنَ الناسِ خاصَّةً»[١].

وقد حكى الله تعالى عن نبيِّه موسى عليه السلام نحوَ هذا الدعاءِ أيضًا في قوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول: وإني اعتصمْتُ بربِّي وربِّكم، واستَجَرْتُ به منكم أن تَرْجُمُونِ»[٢]، **قال:** «والرجمُ قد يكونُ قولًا باللسان، وفعلًا باليد، والصوابُ أن يقال: استعاذ موسى بربِّه مِنْ كلِّ معاني رَجْمِهِمُ الذي يصلُ منه إلى المرجومِ أذًى ومكروهٌ، شتمًا كان ذلك باللسان، أو رجمًا بالحجارةِ باليد»[٣].

ويُستفادُ مِنْ هذا السياقِ الكريم: أنَّ مَنْ كان متكبِّرًا غيرَ مؤمنٍ بيومِ الحساب يحملُهُ تكبُّرُهُ وعدمُ إيمانِهِ على الشَّرِّ والفساد، وأنَّ على المؤمنِ أن يستعيذَ باللهِ مِنْ شرِّ هذا الصنفِ مِنَ الخَلْق؛ وقد ثبَتَ في «سنن أبي داود»، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، «أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا خاف قومًا، قال: **(اللَّهُمَّ، إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ)**»[٤].

وممَّا حكى الله تعالى مِنْ دعاءِ موسى عليه السلام: استغفارُه لنفسِهِ ولأخيه هارون؛ كما قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وكذلك: استغفارُهُ ودعاؤُهُ لنفسِهِ ولقومه؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن

(١) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٣١٠ ـ ٣١١). (٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣١).
(٣) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٣).
(٤) تقدم تخريجه (ص٦٤٨).

تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف].

واشتَمَلَ دعاؤُهُ في هذا المقامِ على فَصْلَيْنِ كما أشار إليهما الحافظُ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

الفصل الأول مِنَ الدعاء: فيه دَفْعُ المحذور، وهو قولُهُ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾؛ فهذا دعاءٌ بتركِ المؤاخذةِ بالذنبِ، والوقايةِ من ذلك.

والفصل الثاني مِنَ الدعاء: في تحصيلِ المقصود، وهو قوله: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ **أي**: أَوْجِبْ لنا وأَثْبِتْ لنا فيهما حسنةً[(١)].

وقد مدَحَ اللهُ تعالى في كتابه مَنْ يدعوه سبحانه بهذا الدعاءِ المشتملِ على طلبِ الحسنةِ في الدنيا والآخرة؛ فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فجمَعَتْ هذه الدعوةُ كلَّ خيرٍ في الدنيا، وصرَفَتْ كلَّ شَرٍّ؛ فإنَّ الحسنةَ في الدنيا تشملُ كلَّ مطلوب دنيوي مِنْ عافيةٍ، ودارٍ رَحْبةٍ، وزوجةٍ حَسَنة، ورزقٍ واسع، وعِلْم نافع، وعَمَلٍ صالح، ومَرْكَبٍ هنيءٍ، وثناءٍ جميل، إلى غير ذلك مما اشتَمَلَتْ عليه عباراتُ المفسِّرين، ولا منافاةَ بينها؛ فإنَّها كلَّها مندرجةٌ في الحسنةِ في الدنيا، وأمَّا الحسنةُ في الآخرة، فأعلى ذلك: دخولُ الجنةِ، وتوابعُهُ مِنَ الأمنِ مِنَ الفزعِ الأكبرِ في العَرَصات، وتيسيرِ الحساب، وغيرِ ذلك مِنْ أمورِ الآخرة الصالحة، وأما

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٧٨).

النجاةُ مِنَ النار، فهو يقتضي تيسيرَ أسبابِهِ في الدنيا؛ مِنِ اجتنابِ المَحَارِمِ والآثام، وتَرْكِ الشهواتِ والحَرَام»[1].

ولهذا وردَتِ السنةُ المطهَّرةُ بالترغيبِ في هذا الدعاء؛ فعن أنس رضي الله عنه، قال: «كان أكثَرُ دَعْوَةٍ يدعو بها النبيُّ ﷺ يقول: (**اللَّهُمَّ، آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**)»؛ متفق عليه[2].

وقولُ موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ **أي**: تُبْنَا ورَجَعْنَا وأنبنا إليك.

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٨٩)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٦٩٠).

١٩٨

دُعَاءُ سُلَيْمَانَ عليه السلام

مِنْ دَعَواتِ الأنبياءِ في القرآنِ: **دَعْوةُ نبيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ** عليه السلام، الذي أعطاه اللهُ تعالى النبوَّةَ والمُلْكَ، وعلَّمه لغةَ الطير.

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، وكان عليه السلام شاكرًا لنعمةِ اللهِ عليه؛ يدعو ربَّه تعالى، ويبْتَهِلُ إليه أن يُلْهِمَهُ شُكْرَ هذا الفضلِ المبين، والاستعانةَ به على العملِ الصالح الذي ينالُ به رِضْوانَ الله تعالى ورحمتَهُ بدخولِ الجنةِ مع عبادِ اللهِ الصالحين؛ كما أخبَرَ اللهُ تعالى بذلك في قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل].

فذكَرَ تعالى ـ في هذه الآيات ـ جانبًا من مُلْكِ سليمانَ عليه السلام، وما كان يدعو اللهَ تعالى به، وهو قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وهذا مِنْ أجمعِ الأدعية، ومِنْ أنسبها لحالِهِ عليه السلام وما أعطاه الله مِنَ المُلْكِ العظيم، والفضلِ المبين.

فقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾: طَلَبٌ من اللهِ أنْ يُقَيِّضَهُ للشكرِ على ما أنعَمَ به عليه، وعلى ما خَصَّه به من المزيَّةِ على غيرِهِ من تعليمِهِ مَنْطِقَ الطير، وإسماعِهِ قولَ النَّمْلة.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾، فيه أنَّ النعمةَ على الوالدَيْنِ نعمةٌ على الولد؛ ولهذا سأَلَ ربَّه التوفيقَ للقيامِ بشكرِ نعمتِهِ الدينية والدنيوية عليه وعلى والدَيْه،

والمرادُ بوالدَيْهِ: داوُد عليه السلام، وأُمُّهُ وكانتْ مِنَ العابداتِ الصالحات[١].

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ **أي**: وَفِّقني أنْ أعمَلَ صالحًا ترضاه؛ لكونِهِ موافقًا لأمرك، خالصًا لوجهك، سالمًا مِنَ المُفْسِداتِ والمُنْقِصات.

وينبغي التأمُّلُ في قوله: ﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ فإنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ العملَ قد يكونُ صالحًا في نظرِ صاحبِهِ ولا يرضاهُ اللهُ تعالى؛ لكونِهِ غيرَ موافقٍ لأمرِهِ سبحانه، أو لكونِهِ غيرَ خالصٍ لوجهه عز وجل؛ فلا يرضى اللهُ تعالى مِنَ الأعمالِ إلا ما كان موافقًا لشريعته، خالصًا لوجهه.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ **أي**: إذا تَوَفَّيْتَني، فأَلْحِقْني بالصالحينَ مِنْ عبادك، والرفيقِ الأعلى مِنْ أوليائك؛ **بمعنى**: أَدْخِلْني في جملتهم، وأَثْبِتِ اسمي مع أسمائهم، واحْشُرْني في زُمْرتهم؛ **قال ابن عباس** رضي الله عنهما: «يريدُ: مع إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ ومَنْ بَعْدَهم من النبيين»[٢].

ومِنْ دعاءِ نبيِّ الله سليمان عليه السلام: ما حكاه اللهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص].

فأخبَرَ تعالى أنه ابتَلَى عَبْدَهُ ونبيَّه سليمانَ عليه السلام بأنْ ألقى على كرسيِّهِ جَسَدًا، **ولعلَّ المرادَ به**: ما ثبَتَ في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (**قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُد** عليه السلام: **لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ**)[٣]؛ فابتلاه اللهُ بشِقِّ وَلَدٍ،

---

(١) **انظر**: «البداية والنهاية» لابن كثير (٢/ ٣٢٧).

(٢) أورده البغوي في «تفسيره» (٣/ ٤١١).

(٣) «صحيح البخاري» رقم (٢٨١٩)، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٥٤).

وقيل: إنَّ الجسَدَ الذي أُلقِيَ على كرسيِّه هو صَخْرٌ الجِنِّيُّ الذي تَسلَّط على مُلْكِهِ أربعين يومًا يحكُمُ بين الناس، في قصةٍ طويلةٍ جاءتْ في أخبارِ بني إسرائيل، ولا يُعْتَمَدُ عليها.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ أي: تابَ إلى ربِّه؛ ومِنْ ثَمَّ قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

فسأَلَ اللهَ مغفرةَ ذَنْبِهِ، وتَوسَّلَ إليه باسمِهِ الوَهَّابِ أن يَهَبَ له ملكًا لا ينبغي لأحدٍ مِنْ بعدِهِ من البَشَر.

وقد استجابَ اللهُ دَعْوَتَه، فغفَرَ له، وأعطاه مُلْكًا لم يحصُلْ لأحدٍ من بعده؛ قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص]، فزاده اللهُ على المغفرةِ **أمرين**: **الزُّلْفَىٰ**؛ وهي درجةُ القُرْبِ منه، والثاني: **حُسْنُ المآب**؛ وهو حُسْنُ المُنْقَلَب، وطيبُ المأوى عندَ الله[(١)].

وقد ثبَتَ في الحديث في سنن النسائي، وابن ماجه، عن عبد الله ابن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ: **(أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عليه السلام لَمَّا بَنَى بَيْتَ المَقْدِسَ، سَأَلَ اللهَ عز وجل خِلالًا ثَلَاثَةً: سَأَلَ اللهَ عز وجل حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ عز وجل مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ عز وجل حِينَ فَرَغَ مِن بِنَاءِ المَسْجِدِ أَنْ لَا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فِيهِ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)**[(٢)] وقوله: **(لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فِيهِ)**؛ **أي**: لا يُحرِّكُهُ إلا ذلك.

ونسأل اللهَ أن يَفُكَّ أَسْرَهُ مِنْ أيدي اليهود، وأن يُطْلِقَ قَيْدَه، وأن يَرُدَّهُ للمسلمين، وأن يُقِرَّ أعينهم بالصلاةِ فيه، مطهَّرًا مِن رِجْسِ اليهود؛ إنه سبحانه خيرُ مسؤول، ونِعْمَ المأمول، وهو حسبُنا ونِعْمَ الوكيل .

---

(١) **انظر**: «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص٢١٧).

(٢) «سنن النسائي» رقم (٦٩٢)، و«ابن ماجه» رقم (١٤٠٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح النسائي» (١/ ٢٢٩).

١٩٩

دُعَاءُ زَكَرِيَّا عليه السلام

إنَّ مِنْ دعواتِ الأنبياءِ في القرآنِ: ما جاء في قصَّة نبيِّ اللهِ زكريَّا عليه السلام: أنه دعا ربَّه عز وجل أن يَرْزُقَهُ وَلَدًا صالحًا يكونُ وارثًا له في العلمِ والنبوَّةِ والقيامِ بالدِّين، ولم يكنْ عليه السلام قد رُزِقَ وَلَدًا في حياته، وكانتِ امرأتُهُ عاقرًا، وتَقدَّمَ به السنُّ، لكنَّه على علم بكمالِ قدرةِ الله، وأنه سبحانه إذا أراد شيئًا كان، ولو لم تَتوفَّرْ أسبابُهُ المعلومةُ في العادة؛ إذْ هو خالقُ الأسبابِ والمسبَّبات، وبيده مقاليدُ كلِّ شيءٍ وخزائنه.

قال الله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم].

وقد تَضمَّنَ هذا الدعاءُ العظيمُ الذي دعا به زكريَّا عليه السلام ذِكْرَ حالته، وشدةَ رغبته، وكمالَ أدبِهِ مع ربِّه، وثقتَهُ التامَّةَ بقدرتِهِ ورحمتِهِ به خاصَّةً وبعبادِهِ عامَّة.

قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾؛ أي: هذا ذِكْرُ رحمةِ اللهِ بعبدِهِ زكريا.

وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، النداءُ هنا: هو الدعاءُ والرَّغْبة.

وقوله: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾؛ أي: سِرًّا لا عَلَنًا؛ وهذا الثناءُ عليه بكونِ دعائِهِ خفيًّا فيه دَلَالةٌ على أنَّ إخفاءَ الدعاءِ أفضلُ من إظهارِهِ وإعلانه.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾؛ أي: ضَعُفَ العظمُ منِّي ورَقَّ من الكِبَر؛ **قال العلامة محمد الأمين الشِّنْقِيطي** رحمه الله: «وإنما ذكَرَ ضَعْفَ العظمِ؛

لأنه عَمُودُ البدنِ وبه قَوَامُهُ، وهو أصلُ بنائه، فإذا وَهَنَ دلَّ على ضَعْفِ جميعِ البدن؛ لأنه أشدُّ ما فيه وأصلبُهُ، فوهَنُهُ يستلزمُ وهَنَ غيرِهِ من البدن»[١].

وقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ **أي**: انتَشَرَ الشيبُ في الرأس؛ لأنَّ الشيبَ دليلُ الضعفِ والكبرِ، ورسولُ الموتِ ورائدُهُ ونذيره.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمرادُ مِنْ هذا الإخبارُ عن الضعفِ والكبرِ ودلائلِهِ الظاهرةِ والباطنة»[٢].

ونادى ربَّه بذلك بيانًا لحالِهِ متوسِّلًا إليه سبحانه بافتقارِهِ إليه.

قال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَتَوسَّلَ إلى الله تعالى بضعفِهِ وعَجْزه، وهذا مِنْ أحبِّ الوسائلِ إلى الله؛ لأنه يَدُلُّ على التبرِّي من الحولِ والقوة، وتعلُّقِ القلبِ بحولِ اللهِ وقوته»[٣].

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾؛ **أي**: لم أَشْقَ يا رَبِّ بدعائك؛ لأنك لم تُخَيِّبْ دعائي، بل كنتَ تجيبُ دَعْوتي، وتقضي حاجتي، فهو توسُّلٌ إليه بما سلَفَ مِنْ إجابتِهِ وإحسانه، طالبًا أن يُجارِيَهُ على عادتِهِ التي عَوَّدَهُ من قضاءِ حوائجِهِ وإجابتِهِ إلى ما سأله[٤].

قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «استُفِيدَ من هذه الآياتِ آدابُ الدعاءِ وما يُسْتَحَبُّ فيه؛ **فمنها**: الإسرارُ بالدعاء؛لقوله: ﴿خَفِيًّا﴾، **ومنها**: استحبابُ الخضوع في الدعاء، وإظهارِ الذُّلِّ والمسكنةِ والضعف؛ لقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، **ومنها**: التوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بِنِعَمِهِ وعوائدِهِ الجميلة؛ لقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾»[٥].

وقوله: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾؛ **أي**: وإنِّي خفتُ مَنْ يتولَّى على بني إسرائيلَ مِنْ بعدِ موتي ألَّا يقومَ بِدِينِكَ حقَّ القيامِ، ولا يدعوَ عبادَكَ إليك؛

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٠٤).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٠٦).
(٣) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٦٩).
(٤) **انظر**: «بدائع الفوائد» لابن القيم (٣/ ٥٠٤).
(٥) «محاسن التأويل» (١١/ ٤١٢٧).

وهذا فيه شفقتُهُ ونصحُهُ وحِرْصُهُ على قيامِ الدينِ، والخوفُ من ضياعه.

وقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾؛ أي: وكانتْ زوجتي لا تَلِدُ منذُ شبابها.

وقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾؛ أي: وَلَدًا صالحًا معينًا.

قال العلَّامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه الوَلَايةُ وَلَايةُ الدِّينِ وميراثُ النبوَّةِ والعلمِ والعملِ؛ ولهذا قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾»[1]؛ فالإرثُ المذكورُ هنا إنما هو إِرْثُ علمٍ ونبوةٍ ودعوةٍ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لا إرثُ مالٍ.

وقوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾؛ أي: اجعَلْ هذا الذي تَهَبُهُ لي مَرْضِيًّا ترضاه أنت، ويرضاه عبادُك دِينًا وخُلُقًا وخَلْقًا.

قال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والحاصل**: أنه سأَلَ اللهَ ولدًا ذَكَرًا صالحًا يبقى بعد موته، ويكونُ وليًّا مِنْ بعده، ويكونُ نبيًّا مرضيًّا عندَ اللهِ وعندَ خَلْقه؛ وهذا أفضلُ ما يكونُ مِنَ الأولاد، ومِنْ رَحْمةِ اللهِ بعبدِهِ أن يَرْزُقَهُ ولدًا صالحًا جامعًا لمكارمِ الأخلاق، ومحامدِ الشِّيَم»[2].

ومِنَ الآياتِ المشتملةِ على ذِكْرِ دعاءِ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا: قولُ الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]؛ وقد أخبرَ اللهُ تعالى أنه استجابَ لدعاءِ نبيِّه زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجعَلَ امرأتَهُ وَلُودًا بعد أنْ كانتْ عاقرًا، ورزقَهُ وَلَدًا ذَكَرًا صالحًا سمَّاه يحيى، وجعله نبيًّا من الأنبياء.

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٦٩).
(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٦٩ ـ ٥٧٠).

ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والمقصودُ**: أنَّ الله تعالى أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أنْ يَقُصَّ على الناسِ خَبَرَ زكريا عليه السلام، وما كان مِنْ أمرِهِ حِينَ وَهَبَهُ اللهُ ولدًا على الكِبَرِ، وكانتِ امرأتُهُ عاقرًا في حالِ شبيبتها وقد أَسَنَّتْ أيضًا، حتى لا يَيْئَسَ أحدٌ مِنْ فضلِ اللهِ ورحمته، ولا يَقْنَطَ مِنْ فضلِهِ تعالى وتقدَّس»[1].

❁ ❁ ❁

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٣٩٥).

٢٠٠

دُعَاءُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ
(١)

في القرآنِ الكريم مواضعُ عديدةٌ يأمُرُ الله تعالى فيها نبيَّه ورسولَهُ محمَّدًا ﷺ بدعائِهِ دعاءَ ذِكْرٍ وثناءٍ، ودعاءَ طَلَبٍ ومسألةٍ، ومِنَ المناسبِ للمسلمِ والمفيدِ له فائدةً عظيمةً: أن يَقِفَ عليها لِيتعلَّمَ منها الهَدْيَ القويم، والنهجَ السديد، والمسلكَ الرشيد، في ذِكْرِ الرَّبِّ ﷻ ودعائه.

* **ومن هذه المواضع**: قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

ففيها الأمرُ بذكرِ اللهِ ﷻ خِيفَةً مع التضرُّع والإلحاح، ولا سيَّما في أَوَّلِ النهارِ وآخره، والتحذيرُ مِنَ الغفلةِ وسبيلِ الغافلين.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله **ـ وقد اختار أنَّ المراد بقوله: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾؛ أي: باللسان مع القَلْب ـ**: «ومعلومٌ أنَّ ذِكْرَ اللهِ المشروعَ بالغُدُوِّ والآصالِ في الصلاةِ وخارجَ الصلاةِ هو باللسانِ مع القلب؛ مثلُ صلاتَي الفجرِ والعصر، والذِّكْرِ المشروعِ عَقِبَ الصلاتَيْن، وما أَمَرَ به النبيُّ ﷺ وعَلَّمَهُ وفعَلَهُ من الأذكارِ والأدعيةِ المأثورةِ مِنْ عملِ اليومِ والليلةِ المشروعةِ طرفَي النهارِ، بالغدوِّ والآصال»(١).

* **ومن الآيات التي فيها أَمْرُ اللهِ لنبيِّه ﷺ بالدعاء**: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ

(١) «دقائق التفسير» (٣/ ١٦٦).

وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران].

وهذا أمرٌ للنبيِّ ﷺ أن يَدْعُوَ بهذا الدعاءِ معظِّمًا لربِّه ﷻ، متوكِّلًا عليه، وشاكرًا له، ومفوِّضًا إليه.

«فصدَّرَ الآيةَ سبحانَهُ بتفرُّدِهِ بالمُلْكِ كلِّه، وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه مَنْ يشاءُ، ويَنْزِعُهُ ممَّن يشاء لا غيرُهُ، **فالأوَّل**: تفرُّدُهُ بالملك، **والثاني**: تفرُّدُهُ بالتصرُّفِ فيه، وأنه سبحانه هو الذي يُعِزُّ مَنْ يشاء بما يشاء مِنْ أنواعِ العِزّ، ويُذِلُّ مَنْ يشاءُ بسلبِ ذلك العِزِّ عنه، وأنَّ الخيرَ كلَّه بيديه، ليس لأحدٍ معه منه شيء، ثم ختمَهَا بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فتناوَلَتِ الآيةُ مُلْكَهُ وحدَهُ، وتصرُّفَهُ، وعمومَ قُدْرَته، وتضمَّنَتْ أنَّ هذه التصرفاتِ كلَّها بيده، وأنها كلُّها خيرٌ، فسَلْبُهُ المُلْكَ عمَّن يشاءُ وإذلالُهُ مَنْ يشاءُ خيرٌ، وإنْ كان شرًّا بالنسبة إلى المسلوب الذليل؛ فإنَّ هذا التصرُّفَ دائرٌ بين العدلِ والفضل، والحكمةُ والمصلحَةُ لا تخرُجُ عن ذلك، وهذا كلُّه خيرٌ يُحْمَدُ عليه الربُّ ويثنى عليه به؛ كما يُحْمَدُ ويُثْنَىٰ عليه بتنزيهِهِ عن الشر، وأنه ليس إليه»؛ **قاله ابن القيِّم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تفسيره للآية**: «وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ وإرشادٌ إلى شكرِ نِعْمةِ اللهِ تعالى على رسولِهِ ﷺ وهذه الأُمَّةِ؛ لأنَّ اللهَ حَوَّلَ النبوةَ مِنْ بني إسرائيلَ إلى النبيِّ العربيِّ، القرشيِّ المَكِّيِّ، الأُمِّيِّ، خاتَمِ الأنبياءِ على الإطلاق، ورسولِ اللهِ إلى جميعِ الثقلَيْنِ الإنسِ والجِنّ، الذي جمَعَ اللهُ فيه محاسنَ مَنْ كان قبله، وخَصَّهُ بخصائصَ لم يُعْطِهَا نبيًّا مِنَ الأنبياء، ولا رسولًا من الرُّسُلِ في العلم باللهِ وشريعتِهِ، وإطلاعِهِ على الغيوبِ الماضيةِ والآتية، وكشفِهِ عن حقائقِ الآخرة، ونشرِ أمتِهِ في الآفاقِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربها، وإظهارِ دينِهِ وشرعِهِ على سائرِ الأديانِ والشرائع؛ فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه

---

(١) «شفاء العليل» لابن القيم (ص١٧٨ ـ ١٧٩).

دائمًا إلى يومِ الدينِ، ما تعاقَبَ الليلُ والنهار»[1].

* **ومن الآياتِ التي فيها أمرُهُ ﷺ بالدعاء**: قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

وقد أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ بهذا الدعاءِ بعدما ذكَرَ عن المشركين ما ذكَرَ مِنَ المَذَمَّةِ لهم في حُبِّهم الشركَ، ونُفْرتِهِمْ عن التوحيد.

والمعنى: ادعُ ـ أيها النبيُّ ـ اللهَ وحدَهُ لا شريكَ له، الذي هو فاطرُ السمٰواتِ والأرض؛ أي: خالِقُهما على غيرِ مثالٍ سبَقَ، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: السِّرِّ والعلانية، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: في دنياهم، وستَفْصِلُ بينهم يومَ مَعَادِهِمْ وقيامهم مِنْ قبورهم»[2].

وفي هذا تعليمُ العبادِ الالتجاءَ إلى اللهِ تعالى، والدعاءَ بأسمائِهِ الحسنى، والاستعانةَ بالتضرُّعِ والابتهالِ على دفعِ كَيْدِ العدو، والسلامةِ مِنْ شرورهم.

وقد ثبَتَ في «صحيح مسلم»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا قام مِنَ الليلِ، افتتَحَ صلاتَهُ، فقال: **(اللَّهُمَّ، رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَواتِ والأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، أَنْتَ تحكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم)**»[3].

* **وَمِنَ الدعاءِ الذي أُمِرَ به النبيُّ ﷺ**: ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

ومعنى الآيةِ: فإنْ أعرَضَ الكُفَّارُ عما جِئْتَهُمْ به مِنَ الشريعةِ العظيمة، المطهَّرةِ الكاملةِ الشاملة، فقُلْ أنت هذا الدعاءَ، وهو:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢ ـ ٢٣).
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٩٤).
(٣) تقدم تخريجه (ص٦٠١).

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافيَّ اللهُ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبودَ بحقٍّ إلا هو.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتَمَدتُّ عليه، وإليه فَوَّضْتُ جميعَ أموري.

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: هو مالكُ كلِّ شيءٍ وخالقُهُ؛ لأنه ربُّ العرشِ العظيم، الذي هو سَقْفُ المخلوقات، وخَصَّ العرشَ بالذِّكْرِ؛ لأنه أعظمُ المخلوقات، فيدخُلُ فيه ما دونه مِنْ باب أولى.

وفي الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: «مَنْ قال في كلِّ يوم حِينَ يُصْبِحُ وحِينَ يُمْسِي: (**حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**)، سبعَ مَرَّات، كفاه اللهُ عز وجل ما أَهَمَّهُ من أمر الدنيا والآخرةِ»؛ رواه ابنُ السُّنِّيِّ في «عمل اليوم والليلة» مرفوعًا إلى النبيِّ ﷺ، ورواه غيره موقوفًا[1]، والموقوفُ رجالُ إسنادِهِ ثقاتٌ، ومِثْلُ هذا لا يُقالُ مِنْ قِبَلِ الرأيِ والاجتهاد، فسبيلُهُ سبيلُ المرفوع.

❁ ❁ ❁

(١) تقدم تخريجه (٤٩٦).

٢٠١

دُعَاءُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ (٢)

* **ومِنَ المواضعِ التي وردَ فيها أَمْرُ النبيِّ ﷺ بذكرِ اللهِ ودعائه:** قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

وهذا دعاءُ ثناءٍ وتمجيدٍ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ بأنْ يقولَهُ توحيدًا لربِّه سبحانه، وتنزيهًا له عن كلِّ ما لا يليقُ به، وقد جاء في الأثر **عن محمَّد بن كَعْب القُرَظيِّ أنه كان يقول:** «إنَّ اليهودَ والنصارى قالوا: اتخَذَ اللهُ ولدًا، وقالتِ العرَبُ: لَبَّيْكَ لا شريكَ لك إلَّا شريكًا هو لك، وقال الصابئون والمَجُوس: لولا أولياءُ اللهِ لَذَلَّ الله؛ فأنزَلَ الله هذه الآية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾»(١).

وفي الآية بيانُ استحقاقِ اللهِ للحمدِ؛ لاختصاصِهِ سبحانه بنعوتِ الكمال، وصفاتِ الجلال، فهو سبحانه المنزَّهُ عن اتخاذِ الولد، المتفرِّدُ بالمُلْكِ لا شريكَ له، الغنيُّ عن عباده، لا يحتاجُ إلى أحدٍ منهم، ولا يتولَّى أحدًا منهم ليتعزَّزَ به مِنْ ذِلَّة، أو لِيتكثَّرَ به من قِلَّة، وهو سبحانه الكبيرُ المتعال.

* **ومن المواضع التي فيها أمرُهُ ﷺ بالدعاء:** قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

وهذا دعاءُ مسألةٍ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يقولَهُ، وهو مُتضمِّنٌ سؤالَ الله

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٩٠).

تعالى أن يَجْعَلَ مُدْخَلَهُ ومُخْرَجَهُ على الصِّدْق؛ وذلك في قوله: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

قال العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحقيقةُ الصِّدْقِ في هذه الأشياءِ هو الحقُّ الثابتُ المُتَّصِلُ بالله، المُوصِلُ إلى الله، وهو ما كان به وله مِنَ الأقوالِ والأعمال، وجزاءِ ذلك في الدنيا والآخرة.

فمُدْخَلُ الصِّدْقِ ومُخْرَجُ الصدق: أن يكونَ دخولُهُ وخروجُهُ حقًّا ثابتًا لله وفي مرضاته، بالظَّفَرِ بالبُغْيةِ وحصولِ المطلوب، ضِدَّ مُخْرَجِ الكَذِبِ ومُدْخَلِهِ، الذي لا غايةَ له يُوصَلُ إليها، ولا له ساقٌ ثابتةٌ يقومُ عليها، كمُخْرَجِ أعدائِهِ يوم بَدْر، ومُخْرَجُ الصدقِ كمُخْرَجِهِ ﷺ هو وأصحابِهِ في تلك الغَزْوة، وكذلك مُدْخَلُهُ ﷺ المدينةَ كان مُدْخَلَ صِدْق، باللهِ وللهِ وابتغاءَ مرضاةِ الله، فاتصَلَ به التأييدُ والظَّفَرُ والنصرُ وإدراكُ ما طلَبَهُ في الدنيا والآخرة، بخلافِ مُدْخَلِ الكذب، الذي رام أعداؤُهُ أنْ يدخلوا به المدينةَ يومَ الأحزاب، فإنَّه لم يكنْ باللهِ ولا للهِ، بل كان مُحَادَّةً للهِ ولرسولِهِ، فلم يتصلْ به إلَّا الخِذْلَانُ والبَوَار، وكذلك مُدْخَلُ اليهودِ مَنْ دخَلَ من اليهودِ والمحاربين لرسولِ اللهِ ﷺ حِصْنَ بني قُرَيْظة، فإنَّه لما كان مُدْخَلَ كذبٍ أصابهم معه ما أصابهم.

فكلُّ مُدْخَلٍ ومُخْرَجٍ كان بالله ولله، فصاحبُهُ ضامنٌ على الله، فهو مُدْخَلُ صدقٍ، ومُخْرَجُ صدق.

وكان بعضُ السلف إذا خرَجَ مِنْ داره، رفَعَ رأسه إلى السماء **وقال**: «اللهمَّ، إنِّي أعوذُ بِكَ أَنْ أَخْرُجَ مَخْرَجًا لا أكونُ فيه ضامنًا عليك»؛ يريد أنْ لَا يكونَ المخرجُ مخرجَ صِدْق.

ولذلك فُسِّرَ مدخلُ الصدق ومخرجُهُ بخروجِهِ ﷺ من مكةَ ودخولِهِ المدينة؛ ولا ريبَ أن هذا على سبيل التمثيل، فإنَّ هذا المدخلَ والمخرجَ من أجلِّ مداخلِهِ ومخارجِهِ ﷺ، وإلَّا فمداخلُهُ ومخارجُهُ كلُّها مداخلُ صدق، ومخارجُهُ مخارجُ صدق؛ إذْ هي للهِ وباللهِ، وبأمرِهِ ولابتغاءِ مرضاته.

وما خرَجَ أحدٌ من بيته ودخَلَ سُوقَهُ أو مدخلًا آخر إلَّا بِصِدْقٍ أو بكذبٍ، فمخرجُ كلٍّ واحد ومدخلُهُ لا يعدو الصدقَ والكذبَ، والله المستعان»[(١)]. اهـ.

كما تَضمَّنَ هذا الدعاءُ العظيمُ سؤالَ اللهِ تعالى بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنًا نَّصِيرًا﴾.

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ نبيَّ اللهِ عَلِمَ أنْ لَا طاقةَ له بهذا الأمرِ إلَّا بسلطان، فسأَلَ سلطانًا نصيرًا لكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، ولحدودِ الله، ولفرائض الله، ولإقامةِ دِينِ الله، وإنَّ السلطانَ رحمةٌ من اللهِ جعَلَهَا بين أَظْهُرِ عباده، لولا ذلك لأغارَ، بعضهم على بعضٍ، فأكَلَ شديدُهُمْ ضعيفَهُمْ»[(٢)].

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «سلطانًا نصيرًا: حجةً بيِّنة»[(٣)].

ورجَّح الإمامُ ابن جريرٍ الطبريُّ والحافظُ ابن كَثِيرٍ قولَ قتادةَ في المرادِ بسؤالِهِ السلطانَ النصيرَ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأنه لا بدَّ مع الحقِّ مِنْ قهرٍ لِمَنْ عاداه وناوَأَهُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد: ٢٥].

وفي الحديث: «إنَّ اللهَ لَيَزَعُ بالسُّلْطَانِ ما لا يَزَعُ بالقُرْآن»[(٤)]؛ **أي**: لَيَمْنَعُ بالسلطانِ عن ارتكابِ الفواحشِ والآثامِ ما لا يمتنعُ كثيرٌ من الناسِ بالقرآنِ وما فيه مِنَ الوعيدِ الأكيد، والتهديدِ الشديد؛ وهذا هو الواقع»[(٥)]. اهـ.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١). (٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٩).

(٤) أخرج نحوه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ١٠٨)، عن عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا، وإسنادُهُ تالفٌ: فيه الهيثم بن عدي، وهو كَذَّابٌ متروك، وأخرَجَ معناه ابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ١١٨)، عن عُثْمان بن عَفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإسناده معضل.

(٥) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٠٩).

وخلاصة هذا الدعاء: أنه سؤالٌ لله تعالى بأن يجعلَهُ على الحقِّ الثابتِ في جميعِ أحوالِهِ في مُدْخَلِهِ ومُخْرَجِهِ، وأن يَجْعَلَ له سلطانًا وقوةً ينصُرُ به الحقَّ ويُظْهِرُهُ على كلِّ مَنْ خالَفَهُ.

* **ومن المواضعِ التي فيها أمرُهُ ﷺ بالدعاء**: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤].

وهذا أمرٌ مِنَ الله تعالى لنبيِّه ﷺ أن يَسْأَلَ ربَّه، ويتوجَّهَ إليه بأن يوفِّقَهُ للصوابِ والرَّشَد؛ فيقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾؛ **أي**: يُثَبِّتَني على طريقٍ هو أقربُ إليه وأرشدُ.

قال العلامة السَّعْدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمرَهُ أن يَدْعُوَ الله ويَرْجُوَهُ ويَثِقَ به أن يَهْدِيَهُ لأقربِ الطرقِ الموصِّلةِ إلى الرَّشَد، وحريٌّ بعبدٍ تكونُ هذه حالَهُ، ثم يَبْذُلُ جُهْدَهُ ويَسْتفرِغُ وُسْعَهُ في طلبِ الهدى والرشد أنْ يُوَفَّقَ لذلك، وأن تَأْتِيَهُ المعونةُ من ربِّه، وأن يُسَدَّدَ في جميعِ أموره»[1].اهـ.

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٥١).

٢٠٢

دُعَاءُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ (٣)

* **ومِنَ المواضعِ التي أُمِرَ فيها النبيُّ الكريم ﷺ بدعاءِ الله**: قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ذكره: وقُلْ يا محمَّدُ: ربِّ زدني عِلْمًا إلى ما علَّمتني، أمرَهُ بمسألتِهِ مِنْ فوائدِ العلمِ ما لا يَعْلَم»(١).

وقال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمرَهُ الله تعالى أن يسألَهُ زيادةَ العلم؛ فإنَّ العلمَ خيرٌ، وكثرةُ الخيرِ مطلوبة، وهي مِنَ الله، والطريقُ إليها: الاجتهادُ، والشوقُ للعلم، وسؤالُ اللهِ، والاستعانةُ به، والافتقارُ إليه في كلِّ وقت»(٢).

وقد ثبت في السُّنَّةِ عنايةُ النبيِّ ﷺ بهذا الدعاء.

ففي الترمذي، وابن ماجه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسولُ الله ﷺ يقولُ: (**اللَّهُمَّ، انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وزِدْنِي عِلْمًا**)(٣).

قال سفيان بن عُيَيْنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولم يَزلْ ﷺ في زيادةٍ حتى تَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»(٤).

وكذلك لم يزلِ السلفُ الصالحُ رحمهم الله على عنايةٍ بهذه الدعوة؛ ومِمَّا ورد في ذلك: ما رواه سعيد بن منصور، وعَبْد بن حُمَيْدٍ، **عن ابن مسعود** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، **أنه كان يدعو**: «اللهُمَّ زِدْنِي إيمانًا وفِقْهًا، ويقينًا وعِلْمًا»(٥).

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، قَالَ: كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ١٨١). (٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥٩٩).
(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٢٥١ و٣٨٣٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٤٧٦).
(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٣١٢). (٥) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٠٢).

إِيمَانًا دَائِمًا، وَعِلْمًا نَافِعًا، وَهَدْيًا قَيِّمًا. قَالَ مُعَاوِيَةُ: فَنرى أَنَّ مِنَ الْإِيمَانِ إِيمَانًا لَيْسَ بِدَائِمٍ، وَمِنَ الْعِلْمِ عِلْمًا لَا يَنْفَعُ، وَمِنَ الْهَدْيِ هَدْيًا لَيْسَ بِقَيِّمٍ»(١).

ويُروى عن الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ، **أنه قال:** «مِنْ شأنِ ابن آدمَ أَلَّا يَعْلَمَ كلَّ شيءٍ، ومِنْ شأنِ ابن آدمَ أن يَعْلَمَ ثم ينسى، ومِنْ شأنِ ابن آدمَ أن يَطْلُبَ مِنَ اللهِ عِلْمًا إلى عِلْمه»(٢).

* **ومن المواضع التي أمَرَ اللهُ فيها نبيَّه ﷺ بالدعاء:** قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «يقولُ تعالى آمِرًا نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يَدْعُوَ بهذا الدعاءِ عندَ حلولِ النِّقَم: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون]»(٣).

ومعنى هذا الدعاء: أي: يا رَبِّ، إنْ أَرَيْتَني ما يوعدون مِنَ العذاب، بأن تُنْزِلَهُ بهم وأنا حاضرٌ شاهدٌ ذلك، يا رَبِّ، فلا تَجعَلْني في جملةِ الظالمين المعذَّبين، بل أَخْرِجْني منهم ونَجِّني مِنْ عذابهم.

«قال أهلُ التفسيرِ: وهذا دليلٌ على أنه يجوزُ للعبدِ أن يَسْأَلَ اللهَ تعالى ما هو كائنٌ لا محالةَ»(٤).

وبيانُ ذلك: أنه ﷺ كان يَعْلَمُ أنَّ اللهَ تعالى لا يجعلُهُ في القومِ الظالمينَ إذا نزَلَ بهم العذابُ، وقد أخبرَ تعالى في كتابه أنه لا يُنْزِلُ بهم العذابَ وهو فيهم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ومع هذا أمَرَ الربُّ تعالى نبيَّه ﷺ بهذا الدعاءِ والسؤالِ لِيَعْظُمَ أجره، وليكونَ في كلِّ الأوقاتِ ذاكرًا لربِّه، ملتجئًا إليه، لائذًا بجنابه.

ومِنْ هذا القبيل: قولُه ﷺ في دعائه: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ،**

---

(١) «الإيمان» لابن أبي شيبة (ص٤١).
(٢) ذكره أبو المظفَّر السمعاني في «تفسيره» (٣/ ٣٥٨).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٨٥).
(٤) «تفسير أبي المظفر السمعاني» (٣/ ٤٨٨).

وَتَرْكَ المُنْكَرَاتِ، وحُبَّ المَسَاكِينِ، وَإِذَا أَردتَّ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ)(١)؛ وله نظائرُ كثيرةٌ.

* **ومن المواضع أيضًا**: قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون].

وهذا أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى لنبيِّه ﷺ بالاستعاذةِ مِنَ الشياطينِ ومِنْ شرورهم؛ لأنهم لا تنفعُ معهم الحِيَل، ولا ينقادون بالمعروف؛ فالنجاةُ منهم بالاستعاذةِ بالله تعالى.

وقوله: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾؛ **أي**: أَعْتَصِمُ بحولك وقوتك، مُتَبَرِّئًا مِنْ حولي وقوتي، لكي تَقِيَنِي مِنْ هَمَزاتِ الشياطين.

والهَمَزَاتُ: جمعُ هَمْزَةٍ، كتَمَرَاتٍ وتَمْرة، **وأصلُها في اللغة**: الدفعُ والنَّخْس.

وفُسِّرَتْ همزاتُ الشياطين: بِنَفْخِهِمْ ونَفْثِهم، **وفُسِّرَتْ**: بِخَنْقِهم، وهو الموتةُ التي تشبهُ الجنون، **وفُسِّرَتْ**: بنَزَغَاتِهِمْ ووَسَاوِسِهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «فهَمَزَاتُ الشياطين: دَفْعُهم الوساوسَ والإغواءَ إلى القلب».

قال: «وقد يقالُ ـ وهو الأظهر ـ: إنَّ همزاتِ الشياطينِ إذا أُفْرِدَتْ دخَلَ فيها جميعُ إصابتهم لابنِ آدمَ، وإذا قُرِنَتْ بالنفخِ والنفثِ كانت نوعًا خاصًّا؛ كنظائرِ ذلك»(٢).

وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، **قال العلامة ابن سِعْدي** رَحِمَهُ اللهُ: «**أي**: أعوذُ بك مِنَ الشرِّ الذي يصيبني بسببِ مباشَرَتِهِمْ وهَمْزِهم ومَسِّهم، ومِنَ الشَّرِّ الذي يصيبني بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذةٌ مِن مَادَّةِ الشرِّ

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٣)، والترمذي رقم (٣٢٣٣)، من حديث ابن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وصحَحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٣١٧).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

كلِّه وأصله، ويدخُلُ فيها الاستعاذةُ مِنْ جميعِ نَزغاتِ الشيطان ومِنْ مسِّه ووسوسته، فإذا أعاذ اللهُ عبدَهُ مِنْ هذا الشر، وأجاب دعاءَهُ، سَلِمَ مِنْ كلِّ شرٍّ، ووُفِّقَ لكلِّ خير»[١].

وقال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «والظاهرُ في قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾: **أنَّ المعنى**: أعوذُ بك أنْ يَحضُرَني الشيطانُ في أمرٍ مِنْ أموري كائنًا ما كان، سواءٌ كان ذلك وقتَ تلاوةِ القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، أو عندَ حضورِ الموتِ، أو غيرَ ذلك مِنْ جميعِ الشؤونِ في جميعِ الأوقات»[٢].

وقد ثبَتَ في الحديث أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقولُ في صلاتِهِ بعدَ دعاءِ الاستفتاح: (**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**)؛ رواه الترمذي[٣].

وثبت في الحديث أيضًا عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ نَقُولُهُنَّ عندَ النومِ مِنَ الفَزَعِ: (**بِاسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، ومِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونِ**)»؛ رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي[٤].

والأحاديثُ الواردةُ في التعوُّذِ بالله مِنَ الشيطانِ الرجيمِ كثيرةٌ؛ أعاذنا اللهُ منه، ومِنْ هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه.

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٥٣).
(٢) «أضواء البيان» (٥/ ٨١٩).
(٣) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ١٣)، وأبو داود رقم (٧٧٥)، و«جامع الترمذي» رقم (٢٤٢)، وابن ماجه رقم (٨٠٧)، من حديث أبي سَعِيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (١/ ١٤٩).
(٤) تقدم تخريجه (ص٥٥٧).

٢٠٣

دُعَاءُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ (٤)

* **ومن المواضع التي أمَرَ اللهُ فيها نبيَّه محمَّدًا ﷺ بالدعاء:** قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «هذا إرشادٌ مِنَ اللهِ إلى هذا الدعاء»(١).

وهو دعاءٌ متضمِّنٌ للاستغفارِ والاسترحامِ مِنَ الرَّبِّ الغفورِ الرحيم.

فقوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾ استغفارٌ، وهو طلَبُ الغَفْر.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «فالغَفْرُ ـ إذا أُطْلِقَ ـ **معناه:** محوُ الذنبِ وسَتْرُهُ عن الناس»(٢).

وقال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «وقل ـ يا محمَّد ـ: ربِّ اسْتُرْ عليَّ ذنوبي بعفوِكَ عنها»(٣).

وقوله: ﴿وَٱرْحَمْ﴾: استرحامٌ، وهو طَلَبُ الرَّحْمة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «**والرَّحْمَةُ معناها:** أن يُسَدِّدَهُ ويوفِّقَهُ في الأقوالِ والأفعال»(٤).

وقال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللهُ: «وارحَمْنَا لِتُوصِلَنا برَحْمَتِكَ إلى كلِّ خير»(٥).

وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ **أي:** وأنت ـ يا ربِّ ـ خيرُ مَنْ رَحِمَ عَبْدَه، فقَبِلَ توبته، وغَفَرَ ذنبه، وترَكَ عقوبته، وأوصَلَهُ إلى كلِّ خير، وكلُّ

---

(١)(٢)(٤) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٩٥).

(٣) «تفسير الطبري» (١٧/ ١٣٥).   (٥) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٥٦).

راحم للعبدِ فاللهُ خيرٌ له منه، وأرحمُ بعبدِهِ مِنَ الوالدةِ بولدها، وأرحَمُ به مِنْ نفسه.

وقد ختَمَ الدعاءَ بهذا توسُّلًا به إلى الربِّ تعالى بكمالِ رحمتِهِ، وكثرتها، وعمومها، وهو مناسبٌ للاستغفارِ والاسترحام، فهو مِنْ أحبِّ الوسائلِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنه ثناءٌ عليه سبحانه بما هو أهلٌ له مِنَ الأسماءِ الحسنى، والصفاتِ الحميدة.

ولهذا الدعاءِ المبارَكِ نظائرُ عديدةٌ في السُّنَّةِ يَجْمَعُ فيها ﷺ بين الاستغفارِ والاسترحامِ، وهو مِنْ كمالِ استجابتِهِ ﷺ لأمرِ الله ﷻ؛ **ومِنْ ذلك**: ما رواه البخاري ومسلم، عن أبي بكر الصِّدِّيقِ ﵁، أنه قال للنبيِّ ﷺ: «عَلِّمْنِي دُعَاءً أدعو به في صلاتي؟ قال: (**قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**)»(١).

* **ومن المواضع التي أمَرَ اللهُ فيها نبيَّه محمَّدًا ﷺ بالدعاء**: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣].

وهذا أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى لنبيِّه ﷺ بأنْ يُسبِّحَ بحمدِ ربِّه ويستغفرَهُ، وقد جاء هذا الأمرُ بعدَ بِشَارةِ النبيِّ ﷺ بنصرِ اللهِ تعالى وفتحِ مَكَّةَ، ودخولِ الناسِ في دين الله أفواجًا؛ ولهذا فَهِمَ طائفةٌ مِنَ الصحابة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ أُمِرَ بالتسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ شكرًا لله تعالى على هذه النِّعَمِ التي بُشِّرَ بها، وفَهِمَ بعضُ الصحابة - كعُمَرَ، وابن عَبَّاس - ﵄ أنَّ مجيءَ نصرِ اللهِ والفتحِ ودخول الناسِ في الدِّينِ أفواجًا علامةٌ على اقترابِ أجلِ رسولِ الله ﷺ، وانقضاءِ عُمُره، وأنَّ الله تعالى أمرَهُ بالتسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ لِيَخْتِمَ عَمَلَهُ بذلك، ويتهيَّأَ للقاءِ رَبِّهِ والقدومِ عليه على أكملِ أحواله وأتمِّها.

وقد كان النبيُّ ﷺ يُكْثِرُ من التسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ بعدَ نزولِ هذه

(١) تقدم تخريجه (ص٣٠٥).

السورة؛ كما في الحديث عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ من قول: (**سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**)، قالت: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قول: (**سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إِلَيْهِ**)؟ فقال: (**خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتُهَا، أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ - فتحُ مَكَّةَ - ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر]**)»؛ رواه مسلم[(١)].

وفي روايةٍ أخرى عنها رضي الله عنها، قالت: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أنْ يقولَ في ركوعِهِ وسجودِهِ: (**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِر لِي**)؛ يَتَأَوَّلُ القرآن»؛ رواه البخاري ومسلم[(٢)].

ومعنى قولها: «يَتَأَوَّلُ القرآنَ»؛ **أي**: يَفْعَلُ ما أَمَرَهُ اللهُ به في القرآنِ؛ **تعني**: قولَهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾.

وبعدُ، فهذه الآياتُ القرآنيَّةُ المتقدِّمُ ذِكْرُها كانتْ عَرْضًا لجملةٍ طَيِّبَةٍ من الأدعيةِ المباركةِ التي أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يَدْعُوَ بها ربَّه، ويبتهلَ إليه ثناءً عليه، وسؤالًا لمصالحِ الدِّينِ والدنيا والآخرة.

وقد امتثَلَ النبيُّ ﷺ أوامرَ ربِّه تعالى، وعَمِلَ بتوجيهاتِهِ سبحانه على الوجه الذي يحبُّهُ اللهُ ويرضاه؛ فكان عليه الصلاةُ والسلامُ أكثَرَ الناسِ دعاءً، وأحسَنَهُمْ ثناءً، وأرغَبَهُمْ إلى الله عز وجل، وأرهَبَهُمْ منه في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء، بل فاقَ عليه الصلاةُ والسلامُ جميعَ الأنبياءِ والمرسلين في دعاءِ الربِّ سبحانه، وحُسْنِ الثناءِ عليه بالكلماتِ الجامعة، العاجلةِ والآجلة.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٤٨٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٤٤).

فهو ﷺ لم يَتْرُكْ خَصْلَةً مِنَ الخصالِ الحميدة، ولا خَلَّةً من الخِلَالِ الرشيدة، إلَّا طَلَبَهَا مِنَ الله، ولا خَصْلَةً مِنَ الخِصَالِ السَّيِّئَةِ، ولا صفةً من الصفاتِ المذمومةِ، إلَّا استعاذَ به تبارك وتعالى منها إجمالًا وتفصيلًا بما آتاه اللهُ مِنْ جوامعِ الكلم، وكمالِ التذلُّل، وتمامِ الخضوعِ والانكسار.

فكان هديُهُ ﷺ أكملَ الهَدْيِ وأَسْناه، ونَهْجُهُ أتمَّ النَّهْجِ وأَسَدَّهُ وأوفاه؛ فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ وبَرَكَاتُهُ عليه، ورَزَقَنَا اللهُ حُسْنَ الاتباعِ لمنهجِهِ والاقتفاءِ لأثره.

❁ ❁ ❁

٢٠٤

دَعَوَاتُ الْمُؤْمِنِينَ
(١)

لقد ذكَرَ اللهُ في كتابِهِ المجيدِ دَعَواتٍ وصَفَ بها عبادَهُ المؤمنين، وأثنى عليهم بها، وحَكَى عن بعضِ الصالحين مِنْ عبادِهِ كلماتٍ دَعَوُا اللهَ تعالى بها في بعضِ المواقفِ والمناسبات، حَسَنةً في مبناها، وعظيمةً في مدلولها ومعناها.

وحريٌّ بالعبدِ المسلم أن يُعْنَىٰ بها ويَتَأَمَّلَهَا ويَتَدَبَّرَها، وأنْ يَحْرِصَ على حفظِها ودعاءِ اللهِ بها، كلٌّ منها في مَقَامِهِ ومناسبته؛ فإنه سبحانه إنما ذَكَرَها في كتابه وحكاها فيه ليتدبَّرها عبادُهُ المؤمنون، وليأخذوا بها.

وفيما يلي عَرْضٌ لطائفةٍ مباركةٍ مِنْ هذه الدعوات، مع وَقَفاتٍ يسيرة مع بعض معانيها وفوائدها:

* **فمن ذلك:** قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وهذا الدعاءُ العظيمُ قد أخبرَ اللهُ تعالى به في كتابِهِ عن قومٍ مِنْ أهلِ الإيمانِ به وبرسولِهِ، مِمَّنْ حَجَّ بيتَهُ الحرام، أنَّهم يسألون ربَّهم ﷻ بهذا الدعاء، على وجهِ المَدْحِ لهم والثناءِ عليهم؛ لأنهم جَمَعُوا في دعائهم بين مصلحةِ الدارَيْنِ الدنيا والآخرة.

فقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾: نداءٌ فيه إقرارٌ بالربوبيَّةِ المستلزمةِ لتوحيدِهِ في الألوهية، واعتقادِ كمالِهِ وجلالِهِ في الذاتِ والصفاتِ والأفعال.

وقولهم: ﴿ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: دعاء بخيرِ الدنيا كلِّه؛ فإنَّ الحسنةَ المطلوبةَ في الدنيا تشملُ كُلَّ مطلوبٍ دنيويٍّ مما يَحْسُنُ وقعُهُ عند العبد،

مِنْ عافيةٍ، ورزقٍ هنيءٍ واسعٍ حلالٍ، ودارٍ رَحْبةٍ، وزوجةٍ صالحة، ووَلَدٍ تَقَرُّ به العَيْن، وعلمٍ نافع، وعملٍ صالح، وأمنٍ وراحة، وثناءٍ جميل، ونحوِ ذلك من المطالبِ المحبوبةِ المباحة؛ وهذا جامعٌ لِمَا أورَدَهُ المفسِّرون مِنَ العباراتِ في هذا المقام.

وقولهم: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾؛ أي: وآتنا في الآخرةِ حَسَنَةً.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وأمَّا الحَسَنةُ في الآخرة، فأعلى ذلك دخولُ الجَنَّةِ، وتوابعُهُ مِنَ الأمنِ مِنَ الفزعِ الأكبرِ في العَرَصات، وتيسيرِ الحساب، وغيرِ ذلك مِنْ أمورِ الآخرة الصالحة»[1].

وقولهم: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ يعني: اصْرِفْ عنا عذابَ النار، وهذا دعاءٌ بالنجاةِ مِنَ النارِ وعدمِ الدخولِ فيها، فهو يقتضي تيسيرَ أسبابِهِ في الدنيا من اجتنابِ المَحَارِمِ والآثام، وتَرْكِ الشُّبُهَاتِ والحَرَام.

ويُعَدُّ هذا الدعاءُ المباركُ مِنْ جوامعِ الأدعيةِ وأَشْمَلِها لخيري الدنيا والآخرة؛ ولهذا وردَتِ السُّنَّةُ النبويَّةُ ببيانِ مكانتِهِ، والترغيبِ فيه، والحثِّ عليه، كما في الحديث عن أنس رضي الله عنه، قال: «كان أكثرَ دعاءِ النبيِّ ﷺ: **(رَبَّنَا، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وقِنَا عَذَابَ النَّار)**». متفق عليه[2]، وزاد مسلمٌ في روايته: «وكان أنسٌ إذا أَرَادَ أن يَدْعُوَ بدعوةٍ دعا بها، فإذا أراد أن يدعو بدعاءٍ دعا بها فيه».

وروى أبو داود، عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه، قال: «سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول ـ ما بين الركنَيْنِ ـ: **(رَبَّنا، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وقِنَا عَذَابَ النَّارِ)**»[3].

وروى مسلم، في «صحيحه»، عن أنس رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عادَ

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٦).
(٢) تقدم تخريجه (ص٨٣٥).
(٣) «سنن أبي داود» رقم (١٨٩٢)، وحسَّنه الألباني في «صحيح أبي داود» (١/ ٥٢٨).

رجلًا مِنَ المسلمينَ قد خَفَتَ، فصار مِثْلَ الفَرْخِ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: **(هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ، أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟)**، قال: نَعَمْ، كنتُ أقولُ: اللَّهُمَّ، ما كُنْتَ معاقبي به في الآخرة، فعَجِّلْهُ لي في الدنيا، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **(سُبْحَانَ اللهِ، لا تُطِيقُه ـ أو لا تَسْتَطِيعُه ـ، أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً، وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنا عَذَابَ النَّارِ)**؟! قال: فدعا اللهَ لَهُ فشفاه»[١].

وروى البخاري في «الأدب المفرد»، أنَّ قومًا أَتَوْا أنسَ بنَ مالكٍ رضي الله عنه لِيَدْعُوَ لهم، فقيل له: إنَّ إخوانَكَ أَتَوْكَ لِتَدْعُوَ اللهَ لهم، **قال**: «اللهُمَّ اغفِرْ لنا وارحَمْنَا، وآتِنَا في الدنيا حَسَنَةً، وفي الآخرةِ حَسَنةً، وقنا عذابَ النارِ»، فاستزادُوهُ، فقال مثلَها، **فقال**: «إنْ أُوتِيتُمْ هذا، فقد أُوتِيتُمْ خيرَ الدنيا والآخرة»[٢].

* **ومِنْ دَعَواتِ المؤمنينَ المذكورةِ في القرآن**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وهذه الآيةُ حكايةٌ لدعاءِ فئةٍ مِنَ المؤمنين ـ وهم طَالُوتُ وجنودُهُ ـ في مَقَامِ المُوَاجَهَةِ لأعداءِ اللهِ تعالى، وهم جالوتُ وجنوده، وكانوا مشركين باللهِ تعالى، وكان عددُهم يَفُوقُ عَدَدَ المؤمنينَ بكثير؛ ولهذا تَضَرَّعَ هؤلاءِ المؤمنون إلى اللهِ تعالى يسألونَهُ أسبابَ النصرِ على المشركين في هذا القتال؛ كما أخبرَ اللهُ تعالى عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾؛ **أي**: لَمَّا واجَهَ حزبُ الإيمان ـ وهم قليلٌ مِنْ أصحاب طالوت ـ لعدوِّهم أصحابِ جالوت، وهم عددٌ كثيرٌ، قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾؛ **أي**: أَنزِلْ واصْبُبْ علينا صبرًا مِنْ عندك، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾؛ **أي**: قَوِّ قُلُوبَنا على جهادهم؛ لِتُثَبِّتَ

(١) تقدم تخريجه ص(٣٠٦).
(٢) «الأدب المفرد» رقم (٦٣٣)، وصحَّح إسناده الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٤٩٤).

أقدامَنا فلا ننهزم، والأقدامُ إنما تَثْبُتُ عندَ قُوَّةِ القلوب، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: اكتب النصرَ لنا عليهم.

وقد أجابهم اللهُ إلى ما سألوا، وأنالهم ما إليه فيه رَغِبُوا؛ ولهذا قال: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غَلَبوهم وقَهَروهم بحولِ اللهِ لا بحولهم، وبقوةِ اللهِ ونَصْرِه، لا بِقُوَّتِهِمْ وعَدَدِهِمْ، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقد تَضمَّنَ هذا الدعاءُ كمالَ الاستعانةِ باللهِ، وتَمَامَ الالتجاءِ إليه في هذا الموقفِ العصيب.

وقد جاء في السُّنَّةِ من حديث صُهَيْبٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقولُ إذا لَقِيَ العدوَّ: (**اللَّهُمَّ، بِكَ أَحُولُ، وبِكَ أَصُولُ، وبِكَ أُقاتِلُ**)؛ رواه أحمد(١).

وهو تفويضٌ إلى اللهِ واعتمادٌ عليه، وهو سبحانه الذي بيده أَزِمَّةُ الأمورِ ومقاليدُ السمٰوات والأرض، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا به.

❁ ❁ ❁

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٤٧).

٢٠٥

دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي خَاتِمَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢)

* **إنَّ مِنْ دَعَواتِ الرسولِ ﷺ وأهلِ الإيمانِ العظيمة**: ما ذكَرَهُ تعالى في خواتيم «**سورة البقرة**»؛ قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة].

فهذا دعاءٌ عظيمٌ أخبرَ الله تعالى به عَنْ رسولِهِ محمَّد ﷺ، وعن عبادِهِ المؤمنينَ مِنْ أُمَّته، وأثنى تعالى عليهم بهذا الدعاءِ الذي سألوا فيه مصالحَ الدينِ والآخرة.

فقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾: إخبارٌ عن النبيِّ ﷺ، وهو شهادةٌ من اللهِ تعالى له عليه الصلاةُ والسلامُ بإيمانِهِ بما أُنْزِلَ إليه مِنْ ربه، وذلك يَتضمَّنُ إعطاءَهُ ثوابَ أكملِ أهلِ الإيمانِ، زيادةً على ثوابِ الرسالةِ والنبوَّة؛ لأنه ﷺ شارَكَ المؤمنين في الإيمان، ونالَ منه أعلى مراتبه، وامتازَ عنهم بالرسالةِ والنبوَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾: عطفٌ على: ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، وهو شهادةٌ للمؤمنين بأنهم آمنوا بما آمَنَ به رسولُهم ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾: شهادةٌ لهم جميعًا بالإيمانِ بالقواعدِ الخمسةِ التي لا يكونُ أحدٌ مؤمنًا إلَّا بها؛ **وهي**: الإيمانُ باللهِ، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليوم الآخر.

وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾: حكايةٌ عن أهلِ الإيمانِ أنهم يقولون هذا؛ **أي**: إنهم لا يفرِّقون بين أحدٍ مِنْ رُسُلِ الله تعالى، فيؤمنونَ ببعضٍ، ويكفرونَ ببعضٍ، بل يؤمنونَ بجميعهم، وإن كان بعضُ الرسلِ يَنْسَخُ شريعةَ بعضٍ بإذنِ الله، حتى نُسِخَ الجميعُ بشريعةِ محمَّدٍ ﷺ خاتَم الأنبياءِ والمرسلين، الذي تقومُ الساعةُ على شريعته، ولا تزالُ طائفةٌ من أمته على الحقِّ ظاهرين إلى قيامها، فباينوا بهذا الإيمانِ جميعَ طوائفِ الكُفَّارِ المكذِّبينَ لجنسِ الرسل، والمصدِّقين لبعضهم، المكذِّبين لبعض، والكفرُ بنبيٍّ واحدٍ كفرٌ بجميعِ النبيين.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ **أي**: سمعنا قولَكَ ـ يا ربَّنا ـ وفهمناه وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه.

وهذا إقرارٌ منهم بِرُكْنَي الإيمانِ اللَّذَيْنِ لا يقومُ إلَّا بهما، **وهما**: **السمعُ**: المتضمِّنُ للقَبُولِ والتسليم، **والطاعةُ**: المتضمِّنةُ لكمالِ الانقيادِ وامتثالِ الأمر.

ثم قالوا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ لأنَّهم عَلِمُوا أنهم لن يُوَفُّوا مقامَ الإيمانِ حقَّه مع القَبُولِ والطاعةِ الذي يقتضيه منهم، وأنهم لا بدَّ أن تَمِيلَ بهم غَلَبَاتُ الطباعِ، ودواعي البشريةِ إلى بعضِ التقصيرِ في واجباتِ الإيمان، وأنه لا يَلُمُّ شَعَثَ ذلك إلَّا مغفرةُ اللهِ تعالى لهم، فسألوه غفرانَهُ الذي هو غايةُ سعادتهم، ونهايةُ كمالهم؛ فقالوا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾، ثم اعتَرَفُوا أنَّ مصيرهم ومردَّهم إلى مولاهُمُ الحقِّ الذي لا بُدَّ لهم مِنَ الرجوعِ إليه؛ فقالوا: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فَتَضمَّنتْ هذه الكلماتُ إيمانَهم به، ودُخُولَهُمْ تحتَ طاعتِهِ وعبوديَّته، واعترافَهُمْ بربوبيَّته، واضطرارَهُمْ إلى مغفرته، واعترافَهُمْ بالتقصيرِ في حقِّه، وإقرارَهُمْ برجوعِهِمْ إلى يومِ الحساب.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ **أي**: لا يكلِّفُ اللهُ أحدًا فوقَ طاقته، بل جميعُ ما كَلَّفَ عبادَهُ به أمرًا ونهيًا، فهم مطيقون له،

قادرون عليه؛ وهذا مِنْ لُطْفِهِ تعالى بخلقه، ورَأْفَتِهِ بهم، وإحسانِهِ إليهم.

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾؛ **أي**: للنفسِ ما كسَبَتْ مِنْ خير، وعليها ما اكتَسَبَتْ مِنْ شر؛ وذلك في الأعمال التي تحت التكليف.

وفي هذا بيانُ أن ثمرةَ التكليفِ وغايتَهُ عائدةٌ على العباد، وأنه سبحانه يتعالى عن انتفاعِهِ بِكَسْبهم، وتَضرُّرِهِ باكتسابهم؛ كما في الحديث القدسي: **(يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي)**[(١)]، بل لهم كَسْبُهم ونَفْعُهُ، وعليهم اكتسابُهُمْ وضَرَرُه؛ كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، فلم يَأْمُرْهم تعالى بما أمرهم به حاجةً منه إليهم، بل رَحْمةً وإحسانًا وتَكَرُّمًا، ولم يَنْهَهُم عما نهاهم عنه إلَّا حَمْيَةً لهم، وحفظًا وصيانةً وعافيةً.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: إرشادٌ مِنَ اللهِ تعالى للمؤمنينَ إلى هذا الدعاء؛ وذلك أن ما كُلِّفَ به عبادُهُ عهودٌ ووصايا تجبُ مراعاتها، والمحافظةُ عليها، وعَدَمُ الإخلالِ بشيءٍ منها، لكنَّ غَلَبَاتِ الطباعِ البشريَّةِ تأبى إلَّا النسيانَ والخطأَ، والضعفَ والتقصيرَ، فكان في هذا الدعاءِ سؤالُ المؤمنين ربَّهم مسامحتَهُ إيَّاهم في ذلك كله، ورَفْعَ مُوجَبِهِ عنهم.

وفي الحديث عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قال: **(إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ والنِّسْيَانَ ومَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ)**؛ رواه ابن ماجه[(٢)].

وهذا مِنْ عظيمِ مَنِّ اللهِ عز وجل وواسعِ فضلِهِ أنْ تجاوَزَ عن عبادِهِ ما وقَعَ منهم مِنْ قَبيلِ الخطأِ والنسيان، أو على سبيلِ الإكراه؛ فله الحمدُ على فضلِهِ وإحسانه، وله الشكرُ سبحانه على مَنِّهِ وإكرامه.

❁ ❁ ❁

(١) تقدم تخريجه (ص١٠٨).

(٢) «سنن ابن ماجه» رقم (٢٠٤٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (١٦٧٧).

٢٠٦

دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي خَاتِمَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٣)

نُكْمِلُ هنا ما بَقِيَ مِنْ كلامٍ على معاني الدعواتِ المباركةِ الواردةِ في خاتمة «**سورة البقرة**»، كما نتناولُ ذكرَ بعضِ الفضائلِ للآيتَيْنِ اللتَيْنِ خُتِمَتْ بهما السورة.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ **أي**: لا تُكلِّفْنا مِنَ الأعمالِ الشاقَّةِ وإنْ أطقناها، كما شَرَعْتَهُ للأممِ السابقةِ قبلنا مِنَ الأغلالِ والآصارِ التي كانتْ عليهم.

وهذا سؤالٌ للتخفيفِ في أمرِهِ تعالى ونهيه، وقد بُعث بذلك نبيُّنا محمدٌ ﷺ، كما وصَفَهُ ربُّه سبحانه في كتابه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال ﷺ: (**إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفيَّةٍ سَمْحَةٍ**)؛ رواه أحمد، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها[١].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾: سؤالٌ في القضاءِ والقدر، والمصائبِ والبلاءِ؛ **أي**: لا تَبْتَلِنَا بما لا قِبَلَ لنا به؛ وذلك أنهم لَمَّا

(١) «مسند أحمد» (٦/ ١١٦)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٦/ ١٠٢٤).

علموا أنهم غيرُ منفكِّين عمَّا يأمرهم به وينهاهم عنه، سألوه التخفيفَ في قضائِهِ وقَدَرِهِ، كما سألوه التخفيفَ في أمرِهِ ونهيه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾؛ **أي**: اعْفُ عنا فيما بيننا وبينك مما تَعْلَمُهُ مِنْ تقصيرنا وزَلَلِنا، واغفرْ لنا فيما بيننا وبين عبادك، فلا تُظْهِرْهُمْ على مساوينا وأعمالنا القبيحة، وارْحَمْنَا فيما يُستَقْبَلُ؛ بأنْ لَا نقعَ في ذنوبٍ أُخَرَ؛ **ولهذا يقال**: إنَّ المذنبَ محتاجٌ إلى ثلاثةِ أشياء: أن يعفُوَ اللهُ عنه فيما بينه وبينه، وأن يَسْتُرَهُ عن عبادِهِ فلا يَفْضَحَهُ به بينهم، وأن يُسَلِّمَهُ فيما بَقِيَ، فلا يَقَعَ في نظيره.

وهذه الثلاثةُ التي تَضمَّنَهَا هذا الدعاءُ؛ **وهي**: العَفْوُ، والمغفرةُ، والرحمةُ، هي مدارُ سعادةِ العبدِ وفلاحُهُ، فالعفوُ: مُتضمِّنٌ لإسقاطِ حَقِّ اللهِ تعالى ومسامحتِهِمْ به، والمغفرةُ: متضمِّنةٌ لوقايتهم شَرَّ ذنوبهم وإقبالِهِ عليهم ورضاه عنهم، والرحمةُ: متضمِّنةٌ للأمرين، مع زيادةِ الإحسانِ والعطفِ والبِرّ، فالثلاثة تَتضمَّنُ النجاةَ مِنَ الشرِّ، والفوزَ بالخير.

وقوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾؛ **أي**: أنتَ وليُّنا وناصرُنا، وعليك تَوَكُّلُنَا، وأنت المستعان، ولا حولَ ولا قوةَ لنا إلَّا بك.

وهذا توسُّلٌ باعترافهم أنه سبحانه مولاهُمُ الحقُّ الذي لا مَوْلَىٰ لهم سواه؛ فهو ناصرهم، وهاديهم وكافيهم ومُعِينُهم، ومجيبُ دَعَوَاتِهِمْ ومعبودُهم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: دعاءٌ بالنصرِ على الأعداء؛ ويَتضمَّنُ ذلك قَهْرَهم لعدوِّهم، وشِفَاءَ صُدُورِهم منهم، وإذهابَ غيظِ قلوبهم، كما يَتضمَّنُ التمكُّنَ من إعلانِ عبادة ربِّهم، وإظهارِ دينِهِ، وإعلاءِ كلمته.

ثم إنَّ هذه الكلماتِ الواردةَ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ من آخر «**سورة البقرة**» هي مِنَ الأدعيةِ العظيمةِ التي خَصَّ اللهُ تعالى بها رسولَهُ محمَّدًا ﷺ وأُمَّتَهُ، كما في الحديث **عن عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه، **قال**: «لَمَّا أُسْرِيَ برسولِ اللهِ ﷺ، انتُهِيَ

به إلى سِدْرَةِ المنتهى، وهي في السماءِ السادسةِ، إليها ينتهي ما يُعْرَجُ به مِنَ الأرضِ، فيُقْبَضُ منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به مِنْ فوقها، فيُقْبَضُ منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾، قال: فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، قال: فأُعْطِيَ رسولُ اللهِ ﷺ ثلاثًا: أُعْطِيَ الصلواتِ الخمسَ، وأُعطِيَ خواتيمَ سُورَةِ البقرةِ، وغُفِرَ لِمَنْ لا يُشْرِكُ باللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا المُقْحِمَاتُ»؛ رواه مسلم(١).

وعن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي)**؛ رواه أحمد(٢).

وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، قال: «بينما جبريلُ قاعدٌ عندَ النبيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فوقه، فرفَعَ رأسَهُ، فقال: **(هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَسَلَّمَ، وقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ)**»؛ رواه مسلم(٣).

وعن ابن عَبَّاس أيضًا رضي الله عنهما، قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخَلَ قلوبَهُمْ منها شيءٌ لم يَدْخُلْ قلوبَهُمْ مِنْ شيء، فقال النبيُّ ﷺ: **(قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا)**، قال: فأَلْقَى اللهُ الإيمانَ في قلوبهم، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قال: قد فَعَلْتُ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ قال: قد فَعَلْتُ»؛ رواه مسلم(٤)، ورَوَى نحوه مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه(٥).

(١) «صحيح مسلم» رقم (١٧٣).
(٢) تقدم تخريجه (ص٥٣١).
(٣) تقدم تخريجه (ص٥٣٢).
(٤) «صحيح مسلم» رقم (١٢٦).
(٥) «صحيح مسلم» رقم (١٢٥).

وعن أبي مسعودٍ البَدْريِّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **(الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ، كَفَتَاهُ)**؛ رواه البخاري ومسلم[١].

فهذا بعضُ ما ورَدَ في فضلِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ، وهو دالٌّ على عِظَمِ شأنهما، وجلالةِ قَدْرِهما، وعظيمِ مَنِّ اللهِ بهما على هذه الأُمَّةِ أُمَّةِ الإسلام، أُمَّةِ محمَّد ﷺ.

❁ ❁ ❁

(١) تقدم تخريجه (ص٥٢٩).

٢٠٧

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٤)

* **ومِنْ دَعَواتِ المؤمنينَ المذكورةِ في القرآن**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد أخبَرَ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ عَنِ الراسخينَ في العلم أنَّهم يَدْعُونَ ربَّهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «**يعني بذلك ـ جلَّ ثناؤه ـ**: أنَّ الراسخين في العلمِ يقولون: آمنَّا بما تشابَهَ مِنْ آي كتابِ الله، وأنه هو والمُحْكَمَ مِنْ آيِهِ مِنْ تنزيلِ ربِّنا ووَحْيِه، ويقولونَ أيضًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾؛ **يعني**: أنهم يقولون ـ رغبةً منهم إلى ربِّهم في أن يَصْرِفَ عنهم ما ابْتَلَى به الذين زاغَتْ قلوبُهم مِنِ اتِّبَاعِ مُتَشَابِهِ آيِ القرآنِ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِه، الذي لا يَعْلَمُهُ غيرُ الله ـ: يا ربَّنا، لا تَجْعَلْنَا مثلَ هؤلاءِ الذين زاغَتْ قلوبُهُمْ عن الحق، فصَدُّوا عن سبيلك، ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾: لا تُمِلْها فتَصْرِفَها عن هُداك، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ له، فوَفِّقْنَا للإيمانِ بِمُحْكَم كتابِكَ ومتشابهِهِ، ﴿وَهَبْ لَنَا﴾ يا ربَّنا ﴿مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾؛ **يعني**: مِنْ عِنْدِكَ رحمة؛ **يعني بذلك**: هَبْ لنا مِنْ عندك توفيقًا وثباتًا للذي نحنُ عليه مِنَ الإقرارِ بِمُحْكَمِ كتابِكَ ومُتَشَابِهِهِ، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾؛ **يعني**: إنك أنتَ المُعْطِي عبادَكَ التوفيقَ والسدادَ للثباتِ على دينِكَ، وتصديقِ

كتابك ورُسُلِك»[١]؛ وهي دعوةٌ عظيمةٌ مباركة.

وفي الحديثِ عن أم سَلَمَةَ أم المؤمنين ﵂: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يُكْثِرُ في دعائِهِ أن يقولَ: **(اللَّهُمَّ، مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)**، قالت: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَوَ إِنَّ القلوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قال: **(نَعَمْ، مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ؛ فَإِنْ شَاءَ اللهُ ﷿ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ)**»؛ رواه أحمد[٢].

فنسأل الله ربَّنا أنْ لَا يُزيغَ قُلُوبَنَا بعدَ إذْ هدانا، ونسألُهُ أنْ يَهَبَ لنا من لدنه رحمةً؛ إنه هو الوهابُ.

وعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص ﵄، أنه سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: **(إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ)**، ثم قال رسولُ اللهِ ﷺ: **(اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ)**؛ رواه مسلم[٣].

وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾: حكايةٌ لِمَا يقولُهُ الراسخون في العلمِ، مَعَ دعائهمُ السابقِ.

قال الإمام الطبري ﵀: «وهذا مِنَ الكلامِ الذي استغنى بذكرِ ما ذُكِرَ منه عما تُرِكَ ذِكْرُهُ؛ **وذلك أنَّ معنى الكلام**: ربَّنا إنك جامعُ الناسِ ليومِ القيامة، فاغفرْ لنا يومئذٍ، واعْفُ عنَّا؛ فإنَّكَ لا تُخْلِفُ وَعْدَكَ أنَّ مَنْ آمَنَ بكَ، واتَّبَعَ رسولك، وعَمِلَ بالذي أَمَرْتَهُ به في كتابك: أنك غافِرُهُ يومئذٍ.

وإنما هذا مِنَ القومِ مسألةُ ربِّهم أن يُثَبِّتَهُمْ على ما هم عليه مِنْ حُسْنِ نُصْرَتِهِمْ[٤] بالإيمانِ باللهِ ورسوله، وما جاءهم به مِنْ تنزيله، حتى يَقْبِضَهم على أحسنِ أعمالهم وإيمانهم؛ فإنَّه إذا فعَلَ ذلك بهم، وجَبَ لهم

(١) «تفسير الطبري» (٥/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨).
(٢) تقدم تخريجه (ص٧٩٤).
(٣) «صحيح مسلم» رقم (٢٦٥٤).
(٤) كذا في الأصل، ولعلها: حسن بصيرتهم.

الجَنَّـةُ؛ لأنه قد وعَدَ مَنْ فعَلَ ذلك به مِنْ عبادِهِ أنه يُدْخِلُهُ الجَنَّةَ؛ فالآيةُ وإنْ خرَجَتْ مخرجَ الخبرِ، فإنَّ تأويلَها مِنَ القومِ مسألةٌ ودعاءٌ ورغبةٌ إلى ربِّهم»(١).

وهذا المقامُ الذي عليه هؤلاءِ الراسخونَ في العلم مقامٌ رفيعٌ؛ يَدُلُّ على كمالِ دينهم، وحُسْنِ تعبُّدهم، وقُوّةِ صلتهم بربِّهم وخالقهم، وتمام التجائِهِمْ إليه، وتَذَلُّلِهم بين يديه، يرجون رَحْمَتَه، ويخافونَ عَذَابَه، ويسألونَهُ الثباتَ على دينِهِ القويم، وصراطِهِ المستقيم.

وقد انتَظَمَ هذا السياقُ الكريمُ ذِكْرَ جملةٍ مِنَ الخصالِ الطيبة، والصفاتِ الجميلة لهؤلاءِ؛ ثناءً مِنَ الله عليهم، وبيانًا لعظيم قَدْرِهم، ورفيعِ مقامهم.

قال العلامة عبد الرحمٰن بن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أثنى اللهُ تعالى على الراسخين في العلم **بسبعِ صفاتٍ هي عنوانُ سعادة العبد:**

إحداهــا: العلمُ الذي هو الطريقُ الموصِلُ إلى الله، المبيِّنُ لأحكامِهِ وشرائعه.

الثانيــة: الرسوخُ في العلم، وهذا قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّدِ العلم؛ فإنَّ الراسخَ في العلمِ يقتضي أنْ يكونَ عالمًا محقِّقًا، وعارفًا مدقِّقًا، قد عَلَّمَهُ اللهُ ظاهرَ العلمِ وباطنَه، فرسَخَ قَدَمُهُ في أسرارِ الشريعة، عِلْمًا وحالًا وعملًا.

الثالثــة: أنه وَصَفَهُمْ بالإيمانِ بجميعِ كتابه، ورَدٍّ لمتشابِهِهِ إلى مُحْكَمِه، بقوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

الرابعــة: أنهم سألوا اللهَ العفوَ والعافيةَ مِمَّا ابْتُلِيَ به الزائغون المُنْحَرِفون.

الخامسة: اعترافُهُمْ بمِنَّةِ اللهِ عليهم بالهداية؛ وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

(١) «تفسير الطبري» (٥/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

السادسة: أنهم ـ مع هذا ـ سَأَلُوهُ رحمتَهُ المتضمِّنةَ حصولَ كلِّ خير، واندفاعَ كلِّ شَرّ، وتوسَّلوا إليه باسمِهِ الوَهَّاب.

السابعة: أنه أخبَرَ عن إيمانِهِمْ وإيقانِهِمْ بيومِ القيامة، وخَوْفِهِمْ منه، وهذا هو الواجبُ للعَمَل، الرادعُ عن الزَّلَل»[١].

فقومٌ هذه حِلْيَتُهُمْ ونُعُوتُهم يَجْدُرُ بكلِّ مُوفَّقٍ أن يَحْرِصَ على التحلِّي بها، وأنْ يَدْعُوَ بهذه الدعواتِ المباركة، والسؤالاتِ العظيمة.

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص١٢٧).

٢٠٨

مِنْ دعَواتِ الْمُؤْمِنِينَ (٥)

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ العظيمةِ:** ما ذَكَرَهُ سبحانه في صفاتِ المتَّقين في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

قال الحافظ ابن كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ في معنى الآية: «يصفُ تعالى عباده المتقين، الذين وَعَدَهُمُ الثوابَ الجزيل؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾؛ **أي:** بك وبكتابِكَ وبرسولِكَ، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ **أي:** بإيمانِنَا بك وبما شَرَعْتَهُ لنا، فاغفِرْ لنا ذُنُوبَنا وتقصيرَنَا مِنْ أمرنا بفضلِكَ ورحمتِكَ، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾»(١).

وفي الآية دليلٌ على مشروعيَّةِ التوسُّلِ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بالإيمانِ والعملِ الصالح، وأنَّ ذلكَ وسيلةٌ عظيمةٌ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِقَبُولِ الدعاءِ.

وقد نقل القاسميُّ رَحِمَهُ اللهُ في «تفسيره»، عن الحاكم، أنه قال: «في الآيةِ دَلَالةٌ على أنه يجوزُ للداعي أن يَذْكُرَ طاعتَهُ وما تَقَرَّبَ به إلى الله، ثم يدعو».

قال القاسميُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ويؤيِّدُهُ ما في «الصحيحين»(٢)، مِنْ حديثِ أصحابِ الغارِ، وتَوَسُّلِ كلٍّ منهم بصالحِ عمله، ثم تفريجِ الباري تعالى عنهم»(٣).

* **ومن دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ المذكورةِ في القرآن:** دعوةُ الحواريِّينَ أنصارِ الله وأنصارِ دِينِهِ؛ قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ [آل عمران].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٧).
(٢) تقدم تخريجه ص(٣٢٢).
(٣) «تفسير القاسمي» (٤/ ٨٠٧ ـ ٨٠٨).

وهذا خبَرٌ من اللهِ تعالى عن الحواريِّين، يَتضمَّنُ ذِكْرَ دعائِهم لربِّهم ﷻ بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

والحواريُّون: هم حواريُّو المسيحِ عيسى ابنِ مَرْيَمَ عليه السلام، وهم أنصارُهُ وصَفْوَتُهُ الذين أَخْلَصُوا في تصديقهم ونُصْرَتهم له.

وذِكْرُ اللهِ لدعوتهم في مَعْرِضِ الثناءِ عليهم، فيه تنويهٌ بها، وبيانٌ لعِظَمِ شأنها.

وقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾؛ **أي**: يا ربَّنا صَدَّقْنَا بكتابك الذي أنزلْتَهُ ـ وهو الإنجيلُ ـ وأقرَرْنَا به، وأنه حقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ العالمين، مشتملٌ على بيانِ الحقِّ، وهدايةِ الخَلْق، واتبعنا رسولَكَ الذي بَعَثْتَهُ ـ وهو عيسى عليه السلام ـ وصِرْنَا أتباعَهُ على دِينِكَ الذي بَعَثْتَهُ به، وأعوانَهُ على الحقِّ الذي أرسلتَهُ به إلى عبادك. ذَكَرُوا ذلك بين يَدَيْ دعائهم وطَلَبهم، متوسِّلين به إلى ربِّهم في إجابة ما يطلبون، وتحقيق ما يَأْمُلون.

وقولهم: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ هذا هو المطلوبُ المَرْجُوُّ؛ **أي**: «فأَثْبِتْ أسماءنا مع أسماءِ الذين شَهِدُوا بالحق، وأَقَرُّوا لك بالتوحيد، وصَدَّقوا رُسُلَك، واتَّبَعُوا أَمْرَكَ ونَهْيَك، فاجْعَلْنَا في عِدَادِهِمْ ومعهم، فيما تُكْرِمُهُمْ من كرامتك، وأَحِلَّنا محلَّهم، ولا تَجْعَلْنا ممَّن كَفَرَ بك، وصَدَّ عن سبيلك، وخالَفَ أَمْرَكَ ونَهْيَك»(١)؛ واللهُ ﷻ ذَكَرَ ذلك عنهم ليتأسَّى بهم المؤمنون، ويقتديَ بهم الصالحون.

قال الإمام الطبري رحمه الله: «يُعَرِّفُ خَلْقَهُ ـ جلَّ ثناؤه ـ بذلك سبيلَ الذين رَضِيَ أقوالَهم وأفعالهم؛ لِيَحْتَذُوا طريقَهم، ويَتَّبِعُوا مِنْهَاجَهم، فيَصِلُوا إلى مثلِ الذي وَصَلُوا إليه مِنْ دَرَجاتِ كرامته»(٢).

---

(١)(٢) «تفسير الطبري» (٥/ ٤٤٥).

* **ومِنْ دَعواتِ أهلِ الإيمان**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران].

وفي هذه الآياتِ إشادةٌ بالمؤمنين الصادقين الصابرين مِنْ أتباعِ الأنبياءِ السابقين، وما كانوا عليه مِنَ القُوَّةِ والشجاعةِ والتحمُّلِ لِمَا يصيبُهُمْ مِنْ أنواعِ المِحَنِ والابتلاءاتِ في سبيلِ الله، مِنْ غيرِ وَهَنٍ في قلوبهم، ولا ضَعْفٍ في أبدانهم، ولا استكانةٍ لأعدائهم، بل صَبَرُوا وثَبَتُوا.

وما كان لهؤلاءِ المؤمنينَ فيما واجَهُوهُ مِنَ المواقفِ الصَّعْبةِ إلَّا اللجوءُ إلى ربِّهم، والتضرُّعُ إليه بالدعاءِ بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

فقولهم: ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾، **معناه ـ كما يقول الإمام الطبري** رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «اغفرْ لنا ذنوبَنا الصغارَ منها، وما أَسْرَفْنا فيه منها، فتَخَطَّيْنَا إلى العِظَام، **وكأنَّ معنى الكلام**: اغفرْ لنا ذنوبَنَا: الصغائرَ منها والكبائرَ»(١).

وقولهم: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، سبَقَ مثلُهُ في الكلامِ على دعوةِ طَالُوتَ وجُنُودِهِ في مواجهتهم لجالوتَ وجنوده، مِنْ «**سورة البقرة**»، وفي الكلامِ على الآيةِ الأخيرةِ مِنَ السورةِ نفسها.

والحاصلُ: أنَّ هؤلاءِ المؤمنين جَمَعُوا ـ في هذا الموقفِ ـ بين الصبرِ وتركِ الوَهنِ والضعفِ والاستكانةِ، والتوبةِ والاستغفارِ، والاستنصارِ بربِّهم،

---

(١) «تفسير الطبري» (٦/ ١٢٠).

الذي منه النصرُ يُسْتَمْنَحُ؛ فاستجابَ اللهُ لدعائهم، وجعَلَ لهم العاقبةَ الحميدةَ في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ مِنَ النصرِ والظَّفَرِ والتمكينِ في البلاد، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، وهو النعيمُ المقيمُ في جَنَّةِ الخلد.

وكلٌّ ذلك جزاءً لهم على إحسانهم في عبادة رَبِّهِمْ، وإحسانِهِمْ في معاملةِ خلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

❋ ❋ ❋

٢٠٩

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ
(٦)

* **ومِنْ دَعواتِ أهلِ الإيمانِ العظيمةِ**: ما ذكَرَهُ اللهُ ﷻ عن أُولي الألبابِ مِنْ عبادِهِ؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران].

فهذه الآياتُ وَصْفٌ مِنَ اللهِ تعالى لِأُولِي الألبابِ مِنْ عباده، وهم ذوو العقولِ التَّامَّةِ الذكيَّةِ التي تُدْرِكُ الأشياءَ بحقائقها على جليَّاتها، وليسوا كالصُّمِّ البُكْمِ الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف]؛ ولهذا خَصَّ سبحانه أُولي الألبابِ بالتفكُّرِ في الآياتِ الباهراتِ في خلقِ السمٰوات والأرض؛ **أي**: هذه في ارتفاعِهَا واتِّسَاعِها، وهذه في انخفاضِهَا وكثافتِهَا واتِّضَاعِها، وما فيهما مِنَ العجائبِ المشاهَدَة، والدلائلِ الواضحةِ على عَظَمَةِ الخالقِ ﷻ، وجلالِهِ وكمالِهِ، وكذلك ما في اختلافِ الليلِ والنهار؛ **أي**: تَعاقُبِهِمَا وتَقَارُضِهِمَا الطولَ والقِصَرَ مِنْ آيةٍ عظيمةٍ على كمالِ المُبْدِعِ وعظيمِ اقتداره؛ لأنهم هم المنتفعون بهذه الآيات، الناظرون إليها بعقولهم، لا بأبصارهم فحَسْبُ؛ ولهذا فَهُمْ: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا

وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: لا يقطعون ذِكْرَهُ في جميعِ أحوالهم، بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يفهمون ما فيهما مِنَ الحِكَمِ الدالَّةِ على عظمةِ الخالقِ وقُدْرَتِهِ، وعِلْمِهِ وحكمتِهِ، واختيارِهِ ورحمتِهِ، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾؛ أي: ما أَوْجَدتَ هذا الخَلْقَ عبثًا عاريًا عن الحكمة، خاليًا مِنَ المصلحة، بل خَلَقْتَهُ مُنْتَظِمًا لِحِكَمٍ جليلةٍ، ومصالحَ عظيمةٍ، للقيامِ بعبوديَّتِكَ، والخضوعِ لحُكْمِك، ولِتَجْزِيَ الذين أساؤُوا بما عملوا، وتَجْزِيَ الذين أحسنوا بالحسنى.

ثم نزَّهوا اللهَ تعالى، فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهًا لك، وتعظيمًا لك من أنْ تَفْعَلَ شيئًا عَبَثًا، أو تَخْلُقَ شيئًا باطلًا، بل كلُّ ما فَعَلْتَهُ أو خلقتَهُ، فبالحقِّ، وللحقِّ، ومُشْتمِلٌ على الحق.

ثم فَزِعُوا إلى ربِّهم بالدعاءِ قائلين: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: يا مَنْ خلقَ الخَلْقَ بالحَقِّ والعدلِ والحكمة، يا مَنْ هو منزَّهٌ عن العَبَثِ والعَيْبِ والنقائص، أَجِرْنا مِنْ عذابِ النارِ بحولِكَ وقُوَّتِكَ ورَحْمتك.

ثم أَتْبَعُوا ذلك بما يَدُلُّ على شِدَّةِ ذلك العذاب، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾؛ أي: أَهَنْتَهُ، وأَظْهَرْتَ فضيحتَهُ وخِزْيَهُ، وقولهم: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾: تذييلٌ لإظهارِ نهايةِ فَظَاعَةِ حالِ مَنْ دخَلَ النار، وأنه إنما دخَلَهَا لِظُلْمه، وأنه ليس له مِنْ ناصرٍ يَنْصُرُهُ، ويدفَعُ عنه عذابَ النار.

وقولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾، هذا حكايةٌ من الله تعالى لدعاءٍ آخرَ لهم صُدِّرَ أيضًا بنداءِ الرَّبِّ لإظهارِ كمالِ الضَّراعةِ والرغبةِ إليه سبحانه، وقولهم: ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: إننا سمعنا داعيًا يدعو إلى الإيمان. **وأكثرُ المفسِّرين على أن المرادَ بالمنادي هنا**: الرسولُ ﷺ، **وقال بعضهم: المنادي هنا هو**: كتابُ اللهِ تعالى، **والقولان صحيحان**؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ دعا الناسَ بكتابِ الله تعالى.

وقولهم: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾: تفسيرٌ للإيمانِ الذي يدعو إليه، وهو الإيمانُ بالله تعالى وبربوبيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ وأسمائِهِ وصفاته.

وقولهم: ﴿فَـَٔامَنَّا﴾؛ أي: فامتثلنا أَمْرَهُ، وأَجَبْنا نداءَهُ، وسَارَعْنا إلى اتِّباعه.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: تَوَسُّلٌ منهم إلى اللهِ تبارَكَ وتعالى بإيمانهم به، أن يَغْفِرَ لهم ذُنُوبَهُمْ، ويُكَفِّرَ عنهم سَيِّئَاتِهِم، وأن يَقْبِضَهم إليه ـ إذا قَبَضَهُمْ ـ في عِدَادِ الأبرار، الذين بَرُّوا اللهَ تعالى بطاعتهم إياه، وامتثالِهم أَمْرَهُ، حتى أَرْضَوْهُ فرَضِيَ عنهم.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، هذا دعاءٌ آخَرُ، وفيه تكرارٌ للنداء بـ «رَبَّنَا»؛ للتضرُّعِ والإلحاحِ، سائلينَ اللهَ أن يُنْجِزَ لهم ما وَعَدَهُمْ على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ؛ مِنَ النصرِ والظهورِ في الدنيا، ومِنَ الفوزِ بِرِضْوانِ اللهِ وجَنَّتِه في الآخرة، والنجاةِ مِنْ خزيِ يومِ القيامة، متوسِّلين إليه سبحانه بأنه لا يُخْلِفُ الميعادَ.

ثم أعقَبَ سبحانه ما حكاه مِنْ دَعَواتِ المؤمنين ذوي الألبابِ، ببيانِ استجابتِهِ لهم فيما دَعَوْهُ وسألوه؛ فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وعن الحَسَن رَحِمَهُ اللَّهُ، **قال**: «ما زالوا يقولون: رَبَّنا، رَبَّنا، حتى استجابَ لهم».

ولهذه الآياتِ التي وصَفَ اللهُ تعالى فيها دعاءَ أُولي الألبابِ، وتَضَرُّعَهم إلى ربِّهم: شأنٌ عظيمٌ، ينبغي لكلِّ مؤمنٍ تِلَاوَتُها وتَدَبُّرُها ودعاءُ اللهِ تعالى بها.

وقد ثبَتَ في الحديث أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقرأُ هذه الآياتِ إذا قامَ من الليلِ وهو ينظُرُ إلى السماء؛ كما في «الصحيحين»، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «بِتُّ عِنْدَ خالتي مَيْمُونَةَ، فتَحَدَّثَ رسولُ اللهِ ﷺ مَعَ أهلِهِ ساعةً، ثم رقَدَ،

فلمَّا كان ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ، قعَدَ، فنَظَرَ إلى السَّمَاءِ، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ثم قام، فتَوَضَّأَ واسْتَنَّ، فصَلَّى إحدى عَشْرةَ رَكْعَةً»، وفي روايةٍ: «ثم قرَأَ الآياتِ العَشْرَ الأواخِرَ مِنْ آلِ عِمْرانَ، حتى خَتَمَ»[1].

ثم إنَّ في ذكرِ الرَّبِّ ﷻ لحالِ أُولِي الألبابِ، وتعبُّدِهم، وكمالِ تَذَلُّلِهم، وذِكْرِهِ لدعواتِهِمُ العظيمة، وإجابتِهِ لهم، حثًّا للعبادِ على التأسِّي بفِعَالِهِمْ، والتحلِّي بخِصَالِهِمْ، والدعاءِ بِدَعَوَاتهم، التي هي مَحَلُّ ثناءِ الربِّ وإجابتِه، وباللهِ وَحْدَهُ التوفيق.

❁ ❁ ❁

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٥٦٩ و٤٥٧٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٧٦٣).

٢١٠

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (٧)

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ الواردةِ في القرآن**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

يحكي اللهُ تعالى في هذه الآيةِ دُعاءَ المؤمنينَ المُسْتَضْعَفِينَ، الذين كانوا بمكةَ تَحتَ إذلالِ كُفَّارِ قريش، وذلك قبلَ فتحِ مَكَّةَ، فهؤلاءِ المستضعَفُونَ من المؤمنين سألوا ربَّهم ﷻ أن يُنْجِيَهُمْ مِنْ فتنةِ مَنْ قد استَضْعَفَهم مِنَ المشركين، وأنْ يَجْعَلَ لهم وليًّا مِنْ عنده سبحانه يستنقذُهم، ونصيرًا يَمْنَعُهم من ظلمِ الظالمين، ويَنْصُرُهم على مَنْ ظلمهم مِنَ الكافرين، فاستجابَ اللهُ دعاءَهم.

قال ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: «فلمَّا فتَحَ رسولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ، جعَلَ اللهُ ﷻ النبيَّ ﷺ وليَّهم، واستَعْمَلَ عليهم رسولُ اللهِ ﷺ عتَّابَ بنَ أَسِيد، فكان نصيرًا لهم، يُنْصِفُ الضعيفَ مِنَ القوي»[١].

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ المذكورةِ في القرآن**: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وهذا وَصْفٌ لِمَنْ آمَنَ بخاتَمِ النبيين محمَّد ﷺ من الذين قالوا: إنَّا نَصَارَى، وأنهم إذا سمعوا آياتِ القرآنِ فاضَتْ أَعْيُنُهم بالدمع؛ لمعرفتهم بأنَّ ما يُتْلَى عليهم حقٌّ مِنْ عند الله؛ ولهذا يسألون الله تعالى ويدعونه بقولهم:

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (١/ ٤٥٢).

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ **أي**: إنهم يقولون: يا ربَّنا، صَدَّقْنا لَمَّا سَمِعْنَا ما أنزلْتَهُ إلى نبيِّك محمَّد ﷺ مِنْ كتابك، وأَقْرَرْنا به أنه مِنْ عندك، وأنه الحَقُّ لا شكَّ فيه، ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ **ومعنى الكتابةِ** ـ هنا ـ **أي**: الجَعْلُ؛ **أي**: فاجعلْنَا مع الشاهدين، وأَثْبِتْنا معهم في عِدَادِهِمْ.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما **في قوله**: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، **قال**: «**أي**: مع محمَّد ﷺ وأُمَّتِهِ، هم الشاهدون يَشْهَدُونَ لنبيِّهم أنه قد بَلَّغَ، والرُّسُلِ أنهم قد بَلَّغُوا»(١).

وقد أجاب اللهُ تعالى دَعْوَتَهم، وحَقَّقَ رجاءَهم؛ قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥].

* **ومِنَ الدعواتِ المذكورةِ في القرآن**: دعوةُ التائبين مِنْ بني إسرائيلَ مما وَقَعُوا فيه مِنَ الشِّرْكِ بالله؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]؛ وهذه الآيةُ إخبارٌ عن الذين تابوا مِنْ بني إسرائيل بعدما عَبَدُوا العِجْلَ مِنْ دُونِ اللهِ تعالى.

فقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ﴾؛ **أي**: نَدِمُوا على ما فعلوا، والعَرَبُ تقول لكلِّ نادمٍ: قد سُقِطَ في يَدِهِ أو أُسْقِطَ، وقوله: ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾؛ **أي**: رَأَوْا أنهم قد حادوا عن قَصْدِ السبيل، وذهبوا عن دِينِ الله، وانحرفوا عن صراطِهِ المستقيم، وكَفَرُوا باللهِ العظيم، ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ **أي**: قالوا هذا الدعاءَ، تائبينَ إلى الله تعالى، منيبينَ إليه، فكان ذلك اعترافًا منهم بذنوبهم، والتجاءً إلى ربِّهم بأن يَرْحَمَهُمْ ويغفرَ لهم، وإلَّا كانوا مِنَ الخاسرين، وهكذا حالُ كلِّ مُذْنِبٍ، فإنه لولا رحمةُ الله تعالى ومغفرتُهُ له، لكان مِنَ الخاسرين في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال الأبوان

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ١٥٩).

مِنْ قبلُ - فيما سبَقَ بيانُهُ مِنْ دعاءِ آدمَ ﷺ -: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ المذكورة في القرآن**: ما ذكَرَهُ اللهُ في سياقِ ذكرِ تَوْبَةِ السَّحَرَةِ وإيمانِهم بموسى ﷺ؛ وذلك في قولِهِ سبحانه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف].

فهذا بيانٌ مِنَ اللهِ تعالى لحال الذين آمَنُوا بموسى ﷺ مِنْ قوم فرعونَ بعد أن كانوا سَحَرَةً، وبعدَ أن تَوَعَّدَهُمْ فرعونُ لإيمانهم بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

فما كان مِنْ هؤلاءِ المؤمنين إلَّا أنْ جاهروا فرعونَ بالثباتِ على الإيمان، وأنَّ تَوَعُّدَهُ لهم لن يَرُدَّهُمْ عما هداهم اللهُ إليه مِنَ الإسلام، وما بَصَّرَهُمْ به من الهُدَىٰ، وقالوا لفرعونَ: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ **أي**: قد تَحَقَّقْنَا أنا إليه راجعون، وعذابُهُ أشدُّ مِنْ عذابك، ونَكَالُهُ على ما تدعونا إليه مِنَ الكُفْرِ وما أَكْرَهْتَنا عليه مِنَ السِّحْرِ أعظمُ مِنْ نَكَالِك، فَلَنَصْبِرَنَّ اليومَ على عَذَابِكَ لِنَخْلُصَ مِنْ عذاب الله تعالى.

وبيَّنوا أنَّ فرعون إنما ينتقمُ منهم لإيمانهم بنبيِّ اللهِ موسى ﷺ، واتِّبَاعِهِمْ له، وإلَّا فليس لهم ذنبٌ، فإنْ كان هذا ذنبًا يُعابُ عليه ويُعاقَبُ به، فهو ذَنْبُنا، وهو أعظمُ محاسننا؛ لأنه خيرُ الأعمال، وأعظمُ المناقب، فلا نَعْدِلُ عنه طلبًا لمرضاتك، ولسنا مبالين بتهديدك، ولا مكترثين بوعيدك؛ ولهذا قالوا: - كما حكى الله عنهم في موضع آخر -: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]؛ **أي**: لا نبالي بما تَوَعَّدتَنا به مِنْ تقطيعِ الأيدي والأرجلِ مِنْ خِلَافٍ، والتصليبِ في جذوعِ النخل.

ثم توجَّهوا إلى اللهِ بالدعاء، وأعظموا الرغبةَ إليه بأن يُثَبِّتَهُمْ على دينه، وأنْ يُصَبِّرَهُمْ على ما ينالهم مِنْ أذًى في سبيله؛ فقالوا:

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]؛ **أي**: أَفِضْ علينا صَبْرًا عظيمًا ـ كما يدل عليه التنكير ـ لأنَّ هذه محنةٌ عظيمةٌ تؤدِّي إلى ذَهَابِ النفسِ، ومعالجةِ الأذى والعذاب، فيُحْتَاجُ فيها مِنَ الصبرِ إلى شيءٍ كثيرٍ؛ لِيَثْبُتَ الفؤاد، ويطمئنَّ المؤمنُ على إيمانه، ويزولَ عنه الانزعاجُ الكثير، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾؛ **أي**: ثابتينَ على الإسلامِ، منقادين لِأَمْرِك، مُتَّبِعِينَ لرسولك.

وسبحانَ مَنْ هَدَى قلوبَ هؤلاءِ مِنَ الكُفْرِ الغليظ، والسِّحْرِ القبيح، والضلالِ المبين، إلى هذا الإيمانِ العظيم، والثباتِ القويم، والصِّدْقِ مَعَ الله، وكمالِ الإنابةِ إليه؛ سبحانَهُ وبِحَمْدِهِ لا نُحْصِي ثناءً عليه هو كما أثْنَى على نفسه، ونسألُه سبحانه الثبات على دِينِهِ، والعَفْوَ والعافيةَ في الدنيا والآخرة؛ إنه سبحانه سميعٌ مجيب.

❁ ❁ ❁

٢١١

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ

(٨)

* ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ العظيمةِ المذكورةِ في القرآن الكريم: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس].

حيثُ أخبرَ سبحانه في هذه الآياتِ عن نبيِّه موسى عليه السلام أنه أَوْصَى قَوْمَهُ بني إسرائيل بالتوكُّلِ على الله تعالى، في مواجهةِ أعدائهم فرعونَ وقومِهِ، وأنَّ قَوْمَ موسى المؤمنين قد امتَثَلُوا أمره، فقالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: به وَثِقْنا، وإليه فَوَّضْنا أَمْرَنا، وعليه وَحْدَهُ اعتَمَدْنَا، ثم دَعَوْا ربَّهُمْ، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفي معنى هذا الدعاءِ قولان للمفسِّرين:

* **فقيل: المعنى:** لا تُظْهِرْهم علينا، ولا تُسَلِّطْهم علينا، فيَظُنُّوا أنهم إنما سُلِّطُوا لأنَّهم على الحقِّ ونحنُ على الباطل؛ فيُفْتَنوا بذلك ويزدادوا طغيانًا وكفرًا.

* **وقيل: المعنى:** لا تُعَذِّبْنا بعذابٍ مِنْ عندك، ولا تُعَذِّبْنا بأيدي فرعونَ وقومه، فيقولوا: لو كانوا على الحقِّ لما عُذِّبُوا، ويَظُنُّوا أنهم خيرٌ منا، فيُفْتَنوا بذلك.

وقالوا تكملةَ دعائهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وخَلِّصْنَا - يا ربَّنا - برحمتِكَ مِنْ أيدي الكافرين؛ لِنَسْلَمَ مِنْ شَرِّهم، ونقيمَ على ديننا؛ على وجه نَتمكَّنُ به مِنْ إقامةِ شرائعِهِ، وإظهارِهِ مِنْ غيرِ مُعَارِضٍ ولا منازع.

وأشار بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ في تقديم التوكُّلِ على الدعاءِ تنبيهًا على أنَّ الداعيَ ينبغي أنْ يَتوكَّلَ على اللهِ أولًا، لتُجَابَ دعوتُه[١]؛ ومِنْ هذا القبيلِ ما رواه مسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يقول: **(اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُون)**[٢].

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ العظيمةِ الواردةِ في القرآن:** دعاءُ أصحابِ الكَهْفِ؛ قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

وهذا إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى عن الفتيةِ أصحابِ الكهفِ الذين وَصَفَهُمُ اللهُ بقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف].

فهؤلاءِ فتيةٌ مؤمنون اتفقوا على الانحيازِ عَنْ قومهم الذين أَشْرَكُوا باللهِ تعالى، والتبرِّي منهم، والخروجِ مِنْ بينِ أَظْهُرِهم، والفِرَارِ بدينهم منهم، وهو المشروعُ حالَ الفتنِ وظهورِ الشرور.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يُخبِرُ تعالى عن أولئكَ الفتيةِ الذين فَرُّوا

---

(١) **انظر**: «تفسير القاسمي» (٩/٣٣٨٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧١٧)، ورواه البخاري (٧٣٨٣) مختصرًا.

بدينهم مِنْ قومهم؛ لئلَّا يفتنوهم عنه، فهَرَبُوا منهم، فلجؤوا إلى غارٍ في جبلٍ؛ ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دَخلُوا سائلين مِنَ الله تعالى رحمتَهُ ولُطْفَهُ بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾؛ أي: هَبْ لنا مِنْ عندك رحمةً تَرْحَمُنا بها، وتَسْتُرُنا عن قومنا، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾؛ أي: اجعَلْ عاقبتَنا رَشَدًا؛ كما جاء في الحديث: (**وَمَا قَضَيْتَ لَنَا مِنْ قَضَاءٍ، فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا**)(١)، وفي «المسند»(٢)، من حديث بُسْر بن أبي أرطاة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: (**اللَّهُمَّ، أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، وأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ**)»(٣).

والحاصلُ: أنَّ هؤلاءِ الفتيةَ المؤمنين جَمَعُوا بين السعيِ في الخيرِ، والفرارِ مِنَ الفتنةِ إلى مكانٍ يُمْكِنُ الاستخفاءُ فيه، وبين تَضَرُّعهم وسؤالِهم لله تعالى تيسيرَ أمورهم، وعَدَمَ اتكالهم على أنفسهم وعلى الخَلْق؛ فلذلك استجابَ اللهُ تعالى دعاءَهم، وقَيَّضَ لهم ما لم يكنْ في حسابهم.

قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١]؛ **أي**: ألقينا عليهم النَّوْمَ حين دَخلُوا الكهفَ، فناموا سنينَ كثيرةً، ومنعنا نفوذَ الأصواتِ إلى مسامعهم؛ فإنَّ النائمَ إذا سَمِعَ الصوتَ ينتبه؛ وفي هذا النومِ المذكورِ حِفْظٌ لقلوبهم مِنَ الاضطرابِ والخوف، وحِفْظٌ لهم مِنْ قومهم، وليكونَ آيةً بيِّنةً للمُعْتَبِرين.

* **ومِنْ دَعَواتِ أهل الإيمان**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وهذا كلامٌ يقولُهُ الله تعالى يومَ القيامةِ لأهلِ النار تذكيرًا لهم بحالِ المؤمنينَ في الدنيا، الذين كان الكُفَّارُ أهلُ النارِ يستهزئون بهم، ويَضْحَكُونَ منهم.

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٣٩)، من حديث عائشة ﵂، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٤٩٨).
(٢) «مسند أحمد» (٤/ ١٨١)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٩٠٧).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

فبيَّن تعالى مِنْ حالِ عبادِهِ المؤمنين أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾: «فجمعوا بينَ الإيمانِ المقتضي لأعمالِهِ الصالحة، والدعاءِ لربِّهم بالمغفرةِ والرحمة، والتوسُّلِ إليه بربوبيَّتِهِ ومِنَّتِهِ عليهم بالإيمان، وبالإخبارِ بِسَعَةِ رحمتِهِ وعمومِ إحسانه، وفي ضِمْنِهِ ما يَدُلُّ على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارِهم لربِّهم، وخَوْفِهِمْ ورجائهم؛ فهؤلاءِ ساداتُ الناسِ وفضلاؤهم»[1].

جَعَلَنا الله منهم بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ، وأَلْحَقَنا بالصالحين مِنْ عباده، وهدانا سبيلَهُ القويم، وصراطَهُ المستقيم؛ إنه سميعٌ مجيب.

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٥٥).

٢١٢

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ

(٩)

* **ومِنْ دَعَواتِ المؤمنينَ العظيمةِ الواردِ ذكرُها في القرآنِ الكريم**: ما جاء في ضمنِ سياقِ عَدِّ صفاتِ عِبادِ الرحمٰنِ في أواخرِ سورةِ الفُرْقان، الذين استحقُّوا هذه الإضافةَ التشريفيَّةَ إلى اللهِ ﷻ؛ لِمَا قاموا به مِنَ العبوديَّة التامَّةِ الخالصةِ لربِّهم سبحانه وتعالى، وقد صَدَّرَ صفاتِهم سبحانه بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ فأضافهم لنفسِهِ؛ تعليةً لشأنهم، وتشريفًا لِقَدْرهم، وذكَرَ سبحانه مِنْ جملةِ صفاتِهِمُ الحميدة، ونعوتِهِمُ الرشيدة، الدعاءَ، وحُسْنَ الالتجاءِ إلى الله ﷻ.

فقال تعالى في وَصْفهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥ ـ ٦٦]؛ وهذه دعوةٌ مباركةٌ حَكَاها اللهُ عنهم في جملةِ صفاتهم الكريمة.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾؛ **أي**: ادْفَعْهُ عَنَّا بالوقايةِ مِنْ أسبابِهِ في الدنيا، ومغفرةِ ما وقَعَ منا مما هو مُقْتَضٍ له يَوْمَ القيامة.

وهذا يَدُلُّ على أنهم ـ مع طاعتهم لربِّهم ﷻ ـ مُشْفِقُونَ وَجِلُونَ مِنْ عذابِهِ؛ كما قال الله تعالى في وَصْفِ المؤمنين الكُمَّل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ **أي**: يقدِّمون ما يقدِّمون مِنَ الطاعات وهم مُشْفِقُونَ مِنْ عذابِ الله، خائفونَ مِنْ عقابه؛ كما ثبَتَ تفسيرُ الآيةِ بذلك عَنْ رسولِ الله ﷺ.

روى الإمام أحمد في «مسنده»، عن أم المؤمنين عائشةَ ﵂، أنها قالت: «يا رسولَ اللهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أهو الرَّجُلُ يَزْنِي،

ويَشْرَبُ الخمرَ؟ قال: (**لَا يا بِنْتَ أبي بَكْرٍ، أَوْ لا يا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ**)(١).

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ المؤمنَ جمَعَ إحسانًا وشَفَقةً، وإنَّ المنافقَ جمَعَ إساءةً وأمنًا»(٢).

وقولهم: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ **أي**: لازمًا دائمًا غيرَ مُفارِق.

وقولهم: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ **أي**: بئسَ المنزلُ مَنْظَرًا، وبئسَ المَقِيلُ مُقامًا.

«وهذا منهم على وَجْهِ التضرُّعِ لربِّهم، وبيانِ شِدَّةِ حاجتهم إليه، وأنَّهم ليس في طاقتهم احتمالُ هذا العذاب، وليتذكَّروا مِنَّةَ اللهِ عليهم؛ فإنَّ صَرْفَ الشِّدَّةِ بِحَسَبِ شِدَّتها وفظاعتها يَعْظُمُ وَقْعُها، ويشتدُّ الفَرَحُ بِصَرْفها»(٣).

* **ومِنْ دَعَواتِ عبادِ الرحمٰن**: ما جاء في ضِمْنِ أوصافهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقولهم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؛ **أي**: ارْزُقْنا أزواجًا وأولادًا تَقَرُّ بهم أعيننا.

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال**: «يَعْنُونَ: مَنْ يَعْمَلُ لك بالطاعةِ، فَتَقَرُّ بهم أَعْيُنُنا في الدنيا والآخرة».

وعن محمَّد بن كَعْب القُرَظِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، **قال**: «ليس شيءٌ أَقَرَّ لعينِ المؤمنِ من أنْ يَرَى أهلَهُ وولَدَهُ أتقياءَ بَرَرَةً».

وعن ابن زَيْد رَحِمَهُ اللَّهُ، **قال**: «يسألونَ اللهَ لأزواجهم وذُرِّيَّاتِهِمْ أن يَهْدِيَهم للإسلامِ»(٤).

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٧٤).
(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٨٥).
(٣) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٨٦).
(٤) **انظر هذه الآثار في**: «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٢٩ ـ ٥٣١)، و«تفسير أبي المظفَّر السمعاني» (٤/ ٣٦).

وقال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا كما أنه دُعَاءٌ لأزواجهم وذُرِّيَّاتِهم في صلاحهم؛ فإنَّه دعاءٌ لأنفسهم؛ لأنَّ نفعَهُ يعودُ عليهم؛ ولهذا جَعَلُوا ذلك هبةً لهم، فقالوا: ﴿هَبْ لَنَا﴾، بل دعاؤُهُمْ يعودُ إلى نفعِ عمومِ المسلمين؛ لأنَّ بصلاحِ مَنْ ذُكِرَ يكونُ سببًا لصلاحِ كثيرٍ ممَّن يتعلَّق بهم وينتفعُ بهم»(١).

وقولهم: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، قال ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أئمةَ هُدًى ليُهْتَدَى بنا، ولا تَجْعَلْنَا أئمةَ ضلالةٍ؛ لأنه قال لأهلِ السعادة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ولأهلِ الشقاوة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]»(٢).

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَادَةً في الخيرِ، ودُعَاةً وهداةً يُؤْتَمُّ بنا في الخير»(٣).

والخلاصةُ: أنَّ عبادَ الرحمٰنِ دَعَوُا اللهَ تعالى أنْ يُوصِلَهُمْ إلى درجةِ الإمامةِ في الدين، وأن يكونوا قُدْوةً للمتقينَ في أقوالهم وأفعالهم، يُقْتَدَى بأفعالهم، ويُطْمَأَنُّ لأقوالهم، ويسيرُ أهلُ الخيرِ خَلْفَهم، فَيَهْدُونَ ويهتدون.

قال العلامة ابن سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِنَ المعلومِ أنَّ الدعاءَ ببلوغِ شيءٍ دعاءٌ بما لا يَتِمُّ إلَّا به، وهذه الدرجةُ ـ درجةُ الإمامةِ في الدين ـ لا تتمُّ إلَّا بالصبرِ واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]؛ فهذا الدعاءُ يستلزمُ من الأعمالِ، والصبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيتِهِ، وأقدارِهِ المُؤْلِمة، ومِنَ العلمِ التامِّ الذي يُوصِلُ صاحبَهُ إلى درجةِ اليقين، خيرًا كثيرًا، وعطاءً جزيلًا، وأنْ يكونوا في أعلى ما يُمْكِنُ من درجاتِ الخَلْقِ بعدَ الرسل»(٤).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالحاصلُ: أنهم سألوا ربَّهم أن يكونوا كاملين مكمِّلين لغيرهم، هادين مهتدين؛ وهذه أعلى الحالات»(٥).

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٨٨). (٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤٢).
(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٥).
(٤) «تفسير ابن سعدي» (ص٦٨٨).
(٥) «المواهب الربانية، من الآيات القرآنية» (ص٣٣).

وقد ختَمَ اللهُ تعالى ما ذَكَرَهُ عن عباد الرحمٰنِ مِنَ الأوصافِ الكريمة، والدعاءِ العظيم بقولِهِ سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان].

فبيَّن تعالى جزاءَهُ لهم على هِمَمِهِمُ العالية، ومَطالِبِهِمُ النبيلة، وحُسْنِ سؤالهم، وكمالِ تَذَلُّلِهم وافتقارِهم، بأنَّ لهم الجَنَّةَ يُبْتَدَرُونَ فيها بالتحيةِ والإكرام، ويَلْقَوْنَ التوقيرَ والاحترام، فلهم السلامُ وعليهم السلام، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد]، جَعَلَنَا الله منهم بِمَنِّهِ وكَرَمه.

* * *

٢١٣

مِنْ دَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ
(١٠)

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ المذكورةِ في القرآن**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف].

ففي هذه الآيةِ الكريمةِ يذكُرُ اللهُ تعالى وصيَّتَهُ للإنسانِ ببِرِّ والديه؛ لِمَا تحمَّلاه مِنَ المتاعب في حَمْلِهِ وولادته، وأنَّ مَنْ كان مؤمنًا صالحًا من الأولاد، فإنه يتذكَّر نِعْمةَ ربِّه عليه وعلى والدَيْهِ، فيدعو اللهَ تعالى ويسألُهُ، فيقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

فقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾؛ **أي**: أَلْهِمْني ووَفِّقْني.

وقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾؛ **أي**: نِعَمَ الدِّينِ ونِعَمَ الدنيا، وشُكْرُهَا بِصَرْفِها في طاعةِ الله، والاجتهادِ في الثناءِ على الله، وحَمْدِهِ.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾؛ **أي**: والنِّعَمَ التي أنعَمْتَ بها على والديَّ مِنْ قبلي، والنِّعَمُ على الوالدَيْنِ نِعَمٌ على أولادهم؛ لأنهم لا بدَّ أنْ يَنالَهم منها ومِنْ أسبابها وآثارها، خصوصًا نِعَمُ الدِّين؛ فإنَّ صلاحَ الوالدَيْنِ بالعلمِ والعملِ مِنْ أعظمِ الأسبابِ لصلاحِ أولادهم.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ **أي**: وأَلْهِمْنِي أنْ أَعْمَلَ صالحًا ترضاه

في المستقبل؛ وذلك بأنْ يكونَ جامعًا لِمَا يُصْلِحُهُ، سَالِمًا مما يُفْسِدُه؛ فهذا العملُ الذي يرضاه اللهُ ويقبله، ويُثِيبُ عليه.

وقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾: دعاءٌ لِذُرِّيته بالصلاح بعدما دعا لنفسه، وذكَرَ أنَّ صلاحَ الذريَّة يعودُ نفعُهُ على والديهم؛ لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى﴾.

وقوله: ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: تُبْتُ مِنْ ذنوبي التي سَلَفَتْ مني في سالفِ أيَّامي، ورَجَعْتُ إلى طاعتك.

وقوله: ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: مِنَ المستسلمينَ لِأَمْرِك ونهيك، المنقادِينَ لِحُكْمك.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾؛ أي: هؤلاءِ الذين هذه الصفةُ صِفَتُهم، هم الذين نَتَقَبَّلُ عنهم أحسَنَ ما عَمِلُوا في الدنيا ـ وهو الطاعاتُ؛ لأنهم عَمِلُوا غيرَهَا أيضًا ـ ونصفحُ عن سَيِّئاتِ أعمالهم التي عَمِلُوهَا في الدنيا، فنفعلُ ذلك بهم فِعْلَنَا مِثْلَ ذلك في أصحابِ الجَنَّة، الذين هم أَهْلُها، فحصَلَ لهم الخيرُ والمحبوب، وزال عنهم الشَّرُّ والمكروه، وهذا هو الوعدُ الصادقُ الذي وعدناهم، واللهُ لا يُخْلِفُ الميعاد.

* **ومِنْ دَعَواتِ أهلِ الإيمانِ المذكورةِ في القرآن**: ما نَعَتَ اللهُ به مَنْ جاءَ بعدَ الصحابةِ مِنَ التابعينَ وأتباعهم بإحسانٍ إلى يوم القيامةِ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

قال أهلُ العلم: إن هذه الآيةَ نزَلَتْ في التابعين ـ الذين أَتَوْا بعدَ أصحابِ رسولِ الله ﷺ ـ وكلِّ مَنْ دخَلَ في الإسلامِ إلى يومِ القيامة.

فعن ابن أبي لَيْلَىٰ رَحِمَهُ اللهُ، **قال**: «الناسُ على ثلاثةِ منازلَ: المهاجرون، والذين تَبَوَّؤُوا الدارَ والإيمان (الأنصار)، والذين مِنْ بعدهم، فاجتَهِدْ أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ هذه المنازل».

وعن مُصْعَب بن سَعْد رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «الناسُ على ثلاثة منازلَ، فمضَتْ منزلتان، وبَقِيَتْ منزلةٌ، فأَحْسَنُ ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلةِ التي بقيت»[(١)].

والمقصودُ: أنَّ الله تعالى وصَفَ المؤمنين الذين جاؤوا بعد المهاجرين والأنصار بأنهم يَدْعُونَ للسابقين مَعَ أَنْفُسِهِمْ، فيقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فجَمَعُوا في هذه الدعوةِ بين سَلَامةِ القلوبِ، وسلامةِ الأَلْسُن؛ فليسَ في القلوبِ غِلٌّ ولا حِقْدٌ ولا ضغينةٌ، وليس في الأَلْسُنِ شَتْمٌ ولا ثَلْبٌ ولا وقيعةٌ، بل في القلوبِ المَحَبَّةُ الصادقةُ والإخاء، وفي الأَلْسُنِ الذِّكْرُ الحَسَنُ والدعاء، وهذا مِنْ أبينِ دلائلِ الإيمانِ الصادق، والوفاءِ لأهلِ الفضلِ والسَّبْقِ والإحسان.

قال أبو المظفَّر السَّمْعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الآيةِ دليلٌ على أن الترحُّمَ للسلفِ، والدعاءَ لهم بالخير، وتَرْكَ ذِكْرِهم بالسوءِ مِنْ علامةِ المؤمنين. ورُوِيَ أنَّ رجلًا جاء إلى مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجعَلَ يَقَعُ في جماعةٍ مِنَ الصحابة؛ مثل: أبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، وغيرهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فقال له: أنت مِنَ الفقراءِ المهاجرين الذين أُخْرِجُوا مِنْ ديارهم وأموالهم؟ قال: لا، قال: أنت مِنَ الذين تبَوَّؤُوا الدارَ والإيمانَ مِنْ قبلهم؟ قال: لا، فقال: أَشْهَدُ أنك لستَ مِنَ الذينَ: ﴿جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾»[(٢)].

* **ومِنْ دَعواتِ أهلِ الإيمان**: ما ورَدَ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

---

(١) ذكرهما القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢١).

(٢) «تفسير أبي المظفر السمعاني» (٥/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣).

جاء عن ابن عَبَّاس ﵄ في تفسيره هذه الآية، قال: «ليس أحدٌ مِنَ الموحِّدين إلَّا يُعْطَى نُورًا يومَ القيامة، فأمَّا المنافقُ، فيُطْفَأُ نُورُه، والمؤمنُ يُشْفِقُ ممَّا يَرَى مِنْ إطفاءِ نُورِ المنافق؛ فهو يقول: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾»(١).

فهذا دعاءُ المؤمنينَ يومَ القيامةِ، يسألونَ اللهَ تعالى أنْ يُتْمِمَ لهم نُورَهُمْ، ويُبَلِّغَهم به الجَنَّةَ، وقد قال الله تعالى ـ في آية أخرى ـ: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

قال عبد الله بن مسعود ﵁: «يُؤْتَوْنَ نُورَهُمْ على قَدْرِ أعمالهم؛ فمنهم مَنْ نُورُهُ مثلُ الجَبَل، وأدناهم نُورًا: مَنْ نُورُهُ على إبهامه، يُطْفَأُ مرةً ويَقِدُ أخرى»(٢).

وبدعاءِ المؤمنينَ بإتمامِ النورِ لهم يَوْمَ القيامةِ، تَمَّ المرادُ جَمْعُهُ مِنْ أدعيةِ المؤمنينَ المذكورةِ في القرآنِ الكريم.

❁ ❁ ❁

---

(١) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٢٢٨).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٧٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، فتعقَّبه الذهبي بقوله: «على شرط البخاري».

٢١٤

دُعَاءُ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام

إنَّ مِنَ الدَّعَواتِ العظيمةِ المذكورةِ في القرآن الكريم: دعاءَ الملائكةِ من حَمَلَةِ العَرْشِ ومَنْ حَوْلَهُ للمؤمنينَ بالمغفرةِ والرحمة، ودخولِ الجَنَّة، والنجاةِ من النار.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر].

في هذه الآيات يُخْبِرُ اللهُ تعالى عن ملائكتِهِ الكرام الذين يَحْمِلُونَ عَرْشَهُ المجيد، والذينَ حَوْلَ العرش، أنهم يُمَجِّدونه تعالى، ويُنَزِّهُونه، ويُثْنُونَ عليه بالتسبيحِ والتحميد، وأنَّهم يؤمنون به، فيُقِرُّونَ له بالتوحيد، ويَذِلُّونَ بين يديه، ولا يستكبرون عن عبادته، وأنهم يَدْعُونَ للمؤمنين مِنْ أهلِ الأرضِ الذين أَقَرُّوا بمثل إقرارِهِمْ مِنْ توحيدِ الله، والبراءةِ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه، فيستغفرون لهم، ويسألون اللهَ أن يُدْخِلَهُمُ الجَنَّةَ هم والصالحينَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم، وأن يَقِيَهُمُ اللهُ سُوءَ عاقبةِ سَيِّئاتهم التي أَتَوْها، وأن يَتَغَمَّدَهُمْ برحمته؛ وذلك هو الفوزُ العظيم.

ودعاءُ الملائكةِ هذا للمؤمنين هو مِنْ جُمْلةِ فوائدِ الإيمان وفضائلِهِ وثمارِهِ الكثيرة؛ حيثُ قَيَّضَ اللهُ سبحانه ملائكتَهُ المقرَّبين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهرِ الغيب؛ فالمؤمنُ بإيمانِهِ تَسبَّبَ لهذا الفضلِ العظيم.

وفي الآياتِ دَلَالةٌ واضحةٌ على أنَّ رابطةَ الإيمانِ أعظمُ الروابطِ وأَوْثَقُها،

بل هي الرابطةُ الحقيقيَّةُ التي لا تَنْفَصِمُ، والوِشَاحُ المُحْكَمُ الذي لا يَنْثَلِم.

قال العلامة محمَّد الأمين الشِّنْقيطي رحمه الله مبيِّنًا دَلَالَةَ هذا السياقِ الكريم على ذلك: «فقد أشار تعالى إلى أنَّ الرابطةَ التي ربَطَتْ بين حَمَلَةِ العرشِ ومَنْ حوله وبين بني آدَمَ في الأرضِ حتى دَعَوُا اللهَ لهم هذا الدعاءَ الصالحَ العظيم، إنَّما هي الإيمانُ بالله جَلَّ وعلا؛ لأنه قال عن الملائكة: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ فوصفهم بالإيمان، وقال عن بني آدمَ في استغفارِ الملائكةِ لهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فوصفهم أيضًا بالإيمان؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ الرابطةَ بينهم هي الإيمانُ، وهو أعظمُ رابطة... **إلى أن قال: وبالجملةِ:** فلا خلافَ بين المسلمين أنَّ الرابطةَ التي تَرْبِطُ أفرادَ أهل الأرض بَعْضَهُمْ ببعضٍ، وتربطُ بين أهلِ الأرضِ والسماء هي رابطةُ **لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ**»[1].اهـ.

وهذا يَدُلُّ على عظيمِ فضلِ الإيمان، وكِبَرِ أَثَرِهِ على أهله، وعِظَمِ كرامةِ المؤمنِ عندَ ربِّه؛ **كما قال سُلَيْمُ بن عيسى** رحمه الله: «ما أكرَمَ المؤمنَ على اللهِ نائمًا على فراشِهِ والملائكةُ يستغفرون له!»[2]، وليس الذي يدعو له الملائكةُ فقطْ، بل دعا له كذلك أنبياءُ اللهِ والصالحونَ مِنْ عباده.

روى أبو نُعَيْم في «الحِلْية»، **عن يحيى بن عُمَرَ بن راشد التَّيْمي، قال:** «كنتُ أطلُبُ العَرَضَ[3]، فأنفَقْتُ ما كان معي، وأتاني سُفْيانُ بن عُيَيْنَة حين بَلَغَهُ خبري، فقال لي: لا تَأْسَ على ما فاتك، واعلَمْ أنك لو رُزِقْتَ لأتاك، ثم قال لي: أَبْشِرْ؛ فإنَّكَ على خيرٍ، أتدري مَنْ دعا لك؟ قلت: ومَنْ دعا لي؟ قال: دعا لك حَمَلَةُ العرشِ، قلتُ: دعا لي حَمَلَةُ العرش! قال: نَعَمْ، ودعا لك نُوحٌ عليه السلام، قلت: ودعا لي نُوحٌ عليه السلام! قال: نَعَمْ، ودعا لك إبراهيمُ عليه السلام، قلتُ: ودعا لي إبراهيمُ عليه السلام! قال: نَعَمْ، ودعا لك محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، قلتُ: أين دعَوْا لي؟ قال: أَمَا سمعتَ قوله تعالى:

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٩٣).
(٣) **أي**: التجارة والرزق.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾، الآيةَ، قلتُ: وأين دعا لي نُوحٌ عليه السلام؟ قال: أَمَا سمعتَ قولَهُ تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، قلتُ: وأين دعا لي إبراهيمُ عليه السلام؟ قال: أَمَا سمعتَ قولَ الله عز وجل: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، قلتُ: فأين دعا لي محمَّدٌ ﷺ؟ قال: فهَزَّ رأسه، ثم قال: أَمَا سمعتَ قولَهُ تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، فكان أَطْوَعَ للهِ، وأرأَفَ بنا[(١)]، وأرحمَ أن يَأْمُرَهُ اللهُ بشيءٍ ثُمَّ لا يفعلُهُ»[(٢)].

وأمَّا دعوةُ المؤمنين، فقد مَرَّ معنا قريبًا الكلامُ على دَعْوَتِهِمْ عندَ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية [الحشر: ١٠].

ثم إنَّ هذه الدعوةَ مِنَ الملائكةِ تَضمَّنتْ مِنْ كمالِ الأدبِ في الدعاءِ، وحُسْنِ السؤالِ، ومحبَّةِ الخيرِ لعبادِ اللهِ المؤمنينَ شيئًا عظيمًا.

وفي هذا يقول العلامة ابن سِعْدي رحمه الله: «وقد تَضمَّنَ هذا الدعاءُ من الملائكةِ كمالَ معرفتهم بربِّهم، والتوسُّلَ إلى اللهِ بأسمائِهِ الحسنى التي يُحِبُّ مِنْ عبادِهِ التوسُّلَ بها إليه، والدعاءَ بما يناسبُ ما دَعَوُا اللهَ فيه، فلمَّا كان دعاؤهم بحصولِ الرحمةِ، وإزالةِ أثرِ ما اقتضتْهُ النفوسُ البشريَّةُ التي عَلِمَ اللهُ نَقْصَها واقتضاءَها لِمَا اقتضَتْهُ مِنَ المعاصي ونحوِ ذلك مِنَ المبادئ والأسبابِ التي قد أحاط اللهُ بها علمًا، تَوَسَّلُوا بالرحيمِ العليم.

وتَضمَّنَ كمالَ أَدَبِهِمْ مَعَ اللهِ تعالى بإقرارهم بربوبيَّته لهم الربوبيَّةَ العامَّةَ والخاصَّة، وأنه ليس لهم مِنَ الأمرِ شيءٌ، وإنما دعاؤهم لربِّهم صَدَرَ مِنْ فقيرٍ بالذاتِ مِنْ جميعِ الوجوه، لا يُدْلِي على ربِّه بحالٍ مِنَ الأحوال، إنْ هو إلَّا فَضْلُ اللهِ وكَرَمُهُ وإحسانه!!

---

(١) في الأصل: (بها).

(٢) «الحلية» (٧/ ٢٧٩).

وتَضمَّنَ موافقتَهم لربِّهم تمامَ الموافقةِ بمحبَّةِ ما يحبُّهُ مِنَ الأعمالِ التي هي العباداتُ التي قاموا بها، واجتَهَدُوا اجتهادَ المحبِّين، ومِنَ العُمَّالِ الذين هم المؤمنون، الذين يحبُّهم الله تعالى مِنْ بين خَلْقه، فسائرُ الخلقِ المكلَّفين يُبْغِضُهُمُ اللهُ إلَّا المؤمنين منهم، فمِنْ محبَّةِ الملائكةِ لهم دَعَوُا الله، واجتَهَدُوا في صلاحِ أحوالهم؛ لأنَّ الدعاءَ للشخصِ مِنْ أَدَلِّ الدلائلِ على مَحَبَّته؛ لأنه لا يدعو إلَّا لمن يحبُّه»[(١)].

وفي هذا أيضًا دَلَالةٌ على نُصْحِهم لعبادِ اللهِ المؤمنين؛ **قال مطرِّف ابن عبد الله بن الشِّخِّير** رَحِمَهُ اللهُ: «أَنْصَحُ عبادِ اللهِ للمؤمنينَ: الملائكةُ، وأَغَشُّ عبادِ اللهِ للمؤمنينَ: الشياطينُ»[(٢)].

وإنَّا لَنتقرَّبُ إلى اللهِ بِحُبِّ الملائكة، الذين لا يستكبرونَ عن عبادةِ اللهِ ولا يَسْتَحْسِرون، يسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرون، كما نَتَقَرَّبُ إليه سبحانه بِبُغْضِ الشياطين، الذين يُفْسِدُونَ في الناسِ ولا يُصْلِحُون، وعن عبادةِ اللهِ هم مستكبرون، وعن الخيرِ ناكبون، وفي أنفسهم ضالُّون، ولغيرهم مُضِلُّون؛ حمانا الله منهم، وأعاذنا مِنْ شَرِّهم؛ إنه سميعٌ مجيب.

❊ ❊ ❊

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٨٦٢).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١٢٢).

٢١٥

دَعَوَاتٌ جَامِعَةٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (١)

لقد ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ في سُنَّته المطهَّرة، وأحاديثِهِ المباركة، أدعيةٌ كثيرةٌ فيها مِنَ المعاني الجامعة، والمطالبِ العالية، والمصالحِ العاجلةِ والآجلةِ ما يستدعي المَزِيدَ من الاهتمامِ بمعرفتها، والتَّأَمُّلَ في معانيها ودَلَالاتها، والتوجُّهَ إلى الله تعالى بالدعاءِ والسؤالِ بها.

وفيما يلي وَقَفاتٌ مَعَ نُخْبةٍ مباركةٍ، وطائفةٍ عَطِرَةٍ منْ دَعَواتِهِ الشريفة، وسؤالاتِهِ المُنِيفة، مع بيانٍ وإيضاحٍ لشيءٍ مِنْ معانيها ودَلَالاتها، وتنبيهٍ وإرشادٍ لشيء مِنْ فوائدها وثَمَراتها.

١ ـ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه كان يقول: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَىٰ، والتُّقَىٰ، والعَفَافَ، وَالغِنَىٰ**)؛ رواه مسلم[1].

وهو دعاءٌ عظيمٌ جامعٌ، اشتَمَلَ على أربعةِ مطالبَ عظيمةٍ؛ **وهي: الهدايةُ، والتَّقْوَىٰ، والعِفَّةُ، والغِنَىٰ.**

قال الطِّيبِيُّ رحمه الله: «أطلَقَ الهُدَىٰ والتُّقَىٰ؛ ليتناولَ كلَّ ما ينبغي أن يُهْتَدَىٰ إليه مِنْ أمرِ المعاشِ والمعادِ ومكارمِ الأخلاق، وكلَّ ما يجبُ أن يُتَّقَى منه من الشركِ والمعاصي ورذائلِ الأخلاق، وطَلَبُ العفافِ والغِنَىٰ تخصيصٌ بعدَ تعميم»[2].

وقال النوويُّ رحمه الله: «**أمَّا العَفَافُ والعِفَّةُ**: فهو التنزُّهُ عمَّا لا يُبَاحُ، والكفُّ عنه، **والغِنَىٰ هنا**: غِنَى النفسِ، والاستغناءُ عن الناس، وعمَّا في أيديهم»[3].

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢١).

(٢) **انظر**: «تحفة الأحوذي» (٩/ ٤٦١).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ٤).

وفي شرحٍ لطيفٍ لهذا الحديث يقولُ الشيخ عبد الرحمٰن بن سِعْدي رَحِمَهُ اللهُ:
«هذا الدعاءُ مِنْ أجمعِ الأدعيةِ وأنْفَعِها، وهو يتَضمَّنُ سؤالَ خَيْرِ الدين، وخيرِ الدنيا؛ فإنَّ الهدى هو العلمُ النافع، والتُّقى العملُ الصالح، وتَرْكُ ما نَهى اللهُ ورسولُهُ عنه، وبذلك يَصلُحُ الدِّينُ؛ فإنَّ الدينَ علومٌ نافعة، ومعارفُ صادقة، فهي الهدى، وقيامٌ بطاعة الله ورسوله، فهو التُّقى.

والعَفَافُ والغِنَىٰ يَتضمَّنُ العَفَافَ عن الخَلْق، وعَدَمَ تعليقِ القلبِ بهم، والغِنَىٰ بالله وبرزقِهِ، والقناعةَ بما فيه، وحصولَ ما يطمئنُّ به القلبُ من الكفاية؛ وبذلك تتمُّ سعادةُ الحياةِ الدنيا، والراحةُ القلبية، وهي الحياةُ الطيبة.

فمَنْ رُزِقَ الهُدَىٰ والتُّقَىٰ والعَفَافَ والغنى نالَ السعادتَيْن، وحَصَّلَ كلَّ مطلوب، ونجا مِنْ كلِّ مرهوب»[1].

٢ ـ وعن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: **(قُلِ: اللَّهُمَّ، اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بِالهُدَى: هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ: سَدَادَ السَّهْمِ)**، وفي رواية: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَىٰ وَالسَّدَادَ)**؛ رواه مسلم[2].

وهذا الدعاءُ المبارَكُ يَتضمَّنُ طَلَبَ الهُدَىٰ والسَّدَادِ مِنَ اللهِ تعالى، وهما أجلُّ مطالبِ العبد، وأشرفُ مواهبه، ولا يَحْصُلُ الفلاحُ ولا السعادةُ إلَّا بهما؛ لذا كان الترغيبُ في هذا عظيمَ الأهمية.

وقوله: **(اللَّهُمَّ، اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي)**، كقوله ـ في الرواية الأخرى ـ: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَىٰ والسَّدَادَ)**، فيهما طَلَبُ الهدى والسدادِ.

أمَّا الهُدَىٰ: فهو المعرفةُ بالحقِّ تفصيلًا وإجمالًا، والتوفيقُ لاتِّباعِهِ ظاهرًا وباطنًا.

وأمَّا السَّدَادُ، فقال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أمَّا السَّدَادُ هنا ـ بفتحِ السينِ ـ وسَدَادُ السهمِ: تقويمُهُ؛ **ومعنى (سَدِّدْنِي)**: وَفِّقْني، واجْعَلْني منتصبًا في جميعِ أموري،

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» (ص٢٤٩).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٥).

مستقيمًا، **وأصلُ السَّدَادِ**: الاستقامةُ والقصدُ في الأمور»(١).

وقوله ﷺ: **(وَاذْكُرْ بِالهُدَىٰ: هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، والسَّدَادِ: سَدَادَ السَّهْمِ)**.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أي**: تَذَكَّرْ ذلك في حالِ دُعَائِكَ بهذَيْنِ اللفظَيْنِ؛ لأنَّ هاديَ الطريقِ لا يَزِيغُ عنه، ومسدِّدَ السهمِ يَحْرِصُ على تقويمِه، ولا يستقيمُ رَمْيُهُ حتى يُقَوِّمَهُ، وكذا الداعي ينبغي أن يَحْرِصَ على تسديدِ عِلْمِهِ وتقويمِهِ ولزومِهِ السُّنَّةَ، **وقيل**: ليتذكَّرْ بهذا اللفظِ السَّدَادَ والهُدَىٰ لئلَّا ينساه»(٢).

وقال الخَطَّابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: **(وَاذْكُرْ بِالهُدَىٰ: هِدَايَةَ الطَّرِيقَ)**، **معناه**: أنَّ سالكَ الطريقِ والفَلَاةِ إنَّما يَؤُمُّ سَمْتَ الطريق، ولا يكادُ يفارقُ الجادَّةَ، ولا يَعْدِلُ عنها يَمْنةً ويَسْرةً خوفًا مِنَ الضلال، وبذلك يُصِيبُ الهدايةَ، وينالُ السلامة؛ يقول: إذا سَأَلْتَ اللهَ الهدى، فاخْطُرْ بقلبِكَ هدايةَ الطريقِ، وسَلِ اللهَ الهُدَى والاستقامةَ؛ كما تَتحرَّاهُ في هدايةِ الطريقِ إذا سَلَكْتَها.

وقوله: **(وَاذْكُرْ بِالسَّدَادِ: تَسْدِيدَكَ السَّهْمَ)**، **معناه**: أنَّ الراميَ إذا رَمَى غَرَضًا سَدَّدَ بالسهمِ نحوَ الغَرَض، ولم يَعْدِلْ عنه يمينًا ولا شمالًا؛ لِيُصِيبَ الرَّمِيَّةَ، فلا يَطِيشُ سَهْمُه، ولا يُخْفِقُ سَعْيُه؛ يقول: فاخطرِ المعنى بقلبكَ حينَ تَسْأَلُ اللهَ السدادَ؛ ليكون ما تنويه مِنْ ذلك على شاكلةِ ما تستعمِلُهُ في الرمي»(٣).

وهذا مِنْ كمالِ نصح النبيِّ ﷺ، وحُسْنِ بيانه وتوجيهه، جعَلَ مع هذَيْنِ المطلبَيْنِ العظيمَيْنِ ما يُذَكِّرُ بهما وبمدلولهما مِنَ الأمورِ الحِسِّيَّةِ المشاهَدَةِ؛ لِيتحقَّقَ ذِكْرُ اللفظِ وعَدَمُ نسيانه، وفَهْمُ المعنى المرادِ، واستحضارُهُ وعدَمُ إغفاله.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا مِنْ أبلغِ التعليمِ والنصح؛ حيثُ أَمَرَهُ أنْ يَذْكُرَ ـ إذا سأَلَ اللهَ الهدى إلى طريقِ رضاه وَجَنَّتِهِ ـ كونَهُ مسافرًا، وقد ضَلَّ عن

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ٤٣). (٢) «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ٤٤).

(٣) «معالم السنن» (٤/ ١٩٩).

الطريق، ولا يَدْرِي أين يَتوجَّهُ، فطَلَعَ له رجلٌ خبيرٌ بالطريق، عالمٌ بها، فسألَهُ أنْ يَدُلَّهُ على الطريق؛ فهكذا شأنُ طريقِ الآخرة، تمثيلًا لها بالطريقِ المحسوسِ للمسافرِ، وحاجة المسافر إلى اللهِ سبحانه إلى أن يَهْدِيَهُ تلكَ الطريقَ، أَعْظَمُ من حاجةِ المسافرِ إلى بلدٍ إلى مَنْ يَدُلُّهُ على الطريقِ الموصِلِ إليها، وكذلك السَّدَادُ - وهو إصابةُ القصدِ قولًا وعملًا - فمَثَلُهُ مَثَلُ رامي السهم، إذا وقَعَ سَهْمُهُ في نفسِ الشيء الذي رماه، فقد سَدَّدَ سَهْمَهُ وأصاب، ولم يقعْ باطلًا، كذا المصيبُ للحقِّ في قولِهِ وعملِهِ بمنزلةِ المصيبِ في رميه»[1].

فهذه دعوةٌ عظيمةٌ، وألفاظُها يسيرة، إلا أنها اشتَمَلَتْ على خيرٍ عظيم، وفضلٍ عميم، وهي مِنْ جوامعِ كَلِمِ النبيِّ الكريم ﷺ، وتَضمَّنَتْ كذلك جمالَ نُصْحِهِ، وحُسْنَ بَيَانِهِ؛ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه.

❁ ❁ ❁

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٩٤ ـ ٩٥).

٢١٦

دَعَوَاتٌ جَامِعَةٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٢)

٣ ـ عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص ﵄، أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: (**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**)، ثم قال رسولُ الله ﷺ: (**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**)؛ رواه مسلم(١).

هذا الدعاءُ: (**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**) قد بيَّن النبيُّ ﷺ الدَّاعِيَ القويَّ إليه، والمُوجِبَ للاهتمامِ به والإكثارِ منه؛ وذلك بقوله ـ قبله ـ: (**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**).

وجاء مِثْلُ ذلك أيضًا في حديث أنس ﵁، قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أن يقولَ: (**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**)، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، آمَنَّا بكَ وبما جِئْتَ به، فهل تخافُ علينا؟ قال: (**نَعَمْ؛ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**)»؛ رواه الترمذي، وابن ماجه(٢).

وكذلك في حديث عائشة ﵂، قالتْ: «دَعَوَاتٌ كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ يدعو بها: (**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**)، قالت: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّكَ تُكْثِرُ تدعو بهذا الدعاءِ؟ فقال: (**إِنَّ قَلْبَ الآدَمِيِّ بَيْنَ**

(١) تقدم تخريجه ص(٨٧١).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١١٢)، و«جامع الترمذي» رقم (٢١٤٠)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٣٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ٤٤٤).

إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ ﷻ؛ فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ، وإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ»؛ رواه أحمد(١).

قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: «فيه بيانُ أنَّ العبدَ ليس إليه شيءٌ مِنْ أمرِ سعادتِهِ أو شقاوتِهِ، بل إنِ اهتَدَى فبهدايةِ اللهِ إيَّاه، وإنْ ثبَتَ على الإيمانِ فبتثبيتِهِ، وإن ضلَّ فبصَرْفِهِ عن الهدى؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال الله ﷻ إخبارًا عن حَمْدِ أهلِ الجَنَّة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧]»(٢).

فتبيَّن بهذا أنَّ اللهَ تعالى هو الذي يَتَوَلَّى قلوبَ عباده، فيَتَصَرَّفُ فيها بما شاء، لا يَمْتَنِعُ عليه شيءٌ منها، ولا تَفُوتُهُ إرادةٌ، ولا يَكِلُها إلى أحدٍ مِنْ خلقه.

وعلى العبدِ أنْ يَلْجَأَ إلى اللهِ تعالى ويُكْثِرَ مِنْ هذا الدعاء، كما كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ منه، وفي هذا إعلامٌ للأُمَّةِ بأنَّ نَفْسَهُ الزكيَّةَ إذا كانتْ مفتقرةً إلى أنْ تَلْجَأَ إلى اللهِ سبحانه لتثبيتِ قَلْبه، فكيفَ الأمرُ بِمَنْ هو دونه؟! وكلُّ العبادِ دونه، فما أحوَجَ المسلمَ إلى تثبيتِ الله له على دينِهِ القويم، الذي هو سببُ النجاةِ والفلاحِ والوقايةِ مِنَ الذنوبِ وغوائلها، والله يقول: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والعبدُ ـ مع هذا ـ محتاجٌ إلى بَذْلِ المَسَاعِي النافعة، وسلوكِ المسالكِ الصالحة؛ لينالَ رضا اللهِ وهدايتَهُ وتوفيقَهُ؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

٤ ـ وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ: «أنه كان يدعو بهذا الدعاء: **(اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي،**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٩٤).

(٢) «شرح السنة» للبغوي (١/ ١٦٧).

اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، ومَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ)؛ رواه البخاري ومسلم(١).

۞ **وهذا الدعاءُ مِنْ أجمعِ الأدعيةِ في الاستغفار**؛ لأنَّه دعاءٌ بألفاظِ التعميمِ والشمول، مَعَ البَسْطِ والتفصيلِ بذكرِ كلِّ معنًى بصريحِ لفظِهِ، دُونَ الاكتفاءِ بِدَلَالةِ اللفظِ الآخَرِ عليه؛ ليأتيَ الاستغفارُ على ما عَلِمَهُ العبدُ مِنْ ذنوبه وما لم يَعْلَمْه، ومعلومٌ أنه لو قيل: اغفرْ لي كلَّ ما صَنَعْتُ، كان أوجزَ، ولكنَّ ألفاظَ الحديثِ في مقامِ الدعاءِ والتضرُّع، وإظهارِ العبوديَّةِ والافتقار، واستحضارُ الأنواعِ التي يتوبُ العبدُ منها تفصيلًا أحسنُ وأبلغُ مِنَ الإيجازِ والاختصار(٢).

وهذا الدعاءُ والاستغفارُ مِنَ النبيِّ ﷺ هو على سبيلِ الافتقارِ والعبوديَّةِ لربِّه ﷻ، والتعليم لأمته، وأنَّ أحدًا من العبادِ لا يكونُ في غِنًى عن ربِّه وعن عَفْوِهِ ورحمتِهِ ومغفرته، بل حاجةُ العبادِ إلى مغفرتِهِ ورحمتِهِ وعفوه، كحاجتهم إلى حفظِهِ وكَلَاءَتِهِ ورزقه، فإنْ لم يَحْفَظْهم هَلَكُوا، وإنْ لم يَرْزُقْهم هَلَكُوا، وإن لم يغفرْ لهم ويَرْحَمْهم هَلَكُوا وخَسِرُوا؛ ولهذا قال أبوهم آدمُ وأُمُّهم حَوَّاءُ عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ وهذا شأنُ وَلَدِهما مِنْ بعدهما(٣).

٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رجلًا قال: يا رَسُولَ اللهِ، سَمِعْتُ دُعَاءَكَ الليلةَ، فكان الذي وَصَلَ إليَّ منه أنك تقولُ: (**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَوَسِّعْ لِي فِي دَارِي، وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي**)، قال: (**فَهَلْ تَرَاهُنَّ تَرَكْنَ شَيْئًا؟!**)»؛ رواه الترمذي(٤)، وفي سنده ضعفٌ؛ إلَّا أنَّ الدعاءَ المذكورَ ورَدَ ما يشهدُ له عند

(١) تقدم تخريجه (ص٤٧٦).
(٢) **انظر**: «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٣)، و«جلاء الأفهام» (ص٢٠٣)؛ كلاهما لابن القيم.
(٣) **انظر**: «شفاء العليل» (١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٩).
(٤) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٠٠)، قال الألباني في «ضعيف الترمذي» (ص٤٠٧): «ضعيف، لكن الدعاء حسن».

أحمد[١]، مِنْ حديثِ رجلٍ مِنَ الصحابة، وعندَ النَّسَائيِّ وابنِ السُّنِّيِّ[٢]، من حديث أبي موسى رضي الله عنه؛ وهي دعوةٌ عظيمةٌ ما تَرَكَتْ شيئًا مِنَ الخيرِ إلَّا تناوَلَتْهُ.

فقوله: (**اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي**)؛ **أي**: ما وقَعَ مِنِّي مِنْ زَلَلٍ وتقصيرٍ وفعلٍ لِمَا لا يليق، وغُفْرانُ الذنوب أساسٌ لكلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]؛ ولهذا ناسَبَ تقديمَ طلبِ المغفرةِ على سؤالِ اللهِ سَعَةَ الدارِ، والبركةَ في الرزق.

وقوله: (**وَوَسِّعْ لِي فِي دَارِي**)؛ **أي**: وَسِّعْ لي في مسكني في الدنيا؛ لأنَّ سَعَتَهُ مِنْ سعادةِ الدنيا، أو المرادُ القبرُ؛ فإنه الدارُ الحقيقية، أو المرادُ الجَنَّةُ، فهي دارُ الخلودِ والنعيمِ المقيمِ الذي لا يَحُولُ ولا يزول، ولا يمنعُ أنْ يكونَ اللفظُ متناولًا لذلك كله.

وقوله: (**وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي**)؛ **أي**: اجعَلْهُ مُبارَكًا محفوفًا بالخير، والبَرَكَةُ في الرزقِ؛ **تعني**: ثباتَهُ وزيادتَه.

❀ ❀ ❀

---

(١) «المسند» (٤/٦٣).

(٢) «عمل اليوم والليلة» للنَّسائي رقم (٨٠)، و«عمل اليوم والليلة» لابن السُّنِّيِّ رقم (٢٨).

٢١٧

دَعَوَاتٌ جَامِعَةٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٣)

٦ ـ عن عبد الله بن عَبَّاس ﵄، قال: كان النبيُّ ﷺ يدعو: (**رَبِّ، أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي ويَسِّرِ الهُدَىٰ لِي، وَانْصُرْنِي عَلَىٰ مَنْ بَغَىٰ عَلَيَّ، اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ، تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي**)؛ رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه(١).

وهذا الدعاءُ العظيمُ اشتَمَلَ على اثنَيْنِ وعشرينَ سؤالًا ومَطْلَبًا؛ هي من أهمِّ مطالبِ العبدِ، وأسبابِ صلاحِهِ وسعادتِهِ في الدنيا وفي الآخرة:

فأولُ ذلك: قولُهُ: (**رَبِّ، أَعِنِّي**)، وهو طَلَبُ العونِ مِنَ الله؛ **أي**: وَفِّقْني لِذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادتك، وفي مقابلةِ الأعداءِ أَمِدَّني بمعونتك وتوفيقك.

والثاني: قوله: (**وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ**)؛ **أي**: لا تُغَلِّبْ عليَّ مَنْ يَمْنَعُني مِنْ طاعتك؛ مِنَ النفسِ الأَمَّارة بالسوء، ومِنْ شياطينِ الإنسِ والجِنّ.

والثالث: قوله: (**وَانْصُرْنِي**)، وهو طلَبُ النصر؛ **أي**: اغلبني على الكفار أعدائي وأعداءِ دينك، **وقيل**: انْصُرْني على نفسي الأَمَّارَةِ بالسوء؛ فإنها أعدى أعدائي.

والرابـع: قوله: (**وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ**)؛ **بمعنى**: لا تُسلِّطْ عليَّ أحدًا مِنْ خلقك.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٢٧)، و«سنن أبي داود» رقم (١٥١٠)، و«جامع الترمذي» رقم (٣٥٥١)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٣٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١/ ٤١٤).

والخامس: قوله: **(وَامْكُرْ لِي)**؛ **أي**: أَلْحِقْ مَكْرَكَ بأعدائي، وارزقني الحِيلَةَ السليمة، والفكرَ القويمَ للسلامةِ مِنْ شَرِّهم ودَفْعِ كيدهم؛ بحيثُ لا يَشْعُرُ العدوُّ بما هَدَيْتَني إليه مِنْ سُبُلِ دَفْعِ كيدهم وعدوانهم.

والسادس: قوله: **(وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ)**؛ **أي**: ولا تَهْدِ عَدُوِّي إلى طريقِ دفعِهِ إيَّايَ عن نفسه.

والسابع: قوله: **(وَاهْدِنِي)**؛ **أي**: دُلَّنِي على أبوابِ الخيرات، ومُنَّ عليَّ بالعلمِ النافع، وبَصِّرْني بعيوبِ نفسي.

والثامن: قوله: **(وَيَسِّرِ الهُدَىٰ لِي)**؛ **أي**: وسَهِّلْ لي اتِّباعَ الهدايةِ، وسلوكَ طريقها، وهَيِّئْ لي أسبابَ الخير، حتى لا أَسْتَثْقِلَ الطاعةَ، ولا أَشْتَغِلَ عن العبادة.

والتاسع: قوله: **(وانْصُرْنِي عَلَىٰ مَنْ بَغَىٰ عَلَيَّ)**؛ **أي**: وانْصُرْني على مَنْ ظلمني وتَعَدَّى عليَّ؛ وهذا تخصيصٌ بعدَ قوله أولًا: **(وَانْصُرْني وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ)**.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ: «فقوله: **(وانْصُرْنِي عَلَىٰ مَنْ بَغَىٰ عَلَيَّ)**: دعاءُ عادلٍ لا دعاءُ معتدٍ؛ يقولُ: انصُرْني على عَدُوِّي مطلقًا»(١).

والعاشر: قوله: **(اللَّهُمَّ، اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا)**؛ **أي**: أَلهِمْنِي شُكْرَكَ على نَعْمائِكَ وآلائِكَ عليَّ.

والحاديَ عشَرَ: قوله: **(لَكَ ذَاكِرًا)**؛ **أي**: في الأوقاتِ كلِّها؛ قائمًا، وقاعدًا، وعلى جَنْب.

والثانيَ عَشَرَ: قوله: **(لَكَ رَاهِبًا)**؛ **أي**: خائفًا منك في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء.

والثالثَ عشَرَ: قوله: **(لَكَ مِطْوَاعًا)**؛ **أي**: كثيرَ الطَّوْعِ، وهو الانقيادُ والامتثالُ والطاعة.

---

(١) «الرد على البكري» (١/ ٢٠٧).

والرابعَ عشَرَ: قوله: **(لَكَ مُخْبِتًا)**: مِنَ الإخباتِ، وهو الخشوعُ والتواضعُ والخضوعُ؛ **والمعنى**: اجعلني لك خاشعًا متواضعًا خاضعًا.

ويقالُ: أَخْبَتَ إلى اللهِ: اطمَأَنَّ إليه، وخشَعَ له وخضَعَ، وعلامتُهُ أنْ يَذِلَّ القلبُ بين يَدَيْ ربِّه إجلالًا وذُلًّا له وانكسارًا.

والخامسَ عشَرَ: قوله: **(إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا)**؛ **الأَوَّاهُ**: هو كثيرُ الدعاءِ والتضرُّعِ والبكاء، **والمنيبُ**: هو التائبُ الراجعُ إلى اللهِ في أموره.

واكتفى في قوله: **(أَوَّاهًا مُنِيبًا)**، بصلةٍ واحدةٍ؛ لكونِ الإنابةِ لازمةً للتأوُّهِ ورديفًا له؛ فكأنهما شيءٌ واحد؛ ومِنْ ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ في هذا وفيما قَبْلَهُ للاهتمامِ والاختصاص، وتحقيقِ الإخلاص.

والسادسَ عشَرَ: قوله: **(رَبِّ، تَقَبَّلْ تَوْبَتِي)**؛ **أي**: بجعلها صحيحةً بشرائطِهَا واستجماعِ آدابها.

والسابعَ عشَرَ: قوله: **(وَاغْسِلْ حَوْبَتِي)**؛ **أي**: وامْحُ ذنبي وإثمي.

والثامنَ عشَرَ: قوله: **(وَأَجِبْ دَعْوَتِي)**؛ **أي**: دعائي.

والتاسعَ عشَرَ: قوله: **(وَثَبِّتْ حُجَّتِي)**؛ **أي**: على أعدائِكَ في الدنيا والعُقْبَى، وثَبِّتْ قولي وتصديقي في الدنيا وعندَ سؤالِ المَلَكَيْن.

والعِشْرون: قوله: **(وَاهْدِ قَلْبِي)**؛ **أي**: إلى معرفةِ ربِّي، ومعرفةِ الحَقِّ والهدى الذي أَمَرَ به، وبعَثَ به رسلَهُ.

والحادي والعِشْرون: قوله: **(وَسَدِّدْ لِسَانِي)**؛ **أي**: صَوِّبْ وقَوِّمْ لساني حتى لا يَنْطِقَ إلَّا بالصدقِ والقولِ السديد.

والثاني والعِشْرون: قوله: **(وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي)**؛ **أي**: وأَخْرِجْ سَخِيمَةَ صَدْري، وهي غِشُّهُ وغِلُّهُ، وحِقْدُهُ وحَسَدُهُ، ونحوُها؛ مما ينشأُ مِنَ الصدرِ ويسكُنُ في القلبِ من مساوئِ الأخلاق.

وبهذا الشرحِ المُوجَزِ لِمَا اشتَمَلَ عليه هذا الدعاءُ مِنَ المسائلِ العظيمة، والمطالبِ الجليلة: يَتبيَّنُ عِظَمُ شأنِ هذا الدعاء، وأنه مما ينبغي الاهتمامُ به، وملازمةُ التضرُّعِ به إلى الله تعالى.

وقد ذكَرَ الحافظُ البَزَّارُ في ترجمةِ شيخِ الإسلام ابن تيميَّةَ أنَّ هذا الدعاءَ كان غالبَ دعائِهِ رَحِمَهُ اللهُ[1].

❁ ❁ ❁

(١) «الأعلام العلية، في مناقب ابن تيمية» (ص٣٧).

٢١٨

دَعَوَاتٌ جَامِعَةٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٤)

٧ ـ عن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ علَّمها هذا الدعاءَ: (**اللَّهُمَّ، إنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ ومَا لَمْ أَعْلَمْ، وأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ ومَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ، إنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبيُّكَ، وأَعُوذُ بِكَ مِمَّا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ، إنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا**)؛ رواه ابن ماجه، والبخاريُّ في «الأدب المفرد»[(١)].

وفي رواية البخاري في «الأدب المفرد»، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «(**يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِجُمَلِ الدُّعَاءِ وَجَوَامِعِهِ**)، قالتْ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، وما جُمَلُ الدعاءِ وجوامعُهُ؟ قال: (**قُولِي: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّه...**)»، إلى آخر الدعاء.

فدلَّت هذه الروايةُ على أنَّ هذا الدعاءَ مِنْ جوامعِ الأدعيةِ التي تجمعُ المعانيَ الكثيرةَ، والمقاصدَ الصحيحةَ، والأغراضَ الصالحةَ، بألفاظٍ يسيرةٍ.

وهذا ظاهرٌ في الحديث؛ فإنَّ قولَهُ: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ ومَا لَمْ أَعْلَمْ**)، شَمِلَ جميعَ الخيراتِ في الدنيا والآخرة، الظاهرةِ منها والباطنة.

---

(١) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٤٦)، و«الأدب المفرد» للبخاري رقم (٦٣٩)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٤٢).

وقوله: (**وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ؛ عَاجِلِهِ وآجِلِه، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ ومَا لَمْ أَعْلَمْ**)، شَمِلَ جميعَ الشرورِ في الدنيا والآخرة، الظاهرةِ منها والباطنة.

وقوله: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ**): تأكيدٌ لِمَا قبله، وتفضيلٌ لاختيارِ رسولِ اللهِ ﷺ على اختيارِ الداعي؛ لكمالِ نُصْحِهِ، ولِعِظَمِ حِرْصِهِ، ولكونِهِ أَوْلَى بالمؤمنينَ من أنفسهم، وأنصحَ لأنفسهم منهم، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه.

وقوله: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ**): دعاءٌ بالفوزِ بالجَنَّةِ، والتمكُّنِ مِنَ الأسبابِ الموصِلةِ إليها، وهو تخصيصٌ مِنَ الخيرِ بطلبِ الجَنَّةِ؛ لأنها أعظمُ الخيرِ وأكملُهُ وأبقاه.

وقوله: (**وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ**): دعاءٌ بالوقايةِ مِنَ النارِ ومِنَ الأسبابِ المُوجِبَةِ لدخولها، وهو كذلك تخصيصٌ مِنَ الشرِّ بالاستعاذةِ مِنَ النار خاصَّةً؛ لأنها أشدُّ الشرِّ وأدهاه وأبقاه.

وقوله: (**وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا**)، في رواية البخاري - في «الأدب المفرد» -: (**ومَا قَضَيْتَ لِي مِنْ قَضَاءٍ، فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا**)، وهي مفسِّرةٌ للرواية الأخرى؛ **أي**: أن تكونَ عواقبُ ما يقضيه اللهُ على عبدِهِ المؤمنِ حميدةً، ومآلاتُها رشيدةً؛ إنْ قضى له بنعمةٍ، نالَ بها ثوابَ الشاكرين، وإنْ قضى له بمصيبةٍ، نالَ بها ثوابَ الصابرين المحتسبين.

ومِنْ فوائدِ هذا الحديث: أهميةُ تعليمِ الأهلِ والوَلَدِ الدعاءَ؛ **قال الصَّنْعانيُّ** رَحِمَهُ اللهُ: «وفيه: أنه ينبغي للعبدِ تعليمُ أهلِهِ أحسنَ الأدعية؛ لأنَّ كلَّ خيرٍ ينالونه فهو له، وكلّ شرٍّ يصيبُهم فهو مَضَرَّةٌ عليه»(١).

٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان رسولُ الله ﷺ يقول: (**اللَّهُمَّ، أَصْلِحْ لِي دِينِيَ الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ،**

(١) «سبل السلام» (٤/ ٤٣٨).

وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)(١).

وهو كذلك مِنْ جوامعِ دَعَواتِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام، وقد اشتَمَلَ على سؤالِ اللهِ صلاحَ الدِّين والدنيا والآخرة؛ وبدَأَ بالدِّين؛ لأنه بصلاحِهِ يَصْلُحُ ما سواه.

قوله: (**اللَّهُمَّ، أَصْلِحْ لِي دِينِيَ**): دعاءٌ بإصلاحِ الدين؛ **أي**: بأن تُوَفِّقَني للقيامِ بواجباتِهِ وآدابِهِ ومقتضياتِهِ على الوجهِ الأكمل والأتمِّ؛ وذلك بأنْ يوفِّقَ اللهُ العبدَ للتمسُّكِ بالكتابِ والسُّنَّةِ وَفْقَ هَدْيِ السلفِ الصالحِ مِنَ الصحابةِ والتابعين، والأئمَّةِ الصالحين؛ في أمورِ الاعتقادِ، والعباداتِ، والدعوةِ إلى الله تعالى، والسلوكِ الاجتماعيِّ العام.

وقوله: (**الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي**)؛ **أي**: ما أَعْتَصِمُ به في جميعِ أموري؛ كما قال الله تعالى: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفيه: أنَّ التمسُّكَ بالدِّينِ على المنهجِ الصحيحِ عِصْمةٌ للعبدِ مِنْ مُضلَّاتِ الفِتَنِ، ومِنَ الوقوعِ في الانحرافاتِ الاعتقاديَّةِ والعملية، وأنَّ إضاعةَ الدِّينِ به انفراطُ الأمرِ وضَياعُهُ، كما قال تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله: (**وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ**): دعاءٌ بإصلاحِ الدنيا؛ **أي**: بإعطاءِ الكَفَافِ فيما يحتاجُ إليه، وبأنْ يكون حلالًا ومُعِينًا على طاعةِ الله تعالى.

وقوله: (**الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي**)؛ **أي**: فيها مكانُ عيشي وزَمَانُ حياتي، وفي هذا أنَّ للناسِ في هذه الحياةِ مَعَاشًا محدودًا ورِزْقًا مُقَدَّرًا لَنْ يموتَ حتى يَسْتَتِمَّهُ.

وقوله: (**وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي**): دعاءٌ بإصلاحِ الآخرة، وإصلاحُها باللطفِ مِنَ اللهِ سبحانه والتوفيقِ منه للإخلاصِ في الطاعة، وحُسْنِ الخاتمة، والفوزِ بالنعيمِ المقيمِ في الجَنَّة.

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٠).

وقوله: **(الَّتِي فِيهَا مَعَادِي)**؛ **أي**: فيها مكانُ رجوعي، وزَمَنُ إعادتي إلى الله ﷻ؛ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: **(وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ)**؛ **أي**: اجْعَلْ طُولَ عمري فرصةً وسببًا لي في إتيانِ الخيرِ مِنَ القولِ والعمل.

وفيه: أنَّ طولَ عُمْرِ العبدِ المسلم مدعاةٌ للزيادةِ مِنْ أعمالِ البرِّ والخير.

وقوله: **(وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)**؛ **أي**: واجْعَلْ موتي وخروجي مِنْ هذه الحياة الدنيا راحةً لي مِنَ الفتنِ والمِحَنِ، والابتلاءِ بالمعصيةِ والغَفْلة.

وفيه: أنَّ المؤمنَ يَسْتَرِيحُ غايةَ الراحةِ، ويَسْلَمُ كاملَ السلامةِ بلقاءِ ربِّه ﷻ، ويَظْفَرُ بثوابِهِ العظيم، ونعيمِه المقيم، نسألُ اللهَ الكريمَ مِنْ فَضْله.

❁ ❁ ❁

٢١٩

دَعَوَاتٌ جَامِعَةٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ (٥)

٩ - عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **(اللَّهُمَّ، انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا)**؛ رواه الترمذي، وابن ماجه[١].

فهذا الحديثُ اشتَمَلَ على دعوةٍ جامعةٍ تَتعلَّقُ بالعلم، وما ينبغي أن يكونَ عليه شأنُ المسلم مَعَ العلم، **وهو يَتكوَّنُ مِنْ جملٍ ثلاثٍ في تحقيقِ هذا المطلبِ الجليل، والمَقْصِدِ العظيم**:

الأولى: قولُه: **(اللَّهُمَّ، انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي)**، وفيها سؤالُ اللهِ الانتفاعَ بما يتعلَّمه مِنَ العلومِ المفيدة؛ لأنَّ مقصودَ العلم العملُ، وكلُّ علم شرعيٍّ، فطلَبُ الشارعِ له إنما يكونُ حيثُ هو وسيلةٌ إلى التعبُّدِ به لله؛ لأنَّ الشرعَ إنما جاء بالتعبُّد، وهو المقصودُ مِنْ بَعْثَةِ الأنبياءِ ﷺ، بل جاءتِ النصوصُ مشتملةً على التهديدِ الشديد، والتغليظِ والوعيد لِمَنْ لم يعملْ بعلمه، وأنَّ المرءَ يُسألُ يومَ القيامةِ عن عِلْمِهِ ماذا عَمِلَ به، وأنَّ مَنْ لم يعملْ بعلمه يكونُ عِلْمُهُ وَبَالًا عليه وحَسْرةً وندامةً.

فلِعِظَمِ هذا المقامِ وأهميَّته، وكونِهِ هو المقصودَ الأساسَ لطلبِ العلم، قُدِّمَ هنا في هذه الدعوةِ على سؤالِ العلم، ومتى لم يَحْصُلِ انتفاعٌ بالعلم، فإنه يكونُ وَبَالًا وحُجَّةً على صاحبه؛ كما قال ﷺ: **(وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)**[٢]؛ فهو حُجَّةٌ لصاحبه إنْ عَمِلَ به، وحجةٌ عليه إنْ فَرَّطَ في العمل.

---

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩٩)، و«سنن ابن ماجه» رقم (٣٨٣٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٤٧٦).

(٢) تقدم تخريجه (ص٦٩).

ولربَّما سَعِدَ الناسُ بعلمِ الإنسان سعادةً لم يَنَلْها هو مِنْ عِلْمِهِ؛ لتفريطِهِ بالعمل؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان مِنْ أحسنِ الدعاءِ قولُهُ: اللهمَّ لا تَجْعَلْني عِبْرَةً لغيري، ولا تَجْعَلْ أَحَدًا أَسْعَدَ بما عَلَّمْتَنِي مني»[١].

وهي دعوةٌ مأثورةٌ عن مُطَرِّفِ بن عبد الله بن الشِّخِّيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ، رواها عنه الإمام أحمد في كتابه «الزهد»[٢].

الثانية: قوله: **(وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي)**، وفيها سؤالُ اللهِ أن يَمُنَّ عليه بالعلم النافع، وهو علمُ الشريعةِ الذي يُفِيدُ المُكَلَّفَ ما يجبُ عليه مِنْ أَمْرِ دينه، في عبادتِهِ ومعاملاته، والعلمُ باللهِ وبأسمائِهِ وصفاته، وما يجبُ له مِنَ القيامِ بأمرِهِ وتحقيقِ طاعته. ومِنْ علامةِ إرادةِ اللهِ الخيرَ بعبده أنْ يُوَفِّقَ عبدَهُ لطلبِ هذا العلمِ وتحصيلِهِ؛ كما ثبَتَ في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **(مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ)**[٣].

ولا تُنالُ هذه الخيريةُ بمجرَّدِ تحصيلِ العلم، بل لا بدَّ مِنَ العمل.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومفهومُ الحديثِ أنَّ مَنْ لم يفقِّهه في دينه لم يُرِدْ به خيرًا، كما أنَّ مَنْ أرادَ به خيرًا فَقَّهَهُ في دينه، ومَنْ فَقَّهَهُ في دينه، فقد أراد به خيرًا، إذا أُرِيدَ بالفقهِ العلمُ المستلزِمُ للعمل، وأمَّا إنْ أُريدَ به مجرَّدُ العلمِ، فلا يَدُلُّ على أنَّ مَنْ فَقِهَ في الدين فقد أُرِيدَ به خيرًا، فإنَّ الفِقْهَ حينئذٍ يكونُ شرطًا لإرادةِ الخير، وعلى الأوَّلِ يكونُ مُوجِبًا»[٤].

وقد ثبَتَ عن النبي ﷺ التعوذُ بالله مِنَ العلمِ الذي لا ينفع[٥].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٠٧).
(٢) «الزهد» للإمام أحمد رقم (١٣٥٨).
(٣) رواه البخاري رقم (٧١)، ومسلم رقم (١٠٣٧).
(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٤٦).
(٥) رواه مسلم رقم (٢٧٢٢)، من حديث زيد بن أَرْقَم رضي الله عنه.

الثالثـة: قولُه: **(وَزِدْنِي عِلْمًا)**، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]؛ حيثُ أمَرَ سبحانه نبيَّه ﷺ أن يسألَهُ زيادةَ العلمِ؛ فإنَّ العلمَ خيرٌ، وكثرةُ الخيرِ مطلوبةٌ، وهي مِنَ اللهِ ﷻ، والطريقُ إليها: الاجتهادُ، والشوقُ للعلمِ، وسؤالُ اللهِ، والاستعانةُ به، والافتقارُ إليه في كلِّ وقت.

والعبدُ لا يزالُ بخيرٍ ما كان على هذه الحالِ، مجتهدًا في تعلُّم ما ينفعه، منتفعًا بما يتعلَّمه، وفي ازديادٍ مِنْ ذلك إلى أن يَلْقَى اللهَ ﷻ، فَأَنْعِمْ بها مِنْ حال! وأكرِمْ به مِن مآل!

۞ **وهٰهنا لا بدَّ مِنَ التنبيهِ إلى أن مَنْ يدعو اللهَ بأن يَمْنَحَهُ العلمَ النافع، وأن ينفعَهُ بما علَّمه، وأنْ يَزِيدَهُ علمًا، لا بدَّ له ـ مَعَ هذا ـ** مِنْ بذلِ الأسبابِ المشروعةِ لتحصيلِ العلمِ، وحُسْنِ الانتفاع به؛ مِنْ خلالِ التدرُّجِ في مراتبه، والترقِّي في منازِلِهِ، والسلوكِ في طريقه، لا أنْ يَقْتَصِرَ على الدعاءِ دُونَ بذلٍ للأسباب؛ فإنَّ «الأدعيةَ القرآنية والنبويَّةَ الأمرُ بها أو الثناءُ على الداعين بها يَسْتتبعُ لوازمَها ومتمِّماتِها، فسؤالُ اللهِ الهدايةَ يستدعي فِعْلَ جميعِ الأسبابِ التي تُدْرَكُ بها الهدايةُ العلميَّةُ والعَمَليَّة»[(١)]، وكذلك سؤالُ اللهِ العلمَ يستدعي فعلَ جميعِ الأسبابِ التي يُنالُ بها العلمُ، ويَتحقَّقُ مِنْ خلالها الانتفاعُ به.

وقد لخَّص ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ **هذه الوسائلَ في ستِّ نقاط؛ فقال:** «للعلم ستُّ مراتبَ: **(أولها)**: حُسْنُ السؤال، **(الثانية)**: حُسْنُ الإنصاتِ والاستماع، **(الثالثة)**: حُسْنُ الفهم، **(الرابعة)**: الحفظُ، **(الخامسة)**: التعليمُ، **(السادسة)** ـ وهي ثمرتُهُ ـ: وهي العملُ به ومراعاةُ حدوده»[(٢)]، ثم بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ حِرْمَانَ العلمِ يكونُ بأضدادِ هذه الأمور: بتركِ السؤال، وسُوءِ الإنصاتِ وعدمِ إلقاءِ السمع، وسوءِ الفهم، وعَدَمِ الحفظ، وعَدَمِ نشرِ العِلْمِ وتعليمه، وعَدَمِ العملِ به.

---

(١) «مجموع الفوائد» لابن سعدي (ص٩٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١١).

وكم هو جميلٌ بالمسلمِ أن يُدْرِكَ حاجتَهُ إلى العلم، وضرورتَهُ إليه، فيسألَ ربَّهُ أن يَسْلُكَ به طريقَ العلمِ النافع، وأن يُوَفِّقَهُ للانتفاعِ والارتفاعِ في درجاتِ العلمِ والعمل. وحاجةُ العبدِ إلى العلمِ أعظمُ مِنْ حاجتِهِ إلى الطعامِ والشراب؛ لأَن حاجةَ المرءِ إلى الطعامِ والشرابِ في اليومِ مَرَّاتٌ معدودةٌ، وأمَّا حاجتُه إلى العلمِ، ففي جميعِ الأوقات.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الناسُ أحوجُ إلى العلم منهمْ إلى الطعامِ والشراب؛ لأنَّ الطعامَ والشرابَ يُحْتَاجُ إليه في اليومِ مَرَّةً أو مرتَيْن، والعلمُ يُحتاجُ إليه في كلِّ وقت»[١].

هذا، وإنا لنسألُ اللهَ أن يَنْفَعَنا بما عَلَّمَنَا، وأنْ يُعَلِّمَنا ما يَنْفَعُنا، وأنْ يَزِيدَنَا علمًا؛ إنه سميعٌ مجيبٌ قريب.

❋ ❋ ❋

---

(١) ذكره ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٠١).

٢٢٠

أَحَادِيثُ ٱلِاسْتِعَاذَةِ
(١)

إنَّ الاستعاذةَ بابٌ مهم في الأدعية النبوية، والأحاديثُ الثابتةُ عن النبي ﷺ في هذا البابِ دالَّةٌ كلُّها على عظيمِ عنايتِهِ، وشِدَّةِ اهتمامِهِ بهذا النوع مِنَ الدعاء، فأحاديثُ الاستعاذةِ كثيرةٌ، وهي كذلك متنوعةٌ مِنْ حيثُ الأمورُ التي استعاذَ منها ﷺ، أو أمَرَ بالاستعاذةِ منها.

ولا بد في هذا الباب مِنْ معرفةِ ثلاثةِ أمور:

الأول: معرفةُ معنى الاستعاذةِ:

وهي طَلَبُ العَوْذ؛ **قال العلامة ابن القيِّم** رَحِمَهُ اللهُ: «اعلَمْ أنَّ لفظَ: «**عَاذَ**» وما تَصرَّفَ منها تَدُلُّ على التحرُّزِ والتحصُّنِ والنجاة، **وحقيقةُ معناها**: الهروبُ من شيءٍ تخافُهُ إلى مَنْ يَعْصِمُكَ منه؛ ولهذا يُسمَّى المُسْتَعَاذُ به مَعَاذًا، كما يُسَمَّى مَلْجَأً ووَزَرًا»[١].

الثاني: معرفةُ المُسْتَعَاذِ به:

والمستَعاذُ به الذي يُطْلَبُ منه العَوْذُ، ويُعْتَصَمُ به، ويُلْتَجأُ ويُهْرَبُ إليه: هو اللهُ وحده، الذي بيدِهِ مَلَكوتُ السمٰواتِ والأرض، والذي هو على كلِّ شيء قدير، وهو ربُّ العالمين، فلا يُستعاذُ إلَّا به، ولا يُستعاذُ بأحدٍ مِنْ خلقه، بل هو الذي يُعِيذُ المستعيذين، ويَعْصِمُهُمْ ويمنعهم مِنْ شرِّ ما استعاذوا مِن شَرِّه.

فالاستعاذةُ باللهِ تعالى عبادةٌ عظيمة، يجبُ إفرادُهُ سبحانه بها، وعدَمُ

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٠).

إشراكِ شيءٍ آخَرَ معه فيها؛ وهذا مِنْ تحقيقِ التوحيدِ وإخلاصِ الدِّينِ لله تعالى وحده، الذي هو أساسُ سَعَادةِ العبدِ، وفلاحِهِ في الدنيا والآخرة.

وأمَّا الاستعاذةُ بغيرِ اللهِ تعالى مِنَ الخَلْق، فإنها طُغْيانٌ وشرٌّ عظيم؛ كما قال الله تعالى حكايةً عن مؤمني الجِنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قال ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما **- في هذه الآية -**: «كان رجالٌ مِنَ الإنس يَبِيتُ أَحَدُهُمْ بالوادي في الجاهليَّةِ، فيقولُ: أَعُوذُ بِعَزِيزِ هذا الوادي، فزادَهُمْ ذلك إثمًا»[١].

لأنَّ ذلك مِنَ الشِّرْك؛ ولذا نَزَلَتْ سورتا المعوِّذتين لتعليمِ الاستعاذةِ باللهِ تعالى وحده، والتبرُّؤِ مِنَ الاستعاذةِ بغيره، وكذلك أذكارُ الاستعاذةِ المأثورةُ، فإنها إرشادٌ لذلك.

وعلى كلٍّ، فإنَّ مِنَ الضروريِّ معرفةَ العبدِ أنْ ليسَ للخلقِ مَعَاذٌ ولا مَلْجَأٌ ولا مَنْجًى سوى اللهِ تعالى، وأنه لا شيءَ يُستعاذُ منه إلَّا واللهُ ربُّه وخالقُه، وتحتَ قَهْرِهِ وسلطانه.

وهذا كلُّه تحقيقٌ للتوحيد والقَدَر، وأنه لا ربَّ غيره، ولا خالقَ سواه، ولا يملكُ المخلوقُ لنفسه ولا لغيرِهِ ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل الأمرُ كلُّه لله، ليس لأحدٍ سواه منه شيءٌ.

الثالث: معرفةُ أنواعِ المستعاذِ منه:

فقد ورَدَ في السُّنَّةِ الاستعاذةُ مِنْ أنواعٍ عديدةٍ مما ينبغي للعبدِ الالتجاءُ إلى الله تعالى ليعصمَهُ منها، **وهي في الجُمْلةِ نوعان**: موجودٌ يُطْلَبُ رَفْعُه، ومعدومٌ يُطْلَبُ بقاؤُهُ على العدم، وأنْ لَا يُوجَدَ؛ كما أنَّ الخيرَ المطلقَ **نوعان**: موجودٌ يُطْلَبُ دوامُهُ وثباتُهُ وأنْ لَا يُسْلَبَ، ومعدومٌ يُطْلَبُ وجودُهُ وحصولُه.

فهذه أربعةٌ هي أمَّهاتُ مطالبِ السائلين مِنْ ربِّ العالمين، وعليها مَدَارُ طَلَبَاتهم.

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٣/ ٣٢٢).

وإذا تبيَّن هذا، فينبغي للعبدِ المسلم معرفةُ أنواعِ ما جاءتِ السُّنَّةُ النبويَّةُ بالاستعاذةِ منها، لاسيَّما ما كان مِنْ ذلك بأوجزِ لفظٍ وأجمعِهِ وأدلِّهِ على المرادِ، وأعَمِّهِ استعاذةً.

وسنقفُ بإذن الله ﷻ على جملةٍ طيبةٍ مِنَ الأحاديثِ الواردةِ في هذا الباب، مع بيان لشيءٍ مِنْ معانيها ودَلالاتها:

١ - فعن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلْشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وكَثِيرُهُ؟**)، قَالَ: (**قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ**)؛ رواه البخاري في «الأدب المفرد»(١).

وله شاهدٌ من حديث أبي موسى الأشعري ﵁، قال: «خَطَبَنَا رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ، فقال: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**)، فقال له مَنْ شاءَ اللهُ أنْ يقولَ: وكيف نَتَّقِيهِ وهو أَخْفَى مِنْ دبيبِ النَّمْلِ يا رسولَ اللهِ؟ قال: (**قُولُوا: اللَّهُمَّ، إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، ونَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا نَعْلَمُ**)»؛ رواه أحمدُ في «المسند»(٢).

وقد اشتمَلَ هذا الحديث على أعظمِ شَرٍّ يُستعاذُ باللهِ منه؛ فإنَّ الشركَ باللهِ أظلمُ الظلمِ، وأعظَمُ الإثمِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، والآياتُ في بيانِ خطرِ الشركِ وعِظَمِ جُرْمِهِ كثيرةٌ.

وفي الحديثِ السابقِ بيانُ أنَّ الشركَ قد يكونُ خفيًّا كخفاءِ دَبِيبِ النمل، حتى إنه لخفائِهِ قد يقعُ فيه العبدُ ويَتسلَّلُ إلى نفسِهِ وهو لا يعلم؛ وهذا مما

(١) «الأدب المفرد» رقم (٧١٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٥٥٤).

(٢) «مسند أحمد» (٤/٤٠٣)، وحسَّنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٣٦).

يوجبُ شِدَّةَ الحذرِ منه، وضَرُورَةَ معرفتِهِ لِيُتَّقى ويُجْتَنَبَ، مَعَ الاعتصامِ بالله تعالى والالتجاءِ إليه لِيَعْصِمَ العبدَ مِنَ الشركِ بأنواعِهِ، ويَقِيَهُ مِنْ شرِّه وعواقِبِهِ الوخيمة؛ وهذا ما أرشَدَ إليه رسولُ الله ﷺ في هذا الحديثِ؛ حيثُ عَلَّمَ أُمَّتَهُ الاستعاذةَ بالله مِنَ الشركِ كلِّه ما عَلِمَهُ العبدُ وما لم يَعْلَمْهُ؛ قال: (**قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وأَنَا أَعْلَمُ، وأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ**)، فما أعظَمَها مِنْ دعوةٍ! وما أشدَّ حاجةَ العبد إلى العنايةِ بها! أعاذَنَا اللهُ أجمعين مِنَ الشِّرْكِ ما عَلِمْنا منه وما لم نَعْلَمْ، وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا.

❊ ❊ ❊

٢٢١

أَحَادِيثُ ٱلِاسْتِعَاذَةِ

(٢)

٢ ـ عن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقول: (**اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ، والجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُون**)؛ رواه مسلم(١).

وفي هذا الدعاءِ التعوُّذُ باللهِ مِنَ الضلال، وهو الانحرافُ عن صراطِ اللهِ المستقيم، وسبيلِهِ القويم، ودينِهِ الحنيف.

وقوله: (**اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ**)؛ **أي**: استَسْلَمْتُ وانقدتُ لأمرِكَ ونهيك، وقدَّم الجارَّ والمجرور: «لَكَ»؛ لإفادةِ القصرِ والاختصاص؛ **أي**: أسلمتُ لك وَحْدَكَ لا لغيرِك.

وقوله: (**وَبِكَ آمَنْتُ**)؛ **أي**: بذاتِكَ العليَّة، وما يليقُ بها مِنْ صفاتِ الكمالِ آمنتُ؛ **أي**: صَدَّقْتُ وأقررتُ، ويدخُلُ في الإيمانِ به سبحانه الإيمانُ بكلِّ ما أَمَرَ عباده بالإيمان به؛ كالملائكةِ، والكُتُبِ، والرسلِ، واليومِ الآخر.

وقوله: (**وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ**)؛ **أي**: فَوَّضْتُ أمري إليك دون غيرك.

وقوله: (**وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ**): مِنَ الإنابة؛ **أي**: رجعتُ إلى عبادَتِكَ وما يُقرِّبُ إليك، وأعرضتُ عمَّا سوى ذلك.

وقوله: (**وَبِكَ خَاصَمْتُ**)؛ **أي**: بكَ أحتجُّ وأدافع، وبما أَعْطَيْتَني مِنَ البراهينِ والحججِ خاصَمْتُ أعداءَكَ أعداءَ الدين، فقَصَمْتُ ظهورَهم بالبراهينِ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٨٨٧).

القويَّة، وفَلَجْتُ حُجَّتهم بالحجج السَّنِيَّة، وكلُّ ذلك من الاعتصام بالله؛ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وقوله: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ**)، هو استعاذةٌ بصفةٍ مِنْ صفاتِ الله، وهي العزةُ، **والعزُّ في الأصل**: القوةُ والشِّدَّةُ، والغَلَبَةُ والمَنَعة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ [المنافقون: ٨]؛ **أي**: له القُوَّةُ والغَلَبَة.

وقوله: (**لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ**)، شهادةٌ وإقرارٌ بتوحيدِ الله، **ومعناها**: لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ.

وقوله: (**أَنْ تُضِلَّنِي**)؛ **أي**: مِنْ أن تُضِلَّني، وهو متعلِّق بـ (**أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ**)؛ وفي هذا أنَّ الهدايةَ والضلالَ بيد الله؛ قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

وقوله: (**أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ**): ثناءٌ على الله تعالى بصفةٍ مِن صفاتِ كماله، وهي الحياةُ التامَّةُ المنزَّهةُ عن النقصِ والفناء.

وقوله: (**وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**): تأكيدٌ لانفرادِ اللهِ تعالى بكمالِ الحياة، وأنَّ الاعتمادَ لا يكونُ إلَّا على الحيِّ الذي لا يموتُ، وأمَّا الأحياءُ الذين يموتون، فلا يُعْتَمَدُ عليهم؛ فكيف بالأمواتِ والمقبورين؟! قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

٣ ـ وعن سعد بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه، قال: «تَعَوَّذُوا بكلماتٍ كان النبيُّ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِهِنَّ: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلى أَرْذَلِ العُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ القَبْرِ**)»[(١)].

(١) رواه البخاري رقم (٦٣٧٤).

وقد اشتَمَلَ هذا الحديثُ على التعوُّذِ بالله مِنْ خمسة أمور:

أحدها: قوله: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ)**، وهو تَعَوُّذٌ مِنَ الجُبْنِ، وهو ضِدُّ الشجاعةِ؛ **أي**: المهابةِ للأشياءِ والتأخُّرِ عن فعلها، وهو ناتجٌ عن ضعفِ القلبِ، وخشيةِ النفس، وهو مِنَ الخِلالِ المذمومةِ التي لا تَصْلُحُ أنْ تكونَ في المؤمن.

الثاني: قوله: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ)**، وهو تعوُّذٌ مِنَ البُخْلِ، وهو مَنْعُ الواجب، أو مَنْعُ السائلِ عمَّا يَفْضُلُ عنده، أو أنْ لَا يُعْطِيَ شيئًا، وهو مِنَ الصفاتِ المذمومة؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

والثالث: قوله: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ)**، وهو تعوُّذٌ مِنَ الرَّدِّ إلى أرذلِ العمر؛ **أي**: الرجوعِ إلى أرذلِ العمر، وهو البلوغُ إلى حَدٍّ في كِبَرِ السنِّ، يعودُ معه كالطِّفْلِ في ضَعْفِ عَقْلِه، وقِلَّةِ فهمه، ووَهَنِ قواه.

فالردُّ إلى أرذلِ العمرِ حالةٌ منافيةٌ لِمَا خُلِقَ الإنسانُ له مِنَ العلمِ والمعرفةِ، وأداءِ العباداتِ الظاهرةِ والباطنةِ على وَجْهِها الأكمل؛ ولهذا كانت الاستعاذةُ منه مطلوبةً؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].

والرابع: قوله: **(وأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا)**، وهو تعوُّذٌ مِنْ فتنةِ الدنيا، **وفتنتُها**: شَهَوَاتُها التي مِنْ شأنها أن تُلْهِيَ عن الله تعالى، وعن عبادتِهِ، وتَطْمِسَ القلبَ عن التطلُّعِ إلى شهودِ آلائِهِ ومِنَنِه؛ قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

والخامس: قوله: **(وَعَذَابِ القَبْرِ)**؛ أي: وأعوذُ بِكَ مِنْ عذابِ القبر، وهو ما يكونُ في البَرْزَخِ مِنَ العذابِ على الرُّوحِ والبَدَنِ لِمَنِ استَحَقَّ ذلك؛ كما قال تعالى عن فِرْعَوْنَ وآلِهِ: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر]، وفي هذا التعوُّذِ دليلٌ على إثباتِ عَذَابِ القبر، وأنه حَقٌّ؛ خلافًا لمن أنكَرَهُ مِنْ أهلِ الضلال.

❁ ❁ ❁

٢٢٢

أَحَادِيثُ ٱلِاسْتِعَاذَةِ

(٣)

٤ ـ عن أنس بن مالك ﵁، قال: «كان نبيُّ اللهِ ﷺ يقولُ: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ، والكَسَلِ، والجُبْنِ، والهَرَمِ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبرِ، وأَعُوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ المَحْيَا والمَمَاتِ)**؛ رواه البخاري ومسلم[1].

وهذا الدعاءُ المبارَكُ اشتَمَلَ على الاستعاذة من سبعة أمور:

أحدها: قوله: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ)**، وهو تعوُّذٌ مِنَ العجز، وهو ضِدُّ القُدْرة، وأصلُهُ: التأخُّرُ عن الشيء، مأخوذٌ مِنَ العَجُزِ، وهو مؤخَّرُ الشيءِ، ولِلزُومِهِ الضعفَ عن الإتيانِ بالشيءِ استُعْمِلَ في مقابلِ القُدْرة؛ **فقيل**: هو ذَهَابُ القُدْرة، وكلاهما يَحْسُنُ التعوذُ منه؛ والاستعاذةُ مِنَ العجزِ لئلَّا يَعْجِزَ العبدُ عن القيامِ بمهمَّاتِ العباداتِ الناشئ عن ارتكابِ الذنوب؛ لأنها تُوجِبُ لمرتكبها تَوَالِيَ العوائقِ، وتسابُقَ الموانعِ إليه.

والثاني: قوله: **(وَالكَسَلِ)**، وهو معطوفٌ على العَجْزِ؛ **أي**: وأعوذُ بك من الكسلِ، وهو فَتْرَةُ النفسِ والتثاقُلُ عن صالحِ الأعمالِ مَعَ القُدْرةِ عليه؛ إيثارًا لراحةِ البَدَنِ على التعب، ويكونُ ذلك لعدمِ انبعاثِ النفسِ للخير، وضعفِ الرغبةِ فيه.

قال العلامة ابن القيِّم ﵀: «والعَجْزُ والكَسَلُ قرينان؛ فإنَّ تَخَلُّفَ مصلحةِ العبدِ وكمالِهِ ولَذَّتِهِ وسرورِهِ عنه: إمَّا أنْ يكونُ مصدرُهُ عدَمَ القدرةِ ـ فهو العجز ـ أو يكونَ قادرًا، لكنْ تَخَلَّفَ لعدمِ إرادتِهِ ـ فهو الكَسَلُ ـ وصاحبُه يُلَامُ

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٦٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٦).

عليه ما لا يُلامُ على العجز، وقد يكونُ العجزُ ثمرةَ الكسلِ، فيُلامُ عليه أيضًا، فكثيرًا ما يَكْسَلُ المرءُ عَنِ الشيءِ الذي هو قادرٌ عليه، وتَضْعُفُ عنه إرادته، فيُفْضِي به إلى العجزِ عنه»(١).

وإنَّما استعاذَ النبيُّ ﷺ مِنَ العجزِ والكسل؛ لأنَّهما يمنعان العبدَ مِنْ أداءِ الحقوقِ الواجبةِ عليه، ومِنْ تحصيلِ مصالحِهِ النافعةِ له.

والثالث: قوله: **(وَالجُبْنِ)**؛ **أي**: وأعوذُ بك مِنَ الجُبْن، وقد تَقدَّمَ الكلامُ عنه، وذِكْرُ التعوذِ باللهِ منه ومِنَ البُخْل.

قال العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والجُبْنُ والبخلُ قرينان؛ فإنَّ الإحسانَ يُفرِحُ القلب، ويَشْرَحُ الصدر، ويَجْلِبُ النِّعَم، ويدفعُ النِّقَم، وتَرْكُهُ يوجبُ الضَّيْمَ والضِّيق، ويمنعُ وُصولَ النِّعَمِ إليه؛ **فالجُبْنُ**: تركُ الإحسانِ بالبدن، **والبُخْلُ**: تركُ الإحسانِ بالمال»(٢).

وقال أيضًا: «فإنَّ الإحسانَ المتوقَّعَ مِنَ العبدِ إمَّا بمالِهِ، وإمَّا ببدنِهِ؛ فالبخيلُ مانعٌ لنفعِ ماله، والجبانُ مانعٌ لنفعِ بدنه»(٣).

والرابع: قوله: **(وَالْهَرَمِ)**؛ **أي**: وأعوذُ بك مِنَ الهَرَم، وهو البلوغُ في العمرِ إلى سِنٍّ تَضْعُفُ فيه الحَوَاسُّ والقُوَىٰ، ويضطربُ فيه الفهمُ والعقل، وهو أرذلُ العُمُرِ الذي جاءَ التعوُّذُ منه في قوله: **(وأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلى أَرْذَلِ العُمُرِ)**، وقد سبَقَ ذكرُهُ وبيانُ معناه.

قال العلامة الشَّوْكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا مجردُ طولِ العُمُرِ مع سلامةِ الحَوَاسِّ وصِحَّةِ الإدراك، فذلك مما ينبغي الدعاءُ به؛ لأنَّ بقاءَ المؤمنِ ممتَّعًا بحواسِّه، قائمًا بما يجبُ عليه، متجَنِّبًا لِمَا لا يَحِلُّ له فيه حصولُ الثواب، وزيادةُ الخير»(٤). وفي الحديث: **(خَيْرُ النَّاسِ: مَن طَالَ عُمُرُهُ، وحَسُنَ عَمَلُهُ، وَشَرُّ**

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧٦).
(٢) «طريق الهجرتين» (ص٤٦٠).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧).
(٤) «تحفة الذاكرين» (ص٣٤٨).

النَّاسِ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ)؛ رواه أحمد[(١)].

وأعظَمُ ما يُعينُ على سَلَامةِ الحَوَاسِّ وصِحَّةِ الإدراكِ حالَ الكِبَرِ: المحافظةُ على الطاعة، والمواظبةُ على العبادة، وفي الحديث: **(احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ)**[(٢)]، وكذلك ذكرُ الله، وتلاوةُ كتابه؛ **قال عبد الملك بن عُمَيْرٍ** رَحِمَهُ اللهُ: «أبقى الناسِ عقولًا قَرَأَةُ القرآنِ»، **وقال الشَّعْبي** رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ قَرأَ القرآنَ لم يَخْرَفْ»[(٣)].

والخامس: قوله: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ)** وقد تَقدَّمَ الكلامُ على مثله في حديثٍ سابق، وعذابُ القبرِ حقٌّ، وقد قال ﷺ: **(أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ؛ فَإِنَّ عَذَابَ القَبْرِ حَقٌّ)**[(٤)].

والسادس والسابع: قولُه: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا والمَمَاتِ)**، وهو تَعوُّذٌ مِنْ فتنةِ الحياةِ والموت.

قال ابن دقيقِ العِيدِ رَحِمَهُ اللهُ: **(وفِتْنَةُ المَحْيَا)**: ما يَتعرَّضُ له الإنسانُ مُدَّةَ حياتِهِ مِنَ الافتتانِ بالدنيا والشهواتِ والجَهَالات، وأشدُّها وأعظمُها ـ والعياذُ بالله تعالى ـ أمرُ الخاتمةِ عندَ الموت.

وفِتنةُ المَمَاتِ: يجوزُ أن يُرادَ بها الفتنةُ عندَ الموت، أُضِيفَتْ إلى الموتِ لقُرْبِهَا منه، ويكونُ فتنةُ المحيا ـ على هذا ـ ما يقعُ قبلَ ذلك في مُدَّةِ حياةِ الإنسانِ وتَصرُّفِهِ في الدنيا؛ فإنَّ ما قارَبَ شيئًا يُعْطَى حكمَهُ، فحالةُ الموتِ شَبَهٌ بالموت، ولا تُعَدُّ مِنَ الدنيا، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بفتنةِ المماتِ فتنةَ القبر... ولا يكونُ على هذا الوجهِ متكرِّرًا مع قوله: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ**

---

(١) «مسند أحمد» (٥/ ٤٠)، ورواه الترمذي (٢٣٣٠)؛ من حديث أبي بَكْرة رضي الله عنه، وصححه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٦٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٦١).

(٣) رواهما ابن أبي الدنيا في كتاب «العمر والشيب» (ص٧٥).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٨١)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٣٧٧).

القَبْرِ)؛ لأنَّ العذابَ مُرتَّبٌ على الفتنة، والسببُ غيرُ المسبَّب، ولا يقال: إنَّ المقصودَ زوالُ عذابِ القبر؛ لأنَّ الفتنةَ نَفْسَها أمرٌ عظيم، وهو شديدٌ مستعاذٌ باللهِ مِنْ شَرِّهِ»(١).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا فتنةُ المَحْيَا والمَمَاتِ، فقال ابن بَطَّالٍ: هذه كلمةٌ جامعةٌ لمعانٍ كثيرةٍ، وينبغي للمرءِ أن يَرْغَبَ إلى ربِّه في جميعِ ذلك»(٢).

والشيطانُ أحرصُ ما يكونُ على إغواءِ بني آدمَ وقتَ الموت؛ لأنَّه وقتُ الحاجة، وقد قال ﷺ: **(الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا)**(٣)، وعدوُّ الله أحرصُ ما يكونُ على أنْ لَا يُخْتَمَ لعبدِ اللهِ المؤمنِ بالخاتمةِ الحسنةِ الطيبة؛ **قال عبد الله ابن الإمام أحمد، رحمهما الله**: «لمَّا حَضَرَتْ أبي الوفاةُ، جَعَلَ يقول: لا بَعْدُ، لا بَعْدُ، فقلتُ: يا أبتِ، أيُّ شيءٍ هذا؟ فقال: إبليسُ قائمٌ حِذَائِي، عَاضٌّ على أنامله، يقولُ لي: يا أحمدُ، فُتَّنِي، وأنا أقولُ له: لا بَعْدُ، حتى أَمُوتَ»(٤)؛ أعاذنا اللهُ منه!

❊ ❊ ❊

---

(١) «إحكام الأحكام، شرح عمدة الأحكام» (٢/ ٧٥ ـ ٧٦).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ١٧٦).
(٣) رواه البخاري رقم (٦٤٩٣)؛ من حديث سَهْل بن سعد الساعديِّ رضي الله عنه.
(٤) **انظر**: «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٤٩٥).

٢٢٣

أَحَادِيثُ ٱلاسْتِعَاذَةِ
(٤)

٥ ـ عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: «لا أقولُ لكم إلَّا كما كان رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ، كان يقولُ: (**اللَّهُمَّ، إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَالهَرَم، وَعَذَابِ القَبْر، اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وزَكِّهَا أَنْتَ خَيرُ مَن زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا ومَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ، إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْم لا يَنْفَعُ، ومِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُستَجَابُ لَهَا**)»؛ رواه مسلم[(١)].

أول هذا الحديث، وهو قوله: (**اللَّهُمَّ، إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ والكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَالهَرَمِ، وعَذَابِ القَبْر**)؛ اشتَمَلَ على التعوُّذِ مِنْ ستةِ أمورٍ تَقدَّمَ الكلامُ عنها في الأحاديثِ المذكورةِ قبلَهُ.

وقوله: (**اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا...**)، إلى آخرِ الحديثِ، تَضمَّنَ الدعاءَ بتقوى النفسِ وتزكيتها، **والاستعاذةَ مِنْ أمورٍ أربعة: مِنْ عِلْمٍ لا ينفعُ، ومِنْ قلبٍ لا يخشعُ، ومِنْ نفسٍ لا تشبعُ، ومِنْ دعوةٍ لا يُسْتَجَابُ لها**؛ وهي أمورٌ عظيمةٌ، ومطالبُ جليلةٌ؛ يَحْسُنُ الوقوفُ عندها، وتأمُّلُ معانيها ومقاصدها.

قال العَلَّامة الشَّوْكاني رحمه الله: «وقد اشتَمَلَ هذا الحديثُ على الدعاءِ منه ﷺ بأن يُعْطِيَ اللهُ سبحانه نفسَهُ تقواها وأنْ يزكِّيها؛ **أي**: يَجْعَلَهَا زاكيةً كاملةً في الإيمان.

ثم استعاذ مِنْ علمٍ لا ينفع؛ لأنه يكونُ وبالًا على صاحبه، وحُجَّةً عليه،

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٢٢).

واستعاذَ أيضًا مِنَ القَلْبِ الذي لا يخشعُ؛ لأنه يكونُ حينئذٍ قاسيًا، لا تُؤَثِّرُ فيه موعظةٌ ولا نصيحةٌ، ولا يَرْغَبُ في ترغيبٍ، ولا يَرْهَبُ مِنْ ترهيب.

واستعاذَ مِنَ النفسِ التي لا تَشْبَع؛ لأنَّها تكونُ متكالبةً على الحُطَام، مُتَجَرِّئَةً على المالِ الحرام، غيرَ قانعةٍ بما يكفيها مِنَ الرِّزْق، فلا تزالُ في تَعَبِ الدنيا، وعقوبةِ الآخرة.

واستعاذَ مِنَ الدعوةِ التي لا يُسْتَجَابُ لها؛ لأنَّ الربَّ سبحانه هو المُعْطِي المانع، الباسطُ القابض، الضارُّ النافع، فإذا تَوجَّهَ العبدُ إليه في دعائه، ولم يَسْتَجِبْ دَعْوَتَه، فقد خاب الداعي وخَسِرَ؛ لأنه طُرِدَ مِنَ الباب الذي لا يُسْتَجْلَبُ الخيرُ إلّا منه، ولا يُسْتَدْفَعُ الضُّرُّ إلَّا به»[(١)].

وقوله: (**اللَّهُمَّ، آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**)؛ فيه إيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس].

وفيه بيانٌ أنَّ الله تعالى هو الذي يَخْلُقُ أفعالَ العبدِ الظاهرةَ والباطنةَ، وهو الذي يَتصرَّفُ في النفسِ بما أرادَ مِنْ إعطائها التقوى، ومِنَ التزكيةِ لها مِنَ العيوبِ والآثام؛ فالعبدُ في كلِّ لحظةٍ مِنْ لَحظاتِ حياتِهِ مفتقرٌ إلى ربِّه، إلى هدايةٍ يَجْعَلُها اللهُ سبحانه في قلبه، وحَرَكَاتٍ يُحَرِّكُهُ بها في طاعته، وقد كان عامةُ أدعيةِ النبيِّ ﷺ مُتضمِّنةً لطلبِ توفيق ربه، وتزكيتِهِ له، واستعمالِهِ في مَحَابِّه، فَمَنْ هُدَاهُ وصلاحُهُ وأسبابُ نجاتِهِ بيد غيره؟! وهو المالكُ له ولها، المتصرِّفُ فيه بما يشاء، ليس له مِنْ أمرِهِ شيء، مَنْ أحقُّ بالخَوْفِ منه؟!

وقوله: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا**):

قال بعضُ العلماء: «اعلَمْ أنَّ في كلٍّ مِنَ القرائنِ الأربعِ ما يُشْعِرُ بأنَّ وجودَهُ مبنيٌّ على غايته، وأنَّ الغرضَ منه تلك الغايةُ؛ وذلك أن تحصيلَ العلومِ

---

(١) «تحفة الذاكرين» (ص٣٥٠ ـ ٣٥١).

إنما هو للانتفاعِ بها، فإذا لم ينتفعْ بها، لم يَخْلُصْ منها كفافًا، بل كان عليه وَبَالًا؛ ولذا استعاذَ مِنْ ذلك.

وأنَّ القلبَ إنَّما خُلِقَ لِيَتَخَشَّعَ للربِّ، وينشرحَ بذلك الصدر، ويُقْذَفَ فيه النورُ، فإذا لم يكنْ كذلك كان قاسيًا، فيجبُ أن يُستعاذَ منه؛ قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وأنَّ النفسَ يُعْتَدُّ بها إذا تَجَافَتْ عن دارِ الغرور، وأنابَتْ إلى دارِ الخلود؛ فإذا كانتْ منهومةً لا تَشْبَع، وحريصةً على الدنيا لا تَقْنَعُ، كانتْ أعدى عَدُوٍّ المرء؛ فأَوْلَىٰ شيءٍ يُستعاذُ منه هي.

وعدمُ استجابةِ الدعاءِ دليلٌ على أنَّ الداعيَ لم يَنْتَفِعْ بعلمِهِ وعَمَله، ولم يَخْشَعْ قَلْبُه، ولم تَشْبَعْ نَفْسُه، والله أعلم»(١).

٦ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كان النبيُّ ﷺ يقول: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ)**؛ رواه البخاري(٢).

وقد اشتَمَلَ هذا الحديثُ على التعوُّذِ باللهِ مِنْ ثمانيةِ أمور:

الأول والثاني: (الهَمُّ والحَزَنُ)، وهما أَلَمٌ يصيبُ القلب، والهَمُّ متعلِّقٌ بالمستقبل، والحَزَنُ متعلِّقٌ بالماضي.

قال العلامة ابن القيِّم رحمه الله: «الهَمُّ والحَزَنُ قرينان؛ والفَرْقُ بينهما: أنَّ المكروهَ الواردَ على القلبِ: إمَّا أن يكونَ على ما مَضَى، أو لِمَا يستقبلُ: فالأَوَّلُ هو الحَزَنُ، والثاني: الهَمُّ»(٣).

والثالث والرابع: (العَجْزُ وَالكَسَلُ) وقد تَقَدَّمَ بيانُ معناهما.

---

(١) **انظر**: «الفتوحات الربانية» لابن علّان (٧/ ٢٠٧).
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٦٩)، وروى مسلم رقم (٢٧٠٦) بعضه.
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧٦).

والخامس والسادس: (الجُبْنُ وَالبُخْلُ)، وقد تَقدَّمَ بيانُ معناهما أيضًا.

والسابع والثامن: (ضَلَعُ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةُ الرِّجَالِ)؛ أَمَّا ضَلَعُ الدَّيْنِ: **أي**: ثِقْلُهُ وشِدَّته، حتى يَمِيلَ صاحبُهُ عَنِ الاستواءِ لِثِقَلِهِ؛ وذلك حِينَ لا يَجِدُ مَنْ عليه الدَّيْنُ وفاءً، ولا سيَّما مَعَ المطالبة.

وأَمَّا غَلَبَةُ الرِّجَال: فَتسلُّطُهُمْ وبَطْشُهم، وظُلْمُهم وعُدْوَانُهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «القهرُ الذي ينالُ العبدَ **نوعان**: **أحدهما**: قهرٌ بحقٍّ، وهو ضَلَعُ الدَّيْنِ، **الثاني**: قهرٌ بباطل، وهو غَلَبَةُ الرجالِ، فصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على مَنْ أُوتِيَ جوامعَ الكَلِم، واقتُبِسَتْ كنوزُ العلمِ والحكمةِ مِنْ ألفاظه»(١).

❁ ❁ ❁

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧٧).

٢٢٤

أَحَادِيثُ ٱلِاسْتِعَاذَةِ
(٥)

٧ - عن عائشةَ ﵂، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ، وَالهَرَمِ، وَالمَأْثَمِ، وَالمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ، اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ**)؛ رواه البخاري ومسلم(١).

وهذا الدعاءُ مشتملٌ على الاستعاذةِ مِنْ أَحَدَ عَشَرَ أمرًا، والدعاءِ بثلاثةِ أمورٍ أخرى.

فأمَّا الأمورُ المستعاذُ منها، فهي:

الأول: قوله: (**اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ**)، وقد سبَقَ الكلامُ عنه.

الثاني: قوله: (**وَالهَرَمِ**)، وقد سبَقَ الكلامُ عنه أيضًا.

الثالث: قوله: (**وَالمَأْثَمِ**)، وهو ما يُوجِبُ الإِثْمَ؛ **أي**: يكونُ سببًا للوقوعِ فيه.

الرابع: قوله: (**وَالمَغْرَمِ**)، هو ما يقتضي الغُرْمَ، وهو الدَّيْنُ؛ **أي**: ما يلزمُ الإنسانَ أداؤُهُ بسببِ جنايةٍ أو معاملةٍ ونحوه.

وفي الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ قيل له: ما أَكْثَرَ ما تستعيذُ مِنَ المَغْرَمِ؟

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٦٨)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٩) [بعد الحديث (٢٧٠٥)].

فقال: **(إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، ووَعَدَ فَأَخْلَفَ)**، رواه البخاري ومسلم(١).

والمأثمُ والمغرمُ يَتضمَّنانِ الإشارةَ إلى حقِّ اللهِ وحقِّ العبد، **فالمأثمُ**: إشارةٌ إلى حَقِّ الله، **والمغرمُ**: إشارةٌ إلى حَقِّ العبد.

الخامس: قوله: **(وَمِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ)**، هي سؤالُ الملَكَيْنِ في القبر.

السادس: قوله: **(وَعَذَابِ القَبْرِ)**، وسبَقَ الكلامُ عنه.

السابع: قوله: **(وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ)**، وهي سؤالُ الخَزَنةِ على سبيلِ التوبيخ والتقريع؛ وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

الثامن: قوله: **(وَعَذَابِ النَّارِ)**، سبَقَ الكلامُ عنه.

التاسع: قوله: **(وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الغِنَىٰ) ومعناه**: ما يَحْصُلُ بسببِهِ مِنَ البَطَرِ والأَشَرِ، والشُّحِّ بما يجبُ إخراجُهُ مِنْ واجباتِ المالِ ومندوباته.

العاشر: قوله: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الفَقْرِ)**، يُرادُ به الفقرُ المُدْقِعُ، الذي لا يَصْحَبُهُ خيرٌ ولا وَرَعٌ؛ حتى يَتورَّطَ صاحبُهُ بسببِهِ فيما لا يليقُ بأهلِ الدينِ والمُرُوءَةِ، ولا يُبالي بسببِ فاقتِهِ على أيِّ حرامٍ وَثَب، ولا في أيِّ حالةٍ تورَّط، **وقيل**: فتنةُ الفقرِ: ما يَحْصُلُ بسببِهِ مِنَ السَّخَطِ والقُنُوطِ لِمَنْ لا صَبْرَ له يمنعُهُ من ذلك، ولا إيمانَ قويٌّ يدفعُهُ عن ذلك، **وقيل**: المرادُ بالفقرِ: فقرُ النفسِ الذي لا يَرُدُّه مُلْكُ الدنيا بحذافيرها.

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وأما استعاذتُهُ ﷺ مِن فتنةِ الغِنَىٰ، وفتنةِ الفقر، فلأنهما حالتان تُخْشَى الفتنةُ فيهما بالتسخُّط، وقِلَّةِ الصبر، والوقوعِ في حرامٍ أو شُبْهةٍ للحاجة، ويُخافُ في الغِنَىٰ مِنَ الأَشَرِ والبَطَرِ والبُخْلِ بحقوقِ المال، أو إنفاقِهِ في إسرافٍ وفي باطلٍ، أو في مَفَاخِرَ»(٢).

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٨٣٢)، و«صحيح مسلم» رقم (٥٨٩)؛ من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.
(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ٢٨).

الحاديَ عَشَرَ: قوله: **(وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ)**، وهو تعوُّذٌ باللهِ مِنْ فتنةِ المَسِيحِ الدَّجَّال، وهي أعظمُ الفِتَنِ الكائنةِ في الدنيا؛ كما في حديث هِشَامِ بنِ عامرٍ الأنصاريِّ ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: **(مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ خَلْقٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ)**؛ رواه مسلمٌ، وفي رواية الإمام أحمد: **(فِتْنَةٌ أَكْبَرُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ)**(١).

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمرادُ بفتنةِ المَسِيحِ الدجال: هي ما يظهرُ على يَدِهِ مِنَ الأمور التي يُضِلُّ بها مَنْ ضَعُفَ إيمانُهُ، كما اشتَمَلَتْ على ذلك الأحاديثُ المشتملةُ على ذكرِهِ وذكرِ خروجه، وما يظهرُ للناسِ مِنْ تلك الأمور»(٢).

وأما الأمورُ الثلاثة التي دعا بها النبيُّ ﷺ في هذا الحديث، فهي:

أَوَّلًا: قوله: **(اللَّهُمَّ، اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالبَرَدِ)**:

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذا الحديثِ مِنَ الفقه: أنَّ الداءَ يُدَاوَى بِضِدِّهِ؛ فإنَّ في الخطايا مِنَ الحرارةِ والحريقِ ما يُضَادُّهُ الثلجُ والبَرَدُ والماءُ البارد، ولا يقالُ: إنَّ الماءَ الحارَّ أبلغُ في إزالةِ الوَسَخِ؛ لأنَّ في الماءِ الباردِ مِنْ تصليبِ الجسمِ وتقويتِهِ ما ليس في الحارِّ، والخطايا تُوجِبُ أثرَيْنِ: التدنيسُ، والإرخاءُ، فالمطلوبُ مداواتُها بما يُنظِّفُ القلبَ ويصلِّبه، فذكرُ الماءِ الباردِ والثَّلْجِ والبَرَدِ إشارةٌ إلى هذَيْن الأمرَيْن»(٣).

ثانيًا: قوله: **(وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ)**؛ **أي:** نَظِّفْ قلبي مِنَ الذنوبِ كما نَظَّفْتَ الثوبَ الأبيضَ مِنَ الدَّنسِ؛ شَبَّهَ نظافةَ قلبِهِ مِنَ الذنوبِ بنظافةِ الثوبِ الأبيضِ مِنَ الدَّنَس؛ لأنَّ زوالَ الدَّنس في الثوبِ الأبيضِ أظهرُ، بخلافِ سائرِ الألوان؛ فإنه ربَّما يبقى فيه أثرُ الدَّنسِ بعد الغَسْل، ولم يظهرْ ذلك لمانعٍ فيه، بخلافِ الأبيض؛ فإنَّه يظهرُ كلُّ أثرِ

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٩٤٦)، و«مسند أحمد» (٤/ ٢٠).
(٢) «تحفة الذاكرين» (ص١٤٤).
(٣) «زاد المعاد» (٤/ ٢٩٣).

فيه، والقصدُ من هذا التشبيه أن يُنظِّفَ قلبَهُ مِنَ الذنوبِ كنظافةِ الثوبِ الأبيضِ المنظَّفِ مِنَ الدَّنَسِ، فلم يَبْقَ فيه أثرٌ ما.

ثالثًا: قوله: **(وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدتَ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ)**، **والمرادُ بالمباعدةِ هنا**: مَحْوُ ما حصَلَ مِنَ الخطايا، وتَرْكُ المؤاخذةِ بها، والوقايةُ مما لم يَقَعْ منها، وشَبَّهَ ذلك بِبُعْدِ المشرقِ والمغربِ مبالغةً في البعد؛ لأنه لا يُوجَد في المشاهداتِ أبعدُ مِمَّا بين المَشْرِق والمغرب، ولأنَّ الْتِقَاءَ المشرقِ والمغربِ مستحيلٌ، فكأنه أراد أنْ لَا يَبْقَى لها منه اقترابٌ بالكلية.

قال الكِرْمانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَحْتمِلُ أنْ يكونَ في الدعواتِ الثلاثِ إشارةٌ إلى الأزمنةِ الثلاثة؛ فالمباعَدَةُ للمستقبل، والتنقيةُ للحال، والغَسْلُ للماضي»(١).

❁ ❁ ❁

(١) «فتح الباري» (٢/ ٢٣٠).

٢٢٥

أَحَادِيثُ ٱلِاسْتِعَاذَةِ (٦)

٨ ـ عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **(تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جَهْدِ البَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ)**؛ رواه البخاري ومسلم[١].

وفي بعضِ رواياتِ الحديث: «كَانَ النبيُّ ﷺ **(يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ البَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ)**»[٢].

وهذا الحديثُ فيه التعوُّذُ باللهِ مِنْ أمورٍ أربعة:

الأول: (جَهْدُ البَلَاءِ)، وهو كلُّ ما يُصِيبُ المَرْءَ مِنْ شِدَّةٍ ومَشَقَّةٍ، وما لا طاقةَ له بِحَمْله، ولا يَقْدِرُ على دَفْعه.

الثاني: (دَرَكُ الشَّقَاءِ)؛ الدَّرَكُ: هو اللُّحُوقُ والوصولُ إلى الشيء، **والشَّقَاءُ:** نقيضُ السعادة، وهو الهلاك، أو ما يؤدِّي إلى الهلاك، ويكونُ ذلك في أمورِ الدنيا، وفي أمورِ الآخرة.

الثالث: (سُوءُ القَضَاءِ)؛ أي: سُوءُ المَقْضِيِّ، وهو ما يسوءُ الإنسانَ أو يُوقِعُهُ في المكروه، وهو عامٌّ في النفسِ والمالِ، والأهلِ والولدِ، والخاتِمَةِ.

الرابع: (شَمَاتَةُ الأَعْدَاءِ): ما يَنْكَأُ القلبَ، ويَبْلُغُ مِنَ النفسِ أشدَّ مبلغٍ، بفرحِ العدوِّ بِبَلِيَّةٍ تنزلُ بِمَنْ يعاديه.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٦٦١٦)، وهو عند مسلم رقم (٢٧٠٧)، مِنْ فعلِهِ ﷺ.
(٢) «صحيح البخاري» رقم (٦٣٤٧)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٧٠٧).

٩ ـ وعن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: «كان مِنْ دعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ: (اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وجَمِيعِ سَخَطِكَ)»؛ رواه مسلم[١].

قال الشوكاني رحمه الله: «استعاذَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ زوال نِعْمَتِه؛ لأنَّ ذلك لا يكونُ إلَّا عندَ عدمِ شُكْرِها والمضيِّ على ما تستحقُّهُ وتقتضيه؛ كالبخلِ بما تقتضيه النِّعَمُ على صاحبها مِنْ تأديةِ ما يجبُ عليه مِنَ الشُّكْرِ، والمواساةِ، وإخراجِ ما يجبُ إخراجُهُ.

واستعاذَ أيضًا رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ تَحوُّلِ عافيتِهِ سبحانَهُ؛ لأنَّه إذا كان قد اختصَّهُ اللهُ سبحانه بعافيته، فقد ظَفِرَ بخيرِ الدارَيْن، فإنْ تَحوَّلَتْ عنه، فقد أُصِيبَ بِشَرِّ الدارين؛ فإنَّ العافيةَ يكونُ بها صلاحُ أمورِ الدنيا والآخرة.

واستعاذَ ﷺ مِنْ فُجَاءَةِ نِقْمَةِ الله سبحانه؛ لأنه إذا انتَقَمَ مِنَ العبدِ، فقد أَحَلَّ به مِنَ البلاءِ ما لا يَقْدِرُ على دفعه، ولا يُسْتَدْفَعُ بسائرِ المخلوقين، وإنِ اجتَمَعُوا جميعًا، **والفُجَاءَةُ مِنْ فاجَأَهُ مُفَاجَأَةً**: إذا جاءَهُ بَغْتةً مِنْ غيرِ أن يَعْلَمَ بذلك.

واستعاذَ ﷺ مِنْ جميعِ سَخَطِهِ؛ لأنَّه سبحانه إذا سَخِطَ على العبدِ، فقد هلَكَ وخابَ وخَسِرَ، ولو كان السَّخَطُ في أدنى شيءٍ وبِأَيْسَرِ سببٍ؛ ولهذا قال الصادقُ المصدوق: **(وَجَمِيعِ سَخَطِكَ)**، وجاء بهذه العبارةِ شاملةً لكلِّ سخط»[٢].

١٠ ـ وعن زِيَادِ بنِ عِلَاقَةَ، عن عمِّه رضي الله عنه، قال: «كان النبيُّ ﷺ يقول: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ والأَعْمَالِ والأَهْوَاءِ)**»؛ رواه الترمذي[٣].

اشتَمَلَ هذا الحديثُ على الاستعاذةِ مِنْ ثلاثة منكرات:

---

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٧٣٩).

(٢) «تحفة الذاكرين» (ص٣٥١ ـ ٣٥٢) باختصار يسير.

(٣) «جامع الترمذي» رقم (٣٥٩١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٤٧٣).

أحدها: (مُنْكَرَاتُ الأَخْلَاقِ)، وهذا مِنْ بابِ إضافةِ الصفةِ إلى الموصوف؛ **أي**: الأخلاقُ المنكرةُ، واستعاذ منها ﷺ؛ لأنَّ الأخلاقَ المنكرة تكونُ سببًا لجلبِ كلِّ شرٍّ، ودفعِ كلِّ خير.

والثاني: (مُنْكَرَاتُ الأَعْمَالِ)؛ أي: الأعمالُ المُنْكَرَةُ، وهي الذنوبُ والمعاصي.

وقال بعضُ العلماءِ: المرادُ بالأخلاقِ: الأعمالُ الباطنةُ، **والمرادُ بالأعمالِ**: الأفعالُ الظاهرة[1]، فيكونُ قوله: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ والأَعْمَالِ)** استعاذةً مِنَ الذنوبِ ظاهرِها وباطنِها.

والثالث: (مُنْكَرَاتُ الأَهْوَاءِ): جمعُ هَوًى، واستعاذ ﷺ مِنَ الأهواءِ؛ لأنها هي التي تُوقِعُ في الشر، وتنشأُ عنها أنواعُ المخالفاتِ والانحرافات.

١١ ـ وعن عائشةَ ﵂، «أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ في دعائه: **(اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ مَا عَمِلْتُ وشَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ)**»[2].

وهذه الاستعاذةُ مِنَ الاستعاذاتِ الجامعةِ التي تَعُمُّ كلَّ شرٍّ مِمَّا عَمِلَهُ العبد، ومِمَّا لم يَعْمَلْه.

قال الشوكاني ﵀: «وقد استعاذَ ﷺ مِنْ شرِّ أعمالِهِ التي قد عَمِلَهَا، ومِنْ شَرِّ أعمالِهِ التي سَيَعْمَلُها، كما استعاذ ﷺ ـ في الرواية الأخرى ـ مِنْ شَرِّ الأمورِ التي يَعْلَمُها، ومِنْ شرورِ الأمور التي لا يَعْلَمُها؛ وهذا تعليمٌ منه ﷺ لأمتِهِ ليقتدوا به، وإلّا فجميعُ أعمالِهِ ـ سابقها ولاحقها ـ كلُّها خيرٌ لا شرَّ فيها، وجميعُ ما يَعْلَمُهُ ـ سابقُه ولاحقُه ـ هو مُيسَّرٌ ومعصومٌ مِنْ شَرِّه»[3].

وفي هذه الاستعاذةِ إشارةٌ إلى أنَّ ما يصيبُ العبدَ مِنَ الشرِّ إنما هو بسببِ ما عَمِلَتْهُ يداه، أو بسببِ ما عَمِلَتْهُ أيدي الناسِ وإنْ لم يكنْ هو العاملَ

(١) **انظر**: «تحفة الأحوذي» (١٠/ ٥٠).
(٢) «صحيح مسلم» رقم (٢٧١٦).
(٣) «تحفة الذاكرين» (ص٣٥١).

المباشرَ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفيها أيضًا: دَلَالةٌ على ضَعْفِ الإنسان، وشِدَّةِ افتقارِهِ إلى الله ﷻ في صلاحِ شؤونِهِ، واستقامةِ أمورِهِ، والوقايةِ مِنْ شرورِ نفسه، وسيئاتِ أعماله، وأنه لا غِنَىٰ له عن ربِّهِ وسَيِّدِهِ ومولاه طَرْفَةَ عَيْن؛ فإنه سبحانه وليُّ التوفيقِ والسداد، والهادي لِمَنْ يشاءُ مِنَ العباد، لا رَبَّ سواه.

وبهذا التعوُّذِ الجامعِ تَمَّ ـ بحمدِ اللهِ ـ ما أَردتُّ جَمْعَهُ في هذا الباب، ولله الحمدُ أَوَّلًا وآخِرًا، وله الشُّكْرُ ظاهرًا وباطنًا

﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]

وكان الفراغُ منه صَبِيحَةَ يَوْمِ الأحدِ الخامسَ
عَشَرَ، مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الآخرةِ، عامَ أَلْفٍ
وأربعمائَةٍ وخمسٍ وعشرينَ للهجرة
والحمدُ لله ربِّ العالمين
وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نبيِّنا
مُحَمَّدٌ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ
أجمعين

فِهْرِسُ الموضوعاتِ

موضوع | صفحة

موضوع صفحة

موضوع | صفحة

موضوع | صفحة

موضوع | صفحة

موضوع | صفحة

موضوع | صفحة

سيصدر قريباً ـ إن شاء الله ـ من سلسلة منشوراتنا

- **وبل السحابة على نظم الصبابة في مدح المدينة طابة**: للشيخ د. سعود الشريم.
- **فقه الأسماء الحسنىٰ**: للشيخ د. عبد الرزاق البدر.
- **الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ**: للشيخ عبد الهادي وهبي.
- **جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في باب أسماء الله الحسنىٰ**: للشيخ د. أرزقي سعيدي.
- **أسماء الله الحسنىٰ**: للشيخ د. عبد الله بن صالح الغصن.
- **الشيخ حمود بن عبد الله التويجري وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف**: للشيخ د. عبد الله الشيخ.
- **صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان**: للشيخ محمد السهسواني، تحقيق: الشيخ د. محمد تيقمونين.
- **الاختيارات الفقهية**: للشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، اعتنى به: الشيخ خالد العجمي.
- **الانتصار للنبي المختار ﷺ**: للشيخ د. سليمان العربي بن صفية.
- **تسكين النفس عند البلاء**: لمجموعة من العلماء.
- **شرحُ شرحِ قطر الندى**: لابن هشام، د. حسن الحفظي.
- **القواعد والضوابط الفقهية عند ابن تيمية في فقه الأسرة**: للشيخ د. محمد الصواط.
- **مهارات محكمي مسابقات القرآن الكريم (قارئو القرآن الكريم ومُقرِئُوهُ)**: للشيخ إبراهيم الأخضر.
- **تربية النبي ﷺ لأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ**: للشيخ د. خالد القرشي.
- **الإخلاص طريق الخلاص**: للشيخ عبد الهادي وهبي.
- **كتاب العزلة**: للخطابي، تحقيق: الشيخ الشبراوي بن أبي المعاطي.
- **كتاب الرسالة**: للإمام الرحالة محمد الأصبهاني المعروف بالدقاق، تحقيق: الشيخ د. جمال عزون.